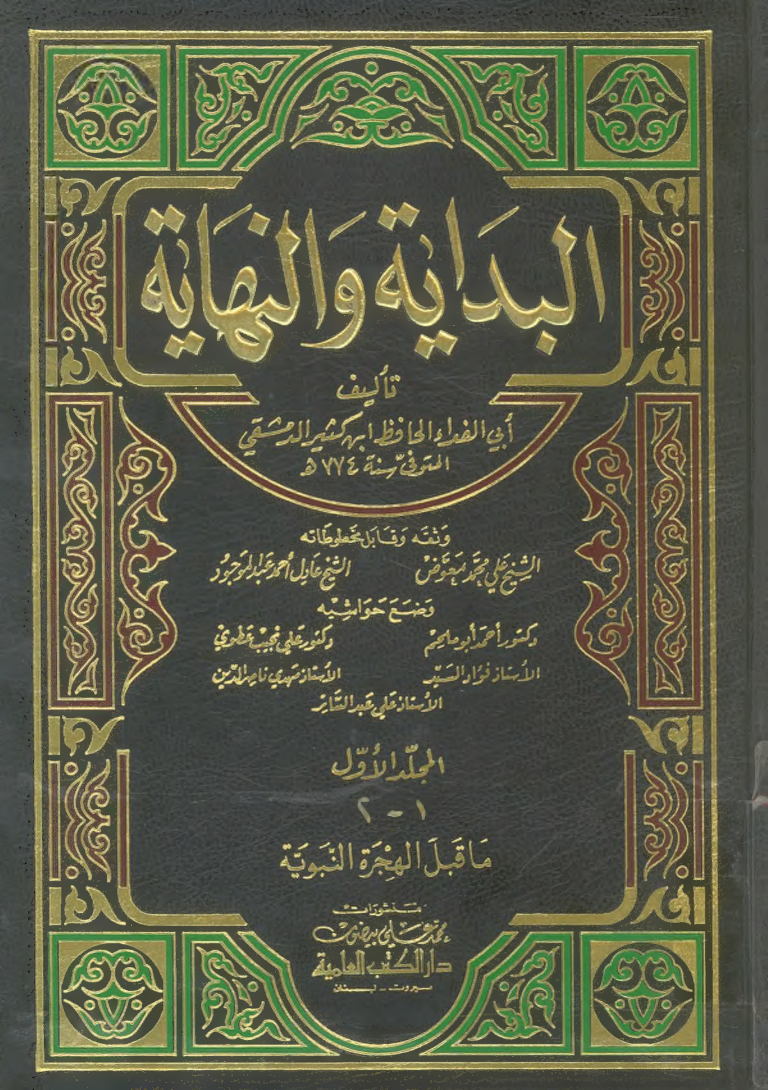
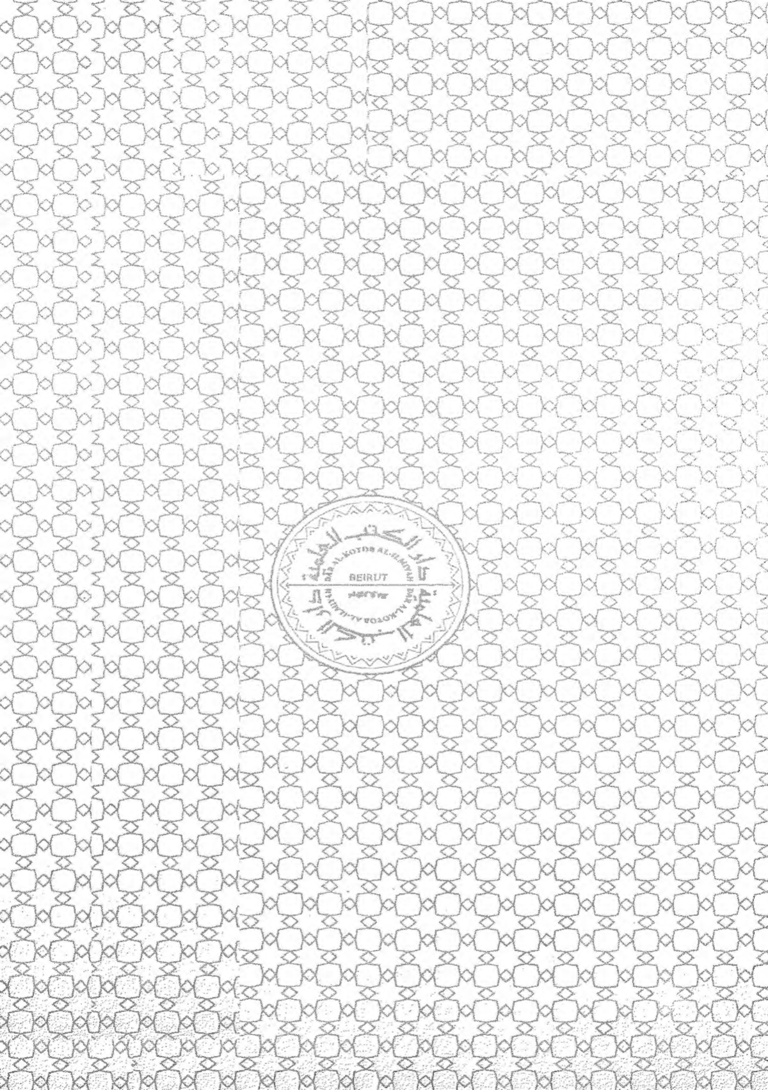
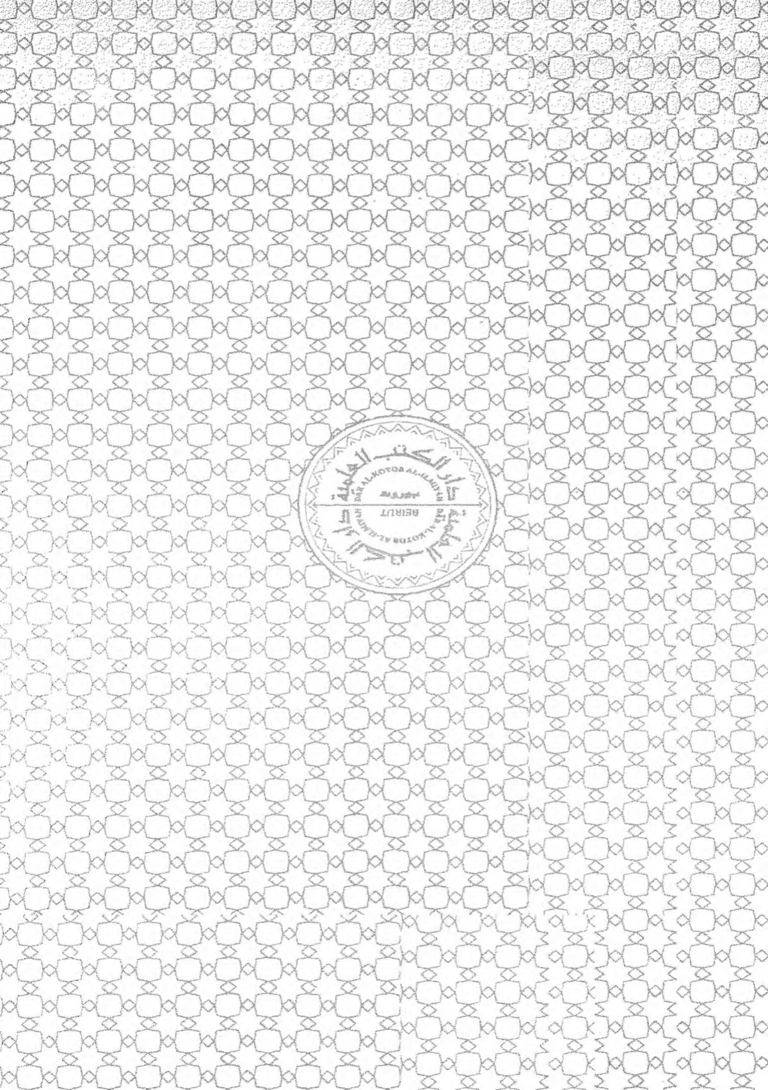

البداية والنهاية
تأليف
أبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤ هـ
وثقه وقابل مخطوطاته
الشيخ علي محمد معوض
الشيخ عادل أحمد عبد الموجود
وضع حواشيه
دكتور أحمد أبو ملحم
دكتور علي نجيب عطوي
الأستاذ فؤاد السيد
الأستاذ مهدي ناصر الدين
الأستاذ علي عبد الساتر
المجلد الأول
١ - ٢
ما قبل الهجرة النبوية
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان


دار الكتب العلمية
DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
BEIRUT


دار الكتب العلمية
DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
BEIRUT

البداية والنهاية

V.1-2

تأليف

أبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي

المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

وثقه وقابل مخطوطاته

الشيخ علي محمد معوض — الشيخ عادل أحمد عبد الموجود

وضع حواشيه

دكتور أحمد أبو ملحم — دكتور علي نجيب عطوي

الأستاذ فؤاد السيد — الأستاذ مهدي ناصر الدين

الأستاذ علي عبد الساتر

الجزء الأول

المحتوى: ما قبل الهجرة النبوية

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



الطبعَة الأولى

١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م

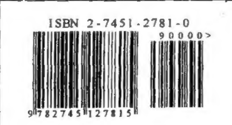
دار الكتب العلميـة

بيروت ـ لبنان

رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ ـ ١١ بيروت ـ لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban



ISBN 2-7451-2781-0

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

(أ) الحياة السياسية

تمهيد:

شهد القرن السابع الهجري تحولات جذرية في الحياة السياسية، ففي سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م أناخ التتار على بغداد وقتلوا ألفي ألف نفس من مسلميها[١]. قاد هولاكو جد ملوك التتار[٢] مائتي ألف مقاتل، واجتاح بهم البلاد حتى وصل بغداد التي لم تجد من يدافع عنها سوى عشرة آلاف فارس، هم بقية الجيش، بعد أن صرف الجنود عن إقطاعاتهم، واستعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد[٣]؛ حامت الشبهات حول الوزير ابن العلقمي محمد بن أحمد بن محمد بن علي بن أبي طالب، وزير المستعصم[٤]، من حيث علاقته بالتتار وتعاطفه مع هولاكو.

(١) **الخلافة**: أنهى التتار الخلافة العباسية في بغداد بقتلهم المستعصم[٥] آخر خلفاء بني العباس في بغداد. وقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، وقد بلغ عدد قتلى بغداد ألفي ألف نفس[٦]، ولم ينج من بغداد سوى القلة بالإضافة إلى أهل الذمة، ومن التجأ إلى دار ابن العلقمي وطائفة من التجار. استمر القتل أربعين يوماً. وقتل مع الخليفة ابنه الأكبر أبو العباس أحمد والأوسط أبو الفضل عبد الرحمن، وأسر ولده الأصغر مبارك بالإضافة إلى أخواته الثلاث، وأسر من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب ألف بكر. وكان الرجل يؤتى به من دار الخلافة من بني العباس فيخرج بأولاده ونسائه فيذهب به إلى مقبرة الخلال فيذبح كما تذبح الشاة ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه. وخلت الخلافة مدة ثلاث سنين حتى ظهر أبو القاسم أحمد بن الظاهر، وهو أخو الخليفة المستنصر بالله وعم الخليفة المستعصم بالله آخر خلفاء بغداد. كان معتقلاً ببغداد فأطلق، ثم قصد الظاهر[٧] الذي

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢١٥. (٢) المصدر عينه، ص ٢٦٢.

(٣) المصدر عينه، ص ٢١٣. (٤) المصدر عينه، ص ٢٢٥.

(٥) المستعصم بالله: أبو أحمد عبد الله ابن المستنصر بالله، ولد سنة ٦٠٩هـ، بويع بالخلافة سنة ٦٤٠هـ وكان مقتله سنة ٦٥٦هـ عن سبع وأربعين سنة. وقضى بالخلافة خمسة عشر عاماً.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية ج ١٣، ص ٢١٦.

(٧) الظاهر هو ركن الدين بيبرس البندقداري، لقبوه بالملك الظاهر بعد قتله السلطان الملك المظفر قطز، فدخل مصر وجلس على عرشها سنة ٦٥٨هـ. استقرت الأمور في يده بعدما تداول على الشام في سنة واحدة الناصر ابن العزيز ثم هولاكو، ثم المظفر بيبرس. وقد شركه فيها سنجر باسم المجاهد وأخيراً استقل هو بالأمور.

سيطر على مصر والشام وشبه الجزيرة العربية. بايعه القاضي أولاً ثم الظاهر والوزير والأمراء باسم المستنصر بالله وذلك سنة ٦٥٩هـ باسم أخيه باني المدرسة المستنصرية. «ثم ولى الخليفة الملك الظاهر السلطنة فألبسه خلعة سوداء وطوقاً في عنقه وقيداً في رجليه وهما من الذهب، وقرأ رئيس الكتّاب تقليد السلطان»(١). ثم حاول الخليفة استرجاع بغداد «فجهزه السلطان بألف ألف دينار»(٢).

فقتل الخليفة في الثالث من محرم سنة ٦٦٠هـ. على أيدي التتار وانهزم جيش الظاهر وشغرت الخلافة سنة حتى تمت بيعة الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد بن أبي علي القبي بن علي بن أبي بكر بن المسترشد بالله أمير المؤمنين بعد ثبوت نسبه في الثاني من محرم سنة ٦٦١هـ(٣) واستمر في الخلافة أربعين سنة حتى توفاه الله سنة ٧٠١هـ. فتولى الخلافة من بعده ابنه المستكفي بالله. وظل في الخلافة حتى اعتقله السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٧هـ ومنعه من الاجتماع بالناس وبقي معتقلاً حتى توفي سنة ٧٤٠هـ، وتولى الخلافة بعده المعتضد بالله الذي استمر حتى سنة ٧٦٣هـ فتمت مبايعة المتوكل على الله.

وللدلالة على ضعف الخليفة نذكر أن المستكفي بالله (٧٤٠هـ) كان قد عهد بالخلافة من بعده لابنه أحمد أبي الربيع، إلا أن الناصر لم يمكنه من ذلك فولّى مكانه في دست الخلافة أبا إسحاق إبراهيم بن أبي أبي الربيع، ولقّبه الواثق وخطب له بالقاهرة جمعة واحدة. ثم عزله المنصور وأقرّ أبا القاسم خليفة ولقبه المستنصر بالله. ومهما يكن من أمر فقد كان الخلفاء العباسيون في القاهرة أحسن حالاً من وضعهم في بغداد ففي أسوأ الحالات كان يكتفي السلاطين بنفي الخلفاء أو عزلهم ولم يصل السوء بهم إلى السمل والفقء والقتل وقطع الأعضاء.

ويظهر من متابعة الأحداث أن الخليفتين الأولين برزا على مسرح العمل بقيادتهما لحملات ترمي لاستعادة بغداد من التتار. أما خلفاؤهم فلم يعد من مبرر لذكر أسمائهم عند تعيين السلاطين إذ لا شأن لهم بذلك. وبقيت الخلافة رمزية حتى مجيء السلطان سليم العثماني سنة ١٥١٧م إلى القاهرة فاستولى على الخلافة فيها مدعياً أن آخر خليفة قد تنازل له عنها.

(٢) **السلطنة**: تعاقب على سلطنة بلاد مصر والشام والحرمين ما يزيد على واحد وعشرين سلطاناً في قرن من الزمن ٦٧٦ ـ ٧٧٦هـ. من هنا نتبين اضطراباً في السلطنة وضعفاً حتى غدا السلطان في معظم الأحوال ألعوبة بأيدي كبار الأمراء والقوّاد من الأتراك. وأشبه وضع السلطنة حال الخلافة فأصبح المركزان رمزيين وانتقلت السلطة الفعلية إلى الأمراء ونواب السلطنة الذين تلاعبوا بالسلاطين يعزلون من يشاؤون وينصبون من يشاؤون. فكم من سلطان نصب وهو صغير السن. فهذا الملك المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجي «يتولى السلطنة وهو ابن اثنتي عشرة سنة»(٤) وهذا شعبان بن حسين «يتولى السلطنة ولا يزيد عمره على عشر سنين»(٥).

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٤٥.

(٢) المصدر عينه، ص ٢٤٥. (٣) المصدر عينه، ص ٢٥٠.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٢٩١.

وبعد مقتل الأشرف تم الرأي على تنصيب الناصر محمد «وكان عمره إذ ذاك ثماني سنين»[١]. وقد ينام الأمير معتقلاً ويصبح سلطاناً ثم ينام معتقلاً من جديد كما حصل مع حسين الناصر عندما ملكته طائفة من الجيش بمصر ثم اختلفوا فيما بينهم واقتتلوا، وانفصل الأمر ورد حسين للمحل الذي كان معتقلاً فيه[٢]. ويبلغ الأمر حداً لا يطاق عندما يحلم مملوك ينهشه القمل وتراكم الأوساخ عليه بتولي السلطنة ويتحقق حلمه دون تعب كما حصل مع السلطان قطز[٣].

(٣) **أهم الأحداث السياسية**: يأتي اجتياح التتار للشرق الأوسط بالتناغم مع الفرنج والقضاء على ما تبقى من رموز الخلافة العباسية ووحدة البلاد. وبعد عملية الاجتياح ـ النكبة الكبرى التي حلّت ببغداد ودمشق على وجه الخصوص بدأت عملية التدجين للغالبين. فأسلم ملوك التتار وتأرجحوا بين السنة والشيعة. وغدا ملوكهم كبقية ملوك المنطقة يقيمون المحاور، فيقاتلون ملوك الروم حيناً ويحالفونهم طوراً في وجه الدولة المملوكية ثم يتبادلون الهدايا مع ملوكهما.

الحدث الثاني: متابعة تطهير البلاد من آثار الحملات الصليبية. فحرر الظاهر بيبرس قيسارية وأرسوف ويافا والشقيف وأنطاكية وطبرية والقصير وحصن الأكراد وحصن عكا والغرين وصافيتا، وناصفهم على المرقب وبانياس وبلاد انطرسوس، كما حرر سيف الدين قلاوون مدينة طرابلس. وحرر الأشرف خليل بن قلاوون عكا كما سلمت صور وصيدا قيادتهما إلى الأشرف فتحرر الساحل بالجملة من الفرنج.

الحدث الثالث: نهاية التتار عام ٧٣٦هـ. عندما مات ملكهم أبو سعيد خربندا بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تول بن جنكيزخان. ويصفه ابن كثير «بأنه كان من خيار ملوك التتار وأحسنهم طريقة وأثبتهم على السنة وأقومهم بها. وقد عز أهل السنة بزمانه وذلت الرافضة بخلاف دولة أبيه، ولم يقم للتتار قائمة من بعده، بل اختلفوا فتفرقوا شذر مذر[٤] وكان ابن كثير قد قال في مكان آخر: «إن أبا سعيد قام بالملك من بعد أبيه خربندا، وله إحدى عشرة سنة، فعدل إلى العدل وإقامة السنة، فسكنت الفتن والشرور والقتال...»[٥].

بالإضافة إلى مفارقة لا نسميها حدثاً نعني بها تلك الصلات التي كانت تقوم بين الجماعات والدول الإسلامية من جهة والفرنج من جهة أخرى.

من ذلك «تسليم الصالح إسماعيل صاحب دمشق حصن شقيف أرنون لصاحب صيدا الفرنجي، فاشتد الإنكار عليه بسبب ذلك من الشيخ عز الدين بن عبد السلام خطيب البلدة، والشيخ أبي عمرو بن الحاجب شيخ المالكية، فاعتقلهما مدة ثم أطلقهما وألزمهما منازلهما»[٦].

---

(١) المصدر عينه، ص ٣١٩. (٢) المصدر عينه، ج ١٣، ص ٣٥٤.
(٣) المصدر عينه، ج١٤، ص ٢٩١. (٤) المصدر عينه، ج١٣، ص ٢٣٥.
(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١٨٢. (٦) المصدر عينه، ص ٧٩.
(٧) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٦٦.

ومن ذلك أيضاً قيام حلفين. ضم الحلف الأول: «الفرنج والصالح إسماعيل صاحب دمشق والناصر داود صاحب الكرك والمنصور صاحب حمص. وضم الحلف الثاني الخوارزمية والصالح أيوب صاحب مصر»[١]. ودارت الدائرة على الفرنج وحلفائهم من المسلمين.

وفي فترة ثانية انقلبت التحالفات. فضم الحلف الأول الفرنج والجيش المصري وضم الحلف الثاني صاحب الشام والخليفة العباسي في بغداد. فأرسل الخليفة «الشيخ نجم الدين البادرائي بين صاحب مصر وصاحب الشام، وأصلح بين الجيشين، وكانت الحرب قد اشتدت بينهم، وقد مالأ الجيش المصري الفرنج ووعدهم أن يسلم إليهم بيت المقدس إن نصروهم على الشاميين»[٢].

كما كانت تتهم طائفة بممالأة الفرنج، كما حصل مع الأشرف خليل عندما أرسل حملة «نحو جبل كسروان والجرد بسبب ممالأتهم الفرنج قديماً على المسلمين، وكان مقدم العساكر بندار وفي صحبته سنقر الأشقر»[٣].

كما كان ملوك الإسلام يتبادلون الهدايا مع الفرنج كما حصل عندما قدم رسول «الإمبرور ملك الفرنج إلى الأشرف ومعه هدايا منها دب أبيض وشعره مثل شعر الأسد»[٤].

لقد كانت هذه الصلات والمحاور بين الفرنج وبعض الحكام شاذة إذا قيست بالعداء القائم والجهاد الدائم ضد العدو الذي احتل البلاد. ولا يخفى أن مبرر الصلات كان الاستقواء بالعدو ضد الإخوة نتيجة النزاعات على السلطة. فكانت الحاجة للدفاع عن المصالح مبرراً لهذه التحالفات المشبوهة.

(٤) **الخوف: الفتن والنكبات**: سمة العصر الخوف والذعر. الخوف من التتار وقد تلاحقت موجاتهم سنوات عديدة. فهذا ابن كثير يصف الهلع الذي أصاب الناس إثر الحديث عن اقتراب التتار، يقول: «وردت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام، وأنهم عازمون على دخول مصر، فانزعج الناس لذلك وازدادوا ضعفاً على ضعف وطاشت عقولهم وألبابهم، وشرع الناس في الهرب إلى بلاد مصر والكرك والشوبك والحصون المنيعة، وبيع الجمل بألف والحمار بخمسمائة وبيعت الأمتعة والمغلات بأرخص الأثمان. . . ونودي في البلاد: لا يسافر أحد إلا بمرسوم وورقة. . ثم جاءت الأخبار بأن سلطان مصر رجع عائداً إلى مصر بعد أن خرج منها قاصداً الشام، فكثر الخوف واشتد الحال. . وقد ضعفت الدواب من قلة العلف مع كثرة الأمطار والزلق والبرد الشديد والجوع وقلة الشيء. . »[٥].

كانت فظائع التتار تبرر هذا الذعر، فلقد ذبحوا الملايين وخربوا الدور والقصور ونهبوا البيوت وقلعوا الأشجار. وهذا ابن كثير يصف وصول التتار «القطيعة»، قائلاً: «عندما وصل

(١) المصدر عينه، ج ١٣، ص ١٧٥ ـ ١٧٦.
(٢) المصدر عينه، ص ١٩٦.
(٣) المصدر عينه، ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧.
(٤) المصدر عينه، ص ١٥١.
(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١٥ ـ ١٦.

التتار القطيعة بالقرب من دمشق، لم يبقَ حول القرى والحوافر أحد، وامتلأت القلعة والبلد، وازدحمت المنازل والطرقات.. وبقي البلد بلا حاكم، وجاس اللصوص والحرافيش فيه وفي بساتين الناس يخربون وينتهبون ما قدروا عليه، ويقطعون المشمش قبل أوانه والباقلاء والقمح وسائر الخضراوات»[١].

ولم يكن الذعر من التتار بكاف فلقد تكاتف هؤلاء والفرنج، فما لم يفعله التتار أنجزه الفرنج، فها هم يغزون الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ ويأسرون أربعة آلاف وينهبون كل ما أمكن نقله إلى الشوائن في عرض البحر. وكان البكاء والعويل والشكوى «والجأر إلى الله والاستغاثة ما قطع الأكبار، وذرفت له العيون وأصم الأسماع...»[٢].

ولم يكن الخوف من الأعداء القادمين من الخارج وحده يسيطر على الناس. فكان الخوف أيضاً من الفتن الداخلية، كالفتنة العمياء التي وقعت بين الحنابلة والشافعية بسبب العقائد، وترافعوا إلى دمشق فحضروا بدار السعادة عند نائب السلطنة تنكز فأصلح بينهم...[٣].

وكان للعصابات دور في ترويع الآمنين. فما كان يضطر الوالي لحشد جيش للتصدي لهذه العصابات كما كان الحال مع «شنكل منكل الذي تصدى لعصابة في حوران وكسرهم وعلق رؤوسهم على أسوار بصرى عبرة»[٤].

وكأن الخوف من الفتن والحروب والعصابات ليس بكافٍ فتكاثرت في هذا العصر نكبات الطبيعة فالجراد ينتشر بين الفينة والفينة يأكل الزرع والثمار ويجرد الأشجار حتى صارت كالعصي وقد «يتلف للناس شيئاً كثيراً وينشر الموت».

وتضافرت الزلازل إلى جانب الجراد لتكسير المراكب، وتهديم الدور وموت خلق كثير لا يعلمهم إلا الله....

بالإضافة إلى الزلازل كانت تحدث الفيضانات والسيول من حين إلى آخر «فتتلف المدن وتهلك الخلق» ويفيض «النيل ويغرق بلاداً كثيرة، ويهلك كثيراً...». أضف إلى الطاعون الذي كان يرتاد هذه البلاد من وقت إلى آخر، فيموت بسببه الملايين من الناس، ويقضي على كل همة ونشاط.

(ب) الحياة الاقتصادية

الأسعار والمصادرات والضرائب: كان الوضع السياسي مضطرباً، والتجارة الخارجية أضحت بأيد غريبة بعدما سيطرت أوروبا على حوض البحر الأبيض المتوسط بغزوها سواحل الشام وسيطرتها عليها ما يزيد على قرنين من الزمن والزراعة في تأخر نتيجة عدم الاستقرار السياسي وعدم متابعة حفر القنوات وجر المياه إلى السهول وتعمير الأرض بالإضافة إلى أن عدد

(١) المصدر عينه، ص ٢٤. (٢) المصدر عينه، ج١٤، ص ٣٢٨.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٧٧.
(٤) المصدر عينه، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

القرى والمدن بدأ يتضاءل نتيجة الأوبئة والجوع وعدم الاستقرار. لذلك تزايدت المصادرات لجمع الأموال الكافية لشن الحروب ولملء جيوب الأمراء الذين يتكاثرون يوماً بعد يوم مع قلة الموارد. وعندما يتم الانقلاب «يصادر الأمراء الذين هزموا ونواب السلاطين الذين عزلوا، والكتاب الذين كتبوا لهم. وربما كان طلب الأموال من عامة الشعب»[1] وقد يطلب نائب السلطان «تحصيل الضرائب عن ثلاث سنوات سلفاً، أو أربعة أشهر عن جميع أملاك الناس»[2].

الاضطراب السياسي وضعف التجارة وضعف الإنتاج أدت إلى الغلاء، فقد «بيع الخروفان بخمسمائة درهم»[3]. وبلغت الغرارة مائتين وعشرين، وربما قل الخبز وبيع خبز الشعير المخلوط بالزوان والنقارة، وبيع رطل الزيت بأربعة ونصف ومثله الصابون والأرز ولا شيء قريب الحال سوى اللحم بدرهمين وربع. وبيع مد القمح المغربل بأربعة دراهم. وبيع الدبس بما فوق المائتي قنطار، والأرز بأزيد من ذلك[4].

إلا أن عهد الناصر عرف بعض الانتعاش إذ «أطلق السلطان الناصر سنة ٧٢٤هـ مكس الغلة بالشام المحروس جميعه، فكثرت الأدعية للسلطان»[5].

كما أطلق نائب السلطنة مكوسات كثيرة مع مكس الحواية والحلب والطبابي، وأبطل ما يؤخذ من المحتسبين زيادة على نصف درهم وما يؤخذ من أجرة عدة الموتى.. وكذلك منع التحجر في بيع البلح.. فرخص على الناس.. حتى قيل إنه بيع القنطار بعشرة دراهم..[6]. وبعده «أبطل مكس الملح وأبطل مكس الأفراح»[7]. كذلك «رفع الشطر من مكس الغنم كما طرح مكس القطن المغزول البلدي والمحلوب ففرح الناس»[8].

وعرف العصر بعض البذخ في إطار قصور السلاطين، في حين كان الشعب يتضور جوعاً. ففي شعبان سنة ٧٣٢هـ. كان عرس أنوك محمد ابن السلطان الملك الناصر على بنت الأمير سيف الدين بكتمر الساقي وكان جهازها بألف ألف دينار، وذبح في هذا العرس من الأغنام والدجاج والإوز والخيل والبقر نحواً من عشرين ألفاً وحملت حلوى بنحو ثمانية عشر ألف قنطار، وحمل له من الشمع ثلاثة آلاف قنطار[9].

(ج) الحياة العقلية

ساق الجاحظ النكات حول المعلمين وتحدث عما تعانيه هذه الطبقة في زمن عرف رواج العلم فكيف بزمن كسد فيه العلم وأهله.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١٧٧.
(٢) المصدر عينه، ج١٤، ص ١٥.
(٣) المصدر عينه، ص ١٧.
(٤) المصدر عينه، ص ١٨٣ و١٧ و٢١٩ و٢٢٠ و٣٢٣ .
(٥) المصدر عينه، ج١٤، ص ١١٥.
(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١٩٠.
(٧) المصدر عينه، ص ٢٩٣.
(٨) المصدر عينه، ص ٣٢٧.
(٩) المصدر عينه، ص ١٦٥.

وللدلالة على سوء حال المعلمين في العصر الذي نحاول إبراز أهم مميزاته، نسجل ما ذكره ابن كثير في ترجمته للشيخ محمد بن جعفر بن فرعوش، قال: «كان يقرىء الناس بالجامع نحواً من أربعين سنة، وقد قرأت عليه شيئاً من القراءات، وكان يعلم الصغار الحروف المتقنة كالراء ونحوها. . . لا يقتني شيئاً، وليس له بيت ولا خزانة، وإنما كان يأكل في السوق وينام في الجامع. . .»[1]

وتتضح الصورة أكثر إذا عرفنا أن «راتب الطالب في المدرسة بلغ عشرة دراهم في الشهر وراتب المعيد عشرين درهماً، وراتب المدرس ثمانين درهماً»[2]. في حين أن «ثمن الخروف بلغ خمسين ومائتين درهماً»[3] أي ما يعادل ثلاثة أضعاف راتب المعلم في الشهر. ولعل القاعدة الذهبية أن سوق العلم تلقى الكساد في زمن الانحطاط.

(١) سمات العصر:

فما هي أهم المميزات العقلية بهذا العصر:

(١) مراكز العلم: تحولت مراكز العلم إلى دمشق والقاهرة بالإضافة إلى القدس والاسكندرية وحماة وحلب وحمص وأسيوط والفيوم بدل بغداد والبصرة والكوفة والمدينة فكثرت ألقاب: الدمشقي والحلبي والقاهري والفيومي والاسكندري والمقدسي والحموي والسيوطي والحمصي.. وحاولت القاهرة أن تلعب دور بغداد فقصدها الأدباء والعلماء.

(٢) رعاية العلم والأدب: تحول اهتمام ذوي السلطة عن رعاية العلم والأدب، وذهب العصر الذي كان يكافأ فيه الكاتب بزنة الكتاب ذهباً. وقلما اهتم السلاطين والأمراء والوزراء والخلفاء بطلب العلم وتشجيع العلماء أو التلذذ بسماع الشعر. كيف يتلذذون بالأدب العربي وهم لا يكادون يتقنون اللغة العربية. خلا تشجيع بعضهم للتأريخ فألفت لبعضهم الكتب التاريخية والموسوعات الكبرى.

(٣) نضج علم التاريخ والعمران البشري فكانت مقدمة ابن خلدون القمة في هذا الباب. وقد عرف ابن خلدون قدره في الاستنباط فقال: «فليس على مستنبط الفن إحصاء مسائله وإنما عليه تعيين موضع العلم وتنويع فصوله. والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئاً فشيئاً إلى أن يكمل». وظهرت علوم سياسية وإدارية وحربية.

(٤) قلّت المكتبات الكبرى لأن المغول والتتار أحرقوها وأغرقوها أثناء الاجتياح، كذلك فعل الإسبان في الغرب عندما احتلوا الأندلس. كذلك أتلفت كتب كثيرة بسبب الخلافات بين الفرق الإسلامية، كما فعل محمود الغزنوي عندما أحرق كتب المعتزلة. ولكن الطامة الكبرى كانت مع التتار الذين يقتلون الناس ويهدمون المباني ويحرقون الكتب ويتلفون كل ما لا يستطيعون حمله.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١١٨.

(٢) المصدر عينه، ص ٣٣٦. (٣) المصدر عينه، ص ٣٢٥.

(٥) كلما اشتدت المحن لجأ الناس إلى الدين.

تراجع العرب في الغرب واستعاد الإسبان الأندلس وأغرق المغول البلاد بموجات متلاحقة، وتقاسم المغول والأتراك والبربر البلاد عدا إمارات ودويلات صغيرة احتفظت بسلطات عربية، كما هو الحال في اليمن والمغرب العربي. فاتجه الناس نحو الدين لعله ينقذهم مما هم فيه. فتقهقرت معظم العلوم إلى نقطة الانطلاق وانحرف بعضهم إلى الخرافات والأساطير كما هو الحال مع علوم الفلك والنجوم والكيمياء.

(٦) تكاثرت المدارس في مصر والشام أي في خلال سلطنة المماليك. في حين انحسرت في ظلال سلطة المغول الممتدة بين الهند وسوريا.

لقد أحصيت في الجزء الرابع عشر من البداية والنهاية ذكر ما يزيد على ثمانين مدرسة جلّها في الشام والباقي في القدس وحلب وبعلبك وحمص وحماة والقاهرة. ولم يهتم ابن كثير بذكر مدارس القاهرة ربما لأن هذا الكتاب هو ذيل الذيل على تاريخ دمشق لابن عساكر. وما يلفت الانتباه أن هذه الكثرة في المدارس لا تتناسب مع طبيعة العصر المتسم بالانحطاط في مختلف ميادين الحياة، إلا أن هذه الظاهرة لها ما يبررها في هروب العديد من كبار المشايخ والعلماء أمام اجتياح المغول إلى الشام ومصر، ويبررها أيضاً كثرة الأوقاف بدءاً من نور الدين زنكي لصالح المدارس وثالثاً بسبب التنافس بين المذاهب الشافعية والحنفية والحنبلية والمالكية. هذه الأسباب الثلاثة أدت إلى كثرة عدد المدارس، ولكن في الوقت عينه وجه هَمّ المدارس إلى تدريس القرآن والحديث وأقلها التفت إلى الطب وعلوم اللغة والعلوم الأخرى.

(٧) التعليم يؤهل المعلمين للمناصب الكبيرة:

تدرج كثير من المعلمين في مناصب القضاة والمفتين والخطباء والشيوخ والأئمة ووكلاء بيوت المال، ونظار الخزائن، ونظار الأحباش وشاذّي الدواوين، وأولياء الحسبة ونظار الأيتام، والكتبة ونظار الأوقاف، وأصحاب ديوان الاستخلاص بالإضافة إلى مناصب الوزارة والنيابة وغيرها من مراكز السلطة.

ترجمة ابن كثير

ـ شخصيته: نسبه، مولده، نشأته، صفاته.

ـ مكانته العلمية، شيوخه، مؤلفاته، موقع البداية والنهاية، أسلوبه.

(١) **شخصيته**: اسمه: إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن كثير بن درع القرشي من بني حصلة، وهم ينتسبون إلى الشرف وبأيديهم نسب، وقف على بعضها «شيخنا المزي فأعجبه وابتهج ﷺ، فصار يكتب في نسبي بسبب ذلك: القرشي»[١] وهذا عندي أصح نسبة، لأنها وردت على لسان ابن كثير في تاريخه «البداية والنهاية» لذا سنضرب صفحاً عن الاختلافات[٢] في الاسم والنسب، لأن أهميتها تنتفي أمام تصريح صاحب العلاقة.

مولده:

ولد سنة إحدى وسبعمائة كما خط في البداية والنهاية[٣] وقطع بذلك الاختلافات حول تقدير سنة ولادته[٤] وقريته (مجدِل) من أعمال «بُصرى»، مسقط رأسه، وقد ورد اسمها «مجيدل» في البداية والنهاية[٥]، ولعل ذلك وقع تصحيفاً.

والده: الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير، من قرية يقال لها «الشركوين» غربي «بصرى»، بينها وبين أذرعات، ولد سنة أربعين وستمائة، واشتغل بالعلم عند أخواله بني عقبة.. كان يقول الشعر الجيد، وقرأ بمدارس «بُصرى» بمنزل الناقة، ثم انتقل إلى خطابة القرية التي تقع شرقي «بصرى»، وتمذهب للشافعي وأخذ عن النووي والفزاوي. أقام بها نحواً من اثنتي عشرة سنة، ثم تحول إلى «مجدل» حيث تزوج وأنجب عبد الوهاب وعبد العزيز وإسماعيل وأخوات عدة بعد إسماعيل الأول ويونس وإدريس، وقد وردت ترجمة مستفيضة

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٣٢.
(٢) (أ) ـ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣٩٩، ٣٧٧.
(ب) ـ الداودي، طبقات المفسرين، ج ١، ص ١١٠.
(ج) ـ الذهبي، طبقات الحفاظ، ص ٥٧.
(د) ـ الزركلي، الأعلام، ج ١، ص ٣٢٠.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٢٢ .
(٤) (أ) ـ ابن كثير، عمدة التفسير (المقدمة)؛ ج ١، ص ٢٢.
(ب) ـ الزركلي، الأعلام، ج ١، ص ٣٢٠.
(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٣٢.

لوالده في البداية والنهاية[١].

توفى الله والد ابن كثير سنة ٧٠٣ هـ في قرية مجيديل ولعل الأصوب «مجيدل» وكان إسماعيل إذ ذاك ابن ثلاث سنين أو نحوها.

(٢) **نشأته**: انتقل عبد الوهاب شقيق ابن كثير بالعائلة سنة (٧٠٧هـ) إلى دمشق، وقد كان «لنا شقيقاً، وبنا رفيقاً شفوقاً»[٢] لقد نشأ ابن كثير في القرن الثامن الهجري في ظل دولة المماليك، شهد هجوم التتار، ومجاعات كثيرة، وأوبئة فادحة الأخطار، حصدت مع المجاعات الملايين من الناس، كما شهد الحروب مع الفرنج (الصليبيين)، وكثرة المؤامرات والفتن بين الأمراء. ومع ذلك كان يسود هذا العصر نشاط علمي، تمثل في كثرة المدارس، وكثرة التأليف بسبب تنافس الأمراء وكثرة الأوقاف على العلماء والمدارس.

وفاته: كانت وفاته في يوم الخميس ٢٦ شعبان من سنة ٧٧٤هـ، وخرجت دمشق بجموع غفيرة لتشييع جنازته، ودفنه في مأواه الأخير بتربة شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية بمقبر الصوفية خارج باب النصر من دمشق حسب وصيته.

(٣) **شيوخه**: تمتع إسماعيل بن عمر بذكاء خارق هيأ له أن «يختم» ولم يتجاوز العاشرة من عمره. قال في وفاة الشيخ نور الدين علي بن أبي الهيجاء الكركي الشويكي الدمشقي الشافعي (٧٣٠هـ): «وكان معنا في المقرى والكتاب، وختمت أنا في سنة ٧١١هـ»[٣]. لقد درس على أيدي مئات الشيوخ إلا أن الذين أثروا به وتتبع خطاهم قلة نذكر على رأسهم الشيخ تقي الدين بن تيمية إذ كانت له به خصوصة، ومناضلة عنه، واتباع له في آرائه، وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق وامتحن بسبب ذلك وأوذي نصل إلى ذلك من خلال ما سطره ابن كثير في البداية والنهاية، وخاصة في أحداث النصف الأول من القرن الثامن الهجري.

في التاريخ: تأثر بالقاسم بن محمد البرزالي مؤرخ الشام المتوفى ٧٣٩هـ ووصل به التأثر حد التذييل على كتابه في التاريخ الذي هو بحد ذاته ذيل على تاريخ الشيخ شهاب الدين أبي شامة المقدسي.

وفي الحديث تأثر بالشيخ المزي يوسف بن عبد الرحمن جمال الدين المتوفى ٧٤٤هـ. وهو محدث الديار المصرية في عصره، وصاحب كتاب تهذيب الكمال، وسمع عليه أكثر تصانيفه، وتقرب منه حتى أحسن إليه، وتزوج من ابنته زينب، وأفاد منه كثيراً في الحديث ورجاله[٤].

كما أخذ الحساب عن الحاضري عن علاء الدين الطيوري عن الصدر علاء الدين علي بن

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٣٣.
(٢) المصدر عينه، ص ٤٨.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١٥٦ وص ٣٢٦.
(٤) أ ـ ابن كثير، البداية والنهاية ج ١٤، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.
ب ـ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٤، ص ٤٥٧.

معالي الأنصاري الحراني الحاسب المعروف بابن الزوين والذي كانت وفاته سنة ٧٠٥هـ.

ومن شيوخه أيضاً:

١ ـ الصاحب عز الدين أبو يعلى حمزة ابن مؤيد الدين أبي المعالي أسعد ابن عز الدين أبي غالب المظفر ابن الوزير. . . التميمي الدمشقي ابن القلانسي كانت وفاته سنة ٧٢٩هـ. روى الحديث، وله رياسة[١] تولى الوزارة سنة ٧١٠هـ.

٢ ـ إبراهيم بن عبد الرحمن الفزاري (ت ٧٢٩هـ). تفقه على يديه في المذهب الشافعي وسمع عليه صحيح مسلم وغيره في الحديث[٢].

٣ ـ نجم الدين بن العسقلاني، سمع عليه صحيح مسلم في تسعة مجالس بقراءة الوزير العالم أبي القاسم محمد بن محمد بن سهل الأزدي الغرناطي الأندلسي المتوفى بالقاهرة سنة ٧٣٠هـ. وكان قد قدم إلى دمشق سنة ٧٢٤هـ.

٤ ـ شهاب الدين الحجار المعروف بابن الشحنة، سمع عليه بدار الحديث الأشرفية في أيام الشتويات نحواً من خمسمائة جزء بالإجازات والسماع، وكانت وفاته سنة ٧٣٠هـ. وهو أحمد بن أبي طالب.

٥ ـ كمال الدين بن قاضي شهبة، مختصر ابن الحاجب في الأصول.

٦ ـ الشيخ نجم الدين موسى بن علي بن محمد الجيلي ثم الدمشقي الكاتب الفاضل المعروف بابن البصيص، وشيخ صناعة الكتابة في زمانه وتوفي سنة ٧١٦هـ.

٧ ـ كما قرأ على شيخ الحفّاظ المؤرخ شمس الدين الذهبي محمد بن أحمد قايماز وكانت وفاته سنة ٧٤٨هـ.

٨ ـ نجم الدين موسى بن علي بن محمد، كان شيخاً «يشعر» جيداً، توفي سنة ٧١٦هـ.

٩ ـ كما أخذ عن القاسم ابن عساكر، وابن الشيرازي، وإسحاق الآمدي وأجاز له من مصر أبو موسى القرافي، وأبو الفتح الدبوسي.

(٤) **شهادة**: من البديهي أن يتصف إنسان حصّل علوم عصره على أيدي كبار المؤرخين والمحدثين والمفسرين والحاسبين، بصفات قلما ينافسه فيها الآخرون. لقد وصفه الداودي بقوله: «كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث وأعرفهم بتخريجها ورجالها، وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك. وكان يستحضر شيئاً كثيراً من الفقه والتاريخ، قليل النسيان، وكان فقيهاً جيد الفهم، صحيح الذهن، يحفظ التنبيه، ويشارك في العربية مشاركة جيدة وينظم الشعر وما أعرف أني اجتمعت به على كثرة ترددي إليه إلا واستفدت منه»[٣].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١٥٣.

(٢) المصدر عينه، ج ١٤، ص ١٥٢.

(٣) الداودي، طبقات المفسرين ج ١٤، ص ١١١.

فيكون كما وصفه الحافظ الذهبي بقوله: «خرّج وناظر، وصنّف، وفسّر، وتقدم»[(١)]. كما وصفه في المعجم المختص بقوله: «الإمام المفتي، المحدث البارع، فقيه متفنن، محدث متقن، مفسر نقال» ووصفه أبو المحاسن الحسيني بقوله: «أفتى ودرس وناظر وبدع في الفقه والتفسير والنحو. وأمعن النظر في الرجال والعلل»[(٢)] ووصفه السيوطي بقوله: «له التفسير الذي لم يؤلف على نمطه مثله»[(٣)].

وإلى جانب النشاط الفكري كمؤرخ ومحدث ومفسر لعب ابن كثير دوراً في الحياة العامة. فقد تولى مشيخة «أم الصاع والتنكرية» بعد إمامة الذهبي[(٤)]. كما درّس «بالنجيبية»، وبالجامع الفوقاني سنة ٧٤٨هـ.

وكانت له مشاركة في صنع القرارات، إذ يذكر في تاريخه أنه اجتمع بنائب السلطان في بلاد الشام «وذكر له أشياء كثيرة مما ينبغي اعتماده في حق أهل قبرص من الإرهاب ووعيد العقاب»[(٥)] ويذكر مرة أنه اجتمع بالخليفة ووصفه بأنه «متواضع، جيد الفهم، حلو العبارة رحم الله سلفه»[(٦)].

(٥) **أخلاقه**: يتحاشى الإدلاء برأي صريح في القضايا السياسية، على سنة المشايخ والعلماء في عهود الانحطاط، فلذلك امتنع ابن كثير عن الإفتاء في قضية ظن أن طالب الفتوى قد يستفيد منها في إحداث انقلاب على السلطان أو ثورة عليه. كما امتنع عن الإفتاء ضد قاضٍ، لأن في الفتوى تشويشاً على الحكام[(٧)]. وبقدر ما كان متحفظاً في إبداء آرائه السياسية حول التغيير كان صريحاً في التعامل مع الآخرين فهو في حديثه عن الشيخ عبد الله الملطي المشهور بالمجاورة والصلاح واللباس على طريقة «الحريرية» ممن يكرهه طبعاً وشرعاً[(٨)].

---

(١) الذهبي، طبقات الحفاظ، ج ٤، ص ٢٩.
(٢) أبو المحاسن الحسيني، ذيل تذكرة الحفاظ، ص ٥٨.
(٣) السيوطي، ذيل طبقات الحفاظ، ص ٢٢.
(٤) أ ـ الحسني، ذيل تذكرة الحفاظ، ص ٥٨.
ب ـ ابن كثير، البداية والنهاية ج ١٤، ص ١٨٢.
ج ـ المصدر عينه، ص ٢٧٥.
(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ج ١٤، ص ٣٢٩.
(٦) المصدر عينه، ص ٢٥٧.
(٧) المصدر عينه، ج ١٤، ص ٢١٦.
(٨) المصدر عينه، ص ٣٢٧.

(ب) آثاره

ترك ابن كثير عشرات المؤلفات في شتى المجالات وبشكل خاص في التاريخ والتفسير والحديث. وهذا أفضل ثبت توصلت إليه بكتبه المطبوعة والمخطوطة.

(١) المؤلفات المطبوعة:

(١) البداية والنهاية، الذي نكتب له هذه المقدمة. هو مؤلف في التأريخ يقع في أربعة عشر مجلداً، يتمه بمجلدين في الفتن والملاحم في آخر الزمان. ذكر ابن كثير في تاريخه قوله: «هذا آخر ما أرخه شيخنا الحافظ علم الدين البرزالي في كتابه الذي ذيل به على تاريخ الشيخ شهاب الدين أبي شامة المقدسي، وقد ذيلت على تاريخه إلى زماننا هذا. وكان فراغي في الانتقاء من تاريخه في إحدى وخمسين وسبعمائة.. وإلى هنا انتهى ما كتب من لدن آدم إلى زماننا هذا وله الحمد والمنة»[١] إلا أنني لم أقع على استشهادات بالبرزالي بعد سنة ٧٣٨هـ إلى سنة ٧٥١هـ[٢] في حين تابع ابن كثير تاريخه حتى سنة ٧٦٨هـ. أي قبل وفاته بنحو ست سنوات. إذن «البداية والنهاية» هو ذيل الذيل على تاريخ الشيخ شهاب الدين أبي شامة المقدسي[٣] المتوفى سنة ٦٦٥هـ.

الأساس هو كتاب التاريخ للشيخ أبي شامة المقدسي حتى سنة ٦٦٥هـ ثم يأتي البرزالي[٤] ليتابع التاريخ حتى سنة ٧٣٨هـ قبل وفاته بسنة واحدة ويتابع بعدها ابن كثير هذا التاريخ حتى سنة

---

(١) البداية والنهاية، ص ١٩٤.

(٢) نرى هذا الرسم البياني للكتاب الذي بين أيدينا:
أ ـ تاريخ دمشق لابن عساكر (توفي ٥٧١هـ).
ب ـ اختصار تاريخ دمشق لأبي شامة (توفي ٦٦٥هـ).
ج ـ ذيل اختصار تاريخ دمشق للبرزالي (توفي ٧٣٩هـ).
د ـ البداية والنهاية لابن كثير (توفي ٧٧٤هـ).
هـ ـ ذيل البداية والنهاية لشهاب الدين بن حجر (توفي ٨١٦هـ). وأغلب ظني أنه الكتاب الذي نقدم له باسم البداية والنهاية.

(٣) هو شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن عباس أبو محمد المقدسي. إمام عالم، حافظ، محدث، فقيه، مؤرخ معروف بأبي شامة. شيخ دار الحديث الأشرفية، ومدرِّس الركنية. له اختصار تاريخ دمشق في مجلدات كثيرة [وهو التاريخ الذي ذيل عليه البرزالي]. وله شرح الشاطبية، والرد إلى الأمير الأول، والمبعث، والإسراء، والروضتين في الدولتين الصلاحية والنورية. ولد سنة ٥٩٩هـ. وكتب ترجمة بقلمه في الذيل على الروضتين. سمع الحديث، وتفقه على الفخر بن عساكر وابن عبد السلام وغيرهما. بلغ رتبة الاجتهاد ونظم الأشعار، ومات بسبب محنة، فاغتيل بمنزله بدمشق سنة ٦٦٥هـ.

(٤) البرزالي هو علم الدين، أبو محمد القاسم بن محمد بن البرزالي، مؤرخ الشام الشافعي، ولد سنة ٦٦٥هـ أي في العام الذي توفي فيه الشيخ أبو شامة المقدسي، وتوفي سنة ٧٣٩هـ وهو محرم. فغسل، وكفن، وحمله أزيد من ألف شيخ. وكان شيخ الحديث بالنورية، وفيها وقف كتبه. (ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١٩٦ ـ ١٩٧).

٧٦٨هـ. وقد لا يكون «البداية والنهاية» هو تاريخ أبي شامة بحرفيته نظراً لأن ابن كثير كان انتقائياً في تعامله مع تاريخ أبي شامة وتاريخ البرزالي، لقوله: «وكان فراغي من الانتقاء من تأريخه في يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة من سنة ٧٥١هـ»[1].

وقد قسم كتابه إلى أقسام:

١ ـ يتناول القسم الأول الفترة الممتدة بين خلق العرش والكرسي والسموات والأرضين وما فيهن، وما بينهن من الملائكة والجان والشياطين، وكيفية خلق آدم، وقصص النبيين، وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بني إسرائيل وأيام الجاهلية حتى تنتهي النبوة إلى أيام النبي محمد ﷺ.

٢ ـ يتناول القسم الثاني الفترة الممتدة بعد وفاة الرسول ﷺ حتى سنة ٧٦٨هـ.

٣ ـ يتناول القسم الثالث الفتن، والملاحم، وأشراط الساعة، والبعث، والنشور، وأهوال القيامة، وصفة النار والجنان.

وسار في تأليف تاريخه على المألوف من كتب التواريخ كالطبري، والمسعودي، وابن الأثير، في ذكر الحوادث والأخبار حسب السنين سنة فسنة. واحتلت التراجم فيه حيزاً ملحوظاً. يبدأ أولاً بذكر أهم الأحداث ثم يلي ذلك تراجم الوفيات. وقلما تخلو صحيفة من استشهادات شعرية. ويثبت في كثير من الأحيان شعراً من نظمه معارضاً أو من وحي المناسبة.

وقد طبع الكتاب عدة طبعات. أظن أن أقدم طبعة كانت سنة ١٣٤٨هـ بمساعدة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، بمطبعة كردستان العلمية، عن مخطوطة مصورة في مكتبة ولي الدين بالآستانة.

الطبعة الثانية كانت في القاهرة بمطبعة السعادة سنة ١٣٥١هـ، وأردفت النهاية مستقلة في مجلدين بمصر كما طبعت في الرياض بتحقيق الشيخ إسماعيل الأنصاري سنة ١٣٨٨هـ.

إلا أن هذه الطبعات ينقصها الدقة والضبط والشرح وسنحاول في هذه الطبعة سدّ النقص والتقصير.

ونذكر في هذا السياق أن شهاب الدين بن حجر (توفي سنة ٨١٦هـ) ذيل على البداية والنهاية في سنة ٧٤١هـ إلى ٧٦٩هـ. منه نسخة في برلين.

كما نعتقد خلافاً لجرجي زيدان، أن كتاب البرزالي «المقتفي لتاريخ أبي شامة» هو ذيل «اختصار تاريخ دمشق» لابن عساكر. وليس كما ذكر أن «المقتفي لتاريخ أبي شامة» هو صلة لكتاب «الروضتين في أخبار الدولتين الصلاحية والنورية».

---

(١) المصدر عينه، ص ١٩٤ من مؤلفاته المقتفى لتاريخ أبي شامة جعله صلة لتاريخ أبي شامة: الروضتين كما ذكر جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الثالث. وصل فيه إلى سنة ٧٢٠هـ منه نسخة في كوبرلي» ونسخة مصورة عنه في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة. ذيل عليه تلميذه تقي الدين بن رافع السلامي المتوفى سنة ٧٧٤هـ. في الوفيات. منه نسخة في دار المكتبة المصرية.

وحيث إن «تاريخ ابن عساكر» هو الأساس في هذه السلسلة التي تعاقبت حلقاتها لتكون «البداية والنهاية» أهمها وهي المتداولة بين أيدي القراء. فلا بد من نبذة ولو كانت مقتضبة عن رأس هذه السلسلة:

هو ابن عساكر، الحافظ أبو القاسم علي بن أبي محمد الحسن بن هبة الله، المعروف بابن عساكر الدمشقي الملقب ثقة الدين. كان محدث الشام، ومن أعيان الفقهاء الشافعية، رافق السمعاني في بعض رحلته، عُيِّنَ أستاذاً في المدرسة النورية بدمشق. له كتاب «تاريخ دمشق»، وبه اشتهر؛ ألفه على نسق تاريخ بغداد لأبي بكر الخطيب في ثمانين مجلداً. أورد فيه تراجم الأعيان والرواة المحدثين والحفاظ، وسائر أهل السياسة والعلم، من صدر الإسلام إلى أيامه؛ ممن سكن دمشق أو نزلها. صدرت منه أجزاء بعناية المجمع العلمي العربي بدمشق. كما أخرجت مطبعة روضة الشام بدمشق منه عدة أجزاء.

له ذيول أهمها: ذيل القاسم ولد المصنف ابن عساكر، وذيل صدر الدين البكري، وذيل عمر بن الحاجب.

وله مختصرات أهمها: اختصار أبي شامة الذي ذيَّله البرزالي ومن بعده ابن كثير، واختصار جمال الدين بن منظور صاحب لسان العرب، واختصار إسماعيل العجلوني الجراح، واختصار الشيخ أبي الفتح الخطيب (توفي ١٣١٥هـ).

أما مؤلفاته الأخرى فنذكر منها:

٢ ـ تفسير القرآن الكريم. طبع أولاً ببولاق، على هامش فتح البيان للقنوجي، في عشرة أجزاء.

وطبع سنة ١٣٠٠ في حواشي كتاب «مجمع البيان في مقاصد القرآن» للسيد أبي الطيب صديق بن حسن خان.

وطبع بمطبعة المنار بمصر، سنة ١٣٤٣هـ، بأمر من السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل إمام نجد وملحقاتها وبهامشه تفسير البغوي.

وأعيد طبعه مختصراً باسم «عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير» سنة ١٩٥٦ ـ ١٣٧٥هـ، وذلك في خمسة أجزاء، عن مخطوطة نفيسة في المكتبة الأزهرية، تحت رقم (١٦٨) تفسير في سبعة مجلدات، كتبها محمد بن علي الصوفي سنة ٨٢٥هـ. وهي أفضل طبعة اطلعت عليها لهذا الكتاب. وقد اعتمد أسلوب تفسير القرآن بالقرآن ثم بالحديث. وابتعد عن الإسرائيليات وانتقد الاعتماد عليها إلا فيما سمح به الشرع. وقد ألحق بالتفسير «فضائل القرآن» الذي طبع مستقلاً عام ١٩٤٨هـ بمصر ثم طبع مع كتابه التفسير.

٣ ـ الاجتهاد في طلب الجهاد. منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية وعنها مصورة في معهد المخطوطات وقد طبع الكتاب طبعة عادية غير محققة يعتورها الشيء الكثير من التصحيف والتحريف وذلك بمطبعة أبي الهول سنة ١٣٤٧هـ. لكن الطبعة المحققة هي طبعة سنة ١٤٠١هـ/

١٩٨١م ببيروت قام بهذا العمل عبد الله عبد الرحيم عسيلان. ألف ابن كثير هذا الكتاب تلبية لرغبة نائب الشام الأمير منجك بن عبد الله سيف الدين اليوسفي المتوفى سنة ٧٧٦هـ. يحكي هذا الكتاب أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين خلال القرن الثامن أو بالتحديد خلال الفترة التي عاش فيها ابن كثير. يعتبر هذا الكتاب وثيقة تاريخية لأنه يروي الأحداث بأمانة وصدق. بدأ المؤلف بمقدمة ذكر فيها الآيات التي تحضّ على الجهاد في سبيل الله، إلى جانب ذلك أورد بعض ما جاء في الأحاديث النبوية؛ فسرد ثلاثة عشر حديثاً. ثم شرع في الحديث عن الصراع بين المسلمين والصليبيين، فذكر ما كان من هجوم الفرنج على ثغر الإسكندرية، وتصدي المسلمين لهم. ثم يذكر جهود المسلمين المستمر للجهاد في سبيل الله في بلاد الشام على عهد الرسول وخلافة الراشدين، ومن جاء بعدهم. كما تعرض لاستيلاء الفرنج على بيت المقدس، وتصدي صلاح الدين الأيوبي لهم، وانتزاعه من أيديهم، واسترجاع البلاد المجاورة مثل غزة، ونابلس وعجلون والكرك والغور، والشوبك، وصفد.

٤ ـ اختصار علوم الحديث، وهي رسالة في المصطلح، شرحها أحمد محمد شاكر بكتاب: «الباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث» اختصر فيه ابن كثير مقدمة ابن الصلاح في المصطلح أما طبعاته فهي:

أ ـ طبعة مكة سنة ١٣٥٣هـ بتصحيح الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة.

ب ـ طبعة مصر سنة ١٣٥٥، حققها أحمد شاكر.

ج ـ أعاد أحمد شاكر طبعه سنة ١٣٧٠ بالقاهرة، مع زيادات في الشرح والتنقيح.

٥ ـ شمائل الرسول ودلائل نبوته، وفضائله، وخصائصه؛ وهو مستل من البداية والنهاية. حققه مصطفى عبد الواحد في القاهرة سنة ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م. بالرجوع إلى:

أ ـ مصورة مخطوطة ولي الدين بالآستانة رقم ١١١٠، تاريخ، بدار الكتب المصرية.

ب ـ المخطوطة بالمكتبة التيمورية رقم ٢٤٤٣ تاريخ.

ج ـ المطبوعة بمطبعة دار السعادة سنة ١٣٥١ على نسخة محفوظة بالمكتبة الأحمدية ـ حلب.

٦ ـ اختصار السيرة النبوية. وهي ذلك القسم المستل من «البداية والنهاية» الذي خصصه ابن كثير لأخبار العرب في الجاهلية وسيرة النبي ﷺ. وقد شغل هذا القسم نحو ثلاثة أجزاء من كتاب «البداية والنهاية» من أواخر الجزء الثاني حتى أواخر الجزء الخامس، أي إن هذا القسم موزع بين أربعة أجزاء. وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات منها:

أ ـ طبعة مصر، سنة ١٣٥٨هـ/١٩٥٧م. تحت اسم «الفصول في اختصار سيرة الرسول» عن مخطوطة مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة.

ب ـ طبعة مؤسسة علوم القرآن ودار القلم، دمشق ـ بيروت. أخرج هذه الطبعة العلمية المحققة الدكتور محمد عيد الخطراوي والأستاذ محيي الدين مستو سنة ١٣٩٩هـ ١٤٠٠هـ.

٧ ـ أحاديث التوحيد والرد على الشرك.

ذكره بروكلمان في ملحق تاريخ الأدب العربي (٢/ ٤٨) وأشار إلى أن هذا الكتاب مطبوع في دلهي سنة ١٢٩٧هـ.

هذه مؤلفاته المطبوعة أما المخطوطات فكثيرة نذكر منها:

(٢) الكتب المخطوطة:

٨ ـ جامع المسانيد، في ثمانية مجلدات. ذكره الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة باسم «الهَدْي والسُّنَن في أحاديث المسانيد والسنن».. وقد جمع فيه بين مسند الإمام أحمد والبزار، وأبي يعلى، وابن أبي شيبة مع الكتب الستة. توجد نسخة منه بدار الكتب المصرية، تضم سبعة مجلدات، المجلد السابع يتضمن معظم مسند أبي هريرة.

٩ ـ طبقات الشافعية: ذكره الداودي (١/ ١١٠ و١١١). ومنه نسخة خطية مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة تحت رقم ٧٨٩، صورت عن نسخة الكتاني بالرباط وهناك مخطوطة أخرى في شستربتي رقمها (٣٣٩٠).

(٣) الكتب المفقودة:

أما المؤلفات التي لم نعثر عليها، بل وردت أسماؤها في كتبه أو في كتب الأقدمين. نذكر من هذه المؤلفات:

١٠ ـ التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل: خمسة مجلدات في رجال الحديث.. جمع فيه كتابي شيخيه المزي: تهذيب الكمال، والذهبي: ميزان الاعتدال مع زيادات في الجرح والتعديل. ورد ذكره في:

أ ـ حاجي خليفة، كشف الظنون، ج١، ص ٤٧١.

ب ـ الداودي، طبقات المفسرين، ج١، ص ١١٠.

ج ـ السيوطي، ذيل تذكرة الحفاظ، ص ٥٨.

١١ ـ الكواكب الدراري في التاريخ: من كتب التراجم استخلصه من «البداية والنهاية» ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٥٢١).

١٢ ـ سيرة الشيخين: ذكر فيه كيفية إمارة أبي بكر وأورد فضائله وشمائله وأتبع ذلك الفاروق رضي الله عنهما. وأورد ما رواه كل منهما عن النبي من الأحاديث، فبلغ ذلك ثلاثة مجلدات.

ورد ذكر السيرتين في:

أ ـ «البداية والنهاية»، ج ٧، ص ١٨.

ب ـ السيوطي، ذيل تذكرة الحفاظ، ص ٣٦١.

١٣ ـ الواضح النفيس في مناقب الإمام محمد بن إدريس باسم مناقب الشافعي. ذكره:

أ ـ حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ٢، ص ١٨٤٠.

ب ـ الداودي، طبقات المفسرين، ج ١، ص ١١١.

١٤ ـ كتاب الأحكام: وهو كتاب كبير لم يكمله، وصل فيه إلى الحج. وقد ورد ذكره باسم الأحكام الصغرى في الحديث في:

حاجي خليفة، كشف الظنون، ج١، ص ٥٥٠.

١٥ ـ الأحكام الكبيرة: ورد ذكره في:

أ ـ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٣، ص ٢٥٣.

ب ـ الداودي، طبقات المفسرين، ج ١، ص ١١٠ ـ ١١١.

١٦ ـ تخريج أحاديث أدلة التنبيه في فروع الشافعية. ورد ذكره في:

أ ـ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢ ص ١٢٥.

ب ـ البغدادي، هدية العارفين، ج ١، ص ٢١٥.

١٧ ـ اختصار كتاب «المدخل إلى كتاب السنن» للبيهقي. ورد ذكره في: ابن كثير، اختصار علوم الحديث، ص ٤.

١٨ ـ شرح صحيح البخاري. لم يتمه. ورد ذكره في:

أ ـ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٣، ص ٣.

ب ـ المصدر عينه، ج١١، ص ٣٦.

ج ـ حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ١، ص ٥٥٠.

د ـ الداودي، طبقات المفسرين، ج ١، ص ١١٠ ـ ١١١.

١٩ ـ السماع.

ذكره: حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ٢، ص ١٠٠٢.

بالإضافة إلى هذه المؤلفات في التذييل والشروح والاختصار والجمع لابن كثير نجد له شعراً ملتزماً يشنف الآذان بموسيقاه يحتاج إلى جمع وشرح وهبنا الله الهمة للقيام بهذا العمل في المستقبل القريب. وهذا نموذج من شعره:

تمر بنا الأيام تترى وإنما ... نساق إلى الآجال والعين تنظرُ

فلا عائد ذاك الشباب الذي مضى ... ولا زائل هذا المشيب المكدّرُ

فوائد عامة

(١) أسلوبه:

في نهاية الحديث عن ابن كثير ومؤلفاته لا بد من كلمة حول أسلوبه.

يؤثر ابن كثير السجع والمحسنات، إلا أنه يلجأ كثيراً إلى ألفاظ عامية، لا تتناسب مع المستوى الرفيع للطبري والمسعودي وابن الأثير وغيرهم من المؤرخين، كما أنه أقل فصاحة من ابن خلدون في مقدمته وتاريخه ونستطيع القول إنه لم يهتم بلغته بقدر ما اهتم بالمعنى إذ إنه لم يكن أديباً متفنناً في تأريخه كما هو الحال في شعره. تعثر لديه على كثير من التصحيف، والركاكة، يقول: «ووطئوا أراضي كثيرة من صنع بلادهم»[١] كما يستعمل تعابير دارجة في أيامه على لسان الترك وغيرهم من المماليك. وقد يخطىء في إيراد اللفظة المناسبة كحديثه عن أولاد صلاح الدين بعد فجيعتهم بأبيهم يقول: «يتباكون عليه» كأن لا صلة بين الفقيد وأولاده فيتصنعون البكاء.

(٢) المنهج:

هذا من ناحية اللغة. أما من ناحية المنهجية فإننا نستفيد مما قرأناه لابن كثير ملاحظات كثيرة منها:

١ ـ نهجُ تفسير القرآن بالقرآن، بإيراد الكثير من الآيات المتناسبة في المعنى ويلي ذلك الأحاديث التي تتعلق بالآية.

٢ ـ نهجٌ موسوعي في تأريخه. فهو يدمج التأريخ بالرواية والتفسير.

٣ ـ الشك بالإسرائيليات: وهذا «عندي وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يكبسون به على الناس أمر دينهم»[٢]. وفي مكان آخر يقول: «والذي نسلكه في هذا التفسير، الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية، لما فيها من تضييع الزمان ولما اشتمل عليه من الكذب المروّج عليهم»[٣].

٤ ـ اهتم بالرواية، تمشياً مع صبغته كإمام محدث يكره الاجتهاد وإبداء الرأي.

٥ ـ الجمع: يحرص على جمع كل ما كتب في الموضوع. وهو لا يدمج الأخبار والنقول، بل يحتفظ كل نص بطبيعته ومكانه.

٦ ـ يعوزه الترتيب والتنسيق والتحليل والتعليل فكل همه الجمع. وربما كرر الخبر، أو كرر جوانب من الخبر في عدة أماكن.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٣٧. (٢) ابن كثير، عمدة التفسير، ص ١٧.
(٣) المصدر عينه.

المصادر والمراجع

نكتفي بذكر أهم المصادر والمراجع التي عولنا عليها ويمكن العودة إلى الهوامش لتتبعها بالتفصيل.

١ ـ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤ جزء في سبعة مجلدات.

٢ ـ ابن كثير، عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، اختصار وتحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.

٣ ـ ابن كثير، الاجتهاد في طلب الجهاد، تحقيق عبد الله عبد الرحيم عسيلان، بيروت سنة ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٤ ـ ابن كثير، اختصار علوم الحديث، تحقيق أحمد شاكر، مطبعة محمد عبد الرزاق حمزة، القاهرة سنة ١٣٧٠هـ.

٥ ـ ابن كثير، شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه، تحقيق مصطفى عبد الواحد، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٧م.

٦ ـ ابن كثير، اختصار السيرة النبوية، تحقيق محمد عيد الخطراوي ومحيي الدين مستو، مؤسسة علوم القرآن ودار القلم، دمشق ـ بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٤٠٠هـ.

٧ ـ ابن كثير، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٨ ـ ابن كثير، تفسير ابن كثير والبغوي، طبع مطبعة المنار، بإشراف محمد رشيد رضا وأمر بالطبع السلطان عبد العزيز آل سعود إمام نجد وملحقاتها، مصر، سنة ١٣٤٣هـ.

٩ ـ خير الدين الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم، دار العلم للملايين بيروت، ط ٥، أيار سنة ١٩٨٠.

١٠ ـ جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، بإشراف شوقي ضيف، طبعة دار الهلال، القاهرة.

١١ ـ شمس الدين الذهبي، تذكرة الحفاظ، طبعة حيدر أباد، سنة ١٣٣٤هـ.

١٢ ـ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، طبعة حيدر أباد سنة ١٣٤٨هـ.

الجزء الأول

من البداية والنهاية تأليف الشيخ الإمام العلامة عمدة
العالم العامل الورع فرع أصل الفقيه المتقن
المحدث المفسر ... الحجة الأستاذ الحافظ
... البارع عماد الدين أبو الفداء
إسماعيل بن عمر بن كثير الشافعي
الإسلام الأوحد تغمده الله
برحمته ورضوانه وأسكنه أعلى
غرف جنانه ...
والمسلمين ... محمد وآله
آمين والحمد لله
رب العالمين

م

الورقة الأولى من الجزء الأول من المخطوطة

[illegible]

... ليقاتلوا معه [illegible]

من أمرهم ما سنذكره مما قص الله في كتابه قال ابن جرير

فكان من وفاة يوشع بن نون الى ان بعث الله عز وجل

[illegible] ثلثمائة سنة وستون سنة ثم ذكر

تفصيلها بعدد الملوك الذين ملكوا عليهم وسماهم واحدا

واحدا وقد قدمنا ذكرهم مفصلا

تم الجزء الأول [illegible] الجزء الثاني [illegible] قصة شمويل عليه السلام

آخر الجزء الأول من المخطوطة

وكان ذلك وله عليه السلام من العمر اربعون سنة
وحكى ابن جرير عن ابن عباس وسعيد بن المسيب انه
كان عمره اذ ذاك ثلاثا واربعين سنة قال البخاري
ثنا يحيى بن بكير ثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب
عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها
انها قالت اول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه
وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى
رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلا
فكان يخلو بغار حراء ويتحنث فيه وهو التعبد
الليالي ذوات العدد قبل ان ينزع الى اهله ويتزود
لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجئه
الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ فقال
ما انا بقارئ قال فاخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد
ثم ارسلني فقال اقرأ فقلت ما انا بقارئ فاخذني
فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال اقرأ
فقلت ما انا بقارئ فاخذني الثالثة ثم ارسلني فقال
اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق

اقرأ

بداية الجزء الثالث من المخطوطة

حسنة منها أنه أنفذ إليه بعض أصحابه يذكر أنه
نزلت به فاقة في عيد من الأعياد ولم يكن
عنده غير مائة دينار فأرسلها بصرتها إليه ثم سأل
ذلك الرجل صاحبا ثانيا يشكو مثل تلك الحال
فأرسلها إليه وكتب أبو حسان إلى ذلك الرجل
الذي أخذ المائة يستقرض منه شيئا وهو لا يشعر
بالأمر فأرسل إليه بالمائة في صرتها فلما رآها
تعجب من أمرها وكتب إليه فسأله عن ذلك فكتب
إليه واجتمع الثلاثة واقتسموا
المائة دينار رحمهم الله وجزاهم عن مروءتهم
خيرا وأبو مصعب الزهري أحد رواة الموطأ عن
مالك [illegible]
ومحمد بن أسلم الطوسي [illegible]
عبد الله بن عمار [illegible]
والقاسم بن يحيى [illegible] رضي الله تعالى عنهم

تم الجزء العاشر
ويليه الجزء الحادي عشر وأوله [illegible]
[illegible]

آخر الجزء العاشر من المخطوطة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الأول الآخر، الباطن الظاهر، الذي هو بكل شيء عليم، الأول فليس قبله شيء، الآخر فليس بعده شيء، الظاهر فليس فوقه شيء، الباطن فليس دونه شيء، الأزلي القديم الذي لم يزل موجوداً بصفات الكمال، ولا يزال دائماً مستمراً باقياً سرمدياً بلا انقضاء ولا انفصال ولا زوال. يعلم دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، وعدد الرمال. وهو العلي الكبير المتعال العلي العظيم ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ٢]. ﴿رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ [الرعد: ٢]، وزيّنها بالكواكب الزاهرات، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان: ٦١]. وسوى فوقهن سريراً، شرجعاً[1] عالياً منيفاً متسعاً مقبياً مستديراً ـ وهو العرش العظيم ـ له قوائم عظام، تحمله الملائكة الكرام، وتحفّه الكروبيّون[2] عليهم الصلاة والسلام، ولهم زجل بالتقديس والتعظيم. وكذا أرجاء السموات مشحونة بالملائكة، ويفد منهم في كل يوم سبعون ألفاً إلى البيت المعمور بالسماء الرابعة لا يعودون إليه، آخر ما عليهم في تهليل وتحميد وتكبير وصلاة وتسليم.

ووضع الأرض للأنام على تيار الماء. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: ١٠] قبل خلق السماء، وأنبت[3] فيها من كل زوجين اثنين، دلالة للأولياء من جميع ما يحتاج العباد إليه في شتائهم وصيفهم، ولكل ما يحتاجون إليه ويملكونه من حيوان بهيم.

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة: ٧]، ﴿جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾[السجدة: ٨]، في قرار مكين. فجعله سميعاً بصيراً، بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً. وشرفه بالعلم والتعليم. خلق بيده الكريمة آدم أبا البشر، وصور جثّته ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، وخلق منه زوجه حواء أم البشر فآنس بها وحدته، وأسكنها جنته، وأسبغ[4] عليهما نعمته. ثم أهبطهما إلى الأرض لما سبق في ذلك من حكمة الحكيم. وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، وقسّمهم بقدره العظيم ملوكاً ورعاة، وفقراء وأغنياء، وأحراراً وعبيداً، وحرائر وإماء. وأسكنهم أرجاء الأرض، طولها والعرض، وجعلهم خلائف فيها يخلف البعض منهم البعض، إلى يوم الحساب والعرض على العليم الحكيم. وسخر لهم الأنهار من سائر الأقطار، تشق الأقاليم إلى الأمصار، ما بين صغار وكبار، على مقدار الحاجات والأوطار[5]، وأنبع لهم العيون والآبار. وأرسل عليهم

---

(١) الشرجع: العالي المنيف.

(٢) الكروبيون: سادة الملائكة أو المقربون منهم.

(٣) في ط: وأثبت.

(٤) أسبغ النعمة: أتمها.

(٥) الوطر: الحاجة والمأرب.

السحائب بالأمطار، فأنبت لهم سائر صنوف الزرع والثمار. وآتاهم من كل ما سألوه بلسان حالهم وقال لهم: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: الآية ١٨] ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤]: فسبحان الكريم العظيم الحليم. وكان من أعظم نعمه عليهم. وإحسانه إليهم، بعد أن خلقهم ورزقهم ويسّر لهم السبيل وأنطقهم، وأرسل[١] رسله إليهم، وأنزل كتبه عليهم: مبينة حلاله وحرامه، وأخباره وأحكامه، وتفصيل كل شيء في المبدإ والمعاد إلى يوم القيامة.

فالسعيد، من قابل الأخبار بالتصديق والتسليم، والأوامر بالإنقياد، والنواهيَ بالتعظيم. ففاز بالنعيم المقيم، وزحزح عن مقام المكذّبين في الجحيم ذات الزقوم[٢] والحميم، والعذاب الأليم.

أحمده حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه يملأ أرجاء السماوات والأرضين، دائماً أبد الآبدين، ودهر الداهرين، إلى يوم الدين، في كل ساعة وآنٍ ووقت وحين، كما ينبغي لجلاله العظيم، وسلطانه القديم ووجهه الكريم. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا ولد له ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا نظير ولا وزير له، ولا مشير له، ولا عديد ولا نديد ولا قسيم.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وحبيبه وخليله، المصطفى من خلاصة العرب العرباء من الصميم، خاتم الأنبياء، وصاحب الحوض الأكبر الرواء، صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة، وحامل اللواء الذي يبعثه الله المقام المحمود الذي يرغب إليه فيه الخلق كلهم حتى الخليل إبراهيم صلى الله عليه وعلى سائر إخوانه من النبيين والمرسلين، وسلم وشرف وكرم أزكى صلاة وتسليم، وأعلى تشريف وتكريم. ورضي الله عن جميع أصحابه الغرّ الكرام، السادة النجباء الأعلام، خلاصة العالم بعد الأنبياء. ما اختلط الظلام بالضياء، وأعلن الداعي بالنداء وما نسخ النهارُ ظلام الليل البهيم.

أما بعد فهذا كتاب أذكر فيه بعون الله وحسن توفيقه ما يَسَّره الله تعالى بحوله وقوته من ذكر مبدإ المخلوقات: من خلق العرش والكرسي والسموات، والأرضين وما فيهن وما بينهن من الملائكة والجان والشياطين، وكيفية خلق آدم عليه السلام، وقصص النبيين، وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بني إسرائيل وأيام الجاهلية حتى تنتهي النبوة إلى أيام نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه. فنذكر سيرته كما ينبغي فتشفي الصدور والغليل، وتزيح الداء عن العليل.

ثم نذكر ما بعد ذلك إلى زماننا ونذكر الفتن والملاحم وأشراط الساعة[٣]. ثم البعث والنشور وأهوال القيامة، ثم صفة ذلك وما في ذلك اليوم، وما يقع فيه من الأمور الهائلة. ثم صفة النار، ثم صفة الجنان وما فيها من الخيرات الحسان، وغير ذلك وما يتعلق به، وما ورد في ذلك من الكتاب والسنّة والآثار والأخبار المنقولة المقبولة[٤] عند العلماء وورثة الأنبياء الآخذين بها من مشكاة السنن المصطفوية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

---

(١) في ط: أن أرسل.
(٢) الزقوم: طعام أهل النار، أو هي شجرة بجهنم.
(٣) إشارة إلى كتابه نهاية البداية والنهاية.
(٤) في ط: وما.

ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ وهو القسم الذي لا يصدّق ولا يكذّب، مما فيه بسط لمختصر عندنا، أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا مما لا فائدة في تعيينه لنا، فنذكره على سبيل التحلّي به لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه. وإنما الاعتماد والاستناد على كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ، ما صَحّ نقله أو حَسُنَ، وما كان فيه ضعف نبيّنه. وبالله المستعان وعليه التّكلان. ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم العلي العظيم.

فقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ [طه: ٩٩] وقد قصَّ الله على نبيه ﷺ خبر ما مضى من خلق المخلوقات، وذكر الأمم الماضين، وكيف فعل بأوليائه، وماذا أحل بأعدائه. وبيّن ذلك رسول الله ﷺ لأمته بياناً شافياً، سنورد عند كل فصل ما وصل إلينا عنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من ذلك تلو الآيات الواردات[١] في ذلك، فأخبرنا بما نحتاج إليه من ذلك، وترك ما لا فائدة فيه مما قد يُتزاحم على علمه ويُتراجم في فهمه طوائف من علماء أهل الكتاب مما لا فائدة فيه لكثير من الناس، وقد يستوعب نقله طائفة من علماء ولسنا نحذو حذوهم ولا ننحو نحوهم ولا نذكر منها إلا القليل على سبيل الاختصار. ونبيّن ما فيه حق [منها][٢] مما وافق ما عندنا، وما خالفه فوقع فيه الإنكار.

فأما الحديث الذي رواه البخاري رحمه الله في صحيحه عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ، وَحَدِّثُوا عَنِّي، وَلاَ تَكْذِبُوا عَلَيَّ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[٣] فهو محمول على الإسرائيليات المسكوت عنها عندنا. فليس عندنا ما يصدّقها ولا ما يكذّبها، فيجوز روايتها للاعتبار. وهذا هو الذي نستعمله في كتابنا هذا. فأما ما شهد له شرعنا بالصّدق فلا حاجة بنا إليه إستغناءً بما عندنا. وما شهد له شرعنا منها بالبطلان فذاك مردود لا يجوز حكايته، إلاّ على سبيل الإنكار والإبطال.

فإذا كان الله، سبحانه وله الحمد، قد أغنانا برسولنا محمد ﷺ، عن سائر الشرائع، وبكتابه عن سائر الكتب، فلسنا نترامى على ما بأيديهم مما وقع فيه خبط وخلط، وكذب ووضع، وتحريف وتبديل، وبعد ذلك كله نسخ وتغيير.

فالمحتاج إليه قد بينه لنا رسولنا، وشرحه وأوضحه. عرفه من عرفه، وجهله من جهله. كما قال علي بن أبي طالب «كتابُ اللّهِ فيه خبرُ ما قبلَكم ونبأُ ما بعدَكم، وحُكْمُ ما بينَكم وهو الفصلُ ليس بالهزلِ. من تركَه من جبّارٍ قصَمهُ اللّهُ، ومن ابتغى الهُدَى في غيرِه أضلَّه اللّهُ»[٤]

(١) الواردات: أي بذكر الأحاديث بعد الآيات.
(٢) سقط في ط.
(٣) أخرجه البخاري في باب: ٥٠ وأحمد في المسند ٢/١٥٨، ١٥٩، ٢٠٢، ٢١٤.
(٤) أخرجه الدارمي في فضائل القرآن، باب: فضل من قرأ القرآن.

وقال أبو ذر، رضي الله عنه: «لقد توفيَ رسولُ الله ﷺ وما طائرٌ يَطيرُ بجناحَيْهِ إلاَّ أذْكَرَنَا مِنْهُ عِلْماً».

وقال البخاري في كتاب بدء الخلق، وروى عن عيسى بن موسى غُنْجَار عن رُقَيَّةَ عن قَيْسِ بن مُسلم عن طارق بن شهاب قال: سمعتُ عمَر بن الخطاب يقول: «قام فينا رسول الله ﷺ مَقاماً فأخبرنَا عن بَدءِ الخَلْقِ حتى دخلَ أهلُ الجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ، وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ»[1] حَفِظَ ذَلِكَ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ. قال أبو مسعود الدمشقي في أطرافه: هكذا قال البخاري، وإنما رواه عيسى غُنْجَارَ عن أبي حمزةَ عن رُقَيَّةَ.

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في مسنده: حدثنا أبو عاصم حدثنا عَزْرَةُ بنُ ثَابِتٍ، حدثنا عَلْبَاءُ بن أَحْمَرَ اليَشْكُرِي: حدثنا أبو زيدٍ الأنصاري، قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ صلاةَ الصبحِ، ثم صعدَ المنبرَ، فخطبنا حتى حَضَرَتِ الظُّهرَ، ثم نَزَلَ فصلَّى الظُّهرَ. ثم صعد المنبرَ، فخطَبَنَا حتى حَضَرَتِ العَصْرُ، ثم نَزَلَ فَصلَّى العَصْرَ ثم صَعِدَ المِنْبَرَ فخطَبَنَا حتى غَابَتِ الشَّمْسُ فَحَدَّثَنَا بما كان، وبما[2] هو كَائِنٌ فأَعْلَمنَا أَحْفَظُنَا»[3].

انفرد بإخراجِه مسلمٌ فرواه في كتابِ الفتنِ من صحيحه عن يعقوب بن إبراهيم الدَّوْرَقِيِّ وحجّاج بن الشاعر، كلاهما[4] عن أبي عاصم الضَّحَّاكِ بن مُخَلَّدٍ النَّبِيل عن عَزْرَةَ عن عَلْبَاءَ عن أبي زيد عمرو بن أَخْطَبِ بن رُفَاعَةَ الأنصاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ بنحوه.

فصل

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٞ ۝٦٢﴾ [الزمر: ٣٩] فكل ما سواه تعالى فهو مخلوق له، مربوب[5] مدبَّر، مكوَّن بعد أن لم يكن محدث بعد عدمه. فالعرش الذي هو سقف المخلوقات إلى ما تحت الثرى، وما بين ذلك من جامد وناطق، الجميع خلقه، وملكه وعبيده وتحت قهره وقدرته، وتحت تصريفه ومشيئته ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ﴾ [الفرقان: ٥٩] ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾ [سبأ: ٢] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٤﴾ [الحديد: ٤].

وقد أجمع العلماء قاطبة لا يشك في ذلك مسلم أن الله خلق السموات والأرض، وما بينهما في ستة أيام كما دلّ عليه القرآن الكريم. واختلفوا[6] في هذه الأيام أهي كأيامنا هذه أو كل يوم كألف سنة مما تعدّون؟ على قولين كما بيّنا ذلك في التفسير، وسنتعرض لإيراده في

---

(١) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب (١).

(٢) في ط: وما.

(٣) أخرجه مسلم في: الفتن، الحديث ٢٥، وأخرجه أحمد في المسند ٥/٣٤١.

(٤) في ط: جميعاً.

(٥) مربوب: مملوك.

(٦) في ط: فاختلفوا.

موضعه. واختلفوا هل كان قبل خلق السموات والأرض شيء مخلوق قبلهما. فذهب طوائف من المتكلمين إلى أنه لم يكن قبلهما شيء وأنهما خلقتا من العدم المحض. وقال آخرون: بل كان قبل السموات والأرض مخلوقات أخر لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] الآية. وفي حديث عِمْرَانَ بن حُصَيْنٍ كما سيأتي «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ شَيْءٌ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ»(١).

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا بهز، حدثنا حَمَّادُ بن سَلَمَةَ، حدثنا أبو يَعْلَى بن عطاء عن وَكِيعِ بن حُدَسٍ عن عمه أبي رَزِينٍ لَقِيطِ بْنِ عَامِرٍ العُقَيْلِي أنه قال: «يا رسولَ اللَّهِ أينَ كان رَبُّنَا قبلَ أن يخلقَ السمواتِ والأرضَ؟» قال: «كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ وَمَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ ثُمَّ خَلَقَ عَرْشَهُ عَلَى المَاءِ»(٢)

ورواه عن يزيد بن هَارُونَ عن حماد بن سَلَمَةَ به، ولفظه: أين كان ربنا قبل أن يَخْلُقَ خلقَه؟ وباقيه سواء.

وأخرجه الترمذي عن أحمد بن منيع وابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة ومحمد بن الصباح ثلاثتهم عن يزيد بن هارون، وقال الترمذي حسن.

واختلف هؤلاء في أيها خلق أولاً؟ فقال قائلون: خلق القلم قبل هذه الأشياء كلها، وهذا هو اختيار ابن جرير، وابن الجوزي، وغيرهما. قال ابن جرير، وبعد القلم السحاب الرقيق. واحتجوا بالحديث الذي رواه الإمام أحمد، وأبو داود والترمذي عن عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ القَلَمُ. ثُمَّ قَالَ لَهُ اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»(٣) لفظ أحمد. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب. والذي عليه الجمهور فيما نقله الحافظ أبو العلاء الهمداني وغيره (أن العرش مخلوق قبل ذلك) وهذا هو الذي رواه ابن جرير من طريق الضَّحَّاكِ عن ابن عباس كما دل على ذلك الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه. حيث قال: حدثني أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن السَّرْحِ، حدثنا ابن وَهْبٍ، أخبرني أبو هانيء الخَوْلانِي عن أبي عبد الرحمن الجيلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفِ سَنَةٍ، قَالَ وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ»(٤) قالوا فهذا التقدير هو كتابته بالقلم المقادير. وقد دل هذا الحديث أن ذلك بعد خلق العرش فثبت تقديم العرش على القلم الذي كتب به المقادير كما ذهب إلى ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب: (١). وأخرجه أحمد في المسند ٤/ ٤٣١.

(٢) أخرجه الترمذي في: تفسير سورة هود، باب ١٢، وابن ماجة في: المقدمة، باب (١٣)، وأحمد في المسند ٤/ ١١، ١٢.

(٣) أخرجه أبو داود في: السنة، باب: (١٧) في القدر، (الحديث ٤٧٠٠). والترمذي في: القدر، باب: (١٧). وأحمد في المسند ٥/ ٣١٧.

(٤) أخرجه مسلم في القدر، حديث ١٦.

الجمهور. ويحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم. ويؤيد هذا ما رواه البخاري عن عمران بن حصين قال: قال أهل اليمن لرسول الله ﷺ: «جئناكَ لنتَفَقَّهَ في الدين ولنسألَكَ عن أوَّل هذا الأمر» فقال: «كَانَ اللّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ». وفي رواية «معه»، وفي رواية «غيره»: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ»(١) وفي لفظ: «ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ». فسألوه عن ابتداء خلق السموات والأرض. ولهذا قالوا: جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فأجابهم عما سألوا فقط. ولهذا لم يخبرهم بخلق العرش كما أخبر به في حديث أبي رُزَيْن المتقدم.

قال ابن جرير وقال آخرون: «بل خلق الله عزّ وجلّ الماء قبل العرش». رواه السّدّي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مُرَّةَ عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: قالوا: «إن الله كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء» وحكى ابن جرير عن محمد بن إسحاق أنه قال «أول ما خلق الله عزّ وجلّ النور والظلمة ثم ميز بينهما فجعل الظلمة ليلاً أسود مظلماً، وجعل النور نهاراً مضيئاً مبصراً».

قال ابن جرير وقد قيل «إن الذي خلق ربنا بعد القلم الكرسي. ثم خلق بعد الكرسي العرش. ثم خلق بعد ذلك الهواء والظلمة. ثم خلق الماء فوضع عرشه على الماء». والله سبحانه وتعالى أعلم.

فصل فيما ورد في صفة خلق العرش والكرسي

قال الله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: الآية ١٥] وقال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المومنون: الآية ١١٦] وقال الله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: الآية ٢٦] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج: الآية ١٤ ـ ١٥] وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: الآية ٥] وقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس: الآية ٣] في غير ما آية من القرآن، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: الآية ٧] وقال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: الآية: ١٧] وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: الآية ٧٥].

وفي الدعاء المروي في الصحيح في دعاء الكرب «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ. لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ»، وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا يحيى بن العلاء عن عمه شُعَيْب بن خالد، حدثني سِمَاكُ بن حرب عن عبد الله بن عُمَيْرَة عن الأَحْنَفِ بن قيس عن عباس بن عبد المطلب قال: كنا

(١) تقدم الحديث مع تخريجه قبل قليل.

جلوساً مع رسول الله ﷺ بالبطحاء فمرّت سحابةٌ فقال رسول الله ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟» قال: قلنا السَّحابُ، قالَ: «والمُزْنُ» قال: قُلنا والمُزْنُ[1]، قال: «والعِنَانُ»[2]، قال: فسكتنا فقال: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»، قال: قُلنا اللّهُ ورسولهُ أعلمُ. قال: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمَائَةِ سَنَةٍ وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمَائَةِ سَنَةٍ، وَكَشْفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمَائَةِ سَنَةٍ وَفَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلاَهُ كَمَا بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ. ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَوْعَالٍ بَيْنَ رُكَبِهِنَّ وَأَظْلاَفِهِنَّ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ثُمَّ فوق ذلك[3] العَرْشُ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلاَهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ فَوْقَ ذَلِكَ وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ شَيْءٌ»[4]. هذا لفظ الإمام أحمد. ورواه أبو داود وابن ماجه والترمذي من حديث سمّاك بإسناده نحوه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وروى شُرَيكٌ بعض هذا الحديث عن سَمَّاكٍ ووقفه ولفظ أبي داود: «وَهَلْ تَدْرُونَ بُعْدَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟» قَالُوا لاَ نَدْرِي قال: «بُعْدُ مَا بَيْنِهِمَا إِمَّا وَاحِدَةٌ أَوْ اثْنَتَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً»[5] والباقي نحوه. وقال أبو داود: حدثنا عبد الأعلى بن حَمَّادٍ ومحمد بن المُثَنَّى ومحمد بن بَشَّارٍ، وأحمد بن سعيد الرِّباطِي قالوا حدثنا وَهْبُ بن جرير. قال أحمد: كتبناه من نسخته وهذا لفظه. قال: حدثنا أبي قال سمعتُ محمد بن إسحاق يحدِّثُ عن يعقوب بن عقبةَ عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال: أتى رسولَ الله ﷺ أعرابي فقال: يا رسولَ الله جُهِدَت الأنفس وجاعت العيال ونُهِكَت الأموال وهَلَكَت الأنعام. فاستسق الله لنا فإنّا نستشفع بكَ على الله ونستشفع بالله عليك قال رسول الله ﷺ: «وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا تَقُولُ» وَسَبَّحَ رسولُ اللّهِ ﷺ فما زال يُسَبِّحُ حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال: «وَيْحَكَ إِنَّهُ لاَ يُسْتَشْفَعُ بِاللّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ شَأْنُ اللّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللّهُ إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَوَاتِهِ لَهَكَذَا» وقال بأصابعه «مثل القبَّةِ عليه، وإنه لَيَئِطُّ[6] بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بالرَّاكِبِ»[7]. قال ابن بشار في حديثه «إِنَّ اللّهَ فَوْقَ عَرْشِهِ وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ» وساق الحديث. وقال عبد الأعلى وابن المُثَنَّى وابن بشار عن يعقوب بن عُقبة وجبير بن محمد بن جبير عن أبيه عن جدّه، والحديث بإسناد أحمد بن سعيد وهو الصحيح. وافقه عليه جماعة منهم يحيى بن مَعين وعلي بن المَدِيني ورواه جماعة منهم عن ابن إسحاق كما قال أحمد أيضاً: وكان سماعُ عبد الأعلى وابن المُثَنَّى وابن بشار في نسخة واحدة فيما بلغني. تفرد بإخراجها أبو داود، وقد صنف الحافظ أبو القاسم ابن عساكر الدمشقي جزءاً من الرد على هذا الحديث. سماه (بيان الوهم والتخليط الواقع في حديث الأَطِيطِ) واستفرغ وسعه

(١) المزن: السحاب الأبيض. (٢) العنان: السحاب.

(٣) في ط: على ظهورهم.

(٤) أخرجه أبو داود في السنة، باب: (١٩) والترمذي في تفسير القرآن، باب: (٦٧) «ومن سورة الحاقة»، ابن ماجة في: المقدمة، باب: (١٣) وأحمد في المسند ١/٢٠٦.

(٥) انظر الحاشية السابقة.

(٦) يئط: يصيح. والأطيط: صوت الرحل والإبل من ثقلها.

(٧) أخرجه أبو داود في: السنة، باب: (١٩).

في الطعن على محمد بن إسحاق بن بشار راويه. وذكر كلام الناس فيه، ولكن قد روى هذا اللفظ من طريق أخرى عن غير محمد بن إسحاق، فرواه عبد بن حميد وابن جرير في تفسيريهما، وابن أبي عاصم والطبراني في كتابي السنّة لهما، والبزار في مسنده والحافظ الضياء المقدسي في مختارته من طريق أبي إسحاق السبيعي عن عبد الله بن خليفة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «أتتْ امرأةٌ إلى رسول الله ﷺ فقالت ادعُ اللّهَ أن يدخلَني الجنةَ قال. فَعَظَّمَ الربُّ تباركَ وتعالَى وقال: «إنَّ كُرسِيَّهُ وَسِعَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَإنَّ لَهُ أَطِيطاً كَأَطِيطِ الرَّحْلِ الجَدِيدِ مِنْ ثِقَلِهِ»[1]. عبد الله بن خليفة هذا ليس بذاك المشهور. وفي سماعه من عمر نظر. ثم منهم من يرويه موقوفاً ومرسلاً، ومنهم من يزيد فيه زيادة غريبة والله أعلم.

وثبت في صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذَا سَأَلْتُمُ اللّهَ الجَنَّةَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ فَإنَّهُ أَعْلَى الجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»[2]. يُروى وفوقه بالفتح على الظرفية، وبالضم. قال شيخنا الحافظ المِزّي وهو أحسن، أي وأعلاها عرش الرحمن. وقد جاء في بعض الآثار (أَنَّ أَهْلَ الفِرْدَوْسِ يَسْمَعُونَ أَطِيطَ العَرْشِ وَهُوَ تَسْبِيحُهُ وَتَعْظِيمُهُ) وما ذاك إلا لقربهم منه. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لَقَدِ اهتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ»[3]. وذكر الحافظ ابن الحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتاب «صفة العرش» عن بعض السلف «أنّ العرشَ مخلوقٌ من ياقوتةٍ حمراءَ بُعْد ما بين قُطريه مسيرةُ خمسين ألف سنة» وذكرنا عند قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ [المعارج: الآية ٤] أنه بُعْد ما بين العرش إلى الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة وإتساعه خمسون ألف سنة.

وقد ذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة، ولذا سموه الفلك التاسع والفلك الأطلس والأثير. وهذا ليس بجيد لأنه قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة، والفلك لا يكون له قوائم ولا يحمل، وأيضاً فإنه فوق الجنّة والجنّة فوق السموات وفيها مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض: فالبُعْد الذي بينه وبين الكرسي ليس هو نسبة فلك إلى فلك. وأيضاً فإن العرش في اللغة عبارة عن السرير الذي للملك كما قال تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣﴾ [النمل: الآية ٢٣]. وليس هو فلكاً ولا تفهم منه العرب ذلك. والقرآن إنما نزل بلغة العرب فهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم وهو سقف المخلوقات. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: الآية ٧] وقد تقدم في حديث الأوعال أنهم ثمانية، وفوق ظهورهن العرش، وقال

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان، ٣/ ١٠.

(٢) أخرجه البخاري في: التوحيد، باب: (٢٣) والجهاد، باب: (٤) وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٥.

(٣) أخرجه مسلم في: فضائل الصحابة، حديث: ١٢٣، وأحمد في المسند ٤/ ٣٥٢.

تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: الآية ١٧].

وقال شَهْرُ بن حَوْشَبٍ: «حملة العرش ثمانية: أربعةٌ منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد عِلْمِك» وأربعة يقولون: «سبحانَك اللهم وبحمدِك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك» فيما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن محمد هو أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عَبْدَةُ بن سليمان عن محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عُقبة عن عِكْرِمة عن ابن عباس أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ صدَّقَ أُمَيَّةَ يعني ابنَ أَبِي الصَّلْتِ في بيتين من شعره فقال [الكامل]:

رَجُلٌ وَثَوْرٌ تَحْتَ رِجْلِ يَمِينِهِ ... وَالنَّسْرُ لِلأُخْرَى وَلَيْثٌ مُرْصِدُ

فقال رسول الله ﷺ: «صَدَقَ». فقال [الكامل]:

والشَّمسُ تطلعُ كلَّ آخِرِ ليلةٍ ... حمراءَ يصبح[1] لَوْنُهَا يتورّد[2]

تَأْبَى فلا تبدو لنا في رِسْلِهَا ... إلاَّ مُعَذَّبَةً وَإلاَّ تُجْلَدُ

فقال رسول الله ﷺ: «صَدَقَ»[2] فإنه حديث صحيح الإسناد رجاله ثقات. وهو يقتضي أنَّ حملة العرش اليوم أربعة، فيعارضه حديث الأوعال. اللهم إلا أن يقال: إن إثبات هؤلاء الأربعة على هذه الصفات لا ينفي ما عداهم. والله أعلم. ومن شعر أمية بن أبي الصلت في العرش قوله [الخفيف]:

مَجِّدوا اللَّهَ فَهْوَ لِلْمجدِ أَهْلٌ ... رَبُّنا في السَّمَاءِ أمسى كبيرا

بالبناءِ العَالِي الَّذِي بَهَرَ النَّا ... سَ وَسوَّى فَوْقَ السَّمَاءِ سَرِيرَا

شَرْجَعاً لا ينالُهُ بَصَرُ العَيْـ ... ـنِ تَرَى حَوْلَهُ المَلائِكَ صُورَا

[صور جمع أصور وهو المائل العنق لنظره إلى العلو والشرجع هو العالي المنيف. والسرير هو العرش في اللغة. ومن شعر عبد الله بن رواحة رضي الله عنه الذي عرض به عن القراءة لامرأته حين اتّهمته بجاريته [الوافر]:

شهدتُ بأنَّ وعدَ اللَّهِ حقٌّ ... وأنَّ النارَ مَثْوَى الكافرينَا

وأنَّ العرشَ فوقَ الماءِ طافٍ ... وفوقَ العرشِ ربُّ العَالَمِينَا

وتَحْمِلُهُ ملائكةٌ كِرَامٌ ... ملائكةُ الإلَهِ مُسَوّمِينَا[3]]

ذكره ابن عبد البر وغير واحد من الأئمة. وقال أبو داود، حدثنا أحمد بن حفص بن عبد الله، حدثني أبي حدثنا إبراهيم بن طهمان عن موسى بن عقبة عن محمد بن المُنْكَدِر عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلائِكَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ أَنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمَائَةِ عامٍ»[4]. ورواه ابن أبي حاتم[5]

---

(١) في ط: مطلع. ومعناها واحد.
(٢) في ط: متورد. ومعناها واحد.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ١/٢٥٦.
(٤) ما بين المعقوفين سقط من ب و ط.
(٥) أخرجه أبو داود في السنة، باب: ١٩.
(٦) في ط: ابن أبي عاصم.

ولفظه: مخفق[١] الطير[٢] مسيرة سبعمائة عام.

وأمّا الكرسي: فروى ابن جرير من طريق جُوَيْبِر ـ وهو ضعيف ـ عن الحسن البصري أنه كان يقول: الكرسي هو العرش، وهذا لا يصح عن الحسن بل الصحيح عنه وعن غيره من الصحابة والتابعين أنه غيره.

وعن ابن عباس وسعيد بن جُبَيْرٍ أنهما قالا في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥] أي علمه. والمحفوظ عن ابن عباس كما رواه الحاكم في مستدركه. وقال: إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه من طريق سفيان الثَّوْرِي عن عمّار الدُّهْني عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدّر قَدْره إلا الله عزّ وجلّ. وقد رواه شُجاع بن مُخَلَّدٍ الفَلاَّس في تفسيره عن أبي عاصم النبيل عن الثوري، فجعله مرفوعاً. والصواب أنه موقوف على ابن عباس وحكاه ابن جرير عن أبي موسى الأشعري والضَحّاكِ بن مُزَاحِم وإسماعيل بن عبد الرحمن السَدِيّ الكبير ومسلم البطين. وقال السدي عن أبي مالك: «الكُرْسِيُّ تحتَ العرشِ. وقال السَدِّيُّ: السموات والأرض في جوف الكرسي والكرسي بين يدي العرش» وروى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه قال: «لو أن السموات السبع والأرضين السبع بُسطن ثم وُصلن بعضهن إلى بعض ما كنّ في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة»[٣]. وقال ابن جرير: حدثني يونس، حدثنا ابن وهب قال: قال ابن زيد حدثني أبي قال قال رسول الله ﷺ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيِّ إِلاَّ كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تِرْسٍ»[٤] قال، وقال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا الكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ إِلاَّ كَحَلَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ»[٥] أول الحديث مرسل، وعن أبي ذر منقطع. وقد رُوي عنه من طريق أخرى موصولاً، فقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدَوَيْهِ في تفسيره: أخبرنا سليمان بن أحمد الطَّبَرَانِي، أنبأنا عبد الله بن وُهَيْبِ المَغْرِبي أنبأنا محمد بن أبي سَرِي العسقلاني، أنبأنا محمد بن عبد الله التَمِيمي عن القاسم بن محمد الثَّقَفِي عن أبي إدريس الخَوْلاني عن أبي ذرٍّ الغفاري أنه سأل رسولَ الله ﷺ عن الكرسي فقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُونَ السَّبْعُ عِنْدَ الكُرْسِيِّ إِلاَّ كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلاَةٍ وَإِنَّ فَضْلَ العَرْشِ عَلَى الكرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلاَةِ عَلَى تِلْكَ الحَلَقَةِ». رواه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتاب «صفة العرش» عن الحسن بن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى، عن أحمد بن علي الأسدي عن المختار ابن عساكر، حدثني عن إسماعيل بن مسلم عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر قال: دخلت المسجد الحرام فرأيت رسول الله ﷺ وحده فجلست إليه فقلت يا رسول الله أي آية أنزلت عليك أفضل قال: «آية الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة»

(١) في ط: محقق الطير.
(٢) كذا بالأصول، ولعل الرواية محلق الطير.
(٣) المفازة: الأرض الوعرة.
(٤) رواه ابن جرير الطبري في جامع البيان ٣/ ١٠.
(٥) انظر الحاشية السابقة.

وقال ابن جرير في تاريخه: حدَّثنا ابن وكيع، قال حدثنا أبي عن سفيانَ عن الأَعْمَشِ عن المِنْهَالِ بن عَمْرٍو عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قال: سُئل ابن عباس عن قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] على أي شيء كان الماء، قال: على متن الريح قال: والسموات والأرضون وكل ما فيهن من شيء تحيط بها البحار، ويحيط بذلك كله الهيكل ويحيط بالهيكل فيما قيل الكرسي. ورَوَى: عن وَهْبِ بن مُنَبِّهٍ نحوَه. وفسّر وَهْبٌ الهيكَلَ فقال: شيء من أطراف السموات يُحْدِقُ بالأرضين والبحار كأطناب الفسطاط(١). وقد زعم بعض من ينتسب إلى علم الهيئة أنّ الكرسيَّ عبارةٌ عن الفلك الثامن الذي يسمّونه فلك الكواكب الثوابت. وفيما زعموه نظر لأنه قد ثبت أنه أعظم من السموات السبع بشيء فقد كثير ورد الحديث المتقدم بأنَّ نسبتها إليه كنسبة حلقة ملقاة بأرضٍ فلاة وهذا ليس نسبة فلك إلى فلك. فإن قال قائلهم: فنحن نعترف بذلك ونسميه مع ذلك فلكاً. فنقول: الكرسي ليس في اللغة عبارة عن الفلك، وإنما هو كما قال غير واحد من السلف بين يدي العرش كالمرقاة إليه. ومثل هذا لا يكون فلكاً. وزَعْمُ أن الكواكب الثوابت مرصّعة فيه لا دليل لهم عليه. هذا مع اختلافهم في ذلك أيضاً كما هو مقرر في كتبهم والله أعلم.

ذكر اللوح المحفوظ: قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شَيْبَةَ، حدثنا مِنْجَابُ بنُ الحَارِثِ، حَدَّثَنا إبراهيم بن يوسف، حدثنا زياد بن عبد الله عن ليث عن عبد الملك بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس أنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لَوْحاً مَحْفُوظاً مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ صَفَحَاتُهَا مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، قَلَمُهُ نُورٌ وَكِتَابُهُ نُورٌ لِلَّهِ فِيهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ سِتُّونَ وَثَلاَثُمَائَةِ لَحْظَةٍ يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ وَيُمِيتُ وَيُحْيِي وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ»

وقال إسحاق بن بشر أخبرني مُقَاتِلٌ وابن جُرَيْجٍ عن مجاهد عن ابن عباس قال: «إنَّ في صدر اللَّوحِ لا إله إلا الله وحده، دينه الإِسلام ومحمد عبده ورسوله، فمن آمن بالله وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة» قال: «واللوح المحفوظ لوحٌ من درةٍ بيضاءَ. طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب، وحافتاه الدرُّ والياقوت، ودَفّتَاهُ ياقوتةٌ حمراء، وقلمُه نور، وكلامه معقودٌ بالعرش، وأصله في حجر ملك» وقال أنس بن مالك، وغيره من السلف: «اللوح المحفوظ في جَبْهَةِ إسرافِيلَ» وقال مُقَاتِلٌ هو عن يمين العرش.

[باب](٢) ما ورد في خلق السموات والأرض وما بينهما

قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾ [الأنعام: الآية ١] وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الفرقان: الآية ٥٩] في غير ما آية من القرآن وقد اختلف المفسرون في مقدار هذه الستة الأيام على

(١) أطناب الفسطاط: حبال طويلة تشدُّ بها سراوق البيوت.
(٢) ما بين معقوفين سقط من ط.

قولين: فالجمهور على أنها كأيامنا هذه. وعن ابن عبّاس، ومجاهد والضحّاك، وكَعْب الأَحْبَار: إنَّ كلَّ يوم منها كألْفِ سنة مما تعدون. رواهُنَّ ابنُ جرير، وابن أبي حاتم. واختار هذا القول الإمام أحمد بن حنبل في كتابه الذي ردّ فيه على الجهمية، وابن جرير وطائفة من المتأخرين والله أعلم. وسيأتي ما يدلّ على هذا القول. وروى ابن جرير عن الضحّاك بن مُزَاحم، وغيره أنّ أسماء الأيام الستة: «أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت» وحكى ابن جرير في أول الأيَّام ثلاثة أقوال فروى عن محمد بن إسحاق أنه قال: يقول أهل التوراة ابتدأ الله الخلق يوم الأحد، ويقول أهل الإنجيل: ابتدأ الله الخلق يوم الاثنين، ونقول نحن المسلمون فيما انتهى إلينا عن رسول الله ﷺ: «ابتدأ الله الخلق يوم السبت»[1] وهذا القول الذي حكاه ابن إسحاق عن المسلمين مال إليه طائفة من الفقهاء من الشافعية، وغيرهم. وسيأتي فيه حديث أبي هريرة «خَلَقَ اللّهُ التُّربَةَ يَوْمَ السَّبْتِ» والقول بأنه الأحد رواه ابن جرير عن السدّي عن أبي مالك، وأبي صالح عن ابن عباس، وعن مرّة عن ابن مسعود، وعن جماعة من الصحابة. ورواه أيضاً عن عبد الله ابن سَلاّمٍ، واختاره ابن جرير. وهو نص التوراة، ومال إليه طائفة آخرون من الفقهاء.

وهو أشبه بلفظ الأحد ولهذا كمل الخلق في ستة أيام فكان آخرهن الجمعة فاتخذه المسلمون عيدهم في الأسبوع، وهو اليوم الذي أضلّ الله عنه أهل الكتاب قبلنا كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٩].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: الآيات ٩ ـ ١٢] فهذا يدلّ على أنّ الأرض خلقت قبل السماء لأنها كالأساس للبناء كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر: الآية ٦٤].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبا: الآيتان ٦ ـ ٧] إلى أن قال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ [النبا: الآيتان ١٢ ـ ١٣] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠] أي فصلنا ما بين السماء والأرض حتى هبت الرياح ونزلت الأمطار وجرت العيون، والأنهار، وانتعش الحيوان. ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٣٢] أي عما خلق فيها من الكواكب الثوابت، والسيارات والنجوم

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/٣٢٧ بلفظ: خلق الله التربة يوم السبت.

الزاهرات والأجرام النيرات، وما في ذلك من الدلالات على حكمة خالق الأرض والسموات كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: الآيتان ١٠٥-١٠٦].

فأما قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات: الآيات ٢٧-٣٣] فقد تمسك بعض الناس بهذه الآية على تقدم خلق السماء على خلق الأرض. فخالفوا صريح الآيتين المتقدمتين، ولم يفهموا هذه الآية الكريمة، فإن مقتضى هذه الآية أن دحيَ الأرض وإخراج الماء والمرعى منها بالفعل بعد خلق السماء. وقد كان ذلك مقدّراً فيها بالقوة كما قال تعالى: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: الآية ١٠] أي هَيَّأ أماكن الزرع ومواضع العيون والأنهار.

ثم لما أكمل خلق صورة العالم السفلي والعلوي دحى الأرض فأخرج [منها] ما كان مودعاً فيها فخرجت العيون وجرت الأنهار، ونبت الزرع والثمار، ولهذا فسّر الدحى بإخراج الماء والمرعى منها وإرساء الجبال فقال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ [النازعات: الآيتان ٣٠، ٣١] وقوله: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات: الآية ٣٢] أي قررها في أماكنها التي وضعها فيها وثبتها وأكدها وأطدها. وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: الآيات ٤٧-٤٩] بأيدٍ أي بقوة، وإنا لموسعون، وذلك أن كل ما علا اتسع فكل سماء أعلى من التي تحتها فهي أوسع منها. ولهذا كان الكرسي أعلى من السموات. وهو أوسع منهن كلهن، والعرش أعظم من ذلك كله بكثير. وقوله بعد هذا ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ أي بسطناها وجعلناها مهداً أي قارة ساكنة غير مضطربة ولا مائدة بكم. ولهذا قال: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾والواو لا يقتضي الترتيب في الوقوع. وإنما يقتضي الإخبار المطلق في اللغة والله أعلم.

وقال: حدثنا عمر بن جعفر بن غِيَاثٍ، حدثنا أبي، حدثنا الأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا جامعُ بن شَدَّادٍ عن صَفْوَانِ بن مُحْرِزٍ أنه حدثه عن عِمْرانُ بن حُصَين قال: «دخلتُ على النبيِّ ﷺ وعقلتُ ناقتي بالباب فأتاه ناسٌ من بني تَمِيم فقال: «اقْبَلُوا البُشْرَى يَا بَنِي تَمِيم» قالوا: قد بشرتَنا فأعطنا مرّتَيْنِ. ثم دخل عليه ناس من اليمن فقال: «اقْبَلُوا البُشْرَى يَا أَهْلَ اليَمَنِ إذ[1] لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيم» قالوا: قد قبلنا يا رسول الله قالوا: جئناكَ نسألُكَ عن هذا الأمر. قال: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ»، فنادى مُنادٍ ذهبتْ ناقتُكَ يا ابن الحُصَيْنِ فانطلقتُ فإذا هي تَقطعُ دونها السَّرابُ[2] فوالله لوددتُ أنّي كنتُ تركتُها»[3] هكذا رواه ها هنا. وقد رواه في كتاب المغازي وكتاب التوحيد وفي بعض ألفاظه «ثُمَّ خَلَقَ

---

(١) في ط: إن.

(٢) السراب: ما تراه نصف النهار كأنه ماء.

(٣) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (١).

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ»[1] وهو لفظ النسائي أيضاً.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا حَجَّاجٌ حدثني ابن جُرَيْج أخبرني إسماعيل بن أُمَيَّةَ عن أيوبِ بنِ خَالِدٍ عن عبد الله بن رافع مولى أم سَلَمَةَ عن أبي هريرة قال: «أخذ رسولُ الله ﷺ بيدي فقال: «خَلَقَ اللَّهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ وَخَلَقَ الجِبَالَ يَوْمَ الأَحَدِ وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الاثْنَيْنِ وَخَلَقَ المَكْرُوهَ يَوْمَ الثلاث وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ وَبَثَّ الدَّوَابَّ يَوْمَ الخَمِيسِ وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ العَصْرِ يَوْمَ الجُمُعَةِ. آخِرُ خَلْقٍ خُلِقَ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ العَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ»[2] وهكذا رواه مُسلم عن سُرَيْجِ بن يونسَ وهارونَ بن عبد الله والنَّسائي عن هَرُونَ ويوسف بن سعيدٍ ثلاثتهم عن حَجَّاج بن محمد المَصِيصِي الأعورِ عن ابن جُرَيْج به مثله سواء.

وقد رواه النسائي في التفسير عن إبراهيم بن يعقوب الجَوْزَجَاني عن محمد بن الصَّبَّاح عن أبي عُبَيْدَةَ الحَدَّادِ عن الأخضر بن عَجْلانَ عن ابن جُرَيْجٍ عن عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ عن أبي هريرة «أنَّ رسول الله ﷺ أخذ بيدي فقال: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَوْمَ السَّابِعِ، وَخَلَقَ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ»[3] وذكر تَمَامَهُ بنحوه فقد اختلف فيه على ابن جريج. وقد تكلم في هذا الحديث على ابن المَدِينِي والبخاري والبَيْهَقِي وغيرهم من الحفاظ قال البخاري في التاريخ: وقال بعضهم عن كعب وهو أصح، يعني أن هذا الحديث مما سمعه أبو هريرة وتلقاه من كعب الأحبار، فإنهما كانا يصطحبان ويتجالسان للحديث، فهذا يحدثه عن صحفه، وهذا يحدثه بما يصدُّقُه عن النبي ﷺ، فكان هذا الحديث مما تلقاه أبو هريرة عن كعب عن صحفه[4]، فوهم بعض الرواة فجعله مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وأكد رفعَه بقوله: «أَخَذَ رسولُ الله ﷺ بيدي» ثم في متنه غرابة شديدة. فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر خلق السموات، وفيه ذكر خلق الأرض وما فيها في سبعة أيام. وهذا خلاف القرآن لأن الأرض خلقت في أربعة أيام ثم خلقت السموات في يومين من دخان. وهو بخار الماء الذي ارتفع حين اضطرب الماء العظيم الذي خلق من ربذة[5] الأرض بالقدرة العظيمة البالغة كما قال إسماعيل بن عبد الرحمن السَّدِّي الكبير في خبر ذكره عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مُرَّةَ الهمداني عن ابن مسعودٍ، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: الآية ٢٩] قال: إن الله كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسما عليه فسمَّاه سماء. ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعل سبع أرضين في يومين (الأحد والاثنين) وخلق الأرض على حوت وهو النون الذي

(١) أخرجه البخاري في: التوحيد، باب: (٢٢).
(٢) أخرجه مسلم في: صفات المنافقين وأحكامهم، الحديث: ٢٧، وأخرجه أحمد في المسند ٢/٣٢٧.
(٣) أخرجه النسائي في التفسير.
(٤) في نسخة: صحته. وقد جرى التصحيح من ط.
(٥) الربذة: الشدة.

قال الله تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾ [القلم: الآية ١] والحوت في الماء والماء على صَفَاتٍ والصَّفَاتُ على ظهر ملك والملك على صخرة والصخرة في الريح. وهي الصخرة التي ذكرها لقمان ليست في السماء ولا في الأرض فتحرك الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرضُ فأرسى عليها الجبالَ فقرَّتْ. وخلق الله يوم الثلاثاء الجبال وما فيهن من المنافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب، وفتق السماء وكانت رتقاً فجعلها سبع سموات في يومين الخميس والجمعة. وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض وأوحى في كل سماء أمرها. ثم قال: خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والبحار وجبال البرد وما لا يعلمه غيره. ثم زيّن السماء بالكواكب فجعلها زينة وحفظاً يحفظ من الشياطين، فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش. هذا الإسناد يذكر به السّدّي أشياء كثيرة فيها غرابة وكان كثير منها متلقى من الإسرائيليات. فإن كعب الأحبار لما أسلم في زمن عمر كان يتحدث بين يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأشياء من علوم أهل الكتاب فيستمع له عمر تأليفاً له، وتعجباً مما عنده مما يوافق كثير منه الحق الذي ورد به الشرع المطهر فاستجاز كثير من الناس نقل ما يورده كعب الأحبار لهذا، ولما جاء من الإذن في التحديث عن بني إسرائيل لكن كثيراً ما يقع مما يرويه غلط كبير وخطأ كثير.

وقد روى البخاري في صحيحه عن معاوية أنه كان يقول في كعب الأحبار (وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب)[1] أي فيما ينقله لا أنه يتعمد ذلك والله أعلم.

ونحن نورد ما نورده من الذي يسوقه كثير من كبار الأئمة المتقدمين: عنهم. ثم نتبع ذلك من الأحاديث بما يشهد له بالصحة أو يكذبه ويبقى الباقي مما لا يصدق ولا يكذب والله[2] المستعان وعليه التكلان.

وقال[3] البخاري: حدثنا قُتَيبة، حدثنا مُغِيرَة بن عبد الرحمن القُرَشي عن أبي زِنَادٍ عن الأعرَج عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»[4] وكذا رواه مسلم والنسائي عن قُتيبة به. ثم قال البخاري.

باب ما جاء في سبع أرضين

وقول الله تعالى[5]: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق: الآية ١٢] ثم قال: حدثنا علي بن

(١) أخرجه البخاري في: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: (٢٥).
(٢) في ط: وبه.
(٣) في ط: قال، بحذف حرف العطف.
(٤) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (١). (الحديث ٣١٩٤). وأخرجه مسلم في (٤٩) كتاب: التوبة، (٤). وأحمد في المسند ٢/٣٥٨.
(٥) في ط: وقوله تعالى.

عبد الله، أخبرنا ابن عُلَيَّةَ عن عليِّ بنِ المبارَكِ حدثنا يحيَى بن أبي كثيرٍ عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبي سَلَمَةَ بن عبد الرحمن وكانت بينه وبين ناس خصومةٌ في أرض فدخل على عائشةَ يذكر[(١)] لها ذلك. فقالت: يا أبا سَلَمَةَ اجتنبِ الأرض فإن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[(٢)]

ورواه أيضاً في كتاب المظالم ومسلم، من طرق عن يحيى بن كثير به.

ورواه أحمد من حديث محمد بن إبراهيم عن أبي سَلَمَةَ به، ورواه أيضاً عن يونس عن أبان عن يحيى بن أبي كَثِير عن أبي سَلَمَةَ عن عائشة بمثله. ثم قال البخاري: حدثنا بِشْرُ بن مُحمد قال: أخبرنا عبد الله عن موسى بن عُقْبَةَ عن سالم عن أبيه قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ أَخَذَ شَيْئاً مِنَ الأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ خُسِفَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ»[(٣)]

ورواه في المظالم أيضاً عن مسلم بن إبراهيم عن عبد الله هو ابن المبارك عن موسى بن عقبة به وهو من أفراده، وذكر البخاري ها هنا حديث محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «[إن][(٤)] الزَّمَانُ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ السَّنَةُ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْراً»[(٥)] الحديث ومراده والله أعلم. تقدير معنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: الآية ١٢] أي في العدد كما أن عدة الشهور الآن اثني عشر مطابقة لعدة الشهور عند الله في كتابه الأول، فهذه مطابقة في الزمان كما أن تلك مطابقة في المكان. ثم قال البخاري: حدثنا عُبَيدُ بن إسماعيلَ، حدثنا أبو أسامةَ عن هشام عن أبيهِ عن سعيدِ بن زيدِ بن عَمرو بن نُفَيْلٍ أنه خاصمَته أَرْوَى في حق زعمتْ أنه انتقصه لها إلَى مروانَ فقال سعيدٌ رضيَ الله عنه: أنا انتقصُ من حقِّها شيئاً؟ أشهدُ لسمعتُ رسول اللّهِ ﷺ يقولُ: «مَنْ أَخَذَ شِبْراً مِنَ الأَرْضِ ظُلْماً فَإِنَّهُ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[(٦)] ورواه [. . . .][(٧)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن وأبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عبد الله بن لَهِيعَةَ، حدثنا عبد الله بن أبي جعفر عن أبي عبد الرحمن عن ابن مسعود قال: «قلتُ يا رسولَ اللّهِ أيُّ الظلم أعظمُ قال: «ذِرَاعٌ مِنَ الأَرْضِ يَنْتَقِصُهُ المَرْءُ المُسْلِمُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ فَلَيْسَ حَصَاةٌ مِنَ الأَرْضِ يَأْخُذُهَا أَحَدٌ إِلاَّ طُوِّقَهَا يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَى قَعْرِ الأَرْضِ، وَلاَ يَعْلَمُ قَعْرَهَا إِلاَّ الَّذِي خَلَقَهَا»[(٨)] تفرد به أحمد، وهذا إسنادٌ لا بأس به.

---

(١) في ط: فذكر.

(٢) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (٢)، والمظالم، باب: (١٣) ومسلم في: المساقاة، الحديث (١٤٢). وأحمد في المسند ٦/ ٦٤.

(٣) أخرجه البخاري في: المظالم، باب: (١٣).

(٤) سقط في ط.

(٥) أخرجه البخاري في: التفسير، باب: (٨)، والتوحيد، باب: (٢٤)، وأحمد في المسند ٥/ ٣٧.

(٦) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (٢).

(٧) بياض في الأصل.

(٨) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٣٩٦.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفّانُ حدثنا وُهَيْبٌ، حدثنا سُهَيْلٌ عن أبيه عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ أَخَذَ شِبْراً مِنَ الأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(١) تفرّد به من هذا الوجه وهو على شرط مسلم.

وقال أحمد: حدثنا يحيى عن ابن عَجْلاَنَ، حدّثني أبي عن أبي هريرةَ أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ اقْتَطَعَ شِبْراً مِنَ الأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ طُوِّقَهُ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ»(٢) تفرّد به أيضاً وهو على شرط مسلم.

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عفّان، حدثنا أبو عُوَانَةَ عن عُمَرَ بن أبي سَلَمَةَ عن أبيه عن أبي هريرة أنَّ النبي ﷺ قال: «مَنْ أَخَذَ مِنَ الأَرْضِ شِبْراً بِغَيْرِ حَقِّهِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(٣) تفرّد به أيضاً وقد رواه الطَّبَرَاني من حديث معاوية بن قُرَّةَ عن ابن عباس مرفوعاً مثله. فهذه الأحاديث كالمتواترة في إثبات سبع أرضين والمراد، بذلك أن كل واحدة فوق الأخرى والتي تحتها في وسطها عند أهل الهيئة حتى ينتهي الأمر إلى السابعة وهي صَمّاء لا جوفَ لها، وفي وسطها المركز وهي نقطة مقدرة متوهمة. وهو محط الأثقال، إليه ينتهي ما يهبط من كل جانب إذا لم يعاوقه مانع. واختلفوا هل هنَّ متراكمات بلا تفاصل أو بين كل واحدة والتي تليها خلاء على قولين، وهذا الخلاف في الأفلاك أيضاً.

والظاهر أن بين كل واحدة منهن وبين الأخرى مسافة لظاهر قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] الآية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا شُرَيْحٌ حدثنا الحَكَمُ بن عبد الملكِ عن قَتَادَة عن الحسن عن أبي هريرة قال: «بينا نحنُ عندَ رسولِ الله ﷺ إذْ مَرَّتْ سحابةٌ فقال: «أَتَدْرُونَ مَا هَذِهِ؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «العِنَانُ وَزَوَايَا الأَرْضِ تَسُوقُهُ إِلَى مَنْ لاَ يَشْكُرُونَهُ مِنْ عِبَادِهِ وَلاَ يَدْعُونَهُ، أَتَدْرُونَ مَا هَذِهِ فَوْقَكُمْ؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «الرَّقِيعُ مَوْجٌ مَكْفُوفٌ وَسَقْفٌ مَحْفُوظٌ أَتَدْرُونَ كَمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا»؟ قُلْنَا: اللّهُ ورسولُه أعلمُ، قال: «مَسِيرَةُ خَمْسِمَائَةِ سَنَةٍ». ثم قال: «أَتَدْرُونَ مَا الَّذِي فَوْقَهَا»؟ قلنا: الله ورسولُهُ أعلمُ. قال: «مَسِيرَةُ خَمْسِمَائَةِ عَام حَتَّى عَدَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ». ثم قال: «أَتَدْرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؟ قُلنا: الله ورسولُه أعلم. قال: «العَرْشُ، أَتَدْرُونَ كَمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ». قلنا: اللّهُ ورسولُه أعلمُ. قال: مَسِيرَةُ خَمْسِمَائَةَ عَام. ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا هَذِهِ تَحْتَكُمْ»؟ قُلْنَا: اللّهُ ورسولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «أَرْضٌ، أَتَدْرُونَ مَا تَحْتَهَا»؟ قُلْنَا اللّهُ ورسولُهُ أعلم. قال: «أَرْضٌ أُخْرَى أَتَدْرُونَ كَمْ بَيْنَهُمَا»؟ قلنا: اللّهُ ورسولُهُ أعلم. قال: «مَسِيرَةُ سَبْعِمَائَةَ عَام» حَتَّى عَدَّ سَبْعَ أَرَضِين. ثم قال: «وَأَيْمِ اللهِ لَوْ دَلَّيْتُمْ أَحَدَكُمْ إِلَى الأَرْضِ السُّفْلَى السَّابِعَةِ لَهَبَط». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝﴾»(٤) [الحديد: الآية ٣].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/٣٨٨.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/٤٣٣.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/٣٨٧.
(٤) أخرجه الترمذي في: تفسير القرآن، باب: (٥٧)، «ومن سورة الحديد»، وأحمد في المسند ٢/٣٧٠.

ورواه الترمذي عن عَبْدِ بن حَمِيدٍ، وغير واحد عن يونس بن محمد المؤدّب عن شيبان بن عبد الرحمن عن قَتَادَةَ، قال: حدَّثَ الحسنُ عن أبي هريرةَ وذكره إلا أنه ذكر أن بُعْدَ ما بين كل أرضينَ خمسمائة عام وذكر في آخره كلمة ذكرناها عند تفسير هذه الآية من سورة الحديد.

ثم قال الترمذي هذا حديث غريب من هذا الوجه. قال: ويروى عن أيوب ويونس بن عُبَيْدٍ وعلي بن زيد أنهم قالوا: لم يسمع الحسن من أبي هريرة.

ورواه أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره من حديث أبي جعفر الرازي عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة، فذكر مثل لفظ الترمذي سواء بدون زيادة في آخره.

ورواه ابن جرير في تفسيره عن بشر عن يزيد عن سعيد بن أبي عَرُوبة عن قَتَادَةَ مرسلاً. وقد يكون هذا أشبه والله أعلم.

ورواه الحافظ أبو بكر البزار والبيهقي، من حديث أبي ذَرٍّ الغِفَارِي عن النبيِّ ﷺ ولكن لا يصح إسناده والله أعلم.

وقد تقدَّم عند صفة العرش من حديث الأوعالِ ما يخالف هذا في ارتفاع العرش عن السماء السابعة وما يشهد له. وفيه ويُعد ما بين كل سماءين خمسمائة عام، وكثفها أي سُمكها خمسمائة عام. وأما ما ذهب إليه بعض المتكلمين على حديث «طَوِّقَهُ مِن سَبْعِ أَرَضِينَ» أنها سبعة أقاليم. فهو قول يخالف ظاهر الآية والحديث الصحيح وصريح كثير من ألفاظه مما يعتمد من الحديث الذي أوردناه من طريق الحسن عن أبي هريرة. ثم أنه حمل الحديث والآية على خلاف ظاهرهما بلا مستند ولا دليل والله أعلم. وهكذا مما[1] يذكره كثير من أهل الكتاب وتَلَقَّاه عنهم طائفة من علمائنا من أن هذه الأرض من تراب والتي تحتها من حديد والأخرى من حجارة من كبريت والأخرى من كذا. فكل هذا إذا لم يخبر به ويصحّ سنده إلى معصوم فهو مردود على قائله. وهكذا الأثر المروي عن ابن عباس أنه قال: في كل أرض من الخلق مثل ما في هذه حتى آدم كآدمكم وإبراهيم كإبراهيمكم فهذا ذكره ابن جرير مختصراً واستقصاه البيهَقي في الأسماء والصفات وهو محمول إن صح نقله عنه على أنه أخذه ابن عباس رضي الله عنه عن الإسرائيليات والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا العَوَّامُ بن حَوْشَب عن سليمانَ بن أبي سُليمانَ عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدُ[2]، فَخَلَقَ الجِبَالَ فَأَلْقَاهَا عَلَيْهَا فَاسْتَقَرَّتْ فَتَعَجَّبَتِ المَلائِكَةُ مِنْ خَلْقِ الجِبَالِ فَقَالَتْ: يَا رَبِّ هَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الجِبَالِ قَالَ: نَعَمْ الحَدِيدُ. قَالَتْ: يَا رَبِّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الحَدِيدِ: قَالَ: نَعَمْ النَّارُ. قَالَتْ: يَا رَبِّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ النَّارِ قَالَ: نَعَمْ الرِّيحُ. قَالَتْ: يَا رَبِّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الرِّيحِ قَالَ: نَعَمْ ابْنُ آدَمَ يَتَصَدَّقُ بِيَمِينِهِ يُخْفِيهَا مِنْ شِمَالِهِ» تفرّد به أحمد[3].

---

(١) في ط: ما.
(٢) تميد: تدور.
(٣) المسند ٣/ ١٢٤.

وقد ذكر أصحابُ الهيئةِ أعداد جبال الأرض في سائر بقاعها شرقاً وغرباً، وذكروا طولها وبُعْدَ امتدادها وارتفاعها وأوسعوا القول في ذلك بما يطول شرحه هنا. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧﴾ [فاطر: الآية ٢٧] قال ابن عباس وغير واحد الجدد: الطرائق، وقال عِكْرِمَةُ وغيرُه الغرابيب الجبال الطوال السود. وهذا هو الشاهد من الجبال في سائر الأرض تختلف باختلاف بقاعها وألوانها. وقد ذكر الله تعالى في كتابه الجودي[1] على التعيين وهو جبل عظيم شرقي جزيرة ابن عمر إلى جانب دجلة عند الموصل امتداده من الجنوب إلى الشمال مسيرة ثلاثة أيام وارتفاعه مسيرة نصف يوم وهو أخضر لأن فيه شجراً من البلوط وإلى جانبه قرية يقال لها: قرية الثمانين لسكنى الذين نجوا من[2] السفينة مع نوح عليه السلام في موضعها فيما ذكره غير واحد من المفسّرين والله أعلم.

فصل في البحار والأنهار

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨﴾ [النحل: الآية ١٤ـ ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢﴾ [فاطر: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣﴾ [الفرقان: الآية ٥٣].

وقال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ [الرحمٰن: الآيتان ١٩ـ ٢٠] فالمراد بالبحرين البحر الملح المر وهو الأجاج والبحر العذب هو هذه الأنهار السارحة بين أقطار الأمصار لمصالح العباد قاله ابن جُرَيْج وغير واحد من الأئمة.

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٣٢ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣٣ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ۝٣٤﴾ [الشورى: الآيات ٣٢ـ ٣٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣١ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجوديّ﴾ [هود: الآية: ٤٤].
(٢) في ط: في.

مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان: الآيتان ٣١ ـ ٣٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[البقرة: الآية ١٦٤].

فامتنَّ تعالى على عباده بما خلق لهم من البحار والأنهار فالبحر المحيط بسائر أرجاء الأرض وما ينبت منه في جوانبها الجميع مالح الطعم مرٌّ وفي هذا حكمة عظيمة لصحة الهواء إذ لو كان حلواً لأنتن الجو وفسد الهواء بسبب ما يموت فيه من الحيوانات فكان يؤدي إلى تفاني بني آدم، ولكن اقتضت الحكمة البالغة أن يكون على هذه الصفة لهذه المصلحة. ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن البحر قال: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الحِلُّ مِيتَتُهُ»[1].

وأما الأنهار فماؤها حلو عذب فرات سائغ شرابها لمن أراد ذلك. وجعلها جارية سارحة ينبعها تعالى في أرض ويسوقها إلى أخرى رزقاً للعباد. ومنها كبار ومنها صغار بحسب الحاجة والمصلحة. وقد تكلّم أصحاب علم الهيئة والتفسير على تعداد البحار والأنهار الكبار وأصول منابعها وإلى أين ينتهي سيرها بكلام فيه حكم ودلالات على قدرة الخالق تعالى، وأنه فاعل بالاختيار والحكمة ـ وقوله تعالى ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾ [الطور: الآية ٦] فيه قولان، **أحدهما**: أن المراد به البحر الذي تحت العرش المذكور في حديث الأوعال. وأنه فوق السموات السبع بين أسفله وأعلاه كما بين سماء إلى سماء، وهو الذي ينزل منه المطر قبل البعث فتحيا منه الأجساد من قبورها. وهذا القول هو اختيار الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ. **والثاني**: أن البحر اسم جنسٍ يعمُّ سائر البحار التي في الأرض وهو قول الجمهور.

واختلفوا في معنى [البحر][2] المسجور فقيل: المملوء وقيل: يصير يوم القيامة ناراً تؤجج فيحيط بأهل الموقف كما ذكرناه في التفسير عن عَلِيٍّ وابن عباس وسعيدِ بن جبيرٍ وابن مجاهد وغيرهم. وقيل المراد به الممنوع المكفوف المحروس عن أن يطغى فيغمر[3] الأرض ومن عليها فيغرقوا. رواه الوَالِبِي عن ابن عبَّاسٍ وهو قول السُّدِّيِّ وغيره، ويؤيده الحديث الذي رواه الإمام أحمد: **حدثنا يَزِيدُ حدثنا العَوَّامُ حَدثني شَيْخٌ** كان مرابطاً بالساحل قال: لقيتُ أبا صالحٍ مولى عمر بن الخطاب فقال حدثنا عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ قال: «لَيسَ مِن لَيلَةٍ إلاَّ وَالبَحْرُ يُشْرِفُ فِيهَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ يَستَأذِنُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَتَفَضَّحَ[4] عَلَيهِمْ فَيَكُفُّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»[5] ورواه إسحاق بن رَاهَوَيْهِ عن يزيدِ بن هَرُونَ عن العَوَّامِ بن حَوْشَبٍ: حدثني شيخ مرابط قال: «خرجتُ ليلةِ لِمِحْرَسٍ لم يخرجْ أحدٌ من المَحْرَسِ غيري فأتيتُ الميناءَ فصعدتُ فجعل يُخَيَّلُ إِلَيَّ أنَّ البحرَ يُشْرِفُ يُحاذِي برؤوسِ الجبالِ فعلَ ذلك مراراً وأنا مستيقظٌ فلقيتُ أبا صالح فقال: حدثنا عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِن لَيلَةٍ إلاَّ وَالبَحرَ يُشْرِفُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ يَستَأذِنُ اللَّهَ أَنْ يَتَفَضَّحَ

---

(١) أخرجه ابن ماجة في: الطهارة وسننها، باب: (٣٨)، وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٧.

(٢) سقط: في ط. (٣) في ب: فيعم. (٤) يتفضح: يتوضح. أي ويطمن ويغرق الأرض ومن عليها.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٤٣.

عَلَيهِمْ فَيَكُفُّهُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ» في إسناده رجل مبهم والله أعلم.

وهذا من نعمه تعالى على عباده أن كفَّ شرَّ البحر عن أن يطغى عليهم وسخّره لهم يحمل مراكبهم ليبلغوا عليها إلى الأقاليم النائيةِ بالتِّجاراتِ وغيرها، وهداهم فيه بما خلقه في السماء والأرض من النجوم، والجبال التي جعلها لهم علامات يهتدون بها في سيرهم، وبما خلق لهم فيه من اللآلىء والجواهر النفيسة العزيزة الحسنة الثمينة التي لا توجد إلا فيه وبما خلق فيه من الدواب الغريبة، وأحلها لهم حتى ميتتها كما قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ [المائدة: الآية ٩٦].

وقال النبي ﷺ: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الحِلُّ مِيتَتُهُ»[1]

وفي الحديث الآخر «أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ السَّمَكُ وَالجَرَادُ وَالكَبِدُ وَالطِّحَالُ»[2] رواه أحمدُ وابن ماجة وفي إسناده نظر.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزّار في مسنده «وجدت في كتاب عن محمد بن معاوية البغدادي: حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر وعن سُهَيْل بن أبي صَالِح عن أبيه عن أبي هريرة رفعه قال: «كَلَّمَ اللّهُ هَذَا البَحْرَ الغَرْبِيَّ وَكَلَّمَ البَحْرَ الشَّرْقِيَّ فَقَالَ لِلغَرْبِيِّ إِنِّي حَامِلٌ فِيكَ عِبَاداً مِنْ عِبَادِي فَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ بِهِمْ؟ قَالَ: أُغْرِقُهُمْ. قَالَ: بَأْسُكَ فِي نَوَاحِيكَ وَحَرَمَهُ الحِلْيَةَ وَالصَّيْدَ، وَكَلَّمَ هَذَا البَحْرَ الشَّرْقِيَّ فَقَالَ: إِنِّي حَامِلٌ فِيكَ عِبَاداً مِنْ عِبَادِي فَمَا أَنْتَ صَانِعٌ بِهِمْ؟ قَالَ أَحْمِلُهُمْ عَلَى يَدِي، وَأَكُونُ لَهُمْ كَالوَالِدَةِ لِوَلَدِهَا فَأَثَابَهُ الحِلْيَةَ وَالصَّيْدَ. ثُمَّ قَالَ لاَ تُعْلِمْ أَحَداً». ما رواه عن سُهَيْلٍ إلاّ عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو وهو منكر الحديث. قال وقد رواه سهيل عن عبد الرحمن بن أبي عَيَّاشٍ عن عبد الله بن عمرو موقوفاً.

قلت: الموقوف على عبد الله بن عَمْرو بن العَاصِ أشبهُ، فإنه قد كان وجد يوم اليرموك زاملتين مملوءتين كتباً من علوم أهل الكتاب، فكان يحدِّث منهما بأشياء كثيرة من الإسرائيليات منها المعروف والمشهور والمنكور والمردود. فأما المعروف فتفرّد به عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو بن حَفْصِ بن عَاصِمِ بن عمر بن الخطاب أبو القاسم المَدَنِي قاضيها. قال فيه الإمام أحمد: ليس بشيء وقد سمعته منه. ثم مزّقتُ حديثه، كان كذّاباً وأحاديثه مناكير. وكذا ضعفه ابن مَعِينٍ، وأبو زُرْعَةَ، وأبو حاتِمُ، والجَوْزَجَانِي[3] والبُخَارِي، وأبو داود، والنَّسَائِي، وقال ابنُ عَدِيٍّ: عامة أحاديثه مناكير وأفظعها حديث البحر.

قال علماء التفسير المتكلمون على العروض والأطوال والبحار والأنهار والجبال والمساحات وما في الأرض من المدن والخراب والعمارات والأقاليم السبعة الحقيقية في اصطلاحهم والأقاليم المتعددة العرفية وما في البلدان والأقاليم من الخواص والنباتات وما يوجد في كل قطر من صنوف المعادن والتجارات قالوا: الأرض مغمورة بالماء العظيم إلا مقدار الربع

(١) تقدم الحديث مع تخريجه قبل قليل.
(٢) أخرجه ابن ماجة في: الصيد، باب: (٩) وأحمد في المسند ٢/ ٩٧.
(٣) في الأصل: الجواليقي، وما في ط أصح.

منها وهو تسعون درجة والعناية الإلهية اقتضت انحسار الماء عن هذا القدر منها لتعيش الحيوانات عليها وتنبت الزرع والثمار منها كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمٰن: الآيات ١٠ـ١٣].

قالوا: المعمور من هذا البادي منها قريب الثلثين منه أو أكثر قليلاً. وهو خمس وتسعون درجة. قالوا: فالبحر المحيط الغربي ويقال له: أوقيانوس وهو الذي يتاخم بلاد المغرب وفيه الجزائر الخالدات وبينها وبين ساحله عشر درجات مسافة شهر تقريباً، وهو بحر لا يمكن سلوكه ولا ركوبه لكثرة موجه واختلاف ما فيه من الرياح والأمواج وليس فيه صيد ولا يستخرج منه شيء ولا يسافر فيه لمتجر ولا لغيره وهو آخذ في ناحية الجنوب حتى يسامت[1] الجبال القُمْر ويقال جبال القمر التي منها أصل منبع نيل مصر ويتجاوز خط الاستواء ثم يمتد شرقاً ويصير جنوبي الأرض. وفيه هناك جزائر الزابج وعلى سواحله خراب كثير. ثم يمتد شرقاً وشمالاً حتى يتصل ببحر الصين والهند. ثم يمتد شرقاً حتى يسامت نهاية الأرض الشرقية المكشوفة. وهناك بلاد الصين. ثم ينعطف في شرق الصين إلى جهة الشمال حتى يجاوز بلاد الصين ويسامت سد يأجوج ومأجوج. ثم ينعطف ويستدير على أراضي غير معلومة الأحوال. ثم يمتد مغرّباً في شمال الأرض ويسامت بلاد الروس، ويتجاوزها ويعطف مغرباً وجنوبياً ويستدير على الأرض ويعود إلى جهة الغرب وينبثق من الغربي إلى متن الأرض الرقاق الذي ينتهي أقصاه إلى أطراف الشام من الغرب. ثم يأخذ في بلاد الروم حتى يتصل بالقسطنطينية وغيرها من بلادهم.

وينبعث من المحيط الشرقي بحار أُخر فيها جزائر كثيرة، حتى أنه يقال إن في بحر الهند ألف جزيرة وسبعمائة جزيرة فيها مدن وعمارات سوى الجزائر العاطلة ويقال لها البحر الأخضر فشرقيه بحر الصين وغربيه بحر اليمن وشماله بحر الهند وجنوبيه غير معلوم.

وذكروا أن بين بحر الهند وبحر الصين جبالاً فاصلة بينهما وفيها فجاج تسلك المراكب بينها يسيِّرها لهم الذي خلقها كما جعل مثلها في البرّ أيضاً قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٣١] وقد ذكر بَطْلِيمُوسَ أحد ملوك الهند في كتابه المسمى بالمجسطي الذي عُرِّب في زمان المأمون، وهو أصل هذه العلوم أن البحار المتفجرة من المحيط الغربي والشرقي والجنوبي والشمالي كثيرة جداً. فمنها ما هو واحد، ولكن يسمى بحسب البلاد المتاخمة له. فمن ذلك بحر القَلْزَم[2] والقَلْزَمُ قرية على ساحله قريب من أَيْلَةَ. وبحر فارس وبحر الخَزَر وبحر ورنك وبحر الروم وبحر بنطش وبحر الأزرق، مدينة على ساحله وهو بحر القَرم أيضاً ويتضايق حتى يصب في بحر الروم عند جنوبي القسطنطينية وهو خليج القسطنطينية، ولهذا تسرع المراكب في سيرها من

---

(١) يسامت: يقابل ويواجه.

(٢) هو البحر الأحمر اليوم.

القرم[1] إلى بحر الروم وتبطىء إذا جاءت من الإسكندرية إلى القرم[1] لاستقبالها جريان الماء. وهذا من العجائب في الدنيا فإن كل ماء جار فهو حلو إلا هذا وكل بحر راكد فهو ملح أجاج إلا ما يذكر عن بحر الخزر وهو بحر جرجان وبحر طبرستان أن فيه قطعة كبيرة ماء حلواً فراتاً على ما أخبر به المسافرون عنه.

قال أهل الهيئة: وهو بحر مستدير الشكل إلى الطول ما هو. وقيل: إنه مثلث كالقلع وليس هو متصلاً بشيء من البحر المحيط بل منفرد وحده، وطوله ثمانمائة ميل وعرضه ستمائة وقيل أكثر من ذلك والله أعلم.

ومن ذلك البحر الذي يخرج منه المد والجزر عند البصرة وفي بلاد المغرب نظيره أيضاً يتزايد الماء من أول الشهر ولا يزال في زيادة إلى تمام الليلة الرابعة عشر منه وهو المد. ثم يشرع في النقص وهو الجزر إلى آخر الشهر. وقد ذكروا تحديد هذه البحار ومبتداها ومنتهاها وذكروا ما في الأرض من البحيرات المجتمعة من الأنهار وغيرها من السيول وهي البطائح.

وذكروا ما في الأرض من الأنهار المشهورة الكبار، وذكروا ابتداءها وانتهاءها ولسنا بصدد بسط ذلك والتطويل فيه وإنما نتكلم على ما يتعلق بالأنهار الوارد ذكرها في الحديث. وقد قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: الآيات ٣٢- ٣٤] ففي الصحيحين من طريق قَتَادَةَ عن أَنَسِ بن مَالِكِ عن مَالِكِ بن صَعْصَعَةٍ أَنَّ رَسولَ الله ﷺ لما ذكر سدرةَ المنتهي قال: «فَإِذَا يَخرُجُ مِنْ أَصلِهَا نَهرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهرَانِ ظَاهِرَانِ. فَأَمَّا البَاطِنَانِ فَفِي الجَنَّةِ وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالفُرَاتُ»[2]. وفي لفظ في البخاري: وعنصرهما أي مادتهما أو شكلهما وعلى صفتهما ونعمتهما وليس في الدنيا مما في الجنة إلاّ الأسماء[3].

وفي صحيح مسلم من حديث عُبَيْدِ الله بن عمر عن خُبَيْبِ بن عبد الرحمن عن حَفْصِ بن عاصِم عن أبي هريرةَ أن رسول الله ﷺ قال: «سَيحَانُ وَجَيحَانُ وَالفُرَاتُ وَالنِّيلُ كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الجَنَّةِ»[4].

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن نُمَيْرٍ ويزيدُ، أنبأنا محمد بن عَمْرٍو عن أبي سَلَمَةَ عن أبي هريرةَ قال رسولُ ﷺ: «فُجِّرَتْ أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ مِنَ الجَنَّةِ الفُرَاتُ وَالنِّيلُ وَسَيحَانُ وَجَيحَانُ»[5] وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم. وكأن المراد والله أعلم من هذا إن هذه الأنهار تشبه أنهار الجنة

---

(١) في الأصل: القلزم.
(٢) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (٦). ومسلم في (الحديث ٢٦٤). وأحمد في المسند ٤/٢٠٨.
(٣) في ط: سماوية.
(٤) أخرجه مسلم في: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، (الحديث ٢٦). وأحمد في المسند ٢/٢٨٩.
(٥) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٢٦٠، ٢٦١.

في صفائها وعذوبتها وجريانها ومن جنس تلك في هذه الصفات ونحوها كما قال في الحديث الآخر الذي رواه التِّرمِذِي وصححه من طريق سَعيد بن عامِر عن محمد بن عَمْرو عن أَبِي سَلَمَةَ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «العَجْوَةُ[1] مِنَ الجَنَّةِ وَفِيهَا شِفَاءٌ مِنَ السُّمِّ»[2] أي تشبه ثمر الجنة لا أنها مجتناة من الجنة، فإن الحسّ يشهد بخلاف ذلك فتعين أن المراد غيره وكذا قوله ﷺ: «الحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ»[3] وكذا قوله: «إِذَا اشْتَدَّت الحُمَّى فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ فَإِنَّ شِدَّةَ الحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّم»[4]. وهكذا هذه الأنهار أصل منبعها مشاهد من الأرض.

أما النيل، وهو النهر الذي ليس في أنهار الدنيا له نظير في خفته ولطافته وبعد مسراه فيما بين مبتداه إلى منتهاه فمبتداه من الجبال القُمْر أي البيض ومنهم من يقول جبال القمر بالإضافة إلى الكواكب وهي في غربي الأرض وراء خط الاستواء إلى الجانب الجنوبي. ويقال إنها حمر ينبع من بينها عيون. ثم يجتمع من عشر مسيلات متباعدة. ثم يجتمع كل خمسة منها في بحر. ثم يخرج منها أنهار ستة. ثم يجتمع كلها في بحيرة أخرى. ثم يخرج منها نهر واحد هو النيل فيمر على بلاد السودان بالحبشة ثم على النوبة ومدينتها العظمى دمقلة[5] ثم على أسوان ثم يفد عل ديار مصر. وقد تحمل إليها من بلاد الحبشة زيادات أمطارها وما اجترف من ترابها وهي محتاجة إليهما معاً لأن مطرها قليل لا يكفي زروعها وأشجارها. وترتبها رمال لا تنبت شيئاً حتى يجيء النيل بزيادته وطينه فينبت فيه ما يحتاجون إليه وهي من أحق الأراضي بدخولها في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾ [السجدة: الآية ٢٧].

ثم يجاوز النيل مصر قليلاً فيفترق شطرين عند قرية على شاطئه يقال لها شطنوف فيمر الغربي على رشيد ويصب في البحر المالح. وأما الشرقي فتفترق أيضاً عند جوجر فرقتين تمر الغربية منهما على دمياط من غربيها ويصب في البحر والشرقية منهما تمر على أشمون طناح فيصب هناك في بحيرة شرقي دمياط. يقال لها بحيرة تنيس وبحيرة دمياط. وهذا بعد عظيم فيما بين مبتداه إلى منتهاه. ولهذا كان ألطف المياه. قال ابن سينا: له خصوصيات دون مياه سائر الأرض، فمنها، أنه أبعدها مسافة من مجراه إلى أقصاه. ومنها، أنه يجري على صخور ورمال ليس فيه خز ولا طحلب ولا أوحال ومنها، أنه لا يخضر فيه حجر ولا حصاة وما ذاك إلا لصحة مزاجه وحلاوته ولطافته. ومنها، أن زيادته في أيام نقصان سائر الأنهار، ونقصانه في أيام زيادتها وكثرتها وأما ما يذكره بعضهم من أن أصل منبع النيل من مكان مرتفع اطلع عليه بعض الناس فرأى هناك هولاً عظيماً وجواري حساناً وأشياء غريبة وأن الذي اطلع على ذلك لا يمكنه الكلام

---

(١) العجوة: التمر.

(٢) أخرجه الترمذي في: الطب، باب: (٢٢).

(٣) أخرجه الترمذي في: الطب، باب: (٢٥)، وأحمد في المسند ٢/ ٢١.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ١٣٤.

(٥) تعرف اليوم باسم دنقلة.

بعد هذا فهو من خرافات المؤرخين وهذيانات الأفاكين.

وقد قال عبد الله بن لَهِيَعَة عن قَيْسِ بن الحَجَّاج عمن حدثه قال: «لما فتحَ عمرو بن عاص مصر أتى أهلها إليه حين دخل شهر بؤنةَ من أشهر العَجم (القبطية) فقالوا: (أيها الأمير إن لنيلنا هذا سُنة لا يجري إلا بها! فقال لهم: وما ذاك قالو: إذا كان لثنتي عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في هذا النيل، فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون في الإسلام وإن الإسلام يهدم ما قبله فأقاموا بؤنة والنيل لا يجري لا قليلاً ولا كثيراً وفي رواية فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى وهو لا يجري حتى هموا بالجلاء، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك فكتب إليه عمر إنك قد أصبت بالذي فعلت وإني قد بعثت إليك بطاقة داخل كتابي هذا فألقها في النيل فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها «من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر. أما بعد فإن كنت تجري من قِبَلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهّار هو الذي يجريك فنسأل الله أن يجريك» فألقى عمرو البطاقة في النيل فأصبح يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة وقطع الله تلك السُنّة عن أهل مصر إلى اليوم.

وأما الفرات فأصلها من شمالي أرزن الروم فتمر إلى قرب ملطيه ثم تمر على شميشاط. ثم على البيرة قبليها ثم تشرق إلى بالس وقلعة جعبر، ثم الرقة، ثم إلى الرحبة شماليها، ثم إلى عانة، ثم إلى هيت، [ثم إلى الكوفة][1]، ثم تخرج إلى فضاء العراق ويصب في بطائح كبار أي بحيرات وترد إليها ويخرج منها أنهار كبار معروفة.

وأما سيحان، ويقال له: سيحون أيضاً فأوله من بلاد الروم ويجري من الشمال والغرب إلى الجنوب والشرق وهو غربي مجرى جيحان ودونه في القدر وهو ببلاد الأرمن[2] التي تعرف اليوم ببلاد سيس وقد كانت في أول الدولة الإسلامية في أيدي المسلمين. فلما تغلب الفاطميون على الديار المصرية وملكوا الشام وأعمالها عجزوا عن صونها عن الأعداء فتغلب نقفور الأرمني على هذه البلاد أعني بلاد سيس في حدود الثلاثمائة وإلى يومنا هذا. والله المسؤول عودها إلينا بحوله وقوته. ثم يجتمع سيحان وجيحان عند أَذَنة فيصيران نهراً واحداً. ثم يصبان في بحر الروم بين أياس وطرسوس.

وأما جيحان، ويقال: له جيحون أيضاً وتسميه العامة جاهان. وأصله في بلاد الروم ويسير في بلاد سيس من الشمال إلى الجنوب وهو يقارب الفرات في القدر، ثم يجتمع هو وسيحان عند أذنة فيصيران نهراً واحداً، ثم يصبان في البحر عند إياس وطرسوس والله أعلم.

---

(١) سقط في ط.
(٢) في ط: الأرض.

فصل

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: الآيات ٢ ـ ٤].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: الآيتان ٦٠ ـ ٦١].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النحل: الآيات ١٠ ـ ١٣].

فذكر تعالى ما خلق في الأرض من الجبال والأشجار والثمار والسهول والأوعار وما خلق من صنوف المخلوقات من الجمادات والحيوانات في البراري والقفار والبر والبحار ما يدل على عظمته وقدرته وحكمته ورحمته بخلقه وما سهل لكل دابة من الرزق الذي هي محتاجة إليه في ليلها ونهارها وصيفها وشتائها وصباحها ومسائها كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: الآية ٦].

وقد روى الحافظ أبو يَعْلَى عن محمد بن المُثَنّى عن عُبَيْدِ بنَ واقِدٍ عن محمد بن عيسَى بن كَيْسَانَ عن محمد بن المُنْكَدِرِ عن جابرٍ عن عمر بن الخطاب قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «خَلَقَ اللَّهُ أَلْفَ أُمَّةٍ مِنْهَا سِتُّمَائَةٍ فِي البَحْرِ وَأَرْبَعُمَائَةٍ فِي البَرِّ، وَأَوَّلُ شَيْءٍ يَهْلِكُ مِنْ هَذِهِ الأُمَمِ الجَرَادُ فَإِذَا هَلَكَ تَتَابَعَتْ مِثْلَ النِّظَامِ إِذَا قُطِعَ سِلْكُهُ»[1]

عُبَيْدُ بن وَاقِدٍ، أبو عَبَّادٍ البَصْرِي: ضعّفه أبو حَاتِمٍ وقال ابن عَدِيٍّ: عامة ما يرويه لا يتابع عليه وشيخه أضعف منه. قال الفَلَّاسُ والبُخَارِي منكرُ الحديث، وقال أبو زُرْعَةُ لا ينبغي أن يحدث عنه. وضعفه ابن حبّان والدَارَقُطْني وأنكر عليه ابْنُ عَدِيٍّ هذا الحديث بعينه وغيره والله أعلم.

(١) انظر الدر المنثور للسيوطي ١/ ١٣.

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: الآية ٣٨].

[باب][1] ذكر ما يتعلق بخلق السموات وما فيهن من الآيات

قد قدمنا إن خلق الأرض قبل خلق السماء كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٩].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: الآيات ٩ـ ١٢].

وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات: الآية ٢٧ـ ٣٠] فإن الدحي غير الخلق وهو بعد خلق السماء.

وقال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ [الملك: الآيات ١ـ ٥].

وقال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ [النبأ: الآيتان ١٢ـ ١٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: الآيتان ١٥ـ ١٦].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: الآية ١٢].

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: الآيتان ٦١ـ ٦٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات: الآيات ٦ـ ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ

---

(١) سقط في ط.

رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر: الآيات ١٦ـ ١٧ ـ ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: الآية ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ٣٢ـ ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: الآيات ٣٧ـ ٤٠].

وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ٩٦ـ ٩٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: الآية ٥٤] والآيات في هذا كثيرة جداً وقد تكلمنا على كل منها في التفسير.

والمقصود أنه تعالى يخبر عن خلق السموات وعظمة اتساعها وارتفاعها وأنها في غاية الحسن والبهاء والكمال والسناء كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾ [الذاريات: الآية ٧] أي الخلق الحسن وقال تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: الآيتان ٣ـ ٤] أي خاسئاً عن أن يرى فيها نقصاً أو خللاً وهو حسير أي كليل ضعيف ولو نظر حتى يعي ويكل ويضعف لما اطلع على نقص فيها ولا عيب لأنه تعالى قد أحكم خلقها وزين بالكواكب أفقها كما قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ [البروج: الآية ١] أي النجوم. وقيل مَحالُّ الحَرَسِ التي يرمى منها بالشهب لمُسْتَرِقِ السَّمْع ولا منافاة بين القولين.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ [الحجر: الآيتان ١٦ـ ١٧] فذكر أنه زين منظرها بالكواكب الثوابت والسيارات (الشمس والقمر والنجوم الزاهرات) وأنه صان حوزتها عن حلول الشياطين بها وهذا زينة معنى. فقال وحفظناها من كل شيطان رجيم كما قال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الصافات: الآيات ٦ـ ٨].

قال البخاري في كتاب بدء الخلق وقال قتادة: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥] خلق هذه النجوم الثلاث جعلها زينة للسماء ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى بها فمن تأوّلها[1] بغير ذلك فقد أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به. وهذا الذي قاله قَتادةُ مصرَّحٌ به في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الملك: الآية ٥] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: الآية ٩٧] فمن تكلف

---

(١) في ط: تأول.

غير هذه الثلاث أي من علم أحكام ما تدل عليه حركاتها ومقارناتها في سيرها وأن ذلك يدل على حوادث أرضية. فقد أخطأ. وذلك أن أكثر كلامهم في هذا الباب ليس فيه إلا حدس وظنون كاذبة ودعاوى باطلة. وذكر تعالى أنه خلق سبع سموات طباقاً أي واحدة فوق واحدة. واختلف أصحاب الهيئة هل هُنَّ متراكمات أو متفاصلات بينهن خلاء على قولين. والصحيح الثاني لما قدمنا من حديث عبد الله بن عُمَيْرَةَ عن الأَحْنَفِ عن العَبَّاسِ في حديث الأوعال أن رسول الله ﷺ قال: «أَتَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»؟ قلنَا اللَّهُ ورسولهُ أعلم. قال: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمائَةِ عَام. وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ خَمْسِمائَةِ سَنَةٍ وَكَثْفُ[1] كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسِمائَةِ سَنَةٍ»[2]. الحديث بتمامه رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذي وحسنه.

وفي الصحيحين من حديث أَنَسٍ في حديث الإسراء قال فيه: «وَوَجَدَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا آدَمَ فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ هَذَا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمَ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلاَمَ. وَقَالَ: مَرْحَباً وَأَهْلاً بِابْنِي نِعْمَ الابْنُ أَنْتَ، إلى أن قال: ثُمَّ عَرَجَ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ». وكذا ذكر في الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة. فدل على التفاضل بينها لقوله: «ثُمَّ عُرِجَ بِنَا حَتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ فَاسْتَفْتَحَ فَقِيلَ مَنْ هَذَا»[3] الحديث. وهذا يدل على ما قلناه والله أعلم.

وقد حكى ابن حَزْمٍ وابن المُنَيِّرِ وأبو الفَرَجِ بْنِ الجَوْزِي وغير واحد من العلماء الإجماع على أن السموات كرة مستديرة. واستدل على ذلك بقوله: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣﴾. قال الحَسَنُ يدورون، وقال ابن عباس: في فلكة مثل فلكة المغزل. قالوا ويدل على ذلك أن الشمس تغرب كل ليلة من المغرب ثم تطلع في آخرها من المشرق كما قال أُمَيَّةُ بنُ أَبِي الصَّلْتِ. [الكامل]

وَالشَّمْسُ تَطْلَعُ كُلَّ آخِرِ لَيْلَةٍ ... حَمْرَاءَ مَطْلَعُ لَوْنِهَا مُتَوَرِّدُ

تَأْبَى فَلاَ تَبْدُو لَنَا فِي رِسْلِهَا ... إِلاَّ مُعَذَّبَةٌ وَإِلاَّ تُجْلَدُ[4]

فأما الحديث الذي رواه البخاري حيث قال: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيانُ عن الأَعْمَش عن إبراهيم التَّيْمي عن أبيه عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ لأبي ذَرٍّ حين غربت الشمس: «تَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ»؟ قلتُ الله ورسوله أعلم، قال: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنَ لَهَا وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ فَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا وَتَسْتَأْذِنَ فَلاَ يُؤْذَنُ لَهَا. يُقَالُ لَهَا ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ فَتَطْلَعُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٣٨﴾»[5] [يس: الآية ٣٨].

---

(١) كثف: سمك.

(٢) أخرجه أبو داود في: السنة، باب: (١٩).

(٣) أخرجه البخاري في: الصلاة، باب: (١)، ومسلم في الإيمان، (الحديث ٢٥٩). وأحمد في المسند ٣/ ١٤٨، ١٤٩.

(٤) هكذا بالمخطوط وروي برواية أخرى في أول الكتاب.

(٥) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (٤)، والتفسير، باب: (١)، ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾ والتوحيد، باب: (٢٢)، ومسلم في: الإيمان، (الحديث ٢٥٠). والترمذي في: تفسير القرآن، باب: (٣٧) «ومن سورة يسٓ».

هذا لفظه في بدء الخلق ورواه في التفسير. وفي التوحيد من حديث الأَعْمَشِ أيضاً.

ورواه مسلم في الإيمان من طريق الأَعْمَشِ ومن طريق يُونُس بن عُبَيْدٍ.

وأبو دَاوُدَ من طريق الحَكَمِ بنِ عُتَيْبَةَ كلهم عن إبراهيم بن يزيد بن شُرَيْكٍ عن أبيه عن أَبِي ذَرٍّ بِهِ نَحْوَهُ.

وقال الترمذي حسن صحيح.

إذا علم هذا فإنه حديث لا يعارض ما ذكرناه من استدارة الأفلاك التي هي السمواتُ على أشهر القولين ولا يدل على كريّة العرش كما زعمه زاعمون. قد أبطلنا قولهم فيما سلفَ ولا يدل على أنها تصعد إلى فوق السموات من جهتنا حتى تسجد تحت العرش بل هي تغرب عن أعيننا وهي مستمرة في فلكها الذي هي فيه، وهو الرابع فيما قاله غير واحد من علماء التفسير. وليس في الشرع ما ينفيه بل في الحسّ وهو الكسوفات ما يدل عليه ويقتضيه فإذا ذهبت فيه حتى تتوسطه وهو وقت نصف الليل مثلاً في اعتدال الزمان بحيث يكون بين القطبين الجنوبي والشمالي فإنها تكون أبعد ما يكون من العرش لأنه مُقَبَّبٌ من جهة وجه العالم وهذا محل سجودها كما يناسبها، كما أنها أقرب ما تكون من العرش وقت الزوال من جهتنا فإذا كانت في محل سجودها استأذنت الرب جل جلاله في طلوعها من الشرق فيؤذن لها فتبدو من جهة الشرق وهي مع ذلك كارهة لعصاة بني آدم أن تطلع عليهم ولهذا قال أمية [الكامل]:

تَأْبَى فَلاَ تَبْدُو لَنَا فِي رِسْلِهَا إِلاَّ مُعَذَّبَةً وَإِلاَّ تُجْلَدُ

فإذا كان الوقت الذي يريد الله طلوعها من جهة مغربها تسجد على عادتها وتستأذن في الطلوع من عادتها فلا يؤذن لها فجاء أنها تسجد أيضاً ثم تستأذن فلا يؤذن لها ثم تسجد فلا يؤذن لها وتطول تلك الليلة كما ذكرنا في التفسير، فتقول: يا ربِّ إِنَّ الفجرَ قد اقتربَ وأَنَّ المَدَى بَعِيدٌ فيُقالُ لها ارجِعِي من حيثُ جئتِ فتطلعُ من مغربها فإذَا رآها الناسُ آمنوا جميعاً وذلك قوله تعالى حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: الآية ١٥٨]، وفسّروا بذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قيل وقتها الذي تؤمر فيه تطلع من مغربها. وقيل: مستقرّها موضعها الذي تسجد فيه تحت العرش. وقيل: منتهى سيرها وهو آخر الدنيا.

وعن ابن عباس أنه قرأ «والشمس تجري لا مُسْتَقَرَّ لها» أي ليست تستقر فعلى هذا تسجد وهي سائرة. ولهذا قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: الآية ٤٠] أي لا تدرك الشمس القمر فتطلع في سلطانه ودولته ولا هو أيضاً ولا الليل سابق النهار أي ليس سابقه بمسافة يتأخر ذاك عنه فيها بل إذا ذهب النهار جاء الليل في أثره متعقباً له كما قال في الآية الأخرى يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخّرات، بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: الآية ٦٢].

أي يخلف هذا لهذا وهذا لهذا كما قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَهُنَا وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَهُنَا وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ» فالزمان المحقق ينقسم إلى ليل ونهار وليس بينهما غيرهما. ولهذا قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: الآية ٢٩] فيولج من هذا في هذا، أي يأخذ من طول هذا في قصر هذا فيعتدلان كما في أول فصل الربيع يكون الليل قبل ذلك طويلاً والنهار قصيراً فلا يزال الليل ينقص والنهار يتزايد حتى يعتدلا وهو أول الربيع. ثم يشرع النهار يطول ويتزايد والليل يتناقص [إلى آخر فصل الربيع ثم يتراجع الأمر وينعكس الحال فيشرع النهار يتناقص والليل في ازدياد][1] حتى يعتدلا أيضاً في أول فصل الخريف. ثم يشرع الليل يطول ويقصر النهار إلى آخر فصل الخريف. ثم يترجح النهار قليلاً قليلاً ويتناقص الليل شيئاً فشيئاً حتى يعتدلا في أول فصل الربيع كما قدّمنا، وهكذا في كل عام. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [المؤمنون: الآية ٨٠] أي هو المتصرف في ذلك كلّه، الحاكم الذي لا يخالف ولا يمانع ولهذا يقول في ثلاث آيات عند ذكر السموات والنجوم والليل والنهار: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: الآية ٩٦] أي العزيز الذي قد قهر كل شيء ودان له كل شيء فلا يمانع ولا يغالب العليم بكل شيء فقدر كل شيء تقديراً على نظام لا يختلف ولا يضطرب. وقد ثبت في الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» وفي رواية: «فَأَنَا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ»[2].

قال العلماء: كالشافعي وأبي عبيد القاسم بن سلام وغيرهما يسبّ الدهر أي يقول فعل بنا الدهر كذا يا خيبة الدهر، أيتم الأولاد، أرمل النساء. قال تعالى: «وَأَنَا الدَّهْرُ» أي أنا الدهر الذي يعنيه فإنه فاعل ذلك الذي أسنده إلى الدهر والدهر مخلوق، وإنما فاعل[3] هذا هو الله، فهو يسب فاعل ذلك ويعتقده الدهر. والله هو الفاعل لذلك الخالق لكل شيء المتصرف في كل شيء كما قال «وأنا الدهر بيدي الأمر أقلّب ليله ونهاره»[4] وكما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ٢٦-٢٧].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس: الآيتان ٥-٦] أي فاوت بين

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من ط.

(٢) أخرجه البخاري في: التوحيد، باب: (٣٥)، والتفسير، باب: (٤٥)، سورة الجاثية، ومسلم في الألفاظ، (الحديث ٢). وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٨.

(٣) في ط: فعل.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٢٧٢.

الشمس والقمر في نورهما وفي شكلهما وفي وقتهما وفي سيرهما فجعل هذا ضياء وهو شعاع الشمس برهان ساطع وضوء باهر والقمر نوراً أي أضعف من برهان الشمس وجعله مستفاداً من ضوئها وقدّره منازل أي يطلع أول ليلة من الشهر صغيراً ضئيلاً قليل النور لقربه من الشمس وقلة مقابلته لها فبقدر مقابلته لها يكون نوره ولهذا في الليلة الثانية يكون أبعد منها بضعف ما كان في الليلة الأولى فيكون نوره بضعف النور أول ليلة. ثم كلما بعد ازداد نوره حتى يتكامل إبداره ليلة مقابلته إياها من المشرق وذلك ليلة أربع عشرة من الشهر. ثم يشرع في النقص لاقترابه إليها من الجهة الأخرى إلى آخر الشهر فيستتر حتى يعود كما بدا في أول الشهر الثاني. فيه تعرف الشهور وبالشمس تعرف الليالي والأيام وبذلك تعرف السنين والأعوام ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: الآية ٥].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: الآية ١٢] وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: الآية ١٨٩].

وقد بسطنا القول على هذا كله في التفسير. فالكواكب التي في السماء منها سيارات وهي المتحيرة في اصطلاح علماء التسيير[1] وهو علم غالبه صحيح بخلاف علم الأحكام فإن غالبه باطل ودعوى ما لا دليل عليه وهي سبعة. القمر في سماء الدنيا وعطارد في الثانية والزهرة في الثالثة والشمس في الرابعة والمريخ في الخامسة والمشتري في السادسة وزحل في السابعة. وبقية الكواكب يسمونها الثوابت وهي عندهم في الفلك الثامن وهو الكرسي في اصطلاح كثير من المتأخرين. وقال آخرون: بل الكواكب كلها في السماء الدنيا ولا مانع من كون بعضها فوق بعض. وقد يستدل على هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: الآية ٥] وبقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: الآية ١٢] فخص سماء الدنيا من بينهن بزينة الكواكب فإن دل هذا على كونها مرصعة فيها فذاك. وإلا فلا مانع مما قاله الآخرون والله أعلم. وعندهم أن الأفلاك السبعة بل الثمانية تدور بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات تدور على خلاف فلكه من المغرب إلى المشرق. فالقمر يقطع فلكه في شهر والشمس تقطع فلكها وهو الرابع في سنة. فإذا كان السيران ليس بينهما تفاوت وحركاتهما متقاربة كان قدر السماء الرابعة بقدر السماء الدنيا ثنتي عشرة مرة وزحل يقطع فلكه وهو السابع في ثلاثين سنة فعلى هذا يكون بقدر السماء الدنيا ثلثمائة وستين مرة.

وقد تكلموا على مقادير أجرام هذه الكواكب وسيرها وحركاتها وتوسعوا في هذه الأشياء حتى تعدوا إلى علم الأحكام وما يترتب على ذلك من الحوادث الأرضية ومما لا علم لكثير منهم به. وقد كان اليونانيون الذين كانوا يسكنون الشام قبل زمن المسيح عليه السلام بدهور لهم

(١) في ط: التفسير. وهو خطأ.

في هذا كلام كثير يطول بسطه، وهم الذين بنوا مدينة دمشق وجعلوا لها أبواباً سبعة وجعلوا على رأس كل باب هيكلاً على صفة الكواكب السبعة. يعبدون كل واحد في هيكله، ويدعونه بدعاء يأثره عنهم غير واحد من أهل التواريخ وغيرهم. وذكره صاحب كتاب السرّ المكتوم في مخاطبة الشمس والقمر والنجوم وغيره من علماء الحرنانيين (فلاسفة حران في قديم الزمان). وقد كانوا مشركين يعبدون الكواكب السبعة وهم طائفة من الصابئين. ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: الآية ٣٧] وقال تعالى إخباراً عن الهدهد أنه قال لسليمان عليه السلام مخبراً عن بلقيس وجنودها ملكة سبأ في اليمن وما والاها ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: الآيات ٢٣-٢٦].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: الآية ١٨].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: الآيات ٤٨-٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرعد: الآية ١٥].

وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: الآية ٤٤] والآيات في هذا كثيرة جداً.

ولما كان أشرف الأجرام المشاهدة في السموات والأرض هي الكواكب وأشرفهن منظراً وأشرفهن معتبراً الشمس والقمر استدل الخليل على بطلان إلٰهية شيء منهن. وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام: الآية ٧٦]. أي الغائبين ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٧٧-٧٩].

فبيّن بطريق البرهان القطعي أن هذه الأجرام المشاهدات من الكواكب والقمر والشمس لا يصلح شيء منها للإلهية لأنها كلها مخلوقة مربوبة مدبرة مسخرة في سيرها لا تحيد عما خلقت له ولا تزيغ[1] عنه إلا بتقدير متقن محرر لا تضطرب ولا تختلف. وذلك دليل على كونها

(١) تزيغ: تميل.

مربوبة مصنوعة مسخرة مقهورة ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: الآية ٣٧] وثبت في الصحيحين في صلاة الكسوف من حديث ابن عُمَرَ وابن عباس وعائشةَ وغيرهم من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذٍ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِنَّهُمَا لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ»[١]

وقال البخاري في بدء الخلق: حدثنا مُسَدَّدٌ حدثنا عبد العزيز بن المختار، حدثنا عبد الله الدَّانَاج، حدثني أبو سَلَمَةَ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الشَّمْسُ وَالقَمَرُ مُكَوَّرَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[٢] انفرد به البخاري.

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار بأبسط من هذا السياق، فقال: حدثنا إبراهيم بن زياد البغدادي، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا عبد العزيز بن المختار عن عبد الله الدَّانَاجِ سمعت أبا سَلَمَةَ بن عبد الرحمن زمن خالد بن عبد الله القَسْرِي في هذا المسجد مسجد الكوفة وجاء الحسن فجلس إليه فحدث قال: حدثنا أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ ثَوْرَانِ فِي النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ» فَقَالَ الحسنُ: وما ذنبُهُمَا فقال: أحدِّثُكَ عن رسول الله ﷺ وتقول وما ذنبهما. ثم قال البزار: لا يروى عن أبي هُرَيْرَةَ إلا من هذا الوجه ولم يَرْوِ عبدُ الله الدَّانَاجِ عن أبي سَلَمَةَ سوى هذا الحديث.

وروى الحافظ أبو يَعْلَى المَوْصِلِّي من طريق يَزِيد الرَّقَاشِي وهو ضعيف عن أَنَسٍ قال قال رسول الله ﷺ: «الشَّمْسُ وَالقَمَرُ ثَوْرَانِ عَقِيرَانِ فِي النَّارِ». وقال ابن أبي حَاتِم حدثنا أبو سعيد الأَشَجُّ وعمر بن عبد الله الأَزْدِي، حدثنا أبو أسامة عن مُجَالِدٍ عن شَيْخٍ من بُجَيْلَةَ عن ابن عَبَّاسٍ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾. قال: يكوِّر الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر ويبعث الله ريحاً دبوراً[٣] فتضرمها ناراً. فدلت هذه الآثار على أن الشمس والقمر من مخلوقات الله خلقها الله لما أراد. ثم يفعل فيها ما يشاء، وله الحجة الدامغة والحكمة البالغة فلا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته وقدرته ومشيئته النافذة وحكمه الذي لا يرد ولا يمانع ولا يغالب. وما أحسن ما أورده الإمام محمد بن إسحاق بن يسّار في أول كتاب السيرة من الشعر لزيد بن عمرو بن نُفَيْلٍ في خلق السماء والأرض والشمس والقمر وغير ذلك. قال ابن هشام هي لأمية بن أبي الصَّلْتِ [الطويل]:

إلى الله أُهدي مِدْحَتي وَثَنَائِيَا ... وَقولاً رَضِيّاً لاَ يَنِي الدَّهرَ بَاقِيَا

إلى الملك الأَعلى الَّذِي لَيْسَ فَوْقه ... إِلَهٌ وَلاَ ربٌّ يَكُونُ مُدانِيَا

---

(١) أخرجه البخاري في: الكسوف، باب: (١)، وبدء الخلق، باب: (٤)، ومسلم في: الكسوف، (الحديث ٦/٢٨)، وأحمد في المسند ٢/١٠٩، ٦/١٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (٤).

(٣) الريح الدبور: الريح الغربية.

ألا أيُّها الإنسانُ إيّاكَ والرَّدَى فإنَّكَ لا تُخفِي مِنَ اللّهِ خافِيا
وَإيّاكَ لا تجعلْ مع اللّهِ غيرَه فإنّ سبيلَ الرشدِ أصبَحَ باديا
حَنانيكَ إنّ الجنَ كانت رَجاءَهُمْ وأنتَ إلهي رَبّنا وَرَجائِيَا
رضيتُ بكَ اللّهُمّ ربّاً فلَنْ أرَى أدِينُ إلهاً غيرَكَ اللّهُ ثانيا
وأنتَ الَّذِي مِنْ فضلِ مَنٍّ ورَحْمَةٍ بعثتَ إلى موسى رسولاً مُناديا
فقلتَ له: إذْهَبْ وَهَرُونُ فادْعُوَا إلَى اللّهِ فرعَونَ الَّذِي كَانَ طَاغِيَا
وَقُولاَ لَهُ: آأنتَ سَوَّيْتَ هذِهِ بلا وَتَدٍ حتّى اطْمَأنّتْ كَمَا هِيَا
وقُولا لَه: أنتَ رَفَعْتَ هَذِهِ بلا عَمَدٍ، أرْفِقْ إذاً بِكَ بَانِيَا
وقولا له: آأنت سَوَّيْتَ وَسْطَهَا مُنِيراً إذَا مَاجَنّهُ اللَّيْلُ هَادِيَا
وَقُولاَ لَهُ مَنْ يُرسِلُ الشَّمسَ غُدْوَةً فَيُصْبِحُ مَا مَسَّتْ مِنَ الأرْضِ ضَاحِيَا
وَقولا لَهُ: مَنْ يُنْبِتُ الحَبَّ فِي الثّرَى فَيُصْبِحُ مِنْهُ البَقْلُ يَهْتَزُّ رَابِيَا
وَيَخْرُجُ مِنْهُ حَبُّهُ فِي رُؤُوسِهِ وَفِي ذَاكَ آيَاتٌ لِمَنْ كَانَ وَاعِيَا
وَأَنْتَ بِفَضْلٍ مِنْكَ نَجَّيْتَ يُونُسا وَقَدْ بَاتَ فِي أَضْعَافِ حُوتٍ[1] لَيَالِيَا
وَإنّي لَوْ سَبَّحْتُ بِاسْمِكَ رَبّنا لأكْثرُ إلاّ ما غَفَرْتَ خَطَائِي
فَرَبُّ العِبَادِ أَلْقِ سَيْباً[2] ورحمةً عَلَيَّ وَبَارِكْ فِيَ بَنِيَّ وَمَالِيَا

فإذا علم هذا فالكواكب التي في السماء من الثوابت والسيارات الجميع مخلوقة خلقها الله تعالى كما قال: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: الآية ١٢].

وأما ما يذكره كثير من المفسّرين في قصة هاروت وماروت من أن الزهرة كانت امرأة فراوداها على نفسها فأبت إلا أن يعلّماها الاسم الأعظم فعلماها فقالته فرفعت كوكبا إلى السماء فهذا أظنه من وضع الإسرائيليين، وإن كان قد أخرجه كَعْبُ الأحبار وتلقاه عنه طائفة من السلف فذكروه على سبيل الحكاية والتحديث عن بني إسرائيل.

وقد روى الإمام أحمد وابن حِبان في صحيحه في ذلك حديثاً رواه أحمد عن يحيى بن بَكِير عن زُهَيْرِ بن محمد عن موسى بن جُبَيْرٍ عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ وذكر القصّة بطولها. وفيه: «فَمثِلَتْ لَهُمَا الزُّهَرَةُ امْرَأَةً مِنْ أَحْسَنِ البَشَرِ فَجَاءَتْهُمَا فَسَأَلاَهَا نَفْسَهَا»[3] وذكر القصّة.

وقد رواه عبد الرزاق في تفسيره عن الثَّوْرِي عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن

(١) أضعاف حوت: جوف الحوت. (٢) السيب: العطاء.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ١٣٤.

كعب الأحبار به. وهذا أصح وأثبت.

وقد روى الحاكم في مستدركه وابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس فذكره. وقال فيه: وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب وذكر تمامه. وهذا أحسن لفظ رُوي في هذه القصة والله أعلم.

وهكذا الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الملك الواسطي حدثنا يزيد بن هَارُونَ، حدثنا مُبَشِّر بن عبيد عن يزيد بن أَسْلَمَ عن ابن عمر عن النبي ﷺ. وحدثنا عَمْرُو بن عيسى حدثنا عبد الأعلى، حدثنا إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ ذكر سُهَيْلاً فقال: «كَانَ عَشَّاراً ظَلُوماً فَمَسَخَهُ اللَّهُ شِهَاباً» ثم قال لم يَرْوِهِ عن زيد بن أسلم إلاّ مُبَشِّرُ بن عُبَيْدٍ وهو ضعيف الحديث ولا عن عمرو بن دينار إلا إبراهيم بن يزيد وهو لين الحديث. وإنما ذكرناه على ما فيه من علة لأنّا لم نحفظه إلاّ من هذين الوجهين (قلت) أما مُبَشِّرُ بن عُبَيْدٍ القُرَشِّي فهو أبو حَفْصٍ الحِمْصِي وأصله من الكوفة. فقد ضعّفه الجميع وقال فيه الإمام أحمد والدَارَقُطْني كان يضعُ الحديث ويكذب وأما إبراهيم بن يزيد فهو الخوزي وهو ضعيف باتفاقهم. قال فيه أحمد والنسائي متروك.

وقال ابن مَعِينٍ ليس بثقة وليس بشيء. وقال البخاري: سكتوا عنه. وقال أبو حاتم وأبو زُرْعَةَ منكرُ الحديث ضعيف الحديث. ومثل هذا الإسناد لا يثبت به شيء بالكليّةِ. وإذا أحسنا الظن قلنا هذا من أخبار بني إسرائيل كما تقدّم من رواية ابن عمر عن كعب الأحبار. ويكون من خرافاتهم التي لا يعول عليها والله أعلم.

[الكلام على][1] المجرّة وقوسِ قُزح

قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا عليُّ بن عبد العزيز، حدثنا عَارِمُ أبو النعمان، حدثنا أبو عُوَانَةَ عن أبي بِشْرٍ عن سعيدِ بن جُبَيْرٍ عن ابن عباس أنَّ هِرَقْل كتب إلى معاوية وقال إن كان بقي فيهم شيء من النبوة فسيخبرني عما أسألهم عنه. قال: فكتب إليه يسأله عن المجرّة وعن القوس وعن البقعة التي[2] لم تصبها الشمس إلاّ ساعة واحدة؟ قال: فلما أتى معاوية الكتاب والرسول قال: إن هذا الشيء ما كنت آبهُ له أن أسأل عنه إلى يومي هذا! من لهذا؟ قيل ابن عباس فطوى معاوية كتاب هِرَقْلَ فبعث به إلى ابن عباس فكتب إليه «أن القوس أمان لأهل الأرض من الغرق، والمجرة باب السماء الذي تنشق منه الأرض، وأما البقعة التي لم تصبها الشمس إلا ساعة من النهار فالبحر الذي أفرج عن بني إسرائيل» وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنه.

فأما الحديث الذي رواه الطَّبَرَاني: حدثنا أبو الزِّنْبَاعِ رَوْحِ بْنِ الفَرَجِ[3]، حدثنا إبراهيم بن مُخَلَّدٍ حدثنا الفَضْلُ بن المُخْتَارِ عن محمد بن مسلم الطَّائِفِي عن ابن أبي يحيى عن مجاهد عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «يَا مُعَاذُ إِنِّي مُرْسِلُكَ إِلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَإِذَا سُئِلْتَ عَنِ

(١) ما بين المعقوفين سقط من ط. (٢) في ط: بقعة.
(٣) ثقة، توفي سنه اثنين وثمانين مائتين.

المَجَرّةِ الّتِي فِي السّمَاءِ فَقَلْ هِيَ لُعَابُ حَيّةٍ تَحْتَ العَرْشِ» فإنه حديث منكر جداً بل الأشبه أنه موضوع وراويه الفَضْلُ بن المُخْتَارِ هذا أبو سَهْلٍ البَصْرِي، ثم انتقل إلى مصر قال فيه أبو حاتم الرازي هو مجهول حدّث بالأباطيل. وقال الحافظ أبو الفتح الأزْدِي منكر الحديث جداً. وقال ابن عَدِيٍّ: لا يتابع على أحاديثه لا متناً ولا إسناداً في الكامل في الضعفاء.

وقال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد: الآيتان ١٢-١٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: الآية ١٦٤].

وروى الإمام أحمد عن يزيد بن هارون عن إبراهيم بن سَعْدٍ عن أبيه عن شيخ من بني غِفَارٍ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ اللّهَ يُنْشِىءُ السّحَابَ فَيَنْطِقُ أَحْسَنَ النُّطْقِ وَيَضْحَكُ أَحْسَنَ الضّحِكِ»[١]

وروى موسى بن عُبَيْدَةَ بن سَعْدِ بن إبراهيم أنه قال: إنّ نُطْقَهُ الرَّعْدُ وَضَحِكَهُ البَرْقُ.

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام عن عُبَيْدِ الله الرّازي عن محمد بن مسلم قال بلغنا أن البرق مَلك له أربعة وجوه وجه إنسان ووجه ثور ووجه نسر ووجه أسد فإذا مصع بذنبه[٢] فذاك البرق.

وقد روى الإمام أحمد والترمذي والنسائي والبخاري في كتاب الأدب، والحاكم في مستدركه من حديث الحَجّاج بْن أَرْطَاةٍ حدثني ابن مَطَرٍ عن سالم عن أبيه قال: كان رسول الله إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللّهُمّ لاَ تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ وَلاَ تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ»[٣]

وروى ابن جرير من حديث لَيْثٍ عن رجل عن أبي هريرة رفعه كان إذا سمع الرعد قال: «سُبْحَانَ مَنْ يُسَبّحُ الرّعْدُ بِحَمْدِهِ» وعن عَلِيٍّ أنه كان يقول: «سُبْحَانَ مَنْ سَبّحتَ لَهُ» وكذا عن ابن عباس والأَسْوَدِ بنَ يزيدَ وَطَاوُسَ وغيرهم.

وروى مالك عن عَبْدِ اللّهِ بن عمر أنه كان إذا سمع الرّعَد ترك الحديثَ وقال سبحانَ من يسبّحُ الرعدُ بحمده والملائكة من خيفته ويقول: «إن هذا وعيد شديد لأهل الأرض»[٤]. وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ رَبُّكُمْ لَوْ أَنّ عَبِيدِي أَطَاعُونِي لأَسْقَيْتُهُمُ المَطَرَ بالليْلِ وَأَطْلَعْتُ عَلَيهِمُ الشّمْسَ بالنّهَارِ وَلَمَا أَسْمَعْتُهُمْ صَوتَ الرّعدِ فَاذْكُروا اللّهَ فَإنّهُ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٤٣٥.

(٢) مصع بذنبه: أي حركه وضرب به.

(٣) أخرجه الترمذي في: الدعوات، باب: (٥٠)، والنسائي في: عمل اليوم والليلة، باب: ما يقول إذا سمع الرعد والصواعق، والإمام أحمد في المسند ٢/ ١٠٠، ١٠٢.

(٤) أخرجه مالك في: الكلام، باب: (١١)، حديث ٢٦.

لاَ يُصِيبُ ذَاكِراً»[1]. وكل هذا مبسوط في التفسير ولله الحمد والمِنّة [وروى الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً: إذا سمعتم الرعد][2].

باب ذكر خلق الملائكة وصفاتهم

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: الآيات ٢٦ـ٢٩].

وقال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الشورى: الآية ٥].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾ [غافر: الآيتان ٧ـ٨].

وقال تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت: الآية ٣٨] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ١٩ـ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات: الآيات ١٦٤ـ١٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم: الآية ٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: الآيات ١٠ـ١٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: الآية ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: الآيتان ٢٣ـ٢٤].

وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر: الآية ١] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: الآيتان ٢٥ـ٢٦].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢/ ٢٨٣. (٢) ما بين المعقوفين سقط من ط.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: الآيتان ٢١ـ ٢٢].

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: الآية ٩٨].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: الآية ٦] والآيات في ذكر الملائكة كثيرة جداً يصفهم تعالى بالقوة في العبادة وفي الخلق وحسن المنظر وعظمة الأشكال وقوة الشكل في الصور المتعددة كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآيات [هود: الآيتان ٧٧ـ ٧٨] فذكرنا في التفسير ما ذكره غير واحد من العلماء من أن الملائكة تبدّوا لهم في صورة شباب حسان امتحاناً واختباراً حتى قامت على قوم لوط الحجّة، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر. وكذلك كان جبريل يأتي إلى النبي ﷺ في صفات متعددة فتارة يأتي في صورة دِحْية بن خَلِيفَة الكَلْبي وتارة في صورة أعرابي وتارة في صورته التي خلق عليها. له ستمائة جناح ما بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب كما رآه على هذه الصفة مرتين. مرة منهبطاً من السماء إلى الأرض. وتارة عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى. وهو قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ [النجم: الآيات ٥ـ ٨] أي جبريل كما ذكرناه عن غير واحد من الصحابة. منهم ابن مسعود وأبو هريرة وأبو ذرّ وعائشة ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: الآيتان ٩ـ ١٠] أي إلى عبد الله محمد ﷺ ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: الآيات ١٣ـ ١٧] وقد ذكرنا في أحاديث الإسراء في سورة سُبحانَ أنَّ سدرة المنتهى في السماء السابعة. وفي رواية في السادسة أي أصلها وفروعها في السابعة فلما غشيها من أمر الله ما غشيها. قيل: غشيها نور الرب جل جلاله. وقيل غشيها فراش من ذهب. وقيل غشيها ألوان متعددة كثيرة غير منحصرة. وقيل غشيها الملائكة مثل الغربان. وقيل غشيها من نور الله تعالى فلا يستطيع أحد أن ينعتها. أي من حسنها وبهائها. ولا منافاة بين هذه الأقوال إذ الجميع ممكن حصوله في حال واحدة. وذكرنا أن رسول الله ﷺ قال: «ثُمَّ رُفِعت إِلَى سُدْرَةِ الْمُنْتَهَى فَإِذَا نَبِقُهَا[1] كَالقِلالِ[2]»[3]. وفي رواية: «كَقِلالِ هَجَر وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الفِيلَةِ وَإِذَا يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ. فَأَمَّا البَاطِنَانِ فَفِي الجَنَّةِ. وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالفُرَاتُ». وتقدّم الكلام على هذا في ذكر خلق الأرض وما فيها من البحار

---

(١) في الأصل: نبتها.

(٢) القلال: رؤوس الجبال.

(٣) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب؛ (٦)، ومسلم في: الإيمان، (الحديث ٢٥٩). وأخرجه في الصلاة، باب: (١)، وأحمد في المسند ٣/ ١٢٨.

والأنهار. وفيه: «ثُمَّ رُفِعَ لِي البَيْتُ المَعْمُورُ وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ ثُمَّ لاَ يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ». وذكر أنه وجد إبراهيم الخليل عليه السلام مستنداً ظهره إلى البيت المعمور. وذكرنا وجه المناسبة في هذا أن البيت المعمور هو في السماء السابعة بمنزلة الكعبة في الأرض.

وقد روى سُفيان الثَّوري وشُعْبَةُ وأبو الأحْوَصِ عن سِمَاكِ بن حَرْبٍ عن خالد بن عَرْعَرَةَ أن ابنَ الكَوَّا سأل عَلِيَّ بن أبي طالب عن البيت المعمور فقال: «هو مسجد في السماء [السابعة] يقال له: الضُّرَاحُ، وهو بحيال الكعبة من فوقها. حرمته في السماء كحرمة البيت في الأرض يصلّي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا يعودون إليه أبداً». وهكذا روى عَلِيُّ بنُ رَبِيعَة وأبو الطُّفَيلِ عن عَلِيٍّ مثله.

وقال الطبراني: أنبأنا الحسن بن عَلَوِيَّةَ القَطَّانِ حدثنا إسماعيل بن عيسى العَطَّارُ حدثنا إسحاق بن بِشر أبو حُذَيْفَة حدثنا ابن جُرَيْج عن صفوانَ بن سليم عن كُرَيْبٍ عن ابن عَبَّاسٍ قال قال رسولُ الله ﷺ: «البَيْتُ المَعْمُورُ فِي السَّمَاءِ يُقَالُ لَهُ الضُّرَاحُ وَهُوَ عَلَى مِثْلِ البَيْتِ الحَرَامِ بِحِيَالِهِ لَوْ سَقَطَ لَسَقَطَ عَلَيْهِ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ ثُمَّ لاَ يَرَوْنَهُ قَطُّ فَإِنَّ لَهُ فِي السَّمَاءِ حُرْمَةً عَلَى قَدْرِ حُرْمَةِ مَكَّةَ». يعني في الأرض وهكذا قال العَوْفِي عن ابن عباس ومجاهد وعِكْرِمَةَ والرَّبِيعِ بن أنس والسُّدِّي وغير واحد. وقال قَتادة ذُكر لنا أنَّ رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «هَلْ تَدْرُونَ مَا البَيْتُ المَعْمُورُ؟» قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلمْ. قال، قال: «مَسْجِدٌ فِي السَّمَاءِ بِحِيَالِ الكَعْبَةِ لَوْ خَرَّ لَخَرَّ عَلَيْهَا يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ»[1]. وزعم الضحّاك أنه تعمره طائفةٌ من الملائكة يقال لهم الجن من قبيلة إبليس لعنه الله كان يقول سدنته[2] وخدامه منهم والله أعلم.

وقال آخرون: في كل سماء بيت يعمّره ملائكته بالعبادة فيه ويفدون إليه بالنوبة والبدل كما يعمّر أهل الأرض البيت العتيق بالحج في كل عام والاعتمار في كل وقت والطواف والصلاة في كل آنٍ. قال سعيد بن يحيى بن سعيد الأمَوِي في أوائل كتابه المغازي. حدثنا أبو عبيد في حديث مجاهد «أنَّ الحرم حرم مناه (يعني قدره) من السموات السبع والأرضين السبع وأنه رابع أربعة عشر بيتاً في كل سماء بيت وفي كل أرض بيت لو سقطت سقط بعضها على بعض» ثم روى مجاهد قال مناه أي مقابله وهو حرف مقصور. ثم قال حدثنا أبو معاوية: حدثنا الأعمش عن أبي سليمان مؤذن الحجّاج سمعت عبد الله بن عمرو يقول: «إن الحرم محرم في السموات السبع مقداره من الأرض ـ وإن بيت المقدس مقدس في السموات السبع مقداره من الأرض كما قال بعض الشعراء [الكامل]:

إنَّ الَّذِي سَمَكَ[3] السَّمَاءَ بَنَى لَهَا بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَشَدُّ وَأَطْوَلُ

واسم البيت الذي في السماء بيت العزّة. واسم الملك الذي هو مقدّم الملائكة فيها

---

(١) السدنة: خدم الكعبة. (٢) سمك: رفع.

إسماعيل. فعلى هذا يكون السبعون ألفاً من الملائكة الذين يدخلون في كل يوم إلى البيت المعمور ثم لا يعودون إليه. «آخر ما عليهم» (أي لا يحصل لهم نوبة فيه إلى آخر الدهر) يكونون من سكان السماء السابعة وحدها. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: الآية ٣١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أَسْوَدُ بن عَامِر حدثنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن مُوَرِّق عن أبي ذَرٍّ قال، قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لاَ تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً وَلَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشَاتِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ[1] إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[2] فقال أبو ذر: «والله لوددت أني شجرة تعضد»[3] ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث إسرائيل فقال الترمذي: حسن غريب ويروى عن أبي ذر موقوفاً.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا حسين بن عَرَفَةَ المصري، حدثنا عُرْوَة بن عِمْرَانَ الرَّقِّي حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عبد الكريم بن مالك عن عطاء بن أبي رَبَاح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ مَوْضِعُ قَدَمٍ وَلاَ شِبْرٍ وَلاَ كَفٍّ إِلاَّ وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ مَلَكٌ رَاكِعٌ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ قَالُوا جَمِيعاً مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ إِلاَّ أَنَّا لاَ نُشْرِكُ بِكَ شَيْئاً» فدلّ هذان الحديثان على أنه ما من موضع في السموات السبع إلا وهو مشغول بالملائكة وهم في صنوف من العبادة. منهم من هو قائم أبداً. ومنهم من هو راكع أبداً ومنهم من هو ساجد أبداً ومنهم من هو في صنوف أخر والله أعلم بها. وهم دائمون في عبادتهم وتسبيحهم وأذكارهم وأعمالهم التي أمرهم الله بها، ولهم منازل عند ربهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات: الآيات ١٦٤ـ١٦٦] وقال ﷺ: «أَلاَ تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ المَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا». قالوا: وكيف يصفُّونَ عند ربهم، قال: «يُكْمِلُونَ الصَّفَّ الأَوَّلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ». وقال: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلاَثٍ: جُعِلَتْ لَنَا الأَرْضُ مَسْجِداً وَتُرْبَتُهَا طَهُوراً، وَجُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ المَلاَئِكَةِ»[4] وكذلك يأتون يوم القيامة بين يدي الرب جل جلاله صفوفاً كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: الآية ٢٢] ويقفون صفوفاً بين يدي ربهم عزّ وجلّ يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ: الآية ٣٨].

والمراد بالروح ههنا بنو آدم قاله ابن عباس، والحسن، وقَتادة. وقيل: ضرب من الملائكة يشبهون بني آدم في الشكل. قاله ابن عباس ومجاهد وأبو صالح والأَعْمَش. وقيل: جبريل. قاله الشَّعبِي وسعيد بن جُبَيْرٍ والضَّحَّاك. وقيل: ملَك يقال له الروح بقدر جميع المخلوقات. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: يوم يقوم الروح قال هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً.

---

(١) تجأرون: ترفعون الصوت بالدعاء.

(٢) أخرجه الترمذي في: الزهد، باب: (٩)، وابن ماجة في: الزهد، باب: (١٩)، وأحمد في المسند ٥/ ١٧٣.

(٣) تعضد: تقطع.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٣٨٣، ١٠٦.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن خَلَفٍ العَسْقَلانِي حدثنا داود بن الجَرّاح عن أبي حمزة عن الشَّعْبِي عَنْ عَلْقَمَة عن ابن مَسْعُودٍ قال الروح في السماء الرابعة هو أعظم [مَن][1] السموات والجبال، ومن الملائكة يسبّح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً من الملائكة يجيي يوم القيامة صفاً وحده. وهذا غريب جداً. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكيم المِصْرِي، حدثنا ابن وَهْبِ بن رِزْقٍ أبو هُبَيرَة، حدثنا بِشْرُ بن بَكْرٍ، حدثنا الأَوْزَاعِي، حدثني عَطَاءُ عن عبد الله بن عباس قال سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَكاً لَوْ قِيلَ لَهُ الْتَقِمِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِينِ بِلُقْمَةٍ وَاحِدَةٍ لَفَعَلَ. تَسْبِيحُهُ: سُبْحَانَكَ حَيْثُ كُنْتَ» وهذا أيضاً حديث غريب جداً. وقد يكون موقوفاً. وذكرنا في صفة حملة العرش عن جابر بن عبد الله قال رسول الله ﷺ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ[2] مَسِيرَةُ سَبْعِمَائَةِ عَامٍ»[3] رواه أبو داود وابن أبي حَاتِمٍ ولفظه: «مَخْفَقَ الطَّيْرِ سَبْعُمَائَةَ عَامٍ».

وقد ورد في صفة جبريل عليه السلام أمر عظيم قال الله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم: الآية ٥] قالوا كان من شدة قوته أنه رفع مدائن قوم لوط وكنّ سبعاً بمن فيها من الأمم وكانوا قريباً من أربعمائة ألف وما معهم من الدواب والحيوانات وما لتلك المدن من الأراضي والمعتملات والعمارات وغير ذلك. رفع ذلك كله على طرف جناحه حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم[4] وصياح ديكتهم، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها فهذا هو شديد القوى. وقوله ذو مِرّة أي خلق حسن وبهاء وسناء كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾ [الحاقة: الآية ٤٠، والتكوير: الآية ١٩] أي جبريل رسول من الله كريم أي حسن المنظر ذي قوة أي له قوة وبأس شديد عند ذي العرش، مكين أي له مكانه ومنزلة عالية رفيعة عند الله، ذي العرش المجيد، مطاع ثم أي مطاع في الملأ الأعلى، أمين أي ذي أمانة عظيمة. ولهذا كان هو السفير بين الله وبين أنبيائه عليهم السلام الذي ينزل عليهم بالوحي. فيه الأخبار الصادقة والشرائع العادلة. وقد كان يأتي إلى رسول الله ﷺ وينزل عليه في صفات متعددة كما قدمنا. وقد رآه على صفته التي خلقه الله عليها مرتين. له ستمائة جناح كما روى البخاري عن طَلْقِ بن غَنّامٍ عن زَائِدَةَ الشَّيْبَانِي قال سألت زرًا عن قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: الآيتان ٩ـ ١٠] قال حدثنا عَبْدُ الله يعني ابن مسعود أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا شَرِيكٌ عن جَامِعِ بن رَاشِدٍ عن أبي وَائِلٍ عن عبد الله قال: «رأى رسول الله ﷺ جبريلَ فِي صورته وله ستمائة جناح كل جناح منها قد سَدَّ الأفق يسقط من جناحه التهاويل[5]»[6] من الدرِّ والياقوت ما الله به عليم.

---

(١) سقط في ط.
(٢) عاتقه: منكبه.
(٣) أخرجه أبو داود في: السنة باب: (١٩).
(٤) في ط: الكلاب.
(٥) التهاويل: الأشياء المختلفة الألوان.
(٦) أخرجه أحمد في المسند ١/٣٩٥.

وقال أحمد أيضاً: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حَمّاد بن سَلَمَةَ عن عاصم بن بَهْدَلَة عن زرّ بن حُبَيْشٍ عن ابن مسعود في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [النجم: الآيتان ١٣ ـ ١٤] قال، قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ وَلَهُ سِتُّمَائَةَ جَنَاحٍ يَنْتَثِرُ مِنْ رِيشِهِ التَّهَاوِيلُ الدُرُّ وَاليَاقُوتُ»[1]. وقال أحمد: حدثنا زيد بن الحُبَابِ حدثنا الحسين حدثني عاصم بن بَهْدَلَةَ سمعت شُقَيْق بن سَلَمَةَ يقول سمعت ابن مسعود يقول قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عند[2] سدرة الْمُنْتَهَى وَلَهُ سِتُّمَائَةَ جَنَاحٍ»[3] فَسَأَلْتُ عاصمًا عن الأجنحة فأبى أن يخبرني قال: فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب. وهذه أسانيد جيدة قوية انفرد بها أحمد.

وقال أحمد: حدثنا زيد بن الحَبّابِ حدثني حُسَيْنٌ حدثني حُصَيْنٌ، حدثني شُقَيْقٌ سمعت ابنَ مسعودٍ قال، قال رسول الله ﷺ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ فِي خَضِرٍ تَعَلَّقَ بِهِ الدُرُّ»[4]. إسناده صحيح.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بُزَيْعِ البَغْدَادِي قال: حدثنا إسحاق بن منصور قال: حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾﴾ [النجم: الآية ١١] قال رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حُلّتا رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض. إسناد جيد قوي. وفي الصحيحين من حديث عَامِرِ الشَّعْبِي عن مَسْرُوقٍ قال: كنت عند عائشة فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ [التكوير: الآية ٢٣] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [النجم: الآية ١٣] فقالت أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عنها فقال: «إِنَّمَا ذَاكَ جِبْرِيلُ لَمْ يَرَهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا إِلاَّ مَرَّتَيْنِ رَآهُ مُنْهَبِطاً مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»[5].

وقال البخاري: حدثنا أبو نُعَيْم، حدثنا عُمَرُ بن ذَرٍّ (ح) وحدثني يحيى بن جعفر حدثنا وَكِيعُ عن عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال: قَال رسولُ الله ﷺ لِجِبْرِيلَ: «أَلاَ تَزُورُنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا» قَالَ فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾[6] [مريم: الآية ٦٤] الآية.

وروى البخاري من حديث الزُهْري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عبّاس قال: كان رسول الله ﷺ أجودُ النَّاسِ وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان [جبريل][7] يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة[8].

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٤١٢. (٢) في ط: على.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٤٠٧. (٤) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٤٠٧.
(٥) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب (٧)، ومسلم في الإيمان حديث ٢٨٧، وأحمد في المسند ٦/ ٢٣٦.
(٦) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (٦)، والتوحيد، باب: (٢٨)، وأحمد في المسند ١/ ٢٣١.
(٧) سقط في ط.
(٨) أخرجه البخاري في: بدء الوحي، باب: (٥). وأحمد في المسند ١/ ٢٣١.

وقال البخاري: حدثنا قُتَيْبَةُ حدَّثَنا اللَّيْثُ عن ابن شِهَابٍ أن عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ أَخَّرَ العصرَ شيئاً فقال له عروةُ: أما إن جبريل قد نزل فصلَّى أَمَامَ رسولِ اللَّهِ ﷺ فقال عمر: أعلم ما تقول يا عروة، قال سمعتُ بشيرُ بن أبي مسعودٍ يقولُ: سمعتُ أبا مسعود يقول سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «نَزَلَ جِبْرِيلُ فَأَمَّنِي فَصَلَّيْتُ مَعَهُ ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ يَحْسِبُ بِأَصَابِعِهِ خَمْسَ صَلَوَاتٍ»[1].

ومن صفة إسرافيل عليه السلام وهو أحد حملة العرش وهو الذي ينفخ في الصور بأمر ربه نفخات ثلاثة. أولاهن نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة البعث كما سيأتي بيانه في موضعه من كتابنا هذا بحول الله وقوته وحسن توفيقه. والصور قرن ينفخ فيه. كل دارة منه كما بين السماء والأرض. وفيه موضع أرواح العباد حين يأمره الله بالنفخ للبعث فإذا نفخ تخرج الأرواح تتوهج فيقول الرب جل جلاله وعزّتي وجلالي لترجعنَّ كل روح إلى البدن الذي كانت تعمره في الدنيا فتدخل على الأجساد في قبورها فتدبّ فيها كما يدب السمّ في اللّديغ، فتحيى الأجساد وتنشق عنهم الأجداث[2] فيخرجون منها سراعاً إلى مقام المحشر كما سيأتي تفصيله في موضعه.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «كَيفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدْ الْتَقَمَ القَرْنَ وَحَنى جَبهَتَهُ وَانْتَظرَ أَنْ يُؤذَنَ لَهُ». قالوا: كيفَ نقولُ يا رسولَ اللَّهِ قال: «قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ. عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا»[3]. رواه أحمد والترمذي من حديث عَطِيَّةَ العَوْفِي عن أبي سعيد الخُدْرِي.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمشُ عن سعدِ الطَّائِي عن عطية العَوْفِي عن أبي سعيدٍ قال ذكر رسول الله ﷺ صاحب الصور فقال: عَنْ يَمِينِهِ جِبْرِيلُ وَعَنْ يَسَارِهِ مِيكَائِيلُ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ[4].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي حدثنا محمد بن عمران بن أبي ليلى حدثني عن أبي ليلى عن الحَكِم عن مُقَسِّم عن ابن عبّاس. قال: بينا رسول الله ﷺ ومعه جبريل بناحية إذ انشق أفق السماء فأقبل إسرافيل يدنو من الأرض ويتمايل فإذا ملك قد مثل بين يدي النبي ﷺ فقال: «يا محمدَ إنَّ الله يأمُرُكَ أن تختار بين نَبِيٍّ عَبْدٍ أو مَلَكٍ نَبِيٍّ» قَالَ: «فَأَشَارَ جِبْرِيلُ إِلَيَّ بِيَدِهِ: (أَنْ تَوَاضَعْ) فعرفتُ أنه لي ناصح فقلتُ عَبْدٌ نَبِيٌّ فَعَرَجَ ذلكَ المَلَكُ إِلَى السَّماءِ فقلتُ: يَا جِبْرِيلُ قَدْ كُنْتُ أَرَدْتُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ هَذَا فَرَأَيْتُ مِنْ حَالِكَ مَا شَغَلَنِي عَنِ المَسْأَلَةِ فَمَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟» فَقَالَ هَذَا إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ خَلَقَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ صَافًّا قَدَمَيْهِ لاَ يَرْفَعُ طَرْفَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّبِّ سَبْعُونَ نُوراً مَا مِنْهَا مِنْ نُورٍ يَكَادُ يَدْنُو مِنْهُ إِلاَّ احْتَرَقَ بَيْنَ يَدَيْهِ لَوْحٌ فَإِذَا أَذِنَ اللَّهُ فِي شَيْءٍ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ فِي الأَرْضِ ارْتَفَعَ ذَٰلِكَ اللَّوْحُ فَضَرَبَ

(١) أخرجه البخاري في: المغازي، باب: (١٢).
(٢) الأجداث: القبور.
(٣) أخرجه الترمذي في: تفسير القرآن، باب: (٤٠)، «ومن سورة الزمر» أحمد في المسند ٣/٧.
(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣/٩، ١٠.

جَبْهَتَهُ فَيَنْظُرُ فَإِنْ كَانَ مِنْ عَمَلِي أَمَرَنِي بِهِ وَإِنْ كَانَ مِنْ عَمَلِ مِيكَائِيلَ أَمَرَهُ بِهِ وَإِنْ كَانَ مِنْ عَمَلِ مَلَكِ المَوْتِ أَمَرَهُ بِهِ. «قُلْتُ يَا جِبْرِيلُ وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ أَنْتَ» قَالَ: عَلَى الرِّيحِ وَالجُنُودِ. قُلْتُ: «وَعَلى أَيِّ شَيْءٍ مِيكَائِيلُ»، قَالَ عَلَى النَّبَاتِ وَالقَطْرِ «قُلْتُ: وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ مَلَكُ المَوْتِ»، قَالَ: عَلَى قَبْضِ الأَنْفُسِ وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّهُ نَزَلَ إِلاَّ لِقِيَامِ السَّاعَةِ وَمَا الَّذِي رَأَيْتِ مِنِّي إِلاَّ خَوْفاً مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ». هذا حديث غريب من هذا الوجه.

وفي صحيح مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلّي يقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[1]. وفي حديث الصور أن إسرافيل أول من يبعثه الله بعد الصعق لينفخ في الصور. وذكر محمد بن الحسن النَّقَّاش أن إسرافيل أول من سجد من الملائكة فجوزي بولاية اللوح المحفوظ. حكاه أبو القاسم السهيلي في كتابه (التعريف والأعلام. بما أبهم في القرآن من الأعلام).

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: الآية ٩٨] عطفهما على الملائكة لشرفهما فجبريل ملك عظيم قد تقدم ذكره. وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات وهو ذو مكانة من ربّه عزّ وجلّ ومن أشراف الملائكة المقربين.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليَمَانِ، حدثنا ابن عباس عن عمار بن غَزِيَّةَ الأَنْصَارِي أنه سمع حُمَيْدَ بن عُبَيْدٍ مولى بَنِي المُعَلَّى يقول: «سمعتُ ثَابِتاً البُنَانِي يحدث عن أنس بن مالك عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قال لجبريل: «مَالِي لَمْ أَرَ مِيكَائِيلَ ضَاحِكاً قَطُّ» فَقَالَ: «مَا ضَحِكَ مِيكَائِيلُ مُنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ»[2]. فهؤلاء الملائكة المصرح بذكرهم في القرآن وفي الصّحاح هم المذكورون في الدعاء النبوي «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ». فجبريل ينزل بالهدى على الرسل لتبليغ الأمم. وميكائيل موكّل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الأرزاق في هذه الدار. وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه. يصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الربُّ جل جلاله. وقد روينا أنه ما من قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك يقررها في موضعها من الأرض. وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور للقيام من القبور. والحضور يوم البعث والنشور ليفوز الشكور. ويجازي الكفور. فذاك ذنبه مغفور. وسعيه مشكور. وهذا قد صار عمله كالهباء المنثور. وهو يدعو بالويل والثبور[3]. فجبريل عليه السلام يحصل بما ينزل به الهدى. وميكائيل يحصل بما هو موكل به الرزق. وإسرافيل يحصل بما هو موكل به النصر والجزاء.

وأما ملك الموت فليس بمصرح باسمه في القرآن ولا في الأحاديث الصحاح. وقد جاء تسميته في بعض الآثار بعزرائيل والله أعلم.

(١) أخرجه مسلم في: صلاة المسافرين، (الحديث ٢٠٠).
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٢٢٤.
(٣) الثبور: الهلاك.

وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة: الآية ١١] وله أعوان يستخرجون روح العبد من جثته حتى تبلغ الحلقوم فيتناولها ملك الموت بيده فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها منه فيلفوها في أكفان تليق بها كما قد بسط عند قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٧].

ثم يصعدون بها فإن كانت صالحة فتحت لها أبواب السماء وإلا غلقت دونها وألقى بها إلى الأرض قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ٦١ ـ ٦٢].

وعن ابن عبّاس ومجاهد وغير واحد أنهم قالوا إن الأرض بين يدي ملك الموت مثل الطست يتناول منها حيث يشاء وقد ذكرنا أن ملائكة الموت يأتون الإنسان على حسب عمله إن كان مؤمناً أتاه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب طيبة الأرواح. وإن كان كافراً فبالضد من ذلك. عياذاً بالله العظيم من ذلك.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا، يحيى بن أبي يحيى المقري، حدثنا عمرو بن شمر قال سمعت جعفر بن محمد قال: سمعت أبي يقول: نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبي ﷺ: «يَا مَلَكَ المَوْتِ ارْفِقْ بِصَاحِبِي فَإِنَّهُ مُؤْمِنٌ» فقال ملك الموت: «يَا مُحَمَّدُ طِبْ نَفْساً وَقَرَّ عَيْناً فَإِنِّي بِكُلِّ مُؤْمِنٍ رَفِيقٌ. وَاعْلَمْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ بَيْتُ مَدَرٍ[1] وَلاَ شَعْرٍ فِي بَرٍّ وَلاَ بَحْرٍ إِلاَّ وَأَنَا أَتَفَحَّصُهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ حَتَّى إِنِّي أَعْرَفُ بِصَغِيرِهِمْ وَكَبِيرِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهِ يَا مُحَمَّدُ لَوْ أَنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَقْبِضَ رُوحَ بَعُوضَةٍ مَا قَدِرْتُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الآمِرُ بِقَبْضِهَا». قال جعفرُ بن مُحَمَّدٍ الصادق: بلغني بتفحصهم عند مواقيت الصلاة فإذا حضر عند الموت فإذا كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ودفع عنه الشيطان ولقنه الملك (لا إله إلا الله محمد رسول الله) في تلك الحال العظيمة. هذا حديث مرسل وفيه نظر وذكرنا في حديث الصور من طريق إسماعيل بن رافع المَدَنِي القاص عن محمد بن زياد عن محمد بن كعب القُرَظِي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ (الحديث) بطوله. وفيه «ويأمرُ اللّهُ إسرافيلَ بنفخةِ الصَّعْقِ فينفخُ نفخةَ الصَّعْقِ فَيَصْعَقُ أهلُ السمواتِ وأهلُ الأرضِ إلاَّ من شاءَ اللّهُ فإذا هم قد خَمَدُوا جاءَ مَلَكُ الموت إلى الجَبَّارِ عزَّ وجلَّ فيقولُ: يا ربِّ قد ماتَ أهلُ السَّمواتِ وَالأرضِ إلاَّ مَنْ شِئْتَ. فيقولُ اللّهُ وهو أعلم بمن بقي: فَمَنْ بَقِيَ؟ فيقول: بقيتَ أنتَ الحيّ الَّذِي لا يموتُ وبَقِيَتْ حملةُ عَرْشِكَ وبقَي جبريلُ وميكائيلُ. فيقول: لِيَمُتْ جبريلُ وميكائيلُ فَيُنْطِقُ اللّهُ العرشَ فيقولُ يا رَبِّ يموتُ جبريلُ وميكائيلُ فيقولُ: اسكتْ فَإِنِّي كتبتُ الموتَ على كل من كان تحت عرشي فَيَمُوتَانِ ثم يأتي ملكُ الموتِ إلى الجَبَّارِ عزَّ وجلَّ فيقولُ يا

---

(١) بيت مدر: أي بيت من الطين.

ربِّ، قد ماتَ جبريلُ وميكائيلُ فيقولُ اللَّهُ وهو أعلمُ بمن بَقي (فمَنْ بَقي)؟ فيقولُ بقيتَ أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لا يموتُ وبَقِيَتْ حملةُ عَرْشِكَ وَبَقِيْتُ أَنَا فيقولُ اللَّهُ: لِتَمُتْ حَمَلَةُ عَرْشِي. فتموتُ. وَيأمُرُ اللَّهُ العرشَ فيقبضُ الصُّوَر من إسرافيلَ ثم يأتي ملكُ الموتِ فيقولُ: يا ربِّ قد ماتَ حملة عرشِك فيقول اللَّهُ وهو اعلم بمن بقي: (فمن بقي)؟ فيقول: بقيتَ أنتَ الحي الذي لا يموت وبقيتُ أنا: فيقول الله: أنتَ خَلْقٌ من خلقي خلقتُكَ لما أردتَ فَمُتْ فَيَمُوتُ فَإذا لم يبقَ إلا اللَّهُ الواحدُ القَهَّارُ الأحدُ الصمدُ الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. كان آخراً كما كان أولاً». وذكر تمام الحديث بطوله. رواه الطبراني وابن جرير والبَيْهَقِي، ورواه الحافظ أبو موسى المديني في كتاب (الطوالات) وعنده زيادة غريبة وهي قوله: «فيقولُ اللَّهُ لهُ أنت خَلْقٌ مِنْ خَلْقِي خَلَقْتُكَ لِمِا أَرَدْتُ فَمُتْ مَوْتاً لاَ تَحْيَى بعده أبداً».

ومن الملائكة المنصوص على أسمائهم في القرآن هاروت وماروت في قول جماعة كثيرة من السلف. وقد ورد في قصتهما وما كان من أمرهما آثار كثيرة غالبها إسرائيليات.

وروى الإمام أحمد حديثاً مرفوعاً عن ابن عمر وصححه ابن حبان في تقاسيمه. وفي صحته عندي نظر والأشبه أنه موقوف على عبد الله بن عمر ويكون مما تلقاه عن كَعْبِ الأحبارِ كما سيأتي بيانه والله أعلم. وفيه: «أنه تمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر». وعن عليٍّ وابن عباس وابن عمر أيضاً أنَّ الزهرة كانت امرأة وأنهما لما طلبا منها ما ذُكِرَ أَبَتْ إلا أن يعلماها الاسم الأعظم فعلّماها فقالته فارتفعت إلى السماء فصارت كوكباً.

وروى الحاكم في مستدركه عن ابن عباس قال: وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب. وهذا اللفظ أحسن ما ورد في شأن الزهرة. ثم قيل كان أمرهما وقصتهما في زمان إدريس. وقيل في زمان سليمان بن داود كما حررنا ذلك في التفسير.

وبالجملة فهو خبر إسرائيلي مرجعه إلى كَعْبِ الأحبار كما رواه عبد الرزاق في تفسيره عن الثوري عن موسى بن عُقْبَة عن سالم عن ابن عمر عن كعب الأحبار بالقصة. وهذا أصح إسناداً وأثبت رجالاً والله أعلم.

ثم قد قيل إن المراد بقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ [البقرة: الآية ١٠٢] قبيلان من الجان قاله ابن حَزْم وهذا غريب وبعيد من اللفظ. ومن الناس من قرأ وما أنزل على المَلِكين بالكسر ويجعلهما عِلْجين[1] من أهل فارس. قاله الضحاك. ومن الناس من يقول هما ملكان من السماء ولكن سبق في قدر الله لهما ما ذكره من أمرهما إن صح به الخبر ويكون حكمهما كحكم إبليس إن قيل إنه من الملائكة لكن الصحيح أنه من الجن كما سيأتي ذكره[2].

ومن الملائكة المسمَّيْنَ في الحديث: منكر ونكير عليهما السلام. وقد استفاض في الأحاديث ذكرهما في سؤال القبر. وقد أوردناها عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: الآية

(١) العلج: من أتباع المانوية.

(٢) في ط: تقريره.

٢٧] وهما فَتَّانا القبر موكلان بسؤال الميت في قبره عن ربه ودينه ونبيه ويمتحنان البر والفاجر وهما أزرقان أفرقان لهما أنياب وأشكال مزعجة وأصوات مفزعة أجارنا الله من عذاب القبر وثبتنا بالقول الثابت آمين.

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا ابنُ وَهْبٍ حدثني يونس عن ابن شِهَاب حدثني عُرْوَةُ أن عائشةَ زوج النبي ﷺ حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: «هل أتى عليكَ يومٌ كان أشَدَّ من يوم أُحُدٍ. قال: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمُ العَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلاَلٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا بِهِ عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ لَكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فَمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ[1] فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً»[2]. ورواه مسلم من حديث ابن وهب به.

فصل

ثم الملائكة عليهم السلام بالنسبة إلى ما هيأهم الله له أقسام: فمنهم حملة العرش كما تقدم ذكرهم ومنهم الكروبيُّون الذين هم حول العرش، وهم أشرف الملائكة مع حملة العرش، وهم الملائكة المقربون كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: الآية ١٧٢] ومنهم جبريل وميكائيل عليهما السلام. وقد ذكر الله عنهم أنهم يستغفرون للمؤمنين بظهر الغيب كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر: الآيات ٧-٩].

ولما كانت سجاياهم[3] هذه السجية الطاهرة كانوا يحبون من اتصف بهذه الصفة فثبت في الحديث عن الصادق المصدوق أنه قال: «إِذَا دعَا العَبْدُ لأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ قَالَ المَلَكُ آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ»[4].

ومنهم سكان السموات السبع يعمّرونها عبادة دائبة ليلاً ونهاراً صباحاً ومساءً كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٢٠] فمنهم الراكع دائماً والقائم دائماً

---

(١) الأخشبان: جبلا مكة: أبو قبيس والأحمر.
(٢) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (٧). ومسلم في: الحديث ١١١.
(٣) سجاياهم: طباعهم.
(٤) أخرجه مسلم في: الذكر والدعاء، (الحديث ٨٦). وأبو داود في: الصلاة، باب ٢٩.

والساجد دائماً. ومنهم الذين يتعاقبون زمرة بعد زمرة إلى البيت المعمور كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم. ومنهم الموكلون بالجنان وإعداد الكرامة لأهلها وتهيئة الضيافة لساكينها من ملابس ومصاغ ومساكن ومآكل ومشارب وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وخازن الجنة ملك يقال له: رضوان جاء مصرّحاً به في بعض الأحاديث. ومنهم الموكلون بالنار وهم الزبانية. ومقدموهم تسعة عشر وخازنها مالك وهو مقدم على جميع الخزنة. وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر: الآية ٤٩] الآية. وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الزخرف: الآيتان ٧٧ـ ٧٨] وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: الآية ٦] وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر: الآيتان ٣٠ـ ٣١].

وهم الموكلون بحفظ بني آدم كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد: الآيتان ١٠ـ ١١].

قال الوالبي عن ابن عباس: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ والمعقبات من أمر الله هي الملائكة وقال عِكْرِمَةُ عن ابنِ عَبَّاسٍ: يحفظونه من أمر الله. قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء قدر الله خلوا عنه وقال مجاهد: ما من عبد إلا وملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام[1]. وليس شيء يأتيه يريده إلا قال وراءك إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه.

وقال أبو أسامة «ما من آدمي إلا ومعه ملك يذود[2] عنه حتى يسلمه للذي قدّر له».

وقال أبو مِجلز «جاء رجل إلى علي فقال إن نفراً من مراد يريدون قتلك فقال إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، إن الأجل جُنة[3] حصينة».

ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد كما قال تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: الآيات ١٧ـ ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: الآيات ١٠ـ ١٢].

---

(١) الهوام: السباع. (٢) يذود: يدافع.
(٣) جُنّة: درع.

قال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي في تفسيره: حدثنا أبي حدثنا، عليُّ بن محمد الطَّنَافِسِي، حدثنا وَكِيعٌ حدثنا سفيان ومِسْعَرٌ عن عَلْقَمَةَ بن يزيد عن مجاهد قال قال رسول الله ﷺ: «أَكْرِمُوا الكِرَامَ الكَاتِبِينَ الَّذِينَ لاَ يُفَارِقُونَكُمْ إِلاَّ عِنْدَ إِحْدَى حَالَتَيْنِ الجَنَابَةُ وَالغَائِطُ فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ بِجِذْمِ(١) حَائِطٍ أَوْ ببعيره أَوْ يَسْتُرُهُ أَخُوهُ». هذا مرسل من هذا الوجه وقد وصله البزار في مسنده من طريق جعفر بن سليمان. وفيه كلام عن علقمة عن مجاهد عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ عَنِ التَعَرِّي فَاسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَكُمُ الكِرَامُ الكَاتِبِينَ الَّذِينَ لاَ يُفَارِقُونَكُمْ إِلاَّ عِنْدَ إِحْدَى ثَلاَثِ حَالاَتِ الغَائِطِ وَالجَنَابَةِ وَالغُسْلِ. فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ بِالْعَرَاءِ فَلْيَسْتَتِرْ بِثَوْبِهِ أَوْ بِجِذْمِ حَائِطٍ أَوْ بَعِيرِهِ». ومعنى إكرامهم أن يستحي منهم فلا يملي عليهم الأعمال القبيحة التي يكتبونها فإن الله خلقهم كراماً في خلقهم وأخلاقهم. ومن كرمهم أنه(٢) قد ثبت في الحديث المروي في الصحاح والسنن والمسانيد من حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لاَ يَدْخُلُ المَلاَئِكَةُ بَيْتاً فِيهِ صُورَةٌ وَلاَ كَلْبٌ وَلاَ جُنُبٌ»(٣). وفي رواية عن عاصم بن ضمرة عن عليٍّ «وَلاَ بَوْلٌ» وفي رواية رافع عن أبي سعيد مرفوعاً «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا تمثال»(٤).

وفي رواية مجاهد عن أبي هريرة مرفوعاً: «لاَ تَدْخُلُ المَلاَئِكَةُ بَيْتاً فِيهِ كَلْبٌ أَوْ تِمْثَالٌ»(٥).

وفي رواية ذَكْوَانَ أبي صالِحٍ السَّمَّاكِ عن أبي هريرةَ قال، قال رسول الله ﷺ: «لاَ تَصْحَبُ المَلاَئِكَةُ رُفْقَةً مَعَهُمْ كَلْبٌ أَوْ جَرَسٌ»(٦).

ورواه زُرَارَةُ بْنُ أَوْفَى عنه: «لاَ تَصْحَبُ المَلاَئِكَةُ رُفْقَةً مَعَهُمْ جَرَسٌ»(٧).

وقال البزار: حدثنا إسحاق بن سليمان البغدادي المعروف بالقَلُوسِ، حدثنا بَيَانُ بن حُمْرَان حدثنا سلام عن منصور بن زَاذَانَ عن محمد بن سِيرِينَ عن أبي هريرةَ قال، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مَلاَئِكَةَ اللَّهِ يَعْرِفُونَ بَنِي آدَمَ» وأحسبه قال: «وَيَعْرِفُونَ أَعْمَالَهُمْ فَإِذَا نَظَرُوا إِلَى عَبْدٍ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ ذَكَرُوهُ بَيْنَهُمْ وَسَمَّوْهُ وَقَالُوا أَفْلَحَ اللَّيْلَةَ فُلاَنٌ نَجَا اللَّيْلَةَ فُلاَنٌ. وَإِذَا نَظَرُوا إِلَى عَبْدٍ يَعْمَلُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ ذَكَرُوهُ بَيْنَهُمْ وَسَمَّوْهُ. وَقَالُوا هَلَكَ فُلاَنٌ اللَّيْلَةَ». ثم قال سلاّم: أحسبه سَلاَّمَ المَدَائِنِي وهو لين الحديث. وقد قال البخاري حدثنا أبو اليَمانِ حدثنا شُعَيْب حدثنا أبو الزِّنَادِ عن

---

(١) جذم: أصل. (٢) في ط: أن.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ١٧، ومسلم في اللباس حديث ٨٣، وأبو داود في اللباس باب ٤٧، والترمذي في الأدب باب ٤٤، والنسائي في الصيد باب ١١، وابن ماجه في اللباس باب ٤٤، وأحمد في المسند ١/ ٨٣، ٤/ ٢٨. (٤) انظر الحاشية السابقة.

(٥) انظر الحاشية ما قبل السابقة.

(٦) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٥١، والترمذي في الجهاد باب ٢٥، والدرامي في الاستئذان باب (في النهي عن الجرس)، وأحمد في المسند ٢/ ٣٩٢.

(٧) انظر الحاشية السابقة.

الأعْرَجِ عن أبي هريرةَ قال قال رسول الله ﷺ: «المَلائِكَةُ يَتَعَاقَبُونَ، مَلائِكَةٌ بِاللَّيلِ وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاةِ الفَجْرِ وَصَلاةِ العَصْرِ. ثُمَّ يَعرجُ إِلَيْهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ، فَيَقُولُ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»[١]. وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ. هذا اللفظ في كتاب بدء الخلق بهذا السياق. وهذا اللفظ تفرد به دون مسلم من هذا الوجه. وقد أخرجاه في الصحيحين في البدء من حديث مالك عن أبي الزِّنَادِ به. وقال البزار حدثنا زياد بن أيوب حدثنا مُبَشِّر بن إسماعيل الحَلَبِي حدثنا تمام بن نَجِيح عن الحسن يعني البصري عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ حَافِظَيْنِ يَرْفَعَانِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا حَفِظَا فِي يَوْمٍ فَيَرى فِي أَوَّلِ الصَّحِيفَةِ وَفِي آخِرِهَا اسْتِغْفاراً إِلاَّ قَالَ اللَّهُ غَفَرْتُ لِعَبْدِي مَا بَيْنَ طَرَفَيِ الصَّحِيفَةِ». ثم قال تفرّد به تَمَامُ بن نَجِيحٍ وهو صالح الحديث.

قلت: وقد وثقه ابن مَعِين وضعّفه البخاري وأبو حاتم وأبو زُرْعَةَ والنَّسائي وابن عَدِيٍّ ورماه ابن حِبان بالوضع وقال الإمام أحمد لا أعرف حقيقة أمره والمقصود أن كل إنسان له حافظان ملكان اثنان واحد من بين يديه وآخر من خلفه يحفظانه من أمر الله بأمره الله عزّ وجلّ. وملكان كاتبان عن يمينه وعن شماله وكاتب اليمين أمير على كاتب الشمال. كما ذكرنا ذلك عند قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: الآيتان ١٧-١٨].

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمدُ: حدثنا أسودُ بن عَامِرٍ، حدثنا سفيانُ، حدثنا منصورُ عن سالم بن أبي الجَعْدِ عن أبيه عن عبد الله هو ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ المَلائِكَةِ»، قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «وَإِيَّايَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَلاَ يَأْمُرُنِي إِلاَّ بِخَيْرٍ»[٢]. انفرد بإخراجه مسلم من حديث مَنْصُورٍ به، فيحتمل أن هذا القرين من الملائكة غير القرين لحفظ[٣] الإنسان، وإنما هو موكل به ليهديه ويرشده بإذن ربه إلى سبيل الخير وطريق الرشاد، كما أنه قد وكّل به القرين من الشياطين لا يألوه جهداً في الخبال[٤] والإضلال. والمعصوم من عصمه الله عزّ وجلّ وبالله المستعان.

وقال البخاري: حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا إبراهيم بن سَعْدٍ، حدثنا ابن شِهَابٍ عن أبي سَلَمَةَ بن عبد الرحمن وَالأَغَرِّ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الجُمعَةِ كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ المَسْجِدِ مَلائِكَةٌ يَكْتُبُونَ الأَوَّلَ فَالأَوَّلَ فَإِذَا جَلَسَ الإِمَامُ طَوَوا الصُّحُفَ وَجَاؤُوا يَسْتَمِعُونَ[٥] الذِّكْرَ»[٦] وهكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه، وهو في الصحيحين من وجه آخر. وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ [الإسراء: الآية ٧٨].

(١) أخرجه البخاري في: المواقيت، باب: (١٦)، والتوحيد، باب: (٢٣)، ومالك في: قصر الصلاة في السفر، حديث ٨٢، وأحمد في المسند ٢/٤٨٦.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/٣٩٨.
(٣) في ط: يحفظ.
(٤) الخبال: الفساد.
(٥) في ط: يسمعون.
(٦) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (٦)، والجمعة، باب: (٣١)، وأحمد في المسند ٢/ ٢٦٣، ٢٦٤.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أَسْبَاطُ حدثنا، الأَعْمَشُ عن إبراهيم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ. وحدثنا الأعمشُ عن أبي صالح عن أبي هريرةَ عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار[١]. ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث أَسْبَاطٍ. وقال الترمذي: حسن صحيح.

قلت، وهو منقطع.

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق أنبأنا مَعْمَر عن الزّهْري عن أبي سَلَمَةَ وسعيدِ بن المُسَيّب عن أبي هريرةَ عن النبيّ ﷺ قال: «فَضْلُ صَلاَةِ الجَمْعِ عَلَى صَلاَةِ الوَاحِدِ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً. وَيَجْتَمِعُ مَلاَئِكَةُ اللَّيلِ وَمَلاَئِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلاَةِ الفَجْرِ». يقول أبو هريرة: «اقرؤوا إن شئتم ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾»[٢] وقال البخاري حدثنا مُسَدَّدٌ حدثنا أبو عُوَانَةَ عن الأَعْمَش عن أبي حَازِمٍ عن أبِي هريرةَ قال، قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ فَبَاتَ غَضْبَانَ لَعَنَتْهَا المَلاَئِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ»[٣]. تابعه شُعْبَةُ وأبو حمزةَ وأبو داود وأبو معاوية عن الأعمش.

وثبت في الصحيحين أنّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال: «إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا فَإِنَّ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ المَلاَئِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[٤]. وفي صحيح البخاري حدثنا إسماعيل بلفظ: «إِذَا قَالَ الإِمَامُ آمِينَ فَإِنَّ المَلاَئِكَةَ تَقُولُ فِي السَّمَاءِ آمِينَ فَمَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ المَلاَئِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[٥]. وفي صحيح البخاري حدثنا إسماعيل حدثني مالك عن سُمَيٍّ عن أبي صَالِحٍ عن أبي هريرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إِذَا قَالَ الإِمَامُ سَمِعَ اللّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ فَقُولُوا اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ فَإِنَّ مَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ المَلاَئِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[٦]. ورواه بقيةُ الجماعةِ إلا ابن ماجه من حديث مالكٍ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأَعْمَشُ عن أبي صالح عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد هو شَكَّ (يعني الأَعْمَشُ) قال قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلاَئِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الأَرْضِ فُضْلاً عَنْ كُتَّابِ النَّاسِ فَإِذَا وَجَدُوا أَقْوَاماً يَذْكُرُونَ اللّهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَى بُغْيَتِكُمْ، فَيَجِيئُونَ بِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: اللّهُ أَيَّ شَيْءٍ تَرَكْتُمْ عِبَادِي يَصْنَعُونَ؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ يَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ وَيَذْكُرُونَكَ، فَيَقُولُ وَهَلْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ لاَ فَيَقُولُ كَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ لَكَانُوا أَشَدَّ تَحْمِيداً وَتَمْجِيداً وَذِكْراً. قَالَ: فَيَقُولُ: فَأَيَّ شَيْءٍ يَطْلُبُونَ؟

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٢٧٤.
(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب ١٧، سورة بني إسرائيل.
(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ١٧.
(٤) أخرجه البخاري في الأذان باب ١١١، ومسلم في الصلاة حديث ٧٢.
(٥) أخرجه البخاري في الأذان باب ١١٢، وأحمد في المسند ٢/٢٥٩.
(٦) أخرجه البخاري في في بدء الخلق باب ٧، ومسلم في الصلاة حديث ٧١، وأبو داود في الصلاة باب ١٤٠، والترمذي في الصلاة باب ١٩٨، والنسائي في التطبيق باب ٢٣، وأحمد في المسند ٢/٢٥٩.

فَيَقُولُونَ يَطْلُبُونَ الجَنَّةَ، فَيَقُولُ وَهَلْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ لاَ، فَيَقُولُ: وَكَيفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ لَوْ رَأَوْهَا لَكَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصاً، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبَا، قَالَ: فَيَقُولُ: مِنْ أَيِّ يَتَعَوَّذُونَ فَيَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ لاَ، فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا هَرَباً وَأَشَدَّ مِنْهَا خَوْفاً. قَالَ فَيَقُولُ أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ. قَالَ: فَيَقُولُونَ إِنَّ فِيهِمْ فُلاَناً الخَطَّاءَ لَمْ يُرِدْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ فَيَقُولُ: هُمُ القَوْمُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»[(١)]

وهكذا رواه البخاري عن قتيبة عن جَرِير بن عبد الحميد عن الأعمش به. وقال رواه شُعْبَةُ عن الأَعْمَشِ ولم يرفعه. ورفعه سُهَيْلٌ عن أبيه. وقد رواه أحمد عن عَفَّانَ عن وُهَيْبٍ عن سُهَيْلٍ عن أبيه عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ بنحوه كما ذكره البخاري معلقاً عن سهيل. ورواه مسلم عن محمد بن حاتم عن بهز بن أسد عن وهب به. وقد رواه الإمام أحمد أيضاً عن غندر عن شُعْبَةَ عن سُلَيْمَانَ (هو الأَعْمَشُ) عن أبي صالح عن أبي هريرة كما أشار إليه البخاري رحمه الله. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش وابن نُمَيْر. أخبرنا الأعمشُ عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً[(٢)] مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. وَاللَّهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ. وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ بِهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُم، إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ[(٣)] المَلاَئِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ. وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[(٤)] وكذا رواه مسلم من حديث أبي معاوية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن أبي إسحاق عن الأَغَرِّ (أبي مسلم) عن أبي هريرَة وأبي سعيد عن رسول الله ﷺ. قال: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ حَفَّتْهُمُ المَلاَئِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيهِمُ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»[(٥)]. وكذا رواه أيضاً من حديث إسرائيل وسفيانَ الثَّوْري وشعبةَ عن أبي إسحاقِ به نحوه. ورواه مسلم من حديث شُعْبَةَ والترمذي من حديث الثَّوْري وقال حسن صحيح. ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يحيى بن آدم عن عمَّار بن زُرَيقٍ عن أبي إسحاق بإسناد نحوه. وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة. وفي مسند الإمام أحمد والسنن عن أبي الدَّرْدَاءِ مرفوعاً «وَإِنَّ المَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضاً بِمَا يَصْنَعُ»[(٦)] أي تتواضع له كما قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٢٥١، ٢٥٢، أخرجه مسلم في: الذكر والدعاء، (الحديث ٣٨) وأحمد في المسند: ١/ ٢٥٢.

(٢) الكربة: الغم. (٣) حفّتهم: أحاطت بهم.

(٤) أخرجه مسلم في: الذكر والدعاء، (الحديث ٣٨). وأحمد في المسند ١/ ٢٥٢.

(٥) أخرجه مسلم في: الذكر والدعاء، (الحديث ٣٩). والترمذي في: الدعوات، باب: (٧). وابن ماجة في: الأدب، باب: (٥٣)، وأحمد في المسند ٢/ ٢٧٠.

(٦) أخرجه أبو داود في: العلم، باب: (١) وابن ماجة في: المقدمة، باب: (١٧)، وأحمد في المسند ٥/ ١٩٦

مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: الآية ٢٤] وقال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء: الآية ٢١٥] وقال الإمام أحمد حدثنا وَكِيع عن سُفْيَانَ عن عبدِ الله بنِ السَّائِبِ عن زَاذَانَ عن عبد الله بن مسعودٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إِنَّ لِلَّهِ مَلائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الأَرْضِ لِيُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلامَ»[(١)]. وهكذا رواه النسائي من حديث سفيانَ الثَّوري وسليمانَ الأَعْمَشِ كلاهما عن عبد الله بن السَّائِبِ به. وقال الإمام أحمدُ. حدَّثنا عبد الرَّزَّاق، حدثنا مَعْمَرٌ عن الزُّهْرِي عن عُرْوَةَ عن عَائِشَةَ قالت قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ المَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ[(٢)]، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»[(٣)]. وهكذا رواه مسلم عن محمد بن رَافِعٍ وَعَبْدَةَ بن حُمَيدٍ كلاهما عن عبد الرَّزَّاق به.

والأحاديث في ذكر الملائكة كثيرة جداً. وقد ذكرنا ما يسرّه الله تعالى وله الحمد.

فصل

وقد اختلف الناس في تفضيل الملائكة على البشر على أقوال: فأكثر ما توجد هذه المسألة في كتب المتكلمين والخلاف فيها مع المعتزلة ومن وافقهم، وأقدم كلام رأيته في هذه المسألة ما ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة أمية بن عَمْرو بن سعيد بن العَاصِ أنه حضر مجلساً لعمر بن عبد العزيز وعنده جماعة فقال عمر: «ما أحد أكرم على الله من كريم بني آدم». واستدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ [البينة: الآية ٧] ووافقه على ذلك أميةُ بن عَمْرِو بن سعيد فقال عِرَاكُ بن مالك: «ما أحد أكرم على الله من ملائكته: هم خدمة دَارَيْهِ ورسله إلى أنبيائه». واستدل بقوله تعالى: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢٠] فقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كَعْبٍ القُرَظِي: «ما تقول أنت يا أبا حمزة؟ فقال: قد أكرم الله آدم فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وجعل من ذريته الأنبياء والرسل ومن يزوره الملائكة». فوافق عمر بن عبد العزيز في الحكم واستدل بغير دليله. وأضعف دلالة ما صرح به من الآية وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مضمونه أنها ليست بخاصة بالبشر. فإن الله قد وصف الملائكة بالإيمان في قوله: ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ وكذلك الجان ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: الآية ١٣] ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ﴾.

قلت: وأحسن ما يستدل به في هذه المسألة ما رواه عثمان بن سعيد الدارمي عن عبد الله بن عمرو موقوفاً[(٤)]، وهو أصحّ. قال: «لَما خَلَقَ الجَنَّةَ قَالَتِ المَلائِكَةِ يَا رَبَّنَا اجْعَلْ لَنَا هَذِهِ نأْكُلُ مِنْهَا وَنَشْرَبُ فَإِنَّكَ خَلَقْتَ الدُّنْيَا لِبَنِي آدَمَ، فَقَالَ اللَّهُ لَنْ أَجْعَلَ صَالِحَ ذُرِّيَّةِ مَنْ خَلَقْتُ

(١) أخرجه النسائي في: السهو، باب: (٤٦)، وأحمد في المسند ١/ ٤٤١.
(٢) مارج من نار: أي نار من خالص اللهب وأحسنه.
(٣) أخرجه مسلم في: الزهد، (الحديث ٦٠)، وأحمد في المسند ٦/ ١٥٣.
(٤) في ط: مرفوعاً.

بِيَدِي كَمَنْ قُلْتُ كُنْ فَكَانَ».

باب [ذكر][١] خلق الجان وقصة الشيطان

قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾ [الرحمٰن: الآيات ١٤ـ١٦] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر: الآيتان ٢٦ـ٢٧].

وقال ابن عباس وعِكْرِمَة ومجاهد والحسن وغير واحد ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ قالوا من طرف اللهب. وفي رواية من خالصه وأحسنه. وقد ذكرنا آنفاً من طريق الزُّهْرِيّ عن عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ المَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الجَانُّ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُم»[٢]، رواه مسلم.

قال كثير من علماء التفسير خلقت الجن قبل آدم عليه السلام، وكان قبلهم في الأرض الجن والبن فسلّط الله الجن عليهم فقتلوهم وأجلوهم عنها، وأبادوهم منها، وسكنوها بعدهم. وذكر السَدِّيُّ في تفسيره عن أبي مالك عن أبي صالح عن ابن عباس وعن مُرَّةَ عن ابن مسعود وعن ناس من أصحابِ رسولِ اللّهِ ﷺ لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش، فجعل إبليس على مُلك الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن، وإنّما سمّوا الجنّ لأنهم خُزان الجنة. وكان إبليس مع ملكه خازناً فوقع في صدره إنما أعطاني الله هذا لمزية لي على الملائكة. وذكر الضحّاكُ عن ابن عباسٍ أن الجنّ لما أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء، بعث الله إليهم إبليس معه جند من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم عن الأرض إلى جزائر البحور.

وقال محمد بن إسحاق، عن خَلاّدٍ عن عَطَاءٍ عن طَاوُسَ عن ابن عبّاس: كان اسم إبليس قبل أن يرتكب المعصية عزازيل. وكان من سكّان الأرض، وكان من[٣] أشدّ الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً، وكان من حيّ يقال لهم: الجن. وروى ابن أبي حَاتم عن سعيد بن جُبَيْر عنه كان اسمه عزازيل وكان من أشرف الملائكة من أولي الأجنحة الأربعة. وقد أسند عن حَجّاج عن ابن جُرَيج قال ابن عباس كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة. وكان خازناً على الجِنان وكان له سلطان سماء الدنيا. وكان له سلطان الأرض. وقال صالح مولى التوأمة عن ابن عبّاس كان يسوس ما بين السماء والأرض. رواه ابن جرير. وقال قَتادةُ عن سعيد بن المسيب: كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا. وقال الحسن البَصْرِيّ: لم يكن من الملائكة طرفة عين وأنه لأصل الجن كما أن آدم أصل البشر. وقال شَهْرُ بنُ حَوْشَبٍ وغيره: كان إبليس من الجنّ الذين طردوهم الملائكة فأسره بعضهم وذهب به إلى السماء. رواه ابن جرير.

قالوا: فلما أراد الله خلق آدم ليكون في الأرض هو وذريته من بعده، وصوّر جثته منها،

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من ط.
(٢) تقدم الحديث مع تخريجه قبل قليل.
(٣) في ط: ومن أشد.

جعل إبليس وهو رئيس الجان وأكثرهم عبادة إذ ذاك وكان اسمه عزازيل يطيف به، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك. وقال أما لئن سلطت عليك لأهلكنك، ولئن سلطت عليّ لأعصينك فلما أن نفخ الله في آدم من روحه كما سيأتي وأمر الملائكة بالسجود له دخل إبليس منه حسد عظيم، وامتنع من السجود له. وقال أنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين، فخالف الأمر واعترض على الربّ عزّ وجلّ، وأخطأ في قوله وابتعد من رحمة ربّه، وأنزل من مرتبته التي كان قد نالها بعبادته؛ وكان قد تشبّه بالملائكة، ولم يكن من جنسهم لأنه مخلوق من نار وهم من نور، فخانه طبعه في أحوج ما كان إليه، ورجع إلى أصله الناري ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠﴾ [الحجر: الآية ٣٠] ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة: الآية ٣٤] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾ [الكهف: الآية ٥٠].

فأهبط إبليس من الملأ الأعلى، وحرّم عليه قدر أن يسكنه فنزل إلى الأرض حقيراً ذليلاً مذؤوماً مدحوراً[1] متوعداً بالنار هو ومن اتبعه من الجن والإنس، إلاّ أنه مع ذلك جاهد كل الجهد على إضلال بني آدم بكل طريق وبكل مرصد[2] كما قال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٢ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ۝٦٣ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝٦٤ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝٦٥﴾ [الإسراء: الآيات ٦٢ ـ ٦٥].

وسنذكر القصّة مستفاضة عند ذكر خلق آدم عليه السلام. والمقصود أن الجان خلقوا من النار وهم كبني آدم يأكلون ويشربون ويتناسلون. ومنهم المؤمنون ومنهم الكافرون، كما أخبر تعالى عنهم في سورة الأحقاف في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٢﴾ [الأحقاف: الآيات ٢٩ ـ ٣٢].

وقال تعالى في سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ

(١) مدحوراً: مطروداً.

(٢) مرصد: الطريق والمكان يرصد منه العدو.

يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ [الجن: الآيات ١ ـ ١٧].

وقد ذكرنا تفسير هذه السورة وتمام القصّة في آخر سورة الأحقاف. وذكرنا الأحاديث المتعلقة بذلك هنالك. وأن هؤلاء النفر كانوا من جنّ (نصيبين) وفي بعض الآثار من جن (بصرى) وأنهم مروا برسول الله ﷺ وهو قائم يصلي بأصحابه ببطن نخلة من أرض مكة فوقفوا فاستمعوا لقراءته. ثم اجتمع بهم النبي ﷺ ليلة كاملة فسألوه عن أشياء أمرهم بها ونهاهم عنها وسألوه الزاد فقال لهم: «الكم[١] عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللّٰهِ عَلَيْهِ تَجِدُونَهُ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْماً وَكُلُّ رَوْثَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ» ونهى النبي ﷺ أن يستنجي بهما وقال: «إِنَّهُمَا زَادُ إِخْوَانِكُمْ الجنّ». ونهى عن البول في السرب[٢] لأنها مساكن الجنّ. وقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة الرحمن فما جعل يمر فيها بآية ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ إلاّ قالوا: ولا بشيء من آلآئك ربّنا نكذب فلك الحمد. وقد أثنى عليهم النبيُّ ﷺ في ذلك لمّا قرأ هذه السورة على الناس فكستوا. فقال: «الجِنُّ كَانُوا أَحْسَنَ مِنْكُمْ رَدّاً مَا قَرَأْتُ عَلَيْهِمْ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ إلاَّ قَالُوا وَلاَ بِشَيْءٍ مِنْ آلاَئِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ»[٣]. رواه الترمذي عن جابر[٤] وابن جرير والبزار عن ابن عمر.

وقد اختلف العلماء[٥] في مؤمني الجنّ هل يدخلون الجنّة أو يكون جزاء طائعهم أن لا يعذّب بالنار فقط. على قولين الصحيح أنهم يدخلون الجنّة لعمومات[٦] القرآن. ولعموم قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ [الرحمٰن: الآيتان ٤٦ ـ ٤٧] فامتنّ تعالى عليهم بذلك، فلولا أنّهم ينالونه لما ذكره وعدّه عليهم من النعم. وهذا وحده دليل مستقل كافٍ في المسألة وحده والله أعلم.

وقال البخاري: حدثنا قُتَيْبَةُ عن مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي صَعْصَعَةَ عن أبيه أن أبا سعيد الخُدْرِي قال له: «إني أراك تحب الغنم والبادية فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنّ ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»[٧].

قال أبو سعيد سمعتُه من رسولِ اللّهِ ﷺ. انفرد به البخاري دون مسلم.

---

(١) في ط: لهم. (٢) السرب: الطريق.

(٣) أخرجه الترمذي في: تفسير القرآن، باب: (٥٥) «ومن سورة الرحمن».

(٤) في ط: جبير، وهو تحريف انظر تحفة الأحوذي، تفسير سورة الرحمن ٩/ ١٧٧، ١٧٨ (٣٣٤٥).

(٥) سقط من ط. (٦) في ط: لعموم.

(٧) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ١٢، وأحمد في المسند ٣/ ٣٥.

وأما كافرو الجن فمنهم الشياطين ومقدّمهم الأكبر إبليس عدو آدم أبي البشر، وقد سلّطه هو وذريته على آدم وذريته. وتكفّل الله عزّ وجلّ بعصمة من آمن به وصدق رسله واتبع شرعه منهم. كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: الآية ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ: الآيتان ٢٠ـ ٢١] وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢٧].

وقـــال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: الآيات ٢٨ـ ٤٤].

وقد ذكر تعالى هذه القصة في سورة البقرة وفي الأعراف وههنا وفي سورة سبحان وفي سورة طه وفي سورة ص. وقد تكلّمنا على ذلك كلّه في مواضعه في كتابنا التفسير ولله الحمد. وسنوردها في قصّة آدم إن شاء الله. والمقصود أن إبليس أنظره وأمره الله إلى يوم القيامة مِحْنَةً لعباده واختباراً منه لهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ: الآية ٢١]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [إبراهيم: الآيتان ٢٢ـ ٢٣].

فإبليس لعنه الله حي الآن مُنْظَرٌ إلى يوم القيامة بنقل[1] القرآن. وله عرش على وجه البحر وهو جالس عليه ويبعث سراياه[2] يلقون بين الناس الشرّ والفتن. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: الآية ٧٦] وكان اسمه قبل معصيته العظيمة: عزازيل. قال النَّقَّاشُ وكنيته (أبو كردوس) ولهذا قال النبيُّ ﷺ لابن صياد: «مَا تَرَى»؟ قال: أرى عرشاً على الماء. فقال له النبي ﷺ: «اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُو قَدْرَكَ» فعرف أن مادة مكاشفته التي كاشفه بها شيطانية

(١) في ط: بنص، ومعناها واحد. (٢) سراياه: جماعاته.

مستمدة من إبليس الذي هو يشاهد عرشه على البحر. ولهذا قال له: «اخسأ فلن تعدو قدرك» أي لن تجاوز قيمتك الدنية الخسيسة الحقيرة.

والدليل على أن عرش إبليس على البحر الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو المُغِيرة حدثنا صَفْوَانُ حدثني مُعَاذُ التَّمِيمِي عن جابرِ بن عبدِ الله قال قال رسول الله ﷺ: «عَرْشُ إِبْلِيسَ فِي البَحْرِ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَفْتِنُونَ النَّاسَ فَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً لِلنَّاسِ»(١) ورواه.

وقال أحمد: حدثنا رَوْحٌ حدثنا ابن جُرَيْجٍ أخبرني أبو الزُّبَيْرِ أنه سمع جابرَ بنَ عبدِ اللّهِ يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عَرْشُ إِبْلِيسَ عَلَى البَحْرِ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَيَفْتِنُونَ النَّاسَ فَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً»(٢) تفرّد به من هذا الوجه.

وقال أحمد: حدثنا مُؤَمَّلٌ، حدثنا حَمَّادُ، حدثنا عَلِيُّ بنُ زيدٍ عن أبي نَضْرَةَ عن جابرِ بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ لابن صَائِدٍ: «مَا تَرَى»؟ قال: «أَرَى عَرْشاً على الماء أو قال على البحر حوله حَيَّاتٌ» قال ﷺ: «ذَاكَ عَرْشُ إِبْلِيسَ»(٣). هكذا رواه في مسند جابر.

وقال في مسند أبي سعيدٍ: حدثنا عَفَّانُ حدثنا، حَمَّادُ بنُ سَلَمَةَ، أنبأنا عَلِيُّ بنُ زَيْدٍ عن أَبِي نَضْرَةَ عن أبي سعيدٍ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال لابن صائدٍ: «ما تَرَى»؟ قال: «أرى عَرْشاً على البَحْرِ حوله الحَيَّاتُ» فقال رسول الله ﷺ: «صدق ذاك عَرْشُ إِبْلِيسَ»(٤).

وروى الإمام أحمد من طريق مُعَاذٍ التَّمِيمِي وأبي الزُّبَيْرِ عن جابرِ بنِ عبدِ اللّهِ قال قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»(٥).

وروى الإمام مسلم من حديث الأعمش عن أبي سفيان طَلْحَةَ بن نافعٍ عن جابرٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيطَانَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى المَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فِي النَّاسِ فَأَقْرَبُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ مَا زِلْتُ بِفُلاَنٍ حَتَّى تَرَكْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا. فَيَقُولُ إِبْلِيسُ لاَ وَاللّهِ مَا صَنَعْتَ شَيْئاً. وَيَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ. قَالَ فَيُقَرِّبُهُ وَيُدْنِيهِ [ويلتزمه] وَيَقُولُ نِعَمَ أَنْتَ»(٦) يروى بفتح النون بمعنى نعم أنت ذاك الذي تستحق الإكرام. وبكسرها أي نعم منك. وقد استدل به بعض النحاة على جواز كون فاعل نعم مضمراً وهو قليل. واختار شيخنا الحافظ أبو الحَجّاج الأول ورجّحه ووجهه بما ذكرناه والله أعلم.

وقد أوردنا هذا الحديث عند قوله تعالى: ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: الآية ١٠٢] يعني أن السحر المتلقى عن الشياطين من الإنس والجن يتوصّل به إلى التفرقة بين المتآلفين غاية التآلف المتوادين المتحابين، ولهذا يشكر إبليس سعي من كان السبب في ذلك. فالذي ذمّه الله يمدحه، والذي يغضب الله يرضيه عليه لعنة الله. وقد أنزل الله عزّ وجلّ سورتي المعوذتين

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٣٥٤.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٣٨٤.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٣٨٨.
(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٩٧.
(٥) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٣٥٤.
(٦) أخرجه مسلم في: المنافقين، (الحديث ٦٧). وأحمد في المسند ٣/ ٣١٤، ٣١٥.

مطردة لأنواع الشر وأسبابه وغاياته. ولا سيما سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾ وثبت في الصحيحين عن أنس. وفي صحيح البخاري عن صَفِيَّة بنت حسين أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيطَانَ يَجْرِي مِنَ ابنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ».

وقال الحافظ أبو يَعْلَى المَوْصِلي: حدثنا محمد بن بحر[1]، حدثنا عَدِيُّ بن أبي عَمَارَة، حدثنا زِيَادُ النُّمَيْرِي عن أنس، قال قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيطَانَ وَاضِعٌ خَطْمَهُ[2] عَلَى قَلْبِ ابنِ آدَمَ فَإِنْ ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ[3] وَإِنْ نَسِيَ الْتَقَمَ قَلْبَهُ فَذَلِكَ الوَسْوَاسُ الخَنَّاسُ». ولما كان ذكر الله مطردة للشيطان عن القلب كان فيه تذكرا للناس كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: الآية ٢٤] «وقال صاحب موسى ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: الآية ٦٣].

وقال تعالى: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: الآية ٤٢] يعني الساقي لما قال له يوسف اذكرني عند ربك نسي الساقي أن يذكره لربّه يعني مولاه الملك. وكان هذا النسيان من الشيطان فلبث يوسف في السجن بضع سنين. ولهذا قال بعده ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: الآية ٤٥] أي مدة. وقرىء بعد أمة أي نسيان. وهذا الذي قلنا من أن الناسي هو الساقي هو الصواب من القولين كما قررناه في التفسير والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعْبة عن عاصم سمعت أبا تَمِيمَة يحدث عن رديف رسول الله ﷺ قال عثر بالنبيِّ ﷺ حمارُه فقلت: تعس[4] الشيطان فقال النبيُّ ﷺ: «لاَ تَقُلْ تَعِسَ الشَّيطَانِ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ تَعِسَ الشَّيطَانِ تَعَاظَمَ، وَقَالَ بِقُوَّتِي صَرَعْتُهُ، وَإِذَا قُلْتَ بِسْمِ اللَّهِ تَصَاغَرَ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ»[5]. تفرّد به أحمد وهو إسناد جيد.

وقال أحمد: حدثنا أبو بكر الحَنَفِي حدثنا الضَّحَّاكُ بن عُثْمَانَ عن سَعِيدٍ المَقْبري عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ فِي المَسْجِدِ جَاءَ الشَّيطَانُ فَأَبِسَ[6] بِهِ كَمَا يَبِسَ الرَّجُلُ بِدَابَّتِهِ، فَإِذَا سَكَنَ لَهُ زَنَقَهُ[7] أَوْ أَلْجَمَهُ»[8]. قال أبو هريرة وأنتم ترون ذلك. أما المزنوق[9] فتراه مائلاً كذا لا يذكر إلاّ الله. وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله عزّ وجلّ. تفرّد به أحمد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن نُمَير حدثنا، ثَوْرٌ يعني ابنَ يَزِيدَ عن مَكْحُولٍ عن أبي هريرة

(١) في ط: جبير. (٢) الخطم: الأنف.
(٣) خنس: تأخر.
(٤) في ط: نفس، والصواب ما في الأصل وانظر المسند ٥/ ٥٩.
(٥) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٥٩. (٦) أبس: استقل.
(٧) زنقة: ضيق عليه.
(٨) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٣٠.
(٩) قال ابن الأثير في النهاية: هو المائل شقة لا يذكر الله. قيل: أصله من الزنقة، وهي ميل في جدار في سكة أو عرقوب واد.

قال قال رسول الله ﷺ: «العَيْنُ حَقٌّ وَيَحْضُرُهَا الشَّيطَانُ وَحَسَدُ ابْنِ آدَمَ»(١).

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا وكيعٌ عن سفيانَ عن منصورٍ عن ذَرِّ بن عبد الله الهَمَدَانِي عن عبد الله بن شداد عن ابن عبّاس قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسولَ الله إني أحدِّث نفسي بالشيء لأن أخِرّ من السماء أحبُّ إليّ من أن أتكلّم به» فقال النبي ﷺ: «اللَّهُ أكْبَرُ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الوَسْوَسَةِ»(٢).

ورواه أبو داود والنسائي من حديث مَنْصُورٍ، زاد النَّسائي والأَعْمَشُ كلاهما عن أبي ذَرٍّ به.

وقال البخاري: حدثنا يَحْيَى بن بُكَيرٍ، حدثنا اللَّيْثُ عن عَقِيلٍ عن ابنِ شِهَابٍ قال أخبرني عُرْوَةُ قال قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِي الشَّيطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَ كَذَا مَنْ خَلَقَ كَذَا حَتَّى يَقُولُ مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهِ»(٣). وهكذا رواه مسلم من حديث اللَّيْثِ ومن حديث الزّهْرِي وهِشَام بن عُرْوَةَ كلاهما عن عُرْوَةَ به.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢٠١] وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ٩٧-٩٨] وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٠].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: الآيات ٩٨-١٠٠].

وروى الإمام أحمد وأهل السنن من حديث أبي المُتَوَكِّلِ عن أبي سَعِيدٍ قال: كان رسول الله ﷺ يقولُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ». وجاء مثله من رواية جُبَيْر بن مُطْعِمٍ وعبد الله بن مسعود وأبي أُسَامَةَ البَاهِلِي. وتفسيره في الحديث «فَهَمْزُهُ المُوتَةُ وَهُوَ الخَنْقُ الَّذِي هُوَ الصَّرَعُ. وَنَفْخهُ الكِبْرُ. وَنَفْثُهُ الشِّعْرُ»(٤) وثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل الخلاء قال: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الخُبُثِ وَالخَبَائِثِ»(٥) قال كثير من العلماء استعاذ من ذُكران الشياطين وإناثهم.

وروى الإمام أحمد، عن شُرَيْحٍ عن عيسى بن يونس عن ثَوْرٍ عن الحسين عن أبي(٦) سَعْدٍ

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٤٣٩.
(٢) أخرجه أبو داود في: الأدب، باب: (١١٨)، وأحمد في المسند ١/ ٢٣٥.
(٣) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (١١)، ومسلم في: الإيمان (الحديث ٢١٤).
(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ١٢٢، والدرامي في الصلاة باب (ما يقال بعد افتتاح الصلاة)، وأحمد في المسند ٣/ ٤٩.
(٥) أخرجه البخاري في الوضوء باب ٩، ومسلم في الحيض حديث ١٢٢، وأحمد في المسند ٣/ ١٠١.
(٦) في ط: ابن.

الخَيْرِ وكان من أصحاب عُمَرَ عن أبي هريرةَ قال قال رسول الله ﷺ: «وَمَنْ أَتَى الغَائِطَ فَلْيَسْتَتِرْ فَإِنْ لَمْ يَجِدْ إِلاَّ أَنْ يَجْمَعَ كَثِيباً[1] فَلْيَسْتَدْبِرْهُ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَلْعَبُ بِمَقَاعِدِ بَنِي آدَمَ مَنْ فَعَلَ فَقَدْ أَحْسَنَ وَمَنْ لاَ فَلاَ حَرَجَ»[2]. ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث ثَوْرِ بن يزيد به. وقال البخاري حدثنا عثمان بن أبي شَيْبَة حدثنا جَرِيرٌ عن الأَعْمَش عن عَدِيِّ بن ثَابِتٍ، قال قال سليمانُ بنُ صُرَدٍ: استبّ رجلان عند النبيِّ ﷺ ونحن عنده جلوس فأحدهما يسبّ صاحبه مغضباً قد احمر وجهه فقال النبي ﷺ: «إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ. لَوْ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»[3] فقالوا للرجل ألا تسمعُ ما يقولُ النبيُّ ﷺ فقال: إني لستُ بمجنونٍ. ورواه أيضاً مسلم وأبو داود والنسائي من طرق عن الأَعْمش.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا عُبيد اللّهِ بن عمرَ عن نافعٍ عن ابن عمرَ أنَّ رسول ﷺ قال: «لاَ يأْكُلْ أَحَدُكُمْ بِشِمَالِهِ وَلاَ يَشْرَبْ بِشِمَالِهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ»[4]. وهذا على شرط الصَّحيحين بهذا الإسناد وهو في الصحيح من غير هذا الوجه.

وروى الإمام أحمد من حديث إسماعيل بن أبي حَكِيم عن عروةَ عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ أَكَلَ بِشِمَالِهِ أَكَلَ مَعَهُ الشَّيْطَانُ وَمَنْ شَرِبَ بِشِمَالِهِ شَرِبَ مَعَهُ الشَّيْطَانُ»[5].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر أنبأنا شُعْبَةُ عن أبي زِيَادٍ الطَّحَّانِ سمعت أبا هريرةَ يقولُ عن النبيِّ ﷺ أنه رأى رجلاً يشرب قائماً فقال له: «قِهِ» قال لِمَ. قال: «أَيَسُرُّكَ أَنْ يَشْرَبَ مَعَكَ الهِرُّ»؟ قال: لاَ قال: «فَإِنَّهُ قَدْ شَرِبَ مَعَكَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْهُ الشَّيْطَانُ»[6]. تفرّد به أحمد من هذا الوجه.

وقال أيضاً: حدثنا عبد الرزّاق حدثنا مَعْمَرٍ عن الزُّهْرِي عن رجل عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لَوْ يَعْلَمُ الَّذِي يَشْرَبُ وَهُوَ قَائِمٌ مَا فِي بَطْنِهِ لاَسْتَقَاءَ»[7].

قال: وحدثنا عبد الرزّاقِ عن مُعَمَرٍ عن الأَعْمَشِ عن أبي صالحٍ عن أبي هريرَة عن النبيِّ ﷺ بمثل حديث الزّهْرِي.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا مُوسى حدثنا ابن لَهِيْعَةَ عن ابن الزُّبَيْرِ أنه سأل جابراً سمعتُ النبيَّ ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ حِينَ يَدْخُلُ وَحِينَ يَطْعَمُ قَالَ الشَّيْطَانُ

---

(١) الكثيب: التل من الرمل المستطيل المحدودب.

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة باب ١٩، وابن ماجه في الطهارة باب ٢٣، وأحمد في المسند ٢/ ٣٧١.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب باب ٧٦، ومسلم في البر والصلة حديث ١٠٩، وأبو داود في الأدب باب٣، وأحمد في المسند ٦/ ٣٩٤.

(٤) أخرجه مسلم في: الأشربة، (الحديث ١٠٦) وأحمد في المسند ٢/ ٨٠.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٧٧.

(٦) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٠١.

(٧) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٢٨٣.

لاَ مَبِيتَ لَكُمْ وَلاَ عَشَاءَ هَهُنَا. وَإِنْ دَخَلَ وَلَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ. وَإِنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ وَالعَشَاءَ. قال نَعَمْ»[١]

وقال البخاري: حدثنا محمد، حدثنا عَبْدَةُ، حدثنا محمد عن هشام بن عُرْوَةَ عن أبيه عن ابن عُمَرَ قال قال رسول الله ﷺ: «إِذَا طَلَعَ حَاجِبُ الشَّمْسِ فَدَعُوا الصَّلاَةَ حَتَّى يَبْرُزَ وَإِذَا غَابَ حَاجِبُ الشَّمْسِ فَدَعُوا الصَّلاَةَ حَتَّى يَغِيبَ وَلاَ تَحَيَّنُوا بِصَلاَتِكُمْ طُلُوعَ الشَّمْسِ وَلاَ غُرُوبَهَا فَإِنَّهَا تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ الشَّيطَانِ»[٢] أو «الشياطين» لا أدري أيّ ذلك قال هشام. ورواه مسلم والنسائي من حديث هشام به. وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال رأيتُ رسولَ الله ﷺ يشير إلى المشرق فقال: «هَا إِنَّ الفِتْنَةَ هَهُنَا إِنَّ الفِتْنَةَ هَهُنَا مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيطَانِ»[٣]. هكذا رواه البخاري منفرداً به من هذا الوجه.

وفي السنن أن رسول الله ﷺ نهى أن يُجلسَ بين الشَّمسِ والظِلِّ. وقال: «إنه مجلسُ الشَّيطانِ» وقد ذكروا في هذا معاني، من أحسنها أنه لما كان الجلوس في مثل هذا الموضع فيه تشويه بالخلقة فيما يرى كان يحبه الشيطان لأن خلقته في نفسه مشوّه وهذا مستقر في الأذهان. ولهذا قال تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥﴾ [الصافات: الآية ٦٥] الصحيح أنهم الشياطين، لا ضرب من الحيّات كما زعمه من زعمه من المفسّرين والله أعلم. فإنّ النفوس مغروز فيها قبح الشياطين وحسن خلق الملائكة وإن لم يشاؤوا. ولهذا قال تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥﴾ وقال النسوة لما شاهَدْنَ جمالَ يوسف ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾ [يوسف: الآية ٣١].

وقال البخاري: حدثنا يحيى بن جعفر، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا ابن جُرَيْجٍ، أخبرني عَطَاءٌ عن جابر عن النبي ﷺ قال: «إِذَا اسْتَجْنَحَ أو (كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ) فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ العِشَاءِ فَخَلُّوهُمْ[٤] وَأَغْلِقْ بَابَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ وَأَطْفِىءْ مِصْبَاحَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ وَأَوْكِ[٥] سِقَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ وَخَمِّرْ إِنَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ وَلَوْ تَعْرِضُ عَلَيْهِ عوداً»[٦].

ورواه أحمد عن يحيى عن ابن جُرَيْج وعنده «فَإِنّ الشيطان لا يفتح مغلقاً».

وقال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيعٌ عن مطر عن أبي الزبير عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «أَغْلِقُوا أَبْوَابَكُمْ وَخَمِّرُوا آنِيَتَكُمْ وَأَوْكُوا أَسْقِيَتَكُمْ وَأَطْفِؤُوا سُرُجَكُمْ فَإِنَّ الشَّيطَانَ لاَ يَفْتَحُ بَاباً مُغْلَقاً

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٤٥٠، ٤٥١.

(٢) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (١١)، ومسلم في: صلاة المسافرين، (الحديث ٢٩١)، والنسائي في: المواقيت، باب: (٣٥)، وأحمد في المسند ٢/ ١٩.

(٣) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (١١).

(٤) خلّوهم: اخلو سبيلهم.

(٥) أوكِ: الوكاء: كل ما شد رأسه من وعاء وغيرها.

(٦) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (١١)، وأحمد في المسند ٣/ ٣١٩.

وَلاَ يَكْشِفُ غِطَاءً وَلاَ يَحُلُّ وِكَاءً وَإِنَّ الفُوَيْسِقَةَ تُضْرِمُ البَيْتَ عَلَى أَهْلِهِ»[١] يَعْنِي الفَأْرَةَ.

وقال البخاري: حدثنا آدم حدثنا شعبة عن منصور عن سالم بن أبي الجَعْدِ عن كَرِيبٍ عن ابن عَبّاس قال قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنِي، فَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ وَلَمْ يُسَلَّطْ عَلَيْهِ»[٢]. وحدثنا الأعمشُ عن سالم عن كُرَيْبٍ عن ابنُ عبّاس مثله.

ورواه أيضاً عن موسى بن إسماعيل عن همّام عن منصور عن سالم عن كُرَيْبٍ عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «أَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ بِسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا فَرُزِقَا وَلَداً لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ»[٣].

وقال البخاري: حدثنا إسماعيل، حدثنا أخي عن سليمان عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المُسَيّب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاَثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ عَلَى كُلِّ عُقْدَةٍ مَكَانَهَا عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ فَإِنْ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ. فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ. فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقَدُهُ كُلُّهَا فَأَصْبَحَ نَشِيطاً طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلاَّ أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ»[٤] هكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه.

وقال البخاري: حدثنا إبراهيم عن حمزة، حدثني ابن أبي حازم عن يزيد يعني ابن الهادي عن محمد بن إبراهيم عن عيسى بن طلحة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ مَنَامِهِ فَتَوَضَّأَ فَلْيَسْتَنْثِرْ ثَلاَثاً فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَبِيتُ عَلَى خَيْشُومِهِ»[٥].

ورواه مسلم عن بشر بن الحكم عن الدّرَاوَرْدِي.

والنّسائي عن محمد بن زُنْبُورٍ عن عبد العزيز بن أبي حَازِمٍ كلاهما عن يزيد بن الهَادِي به.

وقال البخاري: حدثنا عثمان بن أبي شَيْبَةَ حدثنا جريرٌ عن منصور عن أبي وَائِلٍ عن عبد الله قال: «ذُكر عند النبيِّ ﷺ رجلٌ نام ليلَه ثم أصبح قال: ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ»[٦] أو قال «في أُذُنِهِ».

ورواه مسلم عن عثمانَ وإسحاقَ كلاهما عن جريرٍ به.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/٣٠١.
(٢) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (١١)، وأحمد في المسند ١/٢٨٦.
(٣) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (١١).
(٤) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (١١).
(٥) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (١١)، ومسلم في: الطهارة، (الحديث ٢٣)، والنسائي في: الطهارة، باب: (٧٣)، وأحمد في المسند ٢/٣٥٢.
(٦) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (١١)، ومسلم في: صلاة المسافرين، (الحديث ٢٠٥)، والنسائي في: قيام الليل، باب: (٥)، وابن ماجة في: إقامة الصلاة والسنة فيها باب (١٧٤)، وأحمد في المسند ١/٤٢٧.

وأخرجه البُخَارِي أيضاً والنَّسَائِي وابن ماجه من حديث منصور بن المُعْتَمِرِ به.

وقال البخاري: حدّثنا محمد بن يوسف أنبأنا الأَوْزَاعِي عن يحيى بن أبي كَثِير عن أبي سَلَمَةَ عن أبي هريرةَ قال قال رسول الله ﷺ: «إِذَا نُودِيَ بِالصَّلاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ فَإِذَا قُضِيَ أَقْبَلَ فَإِذَا ثُوِّبَ بِهَا أَدْبَرَ، فَإِذَا قُضِيَ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَقَلْبِهِ. فَيَقُولُ اذْكُرْ كَذَا وَكَذَا حَتَّى لاَ يَدْرِي أَثَلاثاً صَلَّى أَمْ أَرْبَعاً فَإِذَا لَمْ يَدْرِ أَثَلاثاً صَلَّى أَمْ أَرْبَعاً سَجَدَ سَجْدَتَيِ السَّهْوِ»[1] هكذا رواه منفرداً به من هذا الوجه.

وقال أحمد: حدثنا أَسْوَدُ بن عَامِر، حدثنا جَعْفَرُ يعني الأَحْمَرُ عن عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ عن أَنَسٍ قال قال رسولُ اللّهِ ﷺ: «رَاصُّوا الصُّفُوفَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَقُومُ فِي الخَلَلِ»[2] وقال أحمد حدثنا أَبَانُ حدثنا قتادةُ عن أَنَسِ بن مَالِكٍ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يقول: «رَاصُّوا الصُّفُوفَ وَقَارِبُوا بَيْنَهَا وَحَاذُوا بَيْنَ الأَعْنَاقِ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لأَرَى الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ مِنْ خَلَلِ الصَّفِّ كَأَنَّهُ الحَذَفُ»[3][4]. وقال البخاري حدّثنا أبو مُعَمَّرٍ حدثنا عبد الوارثِ حدثنا يونس عن حَمِيدِ بن هِلاَلٍ عن أبي صالح عن أبي سَعِيدٍ قال قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَرَّ بَيْنَ يَدَيْ أَحَدِكُمْ شَيْءٌ فَلْيَمْنَعْهُ فَإِنْ أَبَى فَلْيَمْنَعْهُ فَإِنْ أَبَى فَلْيُقَاتِلْهُ فَإِنَّما هُوَ شَيْطَانٌ»[5].

ورواه أيضاً مسلم وأبو داود من حديث سليمان بن المُغِيرَةَ عن حَمِيدُ بنُ هَلال به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد حدثنا بَشِيرُ بن مَعْبدٍ حدثنا أبو عُبَيْدٍ حاجب سليمانَ قال رأيت عطاءَ بن يزيدَ اللَّيْثي قائماً يُصَلِّي، فذهبت أمرّ بين يديه فردّني.

ثم قال: حدّثني أبو سعيد الخدري «أنّ رسول الله ﷺ قام يصلي صلاة الصبح وهو خلفه يقرأ فالتبست عليه القراءة فلما فرغ من صلاته قال: «لَوْ رَأَيْتُمُونِي وَإِبْلِيسَ فَأَهْوَيْتُ بِيَدِي فَمَا زِلْتُ أَخْنُقُهُ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ لُعَابِهِ بَيْنَ أُصْبَعَيَّ هَاتَيْنِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا وَلَوْلاَ دَعْوَةُ أَخِي سُلَيْمَانَ لأَصْبَحَ مَرْبُوطاً بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ يَتَلاعَبُ بِهِ صِبْيَانُ المَدِينَةِ فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ لاَ يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ القِبْلَةِ أَحَدٌ فَلْيَفْعَلْ»[6]. وروى أبو داود منه «فمن استطاع» إلى آخره عن أحمد بن أبي سُرَيْجٍ[7] عن أبي أحمد محمد بن عبد الله بن محمد بن الزبير به.

وقال البخاري: حدّثنا محمود، حدثنا شَبَابة، حدّثنا شُعْبَةُ عن محمد بن زياد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ صَلَّى صَلاَةَ الصبح فَقَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ عَرَضَ لِي فَسَدَّ عَلَيَّ لِقَطْعِ الصَّلاَةِ

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ١١. (٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ١٥٤.

(٣) الحذف: طائر أو بط صغار.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٢٦٠.

(٥) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (١١)، ومسلم في: الصلاة، (الحديث ٢٥٩)، وأبو داود في: الصلاة، باب: (١٠٩).

(٦) أخرجه أبو داود في: الصلاة، باب: (١٠٩)، وأحمد في المسند ٣/ ٨٢.

(٧) في الأصل شريح، وهو تحريف، والصواب ما في ط وهو أحمد بن شريح الرازي، أهمله الحافظ في التهذيب، انظر الخلاصة ١/ ١٤.

عَلَيَّ فَأَمْكَنَنِي اللَّهُ مِنْهُ»[1] فذكر الحديث. وقد رواه مسلم والنسائي من حديث شُعْبَة به مطولاً.

ولفظ البخاري عند تفسير قوله تعالى إخباراً عن سليمان عليه السلام أنه قال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص: الآية ٣٥] من حديث رَوْح وغُنْدُر عن شُعْبَةَ عن محمد بن زيادٍ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ عِفْرِيتاً مِنَ الجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ البَارِحَةَ» أو كلمة نحوها: «لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلاةَ فَأَمْكَنَنِي اللَّهُ مِنْهُ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ»[2] قال رَوْحٌ فَرَدَّهُ خاسِئاً.

وروى مسلم من حديث أبي إِدْرِيسَ عن أبي الدَّرْدَاءِ قال قام رسولُ الله ﷺ يصلِّي فسمعناهُ يقول: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ» ثم قال: «أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللَّهِ ثَلاثاً» وَبَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئاً فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلاةِ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِي الصَّلاةِ شَيْئاً لَمْ نَسْمَعْكَ تَقُولُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ! فَقَالَ: «إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ إِبْلِيسَ جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي. فَقُلْتُ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ. ثُمَّ قُلْتُ أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ. ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ وَاللَّهِ لَوْلاَ دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لأَصْبَحَ مُوثَقاً يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ أَهْلِ المَدِينَةِ»[3].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان: الآية ٣٣] يعني الشيطان.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: الآية ٦] فالشيطان لا يألو الإنسان خبالاً جهده وطاقته في جميع أحواله وحركاته وسكناته، كما صنّف الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا كتاباً في ذلك سماه: (مصائد الشيطان) وفيه فوائد جمّة.

وفي سنن أبي داود إنّ رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه: «وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي[4] الشَّيْطَانُ عِنْدَ المَوْتِ»[5]. وروينا في بعض الأخبار أنه قال: «يَا رَبِّ وَعِزَّتِكَ وَجَلالِكَ لاَ أَزَالُ أُغْوِيهِمْ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَعِزَّتِي وَجَلالِي وَلاَ أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي».

وقال الله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٦٨] فوعد الله هو الحق المصدق ووَعْد الشيطان هو الباطل.

وقد روى الترمذي والنسائي وابن حِبان في صحيحه وابن أبي حَاتِم في تفسيره من حديث عَطَاءِ بن السَّائِب عن مُرَّةَ الهَمَدَانِي عن ابن مسعود قال، قال قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ

---

(١) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (١١).

(٢) أخرجه البخاري في: التفسير، باب: (٣٨)، سورة صَ، والصلاة، باب: (٧٥).

(٣) أخرجه مسلم في: المساجد ومواضع الصلاة، (الحديث ٤٠).

(٤) خبطة الشيطان: أي مسّة بأذى.

(٥) أخرجه أبو داود في: الصلاة، باب ٣٢. وأخرجه أحمد في المسند ٢/٣٥٦.

لِلَمَّةً[١] بِابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةٌ. فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ. وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ. فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ. وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرى فَلْيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيْطَانِ» ثُمَّ قَرَأَ «الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ»[٢].

وقد ذكرنا في فضل سورة البقرة أن الشيطان يفرّ من البيت الذي تقرأ فيه. وذكرنا في فضل آية الكرسيّ أن من قرأها في ليلة لا يقربه الشيطان حتى يصبح.

وقال البخاري: حدّثنا عبد الله بن يوسف، أنبأنا مالِكُ عن سمِيٍّ عن أبي صالح عن أبي هريرةَ أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ. لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ في يوم مَائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ وَكُتِبَتْ لَهُ مَائَةُ حَسَنَةٍ وَمُحِيَتْ عَنْهُ مَائَةُ سَيِّئَةٍ وَكَانَتْ لَهُ حِرْزاً مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِي وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلاَّ رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ»[٣]. وأخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه من حديث مالك. وقال الترمذي حسن صحيح.

وقال البخاري: أنبأنا أبو اليَمَانِ، أنبأنا شُعَيْبٌ عن أبي الزِّنَادِ عن الأَعْرَجِ عن أبي هريرة قالَ قال ﷺ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَطْعَنُ الشَّيْطَانُ فِي جَنْبَيْهِ بِإِصْبَعِهِ حِينَ يُولَدُ غَيْرَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَهَبَ يَطْعَنُ فَطَعَنَ فِي الحِجَابِ»[٤]. تفرّد به من هذا الوجه.

وقال البخاري: حدثنا عاصمٌ بن علي حدثنا ابن أبي ذِئْبٍ عن سعيد المَقْبَرِي عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «التَّثَاؤُبُ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَرُدَّهُ مَا اسْتَطَاعَ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَالَ هَا ضَحِكَ الشَّيْطَانُ»[٥]. ورواه أحمد وأبو داود والترمذي وصحّحه النسائي من حديث ابن أبي ذِئْبٍ به. وفي لفظ «إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَكْظِمْ[٦] مَا اسْتَطَاعَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرَّزَّاقِ، أنبأنا سفيان عن محمد بن عَجْلاَنَ عن سعيدٍ المَقْبُرِيِّ عن أبيهِ عن أبي هريرةَ قال قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ العُطَاسَ وَيَبْغَضُ أَوْ يَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ فَإِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ هَاهَا فَإِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَضْحَكُ مِنْ جَوْفِهِ»[٧].

---

(١) اللمة من الشيطان: المسّ. واللّمة: الشدّة.

(٢) أخرجه الترمذي في: تفسير القرآن، باب: (٢) «ومن سورة البقرة».

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ١١، ومسلم في الذكر والدعاء حديث ٢٨، والترمذي في الدعوات باب ٦٠، وابن ماجه في الأدب باب ٥٤، وأحمد في المسند ٢/٣٠٢.

(٤) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (١١).

(٥) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (١١)، وأبو داود في: الأدب، باب: (٩٧) وأحمد في المسند ٢/٤٢٨، والترمذي في: الأدب، باب: (٧).

(٦) كظم: رد وحبس.

(٧) أخرجه الترمذي في: الأدب، باب: (٧)، وأحمد في المسند ٢/٢٦٥.

ورواه الترمذي والنسائي من حديث محمد بن عَجْلاَنَ به.

وقال البخاري: حدّثنا الحَسَنُ بن الرَّبِيع، حدثنا أبو الأَحوص عن أشعثَ عن أبيه عن مسروقٍ قال: «قالتْ عائشةَ سألتُ النبيَّ ﷺ عَنِ التِفَاتِ الرجل في الصلاة فقال: «هُوَ اخْتِلاَسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلاَةِ أَحَدِكُمْ»[1]. وكذا رواه أبو داود والنسائي من رواية أَشْعَثَ بن أبي الشَّعْثَاءِ سَلِيمِ بنِ أَسْوَدَ المُحَارِبِي عن أبيه عن مَسْرُوقٍ به.

وروى البخاري من حديث الأَوْزَاعِي عن يحيى بن أبي كثير حدثني عبد الله بن أبي قَتَادَةَ عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللَّهِ وَالحِلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِذَا حَلَمَ أَحَدُكُمْ حُلُماً يَخَافُهُ فَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا فَإِنَّهَا لاَ تَضُرُّهُ»[2]. وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرَّزَّاقِ حدثنا مَعْمَرٌ عن هَمَّام عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لاَ يُشِيرن أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسِّلاَحِ فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِي أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ أَنْ يَنْزَعَ فِي يَدِهِ فَيَقَعَ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ»[3]. أخرجاه من حديث عبد الرَّزّاق. وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ [الملك: الآية ٥].

وقــال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ [الصافات: الآيات ٦ ـ ١٠].

وقـال تـعـالـى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ [الحجر: الآيات ١٦ـ١٨].

وقـال تـعـالـى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾ [الشعراء: الآيات ٢١٠ ـ ٢١٢].

وقال تعالى إخباراً عن الجان: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن: الآيتان ٨ ـ ٩].

وقال البخاري: وقال الليث: حدثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هِلال أن أبا الاسود أخبره عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «المَلاَئِكَةُ تَحَدَّثُ فِي العِنَانِ» والعنان الغمام «بِالأَمْرِ يَكُونُ فِي الأَرْضِ فَتَسْمَعُ الشَّيَاطِينُ الكَلِمَةَ فَتَقِرُّهَا فِي أُذُنِ الكَاهِنِ كَمَا تُقَرُّ القَارُورَةَ فَيَزِيدُونَ مَعَهَا مَائَةَ كَلِمَةٍ»[4]. هكذا رواه في صفة إبليس معلقاً عن اللَّيْثِ به. ورواه في صفة الملائكة عن سعيد بن أبي مريم عن اللَّيثِ عن عُبَيْدِ الله بن أبي جعفر عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأَسْوَدِ عن عروة عن عائشة بنحوه. تفرّد بهذين الطريقين دون مسلم. وروى البخاري في

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ١١، وأبو داود في الصلاة باب ١٦٥، والنسائي في السهو باب ١٠، وأحمد في المسند ٦/١٠٦.
(٢) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (١١). وأحمد في المسند ٥/ ٣٠٠.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/٣١٧. (٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٦، ١١.

موضع آخر ومسلم من حديث الزّهري عن يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه قال: «قَالَتْ عَائِشَةُ سأَلَ نَاسٌ النبيَّ ﷺ عن الكهّانِ فقال: «إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ». فقالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَنَا أحياناً بشيء فيكون حقاً فقال ﷺ: «تِلْكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ يَخْطِفُهَا مِنَ الجِنِّيِّ فَيَقَرْقِرُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجَةِ فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا مَائَةَ كِذْبَةٍ»[1]. هذا لفظ البخاري.

وقال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو قال: سمعت عِكْرِمَةَ يقول سمعت أبا هريرة يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ المَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَاناً لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلى صَفْوانٍ. فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ. فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ. وَوَصَفَ سُفيانُ بِكفِّه فحرّفها وبدّد بين أصابعه. فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ حَتَّى يُلْقِيها عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الكَاهِنِ. فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ فَيَكْذِبُ مَعَهَا مائَةَ كِذْبَةٍ، فَيُقَالُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ»[2]. انفرد به البخاري.

وروى مسلم من حديث الزُّهْرِيّ عن علي بن الحسين زين العابدين عن ابن عبّاس عن رجال من الأنصار عن النبي ﷺ نحو هذا.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرف: الآيات ٣٦ـ٣٨] وقال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: الآية ٢٥] الآية.

وقال تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق: الآيات ٢٧ـ ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ١١٢ـ ١١٣].

وقد قدّمنا في صفة الملائكة ما رواه أحمد ومسلم من طريق منصور عن سالم بن أبي الجَعْدِ عن أبيه واسمه رَافِعٌ عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الجِنِّ، وَقَرِينُهُ مِنَ المَلاَئِكَةِ». قالوا: وَإِيَّاكَ يا رسولَ اللَّهِ قال: «وَإِيَّايَ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَلاَ يَأْمُرُونِي إِلاَّ بِخَيْرٍ»[3].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جريرٌ عن قابوسٍ عن أبيه واسمُه حُصَيْنُ بن جُنْدُبٍ وهو أبو ظَبيَان الجنبي عن ابن عبّاس قال قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنْكُمْ مِنْ

(١) أخرجه البخاري في: التوحيد، باب: (٥٧). ومسلم في: السلام، (الحديث ١٢٣).
(٢) أخرجه البخاري في: التفسير، باب: (٣٤) سورة سبأ. ومسلم في: السلام، (الحديث ١٢٤).
(٣) أخرجه مسلم في: صفات المنافقين، (الحديث ٦٩). وأحمد في المسند ١/ ٣٨٥.

أَحدٍ إلاَّ وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الشَّيَاطِينَ»، قالوا: وأنتَ يا رسولَ اللّهِ قال: «نَعَمْ وَلَكِنَّ اللّٰهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ»[(١)]. تفرد به أحمد وهو على شرط الصحيح. وقال الإمام أحمد حدثنا هارون حدثنا عبد الله بن وهب أخبرني أبو صخر عن يزيدِ بن قُسَيْطٍ حدّثه أن عُروةَ بن الزُّبَيْرِ حدّثه أن عائشة زوج النبي ﷺ حدثته «أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا لَيْلاً قالتْ: فغِرْتُ عليه، قالتْ: فجاء فرأى ما أصنعُ، فقال: «العَلَكِ يَا عَائِشَةُ أَغِرتِ»؟ قالت: فقلتُ: وما لي أنْ لا يغارَ مِثْلِي عليّ مثلِك! فقال رسول الله ﷺ: «أَفَأَخَذَكِ شَيطَانُكِ» قالت يا رسولَ الله أوَ مَعِي شيطانٌ؟ قال: «نَعَمْ». قلتُ: ومع كلِّ إنسانٍ؟ قال: «نَعَمْ». قلتُ: ومعكَ يا رسولَ اللّهِ؟ قالَ: «نَعَمْ، وَلَكِنَّ رَبِّي أَعَانَنِي عَلَيْهِ حَتَّى أَسْلَمَ»[(٢)]. وهكذا رواه مسلم عن هارون وهو ابن مسعود الأَيْلي بإسناده نحوه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبةُ بن سعيدٍ، حدثنا ابن لَهِيعَةَ عن موسى بن وَرْدَانَ عن أبي هريرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ المُؤْمِنَ لَيُنْصِي شَيطَانَهُ كَمَا يُنْصِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي السَّفَرِ»[(٣)] تفرّد به أحمد من هذا الوجه ومعنى «لَيُنصي شيطانه» ليأخذ بناصيته فيغلبه ويقهره كما يفعل بالبعير إذا شرد ثم غلبه.

وقوله تعالى إخباراً عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٦-١٧].

قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا أبو عَقِيلٍ هو عبد الله بن عَقِيل الثَّقَفِيّ، حدّثنا موسى بن المسيَّبِ عن سالم بن أبي الجَعْدِ عن سَبْرَةَ بن أبي فَاكِهٍ قال سمعتُ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الشَّيطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بِأَطْرِقَةٍ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلَامِ، فَقَالَ أَتُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ؟ قَالَ فَعَصَاهُ وَأَسْلَمَ قَالَ وَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الهِجْرَةِ فَقَالَ أَتُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ وَإِنَّمَا مَثَلُ المُهَاجِرِ كَالفَرَسِ فِي الطِّوَلِ؟ فَعَصَاهُ وَهَاجَرَ. ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الجِهَادِ وَهُوَ جُهْدُ النَّفْسِ وَالمَالِ، فَقَالَ: أَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ المَرْأَةُ وَيُقْسَمُ المَالُ؟ قَالَ فَعَصَاهُ وَجَاهَدَ» قال رسول الله ﷺ: «فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ كَانَ حَقاً عَلَى اللّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ. وَإِنْ قُتِلَ كَانَ حَقاً عَلَى اللّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، وَإِنْ كَانَ غَرِقَ كَانَ حَقاً عَلَى اللّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، وَإِنْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقاً عَلَى اللّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ»[(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيعٌ حدثنا عُبادة بن مسلم الفَزَارِيّ حدثني جُبَيْر بن أبي سليمانَ بن جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ سمعتُ عبد الله بن عمر يقول لم يكن رسول الله ﷺ يَدَعُ هذه الدعوات حين يصبح وحينَ يمسي «اللّٰهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اللّٰهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللّٰهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللّٰهُمَّ

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٥٧.
(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين حديث ٧٠، وأحمد في المسند ٦/ ١١٥.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٨٠.
(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٤٨٣.

احفظني من بين يديَّ ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي»[١] قال وكيع يعني الخسف، ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عُبادة بن مسلم به. وقال الحاكم صحيح الإسناد.

[باب][٢]ما ورد في خلق آدم عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: الآيات ٣٠ ـ ٣٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: الآية ٥٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: الآية ١٣].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٨٩] الآية.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ١١٠، والنسائي في الاستعاذة، باب ٦٠، وابن ماجة في الدعاء باب ١٤، وأحمد في المسند ٢/ ٢٥.

(٢) ما بين المعقوفين سقط في ط.

مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ
﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن
تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ
بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل
لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ
﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا
تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١١ـ ٢٥]. كما قال في الآية الأخرى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ
وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: الآية ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ
السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ
فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ
السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن
صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ
رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا
أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ
عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: الآيات ٢٦ـ ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا
﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾
قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ
وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾
إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: الآيات ٦١ـ ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ
أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: الآية ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ
اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ
فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ
الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا
مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ
أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ
كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: الآيات ١١٥ـ ١٢٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: الآيات ٦٧ ـ ٨٨].

فهذا ذكر هذه القصّة من مواضع متفرقة من القرآن. وقد تكلّمنا على ذلك كلّه في التفسير.

ولنذكر ههنا مضمون ما دلّت عليه هذه الآيات الكريمات وما يتعلّق بها من الأحاديث الواردة في ذلك عن رسول الله ﷺ والله المستعان.

فأخبر تعالى أنه خاطب الملائكة قائلاً لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: الآية: ٣٠] أعلم بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضاً كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: الآية ١٦٥] فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذرّيته كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة لا على وجه الاعتراض والتنقص لبني آدم والحسد لهم كما قد يتوهمه بعض جهلة المفسرين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ قيل علموا أن ذلك كائن بما رأوا ممن كان قبل آدم من الجن والبن قاله قَتَادَةُ.

وقال عبد الله بن عمر: كانت الجن قبل آدم بألفي عام فسفكوا الدّماء، فبعث الله إليهم جنداً من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور. وعن ابن عباس نحوه.

وعن الحسن ألهموا ذلك. وقيل: لما اطلعوا عليه من اللوح المحفوظ، فقيل: أطلعهم عليه هاروت وماروت عن ملك فوقهما يقال له السجل. رواه ابن أبي حاتم عن أبي جعفر الباقر.

وقيل: لأنهم علموا أن الأرض لا يخلق منها إلا من يكون بهذه المثابة غالباً ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي نعبدك دائماً لا يعصيك منّا أحد فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك فيها نحن لا نفتر[1] ليلاً ولا نهاراً.

﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هؤلاء ما لا تعلمون، أي سيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء والصالحون[2]. ثم بيّن لهم شرف آدم عليهم في العلم فقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.

(١) فتر: سكن بعد حدة. (٢) سقط في ط.

قال ابن عباس: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وجمل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. وقال مجاهد: علّمه اسم الصحفة والقدر حتى الفسوة والفسية.

وقال مجاهد: علّمه اسم كل دابة وكل طير وكل شيء.

وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وغير واحد.

وقال الربيع: علّمه أسماء الملائكة وقال عبد الرحمن بن زيد: علّمه أسماء ذريته.

والصحيح أنه علمه أسماء الذوات وأفعالها مكبرها ومصغرها كما أشار إليه ابن عباس رضي الله عنهما.

وذكر البخاري هنا ما رواه هو ومسلم من طريق سعيد وهشام عن قتادة عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُونَ لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ أنت أبو البَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسْجَد لَكَ مَلَائِكَتَهُ وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ»[1] وذكر تمام الحديث.

ثم عرضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ قال الحسن البصري لما أراد الله خلق آدم قالت الملائكة لا يخلق ربّنا خلقاً إلاّ كنّا أعلم منه فابتلوا بهذا فذلك[2] قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

وقيل غير ذلك كما بسطناه في التفسير.

قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ أي سبحانك أن يحيط أحد بشيء من علمك من غير تعليمك كما قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾.

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي أعلم السر كما أعلم العلانية.

وقيل إن المراد بقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ ما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ وبقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ المراد بهذا الكلام إبليس حين أسر الكبر والنفاسة على آدم عليه السلام قاله سعيدُ بن جُبَيْرٍ ومجاهد والسّدّي والضَّحَّاكُ والثوري واختاره ابن جرير.

وقال أبو العالية والربيع والحسن وقتادة: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ قولهم: لن يخلق ربنا خلقاً إلاّ كنّا أعلم منه وأكرم عليه منه.

قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: الآية ٣٤] هذا إكرام عظيم من الله تعالى لآدم حين خلقه بيده ونفخ فيه من روحه كما قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: الآية ٢٩] فهذه أربع تشريفات: خَلْقُه له بيده الكريمة

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٣٧، ومسلم في القدر حديث ١٥، وأحمد في المسند ٣/١١٦.

(٢) في ط: وذلك.

ونفخه فيه من روحه. وأمره الملائكة بالسجود له وتعليمه أسماء الأشياء.

ولهذا قال له موسى الكليم حين اجتمع هو وإياه في الملإ الأعلى وتناظرا كما سيأتي: «أَنْتَ آدَمُ أَبُو البَشَرِ الَّذِي خَلَقَكَ الله بيده ونفخ فيك من روحه وأَسْجَدَ لَكَ مَلاَئِكَتَهُ وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ». وهكذا يقول [له][1] أهل المحشر يوم القيامة كما تقدم وكما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقال في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: الآية ١١ ـ ١٢].

قال الحسن البصري: قاس إبليس وهو أول من قاس. وقال محمد بن سيرين: أول من قاس إبليس وما عبدت الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس، رواهما ابن جرير.

ومعنى هذا أنه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم فرأى نفسه أشرف من آدم فامتنع من السجود له، مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود. والقياس إذا كان مقابلاً بالنص كان فاسد الاعتبار. ثم هو فاسد في نفسه فإن الطين أنفع وخير من النار، لأن الطين، فيه الرزانة والحلم والأناة[2] والنمو، والنار، فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق.

ثم آدم شرّفه الله بخلقه له بيده ونفخه فيه من روحه. ولهذا أمر الملائكة بالسجود له كما قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ [الحجر: الآيات ٢٨ـ ٣٥] استحق هذا من الله تعالى لأنه استلزم بنقصه[3] لآدم وازدراؤه به وترفعه عليه مخالفة الأمر الآلهي ومعاندة الحق في النص على آدم على التعيين. وشرع في الاعتذار بما لا يجدي عنه شيئاً وكان اعتذاره أشد من ذنبه كما قال تعالى في سورة سبحان: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: الآيات ٦١ـ ٦٥].

وقال في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: الآية ٥٠] أي خرج عن طاعة الله عمداً وعناداً واستكباراً عن امتثال

---

(١) سقط في ط. (٢) الأناة: الرفق.
(٣) في ط: تنقصه.

أمره وما ذاك إلا لأنه خانه طبعه ومادته الخبيثة أحوج ما كان إليها فإنه مخلوق من نار كما قال: وكما قد روينا في صحيح مسلم عن عائشة عن رسول الله ﷺ قال: «خلقت المَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخلق الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»[1].

قال الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط.

وقال شهر بن حوشب: كان من الجنّ فلما أفسدوا في الأرض بعث الله إليهم جنداً من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار وكان إبليس ممن أسر فأخذوه معهم إلى السماء فكان هناك، فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس منه.

وقال ابن مسعود وابن عبّاس وجماعة من الصحابة وسعيد بن المسَيّبِ وآخرون: كان إبليس رئيس الملائكة بالسماء الدنيا. قال ابن عباس وكان اسمه عزازيل، وفي رواية عنه: الحارث. قال النقاش وكنيته (أبو كردوس) قال ابن عباس: وكان من حي من الملائكة يقال لهم الجنّ، وكانوا خزّان الجنان، وكان من أشرفهم ومن أكثرهم علماً وعبادةً وكان من أولي الأجنحة الأربعة فمسخه الله شيطاناً رجيماً.

وقال في سورة صَ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: الآيات ٧١ ـ ٨٥].

وقال في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٦ ـ ١٧] أي بسبب إغوائك إياي لأقعدن لهم كل مرصد ولآتينهم من كل جهة منهم فالسعيد من خالفه والشقي من اتبعه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشمُ بن القاسم، حدثنا أبو عَقِيل، هو عبد الله بن عقيل الثَّقَفِي، حدثنا موسى بن المُسَيَّبِ عن سالم بن أبي الجَعْدِ عن سَبْرَةَ بن أبي الفَاكِهِ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيطَانَ قعد لابْنِ آدم بِأَطْرِقَةِ»[2] وذكر الحديث.

وقد اختلف المفسّرون في الملائكة المأمورين بالسجود لآدم.

أهم جميع الملائكة كم دلّ عليه عموم الآيات؟ وهو قول الجمهور. أو المراد بهم ملائكة الأرض، كما رواه ابن جرير من طريق الضحّاك عن ابن عبّاس؟ وفيه انقطاع. وفي السياق نكارة وإن كان بعض المتأخرين قد رجّحه. ولكن الأظهر من السياقات الأول ويدل عليه الحديث:

(١) أخرجه مسلم في الزهد حديث ٦٠، وأحمد في المسند ٦/١٦٨.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/٤٨٣.

«وأَسْجَدَ لَهُ مَلائِكَتَهُ» وهذا عموم أيضاً والله أعلم.

وقوله تعالى لإبليس: ﴿اهبِطْ مِنهَا﴾ و ﴿اخْرُجْ مِنْهَا﴾ دليل على أنه كان في السماء فأُمِرَ بالهبوط منها والخروج من المنزلة والمكانة التي كان قد نالها بعبادته وتشبّهه بالملائكة في الطاعة والعبادة ثم سُلِب ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربّه فأهبط إلى الأرض مذؤوماً مدحوراً.

وأمر الله آدم عليه السلام أن يسكن هو وزوجته الجنّة فقال: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: الآية ٣٥] وقال في الأعراف: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٨ـ١٩] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: الآيات ١١٦ـ١١٩] وسياق هذه الآيات يقتضي أن خلق حواء كان قبل دخول آدم الجنّة لقوله: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ وهذا قد صرح به إسحاق ابن يسار وهو ظاهر هذه الآيات.

ولكن حكى السُدّي عن أبي صالح وأبي مالك، عن ابن عبّاس وعن مُرّةَ عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا: أخرج إبليس من الجنّة وأسكن آدم الجنة فكان يمشي فيها وحيد ليس له فيها زوج يسكن إليها فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة. خلقها الله من ضلعه. فسألها من أنت قالت: امرأة. قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إليّ، فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم قال: حواء قالوا: ولم كانت حواء؟ قال لأنها خلقت من شيء حي.

وذكر محمد بن إسحاق عن ابن عبّاس أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم ولأم[1] مكانه لحماً.

ومصداق هذا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: الآية ١] الآية وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٩] الآية، وستتكلم عليها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وفي الصحيحين من حديث زَائِدَة، عن مَيْسَرَةَ الأَشْجَعي، عن أبي حَازِم، عن أبي هريرةَ، عن النبي ﷺ أنه قال: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيراً، فَإِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِن ضِلَعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاهُ فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيراً»[2] لفظ البخاري.

---

(١) لأم: أصلح.
(٢) أخرجه البخاري في: أحاديث الأنبياء، باب: (١). ومسلم في: الرضاع، (الحديث ٦٠).

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ فقيل: هي الكرم، وروي عن ابن عبّاس وسعيد بن جُبَيْر والشَّعْبي وَجُعْدَة بن هُبَيْرة، ومحمد بن قَيْسٍ والسَدِّي في رواية عن ابن عبّاس وابن مسعود وناس من الصحابة: قال: وتزعم يهود أنها الحنطة. وهذا مروي عن ابن عبّاس والحسن البصري ووَهْبِ بن مُنَبِّهٍ وعَطِيَّةَ العَوْفِي وأبي مالك، ومُحارب بن دِثَارٍ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى. قال وَهْبٌ: والحبّة منه ألين من الزُّبدِ وأحلى من العسل. وقال الثَّوْرِي عن أبي حُصَيْنٍ، عن أبي مالك: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ هي النخلة.

وقال ابن جُرَيْجَ عن مجاهد: هي التينة، وبه قال قَتادة وابن جُرَيْج.

وقال أبو العَالِيَةِ: كانت شجرة من أكل منها أحدث ولا ينبغي في الجنة حدث.

وهذا الخلاف قريب، وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها، ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها لنا كما في غيرها من المحال التي تبهم في القرآن.

وإنما الخلاف الذي ذكروه في أن هذه الجنة التي دخلها آدم: هل هي في السماء أو في الأرض، هو الخلاف الذي ينبغي فصله والخروج منه.

والجمهور على أنها هي التي في السماء، وهي جنة المأوى لظاهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ والألف واللام ليست للعموم ولا لمعهود لفظي وإنما تعود على معهود ذهني، وهو المستقر شرعاً من جنة المأوى، وكقول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام: «عَلاَمَ أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِنَ الجَنَّةِ» الحديث كما سيأتي الكلام عليه.

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الأشجعي. واسمه: سَعْد بن طَارِقٍ، عن أبي حَازِمٍ سَلَمَةَ بن دِينَارٍ، عن أبي هريرة، وأبو مالك عن رِبْعِي، عن حُذَيْفَةَ قالا: قال رسول الله ﷺ: «يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ فَيَقُومُ المُؤْمِنُونَ حِينَ تُزْلَفُ[1] لَهُمَ الجَنَّةَ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنَا الجَنَّةَ فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الجَنَّةِ إِلاَّ خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ»[2] وذكر الحديث بطوله. وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنة المأوى، وليست تخلو عن نظر.

وقال آخرون: بل الجنّة التي أسكنها آدم لم تكن جنة الخلد، لأنه كلف فيها أن لا يأكل من تلك الشجرة ولأنه نام فيها وأخرج منها ودخل عليه إبليس فيها وهذا مما ينافي أن تكون جنة المأوى.

وهذا القول محكي عن أُبَيّ بن كَعْبٍ، وعبدِ الله بن عَبَّاسٍ، ووَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ، وسفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ، واختاره ابنُ قُتَيْبَةَ في «المعارف». والقاضي مُنْذِرُ بن سَعِيدِ البَلُّوطِي في تفسيره وأفرد له مصنفاً على حدة. وحكاه عن أبي حنيفة الإمام وأصحابه رحمهم الله، ونقله أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي ابن خطيب الرَيّ في تفسيره عن أبي القاسم البَلْخِي وأبي مسلم الأَصْبَهَاني. ونقله القُرْطُبِي في تفسيره عن المعتزلة والقدرية.

(١) تزلف: تقترب.

(٢) أخرجه مسلم في: الإيمان، (الحديث ٣٢٩).

وهذا القول هو نصّ التوراة التي بأيدي أهل الكتاب وممن حكى الخلاف في هذه المسألة أبو محمد بن حزم في «الملل والنحل» وأبو محمد بن عَطِيَّةَ في تفسيره وأبو عيسى الرُّمَّانِي في تفسيره.

وحكى عن الجمهور الأول، وأبو القاسم الرَّاغِب والقاضي المَاوَرْدي في تفسيره فقال: واختلف في الجنّة التي أسكناها ـ يعني آدم وحواء ـ على قولين: **أحدهما**: أنها جنة الخلد. **الثاني**: جنة أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء، وليست دار[1] الخلد التي جعلها دار جزاء. ومن قال بهذا اختلفوا على قولين: **أحدهما**: أنها في السماء لأنه أهبطهما منها وهذا قول الحسن، **والثاني**: أنها في الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهيا عنها دون غيرها من الثمار. وهكذا قول ابن يحيى وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم والله أعلم بالصواب من ذلك.

هذا كلامه. فقد تضمن كلامه حكاية أقوال ثلاثة وأشعر كلامه أنه متوقف في المسألة، ولقد حكى أبو عبد الله الرازي في تفسيره في هذه المسألة أربعة أقوال: هذه الثلاثة التي أوردها الماوردي. ورابعها الوقف. وحكي القول بأنها في السماء وليست جنّة المأوى، عن أبي علي الجبائي. وقد أورد أصحاب القول الثاني سؤالاً يحتاج مثله إلى جواب فقالوا: لا شك أن الله سبحانه وتعالى طرد إبليس حين امتنع من السجود عن الحضرة الإلهية وأمره بالخروج عنها والهبوط منها وهذا الأمر ليس من الأوامر الشرعية بحيث يمكن مخالفته وإنما هو أمر قدري لا يخالف ولا يمانع ولهذا قال: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف: الآية ١٨] وقال: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٣] وقال: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [الحجر: الآية ٣٤] والضمير عائد إلى الجنة أو السماء أو المنزلة وأيا ما كان فمعلوم أنه ليس له الكون قدراً في المكان الذي طرد عنه وأبعد منه لا على سبيل الاستقرار ولا على[2] سبيل المرور والاجتياز. قالوا: معلوم من ظاهر سياقات القرآن أنه وسوس لآدم وخاطبه بقوله له: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: الآية ١٢٠] وبقوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: الآيات ٢٠ـ ٢٢] الآية.

وهذا ظاهر في اجتماعه معهما في جنتهما.

وقد أجيبوا عن هذا بأنه لا يمتنع أن يجتمع بهما في الجنة على سبيل المرور فيها لا على سبيل الاستقرار بها أو أنه وسوس لهما وهو على باب الجنة أو من تحت السماء. وفي الثلاثة نظر. والله أعلم.

ومما احتجّ به أصحاب هذه المقالة: ما رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في الزيادات عن هُدْبَةَ بن خالد، عن حَمَّادِ بن سَلَمَةَ عن حُمَيدٍ، عن الحَسَنِ البَصْرِي، عن يحيى بن ضَمْرَةَ

---

(١) في ط: جنة.

(٢) في ط: إلى.

السَّعْدِيّ، عن أُبَيّ بْنِ كَعْبٍ قال: «إن آدم لما احتضر اشتهى قطفاً من عنب الجنة، فانطلق بنوه ليطلبوه له، فلقيتهم الملائكة فقالوا أين تريدون يا بني آدم فقالوا إن أبانا اشتهى قطفاً من عنب الجنة. فقالوا لهم: ارجعوا فقد كفيتموه فانتهوا إليه فقبضوا روحه وغسلوه وحنّطوه وكفّنوه وصلّى عليه جبريل ومن خلفه من الملائكة ودفنوه. وقالوا: هذه سنتكم في موتاكم» وسيأتي الحديث بسنده، وتمام لفظه عند ذكر وفاة آدم عليه السلام.

قالوا: فلولا أنه كان الوصول إلى الجنة التي كان فيها آدم التي اشتهى منها القطف ممكناً، لما ذهبوا يطلبون ذلك فدلّ على أنها في الأرض لا في السماء والله تعالى أعلم.

قالوا: والاحتجاج بأن الألف واللام في قوله: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ لم يتقدم عهد يعود عليه فهو المعهود الذهني مسلم ولكن هو ما دل عليه سياق الكلام فإن آدم خلق من الأرض ولم ينقل أنه رفع إلى السماء وخلق ليكون في الأرض وبهذا أعلم الربّ الملائكة حيث قال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

قالوا وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: الآية ١٧] فالألف واللام ليس للعموم ولم يتقدم معهود لفظي وإنما هي للمعهود الذهني الذي دل عليه السياق وهو البستان.

قالوا: وذكر الهبوط لا يدل على النزول من السماء قال الله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: الآية ٤٨] الآية وإنما كان في السفينة حين استقرت على «الجودي» ونضب الماء عن وجه الأرض أمر أن يهبط إليها هو ومن معه مباركاً عليه وعليهم.

وقال الله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: الآية ٦١] الآية.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ٧٤] الآية. وفي الأحاديث واللغة من هذا كثير.

قالوا: ولا مانع. بل هو الواقع أن الجنة التي أسكنها آدم كانت مرتفعة عن سائر بقاع الأرض، ذات أشجار وثمار وظلال ونعيم ونضرة وسرور كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾ [طه: الآية ١١٨] أي لا يذلّ باطنك بالجوع ولا ظاهرك بالعري ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: الآية ١١٩] أي لا يمس باطنك حر الظمأ ولا ظاهرك حر الشمس. ولهذا قرن بين هذا وهذا وبين هذا وهذا لما بينهما من الملاءمة.

فلما كان منه ما كان من أكله من الشجرة التي نهى عنها أهبط إلى أرض الشقاء والتعب والنصب والكدر[1] والسعي والنكد والابتلاء والاختبار والامتحان واختلاف السكان ديناً وأخلاقاً وأعمالاً وقصوداً وإرادات وأقوالاً وأفعالاً كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: الآية ٣٦].

ولا يلزم من هذا أنهم كانوا في السماء كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟

---

(١) الكدر: كدر، عكس صفا.

ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء: الآية ١٠٤] ومعلوم أنهم كانوا فيها لم يكونوا في السماء.

قالوا: وليس هذا القول مفرعاً على قول من ينكر وجود الجنّة والنار اليوم ولا تلازم بينهما فكل من حكي عنه هذا القول من السلف وأكثر الخلف ممن يثبت وجود الجنّة والنار اليوم كما دلّت عليه الآيات والأحاديث الصّحاح كما سيأتي إيرادها في موضعها والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ أي عن الجنة ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: الآية ٣٦] أي من النعيم والنضرة والسرور إلى دار التعب والكد والنكد، وذلك بما وسوس لهما وزيّنه في صدورهما، كما قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢٠] يقول: ما نهاكما عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين أي ولو أكلتما منها لصرتما كذلك.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أي حلف لهما على ذلك ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: الآية ١٢٠] أي هل أدلك على الشجرة التي إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم واستمررت في ملك لا يبيد ولا ينقضي؟ وهذا من التغرير والتزوير والإخبار بخلاف الواقع.

والمقصود أن قوله شجرة الخلد التي إذا أكلت منها خلّدت، وقد تكون هي الشجرة التي قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدي، حدثنا شُعْبَةُ عن أبي الضَّحَّاكِ سمعت أبا هُريرةَ يقول: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ في الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مَائَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا، شَجَرَةُ الخُلْدِ»[(١)].

وكذا رواه أيضاً عن غُنْدُرٍ وحجّاج، عن شُعْبَةَ ورواه أبو داود الطَّيَالِسِي في مسنده عن شُعْبَةَ أيضاً به قال غُنْدُرٌ: قلتُ لشُعْبَةَ: هي شجرة الخلد؟ قال: ليس فيها هي. تفرّد به الإمام أحمد.

وقوله: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: الآية ٢٢].

كما قال في طه ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم وهي التي حدته على أكلها والله أعلم.

وعليه يحمل الحديث الذي رواه البخاري: حدثنا بِشْرُ بن محمد، حدثنا عبد الله، أنبأنا مَعْمَر، عن هَمَّامِ بن مُنَبِّه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ نحوه: «لَوْلاَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْنَزِ[(٢)]

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٤٥٥، ٤٦٢.
(٢) يخنز: ينتن.

اللَّحْمُ وَلَوْلاَ حَوَّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا»[1].

تفرّد به من هذا الوجه وأخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزّاق، عن مُعَمَّر، عن هَمَّامٍ، عن أبي هريرة به.

ورواه أحمد ومسلم عن هارون بن مَعْرُوفٍ، عن أبي وَهْبٍ، عن عَمْرِو بن حَارِثٍ عن أبي يونسَ عن أبي هريرة به.

وفي كتاب التوراة التي بين أيدي أهل الكتاب أن الذي دلّ حواء على الأكل من الشجرة هي الحية، وكانت من أحسن الأشكال وأعظمها فأكلت حواء عن قولها وأطعمت آدم عليه السلام وليس فيها ذكر لإبليس فعند ذلك انفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فوصلا من ورق التين وعملا مآزر وفيها أنهما كانا عريانين. وكذا قال وهب بن منبه كان لباسهما نوراً على فرجه وفرجها.

وهذا الذي في هذه التوراة التي بأيديهم غلط منهم وتحريف وخطأ في التعريب فإن نقل الكلام من لغة إلى لغة لا يكاد يتيسر لكل أحد ولا سيما ممن لا يعرف كلام العرب جيداً ولا يحيط علماً بفهم كتابه أيضاً فلهذا وقع في تعريبهم لها خطأ كثير لفظاً ومعنىً. وقد دلّ القرآن العظيم على أنه كان عليهما لباس في قوله: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ﴾ [الأعراف: الآية ٢٧] فهذا لا يرد لغيره من الكلام والله تعالى أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسن بن اشكَابٍ حدثنا عَلِيُّ بن عاصِمٍ، عن سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قَتَادَةَ عن الحَسَنِ، عن أُبَيِّ بن كَعْبٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ رَجُلاً طُوَالاً كَثِيرَ شَعْرِ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ[2] فَلَمَّا ذَاقَ الشَّجَرَةَ سَقَطَ عَنْهُ لِبَاسُهُ فَأَوَّلَ مَا بَدَا مِنْهُ عَوْرَتُهُ فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى عَوْرَتِهِ جَعَلَ يَشْتَدُّ فِي الجَنَّةِ فَأَخَذَتْ شَعْرَهُ شَجَرَةٌ فَنَازَعَهَا، فَنَادَاهُ الرَّحْمَنُ عَزَّ وَجَلَّ يَا آدَمُ مِنِّي تَفِرُّ؟ فَلَمَّا سَمِعَ كَلاَمَ الرَّحْمَنِ قَالَ: يَا رَبِّ لاَ، وَلَكِنْ اسْتِحْيَاءً».

وقال الثوري عن ابن أبي ليلى، عن المِنْهَالِ بن عَمْرٍو، عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عن ابن عبّاسٍ: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ ورق التين.

وهذا إسناد صحيح إليه وكأنهُ مأخوذ من أهل الكتاب وظاهر الآية يقتضي أعم من ذلك وبتقدير تسليمه فلا يضر والله تعالى أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن إسحاق عن الحسن بن ذكوان، عن الحسن البصري عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَبَاكُمْ آدَمَ كَانَ كَالنَّخْلَةِ السَّحُوقِ سِتِّينَ ذِرَاعاً كَثِيرَ الشَّعْرِ مُوَارَى العَوْرَةِ فَلَمَّا أَصَابَ الخَطِيئَةَ فِي الجَنَّةِ بَدَتْ لَهُ سَوْأَتُهُ فَخَرَجَ مِنَ الجَنَّةِ

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ١، ٢٥، ومسلم في الرضاع حديث ٦٣، وأحمد في المسند ٢/ ٣١٥.

(٢) نخلة سحوق: طويلة.

فَلَقِيَتْهُ شَجَرَةٌ فَأَخَذَتْ بِنَاصِيَتِهِ[١] فَنَادَاهُ رَبُّهُ: أَفِرَاراً مِنِّي يَا آدَمُ؟ قَالَ: بَلْ حَيَاءً مِنْكَ واللهِ يَا رَبِّ مِمَّا جِئْتُ بِهِ». ثم رواه من طريق سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قَتَادَةَ، عن الحَسَنِ، عن يَحْيَى بن ضَمْرَةَ عن أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، عن النَّبِيِّ ﷺ بنحوه.

وهذا أصح فإن الحسن لم يدرك أُبَيّاً.

ثم أورده أيضاً من طريق خَيْثَمَةَ بن سُلَيْمَانَ الأَطْرَابُلْسِي، عن محمد بن عَبْدِ الوَهَّابِ أبي قُرْصَافَةَ العَسْقَلاَنِي، عن آدم بن أبي إِيَاسَ، عن شَيْبَانَ، عن قَتَادَةَ، عن أنسٍ مرفوعاً بنحوه. ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ٢٢-٢٣].

وهذا اعتراف ورجوع إلى الإنابة[٢] وتذلل وخضوع واستكانة وافتقار إليه تعالى في الساعة الراهنة وهذا السرّ ما سرى في أحد من ذريته إلا كانت عاقبته إلى خير في دنياه وأخراه.

﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢٤] وهذا خطاب لآدم وحواء وإبليس. قيل والحيّة معهم أمروا أن يهبطوا من الجنة في حال كونهم متعادين متحاربين.

وقد يستشهد لذكر الحية معهما بما ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه أمر بقتل الحيات، وقال: «مَا سَالَمْنَاهُنَّ مُنْذُ حَارَبْنَاهُنَّ»[٣].

وقوله في سورة طه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: الآية ١٢٣] هو أمر لآدم وإبليس واستتبع آدم حواء وإبليس الحية.

وقيل هو أمر لهم بصيغة التثنية كما في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٧٨].

والصحيح أن هذا لما كان الحاكم لا يحكم إلا بين اثنين مدّعٍ ومدّعى عليه قال: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾. وأما تكريره الإهباط في سورة البقرة في قوله: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: الآيات ٣٦-٣٩] فقال بعض المفسرين: المراد بالإهباط الأول: الهبوط من الجنة إلى السماء الدنيا وبالثاني: من السماء الدنيا إلى الأرض.

وهذا ضعيف لقوله في الأول: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ فدلّ على أنهم أهبطوا إلى الأرض بالإهباط الأول والله أعلم.

---

(١) الناصية: قصاص الشعر. (٢) الإنابة: التوبة.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب باب ١٦٢، وأحمد في المسند ١/ ٢٣٠، ٢/ ٢٤٧، ٤٣٢، ٥٢٠.

والصحيح أنه كرّره لفظاً وإن كان واحداً وناط مع كل مرّة حكماً فناط بالأول عداوتهم فيما بينهم، وبالثاني الاشتراط عليهم أن من تبع هداه الذي ينزله عليهم بعد ذلك فهو السعيد ومن خالفه فهو الشقي وهذا الأسلوب في الكلام له نظائر في القرآن الحكيم.

وروى الحافظ ابن عساكر عن مجاهد قال: «أمر الله ملكين أن يخرجا آدم وحواء من جواره فنزع جبريل التاج عن رأسه وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه وتعلق به غصن فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة فنكس رأسه يقول: العفو العفو فقال الله: فراراً مني؟ قال: بل حياء منك يا سيدي».

وقال الأوزاعي عن حسان هو ابن عَطِيَّة: «مكث آدم في الجنة مائة عام، وفي رواية ستين عاماً، وبكى على الجنة سبعين عاماً وعلى خطيئته سبعين عاماً وعلى ولده حين قتل أربعين عاماً» رواه ابن عساكر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زَرْعَةَ، حدثنا عثمانُ بن أبي شيبةَ، حدثنا جريرٌ، عن سعيدٌ، عن ابن عباسٍ، قال: «أهبط آدم عليه السلام إلى أرض يقال له «دحنا» بين مكة والطائف».

وعن الحسن قال: «أهبط آدم بالهند وحواء بجدة وإبليس بدستميان من البصرة على أميال واهبطت الحية بأصبهان».

رواه ابن أبي حاتم أيضاً.

وقال السَدِّي: «نزل آدم بالهند ونزل معه بالحجر الأسود وبقبضة من ورق الجنة فبثه في الهند فنبتت شجرة الطيب هناك».

وعن ابن عمر قال: «أهبط آدم بالصفا وحواء بالمروة»، رواه ابن أبي حَاتم أيضاً.

وقال عبد الرَزَّاقِ: قال معمر: أخبرني عَوْفُ عن قَسَامَةَ بن زُهَيْرٍ عن أبي موسى الأشعري: قال: وإن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علّمه صنعة كل شيء وزوّده من ثمار الجنة فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير.

وقال الحاكم في مستدركه: أنبأنا أبو بكر بن بالويه عن محمد بن أحمد بن النَضْرِ عن معاويةَ بن عمر عن زائدةَ عن عَمَّارِ بن أبي معاويةَ البُجَلِي عن سعيد بن جُبَيْرٍ عن ابن عباس قال: «ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس».

ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وفي صحيح مسلم من حديث الزُهْري عن الأَعْرَج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ: فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا»(١).

وفي الصحيح من وجه آخر: «وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ»(٢).

(١) أخرجه مسلم في الجمعة، (الحديث ١٧). وأحمد في المسند ٢/ ٥١٢.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده الحديث رقم (١٠٣٠٧) ج ٣ من مسند أبي هريرة. المسند ٢/ ٤٨٦.

وقال أحمد: حدثنا محمد بن مُصْعَبٍ، حدثنا الأَوْزَاعِي، عن أَبِي عَمَّارٍ، عن عبد الله بن فَرُّوخٍ، عن أبي هريرةَ عن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ»(١).

على شرط مسلم.

فأما الحديث الذي رواه ابن عساكر من طريق أبي القاسم البَغَوِي: حدثنا محمد بن جعفر الوَرْكَانِي، حدثنا سَعِيدُ بن مَيْسَرَةَ، عن أَنَسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «هَبَطَ آدَمُ وَحَوَّاءُ عُرْيَانَيْنِ جَمِيعاً عَلَيْهِمَا وَرَقُ الْجَنَّةِ فَأَصَابَهُ الحَرُّ حَتَّى قَعَدَ يَبْكِي وَيَقُولُ لَهَا: يَا حَوَّاءُ قَدْ أَذَانِي الحَرُّ، قَالَ فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ بِقُطْنٍ وَأَمَرَهَا أَنْ تغزل وعَلَّمَهَا وَأَمَرَ آدَمَ بِالْحِيَاكَةِ وَعَلَّمَهُ أَنْ يَنْسُجَ» وقال: «كَانَ آدَمُ لَمْ يُجَامِعْ امْرَأَتَهُ فِي الجَنَّةِ حَتَّى هَبَط مِنْهَا لِلْخَطِيئَةِ الَّتِي أَصَابَتْهُمَا بِأَكْلِهِمَا مِنَ الشَّجَرَةِ» قال: «وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَنَامُ عَلَى حِدَةٍ يَنَامُ أَحَدُهُمَا فِي البَطْحَاءِ وَالآخَرُ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى حَتَّى أَتَاهُ جِبْرِيلُ فَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ» قال: «وَعَلَّمَهُ كَيْفَ يَأْتِيها فَلَمَّا أَتَاهَا جَاءَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: كَيْفَ وَجَدْتَ امْرَأَتَكَ؟ قال: صَالِحَةً» فإنه حديث غريب ورفعه منكر جداً، وقد يكون من كلام بعض السلف وسعيد بن مَيْسَرَةَ هذا هو: أبو عِمْرَان البَكْرِي البَصْرِي، قال فيه البُخَارِي: منكر الحديث، وقال ابن حِبَّان: يروي الموضوعات وقال ابن عَدِيٍّ: مظلم الأمر.

وقوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧﴾ [البقرة: الآية ٣٧] قيل هي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾ [الأعراف: الآية ٢٣].

رُوِيَ هذا عن مُجَاهِدٍ وسعيدِ بن جُبَيْرٍ وأبي العَالِيَةِ والربيع بن أَنَسٍ والحسنِ وقتادةَ ومحمد بن كعبٍ وخالد بن مِعْدَانَ وَعَطَاء الخُرَاسَانِي وعبد الرحمن بن زيد بن أَسْلَمَ.

وقال ابن أبي حَاتِم: حدثنا علي بن الحسين بن إسكَابٍ، حدثنا عليُّ بن عَاصِمٍ، عن سعيدِ بن أبي عَرُوبَةَ عن قَتَادَةَ، عن الحسنِ، عن أُبَيِّ بن كَعْبٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَرَأَيْتَ يَا رَبِّ إِنْ تُبْتُ وَرَجَعْتُ أَعَائِدِي إِلَى الجَنَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ» فذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.

وهذا غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع.

وقال ابن أبي نَجِيحٍ: عن مجاهد قال: الكلمات: «اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين. اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الراحمين. اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم».

وروى الحاكم في مستدركه من طريق سَعِيدِ بن جُبَيْرٍ عن ابن عباس: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ قَالَ قَالَ آدَمُ: «يَا رَبِّ أَلَمْ تَخْلُقْنِي بِيَدِكَ. قِيلَ لَهُ بَلَى. وَنَفَخْتَ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ؟ قِيلَ لَهُ: بَلَى وَعَطِسْتُ فَقُلْتَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ وَسَبَقَتْ رَحْمَتُكَ غَضَبَكَ قِيلَ لَهُ بَلَى وَكَتَبْتَ عَلَيَّ أَنْ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده الحديث رقم (١٠٩٧٠) ج ٣ من مسند أبي هريرة. المسند ٢/ ٥٤٠.

أَعْمَلَ هَذَا؟ قِيلَ لَهُ بَلَى، قَالَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ تُبْتُ هَلْ أَنْتَ رَاجِعِي إِلَى الجَنَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ».

ثم قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وروى الحاكم أيضاً والبيهقي وابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أَسْلَم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا اقْتَرَفَ آدَمُ الخَطِيئَةَ قَالَ يَا رَبِّ أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ إِلاَّ غَفَرْتَ لِي».

فَقَالَ اللَّهُ: «فَكَيْفَ عَرَفْتَ مُحَمَّداً وَلَمْ أَخْلُقْهُ بَعْدُ؟ فَقَالَ: يَا رَبِّ لأَنَّكَ لَمَّا خَلَقْتَنِي بِيَدِكَ، وَنَفَخْتَ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ رَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ عَلَى قَوَائِمِ العَرْشِ مَكْتُوباً لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لَمْ تُضِفْ إِلَى اسْمِكَ إِلاَّ أَحَبَّ الخَلْقِ إِلَيْكَ فَقَالَ اللَّهُ صَدَقْتَ يَا آدَمُ، إِنَّهُ لأَحَبُّ الخَلْقِ إِلَيَّ، وَإِذْ سَأَلْتَنِي بِحَقِّهِ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ، وَلَوْلاَ مُحَمَّدٌ مَا خَلَقْتُكَ».

قال البيهقي: تفرّد به عبد الرحمن بن زيد بن أَسْلَم من هذا الوجه وهو ضعيف والله أعلم. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: الآيتان ١٢١ـ ١٢٢].

[ذكر][(١)] احتجاج آدم وموسى عليهما السلام

قال البخاري: حدثنا قتيبةُ، حدثنا أيوبُ بن النَّجّارِ عن يحيَى بن أبي كَثِيرٍ عن أبي سَلَمَةَ عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «حَاجَّ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ فَقَالَ لَهُ أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ بِذَنْبِكَ مِنَ الجَنَّةِ وَأَشْقَيْتَهُمْ. قَالَ آدَمُ: يَا مُوسَى أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالاَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي أَوْ قَدَّرَهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي» قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»[(٢)].

وقد رواه مسلم عن عَمْرٍو النَّاقِدِ والنَّسائي عن محمد بن عَبْدِ اللَّهِ بنَ يَزِيدَ عن أيُّوبَ بن النَّجّارِ به. قال أبو مسعود الدِّمَشْقِي: ولم يخرجاه عنه في الصحيحين سواه.

وقد رواه أحمد عن عبد الرَّزّاقِ عن مُعَمَّرٍ عن هَمَّامٍ عن أبي هريرة. ورواه مسلم عن محمد بن رَافِعٍ عن عبد الرَّزّاقِ به.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا أبو كَامِلٍ، حَدَّثَنَا إبراهيمُ، حدثنا أبو شِهَابٍ عن حَمِيدِ بن عبد الرَّحْمَنِ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَخْرَجَتْكَ خَطِيئَتُكَ مِنَ الجَنَّةِ. فَقَالَ لَهُ آدَمُ: وَأَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالاَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ، تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟».

قال رسول الله ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى» مَرَّتَيْنِ[(٣)].

---

(١) سقط في ط.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب ٣، ومسلم في القدر حديث ١٥، وأحمد في المسند ٢/ ٣١٤.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٣١، ومسلم في القدر حديث ١٥، وأحمد في المسند ٢/ ٢٦٤.

قلت: وقد رَوَى هذا الحديث البخاري ومسلم من حديث الزهري عن حَمِيدِ بن عَبْدِ الرَّحْمَن، عن أبي هريرةَ عن النبيّ ﷺ نحوه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا مُعاويةُ بن عَمْرٍو، حدثنا زائدةُ عن الأعْمَشِ، عن أبي صالح، عن أبي هريرَة عن النبيِّ ﷺ قال: «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ أَغْوَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الجَنَّةِ». قَالَ: «فَقَالَ آدَمُ: وَأَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلامِهِ تَلُومُنِي عَلَى عَمَلٍ لم أَعْمَلُهُ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ؟». قَالَ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»(١). وقد رواه الترمذي والنسائي جميعاً عن يحيى بن حَبِيبِ بن عَدِيٍّ عن مُعْتَمِرِ بن سُلَيْمَانَ عن أبيه عن الأعْمَشِ به.

قال الترمذي: وهو غريب من حديث سليمان التَّيْمِي عن الأعْمَشِ.

قال: وقد رواه بعضهم عن الأعْمَشِ عن أبي صَالِحٍ عن أبي سعيدٍ.

قلت: هكذا رواه الحافظ أبو بكر البزّار في مسنده عن محمد بن مُثَنَّى عن مُعَاذ بن أَسَدٍ، عن الفَضْلِ بن موسى، عن الأعْمَشِ، عن أبي صالح عن أبي سعيد.

ورواه البزّار أيضاً: حدثنا عمرو بن علي الفَلاَّسُ، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أو أبي سعيد عن النبي ﷺ فذكر نحوه.

وقال أحمد: حدثنا سفيان عن عمرو سمع طَاوساً سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الجَنَّةِ فَقَالَ لَهُ آدَمُ: يَا مُوسَى أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلامِهِ»، وَقَالَ مَرَّةً: «بِرِسَالَتِهِ وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً» قال: «حَجَّ آدَمُ مُوسَى حَجَّ آدَمُ مُوسَى حَجَّ آدَمُ مُوسَى»(٢).

وهكذا رواه البخاري عن علي بن المَدِينِي: حدثنا عن سُفْيَانَ قال: حفظناه من عَمْرٍو عن طَاوُسَ قال: سمعتُ أبا هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى فقال مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الجَنَّةِ. فَقَالَ لَهُ آدَمُ يَا مُوسَى اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلامِهِ وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»(٣) هَكَذَا ثَلاثاً.

قال سُفْيَانُ حدثنا أبو الزِّنَادِ، عن الأَعْرَجِ، عن أبي هريرةَ، عن النبي ﷺ مثلَه.

وقد رواه الجماعة إلا ابن ماجه من عشرِ طُرُقٍ، عن سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ عَن عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاوُسَ، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ بنحوه.

وقال أحمد: حدثنا عبد الرَّحمنِ، حدثنا حَمَّادٌ، عن عَمَّارٍ، عن أبي هريرةَ عن

---

(١) أخرجه الترمذي في القدر باب ٢، وأحمد في المسند ٢/٣٩٨.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/٢٤٨.
(٣) أخرجه البخاري في القدر باب ١١، ومسلم في القدر حديث ١٣، وأحمد في المسند ٢/٢٤٨.

النبيِّ ﷺ قال: «لَقِيَ آدَمُ مُوسَى فَقَالَ: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلائِكَتَهُ وَأَسْكَنَكَ الجَنَّةَ ثُمَّ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ؟. فَقَالَ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي كَلَّمَكَ اللَّهُ وَاصْطَفَاكَ بِرِسَالَتِهِ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ التَّوْرَاةَ، أَنَا أَقْدَمُ أَمِ الذِّكْرُ قَالَ: لاَ، بَلِ الذِّكْرُ، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»[١].

قال أحمد: وحدثنا عَفَّانُ، حدثنا حَمَّادُ، عن عَمَّارِ بْنُ أَبِي عَمَّارٍ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، وحَمِيدٍ عن الحَسَنِ عن رَجُلٍ قال حَمَّادٍ: أظنه جُنْدُبَ بن عبد الله البَجَلِّي عن النبيِّ ﷺ قال: «لَقِيَ آدَمُ مُوسَى»[٢]. فَذَكرَ معناه. تفرّد به أحمَدُ من هذا الوجه.

وقال أحمد: حدثنا حسين[٣] حدثنا جَرِيرُ هو ابن حَازِم عن مُحَمَّدٍ هو ابن سِيرِينَ عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقِيَ آدَمُ مُوسَى فَقَالَ أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلائِكَتَهُ ثُمَّ صَنَعْتَ مَا صَنَعْتَ؟. قال آدم: يا موسى أَنْتَ الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ التَّوْرَاةَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَهَلْ تَجِدهُ مَكْتُوباً عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ قَالَ: نَعَمْ». قَالَ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»[٤].

وكذا رواه حَمَّادُ بن زَيْدٍ عن أَيُّوبَ وَهِشَامٍ عن محمدِ بن سِيرِينَ عن أبي هريرةَ رفعه.

وكذا رواه عليُّ بن عاصِمٍ، عن خَالِدٍ، وَهِشَامٍ عن مُحَمَّدٍ بن سِيرِينَ. وهذا على شرطهما من هذه الوجوه.

وقال ابن أبي حَاتِم: حدثنا يُونُسُ بن عَبْدِ الأَعْلَى أنبأنا ابنُ وَهْبٍ أخبرني أَنَسُ بن عِيَاضٍ عن الحَارِثُ بْنُ أَبِي ذُبابٍ عن يَزِيد بْنِ هُرْمُزَ سمعتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يقول: قال رسول الله ﷺ: «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى عِنْدَ رَبِّهِمَا فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلائِكَتَهُ وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ إِلَى الأَرْضِ بِخَطِيئَتِكَ؟ قَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَكَلامِهِ وَأَعْطَاكَ الأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَرَّبَكَ نَجِيّاً؟ فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللَّهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ؟ قَالَ مُوسَى: بِأَرْبَعِينَ عَاماً، قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلاً كَتَبَ اللَّهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ قَالَ. قال رسول الله ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»[٥].

قال الحارث: وحَدَّثني عبد الرحمن بن هُرْمُزَ بذلك عن أبي هريرةَ عن رسولِ الله ﷺ.

وقد رواه مسلمُ عن إسحاقَ بن موسى الأَنصاري عن أنسٍ بن عِيَاضٍ عن الحَارِثِ بن عبد الرحمن بن أبي ذُباب عن يزيد بن هُرْمُزَ والأَعْرَجِ كلاهما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه.

وقال أحمد: حدثنا عبد الرزّاق، أنبأنا مَعْمَر، عن الزُّهْرِيِّ عن أبي سَلَمَةَ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ: مُوسَى لآدَمَ: يَا آدَمُ أَنْتَ الَّذِي أَدْخَلْتَ ذُرِّيَّتَكَ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٤٦٤. (٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٢٦٤.
(٣) في ط: الحسن، وهو تحريف وانظر المسند ٢/ ٣٩٢.
(٤) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٩٢ . (٥) أخرجه مسلم في القدر حديث ١٥.

النَّارَ. فَقَالَ آدَمُ: يَا مُوسَى اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالاَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ التَّوْرَاةَ فَهَلْ وَجَدْتَ أَنْ أَهْبِطَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَحَجَّهُ آدَمُ»[١].

وهذا على شرطهما ولم يخرجاه من هذا الوجه، وفي قوله: «أَدْخَلْتَ ذُرِّيَّتَكَ النَّارَ» نكارة.

فهذه طرق هذا الحديث عن أبي هريرةَ رواه عنه حَميد بن عبد الرحمن وذَكْوَانُ أبو صَالِح السَّمَّانُ وطاوسَ بنُ كِيسَانَ وعبدُ الرحمن بن هُرْمُزَ الأَعْرَجِ وعمَّارَ بن أبي عَمَّارٍ ومحمد بن سيرين وهَمَّامُ بن مُنَبِّهٍ ويزيدُ بن هُرْمُزَ وأبو سَلَمَةَ بن عبد الرحمن.

وقد رواه الحافظ أبو يَعْلَى المَوْصِلي في مسنده من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: حدَّثنا الحَارِثُ بن مِسْكِينُ المِصْرِي حدثنا عَبْدُ اللَّهِ بنُ وَهْبٍ أخبرني هِشَامُ بْنُ سَعْدٍ عن زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عن أبيه عن عُمَرَ بن الخطابِ عن النبي ﷺ قال: «قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ: يَا رَبِّ أَرِنَا آدَمَ الَّذِي أَخْرَجَنَا وَنَفْسَهُ مِنَ الجَنَّةِ فَأَرَاهُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ. فَقَالَ: أَنْتَ آدَمُ؟ فَقَالَ لَهُ آدَمُ: نَعَمْ. قَالَ: أَنْتَ الَّذِي نَفَخَ اللَّهُ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلاَئِكَتَهُ وَعَلَّمَكَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِنَ الجَنَّةِ».

فَقَالَ لَهُ آدَمُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى. قَالَ: أَنْتَ مُوسَى نَبِيُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ أَنْتَ الَّذِي كَلَّمَكَ اللَّهُ مِنْ وَرَاءِ الحِجَابِ؛ فَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ رَسُولاً مِنْ خَلْقِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدْ سَبَقَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ القَضَاءُ بِهِ قَبْلُ»؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»[٢].

ورواه أبو دَاود عن أحمد بن صالح المصري عن ابن وَهْبٍ به.

قال أبو يَعْلَى: وحدَّثنا محمد بن المُثَنَّى حدثنا عبد الملك بن الصَّبَّاحِ المَسْمَعِي، حدثنا عِمْرَانُ، عن الرُّدَيْنِي، عن أبي مِجْلَزٍ عن يَحْيَى بن يَعْمَرٍ، عن ابن عُمَرَ عن عمر قال أبو محمد أكبر ظني أنه رَفَعَهُ. قال: «الْتَقَى آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى لآدَمَ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ أَسْكَنَكَ اللَّهُ جَنَّتَهُ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلاَئِكَتَهُ. قَالَ آدَمُ: يَا مُوسَى أَمَا تَجِدُهُ عَلَيَّ مَكْتُوباً»؟ قَالَ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى».

وَهَذَا الإِسْنَادُ أيضاً لا بأس به والله أعلم.

وقد تقدم رواية الفضل بن موسى لهذا الحديث عن الأَعْمَشِ، عن أبي صالح عن أبي سعيد، ورواية الإمام أحمد له عن عَفَّانَ عن حَمَّادِ بن سَلَمَةَ عن حَمِيدٍ عن الحسن عن رجل. قال حَمَّادُ: أظنه جُنْدُبُ بن عَبْدِ الله البُجَلِي عن النبي ﷺ: «لَقِيَ آدَمُ مُوسَى» فذكر معناه.

وقد اختلفت مسالك الناس في هذا الحديث:

فردّه قوم من القدرية لما تضمن من إثبات القدر السابق.

واحتج به قوم من الجَبْرِية وهو ظاهر لهم بادىء الرأي حيث قال: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى» لما احتج عليه بتقديم كتابه وسيأتي الجواب عن هذا.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/٢٦٨. (٢) أخرجه أبو داود في السنة باب ١٧.

وقال آخرون: إنما حجّه لأنه لامه على ذنب قد تاب منه والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

وقيل إنما حجّه لأنه أكبر منه وأقدم. وقيل: لأنه أبوه. وقيل: لأنهما في شريعتين متغايرتين[١]. وقيل: لأنهما في دار البرزخ وقد انقطع التكليف فيما يزعمونه.

والتحقيق: أن هذا الحديث روي بألفاظ كثيرة بعضها مروي بالمعنى. وفيه نظر.

ومدار معظمها في الصحيحين وغيرهما على أنه لامه على إخراجه نفسه وذريته من الجنة فقال له آدم أنا لم أخرجكم وإنما أخرجكم الذي رتّب الإخراج على أكلي من الشجرة والذي رتّب ذلك وقدّره وكتبه قبل أن أخلق هو الله عزّ وجلّ، فأنت تلومني على أمر ليس له نسبة إليّ أكثر مِمّا أني نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها وكون الإخراج مترتباً على ذلك ليس من فعلي فأنا لم أخرجكم ولا نفسي من الجنّة وإنما كان هذا من قدر[٢] الله وصنعه وله الحكمة في ذلك فلهذا حج آدم موسى.

ومن كذّب بهذا الحديث فمعاند لأنه متواتر عن أبي هريرة رضي الله عنه وناهيك به عدالة وحفظاً وإتقاناً.

ثم هو مرويّ عن غيره من الصحابة كما ذكرنا. ومن تأوّله بتلك التأويلات المذكورة آنفاً، فهو بعيد من اللفظ والمعنى. وما فيهم من هو أقوى مسلكاً من الجَبْرِيّة.

وفيما قالوه نظر من وجوه أحدها: أن موسى عليه السلام لا يلوم على أمر قد تاب منه فاعله. **الثاني**: أنه قد قتل نفساً لم يؤمر بقتلها وقد سأل الله في ذلك بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص: الآية ١٦] **الثالث**: أنه لو كان الجواب عن اللوم على الذنب بالقَدْر المتقدّم كتابته على العبد لانفتح هذا لكل من ليم على أمر قد فعله فيحتجّ بالقدر السابق فينسدّ باب القصاص والحدود[٣] ولو كان القدر حجة لاحتج به كل أحد على الأمر الذي ارتكبه في الأمور الكبار والصغار وهذا يفضي إلى لوازم فظيعة. فلهذا قال من قال من العلماء، بأن جواب آدم إنما كان احتجاجاً بالقَدَر على المصيبة لا المعصية.

والله تعالى أعلم.

[ذكر][٤] الأحاديث الواردة في خلق آدم عليه السلام

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى ومحمد بن جعفر: حدثنا عَوْفٌ حدثني قَسَامَةُ بن زهير، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ فَجَاءَ مِنْهُم الأَبْيَضُ وَالأَحْمَرُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ. وَالخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَالسَّهْلُ وَالحَزَنُ[٥] وَبَيْنَ ذَلِكَ»[٦].

---

(١) متغايرتين: متضادتين.
(٢) في ط: قدرة، ومعناها صحيح.
(٣) الحدود: المقصود حدود الشريعة.
(٤) سقط في ط.
(٥) الحزن: ما غلظ من الأرض.
(٦) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٤٠٠.

ورواه أيضاً عن هَوْذَة، عن عَوْفٍ عن قَسَامَةَ بن زهير، سمعت الأَشْعَرِي قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ، فَجَاءَ مِنْهُمُ الأَبْيَضُ وَالأَحْمَرُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ. وَالسَّهْلُ وَالحَزْنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ. وَالخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَبَيْنَ ذَلِكَ»[1].

وكذا رواه أبو داود والترمذي وابن حِبان في صحيحه من حديث عَوْفِ بن أبي جَمِيلَةَ الأعرابي عن قَسَامَةَ بن زُهَيْرِ المازني البَصْرِي عن أبي موسى عبد الله بن قَيْسٍ الأشعري عن النبي ﷺ بنحوه. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقد ذكر السُّدِّيّ عن أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عبّاس، وعن مُرَّةَ عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: «فَبَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ جِبْرِيلَ فِي الأَرْضِ لِيَأْتِيهِ بِطِينٍ مِنْهَا فَقَالَتِ الأَرْضُ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ أَنْ تَنْقِصَ مِنِّي أَوْ تَشِينَنِي[2]، فَرَجَعَ وَلَمْ يَأْخُذْ وَقَالَ: رَبِّ إِنَّهَا عَاذَتْ بِكَ فَأَعَذْتُهَا فَبَعَثَ ميكائيلَ فعاذت منه فأعاذها فرجعَ فقال كما قال جبريلُ فبعثَ مَلَكَ الموتِ فعاذت منه فقال: وأنا أعوذُ باللهِ أن أرجعَ ولم أُنَفِّذْ أمرَه فأخذَ من وجهِ الأرضِ وخَلَطَهُ ولم يأخذْ من مكانٍ واحدٍ وأخذ من تربةٍ بيضاءَ وحمراءَ وسوداءَ فلذلك خرجَ بنو آدم مُخْتَلِفِينَ. فصعَد به فَبَلَّ الترابَ حتى عادَ طيناً لازباً، واللازب: هو الذي يلزق بعضه ببعض. ثم قال للملائكة: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢﴾ [ص: الآيات ٧١ـ ٧٢].

فخلقه الله بيده لئلا يتكبّر إبليس عنه فخلقه بشراً فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرّت به الملائكة ففزعوا منه لمّا رأوه وكان أشدهم منه فزعاً إبليس، فكان يمرّ به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة فذلك حين يقول: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤﴾ ويقول: لأمر ما خلقت ودخل من فيه وخرج من دبره وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف لئن سلّطت عليه لأهلكنه.

فلما بلغ الحين الذي يريد الله عزّ وجلّ أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس فقالت الملائكة: قل الحمد لله، فقال: الحمد لله، فقال له الله: رحمك ربك، فلما دخلت الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخلت الروح في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلان إلى ثمار الجنّة. وذلك حين يقول الله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٧] ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١﴾» [الحجر: الآيات ٣٠ـ ٣١] وذكر تمام القصّة.

ولبعض هذا السياق شاهد من الأحاديث، وإن كان كثير منه متلقى من الإسرائيليات.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة باب ١٧، والترمذي في تفسير القرآن، باب ٢، من سورة البقرة، وأحمد في المسند ٤/٤٠٦.

(٢) شان: أي عاب.

فقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حمّاد عن ثابت، عن أنس، أن النبي ﷺ قال: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ تَرَكَهُ مَا شَاءَ أَنْ يَدَعَهُ فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خَلْقٌ لاَ يَتَمَالَكُ»[1].

وقال ابن حِبان في صحيحه: حدثنا الحَسَنِ بن سُفْيَانَ، حدثنا هُدْبَةُ بن خالد، حدثنا حَمّادُ بن سَلَمَةَ عن ثابتٍ، عن أنسِ بن مالكٍ أنّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال: «لَمَّا نُفِخَ فِي آدَمَ فَبَلَغَ الرُّوحُ رَأْسَهُ عَطَسَ فَقَالَ: الحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ العَالَمِينَ فَقَالَ لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَرْحَمُكَ اللَّهُ».

وقال الحافظ أبو بَكْرِ البزار: حدثنا[2] يحيى بن محمد بن السَّكَنِ، حدثنا حِبَّانُ بن هِلاَلٍ، حدثنا مبارك بن فُضَالَةَ، عن عُبَيْدِ الله، عن حبيب، عن حَفْصٍ، هو ابن عاصم بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب عن أبي هريرة رفعه قال: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَطَسَ، فَقَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ رَحِمَكَ رَبُّكَ يَا آدَمُ». وهذا الإسناد لا بأس به ولم يخرجوه.

وقال عمر بن عبد العزيز: لما أمرت الملائكة بالسجود كان أول من سجد منهم إسرافيل فآتاه الله أن كتب القرآن في جبهته. رواه ابن عساكر.

وقال الحافظ أبو يَعْلَى: حدثنا عُقْبَةُ بن مُكْرَم، حدثنا عمرو بن محمد، عن إسماعيل بن رافع عن المَقْبُرِي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ جَعَلَهُ طِيناً ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ حَمَأً مَسْنُوناً خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ صَلْصَالاً كَالفَخَّارِ» قَالَ: «فَكَانَ إِبْلِيسُ يَمُرُّ بِهِ فَيَقُولُ: لَقَدْ خُلِقْتَ لأَمْرٍ عَظِيمٍ».

ثُمَّ نَفَخَ اللَّهُ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ فَكَانَ أَوَّلَ مَا جَرَى فِيهِ الرُّوحُ بَصَرُهُ وَخَيَاشِيمُهُ فَعَطَسَ فَلَقَّاهُ اللَّهُ رَحْمَةَ رَبِّهِ فَقَالَ اللَّهُ: يَرْحَمُكَ رَبُّكَ، ثُمَّ قَالَ اللَّهُ: يَا آدَمُ اذْهَبْ إِلَى هٰؤُلاَءِ النَّفَرِ فَقُلْ لَهُمْ، [السلام عليكم] فَانْظُرْ مَاذَا يَقُولُونَ؟ فَجَاءَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ. فَقَالَ: يَا آدَمُ هذه[3] تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا ذُرِّيَّتِي؟ قَالَ: اخْتَرْ يَدِي يَا آدَمُ قَالَ: اخْتَارُ يَمِينَ رَبِّي وَكِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ، وَبَسَطَ كَفَّهُ فَإِذَا مَنْ هُوَ كَائِنٌ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ فَإِذَا رِجَالٌ مِنْهُمْ أَفْوَاهُهُمُ النُّورُ، فَإِذَا رَجُلٌ يُعْجِبُ آدَمَ نُورُهُ قَالَ: يَا رَبِّ مَنْ هٰذَا قَالَ: ابْنُكَ دَاوُدَ، قَالَ: يَا رَبِّ فَكَمْ جَعَلْتَ لَهُ مِنَ العُمُرِ قَالَ: جَعَلْتُ لَهُ سِتِّينَ قَالَ: يَا رَبِّ فَأَتِمَّ لَهُ مِنْ عُمُرِي حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنَ العُمُرِ مَائَةَ سَنَةٍ فَفَعَلَ اللَّهُ ذٰلِكَ، وَأَشْهَدَ عَلَى ذٰلِكَ. فَلَمَّا نَفَدَ عمر آدَمُ بَعَثَ اللَّهُ مَلَكَ المَوْتِ فَقَالَ آدَمُ: أَوَ لَمْ يَبْقَ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ لَهُ المَلَكُ أَوَ لَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ، فَجَحَدَ[4] ذٰلِكَ، فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَنَسِيَ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ»[5].

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزّار والتّرمذي والنَّسائي في «اليوم والليلة» من حديث صَفْوَان بن عيسى، عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذُبَابٍ عن سعيد المَقْبَرِي عن أبي هريرة

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ١٥٢.
(٢) سقط في ط.
(٣) في ب: هكذا.
(٤) جحد: أنكر.
(٥) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن باب ٩٤.

عن النبي ﷺ. وقال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه.

وقال النسائي: هذا حديث منكر وقد رواه محمد بن عَجْلاَنَ عن [عن أبيه عن أبي] سعيد المقبري عن أبيه عن أبي سعيد عن عبد الله بن سلام.

وقال الترمذي: حدثنا عَبْدُ بن حَمِيدٍ، حدثنا أبو نَعِيم، حدثنا هِشَامُ بن سَعْدٍ عن زَيْدِ بن أَسْلَمَ عن أبي صَالِحٍ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصاً[1] مِنْ نُورٍ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ مَنْ هَؤُلاَءِ قَالَ هَؤُلاَءِ ذُرِّيَّتُكَ فَرَأَى رَجُلاً مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدَ؛ قَالَ: رَبِّ وَكَمْ جَعَلْتَ عُمُرَهُ قَالَ سِتِّينَ سَنَةً قَالَ: أَيْ رَبِّ زِدْهُ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً. فَلَمَّا انْقَضَى عُمُرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ المَوْتِ قَالَ: أَوَ لَمْ يَبْقَ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوَ لَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ؟ قَالَ فَجَحَدَ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَنَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَخَطِىءَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ»[2].

ثم قال الترمذي: حسن صحيح وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ورواه الحاكم في مستدركه من حديث أبي نُعَيْمٍ الفَضْلِ بن دُكَيْنٍ، وقال: صَحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وروى ابن أبي حاتم من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أَسْلَمَ عن أبيه عن عَطَاءِ بن يَسَارٍ عن أبي هريرة مرفوعاً فذكره وفيه: «ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: يَا آدَمُ هَؤُلاَءِ ذُرِّيَّتُكَ، وَإِذَا فِيهِمُ الأَجْذَمُ وَالأَبْرَصُ وَالأَعْمَى وَأَنْوَاعُ الأَسْقَامِ فَقَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ لِمَ فَعَلْتَ هَذَا بِذُرِّيَّتِي؟ قَالَ: كَيْ تَشْكُرَ نِعْمَتِي». ثم ذكر قصة داود. وستأتي من رواية ابن عباس أيضاً.

وقال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا الهَيْثَمُ بن خَارِجَةَ، حدثنا أبو الرَّبِيع عن يُونُسَ بن مَيْسَرَةَ عن أَبِي إِدْرِيسَ عن أَبِي الدَّرْدَاءِ عن النبي ﷺ قال: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ حِينَ خَلَقَهُ فَضَرَبَ كَتِفَهُ اليُمْنَى فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً بَيْضَاءَ كَأَنَّهُمُ الذَّرُّ، وَضَرَبَ كَتِفَهُ اليُسْرَى فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً سَوْدَاءَ كَأَنَّهُمُ الحُمَمُ. فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَمِينِهِ: إِلَى الجَنَّةِ وَلاَ أُبَالِي، وَقَالَ لِلَّذِي فِي كَتِفِهِ اليُسْرَى: إِلَى النَّارِ وَلاَ أُبَالِي»[3].

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا خَلَفُ بن هِشَام، حدثنا الحَكَمُ بن سِنَانٍ عن حَوْشَبٍ عن الحَسَنِ قال: «خلقَ الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى فألقوا على وجه الأرض منهم الأعمى والأصم والمبتلى. فقال آدم: يا رب ألا سوّيت بين ولدي؟ قال: يا آدم إني أردت أن أُشكر».

وهكذا روى عبد الرزاق عن مَعْمَرٍ عن قَتَادَةَ عن الحسن بنحوه.

---

(١) وبص: لمع وبرق، والوبيص: البريق.
(٢) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن باب ٨، ومن سورة الأعراف.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٤٤١.

وقد رواه أبو حاتم وابن حبان في صحيحه فقال: حدثنا محمد بن إسحاق بن خُزَيْمة، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا صَفْوَان بن عيسى حدثنا الحَارث بن عبد الرحمن بن أبي ذُبَاب عن سعيد المَقْبَري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ فَقَالَ الحَمْدُ لِلَّهِ فَحَمِدَ اللَّهَ بِإِذْنِ اللَّهِ فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ يَرْحَمُكَ رَبُّكَ يَا آدَمُ اذْهَبْ إِلَى أُولَئِكَ المَلائِكَةِ إِلَى مَلإٍ مِنْهُمْ جُلُوسٍ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ فَقَالَ السَّلامُ عَلَيْكُمْ. فَقَالُوا وَعَلَيْكُمُ السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ».

ثُمَّ رَجَعَ إِلَى رَبِّهِ فَقَالَ: هَذِهِ تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ بَنِيكَ بَيْنَهُمْ.

وَقَالَ اللَّهُ وَيَدَاهُ مَقْبُوضَتَانِ: اخْتَرْ أَيَّهُمَا شِئْتَ فَقَالَ: اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّيَ وَكِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ مُبَارَكَةٌ، ثُمَّ بَسَطَهُمَا فَإِذَا فِيهِمَا آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ مَا هَؤُلاَءِ؟ قَالَ: هَؤُلاَءِ ذُرِّيَّتُكَ. وَإِذَا كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مَكْتُوبٌ عُمْرُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَإِذَا فِيهِمْ رَجُلٌ أَضْوَؤُهُمْ» أو «مِنْ أَضْوَئِهِمْ» لَمْ يُكْتَبْ لَهُ إِلاَّ أَرْبَعُونَ سَنَةً قَالَ: يَا رَبِّ من هَذَا؟ قَالَ: هَذَا ابْنُكَ دَاوُدَ وَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ عُمْرَهُ أَرْبَعِينَ سَنَةً. قَالَ أَيْ رَبِّ زِدْ فِي عُمْرِهِ فَقَالَ: ذَاكَ الَّذِي كُتِبَ لَهُ قَالَ فَإِنِّي قَدْ جَعَلْتُ لَهُ مِنْ عُمْرِي سِتِّينَ سَنَةً قَالَ أَنْتَ وَذَاكَ. اسْكُنِ الجَنَّةَ.

فَسَكَنَ الجَنَّةَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ هَبَطَ مِنْهَا وَكَانَ آدَمُ يَعُدُّ لِنَفْسِهِ فَأَتَاهُ مَلَكُ المَوْتِ فَقَالَ لَهُ آدَمُ قَدْ عَجِلْتَ قَدْ كُتِبَ لِي أَلْفُ سَنَةٍ قَالَ: بَلَى وَلَكِنَّكَ جَعَلْتَ لابْنِكَ دَاوُدَ مِنْهَا سِتِّينَ سَنَةً فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَنَسِيَ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ فَيَوْمَئِذٍ أُمِرَ بِالْكِتَابِ وَالشُّهُودِ» هذا لفظه.

وقد قال البخاري: حدّثنا عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا مَعْمَرٌ عن هَمَّام بن مُنَبِّهٍ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعاً. ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنَ المَلاَئِكَةِ وَاسْتَمِعْ مَا يُجِيبُونَكَ فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ فَقَالُوا السَّلاَمُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ فَلَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ»[١]. وهكذا رواه البخاري في كتاب الاستئذان عن يَحْيَى بن جَعْفَرٍ ومسلم عن محمد بن رَافِعٍ كلاهما عن عبد الرزاق به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا رَوْح حدثنا حمّاد بن سَلَمَةَ عن علي بن زيد عن سعيد بن المُسَيَّبِ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كَانَ طُولُ آدَمَ سِتِّينَ ذِرَاعاً فِي سَبْعِ أَذْرُعٍ عَرْضاً»[٢]. انفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عَفَّانُ، حدثنا حَمَّادُ بن سَلَمَةَ عن عَلِيِّ بن زَيْدٍ عن يُوسُفَ بن مَهْرَانَ، عن ابن عبّاس قال: لما نزلت آية الدِّين قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَنْ جَحَدَ آدَمُ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ جَحَدَ آدَمُ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ جَحَدَ آدَمُ! إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَأَخْرَجَ مِنْهُ مَا هُوَ ذَارِي إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ فَجَعَلَ يَعْرِضُ ذُرِّيَّتَهُ عَلَيْهِ فَرَأَى فِيهِمْ رَجُلاً يَزْهَرُ[٣] قَالَ: أَيْ رَبِّ مَنْ هَذَا؟ قَالَ

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان باب ١، وأحمد في المسند ٢/ ٣١٥.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٤٣٥.

(٣) يزهر: يتلألأ ويضيء.

هَذَا ابْنُكَ دَاوُدَ قَالَ: أَيْ رَبِّ كَمْ عُمُرُهُ؟ قَالَ: سِتُّونَ عَاماً قَالَ: أَيْ رَبِّ زِدْ فِي عُمُرِهِ قَالَ: لاَ إِلاَّ أَنْ أَزِيدَهُ مِنْ عُمُرِكَ، وَكَانَ عُمُرُ آدَمَ أَلْفَ عَامٍ فَزَادَهُ أَرْبَعِينَ عَاماً. فَكَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ كِتَاباً وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ المَلاَئِكَةَ.

فَلَمَّا احْتَضَرَ آدَمَ أَتَتْهُ المَلاَئِكَةُ لِقَبْضِهِ قَالَ إِنَّهُ قَدْ بَقِيَ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعُونَ عَاماً. فَقِيلَ لَهُ إِنَّكَ قَدْ وَهَبْتَهَا لابْنِكَ دَاوُدَ. قَالَ: مَا فَعَلْتُ وَأَبْرَزَ اللَّهُ عَلَيْهِ الكِتَابَ وَشَهِدَتْ عَلَيْهِ المَلاَئِكَةُ»[1].

وقال أحمد: حدثنا أسْودِ بن عَامِرٍ حدثنا حَمَّادُ بن سَلَمَةَ عن علي بن زَيْدٍ عن يوسفَ بن مِهْرَانَ عن ابن عبّاس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَنْ جَحَدَ آدَمُ قَالَهَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا خَلَقَهُ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّتَهُ فَعَرَضَهُمْ عَلَيْهِ فَرَأَى فِيهِمْ رَجُلاً يَزْهرُ فَقَالَ أَيْ رَبِّ زِدْ فِي عُمُرِهِ قَالَ لاَ إِلاَّ أَنْ تَزِيدَهُ أَنْتَ مِنْ عُمُرِكَ فَزَادَهُ أَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ عُمُرِهِ. فَكَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ كِتَاباً وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ المَلاَئِكَةَ.

فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَقْبِضَ رُوحَهُ قَالَ: إِنَّهُ بَقِيَ مِنْ أَجَلِي أَرْبَعُونَ سَنَةً فَقِيلَ لَهُ إِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَهَا لاِبْنِكَ دَاوُدَ» قَالَ: «فَجَحَدَ» قَالَ: «فَأَخْرَجَ اللَّهُ الكِتَابَ وَأَقَامَ عَلَيْهِ البَيِّنَةَ فَأَتَمَّهَا لِدَاوُدَ مِائَةَ سَنَةٍ، وَأَتَمَّ لآدَمَ عُمُرَهُ أَلْفَ سَنَةٍ»[2].

تفرّد به أحمد، وعلي بن زَيْدٍ في حديثه نكارة.

ورواه الطبراني عن علي بن عبد العزيز عن حَجّاج بن مَنْهَالٍ عن حَمّادِ بن سَلَمَةَ عن علي بن زيد عن يوسفَ بن مَهْرَانَ عن ابن عبّاس وغير واحد عن الحسن قال: لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَنْ جَحَدَ آدَمُ ثَلاَثاً» وذكره.

وقال الإمام مالك بن أنس في مُوَطَّئِهِ عن زَيْدِ بن أبي أُنَيْسَة: أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مُسْلم بن يَسَّارٍ الجُهَنِي أنّ عمر بن الخطّاب سُئِل عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢] الآية فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عنها فقال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً قَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلاَءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً قَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلاَءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ».

فقال رجل: يا رسولَ اللّهِ فَفِيمَ العَمَلُ؟ قال رسول الله ﷺ: «إِذَا خَلَقَ اللَّهُ العَبْدَ لِلجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيُدْخِلَ بِهِ الجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ اللَّهُ العَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلَ بِهِ النَّارَ»[3].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٥١، ٢٥٢.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٣٧١.

(٣) أخرجه أبو داود في السنة باب ١٧، والترمذي في تفسير القرآن باب ٨، من سورة الأعراف، ومالك في القدر حديث ٢، وأحمد في المسند ١/ ٤٤، ٤٥.

وهكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن جريرٍ وابن أبي حاتم وأبو حاتم وابن حِبّان في صحيحه من طرق عن الإمام مالك به.

وقال الترمذي هذا حديث حسن. ومسلم بن يسار لم يسمع عمر. وكذا قال أبو حاتم وأبو زَرْعَةَ زاد أبو حاتم وبينهما نَعِيمُ بن رَبِيعَةَ.

وقد رواه أبو داود عن محمد بن مُصَفَّى عن بَقِيَّةَ عن عمر بن جُعْثُم عن زيدِ بن أبي أُنَيسَةَ عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن مسلم بن يَسَارٍ عن نُعِيمِ بن رَبِيعَةَ قال كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية فذكر الحديث.

قال الحافظ الدارقطني: وقد تابع عمر بن جُعْثُم أبو فَرْوَةَ بنَ يزيد بن سِنَان الرَهَاوِي عن زيد بن أبي أُنَيسَةَ قال: وقولهما أولى بالصواب من قولَ مالك رحمه الله.

وهذه الأحاديث كلّها دالة على استخراجه تعالى ذرية آدم من ظهره كَالذر وقسمتهم قسمين، أهل اليمين وأهل الشمال وقال: «هَؤُلاَءِ لِلْجَنَّةِ وَلاَ أُبَالِي، وَهَؤُلاَءِ لِلنَّارِ وَلاَ أُبَالِي».

فأما الإِشهاد عليهم واستنطاقهم بالأقرار بالوحدانية فلم يجيء في الأحاديث الثابتة. وتفسير الآية التي في سورة الأعراف وحملها على هذا فيه نظر كما بيّناه هناك. وذكرنا الأحاديث والآثار مستقصاة بأسانيدها وألفاظ متونها. فمن أراد تحريره فليراجعه ثمّ والله أعلم.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير يعني ابن حازم عن كُلْثُوم بن جَبْرٍ عن سعيد بن جُبَيْرٍ عن ابن عبّاس عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ المِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِنُعْمَانَ يَوْمَ عَرَفَةَ فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَةٍ ذَرَاهَا فَنَثَرَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ. ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قَبَلاً قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢] ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ إلى قوله: ﴿الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾»[١]. فهو بإسناد جيد قوي على شرط مسلم.

رواه النسائي وابن جرير والحاكم في مستدركه من حديث حسين بن محمد المَرْوَزِي به.

وقال الحاكم صحيح الإِسناد ولم يخرجاه إلا أنه اختلف فيه على كُلْثُومِ بن جَبْرٍ فروي عنه مرفوعاً وموقوفاً. وكذا روي عن سعيد بن جُبَيْرعن ابن عبّاس موقوفاً. وهكذا رواه العَوْفِي والوَالبي والضَحَّاكِ وأبو جَمْرَةَ عن ابن عبّاس قوله: وهذا أكثر وأثبت والله أعلم. وهكذا روي عن عبد الله بن عمرو[٢] موقوفاً ومرفوعاً والموقوف أصح.

واستأنس القائلون بهذا القول وهو أخذ الميثاق على الذريّة وهم الجمهور بما قال الإِمام أحمد: حدثنا حَجّاجُ حدثني شُعْبَةُ عنِ أبي عِمْرَانَ الجُونِي عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِياً بِهِ؟ قَالَ: فَيَقُولُ نَعَمْ. فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ ذَلِكَ قَدْ أَخَذْتُ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٧٢.
(٢) في ط: عبد الله بن عمر.

عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لاَ تُشْرِكَ بِي شَيْئاً فَأَبَيْتَ إِلاَّ أَنْ تُشْرِكَ بِي»[١] أخرجاه من حديث شعبة به.

وقال أبو جعفر الرَّازِي عن الربيع بن أنس عن أبي[٢] العَالِيَةِ عن أُبيّ بن كَعب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢] الآية والتي بعدها.

قال: فجمعهم له يومئذٍ جميعاً ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فخلقهم ثم صوّرهم ثم استنطقهم فتكلّموا وأخذ عليهم العهد والميثاق وأشهد عليهم أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ الآية.

قال: فإنّي أُشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن لا تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا. اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري ولا تُشركوا بي شيئاً، وإني سأرسل إليكم رسلاً ينذرونكم عهدي وميثاقي، وأنزل عليكم كتابي.

قالوا: نشهد أنك ربّنا وآلهنا لا ربّ لنا غيرك ولا إله لنا غيرك فأقروا له يومئذٍ بالطاعة.

ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك. فقال يا رب لو سوّيت بين عبادك فقال: إني أحببت أن أشكر.

ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور وخصّوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة فهو الذي يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٧] وهو الذي يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: الآية ٣٠] وفي ذلك قال: ﴿هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾ [النجم: الآية ٥٦] وفي ذلك قال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٠٢].

رواه الأئمة: عبد الله بن أحمد، وابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن مَرْدَوَيْهِ في تفاسيرهم من طريق أبي جعفر. ورُوِيَ عن مجاهد، وعِكْرِمَةَ، وسعيد بن جُبَيْر، والحسن البصري، وقَتَادَةَ، والسُّدِّي وغير واحد من علماء السلف بسياقات توافق هذه الأحاديث.

وتقدم أنه تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم امتثلوا كلّهم الأمر الإلهي وامتنع إبليس من السجود له حسداً وعداوة له فطرده الله وأبعده وأخرجه من الحضرة الإلهية ونفاه عنها وأهبطه إلى الأرض طريداً ملعوناً شيطاناً رجيماً.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيعٌ. ويَعْلَى ومحمد ابنا عُبَيْد قالوا: حدّثنا الأَعْمَشُ عن أبي صالح عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ يَا وَيْلَهُ أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ، فَلَهُ الجَنَّةُ وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَعَصَيْتُ فَلِيَ النَّارُ»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/١٢٨. (٢) سقط في ط.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ١٣٣، وأحمد في المسند ٢/٤٤٣.

ورواه مسلم من حديث وَكِيع وأبي معاويةَ عن الأَعْمَشِ به.

ثم لما أُسْكِنَ آدم الجنّة التي أسكنها سواء كانت في السماء أو في الأرض على ما تقدم من الخلاف فيه أقام بها هو وزوجته حواء عليهما السلام يأكلان منها رغداً[١] حيث شاءا فلما أكلا من الشجرة التي نُهيا عنها. سُلِبا ما كانا فيه من اللباس، وأُهْبِطا إلى الأرض. وقد ذكرنا الاختلاف في مواضع هبوطهم[٢] منها.

واختلفوا في مقدار مقامه في الجنة: فقيل بعض يوم من أيام الدنيا، وقد قدمنا ما رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «وَخَلَقَ آدَمَ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ»[٣]، وتقدم أيضاً حديثه عنه وفيه (يعني) يوم الجمعة «خَلَقَ آدَمَ وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا».

فإن كان اليوم الذي خلق فيه فيه أخرج وقلنا إن الأيام الستة كهذه الأيام فقد لبث بعض يوم من هذه. وفي هذا نظر وإن كان إخراجه في غير اليوم الذي خلق فيه أو قلنا بأن تلك الأيام مقدارها ستة آلاف سنة كما تقدم عن ابن عبّاس ومجاهد والضَّحَّاكِ واختاره ابن جرير فقد لبث هناك مدّة طويلة.

قال ابن جرير: ومعلوم أنه خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة، والساعة منه ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر فمكث مصوّراً طيناً قبل أن ينفخ فيه الروح أربعين سنة وأقام في الجنة قبل أن يهبط ثلاثاً وأربعين سنة وأربعة أشهر والله تعالى أعلم.

وقد روى عبد الرزاق عن هِشام بن حسان عن سِوَار خبر عَطَاءِ بن أبي رَبَاحٍ أنه كان لما أهبط رجلاه في الأرض ورأسه في السماء فحطه الله إلى ستين ذراعاً. وقد روى عن ابنِ عبّاس نحوه.

وفي هذا نظر لما تقدم من الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعاً فَلَمْ يَزَلْ الخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ»[٤] وهذا يقتضي أنه خلق كذلك لا أطول من ستين ذراعاً وأن ذريته لم يزالوا يتناقص خلقهم حتى الآن.

وذكر ابن جرير عن ابن عبّاس: «إن الله قال: يا آدم إن لي حرماً بحيال عرشي فانطلق فابن لي فيه بيتاً فطف به كما تطوف ملائكتي بعرشي وأرسل الله له ملكاً فعرّفه مكانه وعلّمه المناسك. وذكر أن موضع كل خطوة خطاها آدم صارت قرية بعد ذلك».

وعنه: «أن أول طعام أكله آدم في الأرض أن جاءه جبريل بسبع حبات من حنطة فقال: ما هذا؟ قال: هذا من الشجرة التي نهيت عنها فأكلت منها فقال: وما أصنع بهذا؟ قال ابذره في الأرض فبذره وكان كل حبة منها زنتها أزيد من مائة ألف فنبتت فحصده ثم درسه ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه فأكله بعد جهد عظيم وتعب ونكد وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾» [طه: الآية ١١٧].

---

(١) رغداً: طيباً. (٢) في ط: هبوطه.
(٣) أخرجه مسلم في الجمعة حديث ١٧، ١٨، وأحمد في المسند ٢/ ٥١٢.
(٤) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣١٥.

وكان أول كسوتهما من شعر الضأن جزّاه ثم غزلاه فنسج آدم له جبّة ولحواء درعاً وخماراً.

واختلفوا هل ولد لهما بالجنة شيء من الأولاد فقيل لم يولد لهما إلا في الأرض. وقيل بل ولد لهما فيها فكان قابيل وأخته ممن ولد بها والله أعلم.

وذكروا أنه كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى وأمر أن يزوج كل ابن أخت أخيه التي ولدت معه والآخر بالأخرى وهلّم جرا ولم يكن تحل أخت لأخيها الذي ولدت معه.

[ذكر][1] قصة ابني آدم قابيل وهابيل

قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: الآيات ٢٧- ٣١].

قد تكلّمنا على هذه القصة في سورة المائدة في التفسير بما فيه كفاية ولله الحمد.

ولنذكر هنا ملخص ما ذكره أئمة السلف في ذلك.

فذكر السدّي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عبّاس وعن مُرّة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الأخرى وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل وكان أكبر من هابيل وأخت هابيل أحسن فأراد هابيل أن يستأثر بها على أخيه وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى فأمرهما أن يقربا قرباناً وذهب آدم ليحج إلى مكة واستحفظ السموات على بنيه فأبين والأرضين والجبال فأبين فتقبل قابيل بحفظ ذلك.

فلما ذهب قربا قربانهما فقرب هابيل جذعة سمينة وكان صاحب غنم وقرب قابيل حزمة من زرع من رديء زرعه فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل فغضب وقال لأقتلنك حتى لا تنكح أختي فقال إنما يتقبل الله من المتقين.

وروي عن ابن عباس من وجوه أخر وعن عبد الله بن عَمْرو وقال عبد الله بن عَمْرو وايم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ولكن منعه التحرّج أن يبسط إليه يده.

وذكر أبو جعفر الباقر أن آدم كان مباشراً لتقريبهما القربان والتقبّل من هابيل دون قابيل فقال قابيل لآدم: إنما تقبل منه لأنك دعوت له ولم تدع لي وتوعد[2] أخاه فيما بينه وبينه.

فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل في الرعي فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به فلما ذهب إذا هو به فقال له: تقبل منك ولم يتقبل مني فقال: إنما يتقبل الله من المتقين. فغضب قابيل

(١) سقط في ط.
(٢) توعدّ: هدّد.

عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله. وقيل: إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته[١]. وقيل بل خنقه خنقاً شديداً وعضاً كما تفعل السباع فمات والله أعلم.

وقوله له لما توعده بالقتل: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة: الآية ٢٨] دلّ على خلق حسن وخوف من الله[٢] تعالى وخشية منه وتورّع أن يقابل أخاه بالسوء الذي أراد منه أخوه مثله.

ولهذا ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِذَا تَوَاجَهَ المُسْلِمَانِ بِسَيفَيهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالمَقتُولُ فِي النّار. قَالُوا يَا رَسُولَ اللّهِ هَذَا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المَقتُولِ؟ قَالَ إِنَّهُ كَانَ حَرِيصاً عَلَى قَتلِ صَاحِبِهِ»[٣]. وقوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المائدة: الآية ٢٩] أي إني أريد ترك مقاتلتك وإن كنت أشد منك وأقوى إذ قد عزمت على ما عزمت عليه أن تبوء بإثمي وإثمك أي تتحمل إثم قتلي مع ما لَكَ من الآثام المتقدمة قبل ذلك، قاله مُجاهد والسّدّي وابن جرير وغير واحد.

وليس المراد أن آثام المقتول تتحول بمجرد قتله إلى القاتل كما قد توهّمه بعض [الناس][٤]: فإن ابن جرير حكى الإجماع على خلاف ذلك.

وأما الحديث الذي يورده بعض من لا يعلم عن النبي ﷺ أنه قال: «ما تَرَكَ القَاتِلُ عَلَى المَقتُولِ مِنْ ذَنْبٍ» فلا أصل له، ولا يُعْرَف في شيء من كتب الحديث بسند صحيح ولا حسن ولا ضعيف أيضاً، ولكن قد يتفق في بعض الأشخاص يوم القيامة يطالب المقتول القاتل فتكون حسنات القاتل لا تفي بهذه المظلمة فتحول من سيئات المقتول إلى القاتل كما ثبت به الحديث الصحيح في سائر المظالم والقتل من أعظمها والله أعلم. وقد حررنا هذا كله في التفسير ولله الحمد.

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن سَعْدِ بن أبي وَقّاص، أنه قال عند فتنة عثمان بن عفان أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «إنها سَتَكُونُ فِتْنَةٌ القَاعِدُ فِيهَا خَيرٌ مِنَ القَائِمِ وَالقَائِمُ خَيرٌ مِنَ المَاشِي وَالمَاشِي خَيرٌ مِنَ السّاعِي». قال: أفرأيتَ إن دخلَ عليّ بيتي فبسطَ يدَهُ إليّ ليقتُلَني. قال: «كُنْ كَابْنِ آدَمَ»[٥].

ورواه ابن مردويه عن حُذَيْفَةَ بن اليَمَانِ مرفوعاً، وقال: «كُنْ كَخَيرِ ابْنَيْ آدَمَ».

وروى مسلم وأهل السنن إلا النسائي عن أبي ذر نحو هذا.

وأما الآخر فقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية ووكيعٌ قالا: حدّثنا الأعمشُ عن عبد الله بن مُرّةَ عن مسروقٍ عن ابن مسعودٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقْتَل نَفْسٌ ظُلْماً إلا كَانَ

---

(١) شدخته: كسرته. (٢) في ط: منه.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٢٢، والديات باب ٢، ومسلم في الفتن حديث ١٤، وأحمد في المسند ٤/٤٠١.

(٤) سقط في ط.

(٥) أخرجه الترمذي في الفتن باب ٢٩، وأحمد في المسند ١/١٨٥.

عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ[١] مِنْ دَمِهَا لأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ القَتْلَ»[٢]. ورواه الجماعة سوى أبي داود من حديث الأَعْمَشِ به وهكذا روى عن عبد الله بن عَمْرِو بن العَاصِ وإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِي أنهما قالا مثل هذا سواء. ويجبل قاسيون شمالي دمشق مغارة يقال لها مغارة الدمّ مشهورة بأنها المكان الذي قتل قابيل أخاه هابيل عندها، وذلك مما تلقوه عن أهل الكتاب فالله أعلم بصحّة ذلك.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة أحمد بن كثير، وقال إنه كان من الصالحين أنه رأى النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وهابيل وأنه استحلف هابيل أن هذا دمه فحلف له وذكر أنه سأل الله تعالى أن يجعل هذا المكان يستجاب عنده الدعاء فأجابه إلى ذلك، وصدقه في ذلك رسول الله ﷺ وقال إنه وأبا بكر وعمر يزورون هذا المكان في كل يوم خميس.

وهذا منام لو صحّ عن أحمد بن كثير هذا لم يترتب عليه حكم شرعي والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: الآية ٣١] ذكر بعضهم أنه لما قتله حمله على ظهره سنة وقال آخرون حمله مائة سنة ولم يزل كذلك حتى بعث الله غرابين. قال السّدّي بإسناده عن الصحابة: أخوين فتقاتلا فقتل أحدهما الآخر فلّما قتله عمد إلى الأرض يحفر له فيها، ثم ألقاه ودفنه وواراه. فلما رآه يصنع ذلك: ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ ففعَل مثل ما فعل الغراب فواراه ودفنه.

وذكر أهل التواريخ والسير أن آدم حزن على ابنه هابيل حزناً شديداً، وأنه قال في ذلك شعراً وهو قوله فيما ذكره ابن جرير عن ابن حميد [الكامل]:

تغيّرتِ البلادُ ومَنْ عليها ... فوجهُ الأرضِ مُغبَرٌّ قبيحُ
تغيّرَ كلُّ ذي لونٍ وطعمٍ ... وقلَّ بشاشةُ الوجهِ المليحُ

فأجيب آدم [الكامل]:

أبا هابيلَ قد قُتِلا جميعاً ... وصارَ الحيُّ كالميْتِ الذبيحُ
وجاء بشرَّةٍ قد كانَ منها ... على خوفٍ فجاءَ بها يَصِيحُ

وهذا الشعر فيه نظر، وقد يكون آدم عليه السلام قال كلاماً يتحزّن به بلغته فألّفه بعضهم إلى هذا وفيه أقوال والله أعلم.

وقد ذكر مُجَاهِدٌ أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه فعلقت ساقه إلى فخذه وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت تنكيلاً به وتعجيلاً لذنبه وبغيه وحسده لأخيه لأبويه.

وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرَ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ عُقُوبَتَهُ

(١) الكفل: النصيب والحظ.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ١، ومسلم في القسامة حديث ٢٧، والترمذي في العلم باب ١٤، والنسائي في التحريم باب ١، وابن ماجه في الديات باب ١، وأحمد في المسند ١/ ٣٨٣.

فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لِصَاحِبِهِ فِي الآخِرَةِ مِنَ البَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»[(١)].

والذي رأيته في الكتاب الذي بأيدي أهل الكتاب الذين يزعمون أنه التوراة أن الله عزّ وجلّ أجلَهُ وأنظره وأنه سكن في أرض (نود) في شرقي عدن، وهم يسمّونه (قنين)، وأنه ولد له خنوخ ولخنوخ عندر ولعندر محوايل ولمحوايل متوشيل ولمتوشيل لامك وتزوج هذا امرأتين: عدا وصلا فولدت (عدا) ولدا اسمه (إبل) وهو أول من سكن القباب واقتنى المال، وولدت أيضاً (نوبل) وهو أول من أخذ في ضرب الونج[(٢)] والصنج[(٣)]. وولدت (صلا) ولدا اسمه توبلقين وهو أول من صنع النحاس والحديد وبنتاً اسمها (نعمى) وفيها أيضاً أن آدم طاف على امرأته فولدت غلاماً ودعت اسمه (شيث). وقالت من أجل أنه قد وهب لي خلفاً من هابيل الذي قتله قابيل. وولد لشيث أنوش.

قالوا: وكان عمر آدم يوم ولد له شيث مائة وثلاثين سنة وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وكان عمر شيث يوم ولد له أنوش مائة وخمسا وستين وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وسبع سنين. وولد له بنون وبنات غير أنوش.

فولد لأنوش (قينان) وله من العمر تسعون سنة وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وخمس عشر سنة وولد له بنون وبنات فلما كان عمر قينان سبعين سنة ولد له مهلاييل وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وأربعين سنة وولد له بنون وبنات فلما كان لمهلاييل من العمر خمس وستون سنة ولد له (يرد) وعاش بعد ذلك ثمانمائة وثلاثين سنة وولد له بنون وبنات.

فلما كان ليرد مائة سنة واثنتان وستون سنة ولد له (خنوخ) وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وولد له بنون وبنات.

فلما كان لخنوخ خمس وستون سنة ولد له (متوشلح) وعاش بعد ذلك ثلاثمائة[(٤)] سنة وولد له بنون وبنات فلما كان لمتوشلح مائة وسبع وثمانون سنة ولد له (لامك) وعاش بعد ذلك سبعمائة واثنين وثمانين سنة وولد له بنون وبنات.

فلما كان للامك من العمر مائة واثنتان وثمانون سنة ولد له (نوح) وعاش بعد ذلك خمسمائة وخمساً وتسعين سنة. وولد له بنون وبنات فلما كان لنوح خمسمائة سنة ولد له بنون (سام وحام ويافث).

هذا مضمون ما في كتابهم صريحاً.

وفي كون هذه التواريخ محفوظة فيما نزل من السماء نظر كما ذكره غير واحد من العلماء طاعنين عليهم في ذلك، والظاهر أنها مقحمة فيها. ذكرها بعضهم على سبيل الزيادة والتفسير.

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/٣٦.
(٢) الونج: ضرب من الأوتار أو العود أو المعزف.
(٣) الصنج: شيء يتخذ من صفر يضرب أحدهما على الآخر.
(٤) في ط: ثمانمائة.

وفيها غلط كثير كما سنذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير في تاريخه عن بعضهم: أن حواء ولدت لآدم أربعين ولداً في عشرين بطناً. قاله ابن إسحاق وسمّاهم والله تعالى أعلم. وقيل مائة وعشرين بطناً في كل واحد ذكر وأنثى. أولهم قابيل وأخته قليما. وآخرهم عبد المغيث وأخته أم المغيث.

ثم انتشر الناس بعد ذلك وكثروا وامتدوا في الأرض ونموا كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: الآية ١] الآية.

وقد ذكر أهل التاريخ أن آدم عليه السلام لم يمت حتى رأى من ذرّيته من أولاده وأولاد أولاده أربعمائة ألف نسمة والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٨٩ـ ١٩٠] الآيات فهذا تنبيه أولاً بذكر آدم ثم استطرد إلى الجنس وليس المراد بهذا ذكر آدم وحواء بل لما جرى ذكر الشخص استطرد إلى الجنس كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ١٢ـ ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: الآية ٥] ومعلوم أن رجوم الشياطين ليست هي أعيان مصابيح السماء وإنما استطرد من شخصها إلى جنسها. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

حدثنا عَبدُ الصَّمدِ، حدثنا عُمر بن إبراهيمَ، حدثنا قَتادَةُ عن الحسَنِ عن سَمُرَةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «لَمَا وَلَدَتْ حَوَّاءُ طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ وَكَانَ لاَ يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ فَقَالَ سَمِّيهِ عَبْدَ الحَارِثِ فَإِنَّهُ يَعِيشُ فَسَمَّتْهُ عَبْدَ الحَارِثِ فَعَاشَ وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيطَانِ وَأَمْرِهِ»(١).

وهكذا رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مَرْدَوَيْهِ في تفاسيرهم عند هذه الآية: وأخرجه الحاكم في مستدركة كلّهم من حديث عَبْدِ الصَّمَدِ بن عَبْدِ الوَارِثِ به.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وقال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عُمَرَ بن إبراهيم ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه فهذه علّة قادحة في الحديث أنه رُوي موقوفاً على الصحابي، وهذا أشبه والظاهر أنه تلقّاه من الإسرائيليات.

وهكذا روي موقوفاً على ابن عباس. والظاهر أن هذا متلقى عن كعب الأحبار ودوّنه والله أعلم.

وقد فسّر الحسن البصري هذه الآيات بخلاف هذا. فلو كان عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه إلى غيره والله أعلم.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن باب ٨، من سورة الأعراف، وأحمد في المسند ٥/ ١١.

وأيضاً فالله تعالى إنما خلق آدم وحواء ليكونا أصل البشر وليبث منهما رجالاً كثيراً ونساء فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد كما ذكر في هذا الحديث إن كان محفوظاً.

والمظنون بل المقطوع به أن رفعه إلى النبي ﷺ خطأ والصواب وقفه والله أعلم وقد حرّرنا هذا في كتابنا التفسير ولله الحمد.

ثم قد كان آدم وحواء أتقى لله مما ذكر عنهما في هذا. فإن آدم أبو البشر الذي خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه جنته. وقد روى ابن حبان في صحيحه عن أبي ذَرٍّ قال: قلت يا رسول الله كَم الأنبياء؟ قال: «مَائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ عِشْرُونَ أَلْفاً». قلت: يا رسولَ اللهِ كم الرُسلُ منهُمْ؟ قال: «ثَلاثُمَائَةٍ وَثَلاثَةُ عَشَرَ جَمٌّ غَفِيرٌ». قلتُ: يا رسولَ اللهِ من كان أولُهم؟ قَال: «آدَمُ». قلتُ: يا رسولَ اللهِ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ قال: «نَعَمْ خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ثُمَّ سَوَّاهُ قُبَلاً». وقال الطبراني: حدثنا إبراهيم بن نَائِلَةَ الأَصْبَهَانِي، حدثنا شيبانُ بن فَرُّوخَ حدثنا نَافِعُ بنِ هُرْمُزَ عن عَطاءِ بنِ أَبِي رَبَاحٍ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ المَلائِكَةِ: جِبْرِيلُ وَأَفْضَلِ النَّبِيينَ آدَمُ وَأَفْضَلِ الأَيَّامِ يَوْمُ الجُمُعَةِ وَأَفْضَلِ الشُّهُورِ شَهْرُ رَمَضَانَ وَأَفْضَلِ اللَّيَالِي لَيلَةُ القَدْرِ وَأَفْضَلِ النِّسَاءِ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ».

وهذا إسناد ضعيف فإن نَافِعاً أبا هُرْمُزٍ كذّبه ابن مَعِينٍ وضعفه أحمد وأبو زُرْعَةَ وأبو حاتم وابن حِبَّانَ وغيرهم والله أعلم.

وقال كعب الأحبار ليس أحد في الجنة له لحية إلاّ آدم. لحيته سوداء إلى سرته. وليس أحد يكنى في الجنة إلا آدم كنيته في الدنيا أبو البشر وفي الجنة أبو محمد.

وقد روى ابن عَدِيٍّ من طريق سبح ابن أبي خالد[١] عن حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله مرفوعاً: «أَهلُ الجَنَّةِ يُدْعَوْنَ بِأَسْمَائِهِمْ إلاّ آدَمَ فَإِنَّهُ يُكَنَّى أَبَا مُحَمَّدٍ».

ورواه ابن عَدِيٍّ أيضاً من حديث علي بن أبي طالب وهو ضعيف من كل وجه والله أعلم.

وفي حديث الإسراء الذي في الصحيحين: «أن رسولَ الله ﷺ لما مرّ بآدم وهو في السماء الدنيا قال له: «مَرْحَباً بِالابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ» قَالَ: «وَإِذَا عَنْ يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ[٢] وَعَنْ يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ. فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ وَإِذَا نَظَرَ عَنْ شِمَالِهِ بَكَى. فَقُلْتُ يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ هَذَا آدَمُ وَهَؤُلاَءِ نَسَمُ بَنِيهِ. فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ أَهْلِ اليَمِينَ وَهُمْ أَهْلُ الجَنَّةِ ضَحِكَ وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ أَهْلِ الشِّمَالِ وَهُمْ أَهْلُ النَّارِ بَكَى»[٣].

هذا معنى الحديث.

---

(١) قوله: سبح بن أبي خالد. كذا بالأصل، ولا يعرف من الرجال من سمي بهذا الاسم.

(٢) أسودة: جمع من الناس.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥، والصلاة باب ١، ومسلم في الإيمان حديث ٢٦٣، وأحمد في المسند ٥/١٤٣، ١٤٤.

وقال أبو بكر البزّار: حدثنا محمد بن المُثَنَّى، حدثنا يزيدُ بن هارونَ، أنبأنا هشامُ بن حسانَ عن الحسنِ قال: كان عقل آدم مثل عقل جميع ولده.

وقال بعض العلماء في قوله ﷺ: «فَمَرَرْتُ بِيُوسُفَ وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ». قالوا: معناه أنه كان على النصف من حُسْن آدم عليه السلام. وهذا مناسب. فإن الله خلق آدم وصوره بيده الكريمة ونفخ فيه من روحه فما كان ليخلق إلا أحسن الأشباه. وقد روينا عن عبد الله بن عمر وابن عَمْرو أيضاً موقوفاً ومرفوعاً: «إن الله تعالى لما خلق الجنة قالت الملائكة: يا ربنا اجعل لنا هذه فإنك خلقت لبني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون. فقال الله تعالى: «وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي لاَ أَجْعَلُ صَالِحَ ذُرِّيَّةِ مَنْ خَلَقْتُ بِيَدِي كَمَنْ قُلْتُ لَهُ كُنْ فَكَانَ».

وقد ورد الحديث المروي في الصحيحين وغيرهما من طرق: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»[1] وقد تكلم العلماء على هذا الحديث فذكروا فيه مسالك كثيرة ليس هذا موضع بسطها والله أعلم.

[ذكر][2] وفاة آدم ووصيته إلى ابنه شيث عليه السلام

ومعنى: «شيث»: هبة الله وسميّاه بذلك لأنهما رزقاه بعد أن قتل هابيل.

قال أبو ذر في حديثه عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مَائَةَ صَحِيفَةٍ وَأَرْبَعَ صُحُفٍ. عَلَى شِيثَ خَمْسِينَ صَحِيفَةً».

قال محمد بن إسحاق: ولما حضرت آدم الوفاة عهد إلى ابنه شيث وعلّمه ساعات الليل والنهار، وعلّمه عبادات تلك الساعات، وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك. قال: ويقال إن أنساب بني آدم اليوم كلها تنتهي إلى شيث. وسائر أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا والله أعلم.

ولما توفي آدم عليه السلام وكان ذلك يوم الجمعة جاءته الملائكة بحنوط وكفن من عند الله عزّ وجلّ من الجنة. وعزّوا فيه ابنه ووصيّه شيثاً عليه السلام. قال ابن إسحاق: وكسفت الشمس والقمر سبعة أيام بلياليهن.

وقد قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا هُدْبَةُ بن خَالِدٍ، حدثنا حَمَّادُ بن سَلَمَةَ عن حميد عن الحسنِ عن يحيى هو ابن ضَمْرَةَ السَّعْدِيّ، قال: رأيت شيخاً بالمدينة يتكلم فسألت عنه فقالوا هذا أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ. فقال: إن آدم لمّا حضره الموت قال لبنيه: أي بني إني أشتهي من ثمار الجنة[3].

قال: فذهبوا يطلبون له فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ومعهم الفؤوس[4]

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ١، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها حديث ٢٨، وأحمد في المسند ٢/ ٣١٥.

(٢) سقط في ط.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ١٣٦.

(٤) للفؤوس جمع فأس.

والمساحي[١]، والمكاتل[٢]. فقالوا لهم يا بني آدم ما تريدون وما تطلبون، أو ما تريدون وأين تطلبون، قالوا أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة، فقالوا لهم: ارجعوا فقد قضى أبوكم. فجاؤوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم فقال إليك عني فإنما[٣] أتيت من قبلك فخلّي بيني وبين ملائكة ربي عزّ وجلّ، فقبضوه وغسّلوه وكفّنوه وحنّطوه وحفروا له ولحدوه وصلّوا عليه. ثم أدخلوه قبره فوضعوه في قبره. ثم حثوا[٤] عليه. ثم قالوا يا بني آدم هذه سنّتكم. إسناد صحيح إليه.

وروى ابن عساكر من طريق شَيْبَانَ بن فَرُّوخ عن محمد بن زِيَادٍ عن ميمونَ بن مِهْرَانٍ عن ابن عبّاس أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «كَبَّرَتِ المَلاَئِكَةُ عَلَى آدَمَ أَرْبَعاً وكبَّر أبو بكْر على فاطِمَةَ أَرْبَعاً، وَكَبَّرَ عُمَرُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ أَرْبَعاً، وَكَبَّر صُهَيب على عمر أربعاً».

قال ابن عساكر: رواه غيره عن ميمون فقال: عن ابن عمر.

واختلفوا في موضع دفنه فالمشهور أنه دفن عند الجبل الذي أهبط منه في الهند وقيل بجبل أبي قبيس بمكة. ويقال إن نوحاً عليه السلام لما كان زمن الطوفان حمله هو وحواء في تابوت فدفنهما ببيت المقدس. حكى ذلك ابن جرير.

وروى ابن عساكر عن بعضهم أنه قال رأسه عند مسجد إبراهيم ورجلاه عند صخرة بيت المقدس. وقد ماتت بعده حواء بسنة واحدة.

واختلف في مقدار عمره عليه السلام: فقدمنا في الحديث عن ابن عباس وأبي هريرة مرفوعاً: «أن عمره اُكْتُتِبَ في اللوح المحفوظ ألف سنة».

وهذا لا يعارضه ما في التوراة من أنه عاش تسعمائة وثلاثين سنة لأن قولهم هذا مطعون فيه مردود إذا خالف الحق الذي بأيدينا مما هو المحفوظ عن المعصوم.

وأيضاً فإن قولهم هذا يمكن الجمع بينه وبين ما في الحديث فإن ما في التوراة إن كان محفوظاً محمول على مدّة مقامه في الأرض بعد الإهباط وذلك تسعمائة وثلاثون سنة شمسية، وهي بالقمرية تسعمائة وسبع وخمسون سنة، ويضاف إلى ذلك ثلاث وأربعون سنة مدة مقامه في الجنة قبل الإهباط على ما ذكره ابن جرير وغيره فيكون الجميع ألف سنة.

وقال عَطَاءُ الخُرَاسَانِي: لما مات آدم بكت الخلائق عليه سبعة أيام. رواه ابن عساكر.

فلما مات آدم عليه السلام وقام بأعباء الأمر بعده ولده شيث عليه السلام. وكان نبياً بنص الحديث الذي رواه ابن حِبان في صحيحه عن أبي ذَرّ مرفوعاً: «أنه أنزل عليه خمسون صحيفة».

فلما حانت وفاته أوصى إلى ابنه أنوش فقام بالأمر بعده، ثم بعده ولده قينن. ثم من بعده

(١) المساحي: آلة كالمجرفة يجرف بها الطين وغيره.
(٢) المكاتل: جمع مكتل. وهو الزنبيل الذي يُحمل فيه التمر.
(٣) في ط: فإني إنما.
(٤) حثوا عليه التراب: أهالوا عليه التراب.

ابنه مهلاييل وهو الذي يزعم الأعاجم من الفرس أنه ملك الأقاليم السبعة، وأنه أول من قطع الأشجار وبنى المدائن والحصون الكبار. وأنه هو الذي بَنى مدينة بابل ومدينة السوس الأقصى. وأنه قهر إبليس وجنوده وشرّدهم عن الأرض إلى أطرافها وشعاب جبالها وأنه قتل خلقاً من مردة الجن والغيلان وكان له تاج عظيم، وكان يخطب الناس ودامت دولته أربعين سنة.

فلما مات قام بالأمر بعده ولده يرد فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ولده خنوخ وهو إدريس عليه السلام على المشهور.

[ذكر][(١)] إدريس عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم: الآيتان ٥٦ ـ ٥٧] فإدريس عليه السلام قد أثنى الله عليه ووصفه بالنبوة والصديقية وهو خنوخ هذا وهو في عمود نسب رسول الله ﷺ على ما ذكره غير واحد من علماء النسب، وكان أول بني آدم أُعطِيَ النبوّة بعد آدم وشيث عليهما السلام.

وذكر ابن إسحاق أنه أول من خطّ بالقلم وقد أدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنة وثماني سنين. وقد قال طائفة من الناس إنه المشار إليه في حديث معاوية بن الحَكَم السُلَمِيّ لما سأل رسول الله ﷺ عن الخط بالرمل، فقال: «إِنَّهُ كَانَ نَبِيٌّ يَخُطُّ بِهِ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ»[(٢)].

ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام أنه أول من تكلم في ذلك ويسمّونه هرمس[(٣)] الهرامسة ويكذبون عليه أشياء كثيرة كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ هو كما ثبت في الصحيحين في حديث الإسراء: أنَّ رسولَ الله ﷺ مرّ به وهو في السماء الرابعة. وقد روى ابن جرير عن يونس عن عبد الأعلى عن ابن وهب عن جَرِيرِ بن حازِم عن الأَعْمَشِ عن شِمرِ بن عَطِيَّةَ عن هِلاَلِ بن يَسَافٍ قال: سأل ابن عبّاس كعباً وأنا حاضر فقال له: ما قول الله تعالى لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ فقال كعب: أما إدريس فإن الله أوحى إليه إني أرفع لك كل يوم مثل جميع عمل بني آدم (لعله من أهل زمانه) فأحب أن يزداد عملاً، فأتاه خليل له من الملائكة فقال: إن الله أوحى إليّ كذا وكذا فكلّم ملك الموت حتى ازداد عملاً فحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء فلما كان في السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدراً فكلّم ملك الموت في الذي كلّمه فيه إدريس، فقال: وأين إدريس؟ قال هو ذا على ظهري فقال ملك الموت فالعجب بعثت وقيل لي اقبض روح إدريس في السماء الرابعة فجعلت أقول كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو في الأرض، فقبض روحه هناك فذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾.

ورواه ابن أبي حاتم عند تفسيرها. وعنده فقال لذلك الملك: سل لي ملك الموت كم

(١) سقط في ط.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/٤٤٧.
(٣) الهرمس: الأسد الشديد.

بقي من عمري؟ فسأله وهو معه: كم بقي من عمره فقال لا أدري حتى أنظر فنظر فقال إنك لتسألني عن رجل ما بقي من عمره إلا طرفة عين فنظر الملك إلى تحت جناحه إلى إدريس فإذا هو قد قبض وهو لا يشعر.

وهذا من الإسرائيليات وفي بعضه نكارة! وقال ابن أبي نَجِيح عن مجاهد في قوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ قال: إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى. إنْ أراد أنه لم يمت [في الأرض][1] إلى الآن ففي هذا نظر، وإن أراد أنه رفع حياً إلى السماء ثم قبض هناك، فلا ينافي ما تقدم عن كَعْبِ الأَحْبَارِ والله أعلمُ.

وقال العَوْفِي عن ابن عبّاسٍ في قوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ رفع إلى السماء السادسة فمات بها؛ وهكذا قال الضحّاك. والحديث المتفق عليه من أنه في السماء الرابعة أصحّ وهو قول مجاهد وغير واحد. وقال الحسن البصري ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ قال: إلى الجنّة. وقال قائلون: رفع في حياة أبيه «يرد بن مهلاييل» والله أعلم. وقد زعم بعضهم أن إدريس لم يكن قبل نوح بل في زمان بني إسرائيل.

قال البخاري: ويذكر عن ابن مسعود وابن عبّاس: أن الياس هو إدريس واستأنسوا في ذلك بما جاء في حديث الزّهريّ عن أنَسٍ في الإسراء: أنه لمّا مرّ به عليه السلام قال له: «مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح»[2] ولم يقل كما قال آدم وإبراهيم: مرحباً بالنبيّ الصالح والابن الصالح قالوا: فلو كان في عمود نسبه لقال له كما قالا له.

وهذا لا يدل ولا بدّ لأنه قد لا يكون الراوي حفظه جيداً. أو لعله قاله له على سبيل الهضم والتواضع ولم ينتصب له في مقام الأبوة كما انتصب لآدم أبي البشر وإبراهيم الذي هو خليل الرحمن وأكبر أولي العزم بعد محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

قصة نوح عليه السلام

هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ. وهو إدريس بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام.

كان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة فيما ذكره ابن جرير وغيره.

وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدّم يكون بين مولد نوح وموت آدم مائة وست وأربعون سنة وكان بينهما عشرة قرون، كما قال الحافظ أبو حاتم بن حِبان في صحيحه.

حدثنا محمد بن عمر بن يوسف، حدثنا محمد بن عبد الملك بن زَنْجَوَيْه، حدثنا أبو تَوْبَةَ حدثنا معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام سمعت أبا سلام سمعت أبا أمامة: أن رجلاً قال: يا رسولَ الله أنبي كان آدم قال: «نَعَمْ مُكَلَّمٌ». قال: فكم كان بينه وبين نوحٍ قال: «عَشَرَةُ قُرُونٍ».

---

(١) سقط في ط.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥.

قلت: وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: «كَانَ بَيْنَ آدَم ونوحٍ عشرةُ قرونٍ كلُّهم على الإِسلامِ».

فإن كان المراد بالقرن مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس فبينهما ألف سنة لا محالة لكن لا ينفي أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإِسلام إذ قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة لم يكونوا على الإِسلام لكن حديث أبي أُمَامَةَ يدل على الحصر في عشرة قرون وزادنا ابن عبّاس: أنهم كلهم كانوا على الإِسلام.

وهذا يردّ قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب: أن قابيل وبنيه عبدوا النار والله أعلم.

وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۢ﴾ [الإسراء: الآية ١٧] وقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٤٢] وقال تعالى: ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان: الآية ٣٨] وقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ [مريم: الآية ٧٤] وكقوله عليه السلام: «خَيْرُ القُرُونِ قَرْنِي» الحديث فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور[1] الطويلة. فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين والله أعلم.

وبالجملة فنوح عليه السلام إنما بعثه الله تعالى لمّا عُبِدَوا[2] الأصنام والطواغيت وشرع الناس في الضلالة والكفر، فبعثه الله رحمةً بالعباد[3] فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض كما يقول: له أهل الموقف يوم القيامة. وكان قومه يقال لهم بنو رَاسِبٍ فيما ذكره ابن جُبَيْرٍ وغيره.

واختلفوا في مقدار سنّه يوم بعث فقيل كان ابن خمسين سنة. وقيل ابن ثلاثمائة وخمسين سنة. وقيل ابن أربعمائة وثمانين سنة. حكاها ابن جرير وعزا الثالث[4] منها إلى ابن عباس.

وقد ذكر الله قصّته وما كان من قومه وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان وكيف أنجاه وأصحاب السفينة في غير ما موضع من كتابه العزيز. ففي الأعراف، ويونس، وهود، والأنبياء، والمؤمنون، والشعراء، والعنكبوت، والصافات، واقتربت وأنزل فيه سورة كاملة.

فقال في سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٥٩ـ ٦٤].

وقال في سورة يونس: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى

---

(١) في ط: الدهر.
(٢) في ط: عبدت.
(٣) في ط: للعباد.
(٤) في ط: الثالثة.

وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: الآيات ٧١ـ٧٣].

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۚ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: الآيات ٢٥ـ٤٩].

وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ٧٦ـ٧٧].

وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المؤمنون: الآيات ٢٣ـ ٣٠].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾ [الشعراء: الآيات ١٠٥ـ ١٢٢].

وقال تعالى في سورة العنكبوت ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: الآيتان ١٤ـ ١٥].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الصافات: الآيات ٧٥ـ ٨٢].

وقال تعالى في سورة اقتربت: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: الآيات ٩ـ ١٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ

اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح: الآيات ١ـ ٢٨] وقد تكلّمنا على كل موضع من هذه في التفسير وسنذكر مضمون القصّة مجموعاً من هذه الأماكن المتفرّقة ومما دلّت عليه الأحاديث والآثار وقد جرى ذكره أيضاً في مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه وذمّ من خالفه، فقال تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: الآيات ١٦٣ـ ١٦٥].

وقال في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٨٣ـ ٨٧] الآيات.

وتقدمت قصته في الأعراف.

وقال في سورة براءة: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التوبة: الآية ٧٠].

وتقدّمت قصته في يونس وهود.

وقال في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٩].

وقال في سورة سبحان: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: الآية ٣] وقال فيها أيضاً: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء: الآية ١٧].

وتقدّمت قصته في الأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت.

وقال في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٧].

وقال في سورة ص: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص: الآيات ١٢-١٤].

وقال في سورة غافر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾﴾ [غافر: الآيتان ٥-٦].

وقال في سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: الآية ١٣] وقال تعالى في سورة ق: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق: الآيات ١٢-١٤] وقال في الذاريات: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الذاريات: الآية ٤٦] وقال في النجم: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ [النجم: الآية ٥٢].

وتقدّمت قصّته في سورة ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾.

وقال تعالى في سورة الحديد: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحديد: الآية ٢٦].

وقال تعالى في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: الآية ١٠].

وأما مضمون ما جرى له مع قومه مأخوذاً من الكتاب والسنّة والآثار فقد قدّمنا عن ابن عبّاس أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلّهم على الإسلام، رواه البخاري، وذكرنا أن المراد بالقرن الجيل أو المدّة على ما سلف.

ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام وكان سبب ذلك ما رواه البخاري من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عبّاس عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: الآية ٢٣] قال هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح. فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسمّوها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عُبِدَت.

قال ابن عبّاس وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد.

وهكذا قال عِكْرِمَةُ والضَحَّاكُ وَقَتَادَةُ ومحمد بن إسحَاقٍ.

وقال ابن جرير في تفسيره: حدثنا ابن حَمِيدٍ، حدثنا مِهْرَانُ عن سُفْيَانَ عن موسى عن محمد بن قَيْسٍ قال: كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صوّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم.

وروى ابن أبي حاتم عن عُرْوَةَ بن الزبير أنه قال: وُدّ ويغوث ويعوق وسواع ونسر أولاد آدم وكان «ود» أكبرهم وأبرهم به.

قال ابن أبي حَاتِم: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا الحَسَنُ بن موسى، حدثنا يعقوب عن أبي المُطَهَّرِ قال: ذكروا عند أبي جَعْفَرٍ هو البَاقِرُ وهو قائم يصلي يَزِيْد بن المُهَلَّبِ قال فلما انفتل[1] من صلاته قال ذكرتم يَزِيدَ بن المُهَلَّبِ أما إنه قتل في أول أرض عبد فيها غير الله. قال ذكر وداً قال كان رجلاً صالحاً وكان محبّباً في قومه فلما مات عكفوا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه، فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبّه في صورة إنسان، ثم قال إني أرى جزعكم على هذا الرجل فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه به؟ قالوا: نعم. فصوّر لهم مثله. قال: فوضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه. فلما رأى ما بهم من ذكره قال: هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالاً مثله ليكون له في بيته فتذكرونه؟ قالوا: نعم، قال: فمثّل لكل أهل بيت تمثالاً مثله فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به. قال وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به قال: وتناسلوا ودرس[2] أثر ذكرهم إياه حتى اتخذوه لها يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم فكان أول ما عبد غير الله وداً الصنم الذي سمّوه وداً.

ومقتضى هذا السياق أن كل صنم من هذه عبده طائفة من الناس. وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان جعلوا تلك الصور تماثيل مجسّدة ليكون أثبت لهم ثم عبدت بعد ذلك من دون الله عزّ وجلّ. ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جداً قد ذكرناها في مواضعها من كتابنا التفسير ولله الحمد والمنة.

وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ: أنه لما ذكرت عنده أُمُ سَلَمة وأمُ حبيبة تلك الكنيسة التي رأيتها بأرض الحبشة يقال لها مارية وذكرتا من حسنها وتصاوير فيها قال: «أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِداً ثُمَّ صَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَةَ أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[3].

والمقصود أن الفساد لما انتشر في الأرض وعمّ البلاء بعبادة[4] الأصنام فيها بعث الله عبده ورسوله نوحاً عليه السلام يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له وينهى عن عبادة ما سواه فكان

---

(١) انفتل: انصرف وانتهى. (٢) درس: انمحى.

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٤٨، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة حديث ١٦.

(٤) في ط: عباد.

أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي حيّان عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ في حديث الشفاعة قال: «فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو البَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ المَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ وَأَسْكَنَكَ الجَنَّةَ أَلاَ تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ وَمَا بَلَغْنَا فَيَقُولُ رَبِّ قَدْ غَضِبَ غَضَباً شَدِيداً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلاَ يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَنَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُ. نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ فَيَأْتُونَ نُوحاً فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْداً شَكُوراً أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا بَلَغْنَا أَلاَ تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ولاَ يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ نَفْسِي نَفْسِي»[(١)] وذكر تمام الحديث بطوله كما أورده البخاري في قصة نوح.

فلما بعث الله نوحاً عليه السلام دعاهم إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له وأن لا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالاً ولا طاغوتاً وأن يعترفوا بوحدانيته وأنه لا إله غيره ولا ربّ سواه، كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلّهم من ذريته كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: الآية ٧٧].

وقال فيه وفي إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: الآية ٢٦] أي كل نبي من بعد نوح فمن ذريته. وكذلك إبراهيم قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: الآية ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: الآية ٤٥] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٢٥] ولهذا قال نوح لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ٥٩].

وقال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [هود: الآية ٢٦] وقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف: الآية ٦٥].

وقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: الآية ٢ ـ ١٤] الآيات الكريمات. فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة في الليل والنهار والسر والإجهار

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٣، ٩، ومسلم في الإيمان حديث ٣٢٧، وأحمد في المسند ٢/ ٤٣٥، ٤٣٦.

بالترغيب تارة والترهيب أخرى وكل هذا لم ينجح فيهم بل استمرّ أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان وتنقّصوه وتنقّصوا من آمن به وتوعّدوهم بالرجم والإخراج ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ أي السادة الكبراء منهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الأعراف: الآية ٦١] أي لست كما تزعمون من أني ضال بل على الهدى المستقيم رسول من رب العالمين أي الذي يقول للشيء كن فيكون: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف: الآية ٦٢]. وهذا شأن الرسول أن يكون بليغاً أي فصيحاً ناصحاً أعلم الناس بالله عزّ وجلّ.

وقالوا له فيما قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود: الآية ٢٧] تعجبوا أن يكون بشراً رسولاً وتنقصوا بمن اتبعه ورأوهم أراذلهم. وقد قيل أنهم كانوا من أقياد الناس وهم ضعفاؤهم كما قال هرقل: «وهم أتباع الرسل» وما ذاك إلاّ لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق، وقولهم: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية وهذا الذي رموهم به هو عين ما يمدحون بسببه رضي الله عنهم فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر، بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر.

ولهذا قال رسول الله ﷺ مادحاً للصديق: «مَا دَعَوْتُ أَحَداً إِلَى الإِسْلاَمِ إِلاّ كَانَتْ لَهُ كَبْوَةٌ[1] غَيْرَ أَبِي بَكْرٍ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَلَعْثَمْ». ولهذا كانت بيعته يوم السقيفة أيضاً سريعة من غير نظر ولا روية، لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جليّة عند الصحابة رضي الله عنهم. ولهذا قال رسول الله ﷺ لما أراد أن يكتب الكتاب الذي أراد أن ينصّ فيه على خلافته فتركه وقال: «يَأْبَى اللَّهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلاَّ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه».

وقول كفرة قوم نوح له ولمن آمن به: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ [هود: الآية ٢٧] أي لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالإيمان ولا مزية علينا: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود: الآيتان ٢٧-٢٨].

وهذا تلطّف في الخطاب معهم: وترفقّ بهم في الدعوة إلى الحق كما قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: الآية ٤٤].

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: الآية ١٢٥] وهذا منه.

يقول لهم: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ أي النبوّة والرسالة ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي فلم تفهموها ولم تهتدوا إليها ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي أنغصبكم بها ونجبركم عليها

(١) كبوة: سقطة.

﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ۝٢٨﴾ أي ليس لي فيكم حيلة والحالة هذه ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود: الآية ٢٩] أي لست أريد منكم أجرة على إبلاغي إياكم ما ينفعكم في دنياكم وإخراجكم إن أطلب ذلك إلا من الله الذي ثوابه خير لي وأبقى مما تعطونني أنتم.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝٢٩﴾ [هود: الآية ٢٩] كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك فأبى عليهم ذلك وقال: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟﴾ أي فأخاف إن طردتهم أن يشكوني إلى الله عزّ وجلّ ولهذا قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣٠﴾ [هود: الآية ٣٠] ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله ﷺ أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين كعمّار وصُهَيْب وبِلالٍ وخَبَّاب وأشباههم نهاه الله عن ذلك كما بيّناه في سورتي الأنعام والكهف ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [هود: الآية ٣١] أي بل أنا عبد رسول لا أعلم من علم الله إلاّ ما أعلمني به ولا أقدر إلاّ على ما أقدرني عليه ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلاّ ما شاء الله ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ [هود: الآية ٣١] يعني من اتباعه ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣١﴾ [هود: الآية ٣١] أي لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة الله أعلم بهم وسيجازيهم على ما في نفوسهم إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ، كما قالوا في الموضع الآخر[1]: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ۝١١١ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١١٢ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ۝١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٤ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝١١٥﴾ [الشعراء: الآيات ١١١-١١٥].

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١٤﴾ [العنكبوت: الآية ١٤] أي ومع هذه المدّة الطويلة ما[2] آمن به[3] إلاّ القليل منهم.

وكان كلما انقرض جيل وصّوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته وَمُخَالَفَتِهِ. وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل[4] عنه كلامه وصّاه فيما بينه وبينه أن لا يُؤْمِنَ بنوح أبداً ما عاش، ودائماً ما بقي.

وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق ولهذا قال: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾ [نوح: الآية ٢٧] ولهذا قالوا: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٣٣﴾ [هود: الآيتان ٣٢-٣٣] أي إنما يقدر على ذلك الله عزّ وجلّ، فإنه الذي لا يعجزه شيء ولا يكترثه أمر بل هو الذي يقول للشيء كن فيكون ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٣٤﴾ [هود: الآية ٣٤] أي من يرد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته هو الذي يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء وهو الفعال لما يريد. وهو العزيز الحكيم العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية. وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا

---

(١) في ط: المواضع الأخر.
(٢) في ط: فما.
(٣) في ط: له.
(٤) عقل: فهم.

مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ تسلية له عمّا كان منهم إليه ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [هود: الآية ٣٦] وهذه تعزية لنوح عليه السلام في قومه أنه لن يؤمن منهم إلاّ من قد آمن، [وتسلية له مما كان منهم إليه ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾][(١)] أي لا يسوأنّك ماجرى فإن النصر قريب والنبأ عجيب.

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود: الآية ٣٧].

وذلك أنّ نوحاً عليه السلام لما يئس من صلاحهم وفلاحهم ورأى أنهم لا خير فيهم وتوصّلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال، دعا عليهم دعوة غضب فلبّى الله دعوته وأجاب طِلبته قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الصافات: الآيتان ٧٥ـ ٧٦].

وقال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٧٦].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ١١٧ـ ١١٨].

وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: الآية ١٠].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٣٩].

وقال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: الآيات ٢٥ـ ٢٧].

فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيّهم عليهم.

فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها.

وقدّم الله تعالى إليه أنه إذا جاء أمره وحلّ بهم بأسه الذي لا يَرَد عن القوم المجرمين أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه فإنه لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم فإنّه ليس الخبر كالمعاينة ولهذا قال: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾. ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ﴾ أي يستهزئون به استبعاد الوقوع ما توعدهم به ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود: الآية ٣٨] أي نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم في استمراركم على كفركم وعنادكم الذي يقتضي وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود: الآية ٣٩] وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ في الدنيا وهكذا في الآخرة فإنهم يجحدون أيضاً أن يكون جاءهم رسول.

كما قال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الأَعْمَشُ

(١) ما بين المعقوفين سقط من ط.

عن أبي صالح عن أبي سَعِيدٍ، قال قال رسول الله ﷺ: «يَجِيءُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَأُمَّتُهُ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ فَيَقُولُ لأُمَّتِهِ هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ لاَ مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ فَتَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ»[١]. وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: الآية ١٤٣] والوسط العدل. فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيّها الصادق المصدوق بأن الله قد بعث نوحاً بالحق وأنزل عليه الحق وأمره به وأنه بلّغه إلى أمته على أكمل الوجوه وأتمّها؛ ولم يدع شيئاً مما ينفعهم في دينهم إلاّ وقد أمرهم به ولا شيئاً مما قد يضرّهم إلاّ وقد نهاهم عنه وحذّرهم منه.

وهكذا شأن جميع الرسل، حتى أنّه حذّر قومه المسيح الدجّال وإن كان لا يتوقّع خروجه في زمانهم حذراً عليهم وشفقة ورحمة بهم، كما قال البخاري: حدّثنا عَبْدَانُ حدثنا عبد الله عن يونس عن الزّهْري قال سالم قال ابن عمر قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله. ثم ذكر الدجّال فقال: «إِنِّي لأُنْذِرُكُمُوهُ وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إلاَّ وَقَدْ أَنْذَرَهُ قَوْمَهُ. لَقَدْ أَنْذَرَهُ نُوحٌ قَوْمَهُ، وَلَكِنِّي أَقُولُ لَكُمْ فِيهِ قَوْلاً لَمْ يَقُلْهُ نَبِيٌّ لِقَوْمِهِ، تَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَعْوَرُ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ»[٢].

وهذا الحديث في الصحيحين أيضاً من حديث شَيْبَانَ بن عبد الرحمن عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ عَنِ الدَّجَّالِ حَدِيثاً مَا حَدَّثَ بِهِ نَبِيٌّ قَوْمَهُ وَإِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّهُ يَجِيءُ مَعَهُ بِمِثَالِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالَّتِي يَقُولُ عَلَيْهَا الجَنَّةَ هِيَ النَّارُ وَإِنِّي أُنْذِرُكُمْ كَمَا أَنْذَرَ بِهِ نُوحٌ قَوْمَهُ»[٣] لفظ البخاري.

وقد قال بعض علماء السلف: لما استجاب الله له أمره أن يغرس شجراً ليعمل منه السفينة فغرسه وانتظره مائة سنة ثم نجره في مائة أخرى وقيل في أربعين سنة فالله أعلم.

قال محمد بن إسحاق عن الثّوري وكانت من خشب الساج. وقيل من الصنوبر. وهو نصّ التوراة.

قال الثوري: وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعاً وعرضها خمسين ذراعاً وأن يطلي ظاهرها وباطنها بالقار وأن يجعل لها جؤجؤاً أزور[٤] يشق الماء.

وقال قتادة كان طولها ثلثمائة ذراع في عرض خمسين ذراعاً وهذا الذي في التوراة على ما رأيته. وقال الحسن البصري: ستمائة في عرض ثلثمائة وعن ابن عبّاس ألف ومائتا ذراع في عرض ستمائة ذراع، وقيل كان طولها ألفي ذراع وعرضها مائة ذراع.

قالوا كلهم: وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعاً وكانت ثلاث طبقات. كل واحدة عشرة أذرع. فالسفلى للدواب والوحوش والوسطى للناس والعليا للطيور وكان بابها في عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها. قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٣.
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٣.
(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٣.
(٤) الجؤجؤ الأزور: هو الصدر المرتفع إلى المنكبين.

﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [المؤمنون: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧] أي بأمرنا لك وبمرأى منا لصنعتك لها ومشاهدتنا لذلك لنرشدك إلى الصواب في صنعتها.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٢٧].

فتقدم إليه بأمره العظيم العالي أنه إذا جاء أمره وحلّ بأسه أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها وأن يحمل معه أهله أي أهل بيته إلاّ من سبق عليه القول منهم أي إلاّ من كان كافراً فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا تُرَدّ ووجب عليه حلول البأس الذي لا يُرَدّ وأمر أنه لا يراجعه فيهم إذا حلّ بهم ما يعاينه من العذاب العظيم الذي قد حتّمه عليهم الفعال لما يريد كما قدّمنا بيانه قبل.

والمراد بالتنور عند الجمهور وجه الأرض أي نبعت الأرض من سائر أرجائها حتى نبعت التنانير التي هي محال النار. وعن ابن عبّاس: التنور عين في الهند، وعن الشَّعْبيُّ: بالكوفة وعن قَتَادة: بالجزيرة. وقال علي بن أبي طالب: المراد بالتنور فلق الصبح، وتنوير الفجر أي إشراقه وضياؤه، أي عند ذلك فاحمل فيها من كل زوجين اثنين وهذا قول غريب.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: الآية ٤٠] هذا أمر بأن عند حلول النقمة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين.

وفي كتاب أهل الكتاب: أنه أمر أن يحمل من كل ما يؤكل سبعة أزواج ومما لا يؤكل زوجين: ذكراً وأنثى.

وهذا مغاير لمفهوم قوله تعالى في كتابنا الحق: ٱثْنَيْنِ إن جعلنا ذلك مفعولاً به وأما إن جعلناه توكيداً لزوجين والمفعول به محذوف فلا يُنافي والله أعلم.

وذكر بعضهم ويروى عن ابن عبّاس أن أول ما دخل من الطيور الدّرة وآخر ما دخل من الحيوانات الحمار. ودخل إبليس متعلّقاً بذنب الحمار.

وقال ابن أبي حَاتِم: حدثنا، أبي حدثنا عبد الله بن صالح حدثني اللَّيْثُ حدثني هشام بن سعد عن زَيْد بن أَسْلَم عَنْ أبيه أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لَمَّا حَمَلَ نُوحٌ فِي السَّفِينَةِ مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ قَالَ أَصْحَابُهُ: وَكَيفَ نَطْمَئِنُّ؟ أَوْ كَيفَ تَطْمَئِنُّ المَوَاشِي وَمَعَنَا الأَسَدُ فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِ الحُمَّى فَكَانَتْ أَوَّلَ حُمَّى نَزَلَتْ فِي الأَرْضِ. ثُمَّ شَكَوْا الفَارَةَ فَقَالُوا الفُوَيْسِقَةُ تُفْسِدُ عَلَيْنَا طَعَامَنَا وَمَتَاعَنَا فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى الأَسَدِ فَعَطَسَ فَخَرَجَتْ الهِرَّةُ مِنْهُ فَتَخَبَّأَتْ الفَأرَةُ مِنْهَا».

هذا مرسل. وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ أي من استجيبت فيهم الدعوة النافذة ممن كفر فكان منهم ابنه يام الذي غرق كما سيأتي بيانه.

﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أي وأحمل فيها من آمن بك من أمتك قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ هذا مع طول المدّة والمقام بين أظهرهم ودعوتهم الأكيدة ليلاً ونهاراً بضروب المقال وفنون التلطّفات والتهديد والوعيد تارة والترغيب والوعد أخرى.

وقد اختلف العلماء في عدّة من كان معه في السفينة.

فعن ابن عبّاس: كانوا ثمانين نفساً معهم نساؤهم وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفساً. وقيل كانوا عشرة.

وقيل إنما كانوا نوحاً وبنيه الثلاثة وكنائنه الأربع بامرأة «يام» الذي انخزل وانعزل وسلل عن طريق النجاة فما عدل إذ عدل.

وهذا القول فيه مخالفة لظاهر الآية بل هي نص في أنه قد ركب معه غير أهله طائفة ممن آمن به كما قال: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الشعراء: الآية ١١٨] وقيل كانوا سبعة.

وأما امرأة نوح وهي أم أولاده كلهم: وهم حام وسام ويافث ويام وتسميه أهل الكتاب كنعان وهو الذي قد غرق «وعابر» فقد ماتت قبل الطوفان. وقيل إنها غرقت مع من غرق وكانت[1] ممن سبق عليه القول لكفرها.

وعند أهل الكتاب أنها كانت في السفينة فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك أو أنها أنظرت ليوم القيامة والظاهر الأول لقوله: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: الآية ٢٦].

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ٢٨ـ ٢٩] أمره أن يحمد ربه على ما سخّر له من هذه السفينة فنجّاه بها وفتح بينه وبين قومه وأقرّ عينه ممن خالفه وكذّبه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: الآيات ١٢ـ ١٤].

وهكذا يؤمر بالدعاء في ابتداء الأمور: أن يكون على الخير والبركة وأن تكون عاقبتها محمودة كما قال تعالى لرسوله ﷺ حين هاجر: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء: الآية ٨٠].

وقد امتثل نوح عليه السلام هذه الوصية ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود: الآية ٤١] أي على اسم الله ابتداء سيرها وانتهاؤه ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ أي وذو عقاب أليم مع كونه غفوراً رحيماً لا يُردّ بأسه عن القوم المجرمين كما أحلّ بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره.

قال الله تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود: الآية ٤٢]. وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطراً لم تعهده الأرض قبله، ولا تمطره بعده، كان كأفواه القُرَب. وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها كما قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر: الآيات ١٠ـ ١٣]. والدسر المسامير ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بحفظنا وكلاءتنا وحراستنا

(١) في ط: وكان.

ومشاهدتنا لها ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾.

وقد ذكر ابن جرير وغيره: أن الطوفان كان في ثالث عشر من شهر آب في حساب القبط.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: الآية ١١] أي السفينة ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: الآية ١٢].

قال بعض[١] المفسّرين: ارتفع الماء على أعلى جبل، الأرض خمسة عشر ذراعاً وهو الذي عند أهل الكتاب[٢]، وقيل: ثمانين ذراعاً وعمّ جميع الأرض طولها والعرض سهلها وحزنها وجبالها وقفارها ورمالها. ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف. ولا صغير ولا كبير.

قال الإمام مالك عن زيد بن أَسْلَم: كان أهل ذلك الزمان قد ملأو السهل والجبل. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لم تكن بقعة في الأرض إلاّ ولها مالك وحائز.

رواهما ابن أبي حَاتم.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: الآيتان ٤٢ ـ ٤٣] وهذا الابن هو «يام» أخو سام وحام ويافث. وقيل اسمه «كنعان». وكان كافراً عمل عملاً غير صالح فخالف أباه في دينه ومذهبه فهلك مع من هلك. هذا وقد نجا مع أبيه الأجانب في النسب لمّا كانوا موافقين في الدين والمذهب.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: الآية ٤٤].

أي لما فرغ من أهل الأرض ولم يبق منها أحد ممن عبد غير الله عزّ وجلّ أمر الله الأرض أن تبلع ماءها وأمر السماء أن تقلع أي تمسك عن المطر وَغِيْضَ المَاءُ أي نقص عما كان ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي وقع بهم الذي كان قد سبق في علمه وقدره من إحلاله بهم ما حل بهم.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أي نودي عليهم بلسان القدرة بعداً لهم من الرحمة والمغفرة.

كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف: الآية ٦٤] وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: الآية ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٧٧] وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾ [الشعراء: الآيات ١١٩ ـ ١٢٢].

---

(١) في ط: جماعة من.

(٢) كذا جاء في التوراة.

وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: الآية ١٥]
وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الصافات: الآية ٨٢].

وقال: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: الآيات ١٥ـ١٧].

وقال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: الآيات ٢٥ـ٢٧] وقد استجاب الله تعالى وله الحمد والمنة دعوته فلم يبق منهم عين تطرف.

وقد روى الإمامان أبو جعفر بن جرير وأبو محمد بن أبي حَاتِم في تفسيريهما من طريق يعقوب بن محمد الزُّهْرِي عن فَائِدٍ مولى عبد الله بن أبي رَافِع أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي رَبِيعَةَ أخبره أن عائشة أم المؤمنين أخبرته أن رسول الله ﷺ قال: «فَلَوْ رَحِمَ اللَّهُ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ أَحَداً لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ» قال رسول الله ﷺ: «مَكَثَ عَلَيْهِ السَّلامُ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ (يَعْنِي إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً) وَغَرَسَ مَائَةَ سَنَةٍ الشَّجَرَ فَعَظُمَتْ وَذَهَبَتْ كُلَّ مَذْهَبٍ ثُمَّ قَطَعَهَا ثُمَّ جَعَلَهَا سَفِينَةً وَيَمُرُّونَ عَلَيْهِ وَيَسْخَرُونَ مِنْهُ وَيَقُولُونَ: تَعْمَلُ سَفِينَةً فِي الْبَرِّ كَيْفَ تَجْرِي؟ قَالَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ». فَلَمَّا فَرَغَ وَنَبَعَ الْمَاءُ وَصَارَ فِي السِّكَكِ خَشِيَتْ أُمُّ الصَّبِيِّ عَلَيْهِ وَكَانَتْ تُحِبُّهُ حُبّاً شَدِيداً خَرَجَتْ بِهِ إِلَى الْجَبَلِ حَتَّى بَلَغَتْ ثُلُثَهُ فَلَمَّا بَلَغَهَا الْمَاءُ خَرَجَتْ حَتَّى اسْتَوَتْ عَلَى الْجَبَلِ. فَلَمَّا بَلَغَ الْمَاءُ رَقَبَتَهَا رَفَعَتْهُ بِيَدَيْهَا فَغَرِقَا فَلَوْ رَحِمَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَحَداً لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ».

وهذا حديث غريب، وقد رُوِيَ عن كعب الأحبار ومجاهد وغير واحد شبيه لهذه القصة. وأحرى بهذا الحديث أن يكون موقوفاً متلقى عن مثل كعب الأحبار والله أعلم.

والمقصود أن الله لم يُبْقِ من الكافرين دياراً.

فكيف يزعم بعض المفسرين أن عُوجَ بن عَنَق ويقال ابن عِنَاق كان موجوداً من قبل نوح إلى زمان موسى ويقولون كان كافراً متمرداً جباراً عنيداً ويقولون كان لغير رشدة بل ولدته أمه عنق بنت آدم من زنا، وإنه كان يأخذ من طوله السمك من قرار البحار ويشويه في عين الشمس وإنه كان يقول لنوح وهو في السفينة: ما هذه القُصَيْعَة[1] التي لك ويستهزىء به. ويذكرون أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاث مائة وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلثاً إلى غير ذلك من الهذيانات التي لولا أنها مسطّرة في كثير من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس لما تعرضنا لحكايتها لسقاطتها وركاكتها. ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول.

أما المعقول: فكيف يسوغ[2] فيه أن يهلك الله ولد نوح لكفره وأبوه نبي الأمة وزعيم أهل الإيمان ولا يهلك عوج بن عنق ويقال عناق وهو أظلم وأطغى على ما ذكروا.

وكيف لا يرحم الله منهم أحداً ولا أم الصبي ولا الصبي ويترك هذا الدعيّ الجبّار العنيد

(١) القصيعة: تصغير القصعة، وهي الصفحة. (٢) يسوغ: يجوز.

الفاجر الشديد الكافر الشيطان المريد على ما ذكروا؟.

وأما المنقول فقد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ وَقَالَ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: الآية ٢٦]. ثم هذا الطول الذي ذكروه مخالف لما [ثبت][١] في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعاً ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ»[٢].

فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ أنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن. أي لم يزل الناس في نقصان في طولهم من آدم إلى يوم إخباره بذلك. وهلم جراً إلى يوم القيامة.

وهذا يقتضي أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه، فكيف يترك هذا ويذهل عنه[٣] ويصار إلى أقوال الكَذَبَة الكَفَرَة من أهل الكتاب الذين بدّلوا كتب الله المنزلة وحرفوها وأوّلوها ووضعوها على غير مواضعها، فما ظنّك بما هم يستقلّون بنقله أو يؤتمنون عليه، وما أظنّ أنّ هذا الخبر عن عوج بن عناق إلاّ اختلاقاً من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء والله أعلم.

ثم ذكر الله تعالى مناشدة نوح ربّه في ولده وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف، ووَجْه السؤال: أنك وعدتني بنجاة أهلي معي، وهو منهم، وقد غرق؟.

فأجيب بأنه ليس من أهلك أي الذين وعدت بنجاتهم أي أما قلنا لك: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بأن سيغرق بكفره، ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان.

ثم قال تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: الآية ٤٨] هذا أمر لنوح عليه السلام لـمّا نضب الماء عن وجه الأرض وأمكن السعي فيها والاستقرار عليها أن يهبط من السفينة التي كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر «جبل الجودي». وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور، وقد قدّمنا ذكره عند خلق الجبال ﴿بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ﴾ أي اهبط سالماً مباركاً عليك وعلى أمم ممن سيولد بعد أي من أولادك فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلاً ولا عقباً سوى نوح عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: الآية ٧٧] فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم: «سام وحام ويافث».

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة عن الحسن عن سَمُرَةَ أنّ

---

(١) سقط في ط.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ١، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها حديث ٢٨، وأحمد في المسند ٢/٣١٥.

(٣) يذهل عنه: ينساه.

النبي ﷺ قال: «سَامُ أَبُو العَرَبِ وَحَامُ أَبُو الحَبَشِ وَيَافِثُ أَبُو الرُّومِ»[(١)].

ورواه الترمذيّ عن بشر بن معاذ العَقَدِيّ عن يَزِيد بن زُرَيْع عن سعيدِ بن أبي عَرُوبَةَ عن قَتَادَةَ عن الحسن عن سَمُرَةَ مرفوعاً نحوه.

وقال الشيخ أبو عمرو بن عبد البرّ وقد روى عن عِمْرَان بن حُصَيْن عن النبي ﷺ مثله. قال: والمراد بالروم هنا الروم الأول وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن لبطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام.

ثم روي من حديث إسماعيل بن عَيَّاش عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المُسَيَّب أنه قال: ولد نوح ثلاثة: سام ويافث وحام وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة فولد سام: العرب وفارس والروم. وولد يافث: الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج وولد حام: القبط والسودان والبربر.

قلت: وقد قال الحافظ أبو بكر البزّار في مسنده: حدثنا إبراهيم بن هانىء وأحمد بن حسين بن عبّاد أبو العبّاس قالا: حدّثنا محمد بن يزيد بن سِنَان الرّهَاوِيّ حدثني أبي عن يحيى بن سَعِيدٍ عن سعيدِ بن المُسَيِّبِ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «وُلِدَ لِنُوحٍ سَامٌ وَحَامٌ وَيَافِثٌ فَوُلِدَ لِسَام العَرَبُ وَفَارِسُ وَالرُّومُ وَالخَيْرُ فِيهِمْ. وَوُلِدَ لِيَافِثَ: يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَالتُّرْكُ والصقالبة وَلاَ خَيْرَ فِيهِمْ. وَوُلِدَ لِحَامِ القِبْطُ وَالبَرْبَرُ وَالسُّودَانُ».

ثم قال: لا نعلم يروى مرفوعاً إلاّ من هذا الوجه. تفرّد به محمد بن يزيد بن سِنَانٍ عن أبيه وقد حدّث عنه جماعة من أهل العلم، واحتملوا حديثه. ورواه غيره عن يحيى بن سَعِيدٍ مرسلاً ولم يسنده وإنما جعله من قول سعيد.

قلت: وهذا الذي ذكره أبو عمرو هو المحفوظ عن سعيد قوله: وهكذا رُوِيَ عن وَهْبِ بن مُنَبِّهٍ مثله والله أعلم. ويزيد بن سِنَانٍ أبو فَرْوَةَ الرَّهَاوِي ضعيف بمرّة لا يعتمد عليه.

وقد قيل: إن نوحاً عليه السلام لم يولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد إلاّ بعد الطوفان وإنما ولد له قبل السفينة: «كنعان» الذي غرق و «عابر» مات قبل الطوفان.

والصحيح أن الأولاد الثلاثة كانوا معه في السفينة هم ونساؤهم وأمهم وهو نص التوراة. وقد ذكر أن «حاماً» واقع امرأته في السفينة فدعا عليه نوح أن تشوه خلقة نطفته فولد له ولد أسود وهو كنعان بن حام جد السودان. وقيل بل رأى أباه نائماً وقد بدت عورته فلم يسترها وسترها أخواه فلهذا دعا عليه أن تغيّر نطفته وأن يكون أولاده عبيداً لإخوته.

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير من طريق علي بن زيد بن جَدْعَانَ عن يوسف بن مِهْرَانَ عن ابن عباس أنه قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها. قال: فانطلق بهم حتى أتى إلى كثيب[(٢)] من تراب فأخذ كفاً من ذلك التراب بكفه قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا كعب حام بن نوح. قال: وضرب الكثيب

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن، باب ٣٨، من سورة الصافات، وأحمد في المسند ٥/٩، ١٠.
(٢) الكثيب: التل من الرمل.

بعصاه وقال: قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب. فقال له عيسى عليه السلام: هكذا كَهِلْتَ! قال: لا ولكني مت وأنا شاب ولكني ظننت أنها الساعة فمن ثمّ شبت.

قال: حدّثنا عن سفينة نوح. قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات فطبقة فيها الدواب والوحش وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير. فلّما كثر أرواث الدواب أوحى الله عزّ وجلّ إلى نوح عليه السلام: أن أغمز[1] ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث، ولما وقع الفار يخرز السفينة بقرضه أوحى الله عزّ وجلّ إلى نوح عليه السلام أن اضرب بين عيني الأسد فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفار. فقال له عيسى: كيف علم نوح عليه السلام أن البلاد قد غرقت قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت.

قال: ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجلها فعلم أن البلاد قد غرقت فطوقها الخضرة التي في عنقها ودعا لها أن تكون في أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت. قال فقالوا: يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدّثنا قال كيف يتبعكم من لا رزق له. قال: فقال له عد بإذن الله فعاد تراباً وهذا أثر غريب جداً.

وروى عَلْبَاءُ[2] بن أَحْمَرَ عن عِكْرِمَةَ عن ابن عباس قال: كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوهم وإنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يوماً وإن الله وجّه السفينة إلى مكّة فدارت بالبيت أربعين يوماً ثم وجّهها إلى «الجودي»[3] فاستقرت عليه، فبعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه، فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطّخت رجليها بالطين، فعرف نوح أن الماء قد نضب فهبط إلى أسفل الجودي فابتنى قرية وسمّاها ثمانين فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة إحداها العربية وكان بعضهم لا يفقه كلام بعض فكان نوح عليه السلام يعبّر عنهم.

وقال قتادة وغيره: ركبوا في السفينة في اليوم العاشر من شهر رجب فساروا مائة وخمسين يوماً واستقرّت بهم على الجودي شهراً. وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم. وقد روى ابن جرير خبراً مرفوعاً يوافق هذا وأنهم صاموا يومهم ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو جعفر حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأَزْدِي عن أبيه حبيب بن عبد الله عن شِبْلٍ عن أبي هريرة قال: مرّ النبي ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال: «مَا هَذَا الصَّوْمُ»؟ فقالوا: هذَا اليومُ الذي نجّا الله موسى وبني إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون، وهذا يوم استوتْ فيه السفينةُ على الجودي فصام نوح وموسى

(١) غمز: نخس.

(٢) في الأصل: علي. وهو تحريف، وعلباء، بكسر أوله وسكون اللام بعدها موحدة ومدّ. صدوق من القراء. التقريب ٢/ ٣٠.

(٣) الجودي: جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام.

عليهما السلام شكراً لله عزّ وجلّ، فقال النبي ﷺ: «أَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى وَأَحَقُّ بِصَوْمِ هَذَا اليَوْمِ» وقال لأصحابه: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ أَصْبَحَ صَائِماً فَلْيَتِمَّ صَوْمَهُ وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ قَدْ أَصَابَ مِنْ غَدَاءِ أَهْلِهِ فَلْيَتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ»(١).

وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من وجه آخر والمستغرب ذكر نوح أيضاً والله أعلم. وأما ما يذكره كثير من الجهلة أنهم أكلوا من فضول أزوادهم ومن حبوب كانت معهم قد استصحبوها وطحنوا الحبوب يومئذٍ واكتحلوا بالإثمد(٢) لتقوية أبصارهم لمّا انهارت من الضياء بعد ما كانوا في ظلمة السفينة فكل هذا لا يصحّ فيه شيء، وإنما يذكر فيه آثار منقطعة عن بني إسرائيل لا يُعتَمد عليها ولا يُقْتَدَى بها والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكف ذلك الطوفان أرسل ريحاً على وجه الأرض فسكن الماء وانسدّت ينابيع لأرض فجعل الماء ينقص ويغيض(٣) ويُدْبر وكان استواء الفلك [على الجودي](٤) فيما يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشر ليلة مضت منه، وفي أول يوم من الشهر العاشر رُئِيَت رؤوس الجبال. فلما مضى بعد ذلك أربعون يوماً فتح نوح كوة الفُلْك التي صنع فيها، ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء، فلم يرجع إليه، فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم تجد لرجلها موضعاً، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها، ثم مضت سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له ما فعل الماء فلم ترجع، فرجعت حين أمست وفي فيها ورق زيتونة، فعلم نوح أن الماء قد قلّ عن وجه الأرض. ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع إليه فعلم نوح أن الأرض قد برزت فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنين برز وجه الأرض وظهر البرّ وكشف نوح غطاء الفُلْك.

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق هو بعينه مضمون سياق التوراة التي بأيدي أهل الكتاب.

قال ابن إسحاق: وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين في ست وعشرين ليلة منه ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: الآية ٤٨].

وفيما ذكر أهل الكتاب أَنَّ الله كلّم نوحاً قائلاً له: أخرج من الفُلْك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك وجميع الدواب التي معك ولينموا وليكثروا(٥) في الأرض، فخرجوا وابتنى نوح مذبحاً لله عزّ وجلّ وأخذ من جميع الدواب الحلال والطير الحلال فذبحها قرباناً إلى الله عزّ وجّل، وعهد الله إليه أن لا يعيد الطوفان على أهل الأرض. وجعل تذكاراً لميثاقه إليه القوس الذي في الغمام وهو قوس قزح الذي قدّمنا عن ابن عبّاس أنه أمان من الغرق. قال بعضهم: فيه

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/٣٥٩، ٣٦٠.
(٢) الإثمد: حجر الكحل.
(٣) يغيض: يقل وينقص.
(٤) سقط في ط.
(٥) في ط: وليكبروا.

إشارة إلى أنه قوس بلا وتر أي أن هذا الغمام لا يوجد طوفان كأول مرة.

وقد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان واعترف به آخرون منهم، وقالوا: إنّما كان بأرض بابل ولم يصل إلينا. قالوا ولم نزل نتوارث الملك كابراً عن كابر من لدن كيومرث يعنون آدم إلى زماننا هذا.

وهذا قاله من قاله من زنادقة المجوس عبّاد النيران وأتباع الشيطان.

وهذه سفسطة[١] منهم وكفرٌ فظيعٌ وجهلٌ بليغٌ ومكابرةٌ للمحسوسات وتكذيب لرب الأرض والسموات.

وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن مع تواتر عند الناس في سائر الأزمان على وقوع الطوفان، وأنه عم جميع البلاد ولم يبق الله أحداً من كفرة العباد استجابة لدعوة نبيه المؤيّد المعصوم، وتنفيذاً لما سبق في القدر المحتوم.

ذكر شيء من أخبار نوح [نفسه][٢] عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝﴾. قيل: إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كلّه. وقال الإمام أحمد: حدّثنا أبو أسامة حدثنا زكريّا بن أبي زَائِدَة عن سَعِيدِ بن أبي بُرْدَةَ عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»[٣].

وكذا رواه مُسلم والترمذيّ والنِسائي من حديث أبي أُسَامَةَ.

والظاهر أنّ الشكور هو الذي يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية فإنّ الشكر يكون بهذا وبهذا كما قال الشاعر [الطويل]:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلاثَةً ... يَدِيَ وِلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا[٤]

[ذكر][٥] صومه عليه السلام

وقال ابن ماجه: «باب صيام نوح عليه السلام» حدّثنا سَهْلُ بن أبي سَهْلٍ حدثنا سعيدُ ابن أبي مَرْيَمَ عن ابن لَهِيْعَةَ عن جعفر بن ربيعة عن أبي فِرَاسٍ أنه سمع عبد الله بن عَمْرو يقول سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «صَامَ نُوحٌ الدَّهْرَ إِلاَّ يَوْمَ عِيدِ الفِطْرِ وَيَوْمَ الأَضْحَى»[٦] هكذا رواه ابن ماجه من طريق عبد الله بن لَهِيْعَةَ بإسناده ولفظه.

وقد قال الطبراني: حدثنا أبو الزِّنْبَاعِ رَوْحِ بن فَرَجٍ، حدثنا عَمْرُو بن خَالِدِ الحَرَّانِي حدثنا

---

(١) سفسطة: قياس وهمي باطل غايته إسكات الخصم.

(٢) سقط في ط.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء حديث ٨٩، والترمذي في الأطعمة باب ١٨، وأحمد في المسند ٣/١١٧.

(٤) الضمير المحجبا: أي المستور الخفي.

(٥) سقط في ط.

(٦) أخرجه ابن ماجة في الصيام، باب ٣٢.

ابنُ لَهِيْعَةَ عن أبي قَتَادَة عن يزيد بن رَبَاح أبي فِرَاسٍ أنه سمع عبد الله بن عَمْرٍو يقول: سمعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقول: «صَامَ نُوحُ الدَّهْرَ إِلاَّ يَوْمَ الفِطْرِ وَالأَضْحَى، وَصَامَ دَاوُدَ نِصْفَ الدَّهْرِ وَصَامَ إِبْرَاهِيمُ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ صَامَ الدَّهْرَ وَأَفْطَرَ الدَّهْرَ».

[ذكر][1] حجه عليه السلام

وقال الحافظ أبو يَعْلَى: حدثنا سفيانُ بن وَكِيعٍ حدثنا أُبَيّ عن زُمْعة هو ابن أبي صالح عن سَلَمَةَ بن وَهْرَامَ عن عِكْرِمَةَ عن ابن عبّاس قال: حجَّ رسولُ اللّهِ ﷺ فلما أَتَى وادي عَسْفَانَ قال: «يَا أَبَا بَكْرٍ أَيُّ وادٍ هَذَا» قال: هذا وادِي عَسْفَانَ. قال: «لَقَدْ مَرَّ بِهَذَا الوَادِي نُوحٌ وَهُودٌ وَإِبْرَاهِيمُ عَلَى بَكَرَاتٍ[2] لَهُمْ حُمُرٍ خُطُمُهُمُ[3] اللِّيفُ أُزُرُهُمُ العِبَاءُ وَأَرْدِيَتُهُمُ النِّمَارُ يَحُجُّونَ البَيْتَ العَتِيقَ»[4]. فيه غرابة.

وصيته لولده عليه السلام

قال الإمام أحمدُ: حدثنا سليمانُ بن حَرْبٍ حدثنا، حمّادُ بن زيدٍ عن الصَّقْعَبِ بن زُهَيْرٍ عن زيد بن أَسْلَمَ قال حَمّادُ: أظنُّه عن عَطَاءِ بن يَسَّارٍ عن عبد الله بن عَمْرٍو وقال: كنا عندَ رسولِ اللّهِ ﷺ فجاءَ رجلٌ من أهلِ الباديةِ وعليه جُبَّةُ سِيْجَانَ مزرورةٌ بالديباجِ فقال: «ألا إن صاحبَكم هذا قد وضع كُلَّ فارس ابن فارس أو قال يريد أن يضعَ كل فارس ابن فارس ورفع كل راع ابن راع». قال: فأخذ رسولُ الله ﷺ بمجامِعِ جُبَّتِهِ وقال: «لاَ أَرَى عَلَيْكَ لِبَاسَ مَنْ لاَ يَعْقِلُ». ثم قال: «إِنَّ نَبِيَّ اللّهِ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلاَمُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ قَالَ لابْنِهِ إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الوَصِيَّةَ، آمُرُكَ بِاثْنَتَيْنِ وَأَنْهَاكَ عَنْ اثْنَتَيْنِ آمُرُكَ بلا إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالأَرْضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ فِي كِفَّةٍ رَجَحَتْ بِهِنَّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالأَرْضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً فَصَمَتْهُنَّ لا إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ وَسُبْحَانَ اللّهِ وَبِحَمْدِهِ فَإِنَّ بِهَا صِلاَتُ كُلِّ شَيْءٍ وَبِهَا يُرْزَقُ الخلائق[4] وَأَنْهَاكَ عَنِ الشِّرْكِ وَالكِبْرِ» قال: قلتُ (أو) قيلَ: يا رسول الله هذا الشركُ قد عرفناهُ فما الكِبْرُ أن يكونَ لأحدنا نعلانِ حسنانِ لهما شِرَاكان[5] حَسَنَان قال: «لاَ». قال: هُوَ أَنْ يَكُونَ لأحدنَا حُلَّةٌ يلبسُها قال: «لاَ». قال: هو أن يكونَ لأحدنا دابةٌ يركبُها قال: «لاَ». قال هو أن يكونَ لأحدنا أصحابٌ يجلسون إليه قال: «لاَ»، قلت: أو قيل يا رسول الله! فما الكِبْرُ قال: «سَفَهُ الحَقِّ وغَمْطُ[6] النَّاسِ»[7]. وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه.

ورواه أبو القاسم الطَّبَرَانِي من حديث عبد الرحيم بن سُلَيْمان عن محمد بن إسحاق عن عَمْرو بن دِينَارَ عن عبد الله بن عَمْرٍو أنَّ رسول الله ﷺ قال: «كَانَ فِي وَصِيَّةِ نُوحٍ لابْنِهِ أُوصِيكَ بِخِصْلَتَيْنِ وَأَنْهَاكَ عَنْ خِصْلَتَيْنِ» فذكر نحوه.

---

(١) سقط في ط.
(٢) البكرة: الفتية من الإبل.
(٣) الخطم: كل ما وضع في أنف البعير ليقتاد به.
(٤) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٣٢.
(٥) الشراك: حبل النعل.
(٦) غمط: ازدراء.
(٧) أخرجه أحمد في المسند ٢/١٦٩، ١٧٠.

وقد رواه أبو بكر البزّار عن إبراهيم بن سعيد عن أبي معاويةِ الضَّرير عن محمد بن إسحاق عن عَمْرو بن دِينَارٍ عن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن النبيّ ﷺ بنحوه. والظاهر أنه عن عبد الله بن عَمْرو بن العَاصِ كما رواه أحمد والطَّبَرَاني والله أعلم.

ويزعم أهل الكتاب أن نوحاً عليه السلام لما ركب السفينة كان عمره ستمائة سنة. وقدمنا عن ابن عبّاس مثله، وزاد وعاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة. وفي هذا القول نظر. ثم إن[1] لم يمكن الجمع بينه وبين دلالة القرآن فهو خطأ محض فإنَّ القرآن يقتضي أن نوحاً مكث في قومه بعد البعثة وقبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون. ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك.

فإن كان ما ذكر محفوظاً عن ابن عباس من أنه بعث وله أربع مائة وثمانون سنة وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة.

وأما قبره عليه السلام: فروى ابن جرير والأزرقي عن عبد الرحمن بن سابط أو غيره من التابعين مرسلاً أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام.

وهذا أقوى وأثبت من الذي يذكره كثير من المتأخرين من أنه ببلدة بالبقاع تعرف اليوم بكرك نوح[2] وهناك جامع قد بني بسبب ذلك فيما ذكر والله أعلم.

قصة هود عليه السلام

وهو هود بن شالخ بن إرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام. ويقال إن هوداً هو عابر بن شالخ بن إرفخشذ بن سام بن نوح. ويقال هود بن عبد الله بن رباح بن الجارود بن عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. ذكره ابن جرير.

وكان من قبيلة يقال لهم: عاد بن عوص بن سام بن نوح وكانوا عرباً يسكنون الأحقاف[3] وهي جبال الرمل، وكانت باليمن من عُمَان وحَضْرَمُوت بأرض مطلة على البحر يقال لها: «الشحر» واسم واديهم «مغيث». وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝﴾ [الفجر: الآيتان ٦ ـ ٧] أي عاد إرم وهم عاد الأولى. وأما عاد الثانية فمتأخرة كما سيأتي بيان ذلك في موضعه. وأما عاد الأولى فهم عاد ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝﴾ [الفجر: الآيتان: ٧ ـ ٨] أي مثل القبيلة. وقيل مثل العمد. والصحيح الأول كما بيّناه في التفسير.

ومن زعم أن إرم مدينة تدور في الأرض فتارة في الشام وتارة في اليمن وتارة في الحجاز وتارة في غيرها فقد أبعد النجعة[4] وقال ما لا دليل عليه ولا برهان يعول عليه ولا مستند يركن إليه.

(١) في ط: إذا.
(٢) كرك نوح: بلدة في البقاع اللبناني، تبعد عن زحلة حوالي ٢ كلم.
(٣) الحقف: المعوجّ من الرمل، أو الرمل العظيم المستدير.
(٤) النجعة: طلب الكلأ.

وفي صحيح ابن حبان عن أبي ذرّ في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه: «مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ مِنَ العَرَبِ هُودُ وَصَالِحٌ وَشُعَيْبٌ وَنَبِيُّكَ يَا أَبَا ذَرٍّ». ويقال: إن هوداً عليه السلام أول من تكلم بالعربية. وزعم وَهْبُ بن مُنَبِّه أن أباه أول من تكلّم بها. وقال غيره: أول من تكلم بها نوح. وقيل: آدم وهو الأشبه. وقيل: غير ذلك والله أعلم.

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام: العرب العاربة. وهم قبائل كثيرة: منهم: عاد، وثمود، وجرهم، وطسم، وجديس، وأميم، ومدين، وعملاق، وعبيل، وجاسم، وقحطان، وبنو يقطن، وغيرهم.

وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل. وكان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أول من تكلّم بالعربية الفصيحة البليغة. وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى، ولكن أنطقه الله بها في غاية الفصاحة والبيان. وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله ﷺ.

والمقصود أن عاداً وهو عاد الأولى كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان. وكان أصنامهم ثلاثة: صدا، وصمودا، هرا.

فبعث الله فيهم أخاهم هوداً عليه السلام فدعاهم إلى الله كما قال تعالى بعد ذكر قوم نوح وما كان من أمرهم في سورة الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٦٥ـ ٧٢].

وقال تعالى بعد ذكر قصة نوح في سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟

أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود: الآيات ٥٠ـ ٦٠].

وقال تعالى في سورة «قد أفلح المؤمنون» بعد قصة قوم نوح: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون: الآيات ٣١ـ ٤١].

وقال تعالى في سورة الشعراء بعد قصة قوم نوح أيضاً: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ [الشعراء: الآيات ١٢٣ـ ١٤٠].

وقال تعالى في سورة حم السجدة: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت: الآيتان ١٥ـ ١٦].

وقال تعالى في سورة الأحقاف: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: الآيات ٢١ـ ٢٥].

وقال تعالى في الذاريات: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: الآيتان ٤١ـ ٤٢] وقال تعالى في النجم: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [النجم: الآيات ٥٠ـ ٥٥].

وقال تعالى في سورة اقتربت: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا

صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [القمر: الآيات ١٨ـ ٢٢].

وقال في الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: الآيات ٦ـ ٨].

وقال في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: الآيات ٦ـ ١٤].

وقد تكلّمنا على كل من هذه القصص في أماكنها من كتابنا التفسير ولله الحمد والمنّة.

وقد جرى ذكر عاد في سورة براءة وإبراهيم والفرقان والعنكبوت وفي سورة (ص) وفي سورة (ق).

ولنذكر مضمون القصّة مجموعاً من هذه السياقات مع ما يضاف إلى ذلك من الأخبار.

وقد قدمنا أنهم أول الأمم عبدوا الأصنام بعد الطوفان. وذلك بين في قوله لهم: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: الآية ٦٩] أي جعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش.

وقال في المؤمنون: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٣١] وهم قوم هود على الصحيح.

وزعم آخرون أنهم ثمود لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ [المؤمنون: الآية ٤١] قالوا وقوم صالح هم الذين أهلكوا بالصيحة ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ [الحاقة: الآية ٦] وهذا الذي قالوه لا يمنع من اجتماع الصيحة والريح العاتية عليهم كما سيأتي في قصّة أهل مدين أصحاب الأيكة فإنه اجتمع عليهم أنواع من العقوبات. ثم لا خلاف أن عاداً قبل ثمود.

والمقصود أن عاداً كانوا عرباً جفاة كافرين عتاة متمردين في عبادة الأصنام فأرسل الله فيهم رجلاً منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له فكذّبوه وخالفوه وتنقصوه فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

فلما أمرهم بعبادة الله ورغّبهم في طاعته واستغفاره ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة وتوعّدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: الآية ٦٦] أي هذا الأمر الذي تدعونا إليه سفه بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التي يرتجى منها النصر والرزق ومع هذا نظن أنك تكذب في دعواك أن الله أرسلك.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأعراف: الآية ٦٧] أي ليس

الأمر كما تظنون ولا ما تعتقدون ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف: الآية ٦٨] والبلاغ يستلزم عدم الكذب في أصل المبلّغ وعدم الزيادة فيه والنقص منه، ويستلزم إبلاغه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لُبْسَ فيها ولا اختلاف ولا اضطراب.

وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم لا يبتغي منهم أجراً ولا يطلب منهم جعلاً بل هو مخلص لله عزّ وجلّ في الدعوة إليه والنصح لخلقه لا يطلب أجره إلاّ من الذي أرسله، فإن خير الدنيا والآخرة كله في يديه وأمره إليه. ولهذا قال: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [هود: الآية ٥١] أي ما لكم عقل تميزون به وتفهمون أني أدعوكم إلى الحق المبين الذي تشهد به فطركم التي خلقتم عليها وهو دين الحق الذي بعث الله به نوحاً وأهلك من خالفه من الخلق وها أنا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجراً عليه بل أبتغي ذلك عند الله مالك الضر والنفع ولهذا قال مؤمن يس: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [يس: الآيتان ٢١-٢٢].

وقال قوم هود له فيما: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: الآيتان ٥٣-٥٤] يقولون ما جئتنا بخارق يشهد لك بصدق ما جئت به وما نحن بالذين نترك عبادة أصنامنا عن مجرّد قولك بلا دليل أقمته ولا برهان نصبته، وما نظن إلاّ أنك مجنون فيما تزعمه وعندنا إنما أصابك هذا لأن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك في عقلك فاعتراك جنون بسبب ذلك. وهو قولهم: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: الآيتان ٥٤-٥٥].

وهذا تحدّ منه لهم وتبرّ من آلهتهم وتنقص منه لها وبيان أنها لا تنفع شيئاً ولا تضرّ وأنها جماد حكمها حكمه وفعلها فعله. فإن كانت كما تزعمون من أنها تنصر وتنفع وتضر فها أنا بريء منها لاعنٌ لها فَكِيدُونِي ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ أنتم جميعاً بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه ولا تؤخروني ساعة واحدة ولا طرفة عين فإني لا أبالي بكم ولا أفكر فيكم ولا أنظر إليكم ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: الآية ٥٦] أي أنا متوكل على الله ومتأيد به وواثق بجنابه الذي لا يضيع من لاذ به واستند إليه فلست أبالي مخلوقاً سواه، ولست أتوكل إلاّ عليه ولا أعبد إلاّ إياه.

وهذا وحده برهان قاطع على أن هوداً عبد الله ورسوله، وأنهم على جهل وضلال في عبادتهم غير الله لأنهم لم يصلوا إليه بسوء ولا نالوا منه مكروهاً، فدل على صدقه فيما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه.

وهذا الدليل بعينه قد استدلّ به نوح عليه السلام قبله في قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس: الآية ٧١].

وهكذا قال الخليل عليه السلام: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٨٠ـ ٨٣].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المؤمنون: الآيات ٣٣ـ ٣٥] استبعدوا أن يرسل[1] الله رسولاً بشرياً وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديماً وحديثاً كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: الآية ٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: الآيتان ٩٤ـ ٩٥].

لهذا قال لهم هود عليه السلام: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: الآية ٦٣] أي ليس هذا بعجيب فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وقوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ [المؤمنون: الآيات ٣٥ـ ٣٩]. استبعدوا المعاد وانكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها تراباً وعظاماً، وقالوا: هيهات هيهات أي بعيد بعيد هذا الوعد، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي يموت قوم ويحيى آخرون. وهذا هو اعتقاد الدّهرية كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة أرحام تدفع وأرض تبلع.

وأما الدّورية فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى هذه الدار بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة وهذا كلّه كذب وكفر وجهل وضلال وأقوال باطلة وخيال فاسد بلا بُرْهَانٍ وَلاَ دليل يستميل عقل الفجرة الكفرة من بني آدم الذين لا يعقلون ولا يهتدون كما قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ١١٣].

وقال لهم فيما وعظهم به: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ١٢٨ـ ١٢٩] يقول لهم: أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عظيماً هائلاً كالقصور ونحوها تعبثون ببنائها لأنه لا حاجة لكم فيه، وما ذاك إلاّ لأنهم كانوا يسكنون الخيام كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾

---

(١) في ط: يبعث.

[الفجر: الآيات ٦ـ٨] فعاد إرم هم عاد الأولى الذين كانوا يسكنون الأعمدة التي تحت(١) الخيام.

ومن زعم أن إرم مدينة من ذهب وفضة وهي تنتقل في البلاد فقد غلط وأخطأ، وقال ما لا دليل عليه.

وقوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ قيل هي القصور. وقيل بروج الحمام. وقيل مآخذ الماء ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ أي رجاء منكم أن تعمّروا في هذه الدار أعماراً طويلة ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء: الآيات ١٣٠ـ١٣٥].

وقالوا له فيما(٢) قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف: الآية ٧٠] أي أجئتنا لنعبد الله وحده ونخالف آباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه. فإن كنت صادقاً فيما جئت به فأتنا بما تعدنا من العذاب والنكال، فإنّا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدّقك.

كما قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الشعراء: الآيات ١٣٦ـ١٣٨] أما على قراءة فتح الخاء فالمراد به اختلاق الأولين أي أن هذا الذي جئت به إلاّ اختلاق منك وأخذته من كتب الأولين. هكذا فسّره غير واحد من الصحابة والتابعين. وأما على قراءة ضم الخاء واللام فالمراد به الدين أي أن هذا الدين الذي نحن عليه إلاّ دين الآباء والأجداد من الأسلاف(٣) ولن نتحول عنه ولا نتغير ولا نزال متمسكين به.

ويناسب كلا القراءتين الأولى والثانية قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف: الآية ٧١] أي قد استحقيتم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله أتعارضون عبادة الله وحده لا شريك له بعبادة أصنام أنتم نحتموها وسمّيتموها آلهة من تلقاء أنفسكم، اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم ما نزّل الله بها من سلطان، أي لم ينزل على ما ذهبتم إليه دليلاً ولا برهاناً وإذا أبيتم قبول الحق وتماديتم في الباطل، وسواء عليكم أنهيتكم عمّا أنتم فيه أم لا فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم وبأسه الذي لا يُرَدُّ ونكاله الذي لا يُصَدّ.

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٢٦] ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ٤٠ـ٤١].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا

---

(١) في ط: تحمل. (٢) في ط: مما.
(٣) في ط: أسلافنا.

ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: الآيات ٢٢ـ ٢٥].

وقد ذكر الله تعالى خبر إهلاكهم في غير ما آية كما تقدم مجملاً ومفصلاً كقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: الآية ٧٢] وكقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود: الآيات ٥٨ـ ٦٠] وكقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٤١].

وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ١٣٩ـ ١٤٠].

وأما تفصيل إهلاكهم فلما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب أنهم كانوا ممحلين منستين[1] فطلبوا السقيا فرأوا عارضاً[2] في السماء وظنوه سقياً رحمة، فإذا هو سقيا عذاب. ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ أي من وقوع العذاب وهو قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ ومثلها في الأعراف. وقد ذكر المفسّرون وغيرهم ههنا الخبر الذي ذكره الإمام محمد بن إسحاق بن بشّار قال فلما أبوا إلاّ الكفر بالله عزّ وجلّ أمسك عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك قال: وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه إنما يطلبونه بحرمه ومكان بيته، وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان وبه العماليق مقيمون، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وكان سيّدهم إذ ذاك رجلاً يقال له معاوية بن بكر، وكانت أمه من قوم عاد واسمها جلهدة ابنة الخيبري. قال فبعث عاد وفداً قريباً من سبعين رجلاً ليستقوا لهم عند الحرم فمروا بمُعاوِيَةَ بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان قينتان لمُعَاوِيَةَ وكانوا قد وصلوا إليه في شهر. فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعراً فيُعَرِّضُ لهم بالانصراف وأمر القينتين أن تغنيهم به فقال [الوافر]:

ألا يا قيلُ وَيْحَكَ قُمْ فهينم ... لَعَلَّ اللَّهَ يَمْنَحُنا غماما
فيسقي أرضَ عادٍ إنَّ عاداً ... قَدْ أمسَوْا لاَ يُبينُونَ الكَلاَمَا
مِنَ العَطَشِ الشَّديدِ فَلَيْسَ نَرْجُو ... بِهِ الشَّيْخَ الكَبيرُ وَلاَ الغُلاَمَا
وَقَدْ كَانَتْ نِسَاؤُهُمْ بِخَيْرٍ ... فَقَدْ أمسَتْ نِسَاؤُهُمْ أيَامَى[3]

(١) مستنين: أي مجدبين. (٢) العارض: السحاب. (٣) الأيم: المرأة المفارقة زوجها.

وَإِنَّ الـوَحْـشَ يَـأْتِـيـهِـمْ جِـهَـاراً وَلاَ يَـخْـشَـى لِـعَـادِيٍّ سِـهَـامَـا
وَأَنْـتُـمْ هَـهُـنَـا فِـيـمَـا اشْـتَـهَـيْـتُـمْ نَـهَـارُكُـم وَلَـيْـلُـكُـمُ تَـمَـامَـا
فَـقُـبِّـحَ وَفْـدُكُـم مِـنْ وَفْـدِ قَـوْمٍ وَلاَ لُـقُّـوا الـتَّـحِـيَّـةَ وَالـسَّـلاَمَـا

قال فعند ذلك تنبّه القوم لِما جاؤوا له فنهضوا إلى الحرم، ودعوا لقومهم، فدعا داعيهم وهو قيل بن عنز فأنشأ الله سحابات ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه منادٍ من السماء اختر لنفسك لقومك. من هذا السحاب فقال: اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء، فناداه منادٍ اخترت رماداً رمدداً لا تبقي من عاد أحداً. لا والداً يُترك ولا ولداً. إلا جعلته همداً إلا بني اللوذية الهمدا. قال: وهم بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة، فلم يصبهم ما أصاب قومهم، قال: ومن بقي من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة.

قال: وساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل بن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من وادٍ يقال له: المغيث، فلما رأوها استبشروا وقالوا: هذا عارض ممطرنا فيقول تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: الآيتان ٢٤ ـ ٢٥] أي تهلك كل شيء أمرت به.

فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها فهد فلما تبيّنت ما فيها صاحت ثم صعقت. فلما أفاقت قالوا ما رأيت يا فهد قالت رأيت ريحاً فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها فسخّرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، والحسوم الدائمة فلم تدع من عاد أحداً إلاّ هلك. قال واعتزل هود عليه السلام فيما ذكر لي في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ما يصيبهم إلا ما يلين عليهم الجلود وتلتذ الأنفس، وإنها لتمرّ على عاد بالطعن فيما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة. وذكر تمام القصة.

وقد روى الإمام أحمد حديثاً في مسنده يشبه هذه القصّة فقال: حدثنا زيدُ بن الحُبابِ، حدثني أبو المُنْذِرِ سلامُ بن سليمانَ النَّحْوي، حدثنا عاصمُ بن أبي النَّجُودِ عن أبي وَائِلٍ، عن الحارثِ وهو ابن حسان، ويقال: ابن يزيدَ البَكْرِي قال: خرجت أشكو العلاَ بن الحَضْرَمِي إلى رسولِ اللّهِ ﷺ فمررت بالرَّبذة فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت لي يا عباد الله إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة فهل أنت مبلّغي إليه قال فحملتها فأتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله وإذا راية سوداء تخفق وإذا بلال متقلّد السيف بين يدي رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناسِ؟، قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً قال فجلستُ، قال فدخل منزله، أو قال رحله فاستأذنت عليه، فأذن لي فدخلت فسلّمت فقال: «هَلْ كَانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَني تَمِيم شَيْءٌ»؟ فقلت: نعم. وكانت لنا الدَّبَرَة[1] عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها فسألتني أن أحملها إليك وها هي بالباب، فإذن لها فدخلت فقلت يا رسول الله إن رأيتَ أن تجعل بيننا وبين بني تميمٍ حاجزاً فاجعل الدَّهْنَاء فإنها كانت لنا. قال: فحميت العجوز واستوفَزَتْ وقالت يا

---

(١) الدبرة: الهزيمة في القتال.

رسولَ الله، «فإلى أين تضطر مُضَرَكَ» قال فقلت إن مثلي ما قال الأول (معزّى حملت حتفها) حملت هذه الأمَة ولا أشعر أنها كانت لي حضماً أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد، قال: «هِيهِ وَمَا وَافِدُ عَادٍ»: وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه[1].

قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وفداً لهم يقال لهم قيل، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال تهامة، فقال: اللهم إنكَ تعلم أني لم أجيء إلى مريض فأداويه ولا إلى أسير فأفاديه. اللهمّ اسقِ عاداً ما كنت تسقيه فمرّت به سحابات سود فنودي منها: اختر فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: خذها رماداً رمدداً لا تبقي من عاد أحداً. قال فما بلغني أنه بعث عليهم من الريح إلا كقدر ما يجري في خاتمي هذا من الريح حتى هلكوا.

قال أبو وائل وصدق وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وفداً لهم قالوا لا تكن كوافد عاد. وهكذا رواه الترمذي عن عبد بن حَميد عن زَيْدِ بن الحُبَابِ به ورواه النسائي من حديث سلام أبي المُنْذِر عن عَاصِم بن بَهْدَلَةَ، طريقه رواه ابن ماجه. وهكذا أورد هذا الحديث وهذه القصّة عند تفسير هذه القصّة غير واحد من المفسّرين كابن جرير وغيره. وقد يكون هذا السياق لإهلاك عاد الآخرة فإنّ فيما ذكره ابن إسحاق وغيره ذِكْر لمكة ولم تبن إلا بعد إبراهيم الخليل حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل فنزلت جِرْهم عندهم كما سيأتي وعاد الأولى قبل الخليل. وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره، وهو من الشعر المتأخّر عن زمان عاد الأولى لا يشبه كلام المتقدمين. وفيه أن في تلك السحابة شرر نار وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر[2].

وقد قال ابن مسعود، وابن عبّاس وغير واحد من أئمة التابعين: هي الباردة والعاتية الشديدة الهبوب ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: الآية ٧] أي كوامل متتابعات. قيل: كان أولها الجمعة وقيل: الأربعاء ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة: الآية ٧] شبههم بأعجاز النخل التي لا رؤوس لها وذلك لأن الريح كانت تجيء إلى أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس كما قال ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩﴾ [القمر: الآية ١٩] أي في يوم نحس عليهم مستمر عذابه عليهم ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر: الآية ٢٠] ومن قال إن اليوم النحس المستمر هو يوم الأربعاء، وتشاءم به. لهذا الفهم، فقد أخطأ وخالف القرآن، فإنه قال في الآية الأخرى ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: الآية ٦] ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات، فلو كانت نحسات في أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشؤومة وهذا لا يقوله أحد، وإنما المراد في أيام نحسات أي عليهم.

وقال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١﴾ [الذاريات: الآية ٤١] أي التي لا تنتج خيراً

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٤٨٢. وقوله: يستطعمه: أي أغراه أن يحدثه.
(٢) الريح الصرصر: هي الريح الباردة الشديدة.

فإن الريح المفردة لا تنثر سحاباً ولا تلقح شجراً بل هي عقيم لا نتيجة خير لها، ولهذا قال: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات: الآية ٤٢] أي كالشيء البالي الفاني الذي لا يُنْتَفَعُ به بالكلية. وقد ثبت في الصحيحين من حديث شُعْبَةَ عن الحَكَم عن مُجَاهِدٍ عن ابن عَبَّاس عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «نُصِرتُ بالصَّبَا وأُهلِكَتْ عَادُ بالدَّبُورِ»[١]. وأما قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأحقاف: الآية ٢١] فالظاهر أن عاداً هذه هي عاد الأولى فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود وهم الأولى. ويحتمل أن يكون المذكورون في هذه القصة هم عاد الثانية. ويدل عليه ما ذكرنا وما سيأتي من الحديث عن عائشة رضي الله عنها.

وأما قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ فإن عاداً لما رأوا هذا العارض وهو الناشىء في الجو كالسحاب ظنوه سحاب مطر، فإذا هو سحاب عذاب اعتقدوه رحمة فإذا هو نقمة رجوا فيه الخير، فنالوا منه غاية الشر. قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ أي من العذاب. ثم فسّره بقوله: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف: الآية ٢٤].

يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوب، التي استمرت عليهم سبع ليال بأيامها الثمانية، فلم تُبْقِ منهم أحداً بل تتبعهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيران[٢] فتلفّهم وتُخرِجهم وتُهلكهم وتُدمّر عليهم البيوت المحكمة والقصور المشيدة، فكما منوا بقوتهم وشِدّتهم وقالوا من أشدُّ منا قوّة؟ سلّط الله عليهم ما هو أشدّ منهم قوة وأقدر عليهم وهو الريح العقيم. ويحتمل أن هذه الريح أثارت في آخر الأمر سحابة ظن من بقي منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم وغياث لمن بقي منهم فأرسلها الله عليهم شرراً وناراً، كما ذكره غير واحد ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظُّلّة من أهل مَدْيَنَ، وجمع لهم بين الريح الباردة وعذاب النار، وهو أشدّ ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة، مع الصيحة التي ذكرها في سورة قد أفلح المؤمنون والله أعلم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبي، حدثنا محمد بن يحيى بن الضُّرَيسِ، حدثنا ابن فُضَيلٍ عن مُسْلِمٍ عن مجاهدٍ عن ابن عُمَرَ قال قال رسول الله ﷺ: «مَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى عَادٍ مِنَ الرِّيحِ الَّتِي أُهْلِكُوا بِهَا إلاّ مِثْلَ مَوْضِعِ الخَاتِمِ فَمَرَّتْ بِأَهْلِ البَادِيَةِ فَحَمَلَتْهُمْ وَمَوَاشِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَهْلُ الحَاضِرَةِ مِنْ عَادٍ الرِّيحَ، وَمَا فِيهَا» ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ فَأَلْقَتْ أَهْلَ البَادِيَةِ وَمَوَاشِيهِمْ عَلَى أَهْلِ الحَاضِرَةِ».

وقد رواه الطَّبَرَانِي عن عَبْدَانَ بن أَحْمَدَ عن إِسْمَاعِيلَ بن زَكَرِيَّا الكُوفي عن أبي مَالِكٍ عن مُسْلِمٍ المَلاَئِي عن مُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بن جُبَيْرٍ عن ابن عبّاسٍ قال قال رسول الله ﷺ: «مَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى عَادٍ مِنَ الرِّيحِ إلاّ مِثْلَ مَوْضِعِ الخَاتَمِ». ثُم أرسلت عليهم البدو إلى الحضر فلما رآها أهل

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٥، وأحاديث الأنبياء باب ٦، ومسلم في الاستسقاء حديث ١٧، وأحمد في المسند ١/ ٣٢٤.

(٢) الغيران: المغاور.

الحضر ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾ مستقبل أوديتنا، وكان أهل البوادي فيها فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا. قال: «عَتَتْ عَلَى خَزَائِنِهَا حَتَّى خَرَجَتْ مِنْ خِلَالِ الأَبْوَابِ». قلت وقال غيره: خرجت بغير حساب.

والمقصود أن هذا الحديث في رفعه نظر. ثم اختلف فيه على مُسْلِمِ المَلَائِي وفيه نوع اضطراب والله أعلم. وظاهر الآية أنهم رأوا عارضاً، والمفهوم منه لغةً السحاب كما دل عليه حديث الحارثِ بن حَسَّانٍ البَكْرِي، إن جعلناه مفسراً لهذه القصّة. وأصْرَحُ منه في ذلك ما رواه مُسْلِمُ في صحيحه حيث قال: حدثنا أبو الطاهر، حدثنا ابن وَهْبٍ سمعت ابن جُرَيْج يحدثنا عن عَطَاءُ بن أبي رَبَاحٍ، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفتِ الريح قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ» قالت وإذا عبيت[1] السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا أمطرت سرّي عنه، فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال: «لَعَلَّهُ يَا عَائِشَةُ كَمَا قَالَ قَوْمُ عَادٍ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾»[2] رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ابن جُرَيْج.

طريق أخرى. قال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف أنبأنا عبد الله بن وَهْبٍ أنبأنا عَمْرُو وهو ابن الحارث أن أبا النَّضْرِ حدثه عن سُلَيْمَانَ بن يَسَّارٍ عن عائشة أنها قالت: ما رأيتُ رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً قط حتى أرى منه لهواته[3] إنما كان يتبسم. وقالت: كان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه قالت: يا رسول الله: الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية فقال: «يَا عَائِشَةُ مَا يُؤْمِنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ قَدْ عُذِّبَ قَوْمُ نُوحٍ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمُ عاد العَذَابَ، فَقَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا»[4].

وهكذا رواه مسلم عن هارون بن مَعْرُوفٍ وأخرجه البخاري وأبو داود من حديث ابن وَهْبٍ. فهذا الحديث كالصريح في تغاير القصتين كما أشرنا إليه أولاً. فعلى هذا تكون القصة المذكورة في سورة الأحقاف خبراً عن قوم عاد الثانية. وتكون بقية السياقات في القرآن خبراً عن عاد الأولى والله أعلم بالصواب. وقدّمنا حجّ هود عليه السلام عند ذِكْرِ حجّ نوح عليه السلام.

ورُوِيَ عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه ذَكَرَ صفة قبر هود عليه السلام في بلاد اليمن. وذكر آخرون أنه بدمشق وبجامعها مكان في حائطه القبلي يزعم بعض الناس أنه قبر هود عليه السلام والله أعلم.

قصة صالح عليه السلام نبي ثمود

(١) عبيت السماء: انتشرت فيها السحب.
(٢) أخرجه مسلم في الاستسقاء حديث ١٥.
(٣) لهواته: جمع لهاة، وهي قطعة اللحم المدلاة في الحلق.
(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ٥٠، وابن ماجه في الدعاء باب ٢١، وأحمد في المسند ٦/ ٦٦.

وهم قبيلة مشهورة، يقال: ثمود باسم جدهم ثمود أخي جديس، وهما ابنا عابر بن إرم ابن سام بن نوح، وكانوا عرباً من العاربة، يسكنون الحجر الذي بين الحجاز، وتبوك. وقد مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين كما سيأتي بيانه وكانوا بعد قوم عاد وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك، فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو عبد الله ورسوله صالح بن عبد بن ماسح بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن يخلعوا الأصنام والأنداد، ولا يشركوا به شيئاً، فآمنت به طائفة منهم وكفر جمهورهم، ونالوا منه بالمقال والفعال، وهمّوا بقتله، وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجّة عليهم، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٧٣ ـ ٧٩].

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود: الآيات ٦١ ـ ٦٨].

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الحجر: الآيات ٨٠ ـ ٨٤] وقال سبحانه وتعالى في سورة سبحان: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء: الآية ٥٩].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ

﴿١٤٣﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾ [الشعراء: الآيات ١٤١ـ١٥٩].

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل: الآيات ٤٥ـ ٥٣].

وقال تعالى في سورة حم السجدة: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت: الآيتان ١٧ـ ١٨].

وقال تعالى في سورة اقتربت: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾ [القمر: الآية ٢٣ـ ٣٢].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: الآيات ١١ـ ١٥].

وكثيراً ما يقرن الله في كتابه بين ذكر عاد وثمود كما في سورة براءة وإبراهيم والفرقان وسورة ﴿ص﴾ وسورة ﴿ق﴾ و ﴿وَالنَّجْمِ﴾، و ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾﴾. ويقال إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب، وليس لهما ذكر في كتابهم التوراة، ولكن في القرآن ما يدل على أن موسى أخبر عنهما كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [إبراهيم: الآيتان ٨ـ ٩] الآية. الظاهر أن هذا

من تمام كلام موسى مع قومه، ولكن لما كان هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيداً ولا اعتنوا بحفظه وإن كان خبرهما كان مشهوراً في زمان موسى عليه السلام. وقد تكلّمنا على هذا كلّه في التفسير متقصياً ولله الحمد والمنة.

والمقصود الآن ذكر قصتهم وما كان من أمرهم وكيف نجى الله نبيه صالحاً عليه السلام ومن آمن به وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوهم ومخالفتهم رسولهم عليه السلام. وقد قدمنا أنهم كانوا عرباً، وكانوا بعد عاد، ولم يعتبروا بما كان من أمرهم. ولهذا قال لهم نبيهم عليه السلام: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ٧٣-٧٤] أي إنما جعلكم خلفاء من بعدهم لتعتبروا بما كان أمرهم وتعملوا بخلاف عملهم وأباح لكم هذه الأرض تبنون في سهولها القصور ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ أي حاذقين في صنعتها وإتقانها وإحكامها، فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح والعبادة له وحده لا شريك له وإياكم ومخالفته والعدول عن طاعته فإن عاقبة ذلك وخيمة ولهذا وعظهم بقوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [الشعراء: الآيات ١٤٦-١٤٨] أي متراكم كثير حسن بهي ناضج ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الشعراء: الآيات ١٤٩-١٥٢] وقال لهم أيضاً: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: الآية ٦١] أي هو الذي خلقكم فأنشأكم من الأرض وجعلكم عمارها أي أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار وهو[1] الخالق الرزاق فهو الذي يستحق العبادة وحده لا سواه ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: الآية ٦١] أي أقلعوا عما أنتم فيه وأقبلوا على عبادته فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا﴾ [هود: الآيتان ٦١-٦٢] أي قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملاً قبل هذه المقالة، وهي دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة وترك ما كنا نعبده من الأنداد والعدول عن دين الآباء والأجداد. ولهذا قالوا: ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ [هود: الآيتان ٦٢-٦٣].

وهذا تلطّف منه لهم في العبارة ولين الجانب وحسن تأتٍ في الدعوة لهم إلى الخير أي فما ظنّكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه، ماذا يكون عذركم عند الله؟ وماذا يخلصكم بين يديه وأنتم تطلبون مني أن أترك دعاءكم إلى طاعته، وأنا لا يمكنني هذا لأنه واجب عليّ ولو تركته لما قدر أحد منكم، ولا من غيركم أن يجيرني منه، ولا ينصرني. فأنا

---

(١) في ط: فهو.

لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له حتى يحكم الله بيني وبينكم وقالوا له أيضاً: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الشعراء: الآية ١٥٣] أي من المسحورين يعنون مسحوراً لا تدري ما تقول في دعائك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده، وخلع ما سواه من الأنداد وهذا القول عليه الجمهور إن المراد بالمُسَحَّرين المسحورين وقيل من المُسَحَّرِين أي ممن له سحر. وهي الرئة، كأنهم يقولون إنما أنت بَشَرٌ له سِحر، والأول أظهر لقولهم بعد هذا ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ وقولهم: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشعراء: الآية ١٥٤] سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ما جاءهم [به][1] ﴿قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ١٥٥ـ ١٥٦] وقال: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف: الآية ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء: الآية ٥٩].

وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوماً في ناديهم فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله وذكّرهم وحذّرهم ووعظهم، وأمرهم فقالوا له: إن أنتَ أخرجت لنا من هذه الصخرة، وأشاروا إلى صخرة هناك، ناقة من صفتها كيت وكيت وذكروا أوصافاً سمّوها ونعتوها، وتعنتوا[2] فيها، وأن تكون عشراء[3] طويلة من صفتها كذا وكذا. فقال لهم النبي صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدّقوني فيما أرسلت به؟ قالوا: نعم، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك، ثم قام إلى مصلاّه فصلى لله عزّ وجّل ما قدّر له، ثم دعا ربّه عزّ وجلّ أن يجيبهم إلى ما طلبوا فأمر الله عزّ وجّل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة كرماء[4] عشراء على الوجه المطلوب الذي طلبوا، أو على الصفة التي نعتوا. فلمّا عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ومنظراً هائلاً وقدرة باهرة ودليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً فآمن كثير منهم، واستمر كثير منهم[5] على كفرهم وضلالهم وعنادهم. ولهذا قال: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها أي أكثرهم. وكان رئيس الذين آمنوا جندع بن عمرو بن محلاة بن لبيد بن جواس. وكان من رؤسائهم وهم بقية الأشراف بالإسلام، فصدهم ذُؤاب بن عمرو[6] بن لبيد والخَبَّابُ صاحبا أوثانهم ورباب بن صَمْعَرْ بن جِلْمَس ودعا جُنْدُعُ ابن عمّه شهاب بن خليفة وكان من أشرافهم فَهَمّ بالإسلام فنهاه أولئك فمال إليهم، فقال في ذلك رجل من المسلمين يقال له: مَهْوَشُ بن غَنْمَةَ بن الذُّمَيلِ رحمه الله [البحر الوافر]:

وكـانـتْ عـصـبـةٌ مِـنْ آلِ عَـمْـرٍو ... إِلَـى دِيـنِ الـنَّـبِـيِّ دَعَـوا شِـهَـابَـا

(١) سقط في ط.
(٢) عنت: تشدد. وتعنتوا: أي تشددوا.
(٣) عشراء: التي مضى لحملها عشرة أشهر، أو هي كالنفساء من النساء.
(٤) في ط: عظيمة.
(٥) في ط: أكثرهم.
(٦) في ط: عمر.

عزيز ثمود كلهم جميعاً فهمّ بأن تجيب ولو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزاً وما عدلوا بصاحبهم ذُؤابا[١]
ولكن الغواة من آل حجر تولوا بعد رشدهم ذآبا[٢]

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ أضافها الله سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتعظيم، كقوله بيت الله وعبد الله ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾ أي دليلاً على صدق ما جئتكم به ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يوماً بعد يوم وكانت[٣] إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم. ويقال إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم ولهذا (قال: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ [القمر: الآية ٢٧] أي اختباراً لهم أيؤمنون بها أم يكفرون؟ والله أعلم بما يفعلون ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ [القمر: الآية ٢٧] أي انتظر ما يكون من أمرهم ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ [القمر: الآية ٢٧] على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر: الآية ٢٨] فلما طال عليهم الحال هذا اجتمع ملؤهم[٤] واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم، وزيّن لهم الشيطان أعمالهم قال الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف: الآية ٧٧] وكان الذي تولى قتلها منهم رئيسهم قدار بن سالف بن جندع، وكان أحمر أزرق أصهب، وكان يقال: إنه وَلَدُ زانية، ولد على فراش سالف، وهو ابن رجل يقال له: صيبان. وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم فلهذا نسب الفعل إلى جميعهم كلّهم.

وذكر ابن جرير وغيره من علماء المفسّرين أن امرأتين من ثمود اسم إحداهما: صدوقة الله[٥] بنت المحيا بن زهير بن المختار، وكانت ذات حسب ومال وكانت تحت رجل من أسلم، ففارقته فدعت ابن عم لها يقال له: مصرع بن مهرج بن المحيا، وعرضت عليه نفسها إنْ هو عقر الناقة، واسم الأخرى: عُنَيْزَة بنت غُنَيْم بن مَجْلَزٍ، وتُكَنى أم عثمان، وكانت عجوزاً كافرة لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمرو أحد الرؤساء فعرضت بناتها الأربع على قدار بن سالف إن هو عقر الناقة، فله أي بناتها شاء، فانتدب هذان الشابان لعقرها، وسعوا في قومهم بذلك فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: الآية ٤٨] وسعوا في بقية القبيلة وحسّنوا لهم عقرها، فأجابوهم إلى ذلك وطاوعوهم في ذلك، فانطلقوا يرصدون الناقة، فلمّا صدرت[٦] من وِرْدِها كَمَن لها مُصْرِعٌ، فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها، وجاء النساء يزمرن القبيلة في قتلها

---

(١) الذؤاب: أعلى كل شيء
(٢) وفي بعض الروايات ذبابا.
(٣) في ط: وكان.
(٤) ملؤهم: أكثرهم.
(٥) في ط: صدوق.
(٦) صدرت: أي ارتوت ورجعت.

وحسرن[١] عن وجوههن ترغيباً لهم [في ذلك][٢] فابتدرهم قدار بن سالف فشدّ عليها بالسيف، فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذّر ولدها، ثم طعن في لبتها فنحرها وانطلق سقبها. وهو فصيلها[٣]. فصعد جبلاً منيعاً ودعا ثلاثاً.

وروى عبد الرزّاق عن مَعْمَر عمّن سمع الحسن أنه قال يا ربّ أين أمي؟ ثم دخل في صخرة فغاب فيها ويقال بل اتبعوه فعقروه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾ [القمر: الآيتان ٢٩ـ ٣٠].

وقال تعالى: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾﴾ [الشمس: الآيتان ١٢ـ ١٣] أي احذروها ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: الآيتان ١٤ـ ١٥].

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نُمَيْر، حدثنا هاشم هو أبو عَزْرَةَ عن أبيه عبد الله بن زُمْعَةَ قال خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾﴾ انبعث لها رجل من غارم عزيز منيع في رهطه: مثل أبي زُمْعَةَ[٤]. أخرجاه من حديث هشام بن عَارِمٍ أي شهم عزيز أي رئيس منيع أي مطاع في قومه.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني يزيد بن محمد بن خُثَيْم عن محمد بن كعب عن محمد بن خُثَيْم عن يزيد عن عمّار بن ياسر قال قال رسول الله ﷺ لعلي: «أَلاَ أُحَدِّثُكَ بِأَشْقَى النَّاسِ؟ قال: بَلَى، قال: رَجُلاَنِ أَحَدُهُمَا أُحَيْمِرُ ثَمُودَ الَّذِي عَقَرَ النَّاقَةَ، وَالَّذِي يَضْرِبُكَ يَا عَلِيُّ عَلَى هَذَا، ـ يعني قَرْنَهُ ـ حَتَّى تَبْتَلَّ مِنْهُ هَذِهِ، يَعْنِي لِحْيَتَهُ». رواه ابن أبي حاتم.

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف: الآية ٧٧] فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه: منها أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية. ومنها[٥] أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين: أحدهما: الشرط عليهم في قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ [هود: الآية ٦٤].

وفي آية: ﴿عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾ [الشعراء: الآية ١٥٦] وفي الأخرى ﴿أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف: الآية ٧٣] والكل حق. والثاني: استعجالهم على ذلك. ومنها أنهم كذّبوا الرسول الذي قد قام الدليل القاطع على نبوّته وصدقه، وهم يعلمون ذلك علماً جازماً ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم.

قال الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود: الآية ٦٥] وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطا عليها قدار بن

---

(١) حسر الغطاء: كشفه.
(٢) سقط في ط.
(٣) الفصيل: ولد الناقة.
(٤) أخرجه أحمد في المسند ٤/١٧.
(٥) في ط: ومنهم.

سالف لعنه الله فعرقبها فسقطت إلى الأرض، ثم ابتدروها بأسيافهم يقطّعونها، فلما عاين ذلك سقبها وهو ولدها شرد عنهم، فعلا أعلى الجبل هناك ورغا ثلاث مرات فلهذا قال لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي غير يومهم ذلك، فلم يصدقوه أيضاً في هذا الوعد الأكيد، بل لما أمسوا همّوا بقتله وأرادوا فيما يزعمون أن يُلْحِقُوه بالناقة ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ [النمل: الآية ٤٩]. أي لنكبسنه في داره مع أهله فلنقتلنه ثم نجحدنّ قتله وننكرنّ ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه. ولهذا قالوا: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النمل: الآية ٤٩] قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل: الآيات ٥٠- ٥٣] وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم [فأهلكم رسلنا][1] سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم، وأصبحت ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرّة كما أنذرهم صالح عليه السلام، فلما أمسوا نادوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل.

ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل. وهو يوم الجمعة ووجوههم محمّرة، فلما أمسوا نادوا ألا قد مضى يومان من الأجل. ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة فلما أمسوا نادوا ألا قد مضى الأجل فلما كان صبيحة يوم الأحد تحنّطوا وتأهبّوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحلّ بهم من العذاب والنكال والنقمة لا يدرون كيف يفعل بهم، ولا من أي جهة يأتيهم العذاب فلما أَشْرَقَتَ الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزُهِقَت[2] النفوس وسَكَنت الحركات، وخَشَعَت الأصوات وحَقّت الحقائق فأصبحوا في دارهم جاثمين جثثاً لا أرواح فيها ولا حراك بها، قالوا ولم يبقَ منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة واسمها كَلْبَةُ بنتُ السِّلْقِ. ويقال لها الذريعة وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام، فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع شيء فأتت حيّاً من العرب، فأخبرتهم بما رأت وما حلّ بقومها واستسقتهم ماء فلما شربت ماتت. قال الله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ [هود: الآية ٦٨] أي لم يقيموا فيها في سعة ورزق وغناء ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود: الآية ٦٨] أي نادى عليهم لسان القدر بهذا.

قال الإمام أحمد: حدّثنا عبد الرزّاق، حدّثنا مُعَمّرُ حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم عن أبي الزبير عن جابر قال: لما مرّ رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لاَ تَسْأَلُوا الآيَاتِ فَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ فَكَانَتْ يَعْنِي النَّاقَةَ تَرِدُ مِنْ هَذَا الفَجِّ[3] وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الفَجِّ ﴿فعتوا عن أمرِ ربّهم فعقروها﴾. وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً فعقروها فأخذتهم صيحة أخمد الله من

---

(١) سقط في ط. (٢) زهقت: خرجت.

(٣) الفج: يقال: فجّ الأرض: أي شقها، والفج الطريق الواضح بين جبلين.

تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله». فقالوا من هو يا رسول الله قال: «هو أبو رُغَالٍ. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»(١).

وهذا الحديث على شرط مسلم وليس هو في شيء من الكتب الستة والله أعلم.

وقد قال عبد الرزّاق أيضاً قال معْمَرٌ أخبرني إسماعيل بن أُمَيَّةَ أنَّ النبيّ ﷺ مرّ بقبر أبي رُغَالٍ فقال: «أَتَدْرُونَ مَنْ هَذَا»؟ قالوا: اللَّهُ ورسولُه أعلمُ قال: «هَذَا قَبْرُ أَبِي رُغَالٍ رَجُلٍ مِنْ ثَمُودَ كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ فَمَنَعَهُ حَرَمُ اللَّهِ عَذَابَ اللَّهِ. فَلَمَّا خَرَجَ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ فَدُفِنَ هَهُنَا وَدُفِنَ مَعَهُ غُصْنٌ مِنْ ذَهَبٍ فنزلَ القومُ فابتدَرُوه(٢) بأسيافِهِم فبحثوا عنه فاستخرجُوا الغُصْنَ». قال عبد الرزاق قال مَعْمَر قال الزُّهْرِي أبو رغال أبو ثقيف. هذا مرسل من هذا الوجه. وقد جاء من وجه آخر متصلاً كما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة عن إسماعيل بن أمية عن بُجَيْرِ بن أبي بُجَيْرٍ سمعتُ عبد الله بن عَمْرو سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر فقال: «إِنَّ هَذَا قَبْرُ أَبِي رُغَالٍ. وَهُوَ أَبُو ثَقِيفٍ، وَكَانَ مِنْ ثَمُودَ وَكَانَ بِهَذَا الحَرَمِ يَدْفَعُ عَنْهُ فَلَمَّا خَرَجَ مِنْهُ أَصَابَتْهُ النِّقْمَةُ الَّتِي أَصَابَتْ قَوْمَهُ بِهَذَا المَكَانِ، فَدُفِنَ فِيهِ وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ دُفِنَ مَعَهُ غُصْنٌ مِنْ ذَهَبٍ. إِنْ أَنْتُمْ نَبَشْتُمْ عَنْهُ أَصَبْتُمُوهُ مَعَهُ». فابتدَرَهُ الناسُ فاستخرجوا منه الغصنَ(٣). وهكذا رواه أبو داود من طريق محمد بن إسحاق به.

قال شيخنا الحافظ أبو الحجّاج المزيّ رحمه الله هذا حديث حسن عزيز.

قلت: تفرّد به بُجَيْرُ بن أبي بُجَيْرٍ هذا ولا يعرف إلاّ بهذا الحديث ولم يرو عنه سوى إسماعيل بن أُمَيَّةَ. قال شيخنا فيحتمل أنه وَهَم في رفعه وإنما يكون من كلام عبدِ اللَّهِ بن عَمْرٍو من زاملته والله أعلم.

قلت: لكن في المرسل الذي قبله وفي حديث جابر أيضاً شاهد له. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ٧٩] إخبار عن صالح عليه السلام أنه خاطب قومه بعد هلاكهم، وقد أخذ في الذهاب عن محلّتهم إلى غيرها قائلاً لهم: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي جهدت في هدايتكم بكل ما أمكنني وحرصت على ذلك بقول وفعلي ونيّتي ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ أي لم تكن سجاياكم تقبل الحقّ ولا تريده، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم المستمر بكم المتصل إلى الأبد، وليس لي فيكم حيلة ولا لي بالدفع عنكم يدان. والذي وجب عليّ من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم، ولكن الله يفعل ما يريد وهكذا خاطب النبي ﷺ أهل قليب بدر بعد ثلاث ليال وقف عليهم وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل من آخر الليل، فقال: «يَا أَهْلَ القَلِيبِ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ(٤) رَبُّكُم حَقّاً؟ فَإِنِّي قَدْ

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٢٩٧.

(٢) ابتدروه: أي عاجلوه.

(٣) أخرجه أبو داود في الخراج والإمارة باب ٤١.

(٤) في الأصل: ما وعد.

وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقّاً»، وقال لهم فيما قال «بِئْسَ عَشِيرَةِ النَّبِي كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ كَذَّبْتُمُونِي وَصَدَّقَنِي النَّاسُ، وَأَخْرَجْتُمُونِي وَآوَانِي النَّاسِ، وَقَاتَلْتُمُونِي وَنَصَرَنِي النَّاسُ، فَبِئْسَ عَشِيرَةِ النَّبِيِّ كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ»، فقال له عمر: يا رسول الله تخاطب أقواماً قد جيفوا، فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَّا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنَّهُمْ لاَ يُجِيبُونَ»[1]. وسيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله. ويقال إن صالحاً عليه السلام انتقل إلى حرم الله فأقام به حتى مات.

قال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيعُ، حدثنا زَمْعَةُ بن صالح عن سَلَمة بن وَهْرَام عن عِكْرمة عن ابن عبّاس قال: لما مرّ النبي ﷺ بوادي عَسَفَانَ حين حجّ قال: «يَا أَبَا بَكْرٍ أَيُّ وَادٍ هَذَا»؟ قال وادي عَسَفَانَ قال: «لَقَدْ مَرَّ بِهِ هُودٌ وَصَالِحٌ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ عَلَى بَكَرَاتٍ خُطُمُهَا اللِّيفُ أُزُرُهُمُ العِبَاءُ وَأَرْدِيَتُهُمُ النِّمَارُ يُلَبُّونَ يَحُجُّونَ البَيْتَ العَتِيقَ»[2]. إسناد حسن. وقد تقدّم في قصة نوح عليه السلام من رواية الطَّبَراني وفيه نوح وهود وإبراهيم.

[ذكر][3] مرور النبي ﷺ بوادي الحجر من أرض ثمود عام تبوك

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصَّمَدِ حدّثنا، صخر بن جُوَيْرِيَةَ عن نافع عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوكَ نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا القدور فأمرهم رسول الله فأهراقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل بم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذِّبوا: «إِنِّي أَخْشَى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ»[4].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عَفَّانُ، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «لاَ تَدْخُلوا عَلَى هٰؤُلاَءِ المُعَذَّبِينَ إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ»[5]. أخرجاه في الصحيحين من غير وجه. وفي بعض الروايات أنه عليه السلام لما مر بمنازلهم قنع رأسه وأسرع راحلته ونهى عن دخول منازلهم إلاّ أن تكونوا باكين وفي رواية: «فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا خَشْيَةَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ» صلوات الله وسلامه عليه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا [يزيد][6] بن هارون، حدثنا المَسْعُودِي عن إسماعيل بن أوسَط عن محمد بن أَبِي كَبْشَةَ الأَنْبَارِي عن أبيه واسمه: عَمْرُو بن سَعْدٍ ويقال: عَامِرُ بن سَعْدٍ رضي الله عنه قال: لما كان في غزوة تبوكَ فسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم فبلغ ذلك

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ١٣١، ٣/ ٢٨٧، ٦/ ٢٧٦.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٣٢. (٣) سقط في ط.
(٤) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ١١٧.
(٥) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٥٣، ومسلم في الزهد حديث ٣٨، وأحمد في المسند ٢/ ٧٤.
(٦) سقط في ط.

رسول الله ﷺ فنادى في الناس: «الصَّلاةَ جَامِعَةً»، قال: فأتيتُ النبيَّ ﷺ وهو ممسك بعيره وهو يقول: «مَا تَدْخُلُونَ عَلَى قَوْمٍ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» فناداه رجل: نعجبُ منهمْ يا رسولَ الله، قال: «أَفَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ؟ رَجُلٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَمَا هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا وَسَدِّدُوا، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَعْبَأُ بِعَذَابِكُمْ شَيْئاً، وَسَيَأْتِي قَوْمٌ لاَ يَدْفَعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ شَيْئاً»[1]. إسناد حسن ولم يخرجوه.

وقد ذكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلة فكانوا يبنون البيوت من المدر[2] فتخرب قبل موت الواحد منهم فنحتوا لهم بيوتاً في الجبال. وذكروا أن صالحاً عليه السلام لما سألوه آية فأخرج الله لهم الناقة من الصخرة، أمرهم بها وبالولد الذي كان في جوفها، وحذّرهم بأس الله إن هم نالوها بسوء، وأخبرهم أنهم سيعقرونها ويكون سبب هلاكهم ذلك وذكر لهم صفة عاقرها وأنه أحمر أزرق أصهب فبعثوا القوابل في البلد متى وجدوا مولوداً بهذه الصفة يقتلنه فكانوا على ذلك دهراً طويلاً وانقرض جيل وأتى جيل آخر. فلما كان في بعض الأعصار خطب رئيس من رؤسائهم على ابنة بنت آخر مثله في الرياسة فزوجه فولد بينهما عاقر الناقة وهو قدار بن سالف، فلم تتمكن القوابل من قتله لشرف أبويه وجدّيه فيهم، فنشأ نشأة سريعة فكان يشب في الجمعة كما يشب غيره في شهر حتى كان من أمره أن خرج مطاعاً فيهم رئيساً بينهم فسوّلت له نفسه عقر الناقة. واتبعه على ذلك ثمانية من أشرافهم وهم التسعة الذين أرادوا قتل صالح عليه السلام. فلمّا وقع من أمرهم ما وقع من عقر الناقة وبلغ ذلك صالحاً عليه السلام وجاءهم باكياً عليها فتلقّوه يعتذرون إليه ويقولون إن هذا لم يقع عن ملأ منا وإنما فعل هذا هؤلاء الأحداث فينا. فيقال إنه أمرهم باستدراك سقبها حتى يحسنوا إليه عوضاً عنها، فذهبوا وراءه فصعد جبلاً هناك فلما تصاعدوا فيه وراءه تعالى الجبل حتى ارتفع فلا يناله الطير وبكى الفصيل حتى سالت دموعه. ثم استقبل صالحاً عليه السلام ودعا ثلاثاً فعندها قال صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ وأخبرهم أنهم يصبحون من غدهم صفراً، ثم تحمّر وجوههم في الثاني، وفي اليوم الثالث تسودّ وجوههم. فلما كان في اليوم الرابع أتتهم صيحة فيها صوت كل صاعقة فأخذتهم فأصبحوا في دارهم جاثمين. وفي بعض هذا السياق نظر ومخالفة لظاهر ما يفهم من القرآن في شأنهم وقصتهم كما قدمنا والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

قصة إبراهيم الخليل عليه السلام

هو إبراهيم بن تارخ (٢٥٠) بن ناحور (١٤٨) بن ساروغ (٢٣٠) بن أرغوا (٢٣٩) ابن فالغ (٤٣٩) ابن عابر (٤٦٤) بن شالخ (٤٣٣) بن أرفخشذ (٤٣٨) بن سام (٦٠٠) بن نوح عليه السلام. هذا نصّ أهل الكتاب في كتابهم وقد أعلمت على أعمارهم تحت أسمائهم بالهندي كما ذكروه من المدد وقدّمنا الكلام على عمر نوح عليه السلام فأغنى عن إعادته.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٢٣١.

(٢) المدر: الطين.

وحكى الحافظ ابن عساكر في ترجمة إبراهيم الخليل من تاريخه عن إسحاق بن بشر الكاهلي صاحب كتاب المبتدأ أن اسم أم إبراهيم أميلة. ثم أورد عنه في خبر ولادتها له حكاية طويلة وقال الكلبي: اسمها بونا بنت كربنا بن كرثى من بني أرفخشذ بن سام بن نوح.

وروى ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال: كان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان قالوا: ولما كان عمر تارخ خمساً وسبعين سنة ولد له إبراهيم عليه السلام وناحور وهاران وولد لها ران لوط. وعندهم أن إبراهيم عليه السلام هو الأوسط، وأن هاران مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها وهي أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل. وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار، وصحّح ذلك الحافظ ابن عساكر بعد ما روى من طريق هشام بن عمّار عن الوليد عن سعيد بن عبد العزيز عَنْ مَكْحُول عن ابن عباس قال: ولد إبراهيم بغوطة دمشق في قرية يقال لها: برزة في جبل يقال له: قاسيون. ثم قال: والصحيح أنه ولد ببابل. وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء معيناً للوط عليه السلام. قالوا: فتزوج إبراهيم سارة، وناحور ملكاً ابنة هاران، يعنون بابنة أخيه، قالوا: وكانت سارة عاقراً لا تلد، قالوا: وانطلق تارخ بابنة إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط بن هاران، فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين فنزلوا حرّان، فمات فيها تارخ وله مائتان وخمسون سنة، وهذا يدل على أنه لم يولد بحرّان، وإنّما مولده بأرض الكلدانيين وهي أرض بابل وما والاها. ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين. وهي بلاد بيت المقدس، فأقاموا بحرّان وهي أرض الكلدانيين في ذلك الزمان وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضاً وكانوا يعبدون الكواكب السبعة.

والذين عمّروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين يستقبلون القطب الشمالي ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال. ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها ويعملون لها أعياداً وقرابين.

وهكذا كان أهل حرّان يعبدون الكواكب والأصنام وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عليهم السلام. وكان الخليل عليه السلام هو الذي أزال الله به تلك الشرور وأبطل به ذاك الضلال، فإن الله سبحانه وتعالى أتاه رشده من[1] صغره وابتعثه رسولاً، واتخذه خليلاً في كبره، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٥١] أي كان أهلاً لذلك.

وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ

---

(١) في ط: في.

اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: الآيات ١٦ـ٢٧].

ثم ذكر تعالى مناظرته لأبيه وقومه كما سنذكره إن شاء الله تعالى. وكان أول دعوته لأبيه وكان أبوه ممن يعبد الأصنام لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: الآيات ٤١ـ٤٨]. فذكر تعالى ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة. وأحسن إشارة بيّن له بطلان ما هو عليه من عبادة الأصنام[1] التي لا تسمع دعاء عابدها ولا تبصر مكانه فكيف تغني عنه شيئاً، أو تفعل به خيراً من رزق أو نصر.

ثم قال منبهاً على ما أعطاه الله من الهُدَى والعلم النافع وإن كان أصغر سناً من أبيه ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ أي مستقيماً واضحاً سهلاً حنيفاً[2] يفضي بك إلى الخير في دنياك وأخراك، فلما عرض هذا الرشد عليه وأهدى هذه النصيحة إليه لم يقبلها منه، ولا أخذها عنه، بل تهدّده وتوعده قال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ قيل بالمقال وقيل بالفعال ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ أي واقطعني وأطل هجراني فعندها قال له إبراهيم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ أي لا يصلك مني مكروه ولا ينالك مني أذى بل أنت سالم من ناحيتي. وزاده خيراً فقال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ قال ابن عبّاس وغيره أي لطيفاً يعني في أن هداني لعبادته والإخلاص له ولهذا قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾. وقد استغفر له إبراهيم عليه السلام كما وعده في أدعيته. فلما تبيّن له أنه عدو لله تبرأ منه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ

(١) في ط: الأوثان، ومعناها واحد. (٢) حنيفاً: مستقيماً.

لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: الآية ١١٤].

وقال البخاري: حدثنا إسماعيل بن عبد الله حدثني أخي عبد الحميد عن ابن أبي ذِئْب عن سعيد المَقْبَرِيّ عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ[1] وَغَبَرَةٌ فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لاَ تَعْصِينِي فَيَقُولُ لَهُ أَبُوهُ فَالْيَوْمَ لاَ أَعْصِيكَ فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، وَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ فَيَقُولُ اللَّهُ إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَى الكَافِرِينَ ثُمَّ يُقَالُ يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُتَلَطِّخٍ فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ»[2] هكذا رواه في قصة إبراهيم منفرداً.

وقال في التفسير: وقال إبراهيم بن طَهْمَان، عن ابن أبي ذُؤَيْب عن سَعِيدٍ المَقْبَرِيّ عن أبيه عن أبي هُرَيْرَةَ. وهكذا رواه النسائي عن أحمد بن حَفْصٍ بن عبد الله عن أبيه عن إبراهيم بنُ طُهْمَانَ به.

وقد رواه البزّار من حديث حمّادُ بن سَلَمَة عن أيوب عن محمد بن سِيرِينَ عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ بنحوه. وفي سياقه غرابة.

ورواه أيضاً من حديث قَتَادَةَ عن عُقْبَةَ بن عبد الغَافِرِ عن أبي سعيد عن النبيِّ ﷺ بنحوه وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: الآية ٧٤] هذا يدل على أن اسم أبي إبراهيم آزر وجمهور أهل النسب منهم ابن عبّاس على أن اسم أبيه تارح وأهل الكتاب يقولون تارخ بالخاء المعجمة فقيل إنه لقّب بصنم كان يعبده اسمه آزر.

وقال ابن جرير والصواب أن اسمه: آزر ولعل له اسمان علمان أو أحدهما لقب والآخر علم. وهذا الذي قاله محتمل والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٧٥ ـ ٨٣].

---

(١) قترة: غبرة.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الانبياء باب ٨، وتفسير سورة الشعراء باب ٢٦.

وهذا المقام مقام مناظرة لقومه وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيّرة لا تصلح للألوهية ولا أن تعبد مع الله عزّ وجلّ، لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبّرة مسخّرة، تطلع تارة وتأفل[١] أخرى، فتغيبُ عن هذا العالم والربّ تعالى لا يغيب عنه شيء، ولا تخفى عليه خافية، بل هو الدائم الباقي بلا زوال، لا إله إلاّ هو، ولا ربّ سواه، فبيّن لهم أولاً عدم صلاحية الكواكب. قيل هو الزُّهرة لذلك ثم ترقى منها إلى القمر، الذي هو أضوأ منها وأبهى من حسنها. ثم ترقى إلى الشمس التي هي أشدّ الأجرام المُشَاهَدَة ضياءً وسناءً وبهاءً فبيّن أنها مسخّرة مسيّرة مقدّرة مربوبة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: الآية ٣٧] ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ أي طالعة ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: الآيات ٧٧ ـ ٨٠]. أي لست أبالي من[٢] هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله فإنه لا تَنْفَع شيئاً ولا تَسْمع ولا تَعْقلُ بل هي مربوبة مسخّرة كالكواكب ونحوها أو مصنوعة منحوتة منجورة.

والظاهر أن موعظته[٣] هذه في الكواكب لأهل حرّان فإنهم كانوا يعبدونها وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب لما كان صغيراً كما ذكره ابن إسحاق وغيره، وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها ولا سيّما إذا خالفتِ الحق. وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام وهم الذين ناظرهم في عبادتها وكسّرها عليهم وأهانها وبيّن بطلانها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: الآية ٢٥].

وقال في سورة الأنبياء ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾

(١) أفل: غاب. (٢) في ط: في. (٣) في الأصل: مناظرته.

أَنِّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء: الآيات ٥١ـ ٧٠].

وقال في سورة الشعراء: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الشعراء: الآيات ٦٩ـ ٨٣].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الصافات: الآيات ٨٣ـ ٩٨].

يخبر الله تعالى عن إبراهيم خليله عليه السلام أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان وحقّرها عندهم وصغّرها وتنقصها فقال: ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنبياء: الآية ٥٢] أي معتكفون عندها وخاضعون لها قالوا: ﴿ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنبياء: الآية ٥٣] ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد وما كانوا عليه من عبادة الأنداد ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنبياء: الآية ٥٤] كما قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ قال قتادة فما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره وقال لهم: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الشعراء: الآيات ٧٢ـ ٧٤] سلموا له أنها لا تسمع داعياً ولا تنفع ولا تضر شيئاً وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسلافهم ومن هو مثلهم في الضلال من الآباء الجهّال ولهذا قال لهم: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء: الآيات ٧٥ـ ٧٧] وهذا برهان قاطع على بطلان آلهية ما ادعوه من الأصنام لأنه تبرأ منها وتنقص بها فلو كانت تضرّ لضرّته أو تؤثر لأثرت فيه ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأنبياء: الآية ٥٥] يقولون هذا الكلام الذي تقوله لنا وتتنقّص به آلهتنا وتطعن بسببه في آبائنا تقوله محقاً جاداً فيه أم لاعباً ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأنبياء: الآية ٥٦] يعني بل أقول لكم ذلك جاداً محقاً وإنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ربكم وربّ كل شيء فاطر السموات والأرض الخالق لهما على غير مثال سبق فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له وأنا على ذلكم من الشاهدين. وقوله: ﴿ وَتَٱللَّهِ

﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء: الآية ٥٧] أقسم ليكيدن هذه الأصنام التي يعبدونها بعد أن تولوا مدبرين إلى عيدهم. قيل إنه قال هذا خفية في نفسه وقال ابن مسعود سمعه بعضهم وكان لهم عيد يذهبون إليه في كل عام مرة إلى ظاهر البلد فدعاه أبوه ليحضره فقال إني سقيم كما قال تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩﴾ [الصافات: الآيتان ٨٨ ـ ٨٩]. عرض لهم في الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق في بطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الإهانة. فلما خرجوا إلى عيدهم واستقر هو في بلدهم ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ أي ذهب إليها مسرعاً مستخفياً فوجدها في بهو عظيم وقد وضعوا بين أيديها أنواعاً من الأطعمة قرباناً إليها ﴿فَقَالَ﴾ لها على سبيل التهكّم والازدراء ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ۝٩٣﴾ لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر فكسرها بقدّوم في يده كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أي حطاماً كسرها كلها ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾ [الأنبياء: الآية ٥٨] قيل إنه وضع القدوم في يد الكبير إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار. فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝٥٩﴾ [الأنبياء: الآية ٥٩].

وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون وهو ما حل بآلهتهم التي كانوا يعبدونها فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء لكنهم قالوا من جهلهم وقلّة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠﴾ [الأنبياء: الآية ٦٠] أي يذكرها بالعيب والتنقص لها والازدراء بها فهو المقيم عليها والكاسر لها. وعلى قول ابن مسعود أي يُذكرهم بقوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١﴾ [الأنبياء: الآية ٦١] أي في الملأ الأكبر على رؤوس الأشهاد لعلّهم يشهدون مقالته ويسمعون كلامه ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه وكان هذا أكبر مقاصد الخليل عليه السلام أن يجتمع الناس كلّهم فيقيم على جميع عبّاد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه كما قال موسى عليه السلام لفرعون ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ۝٥٩﴾ [طه: الآية ٥٩] فلما اجتمعوا وجاؤوا به كما ذكروا ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: الآيتان ٦٢ ـ ٦٣] قيل معناه هو الحامل لي على تكسيرها، وإنما عرض لهم في القول ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ۝٦٣﴾ [الأنبياء: الآيتان ٦٢ ـ ٦٣] وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ۝٦٤﴾ [الأنبياء: الآية ٦٤] أي فعادوا على أنفسهم بالملامة فقالوا إنكم أنتم الظالمون أي في تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٥] قال السّدّيّ: أي ثم رجعوا إلى الفتنة فعلى هذا يكون قوله إنكم أنتم الظالمون أي في عبادتها. وقال قَتادَةُ: أدركت القوم حيرة سوء أي فأطرقوا ثم قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥﴾ [الأنبياء: الآية ٦٥] أي لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق فكيف تأمرنا بسؤالها فعند ذلك قال لهم الخليل عليه السلام ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا

﴿يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ٦٦ـ ٦٧] كما قال: ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الصافات: الآية ٩٤] قال مجاهد يسرعون. قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الصافات: الآية ٩٥] أي كيف تعبدون أصناماً أنتم تنحتونها من الخشب والحجارة وتصورونها وتشكلونها كما تريدون ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: الآية ٩٥] وسواء كانت ما مصدرية أو بمعنى الذي فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون وهذه الأصنام مخلوقة فكيف يعبد مخلوق لمخلوق مثله فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم، وهذا باطل فالآخر باطل للتحكّم إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات: الآيتان ٩٧ـ ٩٨]. عدلوا عن الجدال والمناظرة لمّا انقطعوا وغلبوا، ولم تبق لهم حجّة ولا شبهة إلى استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم فكادهم الربّ جلّ جلاله وأعلى كلمته ودينه وبرهانه كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨ـ ٧٠]. وذلك أنهم شرعوا يجمعوا حطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن فمكثوا مدّة يجمعون له حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم. ثم عمدوا إلى جوبة[1] عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار فاضطرمت وتأجّجت والتهبت وعلاً لها شررٌ لم يُرَ مثله قط. ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام في كفة منجنيق صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له هَزَن وكان أول من صنع المجانيق فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل[2] فيها إلى يوم القيامة، ثم أخذوا يقيّدونه ويكتّفونه وهو يقول لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك، فلما وُضِع الخليل عليه السلام في كفة المنجنيق مقيداً مكتوفاً ثم ألقوه منه إلى النار قال حسبنا الله ونعم الوكيل، كما روى البخاري عن ابن عبّاس أنه قال حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين أُلقِيَ في النار، وقالها محمد حين قيل له: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: الآيتان ١٧٣ـ ١٧٤] الآية.

وقال أبو يعلى: حدثنا أبو هشام الرِّفَاعِي، حدثنا إسحاق بن سليمان عن أبي جعفر الرَّازِي عن عَاصِم بن أبي النُّجُودِ عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال ﷺ: «لَمَّا أُلْقِيَ إِبْرَاهِيمُ فِي النَّارِ قَالَ اللَّهُمَّ إِنَّكَ فِي السَّمَاءِ وَاحِدٌ وَأَنَا فِي الأَرْضِ وَاحِدٌ أَعْبُدُكَ».

وذكرُ بعض السلف أن جبريل عُرض له في الهواء فقال ألك حاجة فقال أمّا إليك فلا.

ويروى عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير أنه قال جعل ملك المطر يقول متى أومر فأرسل المطر فكان أمر الله أسرع ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٦٩].

---

(١) الجوبة: الحفرة. (٢) تجلجل: جر القيود.

قال علي بن أبي طالب أي لا تضرّيه.

وقال ابن عبّاس وأبو العالية لولا أن الله قال وسلاماً على إبراهيم لأذى إبراهيم بردها.

وقال كَعْبُ الأَحْبَارِ لم ينتفع أهل الأرض يومئذٍ بنار ولم يحرق منه سوى وثاقه.

وقال الضَحَّاكُ يروى جِبْرِيل عليه السلام كان معه يمسح العرق عن جهه لم يصبه منها شيء غيره.

وقال السَدِّيّ كان معه أيضاً ملك الظل. وصار إبراهيم عليه السلام في ميل الجوبة حوله النار وهو في روضة خضراء والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول إليه ولا هو يخرج إليهم فعن أبي هُريرَة أنه قال أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال نعم الرب ربك يا إبراهيم.

وروى ابن عساكر عن عِكْرِمَة أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها عليه السلام فنادته يا بني إني أريد أن أجيء إليك فادع الله أن ينجيني من حرّ النار حولك فقال نعم! فأقبلت إليه لا يمسّها شيء من حرّ النار، فلما وصلت إليه اعتنقته وقبلته ثم عادت.

وعن المِنْهال بن عَمْرو أنه قال أخبرت أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يوماً وأنه قال ما كنت أياماً وليالي أطيب عيشاً إذ كنت فيها، ووددت أن عيشي وحياتي كلّها مثل إذ كنت فيها صلوات الله وسلامه عليه فأرادوا أن ينتصروا فخُذِلوا وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا، وأرادوا أن يَغلبوا فغُلِبوا. قال الله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٧٠] وفي الآية الأخرى ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ ففازوا بالخسارة والسفال هذا في الدنيا وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم برداً ولا سلاماً ولا يلقون فيها تحية ولا سلاماً بل هي كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: الآية ٦٦].

قال البخاري: حدثنا عبيد[1] الله بن موسى أو ابن سلام عنه، أنبأنا ابن جُرَيْج عن عبد الحميد بن جُبَيْر عن سَعِيدِ بن المُسَيِّبِ عن أم شَرِيكٍ أنَّ رسول الله ﷺ أمر بقتل الوَزَغ[2] وقال وكان ينفخ على إبراهيم.

ورواه مسلم من حديث ابن جُرَيْج[3].

وأخرجاه النسائي وابن ماجه من حديث سفيان بن عُيَيْنَةَ كلاهما عن عبد الحميد بن جُبَيْرِ بن شَيْبَةَ به.

وقال أحمد: حدثنا محمد بن بَكْرٍ حدثنا ابن جُرَيْج أخبرني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي أُمَيَّةَ أن نافعاً مولى ابن عُمَرَ أخبره أن عائشة أخبرته أنَّ رسول الله ﷺ قال اقْتُلُوا الوَزَغَ فإنه كان

---

(١) في ط: عبد.

(٢) الوزغ: نوع من الزحافات، سامة، أبرص.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٨، ومسلم في السلام حديث ١٤٣، والنسائي في المناسك باب ١١٥، وابن ماجة في الصيد باب ١٢، وأحمد في المسند ٦/٤٢١.

ينفخُ النار على إبراهيم. قال فكانت عائشة تقتلهن[١].

وقال أحمد: حدثنا إسماعيل حدثنا أيّوبُ عن نافع أن امرأة دخلت على عائشة فإذا رمح منصوب فقالت ما هذا الرمح فقالت نقتل به الأوزاغ. ثم حدّثت عن رسول الله ﷺ: «أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا أُلْقِيَ فِي النَّارِ جُعِلَتْ الدَّوَابُ كُلُّهَا تُطْفِيءُ عنهُ إلاّ الوَزَغَ فإنَّهُ جَعَلَ يَنفُخُها عَلَيهِ»[٢]. تفرد به أحمد من هذين الوجهين.

وقال أحمد: حدثنا عَفَّانُ حدثنا، جرير حدثنا نافع حدثتني سمامة مولاة الفَاكِهِ بنِ المُغِيرَةِ قالت دخلتُ على عائشةَ فرأيتُ في بيتها رمحاً موضوعاً فقلت يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح قالت هذا لهذه الأوزاغ نقتلهن به فإن رسول الله ﷺ حدثنا «أَنَّ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ لَمْ يَكُنْ فِي الأَرْض دَابَّةٌ إلاّ تُطفِيءُ عَنهُ النَّارَ غَيرَ الوَزَغِ كانَ يَنفُخُ علَيهِ» فَأَمَرَنَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ بِقَتْلِهِ[٣]. ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شَيْبَةَ عن يونس بن محمد عن جرير بن حازم به.

ذكر مناظرة إبراهيم الخليل مع من [أراد أن ينازع العظيم الجليل في العظمة ورداء الكبرياء، فادعى][٤] الربوبية وهو أحد العبيد الضعفاء

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٥٨]. يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبّار المتمرّد الذي ادعى لنفسه الربوبية فأبطل الخليل عليه السلام دليله وبيّن كثرة جهله وقلّة عقله وألجمه الحجّة وأوضح له طريق المحجّة.

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار وهذا الملك هو ملك بابل واسمه: النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح قاله مُجَاهِدٌ. وقال غيره نمرود بن فالح بن عابر بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح. قال مجاهد وغيره: وكان أحد ملوك الدنيا فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة: مؤمنان وكافران. فالمؤمنان ذو القرنين وسليمان[٥]. والكافران: النمرود وبَخْتَنَصَّر، وذكروا أن نمرود هذا استمر في ملكه أربعمائة سنة، وكان قد طغا وبغا وتجبّر وعتا، وآثر الحياة الدنيا. ولمّا دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع فحاجّ إبراهيم الخليل في ذلك وادعى لنفسه الربوبية. فلما قال الخليل: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾.

(١) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٢٠٠.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٦/٢١٧، ٢١٨.
(٣) أخرجه ابن ماجة في الصيد باب ١٢، وأحمد في المسند ٦/١٠٩.
(٤) ما بين المعقوفين سقط من ط.
(٥) هو سليمان بن داود عليه السلام.

قال قَتَادَةُ والسَدِّيّ ومحمد بن إسحاق: يعني أنه إذا أُتِيَ بالرجلين قد تحتم قتلهما فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر. وهذا ليس بمعارضة للخليل بل هو كلام خارجي عن مقام المناظرة، ليس بمنع ولا بمعارضة بل هو تشغيب[١] محض، وهو انقطاع في الحقيقة. فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها على وجود فاعل ذلك الذي لا بدّ من استنادها إلى وجوده ضرورة عدم قيامها بنفسها، ولا بدّ من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة من خلقها وتسخيرها، وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر، وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة، ثم إماتتها. ولهذا ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ فقول هذا الملك الجاهل أنا أحيي وأميت إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدة، فقد كابر وعاند، وإن عنى ما ذكره قَتَادَةُ والسَدِّيّ ومحمد بن إسحاق فلم يقل شيئاً يتعلق بكلام الخليل، إذ لم يمنع مقدمة ولا عارض الدليل.

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم، ذكر دليلاً آخر بيّن وجود الصانع وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ أي هذه الشمس مسخّرة كل يوم تطلع من المشرق كما سخّرها خالقها، ومُسَيِّرها وقاهرها. وهو الله الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء. فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحيي وتميت فأتِ بهذه الشمس من المغرب، فإن الذي يحيي ويميت هو الذي يفعل ما يشاء ولا يُمَانَع ولا يُغَالَبُ، بل قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء، فإن كنت كما تُزعم فافعل هذا فإن لم تفعله فلست كما زعمت، وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها فبيّن ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه وبطلان ما سلكه وتبجّح[٢] به عند جهلة قومه، ولم يبق له كلام يجيب الخليل به بل انقطع وسكت ولهذا قال: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

وقد ذكر السَدِّيّ أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خرج من النار، ولم يكن اجتمع به يومئذٍ، فكانت بينهما هذه المناظرة. وقد روى عبد الرَزَّاقِ عن مَعْمَرٍ عن زيد بن أَسْلَمَ أن النمرود كان عنده طعام، وكان الناس يفدون إليه للميرة، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة، فكان بينهما هذه المناظرة. ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطي الناس، بل خرج وليس معه شيء من الطعام. فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه[٣]، وقال أشغل أهلي إذا قدمت عليهم فلما قدم وضع رحاله، وجاء فاتكأ فنام فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاماً طيباً، فعملت منه طعاماً. فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه، فقال أنّى لكم هذا، قالت من الذي جئت به، فعرف أنه رزق رزقهموه الله عزّ وجلّ. قال زيد بن أَسْلَمَ وبعث الله إلى ذلك الملك الجبّار ملكاً يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه. ثم دعاه الثانية فأبى عليه. ثم الثالثة فأبى عليه. وقال اجمع جموعك وأجمع جموعي فجمع

(١) التشغيب: تهييج الشر. (٢) تبجح: ادعى وتفاخر بنفسه. (٣) العدل: الكيل.

النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس فأرسل الله عليهم[١] ذباباً من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس وسلّطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظاماً بادية، ودخلت واحدة منها في منخر الملك، فمكثت في منخره[٢] أربعمائة سنة عذّبه الله تعالى بها، فكان يضرب رأسه بالمرزاب[٣] في هذه المدّة كلّها حتى أهلكه الله عزّ وجلّ بها.

[ذكر][٤] هجرة الخليل عليه السلام إلى بلاد الشام ودخوله[٥] الديار المصرية واستقراره في الأرض المقدسة

قال الله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: الآيتان ٢٦-٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: الآيات ٧١-٧٣] لما هجر قومه في الله وهاجر من بين أظهرهم وكانت امرأته عاقراً لا يولد لها ولم يكن له من الولد أحد بل معه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين وجعل في ذريته النبوّة والكتاب، فكل نبيّ بعث بعده فهو من ذرّيته، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده فعلى أحد نسله وعقبه، خلعة[٦] من الله وكرامة له حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه وهاجر إلى بلد يتمكّن فيها من عبادة ربّه عزّ وجلّ، ودعوة الخلق إليه والأرض التي قصدها بالهجرة أرض الشام، وهي التي قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ قاله أُبَي بن كَعْب وأبو العاليةِ وقتادةُ وغيرهم. وروى العوفي عن ابن عبّاس قوله: ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ مكّة ألم تسمع إلى قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: الآية ٩٦].

وزعم كَعْبُ الأَحْبَارِ أنها حرّان. وقد قدّمنا عن نقل أهل الكتاب أنه خرج من أرض بابل وهو وابن أخيه لوط وأخوه ناحور وامرأة إبراهيم سارة وامرأة أخيه ملكاً، فنزلوا حرّان فمات تارح أبو إبراهيم بها.

وقال السّدّيّ: انطلق إبراهيم ولوط قِبَلَ الشام فلقي إبراهيم سارة وهي ابنة ملك حرّان وقد طعنت على قومها في دينهم، فتزوّجها على أن لا يغيّرها رواه ابن جرير وهو غريب. والمشهور أنها ابنة عمه هاران الذي تنسب إليه حرّان، ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط كما حكاه

(١) في ط: عليه.
(٢) في ط: منخرها.
(٣) المرزاب: المطرق الثقيل.
(٤) سقط في ط.
(٥) في ط: ثم.
(٦) الخلعة: العطية.

السُّهَيْلي عن القُتَيْبِي والنقّاش فقد أبعد النجعة[١]، وقال بلا علم وادعى أن تزويج بنت الأخ كان إذْ ذاك مشروعاً، فليس له على ذلك دليل. ولو فرض إن هذا كان مشروعاً في وقت كما هو منقول عن الربّانيين من اليهود، فإن الأنبياء لا تتعاطاه والله أعلم. ثم [إن][٢] المشهور أن إبراهيم عليه السلام لما هاجر من بابل خرج بسارة مهاجراً من بلاده كما تقدّم والله أعلم. وذكر أهل الكتاب أنه لمّا قدم الشام أوحى الله إليه إني جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك، فابتنى إبراهيم مذبحاً لله شكراً على هذه النعمة وضرب قبّته شرقي بيت المقدس، ثم انطلق مرتحلاً إلى التيّمن وأنه كان جوع أي قحط وشدّة وغلاء فارتحلوا إلى مصر، وذكروا قصة سارة مع ملكها وأن إبراهيم قال لها قولي أنا أخته وذكروا إخدام الملك إياها هاجر. ثم أخرجهم منها فرجعوا إلى بلاد التيمّن يعني أرض بيت المقدس وما والاها ومعه دواب وعبيد وأموال.

وقد قال البخاري: حدثنا محمد بن مَحْبُوب، حدثنا حمّاد بن زيد عن أيوب عن محمد عن أبي هُرَيْرَةَ قال لم يكذب إبراهيم إلاّ ثلاث كذبات اثنتان منهنّ في ذات الله قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وقال بينا هو ذات يوم وسارة إذْ أتى على جبّار من الجبابرة فقيل له ههنا رجل معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه وسأله عنها فقال من هذه قال أختي، فأتى سارة فقال يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وأنّ هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني، فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخِذَ فقال: ادعي الله لي ولا أضرّك، فدعت الله فأُطلِق، ثم تناولها الثانية فأُخِذ مثلها أو أشدّ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرّك، فدعا بعض حجبته فقال إنك لم تأتني بإنسان، وإنما أتيتني بشيطان فأَخْدَمَها هاجر، فأتته[٣] وهو قائم يصلي، فأومأ بيده مهيم[٤] فقالت ردّ الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره وأخدم هاجر.

قال أبو هريرة فتلك أمكم يا بني ماء السما. تفرّد به من هذا الوجه موقوفاً[٥].

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزّار عن عمرو بن علي الفَلاّس عن عبد الوَهَّابِ الثَّقَفِي عن هشام بن حَسّان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكْذِبْ قَطُّ إِلاَّ ثَلاَثَ كِذْبَاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ فِي ذَاتِ اللّهِ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وَبَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ فِي أَرْضِ جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَابِرَةِ إِذْ نَزَلَ مَنْزِلاً [متعزلاً][٦] فَأَتَى الْجَبَّارَ، فَقِيلَ لَهُ إِنَّهُ قَدْ نَزَلَ هٰهُنَا رَجُلٌ مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنْهَا فَقَالَ: إِنَّهَا أُخْتِي، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَيْهَا قَالَ إِنَّ هٰذَا سَأَلَنِي عَنْك فَقُلْتُ إِنَّكِ أُخْتِي، وَإِنَّهُ لَيْسَ الْيَوْمَ مُسْلِمٍ غَيْرِي وَغَيْرُكِ، وَإِنَّكِ أُخْتِي في الدين فَلاَ تُكَذِّبِينِي عِنْدَهُ فَانْطَلَقَ بِهَا، فَلَمَّا ذَهَبَ يَتَنَاوَلُها أُخِذَ، فَقَالَ: ادْعِي اللّهَ لِي وَلاَ أَضُرُّكِ فَدَعَتْ لَهُ فَأُرْسِلَ فَذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا فَأُخِذَ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدَّ مِنْهَا. فَقَالَ ادْعِ اللّهِ لِي وَلاَ أَضُرُّكِ فَدَعَتْ فَأُرْسِلَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَدَعَا أَدْنَى حَشَمِهِ فَقَالَ: إِنَّكَ لَمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ

(١) النجعة: طلب الكلأ في موضعه.
(٢) سقط في ط.
(٣) أي أتت إبراهيم عليه السلام.
(٤) مهيم: أي: ما شأنك وما حالك.
(٥) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٨.
(٦) سقط في ط.

وَلَكِنْ أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ أَخْرِجَهَا وأعطاها هَاجرَ. فَجَاءَتْ وَإِبْرَاهِيمُ قَائِمٌ يُصَلِّي فَلَمَّا أَحَسَّ بِهَا انْصَرَفَ، فَقَالَ: مَهْيَم! فَقَالَتْ: كَفَى اللَّهُ كَيْدَ الظَّالِمَ وأَخْدَمَنِي هَاجرَ». وأخرجاه من حديث هشام. ثم قال البزّار لا نعلم أسنده عن محمد عن أبي هريرة إلاّ هشام ورواه غيره موقوفاً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن حَفْص عن وَرْقَاءَ هو ابن عمر اليَشْكُرِي عن أَبِي الزِّنَاد عن الأَعْرَج عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ إِلاَّ ثَلاثَ كِذْبَاتٍ، قَوْلُهُ حِينَ دُعِيَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وَقَوْلُهُ لِسَارَةَ «إِنَّهَا أُخْتِي» قال ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبّار من الجبابرة فقيل: دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس قال: فأرسل إليه الملك أو الجبّار مَنْ هذه معك؟ قال: أختي قال: فأرسل بها، قال: فأُرسِلَ بها إليه، وقال: لا تكذبي قولي فإني قد أخبرته أنك أختي، إن ليس على الأرض مؤمن غيري وغيرك، فلما دخلت عليه قام إليها فأقبلت توضأ وتصلي، وتقول: اللهم إن كنت تعلم إني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلاّ على زوجي، فلا تسلّط عليّ الكافر. قال: فغط[1] حتى ركض برجله. قال أبو الزِّنَادِ قال أبو سَلَمَةَ بن عبد الرحمن عن أبي هريرةَ إنها قالت: اللهمّ إنْ يمت يقال هي قتلته، قال: فأرسل، قال: ثم قام إليها، قال: فقامت توضأ وتصلّي وتَقول اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلاّ على زوجي، فلا تسلّط عليّ الكافر قال فغطّ حتى ركض برجله. قال أبو الزناد وقال أبو سلمة عن أبي هريرة إنها قالت: اللهم إنْ يمت يقل هي قتلته. قال: فأرسل، قال: فقال في الثالثة أو الرابعة ما أرسلتم إليّ إلاّ شيطاناً، ارجعوها إلى إبراهيم، وأعطوها هاجر. قال: فرجعت. فقالت لإبراهيم: أشعرت أن الله ردّ كيد الكافرين وأَخْدَمَ وليدة[2]. تفرّد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط الصحيح.

وقد رواه البخاري عن أبي اليمان عن شعيب بن أبي حمزة عن أبي الزِّنَادِ، عن الأَعْرَجِ، عن أبي هريرةَ، عن النبيّ ﷺ به مختصراً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا سفيان عن علي بن زيد بن جُدْعَانَ عن أبي نَضْرَةَ عن أبي سَعِيدٍ قال قال رسول الله ﷺ: «في كلمات إبراهيم الثلاث التي ما قال منها كلمة إلا ما حلّ[3] بها عن دين الله، فقال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ وقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وقال للملك حين أراد امرأته: هي أختي فقوله: في الحديث هي أختي أي في دين الله، وقوله لها إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، يعني زوجين مؤمنين غيري وغيرك، ويتعين حمله على هذا لأن لوطاً كان معهم، وهو نبي عليه السلام، وقوله لها لمّا رجعت: إليه مهيم معناه ما الخبر، فقالت: إن الله ردّ كيد الكافرين». وفي رواية الفاجر. وهو الملك. وأخدم جارية، وكان إبراهيم عليه السلام من وقت ذهب بها إلى الملك قام يصلي لله عزّ وجلّ ويسأله أن يدفع عن أهله، وأن يردّ بأس هذا الذي أراد أهله بسوء،

---

(١) غُطَّ: أي كبس وعصر حتى ليكاد أن يختنق. وغط الشيء في الماء أي غمسة وغوّصه فيه.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٤٠٤.
(٣) حل: أي أقام بها دين الله.

وهكذا فعلت هي أيضاً. فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمراً قامت إلى وضوئها وصلاتها، ودعت الله عزّ وجلّ بما تقدّم من الدعاء العظيم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: الآية ٤٥] فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم عليه السلام.

وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوّة ثلاث نسوة: سارة، وأم موسى، ومريم عليهنّ السلام. والذي عليه الجمهور أنهن صدّيقات رضي الله عنهن وأرضاهن. ورأيت في بعض الآثار أن الله عزّ وجلّ كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها، فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه، وكان مشاهداً لها، وهي عند الملك، وكيف عصمها الله منه ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقرّ لعينه، وأشدّ لطمأنينته. فإنه كان يحبّها حباً شديداً لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر، فإنه قد قيل إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها أحسن منها رضي الله عنها. ولله الحمد والمنة.

وذكر بعض أهل التواريخ أن فرعون مصر هذا كان أخاً لِلضَّحّاكِ الملك المشهور بالظلم، وكان عاملاً لأخيه على مصر ويقال كان اسمه: سِنَانُ بن عَلْوَانَ بن عُبَيْدِ بن عُوَيْج بن عِمْلاَق بن لاود بن سام بن نوح. وذكر ابن هشام في التيجان أن الذي أرادها عمرو بن امرىء القيس بن مايلون بن سبأ وكان على مصر. نقله السُّهَيْلِي فالله أعلم.

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمّن وهي الأرض المقدّسة التي كان فيها ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية، ثم إن لوطاً عليه السلام نزح بماله من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له في ذلك إلى أرض الغَوْر المعروف بغَوْر زغر، . فنزل بمدينة سدوم وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان، وكان أهلها أشراراً كفّاراً فجّاراً، وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل فأمره أن يمد بصره، وينظر شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً وبشره بأن هذه الأرض كلّها سأجعلها لك، ولخلفك إلى آخر الدهر. وسأكثر ذرّيتك حتّى يصيروا بعدد تراب الأرض. وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة بل ما كملت ولا كانت أعظم منها في هذه الأمة المحمدية. يؤيد ذلك قول رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ مِنْهَا»(١).

قالوا: ثم أن طائفة من الجبّارين تسلّطوا على لوط عليه السلام، فأسروه وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه، فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل سار إليهم في ثلاثماية وثمانية عشر رجلاً، فاستنقذ لوطاً عليه السلام واسترجع أمواله وقتل من أعداء الله ورسوله خلقاً كثيراً، وهزمهم [وسار](٢) في آثارهم، حتى وصل إلى شمالي دمشق، وعسكر بظاهرها عند بَرْزَة(٣)، وأظن مقام إبراهيم إنما سمّي لأنه كان [موضع](٤) موقف جيش الخليل والله أعلم.

ثم رجع مؤيداً منصوراً إلى بلاده وتلقّاه ملوك بلاد بيت المقدس معظّمين له مكرّمين

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٢٣، ٥/ ٢٧٨.
(٢) سقط في ط.
(٣) برزة: قرية من غوطة دمشق.
(٤) سقط في ط.

خاضعين، واستقرّ ببلاده صلوات الله وسلامه عليه.

ذكر مولد إسماعيل عليه السلام من هاجر

قال أهل الكتاب إن إبراهيم عليه السلام سأل الله ذرية طيّبة، وأن الله بشّره بذلك، وأنه لما كان لإبراهيم ببلاد بيت المقدس عشرون سنة، قالت سارة لإبراهيم عليه السلام إن الربّ قد أحْرَمني الولد فادخل على أَمَتي هذه لعل الله يرزقني منها ولداً. فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام، فحين دخل بها حملت منه، قالوا: فلمّا حملت ارتفعت نفسها، وتعاظمت على سيّدتها، فغارت منها سارة فشكت ذلك إلى إبراهيم، فقال لها: افعلي بها ما شئت، فخافت هاجر فهربت فنزلت عند عين هناك، فقال لها ملك من الملائكة لا تخافي فإن الله جاعل من هذا الغلام الذي حملت خيراً، وأمرها بالرجوع. وبشرّها أنها ستلد ابناً وتسميه إسماعيل. ويكون وخش[1] الناس يده على الكل ويد الكل به، ويملك جميع بلاد إخوته، فشكرت الله عزّ وجلّ على ذلك. وهذه البشارة إنما انطبقت على ولده محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه الذي سادت به العرب وملكت جميع البلاد غرباً وشرقاً، وأتاها الله من العلم النافع والعمل الصالح ما لم تؤت أُمَةً من الأمم قبلهم، وما ذاك إلاّ بشرف رسولها على سائر الرسل، وبركة رسالته، ويمن بشارته، وكماله فيما جاء به، وعموم بعثته لجميع أهل الأرض. ولمّا رجعت هاجر وضعت إسماعيل عليه السلام، قالوا: وولدته ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة. ولما ولد إسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم يبشّره بإسحاق من سارة، فخرّ لله ساجداً، وقال له قد استجبت لك في إسماعيل، وباركت عليه وكثّرته ونمّيته جداً كثيراً، ويولد له اثنا عشر عظيماً. وأجعله رئيساً لشعب عظيم، وهذه أيضاً بشارة بهذه الأمة العظيمة، وهؤلاء الاثنا عشر عظيماً هم الخلفاء الراشدون الاثنا عشر المبشّر بهم في حديث عبد الملك بن عُمَيْر عن جَابِرِ بن سَمُرَةَ عن النبيّ ﷺ قال: «يَكُونُ اثْنَا عَشَرَ أَمِيراً» ثم قال كلمة لم أفهمها فسألت أبي ما قال قال: «كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ»[2] أخرجاه في الصحيحين.

وفي رواية لا يزال هذا الأمر قائماً وفي رواية: عزيزاً حتى يكون اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش. فهؤلاء منهم الأئمة الأربعة أبو بكر وعمر وعُثمان وعلي. ومنهم عمر بن عبد العزيز أيضاً. ومنهم بعض بني العباس، وليس المراد أنهم يكونون اثني عشر نسقاً، بل لا بدّ من وجودهم، وليس المراد الأئمة الاثني عشر الذي يعتقد فيهم الرافضة الذين أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم المنتظر بسرداب سامّرا وهو محمد بن الحسن العسكري فيما يزعمون، فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من علي وابنه الحسن بن علي حين ترك القتال وسلّم الأمر لمعاوية

---

(١) وخش: أي رد السهام في الربابة، وهو كناية أن يطفىء الفتنة ويسعى إلى إحلال الوئام بين الناس.

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام باب ٥١، والترمذي في الفتن باب ٤٦، وأحمد في المسند ٥/ ٩٧، ٩٨، ١٠٧.

وأخمد نار الفتنة وسكّن رحى الحروب بين المسلمين. والباقون من جملة الرعايا لم يكن لهم حكم على الأمة في أمر من الأمور. وأما ما يحتقدونه بسرداب سامرا فذاك هَوَس في الرؤوس وهذيان في النفوس لا حقيقة له ولا عين ولا أثر.

والمقصود أن هاجر عليها السلام لمّا ولد لها إسماعيل اشتدّت غيرة سارة منها، وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها، فذهب بها وبولدها فسار بهما حتى وضعهما حيث مكّة اليوم، ويقال: إن ولدها كان إذ ذاك رضيعاً، فلما تركهما هناك وولّى ظهره عنهما، قامت إليه هاجر وتعلّقت بثيابه، وقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ههنا وليس معنا ما يكفينا؟ فلم يجبها، فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها، قالت له: الله أمرك بهذا قال: نعم، قالت: فإذاً لا يضيّعنا. وقد ذكر الشيخ أبو محمد بن أبي زَيْدٍ رحمه الله في كتاب النوادر: أن سارة تغضّبت على هاجر فحلفت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها فأمرها الخليل أن تثقب أذنيها وأن تخفضها[1] فتبرّ قسمها.

قال السهيلي: فكانت أول من اختتن من النساء، وأول من ثقبت أذنها منهنّ، وأول من طولت ذيلها.

ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى جبال فاران وهي أرض مكة وبنائه البيت العتيق

قال البخاري: قال عبد الله بن محمد هو أبو بكر بن أبي شيبة، حدّثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر عن أيوب السَّخْتِيَاني، وكُثَيْر بن المُطَّلب بن أبي وَدَاعَةَ يزيد أحدهما على الآخر عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي[2] أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به إنس ولا شيء، فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يضيّعنا، ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنيّة حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٣٧] وجعلت أم إسماعيل تُرْضِعُ إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء، عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يلتوي، أو قال: يتلبّط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا، أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم ترَ أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي

(١) تخفضها: أي تختنها.
(٢) لتعفي: لتحمي.

رفعت طرف ذراعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى إذا جاوزت الوادي، ثم أتت المَرْوَة، فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عبّاس: قال النبي ﷺ: «فَلِذَلِكَ سَعَى النَّاسُ بَيْنَهُمَا»[1]. فلما أشرفت على المَرْوَة سمعت صوتاً فقالت: صه! تريد نفسها. ثم تسمّعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعتُ إن كان عندك غواث، فإذا هي بالمَلِك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تخوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهي تفور بعد ما تغرف.

قال ابن عبّاس قال النبيُّ ﷺ: «يَرْحَمِ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ» أو قال: «لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ المَاءِ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْناً مَعِيناً» فشربت وأرضعت ولدها فقال لها المَلِكُ: لا تخافي الضيعة، فإنَّ ههنا بيت الله، يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيّع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرّت بهم رفقة من جِرْهم، أو أهل بيت من جِرْهَم مقبلين من طريق كدا، فنزلوا في أسفل مكّة فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إنّ هذا الطائر ليدور على الماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: تأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم. ولكن لا حقّ لكم في الماء قالوا: نعم.

قال عبد الله بن عبّاس: قال النبي ﷺ: «فألْفَى ذَلكَ أُمَّ إسْمَاعيلَ وهِيَ تُحِبُّ الإِنْسَ فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشبّ الغلاء وتعلّم العربية منهم. وأنفسهم وأعجبهم حين شبّ، فلمّا أدرك زوّجوه امرأة منهم. وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته فقالت خرج يبتغي لنا. ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشر في ضيق وشدّة وشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك اقرئي عليه السلام وقولي له يغيّر عتبة بابه فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً. فقال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك، فأخبرته، وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنّا في جهد وشدّة. قال: فهل أوصاك بشيء قالت: نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول لك غيّر عتبة بابك. قال: ذاك أبي وأمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك، فطلّقها وتزوّج منهم أخرى، ولبث عنهم إبراهيم ما شاء الله. ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم وسألها عن عيشهم وهيئتهم؟ فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء».

قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذٍ حَبّ. ولو كان لهم حَبٌّ، لدعا لهم فيه، [فهما

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٩، وأحمد في المسند ١/٢٤٧، ٢٤٨.

لا يخلو عليهما أحد بعين مكة إلاّ لم يوافقاه][١]. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبّت عتبة بابه، فلمّا جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه، فسألني عنك، فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنّا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي وأمرني أن أمسكك. ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الولد بالوالد والوالد بالولد. ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك به ربّك. قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر، فوضعه له فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: الآية ١٢٧]. قال وجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾»[٢]

ثم قال: حدّثنا عبد الله بن محمد، حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو حدثنا إبراهيم بن نافع عن كُثَيِّر بن كُثَيْر عن سَعِيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس قال: لما كان من إبراهيم وأهله ما كان، خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة[٣] فيها ماء[٤]. وذكر تمامه بنحو ما تقدّم، وهذا الحديث من كلام ابن عبّاس وموشّح برفع بعضه، وفي بعضه غرابة، وكأنه مما تلقاه ابن عبّاس عن الإسرائيليات. وفيه أن إسماعيل كان رضيعاً إذ ذاك. وعند أهل التوراة أن إبراهيم أمره الله بأن يختن ولده إسماعيل، وكل من عنده من العبيد وغيرهم فختنهم، وذلك بعد مضي تسع وتسعين سنة من عمره، فيكون عمر إسماعيل يومئذٍ ثلاث عشرة سنة، وهذا امتثال لأمر الله عزّ وجلّ في أهله، فيدل على أنه فعله على وجه الوجوب، ولهذا كان الصحيح من أقوال العلماء أنه واجب على الرجال كما هو مقرّر في موضعه.

وقد ثبت في الحديث الذي رواه البخاري: حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القُرَشِي عن أبي الزِّنَادِ عن الأَعْرَجِ عن أبي هُرَيْرَة قال قال النبيُّ ﷺ «اخْتَتَنَ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ عَلَيهِ السَّلَامُ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِينَ سَنَةً بِالقَدُومِ»[٥]. تابعه عبد الرحمن بن إسحاق عن أبي الزِّنَادِ وتابعه عَجْلَانُ عن أبي هريرةَ، ورواه محمد بنَ عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرةَ. وهكذا رواه

(١) عبارة: فهما لا يخلو عليهما أحد بعين مكة الا لم يوافقاه: كذا بالأصول الشامية والمصرية. واللفظ في مثل الموضع من «العرائس» للثعلبي: فلو جاءت يومئذ بخبز أو بر أو شعير أو تمر لكانت مكة أكثر أهل الأرض براً وشعيراً وتمراً.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٩، وأحمد في المسند ١/٢٤٧، ٢٤٨.

(٣) شنة: قربة.

(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٩.

(٥) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٨، ومسلم في الفضائل حديث ١٥١، وأحمد في المسند ٢/٤١٨.

مسلمُ عن قتيبةَ به. وفي بعض الألفاظ اختتن إبراهيم بعد ما أتت عليه ثمانون سنة، واختتن بالقدّوم، والقدوم هو الآلة. وقيل موضع، وهذا اللفظ لا ينافي الزيادة على الثمانين. والله أعلم لما سيأتي من الحديث عند ذكر وفاته.

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اخْتَتَنَ إِبْرَاهِيمُ وَهُوَ ابْنُ مَائَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَعَاشَ بَعْدَ ذَلِكَ ثَمَانِينَ سَنَةً». رواه ابن حِبان في صحيحه. وليس في هذا السياق ذكر قصّة الذبيح، وأنه إسماعيل، ولم يذكر فيه قد مات إبراهيم عليه السلام إلاّ ثلاث مرات، أولاهن بعد أن تزوّج إسماعيل بعد موت هاجر، وكيف تركهم من حين صغر الولد على ما ذكر، إلى حين تزويجه، لا ينظر في حالهم. وقد ذكر أن الأرض كانت تطوى له، وقيل إنه كان يركب البراق إذا سار إليهم، فكيف يتخلّف عن مطالعة حالهم، وهم في غاية الضرورة الشديدة والحاجة الأكيدة. وكأنّ بعض هذا السياق متلقى من الإسرائيليات ومطرّز بشيء من المرفوعات، ولم يذكر فيه قصة الذبيح، وقد دللنا على أن الذبيح هو إسماعيل على الصحيح في سورة الصّافات.

قصّة الذبيح

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ
بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ
يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ
﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ
﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ
لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: الآيات ٩٩-١١٣].

يذكر تعالى عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه سأل ربّه أن يهب له ولداً صالحاً فبشّره الله تعالى بغلام حليم، وهو إسماعيل عليه السلام لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل. وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل لأنه أول ولده وبكره وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي شبّ وصار يسعى في مصالحه كأبيه، قال مجاهد ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي شبّ وارتحل، وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل. فلما كان هذا رُئي إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده. هذا وفي الحديث عن ابن عبّاس مرفوعاً «رُؤْيَا الأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ»[(١)]. قاله عبيد بن عُمَير أيضاً وهذا اختبار من الله عزّ وجلّ لخليله في أن يذبح هذا الولد العزيز الذي جاءه على كِبَر، وقد طعن في السن بعد ما أمر بأن يُسْكِنَه هو وأمه في بلاد قفر وواد ليس به حسيس ولا أنيس، ولا زرع ولا ضرع[(٢)]، فامتثل أمر الله في ذلك وتركهما هناك ثقة بالله وتوكّلا عليه، فجعل الله لهما فَرَجاً ومَخْرَجاً ورزقهما من حيث لا يحتسبان. ثم لما أمر

(١) أخرجه البخاري في الوضوء باب ٥، والأذان باب ١٦١.

(٢) الضرع: النبات.

بعد هذا كلّه بذبح ولده هذا الذي قد أفرده عن أمر ربه وهو بكره ووحيده الذي ليس له غيره أجاب ربّه وامتثل أمره وسارع إلى طاعته، ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسراً ويذبحه قهراً ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ فبادر الغلام الحليم سرّ والده الخليل إبراهيم فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ وهذا الجواب في غاية السداد[1] والطاعة للوالد ولربّ العباد قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾ قيل: أسلما أي استسلما لأمر الله وعزما على ذلك. وقيل هذا من المقدّم والمؤخر، والمعنى تلّه للجبين أي ألقاه على وجهه. قيل أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده في حال ذبحه، قاله ابن عبّاس ومجاهد وسعيد بن جُبَيْر وقتادة والضحّاك. وقيل بل أضجعه[2] كما تضجع الذبائح، وبقي طرف جبينه لاصقاً بالأرض وأسلما أي سمّى إبراهيم وكبّر وتشهّد الولد للموت.

قال السَدِّيّ وغيره أمرّ السكين على حلقه فلم تقطع شيئاً، ويقال جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس والله أعلم. فعند ذلك نودي من الله عزّ وجلّ: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ أي قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر ربك، وبذلك ولدك للقربان كما سمحت ببَدَنِك للنيران، وكما مالك مبذول للضيفان. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦﴾ أي الاختبار الظاهر البين وقوله: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧﴾ [الصافات: الآية ١٠٧] أي وجعلنا فداء ذبح ولده ما يسّره الله تعالى له من العوض عنه، والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن رآه مربوطاً بسَمُرة[3] في ثبير[4].

قال الثَوْري عن عبد الله بن عثمان بن خَيْثَم عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس قال كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً.

وقال سعيد بن جُبَيْر كان يرتع[5] في الجنة حتّى تشقق عنه ثبير وكان عليه عِهْن[6] أحمر.

وعن ابن عبّاس هبط عليه من ثَبِير كبشٌ أعين أقرن له ثغاء فذبحه وهو الكبش الذي قرّبه ابن آدم فتقبّل منه. رواه ابن أبي حاتم.

قال مجاهد: فذبحه بمنى وقال عبيد بن عُمَيْر ذبحه بالمقام. فأما ما رُوِيَ عن ابن عبّاس أنه كان وعلاً، وعن الحسن أنه كان تَيْساً من الأروى. واسمه جرير فلا يكاد يصحّ عنهما. ثم غالب ما ههنا من الآثار مأخوذ من الإسرائيليات. وفي القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم والاختبار الباهر، وأنه فُدّيَ بذبح عظيم، وقد ورد في الحديث أنه كان كبشاً.

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا منصور عن خاله نافع عن صَفِيّة بنت شَيْبَة قالت: أخبرتني امرأة من بني سَلِيم ولدّت عامة أهل دارنا، قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمانَ بن طَلْحَة وقال مرة إنها سألت عثمان لِمَ دعاك رسول الله ﷺ؟ قال: «إنّي كُنتُ رَأَيْتُ قَرْنَي الكَبْشِ

(١) السداد: الصواب. (٢) أضجعه: مدّده.
(٣) سمرة: شجر من العضاه. (٤) ثبير: جبل بظاهر مكة.
(٥) يرتع: يأكل ويشرب ما شاء في خصب وسعة. (٦) العهن: الصوف.

حِينَ دَخَلْتُ البَيْتَ، فَنَسِيتُ أَنْ آمُرَكَ أَنْ تُخَمِّرَهُمَا فَخَمِّرْهُمَا فَإِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي البَيْتِ شَيْءٌ يَشْغَلُ المُصَلِّي»، قال سفيان: لم تزل قرنا الكبش في البيت حتى احترق البيت فاحترقا[١]

وهذا رُوِيَ عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلّقاً عند ميزاب الكعبة قد يبس.

وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل لأنه كان هو المقيم بمكّة. وإسحاق لا نعلم أنه قدمها في حال صغره والله أعلم.

وهذا هو الظاهر من القرآن بل كأنه نصّ على أن الذبيح هو إسماعيل لأنه ذكر قصّة الذبيح، ثم قال بعده ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات: الآية ١١٢] ومن جعله حالاً فقد تكلّف ومستنده أنه إسحاق إنما هو إسرائيليات، وكتابهم فيه تحريف، ولا سيما ههنا قطعاً لا محيد عنه، فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة من المعرّبة، بكره إسحاق، فلفظة إسحاق ههنا مقحمة[٢] مكذوبة مفتراة لأنه ليس هو الوحيد، ولا البكر. ذاك إسماعيل. وإنّما حملهم على هذا حَسَدُ العرب، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ وإسحاق والد يعقوب وهو إسرائيل الذين ينتسبون إليه، فأرادوا أن يجرّوا هذا الشرف إليهم، فحرّفوا كلام الله وزادوا فيه، وهم قوم بهت[٣]، ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم. وإنما أخذوه والله أعلم من كعب الأحبار أو صحف أهل الكتاب، وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز، ولا يفهم هذا من القرآن بل المفهوم بل المنطوق بل النصّ عند التأمّل على أنه إسماعيل. وما أحسن ما استدلّ محمد بن كعب القُرَظي على أنه إسماعيل وليس بإسحاق من قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾، قال فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبح إسحاق، وهو صغير قبل أن يولد له. هذا لا يكون لأنه يناقض البشارة المتقدّمة والله أعلم.

وقد اعترض السهيلي على هذا الاستدلال بما حاصله أن قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ جملة تامة وقوله: ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ جملة أخرى ليست في حيّز البشارة. قال لأنه لا يجوز من حيث العربية أن يكون مخفوضاً إلا أن يعاد معه حرف الجرّ، فلا يجوز أن يقال مررت بزيد ومن بعده عمرو حتى يقال ومن بعده بعمرو وقال فقوله: ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وفي هذا الذي قاله نظر. ورجح أنه إسحاق واحتجّ بقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ قال: وإسماعيل لم يكن عنده إنّما كان في حال صغره هو وأمه بجبال مكّة، فكيف يبلغ معه السعي. وهذا أيضاً فيه نظر لأنه قد روى أن الخليل كان يذهب في كثير من الأوقات راكباً البُرَاق إلى مكّة يطلّع على ولده وابنه، ثم يرجع

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/٦٨.
(٢) مقحمة: مدسوسة.
(٣) بهت: باطل.

والله أعلم.

فمن حكى القول عنه بأنه إسحاق كعب الأحبار.

ورُوِيَ عن عمر والعبّاس وعلي وابن مسعود ومَسْرُوقٍ وعِكْرَمَةٍ وسعيد بن جُبَيْرٍ ومجاهد وعَطَاءٍ والشَّعْبِي ومقاتلُ وعبيدُ بنِ عمر وأبي مَيْسَرَةَ وزيدِ بن أَسْلَمَ وعبد الله بن شَقِيقٍ والزُّهْرِي والقاسم وابن أبي بُرْدَةَ ومَكْحُولُ وعثمان بن حاضر والسّدِّيّ والحسن وقَتَادَةُ وأبي الهُذَيْلِ وابن سَابِطْ وهو اختيار ابن جرير وهذا عجب منه وهو إحدى الروايتين عن ابن عبّاس ولكن الصحيح عنه وعن أكثر هؤلاء أنه إسماعيل عليه السلام.

قال مجاهد وسعيد والشَّعبِي ويوسف بن مِهْرَان وعطاء وغير واحد عن ابن عبّاس هو إسماعيل عليه السلام.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن قيس عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عبّاس أنه قال المفدّى إسماعيل، وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذّبت اليهود.

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد عن أبيه هو إسماعيل. وقال ابن أبي حاتم سألت أبي عن الذبيح فقال الصحيح أنه إسماعيل عليه السلام.

قال ابن أبي حاتم ورُوِيَ عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطُّفَيْلِ وسَعِيدِ بن المُسَيّبِ وسعيد بن جُبَيْر والحسن ومجاهد والشَّعْبِي ومحمد بن كعب وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح أنهم قالوا الذبيح هو إسماعيل عليه السلام. وحكاه البَغَوِيّ أيضاً عن الربيع بن أنس والكَلبِي وأبي عَمْرِو بن العَلاَءِ.

قلت ورُوِيَ عن معاوية [وروي][(١)] وجاء عنه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: يَا ابْنَ الذَّبِيحَيْنِ. فضحك رسول الله ﷺ وإليه ذهب عمر بن عبد العزيز ومحمد بن إسحاق بن يسّار وكان الحسن البصري يقول لا شك في هذا.

وقال محمد بن إسحاق، عن بُرَيْدَةَ عن سفيان بن فَرْوَةَ الأَسْلَمِي عن محمد بن كعب أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام يعني استدلاله بقوله بعد العصمة ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾ فقال له عمر إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت ثم أرسل إليّ رجل كان عنده بالشام، كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، قال فسأله عمر بن عبد العزيز: أيُّ ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن اليهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق، لأن إسحاق أبوهم.

وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة بأدلتها وآثارها في كتابنا التفسير ولله الحمد والمنّة.

---

(١) سقط في ط.

[ذكر][(١)] مولد إسحاق عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: الآيتان ١١٢ـ١١٣]. وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة لمّا مرّوا بهم مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ليدمّروا عليهم لكفرهم وفجورهم كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله.

تعالى قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ[(٢)] ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٦٩ـ ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ٥١ـ ٥٦].

وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات: ٢٤ـ ٣٠] يذكر تعالى أن الملائكة قالوا وكانوا ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل لمّا وردوا على الخليل حسبهم أضيافاً فعاملهم معاملة الضيوف شوى لهم عجلاً سميناً من خيار بقره فلما قرّبه إليهم وعرض عليهم لم يرَ لهم همّة إلى الأكل بالكلية وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام ﴿نَكِرَهُمْ﴾ إبراهيم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾. أي لندمّر عليهم فاستبشرت عند ذلك سارة غضباً لله عليهم، وكانت قائمة على رؤوس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم، فلما ضحكت استبشاراً بذلك قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ أي بشرتها الملائكة بذلك ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ أي في صرخة ﴿فَصَكَّتْ﴾ أي كما يفعل النساء عند التعجّب ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ أي كيف يلد مثلي وأنا كبيرة وعقيم أيضاً وهذا بعلي أي زوجي شيخاً، تعجّبت من وجود ولد والحالة هذه ولهذا قالت: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ وكذلك تعجبَ إبراهيم عليه السلام استبشاراً بهذه البشارة وتثبيتاً لها وفرحاً

---

(١) سقط في ط.

(٢) عجل حنيذ: يقال: حنذ الفرس: أجراه ليعرق، فالفرس حنيذ ومحنوذ، والعجل الحنيذ: المشوي الناضج.

بـهـا ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾ أكّدوا الخبر بهذه البشارة وقرّروه معه فبشروهما ﴿بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾. وهو إسحاق وأخوه إسماعيل غلام حليم مناسب لمقامه وصبره، وهكذا وصفه ربّه بصدق الوعد والصبر. وقال في الآية الأخرى ﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ وهذا مما استدل به محمد بن كعب القُرَظِيُّ وغيره على أن الذبيح هو إسماعيل، وأن إسحاق لا يجوز أن يأمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده.

وعند أهل الكتاب أنه أحضر مع العجل الحنيذ وهو المشوي رغيفاً من مكّة فيه ثلاثة إكياء[1] وسمن ولبن. وعندهم أنهم أكلوا وهذا غلط محض. وقيل [إنهم][2] كانوا يودّون أنهم يأكلون والطعام يتلاشى في الهواء. وعندهم أن الله تعالى قال لإبراهيم أما سارا امرأتك فلا يدعى اسمها سارا ولكن اسمها سارة وأبارك عليها وأعطيك منها ابناً وأباركه ويكون الشعوب وملوك الشعوب منه فخرّ إبراهيم على وجهه يعني ساجداً وضحك قائلاً في نفسه أبعد مائة سنة يولد لي غلام أو سارة تلد؟ وقد أتت عليها تسعون سنة. وقال إبراهيم لله تعالى: ليت إسماعيل يعيش قدّامك فقال الله لإبراهيم بحقي إن امرأتك سارة تلد لك غلاماً وتدعو اسمه إسحاق إلى مثل هذا الحين من قابل وأوثقه ميثاقي إلى الدّهر، ولخلقه من بعده، وقد استجبت لك في إسماعيل، وباركت عليه وكبّرته ونمّيته جداً كثيراً ويولد له اثنا عشر عظيماً وأجعله رئيساً لشعب عظيم.

وقد تكلمنا على هذا بما تقدم والله أعلم. فقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحاق، ثم من بعده بولد ولده يعقوب أي يولد في حياتهما لتقرّ أعينهما به كما قرّت بولده. ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل إسحاق فائدة، ولما عيّن بالذّكر دلّ على أنهما يتمتعان به ويسرّان بولده كما سرّا بمولد أبيه من قبيله، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: ٨٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم: الآية ٤٩].

وهذا إن شاء الله ظاهر قوي ويؤيّده ما ثبت في الصحيحين من حديث سُلَيْمَانَ بن مَهْرَانَ الأَعْمَشِ عن إبراهيم بن يزيد التَّيمي عن أبيه عن أبي ذر قال قلت يا رسول اللهِ أيُّ مسجدٍ وُضِعَ أول؟ قال: «المَسْجِدُ الحَرَامُ»، قلت ثُمَّ أيٌّ؟ قال: «المسجدُ الأقصى». قلت: كم بينهما، قال: «أَرْبَعُونَ سَنَةً». قلت: «ثم أيٌّ؟ قال ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلّها مسجد»[3]. وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذي أسس المسجد الأقصى، وهو مسجد إيليا. [وهو مسجد][4] بيت المقدس شرّفه الله. وهذا متّجه، ويشهد له ما ذكرناه من الحديث فعلى هذا

(١) الوكاء: السقاء الشديد. (٢) سقط في ط.
(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ١٠، ومسلم في المساجد حديث ١، وأحمد في المسند ٥/ ١٦٠.
(٤) سقط في ط.

يكون بناء يعقوب وهو إسرائيل عليه السلام بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء، وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود إسحاق لأن إبراهيم عليه السلام لمّا دعا قال في دعائه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: الآيات ٣٥ـ ٤١]. وما جاء في الحديث من أن سليمان بن داود عليهما السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالاً ثلاثاً[١] كما ذكرناه عند قوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: الآية ٣٥] وكما سنورده في قصته فالمراد من ذلك والله أعلم أنه جدّد بناءه كما تقدم من أن بينهما أربعين سنة، ولم يقل أحد إن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنة سوى ابن حبّان في تقاسيمه وأنواعه وهذا القول لم يوافق عليه ولا سبق إليه.

[ذكر][٢] بناء البيت العتيق

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: الآيتان ٢٦ـ ٢٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ٩٦ـ ٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ

(١) أخرجه النسائي في المساجد باب ٦، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها باب ٥.
(٢) سقط في ط.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: الآيات ١٢٤ـ ١٢٩].

يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيّه وخليله إمام الحنفاء ووالد الأنبياء عليه أفضل صلاة وتسليم أنه بنى البيت العتيق الذي هو أول مسجد وضع لعموم الناس يعبدون الله فيه وبوّأه الله مكانه أي أرشده إليه ودلّه عليه. وقد روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وغيره أنه أرشد إليه بوحي من الله عزّ وجلّ. وقد قدّمنا في صفة خلق السموات أن الكعبة بحيال البيت المعمور بحيث أنه لو سقط لسقط عليها، وكذلك معابد السموات السبع. كما قال بعض السلف إن في كل سماء بيتاً يعبد الله فيه أهل كل سماء، وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض. فأمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يبني له بيتاً يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السموات، وأرشده الله إلى مكان البيت المهيّأ له المعيّن لذلك منذ خلق السموات والأرض، كما ثبت في الصحيحين أن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، ثم فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة[(١)]. ولم يجىء في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام. ومن تمسّك في هذا بقوله مكان البيت فليس بناهض ولا ظاهر لأن المراد مكانه المقدّر في علم الله المقرّر في قدرته، المعظّم عند الأنبياء، موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم. وقد ذكرنا أن آدم نصب عليه قبّة وأن الملائكة قالوا له قد طفنا قبلك بهذا البيتَ وأن السفينة طافت به أربعين يوماً، أو نحو ذلك، ولكن كل هذه الأخبار عن بني إسرائيل. وقد قرّرنا أنها لا تصدق ولا تكذب، فلا يُحتجّ بها، فأما إن ردّها الحق فهي مردودة. وقد قال الله ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ٩٦﴾ أي أول بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى البيت الذي ببكّة. قيل مكّة وقيل محل الكعبة ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ أي على أنه بناء الخليل والد الأنبياء من بعده وإمام الحنفاء من ولده، الذين يقتدون به ويتمسكون بسنّته، ولهذا قال: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي الحجر الذي كان يقف عليه قائماً لمّا ارتفع البناء عن قامته، فوضع له ولده هذا الحجر المشهور ليرتفع عليه لمّا تعالى البناء، وعَظُم الفناء، كما تقدّم في حديث ابن عبّاس الطويل. وقد كان هذا الحجر ملصقاً بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأخّره عن البيت قليلاً لئلا يشغل المصلين عنده الطائفين بالبيت، واتبع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا فإنه قد وافقه ربّه في أشياء منها في قوله لرسوله ﷺ لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى﴾[(٢)] [البقرة: الآية ١٢٥] وقد كانت آثار قدمي الخليل باقية في الصخرة إلى أول الإسلام، وقد قال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة: [الطويل]

وَثَورٍ[(٣)] وَمَنْ أَرْسَى ثَبِيراً مَكَانَهُ ... وَرَاقٍ لِبِرٍّ فِي حِرَاءٍ وَنَازِلِ

---

(١) أخرجه البخاري في جزاء الصيد باب ١٠، ومسلم في الحج حديث ٤٤٥.
(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب ٢، سورة البقرة.
(٣) ثور: الجبل الذي فيه الغار.

وَبِالْبَيْتِ حَقُّ الْبَيْتِ مِنْ بَطْنِ مَكَّةٍ وَبِاللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِغَافِلِ
وَبِالْحَجَرِ الْمُسْوَدِّ إِذْ يَمْسَحُونَهُ إِذَا اكْتَنَفُوهُ بِالضُّحَى وَالأَصَائِلِ
وَمَوْطِيءِ إِبراهيمَ في الصَّخْرِ رَطْبَةً عَلَى قَدَمَيْهِ حافِياً غَيْرَ نَاعِلِ

يعني أن رجله الكريمة غاصت في الصخرة فصارت على قدر قدمه حافية لا متنعلة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ أي في حال قولهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فهما في غاية الإخلاص والطاعة لله عزّ وجلّ وهما يسألان من الله السميع العليم أن يتقبل منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعي المشكور ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: الآية ١٢٧].

والمقصود أن الخليل بنى أشرف[1] المساجد في أشرف البقاع في وادٍ غير ذي زرع، ودعا لأهلها بالبركة وأن يرزقوا من الثمرات مع قلّة المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار، وأن يجعله حرماً محرّماً وآمنا محتماً، فاستجاب الله وله الحمد له مسألته ولبّى دعوته وآتاه طلبته فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت: الآية ٦٧] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: الآية ٥٧] وسأل الله أن يبعث فيهم رسولاً منهم، أي من جنسهم، وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة، لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية سعادة الأولى والأخرى. وقد استجاب الله له فبعث فيهم رسولاً وأي رسول ختم به أنبياءه، ورسله، وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحداً قبله، وعمّ بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم في سائر الأقطار والأمصار والأعصار، إلى يوم القيامة. وكان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء لشرفه في نفسه، وكمال ما أُرسل به، وشرف بقعته وفصاحة لغته وكمال شفقته على أمته، ولطفه ورحمته وكريم محتده[2]، وعظيم مولده، وطيب مصدره ومورده.

ولهذا استحق إبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان باني الكعبة لأهل الأرض، أن يكون منصبه ومحله وموضعه في منازل السموات، ورفيع الدرجات عند البيت المعمور الذي هو كعبة أهل السماء السابعة المبارك المبرور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه. ثم لا يعودون إليه إلى يوم البعث والنشور. وقد ذكرنا في التفسير من سورة البقرة صفة بناية البيت وما ورد في ذلك من الأخبار والآثار بما فيه كفاية، فمن أراده فليراجعه ثم ولله الحمد.

فمن ذلك ما قال السُدّيّ لمّا أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت ثم لم يدريا أين مكانه حتى بعث الله ريحاً يقال له الحجوج لها جناحان ورأس في صورة حيّة، فكنَست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول، واتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس، وذلك حين يقول تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ فلما بلغا القواعد بنيا الركن، قال:

(١) في الأصل: أفضل. (٢) محتده: نسبه.

إبراهيم لإسماعيل يا بني اطلب لي [حجراً حسناً أضعه ها هنا قال: يا أبت إني كسلان لعب قال علي ذلك. فانطلق وجاءه جبريل بالحجر][(١)] الأسود من الهند، وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل النعامة، وكان آدم هبط به من الجنّة فاسود من خطايا الناس، فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن. فقال يا أبتي من جاءك بهذا، قال جاء به من هو أنشط منك فبنيا وهما يدعوان الله ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وذكر ابن أبي حاتم أنه بناه من خمسة أجبل، وأن ذا القرنين وكان ملك [أهل][(٢)] الأرض إذ ذاك مرّ بهما وهما يبنيانه، فقال من أمركما بهذا؟ فقال إبراهيم الله أمرنا به، فقال وما يدريني بما تقول؟ فشهدت خمسة أكبش أنه أمره بذلك فآمن وصدق.

وذكر الأزرقي أنه طاف مع الخليل بالبيت، وقد كانت على بناء الخليل مدّة طويلة، ثم بعد ذلك بنتها قريش فقصّرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال مما يلي الشام على ما هي عليه اليوم.

وفي الصحيحين من حديث مالك عن ابن شهاب عن سالم أن عبد الله بن محمد بن أبي بكر أخبر ابن عمر عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «أَلَمْ تَرَى إِلَى قَوْمِكِ حِينَ بَنَوْا الكَعْبَةَ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ» فقلت يا رسول الله ألا تردّها على قواعد إبراهيم فقال: «لَوْلاَ حَدَثَانُ قَوْمِكِ»[(٣)]، وفي رواية: «لَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ حديثو عَهْدٍ بِجاهِلِيَّةٍ»[(٤)] أَوْ قَالَ: «بِكُفْرٍ لأَنْفَقْتُ كَنْزَ الكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَجَعَلْتُ بَابَهَا بِالأَرْضِ ولأَدْخَلْتُ فِيهَا الحَجَر». وقد بناها ابن الزبير رحمه الله في أيامه على ما أشار إليه رسول الله ﷺ حسبما أخبرته خالته عائشة أم المؤمنين عنه فلما قتله الحجّاج في سنة ثلاث وسبعين كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه، فأمر بردّها إلى ما كانت عليه فنقضوا الحائط الشامي وأخرجوا منها الحجر، ثم سدّوا الحائط وردموا الأحجار في جوف الكعبة فارتفع بابها الشرقي وسدّوا الغربي بالكليّة كما هو مشاهد إلى اليوم، ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين ندموا على ما فعلوا وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك. ثم لما كان في زمن المهدي بن المنصور استشار الإمام مالك بن أنس في ردّها على الصفة التي بناها ابن الزبير فقال له إني أخشى أن يتخذها الملوك لعبة، يعني كلما جاء ملك بناها على الصفة التي يريد فاستقرّ الأمر على ما هو[(٥)] عليه اليوم.

ذكر ثناء الله ورسوله الكريم على عبده وخليله إبراهيم

قال الله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا

(١) ما بين معقوفين سقط في ط. (٢) سقط في ط.
(٣) أخرجه البخاري في التفسير باب ٢، سورة البقرة، ومسلم في الحج حديث ٣٩٩، وأحمد في المسند ٦/ ١٧٦، ١٧٧.
(٤) أخرجه البخاري في الحج باب ٤٢، ومسلم في الحج حديث ٤٠٠.
(٥) في ط: هي.

يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤]. لمّا وفّى ما أمره ربّه به من التكاليف العظيمة جعله للناس إماماً يقتدون به ويأتمون بهديه وسأل الله أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه وباقية في نسبه وخالدة في عقبه فأجيب إلى ما سأل ورام. وسلّمت إليه الإمامة بزمام واستثنى من نيلها الظالمون واختصّ بها من ذريته العلماء العاملون كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: الآية ٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٨٤ ـ ٨٧]. فالضمير في قوله ومن ذريته عائد على إبراهيم على المشهور. ولوط وإن كان ابن أخيه إلاّ أنه دخل في الذرية تغليباً. وهذا هو الحامل للقائل الآخر أن الضمير على نوح كما قدمنا في قصته والله أعلم وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: الآية ٢٦] الآية. فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل فمن ذريته وشيعته. وهذه خلعة سنية لا تُضاهى ومرتبة عليه لا تُباهى. وذلك أنه ولد له لصلبه ولد أن ذكران عظيمان إسماعيل من هاجر ثم إسحاق من سارة وولد لهذا يعقوب وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه سائر أسباطهم[1] فكانت فيهم النبوة، وكثروا جداً بحيث لا يعلم عددهم إلاّ الذي بعثهم واختصّهم بالرسالة والنبوة حتى خُتِموا بعيسى ابن مريم من بني إسرائيل، وأما إسماعيل عليه السلام فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها كما سنبيّنه فيما بعد إنْ شاء الله تعالى ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيّدهم وفخر بني آدم في الدنيا والآخرة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي المكّي ثم المدني صلوات الله وسلامه عليه فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المنيف سوى هذه الجوهرة الباهرة والدرّة الزاهرة وواسطة العقد الفاخرة وهو السيد الذي يفتخر به أهل الجمع ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة. وقد ثبت عنه في صحيح مسلم كما سنورده أنه قال: «سَأَقُومُ مَقَاماً يَرْغَبُ إِلَيَّ الخَلْقُ كُلُّهُمْ حَتَّى إِبْرَاهِيمُ» فمدح إبراهيم أباه مدحة عظيمة في هذا السياق. ودلّ كلامه على أنه أفضل الخلائق بعده عند الخلاق في هذه الحياة الدنيا ويوم يكشف عن ساق.

وقال البخاري: حدّثنا عثمان بن أبي شيبة، حدّثنا جرير عن منصور عن المِنْهَالِ عن سعيد بنِ جبير عن ابن عبّاس قال: كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسنِ والحسين ويقول: «إنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهِمَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ. أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَةِ. مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ»[2]. ورواه أهل السنن من حديث منصور به.

---

(١) السبط: ولد الوالد.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ١٠، وأبو داود في السنة باب ٣٥، والترمذي في الطب باب ١٨، وابن ماجة في الطب باب ٣٦، وأحمد في المسند ١/٢٣٦.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٦٠] ذكر المفسرون لهذا السؤال أسباباً بسطناها في التفسير. وقررناها بأتم تقرير.

والحاصل أن الله عزّ وجلّ أجابه إلى ما سأل فأمره أن يعمد إلى أربعة من الطيور واختلفوا في تعينها على أقوال، والمقصود حاصل على كل تقدير فأمره أن يمزق لحومهن وريشهن ويخلط ذلك بعضه في بعض. ثم يقسمه قسماً ويجعل على كل جبل منهنّ جزأ. ففعل ما أُمِرَ به ثم أُمِرَ أن يدعوهن بإذن ربهنّ فلما دعاهن جعل كل عضو يطير إلى صاحبه وكل ريشة تأتي إلى أختها حتى اجتمع بدن كل طائر على ما كان عليه، وهو ينظر إلى قدرة الذي يقول للشيء كن فيكون فأتين إليه سعياً ليكون أبين له وأوضح لمشاهدته من أن يأتين طيراناً. ويقال إنه أمر أن يأخذ رؤوسهن في يده فجعل كل طائر يأتي فيلقى رأسه فيتركب على جثته كما كان، فلا إله إلاّ الله. وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى علماً يقينياً لا يحتمل النقيض، ولكن أَحَبَّ أن يشاهد ذلك عياناً ويترقّى من علم اليقين إلى عين اليقين، فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه غاية مأموله.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٥ ـ ٦٨] ينكر تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في دعوى كل من الفريقين كون الخليل على ملّتهم وطريقتهم، فبرّأه الله منهم وبين كثرة جهلهم وقلّة عقلهم في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي فكيف يكون على دينكم وأنتم إنما شرع لكم ما شرع بعده بمدد متطاولة، ولهذا قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ إلى أن قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

فبيّن أنه كان على دين الله الحنيف وهو القصد إلى الإخلاص والانحراف وعمداً عن الباطل إلى الحق الذي هو مخالف لليهودية والنصرانية والمشركية كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا

نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: الآيات ١٣٠-١٤٠].

فنزّه الله عزّ وجلّ خليله عليه السلام عن أن يكون يهودياً أو نصرانياً وبيّن أنه إنما كان حنيفاً مسلماً ولم يكن من المشركين.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ يعني الذين كانوا على ملّته من اتباعه في زمانه ومن تمسّك بدينه من بعدهم ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ﴾ يعني محمداً ﷺ فإن الله شرّع له الدين الحنيف الذي شرّعه للخليل وكمّله الله تعالى له، وأعطاه ما لم يعط نبياً ولا رسولاً قبله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: الآيات ١٦١-١٦٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: الآيات ١٢٠-١٢٣].

وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام عن مَعْمَرٍ عن أيوب عن عِكْرِمَةَ عن ابن عبّاس أن النبيّ ﷺ لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت، ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام فقال: «قَاتَلَهُمُ اللَّهُ وَاللَّهِ إِن يَسْتَقْسِمَا بِالأَزْلَامِ قَطُّ»(١) لم يخرجه مسلم وفي بعض ألفاظ البخاري: «قَاتَلَهُمُ اللَّهُ لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ شَيْخَنَا لَمْ يَسْتَقْسِمْ بِهَا قَطُّ»(٢). فقوله: ﴿أُمَّةً﴾ أي قدوة إماماً مهتدياً داعياً إلى الخير يقتدي به فيه ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ أي خاشعاً له في جميع حالاته وحركاته وسكناته ﴿حَنِيفًا﴾ أي مخلصاً على بصيرة ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ أي قائماً بشكر ربّه بجميع جوارحه من قلبه ولسانه وأعماله ﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾ أي اختاره الله لنفسه، واصطفاه لرسالته، واتخذه خليلاً. وجمع له بين خيري الدنيا والآخرة وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: الآية ١٢٥] يرغب تعالى في اتباع إبراهيم عليه السلام لأنه كان على الدين القويم والصراط المستقيم وقد قام بجميع ما أمره به ربّه ومدحه تعالى بذلك فقال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: الآية ٣٧] ولهذا اتخذه الله خليلاً والخلّة هي غاية المحبّة، كما قال بعضهم: [الخفيف].

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٨.
(٢) أخرجه البخاري في الحج باب ٥٤.

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي وَبِذَا سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلاً

وهكذا نال هذه المنزلة[١] خاتم الأنبياء وسيِّد الرسل، محمد صلوات الله وسلامه عليه كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث جُنْدُب البُجَلِي وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَابْنِ مَسْعُودٍ عن رَسُولِ الله ﷺ أنه قال: «أيُّهَا النَّاسُ إنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً»[٢]. وقال أيضاً في آخر خطبة خطبها: «أيُّهَا النَّاسُ لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ»[٣]. أخرجاه من حديث أبي سعيد. وثبت أيضاً من حديث عبد الله بن الزبير وابن عبّاس وابن مسعود.

وروى البخاري في صحيحه حدثنا سليمان بن حرب حدثنا شُعْبَةُ عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جُبَيْر عن عَمْرو بن مَيْمُونٍ، قال: إن معاذاً لما قدم اليمن صلّى بهم الصبح فقرأ واتخذ الله إبراهيم خليلاً. فقال رجل من القوم لقد قرت عين أم إبراهيم[٤].

وقال ابن مَرْدَوَيْه: حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أُسَيْد حدثنا إبراهيم بن يعقوب الجَوْزَجَاني بمكّة حدثنا عبد الله الحنَفِي حدثنا زُمْعَةُ بن صالح عن سَلَمَة بن وَهْرَام عن عِكْرِمة عن ابن عبّاس قال: جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم وإذا بعضهم يقول عجب أن الله اتخذ من خلقه خليلاً فإبراهيم خليله. وقال آخر: ماذا بأعجب من أن الله كلّم موسى تكليماً. وقال آخر فعيسى روح الله وكلمته. وقال آخر آدم اصطفاه الله. فخرج عليهم فسلّم وقال: «قَدْ سَمِعْتُ كَلامَكُمْ وَعَجَبَكُمْ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ وَهُوَ كَذَلِكَ وَمُوسَى كَلِيمُهُ وَهُوَ كَذَلِكَ وَعِيسَى رُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ وَهُوَ كَذَلِكَ وَآدَمَ اصْطَفَاهُ اللَّهُ وَهُوَ كَذَلِكَ، أَلاَ وَإِنِّي حَبِيبُ اللَّهِ وَلاَ فَخْرَ أَلاَ وَإِنِّي أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ وَلاَ فَخْرَ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُحَرِّكُ حَلْقَةَ بَابِ الجَنَّةِ فَيَفْتَحُهُ اللَّهُ فَيُدْخِلُنِيهَا وَمَعِي فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنَا أَكْرَمُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ». هذا حديث غريب من هذا الوجه وله شواهد من وجوه أخر والله أعلم.

وروى الحاكم في مستدركه من حديث قَتَادةَ عن عِكْرِمَةَ عن ابن عبّاس قال: أتنكرون أن تكون الخلّة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد لصلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؟ وقال ابن أبي حاتم: حدّثنا أُبَي، حدثنا محمود بن خالد المَسْلَمِي حدثنا الوليد عن إسحاق بن بشّار قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ألقى في قلبه الوجل[٥] حتى أن كان خفقان قلبه ليسمع من بعد كما يسمع خفقان الطير في الهواء. وقال عبيد بن عمير: كان إبراهيم عليه السلام يضيف

(١) في الأصل: المرتبة.
(٢) أخرجه مسلم في المساجد حديث ٢٣، وفضائل الصحابة حديث ٧، وأحمد في المسند ١/٣٨٩.
(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ٤٥، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٢، وأحمد في المسند ١٨/٣.
(٤) أخرجه البخاري في المغازي باب ٦٠.
(٥) الوجل: الخوف.

الناس فخرج يوماً يلتمس إنساناً يضيفه فلم يجد أحداً يضيفه فرجع إلى داره فوجد فيها رجلاً قائماً. فقال: يا عبد الله ما أدخلك داري بغير إذني، قال: دخلتها بإذن ربّها. قال ومن أنت قال: أنا ملك الموت أرسلني ربي إلى عبد من عباده أبشّره بأن الله قد اتخذه خليلاً. قال: من هو؟ فوالله إن أخبرتني به. ثم كان بأقصى البلاد لآتينه ثم لا أبرح له جاراً حتى يفرّق بيننا الموت. قال: ذلك العبد أنت. قال: أنا؟ قال: نعم قال: فبم اتخذني ربي خليلاً؟ قال: بأنك تعطي الناس ولا تسألهم. رواه ابن أبي حاتم. وقد ذكره الله تعالى في القرآن كثيراً في غير ما موضع بالثناء عليه والمدح له، فقيل: إنه مذكور في خمسة وثلاثين موضعاً، منها خمسة عشر في البقرة وحدها، هو أحد أولي العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصاً من بين سائر الأنبياء في آيتي الأحزاب والشورى، وهما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٧] وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: الآية ١٣] الآية. ثم هو أشرف أولي العزم بعد محمّد ﷺ، وهو الذي وجده عليه السلام في السماء السابعة مسنداً ظهره بالبيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم. وما وقع في حديث شَرِيْك بن أبي نُمَير عن أَنَس في حديث الإسراء من أن إبراهيم في السادسة وموسى في السابعة فمما انتقد على شَرِيْكٍ في هذا الحديث والصحيح الأول.

وقال أحمد: حدثنا محمد بن بِشرٍ حدثنا محمد بن عمرو حدثنا أبو سَلَمَة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الكَرِيمَ ابْنَ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ»(١). تفرّد به أحمد.

ثم مما يدل على أن إبراهيم أفضل من موسى الحديث الذي قال فيه: «وَأَخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ الخَلْقُ كُلُّهُمْ حَتَّى إِبْرَاهِيمُ» رواه مسلم(٢) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. وهذا هو المقام المحمود الذي أخبر عنه صلوات الله وسلامه عليه بقوله: «أَنَا سَيِّدُ وُلْدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ»(٣) ثم ذكر استشفاع الناس بآدم ثم بنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى فكلّهم يحيد عنها حتى يأتوا محمداً ﷺ فيقول: «أَنَا لَهَا أَنَا لَهَا» الحديث. وهكذا رواه البخاري في مواضع أخر ومسلم والنسائي من طريق عن يحيى بن سعيد القَطَّان عن عبيد الله وهوابن عمر العُمَرِيّ به.

قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عبد الله، حدثني سعيد عن أبيه عن أبي هريرة قال: قيل يا رسولَ الله من أكرمُ الناس؟ قال: «أَتْقَاهُمْ». قال: ليس

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٣٢.
(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها حديث ٢٧٣، وأحمد في المسند ٥/١٢٨، ١٢٩.
(٣) أخرجه مسلم في الفضائل حديث ٣، والترمذي في تفسير القرآن، باب ١٨، ومن سورة بني إسرائيل، وابن ماجة في الزهد باب ٣٧، وأحمد في المسند ٣/ ٢.

عن هذا نسألك، قال: «فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ». قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِي خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوا»(1).

ثم قال البخاري: قال أبو أسامة ومُعْتَمِر عن عبيد الله عن سعيد عن أبي هريرةَ عن النبيّ ﷺ قلت وقد أسنده في موضع آخر من حديثهما وحديث عَبْدَةَ بن سليمان والنسائيّ من حديث محمد بن بشر أربعتهم عن عُبَيْدِ الله بن عمر عن سعيد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وقال أحمد: حدثنا محمد بن بشر حدثنا محمد بن عمرو حدثنا أبو سَلَمَةَ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الكَرِيمَ ابْنَ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ»(2). تفرّد به أحمد. وقال البخاري حدثنا عَبْدَةُ حدثنا عبد الصمد بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «الكَرِيمُ ابْنُ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنَ إِسْحَقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ»(3). تفرّد به من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن ابن عمر به.

فأمّا الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا يحيى عن سفيان حدثني مُغِيرَةُ بن النُّعْمَان عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس عن النبي ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً فَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ»(4) ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: الآية 104] فأخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان الثوريّ وشعبة بن الحجّاج كلاهما عن مُغِيرَةَ بن النعمان النَّخْعِيّ الكوفيّ عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس به وهذه الفضيلة المعينة لا تقتضي الأفضلية بالنسبة إلى ما قابلها مما ثبت لصاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون.

وأما الحديث الآخر الذي قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وأبو نعيم، حدثنا سفيان هو الثوريّ عن مختار بن فلفل عن أنس بن مالك قال: قال رجل للنبيّ ﷺ: يا خيرَ البريّة، فقال: «ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ»(5) فقد رواه مسلم من حديث الثَّوْري وعبد الله بن إدريس، وعلي بن مِسْهَر ومحمد بن فُضَيْل، أربعتهم عن المُخْتَارِ بن فلفل. وقال الترمذيّ حسن صحيح. وهذا من باب الهضم والتواضع مع والده الخليل عليه السلام. كما قال: «لاَ تفضلوني على الأَنْبِيَاءِ»(6) وقال: «لاَ تُفَضِّلُونِي عَلَى مُوسَى فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ فَأَجِدُ مُوسَى بَاطِشاً بِقَائِمَةِ العَرْشِ فَلاَ أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ»(7)

---

(1) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب 19، والمناقب باب 1.
(2) أخرجه أحمد في المسند 2/ 332.
(3) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب 19.
(4) أخرجه البخاري في احاديث الأنبياء باب 8، والتفسير باب 2، ومسلم في الجنة حديث 58، وأحمد في المسند 1/ 223، والأغرل: هو الأقلف الذي لم يختن.
(5) أخرجه أحمد في المسند 3/ 178، 184.
(6) أخرجه أحمد في المسند 3/ 40، 41.
(7) أخرجه أحمد في المسند 2/ 264.

وهذا كله لا ينافي في ما ثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه من أنه سيّد ولد آدم يوم القيامة، وكذلك حديث أُبي بن كعب في صحيح مسلم: «وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلّهم حتى إبراهيم». ولما كان إبراهيم عليه السلام أفضل الرسل وأولي العزم بعد محمّد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أمر المصلي أن يقول في تشهده ما ثبت في الصحيحين من حديث كَعْبِ بن عُجْرَةَ وغيره قال: قلنا يا رسول الله هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾ [النجم: الآية ٣٧] قالوا وفيّ جميع ما أمر به وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل، ولا ينسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار.

قال عبد الرزاق أنبأنا مَعْمَر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عبّاس ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: الآية ١٢٤] قال ابتلاه الله بالطهارة خمس في الرأس وخمس في الجسد. في الرأس قص الشارب والمضمضة والسواك[2] والاستنشاق وفرق الرأس. وفي الجسد تقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء. رواه ابن أبي حاتم.

وقال: وروي عن سعيد بن المُسَيِّبِ ومجاهد والشَّعْبِي والنَّخْعِي وأبي صالح وأبي الجَلْدِ نحو ذلك.

قلت وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «الفِطْرَةُ خَمْسٌ الخِتَانُ وَالاسْتِحْدَادُ وَقَصُّ الشَّارِبِ وَتَقْلِيمُ الأَظْفَارِ وَنَتْفُ الإِبِطِ»[3]. وفي صحيح مسلم وأهل السنن من حديث وَكِيعٍ عن زَكَرِيًّا بن أبي زَائِدَةَ عن مصعب بن شَيْبَةَ العَبْدَرِيّ المكّي الحجبيّ عن طَلْقِ بن حَبِيبٍ العنزي[4] عن عبد الله بن الزبير عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «عَشْرٌ مِنَ الفِطْرَةِ قَصُّ الشَّارِبِ وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ وَالسِّوَاكُ وَاسْتِنْشَاقُ المَاءِ وَقَصُّ الأَظْفَارِ وَغَسْلُ البَرَاجِمِ وَنَتْفُ الإِبِطِ وَحَلْقُ العَانَةِ وَانْتِقَاصُ المَاءِ»[5]. يعني الاستنجاء وسيأتي في ذكر مقدار عمره الكلام على الختان. والمقصود أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يشغله القيام بالإخلاص لله عزّ وجلّ، وخشوع العبادة العظيمة عن مراعاة مصلحة بدنه وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الإصلاح والتحسين وإزالة ما يشين من زيادة شعر أو ظفر أو وجود قلح[6] أو وسخ فهذا من جملة قوله تعالى في حقّه من

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٩، ومسلم في الصلاة حديث ٦٦، وأحمد في المسند ٤/ ٢٤١.
(٢) السواك: تدليك الفم بعود خاص يستعمل لهذه الغاية.
(٣) أخرجه البخاري في اللباس باب ٦٣، ومسلم في الطهارة حديث ٤٩، وأحمد في المسند ٢/ ٢٢٩.
(٤) بفتح المهملة والنون: صدوق.
(٥) أخرجه مسلم في الطهارة حديث ٥٦، وأبو داود في الطهارة باب ٢٩، والترمذي في الأدب باب ١٤، والنسائي في الزينة باب ١، وابن ماجة في الطهارة باب ٨، وأحمد في المسند ٦/ ١٣٧.
(٦) القلح: صفرة في الأسنان.

المدح العظيم وإبراهيم الذي وفّى.

[ذكر][(١)] قصره في الجنة

قال الحافظ أبو بكر البزّار: حدثنا أحمد بن سِنَان القَطّان الواسطي ومحمد بن موسى القطّان قالا: حدثنا يزيد بن هارون حدثنا حمّاد بن سَلَمَة عن سِمَاك عن عِكْرِمَةَ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ فِي الجَنَّةِ قَصْراً أَحْسَبُهُ قَالَ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ لَيسَ فِيه فَصْمٌ[(٢)] وَلاَ وَهْيٌ[(٣)] أَعَدَّهُ اللَّهُ لِخَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ نُزلاً».

قال البزّار: وحدّثناه أحمد بن جميل المَرْوَزِيّ حدثنا النَّضرُ بن شُمَيْلٍ حدثنا حَمّادُ بن سَلَمَة عن سِمَاكٍ عن عِكْرِمَةَ عن أبي هريرةَ عن النبيّ ﷺ بنحوه، ثم قال: وهذا الحديث لا نعلم رواه عن حَمَّادِ بن سَلَمَةَ فأسنده إلاّ يزيد بن هارون وَالنَّضرِ بن شُمَيْلٍ وغيرهما يرويه موقوفاً قلت لولا هذه العلّة لكان على شرط الصحيح ولم يخرجوه.

[ذكر][(٤)] صفة إبراهيم عليه السلام

قال الإمام أحمد: حدثنا يونس وحُجَيْنٌ قالا: حدثنا الليث عن أبي الزبير عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عُرِضَ عَلَيَّ الأَنْبِيَاءِ فَإِذَا مُوسَى ضَرْبٌ مِنَ الرِّجَالِ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهاً عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهاً دِحْيَةُ»[(٥)]. تفرّد به الإمام أحمد من هذا الوجه وبهذا اللفظ.

وقال أحمد: حدثنا أَسْوَدُ بنِ عَامِرٍ، حدثنا إسرائيلُ عن عثمانَ يعني ابن المغيرة عن مجاهدٍ عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَمُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ فَأَمَّا عِيسَى فَأَحْمَرُ جَعْدٌ عَرِيضُ الصَّدْرِ ـ وَأَمَّا مُوسَى فَآدَمُ جَسِيمٌ». قَالُوا لَهُ فَإِبْرَاهِيمُ قال: «انْظُرُوا إِلَى صَاحِبِكُمْ»[(٦)] يعني نفسه.

وقال البخاري: حدثنا بَيَانُ بن عمرو، حدثنا النَّضرُ أنبأنا ابن عَوْنٍ عن مجاهد أنه سمع ابن عبّاس وذكروا له الدجّال بين عينيه كافراً و (ك ف ر) فقال لم أسمعه ولكنه قال ﷺ: «أَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَانْظُرُوا إِلَى صَاحِبِكُمْ، وَأَمَّا مُوسَى فَجَعْدٌ آدَمُ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ مَخْطُومٍ بِخلبةٍ كَأَنِّي أَنْظُرَ إِلَيْهِ انْحَدَرِ فِي الوَادِي»[(٧)]. ورواه البخاري أيضاً ومسلم عن محمد بن المُثنّى عن ابن أبي عَدِيٍّ عن عبد الله بن عَوْنٍ به. وهكذا رواه البخاري أيضاً في كتاب الحجّ وفي اللباس ومسلم جميعاً عن محمد بن المثنى عن ابن أبي عديّ عن عبد الله بن عون به.

---

(١) سقط في ط.
(٢) فصم: كسرٌ.
(٣) وهيٌ: شقّ.
(٤) سقط في ط.
(٥) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٣٣٤.
(٦) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٩٦.
(٧) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٨، واللباس باب ٦٨، ومسلم في الإيمان حديث ٢٧٠.

[ذكر][١] وفاة إبراهيم الخليل وما قيل في عمره

ذكر ابن جرير في تاريخه أن مولده كان في زمن النَّمْرُودِ بن كَنْعَانَ وهو فيما قيل: الضَّحَّاكُ الملك المشهور الذي يقال إنه ملك ألف سنة. وكان في غاية الغشم[٢] والظلم. وذكر بعضهم أنه من بني راسب الذين بُعِثَ إليهم نوح عليه السلام، وأنه كان إذ ذاك ملك الدنيا. وذكروا أنه طلع نجم أخفى ضوء الشمس والقمر فهال ذلك أهل ذلك الزمان وفزع النمرود. فجمع الكهنة والمنجمين وسألهم عن ذلك فقالوا يولد مولود في رعيتك يكون زوال ملكك على يديه. فأمر عند ذلك بمنع الرجال عن النساء وأن يقتل المولودون من ذلك الحين، فكان مولد إبراهيم الخليل في ذلك الحين فحماه الله عزّ وجلّ وصانه من كيد الفجّار، وشبّ شباباً باهراً وأنبته الله نباتاً حسناً، حتى كان من أمره ما تقدّم وكان مولده بالسوس وقيل: ببابل وقيل: بالسواد من ناحية كوثى[٣] وتقدم عن ابن عباس أنه ولد ببرزة شرقي دمشق فلما أهلك الله نمرود على يديه وهاجر إلى حرّان، ثم إلى أرض الشام، وأقام ببلاد إيليا كما ذكرنا وولد له إسماعيل وإسحاق وماتت سارة قبله بقرية حَبْرون التي في أرض كنعان، ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة فيما ذكر أهل الكتاب، فحزن عليها إبراهيم عليه السلام ورثاها رحمها الله، واشترى من رجل من بني حيث يقال له عفرون بن صخر مغارة بأربع مائة مثقال، ودفن فيها سارة هنالك. قالوا: ثم خطب إبراهيم على ابنه إسحاق فزوّجه رفقا بنت بتوئيل بن ناحور بن تارح وبعث مولاه فحملها من بلادها ومعها مرضعتها وجواريها على الإبل، قالوا: ثم تزوّج إبراهيم عليه السلام قنطورا فولدت له زمران ويقشان ومادان ومدين وشياق وشوح. وذكروا ما ولد كل واحد من هؤلاء أولاد قنطورا.

وقد روى ابن عساكر عن غير واحد من السلف عن أخبار أهل الكتاب في صفة مجيء ملك الموت إلى إبراهيم عليه السلام أخباراً كثيرة الله أعلم بصحتها. وقد قيل إنه مات فجأة وكذا داود وسليمان والذي ذكره أهل الكتاب وغيرهم خلاف ذلك. قالوا: ثم مرض إبراهيم عليه السلام ومات عن مائة وخمس وسبعين. وقيل وتسعين سنة، ودفن في المغارة المذكورة التي كانت بحَبْرون الحيثي عند امرأته سارة التي في مزرعة عفرون الحيثي، وتولى دفنه إسماعيل وإسحاق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وقد ورد ما يدل أنه عاش مائتي سنة، كما قاله ابن الكَلْبي.

---

(١) سقط في ط.

(٢) الغشم: الظلم.

(٣) جاء في معجم البلدان (كوثى) بالضم ثم السكون والثاء مثلثة وألف مقصورة تكتب بالياء لأنها رابعة الإسم. إلى قوله: (كوثى) في ثلاث مواضع بسواد العراق وفي أرض بابل وبمكة، إلى أن قال: وكوثى العراق. كوثيان أحدهما كوثى الطريق، والآخر كوثى ربى وبها مشهد إبراهيم الخليل عليه السلام. وبها مولده وهما من أرض بابل وبها طرح إبراهيم في النار وهما ناحيتان.

وقال أبو حاتم بن حِبان في صحيحه: أنبأنا المُفَضَّلُ بن محمد الجُنْدِي بمكة، حدثنا علي بن زياد اللَّخْمِي، حدثنا أبو قُرَّةَ عن ابن جُرَيْج عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «اخْتَتَنَ إِبْرَاهِيمُ بِالْقَدُوم وَهُوَ ابْنُ عِشْرِينَ وَمَائَةِ سَنَةً، وَعَاشَ بَعْدَ ذَلِكَ ثَمَانِينَ سَنَةً». وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق عِكْرِمَةَ بن إبراهيم وجعفر بن عَوْنٍ العُمَرِيّ عن يحيى بن سعيد عن سعيد عن أبي هريرة موقوفاً.

ثم قال ابن حِبان ذكر الخبر المدحض[1] قول من زعم أن رفع هذا الخبر وهم أخبرنا محمد بن عبد الله بن نمير حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا الليث عن ابن عَجْلاَنَ عن أبيه عن أبي هريرةَ عن النبي ﷺ قال: «اخْتَتَنَ إِبْرَاهِيمُ حِينَ بَلَغَ مَائَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً وَعَاشَ بَعْدَ ذَلِكَ ثَمَانِين سَنَةً وَاخْتَتَنَ بِقَدُوم».

وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن سعيد عن ابن عَجْلاَنَ عن أبيه عن أبي هريرةَ عن النبي ﷺ: «وَقَدْ أَتَتْ عَلَيْهِ ثَمانُونَ سَنَةٍ». ثم روى ابن حِبان عن عبد الرزاق أنه قال: القدوم اسم القرية.

قلت: الذي في الصحيح أنه اختتن وقد أتت عليه ثمانون سنة. وفي رواية وهو ابن ثمانين سنة وليس فيهما تعرّض لما عاش بعد ذلك والله أعلم.

وقال محمد بن إسماعيل الحسّاني الواسطي زاد في تفسير وكيع عنه فيما ذكره من الزيادات: حدثنا أبو معاوية عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة قال: «كان إبراهيم أول من تسرول وأول من فرّق وأول من استحدّ وأول من اختتن بالقدوم وهو ابن عشرين ومائة سنة. وعاش بعد ذلك ثمانين سنة، وأول من قرى[2] الضيف وأول من شاب»، هكذا رواه موقوفاً، وهو أشبه بالمرفوع خلافاً لابن حبان والله أعلم.

وقال مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المُسَيِّبِ قال: كان إبراهيم أول من أضاف الضيف وأول الناس اختتن وأول الناس قصّ شاربه، وأول الناس رأى الشيب، فقال: يا رب ما هذا؟ فقال الله «وَقَارٌ» فقال يا ربِّ زدني وقاراً[3]. وزاد غيرهما وأول من قصّ شاربه وأول من استحدّ وأول من لبس السراويل. فقبره وقبر ولده إسحاق وقبر ولد ولده يعقوب في المربعة التي بناها سليمان بن داود عليه السلام ببلد حَبْرون وهو البلد المعروف بالخليل اليوم وهذا متلقى[4] بالتواتر أمة بعد أمة وجيل بعد جيل من زمن بني إسرائيل وإلى زماننا هذا أن قبره بالمربعة تحقيقاً. فأما تعيينه منها فليس فيه خبر صحيح عن معصوم فينبغي أن تراعى تلك المحلة، وأن تحترم احترام مثلها، وأن تبجّل وأن تجلّ أن يداس في أرجائها خشية أن يكون قبر الخليل أو أحدٍ من أولاده الأنبياء عليهم السلام تحتها.

وروى ابن عساكر بسنده إلى وَهْبِ بن مُنَبِّه قال: وجد عند قبر إبراهيم الخليل على حجر

---

(١) المدحض: الباطل.
(٢) قرى: اطعم.
(٣) أخرجه مالك في صفة النبي ص حديث ٤.
(٤) في ط: تلقى.

كتابة خلقة: [رجز]

أَلْـــهى جَــهُــولاً أَمَــلُــهْ يَــمُــوتُ مَــنْ جَــا أَجَــلُــهْ
وَمَــنْ دَنَــا مِــنْ حَــتْــفِهِ لَــمْ تُــغْــنِ عَــنْــهُ حِــيَــلُــهْ
وَكَــيْــفَ يَــبْــقَــى آخِــرٌ مَــنْ مَــاتَ عَــنْــهُ أَوَّلُــهْ
وَالْــمَــرْءُ لاَ يَــصْــحَــبُــهُ فِــي الْــقَــبْــرِ إِلاَّ عَــمَــلُــهْ

ذكر أولاد إبراهيم الخليل

أول من ولد له إسماعيل من هاجر القبطية المصرية، ثم ولد له إسحاق من سارة بنت عم الخليل، ثم تزوج بعدها قنطورا بنت يقطن الكنعانية، فولدت له ستة: مدين وزمران وسرخ وبقشان ونشق ولم يسم السادس، ثم تزوج بعدها حجون بنت أمين، فولدت له خمسة: كيسان وسورج واميم ولوطان ونافس. هكذا ذكره أبو القاسم السُهَيْلي في كتابه التعريف والإعلام.

ومما وقع في حياة إبراهيم الخليل من الأمور العظيمة قصّة قوم لوط عليه السلام، وما حَلّ بهم من النقمة الغميمة[١] وذلك أن لوطاً بن هاران بن تارح وهو آزر كما تقدم، ولوط ابن أخي إبراهيم الخليل، فإبراهيم وهاران وناحور إخوة كما قدّمنا، ويقال إن هاران هذا هو الذي بنى حرّان. وهذا ضعيف لمخالفته ما بأيدي أهل الكتاب والله أعلم.

وكان لوط قد نزح عن محلّة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له وأذنه، فنزل بمدينة سَدُوم من أرض غور زغر، وكان أمّ تلك المحلة ولها أرض ومعتملات وقرى مضافة إليها، ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية[٢] وأرداهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين، فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرّمات والفواحش المنكرات والأفاعيل المستقبحات، فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فأحلّ الله بهم من البأس الذي لا يردّ ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم وجعلهم مثلة في العالمين وعبرة يتّعظ بها الألباء من العالمين، ولهذا ذكر الله تعالى قصّتهم في غير ما وضع من كتابه المبين فقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف: ٨٠ ـ ٨٤] وقال تعالى في سورة هود:

(١) الغميمة: من الغم والكرب.
(٢) طوية: ما يتطوى عليه من الطبع.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾ [هود: الآيات ٦٩ـ٨٣].

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا ۙ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)﴾ [الحجر: الآيات ٥١ـ٧٧].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)﴾ [الشعراء: الآيات ١٦٠ـ١٧٥].

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ (٥٨)﴾ [النمل: الآيات ٥٤ـ ٥٨].

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٣٢) وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥)﴾ [العنكبوت: الآيات ٢٨ـ ٣٥].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات: الآيات ١٣٣ـ ١٣٨].

وقال تعالى في الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٣٧)﴾ [الذاريات: الآيات ٣١ـ ٣٧].

وقال في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ (٣٣) إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ (٣٤) نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠)﴾ [القمر: الآيات ٣٣ـ ٤٠].

وقد تكلّمنا على هذه القصص في أماكنها من هذه السور[1] في التفسير. وقد ذكر الله لوطاً وقومه في مواضع أخر من القرآن تقدّم ذكرها مع قوم نوح وعاد وثمود. والمقصود الآن إيراد ما كان من أمرهم وما أحل الله بهم مجموعاً من الآيات والآثار وبالله المستعان.

وذلك أن لوطاً عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي ما ذكر الله عنهم من الفواحش، فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به حتى ولا رجل واحد منهم، ولم يتركوا ما عنه نُهوا بل استمروا على حالهم ولم يرتدعوا عن غيهم وضلالهم وهمّوا بإخراج

(١) في ط: السورة.

رسولهم من بين ظهرانيهم وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم إذ كانوا لا يعقلون إلاّ أن قالوا: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ فجعلوا غاية المدح ذماً يقتضي الإخراج وما حملهم على مقالتهم هذه إلاّ العناد واللجاج فطهّره الله وأهله إلاّ امرأته، وأخرجهم منها أحسن إخراج، وتركهم في محلّتهم خالدين لكن بعد ما صيّرها عليهم بحرة منتنة ذات أمواج لكنها عليهم في الحقيقة نار تأجج وحر يتوهّج وماؤها ملح أجاج، وما كان هذا جوابهم إلاّ لما نهاهم عن الطامة العظمى والفاحشة الكبرى، التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين[1] أهل الدنيا.

ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمن عليها، وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويأتون في ناديهم وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم المنكر من الأقوال والأفعال على إختلاف أصنافه، حتى قيل إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم ولا يستحيون من مُجالسهم، وربما وقع منهم الفعلة العظيمة في المحافل، ولا يستنكفون ولا يرعوون[2] لوعظ واعظ، ولا نصيحة من عاقل، وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلاً، ولم يقلعوا عما كانوا عليه في الحاضر، ولا ندموا على ما سلف من الماضي، ولا راموا في المستقبل تحويلاً، فأخذهم الله أخذاً وبيلاً، وقالوا له فيما قالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت: الآية ٢٩] فطلبوا منه وقوع ما حذّرهم عنه من العذاب الأليم وحلول البأس العظيم فعند ذلك دعا عليهم نبيّهم الكريم، فسأل من ربّ العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين، فغار [الله][3] لغيرته، وغضب لغضبته، واستجاب لدعوته، وأجابه إلى طلبته، وبعث رسله الكرام وملائكته العظام، فمرّوا على الخليل إبراهيم وبشّروه بالغلام العليم، وأخبروه بما جاؤوا له من الأمر الجسيم والخطب العميم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الذاريات: الآيات ٣١ ـ ٣٤].

وقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [العنكبوت: الآية ٣١ ـ ٣٢].

وقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ [هود: الآية ٧٤]. وذلك إنه كان يرجو أن ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: الآيتان ٧٥ ـ ٧٦] أي أعرض عن هذا وتكلّم في غيره فإنه قد حتم أمرهم ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم إنه قد جاء أمر ربّك أي قد أمر به من لا يُرَدُّ أمره ولا يُرَدّ بأسه ولا معقب لحكمه وإنهم آتيهم عذاب غير مردود.

وذكر سعيد بن جُبَيْر والسّدِيّ وقَتَادَةَ ومحمد بن إسحاق أن إبراهيم عليه السلام جعل يقول: (أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: فمائتا مؤمن؟ قالوا: لا، قال

(١) سقط في ط. (٢) يرعوون: يهتدون. (٣) لفظ الجلالة سقط في ط.

فأربعون مؤمناً؟ قالوا: لا قال فأربعة عشر مؤمناً؟ قالوا: لا) قال ابن إسحاق إلى أن قال: (أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد؟ قالوا: لا) قال: إن فيها لوطاً، ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ الآية.

وعند أهل الكتاب أنه قال يا ربّ أتهلكهم وفيهم خمسون رجلاً صالحاً فقال الله لا أهلكهم وفيهم خمسون صالحاً، ثم تنازل إلى عشرة فقال الله: **لا أهلكهم وفيهم عشرة صالحون** قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ [هود: الآية ٧٧].

قال المفسّرون لمّا فصلت الملائكة من عند إبراهيم، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم في صُوَر شبّان حسان اختياراً من الله تعالى لقوم لوط، وإقامة للحجّة عليهم، فاستضافوا لوطاً عليه السلام، وذلك عند غروب الشمس، فخشي إن لم يضفهم يضيفهم غيره، وحسبهم بشراً من الناس، وسيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب.

قال ابن عبّاس، ومُجَاهِدَ، وقَتادة، ومحمد بن إسحاق: شديد بلاؤه وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم كما كان يصنع بهم في غيرهم، وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحداً، ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه.

وذكر قَتَادَة أنهم وردوا عليه وهو في أرض له يعمل فيها فتضيفوا فاستحيى منهم، وانطلق أمامهم وجعل يعرّض لهم في الكلام لعلّهم ينصرفون عن هذه القرية، وينزلوا في غيرها، فقال لهم فيما قال: يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء، ثم مشى قليلاً ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرّات، قال وكانوا قد أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيّهم بذلك.

وقال السّدِيّ. خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قوم لوط، فأتوها نصف النهار، فلّما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقي من الماء لأهلها، وكانت له ابنتان اسم الكبرى ريثا والصغرى ذعرتا. فقالوا لها: يا جارية هل من منزل، فقالت لهم مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم، شفقة[1] عليهم من قومها فأتت أباها فقالت: يا أبتاه أرادك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط هي أحسن منهم لا يأخذهم قومك فيفضحوهم، وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلاً، فجاء بهم فلم يعلم أحد إلا أهل البيت، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، فقالت إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط، فجاءه قومه يهرعون إليه وقوله: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: الآية ٧٨]. أي هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: الآية ٧٨] يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته شرعاً لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد كما ورد في الحديث، وكما قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٦].

---

(١) في ط: فرقت.

وفي قراءة[1] بعض الصحابة والسلف وهو أب لهم. وهذا كقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: الآيتان ١٦٥-١٦٦] وهذا هو الذي نصّ عليه مجاهد وسعيد بن جُبَيْر والرَّبيع بن أنس وقتادة والسُّدِيّ ومحمد بن إسحاق وهو الصواب.

والقول الآخر خطأ مأخوذ من أهل الكتاب، وقد تصحّف عليهم كما أخطأوا في قولهم إن الملائكة كانوا اثنين وأنهم تعشّوا عنده، وقد خبط أهل الكتاب في هذه القصّة تخبيطاً عظيماً، وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ [هود: الآية ٧٨] نهي لهم عن تعاطي ما لا يليق من الفاحشة وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة ولا فيه خير بل الجميع سفهاء. فَجَرة أقوياء. كَفَرة أعتياء[2]. وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوا منه من قبل أن يسألوه عنه. فقال قومه عليهم لعنة الله الحميد المجيد. مجيبين لنبيّهم فيما أمرهم به من الأمر السديد ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ [هود: الآية ٧٩] يقولون عليهم لعائن الله لقد علمت يا لوط إنه لا أرب لنا في نسائنا، وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا. واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم ولم يخافوا سطوة العظيم ذي العذاب الأليم. ولهذا قال عليه السلام: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود: الآية ٨٠] ودّ أن لو كان له بهم قوة، أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم، ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب. وقد قال الزُهريّ عن سعيد بن المسيب وأبي سَلَمَة عن أبي هريرة مرفوعاً: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَيَرْحَمِ اللَّهُ لُوطاً لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لأَجَبْتُ الدَّاعِي»[3] ورواه أبو الزِّنَادِ عن الأعْرَجِ عن أبي هريرة.

وقال محمد بن عمرو بن عَلْقَمَةَ عن أبي سَلَمَةَ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى لُوطٍ لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ يَعْنِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَمَا بَعَثَ اللَّهُ بَعْدَهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ»[4].

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الحجر: الآيات ٦٧-٧١] فأمرهم بقربان نسائهم وحذّرهم الاستمرار على طريقتهم وسيآتهم، هذا وهم في ذلك لا ينتهون ولا يرعوون بل كلّما نصح لهم يبالغون في تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرّضون. ولم يعلموا ما حم به القدر مما هم إليه صائرون. وصبيحة ليلتهم إليه منقلبون ولهذا قال تعالى مقسماً بحياة نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: الآية ٧٢] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾ [القمر: الآيات ٣٦-٣٨].

---

(١) في ط: قول. (٢) في ط: أغبياء.
(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ١٩.
(٤) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن باب ١٣، من سورة يوسف، وأحمد في المسند ٢/ ٣٣٢.

ذكر المفسرون وغيرهم أن نبي الله لُوطاً عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق وهم يرومون فتحه وولوجه وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب وكل ما لهم في إلجاج وإلعاج فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال: لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد لأحللت بكم النكال. قالت الملائكة: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ [هود: الآية ٨١] وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم فضرب وجوههم خفقة بطوف جناحه فطمست أعينهم حتى قيل إنها غارت بالكلية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر فرجعوا يتجسسون مع الحيطان. ويتوعدون رسول الرحمن. ويقولون إذا كان الغد كان لنا وله شأن، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ٣٨﴾ فذلك أن الملائكة تقدّمت إلى لوط عليهم السلام آمرين له بأن يسري[1] هو وأهله من آخر الليل ولا يلتفت منكم أحد، يعني عند سماع صوت العذاب إذا حلّ بقومه وأمروه أن يكون سيره في آخرهم كالساقة لهم. وقوله: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ على قراءة النصب يحتمل أن يكون مستثنى من قوله: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾ كأنه يقول إلاّ امرأتك فلا تسر بها. ويحتمل أن يكون من قوله: ولا يلتفت منكم أحد إلاّ امرأتك أي فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم. ويقوّي هذا الاحتمال قراءة الرفع ولكن الأول أظهر في المعنى والله أعلم.

قال السُهَيْلِيّ: واسم امرأة لوط والهة واسم امرأة نوح والغة. وقالوا له مبشّرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة الملعونين النظراء والأشباه الذين جعلهم الله سلفاً لكل خائن مريب ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾ [هود:الآية ٨١] فلما خرج لوط عليه السلام بأهله وهم ابنتاه ولم يتبعه منهم رجل واحد، ويقال إن امرأته خرجت معه فالله أعلم. فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس فكان عند شروقها جاءهم من أمر الله ما لا يُرَدّ. ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يُصَدّ. وعند أهل الكتاب أن الملائكة أمروه أن يصعد إلى رأس الجبل الذي هناك فاستبعده، وسأل منهم أن يذهب إلى قرية قريبة منهم فقالوا اذهب فإنا ننتظرك حتى تصير إليها وتستقرّ فيها، ثم نحلّ بهم العذاب. فذكروا أنه ذهب إلى قرية صغر التي يقول الناس غور زغر، فلما أشرقت الشمس نزل بهم العذاب قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾ [هود: الآيات ٨٢ ـ ٨٣] قالوا اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن[2]، وكنّ سبع مدن بمن فيهن من الأمم، يقال[3] إنهم كانوا أربع مائة نسمة. وقيل أربعة آلاف نسمة وما معهم من الحيونات وما يتبع تلك المدن من الأراضي والأماكن والمعتملات، فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، قال مجاهد: فكان أول ما سقط منها شرفاتها ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ والسجّيل فارسي معرّب وهو الشديد الصلب القوي ﴿مَّنضُودٖ﴾ أي يتبع بعضها بعضاً في نزولها

(١) السّرى: السير في الليل.
(٢) القرار: العمق.
(٣) في ط: فقالوا.

عليهم من السماء ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه، كما قال: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الشعراء: الآية ١٧٣] وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم: الآيتان ٥٣-٥٤] يعني قلبها فأهوى بها منكسة عاليها سافلها وغشاها بمطر من حجارة من سجّيل متتابعة مرقومة على كل حجر اسم صاحبه الذي سقط عليه من الحاضرين منهم في بلدهم والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها.

ويقال إن امرأة لوط مكثت مع قومها، ويقال إنها خرجت مع زوجها وبنتيها ولكنها لمّا سمعت الصيحة وسقوط البلدة والتفتت إلى قومها وخالفت أمر ربّها قديماً وحديثاً، وقالت: واقوماه! فسقط عليها حجر فدمغها[1] وألحقها بقومها إذ كانت على دينهم، وكانت عيناً لهم على من يكون عند لوط من الضيفان، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: الآية ١٠] أي خانتاهما في الدين فلم يتبعاهما فيه. وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة حاشا وكلاّ ولما. فإن الله لا يقدّر على نبي أن تبغي امرأته كما قال ابن عبّاس وغيره من أئمة السلف والخلف: ما بغت امرأة نبي قط. ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأً كبيراً.

قال الله تعالى في قصة الإفك لما أنزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج رسول الله ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فعاتب الله المؤمنين وأنّب وزجر ووعظ وحذر وقال فيما قال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور: الآيتان ١٥-١٦]. أي سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة. وقوله ههنا: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي وما هذه العقوبة ببعيدة ممن أشبههم في فعلهم. ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرجم سواء كان محصناً أو لا، نصّ عليه الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة.

واحتجّوا أيضاً بما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديثُ عَمْرو بن أبي عَمْرو عن عِكْرِمَةَ عن ابن عبّاس أن رسولَ اللّهِ ﷺ قال: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ»[2] وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يُلْقى من شاهق جبل ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط لقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾. وجعل الله مكان تلك البلاد بحرة منتنة لا ينتفع بمائها ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها لرداءتها ودناءتها فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزّته في انتقامه ممن خالف أمره وكذّب رسله واتّبع هواه

---

(١) دمغ الحجر: أصاب الدماغ.

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود باب ٢٩، والترمذي في الحدود باب ٢٤، وابن ماجة في الحدود باب ١٢، وأحمد في المسند ١/ ٣٠٠.

وعصى مولاه. ودليلاً على رحمته بعباده المؤمنين في إنجائه إياهم من المهلكات. وإخراجه إياهم من النور إلى الظلمات كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ٨ ـ ٩].

وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحجر: الآيتان ٧٣ ـ ٧٧] أي من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم كيف غيرّ الله تلك البلاد وأهلها، وكيف جعلها بعد ما كانت آهلة عامرة. هالكة غامرة. كما روى الترمذي وغيره مرفوعاً: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ»[١] ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي لبطريق مهيع[٢] مسلوك إلى الآن كما قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: الآيتان ١٣٧ ـ ١٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: الآية ٣٥].

وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات: الآيات ٣٥ ـ ٣٧] أي تركناها عِبْرة وعِظَة لمن خاف عذاب الآخرة وخَشِيَ الرحمن بالغيب وخاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى فانزجر عن محارم الله وترك معاصيه وخاف أن يشابه قوم لوط ﴿وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ﴾ وإن لم يكن من كل وجه فمن بعض الوجوه، كما قال بعضهم [الطويل]:

فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا قَوْمَ لُوطٍ بِعَيْنِهِمْ فَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدِ

فالعاقل اللبيب الخائف من ربّه الفاهم يمتثل ما أمره الله به عزّ وجلّ، ويقبل ما أرشده إليه رسول الله من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال. والجواري من السراري ذوات الجمال. وإياه أن يتّبع كل شيطان مريد. فيحق عليه الوعيد. ويدخل في قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

قصة مدين قوم شعيب عليه السلام

قال الله تعالى في سورة الأعراف بعد قصة قوم لوط: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن باب ١٦، من سورة الحجر.

(٢) مهيع: بيّن.

بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٨٥ ـ ٩٣].

وقال في سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضاً. ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود: الآيات ٨٤ ـ ٩٥].

وقال في الحِجْر بعد قصة قوم لوط أيضاً. ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ [الحجر: الآيتان ٧٨ ـ ٧٩].

وقال [تعالى](١) في الشعراء بعد قصتهم. ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ

(١) سقط في ط.

كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ [الشعراء: الآيات ١٧٦ـ ١٩١].

كان أهل مَدْيَن قوماً عرباً يسكنون مدينتهم مَدْيَن التي هي قرية من أرض مَعَان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط. وكانوا بعدهم بمدة قريبة. ومَدْيَن قبيلة عرفت بهم القبيلة وهم من بني مَدْيَن بن مَدْيان بن إبراهيم الخليل وشعيب نبيّهم هو ابن ميكيل بن يشجن ذكره ابن إسحاق قال: ويقال له بالسريانية بثرون وفي هذا نظر، ويقال: شعيب بن يشجن بن لاوي بن يعقوب، ويقال: شعيب بن نويب [ابن عبيد بن مدين بن إبراهيم ويقال: شعيب بن] عيفا بن مدين بن إبراهيم. ويقال: شعيب بن ضيفور بن عَيْقا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم وقيل غير ذلك في نسبه.

قال ابن عساكر: ويقال: جدّته ويقال أمه بنت لوط [عليه السلام] وكان ممن آمن بإبراهيم وهاجر معه ودخل معه دمشق. وعن وهب بن منبه أنه قال: [كان][1] شعيب وملغم ممن آمن بإبراهيم يوم أحرق بالنار وهاجرا معه إلى الشام فزوّجهما بنتي لوط عليه السلام. ذكره ابن قتيبة. وفي هذا كله نظر أيضاً والله أعلم.

وذكر أبو عمر بن عبد البرّ في الاستيعاب [بلا إسناد][2] في ترجمة سَلَمة بن سعد العَنْزي قدم على رسول الله ﷺ فأسلم وانتسب إلى عنزة فقال «نِعْمَ الحيّ عنزة مبغي عليهم منصورون رهط[3] شعيب وأخبار موسى» فلو صحّ هذا دلّ على أن شعيباً صهر موسى، وأنه من قبيلة من العرب العاربة يقال لهم: عنزة لا أنهم من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان فإن هؤلاء بعده بدهر طويل والله أعلم.

وفي حديث أبي ذر الذي في صحيح ابن حبان في ذكر الأنبياء والرسل قال: «أَرْبَعَةٌ مِنَ العَرَبِ هُودٌ وَصَالِحٌ وَشُعَيْبٌ وَنَبِيُّكَ يَا أَبَا ذَرٍّ» وكان بعض السلف يسمى شعيباً خطيب الأنبياء يعني لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته. وقد روى ابن إسحاق بن بشر عن جُوَيْبِرٍ ومقاتِلٍ عن الضَّحَّاكِ عن ابن عبّاس قال كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شُعيباً قال: «ذَاكَ خَطِيبُ الأَنْبِيَاءِ» وكان أهل مَدْيَنَ كفّاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة وهي شجرة من الأيك حولها غيضة[4] ملتفّة بها، وكانوا من أسوء الناس معاملة يبخسون المكيال والميزان، ويطففون[5] فيهما يأخذون بالزائد، ويدفعون بالناقص. فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشيائهم، وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم، فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم حتى أحلّ الله بهم البأس الشديد. وهو الوليّ الحميد. كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ

(١) سقط في ط.
(٢) سقط في ط.
(٣) في ط: قوم.
(٤) الغيضة: الأجمة ومجتمع الشجر.
(٥) يطففون: ينقصون.

﴿جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: الآية ٨٥] أي دلالة وحجّة واضحة وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وأنه أرسلني وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات التي لم تنقل إلينا تفصيلاً وإن كان هذا اللفظ قد دل عليها إجمالاً: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾ [الأعراف: الآية ٨٥] أمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم وتوعدهم على خلاف ذلك فقال: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨٥ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ﴾ [الأعراف: الآيتان ٨٥ـ ٨٦] أي طريق ﴿تُوعِدُونَ﴾ أي تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك وتخيفون السبل.

قال السّدِيّ في تفسيره عن الصحابة ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ﴾ أنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة.

وقال إسحاق بن بشر عن جُوَيْبر عن الضحّاك عن ابن عبّاس قال: كانوا قوماً طغاة بغاة يجلسون على الطريق ﴿يَبۡخَسُونَ النَّاسَ﴾ يعني يعشّرونهم وكانوا أول من سَنّ ذلك ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ﴾ [الأعراف: الآية ٨٦] فنهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية والمعنوية الدينية: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٨٦﴾ [الأعراف: الآية ٨٦] ذكّرهم بنعمة الله تعالى عليهم في تكثيرهم بعد القلّة وحذّرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلّهم عليه كما قال لهم في القصة الأخرى ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ۝٨٤﴾ [هود: الآية ٨٤] أي لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه فيمحق[1] الله بركة ما في أيديكم ويفقركم ويذهب ما به يغنيكم وهذا مضاف إلى عذاب الآخرة ومن جمع له هذا وهذا فقد باء بالصفقة الخاسرة فنهاهم أولاً عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف وحذرهم سلب نعمة الله عليهم في دنياهم وعذابه الأليم في أخراهم وعنفهم أشد تعنيف.

ثم قال لهم آمراً بعد ما كان عن ضده زاجراً ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٨٥ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ۝٨٦﴾ [هود: الآيتان ٨٥ـ ٨٦] قال ابن عبّاس والحسن البصري ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس.

وقال ابن جرير ما فضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف.

قال: وقد روي هذا عن ابن عبّاس وهذا الذي قاله وحكاه حسن وهو شبيه بقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾ [المائدة: الآية ١٠٠] يعني أن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام فإن الحلال مبارك وإن قَلّ، والحرام ممحوق وإن كَثُر. كما قال تعالى يمحق الله الربا ويربي الصدقات.

---

(١) محق الشيء: نقصه وأذهب بركته.

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرِّبَا وَإِنْ كَثُرَ فَإِنَّ مَصِيرَهُ إِلَى قِلٍّ»(١) رواه أحمد أي إلى قِلّة وقال رسول الله ﷺ: «البيعان بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتفرَّقَا فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا»(٢) والمقصود أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قل والحرام لا يجدي وإن كثر، ولهذا قال نبي الله شعيب ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي افعلوا ما آمركم به ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه لا لأراكم أنا وغيري ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: الآية ٨٧] يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتنقص والتهكّم أصلواتك هذه التي تُصلّيها هي الآمرة لك بأن تحجر علينا فلا نعبد إلاّ إلهك ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأوّلون أو أن لا نتعامل إلاّ على الوجه الذي ترتضيه أنت، ونترك المعاملات التي تأباها وإن كنا نحن نرضاها ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾.

قال ابن عبّاس ومَيْمُونُ بن مِهْرَانَ وابن جُرَيْج وزَيْدُ بن أَسْلَمَ وابن جرير يقولون ذلك قول أعداء الله على سبيل الاستهزاء ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: الآية ٨٨] هذا تلطّف معهم في العبارة ودعوة لهم إلى الحق بأبين إشارة يقول لهم أرأيتم أيها المكذبون ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي على أمر بيّن من الله تعالى أنه أرسلني إليكم ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ يعني النبوّة والرسالة يعني وعمي عليكم معرفتها فأي حيلة لي بكم. وهذا كما تقدّم عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه سواء وقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ أي لست آمركم بالأمر إلاّ وأنا أول فاعل له، وإذا نهيتكم عن الشيء فأنا أول من يتركه، وهذه هي الصفة المحمودة العظيمة وضدّها هي المردودة الذميمة كما تلبّس بها علماء بني إسرائيل في آخر زمانهم وخطباؤهم الجاهلون.

قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: الآية ٤٤] وذكر عندها في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ أَيْ تَخرُجُ أَمعَاؤُهُ مِنْ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهِ(٣) فَيَجْتَمِعُ [عليه](٤) أَهلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ يَا فُلاَنُ مَا لَكَ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»(٥). وهذه صفة مخالفي الأنبياء من الفجّار والأشقياء، فأمّا السادة من النجباء والألباء من العلماء الذين يخشون ربّهم بالغيب فحالهم كما قال نبيّ الله شعيب ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ أي ما أريد في جميع أمري إلاّ الإصلاح في الفعال والمقال بجهدي وطاقتي ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ﴾ أي

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/٣٩٥.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/٤٠٢.
(٣) الرحا: الطاحون.
(٤) سقط في ط.
(٥) أخرجه البخاري في: بدء الخلق، باب: (١٠) ومسلم في: الزهد والرقائق، الحديث ٥١، وأحمد في المسند ٥/٢٠٧.

في جميع أحوالي ﴿إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي عليه أتوكل في سائر الأمور وإليه مرجعي ومصيري في كل أمري وهذا مقام ترغيب.

ثم انتقل إلى نوع من الترهيب فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ٨٩﴾ [هود: الآية ٨٩] أي لا تحملنكم مخالفتي وبغضكم ما جئتكم به على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم فيحلّ الله بكم من العذاب والنكال نظير ما أحلّه بنظرائكم وأشباهكم من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من المكذّبين المخالفين.

وقوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ٨٩﴾ قيل معناه في الزمان أي ما بالعهد من قدم مما قد بلغكم ما أحل بهم على كفرهم وعتوّهم[1]. وقيل معناه وما هم منكم ببعيد في المحلة والمكان. وقيل في الصفات والأفعال المستقبحات من قطع الطريق وأخذ أموال الناس جهرة وخفية بأنواع الحيل والشبهات. والجمع بين هذه الأقوال ممكن فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زماناً ولا مكاناً ولا صفات، ثم مزج الترهيب بالترغيب فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ٩٠﴾ [هود: الآية ٩٠] أي أقلعوا عما أنتم فيه وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود فإنه من تاب إليه تاب عليه فإنه رحيم بعباده أرحم بهم من الوالدة بولدها ودود وهو الحبيب ولو بعد التوبة على عبده ولو من الموبقات العظام ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: الآية ٩١].

روي عن ابن عبّاس وسعيد بن جُبَيْر والثوريّ أنهم قالوا كان ضرير البصر.

وقد روى في حديث مرفوع أنه بكى من حب الله حتى عمي فردّ الله عليه بصره. وقال يا شعيب أتبكي خوفاً من النار أو من شوقك إلى الجنة فقال بل من محبتك، فإذا نظرت إليك فلا أبالي ماذا يصنع بي فأوحى الله إليه هنيئاً لك يا شعيب لقائي فلذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمي. رواه الواحدي عن أبي الفتح محمد بن علي الكوفي عن علي بن الحسن بن بندار عن أبي عبد الله محمد بن إسحاق التربلي عن هشام بن عمار عن إسماعيل بن عباس عن يحيى بن سعيد عن شداد بن أمين عن النبي ﷺ بنحوه وهو غريب جداً وقد ضعفه الخطيب البغدادي. وقولهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ٩١﴾ [هود: الآية ٩١] وهذا من كفرهم البليغ وعنادهم الشنيع حيث قالوا: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي ما نفهمه ولا نتعقّله لأنا لا نحبه ولا نريده وليس لنا همّة إليه ولا إقبال عليه، وهو كما قال كفّار قريش لرسول الله ﷺ: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥﴾ [فصلت: الآية ٥] وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أي مضطهداً مهجوراً ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي قبيلتك وعشيرتك فينا ﴿لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي تخافون قبيلتي وعشيرتي وترعوني بسببهم ولا تخافون جنبة الله ولا تراعوني لأني

(١) العتوّ: الظلم.

رسول الله، فصار رهطي أعزّ عليكم من الله ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي جانب الله وراء ظهوركم ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾ [هود: الآية ٩٢] أي هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه محيط بذلك كله وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ [هود: الآية ٩٣] وهذا أمر تهديد شديد ووعيد أكيد بأن يستمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار. ومن يحل عليه الهلاك والبوار ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي في هذه الحياة الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي في الأخرى ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ أي مني ومنكم فيما أخبر وبشر وحذر ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ وهذا كقوله: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٨٧ـ ٨٩] طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملّتهم فانتصب شعيب للمحاجة عن قومه فقال: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ أي هؤلاء لا يعودون إليكم اختياراً وإنما يعودون إليكم[1] إن عادوا اضطراراً مكرهين وذلك لأن الإيمان إذا خالطته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد، ولا يرتدّ أحد عنه ولا محيد لأحد منه.

ولهذا قال: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي فهو كافينا وهو العاصم لنا وإليه ملجؤنا في جميع أمرنا ثم استفتح على قوله واستنصر ربّه عليه في تعجيل ما يستحقّونه إليهم فقال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ أي الحاكِمِينَ فدعا عليهم والله لا يردّ دعاء رسله إذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه وبرسوله خالفوه، ومع هذا صمّموا على ما هم عليه مشتملون، وبه متلبّسون ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأعراف: الآية ٩٠] قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف: الآية ٩١] ذكر في سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة أي رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزالاً شديداً أزهقت أرواحهم من أجسادها، وصيّرت حيوانات أرضهم كجمادها، وأصبحت جثثهم جاثية لا أرواح فيها ولا حركات بها ولا حواس لها. وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات وصنوفاً من المَثلات وأشكالاً من البليات، وذلك لِمَا اتصفوا به من قبيح الصفات، سلّط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات. ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها، ويوافق طباقها، في سياق قصّة الأعراف ارجفوا نبي الله وأصحابه وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم أو ليعودن في ملّتهم راجعين فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ

(١) في ط: إليه.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ فقابل الإرجاف بالرَّجْفَةِ وَالإخَافَةَ بالخِيفَةِ وهذا مناسب لهذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السباق.

وأما في سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: الآية ٨٧] فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم.

وأما في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة. وكان ذلك إجابة لما طلبوا. وتقريباً إلى ما إليه رغبوا. فإنهم ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الشعراء: الآيات ١٨٥-١٨٨].

قال الله تعالى وهو السميع العليم ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء: الآية ١٨٩] ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف وإنما عمدتهم شيئان أحدهما أنه قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء: الآيتان ١٧٦-١٧٧] ولم يقل أخوهم كما قال ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾. والثاني أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة والجواب عن الأول أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة، فلا يناسب ذكر الأخوة ههنا ولما نسبهم إلى القبيلة شاع ذكر شعيب بأنه أخوهم. وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة. وأما احتجاجهم بيوم الظلة فإن كان دليلاً بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى، فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهما أمتان أخريان، وهذا لا يقوله أحدٌ يفهم شيئاً من هذا الشأن.

فأما الحديث الذي أورده الحافظ ابن عساكر في ترجمة النبي شعيب عليه السلام من طريق محمد بن عثمان بن أبي شَيْبَةَ عن أبيه عن معاوية بن هشام عن هشام بن سعد عن شفيق بن أبي هِلاَلٍ عن ربيعةَ بن سَيْفٍ عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً «إنَّ مَدْيَنَ وَأَصْحَابَ الأَيْكَةِ أُمَّتَانِ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمَا شُعَيْباً النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلاَمُ» فإنه حديث غريب وفي رجاله من تكلّم فيه. والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين[1] من أخبار بني إسرائيل والله أعلم.

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان فدلّ على أنهم أمة واحدة أُهلكوا بأنواع من العذاب. وذكر في كل موضع ما يناسب من الخطاب. وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء: الآية ١٨٩]

(١) الزاملة: التي يحمل عليها من الإبل.

ذكروا أنهم أصابهم حرّ شديد وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل، ولا دخولهم في الأسراب، فهربوا من محلّتهم إلى البرية فأظلّتهم سحابة فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلّها، فلما تكاملوا فيه أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة من السماء فأزهقت الأرواح، وخرّبت الأشباح ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ٩١ـ ٩٢]. ونجى الله شعيباً ومن معه من المؤمنين كما قال تعالى وهو أصدق القائلين ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود: الآيتان ٩٤ـ ٩٥]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٩٠ـ ٩٢] وهذا في مقابلة قولهم: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ ثم ذكر تعالى عن نبيّهم أنه نعاهم إلى أنفسهم موبّخاً ومؤنّباً ومقرّعاً فقال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: الآية ٩٣] أي قد أديّت ما كان واجباً عليّ من البلاغ التام والنصح الكامل وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه فلم ينفعكم ذلك لأن الله لا يهدي من يضلّ، وما لهم من ناصرين، فلست أتأسّف بعد هذا عليكم لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة، ولا تخافون يوم الفضيحة. ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ﴾ أي أحزن على قوم كافرين، أي لا تقبلون الحق ولا ترجعون إليه ولا تلتفتون إليه فحلّ بهم من بأس الله الذي لا يردّ ما لا يدافع ولا يمانع ولا محيد لأحد أريد به عنه ولا مناص[١] منه.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه عن ابن عبّاس أن شعيباً عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام. وعن وَهْبِ بن مُنَبِّهٍ أن شعيباً عليه السلام مات بمكة ومن معه من المؤمنين وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة ودار بني سهم.

[باب ذكر][٢] ذرية إبراهيم عليه الصلاة والتسليم

قد قدمنا قصّته مع قومه وما كان من أمرهم وما آل إليه أمره عليه السلام والتحية والإكرام وذكرنا ما وقع في زمانه من قصّة قوم لوط. وأتبعْنا ذلك بقصّة مدين قوم شعيب عليه السلام لأنها قرينتها في كتاب الله عزّ وجلّ في مواضع متعدّدة فذكر تعالى بعد قصّة قوم لوط قصة مدين وهم أصحاب الأيكة على الصحيح كما قدّمنا فذكرناها تبعاً لها اقتداء بالقرآن العظيم. ثم نشرع الآن في الكلام على تفصيل ذرية إبراهيم عليه السلام لأن الله جعل في ذريته النبوّة والكتاب فكل نبي أرسل بعده فمن ولده.

---

(١) لا مناص: لا مفر.

(٢) سقط في ط.

[ذكر][1] إسماعيل عليه السلام

وقد كان للخليل بنون كما ذكرنا ولكن أشهرهم الأخوان النبيان العظيمان الرسولان أسنهما وأجلّهما الذي هو الذبيح على الصحيح إسماعيل بكر إبراهيم الخليل من هاجر القبطية المصرية عليها السلام من العظيم الجليل. ومن قال: إن الذبيح هو إسحاق فإنما تلقّاه من نقلة بني إسرائيل الذين بدّلوا وحرّفوا وأوّلوا التوراة والإنجيل، وخالفوا ما بأيديهم في هذا من التنزيل. فإن إبراهيم أمر بذبح ولده البكر. وفي رواية الوحيد وأياً ما كان فهو إسماعيل بنصّ الدليل، ففي نصّ كتابهم إن إسماعيل ولد ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة. وإنما ولد إسحاق بعد مضي مائة سنة من عمر الخليل، فإسماعيل هو البكر لا محالة وهو الوحيد صورة ومعنى على كل حالة. أما في الصورة فلأنه كان وحده ولده أزيد من ثلاثة عشر سنة، وأما أنه وحيد في المعنى فإنه هو الذي هاجر به أبوه ومعه أمه هاجر، وكان صغيراً رضيعاً فيما قيل فوضعهما في وهاد جبال فاران وهي الجبال التي حول مكة نعم المقيل، وتركهما هنالك ليس معهما من الزاد والماء إلاّ القليل، وذلك ثقة بالله وتوكّلاً عليه. فحاطهما الله تعالى بعنايته وكفايته فنعم الحسيب والكافي والوكيل والكفيل، فهذا هو الولد الوحيد في الصورة والمعنى ولكن أين من يتفطّن لهذا السرّ وأين من يحل بهذا المحل والمعنى لا يدركه ويحيط بعلمه إلاّ كل نبيه نبيل. وقد أثنى الله تعالى عليه ووصفه بالحلم والصبر وصدق الوعد والمحافظة على الصلاة والأمر بها لأهله ليقيهم العذاب، مع ما كان يدعو إليه من عبادة ربّ الأرباب. قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: الآيتان ١٠١-١٠٢] فطاوع أباه على ما إليه دعاه. ووعده بأن سيصبر، فوفّى بذلك وصبر على ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: الآيتان ٥٤-٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص: الآيات ٤٥-٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ٨٥-٨٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [النساء: الآية ١٦٣] الآية. وقال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: الآية ١٣٦]

(١) سقط في ط.

الآية. ونظيرتها في السورة الأخرى. وقال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: الآية ١٤٠] الآية فذكر الله عنه كل صفة جميلة وجعله نبيه ورسوله وبرّأه من كل ما نسب إليه الجاهلون. وأمر بأن يؤمن بما أنزل عليه عباده المؤمنون. وذكر علماء النسب وأيام الناس أنه أول من ركب الخيل وكانت قبل ذلك وحوشاً فآنسها وركبها. وقد قال سعيد بن يحيى الأموي في مغازيه: حدثنا شيخ من قريش حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «اتَّخِذُوا الخَيْلَ وَاعْتَبِقُوهَا[1] فَإِنَّهَا ميراث أَبِيكُمْ إِسْمَاعِيلَ» وكانت هذه العراب وحشاً فدعا لها بدعوته التي كان أعطى فأجابته، وإنه أول من تكلّم بالعربية الفصيحة البليغة. وكان قد تعلّمها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة من جرهم والعماليق وأهل اليمن من الأمم المتقدمين من العرب قبل الخليل.

قال الأموي: حدثني علي بن المغيرة، حدثنا أبو عبيدة، حدثنا مسمع بن مالك عن محمد بن علي بن الحسين عن آبائه عن النبي ﷺ أنه قال: «أَوَّلُ مَنْ فُتِقَ لِسَانُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الْبَيِّنَةِ إِسْمَاعِيلُ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةٍ» فقال له يونس صدقتَ يا أبا سَيَّارٍ هكذا أبو جري حدثني. وقد قدمنا أنه تزوج لما شبّ من العماليق امرأة وأن أباه أمره بفراقها ففارقها. قال الأموي هي عمارة بنت سعد بن أسامة بن أَكِيلِ العماليقي. ثم نكح غيرها فأمره أن يستمرّ بها فاستمر بها وهي السيدة بنت مضَاضِ بن عمرو الجُرْهُمِي وقيل هذه ثالثة فولدت له اثني عشر ولداً ذكراً. وقد سمّاهم محمد بن إسحاق رحمه الله وهم: نابت وقيذر وازبل وميشى ومسمع وماش ودوصا وارر ويطور ونبش وطيما وقيذما. وهكذا ذكرهم أهل الكتاب في كتابهم. وعندهم أنهم الاثنا عشر عظيماً المبشّر بهم المتقدم ذكرهم. وكذبوا في تأويلهم ذلك وكان إسماعيل عليه السلام رسولاً إلى أهل تلك الناحية وما والاها من قبائل جُرْهُم والعماليق وأهل اليمن صلوات الله وسلامه عليه. ولما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق وزوج ابنته نسمة من ابن أخيه العيص بن إسحاق فولدت له الروم. ويقال لهم بنو الأصفر لصفرة كانت في العيص. وولدت له اليونان في أحد الأقوال. ومن ولد العيص الأشبان قيل منهما أيضاً. وتوقف ابن جرير رحمه الله.

ودفن إسماعيل نبي الله بالحجر مع أمّه هاجر وكان عمره يوم مات مائة وسبعا وثلاثين سنة. وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال شكى إسماعيل عليه السلام إلى ربّه عزّ وجلّ حرّ مكة، فأوحى الله إليه أني سأفتح لك باباً إلى الجنة أي[2] الموضع الذي تدفن فيه تجري عليك روحها إلى يوم القيامة.

وعرب الحجاز كلهم ينتسبون إلى ولديه نابت وقيذار. وسنتكلم على أحياء العرب وبطونها وعمائرها وقبائلها وعشائرها من لدن إسماعيل عليه السلام إلى زمان رسول الله ﷺ.

(١) اعتبقوها: اعتبق بالشيء: أولع به.
(٢) في ط: إلى.

وذلك إذا انتهينا إلى أيامه الشريفة وسيرته المنيفة بعد الفراغ من أخبار أنبياء بني إسرائيل إلى زمان عيسى ابن مريم خاتم أنبيائهم ومحقّق أنبائهم. ثم نذكر ما كان في زمن بني إسرائيل. ثم ما وقع في أيام الجاهلية ثم ينتهي الكلام إلى سيرة نبينا رسول الله إلى العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم من الأمم إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم العزيز الحكيم.

[ذكر][1] إسحاق بن إبراهيم الكريم ابن الكريم عليهما الصلاة والتسليم

قد قدمنا أنه ولد ولأبيه مائة سنة بعد أخيه إسماعيل بأربع عشر سنة. وكان عمر أمه سارة حين بُشِّرَتْ به تسعين سنة، قال الله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: الآيتان ١١٢-١١٣]. وقد ذكره الله تعالى بالثناء عليه في غير ما آية من كتابه العزيز. وقدمنا في حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «أَنَّ الكَرِيمَ ابْنَ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَق بْنِ إِبْرَاهِيمَ»[2]. وذكر أهل الكتاب أن إسحاق لما تزوج رفقا بنت بتوابيل في حياة أبيه كان عمره أربعين سنة، وأنها كانت عاقراً، فدعا الله لها، فحملت فولدت غلامين توأمين أولهما: سمّوه «عيصو»، وهو الذي تسميه العرب العيص وهو والد الروم. والثاني: ـ خرج ـ هو آخذ بعقب أخيه فسمّوه: «يعقوب» وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل، قالوا: وكان إسحاق يحب العيصو أكثر من يعقوب لأنه بكره، وكانت أمهما رفقا تحب يعقوب أكثر لأنه الأصغر.

قالوا فلما كبر إسحاق وضعف بصره اشتهى على ابنه العيص طعاماً وأمره أن يذهب فيصطاد له صيداً ويطبخه له ليبارك عليه ويدعو له. وكان العيص صاحب صيد فذهب يبتغي ذلك فأمرت رفقا ابنها يعقوب أن يذبح جديين من خيار غنمه ويصنع منهما طعاماً كما اشتهاه أبوه ويأتي إليه به قبل أخيه ليدعو له، فقامت فألبسته ثياب أخيه وجعلت على ذراعيه وعنقه من جلد الجديين، لأن العيص كان أشعر الجسد، ويعقوب ليس كذلك، فلما جاء به وقرّبه إليه، قال: من أنت؟ قال: ولدك، فضمّه إليه وجسّه، وجعل يقول أما الصوت فصوت يعقوب، وأما الجسّ والثياب فالعيص، فلما أكل وفرغ دعا له أن يكون أكبر إخوته قدراً، وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده وأن يكثر رزقه وولده.

فلما خرج من عنده جاء أخوه العيص بما أمره به والده فقربه إليه فقال له: ما هذا يا بني؟ قال: هذا الطعم الذي اشتهيته، فقال: أما جئتني به قبل الساعة وأكلت منه ودعوت لك؟ فقال: لا والله، وعرف أن أخاه قد سبقه إلى ذلك فوجد في نفسه عليه وجداً كثيراً. وذكروا أنه تواعده بالقتل إذا مات أبوهما، وسأل أباه فدعا له بدعوة أخرى، وأن يجعل

(١) سقط في ط.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ١٩، وأحمد في المسند ٢/ ٣٣٢.

لذريته غليظ الأرض، وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم، فلما سمعت أمهما ما يتواعد به العيص أخاه يعقوب، أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها لابان الذي بأرض حرّان، وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه عليه، وأن يتزوج من بناته. وقالت لزوجها إسحق أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له ففعل، فخرج يعقوب عليه السلام من عندهم من آخر ذلك اليوم فأدركه المساء في موضع فنام فيه، أخذ حجراً فوضعه تحت رأسه ونام، فرأى في نومه ذلك معراجاً[1] منصوباً من السماء إلى الأرض وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون والربّ تبارك وتعالى يخاطبه ويقول له إني سأبارك عليك وأكثر ذريتك، واجعل لك هذه الأرض، ولعقبك من بعدك. فلما هبّ من نومه فرح بما رأى ونذر لله لئن رجع إلى أهله سالماً ليبنين في هذا الموضع معبداً لله عزّ وجلّ، وأن جميع ما يرزقه من شيء يكون لله عشره، ثم عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهناً يتعرّفه به، وسمّي ذلك الموضع: بيت إيل، أي بيت الله، وهو موضع بيت المقدس اليوم الذي بناه يعقوب بعد ذلك كما سيأتي.

قالوا فلما قدم يعقوب على خاله أرض حرّان إذا له ابنتان اسم الكبرى «ليا» واسم الصغرى «راحيل» وكانت أحسنهما وأجملهما، [فخطب إليه راحيل][2] فأجابه إلى ذلك بشرط أن يرعى على غنمه سبع سنين، فلما مضت المدة على خاله لابان صنع طعاماً وجمع الناس عليه وزفّ إليه ليلاً ابنته الكبرى ليا وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر. فلما أصبح يعقوب إذا هي ليا، فقال لخاله: لِمَ غدرت بي وأنت إنما خطبت إليك راحيل؟ فقال: إنه ليس من سنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى، فإن أحببت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها، فعمل سبع سنين وادخلها عليه مع أختها وكان ذلك سائغاً في ملّتهم ثم نسخ في شريعة التوراة.

وهذا وحده دليل كافٍ على وقوع النسخ، لأن فعل يعقوب عليه السلام دليل على جواز هذا وإباحته لأنه معصوم. ووهب لابان لكل واحدة من ابنتيه جارية فوهب لليا جارية اسمها: «زلفى» ووهب لراحيل جارية اسمها «بلهى». وجبر الله تعالى ضعف ليا بأن وهب لها أولاداً، فكان أول من ولدت ليعقوب «روبيل» ثم «شمعون» ثم «لاوي» ثم «يهوذا»، فغارت عند ذلك راحيل وكانت لا تحبل، فوهبت ليعقوب جاريتها بلها فوطئها فحملت له غلاماً سمّته: «دان»، وحملت وولدت غلاماً آخر سمته: «نيفتالي»، فعمدت عند ذلك ليا فوهبت جاريتها زلفا من يعقوب عليه السلام فولدت له «جاد» و «أشير» غلامين ذكرين، ثم حملت ليا أيضاً فولدت غلاماً خامساً منها وسمته: ايساخر ثم حملت وولدت غلاماً سادساً سمته «زابلون»، ثم حملت وولدت بنتا سمتها «دينا»، فصار لها سبعة من يعقوب. ثم دعت الله تعالى راحيل وسألته أن يهب لها غلاماً من يعقوب، فسمع الله نداءها وأجاب دعاءها فحملت من نبي الله يعقوب فولدت له غلاماً عظيماً شريفاً حسناً جميلاً سمته: «يوسف»، كل هذا وهم مقيمون بأرض حرّان وهو يرعى على خاله غنمه بعد دخوله على البنتين ست سنين أخرى فصار مدة مقامه عشرين سنة، فطلب يعقوب

---

(١) المعراج: ما يرتقى به.

(٢) سقط في ط.

من خاله لابان أن يسرّحه ليمرّ إلى أهله، فقال له خاله إني قد بورك لي بسببك، فسلني من مالي ما شئت، فقال تعطيني كل حَمَل يولد من غنمك هذه السنة أبقع، وكل حَمَل ملمع أبيض بسواد، وكل أملح ببياض، وكل أجلح أبيض من المعز، فقال نعم. فعمد بنوه فأبرزوا من غنم أبيهم ما كان على هذه الصفات من التيوس لئلا يولد شيء من الحملان على هذه الصّفات، وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم، قالوا فعمد يعقوب عليه السلام إلى قضبان رطبة بيض من لوز ولب فكان يقشرها بلقاً وينصبها في مساقي الغنم من المياه لينظر الغنم إليها فتفزع وتتحرك أولادها في بطونها فتصير ألوان حملانها كذلك، وهذا يكون من باب خوارق العادات وينتظم في سلك المعجزات، فصار ليعقوب عليه السلام أغنام كثيرة ودواب وعبيد وتغيّر له وجه خاله، وبنيه وكأنهم انحصروا منه.

وأوحى الله تعالى إلى يعقوب أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه ووعده بأن يكون معه، فعرض ذلك على أهله فأجابوه مبادرين إلى طاعته، فتحمّل بأهله وماله وسرقت راحيل أصنام أبيها، فلما جاوزوا وتحيزوا عن بلادهم لحقهم لابان وقومه، فلما اجتمع لابان بيعقوب عاتبه في خروجه بغير علمه، وهلاّ أعلمه، فيخرجهم في فرح ومزاهر وطبول، وحتى يودع بناته وأولادهن، ولِمَ أخذوا أصنامه معهم، ولم يكن عند يعقوب علم من أصنامه، فأنكر أن يكون أخذوا له أصناماً فدخل بيوت بناته وإمائهن يفتش، فلم يجد شيئاً وكانت راحيل قد جعلتهن في بردعة[1] الحمل وهي تحتها فلم تقم واعتذرت بأنها طامث، فلم يقدر عليهن، فعند ذلك تواثقوا على رابية هناك يقال لها جلعاد على أنه لا يهبن بناته ولا يتزوج عليهن ولا يجاوز هذه الرابية إلى بلاد الآخر لا لابان ولا يعقوب، وعملا طعاماً وأكل القوم معهم، وتودّع كل منهما من الآخر وتفارقوا راجعين إلى بلادهم، فلما اقترب يعقوب من أرض ساعير تلقته الملائكة يبشّرونه بالقدوم، وبعث يعقوب البُرُد إلى أخيه العيصو يترفق له ويتواضع له، فرجعت البُرُد وأخبرت يعقوب بأن العيص قد ركب إليك في أربعمائة راجل، فخشي يعقوب من ذلك ودعا الله عزّ وجلّ، وصلّى له وتضرّع إليه وتمسكن لديه، وناشده عهده ووعده الذي وعده به، وسأله أن يكفّ عنه شر أخيه العيص، وأعدّ لأخيه هدية عظيمة وهي مائتا شاة وعشرون تيساً، ومائتا نعجة وعشرون كبشاً، وثلاثون لقحة[2] وأربعون بقرة، وعشرة من الثيران وعشرون أتاناً وعشرة من الحمر. وأمر عبيده أن يسوقوا كلا من هذه الأصناف وحده وليكن بين كل قطيع وقطيع مسافة إذا لقيهم العيص فقال للأول: لمن أنت ولمن هذه معك فليقل لعبدك يعقوب أهداها لسيدي العيص، وليقل الذي بعده كذلك، وكذا الذي بعده ويقول كل منهم وهو جائي بعدنا.

وتأخر يعقوب بزوجتيه وأمتيه وبنيه الأحد عشر بعد الكل بليلتين، وجعل يسير فيهما ليلاً ويكمن نهاراً. فلما كان وقت الفجر من الليلة الثانية تبدا له ملك من الملائكة في صورة رجل، فظنّه يعقوب رجلاً من الناس، فأتاه يعقوب ليصارعه ويغالبه فظهر عليه يعقوب فيما يرى، إلا أن

(١) البردعة: الحلس الذي يكون تحت الرحل. (٢) اللقحة: الناقة الحلوب.

الملك أصاب وركه فعرج يعقوب، فلما أضاء الفجر قال له الملك ما اسمك قال يعقوب، قال لا ينبغي أن تدعي بعد اليوم إلا إسرائيل فقال له يعقوب ومن أنت وما اسمك فذهب عنه فعلم أنه ملك من الملائكة، وأصبح يعقوب وهو يعرج من رجله، فلذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء، ورفع يعقوب عينيه فإذا أخوه عيصو قد أقبل في أربعمائة راجل، فتقدّم أمام أهله، فلما رأى أخاه العيص سجد له سبع مرات، وكانت هذه تحيتهم في ذلك الزمان، وكان مشروعاً لهم كما سجدت الملائكة لآدم تحيّة له، وكما سجد إخوة يوسف وأبواه له كما سيأتي، فلما رآه العيص تقدّم إليه وأحتضنه وقبّله وبكى ورفع العيص عينيه ونظر إلى النساء والصبيان فقال من أين لك هؤلاء، فقال هؤلاء الذين وهب الله لعبدك، فدنت الأمتان وبنوهما فسجدوا له ودنت ليا وبنوها فسجدوا له، ودنت راحيل وابنها يوسف فخرّا سجداً له، وعرض عليه أن يقبل هديته وألحّ عليه فقبلها، ورجع العيص، فتقدّم أمامه ولحقه يعقوب بأهله وما معه من الأنعام والمواشي والعبيد قاصدين جبال ساعير، فلما مر بساحور ابتنى له بيتاً ولدوابه ظلالاً، ثم مرّ على أورشليم قرية شخيم، فنزل قبل القرية، واشترى مزرعة [بني جمور بن شخيم][1] بمائة نعجة، فضرب هنالك فسطاطة، وابتنى ثَمَّ مذبحاً فسماه إيل إله إسرائيل وأمره[2] الله ببنائه ليستعلن له فيه. وهو بيت المقدس اليوم الذي جدّده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام، وهو مكان الصخرة التي أعلمها بوضع الدهن عليها قبل ذلك كما ذكرنا أولاً.

وذكر أهل الكتاب هنا قصّة دينا بنت يعقوب بنت ليا وما كان من أمرها مع شخيم بن جمور الذي قهرها على نفسها، وأدخلها منزله، ثم خطبها من[3] أبيها وأخوتها، فقال إخوتها: إلا أن تختتنوا كلكم فنصاهركم وتصاهرونا، فإنا لا نصاهر قوماً غلفاً، فأجابوهم إلى ذلك واختتنوا كلّهم. فلما كان اليوم الثالث واشتد وجعهم من ألم الختان مال عليهم بنو يعقوب فقتلوهم عن آخرهم، وقتلوا شخيما وأباه جمور لقبيح ما صنعوا إليهم، مضافاً إلى كفرهم، وما كانوا يعبدونه من أصنامهم، فلهذا قتلهم بنو يعقوب وأخذوا أموالهم غنيمة.

ثم حملت راحيل فولدت غلاماً وهو بنيامين، إلاّ أنها جهدت في طلقها به جهداً شديداً وماتت عقيبه، فدفنها يعقوب في أفراث وهي بيت لحم، وصنع يعقوب على قبرها حجراً وهي الحجارة المعروفة بقبر راحيل إلى اليوم، وكان أولاد يعقوب الذكور اثني عشر رجلاً فمن ليا روبيل وشمعون ولاوي ويهوذا وايساخر وزابلون ومن راحيل يوسف وبنيامين ومن أمة راحيل دان ونفتالي، ومن أمة ليا حاد واشير عليهم السلام وجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية حَبْرون التي في أرض كنعان حيث كان يسكن إبراهيم، ثم مرض إسحاق ومات عن مائة وثمانين سنة ودفنه ابناه العيص ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل في المغارة التي اشتراها كما قدمناه.

(١) في ط: شخيم بن جمور.
(٢) في ط: وأمر.
(٣) في ط: عن.

[ذكر](١) ما وقع من الأمور العجيبة في حياة إسرائيل

فمن ذلك قصّة يوسف ابن راحيل وقد أنزل الله عزّ وجلّ في شأنه وما كان من أمره سورة من القرآن العظيم ليتدبّر ما فيها من الحِكَم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: ١-٣] قد تكلّمنا على الحروف المقطعة في أول تفسير سورة البقرة فمن أراد تحقيقه فلينظره ثمَ. وتكلمنا على هذه السورة مستقصى في موضعها من التفسير، ونحن نذكر ههنا نبذاً مما هناك على وجه الإيجاز والنجاز.

وجملة القول في هذا المقام أنه تعالى يمدح كتابه العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم بلسان عربي فصيح بيّن واضح جليّ يفهمه كل عاقل ذكي زكي فهو أشرف كتاب نزل من السماء أنزله أشرف الملائكة على أشرف الخلق في أشرف زمان ومكان. بأفصح لغة وأظهر بيان. فإن كان السياق في الأخبار الماضية أو الآتية ذكر أحسنها وأبينها وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه ودمغ(٢) الباطل وزيفه ورده وإن كان في الأوامر والنواهي فأعدل الشرائع وأوضح المناهج، وأبين علماً(٣) وأعدل حكماً فهو كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: الآية ١١٥]. يعني صدقاً في الأخبار، عدلاً في الأوامر والنواهي، ولهذا قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ أي بالنسبة إلى ما أوحي إليك فيه كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝٩٩ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ۝١٠٠ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ۝١٠١﴾ [طه: ٩٩-١٠١]. يعني من أعرض عن هذا القرآن واتبع غيره من الكتب فإنه يناله هذا الوعيد كما قال في الحديث المروي في المسند والترمذي عن أمير المؤمنين علي مرفوعاً وموقوفاً «مَنِ ابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْرِه أَضَلَّهُ اللَّهُ»(٤). وقال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْجُ بن النعمان حدثنا هشام أنبأنا خالد عن الشَّعْبِي عن جابر «أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي ﷺ قال فغضب وقال: «أَمُتَهَوِّكُونَ(٥) فِيهَا يَا ابْنَ الخَطَّابِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً لاَ تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُونَكُم بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُونَهُ أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُونَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي

---

(١) سقط في ط. (٢) دمغ: ضرب الدماغ.

(٣) في ط: حكماً.

(٤) أخرجه الترمذي في: فضائل القرآن، باب: (١٤).

(٥) تتهوكون: أي تتهورون.

بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَياً مَا وَسِعَهُ إِلاَّ أَنْ يَتَّبِعَنِي»[١] إسناد صحيح. ورواه أحمد من وجه آخر عن عمرو فيه فقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ إِنَّكُمْ حَظِّي مِنَ الأُمَمِ وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ»[٢] وقد أوردت طرق هذا الحديث وألفاظه في أول سورة يوسف. وفي بعضها أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال في خطبته: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ وَخَوَاتِيمَهُ وَاخْتَصِرَ لِي اخْتِصَاراً، وَلَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً فَلاَ تَتَهَوَّكُوا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمُ المُتَهَوِّكُونَ». ثم أمر بتلك الصحيفة فمحيت حرفاً حرفاً ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف: الآيات ٤ـ٦]قد قدمنا أن يعقوب كان له من البنين اثنا عشر ولداً ذكراً، وسمّيناهم وإليهم تنسب أسباط بني إسرائيل كلّهم، وكان أشرفهم وأجلّهم وأعظمهم يوسف عليه السلام، وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبي غيره، وباقي إخوته لم يوح إليهم. وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصة يدلّ على هذا القول. ومن استدل على نبوّتهم بقوله: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦] وزعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقوي لأن المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل، وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحي من السماء والله أعلم.

ومما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوة أنه ما نصّ على واحد من إخوته سواه فدل على ما ذكرناه، ويستأنس لهذا بما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد الرحمن عن عبد الله بن دينار عن أبيه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الكَرِيمُ ابْنُ الكَرِيمِ ابْنَ الكَرِيمِ ابنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنَ إِسْحَقِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ»[٣] انفرد به البخاري فرواه عن عبد الله بن محمد وعَبْدَة عن عبد الصمد بن عبد الوَارِثِ به. وقد ذكرنا طرقه في قصة إبراهيم بما أغنى عن إعادته ههنا ولله الحمد والمنّة.

قال المفسرون وغيرهم رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم كأن ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ وهم إشارة إلى بقية إخوته ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ وهما عبارة عن أبويه قد سجدوا له، فهاله ذلك، فلما استيقظ قصّها على أبيه، فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها. فأمره بكتمانها وأن لا يقصّها على إخوته كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل[٤] ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر، وهذا يدل على ما ذكرناه. ولهذا

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٣٨٧.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٤٧٠، ٤/ ٢٦٥، ٢٦٦.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ١٩، وأحمد في المسند ٢/ ٩٦.

(٤) الغوائل: الدواهي والمصائب.

جاء في بعض الأثر: «اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِكُمْ بِكِتْمَانِهَا فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ»، وعند أهل الكتاب أنه قصّها على أبيه وإخوته معاً وهو غلط منهم ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي وكما أراك هذا الرؤيا العظيمة فإذا كتمتها ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي يخصك بأنواع اللطف والرحمة ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ﴾ أي يفهمك من معاني الكلام وتعبير المنام ما لا يفهمه غيرك ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ أي بالوحي إليك ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ أي بسببك، ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ أي ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة كما أعطاها أباك يعقوب وجدك إسحاق ووالد جدك إبراهيم الخليل ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٤].

لهذا قال رسول الله ﷺ لما سئل أيّ الناس أكرم قال: «يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنَ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ»(١).

وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما، وأبو يعلى والبزّار في مسنديهما، من حديث الحَكَم بن ظَهير، وقد ضعّفه الأئمة عن السدّي عن عبد الرحمن بن سَابِط عن جابر قال: «أتى النَّبِيَّ ﷺ رجل من اليهود يقال له بُسْتَانَة اليهودي، فقال: يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له ما أسماؤها. قال: فسكت النبي ﷺ فلم يجبه بشيء، ونزل جبريل عليه السلام بأسمائها، قال: فبعث إليه رسول الله فقال: «هَلْ أَنْتَ مُؤْمِنٌ إِنْ أَخْبَرْتُكَ بِأَسْمَائِهَا»؟ قال: نعم فقال: «هي جريان والطّارِقُ، والديال وذُو الكَتِفَانِ، وقابس، وَوَثَّاب، وعمودان والفَيْلَق، والمُصبح، والضروح، وذو الفرع، والضياء، والنور» فقال اليهودي أي والله إنها لأسماؤها.

وعند أبي يَعْلَى فلما قصّها على أبيه قال هذا أمر مشتت يجمعه الله والشمس أبوه والقمر أمـــه. ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يوسف: الآيات ٧ ـ ١٠].

ينبّه تعالى على ما في هذه القصّة من الآيات والحكم والدلالات والمواعظ والبينات. ثم ذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه يعنون شقيقه لأمه بنيامين أكثر منهم وهم عصبة أي جماعة. يقولون فكنا نحن أحق بالمحبّة من هذين ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي بتقديمه حبهما علينا. ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل يوسف أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها ليخلو لهم وجه أبيهم أي لتتمحض محبته(٢) لهم وتتوفر عليهم، وأضمروا التوبة بعد ذلك. فلما تمالؤوا على ذلك وتوافقوا عليه ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ قال مجاهد هو شمعون. وقال السدّيّ هو يَهُوذَا. وقال قَتَادَةُ ومحمد بن إسحاق هو أكبرهم روبيل ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الانبياء باب ١٩.
(٢) تتمحض محبته: يقال: المحبة المحض: أي المحبة الخالصة.

يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي المارة من المسافرين ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ ما تقولون لا محالة فليكن هذا الذي أقول لكم فهو أقرب حالاً من قتله أو نفيه وتغريبه فأجمعوا رأيهم على هذا فعند ذلك ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤﴾ [يوسف: الآيات ١١ـ ١٤].

طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم وأن يلعب وينبسط، وقد أضمروا له ما الله به عليم، فأجابهم الشيخ عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم. يا بني يشقّ عليّ أن أفارقه ساعة من النهار، ومع هذا أخشى أن تشتغلوا في لعبكم وما أنتم فيه، فيأتي الذئب فيأكله ولا يقدر على دفعه عنه لصغره وغفلتكم عنه. ﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤﴾ أي لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة إنا إذا لخاسرون أي عاجزون هالكون.

وعند أهل الكتاب أنه أرسله وراءهم يتبعهم فضلّ عن الطريق حتى أرشده رجل إليهم. وهذا أيضاً من غلطهم وخطئهم في التعبير[1]، فإن يعقوب عليه السلام كان أحرص عليه من أن يبعثه معهم، فكيف يبعثه وحده ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٥ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ۝١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [يوسف: الآيات ١٥ـ ١٨].

لم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم فما كان إلاّ أن غابوا عن عينيه فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال، وأجمعوا على إلقائه في غيابة الجب أي في قعره على راعوفته وهي الصخرة التي تكون في وسطه يقف عليها المائح وهو الذي ينزل ليملي الدلاء إذا قلّ الماء، والذي يرفعها بالحبل يسمى الماتح، فلما ألقوه فيه أوحى الله إليه أنه لا بدّ لك من فرج ومخرج من هذه الشدّة التي أنت فيها، ولتخبرنّ أخوتك بصنيعهم هذا في حال أنت فيها عزيز، وهم محتاجون إليك خائفون منك وهم لا يشعرون.

قال مجاهد وقتادة وهم لا يشعرون بإيحاء الله إليه ذلك. وعن ابن عبّاس: وهم لا يشعرون، أي لتخبرنهم بأمرهم هذا في حال لا يعرفونك فيها. رواه ابن جرير عنه.

فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه أخذوا قميصه فلطّخوه بشيء من دم ورجعوا إلى أبيهم عشاء، وهم يبكون أي على أخيهم. ولهذا قال بعض السلف لا يغرّنّك بكاء المتظلّم، فرب ظالم وهو باك وذكر بكاء إخوة يوسف وقد جاؤوا أباهم عشاء يبكون أي في ظلمة الليل ليكون أمشى لغدرهم لا لعذرهم ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ أي ثيابنا

---

(١) في ط: التعريب.

﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ أي في غيبتنا عنه في استباقنا وقولهم ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ أي وما أنت بمصدق لنا في الذي أخبرناك من أكل الذئب له ولو كنا غير متهمين عندك، فكيف وأنت تتهمنا في هذا، فإنك خشيت أن يأكله الذئب وضمنا لك أن لا يأكله لكثرتنا حوله، فصرنا غير مصدقين عندك، فمعذور أنت في عدم تصديقك لنا والحالة هذه ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي مكذوب مفتعل لأنهم عمدوا إلى سخلة[1] ذبحوها فأخذوا من دمها فوضعوه على قميصه ليوهموا أنه أكله الذئب قالوا ونسوا أن يخرقوه وآفة الكذب النسيان. ولما ظهرت عليهم علائم الريبة لم يَرُجْ صنيعهم على أبيهم، فإنه كان يفهم عداوتهم له وحسدهم إياه على محبته له من بينهم أكثر منهم لما كان يتوسّم فيه من الجلالة والمهابة التي كانت عليه في صغره لما يريد الله أن يخصّه به من نبوّته. ولما راودوه عن أخذه فبمجرد ما أخذوه أعدموه وغيبوه عن عينيه جاؤوا وهم يتباكون وعلى ما تمالؤا عليه يتواطؤن ولهذا ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

وعند أهل الكتاب أن روبيل أشار بوضعه في الجب ليأخذه من حيث لا يشعرون، ويردّه إلى أبيه فغافلوه وباعوه لتلك القافلة. فلما جاء روبيل من آخر النهار ليخرج يوسف لم يجده، فصاح وشقّ ثيابه وعمد أولئك إلى جدي فذبحوه ولطّخوا من دمه جبّة يوسف. فلما علم يعقوب شقّ ثيابه ولبس مئزراً أسود وحزن على ابنه أياماً كثيرة. وهذه الركاكة جاءت من خطئهم في التعبير والتصوير. ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف: الآيات ١٩ـ ٢٢].

يخبر تعالى عن قصّة يوسف حين وضع في الجب أنه جلس ينتظر فرج الله ولطفه به فجاءت سيّارة أي مسافرون.

قال أهل الكتاب كانت بضاعتهم من الفستق والصنبور والبطم قاصدين ديار مصر من الشام، فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر، فلما أدلى أحدهم دلوه تعلق فيه يوسف فلما رآه ذلك الرجل ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ﴾ أي يا بشارتي ﴿هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ أي أوهموا أنه معهم غلام من جملة متجرهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي هو عالم بما تمالأ عليه إخوته وبما يسّره واجدوه من أنه بضاعة لهم، ومع هذا لا يغيّره تعالى لماله في ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأهل مصر بما يجري الله على يدي هذا الغلام الذي يدخلها في صورة أسير رقيق، ثم بعد هذا يملكه أزمة الأمور وينفعهم الله به في دنياهم وأخراهم بما لا يحد ولا يوصف. ولما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له لحقوهم وقالوا هذا غلامنا أبق منا فاشتروه منهم بثمن

(١) السخلة : ولد الشاة.

بخس أي قليل نزر وقيل هو الزيف ﴿دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾. قال ابن مسعود وابن عباس ونوف البكالي والسدي وقتادة وعطية العوفي باعوه بعشرين درهماً اقتسموها درهمين درهمين. وقال مجاهد اثنان وعشرون درهماً. وقال عكرمة ومحمد بن إسحاق أربعون درهماً فالله أعلم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ أي أحسني إليه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه بما يريد أن يؤهله له، ويعطيه من خيري الدنيا والآخرة. قالوا: وكان الذي اشتراه من أهل مصر عزيزها وهو الوزير بها الذي الخزائن مسلمة إليه. قال ابن إسحاق: واسمه اطفير بن روحيب. قال وكان ملك مصر يومئذٍ للريَّانُ بن الوليد رجل من العماليق، قالوا: واسم امرأة العزيز راعيل بنت رعاييل. وقال غيره كان اسمها زليخا والظاهر أنه لقبها. وقيل فكا بنت ينوس رواه الثعلبي عن أبي هشام الرفاعي. وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن السائب عن أبي صالح عن ابن عبّاس كان اسم الذي باعه بمصر يعني الّذي جلبه إليها مالك بن دُعرِ بن نُوَيْبِ بن عَنْقَا بن مَدْيَانَ بن إبراهيم فالله أعلم.

وقال ابن إسحاق: عن أبي عبيدة عن ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته أكْرِمِي مَثْوَاهُ. والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾ [القصص: الآية ٢٦] وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

ثم قيل اشتراه العزيز بعشرين ديناراً. وقيل: بوزنه مسكاً ووزنه حريراً ووزنه ورقاً، فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي وكما قيضنا هذا العزيز وامرأته يحسنان إليه ويعتنيان به مكّنا له في أرض مصر ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ أي فهمها. وتعبير الرؤيا من ذلك ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ أي إذا أراد شيئاً فإنه يقيض له أسباباً وأموراً لا يهتدي إليها العباد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. فدلّ على أن هذا كلّه كان وهو قبل بلوغ الأشد. وهو حد الأربعين الذي يوحي الله فيه إلى عباده النبيين عليهم الصلاة والسلام من ربّ العالمين.

وقد اختلفوا في مدة العمر الذي هو بلوغ الأشدّ، فقال مالك وربيعة وزيد بن أسْلَم والشّعْبي هو الحلم. وقال سعيد بن جبير ثماني عشرة سنة. وقال الضّحّاكُ: عشرون سنة. وقال عِكْرِمَةُ: خمس وعشرون سنة. وقال السّدّيّ: ثلاثون سنة. وقال ابن عبّاس ومجاهد وقَتَادَةُ: ثلاثة وثلاثون سنة. وقال الحسن: أربعون سنة. ويشهد له قوله تعالى حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن

نَّفْسِيْ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: الآيات ٢٣ـ ٢٩].

يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه وهي في غاية الجمال والمال والمنصب والشباب، وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه وتهيأت له، وتصنعت ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها، وهي مع هذا كلّه امرأة الوزير. قال ابن إسحاق وبنت أخت الملك الريّانُ بن الوليد صاحب مصر. وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شاب بديع الجمال والبهاء إلا أنه نبيّ من سلالة الأنبياء فعصمه ربّه عن الفحشاء. وحماه عن مكر النساء. فهو سيّد السادة النجباء السبعة الأتقياء. المذكورين في الصحيحين عن خاتم الأنبياء. في قوله عليه الصلاة والسلام من ربّ الأرض والسماء «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ إِمَامٌ عَادِلٌ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ وَرَجُلٌ مُعَلَّقٌ قَلْبُهُ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ. وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ».

والمقصود أنها دعته إليها وحرصت على ذلك أشد الحرص فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ يعني زوجها صاحب المنزل سيدي ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أي أحسن إليّ وأكرم مقامي عنده ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وقد تكلمنا على قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ بما فيه كفاية ومقنع في التفسير.

وأكثر أقوال المفسرين ههنا متلقى من كتب أهل الكتاب فالإعراض عنه أولى بنا. والذي يجب أن يعتقد أن الله تعالى عصمه وبرّأه ونزّهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها. ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ أي هرب منها طالباً إلى الباب ليخرج منه فراراً منها فاتبعته في أثره ﴿وَأَلْفَيَا﴾ أي وجدا ﴿سَيِّدَهَا﴾ أي زوجها لدى الباب فبدرته بالكلام وحرّضته عليه ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. اتهمته وهي المتهمة وبرأت عرضها ونزهت ساحتها فلهذا قال يوسف عليه السلام ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ احتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ قيل: كان صغيراً من المهد، قاله ابن عبّاس.

ورُوِيَ عن أبي هريرة وهِلاَلُ بن يَسَافٍ والحسنُ البَصْرِي وسعيد بن جُبَيْر والضحّاك واختاره ابن جرير.

وروى فيه حديثاً مرفوعاً عن ابن عبّاس ووقفه غيره عنه. وقيل كان رجلاً قريباً إلى أطفير بعلها. وقيل قريباً إليها.

وممن قال إنه كان رجلاً: ابن عباس وعِكْرِمة ومجاهد والحسن وقتادة والسّدّي ومحمد بن

إسحاق وزيد بن أسلم فقال ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي لأنه يكون قد راودها فدافعته حتى قدّت[1] مقدم قميصه ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك، وكذلك كان. ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ أي هذا الذي جرى من مكركن أنت راودته عن نفسه. ثم اتهمته بالباطل، ثم ضرب بعلها عن هذا صفحاً. فقال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي لا تذكره لأحد لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن، وأمرها بالاستغفار لذنبها الذي صدر منها، والتوبة إلى ربّها، فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه. وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أنهم يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له في ذلك. ولهذا قال لها بعلها وعذرها من بعض الوجوه لأنها رأت ما لا صبر لها على مثله، إلا أنه عفيف نزيه بريء العرض سليم الناحية فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف: الآيات ٢٩ـ ٣٤].

يذكر تعالى ما كان من قبل نساء المدينة من نساء الأمراء وبنات الكبراء في الطعن على امرأة العزيز وعيبها، والتشنيع عليها في مراودتها فتاها، وحبّها الشديد له تعنين[2]، وهو لا يساوي هذا لأنه مولى من الموالي، وليس مثله أهلاً لهذا ولهذا قلن ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي في وضعها الشيء في غير محله ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي بتشنيعهن عليها والتنقّص لها، والإشارة إليها بالعيب والمذمة بحب مولاها وعشق فتاها، فأظهرن ذماً وهي معذورة في نفس الأمر، فلهذا أحبت أن تبسط عذرها عندهن وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن ولا من قبيل ما لديهن. فأرسلت إليهن فجمعتهن في منزلها. واعتدت لهن ضيافة مثلهن وأحضرت في جملة ذلك شيئاً مما يقطع بالسكاكين كالأترج ونحوه، وأتت كل واحدة منهم سكيناً، وكانت قد هيّأت يوسف عليه السلام، وألبسته أحسن الثياب وهو في غاية طراوة الشباب، وأمرته بالخروج عليهن بهذه الحالة. فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أي أعظمنه وأجللنه وهبنه، وما ظننّ أن يكون مثل هذا في بني آدم، وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن، وجعلن يحززن في أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. وقد جاء في حديث الإسراء: «فَمَرَرْتُ بِيُوسُفَ وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ»

---

(١) قدّت: قطعت ومزّقت. (٢) تعنين: أي جنون.

قال السُهَيْلِي وغيره من الأئمة: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام، لأن الله تعالى خلق آدم بيده، ونَفخ فيه من روحه، فكان في غاية نهايات الحسن البشري، ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم وحسنه، ويوسف كان على النصف من حسن آدم، ولم يكن بينهما أحسن منهما كما أنه لم تكن أنثى بعد حوّاء أشبه بها من سارة امرأة الخليل عليه السلام.

قال ابن مسعود: وكان وجه يوسف مثل البرق، وكان إذا أتته امرأة لحاجة غطّى وجهه. وقال غيره كان في الغالب مبرقعاً لئلا يراه الناس. ولهذا لما قام عذر امرأة العزيز في محبتها لهذا المعنى المذكور وجرى لهن وعليهن ما جرى من تقطيع أيديهن بجراح السكاكين وما ركبهن من المهابة والدهش عند رؤيته ومعاينته ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ ثم مدحته بالعصمة التامة فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي امتنع ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ وكان بقية النساء حرّضته على السمع والطاعة لسيدته فأبى أشد الإباء. ونأى لأنه من سلالة الأنبياء، ودعا فقال في دعائه لرب، العالمين ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ يعني إن وكلتني إلى نفسي فليس لي من نفسي إلاّ العجز والضعف، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، فأنا ضعيف إلاّ ما قوّيتني وعصمتني وحفظتني وأحطتني بحولك وقوتك، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف: الآيات ٣٤ـ ٤١].

يذكر تعالى عن العزيز وامرأته أنهم بدا لهم، أي ظهر لهم من الرأي بعد ما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت ليكون ذلك أقلّ لكلام الناس في تلك القضية، وأخمد لأمرها، وليظهروا أنه راودها عن نفسها، فسجن بسببها، فسجنوه ظلماً وعدواناً. وكان هذا مما قدّر الله له. ومن جملة ما عصمه به فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم. ومن ههنا استنبط بعض الصوفية ما حكاه عنهم الشافعي أن من العصمة أن لا تجد.

قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ قيل كان أحدهما ساقي الملك، واسمه: فيما قيل بنو. والآخر خبّازه يعني الذي يلي طعامه، وهو الذي يقول له الترك (الجاشنكير) واسمه

فيما قيل: مجلث، كان الملك قد اتهمهما في بعض الأمور فسجنهما. فلما رأيا يوسف في السجن أعجبهما سمته وهديه ودلّه وطريقته وقوله وفعله وكثرة عبادته ربه وإحسانه إلى خلقه، فرأى كلّ واحد منهما رؤيا تناسبه.

قال أهل التفسير رأيا في ليلة واحدة. أما الساقي فرأى كأن ثلاث قضبان من حَبلةٍ وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب فأخذها فاعتصرها في كأس الملك وسقاه. ورأى الخبّاز [كأنّ][1] على رأسه ثلاث سلال من خبز وضواري الطيور تأكل من السل الأعلى، فقصّاها عليه، وطلبا منه أن يعبّرهما لهما وقالا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فأخبرهما أنه عليم بتعبيرها خبير بأمرها و ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾. قيل معناه مهما رأيتما من حلم فأني أعبّره لكم قبل وقوعه، فيكون كما أقول. وقيل معناه إني أخبركما بما يأتيكما من الطعام قبل مجيئه حلواً أو حامضاً؛ كما قال عيسى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: الآية ٤٩] وقال لهما إن هذا من تعليم الله إياي لأني مؤمن به موحّد له متّبع ملّة آبائي الكرام إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي بأن هدانا لهذا ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي بأن أمرنا أن ندعوهم إليه ونرشدهم وندلّهم عليه وهو في فطرهم[2] مركوز وفي جبلّتهم مغروز ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾. ثم دعاهم إلى التوحيد وذمّ عبادة ما سوى اللهِ عزّ وَجَلّ، وصغّر أمر الأوثان وحقّرها وضعّف أمرها، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي هو المتصرّف في خلقه الفعّال لما يريد الذي يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي وحده لا شريك له و ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي المستقيم والصراط القويم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره وكانت دعوته لهما في هذه الحال في غاية الكمال، لأن نفوسهما معظّمة له، منبعثة على تلقّي ما يقول بالقبول، فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه. ثم لمّا قام بما وجب عليه، وأرشد إلى ما أرشد إليه قال: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ قالوا: وهو الساقي ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ قالوا وهو الخبّاز ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي وقع هذا لا محالة ووجب كونه على حالة، ولهذا جاء في الحديث «الرُّؤيَا عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعَبَّرْ فإذا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ».

وقد روي عن ابن مسعود ومجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم (أنّهما قالا لم نرَ شيئاً) فقال لهما ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: الآيتان ٤١ـ ٤٢].

يخبر تعالى أن يوسف عليه السلام قال للذي ظنّه ناجياً منهما وهو الساقي ﴿ٱذْكُرْنِى

(١) سقط في ط.
(٢) فطرهم: طبيعتهم.

عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني اذكر أمري وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك. وفي هذا دليل على جواز السعي في الأسباب. ولا ينافي ذلك التوكّل على ربّ الأرباب. وقوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أي فأنسى الناجي منهما الشيطان. أن يذكر ما وصّاه به يوسف عليه السلام. قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد وهو الصواب وهو منصوص أهل الكتاب ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ والبضع ما بين الثلاث إلى التسع. وقيل إلى السبع. وقيل إلى الخمس. وقيل ما دون العشرة. حكاها الثّعلبي. ويقال بضع نسوة وبضعة رجال. ومنع الفرّاء استعمال البضع فيما دون العشر، قال وإنما يقال نيف. وقال الله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿بِضْعِ سِنِينَ﴾ وهذا ردّ لقوله. قال الفرّاء ويقال بضعة عشر وبضعة وعشرون إلى التسعين ولا يقال بضع ومائة وبضع وألف وخالف الجوهري فيمازاد على بضعة عشر، فمنع أن يقال بضعة وعشرون إلى تسعين. وفي الصحيح «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ» وفي رواية: «وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلاَهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ[1] الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ»[2].

ومن قال إن الضمير في قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ عائد على يوسف، فقد ضعف ما قاله، وإن كان قد رُوِيَ عن ابن عبّاس وعكرمة والحديث الذي رواه ابن جرير في هذا الموضع ضعيف من كل وجه. تفرّد بإسناده إبراهيم بن يزيد الخُوزِي المَكِيّ وهو متروك. ومرسل الحسن وقتادة لا يقبل، ولا ههنا بطريق الأولى والأخرى والله أعلم.

فأما قول ابن حبان في صحيحه ذكر السبب الذي من أجله لبث يوسف في السجن، ما لبث: أخبرنا الفضل بن الحُبَابِ الجُمَحِيّ حدثنا مُسَدَّدُ بن مُسَرْهَدٍ حدثنا خالد بن عبد الله حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سَلَمَةَ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ يُوسُفَ لَوْلاَ الكَلِمَةُ الَّتِي قَالَهَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ مَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ، وَرَحِمَ اللَّهُ لُوطاً أَنْ كَانَ لَيَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ قَالَ: فَمَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيّاً بَعْدَهُ إِلاَّ فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ». فإنه حديث منكر من هذا الوجه ومحمد بن عمرو بن عَلْقَمَةَ له أشياء ينفرد بها وفيها نكارة، وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها. والذي في الصحيحين يشهد بغلطها والله أعلم.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ

(١) أماط: أبعد ونحى.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٥٨، وأحمد في المسند ٢/ ٤١٤.

﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: الآيات ٤٣ـ٤٩].

هذا كان من جملة أسباب خروج يوسف عليه السلام من السجن على وجه الاحترام والإكرام، وذلك أن ملك مصر وهو الريان بن الوليد بن ثروان بن اراشه بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح رأى هذه الرؤيا.

قال أهل الكتاب: رأى كأنه على حافة نهر وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان فجعلن يرتعن في روضة هناك فخرجت سبع هزال ضعاف من ذلك النهر فرتعن معهن ثم ملن عليهن فأكلنهن فاستيقظ مذعوراً. ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر في قصبة واحدة وإذا سبع أخر دقاق يابسات فأكلنهنّ فاستيقظ مذعوراً. فلما قصّها على ملئه وقومه لم يكن فيهم من يحسن تعبيرها بل ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي أخلاط أحلام من الليل لعلّها لا تعبير لها ومع هذا فلا خبرة لنا بذلك ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ فعند ذلك تذكر الناجي منهما الذي وصّاه يوسف بأن يذكره عند ربّه فنسيه إلى حينه هذا. وذلك عن تقدير الله عزّ وجلّ، وله الحكمة في ذلك، فلما سمع رؤيا الملك ورأى عجز الناس عن تعبيرها تذكّر أمر يوسف وما كان أوصاه به من التذكار. ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ﴾ أي تذكر ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي بعد مدة من الزمان وهو بضع سنين وقرأ بعضهم كما حكى عن ابن عبّاس وعكرمة والضحّاك (وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أَمَهٍ) أي بعد نسيان، وقرأها مجاهد (بَعْدَ أَمْهٍ) بإسكان الميم وهو النسيان أيضاً يقال أمه الرجل يأمه أمهاً وأمها إذا نسي قال الشاعر: [الوافر].

أَمِـهْـتُ[1] وَكُـنْـتُ لاَ أَنْـسَـى حَـدِيـثـاً كَـذَاكَ الـدَّهْـرُ يُـزْرِي بِـالْـعُـقُـولِ

فقال لقومه وللملك: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ أي فأرسلوني إلى يوسف فجاءه فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وعند أهل الكتاب أن الملك لمّا ذكره له الساقي استدعاه إلى حضرته وقصّ عليه ما رآه ففسّره له وهذا غلط، والصواب ما قصّه الله في كتابه القرآن لا ما عرّبه هؤلاء الجهلة الثيران من قراى وربان. فبذل يوسف عليه السلام ما عنده من العلم بلا تأخر ولا شرط، ولا طلب الخروج سريعاً، بل أجابهم إلى ما سألوا وعبّر لهم ما كان من منام الملك الدال على وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبع جدب. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ يعني يأتيهم الغيث والخصب والرفاهية ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ يعني ما كانوا يعصرونه من الأقصاب والأعناب والزيتون والسمسم وغيرها فعبّر لهم. وعلى الخير دلّهم وأرشدهم إلى ما يعتمدونه في حالتي خصبهم وجدبهم، وما يفعلونه من إدخار حبوب سني الخصب في السبع الأول في سنبله إلا ما يرصد بسبب الأكل، ومن تقليل البذر في سني الجدب في السبع الثانية، إذا الغالب على الظن أنه لا يَرُدّ البذر من الحقل. وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأي والفهم.

---

(١) أمهت: نسيت.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: الآيات ٥٠-٥٣]. لمّا أحاط الملك علماً بكمال علم يوسف عليه الصلاة والسلام وتمام عقله ورأيه السديد وفهمه، أمر بإحضاره إلى حضرته ليكون من جملة خاصّته، فلما جاءه الرسول بذلك أحب أن لا يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حُبِسَ ظلماً وعدواناً، وأنه بريء الساحة مما نسبوه إليه بهتاناً ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يعني الملك ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ قيل معناه إن سيدي العزيز يعلم براءتي مما نُسِبَ إليّ، أي فمر الملك فليسألهن كيف كان امتناعي الشديد عند مراودتهن إياي وحثهن لي على الأمر الذي ليس برشيد ولا سديد. فلما سئلن عن ذلك أعرفن بما وقع من الأمر وما كان منه من الأمر الحميد ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ فعند ذلك ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ وهي زليخا ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي ظهر وتبيّن ووضح والحق أحق أن يتبع ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ أي فيما يقوله من إنه بريء وأنه لم يراودني وأنه حُبِسَ ظلماً وعدواناً وزوراً وبهتاناً. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ قيل: إنه من كلام يوسف أي إنما طلبت تحقيق هذا ليعلم العزيز أني لم أخنه بظهر الغيب. وقيل إنه من تمام كلام زليخا أي إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجي أني لم أخنه في نفس الأمر، وإنما كان مراده لم يقع معها فعل فاحشة، وهذا القول هو الذي نصره طائفة كثيرة من أئمة المتأخّرين وغيرهم، ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم سوى الأول.

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ قيل إنه من كلام يوسف وقيل من كلام زليخا، وهو مفرع على القولين الأولين. وكونه من تمام كلام زليخا أظهر وأنسب وأقوى والله أعلم.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف: ٥٤-٥٧]. لما ظهر للملك براءة عرضه ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه ﴿وَقَالَ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ أي أجعله من خاصتي ومن أكابر دولتي ومن أعيان حاشيتي، فلّما كلّمه وسمع مقاله وتبين حاله ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ أي ذو مكانة وأمانة ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ طلب أن يوليه النظر فيما يتعلق بالأهراء[1] لما يتوقع من حصول الخلل فيما بعد مضي سبع سني الخصب لينظر فيها بما يرضي الله في خلقه

(١) الأهراء: مخازن القمح.

من الاحتياط لهم والرفق بهم، وأخبر الملك إنه حفيظ أي قوي على حفظ ما لديه أمين عليه عليم بضبط الأشياء ومصالح الاهراء، وفي هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة. وعند أهل الكتاب أن فرعون عظّم يوسف عليه السلام جداً وسلّطه على جميع أرض مصر وألبسه خاتمه [وألبسه][1] الحرير وطوّقه الذهب وحمله على مركبه الثاني ونودي بين يديه أنت ربّ ومسلّط، وقال له لست أعظم منك إلا بالكرسي. قالوا وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة وزوّجه امرأة عظيمة الشأن.

وحكى الثعلبي أنه عزل قطفير عن وظيفته وولاّها يوسف. وقيل إنه لما مات زوّجه امرأته زليخا فوجدها عذراء لأن زوجها كان لا يأتي النساء، فولدت ليوسف عليه السلام رجلين وهما أفرايم ومنشا قال واستوثق ليوسف ملك مصر وعمل فيهم بالعدل فأحبّه الرجال والنساء.

وحكي أن يوسف كان يوم دخل على الملك عمره ثلاثين سنة وأن الملك خاطبه بسبعين لغة وكل ذلك يجاوبه بكل لغة منها فأعجبه ذلك مع حداثة سنّه فالله أعلم. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ أي بعد السجن والضيق والحصر صار مطلق الركاب بديار مصر ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ أي أين شاء حلّ منها مكرّماً محسوداً معظّماً ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي هذا كلّه من جزاء الله وثوابه للمؤمن مع ما يدخر له في آخرته من الخير الجزيل والثواب الجميل. ولهذا قال: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ ويقال إن أطفير زوج زليخا كان قد مات، فولاّه الملك مكانه وزوّجه امرأته زليخا فكان وزير صدق.

وذكر محمد بن إسحاق أن صاحب مصر الوليد بن الريّان أسلم على يدي يوسف عليه السلام فالله أعلم. وقد قال بعضهم: [الطويل]

وراءَ مضيقِ الخوفِ متّسعُ الأمنِ — وأوّلُ مفروحٍ بهِ غايةُ الحُزْنِ
فلا تيأسَنْ فاللهُ ملّكَ يوسفا — خزائنَه بعدَ الخلاصِ منَ السِّجْنِ

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يوسف: الآيات ٥٨ـ٦٢] يخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف عليه السلام إلى الديار المصرية يمتارون[2] طعاماً وذلك بعد إتيان سني الجدب، وعمومها على سائر البلاد والعباد. وكان يوسف عليه السلام إذ ذاك الحاكم في أمور الديار المصرية ديناً ودنيا. فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة فلهذا عرفهم وهم له منكرون.

وعند أهل الكتاب أنهم لمّا قدموا عليه سجدوا له فعرفهم وأراد أن لا يعرفوه، فأغلظ

---

(١) سقط في ط.
(٢) يمتارون: امتار: جلب الطعام.

لهم في القول وقال أنتم جواسيس، جئتم لتأخذوا خبر بلادي. فقالوا معاذ الله إنما جئنا نمتار لقومنا من الجهد والجوع الذي أصابنا ونحن بنو أب واحد من كنعان، ونحن اثنا عشر رجلاً ذهب منّا واحد وصغيرنا عند أبينا، فقال لا بدّ أن أستعلم أمركم. وعندهم أنه حبسهم ثلاثة أيام، ثم أخرجهم واحتبس شمعون عنده ليأتوه بالأخ الآخر. وفي بعض هذا نظر، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته في إعطاء كل إنسان حمل بعير لا يزيده عليه ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ وكان قد سألهم عن حالهم، وكم هم فقالوا: كنا اثني عشر رجلاً، فذهب منّا واحد وبقي شقيقه عند أبينا، فقال: إذا قدمتم من العام المقبل فأتوني به معكم ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ أي قد أحسنت نزلكم وقراكم فرغبهم ليأتوه به، [ثم][1] رهبّهم إن لم يأتوه به قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ أي فلست أعطيكم ميرة ولا أقربكم بالكلية عكس ما أسدى إليهم أولاً، فاجتهد في إحضاره معهم ليبلّ شوقه منه بالترغيب والترهيب ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي سنجتهد في مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي وإنا لقادرون على تحصيله. ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضاعتهم وهي ما جاؤوا به يتعوضون به عن الميرة في أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ قيل أراد أن يردوها إذا وجدوها في بلادهم. وقيل خشي أن لا يكون عندهم ما يرجعون به مرّة ثانية. وقيل تذمّم[2] أن يأخذ منهم عوضاً عن الميرة.

وقد اختلف المفسّرون في بضاعتهم على أقوال سيأتي ذكرها. وعند أهل الكتاب أنها كانت صرراً من ورق وهو أشبه والله أعلم. ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يوسف: الآيات ٦٣ ـ ٦٨].

يذكر تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم. وقولهم له: ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ أي بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا فإن أرسلته معنا لم يمنع منا ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ أي أيّ شيء نريد وقد ردّت إلينا بضاعتنا ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي نمتار لهم، ونأتيهم بما يصلحهم في سنتهم ومَحْلهم ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ﴾ بسببه

(١) سقط في ط.
(٢) تذمم: استنكف.

﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ أي في مقابلة ذهاب ولده الآخر، وكان يعقوب عليه السلام أضنّ شيء بولده بنيامين لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه ويتسلّى به عنه، ويتعوّض بسببه منه، فلهذا قال: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي إلاّ أن تغلبوا كلكم عن الإتيان به ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾ أكد المواثيق وقرّر العهود واحتاط لنفسه في ولده ولن يغني حذر من قدره. ولولا حاجته وحاجة قومه إلى الميرة لما بعث الولد العزيز ولكن الأقدار لها أحكام والربّ تعالى يقدّر ما يشاء ويختار ما يريد ويحكم ما يشاء وهو الحكيم العليم. ثم أمرهم أن لا يدخلوا المدينة من باب واحد ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة. قيل أراد أن لا يصيبهم أحد بالعين، وذلك لأنهم كانوا أشكالاً حسنة وصوراً بديعة، قاله ابن عبّاس ومجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والسدّيّ والضّحّاك. وقيل أراد أن يتفرّقوا لعلهم يجدون خبراً ليوسف أو يحدثون عنه بأثر. قاله إبراهيمُ النّخعِي. والأول أظهر؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

وعند أهل الكتاب أنه بعث معهم هدية إلى العزيز من الفستق واللوز والصنوبر والبطم والعسل وأخذوا الدراهم الأولى وعوضاً آخر ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف: الآيات ٦٩ـ ٧٩].

يذكر تعالى ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف وإيوائه إليه وإخباره له سراً عنهم بأنه أخوه وأمره بكتم ذلك عنهم وسلاه عما كان منهم من الإساءة إليه. ثم احتال على أخذه منهم وتركه إياه عنده دونهم فأمر فتيانه بوضع سقايته. وهي التي كان يشرب بها ويكيل بها للناس الطعام عن غرته في متاع بنيامين. ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صِوَاع[1] الملك ووعدهم جعالة على رده حمل بعير وضمنه المنادي لهم فأقبلوا على من اتهمهم بذلك فأنّبوه

(١) الصواع: الذي يكال به.

وهجّنوه[1] فيما قاله لهم و ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ يقولون أنتم تعلمون منا خلاف ما رميتمونا به من السرقة ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾. وهذه كانت شريعتهم أن السارق يدفع إلى المسروق منه ولهذا قالوا: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

قال الله تعالى ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ ليكون ذلك أبعد للتهمة وأبلغ في الحيلة ثم قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ﴾ أي لولا اعترافهم بأن جزاءه من وجد في رَحْله فهو جزاؤه لما كان يقدر يوسف على أخذه منهم في سياسة ملك مصر ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ أي في العلم ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم وأتمّ رأياً وأقوى عزماً وحزماً، وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له في ذلك لأنه يترتّب على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه، فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنيامين ﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ يعنون يوسف. قيل كان قد سرق صنم جدّه أبي أمه فكسره. وقيل كانت عمّته قد علّقت عليه بين ثيابه وهو صغير منطقة كانت لإسحاق ثم استخرجوها من بين ثيابه وهو لا يشعر بما صنعت، وإنما أرادت أن يكون عندها وفي حضانتها لمحبتها له. وقيل كان يأخذ الطعام من البيت فيطعمه الفقراء. وقيل غير ذلك فلهذا ﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾ وهي كلمته بعدها وقوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾ أجابهم سراً لا جهراً حلماً وكرماً وصفحاً وعفواً فدخلوا معه في الترفّق والتعطّف فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي إن أطلقنا المتهم وأخذنا البريء. هذا ما لا نفعله ولا نسمح به وإنما نأخذ من وجدنا متاعنا عنده.

وعند أهل الكتاب أن يوسف تعرّف إليهم حينئذ، وهذا مما غلطوا فيه ولم يفهموه جيداً[2] ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: الآيات ٨٠ ـ ٨٧].

(١) هجّنوه: عابوه.

(٢) في ط: جداً.

يقول تعالى مخبراً عنهم أنهم لما استيأسوا من أخذه منه خلصوا يتناجون فيما بينهم قال كبيرهم وهو روبيل ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم﴾ ﴿مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ لقد أخلفتم عهده وفرطتم فيه كما فرطتم في أخيه يوسف من قبله، فلم يبق لي وجه أقابله به ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي لا أزال مقيماً ههنا ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ في القدوم عليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بأن يقدرني على رد أخي إلى أبي ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ أي أخبروه بما رأيتم من الأمر في ظاهر المشاهدة ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي فإن هذا الذي أخبرناك به من أخذهم أخانا لأنه سرق أمر اشتهر بمصر وعلمه [معرٍ][1] العير التي كنا نحن وهم هناك ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي ليس الأمر كما ذكرتم لم يسرق فإنه ليس سجية[2] له ولا خلقه وإنما سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل.

قال ابن إسحاق وغيره: لما كان التفريط منهم في بنيامين مترتباً على صنيعهم في يوسف، قال لهم ما قال وهذا كما قال بعض السلف إن من جزاء السيئة السيئة بعدها ثم قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يعني يوسف وبنيامين وروبيل ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي بحالي وما أنا فيه من فراق الأحبة ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ فيما يقدره ويفعله وله الحكمة البالغة والحجّة القاطعة ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي أعرض عن بنيه ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ذكره حزنه الجديد بالحزن القديم وحرك ما كان كامناً كما قال بعضهم [الكامل]:

نَقِّلْ فُؤادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الهَوَى ... مَا الحُبُّ إِلاّ لِلْحَبِيبِ الأَوَّلِ

وقال آخر [الطويل]:

لَقَدْ لاَمَني عِنْدَ القُبُورِ على البُكَا ... رَفِيقي لِتَذْرَافِ الدُّمُوعِ السَّوافِكِ[3]

فَقَالَ أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ ... لِقَبْرٍ ثَوِيَ بَيْنَ اللّوى[4] فالدَّكادِكِ[5]

فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ الأَسَى يَبْعَثُ الأَسَى ... فَدَعْني فَهَذا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

وقوله: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ أي من كثرة البكاء ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ أي كميد[6] من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف، فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق ﴿قَالُواْ﴾ له على وجه الرحمة له والرأفة به والحرص عليه ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ يقولون لا تزال تتذكره حتى تنحل جسدك وتضعف قوتك فلو رفقت بنفسك كان أولى بك ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ يقول لبنيه لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه إنما أشكو إلى الله عزّ وجلّ وأعلم أن الله سيجعل لي مما أنا فيه فَرَجاً ومَخْرَجاً وأعلم أن رؤيا يوسف لا بدّ أن

---

(١) سقط في ط.
(٢) سجية: طبع.
(٣) الدموع السوافك: أي الدموع المنصبّة.
(٤) اللوى: ما التوى من الأرض.
(٥) الدكادك: الأرض الغليظة.
(٦) في ط: مكظم.

تقع، ولا بدّ أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى، ولهذا قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾ ثم قال لهم محرضاً على تطلب يوسف وأخيه وأن يبحثوا عن أمرهما. ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ أي لا تيأسوا من الفرج بعد الشدّة فإنه لا ييأس من روح الله وفرجه وما يقدره من المخرج في المضايق إلا القوم الكافرون.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ۝٨٨ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ۝٨٩ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٣﴾ [يوسف: الآيات ٨٨-٩٣].

يخبر تعالى عن رجوع إخوة يوسف إليه وقدومهم عليه ورغبتهم فيما لديه من الميرة والصدقة عليهم برد أخيهم بنيامين إليهم ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ أي من الجدب وضيق الحال وكثرة العيال ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ أي ضعيفة لا يقبل مثلها منا إلا أن يتجاوز عنا. قيل: كانت دراهم رديئة. وقيل: قليلة وقيل: حب الصنوبر، وحب البطم ونحو ذلك. وعن ابن عباس كانت خلق الغرائر والحبال ونحو ذلك. ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ۝٨٨﴾ قيل: بقبولها قاله السدّي. وقيل: بردّ أخينا إلينا قاله ابن جريج. وقال سُفْيَانُ بن عُيَيْنَةَ إنما حرمت الصدقة على نبينا محمد ﷺ ونزع بهذه الآية رواه ابن جرير. فلم رأى ما هم فيه من الحال وما جاؤوا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال تعرّف إليهم وعطف عليهم قائلاً لهم عن أمر ربّه وربّهم. وقد حسر لهم عن جبينه الشريف وما يحويه من الخال فيه الذي يعرفون ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ۝٨٩ قَالُوٓا۟﴾ وتعجّبوا كل العجب وقد ترددوا إليه مراراً عديدة وهم لا يعرفون أنه هو ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ﴾ يعني أنا يوسف الذي صنعتم معه ما صنعتم وسلف من أمركم فيه ما فرّطتم وقوله: ﴿وَهَٰذَآ أَخِى ۖ﴾ تأكيد لما قال وتنبيه على ما كانوا أضمروا لهما من الحسد وعملوا في أمرهما من الاحتيال ولهذا قال: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ﴾ أي بإحسانه إلينا وصدقته علينا وإيوائه لنا وشده معاقد عزنا وذلك بما أسلفنا من طاعة ربنا وصبرنا على ما كان منكم إلينا وطاعتنا وبرّنا لأبينا ومحبّته الشديدة لنا وشفقته علينا ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي فضلك وأعطاك ما لم يعطنا ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١﴾. أي فيما أسدينا إليك وها نحن بين يديك ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ﴾ أي لست أعاقبكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا ثم زدهم على ذلك فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢﴾.

ومن زعم أن الوقف على قوله لا تثريب عليكم وابتدأ بقوله اليوم يغفر الله لكم فقوله

ضعيف والصحيح الأول. ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه وهو الذي يلي جسده فيضعوه على عيني [يعقوب][(١)] أبيه فإنه يرجع إليه بصره بعدما كان ذهب بإذن الله، وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات. ثم أمرهم أن يتحمّلوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر إلى الخير والدعة وجمع الشمل بعد الفرقة على أكمل الوجوه وأعلى الأمور ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف: الآيات ٩٤ـ٩٨].

قال عبد الرزّاق: أنبأنا إسرائيل عن أبي سنان عن عبد الله بن أبي الهذيل سمعت ابن عبّاس يقول: فَلَمَّا فَصَلَتِ العِيرُ، قال: لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ قال فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام[(٢)]. وكذا رواه الثّوري وشُعْبَة وغيرهم عن أبي سِنَانٍ به. وقال الحسن البصريّ وابن جُرَيْج المكّي كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخاً، وكان له منذ فارقه ثمانون سنة وقوله: ﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ أي تقولون إنما قلت هذا من الفند وهو الخرف وكبر السن. قال ابن عبّاس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جُبَيْر وقَتَادَة تفندون تسفّهون. وقال مجاهد أيضاً والحسن تهرمون ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ قال قَتَادَةُ والسدّي قالوا له كلمة غليظة. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ أي بمجرد ما جاء ألقى القميص على وجه يعقوب فرجع من فوره بصيراً بعد ما كان ضريراً. وقال لبنيه عند ذلك ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي أعلم أن الله سيجمع شملي بيوسف وستقرّ عيني به وسيريني فيه ومنه ما يسّرني فعند ذلك ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾﴾. طلبوا منه أن يستغفر لهم الله عزّ وجلّ عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه وما كانوا عزموا عليه. ولما كان من نيتهم التوبة قبل الفعل وفّقهم الله للاستغفار عند وقوع ذلك منهم فأجابهم أبوهم إلى ما سألوا وما عليه عولوا قائلاً ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾.

قال ابن مسعود وإبراهيم التيميّ وعمرو بن قيس وابن جُرَيْج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السحر، قال ابن جرير: حدثني أبو السائب، حدثنا ابن إدريس سمعت عبد الرحمن بن إسحاق يذكر عن محارب بن دِثَارٍ قال كان عمر يأتي المسجد فسمع إنساناً يقول: «اللهم دعوتني فأجبت وأمرتني فأطعت وهذا السحر فاغفر لي» قال فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود فسأل عبد الله عن ذلك فقال إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» وقد قال الله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

---

(١) سقط في ط.

(٢) في الأصل: مسافة ثلاثة أيام، وما في ط يوافق ما في تفسير الطبري الأثر رقم ١٩٨١، وتفسير الحافظ ابن كثير.

وثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: «يَنزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنيَا فَيَقُولُ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبُ عَلَيهِ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعطِيهِ هَلْ مِنْ مُستَغفِرٍ فَأَغفِرُ لَهُ»[1] وقد ورد في حديث (أَنَّ يَعقُوبَ أَرجَأَ بَنِيهِ إِلَى لَيلَةِ الجُمُعَةِ) قال ابن جرير: حدثني المثنى. حدثنا سليمان بن عبد الرحمن بن أيوب الدمشقي، حدثنا الوليد أنبأنا ابن جُرَيْج عن عطاءٍ وعِكْرِمَةَ عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ «سَوفَ أَستَغفِرُ لَكُمْ رَبِّي» يقول حتى تأتي ليلة الجمعة وهو قول أخي يعقوب لبنيه. وهذا غريب من هذا الوجه. وفي رفعه نظر والأشبه أن يكون موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنه.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: الآيات ٩٩-١٠١].

هذا إخبار عن حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة التي قيل إنها ثمانون سنة، وقيل: ثلاث وثمانون سنة وهما روايتان عن الحسن. وقيل: خمس وثلاثون سنة قاله قَتَادَةُ. وقال محمد بن إسحاق: ذكروا أنه غاب عنه ثماني عشرة سنة. قال: وأهل الكتاب يزعمون أنه غاب عنه أربعين سنة وظاهر سياق القصّة يرشد إلى تحديد المدة تقريباً، فإن المرأة راودته وهو شاب ابن سبع عشرة سنة فيما قاله غير واحد فامتنع فكان في السجن بضع سنين وهي سبع عند عكرمة وغيره. ثم أخرج فكانت سنوات الخصب السبع، ثم لما أمحل الناس في السبع البواقي جاء إخوته يمتارون في السنة الأولى وحدهم. وفي الثانية ومعهم أخوه بنيامين. وفي الثالثة تعرف إليهم وأمرهم بإحضار أهلهم أجمعين فجاؤوا كلهم ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ اجتمع بهما خصوصاً وحدهما دون إخوته ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ قيل: هذا من المقدم والمؤخر تقديره: ادخلوا مصر وآوى إليه أبويه. وضعّفه ابن جرير وهو معذور. قيل تلقاهما وآواهما في منزل الخيام. ثم لما اقتربوا من باب مصر ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ قاله السدّيّ. ولو قيل إن الأمر لا يحتاج إلى هذا أيضاً وإنه ضمن قوله ادخلوا معنى اسكنوا مصر أو أقيموا بها ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ لكان صحيحاً مليحاً أيضاً.

وعند أهل الكتاب أن يعقوب لما وصل إلى أرض جاشر وهي أرض بلبيس خرج يوسف لتلقيه، وكان يعقوب قد بعث ابنه يهوذا بين يديه مبشّراً بقدومه، وعندهم أن الملك أطلق لهم أرض جاشر يكونون فيها ويقيمون بها بنعمهم ومواشيهم. وقد ذكر جماعة من المفسّرين أنه لما أَزِفَ قدوم نبي الله يعقوب وهو إسرائيل، أراد يوسف أن يخرج لتلقيه فركب معه الملك وجنوده

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين حديث ١٧٢، وأحمد في المسند ٢/ ٤٣٣.

خدمة ليوسف وتعظيماً لنبي الله إسرائيل، وأنه دعا للملك وأن الله رفع عن أهل مصر بقية سني الجدب ببركة قدومه إليهم فالله أعلم.

وكان [من][(١)] جملة من قدم مع يعقوب من بنيه وأولادهم فيما قاله أبو إسحاق السَّبيعي عن أبي عبيدة عن ابن مسعود ثلاثة وستين إنساناً. وقال موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب عن عبد الله بن شداد كانوا ثلاثة وثمانين إنساناً. وقال أبو إسحاق عن مسروق دخلوا وهم ثلثمائة وتسعون إنساناً: قالوا وخرجوا مع موسى وهم أزيد من ستمائة ألف مقاتل. وفي نص أهل الكتاب أنهم كانوا سبعين نفساً وسمّوهم. قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قيل: كانت أمه قد ماتت كما هو عند علماء التوراة. وقال بعض المفسّرين: فأحياها الله تعالى، وقال آخرون: بل كانت خالته ليا، والخالة بمنزلة الأم. وقال ابن جرير وآخرون بل ظاهر القرآن يقتضي بقاء حياة أمه إلى يومئذٍ فلا يعول على نقل أهل الكتاب فيما خالفه، وهذا قوي والله أعلم. ورفعهما على العرش أي أجلسهما معه على سريره ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ أي سجده له الأبوان والإخوة الأحد عشر تعظيماً وتكريماً، وكان هذا مشروعاً لهم ولم يزل ذلك معمولاً به في سائر الشرائع حتى حرّم في ملّتنا. ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ أي هذا تعبير ما كنت قصصته عليك من رؤيتي الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر حين رأيتهم لي ساجدين وأمرتني بكتمانها ووعدتني ما وعدتني عند ذلك ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ أي بعد الهمّ والضيق جعلني حاكماً نافذ الكلمة في الديار المصرية حيث شئت ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ أي البادية وكانوا يسكنون أرض العربات من بلاد الخليل ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ أي فيما كان منهم إليّ من الأمر الذي تقدم وسبق ذكره. ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ أي إذا أراد شيئاً هيأ أسبابه ويسّرها وسهّلها من وجوه لا يهتدي إليها العباد بل يقدّرها وييسّرها بلطيف صنعه وعظيم قدرته ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي بجميع الأمور ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ في خلقه وشرعه وقدره.

وعند أهل الكتاب أن يوسف باع أهل مصر وغيرهم من الطعام الذي كان تحت يده. بأموالهم كلها من الذهب والفضة والعقار والأثاث وما يملكونه كله حتى باعهم بأنفسهم فصاروا أرقاء. ثم أطلق لهم أرضهم وأعتق رقابهم على أن يعملوا ويكون خمس ما يشتغلون من زرعهم وثمارهم للملك فصارت سنة أهل مصر بعده.

وحكى الثَّعْلَبي أنه كان لا يشبع في تلك السنين حتى لا ينسى الجيعان، وأنه إنما كان يأكل أكلة واحدة نصف النهار. قال: فمن ثم اقتدى به الملوك في ذلك. قلت: وقد كان[(٢)] أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يشبع بطنه عام الرمادة حتى ذهب الجدب وأتى الخصب.

قال الشافعي: قال رجل من الأعراب لعمر بعد ما ذهب عام الرمادة: (لقد انجلت عنك

---

(١) سقط في ط. (٢) في ب: وكان.

وإنك لابن حرّة). ثم لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمّت وشمله قد اجتمع عرف أن هذه الدار لا يقرّبها قرار، وأن كل شيء فيها ومن عليها فان. وما بعد التمام إلاّ النقصان، فعند ذلك أثنى على ربّه بما هو أهله، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله. وسأله منه وهو خير المسؤلين أن يتوفّاه أي حين يتوفاه على الإسلام. وأن يلحقه بعباده الصالحين. وهكذا كما يقال في الدعاء (اللَّهُمَّ أَحْيِنَا مُسْلِمِينَ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) أي حين تتوفانا ويحتمل أنه [ساله][1] ذلك عند احتضاره عليه السلام كما سأل النبي ﷺ عند احتضاره أن يرفع روحه إلى الملأ الأعلى والرفقاء الصالحين من النبيين والمرسلين كما قال: «اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى ثَلاَثاً ثُمَّ قَضَى»[2].

ويحتمل أن يوسف عليه السلام سأل الوفاة على الإسلام منجزاً في صحّة بدنه وسلامته وأن ذلك كان سائغاً في ملّتهم وشرعتهم، كما رُوِيَ عن ابن عبّاس أنه قال ما تمنى نبيٌ قط الموت قبل يوسف. فأما في شريعتنا فقد نهى عن الدعاء بالموت إلاّ عند الفتن، كما في حديث معاذ في الدعاء الذي رواه أحمد «وَإِذَا أَرَدْتَ بِقَوْمٍ فِتْنَةً فَتَوَفَّنَا إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونِينَ» وفي الحديث الآخر «ابْنَ آدَمَ الْمَوْتُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْفِتْنَةِ» وقالت مريم عليها السلام ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم: الآية ٢٣] وتمنى الموت عليّ بن أبي طالب لما تفاقمت الأمور وعظمت الفتن واشتد القتال وكثر القيل والقال، وتمنى ذلك البخاري أبو عبد الله صاحب الصحيح لما اشتدّ عليه الحال، ولقي من مخالفيه الأهوال.

فأما في حال الرفاهية فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ إِمَّا مُحْسِناً فَيَزْدَادَ وَإِمَّا مُسِيئاً فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ وَلكِنْ لِيَقُلْ اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْراً لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْراً لِي»[3] والمراد بالضرّ ههنا ما يخص العبد في بدنه من مرض ونحوه لا في دينه. والظاهر أن نبي الله يوسف عليه السلام سأل ذلك إما عند احتضاره أو إذا كان ذلك أن يكون كذلك.

وقد ذكر ابن إسحاق عن أهل الكتاب أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة ثم توفي عليه السلام وكان قد أوصى إلى يوسف عليه السلام أن يدفن عند أبويه إبراهيم وإسحاق. قال السدّي فصبر وسيره إلى بلاد الشام فدفنه بالمغارة عند أبيه إسحاق وجده الخليل عليهم السلام.

وعند أهل الكتاب أن عمر يعقوب يوم دخل مصر مائة وثلاثون سنة. وعندهم أنه أقام بأرض مصر سبع عشرة سنة ومع هذا قالوا فكان جميع عمره مائة وأربعين سنة. هذا نص كتابهم وهو غلط. إما في النسخة أو منهم أو قد أسقطوا الكسر وليس بعادتهم فيما هو أكثر من هذا، فكيف يستعملون هذه الطريقة ههنا، وقد قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ

---

(١) سقط في ط.

(٢) أخرجه البخاري في: المرضى باب: (١٩).

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات، باب: (٣٠)، ومسلم في: الذكر والدعاء، حديث ١٠، وأحمد في المسند ٣/١٠١.

يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: الآية ١٣٣] يوصي بنيه بالإخلاص وهو دين الإسلام الذي بعث الله به الأنبياء عليهم السلام.

وقد ذكر أهل الكتاب أنه أوصى بنيه واحداً واحداً وأخبرهم بما يكون من أمرهم وبشّر يهوذا بخروج نبي عظيم من نسله تطيعه الشعوب، وهو عيسى ابن مريم والله أعلم.

وذكروا أنه لمّا مات يعقوب بكى عليه أهل مصر سبعين يوماً، وأمر يوسف الأطباء فطيّبوه بطيب ومكث فيه أربعين يوماً، ثم استأذن يوسف ملك مصر في الخروج مع أبيه ليدفنه عند أهله، فأذن له وخرج معه أكابر مصر وشيوخها، فلما وصلوا حَبْرون ودفنوه في المغارة التي كان [قد][1] اشتراها إبراهيم الخليل من عفرون بن صخر الحيثي، وعملوا له عزاء سبعة أيام، قالوا ثم رجعوا إلى بلادهم وعزى إخوة يوسف ليوسف في أبيهم، وترققوا له فأكرمهم وأحسن منقلبهم فأقاموا ببلاد مصر. ثم حضرت يوسف عليه السلام الوفاة فأوصى أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن عند آبائه فحنطوه ووضعوه في تابوت، فكان بمصر حتى أخرجه معه موسى عليه السلام فدفنه عند آبائه كما سيأتي. قالوا فمات وهو ابن مائة سنة وعشر سنين. هذا نصّهم فيما رأيته وفيما حكاه ابن جرير أيضاً. وقال مبارك بن فُضَالَةَ عن الحسن أُلقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وغاب عن أبيه ثمانين سنة وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة. ومات وهو ابن مائة سنة وعشرين سنة. وقال غيره أوصى إلى أخيه يهوذا صلوات الله عليه وسلامه.

قصة نبيّ الله أيوب عليه السلام

قال ابن إسحاق كان رجلاً من الروم وهو أيوب بن موص بن زراح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. وقال غيره هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن يعقوب وقيل غير ذلك في نسبه. وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط عليه السلام. وقيل كان أبوه ممن آمن بإبراهيم عليه السلام يوم أُلقي في النار فلم تحرقه، والمشهور الأول لأنه من ذرية إبراهيم كما قررنا عند قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٨٤] الآيات من أن الصحيح أن الضمير عائد على إبراهيم دون نوح عليهما السلام. وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ﴾ [النساء: الآية ١٦٣] الآية فالصحيح أنه من سلالة العيص بن إسحاق وامرأته قيل اسمها ليا بنت يعقوب وقيل رحمة بنت أفرائيم. وقيل منشا بن يوسف بن يعقوب. وهذا أشهر فلهذا ذكرناه ها هنا. ثم نعطف بذكر أنبياء بني إسرائيل بعد ذكر قصّته إن شاء الله وبه الثقة وعليه

(١) سقط في ط.

التكلان.

قال الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: الآيات ٨٣- ٨٤] وقال تعالى في سورة ص: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: الآيات ٤١- ٤٤].

وروى ابن عساكر عن الكلبيّ أنه قال أول نبي بعث إدريس، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم إسماعيل، ثم إسحاق، ثم يعقوب، ثم يوسف، ثم لوط، ثم هود، ثم صالح، ثم شعيب، ثم موسى وهارون، ثم إلياس، ثم أليسع، ثم عرفي بن سويلخ بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب، ثم يونس بن متى من بني يعقوب، ثم أيوب بن رزاح بن آموص بن بيفرز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم وفي بعض هذا الترتيب نظر فإن هوداً وصالحاً المشهور أنهما بعد نوح، وقبل إبراهيم والله أعلم.

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم كان أيوب رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه من الأنعام والعبيد والمواشي والأراضي المتسعة بأرض البثنة[1] من أرض حوران.

وحكى ابن عساكر أنها كلّها كانت له، وكان له أولاد وأهلون كثير فسُلِبَ من ذلك جميعه وابتلي في جسده بأنواع البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه. يذكر الله عزّ وجلّ بهما[2]، وهو في ذلك كله صابر محتسب ذاكر لله عزّ وجلّ في ليله ونهاره وصباحه ومسائه. وطال مرضه حتى عافه الجليس وأوحش منه الأنيس، وأُخرِجَ من بلده، وأُلقِيَ على مزبلة خارجها، وانقطع عنه الناس ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته، كانت ترعى له حقّه وتعرفُ قديم إحسانه إليها، وشفقته عليها، فكانت تتردّد إليه فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء حاجته وتقوم بمصلحته. وضعف حالها وقلّ مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه، وتقوم بأوده رضي الله عنها وأرضاها، وهي صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد وما يختص بها من المصيبة بالزوج، وضيق ذات اليد وخدمة الناس بعد السعادة والنعمة، والخدمة والحرمة فإنا لله وإنا إليه راجعون. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلاَءً الأَنْبِيَاءُ. ثُمَّ الصَّالِحُونَ. ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلاَبَةٌ زِيْدَ فِي بَلاَئِهِ»[3]. ولم يزد هذا كلّه أيوب عليه السلام إلاّ صبراً واحتساباً وحمداً وشكراً حتى أن المثل ليضرب بصبره عليه السلام ويضرب المثل أيضاً بما حصل له من أنواع البلايا.

(١) ويقال لها: البثنة، ذكرها ياقوت وقال: اسم ناحية من نواحي دمشق، وقال: وقيل: هي قرية بين دمشق وأذرعات عن الأزهري وكان أيوب النبي عليه السلام منها.

(٢) في ط: بها.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ٥٦، وأحمد في المسند ١/ ١٨٥.

وقد رُوي عن وَهْبِ بن مُنَبِّهٍ وغيره من علماء بني إسرائيل في قصّة أيوب خبر طويل في كيفية ذهاب ماله وولده وبلائه في جسده والله أعلم بصحته.

وعن مجاهد أنه قال كان أيوب عليه السلام أول من أصابه الجدري وقد اختلفوا في مدة بلواه على أقوال، فزعم وهب أنه ابتلي ثلاث سنين لا تزيد ولا تنقص. وقال الحسن[1] ابتلى سبع سنين وأشهراً، وأُلقِيَ على مزبلة لبني إسرائيل تختلف[2] الدواب في جسده حتى فرّج الله عنه، وعظّم له الأجر وأحسن الثناء عليه.

وقال حَمِيدٌ مكث في بلواه ثمانية عشرة سنة. وقال السَدّي تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب، فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته، فلما طال عليها قالت: (يا أيوب لو دعوت ربّك لفرّج عنك فقال قد عشت سبعين سنة صحيحاً فهو قليل لله أن أصبر له سبعين سنة) فجزعت من هذا الكلام وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعم أيوب عليه السلام.

ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها لعلمهم أنها امرأة أيوب خوفاً [من][3] أن ينالهم من بلائه، أو تعديهم بمخالطته، فلما لم تجد أحداً يستخدمها عمدت فباعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيرتيها[4] بطعام طيب كثير، فأتت به أيوب، فقال: من أين لك هذا؟ وأنكره فقالت: خدمت به أناساً فلما كان الغد لم تجد أحداً فباعت الضفيرة الأخرى بطعام، فأتته به فأنكره أيضاً وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام، فكشفت عن رأسها خمارها، فلما رأى رأسها محلوقاً قال في دعائه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٨٣].

وقال ابن أبي حاتم: **حدثنا أبي**، حدثنا أبو سَلَمَة، حدثنا جرير بن حَازِمٍ عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال كان لأيوب أخوان فجاءا يوماً، فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه، فقاما من بعيد فقال أحدهما لصاحبه لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا، فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط قال: (اللهم إن كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شبعاناً وأنا أعلم مكان جائع فصدقني فصُدّق من السماء وهما يسمعان) ثم قال: (اللهم إن كنت تعلم أني لم يكن لي قميصان قط وأنا أعلم مكان عار فصدقني فصُدق من السماء وهما يسمعان) ثم قال: (اللهم بعزّتك) وخرّ ساجداً، فقال: (اللهمّ بعزّتك لا أرفع رأسي أبداً حتى تكشف عني) فما رفع رأسه حتى كشف عنه.

وقال ابن أبي حاتم وابن جرير جميعاً: **حدثنا** يونس بن عبد الأعلى أنبؤنا ابن وهب، أخبرني نافع بن يزيد عن عَقِيل عن الزُّهْرِيّ عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ أَيُوبَ لَبِثَ بِهِ بَلاَؤُهُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ القَرِيبُ وَالبَعِيدُ إِلاَّ رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ، كَانَا مِنْ أَخصِّ إِخْوَانِهِ لَهُ، كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ يَعْلَمُ اللَّهُ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُوبُ ذَنْباً مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ العَالَمِينَ. قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَمَا ذَاكَ قَالَ مُنْذُ[5] ثَمَانِي عَشَرَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ رَبُّهُ

---

(١) في ط: أنس.
(٢) تختلفه الدواب: تأتيه.
(٣) سقط في ط.
(٤) الضفيرة: خصلة الشعر.
(٥) في ط: من.

فَيَكْشَفِ مَا بِهِ. فَلَمَّا رَاحَا إِلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ أَيُّوبُ: لاَ أَدْرِي مَا تَقُولُ غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللَّهَ فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةَ أَنْ يَذْكُرَا اللَّهَ إِلاَّ فِي حَقٍّ». قال وكان يخرج في حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص: الآية ٤٢] فاستبطأته فتلقته تنظر، وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت أي بارك الله فيك، هل رأيت نبيّ الله هذا المبتلى، فوالله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك، إذ كان صحيحاً قال: فإني أنا هو.

قال وكان له اندران[١] اندر للقمح واندر للشعير، فبعث الله سحابتين فلما كانت إحداهما على اندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض. وأفرغت الأخرى في اندر الشعير الورِق حتى فاض. هذا لفظ ابن جرير.

وهكذا رواه بتمامه ابن حبان في صحيحه عن محمد بن الحسن بن قتيبة عن حَرْمَلَةَ عن ابن وهب به. وهذا غريب رفعه جداً. والأشبه أن يكون موقوفاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد أنبأنا علي بن زيد عن يوسف بن مِهْرَانَ عن ابن عبّاس قال وألبسه الله حلّة من الجنّة فتنحى أيوب وجلس في ناحية وجاءت امرأته فلم تعرفه، فقالت: يا عبد الله هذا المبتلي الذي كان ههنا لعل الكلاب ذهبت به أو الذائب، وجعلت تكلمه ساعة، قال: ولعل أنا أيوب، قالت أتسخر مني يا عبد الله، فقال: ويحك[٢] أنا أيوب قد ردّ الله عليّ جسدي.

قال ابن عبّاس ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم. وقال وهب بن منبه. أوحى الله إليه قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك وقرب عن صحابتك قرباناً، واستغفر لهم، فإنهم قد عصوني فيك رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن أبي حاتم ثنا أبو زَرْعَةَ حدثنا عمرو بن مَرْزُوق حدثنا هَمَّام عن قَتَادَةَ عن النَّضْرِ بنِ أنس عن بشير بن نُهَيكٍ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لَمَّا عَافَى اللَّهُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ أَمْطَرَ عَلَيْهِ جَرَاداً[٣] مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ يَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيَجْعَلُ فِي ثَوْبِهِ قَالَ فَقِيلَ لَهُ يَا أَيُّوبُ أَمَا تَشْبَعُ. قَالَ يَا رَبِّ وَمَنْ يَشْبَعُ مِنْ رَحْمَتِكَ»[٤]. وكذا[٥] رواه الإمام أحمد عن أبي داود الطَّيَالِسِي وعبد الصمد عن هَمَّام عن قَتَادَةَ به. ورواه ابن حِبان في صحيحه عن عبد الله بن محمد الأَزْدِي عن إسحاق بن رَاهَوَيْهِ عن عبد الصمد به ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب وهو على شرط الصحيح فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأَعْرَج عن أبي هريرة أرسل على أيوب رجل من جراد من ذهب فجعل يقبضها في ثوبه فقيل يا أيوب ألم يكفك ما أعطيناك؟ قال:

---

(١) الأندر: البيدر.
(٢) في ط: ولعل.
(٣) الجراد: آنية.
(٤) أخرجه أحمد في المسند ٢/٢٤٣.
(٥) في ط: وهكذا.

أي ربِّ ومن يستغني عن فضلك. هذا موقوف. وقد روي عن أبي هريرة من وجه آخر مرفوعاً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرَّزَّاق، حدثنا مَعْمَر عن هَمَّام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَاناً خَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ فَنَادَاهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى قَالَ بَلَى يَا رَبِّ وَلَكِنْ لاَ غِنَى لِي عَنْ بَرَكَتِكَ»[١]. رواه البخاري من حديث عبد الرزاق به.

وقوله: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أي اضرب الأرض برجلك فامتثل ما أمر به فأنبع الله له عيناً باردة الماء وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى والسقم والمرض الذي كان في جسده ظاهراً وباطناً، وأَبْدَلَهُ الله بعد ذلك كلّه صحة ظاهرة وباطنة وجمالاً تاماً ومالاً كثيراً، حتى صبّ له من المال صبّاً مطراً عظيماً جراداً من ذهب، وأخلف الله له أهله كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فقيل أحياهم الله بأعيانهم. وقيل آجره فيمن سلف وعوّضه عنهم في الدنيا بدلهم، وجمع له شمله بكلّهم في الدار الآخرة. وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي رفعنا عنه شدته ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ رحمة منا به ورأفة وإحساناً ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ أي تذكرة لمن ابتلى في جسده أو ماله أو ولده فله أسوة بنبي الله أيوب حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتى فرج الله عنه.

ومن فهم من هذا اسم امرأته فقال هي رحمة من هذه الآية فقد أبعد النجعة وأغرق النزع[٢]. وقال الضحّاك عن ابن عباس رد الله إليها شبابها، وزادها حتى ولدت له ستة وعشرون ولداً ذكراً.

وعاش أيوب بعد ذلك سبعين سنة بأرض الروم على دين الحنيفية، ثم غيّروا بعده دين إبراهيم. وقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: الآية ٤٤] هذه رخصة من الله تعالى لعبده ورسوله أيوب عليه السلام فيما كان من حلفه ليضربنّ امرأته مائة سوط، فقيل حلفه ذلك لبيعها ضفائرها. وقيل لأنه اعترضها[٣] الشيطان في صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب فأتته فأخبرته، فعرف أنه الشيطان فحلف ليضربها بمائة سوط. فلما عافاه الله عزّ وجلّ أفتاه أن يأخذ ضغثاً[٤] وهو كالعثكال[٥] الذي يجمع الشماريخ[٦] فيجمعها كلّها ويضربها به ضربة واحدة، ويكون هذا منزلاً منزلة الضرب بمائة سوط، ويبر ولا يحنث[٧]. وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه، ولا سيما في حق امرأته الصابرة

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٢٠، وأحمد في المسند ٢/ ٣١٤.
(٢) النزع: النبت.
(٣) في ب: عرضها.
(٤) الضغث: حزمة من العشب أو نحوه. يختلط بها الرطب واليابس.
(٥) العثكال: عنقود البلح جمعه عثاكيل.
(٦) الشماريخ: جمع شمراخ وهو الغصن الذي عليه بلح أوعنب.
(٧) الحنث: الإثم.

المحتسبة المكابدة الصديقة البارّة الراشدة رضي الله عنها. ولهذا عقب الله هذه الرخصة وعلّلها بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ وقد استعمل كثير من الفقهاء هذه الرخصة في باب الإيمان والنذور، وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل في الخلاص من الإيمان وصدروه بهذه الآية الكريمة، وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب. وسنذكر طرفاً من ذلك في كتاب الأحكام عند الوصول إليه إن شاء الله تعالى.

وقد ذكر ابن جرير وغيره من علماء التاريخ أن أيوب عليه السلام لما توفي كان عمره ثلاثاً وتسعين سنة. وقيل إنه عاش أكثر من ذلك. وقد روى ليث عن مجاهد ما معناه أن الله يحتج يوم القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء، وبيوسف عليه السلام على الأرقاء، وبأيوب عليه السلام على أهل البلاء، رواه ابن عساكر بمعناه، وأنه أوصى إلى ولده حومل، وقام بالأمر بعده ولده بشر بن أيوب، وهو الذي يزعم كثير من الناس أنه ذو الكفل فالله أعلم. ومات ابنه هذا وكان نبياً فيما يزعمون، وكان عمره من السنين خمساً وسبعين. ولنذكر ههنا قصة ذي الكِفْل إذ قال بعضهم إنه ابن أيوب عليهما السلام.

قصة ذي الكفل

الذي زعم قوم أنه ابن أيوب. قال الله تعالى بعد قصة أيوب في سورة الأنبياء: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥ـ ٨٦].

وقال تعالى بعد قصة أيوب أيضاً في سورة ص: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص: ٤٥ـ ٤٨] فالظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبي عليه من ربّه الصلاة والسلام وهذا هو المشهور. وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبياً وإنّما كان رجلاً صالحاً وحكماً مقسطاً عادلاً. وتوقف ابن جرير في ذلك فالله أعلم.

وروى ابن جرير وابن أبي نَجِيح عن مجاهد أنه لم يكن نبياً وإنما كان رجلاً صالحاً، وكان قد تكفل لبني قومه أن يكفيه أمرهم، ويقضي بينهم بالعدل فسُمِّيَ ذا الكِفْل. وروى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق داود بن أبي هند عن مجاهد، أنه قال لما كبر اليَسَع قال: لو أني استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يعمل، فجمع الناس فقال: من يتقبّل لي بثلاث استخلفه. يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب؟ قال: فقام رجل تزدريه[1] العين، فقال: أنا، فقال: أنت تصوم النهار وتقوم الليل ولا تغضب؟ قال: نعم. قال: فردّهم ذلك اليوم، وقال مثلها اليوم الآخر، فسكت الناس وقام ذلك الرجل، فقال أنا.

(١) ازّدرى: استخف.

فاستخلفه، قال فجعل إبليس يقول للشياطين عليكم بفلان فأعياهم ذلك، فقال دعوني وإياه فأتاه في صورة شيخ كبير فقير، وأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة[1]، وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة، فدق الباب فقال: من هذا؟ قال: شيخ كبير مظلوم. قال: فقام ففتح الباب فجعل يقصّ عليه، فقال إن بيني وبين قومي خصومة، وإنهم ظلموني وفعلوا بي، وفعلوا حتى حضر الرواح، وذهبت القائلة، وقال إذا رحت فائتني آخذ لك بحقك فانطلق وراح. فكان في مجلسه فجعل ينظر هل يرى الشيخ، فلم يره فقام يتبعه، فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلا يراه. فلما رجع إلى القائلة فأخذ، مضجعه أتاه فدقّ الباب، فقال: من هذا؟ فقال: الشيخ الكبير المظلوم، ففتح له فقال: ألم أقل لك إذا قعدت فأتني؟ فقال: إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد، قالوا نحن نعطيك حقك، وإذا قمت جحدوني، قال فانطلق فإذا رحت فأتني، قال: ففاتته القائلة فراح، فجعل ينتظر فلا يراه، وشقّ عليه النعاس، فقال لبعض أهله لا تدعن أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام، فإني قد شقّ عليّ النوم. فلما كان تلك الساعة جاء فقال له الرجل وراءك وراءك فقال إني قد أتيته أمس فذكرت له أمري فقال: لا والله لقد أمرنا أن لا ندع أحداً يقربه، فلما أعياه نظر فرأى كوة[2] في البيت فتسور منها فإذا هو في البيت وإذا هو يدقّ الباب من داخل قال فاستيقظ الرجل قال: يا فلان ألم آمرك؟ قال أما من قبلي والله فلم تؤت فانظر من أين أتيت قال فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه وإذا الرجل معه في البيت، فعرفه فقال أعدو الله قال: نعم أعييتني في كل شيء ففعلت ما ترى لأغضبنك فسّماه الله ذا الكِفْل لأنه تكفّل بأمر فوفّا به.

وقد روى ابن أبي حاتم أيضاً عن ابن عبّاس قريباً من هذا السياق.

وهكذا روى عن عبد الله بن الحارث ومحمد بن قيس وابن حجيرة الأكبر وغيرهم من السلف نحو هذا.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجَمَاهِرِ، أنبأنا سعيد بن بشير، حدثنا قَتَادَةُ عن [كِنَانَة بن الأخنس][3] قال: سمعت الأشعري يعني أبا موسى رضي الله عنه وهو على هذا المنبر يقول: «ما كان ذو الكفل نبياً ولكن كان رجلاً صالحاً يصلي كل يوم مائة صلاة فتكفّل له[4] ذو الكِفْل من بعده يصلّي كل يوم مائة صلاة فسمي ذا الكِفْل. ورواه ابن جرير من طريق عبد الرزاق عن مَعْمَرٍ عن قَتَادَة. قال قال أبو موسى الأشعري فذكره منقطعاً.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أَسْبَاط بن محمد، حدثنا الأعمش عن عبد الله بن عبد الله عن سعد مولى طلحة عن ابن عمر قال: سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لو لم أسمعه إلاّ مرّة أو مرّتين حتى عدّ سبع مرار، ولكن قد سمعته أكثر من ذلك قال: «كَانَ الكِفْلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ يَتَوَرَّعُ مَنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ فَأَتَتْهُ امرأة فَأَعْطَاهَا سِتِّينَ دِينَاراً عَلَى أَنْ يَطَأَهَا، فَلَمَّا قَعَدَ

---

(١) القائلة: النوم وقت الظهيرة.
(٢) الكوة: الخرق في الحائط.
(٣) ما بين المعقوفين سقط من ط.
(٤) أي تكفل لنبي قومه.

مِنهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنِ امْرَأَتِهِ أَرْعَدَتْ[١] وَبَكَتْ، فَقَالَ لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ أَكْرَهْتُكِ؟ قَالَتْ: لاَ وَلَكِنْ هَذَا عَمَلٌ لَمْ أَعْمَلْهُ قَطُّ وَإِنَّمَا حَمَلَتْنِي عَلَيْهِ الحَاجَةُ، قَالَ: فَتَفْعَلِينَ هَذَا وَلَمْ تَفْعَلِيهِ قَطُّ؟ ثُمَّ نَزَلَ فَقَالَ اذْهَبِي بِالدَّنَانِيرِ لَكِ. ثُمَّ قَالَ وَاللَّهِ لاَ يَعْصِي اللَّهَ الكِفْلُ أَبَداً فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ فَأَصْبَحَ مَكْتُوباً عَلَى بَابِهِ قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لِكِفْلٍ»[٢]. رواه الترمذي من حديث الأعمش به وقال حسن. وذكر أن بعضهم رواه فوقفه على ابن عمر فهو حديث غريب جداً.

وفي إسناده نظر فإن سعداً هذا قال أبو حاتم لا أعرفه إلاّ بحديث واحد ووثقه ابن حِبّان ولم يروِ عنه سوى عبد الله بن عبد الله الرازي هذا فالله أعلم. وإن كان محفوظاً فليس هو ذا الكِفْل وإنما لفظ الحديث الكِفْل من غير إضافة فهو رجل آخر غير المذكور في القرآن فالله أعلم.

باب ذكر أُمم أهلكوا بعامة

وذلك قبل نزول التوراة بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: الآية ٤٣] الآية. كما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والبزّار من حديث عَوْفٍ الأعرابي عن أبي نَضْرَةَ عن أبي سعيد الخُدْري قال ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء أو من الأرض بعد ما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مُسِخوا قِرَدَة. ألم تر أن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ ورفعه البزار في رواية له. والأشبه والله أعلم وقفه فدل عى أن كل أمة أهلكت بعامة قبل موسى عليه السلام. فمنهم أصحاب الرسّ قال الله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ [الفرقان: ٣٨-٣٩]. وقال تعالى في سورة ق: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق: الآيات ١٢-١٤].

وهذا السياق والذي قبله يدل على أنهم أُهلكوا ودمّروا وتبّروا وهو الهلاك. وهذا يرد اختيار ابن جرير من أنهم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج لأن أولئك عند ابن إسحاق وجماعة كانوا بعد المسيح عليه السلام وفيه نظر أيضاً.

وروى ابن جرير قال قال: ابن عبّاس أصحاب الرَّسّ أهل قرية من قرى ثمود وقد ذكر الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر في أول تاريخه عند ذكر بناء دمشق عن تاريخ أبي القاسم عبد الله بن عبد الله بن جرداد وغيره أن أصحاب الرَّسّ كانوا بحضُور[٣] فبعث الله إليهم نبياً يقال له حنظلة بن صفوان فكذّبوه وقتلوه، فسار عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح بولده من الرَّسّ

---

(١) أرعدت: ارتجفت.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق باب ٤٨، وأحمد في المسند ٢/ ٢٣.

(٣) حضور: بلدة باليمن.

فنزل الأحقاف وأهلك الله أصحاب الرّسّ وانتشروا في اليمن كلّها وفشوا مع ذلك في الأرض كلّها حتى نزل جيرون بن سعد بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح دمشق وبنى مدينتها وسمّاها جيرون، وهي إرم ذات العماد، وليس أعمدة الحجارة في موضع أكثر منها بدمشق، فبعث الله هود بن عبد الله بن رياح بن خالد بن الحلود بن عاد إلى عاد يعني أولاد عاد بالأحقاف فكذّبوه وأهلكهم الله عزّ وجلّ فهذا يقتضي أن أصحاب الرّسّ قبل عاد بدهور متطاولة فالله أعلم.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن أبي عاصم عن أبيه عن شَبِيبِ بن بِشْرٍ عن عِكْرِمَةَ عن ابن عبّاس قال: الرّسّ بئر بأذربيجان. وقال الثّوْري عن أبي بكر عن عِكْرِمَةَ قال: الرّسّ بئر رسوا فيها نبيهم أي دفنوه فيها. وقال ابن جريج قال عِكْرِمَةُ: أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب ياسين.

وقال قَتَادَةُ فلج من قرى اليمامة، قلت: فإن كانوا أصحاب ياسين كما زعمه عكرمة فقد أهلكوا بعامة، قال الله تعالى في قصتهم: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس: الآية ٢٩] وستأتي قصتهم بعد هؤلاء وإن كانوا غيرهم وهو الظاهر فقد أهلكوا أيضاً وتبّروا. وعلى كل تقدير فينافي ما ذكره ابن جرير وقد ذكر أبو بكر محمد بن الحسن النَّقَّاش أن أصحاب الرّسّ كانت لهم بئر ترويهم وتكفي أرضهم جميعها، وكان لهم ملك عادل حسن السيرة، فلما مات وجدوا عليه وجداً عظيماً، فلما كان بعد أيام تصوّر لهم الشيطان في صورته، وقال إني لم أمت، ولكن تغيّبت عنكم حتى أرى صنيعكم، ففرحوا أشدّ الفرح، وأمر بضرب حجاب بينهم وبينه، وأخبرهم أنه لا يموت أبداً فصدق به أكثرهم، وافتتنوا به، وعبدوه، فبعث الله فيهم نبياً وأخبرهم أن هذا شيطان يخاطبهم من وراء الحجاب، ونهاهم عن عبادته، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له.

قال السُّهَيْلِي: وكان يوحى إليه في النوم، وكان اسمه: حنظلة بن صفوان، فَعَدَوا عليه فقتلوه وألقوه في البئر، فغار ماؤها، وعطشوا بعد ريهم ويبست أشجارهم، وانقطعت ثمارهم، وخربت ديارهم، وتبدلوا بعد الأنس بالوحشة، وبعد الاجتماع بالفرقة، وهلكوا عن آخرهم، وسكن في مساكنهم الجنّ والوحوش، فلا يسمع ببقاعهم إلا عزيف الجن وزئير الأسد وصوت الضباع. فأما ما رواه أعني ابن جرير عن محمد بن حميد عن سَلَمَةَ عن ابن إسحاق عن محمد بن كعب القُرَظِيّ قال قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يَدْخُلُ الجَنَّةَ يَوْمَ القِيَامَةِ العَبْدُ الأَسْوَدُ» وذلك أن الله تعالى بعث نبياً إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك الأسود. ثم إن أهل القرية عَدَوْا على النبي فحفروا له بئراً فألقوه فيها، ثم أطبقوا عليه بحجر أصم، قال: فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره، ثم يأتي بحطبه فيبيعه ويشتري به طعاماً وشراباً، ثم يأتي به إلى ذلك البئر فيرفع تلك الصخرة ويعينه الله عليها ويدلي إليه طعامه وشرابه، ثم يردّها كما كانت. قال: فكان كذلك ما شاء الله أن يكون. ثم إنه ذهب يوماً يحتطب كما كان يصنع فجمع حطبه وحزم حزمته وفرغ منها، فلما أراد أن يحتملها وجد سنة فاضطجع ينام فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً، ثم إنه هبّ فتمطى وتحول لشقه الآخر فاضطجع فضرب الله على أذنه

سبع سنين أخرى، ثم إنه هبّ واحتمل حزمته ولا يحسب أنه نام إلاّ ساعة من نهار، فجاء إلى القرية فباع حزمته، ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع. ثم إنه ذهب إلى الحفرة إلى موضعها الذي كانت فيه فالتمسه فلم يجده وقد كان بدا لقومه فيه بداء فاستخرجوه وآمنوا به وصدّقوه. قال فكان نبيّهم يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل فيقولون له ما ندري حتى قبض الله النبي عليه السلام، وأهب الأسود من نومه بعد ذلك فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ ذَٰلِكَ الأَسْوَدَ لأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ». فإنه حديث مرسل ومثله فيه نظر. ولعل بسط قصّته من كلام محمد بن كعب القُرَظِي والله أعلم.

ثم قد ردّه ابن جرير نفسه وقال لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرّسّ المذكورون في القرآن قال لأن الله أخبر عن أصحاب الرّسّ أنه أهلكهم، وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيهم. اللهم إلا أن يكون حدثت لهم أحداث آمنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم والله أعلم. ثم اختار أنهم أصحاب الأخدود وهو ضعيف لما تقدم ولما ذكر في قصة أصحاب الأخدود حيث توعدوا بالعذاب في الآخرة إن لم يتوبوا ولم يذكر هلاكهم وقد صرّح بهلاك أصحاب الرّسّ والله أعلم.

قصة قوم يس وهم أصحاب القرية أصحاب ياسين

قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ
فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ
إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا
إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ
أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا
يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً
إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي
آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ
الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا
صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس: الآيات ١٣ـ٢٩].

اشتهر عن كثير من السلف والخلف أن هذه القرية أنطاكية. رواه ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عبّاس وكعب الأحبار ووهب بن منبه، وكذا رُوِيَ عن بُرَيْدَةَ بن الحَصِيبِ وَعِكْرِمَةَ وَقَتَادَةَ والزُّهْرِيّ وغيرهم، قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب أنهم قالوا: وكان لها ملك اسمه انطيخس بن انطيخس وكان يعبد الأصنام فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل وهم صادق ومصدوق وشلوم فكذّبهم.

وهذا ظاهر أنهم رسل من الله عزّ وجلّ، وزعم قتادة أنهم كانوا رُسُلاً من المسيح. وكذا قال ابن جرير عن وهب عن ابن سليمان عن شُعَيْبِ الجِبَائِي، كان اسم المرسلين الأوليين

شمعون ويوحنا واسم الثالث بولس والقرية أنطاكية.

وهذا القول ضعيف جداً لأنَّ أهل أنطاكية لما بعث إليهم المسيح ثلاثة من الحواريين ـ كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح في ذلك الوقت ولهذا كانت إحدى المدن الأربع التي تكون فيها بتاركة النصارى وهن أنطاكية والقدس وإسكندرية ورومية، ثم بعدها إلى القسطنطينية ولم يهلكوا وأهل هذه القرية المذكورة في القرآن أهلكوا كما قال في آخر قصّتها بعد قتلهم صديق المرسلين ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ لكن إن كانت الرسل الثلاثة المذكورون في القرآن بعثوا إلى أهل أنطاكية قديماً فكذّبوهم وأهلكهم الله ثم عمرت بعد ذلك. فلما كان في زمن المسيح آمنوا برسله إليهم فلا يمنع هذا والله أعلم.

فأما القول بأن هذه القصّة المذكورة في القرآن هي قصة أصحاب المسيح فضعيف لما تقدم، ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضي أن هؤلاء الرسل من عند الله. قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ يعني لقومك يا محمد ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ يعني المدينة ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي أيدناهما بثالث في الرسالة ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ فردوا عليهم بأنهم بشرٌ مثلهم كما قالت الأمم الكافرة لرسلهم، يستبعدون أن يبعث الله نبياً بشرياً، فأجابوهم بأن الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كذبنا عليه لعاقبنا، وانتقم منا أشد الانتقام ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي إنما علينا أي نبلغكم ما أرسلنا به إليكم والله هو الذي يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي تشائمنا بما جئتمونا به ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ [قيل][(١)] بالمقال وقيل بالفعال، ويؤيد الأول قوله: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ فوعدوهم بالقتل والإهانة. ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي مردود عليكم ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أي بسبب أنا ذكرناكم بالهدى ودعوناكم إليه توعدتمونا بالقتل والإهانة ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي لا تقبلون الحق ولا تريدونه. وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ يعني لنصرة الرسل وإظهار الإيمان بهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي يدعونكم إلى الحق المحض بلا أجرة ولا جعالة. ثم دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن عبادة ما سواه مما لا ينفع شيئاً لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي إن تركت عبادة الله وعبدت معه ما سواه. ثم قال مخاطباً للرسل ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ قيل فاسمعوا[(٢)] مقالتي واشهدوا لي بها عند ربكم. وقيل معناه فاسمعوا يا قومي إيماني برسل الله جهرة. فعند ذلك قتلوه. قيل رجماً. وقيل عضاً وقيل وثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه. وحكى ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود قال وطئوه بأرجلهم حتى أخرجوا قصبته.

وقد رَوَى الثَّوْرِيّ عن عَاصِم الأَحْوَلِ عن أبي مِجْلِزٍ، كان اسم هذا الرجل حبيب بن مري. ثم قيل كان نجاراً وقيل حبّالاً. وقيل إسكافاً. وقيل قصاراً وقيل كان يتعبد في غار هناك

(١) سقط في ط. (٢) في ط: فاستمعوا.

فالله أعلم. وعن ابن عباس كان حبيب النجار قد أسرع فيه الجذام وكان كثير الصدقة قتله قومه. ولهذا قال تعالى: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ يعني لما قتله قومه أدخله الله الجنة، فلما رأى [ما][1] فيها من النضرة والسرور ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ يعني ليؤمنوا بما آمنت به فيحصل لهم ما حصل لي.

قال ابن عبّاس نصح قومه في حياته: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ وبعد مماته ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ رواه ابن أبي حاتم وكذلك قال قتادة لا يُلقى المؤمن إلاّ ناصحاً، لا يُلقى غاشاً لما عاين ما عاين من كرامة الله ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ تمنّى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هو عليه، قال قتادة فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله. ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ أي ما احتجنا في الانتقام منهم إلى إنزال جند من السماء عليهم. هذا معنى ما رواه ابن إسحاق عن بعض أشياخه[2] عن ابن مسعود.

قال مجاهد وقتادة وما أنزل عليهم جنداً أي رسالة أخرى، قال ابن جرير: والأول أولى.

قلت: وأقوى. ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ أي وما كنا محتاجين[3] في الانتقام إلى هذا حين كذّبوا رسلنا وقتلوا ولينا ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

قال المفسّرون بعث الله إليهم جبريل عليه السلام فأخذ بعضادتي الباب الذي لبلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة، فإذا هم خامدون. أي قد أخمدت أصواتهم، وسكنت حركاتهم ولم يبق منهم عين تطرف.

وهذا كله مما يدل على أن هذه القرية ليست أنطاكية لأن هؤلاء أهلكوا بتكذيبهم رسل الله إليهم، وأهل أنطاكية آمنوا واتبعوا رسل المسيح من الحواريين إليهم، فلهذا قيل إن أنطاكية أول مدينة آمنت بالمسيح.

فأما الحديث الذي رواه الطبراني من حديث حسين الأشقري عن سفيان بن عُيَيْنَة عن ابن أبي نَجِيح عن مجاهد عن ابن عبّاس عن النبي ﷺ قال: «السَّبَقُ ثَلَاثَةٌ فَالسَّابِقُ إِلَى مُوسَى يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، وَالسَّابِقُ إِلَى عِيسَى صَاحِبُ يَس، وَالسَّابِقُ إِلَى مُحَمَّدٍ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ» فإنه حديث لا يثبت لأن حسيناً هذا متروك وشيعي من الغلاة، وتفرّده بهذا مما يدل على ضعفه بالكلية والله أعلم.

قصة يونس عليه السلام

قال الله تعالى في سورة يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: الآية ٩٨].

---

(١) سقط في ط. (٢) في ط: أصحابه. (٣) في ط: نحتاج.

وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ٨٧-٨٨].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: الآيات ١٣٩-١٤٨].

وقال تعالى في سورة نون: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: الآيات ٤٨-٥٠].

قال أهل التفسير بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل نينوى من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ فكذّبوه وتمرّدوا على كفرهم وعنادهم، فلمّا طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث.

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جُبَيْر وَقَتَادَة وغير واحد من السلف والخلف: فلما خرج من بين ظهرانيهم وتحقّقوا نزول العذاب بهم، قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح وفرّقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجوا[1] إلى الله عزّ وجلّ، وصرخوا وتضرعوا إليه وتمسكنوا لديه، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهاب[2]، وجأرت الأنعام والدواب والمواشي، فرغت الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملانها، وكانت ساعة عظيمة هائلة، فكشف الله العظيم بحوله وقوّته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم بسببه، ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ أي هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكمالها فدلّ على أنه لم يقع ذلك، بل كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ: الآية ٣٤]. وقوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: الآية ٩٨].

وقد اختلف المفسّرون هل ينفعهم هذا الإيمان في الدار الآخرة فينقذهم من العذاب الأخروي كما أنقذهم من العذاب الدنيوي على قولين: الأظهر من السياق نعم، والله أعلم. كما قال تعالى: ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾. وهذا المتاع إلى حين لا ينفي أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروي والله أعلم.

---

(١) عجوا: تضرعوا. (٢) الأمهاب: الأمهات.

وقد كانوا مائة ألف لا محالة، واختلفوا في الزيادة فعن مكحول عشرة آلاف. وروى الترمذي، وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث زُهَيْر عمن سمع أبا العالية حدثني أُبَي بن كعب أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ قال يزيدون عشرين ألفاً فلولا هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلاً في هذا الباب. وعن ابن عبّاس كانوا مائة ألف وثلاثين ألفاً، وعنه وبضعة وثلاثين ألفاً. وعنه وبضعة وأربعين ألفاً وقال سعيد بن جُبَيْر كانوا مائة ألف وسبعين ألفاً.

واختلفوا هل كان إرساله إليهم قبل الحوت أو بعده، أو هما أمتان على ثلاثة أقوال هي مبسوطة في التفسير. والمقصود أنه عليه السلام لمّا ذهب مغاضباً بسبب قومه، ركب سفينة في البحر فلجّت[1] بهم واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسّرون. قالوا فاشتوروا فيما بينهم على أن يقترعوا فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتحفظوا منه. فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس، فلم يسمحوا به، فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضاً فشمّر ليخلع ثيابه ويلقي بنفسه فأبوا عليه ذلك. ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضاً لِمَا يريده الله به من الأمر العظيم. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: الآيات ١٣٩ـ١٤٢]. وذلك أنه لمّا وقعت عليه القرعة أُلقِيَ في البحر، وبعث الله عزّ وجلّ حوتاً عظيماً من البحر الأخضر، فالتقمه وأمره الله تعالى أن لا يأكل له لحماً ولا يهشم له عظماً، فليس لك برزق، فأخذه فطاف به البحار كلّها، وقيل إنه ابتلع ذلك الحوت حوت آخر أكبر منه. قالوا ولما استقر في جوف الحوت حسب أنه قد مات، فحرّك جوارحه فتحرّكت فإذا هو حي، فخر لله ساجداً وقال يا ربّ اتخذت لك مسجداً لم يعبدك أحد في مثله. وقد اختلفوا في مقدار لبثه في بطنه. فقال مجالد عن الشَّعْبِي التقمه ضحى ولفظه عشية. وقال قتادة مكث فيه ثلاثاً، وقال جعفر الصادق سبعة أيام، ويشهد له شعر أمية بن أبي الصلت [الطويل]:

وَأَنْتَ بِفَضْلٍ مِنْكَ نَجّيتَ يُونُساً ... وَقَدْ بَاتَ فِي أَضْعَافِ حُوتٍ[2] لَيَالِيَا

وقال سعيد بن أبي الحسن وأبو مالك مكث في جوفه أربعين يوماً والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه.

والمقصود أنه لمّا جعل الحوت يطوف به في قرار البحار اللجية، ويقتحم به لجج الموج الأجاجي، فسمع تسبيح الحيتان للرحمن، وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحَبِّ والنوى، وربّ السموات السبع والأرضين السبع وما بينها، وما تحت الثرى. فعند ذلك وهنالك قال ما قال بلسان الحال والمقال، كما أخبر عنه ذو العزّة والجلال، الذي يعلم السرّ والنجوى، ويكشف الضرّ والبلوى، سامع الأصوات وإن ضعفت، وعالم الخفيات وإن دقت، ومجيب الدعوات وإن عظمت، حيث قال في كتابه المبين المنزّل على رسوله الأمين، وهو أصدق

---

(١) لجّت: خاضت اللجة.

(٢) أضعاف حوت: جوف الحوت.

القائلين وربّ العالمين وإله المرسلين ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ﴾ إلى أهله ﴿مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ٨٧ـ ٨٨] فظن أن لن نقدر عليه أن نضيق. وقيل معناه نقدر من التقدير، وهي لغة مشهورة قدرَ وقدّر كما قال الشاعر: [الطويل]

فـلاَ عـائـدٌ ذَاكَ الـزمـانُ الَّـذي مَـضَـى تَـبَـارَكْـتَ مـا يُـقْـدَرْ يَـكُـنْ فَـلَـكَ الأمـرُ

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ قال ابن مسعود وابن عبّاس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جُبَيْر ومحمد بن كعب والحسن وقَتَادَة والضَحَّاك ظلمة الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل، وقال سالم بن أبي الجَعْدِ ابتلع الحوت حوت آخر، فصار ظلمة الحوتين مع ظلمة البحر. وقوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣ـ ١٤٤] قيل معناه لولا أنه سبّح الله هنالك، وقال ما قال من التهليل والتسبيح والاعتراف لله بالخضوع والتوبة إليه والرجوع إليه، للبث هنالك إلى يوم القيامة. ولبُعِثَ من جوف ذلك الحوت. هذا معنى ما رُوِيَ عن سعيد بن جُبَيْر في إحدى الروايتين عنه. وقيل معناه ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ﴾ من قبل أخذ الحوت له ﴿مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ أي المطيعين المصلّين الذاكرين الله كثيراً، قاله الضحاك بن قيس وابن عبّاس وأبو العالية وَوَهْب بن مُنَبِّه وسعيد بن جُبَيْر والضحّاك والسّدّيّ وعَطَاء بن السَّائِب والحسن البَصْرِيّ وَقَتَادَةَ وغير واحد، واختاره ابن جرير ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن عن ابن عبّاس أن رسول الله ﷺ قال لي: «يَا غُلامَ إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ إِحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجاهَكَ تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»(١).

وروى ابن جرير في تفسيره والبزّار في مسنده من حديث محمد بن إسحاق عمن حدّثه عن عبد الله بن رافع مولى أم سَلَمَة، سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ حَبْسَ يُونُسَ فِي بَطْنِ الحُوتِ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى الحُوتِ أَنْ خُذْ وَلاَ تَخْدِشْ لَحْماً وَلاَ تَكْسِرْ عَظْماً» فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حساً فقال في نفسه ما هذا فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت إن هذا تسبيح دواب البحر. قال فسبّح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا: (يا ربنا إنا نسمع صوتاً بأرض غريبة) قال ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر. قالوا العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم. قال فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه في الساحل كما قال الله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٞ ﴿١٤٥﴾﴾ هذا لفظ ابن جرير إسناداً ومتناً. ثم قال البزّار لا نعلمه يروي عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد كذا قال.

وقد قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن أخي ابن وهب حدثنا عمي [حدثنا عمر](٢) حدثني أبو صخر أن يزيد الرَّقَاشِي حدثه سمعت أنس بن

(١) أخرجه الترمذي في القيامة، باب ٥٩، وأحمد في المسند ١/ ٢٩٣.
(٢) سقط في ط.

مالك ولا أعلم إلاّ أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ أن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧] فأقبلت الدعوة تحنّ بالعرش، فقالت الملائكة يا ربّ صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة، فقال أما تعرفون ذاك؟ قالوا يا رب ومن هو؟ قال عبدي يونس، قالوا عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عملاً متقبلاً ودعوة مجابة؟ قالوا يا ربنا أو لا ترحم ما كان يصنعه في الرخاء فتنجيه من البلاد، قال بلى، فأمر الحوت فطرحه في العراء. ورواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب به زاد ابن أبي حاتم. قال أبو صخر حميد بن زياد فأخبرني ابن قسيط وأنا أحدثه هذا الحديث أنه سمع أبا هريرة يقول طُرِحَ بالعراء وأنبت الله عليه اليقطينة، قلنا يا أبا هريرة: وما [اليقطينة؟][1] قال: شجرة الدباء، قال أبو هريرة: وهيأ الله له أروية[2] وحشية تأكل من خشاش الأرض[3]، أو قال هشاش الأرض. قال فتنفشخ عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة، حتى نَبَتَ، وقال أميةُ بن أبي الصَّلْتِ في ذلك بيتاً في شعره: [الطويل]

فأنبتَ يَقْطِيناً عَلَيْهِ بِرَحْمَةٍ ... مِنَ اللَّهِ لَوْلاَ اللَّهُ أَصْبَحَ ضَاوِيَا[4]

وهذا غريب أيضاً من هذا الوجه ويزيد الرقاشي ضعيف، ولكن يتقوّى بحديث أبي هريرة المتقدم، كما يتقوى ذاك بهذا والله أعلم. وقد قال الله تعالى: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ﴾ أي ألقيناه ﴿بِٱلۡعَرَآءِ﴾ وهو المكان القفر الذي ليس فيه شيء من الأشجار، بل هو عار منها، ﴿وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥﴾ أي ضعيف البدن. قال ابن مسعود كهيئة الفرخ ليس عليه ريش. قال ابن عبّاس والسّدّيّ وابن زيد كهيئة الصَّبي حين يولد وهو المنفرش ليس عليه شيء، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين. قال ابن مسعود وابن عبّاس وعِكْرِمَةُ ومجاهد وسعيد بن جُبَيْر ووهب بن منبه وهلال بن يساف[5] وعبد الله بن طاوس والسّدّيّ وَقَتَادَةَ والضحّاك وعطاء الخراساني وغير واحد هو القرع.

قال بعض العلماء في إنبات القرع عليه حِكَمٌ جمّة: منها أن ورقه في غاية النعومة، وكثير وظليل، ولا يقربه ذباب ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره نيّاً ومطبوخاً، ويقشره وببذره أيضاً، وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ وغير ذلك وتقدم كلام أبي هريرة في تسخير الله تعالى له تلك الأروية التي كانت ترضعه لبنها، وترعى في البرية وتأتيه بكرة وعشية. وهذا من رحمة الله به ونعمته عليه وإحسانه إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ أي الكَرْب والضيق الذي كان فيه ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ أي وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا.

قال ابن جرير: حدثني عمران بن بَكّارٍ الكُلاَعِي، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن حدثني بشر بن منصور عن علي بن زيد عن سعيد بن المُسَيَّب قال: سمعت سعد بن مالك وهو ابن أبي وقاص يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «اسْمُ اللَّهِ الَّذِي

(١) سقط في ط.
(٢) الأروية: جمع أروى. أنثى الوعل.
(٣) خشاش الأرض: حشرات الأرض.
(٤) ضاوياً: هزيلاً.
(٥) في ط: يسار، وهو تحريف، ويساف بكسر التحتانية ثم مهملة ثم فاء، ويقال: ابن أساف.

إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، دَعْوَةُ يُونُسَ بْنِ مَتَّى». قال فقلت: يا رسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: «هِيَ لِيُونُسَ خَاصَّةً وَلِلْمُؤْمِنِينَ عَامَّةً إِذَا دَعَوْا بِهَا». ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ٨٧، ٨٨] فهو شرط من الله لمن دعاه به. وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأَشَجُّ حدثنا أبو خالد الأحمر عن كثير بن زيد عن المُطَّلِبِ بن حَنْطَبِ.

قال أبو خالد أحسبه عن مُصْعَبٍ يعني ابن سعد عن سعد. قال قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَعَا بِدُعَاءِ يُونُسَ اسْتُجِيبَ لَهُ» قال أبو سعيد الأَشَجُّ يريد به ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ وهذان طريقان عن سعد. والثالث[1] أحسن منهما.

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن عمر، حدثنا يونس بن أبي إسحاقَ الهَمَذَانِي حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد حدثني والدي محمد عن أبيه سعد وهو ابن أبي وَقَّاصٍ قال: مررتُ بعثمانَ بن عفانَ في المسجد فسلَّمتُ عليه فملأ عينيه مني، ثم لم يردد عليّ السلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين هل حدث في السلام شيء؟ قال: لا، وما ذاك؟ قلت: لا إلا أني مررت بعثمان آنفاً في المسجد فسلَّمت عليه فملأ عينيه مني، ثم لم يردد عليّ السلام. قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام؟ قال: ما فعلت. قال سعد قلت: بلى حتى حلف وحلفت. قال ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى وأستغفر الله وأتوب إليه إنك مررت بي آنفاً وأنا أحدِّث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرتها قط إلاّ تغشى بصري وقلبي غشاوة. قال سعد: فأنا أنبئك بها: إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله. ضربت بقدمي الأرض، فالتفت إليّ رسول الله ﷺ فقال: «مَنْ هَذَا؟ أَبُو إِسْحٰقَ؟» قال قلت: نعم يا رسول الله، قال: «فَمَهْ»، قلت: لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة. ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك. قال: «نَعَمْ دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ هُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ فإنه لم يدع بها مسلم ربّه في شيء قط إلاّ استجاب له»[2] ورواه الترمذي والنسائي من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد به.

[ذكر][3] فضل يونس عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الصافات: ١٣٩] وذكره تعالى في جملة الأنبياء الكرام في سورتي النساء والأنعام عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام.

---

(١) في ط: وثالث.
(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ٨١، وأحمد في المسند ١/ ١٧٠.
(٣) سقط في ط.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن الأَعْمَش عن أبي وَائِل عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «لاَ يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»[١] ورواه البخاري من حديث سُفْيَانَ الثَّوْرِي به.

وقال البخاري أيضاً: حدثنا حَفْصُ بن عمر، حدثنا شُعْبة عن قَتَادَةَ عن أبي العالية عن ابن عبّاس عن النبي ﷺ قال: «مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ إِنِّي خَيرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»[٢]. ونسبه إلى أبيه.

ورواه أحمد ومسلم وأبو داود من حديث شُعْبَةَ به قال شعبة فيما حكاه أبو داود عنه لم يسمع قَتَادَة من أبي العَالِيَةِ سوى أربعة أحاديث هذا أحدها.

وقد رواه الإمام أحمد عن عفّان عن حمّاد بن سَلَمَة عن علي بن زيد عن يوسف بن مِهْرَان عن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ قال: «وَمَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»[٣] تفرد به أحمد.

ورواه الحافظ أبو القاسم الطَّبَرَانِي: حدثنا محمد بن الحسن بن كَيْسَانَ، حدثنا عبد الله بن رَجَاء أنبأنا إسرائيل عن أبي يحيى القَتَّاب عن مجاهد عن ابن عبّاس أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا عِنْدَ اللَّهِ خَيرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى» إسناده جيد ولم يخرجوه.

وقال البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شُعْبَةُ عن سعد بن إبراهيم سمعت حَمِيدَ بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لاَ يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»[٤] وكذا رواه مسلم من حديث شُعْبَةَ به، وفي البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن الفضل عن عبد الرحمن بن هُرْمُزَ الأَعْرَج عن أبي هريرة في قصة المسلم الذي لطم وجه اليهودي حين قال لا والذي اصطفى موسى على العالمين.

قال البخاري في آخره: «وَلاَ أَقُولُ إِنَّ أَحَداً خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»[٥] [وهذا اللفظ لا يقوي أحد القولين من المعنى «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»][٦] أي ليس لأحد أن يفضّل نفسه على يونس. والقول الآخر: «لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يُفَضِّلَنِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى»[٧]، كما قد ورد في بعض الأحاديث «لاَ تُفَضِّلُونِي عَلَى الأَنْبِيَاءِ وَلاَ عَلَى يُونُسَ بْنِ

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٣٩٠.
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الانبياء باب ٣٥، ومسلم في الفضائل حديث ١٦٧، وابو داود في السنة باب ١٤، وأحمد في المسند ١/ ٣٤٢.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٥٤.
(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٣٥، ومسلم في الفضائل حديث ١٦٦، وأحمد في المسند ٢/ ٤٦٨.
(٥) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٣٥.
(٦) ما بين المعقوفين سقط من ط.
(٧) تقدم الحديث مع تخريجه.

مَنّي»[1]. وهذا من باب الهضم والتواضع منه صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله والمرسلين.

ذكر قصة موسى الكليم عليه الصلاة والسلام

وهو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: الآيات ٥١ـ ٥٣] وقد ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة متفرّقة من القرآن. وذكر قصته في مواضع متعدّدة مبسوطة مطولة وغير مطولة، وقد تكلّمنا على ذلك كله في مواضعه من التفسير وسنورد سيرته ههنا من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب والسنّة، وما ورد في الآثار المنقولة من الإسرائيليات التي ذكرها السلف وغيرهم إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.

قال الله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: الآيات ١ـ ٦].

يذكر تعالى ملخّص القصة ثم يبسطها بعد هذا فذكر أنه يتلو على نبيّه خبر موسى وفرعون بالحق، أي بالصدق الذي كأنّ سامعه مشاهد للأمر معاين له ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي تجبّر وعتا وطغى، وبغى وآثر الحياة الدنيا، وأعرض عن طاعة الربّ الأعلى، وجعل أهلها شِيَعاً، أي قسّم رعيته إلى أقسامَ وفِرَق وأنواع يستضعف طائفة منهم، وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله، وكانوا إذا ذاك خيار أهل الأرض. وقد سلّط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف وأرداها وأدناها، ومع هذا ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح، أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه، وذلك والله أعلم حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها. وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل فتحدّث بها القبط فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون، فذكرها له بعض أمرائه وأساورته، وهم يسمرون[2] عنده، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل حذراً من وجود هذا الغلام، ولن يغني حذر من قدر.

---

(١) تقدم الحديث مع تخريجه.

(٢) يسمرون: السمر: حديث الليل.

وذكر السدّيّ عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عبّاس وعن مرّة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة أن فرعون رأى في منامه كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع القبط، ولم تضر بني إسرائيل. فلما استيقظ هاله ذلك فجمع الكهنة والحزأة[1] والسحرة وسألهم عن ذلك، فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهم بنو إسرائيل ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ أي الذين يؤول ملك مصر وبلادها إليهم ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ أي سنجعل الضعيف قوياً والمقهور قادراً والذليل عزيزاً وقد جرى هذا كله لبني إسرائيل كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٧]. الآية وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥﴾ [الدخان: الآية ٢٥] ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ [الشعراء: الآيتان ٥٨ـ ٥٩] وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه إن شاء الله.

والمقصود كل الاحتراز أن فرعون احترز أن لا يوجد موسى، حتى جعل رجالاً وقوابل[2] يدورون على الحبالى ويعلمون ميقات وضعهن، فلا تلد امرأة ذكراً إلا ذبحه أولئك الذبّاحون من ساعته. وعند أهل الكتاب أنه إنما كان يأمر بقتل الغلمان لتضعف شوكة بني إسرائيل فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم. وهذا فيه نظر، بل هو باطل وإنما هذا في الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ﴾ [غافر: ٢٥] ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ﴾ [الأعراف: ١٢٩] فالصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولاً حذراً من وجود موسى. هذا والقدر يقول يا أيها ذا الملك الجبّار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه، قد حكم العظيم الذي لا يُغالب ولا يُمانع ولا يُخالف أقداره، إنّ هذا المولود الذي تحترز منه، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى، لا يكون مرباه إلاّ في دارك وعلى فراشك، ولا يغذّى إلا بطعامك وشرابك في منزلك، وأنت الذي تتبنّاه وتربّيه وتتعداه ولا تطلع على سر معناه، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه لمخلفتك ما جاءك به من الحق المبين، وتكذيبك ما أوحى إليه، لتعلم أنت وسائر الخلق أن ربّ السموات والأرض هو الفعّال لما يريد، وأنه هو القوي الشديد ذو البأس العظيم، والحول والقوة والمشيئة التي لا مردّ لها.

وقد ذكر غير واحد من المفسّرين أن القبط شكوا إلى فرعون قلّة بني إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور، وخشي أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون، فأمر فرعون بقتل الأبناء عاماً، وأن يتركوا عاماً، فذكروا أن هارون

(١) الحزأة: الكهّان.

(٢) قوابل: جمع قابلة: التي تسعف المرأة حين الوضع.

عليه السلام ولد في عام المسامحة عن قتل الأبناء، وأن موسى عليه السلام ولد في عام قتلهم، فضاقت أمّه به ذرعاً، واحترزت من أول ما حبلت، ولم يكن يظهر عليها مخائيل الحبل. فلما وضعت أُلهِمَت أن اتخذت له تابوتاً فربطته في حبل، وكانت دارها متاخمة للنيل، فكانت ترضعه، فإذا خشيت من أحد وضعته في ذلك التابوت، فأرسلته في البحر، وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به.

قال اللّهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [القصص: ٧ـ٩] هذا الوحي وحي إلهام وإرشاد كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النحل: الآيتان ٦٨ـ٦٩]، الآية وليس هو بوحي نبوّة كما زعمه ابن حزم وغير واحد من المتكلّمين، بل الصحيح الأول كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن [مذهب][(١)] أهل السنّة والجماعة.

قال السُّهَيْلي واسم أم موسى أيارُخا. وقيل: أياذخت. والمقصود أنها أرشدت إلى هذا الذي ذكرناه وألقى في خُلدها وروعها أن لا تخافي ولا تحزني، فإنه إن ذهب فإن الله سيردّه إليك، وأن الله سيجعله نبياً مرسلاً يُعلي كلمته في الدنيا والآخرة فكانت تصنع ما أمرت به، فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها، فذهب مع النيل فمر على دار فرعون ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ قال الله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ قال بعضهم هذه لام العاقبة، وهو ظاهر إن كان متعلقاً بقوله فالتقطه. وأما إن [جعلناه][(٢)] متعلّقاً بمضمون الكلام، وهو أن آل فرعون قيضوا[(٣)] لالتقاطه ليكون لهم عدواً وحَزناً، صارت اللام معلّلة كغيرها والله أعلم. ويقوّي هذا التفسير[(٤)] الثاني قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ وهو الوزير السوء ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ المتابعين لهما ﴿كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾ أي كانوا على خلاف الصواب فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة.

وذكر المفسّرون أن الجواري التقطته من البحر في تابوت مغلق عليه، فلم يتجاسرن على فتحه حتى وضعنه بين يدي امرأة فرعون آسيّة بنت مزاحم بن عُبيد بن الريان بن الوليد الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف. وقيل أنها كانت من بني إسرائيل من سبط موسى. وقيل بل كانت عمّته، حكاه السُّهَيْلي فالله أعلم.

وسيأتي مدحها والثناء عليها في قصّة مريم بنت عمران، وأنهما يكونان يوم القيامة من أزواج رسول الله في الجنّة. فلما فتحت الباب وكشفت الحجاب، رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية، والجلالة الموسوية، فلما رأته ووقع نظرها عليه أحبته حباً شديداً جداً. فلما جاء

---

(١) سقط في ط.
(٢) في ط: جعل.
(٣) قيضوا: يقال: تقيض: أي تقدر وتسبب.
(٤) في ط: التقدير.

فرعون قال ما هذا، وأمر بذبحه فاستوهبته منه ودفعت عنه ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ فقال لها فرعون أما لك فنعم، وأمّا لي فلا، أي لا حاجة لي به وَالبَلاءُ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ. وقولها: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ وقد أنالها الله ما رجت من النفع، أما في الدنيا فهداها الله به، وأما في الآخرة فأسكنها جنته بسببه ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ وذلك أنهما تبنياه لأنه لم يكن يولد لهما ولد. قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ أي لا يدرون ماذا يريد الله بهم أن قيضهم لإلتقاطه من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده [وعند أهل الكتاب أن التي التقطت موسى وربته ابنه فرعون وليس لامرأته ذكر بالكلية وهذا من أغاليطهم على كتاب الله عز وجل قال الله تعالى][1] ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾ [القصص: الآيات ١٠- ١٣].

قال ابن عبّاس ومجاهد وعِكرمة وسعيد بن جُبَيْر وأبو عبيدة والحسن وقَتَادة والضّحّاك وغيرهم، وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً أي من كل شيء من أمور الدنيا إلاّ من موسى، إن كادت لتبدي به أي لتظهر أمره وتسأل عنه جهرة ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ أي صبّرناها وثبّتناها ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾ وقالت لأخته وهي ابنتها الكبيرة قُصّيه أي اتبعي أثره، واطلبي له خبره، فبصرت به عن جُنُب. قال مجاهد عن بعد.

وقال قَتَادةُ جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده. ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١﴾ وذلك لأن موسى عليه السلام لما استقرّ بدار فرعون أرادوا أن يغذّوه برضاعة، فلم يقبل ثدياً ولا أخذ طعاماً، فحاروا في أمره واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن فلم يقبل[2]. كما قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق لعلهم يجدون من يوافق رضاعته، فبينما هم وقوف به، والناس عكوف عليه، إذ بصرت به أخته، فلم تظهر أنها تعرفه، بل قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢﴾.

قال ابن عبّاس لمّا قالت ذلك قالوا لها: ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه؟ فقالت: رغبة في صهر الملك ورجاء منفعته، فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم، فأخذته أمّه، فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، وذهب البشير إلى آسية يُعْلِمُها بذلك، فاستدعتها إلى منزلها وعرضت عليها أن تكون عندها، وأن تحسن إليها فأبت عليها، وقالت إن لي بعلاً وأولاداً، ولست أقدر على هذا إلاّ أن ترسليه معي، فأرسلته معها ورتّبت لها رواتب وأجرت عليها النفقات والكساوي والهبات، فرجعت به تحوزه إلى رحلها، وقد جمع الله شمله بشملها.

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في ط.

(٢) في ط: يفعل.

قال الله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي كما وعدناها برده ورسالته، فهذا رده وهو دليل على صدق البشارة برسالته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ وقد امتنّ الله على موسى بهذا ليلة كلّمه فقال له فيما قال له: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٧-٣٩] إذ قال قتادة وغير واحد من السلف أي تطعم وترفه وتغذى بأطيب المآكل، وتلبس أحسن الملابس بمرأى مني، وذلك كلّه بحفظي وكلاءتي[(١)] لك فيما صنعت بك لك، وقدّرته من الأمور التي لا يقدر عليها غيري ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠] وسنورد حديث الفتون في موضعه بعد هذا إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص: ١٤-١٧] لما ذكر تعالى أنه أنعم على أمّه برده لها وإحسانه بذلك وامتنانه عليها، شرع في ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى وهو احتكام الخَلْق والخُلُق، وهو سن الأربعين في قول الأكثرين آتاه الله حكماً وعلماً، وهو النبوّة والرسالة التي كان بشر بها أمه حين قال: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ ثم شرع في ذكر سبب خروجه من بلاد مصر وذهابه إلى أرض مدين وإقامته هنالك حتى كمل الأجل وانقضى الأمد، وكان ما كان من كلام الله له وإكرامه بما أكرمه به كما سيأتي. قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قال ابن عبّاس وسعيد بن جُبَيْر وعِكْرِمة وقَتَادَة والسدّيّ: وذلك نصف النهار. وعن ابن عبّاس بين العشائين ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أي يتضاربان ويتهاوشان ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي إسرائيلي ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي قبطي قاله ابن عبّاس وقَتَادة والسدّيّ ومحمد بن إسحاق ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام كانت له بديار مصر صولة بسبب نسبته إلى تبني فرعون له وتربيته في بيته، وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجاهة وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه، وهم أخواله أي من الرضاعة، فلما استغاث، ذلك الإسرائيلي موسى عليه السلام على ذلك القبطي، أقبل إليه موسى ﴿فَوَكَزَهُۥ﴾. قال مجاهد [أي][(٢)] طعنه بجمع كفّه. وقال قتادة بعصا كانت معه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي فمات منها. وقد كان ذلك القبطي كافراً مشركاً بالله العظيم، ولم يرد موسى قتله بالكليّة وإنما أراد زجره وردعه ومع هذا ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ أي من العز والجاه ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا

---

(١) الكلاءة: طلب الكلأ. (٢) سقط في ط.

لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾. ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: الآيات ١٨ـ ٢١].

يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً أي من فرعون وملائه أن يعلموا أن هذا القتيل الذي رفع إليه أمره، إنما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل، فتقوى ظنونهم أن موسى منهم ويترتب على ذلك أمر عظيم، فصار يسير في المدينة في صبيحة ذلك اليوم ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي يلتفت، فبينما هو كذلك إذا ذلك الرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه أي يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله، فعنّفه موسى ولامه على كثرة شرّه ومخاصمته؛ قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾. ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي الذي هو عدو لموسى وللإسرائيلي فيردعه عنه ويخلصه منه، فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطي ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ قال بعضهم: إنما قال هذا الكلام الإسرائيلي الذي اطلع على ما كان صنع موسى بالأمس وكأنه لمّا رأى موسى مقبلاً إلى القبطي اعتقد أنه جاء إليه لمّا عتفه قبل ذلك بقوله إنك لغوي مبين، فقال ما قال لموسى، وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس، فذهب القبطي فاستعدى موسى إلى فرعون. وهذا الذي لم يذكر كثير من الناس سواه. ويحتمل أن قائل هذا هو القبطي، وأنه لمّا رآه مقبلاً عليه[1] خافه ورأى من سجيته انتصاراً جيداً للإسرائيلي فقال ما قال من باب الظنّ والفراسة، إن هذا لعلّه قاتل ذاك القتيل بالأمس، أو لعلّه فهم من كلام الإسرائيلي حين استصرخه عليه ما دلّه على هذا والله أعلم.

والمقصود أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس، فأرسل في طلبه وسبقهم رجل ناصح عن طريق أقرب ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾ ساعياً إليه مشفقاً عليه، فقال: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾ أي من هذه البلدة ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي فيما أقوله لك قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي فخرج من مدينة مصر من فوره على وجهه لا يهتدي إلى طريق ولا يعرفه قائلاً ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: ٢٢ـ ٢٤].

يخبر تعالى عن خروج عبده ورسوله وكليمه من مصر خائفاً يترقّب أي يتلفت خشية أن

---

(١) في ط: إليه.

يدركه أحد من قوم فرعون، وهو لا يدري أين يتوجه، ولا إلى أين يذهب، وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي اتجه له طريق يذهب فيه ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾. أي عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود. وكذا وقع أو صلته إلى مقصود، وأي مقصود ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ وكانت بئراً يستقون منها. ومَدْيَن هي المدينة التي أهلك الله فيها أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب عليه السلام. وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام في أحد قولي العلماء. ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ﴾ المذكور ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي تكفكفان غنمهما أن تختلط بغنم الناس. وعند أهل الكتاب أنهن كن سبع بنات. وهذا أيضاً من الغلط، وكأنه كنّ سبعاً ولكن إنما كان تسقي اثنتان منهن. وهذا الجمع ممكن إن كان ذاك محفوظاً وإلاّ فالظاهر أنه لم يكن له سوى بنتان ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي لا نقدر على ورود الماء إلاّ بعد صدور الرعاء[1] لضعفنا وسبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أبينا وكبره قال الله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

قال المفسّرون: وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من ورودهم وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة فتجيء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما في فضل أغنام الناس، فلمّا كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده. ثم استقى لهما وسقى غنمهما ثم ردّ الحجر كما كان. قال أمير المؤمنين عمر وكان لا يرفعه إلاّ عشرة، وإنما استقى ذنوباً واحداً فكفاهما. ثم تولّى إلى الظل، قالوا وكان ظل شجرة من السمر. روى ابن جرير عن ابن مسعود أنه رآها خضراء ترف قال ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ قال ابن عبّاس سار من مصر إلى مَدْيَن لم يأكل إلا البقل وورق الشجر، وكان حافياً فسقطت نعلا قدميه من الحفاء وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه، وأن بطنه لاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وأنه لمحتاج إلى شق تمرة.

قال عطاء بن السائب لما قال ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ أسمعَ المرأتين ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص: الآيات ٢٥ـ٢٨] لما جلس موسى عليه السلام في الظل وقال ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ سمعته المرأتان فيما قيل، فذهبتا إلى أبيهما فيقال إنه استنكر سرعة رجوعهما، فأخبرتاه ما كان من أمر موسى عليه السلام، فأمر إحداهما أن تذهب إليه فتدعوه،

(١) الرعاء: الرعيان.

فجاءته إحداهما تمشي على استحياء، أي مشي الحراير، قالت: إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا. صرّحت له بهذا لئلا يوهم كلامها ريبة. وهذا من تمام حيائها وصيانتها، فلما جاءه وقصّ عليه القصص وأخبره خبره وما كان من أمره في خروجه من بلاد مصر فراراً من فرعونها ﴿قَالَ﴾ ذلك الشيخ ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ أي خرجت من سلطانهم فلست في دولتهم.

وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو فقيل هو شعيب عليه السلام. وهذا هو المشهور عند كثيرين وممن نصّ عليه الحسن البصري ومالك بن أنس. وجاء مصرّحاً به في حديث، ولكن في إسناده نظر، وصرّح طائفة بأن شعيباً عليه السلام عاش عمراً طويلاً بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوّج بابنته.

وروى ابن أبي حاتم وغيره عن الحسن البصريّ أن صاحب موسى عليه السلام هذا اسمه شعيب، وكان سيّد الماء، ولكن ليس بالنبي صاحب مَدْيَن. وقيل إنه ابن أخي شعيب. وقيل: ابن عمه. وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب. وقيل: رجل اسمه يثرون، هكذا هو في كتب أهل الكتاب، يثرون كاهن مَدْيَن أي كبيرها وعالمها. قال ابن عبّاس وأبو عبيدة بن عبد الله اسمه يثرون. زاد أبو عبيدة وهو ابن أخي شعيب. زد ابن عبّاس صاحب مَدْيَن.

والمقصود أنه لمّا أضافه وأكرم مثواه وقصّ عليه ما كان من أمره، بشّره بأنه قد نجا، فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها يا أبت استأجره أي لرعي غنمك، ثم مدحته بأنّه قوي أمين، قال عمرو بن عبّاس وشُرَيْح القاضي وأبو مالك وقَتَادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد: لمّا قالت ذلك، قال لها أبوها: وما علمك بهذا؟ فقالت: إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلاّ عشرة. وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال: كوني من ورائي فإذا اختلف الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق.

قال ابن مسعود أفرس الناس ثلاثة. صاحب يوسف حين قال لامرأته أَكْرِمِي مَثْوَاهُ. وصاحبة موسى حين قالت يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ. وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [القصص: الآية ٢٧] استدلّ بهذا جماعة من أصحاب أبي حنيفة رحمه الله على صحّة ما إذا باعه أحد هذين العبدين أو الثوبين ونحو ذلك أنه يصح لقوله إحدى ابنتي هاتين. وفي هذا نظر لأن هذه مراوضة لا معاقدة والله أعلم.

واستدلّ أصحاب أحمد على صحة الإيجار بالطعمة والكسوة كما جرت به العادة، وأستأنسوا بالحديث الذي رواه ابن ماجه في سننه مترجماً [عليه][1] في كتابه (باب استئجار

(١) سقط في ط.

الأجير) على طعام بطنه، حدثنا محمد بن المصفى[١] الحِمْصِي حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد عن مسلمة بن علي عن سعيد بن أبي أيوب عن الحارث بن يزيد عن علي بن رباح قال: سمعت عُتْبَةَ بن الدر يقول: كنّا عند رسول الله ﷺ فقرأ طس حتى إذا بلغ قصّة موسى قال: «إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ آجَرَ نَفْسَهُ ثَمَانِي سِنِينَ أَوْ عَشْرَةً عَلَى عِفَّةِ فَرْجِهِ وَطَعَامِ بَطْنِهِ»[٢] وهذا من هذا الوجه لا يصحّ لأن مَسْلَمَةَ بن علي الحسني الدمشقي البلاطي ضعيفٌ عند الأئمة لا يحتج بتفرّده، ولكن قد روى من وجه آخر فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكر حدثني ابن لَهِيَعَةَ (ح) وحدّثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنا الوليد حدثنا عبد الله بن لَهِيَعَةَ عن الحارث بن يزيد الحَضْرَمِي عن علي بن رباح اللَّخْمِي قال: سمعتُ عتبةَ بن النُدْر السُلَمِي صاحب رسول الله ﷺ يحدث أن رسول الله قال: «إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ آجَرَ نَفْسَهُ لِعِفَّةِ فَرْجِهِ وَطُعْمَةِ بَطْنِهِ».

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص: الآية ٢٨] يقول إن موسى قال لصهره الأمر على ما قلت فأيّهما قضيت فلا عدوان علي والله على مقالتنا سامع وشاهد[٣] ووكيل عليّ وعليك، ومع هذا فلم يقضِ موسى إلا أكمل الأجلين وأتمّهما وهو العشر سنين كوامل تامة.

قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا مروان بن شجاع عن سالم الأفطَس عن سعيد بن جُبَيْر قال سألني يهودي من أهل الحيرة أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقُدمت فسألت ابن عبّاس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل[٤]. تفرّد به البخاري من هذا الوجه، وقد رواه النسائي في حديث الفتون كما سيأتي من طريق القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جُبَيْر، وقد رواه ابن جرير عن أحمد بن محمد الطُوسِي وابن أبي حاتم عن أبيه كلاهما عن الحَمِيدِي عن سُفْيَان بن عُيَيْنَةَ: حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب عن الحَكَم بن أبان عن عِكْرِمَةَ عن ابن عبّاس أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «سَأَلْتُ جِبْرِيلَ أَيَّ الأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى قَالَ أَتَمَّهُمَا وَأَكْمَلَهُمَا». وإبراهيم هذا غير معروف إلاّ بهذا الحديث.

وقد رواه البزّار عن أحمد بن أبان القِرش عن سفيان بن عُيَيْنَةَ عن إبراهيم بن أَعْيَن عن الحكم بن أبان عن عِكْرِمَةَ عن ابن عبّاس عن النَّبِيّ ﷺ فذكره.

وقد رواه سُنَيْدٌ عن حَجَّاج عن ابن جُرَيْج عن مجاهد مرسلاً أن رسول الله ﷺ سأل عن ذلك جبريل فسأل جبريل، إسرافيل فسأل إسرافيل الربّ عزّ وجلّ فقال: أبرّهما وأوفاهما.

وبنحوه رواه ابن أبي حاتم من حديث يوسف بن سرج مرسلاً، ورواه ابن جرير من طريق محمد بن كعب أن رسول الله ﷺ سئل أي الأجلين قضى موسى، قال: «أَوْفَاهُمَا وَأَتَمَّهُمَا».

---

(١) في ط: الصفي وهو تحريف.
(٢) أخرجه ابن ماجة في الرهون باب ٥.
(٣) في ط: مشاهد.
(٤) أخرجه البخاري في الشهادات باب ٢٨.

وقد رواه البزّار وابن أبي حاتم من حديث عُوَيْد بن أبي عمران الجوني، وهو ضعيف، عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل أي الأجلين قضى موسى قال: «أَوْفَاهُمَا وَأَبَرَّهُمَا» قال وإن سئلت أي المرأتين تزوّج فقل الصغرى منهما.

وقد رواه البزّار وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن لَهِيَعَةَ عن الحارث بن يزيد الحَضْرَمِي عن علي بن رباح عن عتبة بن النُدَّر أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مُوسَى آجَرَ نَفْسَهُ بِعِفَّةِ فَرْجِهِ وَطَعَامِ بَطْنِهِ». فلما وفى الأجل قيل يا رسول الله أي الأجلين قال: «أَبَرُّهُمَا وَأَوْفَاهُمَا». فلمّا أراد فراق شُعَيْب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاها ما ولدت من غنمه من قالب لون من ولد ذلك العام، وكانت غنمه سوداً حساناً فانطلق موسى عليه السلام إلى عصا قسمها من طرفها. ثم وضعها في أدنى الحوض، ثم أوردها فسقاها ووقف موسى عليه السلام بإزاء الحوض، فلم يصدر منها شاة إلاّ ضرب جنبها شاة شاة قال فأتأمت[1] وآنثت[2] ووضعت كلها قوالب ألوان إلاّ شاة أو شاتين ليس فيها فشوش ولا ضبوب ولا عزوز ولا ثعول ولا كموش تفوت الكف، قال النبي ﷺ: «لَوْ افْتَتَحْتُمْ الشَّامَ وَجَدْتُمْ بَقَايَا تِلْكَ الغَنَم وهِيَ السَّامِرِيَّةُ». قال ابن لهيعة الفشوش واسعة السخب والضبوب طويلة الضرع تجره والعزوز ضيقة السخب والثعول الصغيرة الضرع كالحلمتين والكموش التي لا يحكم الكف على ضرعها لصغره، وفي صحة رفع هذا الحديث نظر. وقد يكون موقوفاً كما قال ابن جرير، حدثنا محمد بن المُثَنّى حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبي عن قتادة حدثنا أنس بن مالك قال: «لما دعا نبي الله موسى صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما، قال له صاحبه: كل شاة ولدت على لونها فلك ولدها، فعمد فوضع خيالاً على الماء، فلما رأت الخيال فزعت، فجالت جولة فولدن كلّهن بلقاً إلاّ شاة واحدة، فذهب بأولادهن ذلك العام»، وهذا إسناد رجاله ثقات والله أعلم.

وقد تقدم عن نقل أهل الكتاب عن يعقوب عليه السلام حين فارق خاله لابان أنه أطلق له ما يولد من غنمه بلقاً ففعل نحو ما ذكر عن موسى عليه السلام فالله أعلم. ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: الآيات ٢٩ـ ٣٢].

تقدم أن موسى قضى أتم الأجلين وأكملهما، وقد يؤخذ هذا من قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ وعن مجاهد أنه أكمل عشراً وعشراً بعدها. وقوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ أي من عند صهره ذاهباً فيما ذكره غير واحد من المفسّرين وغيرهم، أنه اشتاق إلى أهله، فقصد زيارتهم ببلاد مصر

(١) أتأمت: ولدت توأماً. (٢) آنثت: ولدت أنثى.

في صورة مختف، فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم، وغنم قد استفادها مدّة مقامه، قالوا: واتفق ذلك في ليلة مظلمة باردة، وتاهوا في طريقهم، فلم يهتدوا إلى السلوك في الدرب المألوف، وجعل يوري زناده[1] فلا يوري شيئاً، واشتدّ الظلام والبرد، فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد ناراً تأجج في جانب الطور، وهو الجبل الغربي منه عن يمينه، فقال لأهله: ﴿ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ وكأنّه والله أعلم رآها دونهم، لأن هذه النار هي نور في الحقيقة، ولا يصلح رؤيتها لكل أحد ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي لعلي أستعلم من عندها عن الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ فدلّ على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق في ليلة باردة ومظلمة، لقوله في الآية الأخرى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾ [طه: ٩-١٠] فدلّ على وجود الظلام، وكونهم تاهوا عن الطريق. وجمع الكلّ في سورة النمل في قوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [النمل: ٧].

وقد أتاهم منها بخبر، وأي خبر! ووجد عندها هدى وأيّ هدى! واقتبس منها نوراً وأي نور! قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

وقال في النمل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾ [النمل: ٨] أي سبحان الله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ [النمل: ٩] وقال في سورة طه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: الآيات ١١-١٦].

قال غير واحد من المفسّرين من السلف والخلف لما قصد موسى إلى تلك النار التي رآها فانتهى إليها وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج[2]، وكل ما لتلك النار في اضطرام، وكل ما لخضرة تلك الشجرة في ازدياد فوقف متعجّباً، وكانت تلك الشجرة في لحف[3] جبل غربي منه عن يمينه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القصص: ٤٤] وكان موسى في واد اسمه طوى، فكان موسى مستقبل القبلة، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب، فناداه ربّه بالوادِ المقدّس طوى، فأمر أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة، ولا سيما في تلك الليلة المباركة.

وعند أهل الكتاب أنه وضع يده على وجهه من شدّة ذلك النور مهابة له، وخوفاً على بصره، ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلاً له: ﴿أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ أي أنا ربّ العالمين الذي لا إله إلاّ هو الذي لا تصلح

(١) أورى الزناد: ضرب الصوان ليشعل النار.
(٢) العوسج: الشوك.
(٣) لحف الجبل: أصله.

العبادة وإقامة الصلاة إلا له.

ثم أخبره أن هذه الدنيا ليست بدار قرار وإنما الدار الباقية يوم القيامة التي لا بدّ من كونها ووجودها ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ أي من خير وشر. وحضّه وحثّه على العمل لها، ومجانبة من لا يؤمن بها ممن عصى مولاه واتبع هواه، ثم قال له مخاطباً ومؤانساً ومبيناً له أنه القادر على كل شيء يقول للشيء كن فيكون. ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ أي أما هذه عصاك التي نعرفها منذ صحبتها ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: الآيتان ١٧ـ١٨]. أي بل هذه عصاي التي أعرفها وأتحققها ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه: الآيتان ١٩ـ ٢٠]. وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذي يكلّمه يقول للشيء كن فيكون وأنه الفعّال بالاختيار.

وعند أهل الكتاب أنه سأل برهاناً على صدقه عند من يكذّبه من أهل مصر، فقال له الربّ عزّ وجلّ: ما هذه التي في يدك؟ قال: عصاي، قال: ألقها إلى الأرض ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ فهرب موسى من قدامها فأمره الربّ عزّ وجلّ أن يبسط يده ويأخذها بذنبها، فلما استمكن منها عادت[١] عصا في يده، وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي قد صارت حيّة عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصكّ، وهي مع ذلك في سرعة حركة الجان وهو ضرب من الحيات. يقال [له][٢] الجان والجنان، وهو لطيف ولكن سريع الاضطراب والحركة جداً.

فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة، فلما عاينها موسى عليه السلام ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ أي هارباً منها لأن طبيعته البشرية تقتضي ذلك ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي ولم يلتفت ﴿فَنَادَاهُ رَبُّهُ﴾ قائلاً له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها. ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه: الآية ٢١]. فيقال إنه هابها شديداً فوضع يده في كم مدرعته[٣] ثم وضع يده في وسط فمها. وعند أهل الكتاب بذنبها فلما استمكن منها إذا هي قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين، فسبحان القدير العظيم ربّ المشرقَيْن والمغربَيْن، ثم أمره تعالى بإدخال يده في جيبه. ثم أمره بنزعها، فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضاً من غير سوء، أي من غير برص ولا بهق. ولهذا قال: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ﴾ [القصص: الآية ٣٢].

قيل معناه إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك. وهذا وإن كان خاصماً به، إلاّ أن بركة الإيمان به حق بأن ينفع من استعمل ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء.

وقال في سورة النمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

---

(١) في ط: ارتدت، ومعناها واحد فإن الردة في اللغة: الرجوع.
(٢) سقط في ط.
(٣) المدرعة: ثوب من الصوف.

وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: الآية ١٢] أي هاتان الآيتان وهما العصا واليد، وهما البرهانان المشار إليهما في قوله: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ ومع ذلك سبع آيات أخر فذلك تسع آيات بيّنات، وهي المذكورة في آخر سورة سبحان حيث يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: الآيتان ١٠١-١٠٢] وهي المبسوطة في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٣٠-١٣٣] كما سيأتي الكلام على ذلك في موضعه، وهذه التسع آيات غير العشر الكلمات، فإن التسع من آيات[1] الله القَدَرِيّة، والعشر من كلماته الشرعيّة وإنما نبّهنا على هذا لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة، فظنّ أن هذه هي هذه كما قرّرنا ذلك في تفسير آخر سورة بني إسرائيل.

والمقصود أن الله سبحانه لمّا أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: الآيات ٣٣-٣٥].

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام في جوابه لربّه عزّ وجلّ حين أمره بالذهاب إلى عدوه الذي خرج من ديار مصر، فراراً من سطوته وظلمه حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطي، ولهذا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾. أي اجعله معي معيناً ورداً ووزيراً يساعدني ويعينني على أداء رسالتك إليهم، فإنه أفصح مني لساناً وأبلغ بياناً.

قال الله تعالى مجيباً له إلى سؤاله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أي برهاناً ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ أي فلا ينالون منكما مكروهاً بسبب قيامكما بآياتنا. وقيل ببركة آياتنا ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ وقال في سورة طه: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ [طه: الآيات ٢٤-٢٨] قيل إنه أصابه في لسانه لثغة[2] بسبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه التي كان فرعون أراد اختبار عقله حين أخذ بلحيته وهو صغير، فهمّ بقتله، فخافت عليه آسية وقالت إنه طفلٌ، فاختبره

---

(١) في ط: كلمات.

(٢) اللثغة: ثقل في اللسان.

بوضع تمرة وجمرة بين يديه، فهمّ بأخذ التمرة، فصرف الملك يده إلى الجمرة، فأخذها فوضعها على لسانه فأصابه لثغة بسببها، فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله، ولم يسأل زوالها بالكلية.

قال الحسن البصري والرّسل إنّما يسألون بحسب الحاجة، ولهذا بقيت في لسانه بقيّة، ولهذا قال فرعون قبّحه الله فيما زعم إنه يعيبُ به الكليم ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾ [الزخرف: ٥٢] أي يفصح عن مراده ويعبّر عما في ضميره وفؤاده. ثم قال موسى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝٣٢ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦﴾ [طه: الآيات ٢٩-٣٦] أي قد أجبناك إلى جميع ما سألت وأعطيناك الذي طلبت، وهذا من وجاهته عند ربّه عزّ وجلّ حين شفع أن يوحي الله إلى أخيه، فأوحى إليه، وهذا جاه عظيم قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ۝٦٩﴾ [الأحزاب: الآية ٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝٥٣﴾ [مريم:الآية ٥٣] وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلاً يقول لأناس وهم سائرون [في][1] طريق الحج أيُّ أخٍ أَمَنُّ عَلَى أَخِيهِ فسكت القوم فقالت عائشة لمن حول هودجها هو موسى بن عمران حين شفعَ في أخيه هارون فأوحى [الله][2] إليه قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝٥٣﴾ [مريم: الآية ٥٣].

قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩﴾ [الشعراء: الآيات ١٠-١٩] تقدير الكلام فأتياه فقالا له ذلك، وبلّغاه ما أُرسِلا به من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وأن يفكّ أسارى بني إسرائيل من قبضته وقهره وسطوته، وتركهم يعبدون ربّهم حيث شاؤوا، ويتفرغوا[3] لتوحيده ودعائه والتضرّع لديه، فتكبّر فرعون في نفسه وعتا[4] وطغى، ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتنقّص قائلاً له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨﴾ أي أما أنت الذي ربيناه في منزلنا وأحسنا إليه وأنعمنا عليه مدّة من الدهر، وهذا يدلّ على أن فرعون الذي بعث إليه هو الذي فرّ منه خلافاً لما عند أهل الكتاب من أن فرعون الذي فرّ منه مات في مدّة مقامه بِمَدْينَ وأن الذي بعث إليه فرعون آخر.

وقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩﴾ أي وقتلت [ذلك][5] الرجل القبطي وفررت منا وجحدت نعمتنا ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠﴾ [الشعراء: الآية ٢٠] أي قبل

(١) سقط في ط.
(٢) سقط في ط.
(٣) في ط: ويتفرعون.
(٤) العتو: الظلم.
(٥) سقط في ط.

أن يوحى إليّ وينزل عليّ ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الشعراء: الآية ٢١] ثم قال مجيباً لفرعون عمّا امتن به من التربية والإحسان إليه، ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء: الآية ٢٢] أي وهذه النعمة التي ذكرت من أنك أحسنت إليّ وأنا رجل واحد من بني إسرائيل، تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله واستعبدتهم في أعمالك وخدمك وأشغالك ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء: الآيات ٢٣ـ٢٨].

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المقاولة والمحاجّة والمناظرة وما أقامه الكليم على فرعون اللئيم من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية. وذلك أن فرعون قبّحه الله أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى. وزعم أنه الإله ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: الآية ٢٣ ـ ٢٤].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: الآية ٣٨]. وهو في هذه المقالة معاند يعلم أنه عبد مربوب، وأن الله هو الخالق البارىء المصوّر الإله الحق كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: الآية ١٤] ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار لرسالته والإظهار أنه ما ثم ربّ أرسله ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ لأنهما قالا له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ فكأنه يقول لهما ومن ربّ العالمين الذي تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما، فأجابه موسى قائلاً: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ يعني رب العالمين خالق هذه السموات والأرض المشاهدة وما بينهما من المخلوقات المتجددة من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التي يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها، ولا بدّ لها من موجد ومحدث وخالق، وهو الله الذي لا إله إلا هو ربّ العالمين. ﴿قَالَ﴾ أي فرعون لمن حوله من أمرائه ومرازبته ووزرائه على سبيل التهكّم والتنقّص لِمَا قرّره موسى عليه السلام: ألا تسمعون؟ يعني كلامه هذا، قال موسى مخاطباً له ولهم: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾. أي هو الذي خلقكم والذين من قبلكم من الآباء والأجداد والقرون السالفة في الآباد، فإن كلُّ أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه، ولا أبوه، ولا أمه، ولم يحدث من غير محدث، وإنما أوجده وخلقه ربّ العالمين. وهذان المقامان هما المذكوران في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: الآية ٥٣] ومع هذا كله لم يستفق فرعون من رقدته ولا نزع عن ضلالته، بل استمرّ على طغيانه وعناده وكفرانه ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ٢٧ـ ٢٨] أي هو المسخّر لهذه الكواكب المنيرة[1]. المسيرة للأفلاك

---

(١) في ط: الزاهرة، ومعناهما واحد.

الدائرة. خالق الظلام والضياء. وربّ الأرض والسماء ربّ الأولين والآخرين، خالق الشمس والقمر والكواكب السائرة والثوابت الحائرة، خالق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، والكلّ تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون، وفلك يسبحون يتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون، فهو تعالى الخالق المالك المتصرف في خلقه بما يشاء. فلما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهه ولم يبق له قول سوى العناد عدل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء: الآيات ٢٩-٣٣].

وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما وهما العصا واليد. وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم الذي بهر به العقول والأبصار حين ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، أي عظيم الشكل بديع في الضخامة والهول والمنظر العظيم، الفظيع الباهر، حتى قيل: إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه أخذه رهب شديد وخوف عظيم، بحيث إنه حصل له إسهال عظيم أكثر من أربعين مرّة في يوم، وكان قبل ذلك لا يتبرّز[1] في كل أربعين يوماً إلاّ مرّة واحدة، فانعكس عليه الحال. وهكذا لمّا أُدخل موسى عليه السلام يده في جيبه واستخرجها، أخرجها وهي كفلقة القمر تتلألأ نوراً بهر [به][2] الأبصار، فإذا أعادها إلى جيبه رجعت إلى صفتها الأولى، ومع هذا كلّهُ لم ينتفع فرعون لعنه الله بشيء من ذلك، بل استمر على ما هو عليه، وأظهر أن هذا كلّه سحر، وأراد معارضته بالسحرة، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن في رعيته وتحت قهره ودولته، كما سيأتي بسطه وبيانه في موضعه من إظهار الله الحق المبين والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملائه وأهل دولته وملّته ولله الحمد والمنّةُ.

وقال تعالى في سورة طه: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: الآيات ٤٠-٤٦].

يقول تعالى مخاطباً لموسى فيما كلمه به ليلة أوحى إليه وأنعم بالنبوّة عليه، وكلّمه منه إليه قد كنت مشاهداً لك وأنت في دار فرعون، وأنت تحت كنفي وحفظي ولطفي، ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مَدْيَن بمشيئتي وقدرتي وتدبيري فلبثت فيها سنين ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ أي مني لذلك، فوافق ذلك تقديري وتسييري ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ أي اصطفيتك لنفسي برسالتي وبكلامي ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾ يعني ولا تفترا في ذكري إذ دخلتما[3] عليه، ووفدتما إليه، فإن ذلك عون لكما على مخاطبته ومجاوبته، وإهداء النصيحة إليه، وإقامة الحجّة عليه.

---

(١) يتبرز: يتغوط. (٢) سقط في ط.
(٣) في ط: قدمتما، ومعناهما واحد.

وقد جاء في بعض الأحاديث يقول الله تعالى: «إِنَّ عَبْدِي كُلُّ عَبْدِي الَّذِي يَذْكُرُنِي وَهُوَ مُلاَقٍ قِرْنَهُ».

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥]، الآية ثم قال تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: الآية ٤٣] وهذا من حلمه تعالى وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه مع علمه بكفر فرعون وعتوّه وتجبرّه، وهو إذ ذاك أردى خلقه، وقد بعث إليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان، ومع هذا يقول لهما ويأمرهما أن يدعواه إليه بالتي هي أحسن برفق ولين، ويعاملاه [بالطف][(١)] معاملة من يرجو أن يتذكّر أو يخشى، كما قال لرسوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: الآية ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٦] الآية. قال الحسن البصري: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ أعذر إليه، قولاً له إن لك رباً ولك معاداً، وإن بين يديك جنّة وناراً.

وقال وَهْبُ بن مُنَبِّه قولا له إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة. قال يزيد الرَّقَاشِي عند هذه الآية يا من يتحبّب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ وذلك أن فرعون كان جبّاراً عنيداً وشيطاناً مريداً له سلطان في بلاد مصر طويل عريض، وجاه وجنود وعساكر وسطوة، فهاباه من حيث البشرية، وخافا أن يسطو عليهما في بادىء الأمر، فثبتهما تعالى وهو العليّ الأعلى، فقال: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾. ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [طه: ٤٧ ـ ٤٨] يذكر تعالى أنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون فيدعواه إلى الله تعالى أن يعبده وحده لا شريك له وأن يرسل معهم بني إسرائيل ويطلقهم من أسره وقهره ولا يعذبهم ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ وهو البرهان العظيم في العصا واليد ﴿مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ إِذْ ﴿٤٧﴾﴾ تقيد مفيد بليغ عظيم. ثم تهدّداه وتوعّداه على التكذيب فقالا: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ أي كذّب بالحق بقلبه وتولّى عن العمل بقالبه.

وقد ذكر السُّدِّيّ وغيره أنه لما قدم من بلاد مَدْيَن دخل على أمّه وأخيه هارون، وهما يتعشيان من طعام فيه الطفشيل وهو اللفت فأكل معهما. ثم قال يا هارون إن الله أمرني وأمرك أن ندعو فرعون إلى عبادته، فقم معي، فقاما يقصدان باب فرعون فإذا هو مغلق، فقال موسى للبوابين والحجبة أعلموه أن رسول الله ﷺ بالباب، فجعلوا يسخرون منه ويستهزؤون به.

وقد زعم بعضهم أنه لم يؤذن لهما عليه إلاّ بعد حين طويل. وقال محمد بن إسحاق أذن

(١) سقط في ط.

لهما بعد سنتين لأنه لم يك أحد يتجاسر[1] على الاستئذان لهما فالله أعلم. ويقال إن موسى تقدّم إلى الباب فطرقه بعصاه فانزعج فرعون، وأمر بإحضارهما فوقفا بين يديه فدعواه إلى الله عزّ وجلّ كما أمرهما.

وعند أهل الكتاب أن الله قال لموسى عليه السلام إن هارون اللاّوي يعني من نسل لاوي بن يعقوب سيخرج ويتلقاك، وأمره أن يأخذ معه مشايخ بني إسرائيل إلى عند فرعون، وأمره أن يظهر ما أتاه من الآيات. وقال له [إني][2] سأقسّي قلبه فلا يرسل الشعب، وأكثر آياتي وأعاجيبي بأرض مصر. وأوحى الله إلى هارون أن يخرج إلى أخيه يتلقّاه بالبرية عند جبل حوريب، فلما تلقّاه أخبره موسى بما أمره به ربه. فلما دخلا مصر جمعا شيوخ بني إسرائيل، وذهبا إلى فرعون، فلما بلّغاه رسالة الله قال: من هو الله لا أعرفه ولا أرسل بني إسرائيل. وقال الله مخبراً عن فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: الآيات ٤٩ـ ٥٥].

يقول تعالى مخبراً عن فرعون إنه أنكر إثبات الصانع تعالى قائلاً: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ أي هو الذي خلق الخلق وقدّر لهم أعمالاً وأرزاقاً وآجالاً. وكتب ذلك عنده في كتابه اللوح المحفوظ، ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدّره له، فطابق عمله فيهم على الوجه الذي قدّره وعلمه لكمال علمه وقدرته وقَدْره وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ١ـ ٣] أي قدّر قدراً وهدى الخلائق إليه ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ [طه: الآية ٥١] يقول فرعون لموسى فإذا كان ربّك هو الخالق المقدّر الهادي الخلائق لما قدره، وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحق العبادة سواه فلِمَ عبد الأولون غيره؟ وأشركوا به من الكواكب والأنداد[3] ما قد علمت فهلا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى؟ ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ أي هم وإن عبدوا غيره فليس ذلك بحجّة لك، ولا يدلّ على خلاف ما أقول، لأنهم جهلة مثلك كل شيء فعلوه مستطر عليهم في الزبر من صغير وكبير وسيجزيهم على ذلك ربي عزّ وجلّ، ولا يظلم أحداً مثقال ذرة لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده في كتاب لا يضلُّ عنه شيء ولا ينسى ربي شيئاً.

ثم ذكر له عظمة الرب وقدرته على خلق الأشياء، وجعله الأرض مهاداً والسماء سقفاً محفوظاً، وتسخيره السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابهم وأنعامهم كما قال: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ أي لذوي العقول الصحيحة المستقيمة والفطر القويمة

---

(١) تجاسر: تجرأ.
(٢) سقط في ط.
(٣) الأنداد: جمع ند: المثل.

غير السقيمة فهو تعالى الخالق الرازق. وكما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: الآيتان ٢١ـ ٢٢] ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر واهتزازها بإخراج نباتها فيه نبّه به على المعاد فقال: ﴿مِنْهَا﴾ أي من الأرض خلقناكم ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: الآية ٢٧] ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه: الآيات ٥٦ـ ٥٩].

يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله في تكذيبه بآيات الله، واستكباره عن اتباعها، وقوله لموسى إن هذا الذي جئت به سحر، ونحن نعارضك بمثله، ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم، ومكان معلوم، وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس، ولهذا قال: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ وكان يوم عيد من أعيادهم، ومجتمع لهم ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ أي من أول النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس، فيكون الحق أظهر وأجلى، ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً في ظلام كيما يروّج عليهم محالاً وباطلاً، بل طلب أن يكون نهاراً جهرة لأنه على بصيرة من ربه، ويقين أن الله سيظهر كلمته ودينه، وإن رغمت أنوف القبط.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه: الآيات ٦٠ـ ٦٤].

يخبر تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السّحرة، وكانت بلاد مصر في ذلك الزمان مملوءة سحرة، فضلاء في فنهم غاية، فجمعوا له من كل بلد ومن كان مكان، فاجتمع منهم خلق كثير وجم غفير، فقيل كانوا ثمانين ألفاً، قاله محمد بن كعب. وقيل سبعين ألفاً قاله القاسم بن أبي بُرْدَة. وقال السّدّيّ بضعة وثلاثين ألفاً. وعن أبي أمامة تسعة عشر ألفاً، وقال محمد بن إسحاق خمسة عشر ألفاً.

وقال كعبُ الأحبار كانوا اثني عشر ألفاً. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس كانوا سبعين رجلاً، وروى عنه أيضاً أنهم كانوا أربعين غلاماً من بني إسرائيل أمرهم فرعون أن يذهبوا إلى العرفاء فيتعلّموا السّحر، ولهذا قالوا وما أكرهتنا عليه من السحر وفي هذا نظر.

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم. وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم، فخرجوا وهم يقولون لعلّنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين. وتقدّم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم وزجرهم عن تعاطي السّحر الباطل، الذي فيه معارضة لآيات الله وحججه فقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ قيل معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم فقائل يقول هذا كلام نبي وليس بساحر، وقائل منهم يقول بل هو ساحر فالله أعلم. وأسرّوا التناجي بهذا وغيره ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ يقولون إن هذا وأخاه هارون ساحران عليمان مطبقان متقنان لهذه الصناعة ومرادهم أن يجتمع الناس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته ويستأصلاكم عن آخركم، ويستأمرا عليكم بهذه الصناعة ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤)﴾. وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبّروا ويتواصّوا، ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبهتان. وهيهات كَذِبَت والله الظنون، وأخطأت الآراء. أنى يعارض البهتان. والسحر والهذيان. خوارق العادات التي أجراها الديّان. على يدي عبده الكليم. ورسوله الكريم، المؤيد بالبرهان الذي يبهر الأبصار، وتحار فيه العقول والأذهان، وقولهم: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أي جميع ما عندكم ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أي جملة واحدة، ثم حضّوا بعضهم بعضاً على التقدم في هذا المقام، لأن فرعون كان قد وعدهم ومنّاهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩)﴾ [طه: الآيات ٦٥-٦٩].

لما اصطفّ السّحرة ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم، قالوا له إما أن تُلقي قبلنا، وإما أن نلقي قبلك ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ أنتم وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصي فأودعوها الزئبق وغيره من الآلات التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصي اضطراباً، يخيل للرائي أنها تسعى باختيارها. وإنما تتحرك بسبب ذلك. فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم، وألقوا حبالهم وعصيهم وهم يقولون بعزّة فرعون إنا لنحن الغالبون. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦)﴾ [الأعراف: الآية ١١٦].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧)﴾ أي خاف على الناس أن يفتتنوا بسحرهم ومحالهم قبل أن يلقي ما في يده فإنه لا يضع شيئاً قبل أن يؤمر، فأوحى الله إليه في الساعة الراهنة ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩)﴾ فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال ما جئتم به السّحرُ إنّ الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)﴾ [يونس: الآية ٨٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى عصاهُ ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١١٧ـ ١٢٢] وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها صارت حيّة عظيمة ذات قوائم (فيما ذكره غير واحد من علماء السلف) وعنق عظيم وشكل هائل مزعج، بحيث أن الناس انحازوا منها، وهربوا سراعاً وتأخروا عن مكانها، وأقبلت هي على ما ألقوه من الحبال والعصي فجعلت تلقفه واحداً واحداً في أسرع ما يكون من الحركة، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها. وأمّا السّحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم في أمرهم واطّلعوا على أمرٍ لم يكن في خلدهم ولا بالهم، ولا يدخل تحت صناعاتهم وأشغالهم. فعند ذلك وهنالك تحقّقوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعبذة و لا محال ولا خيال ولا زور ولا بهتان ولا ضلال، بل حق لا يقدر عليه إلاّ الحق الذي ابتعث هذا المؤيد به بالحقّ، وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة وأنارها بما خلق فيها من الهدى، وأزاح عنها القسوة، وأنابوا إلى ربّهم وخرّوا له ساجدين، وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: الآيات ٧٠ـ ٧٦].

قال سعيد بن جُبَيْر وعِكْرِمَةُ والقاسم بن أبي بردة والأوزاعي وغيرهم، لما سجد السّحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تهيأ لهم وتزخرف لقدومهم ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده، وذلك لأن فرعون لمّا رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشهروا، ذكر موسى وهارون في الناس على هذه الصّفة الجميلة أفزعه ذلك، ورأى أمراً بهره وأعمى بصيرته وبصره، وكان فيه كيد ومكر وخداع وصنعة بليغة في الصدّ عن سبيل الله، فقال مخاطباً للسحرة بحضرة الناس ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أي هلا شاورتموني فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتي، ثم تهدّد وتوعّد وأبرق وأرعد وكذّب، فأبعد قائلاً: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٢٣]. وهذا الذي قاله من البهتان [الذي][(١)] يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والبهتان[(٢)] بل لا يروج مثله على الصبيان، فإن الناس كلّهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يوماً من الدهر، فكيف يكون كبيرهم الذي علّمهم السحر. ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم حتى كان فرعون هو الذي استدعاهم واجتباهم من كل فجّ

(١) سقط في ط.
(٢) في ط: الهذيان.

عميق ووادٍ سحيق، ومن حواضر بلاد مصر والأطراف، ومن المدن والأرياف. قال الله تعالى
في سورة الأعراف: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا
أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ
بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ
بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ
السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤)
قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ
وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧)
فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا
آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ
مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ
أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ
عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)﴾ [الأعراف: الآيات ١٠٣-١٢٦].

وقال تعالى في سورة يونس: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا
فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ
أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا
وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا
جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ
سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)﴾
[يونس: الآيات ٧٥-٨٢].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ
أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ
(٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ
أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ
سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ
السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ
نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ
فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ
(٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ
الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا

إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء: الآيات ٢٩-٥١].

والمقصود أن فرعون كذّب وافترى، وكفر غاية الكفر في قوله إنه لكبيركم الذي علمكم السحر وأتى ببهتان يعلمه العالمون بل العالمون في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ وقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ يعني يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي ليجعلهم مثلةً ونكالاً لئلا يقتدي بهم أحد من رعيته وأهل ملته، ولهذا قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي على جذوع النخل لأنها أعلى وأشهر ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ يعني في الدنيا ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي لن نطيعك ونترك ما وقر[1] في قلوبنا من البيّنات والدلائل القاطعات ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ قيل معطوف. وقيل قسم ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ أي فافعل ما قدرت عليه ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾﴾ أي إنما حكمك علينا في هذه الحياة الدنيا فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة صرنا إلى حكم الذي أسلمنا له واتبعنا رسله ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾﴾ أي وثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب والترغيب وأبقى أي وأدوم من هذه الدار الفانية وفي الآية الأخرى ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ أي ما اجترمناه من المآثم والمحارم ﴿أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ أي من القبط بموسى وهارون عليهما السلام.

وقالوا له أيضاً: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ أي ليس لنا عندك ذنب إلاّ إيماننا بما جاءنا به رسولنا واتباعنا آيات ربّنا لما جاءتنا ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي ثبّتنا على ما أتبلينا به من عقوبة هذا الجبّار العنيد، والسلطان الشديد، بل الشيطان المريد. ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ وقالوا أيضاً يعظونه ويخوّفونه بأس ربّه العظيم ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ [طه: الآية ٧٤] يقولون له فإياك أن تكون منهم فكان منهم ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه: الآية ٧٥] أي المنازل العالية ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: الآية ٧٦] فاحرص أن تكون منهم فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التي لا تغالب ولا تمانع وحكم العلي العظيم بأنّ فرعون لعنه الله من أهل الجحيم ليباشر العذاب الأليم يصبّ من فوق رأسه الحميم. ويقال له على وجه التقريع[2] والتوبيخ وهو المقبوح المنبوح والذميم اللئيم ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: الآية ٤٩].

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون لعنه الله صلبهم وعذّبهم رضي الله عنهم. قال عبد الله بن عبّاس وعُبَيْد بن عُمَيْرٍ كانوا من أول النهار سحرة فصارو من آخره شهداء بررة. ويؤيد

(١) وقر: الوقر: الحمل الثقيل. والمعنى: ما ثبت في قلوبنا من الإيمان.
(٢) التقريع: الذم.

هذا قولهم: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾.

فصل

ولما وقع ما وقع من الأمر العظيم وهو الغلب الذي غلبته القبط في ذلك الموقف الهائل، وأسلم السحرة الذين استنصروا ربّهم لم يزدهم ذلك إلاّ كفراً وعناداً وبعداً عن الحق. قال الله تعالى بعد قصص ما تقدم في سورة الأعراف. ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٢٧ـ١٢٩].

يخبر تعالى عن الملأ من قوم فرعون وهم الأمراء والكبراء أنهم حرّضوا ملكهم فرعون على أذية نبيّ الله موسى عليه السلام ومقابلته بدل التصديق بما جاء به بالفكر والردّ والأذى، قالوا: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ يعنون قبّحهم الله أن دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له والنهي عن عبادة ما سواه فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط لعنهم الله. وقرأ بعضهم ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ أي وعبادتك ويحتمل شيئين: **أحدهما**: ويذر دينك وتقويه القراءة الأخرى. **الثاني**: ويذر أن يعبدك فإنه كان يزعم أنه إله لعنه الله ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾ أي لئلا يكثر مقاتلتهم ﴿وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي غالبون ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ أي إذا همّوا هم بأذيتكم والفتك بكم فاستعينوا أنتم بربّكم واصبروا على بليّتكم ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ أي فكونوا أنتم المتقين لتكون لكم العاقبة كما قال في الآية الأخرى ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس: الآيات ٨٤ـ٨٦].

وقولهم: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ أي قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك، وبعد مجيئك إلينا ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

وقال الله تعالى في سورة حم المؤمن: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر: الآيتان ٢٣ـ ٢٤] وكان فرعون الملك وهامان الوزير. وكان قارون إسرائيلياً من قوم موسى إلاّ أنه كان على دين فرعون وملائه، وكان ذا مال جزيل جداً كما ستأتي قصّته فيما بعد إن شاء الله تعالى. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر: الآية ٢٥] وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى إنما كان على وجه الإهانة والإذلال

والتقليل لملأ بني إسرائيل، لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها ويصولون[١] على القبط بسببها، وكانت القبط منهم يحذرون فلم ينفعهم ذلك ولم يرد عنهم قدر الذي يقول للشيء كن فيكون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: الآية ٢٦].

ولهذا يقول الناس على سبيل التهكّم (صار فرعون مذكراً) وهذا منه فإن فرعون في زعمه يخاف على الناس أن يضلّهم موسى عليه السلام. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر: الآية ٢٧] أي عذت بالله ولجأت إليه [واستجرت][٢] بجنابه من أن يسطو فرعون وغيره عليّ بسوء وقوله: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي جبار عنيد، لا يرعوي ولا ينتهي ولا يخاف عذاب الله وعقابه، لأنه لا يعتقد معاداً ولا جزاءً.

ولهذا قال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾. ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر: الآيتان ٢٨-٢٩].

وهذا الرجل هو ابن عم فرعون وكان يكتم إيمانه من قومه خوفاً منهم على نفسه. وزعم بعض الناس أنه كان إسرائيلياً وهو بعيد ومخالف لسياق الكلام لفظاً ومعنى والله أعلم.

قال ابن جريج قال ابن عبّاس: لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا والذي جاء من أقصى المدينة وامرأة فرعون. رواه ابن أبي حاتم. قال الدارقطني لا يعرف من اسمه شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون. حكاه السُّهيلي.

وفي تاريخ الطبراني أن اسمه خير فالله أعلم. والمقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه، فلما همّ فرعون لعنه الله بقتل موسى عليه السلام وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه خاف هذا المؤمن على موسى فتلطّف في ردّ فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب، فقال على وجه المشورة والرأي وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَفْضَلُ الجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ». وهذا من أعلى مراتب هذا المقام فإن فرعون لأشدّ جوراً منه، وهذا الكلام لا أعدل منه لأن فيه عصمة نبي. ويحتمل أنه كاشرهم [كاشفهم][٣] بإظهار إيمانه، وصرّح لهم بما كان يكتمه، والأول أظهر والله أعلم قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ أي من أجل أنه قال ربي الله فمثل هذا لا يقابل بهذا بل بالإكرام والاحترام والموادعة وترك الانتقام يعني لأنه ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي بالخوارق التي دلّت على صدقه فيما جاء به عمن أرسله فهذا إن وادعتموه كنتم في سلامة لأنه ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ ولا يضركم ذلك ﴿وَإِن

---

(١) صال: سطا، واستطال، ووثب. (٢) سقط في ط.
(٣) سقط من الأصل.

يَكُ صَادِقًا﴾ وقد تعرّضتم له ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ أي وأنتم تشفقون أن ينالكم [أيسر][(١)] جزاء مما يتوعدكم به فكيف بكم إن حلّ جميعه عليكم.

وهذا الكلام في هذا المقام من أعلى مقامات التلطّف والاحتراز والعقل التام. وقوله: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى الْأَرْضِ﴾ يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز فإنه ما تعرض الدول للدين إلا سلبوا ملكهم وذلّوا بعد عزّهم، وكذا وقع لآل فرعون، ما زالوا في شك وريب ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به حتى أخرجهم الله مما [كانوا][(٢)] فيه من الملك والأملاك والدور والقصور والنعمة والحبور[(٣)]، ثم حوّلوا إلى البحر مهانين، ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السافلين.

ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدق البار الراشد التابع للحق الناصح لقومه الكامل العقل ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى الْأَرْضِ﴾ أي عالين على الناس حاكمين عليهم ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أي لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعدّة والقوّة والشدّة، لما نفعنا ذلك ولاردّ عنا بأس مالك الممالك. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ أي في جواب هذا كله ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي ما أقول لكم إلاّ ما عندي ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ وكذب في كل من هذين القولين وهاتين المقدمتين فإنه قد كان يتحقّق [ويعلم][(٤)] في باطنه وفي نفسه أن هذا الذي جاء به موسى من عند الله لا محالة، وإنما كان يظهر خلافه بغياً وعدواناً وعتواً وكفراناً قال الله تعالى أخباراً عن موسى ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء: الآيات ١٠٢ـ ١٠٤] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: الآيتان ١٣ـ ١٤].

وأما قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾. فقد كذب أيضاً فإنه لم يكن على رشاد من الأمر بل كان على سفه وضلال، وخبل[(٥)] وخيال، فكان أولاً ممن يعبد الأصنام والأمثال. ثم دعا قومه الجهلة الضلال إلى أن اتبعوه وطاوعوه وصدقوه، فيما زعم من الكفر المحال في دعواه، أنه ربّ تعالى الله ذو الجلال. قال الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف: الآيات ٥١ـ ٥٦].

وقال تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ الْءَايَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾

---

(١) سقط من الأصل.
(٢) سقط من الأصل.
(٣) الحبور: السعادة.
(٤) سقط في ط.
(٥) الخبل: الفساد.

فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات: الآيات ٢٠ـ ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود: الآيات ٩٦ـ ٩٩].

والمقصود بيان كذبه ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ وفي قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: الآيات ٢٩ـ ٣٥] يحذرهم ولي الله إن كذّبوا برسول الله موسى أن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم من قبلهم من النقمات والمثلات مما تواتر عندهم وعند غيرهم ما حلّ بقوم نوح وعاد وثمود، ومن بعدهم إلى زمانهم ذلك، مما أقام به الحجج على أهل الأرض قاطبة في صدق ما جاءت به الأنبياء، لِمَا أنزل من النقمة بمكذّبيهم من الأعداء، وما أنجى الله من اتبعهم من الأولياء وخوّفهم يوم القيامة وهو يوم التناد، أي حين ينادي الناس بعضهم بعضاً حين يولون أن قدروا على ذلك ولا إلى ذلك سبيل ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ [القيامة: الآيات ١٠ـ ١٢].

وقال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرحمٰن: الآيات ٣٣ـ ٣٦] وقرأ بعضهم: ﴿يَوْمَ التَّنَادِّ ﴿٣٢﴾﴾ بتشديد الدال أي يوم الفرار ويحتمل أن يكون يوم القيامة، ويحتمل أن يكون يوم يحلّ الله بهم البأس، فيودون الفرار ولات حين مناص. ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ١٢ـ ١٣] ثم أخبرهم عن نبوّة يوسف في بلاد مصر ما كان منه من الإحسان، إلى الخلق في دنياهم وأخراهم، وهذا من سلالته وذرّيته، ويدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته، وأن لا يشركوا به أحداً من بريّته، وأخبر عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان، أي من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل، ولهذا قال: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [غافر: الآية ٣٤] أي وكذّبتم في هذا، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أي يريدون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده بلا حجّة ولا دليل عندهم من الله، فإنّ هذا أمر يمقته الله غاية المقت أي يبغض من تلبّس به من الناس ومن اتّصف

به من الخلق ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: الآية ٣٥] قرىء بالإضافة وبالنعت، وكلاهما متلازم أي هكذا إذا خالفت القلوب الحقّ ولا تخالفه إلاّ بلا برهان، فإن الله يطبع عليها أي يختم عليها.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر: الآيتان ٣٦ ـ ٣٧] كذّب فرعون موسى عليه السلام في دعواه أن الله أرسله وزعم فرعون لقومه ما كذبه وافتراه في قوله لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: الآية ٣٨] وقال ههنا: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي طرقها ومسالكها ﴿أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ ويحتمل هذا معنيين أحدهما وإني لأظنه كاذباً في قوله إن للعالم رباً غيري، والثاني في دعواه أن الله أرسله. والأوّل أشبه بظاهر حال فرعون، فإنه كان ينكر ظاهر إثبات الصانع، والثاني أقرب إلى اللفظ حيث قال: ﴿أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أي فاسأله هل أرسله أم لا ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أي في دعواه ذلك. وإنّما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام وأن يحثّهم على تكذيبه.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وقُرىء ﴿وَصَدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ قال ابن عباس ومجاهد يقول إلاّ في خسار، أي باطل لا يحصل له شيء من مقصوده الذي رامه، فإنه لا سبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم إلى نيل السماء أبداً، أعني السماء الدنيا، فكيف بما بعدها من السموات العُلَى وما فوق ذلك من الارتفاع الذي لا يعلمه إلاّ الله عزّ وجلّ. وذكر غير واحد من المفسّرين أن هذا الصرح وهو القصر الذي بناه وزيره هامان له، لم يُرَ بناء أعلى منه، وإن كان مبنياً من الآجر المشوي بالنار، ولهذا قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾.

وعند أهل الكتاب أن بني إسرائيل كانوا يُسَخَّرون في ضرب اللبن، وكان مما حملوا من التكاليف الفرعونية أنهم لا يساعدون على شيء مما يحتاجون إليه فيه، بل كانوا هم الذين يجمعون ترابه وتبنه وماءه، ويصلب منهم كل يوم قسط معين إن لم يفعلوه، وإلاّ ضربوا وأهينوا غاية الإهانة، وأوذوا غاية الأذية. ولهذا قالوا لموسى: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ فوعدهم بأن العاقبة لهم على القبط وكذلك وقع وهذا من دلائل النبوة. ولنرجع إلى نصيحة المؤمن وموعظته واحتجاجه قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: الآيات ٣٨ ـ ٤٠] يدعوهم رضي الله عنه إلى طريق الرشاد

والحق وهي متابعة نبي الله موسى وتصديقه فيما جاء به من ربّه، ثم زهدّهم في الدنيا الدنيّة الفانية المنقضية لا محالة ورغّبهم في طلب الثواب عند الله الذي لا يضيع عمل عامل لديه. القدير الذي ملكوت كل شيء بيديه الذي يعطي على القليل كثيراً ومَنْ عدله لا يُجازى على السيئة إلاّ مثلها. وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار التي من وافاها مؤمناً قد عمل الصالحات، فلهم الجنّات العاليات والغرف الآمنات والخيرات الكثيرة الفائقات والأرزاق الدائمة التي لا تبيد. والخير الذي كل ما لهم منه في مزيد.

ثم شرع في إبطال ما هم عليه وتخويفهم مما يصيرون إليه فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: الآيات ٤١ـ٤٦].

كان يدعوهم إلى عبادة ربّ السموات والأرض الذي يقول للشيء كن فيكون، وهم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون، ولهذا قال لهم على سبيل الإنكار ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾ ثم بين لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان وأنها لا تملك من نفع ولا إضرار فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ أي لا تملك تصرّفاً ولا حكماً في هذه الدار فكيف تملكه يوم القرار. وأما الله عزّ وجلّ فإنه الخالق الرازق للأبرار والفجّار وهو الذي أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم فيدخل طائعهم الجنّة وعاصيهم إلى النار.

ثم توعّدهم إن هم استمروا على العناد بقوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ قال الله: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ أي بإنكاره سلم مما أصابهم من العقوبة على كفرهم بالله، ومكرهم في صدهم عن سبيل الله، مما أظهروا للعامة من الخيالات والمحالات التي ألبسوا بها على عوامهم وطغامهم[1]، ولهذا قال: ﴿وَحَاقَ﴾ أي أحاط ﴿بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أي تعرض أرواحهم في برزخهم صباحاً ومساءً على النار ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ وقد تكلمنا على دلالة هذه الآية على عذاب القبر في التفسير ولله الحمد.

والمقصود أن الله تعالى لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم، وإرسال الرسول إليهم وإزاحة الشبه عنهم، وأخذ الحجّة عليهم منهم فبالترهيب تارة والترغيب أخرى كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟

(١) الطغام: أوغاد الناس.

لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٣٠ـ١٣٣].

يخبر تعالى أنه ابتلى آل فرعون وهم قومه من القبط بالسنين وهي أعوام الجدب التي لا يستغلّ فيها زرع ولا ينتفع بضرع وقوله: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وهي قلّة الثمار من الأشجار ﴿يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ أي فلم ينتفعوا ولم يرعووا بل تمرّدوا واستمرّوا على كفرهم وعنادهم ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ والخصب ونحوه ﴿قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي هذا الذي نستحقه وهذا الذي يليق بنا ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي يقولون هذا بشؤمهم أصابنا هذا، ولا يقولون في الأول إنه بركتهم وحسن مجاورتهم [لهم][1]، ولكن قلوبهم منكرة مستكبرة نافرة عن الحق، إذا جاء الشرّ أسندوه إليه، وإن رأوا خيراً ادّعوه لأنفسهم. قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ أي مهما جئتنا به من الآيات، وهي الخوارق للعادات، فلسنا نؤمن بك ولا نتّبعك ولا نطيعك، ولو جئتنا بكل آية. وهكذا أخبر الله عنهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: الآيتان ٩٦ـ٩٧] قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾. أما الطوفان فعن ابن عبّاس هو كثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار. وبه قال سعيد بن جُبَيْر وقَتَادَةُ والسدّيّ والضَّحَّاكُ. وعن ابن عبّاس وعطاء هو كثرة الموت. وقال مجاهد الطوفان الماء والطاعون على كل حال. وعن ابن عبّاس أمر طاف بهم. وقد روى ابن جرير وابن مردويه من طريق يحيى بن يَمَانٍ عن المِنهال بن خَليفة عن الحَجّاج عن الحَكَم بن مينا عن عائشة عن النبي ﷺ «الطُّوفَانُ المَوْتُ» وهو غريب. وأما الجراد فمعروف. وقد رَوَى أبو داود عن أبي عثمان عن سلمان الفارسي قال سُئِل رسول الله عن الجراد، فقال: «أَكْثَرُ جُنُودِ اللَّهِ لا آكُلُهُ وَلاَ أُحَرِّمُهُ»[2]، وترك النبي ﷺ أكله إنما هو على وجه التقذّر له، كما ترك أكل الضبّ وتنزّه عن أكل البصل والثوم والكراث لما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوْفَى، قال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد[3]. وقد تكلمنا على ما ورد فيه من الأحاديث والآثار في التفسير. والمقصود أنه استاق خضراءهم فلم يترك لهم زرعاً، ولا ثماراً، ولا سبداً[4] ولا لبداً[5]. وأما القمل فعن ابن عبّاس

---

(١) سقط في ط.
(٢) أخرجه أبو داود في الأطعمة باب ٣٥.
(٣) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد باب ١٣، ومسلم في الصيد والذبائح حديث ٥٢، وأحمد في المسند ٤/٣٥٣.
(٤) السبد: حلق الشعر.
(٥) اللبد: الصوف.

[انه][(١)] هو السوس الذي يخرج من الحنطة، وعنه إنه الجراد الصغار الذي لا أجنحة له.

ويه قال مجاهد وعِكْرِمة وَقَتَادَةَ.

وقال سعيد بن جُبَيْر والحسن هو دواب سود صغار. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هي البراغيث.

وحكى ابن جرير عن أهل العربية أنها الحمنان وهو صغار القردان (فوق[(٢)] القمقامة) فدخل معهم البيوت والفرش، فلم يقرّ لهم قرار، ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش. وفسّره عطاء بن السائب بهذا القمل المعروف، وقرأها الحسن البصري كذلك بالتخفيف. وأما الضفادع فمعروفة لبستهم حتى كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم، حتى أن أحدهم إذا فتح فمه لطعام أو شراب سقطت في فيه ضفدعة من تلك الضفادع. وأما الدمّ فكان قد مزج ماؤهم كلّه به، فلا يستقون من النيل شيئاً إلا وجدوه دماً عبيطاً، ولا من نهر ولا بئر ولا شيء إلا كان دماً في الساعة الراهنة. هذا كلّه لم ينل بني إسرائيل من ذلك شيء بالكلية. وهذا من تمام المعجزة الباهرة والحجّة القاطعة، أن هذا كله يحصل لهم من فعل موسى عليه السلام، فينالهم عن آخرهم ولا يحصل هذا لأحد من بني إسرائيل، وفي هذا أدل دليل. قال محمد بن إسحاق فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً، ثم أبى إلاّ الإقامة على الكفر والتمادي في الشر فتابع الله عليه بالآيات فأخذه بالسنين فأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفداع، ثم الدّم، آيات مفصّلات فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض ثم ركد. لا يقدرون على أن يخرجوا ولا أن يعلموا شيئاً حتى جهدوا جوعاً، فلما بلغهم ذلك ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٣٤] فدعا موسى ربّه فكشفه عنهم، فلما لم يفوا له بشيء فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغني حتى أن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربّه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم القمل فذُكِر لي أن موسى عليه السلام أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه، فمشى إلى كثيب أهيل[(٣)] عظيم فضربه بها فانثال عليهم قملاً حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له، فدعا ربّه فكشف عنهم، فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا، أرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية، فلم يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع قد غلب عليه، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا فدعا ربّه فكشف عنهم فلم يفوا بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الدّم فصارت مياه آل فرعون دماً لا يستقون من بئر ولا نهر يغترفون من إناء إلاّ عاد دماً عبيطاً، وقال زيد بن أسلم المراد بالدّم

---

(١) في ط: هو.

(٢) في ط: فرق، وهو تصحيف، والقمقام والخمنان في كتب اللغة واحد وهو صغار القردان، ويعني بقوله: فوق القمقامة: إنه أكبر منها. انظر تفسير الطبري ٥٦/١٣.

(٣) كثيب أهيل: ما ينهال من التراب.

الرعاف، رواه ابن أبي حاتم. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٣٤-١٣٦].

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال والجهل والاستكبار عن اتباع آيات الله وتصديق رسوله مع ما أيّد به من الآيات العظيمة الباهرة والحجج البليغة القاهرة التي أراهم الله إياها عياناً وجعلها عليهم دليلاً وبرهاناً. وكلّما شاهدوا آية وعاينوها وجهدهم وأضنكهم حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به وليرسلن معه من هو من حزبه، فكلما رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شرّ مما كانوا عليه، وأعرضوا عما جاءهم به من الحق، ولم يلتفتوا إليه، فيرسل الله عليهم آية أخرى هي أشد مما كانت قبلها وأقوى، فيقولون فيكذبون. ويعدون ولا يفون، ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل. ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل. هذا والعظيم الحليم القدير ينظرهم ولا يعجّل عليهم ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم، ثم أخذهم بعد إقامة الحجّة عليهم والإنذار إليهم أخذ عزيز مقتدر، فجعلهم عِبْرَةً ونكالاً وسلفاً لمن أشبههم من الكافرين، ومثلاً لمن أتعظ بهم من عباده المؤمنين، كما قال تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين في سورة حم والكتاب المبين ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف: الآيات ٤٦-٥٦].

يذكر تعالى إرساله عبده الكليم الكريم إلى فرعون الخسيس اللئيم وأنه تعالى أيّد رسوله بآيات بيّنات واضحات تستحق أن تقابل بالتعظيم والتصديق، وأن يرتدعوا عمّا هم فيه من الكفر، ويرجعوا إلى الحق والصراط المستقيم، فإذا هم منها يضحكون، وبها يستهزئون، وعن سبيل الله يصدون، وعن الحق يصدون، فأرسل الله عليهم الآيات تترى، يتبع بعضها بعضاً، وكل آية أكبر من التي تتلوها لأن التوكيد أبلغ مما قبله ﴿وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ لم يكن لفظ الساحر في زمنهم نقصاً ولا عيباً لأن علماءهم في ذلك الوقت هم السحرة ولهذا خاطبوه به في حال احتياجهم إليه وضراعتهم لديه قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ثم أخبر تعالى عن تبجّح فرعون بمُلكه وعظمة بلده وحسنها وتخرق الأنهار فيها. وهي الخلجانات التي

يكسرونها أمام زيادة النيل. ثم تبجّح بنفسه وحليته وأخذ يتنقّص رسول الله موسى عليه السلام ويزدريه بكونه ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾ يعني كلامه بسبب ما كان في لسانه من بقية تلك اللثغة التي هي شرف له وكمال وجمال، ولم تكن مانعة له أن كلّمه الله تعالى وأوحى إليه، وأنزل بعد ذلك التوراة عليه، وتنقّصه فرعون لعنه الله بكونه لا أساور في بدنه ولا زينة عليه، وإنما ذلك من حلية النساء لا يليق بشهامة الرجال، فكيف بالرسل الذين هم أكمل عقلاً وأتم معرفة وأعلى همة وأزهد في الدنيا وأعلم بما أعد الله لأوليائه في الأخرى.

وقوله: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣﴾ لا يحتاج الأمر إلى ذلك، إن كان المراد أن تعظّمه الملائكة فالملائكة يعظّمون ويتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير، كما جاء في الحديث: «إِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا بِطَالِبِ العِلْمِ رِضًى بِمَا يَصْنَعُ»[١]. فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكليم عليه الصلاة والتسليم والتكريم. وإن كان المراد شهادتهم له بالرسالة فقد أيّد من المعجزات بما يدلّ قطعاً لذوي الألباب، ولمن قصد إلى الحق والصواب، ويعمى عما جاء به من البينات والحجج الواضحات، من نظر إلى القشور، وترك لب اللباب، وطبع على قلبه رب الأرباب، وختم عليه بما فيه من الشك والارتياب، كما هو حال فرعون القبطي العمي الكذّاب، قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي استخف عقولهم ودرجهم من حال إلى حال إلى أن صدّقوه في دعواه الربوبية لعنه الله وقبحهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٥٤ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي أغضبونا ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي بالغرق والإهانة وسلب العزّ والتبدّل بالذلّ، وبالعذاب بعد النعمة، والهوان بعد الرفاهية، والنار بعد طيب العيش عياذاً بالله العظيم، وسلطانه القديم من ذلك ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ أي لمن اتبعهم في الصفات ﴿وَمَثَلًا﴾ أي لمن اتعظ بهم وخاف من وبيل مصرعهم ممن بلغه جليّة خبرهم، وما كان من أمرهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٦ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٣٧﴾ [القصص: الآيتان ٣٦ ـ ٣٧]. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣٨ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝٤١ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ۝٤٢﴾ [القصص: الآيات ٣٨ ـ ٤٢].

يخبر تعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق وادّعى ملكهم الباطل ووافقوه عليه وأطاعوه فيه، اشتد غضب الربُّ القدير العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع عليهم، فانتقم منهم أشدّ الانتقام، وأغرقه هو وجنوده في صبيحة واحدة، فلم يفلت منهم أحد ولم يبق منهم ديار، بل

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٢٤١.

كل قد غرق فدخل النار، وأتبعوا في هذه الدار لعنة بين العالمين. ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ويوم القيامة هم من المقبوحين.

[ذكر][١] هلاك فرعون وجنوده

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم، متابعة لملكهم فرعون، ومخالفة لنبي الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام، وأقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة، وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحيّر العقول، وهم مع ذلك لا يرعوون ولا ينتهون ولا ينزعون ولا يرجعون، ولم يؤمن منهم إلاّ القليل، قيل: ثلاثة وهم امرأة فرعون، ولا علم لأهل الكتاب بخبرها، ومؤمن آل فرعون الذي تقدّم حكاية موعظته ومشورته وحجّته عليهم، والرجل الناصح الذي جاء يسعى من أقصى المدينة، فقال: يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين قاله ابن عبّاس فيما رواه ابن أبي حاتم عنه، ومراده غير السّحرة فإنهم كانوا من القبط.

وقيل: بل آمن طائفة من القبط من قوم فرعون والسّحرة كلّهم وجميع شعب بني إسرائيل. ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس: ٨٣] فالضمير في قوله: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ عائد على فرعون لأن السياق يدل عليه. وقيل على موسى لقربه، والأول أظهر كما هو مقرّر في التفسير، وإيمانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون وسطوته وجبروته وسلطته ومن ملائهم أن ينموا عليهم إليه فيفتنهم عن دينهم.

قال الله تعالى مخبراً عن فرعون وكفى بالله شهيداً ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي جبّار عنيد مستعل بغير الحق ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي في جميع أموره وشئونه وأحواله، ولكنّه جرثومة قد حان انجعافها[٢]، وثمرة خبيثة قد آن قطافها، ومهجة ملعونة قد حتم إتلافها.

وعند ذلك قال موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس: الآيات ٨٤ـ ٨٦] يأمرهم بالتوكّل على الله والاستعانة به والالتجاء إليه، فأتمروا بذلك فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجاً ومخرجاً. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس: الآية ٨٧] أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذوا لقومهما بيوتاً متميزة فيما بينهم عن بيوت القبط، ليكونوا على أهبة في الرحيل إذا أمروا به، ليعرف بعضهم بيوت بعض وقوله: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قيل مساجد، وقيل معناه كثرة الصلاة فيها، قاله مجاهد وأبو مالك وإبراهيم النّخعي والربيعُ والضّحّاكُ وزيدَ بن أسلم وابنه عبد الرحمن وغيرهم. ومعناه على هذا الاستعانة على ما هم فيه

---

(١) سقط في ط.
(٢) جعف: صرع.

من الضرّ والشدّة والضيق بكثرة الصلاة كما قال تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: الآية ١٥٣] وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلّى. وقيل: معناه أنهم لم يكونوا حينئذٍ يقدرون على إظهار عبادتهم في مجتمعاتهم ومعابدهم فأمروا أن يصلوا في بيوتهم عوضاً عما فاتهم من إظهار شرائع[1] الدين الحق في ذلك الزمان الذي اقتضى حلهم إخفاءه خوفاً من فرعون وملائه. والمعنى الأول أقوى لقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ وإن كان لا ينافي الثاني أيضاً والله أعلم.

وقال سعيد بن جُبَير ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي متقابلة ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: الآيتان ٨٨ـ ٨٩].

هذه دعوة عظيمة دعا بها كليم الله موسى على عدو الله فرعون غضباً لله عليه لتكبّره عن اتباع الحقّ، وصدّه عن سبيل الله، ومعاندته وعتوه وتمرده واستمراره على الباطل، ومكابرته الحق الواضح الجلي الحسي والمعنوي، والبرهان القطعي فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾ يعني قومه من القبط ومن كان على ملتّه ودان بدينه ﴿زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ أي وهذا يغترّ به من يعظّم أمر الدنيا، فيحسب الجاهل أنهم على شيء لكون هذه الأموال وهذه الزينة من اللباس والمراكب الحسنة الهنية والدور الأنيقة والقصور المبنية والمآكل الشهية والمناظر البهية والملك العزيز والتمكين والجاه العريض في الدنيا لا الدين ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد أي أهلكها، وقال أبو العالية والربيع بن أنس والضحّاك اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت وقال قتادة بلغنا أن زروعهم صارت حجارة.

وقال محمد بن كعب جعل سكرهم حجارة، وقال أيضاً صارت أموالهم كلها حجارة. ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له قم ايتني بكيس، فجاءه بكيس فإذا فيه حمص وبيض قد حول حجارة. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ قال ابن عبّاس أي اطبع عليها وهذه دعوة غضب لله تعالى ولدينه ولبراهينه فاستجاب الله تعالى لها وحقّقها وتقبّلها، كما استجاب لنوح في قومه حيث قال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: الآية ٢٦ ـ ٢٧] ولهذا قال تعالى مخاطباً لموسى حين دعا على فرعون وملائه وأمن أخوه هارون على دعائه، فنزل ذلك منزلة الداعي أيضاً: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: الآية ٨٩].

قال المفسّرون وغيرهم من أهل الكتاب استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج إلى عيد لهم فأذِنَ لهم وهو كاره، ولكنهم تجهّزوا للخروج وتأهّبوا له، وإنما كان في نفس الأمر مكيدة بفرعون وجنوده ليتخلّصوا منهم، ويخرجوا عنهم، وأمرهم الله تعالى فيما ذكره أهل الكتاب أن

---

(١) في ط: شعار.

يستعيروا حلياً منهم، فأعاروهم شيئاً كثيراً، فخرجوا بليل فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم طالبين بلاد الشام. فلما علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق، واشتدّ غضبه عليهم، وشرع في استحثاث جيشه وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦٨﴾ [الشعراء: الآيات ٥٢ ـ ٦٨] قال علماء التفسير لمّا ركب فرعون في جنوده طالباً بني إسرائيل يقفو أثرهم كان في جيش كثيف عرمرم حتى قيل كان في خيوله مائة ألف فحل أدهم، وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستمائة ألف فالله أعلم. وقيل إن بني إسرائيل كانوا نحواً من ستمائة ألف مقاتل غير الذرية وكان بين خروجهم من مصر صحبة موسى عليه السلام ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنة وستا وعشرين سنة شمسية.

والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود فأدركهم عند شروق الشمس، وتراءى الجمعان، ولم يبق ثَمّ ريب ولا لبس، وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه، ولم يبق إلاّ المقاتلة والمجادلة والمحاماة، فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون إِنّا لَمُدْرَكُون، وذلك لأنهم اضطروا في طريقهم إلى البحر، فليس لهم طريق ولا محيد إلاّ سلوكه وخوضه. وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه، والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم وهي شاهقة منيفة، وفرعون قد غالقهم وواجههم، وعاينوه في جنوده وجيوشه وعَدَدِه وعُدَدِه وهم مسنة في غاية الخوف والذعر لما قاسوا في سلطانه من الإهانة والمنكر، فشكوا إلى نبي الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه، فقال لهم الرسول الصادق المصدوق «كَلاّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ».

وكان في الساقة فتقدّم إلى المقدّمة، ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه ويتزايد زبد أجاجه، وهو يقول ههنا أمرت ومعه أخوه هارون ويوشع بن نون، وهو يومئذٍ من سادات بني إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار، وقد أوحى الله إليه وجعله نبياً بعد موسى وهارون عليهما السلام كما سنذكره فيما بعد إن شاء الله. ومعهم أيضاً مؤمن آل فرعون وهم وقوف، وبنو إسرائيل بكمالهم عليهم عكوف. ويقال: إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم بفرسه مراراً في البحر هل يمكن سلوكه فلا يمكن، ويقول لموسى عليه السلام يا نبي الله أههنا أمرت. فيقول نعم. فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر واقترب فرعون وجنوده في جدّهم وحدّهم وحديدهم وغضبهم وحنقهم، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، فعند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير ربّ العرش الكريم إلى موسى الكليم ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ﴾ فلما ضربه به يقال إنه قال له انفلق بإذن الله، ويقال: إنه كناه بأبي خلد فالله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: الآية ٦٣] ويقال إنه انفلق اثنتي عشرة طريقاً لكل سبط طريق يسيرون فيه، حتى قيل إنه صار أيضاً شبابيك ليرى بعضهم بعضاً، وفي هذا نظر لأن الماء جرم شفاف إذا كان من ورائه ضياء حكاه. وهكذا كان ماء البحر قائماً مثل الجبال مكفوفاً بالقدرة العظيمة الصادرة من الذي يقول للشيء كن فيكون، وأمر الله ريح الدبور[1] فلفحت حال البحر فأذهبته حتى صار يابساً لا يعلق في سنابك الخيول والدواب.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: الآيات ٧٧ ـ ٧٩] والمقصود أنه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال بإذن الربّ العظيم الشديد المحال، أمر موسى عليه السلام أن يجاوزه ببني إسرائيل، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين، وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحيّر الناظرين، ويهدي قلوب المؤمنين، فلما جاوزوه وجاوزه وخرج آخرهم منه، وانفصلوا عنه، كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ووفودهم عليه، فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه. ولا سبيل عليه، فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال كما قال، وهو الصادق في المقال ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الدخان: الآيات ١٧ ـ ٣٣] فقوله تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي ساكناً على هيئته، لا تغيره عن هذه الصّفة. قاله عبد الله بن عبّاس ومجاهد وعِكْرِمَةُ والرَّبِيعُ والضحّاك وقَتَادَةُ وكعبُ الأحبار وسَمّاكُ بن حرب وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم.

فلما تركه على هيئته وحالته وانتهى فرعون، فرأى ما رأى وعاين ما عاين هاله هذا المنظر العظيم، وتحقّق ما كان يتحقّقه قبل ذلك من أن هذا من فعل ربّ العرش الكريم، فأحجم ولم يتقدّم، وندم في نفسه على خروجه في طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم، لكنه أظهر لجنوده تجلّداً وعاملهم معاملة العدا، وحملته النفس الكافرة والسجيّة الفاجرة على أن قال لمن استخفّهم فأطاعوه، وعلى باطله تابعوه، انظروا كيف انحسر البحر لي لأدرك عبيدي الآبقين[2] من يدي، الخارجين عن طاعتي وبلدي، وجعل يوري في نفسه أن يذهب خلفهم، ويرجو أن

(١) ريح الدبور: الريح الغربية.
(٢) الآبقين: الفارين.

ينجو وهيهات، ويقدم تارة ويحجم تارات. فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدى في صورة فارس راكب على رمكة[١] حايل فمرّ بين يدي فحل فرعون لعنه الله، فحمحم إليها وأقبل عليها، وأسرع جبريل بين يديه فاقتحم البحر واستبق الجواد، وقد أجاد فبادر مسرعاً، هذا وفرعون لا يملك من نفسه ضراً ولا نفعاً، فلما رأته الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين، فحصلوا في البحر أجمعين أكتعين أبصعين، حتى همّ أولهم بالخروج منه، فعند ذلك أمر الله تعالى كليمه فيم أوحاه إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فارتطم عليهم البحر كما كان، فلم ينج منهم إنسان، قال الله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء: الآيات ٦٥ـ ٦٨] أي في إنجائه أولياءه فلم يغرق منهم أحد، وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد، آية عظيمة وبرهان قاطع على قدرته تعالى العظيمة، وصدق رسوله فيما جاء به عن ربّه من الشريعة الكريمة والمناهج المستقيمة، وقال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: الآيات ٩٠ـ ٩٢].

يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفرة القبط، وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة وترفعه أخرى، وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده ماذا أحلّ الله به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم، ليكون أقرّ لأعين بني إسرائيل وأشفى لنفوسهم، فلما عاين فرعون الهلكة، وأحيط به وباشر سكرات الموت، أناب حينئذٍ وتاب وآمن حين لا ينفع نفساً إيمانها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: الآية ٩٧] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: الآيتان ٨٤ـ ٨٥] وهكذا دعا موسى على فرعون وملائه أن يطمس[٢] على أموالهم ويشدد على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم أي حين لا ينفعهم ذلك ويكون حسرة عليهم، وقد قال تعالى لهما أي لموسى وهارون حين دعوا بهذا: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: الآية ٨٩] فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليمه وأخيه هارون عليهما السلام.

ومن ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ لمّا قال فرعون: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: الآية ٩٠] قال: «قال لي جبريل لو رأيتني وقد أخذت من حال البحر فدسسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة»[٣].

ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم عند هذه الآية من حديث حمّاد بن سَلَمَة وقال

---

(١) رمكة: الفرس أو البرذون تتخذ للنسل. (٢) طمس على أموالهم: أهلكها.

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن، باب ١١، من سورة يونس، وأحمد في المسند ١/٣٠٩.

الترمذي حديث حسن.

وقال أبو داود الطَيَالسي حدثنا شعبة عن عَدِي بن ثابت وعطاء بن السّائِب عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ لِي جِبْرِيلُ لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا آخِذٌ مِنْ حَالِ البَحْرِ فَأَدُسُّهُ فِي فَمِ فِرْعَوْنَ مَخَافَةَ أَنْ يَنَالَهُ الرَّحْمَةُ»(١).

ورواه الترمذي وابن جرير من حديث شُعْبَةَ. وقال الترمذي: حسن غريب صحيح وأشار ابن جرير في رواية إلى وقفه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ حدثنا أبو خالد الأحمر عن عمر بن عبد الله بن يَعْلَى الثَّقَفِي عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس قال لما أغرق الله فرعون أشار بإصبعه ورفع صوته ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه، فجعل يأخذ الحال بجناحيه فيضرب به وجهه فيرمسه.

ورواه ابن جرير من حديث أبي خالد به. وقد رواه ابن جرير من طريق كثير بن زَاذَانَ وليس بمعروف وعن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ قَالَ لِي جِبْرِيلُ يَا مُحَمَّدُ لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَغُطُّهُ وَأَدُسُّ مِنَ الحَالِ فِي فِيهِ مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ رَحْمَةُ اللَّهِ فَيَغْفِرَ لَهُ». يعني فرعون. وقد أرسله غير واحد من السلف كإبراهيم التَّيْمِي وقتادةُ وَمَيْمُونُ بْنُ مَهْرَانَ، ويقال إن الضَحّاكَ بن قيس خطب به الناس.

وفي بعض الروايات إن جبريل قال: ما بغضت أحداً بغضي لفرعون حين قال أنا ربّكم الأعلى، ولقد جعلت أدس في فيه الطين حين قال ما قال.

وقوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾ [يونس: الآية ٩١] استفهام إنكار ونصّ على عدم قبوله تعالى منه ذلك لأنه والله أعلم لو ردّ إلى الدنيا كما كان، لعاد إلى ما كان عليه، كما أخبر تعالى عن الكفّار إذا عاينوا النار، وشاهدوها أنهم يقولون: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٧﴾ [الأنعام: الآية ٢٧] قال الله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٢٨﴾ [الأنعام: الآية ٢٨] وقوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ [يونس: الآية ٩٢].

قال ابن عبّاس وغير واحد شكّ بعض بني إسرائيل في موت فرعون، حتى قال بعضهم إنه لا يموت، فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع. قيل على وجه الماء، وقيل على نجوة من الأرض، وعليه درعه التي يعرفونها من ملابسه، ليتحقّقوا بذلك هلاكه ويعلموا قدرة الله عليه. ولهذا قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي مصاحباً درعك المعروفة بك ﴿لِتَكُونَ﴾ أي أنت آية ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ أي من بني إسرائيل، دليلاً على قدرة الله الذي أهلكه. ولهذا قرأ بعض السلف لتكون لمن خَلَقَكَ آية(٢). ويحتمل أن يكون المراد ننجيك مصاحباً لتكون درعك علامة لمن وراءك من بني

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن، باب ١١، من سورة يونس.
(٢) بالقاف: أي ولتكون لخالقك آية كسائر آياته.

إسرائيل على معرفتك، وإنك هلكت والله أعلم. وقد كان هلاكه وجنوده في يوم عاشوراء. كما قال الإمام البخاري في صحيحه: حدثنا محمد بن بشار حدثنا غُنْدُر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس قال قدم النبي ﷺ المدينة، واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقالوا هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، قال النبي ﷺ: «أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْهُمْ فَصُومُوا»[1]. وأصل هذا الحديث في الصحيحين وغيرهما والله أعلم.

[فصل فيما كان من][2] أمر بني إسرائيل بعد هلاك فرعون

قال الله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٣٦ - ١٤١] يذكر تعالى ما كان من أمر فرعون وجنوده في غرقهم وكيف سلبهم عزهم ومالهم وأنفسهم، وأورث بني إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم، كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: الآية ٥٩].

وقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص: الآية ٥] وقال ههنا: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٣٧] أي أهلك ذلك جميعه وسلبهم عزهم العزيز العريض في الدنيا وهلك الملك وحاشيته وأمراؤه وجنوده ولم يبقى ببلد مصر سوى العامة والرعايا. فذكر ابن عبد الحكم في تاريخ مصر أنه من ذلك الزمان تسلّط نساء مصر على رجالها بسبب أن نساء الأمراء والكبراء تزوّجْنَ بمن دونهن من العامة فكانت لهنّ السطوة عليهم واستمرت هذه سنة نساء مصر إلى يومك هذا.

وعند أهل الكتاب أن بني إسرائيل لما أُمروا بالخروج من مصر جعل الله ذلك الشهر أول سنتهم وأمروا أن يذبح كل أهل بيت حملاً من الغنم، فإن كانوا لا يحتاجون إلى حمل فليشترك الجار وجاره فيه فإذا ذبحوه فلينضحوا[3] من دمه على أعتاب أبوابهم ليكون علامة لهم على

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ١٠، ومسلم في الصيام، حديث ١٢٧ وأحمد في المسند ١/ ٣٤٠.
(٢) ما بين المعقوفين سقط من ط.
(٣) نضح: رش.

بيوتهم ولا يأكلونه مطبوخاً ولكن مشوياً برأسه وأكارعه وبطنه ولا يبقوا منه شيئاً ولا يكسروا له عظماً ولا يخرجوا منه شيئاً إلى خارج بيوتهم، وليكن خبزهم فطيراً سبعة أيام ابتداؤها من الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم وكان ذلك في فصل الربيع، فإذا أكلوا فلتكن أوساطهم مشدودة وخفافهم في أرجلهم وعصيهم في أيديهم، وليأكلوا بسرعة قياماً. ومهما فضل عن عشائهم فما بقي إلى الغد فليحرقوه بالنار وشرع لهم هذا عيداً لأعقابهم ما دامت التوراة معمولاً بها، فإذا نسخت بطل شرعها وقد وقع. قالوا: وقتل الله عزّ وجلّ في تلك الليلة أبكار القبط، وأبكار دوابهم، ليشتغلوا عنهم، وخرج بنو إسرائيل حين انتصف النهار وأهل مصر في مناحة عظيمة على أبكار أولادهم، وأبكار أموالهم، ليس من بيت إلاّ وفيه عويل. وحين جاء الوحي إلى موسى خرجوا مسرعين، فحملوا العجين قبل اختماره وحملوا الأزواد في الأردية وألقوها على عواتقهم. وكانوا قد استعاروا من أهل مصر حلياً كثيراً، فخرجوا وهم ستمائة ألف رجل سوى الذراري[1] بما معهم من الأنعام، وكانت مدّة مقامهم بمصر أربعمائة سنة وثلاثين سنة. هذا نصّ كتابهم.

وهذه السنة عندهم تسمى سنة الفسخ وهذا العيد عيد الفسخ. ولهم عيد الفطير، وعيد الحمل، وهو أول السنة. وهذه الأعياد الثلاثة آكد أعيادهم منصوص عليها في كتابهم. ولما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام، وخرجوا على طريق بحر سوف. وكانوا في النهار يسيرون والسحاب بين أيديهم يسير أمامهم فيه عامود نور، وبالليل أمامهم عامود نار، فانتهى بهم الطريق إلى ساحل البحر فنزلوا هنالك وأدركهم فرعون وجنوده من المصريين، وهم هناك حلول على شاطىء اليم فقلق كثير من بني إسرائيل حتى قال قائلهم كان بقاؤنا بمصر أحبّ إلينا من الموت بهذه البرية. وقال موسى عليه السلام لمن قال هذه المقالة: لا تخشوا فإن فرعون وجنوده لا يرجعون إلى بلدهم بعد هذا. قالوا: وأمر الله موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه، وأن يقسمه ليدخل بنو إسرائيل في البحر واليبس. وصار الماء من ههنا وههنا كالجبلين، وصار وسطه يبساً، لأن الله سلّط عليه ريح الجنوب والسّموم، فجاز بنو إسرائيل البحر، واتبعهم فرعون وجنوده فلمّا توسطوه، أمر الله موسى فضرب البحر بعصاه فرجع الماء كما كان عليهم. لكن عند أهل الكتاب أن هذا كان في الليل، وأن البحر ارتطم عليهم عند الصبح وهذا من غلطهم وعدم فهمهم في تعريبهم والله أعلم.

قالوا: ولما أغرق الله فرعون وجنوده حينئذٍ سبّح موسى وبنو إسرائيل بهذا التسبيح للربّ وقالوا: نسبّح الربّ البهي الذي قهر الجنود، ونبذ فرسانها في البحر المنيع المحمود وهو تسبيح طويل. قالوا وأخذت مريمُ النّبيّة أخت هارون دَفّاً بيدها، وخرج النساء في أثرها كلهّنّ بدفوف وطبول، وجعلت مريم ترتّل لهنّ وتقول سبحان الربّ القهّار الذي قهر الخيول وركبانها إلقاء في البحر، هكذا رأيته في كتابهم.

---

(١) الذراري: النساء.

ولعلّ هذا هو من الذي حمل محمد بن كعب القُرظي على زعمه أن مريم بنت عمران أم عيسى هي أخت هارون، وموسى مع قوله: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾. وقد بيّنا غلطه في ذلك، وإن هذا لا يمكن أن يقال، ولم يتابعه أحد عليه، بل كل واحد خالفه فيه، ولو قدّر أن هذا محفوظ فهذه مريم بنت عمران أخت موسى وهارون عليهما السلام، وأم عيسى عليها السلام وافقتها في الاسم واسم الأب واسم الأخ لأنهم كما قال رسول الله ﷺ لِلْمُغِيرَةِ بن شُعْبَةَ لما سأله أهل نجران عن قوله ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ فلم يدر ما يقول لهم حتى سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَسْمَاءِ أَنْبِيَائِهِمْ»(١) رواه مسلم.

وقولهم النبيّة كما يقال للمرأة من بيت الملك ملكة ومن بيت الأمرة أميرة وإن لم تكن مباشرة شيئاً من ذلك، فكذا هذه استعارة لها لا أنها نبيّة حقيقة يوحى إليها. وضربها بالدف في مثل هذا اليوم الذي هو أعظم الأعياد عندهم دليل على أنه قد كان شرع من قبلنا ضرب الدف في العيد. وهذا مشروع لنا أيضاً في حق النساء، لحديث الجاريتين اللتين كانتا عند عائشة يضربان بالدف في أيام منى ورسول الله ﷺ مضطجع مولى ظهره إليهم، ووجهه إلى الحائط، فلمّا دخل أبو بكر زجرهن(٢) وقال: أَبِمَزْمُورِ الشَّيْطَانِ في بيت رسول الله ﷺ! فقال: «دَعْهُنَّ يَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيداً وَهَذَا عِيدُنَا»(٣). وهكذا يشرع عندنا في الأعراس ولقدوم الغياب، كما هو مقرّر في موضعه والله أعلم.

وذكروا أنهم لما جاوزوا البحر وذهبوا قاصدين إلى بلاد الشام مكثوا ثلاثة أيام لا يجدون ماء، فتكلّم من تكلّم منهم بسبب ذلك فوجدوا ماء زعاقاً أجاجاً(٤) لم يستطيعوا شربه، فأمر الله موسى فأخذ خشبة فوضعها فيه فحلا وساغ شربه، وعلّمه الرب هنالك فرائض وسنناً، ووصّاه وصايا كثيرة. وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز المهيمن على ما عداه من الكتب ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ۝١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٣٩﴾ [الأعراف: الآيتان ١٣٨-١٣٩].

قالوا: هذا الجهل والضلال وقد عاينوا من آيات الله وقدرته ما دلّهم على صدق ما جاءهم به رسول ذي الجلال والإكرام، وذلك أنهم مرّوا على قوم يعبدون أصناماً قيل كانت على صور البقر، فكأنهم سألوهم لِمَ يعبدونها فزعموا لهم أنها تنفعهم وتضرّهم ويسترزقون بها عند الضرورات، فكأن بعض الجهّال منهم صدّقوهم في ذلك، فسألوا نبيّهم الكليم الكريم العظيم، أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة، فقال لهم مبيّناً لهم أنهم لا يعقلون ولا يهتدون: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٣٩﴾. ثم ذكّرهم نعمة الله عليهم في تفضيله إياهم على

(١) أخرجه مسلم في الآداب، حديث ٩.
(٢) زجر: صاح وصرخ.
(٣) أخرجه البخاري في العيدين باب ٣، وأحمد في المسند ٦/١٨٦، ١٨٧.
(٤) زعاقاً أجاجاً: الماء المر لا يطاق شربه.

عالمي زمانهم بالعلم والشرع، والرسول الذي بين أظهرهم وما أحسن به إليهم وما أمتنّ به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبّار العنيد وإهلاكه إياه وهم ينظرون، وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملأه يجمعونه من الأموال والسعادة، وما كانوا يعرشون، وبيّن لهم أنه لا تصلح العبادة إلاّ لله وحده لا شريك له لأنه الخالق الرازق القهّار، وليس كل بني إسرائيل سأل هذا السؤال، بل هذا الضمير عائد على الجنس في قوله: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ أي قال بعضهم كما في قوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف: الآيتان ٤٧ـ ٤٨] فالذين زعموا هذا بعض الناس لا كلّهم.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرٍ عن الزُّهْرِي عن سِنَانٍ بن أبي سِنَانٍ الدِّيلي عن أبي وَاقِدٍ اللَّيْثِي، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة[١] فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفّار ذات أنواط، وكان الكفّار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها، فقال نبيّ الله ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُوا إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ إِنَّكُمْ تَرْكَبُونَ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ»[٢].

ورواه النسائي عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به.

ورواه الترمذي عن سعيد بن عبد الرحمن المَخْزُومِي عن سفيان بن عُيَيْنَة عن الزُّهْرِيّ به. ثم قال حسن صحيح.

وقد روى ابن جرير من حديث محمد بن إسحاق ومعمر وعَقِيل عن الزُّهريّ عن سنان بن أبي سنان عن أبي وَاقِدٍ اللَّيْثِي أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى خَيْبَر قال: وكان للكفّار سدرة يعكفون عندها، ويعلّقون بها أسلحتهم، يقال لها ذات أنواط، قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، قال: فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، قال: «قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾». والمقصود أن موسى عليه السلام لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قوماً من الجبّارين من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم، فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم وإجلائهم إياهم عن بيت المقدس، فإن الله كتبه لهم، ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل وموسى الكليم الجليل، فأبوا ونكلوا عن الجهاد فسلّط الله عليهم الخوف وألقاهم في التيه[٣] يسيرون ويحلّون ويرتحلون، ويذهبون ويجيئون في مدة من السنين طويلة هي من العدد أربعون كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ

---

(١) السدرة: شجرة النبق.

(٢) أخرجه الترمذي في الفتن، باب ١٨، والنسائي في التفسير، حديث ١١، وأحمد في المسند ٥/٢١٨.

(٣) التيه: المفازة.

وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: الآيات ٢٠ـ٢٦].

يذكرهم نبيّ الله نعمة الله عليهم إحسانه عليهم بالنعم الدينية والدنيوية، ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله ومقاتلة أعدائه، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ أي تنكصوا[1] على أعقابكم وتنكلوا على قتال أعدائكم ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ أي فتخسروا بعد الربح وتنقصوا بعد الكمال ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ أي عتاة كفرة متمرّدين ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ خافوا من هؤلاء الجبارين وقد عاينوا هلاك فرعون وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأساً وأكثر جمعاً وأعظم جنداً، وهذا يدلّ على أنهم ملومون في هذه المقالة، ومذمومون على هذه الحالة، من الذلة عن مصاولة الأعداء، ومقاومة المردة الأشقياء.

وقد ذكر كثير من المفسّرين ههنا آثاراً فيها مجازفات كثيرة باطلة، يدل العقل والنقل على خلافها من أنهم كانوا أشكالاً هائلة ضخاماً جداً، حتى أنهم ذكروا أن رسل بني إسرائيل لما قدموا عليهم تلقّاهم رجل من رسل الجبارين فجعل يأخذهم واحداً واحداً، ويلفّهم في أكمامه وحجرة سراويله. وهم اثنا عشر رجلاً، فجاء بهم فنثرهم بين يدي ملك الجبّارين فقال: ما هؤلاء؟ ولم يعرف أنهم من بني آدم حتى عرّفوه، وكل هذه هذيانات وخرافات لا حقيقة لها، وأن الملك بعث معهم عنباً كل عنبة تكفي الرجل وشيئاً من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم، وهذا ليس بصحيح. وذكروا ههنا أن عوج بن عنق خرج من عند الجبّارين إلى بني إسرائيل ليهلكهم، وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع هكذا ذكره البغوي وغيره، وليس بصحيح كما قدّمنا بيانه عند قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعاً ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ»[2]، قالوا: فعمد عوج إلى قمة جبل فاقتلعها ثم أخذها بيديه ليلقيها على جيش موسى فجاء طائر فنقر تلك الصخرة فخرقها فصارت طوقاً في عُنُقِ عوج بن عنق. ثم عمد موسى إليه فوثب في الهواء عشرة أذرع وطوله عشرة أذرع، وبيده عصاه وطولها عشرة أذرع فوصل إلى كعب قدمه فقتله.

يروى هذا عن نوف[3] البِكَالِي، ونقله ابن جرير عن ابن عبّاس وفي إسناده إليه نظر. ثم

---

(١) نكص: رجع عن الخير.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/٣١٥.
(٣) في ط: عوف، وهو تصحيف والصواب ما في الأصل، ونوف بفتح النون وسكون الواو، والبكالي بكسر الموحدة وتخفيف الكاف مستور.

هو مع هذا كلّه من الإسرائيليات، وكل هذه من وضع جهّال بني إسرائيل، فإن الأخبار الكاذبة قد كثرت عندهم، ولا تميّز لهم بين صحتها وباطلها. ثم لو كان هذا صحيحاً لكان بنو إسرائيل معذورين في النكول[1] عن قتالهم، وقد ذمّهم الله على نكولهم وعاقبهم بالتيه على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم، وقد أشار عليهم رجلان صالحان منهم بالإقدام ونهياهم عن الإحجام. ويقال: إنهما يوشع بن نون وكالب بن يوقنا قاله ابن عبّاس ومجاهد وعِكرِمَةُ وعَطِيَّةُ والسّدّيّ والربيع بن أنس وغير واحد ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي يخافون الله، وقرأ بعضهم يُخافون أي يُهابون ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أي بالإسلام والإيمان والطاعة والشجاعة ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ أي إذا توكلتم على الله واستعنتم به ولجأتم إليه نصركم على عدوكم وأيدكم عليهم وأظفركم بهم. ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فصمّم ملاؤهم على النكول عن الجهاد، ووقع أمر عظيم ووهن كبير. فيقال إن يوشع وكالب لمّا سمعا هذا الكلام فتقا[2] ثيابهما، وإن موسى وهارون سجدا إعظاماً لهذا الكلام، وغضباً لله عزّ وجلّ، وشفقة عليهم من وبيل هذه المقالة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ قال ابن عبّاس اقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ. ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ عوقبوا على نكولهم بالتيهان في الأرض يسيرون إلى غير مقصد ليلاً ونهاراً وصباحاً ومساءً، ويقال إنه لم يخرج أحد من التيه ممن دخله بل ماتوا كلّهم في مدة أربعين سنة، ولم يبق من ذراريهم سوى يوشع وكالب عليهما السلام. لكن أصحاب محمد ﷺ يوم بدر لم يقولوا له كما قال أصحاب[3] موسى لموسى بل لما استشارهم في الذهاب إلى النفير تكلّم الصدّيق فأحسن وغيره من المهاجرين، ثم جعل يقول أشيروا عليّ حتى قال سعد بن معاذ كأنك تُعرّض بنا يا رسول الله فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلّف منّا رجل واحد، وما نَكْرَه أن يلقى بنا عدونا غداً إنا لصُبُرٌ في الحرب صُدُقٌ في اللقاءِ لعلّ الله يريك منّا تقرّبه عينك. فَسِرْ بنا على بركة الله. فسُرّ رسول الله ﷺ بقول سعد وبسطه ذلك. وقال الإمام أحمد: حدثنا وَكيعٌ، حدثنا سفيان عن مُخارق بن عبد الله الأحْمَسِي عن طارق هو ابن شِهَابٍ أن المقدادَ قال لرسول الله ﷺ يوم بدر «يا رسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون»[4]. وهذا إسناد جيد من هذا الوجه وله طرق أخرى. قال أحمد حدثنا أَسْوَدُ بن عامر حدثنا إسرائيل عن مُخَارِقٍ عن طارِق بن شِهَابٍ قال: قال عبد الله بن مسعود لقد شهدت من المقدادِ مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحبّ إليّ مما عدل به أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين، قال: والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾

---

(١) نكل: نكص وجبن.
(٢) في ط: شقا. ومعناهما واحد.
(٣) في ط: قوم، ومعناهما واحد.
(٤) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٣١٤.

ولكنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك، وسرّ بذلك[١]. رواه البخاري في التفسير والمغازي من طرق عن مخارق به.

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدَوَيْهِ: حدثنا علي بن الحسن بن علي، حدثنا أبو حاتم الرّازي حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري حدثنا، حَمِيد عن أنس أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بَدْر استشار المسلمين فأشار عليه عُمَر ثم استشارهم فقالت الأنصار يا معشر الأنصار أيكم[٢] يريد رسول الله ﷺ قالوا إذاً لا نقول له كما قالت[٣] بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ۝٢٤﴾ والذي بعثك بالحق إن ضربت أكبادها إلى برك الغماد[٤] لاتبعناك[٥]، رواه الإمام أحمد عن عبيدة بن حميد عن حميد الطويل عن أنس به.

ورواه النسائي عن محمد بن المثنى عن خالد بن الحارث عن حميد عن أنس به نحوه وأخرجه ابن حِبّان في صحيحه عن أبي يعلى عن عبد الأعلى بن حمّاد عن مُعْتَمِرٍ عن حَمِيدٍ عن أنس به نحوه.

[فصل في][٦] دخول بني إسرائيل التيه وما جرى [لهم][٧] فيه من الأمور العجيبة

قد ذكرنا نكول بني إسرائيل عن قتال الجبّارين، وأن الله تعالى عاقبهم بالتيه، وحكم بأنهم لا يخرجون منه إلى أربعين سنة، ولم أرَ في كتاب أهل الكتاب قصّة نكولهم عن قتال الجبّارين، ولكن فيها أن يوشع جهّزه موسى لقتال طائفة من الكفّار، وأن موسى وهارون وخور جلسوا على رأس أكمة، ورفع موسى عصاه فلما[٨] رفعها انتصر يوشع عليهم، وكلّما مالت يده بها من تعب أو نحوه غلبهم أولئك، وجعل هارون وخور يدعمان يديه عن يمينه وشماله ذلك اليوم إلى غروب الشمس، فانتصر حزب يوشع عليه السلام، وعندهم أن يثرون كاهن مَدْيَن، وختن موسى عليه السلام، بلغه ما كان من أمر موسى، وكيف أظفره الله بعدوه فرعون، فقدم على موسى مسلماً ومعه ابنته صفورا زوجة موسى وابناها منه جرشون وعازر فتلقّاه موسى وأكرمه، واجتمع به شيوخ بني إسرائيل وعظّموه وأجلّوه. وذكروا أنه رأى كثرة اجتماع بني إسرائيل على موسى في الخصومات التي تقع بينهم، فأشار على موسى أن يجعل على الناس رجالاً أمناء أتقياء أعِفّاء يبغضون الرشاء والخيانة، فيجعلهم على الناس رؤوس ألوف، ورؤوس مئين، [ورؤوس ستين][٩] ورؤوس خمسين، ورؤوس عشرة، فيقضوا بين الناس فإذا أشكل عليهم أمر جاؤوك

(١) أخرجه البخاري في المغازي باب ٤، والتفسير باب ٤، وأحمد في المسند ١/٣٨٩، ٣٩٠.
(٢) في ط: إياكم.
(٣) في ط: قال.
(٤) برك الغماد: أقصى معمور الأرض.
(٥) أخرجه أحمد في المسند ٣/١٨٨.
(٦) سقط في ط.
(٧) سقط في ط.
(٨) في ط: فكلما.
(٩) سقط في ط.

ففصلت بينهم ما أشكل عليهم، ففعل ذلك موسى عليه السلام. قالوا ودخل بنو إسرائيل البرية عند سيناء في الشهر الثالث من خروجهم من مصر، وكان خروجهم في أول السنة التي شرعت لهم، وهي أول فصل الربيع، فكأنهم دخلوا التيه في أول فصل الصيف والله أعلم.

قالوا: ونزل بنو إسرائيل حول طور سيناء، وصعد موسى الجبل فكلّمه ربّه وأمره أن يذكر بني إسرائيل ما أنعم الله به عليهم من إنجائه إياهم من فرعون وقومه، وكيف حملهم على مثل جناحي نسر من يده وقبضته وأمره أن يأمر بني إسرائيل بأن يتطهّروا ويغتسلوا ويغسلوا ثيابهم وليستعدوا إلى اليوم الثالث فإذا كان في اليوم الثالث فليجتمعوا حول الجبل، ولا يقتربن أحد منهم إليه، فمن دنا منه قتل، حتى ولا شيء من البهائم ما داموا يسمعون صوت القرن، فإذا سكن القرن فقد حلّ لكم أن ترتقوه، فسمع بنوا إسرائيل ذلك وأطاعوا واغتسلوا وتنظّفوا وتطيبوا، فلما كان اليوم الثالث ركب الجبل غمامة عظيمة وفيها أصوات وبروق وصوت الصور شديد جداً، ففزع بنو إسرائيل من ذلك فزعاً شديداً، وخرجوا فقاموا في سفح الجبل وغشي الجبل دخان عظيم في وسطه عمود نور، وتزلزل الجبل كله زلزلة شديدة، واستمرّ صوت الصور وهو البوق، واشتدّ، وموسى عليه السلام فوق الجبل والله يكلّمه ويناجيه، وأمر الربّ عزّ وجلّ موسى أن ينزل، فأمر بني إسرائيل أن يقتربوا من الجبل ليسمعوا وصية الله، ويأمر الأحبار وهم علمائهم أن يدنوا فيصعدوا الجبل ليتقدّموا بالقرب، وهذا نصّ في كتابهم على وقوع النسخ لا محالة، فقال موسى يا رب إنهم لا يستطيعون أن يصعدوه وقد نهيتهم عن ذلك، فأمره الله تعالى أن يذهب فيأتي معه بأخيه هارون، وليكن الكهنة وهم العلماء والشعب وهم بقية بني إسرائيل غير بعيد، ففعل موسى وكلّمه ربّه عزّ وجلّ فأمره حينئذٍ بالعشر كلمات.

وعندهم أن بني إسرائيل سمعوا كلام الله ولكن لم يفهموا حتى فهّمهم موسى، وجعلوا يقولون لموسى بلّغنا أنت عن الربّ عزّ وجلّ، فإنّا نخاف أن نموت، فبلّغهم عنه، فقال هذه العشر الكلمات، وهي الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له. والنهي عن الحلف بالله كاذباً. والأمر بالمحافظة على السبت. ومعناه تفرّغ يوم من الأسبوع للعبادة. وهذا حاصل بيوم الجمعة الذي نسخ الله به السبت. أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض الذي يعطيك الله ربّك. لا تقتل. لا تزن لا تسرق. لا تشهد على صاحبك شهادة زور، لا تمد عينك إلى بيت صاحبك، ولا تشته امرأة صاحبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً من الذي لصاحبك. ومعناه النهي عن الحسد. وقد قال كثير من علماء السلف وغيرهم مضمون هذه العشر الكلمات في آيتين من القرآن وهما قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام الآيات

١٥١ـ١٥٣].

وذكروا بعد العشر الكلمات وصايا كثيرة وأحكاماً متفرقة عزيزة كانت فزالت وعُمِلَ بها حيناً من الدهر. ثم طرأ عليها عصيان من المكلّفين بها، ثم عمدوا إليها فبدّلوها وحرّفوها وأوّلوها. ثم بعد ذلك كلّه سلبوها فصارت منسوخة مبدّلة بعدما كانت مشروعة مكمّلة فللّهِ الأمر من قبل ومن بعد، وهو الذي يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، ألا لَهُ الخَلْقُ والأمر تبارك الله رب العالمين.

وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: الآيات ٨٠ـ ٨٢].

يذكر تعالى منّته وإحسانه إلى بني إسرائيل بما أنجاهم من أعدائهم، وخلّصهم من الضيق والحرج، وأنه وعدهم صحبة نبيّهم [كليمة][1] إلى جانب الطور الأيمن، أي منهم لينزل عليه أحكاماً عظيمة فيها مصلحة لهم في دنياهم وأخراهم، وأنه تعالى أنزل عليهم في حال شدّتهم وضرورتهم في سفرهم في الأرض التي ليس بها[2] زرع ولا ضرع منّاً من السماء، يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم، فيأخذون منه قدر حاجتهم في ذلك اليوم إلى مثله من الغد، ومن ادخر منه لأكثر من ذلك فسد. ومن أخذ منه قليلاً. كفاه، أو كثيراً لم يفضل عنه، فيصنعون منه مثل الخبز وهو في غاية البياض والحلاوة، فإذا كان من آخر النهار غشيهم طير السلوى، فيقتنصون منه بلا كلفة ما يحتاجون إليه حسب كفايتهم لعشاهم. وإذا كان فصل الصيف ظلل الله عليهم الغمام، وهو السحاب الذي يستر عنهم حر الشمس وضوأها الباهر. كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [البقرة: ٤٠ـ ٤١] إلى أن قال: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة: الآيات ٤٩ـ ٥٧] إلى أن قال: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن

(١) سقط في ط.
(٢) في ط: فيها.

رِزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: الآيتان ٦٠ـ ٦١].

فذكر تعالى إنعامه عليهم وإحسانه إليهم بما يسّر لهم من المنّ والسلوى طعامين شهيين بلا كلفة ولا سعي لهم فيه بل ينزّل الله المنّ باكراً، ويرسل عليهم طير السلوى عشياً، وأنبع الماء لهم بضرب موسى عليه السلام حجراً كانوا يحملونه معهم بالعصا، فتفجّر منه اثنا عشرة عيناً لكل سبط[1] عين منه تنبجس[2]. ثم تتفجر ماءً زلالاً فيستقون ويسقون دوابهم ويدخرون كفايتهم. وظلل عليهم الغمام من الحرّ. وهذه نعم من الله عظيمة وعطيات جسيمة فما رعوها حق رعايتها، ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها، ثم ضجر كثير منها وتبرّموا بها، وسألوا أن يستبدلوا منها ببدلها مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها. فقرّعهم الكليم ووبّخهم وأنبّهم على هذه المقالة، وعنفهم قائلاً: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ﴾ أي هذا الذي تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم التي أنتم فيها حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها، وإذا هبطتم إليها أي نزلتم عن هذه المرتبة التي لا تصلحون لمنصبها تجدوا بها ما تشتهون وما ترومون مما ذكرتم من المآكل الدنيّة والأغذية الرديّة ولكني لست أجيبكم إلى سؤال ذلك ههنا، ولا أبلغكم ما تعنتم به من المنى، وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم تدلّ على أنهم لم ينتهوا عمّا نهوا عنه كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه: الآية ٨١] أي فقد هلك وحق له والله الهلاك والدمار وقد حل عليه غضب الملك الجبار ولكنه تعالى مزج هذا الوعيد الشديد بالرجاء لمن أناب وتاب، ولم يستمرّ على متابعة الشيطان المريد فقال: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: الآية ٨٢].

سؤال الرؤية

قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ

(١) السبط: ولد الوالد. (٢) تنبجس: تنشق.

يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٤٢ـ١٤٧].

قال جماعة من السلف منهم ابن عبّاس ومَسْرُوق ومجاهد الثلاثون ليلة هي شهر ذي القعدة بكماله، وأتمت أربعين ليلة بعشر ذي الحجّة، فعلى هذا يكون كلام الله له يوم عيد النحر، وفي مثله أكمل الله عزّ وجلّ لمحمد ﷺ دينه، وأقام حجّته وبراهينه. والمقصود أن موسى عليه السلام لما استكمل الميقات وكان فيه صائماً، يقال إنه لم يستطعم الطعام، فلما كَمُلَ الشهر، أخذ لحا شجرة فمضغه ليطيب ريح فمه، فأمر الله أن يمسك عشراً أخرى، فصام[١] أربعين ليلة. ولهذا ثبت في الحديث «أن خلوف[٢] فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ»[٣]، فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بني إسرائيل أخاه هارون المحبّب المبجّل الجليل، وهو ابن أمه وأبيه ووزيره في الدعوة إلى مصطفيه، فوصّاه وأمره وليس في هذا لعلو منزلته في نبوّته منافاة قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ أي في الوقت الذي أُمِرَ بالمجيء فيه ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ أي كلمه الله من وراء حجاب، إلاّ أنه أسمعه الخطاب فناداه وناجاه وقرّبه وأدناه، وهذا مقام رفيع ومعقل منيع، ومنصب شريف ومنزل منيف، فصلوات الله عليه تترى، وسلامه عليه في الدنيا والأخرى. ولما أعطى هذه المنزلة العَلِيّة والمرتبة السَّنِيّة، وسمع الخطاب سأل رَفْعَ الحجاب، فقال للعظيم الذي لا تدركه الأبصار القوي البرهان: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾. ثم بيّن تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى، لأن الجبل الذي هو أقوى وأكبر ذاتاً وأشد ثباتاً من الإنسان، لا يثبت عند التجلي من الرحمن ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾.

وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال له يا موسى إنه لا يراني حي إلاّ مات، ولا يابس إلاّ تدهده. وفي الصحيحين عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ أنه قال حجابه النور. وفي رواية النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه[٤].

وقال ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ ذاك نورة الذي هو نوره إذا تجلى

---

(١) في ط: فصارت.

(٢) الخلوف: تغيّر رائحة الفم.

(٣) أخرجه البخاري في الصوم باب ٢، ٩، واللباس باب ٧٨، ومسلم في الصيام حديث ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، والترمذي في الصوم باب ٥٤، والنسائي في الصيام باب ٤١، ٤٢، ٤٣، وابن ماجة في الصيام باب ١، والدرامي في الصوم باب ٥٠، ومالك في الصيام حديث ٥٨، وأحمد في المسند ١/٤٤٦، ٢/٢٣٢، ٢٣٤، ٢٥٧، ٢٦٦، ٢٧٣، ٢٨١، ٢٩٢، ٣٠٦، ٣٨٣، ٣٤٧، ٣٩٣، ٤٠٧، ٤١١، ٤١٤، ٤٤٣، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٦١، ٤٦٥، ٤٦٧، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٨٠، ٤٨٥، ٥٠١، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥١٦، ٥٣٢، ٣/٥، ٤٠، ٤/١٣٠، ٢٠٢، ٦/٢٤٠.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٩٣، وأحمد في المسند ٤/٤٠٠، ٤٠١.

لشيء لا يقوم له شيء ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

قال مجاهد: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ فإنه أكبر منك وأشد خلقاً، فلما تجلّى ربّه للجبل، فنظر إلى الجبل لا يتمالك، وأقبل الجبل فدكّ على أوله، ورأى موسى ما يصنع الجبل فخرّ صعقاً.

وقد ذكرنا في التفسير ما رواه الإمام أحمد والترمذي وصحّحه ابن جرير والحاكم من طريق حمّاد بن سَلَمَة عن ثابت. زاد ابن جرير وليث عن أنس أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال هكذا بإصبعه ووضع النبي ﷺ الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل[(١)] لفظ ابن جرير.

وقال السّدّيّ عن عِكْرِمَةَ وعن ابن عبّاس: ما تجلّى يعني من العظمة إلاّ قدر الخنصر، فجعل الجبل دكّاً قال. تراباً ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أي مغشياً عليه، وقال قتادة ميتاً.

والصحيح الأول لقوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ فإن الإفاقة إنما تكون عن غشي قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيه وتعظيم وإجلال أن يراه بعظمته أحد ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أي فلست أسأل بعد هذا الرؤية ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ أنه لا يراك حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده[(٢)]

وقد ثبت في الصحيحين من طريق عَمْرِو بن يحيى بن عَمَارَة بن أبي حسن المازني الأنصاري عن أبيه عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله ﷺ: «لاَ تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الأَنْبِيَاءِ فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ فَلاَ أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَوْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ» لفظ البخاري وفي أوله قصة اليهودي الذي لطم وجهه الأنصاري حين قال لا والذي اصطفى موسى على البشر فقال رسول الله ﷺ: «لاَ تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الأَنْبِيَاءِ»[(٣)]

وفي الصحيحين من طريق الزهريّ عن أبي سَلَمَة وعبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ بنحوه وفيه «لاَ تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى»[(٤)] وذكر تمامه. وهذا من باب الهضم والتواضع، أو نهى عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب والعصبية، أو ليس هذا إليكم، بل الله هو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات، وليس ينال هذا بمجرد الرأي بل بالتوقيف. ومن قال إنّ هذا قاله قبل أن يعلم أنه أفضل، ثم نسخ باطلاعه على أفضليته عليهم كلهم، ففي قوله نظر، لأن هذا من رواية أبي سعيد وأبي هريرة وما هاجر أبو هريرة إلاّ عام حُنَيْن متأخراً، فيبعد أنه لم يعلم بهذا إلاّ بعد هذا والله أعلم. ولا شك أنه صلوات الله وسلامه عليه أفضل البشر بل الخليقة.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن باب ٨، من سورة الأعراف.

(٢) تدهده: تدحرج.

(٣) أخرجه البخاري في الخصومات باب ١، ومسلم في الفضائل حديث ١٦٣، وأحمد في المسند ٣/ ٣١.

(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٣١، ومسلم في الفضائل حديث ١٦٠، وأحمد في المسند ٢/ ٢٦٤.

قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: الآية ١١٠] وما كملوا إلاّ بشرف نبيّهم وثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: «أَنَا سَيِّدُ وُلْدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ»[١] ثم ذكر اختصاصه بالمقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون الذي تحيد عنه الأنبياء والمرسلون، حتى أولو العزم الأكملون نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم.

وقوله ﷺ: «فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ فَأَجِدُ مُوسَى بَاطِشاً بِقَائِمَةِ العَرْشِ» أي آخذاً بها «فَلاَ أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ» دليل على أن هذا الصعق الذي يحصل للخلائق في عرصات[٢] القيامة حين يتجلى الربّ لفصل القضاء بين عباده، فيصعقون من شدّة الهيبة والعظمة والجلال، فيكون أولهم إفاقة محمّد خاتم الأنبياء ومصطفى ربّ الأرض والسماء، على سائر الأنبياء، فيجد موسى باطشاً بقائمة العرش. قال الصادق المصدوق «لاَ أَدْرِي أَصَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي» أي كانت صعقته خفيفة لأنه قد ناله بهذا السبب في الدنيا صعق، «أو جوزيَ بصعقة الطور»[٣] يعني فلم يصعق بالكلية، وهذا فيه شرف كبير لموسى عليه السلام من هذه الحيثية. ولا يلزم تفضيله بها مطلقاً من كل وجه. ولهذا نبّه رسول الله ﷺ على شرفه وفضيلته بهذه الصّفة لأن المسلم لمّا ضرب وجه اليهودي حين قال: ﴿لاَ وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى البَشَرِ﴾ قد يحصل في نفوس [بعض][٤] المشاهدين لذلك هضم بجناب موسى عليه السلام، فَبَيَّنَ النبي ﷺ فضيلته وشرفه. وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ أي في ذلك الزمان لا ما قبله لأن إبراهيم الخليل أفضل منه كما تقدم بيان ذلك في قصة إبراهيم، ولا ما بعده لأن محمداً ﷺ أفضل منهما كما ظهر شرفه ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء، وكما ثبت أنه قال: «سَأَقُومُ مَقَاماً يَرْغَبُ إِلَيَّ الخَلْقُ حَتَّى إِبْرَاهِيمَ».

وقوله تعالى: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ أي فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام، ولا تسأل زيادة عليه، وكن من الشاكرين على ذلك. قال الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ وكانت الألواح من جوهر نفيس.

ففي الصحيح أن الله كتب له التوراة بيده، فيها مواعظ عن الآثام وتفصيل لكل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي بعزم ونيّة صادقة قوية ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ أي يضعوهما على أحسن وجوهها وأجمل محاملها ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ أي ستروا عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري المكذّبين لرسلي. ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ عن فهمها وتدبّرها وتعقّل معناها الذي أريد منها ودلّ عليه مقتضاها ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٦] أي ولو شاهدوا مهما شاهدوا من الخوارق والمعجزات لا ينقادوا لاتباعها ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٦] أي

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن باب ١٨، من سورة بني إسرائيل، وأحمد في المسند ٣/ ٢.
(٢) العرصات: جمع عرصة: الفسحة الواسعة أمام الدار.
(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٢٥، وأحمد في المسند ٣/ ٣٣.
(٤) سقط في ط.

لا يسلكوه ولا يتبعوه ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٦] أي صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا وتغافلهم عنها وإعراضهم عن التصديق بها والتفكّر في معناها، وترك العمل بمقتضاها ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٤٧].

قصة عبادتهم العجل في غيبة [كليم الله](١) عنهم

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٤٨ ـ ١٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: الآيات ٨٣ ـ ٩٨].

يذكر تعالى ما كان من أمر بني إسرائيل حين ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربّه، فمكث على الطور يناجيه ربّه ويسأله موسى عليه السلام عن أشياء كثيرة، وهو تعالى يجيبه

---

(١) سقط في ط.

عنها، فعمد رجل منهم يقال له هارون السامري، فأخذ ما كان استعاره من الحلي، فصاغ منه عِجْلاً وألقى فيه قبضة من التراب كان أخذها من أثر فرس جبريل حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه، فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقي. ويقال إنه استحال عِجْلاً جسداً [له خوار][(١)] أي لحماً ودماً حياً يخور. قاله قَتَادَة وغيره، وقيل بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة، فيرقصون حوله ويفرحون ﴿فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾ أي فنسي موسى ربّه عندنا، وذهب يتطلّبه وهو ههنا، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وتقدّست أسماؤه وصفاته وتضاعفت آلاؤه وعداته، قال الله تعالى مبيناً [لهم][(٢)] بطلان ما ذهبوا إليه، وما عولوا عليه من إلهية هذا الذي قصاراه أن يكون حيواناً بهيماً وشيطاناً رجيماً ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ وقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ فذكر أن هذا الحيوان لا يتكلّم ولا يردّ جواباً ولا يملك ضراً ولا نفعاً ولا يهدي إلى رشد، اتخذوه وهم ظالمون لأنفسهم عالمون في أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل والضلال ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي ندموا على ما صنعوا ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾. ولما رجع موسى عليه السلام إليهم ورأى ما هم عليه من عبادة العِجْل ومعه الألواح المتضمّنة التوراة، ألقاها فيقال إنه كسرها. وهكذا هو عند أهل الكتاب وإن الله أبدله غيرها، وليس في اللفظ القرآني ما يدلّ على ذلك، إلاّ أنه ألقاها حين عاين ما عاين. وعند أهل الكتاب أنهما كانا لوحين، وظاهر القرآن أنها ألواح متعددة، ولم يتأثر بمجرد الخبر من الله تعالى عن عبادة العجل فأمره بمعاينة ذلك. ولهذا جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن حِبان عن ابن عبّاس قال قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ»[(٣)] ثم أقبل عليهم فعنّفهم ووبّخهم وهجّنهم[(٤)] في صنيعهم هذا القبيح فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح قالوا: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾﴾ تحرجوا من تملك حلي آل فرعون، وهم أهل حرب وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم، ولم يتحرّجوا بجهلهم وقلّة عملهم[(٥)] وعقلهم من عبادة العجل الجسد الذي له خوار مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهّار. ثم أقبل على أخيه هارون عليهما السلام قائلاً له: ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي هلا لما رأيت ما صنعوا اتبعتني فأعلمتني بما فعلوا؟ فقال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي تركتهم وجئتني، وأنت قد استخلفتني فيهم: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ وقد كان هارون عليه السلام نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهي، وزجرهم عنه أتم الزجر، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾ أي إنما قدر الله أمر هذا العجل وجعله يخور فتنةً واختباراً لكم ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ﴾ أي لا

---

(١) سقط في ط.
(٢) سقط في ط.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢١٥.
(٤) هجّنهم: أعابهم.
(٥) في ط: علمهم

هذا ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أي فيما أقول لكم ﴿وَأَطِيعُوٓا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ يشهد الله لهارون عليه السلام ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ أنه نهاهم وزجرهم عن ذلك فلم يطيعوه ولم يتبعوه ثم أقبل موسى على السامري ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾ أي ما حملك على ما صنعت ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ﴾ أي رأيت جبرائيل وهو راكب فرساً ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي من أثر فرس جبريل.

وقد ذكر بعضهم أنه رآه وكلّما وطئت بحوافرها على موضع اخضر وأعشب، فأخذ من أثر حافرها، فلما ألقاه في هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان، ولهذا قال: ﴿فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ وهذا دعاء عليه بأن لا يمسّ أحداً معاقبة له على مسّه ما لم يكن له مسه هذا معاقبة له في الدنيا، ثم توعده في الأخرى فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ وقرىء لن نخلفه ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ قال فعمد موسى عليه السلام إلى هذا العجل فحرقه بالنار كما قاله قَتَادَةُ وغيره. وقيل بالمبارد كما قاله علي وابن عبّاس وغيرهما، وهو نصّ أهل الكتاب، ثم ذراه في البحر، وأمر بني إسرائيل فشربوا فمن كان من عابديه علق على شفاههم من ذلك الرماد، منه ما يدل عليه، وقيل بل اصفرت ألوانهم، ثم قال تعالى أخباراً عن موسى أنه قال لهم: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ وهكذا وقع وقد قال بعض السلف ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ مسجّلة لكل صاحب بدعة إلى يوم القيامة. ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه وإحسانه على عبيده في قبوله توبة من تاب إليه بتوبته عليه فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٥٣] لكن لم يقبل الله توبة عابدي العجل إلاّ بالقتل كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: الآية ٥٤] فيقال: إنهم أصبحوا يوماً وقد أخذ من لم يعبد العجل في أيديهم السيوف، وألقى الله عليهم ضباباً حتى لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه. ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم فيقال: إنهم قتلوا في صبيحة واحدة سبعين ألفاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٥٤] استدل بعضهم بقوله، وفي نسختها على أنها تكسّرت وفي هذا الاستدلال نظر، وليس في اللفظ ما يدل على أنها تكسّرت والله أعلم. وقد ذكر ابن عبّاس في حديث الفتون كما سيأتي أن عبادتهم العجل كانت على أثر خروجهم من البحر، وما هو ببعيد لأنهم حين خرجوا ﴿قَالُوا يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٨].

وهكذا عند أهل الكتاب فإن عبادتهم العجل كانت قبل مجيئهم بلاد بيت المقدس، وذلك أنهم لما أمروا بقتل من عبد العجل قتلوا في أول يوم ثلاثة آلاف. ثم ذهب موسى يستغفر لهم

فغفر لهم بشرط أن يدخلوا الأرض المقدسة. ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٥٥-١٥٧].

ذكر السُدّيّ وابن عبَّاس وغيرهما أن هؤلاء السبعين كانوا علماء بني إسرائيل ومعهم موسى وهارون ويوشع وناداب وابيهو ذهبوا مع موسى عليه السلام ليعتذروا عن بني إسرائيل في عبادة من عبد منهم العِجْل، وكانوا قد أمروا أن يتطيّبوا ويتطهّروا ويغتسلوا، فلما ذهبوا معه واقتربوا من الجبل وعليه الغمام وعمود النور ساطع، وصعد موسى الجبل فذكر بنو إسرائيل أنهم سمعوا كلام الله، وهذا قد وافقهم عليه طائفة من المفسّرين وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: الآية ٧٥] وليس هذا بلازم لقوله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي مبلغاً، وهكذا هؤلاء سمعوه مبلغاً من موسى عليه السلام، وزعموا أيضاً أن السبعين رأوا الله، وهذا غلط منهم لأنهم لمّا سألوا الرؤية أخذتهم الرجفة كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: الآيتان ٥٥-٥٦] وقال ههنا: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾ الآية.

قال محمد بن إسحاق: اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً الخيِّر فالخيِّر. وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم، فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقّته له ربّه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعِلْم، فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام الله، فقال: أفعل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتّى تغشّى الجبل كلّه، ودنا موسى فدخل في الغمام وقال للقوم أدنوا، وكان موسى إذا كلّمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً، فسمعوه وهو يكلّم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل. فلمّا فرغ الله من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم، قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة فالتقت أرواحهم فماتوا جميعاً، فقام موسى يناشد ربّه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ أي لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منّا، فإنّا براء مما عملوا. وقال ابن عبّاس ومجاهد وقَتَادة وابن جُرَيْج: إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم

ينهوا قومهم عن عبادة العجل، وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي اختبارك وابتلاؤك وامتحانك قاله ابن عبّاس وسعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس وغير واحد من علماء السلف والخلف. يعني أنت الذي قدّرت هذا، وخلقت ما كان من أمر العجل اختباراً تختبرهم به كما ﴿قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ [طه: الآية ٩٠] أي اختبرتم ولهذا قال: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ أي من شئت أضللته باختبارك إياه، ومن شئت هديته. لك الحكم والمشيئة ولا مانع ولا رادّ لما حكمت وقضيت ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: الآيتان ١٥٥-١٥٦] أي تبنا إليك ورجعنا وأنبنا قاله ابن عبّاس ومجاهد وسعيد بن جُبَيْر وأبو العالية وإبراهيم التَّيْمِي والضحّاك والسدّي وقَتَادَةُ وغير واحد وهو كذلك في اللغة. ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦] أي أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التي أخلقها وأقدّرها ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا فَرَغَ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كَتَبَ كِتَاباً فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»[(١)] ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي فسأوحيها حتماً لمن يتصف بهذه الصفات ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧] الآية وهذا فيه تنويه بذكر محمد ﷺ وأمته من الله لموسى عليه السلام في جملة ما ناجاه به وأعلمه وأطلعه عليه. وقد تكلّمنا على هذه الآية وما بعدها في التفسير بما فيه كفاية ومقنع ولله الحمد والمنة.

وقال قَتَادَةُ: قال موسى: يا ربّ أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ربّ اجعلهم أمتي قال تلك أمة أحمد. قال ربّ إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون في الخلق السابقون في دخول الجنة ربّ اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: ربّ إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرأونها، وكان من قبلهم يقرأون كتابهم نظراً حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه، وإن الله أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئاً، لم يعطه أحداً من الأمم. قال: ربِّ اجعلهم أمتي قال: تلك أمة أحمد قال: ربّ إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فصول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: ربّ إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم ويؤجَرون عليها، وكان من قبلهم إذا تصدّق بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها ناراً فأكلتها، وإن ردّت عليه تركت فتأكلها السباع والطير، وأن الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم. قال: ربّ فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: ربّ فإني أجد في الألواح أمة إذا همّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعماية ضعف، قال: ربّ اجعلهم أمتي قال: تلك أمة أحمد قال: ربّ إني أجد في الألواح أمة هم المشفعون المشفوع لهم فاجعلهم أمتي قال: تلك أمة أحمد.

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ١، ومسلم في التوبة حديث ١٤، وأحمد في المسند ٢/ ٣٩٧.

قال: قتادة فذكر لنا أن موسى عليه السلام نبذ الألواح وقال: اللّهم اجعلني من أمة أحمد. وقد ذكر كثير من الناس ما كان من مناجاة موسى عليه السلام وأوردوا أشياء كثيرة لا أصل لها ونحن نذكر ما تيسر ذكره من الأحاديث والآثار بعون الله وتوفيقه وحسن هدايته ومعونته وتأييده.

قال الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم بن حبان في صحيحه: ذكرُ سؤال كليم الله ربّه عزّ وجلّ عن أدنى أهل الجنة وأرفعهم منزلة.

أخبرنا عمر بن سعيد الطائي ببلخ(١)، حدثنا حامد بن يَحْيى البَلْخِي، حدثنا سفيان، حدثنا مُطَرّفُ بن طَرِيفٍ وعبد الملك بن أَبْجَرِ شيخان صالحان سمعنا الشَّعْبِي يقول سمعت المغيرة بن شُعْبَةَ يقول على المنبر عن النبيِّ ﷺ: «إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ سَأَلَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَيُّ أَهْلِ الجَنَّةِ أَدْنَى مَنْزِلَةً؟ فَقَالَ: رَجُلٌ يَجِيءُ، بَعْدَ مَا يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ فَيُقَالُ أَدْخُلِ الجَنَّةَ فَيَقُولُ كَيْفَ أَدْخُلُ الجَنَّةَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا إِخَاذَاتِهِمْ فَيُقَالُ لَهُ: تَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِنَ الجَنَّةِ مِثْلُ مَا كَانَ لِمَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ فَيُقَالُ لَكَ هَذَا وَمِثْلُهُ معه(٢) فَيَقُولُ أَيْ رَبِّ رَضِيتُ، فَيُقَالُ لَهُ: [إن](٣) لَكَ مَعَ هَذَا مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ. وَسَأَلَ رَبَّهُ أَيُّ أَهْلِ الجَنَّةِ أَرْفَعُ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: سَأُحَدِّثُكَ عَنْهُمْ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا فَلاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾»(٤) [السجدة: الآية ١٧] الآية.

وهكذا رواه مسلم والترمذي كلاهما عن ابن أبي عمر عن سفيان وهو ابن عُيَيْنَةَ به. ولفظ مسلم فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ فَيَقُولُ لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَيَقُولُ فِي الخَامِسَةِ رَضِيتُ رَبِّ، فَيُقَالُ هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ رَضِيتُ رَبِّ، قَالَ رَبِّ فَأَعْلاَهُمْ مَنْزِلَةً قَالَ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرْسَ كَرَامَتِهِمْ بِيَدِي وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وقال الترمذي حسن صحيح. قال ورواه بعضهم عن الشَّعْبِي عن المُغيرة، فلم يرفعه والمرفوع أصح.

وقال ابن حِبَّان: ذكر سؤال الكليم ربّه عن خصال سبع.

حدثنا عبد الله بن محمد بن مسلم ببيت المقدس، حدثنا حَرْمَلَةُ بن يحيى، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث أن أبا السَّمْح حدثه عن ابن حُجَيْرَةَ عن أبي هُرَيْرة عن النبي ﷺ أنه قال: «سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ سِتِّ خِصَالٍ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهَا لَهُ خَالِصَةً، وَالسَّابِعَةُ لَمْ يَكُنْ مُوسَى يُحِبُّهَا. قَالَ: يَا رَبِّ أَيُّ عِبَادِكَ أَتْقَى؟ قَالَ: الَّذِي يَذْكُرُ وَلاَ يَنْسَى. قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَهْدَى؟ قَالَ: الَّذِي يَتْبَعُ الهُدَى. قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَحْكَمُ؟ قَالَ: الَّذِي يَحْكُمُ لِلنَّاسِ كَمَا

---

(١) في ط: بمنبج.
(٢) في ط: ومثله.
(٣) سقط في ط.
(٤) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٣١٢، والترمذي في التفسير باب ٣٣، من سورة السجدة.

يَحْكُمُ لِنَفْسِهِ. قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَعْلَمُ؟ قَالَ: عَالِمٌ لاَ يَشْبَعُ مِنَ العِلْمِ يَجْمَعُ عِلْمَ النَّاسِ إِلَى عِلْمِهِ. قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكِ أَعَزُّ؟ قَالَ: الَّذِي إِذَا قَدِرَ غَفَر. قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَغْنَى؟ قَالَ: الَّذِي يَرْضَى بِمَا يُؤتَى قَالَ فَأَيُّ عِبَادِكَ أَفْقَرُ؟ قَالَ: صَاحِبٌ مَنْقُوصٌ». قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الغِنَى عَنْ ظَهْرٍ إِنَّمَا الغِنَى غِنَى النَّفْسِ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيراً جَعَلَ غِنَاهُ فِي نَفْسِهِ وَتُقَاهُ فِي قَلْبِهِ. وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ شَرّاً جَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ»

قال ابن حِبّان قوله صاحب منقوص يريد به منقوص حالته، يستقلّ ما أوتي ويطلب الفضل. وقد رواه ابن جرير في تاريخه عن ابن حميد عن يعقوب التَّمِيمِي عن هارون بن عِبيرَة عن أبيه عن ابن عبّاس قال: سأل موسى ربّه عزّ وجلّ فذكر نحوه وفيه قال: أي ربّ فأي عبادك أعلم قال الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب[١] كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى. قال: أي رب فهل في الأرض أحد أعلم مني؟ قال: نعم الخضر، فسأل السبيل إلى لقيه فكان كما[٢] سنذكره بعد إن شاء الله [وله المنة][٣].

[ذكر][٤] حديث آخر بمعنى ما ذكره ابن حبان

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لَهِيعَةَ عن دُرّاج عن أبي الهَيْثم عن أبي سعيد الخُدْري عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إِنَّ مُوسَى قَالَ أَيْ رَبِّ عَبْدُكَ المُؤْمِنُ مُقَتَّرٌ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا. قَالَ فَفُتِحَ لَهُ بَابٌ مِنَ الجَنَّةِ فَنَظَرَ إِلَيْهَا قَالَ يَا مُوسَى هَذَا مَا أَعْدَدْتُ لَهُ. فَقَالَ مُوسَى يَا رَبِّ وَعِزَّتِكَ وَجَلاَلِكَ لَوْ كَانَ مُقَطَّعَ اليَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ يُسْحَبُ عَلَى وَجْهِهِ مُنْذُ يَوْمِ خَلَقْتَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَكَانَ هَذَا مَصِيرُهُ لَمْ يَرَ بُؤْساً قَطُّ. قَالَ ثُمَّ قَالَ أَيْ رَبِّ عَبْدُكَ الكَافِرُ مُوَسَّعٌ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا. قَالَ فَفُتِحَ لَهُ بَاباً إِلَى النَّارِ فقال[٥] يَا مُوسَى هَذَا مَا أَعْدَدْتُ لَهُ فَقَالَ أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ وَجَلاَلِكَ لَوْ كَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا مُنْذُ يَوْمِ خَلَقْتَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَكَانَ هَذَا مَصِيرُهُ لَمْ يَرَ خَيراً قَطُّ»[٦]. تفرّد به أحمد من هذا الوجه. وفي صحّته نظر والله أعلم.

وقال ابن حِبّان: ذكر سؤال كليم الله ربّه جلّ وعلا أن يعلّمه شيئاً يذكره به.

حدثنا ابن سَلْمَةَ، حدثنا حَرْمَلَةَ بن يحيى، حدثنا ابن وَهْبٍ أخبرني عَمْرُو بن الحارث إن دَرّاجاً حدّثه عن أبي الهَيْثم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «قَالَ مُوسَى يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئاً أَذْكُرُكَ بِهِ وَأَدْعُوكَ بِهِ قَالَ قُلْ يَا مُوسَى لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ قَالَ يَا رَبِّ كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُ هَذَا. قَالَ قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ. قَالَ إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئاً تَخُصُّنِي بِهِ. قَالَ يَا مُوسَى لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالأَرَضِينَ السَّبْعِ فِي كَفَّةٍ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فِي كَفَّةٍ مَالَتْ بِهِمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ»

ويشهد لهذا الحديث حديث البطاقة. وأقرب شيء إلى معناه الحديث المروي في السنن

---

(١) في ط: يجد.
(٢) في ط: ما.
(٣) سقط في ط.
(٤) سقط في ط.
(٥) في ط: فيقول.
(٦) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٨١.

عن النبي ﷺ أنه قال: «أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ عَرَفَةَ وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[1] وقال ابن أبي حاتم عند تفسير آية الكرسي: حدثنا أحمد بن القاسم بن عَطِيَّةَ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدُّشكِي، حدثني أبي عن أبيه، حدثنا أَشعَثُ بن إسحاق عن جعفر بن أبي المُغِيرَةَ عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس «أن بني إسرائيل قالوا لموسى: هَلْ ينام ربك؟ قال: اتقوا الله، فناداه ربّه يا موسى سألوك هل ينام ربك فخذ زجاجتين في يديك فقم الليل ففعل موسى، فلما ذهب من الليل ثلث نعس فوقع لركبتيه ثم انتعش فضبطهما حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا. فقال يا موسى لو كنت أنام لسقطت السموات والأرض فهلكن كما هلكت الزجاجتان في يديك. قال وأنزل الله على رسوله آية الكرسي».

وقال ابن جرير: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا هشام بن يوسف عن أمية بن شِبْلٍ عن الحكم بن إبان عن عِكْرِمَةَ عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يحكي عن موسى عليه السلام على المنبر قال: «وَقَعَ فِي نَفْسِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ هَلْ يَنَامُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكاً فَأَرَقَهُ ثَلاَثاً ثُمَّ أَعْطَاهُ قَارُورَتَيْنِ فِي كُلِّ يَدٍ قَارُورَةٌ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَحْتَفِظَ بِهِمَا، قَالَ فَجَعَلَ يَنَامُ وَكَادَتْ يَدَاهُ تَلْتَقِيَانِ فَيَسْتَيْقِظُ فَيَحْبِسُ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى حَتَّى نَامَ نَوْمَةً، فَاصْطَفَقَتْ يَدَاهُ فَانْكَسَرَتْ القَارُورَتَانِ، قَالَ ضَرَبَ اللَّهُ لَهُ مَثَلاً أَنْ لَوْ كَانَ يَنَامُ لَمْ يَسْتَمْسِكِ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ» وهذا حديث غريب رفعه. والأشبه أن يكون موقوفاً. وأن يكون أصله إسرائيلياً.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة: الآيتان ٦٣ـ ٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٧١].

قال ابن عبّاس وغير واحد من السلف لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوراة أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوّة وعزم، فقالوا: أنشرها علينا فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها، فقال: بل اقبلوها بما فيها، فراجعوه مراراً فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رؤوسهم حتى صار كأنه ظلّة أي غمامة على رؤوسهم، وقيل لهم إن لم تقبلوها بما فيها وإلا سقط ذلك[2] الجبل عليكم فقبلوا ذلك، وأمِروا بالسجود فسجدوا، فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم، فصارت سنّة لليهود إلى اليوم يقولون لا سجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب. وقال سُنَيْد بن داود عن حجّاج بن محمد عن أبي بكر بن عبد الله قال فلما نشرها لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتزّ، فليس على وجه الأرض يهودي صغير ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلاّ اهتز ونفض لها رأسه. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي ثم بعد

(١) أخرجه مالك في الحج حديث ٢٤٣. (٢) في ط: هذا.

مشاهدة هذا الميثاق العظيم والأمر الجسيم تكثتم عهودكم ومواثيقكم ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بأن تداركك بالإرسال إليكم وإنزال الكتب عليكم ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

[ذكر][(١)] قصة بقرة بني إسرائيل

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: الآيات ٦٧ ـ ٧٣].

قال ابن عبّاس وعَبيدة السَّلمَاني وأبو العالية ومجاهد والسَدّي وغير واحد من السلف: كان رجل في بني إسرائيل كثير المال وكان شيخا كبيراً وله بنوا أخ وكانوا يتمنون موته ليرثوه فعمد أحدهم فقتله في الليل وطرحه في مجمع الطرق، ويقال على باب رجل منهم، فلما أصبح الناس اختصموا فيه وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلّم، فقالوا ما لكم تختصمون ولا تأتون نبي الله، فجاء ابن أخيه فشكى أمر عمّه إلى رسول الله موسى ﷺ فقال: موسى عليه السلام: «أنشد الله رجلاً عنده علم من أمر هذا القتيل إلاّ أعلمنا به، فلم يكن عند أحد منهم علم منه وسألوه أن يسأل في هذه القضية ربّه عزّ وجلّ، فسأل ربّه عزّ وجلّ في ذلك، فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ﴾ يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتيل وأنت تقول هذا: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ أي أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى إليّ. وهذا هو الذي أجابني حين سألته عمّا سألتموني عنه أن أسأله فيه. قال ابن عبّاس وعُبَيْدة ومُجاهد وعِكْرِمة والسَدّيّ وأبو العَالِيَة وغير واحد، فلو أنهم عمدوا إلى أي بقرة فذبحوا لحصل المقصود منها، ولكنهم شدّدوا فشدد عليهم وقد ورد فيه حديث مرفوع؛ وفي إسناده ضعف فسألوا عن صفتها ثم عن لونها ثم عن سنها فأجيبوا بما عزّ وجوده عليهم. وقد ذكرنا في تفسير ذلك كله في التفسير.

والمقصود أنهم أمروا بذبح بقرة عوان وهي الوسط بين النصف الفارض وهي الكبيرة، والبكر وهي الصغيرة، قاله ابن عبّاس ومجاهد وأبو العالية وعِكْرِمَة والحَسَن وَقَتَادَة وجماعة. ثم شدّدوا وضيّقوا على أنفسهم فسألوا عن لونها فأمروا بصفراء فاقع لونها أي مشرب بحمرة تسرّ الناظرين. وهذا اللون عزيز.

---

(١) سقط في ط.

ثم شددوا أيضاً: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ففي الحديث المرفوع الذي رواه ابن أبي حاتم وابن مَرْدَوَيْهِ، «لَوْلاَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ اسْتَثْنَوْا لَمَا أُعْطُوا» وفي صحّته نظر والله أعلم ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ وهذه الصفات أضيق مما تقدم حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذلول وهي المذلّلة بالحراثة وسقي الأرض بالسانية[1] مسلمة، وهي الصحيحة التي لا عيب فيها قاله أبو العالية وقَتَادَة. وقوله: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي ليس فيها لون يخالف لونها بل هي مسلمة من العيوب ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها، فلما حدّدها بهذه الصفات وحصرها بهذه النعوت والأوصاف ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ ويقال إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلاّ عند رجل منهم، كان باراً بأبيه فطلبوها منه فأبى عليهم فأرغبوه في ثمنها حتى أعطوه فيما ذكره السدّي بوزنها ذهباً فأبى عليهم حتى أعطوه بوزنها عشر مرّات، فباعها منهم، فأمرهم نبي الله موسى بذبحها ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ أي وهم يترددون في أمرها. ثم أَمَرَهُم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها. قيل بلحم فخذها. وقيل بالعظم الذي يلي الغضروف. وقيل بالبضعة التي بين الكتفين، فلمّا ضربوه ببعضها، أحياه الله تعالى فقام وهو يشخب أوداجه[2]، فسأله نبي الله من قتلك قال قتلني ابن أخي. ثم عاد ميتاً كما كان قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له، كذلك أمره في سائر الموتى إذا شاء إحياءهم أحياهم في ساعة واحدة كما قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: الآية ٢٨] الآية.

[ذكر][3] قصة موسى والخضر عليهما السلام

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

---

(١) السانية: هي أداة الشقي. (٢) الودج: عروق في العنق.
(٣) سقط في ط.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: الآيات ٦٠ ـ ٨٢].

قال بعض أهل الكتاب: إن موسى هذا الذي رحل إلى الخضر هو موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل وتابعهم على ذلك بعض من يأخذ من صحفهم وينقل عن كتبهم منهم نَوفُ بن فُضَالَةَ الحِمْيَري الشامي البُكَالي. ويقال إنه دمشقي وكانت أمه زوجةُ كعب الأحبار. والصحيح الذي دلّ عليه ظاهر سياق القرآن ونصّ الحديث الصحيح الصريح المتّفق عليه أنه موسى بن عمران صاحب بني إسرائيل. قال البخاري حدثنا الحَميدي حدثنا سفيان حدثنا عمر بن دِينَار أخبرني سعيد بن جُبَيْر قال: قلت لابن عبّاس إن نوْفاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل. قال ابن عبّاس: كذب عدو الله. حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيباً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ، فَقَالَ: أَنَا! فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ إِنَّ لِي عَبْداً بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ مُوسَى يَا رَبِّ وَكَيْف لِي بِهِ؟ قَالَ تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتاً فَتَجْعَلُهُ بِمِكْتَلٍ[1] فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ». فأخذ حوتاً فجعله بمكتل، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المِكْتَلِ فخرج منه فسقط في البحر، واتخذ سبيله في البحر سَرَباً. وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد ﴿قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به ﴿قَالَ﴾ له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾ قال فكان للحوت سَرَباً ولموسى ولفتاه عَجَباً ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ قَالَ فَرَجَعَا يَقُصَّانِ أَثَرَهُمَا حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ، فسلّم عليه موسى فقال الخضر: وأنّى بأرضك السلام، قال أنا موسى، قال موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ يا موسى إني على عِلم من عِلم الله علمنيه الله لا تعلمُه أنتَ وأنتَ على علمٍ من علم الله علمكه الله لا أعلمه، فقال: ﴿سَتَجِدُنِي

(١) المكتل: زنبيل يسع خمسة عشر صاعاً.

إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قال له الخضر ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا﴾ يمشيان على ساحل البحر فمرّتْ سفينة فكلّمهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول[1].

فلما ركبا في السفينة لم يفاجأ إلاّ والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدّوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نَوْلٍ، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ قال: وقال رسول الله ﷺ: «وَكَانَتِ الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَاناً» قال: «وجاء عصفورٌ فوقعَ على حرفِ السفينةِ فنقرَ في البحر نَقْرَةً، فقال له الخضر ما علمي وعلمُك في علم الله إلاّ مثل ما نقصَ هذا العصفور من هذا البحرِ». ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ بصر الخضر غلاماً يلعبُ مع الغلمان، فأخذ الخَضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فَقَتَلَهُ، فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ قال وهذه أشد من الأولى ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ قال مائل فقال الخضر بيده: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ فقال موسى قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيّفونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ قال رسول الله ﷺ: «وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبَرَ حَتَّى يَقُصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا»[2]

قال سعيد بن جُبَيْر فكان ابن عبّاس يقرأ وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غَصْباً، وكان يقرأ وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين.

ثم رواه البخاري أيضاً عن قتيبة عن سفيان بن عُيَيْنَةَ بإسناده نحوه. وفيه فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة، فنزلا عندها، قال فوضع موسى رأسه فنام، قال سفيان وفي حديث غير عَمْرو قال: وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شيء إلا حيي فأصاب الحوت من ماء تلك العين، قال فتحرك وانسلّ من المكتل ودخل البحر، فلما استيقظ ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا﴾ وساق الحديث، وقال: «ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره في البحر، فقال الخَضِر لموسى ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره»،[3] وذكر تمام الحديث.

وقال البخاري حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام بن يوسف أن ابن جُرَيْج أخبرهم قال أخبرني يَعْلَى بن مسلم وعمرو بن دينار عن سعيد بن جُبَيْر يزيد أحدهما على صاحبه. وغيرهما

(١) النول: العطاء.
(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ١٨، سورة الكهف.
(٣) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ١٨، سورة الكهف.

قد سمعته يحدّثه عن سعيد بن جُبَيْر قال إنا لعند ابن عبّاس في بيته إذ قال: سلوني، فقلت أي أبا عبّاس جعلني الله فداك، بالكوفة رجل قاصّ، يقال له نَوْفٌ، يزعم أنه ليس بموسى بني إسرائيل، أما عَمْرُو فقال لي قال قد كذب عدو الله، وأما يَعْلَى فقال لي: قال ابن عبّاس: حدثني أُبَيُّ بن كعب قال قال رسول الله ﷺ: «مُوسَى رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ ذَكَّرَ النَّاسَ يَوْماً حَتَّى إِذَا فَاضَتِ الْعُيُونُ وَرَقَّتِ الْقُلُوبُ وَلَّى فَأَدْرَكَهُ رَجُلٌ فَقَالَ أَيْ رَسُولَ اللَّهِ هَلْ فِي الأَرْضِ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ لاَ فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ. قِيلَ بَلَى قَالَ أَيْ رَبِّ فَأَيْنَ؟ قَالَ بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ قَالَ أَيْ رَبِّ اجْعَلْ لِي عِلْماً، أَعْلَمُ ذَلِكَ بِهِ»[1] قَالَ لِي عَمرو قَالَ حَيْثُ يُفَارِقُكَ الْحُوتُ، وقال لي يعلى قال خذ حوتاً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح فأخذ حوتاً فجعله في مكتل، فقال لفتاه لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت، قال ما كلفت كبيراً فذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ يوشع بن نون. ليست عن سعيد بن جُبَير قال: فبينما هو في ظل صخرة في مكان ثريان إذ تضرّب الحوت وموسى نائم، فقال فتاه لا أوقظه. حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره، وتضرّب الحوت حتى دخل البحر، فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كأن أثره في حَجَر. قال لي عمرو هكذا كان أثره في حجر وحلق بين إبهاميه واللتين تليان ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾. قال: وقد قطع الله عنك النصب ليست هذه عن سعيد أخبره فرجعا فوجدا خضراً. قال لي عثمان بن أبي سُلَيْمَانَ على طنفسة خضراء على كبد البحر قال سعيد مسجى بثوبه قد جعل طرفه تحت رجليه، وطرفه تحت رأسه، فسلّم عليه موسى فكشف عن وجهه وقال: هل بأرض من سلام من أنت؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال: فما شأنك؟ قال: جئتك ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ قال أما يكفيك أن التوراة بيديك وأن الوحي يأتيك يا موسى، إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه، فأخذ طائر بمنقاره من البحر، فقال: والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ﴾ وجدا معابرَ صغاراً تحمل أهل هذا الساحل إلى أهل هذا الساحل الآخر عرفوه، فقالوا عبد الله الصالح. قال: فقلنا لسعيد: (خَضِرٌ) قال: نعم. لا نحمله بأجر (فَخَرَقَهَا) ووتد فيها وتداً ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ قال مجاهد: منكراً ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾ كانت الأولى نسياناً، والوسطى شرطاً، والثالثة عمداً ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ قال: يعلى قال: سعيد وجد غلماناً يلعبون فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه، ثم ذبحه بالسكين ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾ لم تعمل بالخبث. ابن عبّاس قرأها زكية زاكية مسلمة كقولك غلاماً زكياً ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ قال بيده هكذا ورفع يده فاستقام، قال يَعْلَى حسبت أن سعيداً قال فمسحه بيده فاستقام ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾ قال سعيد أجراً نأكله ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾ وكان أمامهم قرأها ابن عبّاس

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ١٨، سورة الكهف، وأحمد في المسند ٥/١١٩، ١٢٠.

أمامهم. ملك يزعمون عن غير سعيد أنه هدد بن بدد، والغلام المقتول يزعمون جيسور ﴿مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ فإذا هي مرّت به يدعها بعيبها، فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها. منهم من يقول سدّوها بقارورة ومنهم من يقول بالقار ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ وكان كافراً ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ أي يحملهما حبّه على أن يتابعاه على دينه ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ لقوله أقتلت نفساً زكية ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ هما به أرحم منهما بالأول الذي قتل خضر. وزعم سعيد بن جُبَيْر أنه ابن لا جارية وأما داود بن أبي عاصم فقال عن غير واحد إنها جارية. وقد رواه عبد الرزاق عن مَعْمَرٍ عن أبي إسحاق عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس قال خطب موسى بني إسرائيل، فقال ما أحد أعلم بالله وبأمره مني فأمر أن يلقي هذا الرجل. فذكر نحو ما تقدم، وهكذا رواه محمد بن إسحاق عن الحسن بن عمارة عن الحكم بن عُيَيْنَة عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ كنحو ما تقدم أيضاً، ورواه العَوْفِي عنه موقوفاً.

وقال الزُّهْرِيّ عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عبّاس أنه تمارى هو والحُرُّ بن قَيْسِ بن حِصْنٍ الفِزَارِي في صاحب موسى، فقال ابن عبّاس هو خضر فمرّ بهما أُبَيُّ بن كعب فدعاه ابن عبّاس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقياه فهل سمعت من رسول الله فيه شيئاً قال: نعم، وذكر الحديث وقد تقصّينا طرق هذا الحديث وألفاظه في تفسير سورة الكهف ولله الحمد. وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ قال السُّهَيْلي وهما أصرم وصريم ابنا كاشح. ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قيل كان ذهباً. قاله عِكْرَمَة وقيل علماً قاله ابن عبّاس والأشبه أنه كان لوحاً من ذهب، مكتوباً فيه علم. قال البزّار حدثنا إبراهيم بن سعيد الجَوْهَري حدثنا بشر بن المنذر حدثنا الحَرثُ بن عبد الله اليَحْصُبِي عن عيّاش بن عبّاس الغَسّاني عن ابن حُجَيْرَةَ عن أبي ذرّ رفعه قال إن الكنز الذي ذكر الله في كتابه لوح من الذهب مصمت. عجبت لمن أيقن بالقدر كيف نصب وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل لا إله إلا الله. وهكذا رُوِيَ عن الحسن البصريّ وعمر مولى عَفْرَةَ، وجعفر الصادق نحو هذا. وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ وقد قيل إنه كان الأب السابع وقيل العاشر. وعلى كل تقدير فيه دلالة على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته فالله المستعان. وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ دليل على أنه كان نبياً، وأنه ما فعل شيئاً من تلقاء نفسه، بل بأمر ربّه فهو نبي، وقيل رسول وقيل وَلِيّ، وأغرب من هذا من قال كان مَلَكاً.

قلت: وقد أغرب جداً من قال هو ابنُ فرعون، وقيل إنه ابن ضحاك الذي ملك الدنيا ألف سنة. قال ابن جرير: والذي عليه جمهور أهل الكتاب أنه كان في زمن أفريدون، ويقالُ إنه كان على مقدّمة ذي القرنين الذي قيل إنه كان أفريدون، وذو الفرس هو الذي كان في زمن الخليل. وزعموا أنه شربَ من ماء الحياة فخلد وهو باقٍ إلى الآن. وقيل إنه من وَلَد بعض من آمن بإبراهيم، وهاجر معه من أرض بابل، وقيل اسمه مَلْكَان، وقيل أرميا بن خلقيا، وقيل كان نبياً في زمن سباسب بن لهراسب، قال ابن جرير: وقد كان بين أفريدون وبين سباسب دهور طويلة

لا يجهلها أحد من أهل العلم بالأنساب، قال ابن جرير والصحيح أنه كان في زمن أفريدون، واستمّر حياً إلى أن أدركه موسى عليه السلام، وكانت نبوة موسى في زمن منوشهر الذي هو من ولد أيرج بن أفريدون أحد ملوك الفرس، وكان إليه الملك بعد جده أفريدون لعهده، وكان عادلاً وهو أول من خندق الخنادق، وأول من جعل في كل قرية دهقاناً، وكانت مدّة ملكه قريباً من مائة وخمسين سنة، ويقال إنه كان من سلالة إسحاق بن إبراهيم، وقد ذكر عنه من الخطب الحسان والكليم البليغ النافع الفصيح ما يبهر العقل ويحيّر السامع، وهذا يدل على أنه من سلالة الخليل. والله أعلم. وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ [آل عمران: ٨١] الآية.

فأخذ الله ميثاق كل نبي على أن يؤمن بمن يجيء بعده من الأنبياء، [واستلزم ذلك الإيمان وأخذ الميثاق لمحمد ﷺ لأنه خاتم الأنبياء فحق على كل نبي أدركه أن يؤمن به وينصره][1] فلو كان الخضر حياً في زمانه لما وسعه إلاّ اتباعه والاجتماع به والقيام بنصره، ولكان من جملة من تحت لوائه يوم بدر، كما كان تحتها جبريل وسادات من الملائكات، وقصارى الخضر عليه السلام أن يكون نبياً وهو الحق أو رسولاً كما قيل، أو ملكاً فيما ذكر، وأياماً كان فجبريل رئيس الملائكة وموسى أشرف من الخضر، ولو كان حياً لوجب عليه الإيمان بمحمد ونصرته، فكيف إن كان الخضر وَلِيًا كما يقوله طوائف كثيرون، فأولى أن يدخل في عموم البعثة، وأحرى. ولم ينقل في حديث حسن بل ولا ضعيف يعتمد أنه جاء يوماً واحداً إلى رسولُ الله ﷺ، ولا اجتمع به، وما ذكر من حديث التعزية فيه، وإن كان الحاكم قد رواه، فإسناده ضعيف والله أعلم.

حديث الفتون المتضمن قصة موسى من أولها إلى آخرها

قال الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في كتاب التفسير من سننه عند قوله تعالى في سورة طه: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠] (حديث الفتون). حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا أَصْبَغُ بن زَيْدٍ، حدثنا القَاسِمُ بن أَبِي أَيُّوبُ أخبرني سعيد بن جُبَيْر قال: سألت عبد الله بن عبّاس عن قول الله تعالى: ﴿وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا﴾ فسأله عن الفتون ما هو، فقال: استأنف النهار يا ابن جُبَيْر فإن لها حديثاً طويلاً، فلما أصبحت غدوت إلى ابن عبّاس لانتجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال: تذكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً، فقال بعضهم إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك ما يشكّون فيه، وكانوا يظنّون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا ليس هكذا، وكان وعد إبراهيم، فقال فرعون: فكيف ترون؟ فأتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلاّ ذبحوه ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار

(١) ما بين المعقوفين سقط من ط.

من بني إسرائيل يموتون بآجالهم، والصغار يذبحون، قالوا: توشكون أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة الذي كانوا يكفونكم. فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر، فتقلّ بناتهم، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم، فتخافوا مكاثرتهم إيّاكم، ولن تفتنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم، فأجمعوا أمرهم على ذلك فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا تقتل فيه الغِلْمان، فولدته علانية آمنة. فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام فوقع في قلبها الهمّ والحزن، وذلك من الفتون يا ابن جُبَيْر ما دخل عليه في بطن أمه مما يراده، فأوحى الله إليها أن لاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ، وَجَاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ، فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت وتلقيه في اليم، فلمّا ولدت فعلت ذلك، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت في نفسها ما فعلت بابني لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحبَّ إلي من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه فانتهى الماء به حتى أوفى عند فرضة[1] تستقي منها جواري امرأة فرعون، فلما رَأَيْنَه أَخَذْنَه فهممن أن يفتحن التابوت، فقال بعضهن إن في هذا مالاً، وإنا إن فتحناه لم تصدّقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه، فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئاً، حتى دفعنه إليها، فلما فتحته رأت فيه غلاماً، فألقى عليه منها محبّة لم تلق منها على أحد قط، وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى. فلما سمع الذبّاحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جُبَيْر، فقالت لهم: أقروه فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتى آتي فرعون فاستوهبه منه، فإن وهبه مني كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم ألمكم. فأتت فرعون فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: الآية ٩] فقال فرعون يكون لك فأما لي فلا حاجة لي فيه فقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَوْ أَقَرَّ فِرْعَوْنُ أَنْ يَكُونَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَهُ كَمَا أَقَرَّتْ امْرَأَتُهُ لَهَدَاهُ اللَّهُ كَمَا هَدَاهَا وَلَكِنْ حَرَمَهُ ذَلِكَ» فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها لأن تختار ظئراً[2]، فجعل كلّما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت فأحزنها ذلك، فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها، فلم يقبل وأصبحت أم موسى والهاً فقالت لأخته قصي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكراً أحيّ ابني أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه، فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون، والجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه لا يشعر به. فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات، أنا أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون. فقالوا ما يدريك ما نصحهم هل يعرفونه حتى شكّوا في ذلك. وذلك من الفتون يا ابن جُبَيْر. فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه ورغبتهم في صهر الملك، ورجاء منفعة الملك. فأرسلوها فانطلقت إلى أمّها فأخبرتها الخبر، فجاءت أمه فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصّه حتى امتلأ جنباه رياً، وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشّرها أن قد وجدنا لابنك ظئراً،

---

(١) الفرضة: فوهة النهر.

(٢) الظئر: المرضعة.

فأرسلت إليها فأتت بها وبه. فلما رأت ما يصنع بها قالت: أمكثي ترضعي ابني هذا، فإني لم أحب شيئاً حبّه قط. قالت أم موسى: لا أستطيع أن أترك بيتي وولدي فيضيع، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آلوه خيراً فعلت. فأني غير تاركة بيتي وولدي، وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها، فتعاسرت على امرأة فرعون، وأيقنت أن الله منجز موعودة، فرجعت إلى بيتها من يومها، وأنبته الله نباتاً حسناً، وحفظ لما قد قضى فيه فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى أريني ابني فوعدتها يوماً تريها إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظئورها وقهارمتها لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك فيه، وأنا باعثة أميناً يحصي كل ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل[١] تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون. فلما دخل عليها نحلته وأكرمته، فرحت به، ونحلت أمه بحسن أثرها عليه. ثم قالت: لآتينّ به فرعون فلينحلنّه وليكرمنّه، فلما دخلت به وعليه جعله في حجره فتناول موسى لحية فرعون فمدّها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيّه، أنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك، فأرسل إلى الذبّاحين ليذبحوه. وذلك من الفتون يابن جُبَيْر بعد كل بلاء ابتلي به، وأريد به فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون، فقالت: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟ فقال: ألا ترينه يزعم أنه يصرعني ويعلوني؟ فقالت: اجعل بيني وبينك أمراً تعرف فيه الحق، ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقرّبهن إليه، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل، فقرّب إليه فتناول الجمرتين فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان همّ به وكان الله بالغاً فيه أمره. فلما بلغ أشدّه وكان من الرجال لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة حتى امتنعوا كل الامتناع.

فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فغضب موسى غضباً شديداً لأنه تناوله، وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل، وحفظه لهم [لا يعلم الناس إلا أنه من الرضاع إلا أم موسى إلا أن يكون اطلع موسى من ذلك على][٢] ما لم يطلع عليه غيره، فوكز موسى الفرعوني فقتله وليس يراهما أحد إلا الله عزّ وجلّ والإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: الآية ١٥] ثم قال: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: الآيات ١٦ـ١٨] الأخبار فأتى فرعون فقيل له إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم، فقال ابغوني قاتله من يشهد عليه فإن الملك

(١) النحل: العطايا.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من ط.

وإن كان صفوه مع قومه لا ينبغي له أن يقتل بغير بيّنة ولا ثبت، فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحقّكم، فبينما هم يطوفون لا يجدون بيّنة إذا موسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فصادف موسى قد ندم على ما كان منه، وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غضبانُ كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني، فخاف أن يكون بعد ما قال له إنك لغوي مبين أن يكون إيّاه أراد، ولم يكن أراده، إنما أراد الفرعوني فخاف الإسرائيلي. وقال لموسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ، وإنما قال له مخافة أن يكون إيّاه أراد موسى ليقتله، فتتاركا وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ، فأرسل فرعون الذبّاحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون الطريق الأعظم يمشون على هيئتهم يطلبون موسى، وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره. وذلك من الفتون يا ابن جُبَيْر فخرج موسى متوجهاً نحو مَدْيَن لم يلق بلاء قبل ذلك، وليس له بالطريق علم إلاّ حسن ظنّه بربّه عزّ وجلّ، فإنه قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: الآيتان ٢٢-٢٣] يعني بذلك حابستين غنمهما فقال لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا ليس لنا قوّة تزاحم القوم، وإنّما ننتظر [حياء منهم][(١)]، فسقى لهما فجعل يغرف من الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرعاء، وانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما، وانصرف موسى فاستظلّ بشجرة ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: الآية ٢٤] واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلاً بطاناً فقال: إن لكما اليوم لشأناً فأخبرتاه بما صنع موسى. فأمر إحداهما أن تدعوه، فأتت موسى فدعته، فلمّا كلّمه ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القصص: الآية ٢٥] ليس لفرعون ولا قومه علينا من سلطان ولسنا في مملكته ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: الآية ٢٦] فاحتملته الغيرة على أن قال لها ما يدريك ما قوّته وما أمانته، فقالت: أما قوّته فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا، لم أرَ رجلاً قطّ أقوى في ذلك السقي منه. وأما الأمانة فإنه نظر إليّ حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أني امرأة صوّب رأسه، فلم يرفعه حتى بلّغته رسالتك. ثم قال لي امشي خلفي وانعتي لي الطريق، فلم يفعل هذا إلاّ وهو أمين، فسرى عن أبيها وصدّقها وظنّ به الذي قالت فقال له هل لك: ﴿أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [القصص: الآية ٢٧] ففعل فكانت على نبي الله موسى ثمان سنين واجبة، وكانت السنتان عدّة منه فقضى الله عنه عدّته فأتمها عشراً.

---

(١) سقط في ط.

قال سعيد هو ابن جُبَيْر فلقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال: هل تدري أي الأجلين قضى موسى، قلت لا وأنا يومئذٍ لا أدري، فلقيت ابن عبّاس فذكرت ذلك له فقال: أما علمت أن ثمانية كانت على نبي الله واجبة لم يكن نبي الله لينقص منها، شيئاً. وتعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدّته التي وعده، فإنه قضى عشر سنين، فلقيت النصراني فأخبرته ذلك، فقال الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك، قلت: أجل وأولى فلّما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصي ويده ما قصّ الله عليك في القرآن، فشكا إلى الله تعالى ما يتخوّف من آل فرعون في القتيل، وعقده لسانه فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربّه أن يعينه بأخيه هارون يكون له رِدأً ويتكلّم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فأتاه الله عزّ وجلّ عقدة من لسانه، وأوحى الله إلى هارون فأمره أن يلقاه، فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون، فانطلقا جميعاً إلى فرعون، فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما. ثم أذن لهما بعد حجاب شديد، فقالا إنا رسولا ربّك فقال فمن ربّكما فأخبره بالذي قصّ الله عليك في القرآن، قال فما تريدان؟ وذكّره القتيل، فاعتذر بما قد سمعت، قال: أريد أن تؤمن بالله وتُرسل معي بني إسرائيل فأبى عليه. وقال ائت بآية إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون، فلما رأى فرعون قاصدة إليه خافها واقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفّها عنه ففعل. ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء يعني من غير برص. ثم ردّها فعادت إلى لونها الأول فاستشار الملأ حوله فيما رأى فقالوا له: ﴿هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ [طه: الآية ٦٣] يعني ملكهم الذي هُمْ فيه والعيش. وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب، وقالوا له اجمع السّحرة فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما، فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا بم يعمل السحر؟ قالوا: يعمل بالحيات، قالوا: فلا والله ما أحد من الأرض يعمل السحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمل، وما أجرنا إن نحن غلبنا؟ قال لهم: أنتم أقاربي وخاصتي وأنا صانع إليكم كلّ شيءٍ أحببتم، فتواعدوا ﴿يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴿٥٩﴾﴾ [طه: الآية ٥٩].

قال سعيد: فحدثني ابن عبّاس أن يوم الزينة اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسّحرة هو يوم عاشوراء، فلمّا اجتمعوا في صعيد قال الناس بعضهم لبعض انطلقوا فلنحضر هذا الأمر لعلّنا نتّبع السحرة إن كانوا هم الغالبين، يعنون موسى وهارون استهزاءاً بهما فقالوا يا موسى بعد تريثهم بسحرهم ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [الأعراف: الآية ١١٥] قال: بل ألقوا فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزّة فرعون إنا لنحن الغالبون، فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة فأوحى الله إليه أن ألق عصاك فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة فاغرة فاها فجعلت العصي تلتبس بالحبال حتى صارت جُرَزاً على الثعبان أن تدخل فيه حتى ما أبقت عصاً ولا حبلاً إلاّ ابتلعته، فلما عرف السّحرة ذلك قالوا لو كان هذا سحراً لم تبلغ من سحرنا كل هذا، ولكنّه أمر من الله تعالى آمنا بالله وبما جاء به موسى، ونتوب إلى الله ممّا كنا عليه، فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه، وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون.

فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين، وامرأة فرعون بارزة مبتذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رآها من آل فرعون ظنّ أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنّما كان حزنها وهمّها لموسى. فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا مضت أخلف من غده، وقال هل يستطيع ربّك أن يصنع غير هذا، فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات كل ذلك يشكو إلى موسى، ويطلب إليه أن يكفّها عنه ويوافقه على أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا كفّ ذلك عنه أخلف بوعده ونكث عهده حتى أُمِرَ موسى بالخروج بقومه، فخرج بهم ليلاً، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين، فتبعه بجنود عظيمة كثيرة، وأوحى الله إلى البحر إذا ضربك موسى عبدي بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة حتى يجوز موسى ومن معه. ثم التقى على من بقي بعد من فرعون وأشياعه، فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصى وانتهى إلى البحر وله قصيف[1] مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل، فيصير عاصياً لله عزّ وجلّ، فلما تراءى الجمعان وتقاربا قال أصحاب موسى: إنا لَمُدْرَكون افعل ما أمرك به ربّك فإنه لم يكذب ولم تكذب، قال وعدني ربي إذا أتيت البحر انفرق اثنتي عشرة فرقة حتى أجاوزه. ثم ذكر بعد ذلك العصا فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعونُ من أواخر جند موسى، فانفرق البحر كما أمره ربّه، وكما وعد موسى، فلمّا جاوز موسى وأصحابه كلّهم البحر، ودخل فرعون وأصحابه التقى عليهم البحر كما أمر، فلمّا جاوز موسى، قال أصحابه: إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه، فدعا ربّه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه، ثم مرّوا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٣٨ - ١٣٩] قد رأيتم من العِبَر وسمعتم ما يكفيكم، ومضى فأنزلهم موسى منزلاً وقال: أطيعوا هارون فإن الله قد استخلفه عليكم فإني ذاهب إلى ربي وأجلّهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها، فلما أتى ربّه عزّ وجلّ وأراد أن يكلّمه في ثلاثين يوماً، وقد صامهن ليلهن ونهارهن، وكره أن يكلّم ربّه وريح فمه[2] ريح فم الصائم، فتناول موسى شيئاً من نبات الأرض فمضغه، فقال له ربّه حين أتاه لِمَ أفطرت وهو أعلم بالذي كان، قال: يا ربّ إني كرهت أن أكلمك إلاّ وفمي طيب الريح. قال أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب من ريح المسك، ارجع فصم عشراً، ثم ائتني، ففعل موسى ما أمره به ربّه. فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل، ساءهم ذلك، وكان هارون قد خطبهم فقال إنكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع، ولكم فيها مثل ذلك، وأنا أرى أن تحتسبوا مالكم عندهم ولا أحلّ لكم وديعة استودعتموها، ولا عارية ولسنا برادّين إليهم شيئاً من ذلك، ولا ممسكيه لأنفسنا، فحفر حفيراً وأمر كل قوم عندهم من ذلك متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير.

ثم أوقد عليه النار فأحرقه، فقال لا يكون لنا ولا لهم. وكان السامريّ من قوم يعبدون

---

(١) قصيف: هشيم الشجر.

(٢) في ط: فيه، ومعناهما واحد.

البقر جيران لبني إسرائيل، ولم يكن من بني إسرائيل، فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا، فقضي له أن رأى أثراً فقبض منه قبضة فمرّ بهارون، فقال له هارون يا سامري ألا تلقي ما في يديك، وهو قابض عليه لا يراه أحد طوال ذلك، فقال هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر، ولا ألقيها لشيء إلاّ أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد، فألقاها ودعا له هارون فقال أريد أن تكون عِجْلاً فاجتمع ما كان في الحفرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد فصار عِجْلاً أجوف ليس فيه روح له خوار، قال ابن عباس لا والله ما كان فيه صوت قطّ إنما كانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فيه، فكان ذلك الصوت من ذلك، فتفرّق بنو إسرائيل فِرَقاً، فقالت فرقة: يا سامري ما هذا وأنت أعلم به، قال: هذا ربّكم، ولكن موسى أضلّ الطريق. وقالت فِرْقَةٌ لا تكذّب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربّنا لم نكن ضيّعناه وعجزنا فيه حتى رأيناه، وإن لم يكن ربّنا فإنّا نتبع قول موسى. وقالت فرقة: هذا من عمل الشيطان وليس بربّنا ولا نؤمن به ولا نصدّق، واشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل وأعلنوا التكذيب به، فقال لهم هارون عليه السلام: يا قوم إنما فتنتم به وإن ربّكم الرحمن ليس هذا، قالوا: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً ثم أخلفنا. هذه أربعون يوماً قد مضت، قال سفهاؤهم أخطأ ربّه فهو يطلبه ويبتغيه، فلّما كلم الله موسى، وقال له ما قال أخبره بما لقي قومه من بعده، فرجع إلى قومه غضبان أسفا فقال لهم ما سمعتم ما في القرآن ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٠] إليه وألقى الألواح من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره. واستغفر له فانصرف إلى السامري فقال له ما حملك على ما صنعت؟ ﴿قَالَ﴾ ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طه: الآية ٩٦] وفطنت لها وعميت عليكم فقذفتها ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ [طه: الآيتان ٩٦ ـ ٩٧] ولو كان إلهاً لم يخلص إلى ذلك منه، فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون، فقالوا لجماعتهم يا موسى سل لنا ربّك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فتكفّر عنا ما عملنا، فاختار موسى قومه سبعين رجلاً لذلك لا يألوا الخير خيار بني إسرائيل، ومن لم يشرك في الحق. فانطلق بهم يسأل لهم التوبة، فرجفت بهم الأرض فاستحيا نبي الله عليه السلام من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل، فقال: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٥] وفيهم من كان الله اطلع منه على ما أشرب قلبه من حبّ العجل وإيمان به، فلذلك رجفت بهم الأرض فقال: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: الآيتان ١٥٦ ـ ١٥٧] فقال يا ربّ سألتك التوبة لقومي فقلت إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي، فليتك أخّرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحوم، فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل من لقي من والد وولد فيقتله بالسيف لا يبالي من قتل في ذلك الموطن. وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون، واطلع الله من ذنوبهم

فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا وغفر الله للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجهاً نحو الأرض المقدسة وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمر به من الوظائف، فثقل ذلك عليهم، وأبوا أن يقرّوا بها، ونتق[1] الله عليهم الجبل كأنه ظلّة ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم، وأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل، والكتاب بأيديهم، وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم، ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدّسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبّارون خَلْقُهُم خَلْقٌ منكر، وذكر من ثمارهم أمراً عجباً من عظمها، فقالوا يا موسى إن فيها قوماً جبّارين لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون. قال رجلان من الذين يخافون قيل ليزيد هكذا قراه قال نعم من الجبّارين آمنا بموسى وخرجنا إليه، فقالوا نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم، فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم، فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، ويقول أناس إنهم من قوم موسى، فقال الذين يخافون من بني إسرائيل ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: الآية ٢٤] فاغضبوا موسى فدعا عليهم وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك لِمَا رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذٍ، فاستجاب الله لهم وسماهم كما سمّاهم فاسقين، فحرّمها عليهم أربعين سنة يَتِيهون في الأرض يصبحون كل يوم، فيسيرون ليس لهم قرار، ثم ظلل عليهم الغمام في التيه، وأنزل عليهم المنّ السلوى، وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تتسخ، وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربعاً، وأمر موسى فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً في كل ناحية ثلاثة أعين، وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها، فلا يرتحلون من محلّه إلا وجدوا ذلك الحجر بالمكان الذي كان فيه بالأمس. رفع ابن عبّاس هذا الحديث إلى النبي ﷺ وصدق ذلك عندي أن معاوية سمع ابن عبّاس هذا الحديث، فأنكر عليه أن يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى أمر القتيل الذي قتل فقال كيف يفشي عليه، ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلاّ الإسرائيلي الذي حضر ذلك، فغضب ابن عبّاس فأخذ بيد معاوية فانطلق به إلى سعد بن مالك الزّهَرِي، فقال له يا أبا إسحاق هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذي قتل من آل فرعون الإسرائيلي الذي أفشى عليه أم الفرعوني؟ قال إنما أفشى عليه الفرعوني بما سمع الإسرائيلي الذي شهد ذلك، وحضره. هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائي، وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيرهما من حديث يزيد بن هارون والأشبه والله أعلم، أنه موقوف وكونه مرفوعاً فيه نظر وغالبه متلقّى من الإسرائيليات، وفيه شيء يسير مصرّح برفعه في أثناء الكلام، وفي بعض ما فيه نظر، ونكارة والأغلب أنه كلام [كعب][2] الأحبار، وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجّاج المزيّ يقول ذلك والله أعلم.

(١) نتق: زعزع. (٢) سقط في ط.

[ذكر][(١)] بناء قبة الزمان

قال أهل الكتاب: وقد أمر الله موسى عليه السلام بعمل قبّة من خشب الشمشار وجلود الأنعام وشعر الأغنام، وأمر بزينتها بالحرير المصبغ والذهب والفضّة على كيفيات مفصّلة عند أهل الكتاب، ولها عشر سرادقات طول كل واحد ثمانية وعشرون ذراعاً، وعرضه أربعة أذرع، ولها أربعة أبواب وأطناب[(٢)] من حرير ودمقس مصبغ، وفيها رفوف وصفائح من ذهب وفضّة، ولكل زاوية بابان وأبواب أخر كبيرة وستور من حرير مصبغ وغير ذلك مما يطول ذكره، ويعمل تابوت من خشب الشمشار يكون طوله ذراعين ونصفاً وعرضه ذراعين، وارتفاعه ذراعاً ونصفاً ويكون مضبباً بذهب خالص من داخله وخارجه، وله أربع حلق في أربع زواياه، ويكون على حافيته كروبيان من ذهب، يعنون صفة مَلَكَيْن بأجنحة، وهما متقابلان صفة رجل اسمه بصليال، وأَمَرَاه أن يعمل مائدة من خشب الشمشار طولها ذراعاً وعرضها ذراع ونصف لها ضباب ذهب وإكليل ذهب بشفة مرتفعة بإكليل من ذهب، وأربع حلق من نواحيها من ذهب معزرة في مثل الرمان من خشب ملبّس ذهباً، واعمل صحافاً ومصافي وقصاعاً على المائدة واصنع منارة من الذهب دلّي فيها ست قصبات من ذهب من كل جانب ثلاثة. على كل قصبة ثلاث سرج، وليكن في المنارة أربع قناديل، ولتكن هي وجميع هذه الآنية من قنطار من ذهب صنع ذلك بصليال أيضاً، وهو الذي عمل المذبح أيضاً، ونصب هذه القبّة أول يوم من سنتهم، وهو أول يوم من الربيع، ونصب تابوت الشهادة وهو والله أعلم المذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٤٨].

وقد بسط هذا الفصل في كتابهم مطولاً جداً، وفيه شرائع لهم وأحكام وصفة قربانهم وكيفيته، وفيه أنّ قبّة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل الذي هو متقدّم على مجيء بيت المقدس، وإنها كانت لهم كالكعبة يصلّون فيها وإليها، ويتقرّبون عندها، وأن موسى عليه السلام كان إذا دخلها يقفون عندها، وينزل عمود الغمام على بابها فيخرون عند ذلك سجّداً لله عزّ وجلّ، ويكلّم الله موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام الذي هو نور، ويخاطبه ويناجيه ويأمره وينهاه، وهو واقف عند التابوت، صامد إلى ما بين الكروبين، فإذا فصل الخطاب يخبر بني إسرائيل بما أوحاه الله عزّ وجلّ إليه من الأوامر والنواهي، وإذا تحاكموا إليه في شيء ليس عنده من الله فيه شيء يجيء إلى قبّة الزمان ويقف عند التابوت ويصمد لما بين ذينك الكروبين فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة، وقد كان هذا مشروعاً لهم في زمانهم، أعني استعمال الذهب والحرير المصبغ واللآلىء في معبدهم، وعند مصلاّهم، فأما في شريعتنا فلا، بل قد نُهينا عن زخرفة المساجد وتزيينها لئلا تشغل المصلّين، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمّا وسع في مسجد رسول الله ﷺ للذي وكّله على عمارته ابنِ للناس ما يكنهم، وإياك

---

(١) سقط في ط.

(٢) أطناب: أوتاد، أو حبال.

أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس. وقال ابن عبّاس لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى كنائسهم، وهذا من باب التشريف والتكريم والتنزيه، فهذه الأمة غير مشابهة من كان قبلهم من الأمم، إذ جمع الله همّهم في صلاتهم على التوجّه إليه والإقبال عليه، وصان أبصارهم وخواطرهم عن الاشتغال والتفكّر في غير ما هم بصدده من العبادة العظيمة، فللّه الحمد والمنّة.

وقد كانت قبّة الزمان هذه مع بني إسرائيل في التيه يصلّون إليها، وهي قِبْلَتهم وكَعْبَتُهم وإمامهم كليم الله موسى عليه السلام، ومقدّم القربان أخوه هارون عليه السلام. فلما مات هارون ثم موسى عليهما السلام استمرت بنو هارون في الذي كان يليه أبوهم من أمر القربان، وهو فيهم إلى الآن، وقام بأعباء النبوّة بعد موسى وتدبير الأمر بعده فتاه يوشع بن نون عليه السلام، وهو الذي دخل بهم بيت المقدس كما سيأتي بيانه، والمقصود هنا أنه لمّا استقرت يده على البيت المقدّس نصب هذه القبّة على صخرة بيت المقدس، فكانوا يصلّون إليها، فلما بادت صلوا إلى محلّتها وهي الصخرة، فلهذا كانت قبلة الأنبياء بعده إلى زمان رسول الله ﷺ، وقد صلّى إليها رسول الله ﷺ قبل الهجرة، وكان يجعل الكعبة بين يديه. فلما هاجر أمر بالصلاة إلى بيت المقدس، فصلى إليها ستة عشر. وقيل سبعة عشر شهراً. ثم حوّلت القبلة إلى الكعبة وهي قبلة إبراهيم في شعبان سنة اثنتين في وقت صلاة العصر وقيل الظهر، كما بسطنا ذلك في التفسير عند قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: الآية ١٤٢] إلى قوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: الآية ١٤٤]. الآيات.

قصة قارون مع موسى عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: الآيات ٧٦ـ٨٣].

قال الأعمش عن المِنْهَالِ بن عمرو بن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس قال: كان قارون ابن عم موسى، وكذا قال إبراهيم النَّخْعِي وعبد الله بن الحَرثِ بن نَوْفَلٍ وَسِمَاكُ بن حرب وقَتَادَةُ

ومالك بن دينار وابن جُرَيْج، وزاد فقال هو قارون بن يصهر بن قَاهِث وموسى بن عمران بن هافث. قال ابن جُرَيْج وهذا قول أكثر أهل العلم أنه كان ابن عم موسى. وردّ قول ابن إسحاق إنه كان عمّ موسى، قال قتادة وكان يسمى النور لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدوّ الله نافق كما نافق السامري فأهلكه البغي لكثرة ماله.

وقال شَهْرُ بن حَوْشَبٍ زاد في ثيابه شبراً طولاً ترفعاً على قومه. وقد ذكر الله تعالى كثرة كنوزه حتى أن مفاتيحه كان يثقل حملها على القيام من الرجال الشداد، وقد قيل إنها كانت من الجلود وإنها كانت تحمل على ستين بغلاً فالله أعلم. وقد نصحه[1] النصحاء من قومه قائلين لا تفرح أي لا تبطر بما أعطيت وتفخر على غيرك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ يقولون لتكن همّتك مصروفة لتحصيل ثواب الله في الدار الآخرة، فإنه خير وأبقى، ومع هذا ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي تناول[2] منها بمالك ما أحلّ الله لك فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله خالقهم وبارئهم إليك ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ولا تسيء إليهم ولا تفسد فيهم فتقابلهم ضد ما أمرت فيهم فيعاقبك ويسلبك ما وهبك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧﴾ فما كان جواب قومه لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة إلا أن ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ يعني أنا لا أحتاج إلى استعمال ما ذكرتم ولا إلى ما إليه أشرتم، فإن الله إنما أعطاني هذا لعلمه أني أستحقه وأني أهل له، ولولا أني حبيب إليه وحظي عنده لما أعطاني ما أعطاني قال الله تعالى رداً عليه ما ذهب إليه: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٧٨﴾ أي قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطاياهم من هو أشدّ من قارون قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، فلو كان ما قال صحيحاً لم نعاقب أحداً ممن كان أكثر مالاً منه، ولم يكن ماله دليلاً على محبّتنا له واعتنائنا به كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: الآية ٣٧] وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون: الآيتان ٥٥ ـ ٥٦].

وهذا الردّ عليه يدلّ على صحة ما ذهبنا إليه من معنى قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء، أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم فاستعمله في جمع الأموال فليس بصحيح، لأن الكيمياء تخييل وصبغة لا تحيل الحقائق، ولا تشابه صنعة الخالق والاسم الأعظم لا يصعد الدعاء به من كافر به، وقارون كان كافراً في الباطن منافقاً في الظاهر. ثم لا يصحّ جوابه لهم بهذا على هذا التقدير ولا يبقى بين الكلامين تلازم، وقد وضحنا هذا في كتابنا التفسير ولله الحمد.

قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ ذكر كثير من المفسّرين أنه خرج في تجمل

(١) في ط: وعظه.
(٢) في ط: وتناول بثبات حرف العطف.

عظيم من ملابس ومراكب وخدم وحشم، فلما رآه من يعظّم زهرة الحياة الدنيا تمنّوا أن لو كانوا مثله، وغبطوه بما عليه وله، فلمّا سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح الزهّاد الألباء قالوا لهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي ثواب الله في الدار الآخرة خير وأبقى وأجل وأعلى قال الله تعالى ولا يلقاها إلا الصابرون أي وما يلقي هذه النصيحة وهذه المقالة وهذه الهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية، إلاّ من هدى الله قلبه وثبت فؤاده، وأيدّ لبّه وحقّق مراده، وما أحسن ما قال بعض السلف إن الله يحبّ البصر النافذ عند ورود الشبهات، والعقل الكامل عند حلول الشهوات. قال الله تعالى فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله، وما كان من المنتصرين. لما ذكر تعالى خروجه في زينته واختياله[1] فيها، وفخره على قومه بها، قال: فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ كما روى البخاري من حديث الزّهري عن سَالِم عن أبيه عن النبيّ ﷺ قال: «بَيْنَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ إِذْ خُسِفَ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الأَرْضِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[2]

ثم رواه البخاري من حديث جرير بن زَيْدٍ عن سَالم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه. وقد ذكر ابن عبّاس والسّدّي أن قارون أعطى امرأة بغياً مالاً على أن تقول لموسى عليه السلام وهو في ملأ من الناس إنك فعلت بي كذا وكذا، فيقال إنها قالت له ذلك فأرعد من الفرق وصلّى ركعتين. ثم أقبل عليها فاستحلفها من ذلك على ذلك وما حملك عليه؟ فذكرت أن قارون هو الذي حملها على ذلك، واستغفرت الله وتابت إليه، فعند ذلك خرّ موسى لله ساجداً ودعا الله على قارون، فأوحى الله إليه إني قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره، فكان ذلك فالله أعلم. وقد قيل إن قارون لمّا خرج على قومه في زينته مر بجحفله[3] وبغاله وملابسه على مجلس موسى عليه السلام، وهو يذكر قومه بأيام الله، فلما رآه الناس انصرفت وجوه كثير من الناس ينظرون إليه، فدعا موسى عليه السلام فقال له: ما حملك على هذا؟ فقال يا موسى أما لئن كنت فضّلت عليّ بالنبوة، فلقد فضّلت عليك بالمال، ولئن شئت لتخرجنّ فلتدعونّ عليّ ولأدعونّ عليك، فخرج وخرج قارون في قومه، فقال له موسى: تدعو أو أدعو؟ قال: أدعو أنا، فدعى قارون فلم يجب في موسى، فقال موسى: أدعو؟ قال: نعم، فقال موسى اللهم مر الأرض فلتطعني اليوم، فأوحى الله إليه إني قد فعلت، فقال موسى: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى أقدامهم، ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم، ثم إلى مناكبهم، ثم قال أقبلي بكنوزهم وأموالهم فأقبلت بها حتى نظروا إليها، ثم أشار موسى بيده فقال: اذهبوا بني لاوي فاستوت بهم الأرض. وقد روي عن قتادة أنه قال يخسف بهم كل يوم قامة إلى يوم القيامة. وعن ابن عبّاس أنه قال خسف بهم إلى الأرض السابعة. وقد ذكر كثير من المفسّرين ههنا

---

(١) الاختيال: الخيلاء والتكبر.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٤، واللباس باب ٥، وأحمد في المسند ٢/٦٦.

(٣) الجحفل: الجيش الكبير.

إسرائيليات كثيرة أضربنا عنها صفحاً، وتركناها قصداً. وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ لم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره كما قال: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ ولما حلّ به ما حلّ من الخسف وذهاب الأموال وخراب الدار وإهلاك النفس والأهل والعقار، ندم من كان تمنّى مثل ما أوتي، وشكروا الله تعالى الذي يدبّر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون، ولهذا قالوا: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ وقد تكلّمنا على لفظ ويك في التفسير، وقد قال قَتَادَةُ ويكأن بمعنى ألم تر أن، وهذا قول حسن من حيث المعنى والله أعلم. ثم أخبر تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ وهي دار القرار وهي الدار التي يغبط من أعطيها ويعزّي من حرمها إنما هي معدّة للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً. فالعلو هو التكبّر والفخر والأشر والبطر، والفساد هو عمل المعاصي اللازمة والمتعدية من أخذ أموال الناس وإفساد معايشهم والإساءة إليهم وعدم النصح لهم، ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾. وقصّة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر لقوله فخسفنا به وبداره الأرض، فإن الدار ظاهرة في البنيان، وقد تكون بعد ذلك في التيه وتكون الدار عبارة عن المحلّة التي تضرب فيها الخيام كما قال عنترة: [الكامل]

يَا دَارَ عَبْلَةَ بِالجَوَاءِ[1] تَكَلَّمِي ... وَعِمِّي صَبَاحاً دَارَ عَبْلَةَ وَاسْلَمِي

والله أعلم. وقد ذكر الله تعالى مذمّة قارون في غير ما آية من القرآن. قال الله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر: الآية ٢٤].

وقال تعالى في سورة العنكبوت بعد ذكر عاد وثمود. وقارون وفرعون وهامان: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: الآيتان ٣٩ ـ ٤٠] فالذي خسف به الأرض قارون كم تقدّم، والذي أغرق فرعون وهامان وجنودهما أنهم كانوا خاطئين. وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا سعيد، حدثنا كَعْبُ بن عَلْقَمَة عن عيسى بن هِلاَلٍ الصَّدَفِي عن عبد الله بن عمرو عن النبيّ ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال: «مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُوراً وَبُرْهَاناً وَنَجَاةً يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلاَ بُرْهَانٌ وَلاَ نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ[2]». انفرد به أحمد رحمه الله.

(١) الجواء: البطن من الأرض والواسع من الأودية. وهو وادٍ في ديار عبس.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ١٦٩/٢.

[ذكر][(١)] فضائل موسى عليه السلام وشمائله وصفاته ووفاته

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: الآيات ٥١-٥٣].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: الآية ١٤٤].

وتقدم في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لاَ تُفَضِّلُونِي عَلَى مُوسَى فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَفِيقُ فَأَجِدُ مُوسَى بَاطِشاً بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ فَلا أَدْرِي أَصْعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ»[(٢)] وقدمنا أنه من رسول الله ﷺ من باب الهضم والتواضع وإلا فهو صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء وسيّد ولد آدم في الدنيا والآخرة قطعاً جزماً لا يحتمل النقيض.

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [النساء: الآية ١٦٣] إلى أن قال: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: الآية ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٦٩].

قال الإمام أبو عبد الله البخاري: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن رَوْح بن عُبادة عن عَوْف عن الحسن ومحمد وخَلاَّس عن أبي هُرَيْرَةَ قال قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلاً حَيِيّاً سِتِّيراً لاَ يُرَى جِلْدَهُ شيءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ فَآذَاهُ من آذاه مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلاَّ مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ إِمَّا بَرَصٌ وإما[(٣)] أُدْرَةٌ[(٤)] وَإِمَّا آفَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّأَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى، فَخَلا يَوْماً وَحْدَهُ فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الْحَجَرِ. ثُمَّ اغْتَسَلَ. فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ عَلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا وإذا[(٥)] الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ فَجَعَلَ يَقُولُ ثَوْبِي حَجَرٌ ثَوْبِي حَجَرٌ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَوْهُ عُرْيَاناً أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ وَبَرَّأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ، وَقَامَ الْحَجَرُ فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْباً بِعَصَاهُ فَوَاللَّهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَباً[(٦)] مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلاثاً أَوْ أَرْبَعاً أَوْ خَمْساً، قَالَ فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾[(٧)] [الأحزاب: الآية ٦٩]»

---

(١) في ط: باب.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الانبياء باب ٣١، ومسلم في الفضائل حديث ١٦٠، وأحمد في المسند ٢/ ٢٦٤.

(٣) في ط: أو.

(٤) الأدرة: فتق في إحدى الخصيتين.

(٥) في ط: وإن.

(٦) ندباً: الندب: أثر الجرح على الجلد.

(٧) أخرجه البخاري في أحاديث الانبياء باب ٢٨، والغسل باب ٢٠، ومسلم في الحيض حديث ٧٥، وأحمد في المسند ٢/ ٢١٥.

وقد رواه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن شَقِيق وَهمّام بن مُنَبِّهٍ عن أبي هريرة به، وهو في الصحيحين من حديث عبد الرَزّاقِ عن مَعْمَرٍ عن هَمّامٍ عنه به ورواه مسلم من حديث عبد الله بن شَقِيقٍ العَقِيلي عنه.

قال بعض السلف كان من وجاهته أنه شفع في أخيه عند الله، وطلب منه أن يكون معه وزيراً فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه طلبته وجعله نبياً، كما قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝٥٣﴾ [مريم: الآية ٥٣].

ثم قال البخاري حدثنا أبو الوليد، حدثنا شُعْبَةُ، حدثنا الأَعْمَشُ سألت أبا وَائِلٍ قال سمعت عبد الله قال قسم رسول الله ﷺ قَسْماً فقال رجل إن هذه قسمة ما أريدَ بها وجهُ اللَّهِ فأتيتُ النبيَّ ﷺ [فأخبرته](١) فغضبَ حتى رأيتُ الغضبَ في وجهه ثم قال: «يَرْحَمِ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»(٢)

وكذا رواه مسلم من غير وجه عن سُلَيْمَانَ بن مِهْرَانَ الأَعْمَشِ به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن حَجَّاجٍ سمعت إسرائيل بن يونس عن الوليد بن أبي هاشم مولى لِهَمْدَانَ عن زَيْدِ بن أبي زائِدٍ عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لاَ يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئاً فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ» قال وأُتِيَ رسولُ الله ﷺ مالٌ فَقَسَمَهُ، قال: فمررتُ برجلينِ وأحدهما يقول لصاحبه: واللَّهِ ما أرادَ محمدٌ بقسمتِه وجهَ اللَّهِ ولا الدارَ الآخرة، فثبت حتى سمعتُ ما قالا. ثم أتيتُ رسولَ اللَّهِ فقلتُ يا رسولَ الله إنَّكَ قلتَ لنا لا يُبلِّغني أحدٌ عن أحدٍ من أصحابي شيئاً، وإني مررتُ بفلانٍ وفلانٍ وهما يقولان كذا وكذا فاحمرّ وجهُ رسولِ الله ﷺ وشَقَّ عَلَيْهِ. ثم قال: دَعْنَا مِنْكَ فَقَدْ أُوذِيَ مُوسَى أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فَصَبَرَ(٣). وهكذا رواه أبو داود والترمذيّ من حديث إسرائيل عن الوليد بن أبي هاشم به.

وفي رواية للترمذي ولأبي داود من طريق ابن عبد عن إسرائيل عن السُدِّي عن الوليد به، وقال الترمذيُّ غريب من هذا الوجه. وقد ثبت في الصحيحين في أحاديث الإسراء أنَّ رسولَ الله ﷺ مرّ بموسى وهو قائم يصلّي في قبره. ورواه مُسلم عن أنس. وفي الصحيحين من رواية قَتَادَةَ عن أنس عن مالك بن صَعْصَعَةَ عن النبي ﷺ أنه مر ليلة أسري به بموسى في السماء السادسة فقال له جبريل هذا موسى فسلّم عليه، قال: «فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ مَرْحَباً بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ، فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ بَكَى قِيلَ لَهُ مَا يُبْكِيكَ قَالَ أَبْكِي لأَنَّ غُلاَماً ما بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي»(٤). وذكر إبراهيم في السماء السابعة.

---

(١) سقط في ط.
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الانبياء باب ٢٨، ومسلم في الزكاة حديث ١٤١، وأحمد في المسند ١/ ٤١١.
(٣) أخرجه أبو داود في الادب باب ٣٣، والترمذي في المناقب باب ٦٤، وأحمد في المسند ١/ ٣٩٥، ٣٩٦.
(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٦، ومناقب الانصار باب ٤٢، ومسلم في الفضائل حديث ١٦٥، والإيمان حديث ٢٦٤، وأحمد في المسند ٣/ ٢٤٨.

وهذا هو المحفوظ وما وقع في حديث شُرَيْك بن أبي نَمْرٍ عن أنس من أن إبراهيم في السادسة وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله فقد ذكر غير واحد من الحفاظ أن الذي عليه الجادة أن موسى في السادسة وإبراهيم في السابعة وأنه مسند ظهره إلى البيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم. واتفقت الروايات كلّها على أن الله تعالى لما فرض على محمد ﷺ وأمته خمسين صلاة في اليوم والليلة فمرّ بموسى قال ارجع إلى ربّكَ فسلهُ التخفيفَ لأمّتك فإني قد عالجت بني إسرائيل قبلك أشد المعالجة، وإن أمّتك أضعف أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، فلم يزل يتردّد بين موسى وبين الله عزّ وجلّ ويخففّ عنه في كل مرّة حتى صارت إلى خمس صلوات في اليوم والليلة، وقال الله تعالى هي خمس وهي خمسون أي بالمضاعفة فجزى الله عنا محمداً ﷺ خيراً وجزى الله عنا موسى عليه السلام خيراً. وقال البخاري حدثنا مُسَدَّدُ حدثنا حُصَيْنٌ بن نُمَيْرٍ عن حُصَيْنٍ بن عبد الرحمن عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ وَرَأَيْتُ سَوَاداً كَثِيراً سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيلَ هَذَا مُوسَى فِي قَوْمِهِ»[1]. هكذا روى البخاري هذا الحديث ههنا مختصراً.

وقد رواه الإمام أحمد مطولاً، فقال: حدثنا شُرَيْحٌ حدثنا هشام حدثنا حُصَيْنُ بن عبد الرحمن. قال كنت عند سعيد بن جُبَيْر فقال أيّكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ قلت: أنا، ثم قلت: إني لم أكن في صلاة ولكن لدغت[2]. قال وكيف فعلت قلت استرقيت. قال وما حملك على ذلك قال قلتُ حديث حدثناه الشّعْبي عن بُرَيْدَةَ الأَسْلَمِيّ أنه قال: لاَ رُقْيَةَ إلاَّ مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَّةٍ، فقال سعيد يعني ابن جُبَيْر قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ثم قال حدثنا ابن عبّاس عن النبي ﷺ، قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ وَالنَّبِيَّ مَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلاَنِ وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقُلْتُ هَذِهِ أُمَّتِي؟ فَقِيلَ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ. ثُمَّ قِيلَ انْظُرْ إِلَى هَذَا الجَانِبِ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفاً يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ» ثُمَّ نَهَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلَ فخاضَ القومُ في ذلك فقالوا من هؤلاء الذين يدخلون الجنّة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم لعلّهم الذين صحبوا النبي ﷺ. وقال بعضهم لعلّهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً قط. وذكروا أشياء فخرج إليهم رسول الله ﷺ فقال: «مَا هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ تَخُوضُونَ فِيهِ؟» فأخبروه بمقالتهم، فقال: «هُمُ الَّذِينَ لاَ يَكْتَوُونَ وَلاَ يَسْتَرْقُونَ وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فقام عُكَاشَةُ بن مُحَيْصِنٍ الأَسَدِي فقال: أنا منهم يا رسولَ الله؟ قال: «أَنْتَ مِنْهُمْ». ثم قام آخر فقال أنا منهم يا رسولَ الله؟ فقال: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ»[3]

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٣١.

(٢) لدغت: أي لدغتني عقرب أو حية.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٥٠، ومسلم في الإيمان حديث ٣٧٤، والترمذي في صفة القيامة باب ١٦، وأحمد في المسند ١/ ٢٧١.

وهذا الحديث له طرق كثيرة جداً، وهو في الصحاح والحسان وغيرها، وسنوردها إن شاء الله تعالى في باب صفة الجنّة عند ذكر أحوال القيامة وأهوالها. وقد ذكر الله تعالى موسى عليه السلام في القرآن كثيراً وأثنى عليه وأورد قصّته في كتابه العزيز مراراً وكرّرها كثيراً مطولة ومبسوطة ومختصرة وأثنى عليه بليغاً. وكثيراً ما يقرنه الله ويذكره ويذكر كتابه مع كتاب محمد ﷺ وكتابه كما قال في سورة البقرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة: الآية ١٠١].

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران: الآيات ١ ـ ٤].

وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ٩١ ـ ٩٢] فأثنى تعالى على التوراة ثم مدح القرآن العظيم مدحاً عظيماً. وقال تعالى في آخرها ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ١٥٤ ـ ١٥٥].

وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: الآية ٤٤] إلى أن قال: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: الآيتان ٤٧ ـ ٤٨] الآية فجعل القرآن حاكماً على سائر الكتب غيره وجعله مُصَدِّقاً لها ومُبَيِّناً ما وقع فيها من التحريف والتبديل، فإن أهل الكتاب استحفظوا على ما بأيديهم من الكتب فلم يقدروا على حفظها ولا على ضبطها وصونها، فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم لسوء فُهُومِهِم وقصورهم في علومهم ورداءة قصودهم وخيانتهم لمعبودهم عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة، ولهذا يوجد في كتبهم من الخطأ البيّن على الله وعلى رسوله ما لا يحد ولا يوصف وما لا يوجد مثله ولا يعرف. وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء: الآيات ٤٨ ـ ٥٠].

وقال الله تعالى في سورة القصص: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ

﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [القصص: الآيتان ٤٨-٤٩]. فأثنى الله على الكتابين وعلى الرسولين عليهما السلام. وقالت الجنّ لقومهم إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى.

وقال وَرَقَةُ بن نَوْفَلٍ لما قصّ عليه رسول الله ﷺ خبر ما رأى من أوّل الوحي وتلا عليه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: الآيات ١-٥] قال سبوح سبوح هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران.

وبالجملة فشريعة موسى عليه السلام كانت عظيمة وأمّته كانت أمة كثيرة، ووجد فيها أنبياء وعلماء وعبّاد وزهّاد وألباء وملوك وأمراء وسادات وكبراء. لكنهم كانوا فبادوا وتبّدلوا كما بدّلت شريعتهم ومسخوا قردة وخنازير، ثم نسخت بعد كل حساب ملّتهم وجرت عليهم خطوب[١] وأمور يطول ذكرها، ولكن سنورد ما فيه مقنع لمن أراد أن يبلغه خبرها إن شاء الله. وبه الثقة وعليه التكلان.

ذكر حج موسى عليه السلام إلى البيت العتيق وصفته

قال الإمام أحمد: حدثنا هِشَام حدثنا داوُدُ بن أبي هِنْدٍ عن أبي العَالِيَةِ عن ابن عبّاس أن رسول الله ﷺ مرّ بوادي الأزرق فقال: أَيُّ وَادٍ هَذَا؟ قالوا وادي الأَزْرَقُ. قال: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى وَهُوَ هَابِطٌ مِنَ الثَّنِيَّةِ[٢] وَلَهُ جُؤَارٌ[٣] إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالتَّلْبِيَةِ»، حَتَّى أَتَى عَلَى ثَنِيَّةِ هَرْشَاءَ. فقال: «أَيُّ ثَنِيَّةٍ هَذِهِ؟» قالوا: هذه ثَنِيَّةُ هَرْشَاءَ، قَالَ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ خُطَامُ[٤] نَاقَتِهِ خَلْبَةٌ»[٥]. قال هُشَيْم يعني ليفاً وهو يلبي. أخرجه مسلم من حديث داود بن أبي هِنْدٍ به.

وروى الطَّبَرَانِي عن ابن عبّاس مرفوعاً: «إِنَّ مُوسَى حَجَّ عَلَى ثَوْرٍ أَحْمَرَ»، وهذا غريب جداً. وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن أبي عَدِيٍّ عن ابن عَوْنٍ عن مُجَاهِدٍ، قال: كنا عند ابن عبّاس فذكروا الدّجّالَ فقال إنه مكتوب بين عينيه (ك ف ر) قال: ما يقولون؟ قال: يقولون مكتوب بين عينيه (ك ف ر) فقال ابن عبّاس: لم أسمعه قال ذلك، ولكن قال: «أَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَانْظُرُوا إِلَى صَاحِبِكُمْ. وَأَمَّا مُوسَى فَرَجُلٌ آدَمُ جَعْدُ الشَّعْرِ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ مَخْطُومٍ بِخَلْبَةٍ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَقَدِ انْحَدَرَ مِنَ الوَادِي يُلَبِّي»[٦] قَالَ هُشَيْمٌ الخلبة الليف.

ثم رواه الإمام أحمد عن أَسْوَد عن إسرائيل عن عثمان بن المُغِيرَةِ عن مجاهد عن

(١) الخطوب: المصائب والأمور العظيمة. (٢) الثنية: منعطف الوادي.
(٣) جؤار: جار: أي رفع صوته بالدعاء. تضرّع. (٤) خطام: كل ما وضع في أنف البعير ليقتاد به.
(٥) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٦٨، وأحمد في المسند ١/ ٢١٥، ٢١٦.
(٦) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٧٦، ٢٧٧.

ابن عبّاس قال قال رسول الله ﷺ: «رَأَيتُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَمُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ فَأَمَّا عِيسَى فأبيضُ جَعْدٌ عَرِيضُ الصَّدْرِ. وَأَمَّا مُوسَى فَآدَمُ جَسِيمٌ». قالوا فإبراهيمُ قال: «انْظُرُوا إِلَى صَاحِبِكُمْ»[١] وقال الإمام أحمد: حدثنا يُونُسُ حدثنا شَيْبَانُ قال: حدّث قَتَادَةُ عن أبي العَالِيَةِ حدثنا ابنُ عَمِّ نَبِيِّكُمْ ابن عبّاسٍ قال قال نبيُّ اللّهِ ﷺ: «رَأَيتُ لَيلَةَ أُسْرِيَ بِي مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ رَجُلاً طُوَالاً جَعْداً كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ وَرَأَيتُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مَرْبُوعَ الخَلْقِ إِلَى الحُمْرَةِ وَالبَيَاضِ سَبْطَ[٢] الرَّأْسِ»[٣] وأخرجاه من حديث قَتَادَةَ به. وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر قال الزُّهْري وأخبرني سَعِيدُ بن المُسَيِّب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حِينَ أُسْرِيَ بِي لَقِيتُ مُوسَى». فَنَعَتَهُ فَقَالَ: «رَجُلٌ» قَالَ حَسِبْتُهُ قَالَ مُضْطَرِبٌ «رَجِلِ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ. وَلَقِيتُ عِيسَى». فنعته رسول الله ﷺ فقال: «رَبْعَةٌ أَحْمَرُ كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ» يَعْنِي حَمَّاماً قال: «وَرَأَيتُ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا أَشْبَهُ ولده به»[٤]. الحديث. وقد تقدّم غالب هذه الأحاديث في ترجمة الخليل.

ذكر وفاته عليه السلام

قال البخاري في صحيحه: (وفاة موسى عليه السلام)، حدثنا يحيى بن موسى، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا مَعْمَرُ عن ابن طَاوُسَ عن أبيه عن أبي هريرة قال: أُرْسِلَ ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صَكَّهُ[٥] فرجعَ إِلَى رَبِّهِ عزَّ وَجلَّ، فقال أرسلْتَنِي إلى عبدٍ لا يريدُ الموتَ، قال ارجعْ إليهِ فقلْ لهُ يضعُ يدهَ على مَتْنِ ثَوْرٍ، فله بما غطَّتْ يدهُ بكل شعرةٍ سنة. قال: أيْ ربِّ ثم ماذَا؟ قال: ثم الموتُ، قال فالآنَ، قال: فسأل الله عزّ وجلّ أن يُدنيه من الأرضِ المقدّسةِ رميةً بِحَجَرٍ. قال أبو هُرَيْرَة فقال رسول الله ﷺ: «فَلَوْ كُنْتُ ثَمَّ لأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الكَثِيبِ الأَحْمَرِ»[٦]. قال وأنبأنا مَعْمَرُ عن هَمَّامٍ عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ نحوه.

وقد روى مسلم الطريق الأول من حديث عبد الرزاق به.

ورواه الإمام أحمد من حديث حمّاد بن سَلَمَةَ عن عمّار بن أبي عمّار عن أبي هريرة مرفوعاً وسيأتي.

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن حدثنا ابن لُهيعة حدثنا أبو يُونُسَ يعني سَلِيمُ بن جُبَيْر عن أبي هريرة قال الإمام أحمد: لم يرفعه. قال: جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال: أجبْ ربّكَ فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها. فرجع الملك إلى الله فقال: إنك بعثتني إلى عبد لك لا يريد الموت. قال وقد فقأ عيني قال فردّ الله عينه، وقال ارجع إلى عبدي فقل له:

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/٢٩٦.
(٢) السبط: الطويل.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ١/٢٤٥.
(٤) أخرجه أحمد في المسند ٢/٢٨٢.
(٥) صكه: ضربه ضربة شديدة.
(٦) أخرجه البخاري في أحاديث الانبياء باب ٣١، ومسلم في الفضائل حديث ١٥٨، وأحمد في المسند ٢/ ٢٦٩، ٥٣٣.

الحياةَ تريدُ فإن كنت تريدُ الحياةَ؟ فضعْ يدكَ على مَتْنِ ثَوْرٍ فما وارت يدك من شعره فإنك تعيش بها سنة، قال: ثم مه، قال: ثم الموت، قال فالآنَ يا ربِّ مِنْ قَرِيبٍ[١]. تفرّد به أحمد وهو موقوف بهذا اللفظ. وقد رواه ابن حِبّان في صحيحه من طريق مَعْمَرٍ عن ابن طَاوُسَ عن أبيه عن أبي هريرة، قال مَعْمَرُ: وأخبرني من سمع الحسن عن رسول الله فذكره ثم استشكله ابن حِبان وأجاب عنه بما حاصله أن ملك الموت لما قال له هذا، لم يعرفه، لمجيئه له على غير صور يعرفها موسى عليه السلام، كما جاء جبريل في صورة أعرابي، وكما وردت الملائكة على إبراهيم ولوط في صورة شباب، فلم يعرفهم إبراهيم ولا لوط أولاً، وكذلك موسى لعلّه لم يعرفه لذلك ولطمه ففقأ عينه لأنه دخل داره بغير إذنه، وهذا موافق لشريعتنا في جواز فقء عين من نظر إليك في دارك بغير إذن. ثم أورد الحديث من طريق عبد الرَّزّاق عن مَعْمَرٍ عن هَمّام عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «جَاءَ مَلَكُ المَوْتِ إِلَى مُوسَى لِيَقْبِضَ رُوحَهُ قَالَ لَهُ: أَجِبْ رَبَّكَ فَلَطَمَ مُوسَى عَيْنَ مَلَكِ المَوْتِ فَفَقَأَ عَيْنَه»[٢] وذكر تمام الحديث كما أشار إليه البخاري، ثم تأوّله على أنه لما رفع يده ليلطمه، قال له: أجب ربّك وهذا التأويل لا يتمشى على ما ورد به اللفظ من تعقيب قوله أجب ربّك بلطمه، ولو أستمرّ على الجواب الأول لتمشّى له وكأنه لم يعرفه في تلك الصورة، ولم يحمل قوله هذا على أنه مطابق إذا لم يتحقّق في الساعة الراهنة أنه ملك كريم،، لأنه كان يرجو أموراً كثيرة كان يحبّ وقوعها في حياته من خروجه من التيه ودخولهم الأرض المقدسة، وكان قد سبق في قدر[٣] الله أنه عليه السلام يموت في التيه بعد هارون أخيه، كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

وقد زعم بعضهم أن موسى عليه السلام هو الذي خرج بهم من التيه، ودخل بهم الأرض المقدسة. وهذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين. ومما يدل على ذلك قوله لما اختار الموت: ربِّ أدْنِنِي إِلَى الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ رَمْيَةَ حَجَرٍ. ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك، ولكن لمّا كان مع قومه بالتيه وحانت وفاته عليه السلام أحبَّ أن يتقرّبَ إِلَى الأرض التي هاجر إليها، وحثّ قومه عليها، ولكن حال بينهم وبينها القدر رمية بحجر ولهذا قال سيدُ البَشَرِ ورسول الله إلى أهل الوَبَر والمَدَر. «فَلَوْ كُنْتُ ثَمَّ لأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ عِنْدَ الكَثِيبِ الأَحْمَرِ».

وقال الإمام: حدثنا عَفّانُ حدثنا حمّاد، حدثنا ثَابِتُ وسليمانُ التَّيْمِي عن أنس بن مالك إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لَمَّا أُسْرِيَ بِي مَرَرْتُ بِمُوسَى وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ عِنْدَ الكَثِيبِ الأَحْمَرِ»[٤]

ورواه مسلم من حديث حمّاد بن سَلَمَةَ به.

وقال السُّدّي عن أبي مالِكٍ وأبي صالح عن ابن عبّاس وعن مرّة عن ابن مسعود وعن ناس

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٥١.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٢٦٩.
(٣) في ط: قدرة.
(٤) أخرجه مسلم في الفضائل حديث ١٦٤، وأحمد في المسند ٣/ ٣٤٨.

من الصحابة، قالوا: ثم إن الله تعالى اوحى إلى موسى إني مُتَوفٌ هارون فائت به جبل كذا وكذا، فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل، فإذا هم بشجرة لم تر شجرة مثلها، وإذا هم ببيت مبني وإذا هم بسرير عليه فرش، وإذا فيه ريح طيبة، فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه، قال: يا موسى إني أحب أن أنام على هذا السرير، قال له موسى: فنم عليه، قال: إني أخاف أن يأتي ربّ هذا البيت فيغضب عليّ، قال له: لا ترهب أنا أكفيك ربّ هذا البيت فنم. قال: يا موسى نم معي فإن جاء ربّ هذا البيت غضب عليّ وعليك جميعاً. فلمّا ناما أخذ هارون الموت فلمّا وجد حسّه قال: يا موسى خدعتني، فلما قُبِضَ رفع ذلك البيت وذهبت تلك الشجرة ورفع السرير به إلى السماء، فلما رجع موسى إلى قومه وليس معه هارون، قالوا فإن موسى قتل هارون وحسده حبّ بني إسرائيل له، وكان هارون أكفّ عنهم وألين لهم من موسى، وكان في موسى بعض الغلظة عليهم، فلما بلغه ذلك قال لهم ويحكم كان أخي أفتروني أقتله. فلما أكثروا عليه قام فصلّى ركعتين، ثم دعا الله فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض. ثم إن موسى عليه السلام بينما هو يمشي ويوشع فتاه إذ أقبلت ريح سوداء، فلما نظر إليها يوشع ظن أنها الساعة فالتزم موسى، وقال: تقوم الساعة وأنا ملتزم موسى نبي الله فاستل موسى عليه السلام من تحت القميص، وترك القميص في يدي يوشع. فلما جاء يوشع بالقميص آخذته بنو إسرائيل، وقالوا قتلت نبي الله. فقال لا والله ما قتلته ولكنه استل مني فلم يصدّقوه وأرادوا قتله. فإذا لم تصدقوني فأخّروني ثلاثة أيام، فدعا الله فأتى كل رجل ممن كان يحرسه في المنام فأخبر أن يوشع لم يقتل موسى، وإنا قد رفعناه إلينا فتركوه. ولم يبق أحد ممن أبى أن يدخل قرية الجبّارين مع موسى إلاّ مات، ولم يشهد الفتح، وفي بعض هذا السياق نكارة وغرابة والله أعلم. وقد قدّمنا أنه لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى سوى يوشع بن نون وكالب بن يوقنا وهو زوج مريم أخت موسى وهارون وهما الرجلان المذكوران فيما تقدم اللذان أشارا على ملأ بني إسرائيل بالدخول عليهم، وذكر وهب بن منبه أن موسى عليه السلام مرّ بملأ من الملائكة يحفرون قبراً، فلم يرَ أحسن منه ولا أنضر ولا أبهج، فقال يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر، فقالوا لعبد من عباد الله كريم، فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر وتمدد فيه وتوجّه إلى ربّك وتنفّس أسهل تنفس، ففعل ذلك، فمات صلوات الله وسلامه عليه، فصلّت عليه الملائكة ودفنوه. وذكر أهل الكتاب وغيرهم أنه مات وعمره مائة وعشرون سنة، وقد قال الإمام أحمد حدّثنا أمية بن خالد، ويونس قالا حدّثنا حمّاد بن سَلَمَة عن عمّار بن أبي عمّار عن أبي هُرَيْرَةَ عن النبيِّ ﷺ قال: يونس رفع هذا الحديث إلى النبيّ ﷺ قال: «كَانَ مَلَكُ المَوْتِ يَأْتِي النَّاسَ عِيَاناً قَالَ فَأَتَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَلَطَمَهُ فَفَقَأَ عَيْنَهُ فَأَتَى رَبَّهِ فَقَالَ يَا رَبِّ عَبْدُكَ مُوسَى فَقَأَ عَيْنِي وَلَوْلاَ كَرَامَتُهُ عَلَيْكَ لَعَنَيْتُ عَلَيْهِ». وقال يونس: «لَشَقَقْتُ عَلَيْهِ». «قَالَ لَهُ اذْهَبْ إِلَى عَبْدِي. فَقُلْ لَهُ فَلْيَضَعْ يَدَهُ عَلَى جِلْدِ (أو) مَسْكِ[1] ثَوْرٍ فَلَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ وَارَتْ يَدُهُ سَنَةٌ، فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ فَقَالَ مَا بَعْدَ هَذَا؟ قَالَ: المَوْتُ. قَالَ: فَالآنَ. قَالَ

(١) مسك: جلد.

فَشَمَّهُ شَمَّةً فَقَبَضَ رُوحَهُ»[1]. قال يونس فردّ الله عليه عينه وكان يأتي الناس خفية. وكذا رواه ابن جرير عن أبي كُرَيْبٍ عن مُصْعَبِ بن المِقْدَامِ عن حَمَّادِ بن سَلَمَة به فرفعه أيضاً.

[ذكر][2] نبوة يوشع وقيامه بأعباء بني إسرائيل بعد موسى وهارون عليهما السلام

هو يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام وأهل الكتاب يقولون يوشع ابن عم هود وقد ذكره الله تعالى في القرآن غير مصرّح باسمه في قصة الخضر كما تقدم من قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف: ٦٠]. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ﴾ وقدمنا ما ثبت في الصحيح من رواية أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ من أنه يوشع بن نون وهو متّفق على نبوّته عند أهل الكتاب فإن طائفة منهم وهم السّامرة لا يقرّون بنبوة أحد بعد موسى إلاّ يوشع بن نون، لأنه مصرّح به في التوراة ويكفرون بما وراءه، وهو الحقّ من ربّهم فعليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة.

وأما ما حكاه ابن جرير وغيره من المفسرين عن محمد بن إسحاق من أن النبوّة حوّلت من موسى إلى يوشع في آخر عمر موسى، فكان موسى يلقى يوشع فيسأله ما أحدث الله من الأوامر والنواهي حتى قال له يا كليم الله إني كنت لا أسألك عمّا يوحي الله إليك حتى تخبرني أنت ابتداء من تلقاء نفسك، فعند ذلك كره موسى الحياة، وأحب الموت، ففي هذا نظر لأن موسى عليه السلام لم يزل الأمر والوحي والتشريع والكلام من الله إليه من جميع أحواله حتى توفّاه الله عزّ وجلّ، ولم يزل معزّزاً مكرّماً مدلّلاً وجيهاً عند الله كما قدّمنا في الصحيح من قصّة فقئه عين ملك الموت، ثم بعثه الله إليه إن كان يريد الحياة فليضع يده على جلد ثور، فله بكل شعرة وارت يده سنة يعيشها، قال: ثم ماذا؟ قال: الموت. قال: فالآن يا ربِّ وسأل الله أن يدنيه إلى بيت المقدس رمية بحجر، وقد أجيب إلى ذلك صلوات الله وسلامه عليه فهذا الذي ذكره محمد بن إسحاق إن كان، إنما يقوله من كتب أهل الكتاب ففي كتابهم الذي يسمّونه التوراة أن الوحي لم يزل ينزل على موسى في كل حين يحتاجون إليه إلى آخر مُدّة موسى كما هو المعلوم من سياق كتابهم عند تابوت الشهادة في قبّة الزمان. وقد ذكروا في السفر الثالث أن الله أمر موسى وهارون أن يعدّا بني إسرائيل على أسباطهم وأن يجعلا على كل سبط من الاثني عشر أميراً، وهو النقيب وما ذاك، إلاّ ليتأهبّوا للقتال، قتال الجبّارين عند الخروج من التيه، وكان هذا عند اقتراب انقضاء الأربعين سنة. ولهذا قال بعضهم إنما فقأ موسى عليه السلام عين ملك الموت لأنه لم يعرفه في صورته تلك، ولأنه كان قد أمر بأمر كان يرتجي وقوعه في زمانه، ولم يكن في قدر الله أن يقع ذلك في زمانه، بل في زمان فتاه يوشع بن نون عليه السلام كما أن رسول الله ﷺ كان قد أراد غزو الروم بالشام فوصل إلى تبوك ثم رجع عامه ذلك في سنة تسع.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٥٣٣.
(٢) سقط في ط.

ثم حجّ في سنة عشر ثم رجع فجهز جيش أسامة إلى الشام طليعة بين يديه، ثم كان على عزم الخروج إليهم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: الآية ٢٩] ولما جهّز رسول الله جيش أسامة توفي عليه الصلاة والسلام وأسامة مخيّم بالجرف، فنفّذه صديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ثم لمّا لمّ أشعث جزيرة العرب وما كان وهى[1] من أمر أهلها وعاد الحق إلى نصابه، جهّز الجيوش يمنة ويسرة إلى العراق أصحاب كسرى ملك الفرس وإلى الشام أصحاب قيصر ملك الروم، ففتح الله لهم ومكنّ لهم وبهم، وملكهم نواصي[2] أعدائهم كما سنورده عليك في موضعه إذا انتهينا إليه مفصلاً إن شاء الله بعونه وتوفيقه وحسن إرشاده وهكذا [كان][3] موسى عليه السلام كان الله قد أمره أن يجنّد بني إسرائيل، وأن يجعل عليهم نقباء كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: الآية ١٢] يقول لهم لئن قمتم بما أوجبت عليكم ولم تنكلوا عن القتال كما نكلتم أول مرّة لأجعلن ثواب هذه مكفراً لما وقع عليكم من عقاب تلك، كما قال تعالى لمن تخلف من الأعراب عن رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [الفتح: الآية ١٦].

وهكذا قال تعالى لبني إسرائيل: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: الآية ١٢] ثم ذمّهم تعالى على سوء صنيعهم ونقضهم مواثيقهم، كما ذمّ من بعدهم من النصارى على اختلافهم في دينهم وأديانهم. وقد ذكرنا ذلك في التفسير مستقصى ولله الحمد.

والمقصود أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يكتب أسماء المقاتلة من بني إسرائيل ممن يحمل السلاح ويقاتل ممن بلغ عشرين سنة فصاعداً، وأن يجعل على كل سبط نقيباً منهم.

السبط الأول: سبط روبيل لأنه بكر يعقوب، كان عدّة المقاتلة منهم ستة وأربعين ألفاً وخمسمائة. ونقيبهم منهم وهو اليصور بن شديثورا.

السبط الثاني: سبط شمعون وكانوا تسعة وخمسين ألفاً وثلاثمائة. ونقيبهم شلوميئيل بن هوريشداي.

السبط الثالث: سبط يهوذا وكانوا أربعة وسبعين ألفاً وستمائة. ونقيبهم نحشون بن عميناداب.

---

(١) في ط: دهى.
(٢) الناصية: قصاص الشعر.
(٣) سقط في ط.

السبط الرابع: سبط ايساخر وكانوا أربعة وخمسين ألفاً وأربعمائة ونقيبهم نشائيل بن صوغر.

السبط الخامس: سبط يوسف عليه السلام وكانوا أربعين ألفاً وخمسمائة ونقيبهم يوشع بن نون.

السبط السادس: سبط ميشا وكانوا أحداً وثلاثين ألفاً ومائتين ونقيبهم جمليئيل بن فدهصور.

السبط السابع: سبط بنيامين وكانوا خمسة وثلاثين ألفاً وأربعمائة ونقيبهم أبيدن بن جدعون.

السبط الثامن: سبط حاد وكانوا خمسة وأربعين ألفاً وستمائة وخمسين رجلاً ونقيبهم الياساف بن رعوئيل.

السبط التاسع: سبط أشير وكانوا أحداً وأربعين ألفاً وخمسمائة ونقيبهم فجعيئيل بن عكرن.

السبط العاشر: سبط دان وكانوا اثنين وستين ألفاً وسبعمائة ونقيبهم أخيعزر بن عمشداي.

السبط الحادي عشر: سبط نفتالي وكانوا ثلاثة وخمسين ألفاً وأربعمائة. ونقيبهم أخيرع بن عين.

السبط الثاني عشر: سبط زبولون وكانوا سبعة وخمسين ألفاً وأربعمائة ونقيبهم الباب بن حيلون.

هذا نصّ كتابهم الذي بأيديهم والله أعلم. وليس منهم بنو لاوي فأمر الله موسى أن لا يعدّهم معهم لأنهم موكلون بحمل قبّة الشهادة وضربها ونصبها وحملها إذا ارتحلوا وهم سبط موسى وهارون عليهما السلام، وكانوا اثنين وعشرين ألفاً من ابن شهر فما فوق ذلك. وهم في أنفسهم قبائل إلى كل قبيلة طائفة من قبّة الزمان يحرسونها ويحفظونها ويقومون بمصالحها ونصبها وحملها وهم كلّهم حولها ينزلون ويرتحلون أمامها ويمنتها وشمالها ووراءها. وجملة ما ذكر من المقاتلة غير بني لاوي خمسمائة ألف وأحد وسبعون ألفاً وستمائة وستة وخمسون، لكن قالوا فكان عدد بني إسرائيل ممن عمره عشرون سنة فما فوق ذلك ممن حمل السلاح ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وخمسين رجلاً سوى بني لاوي وفي هذا نظر، فإن جميع الجمل المتقدمة إن كانت كما وجدنا في كتابهم لا تطابق الجملة التي ذكروها والله أعلم. فكان بنو لاوي الموكلون بحفظ قبة الزمان يسيرون في وسط بني إسرائيل وهم القلب ورأس الميمنة بنو رويبل ورأس الميسرة بنو ران وبنو نفتالي يكونون ساقة. وقرّر موسى عليه السلام بأمر الله تعالى له الكهانة في بني هارون كما كانت لأبيهم من قبلهم، وهم ناداب وهو بكره وأبيهو وألِعَازر ويثمر.

والمقصود أن بني إسرائيل لم يبق منهم أحد ممن كان نكل عن دخول مدينة الجبّارين الذين قالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ۝٢٤﴾ [المائدة: الآية ٢٤] قاله الثَّوْرِي عن أبي سعيد عن عِكْرِمَةَ عن ابن عبّاس.

وقاله قَتَادةُ وعِكْرِمَةُ ورواه السَدّيّ عن ابن عبّاس وابن مسعود وناس من الصحابة، حتى قال ابن عبّاس وغيره من علماء السلف والخلف ومات موسى وهارون قبله كلاهما في التيه جميعاً، وقد زعم ابن إسحاق أن الذي فتح بيت المقدس هو موسى وإنما كان يوشع على مقدّمته، وذكر في مروره إليها قصّة بلعام بن باعور الذي قال تعالى فيه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٧٥ـ١٧٧] وقد ذكرنا قصّته في التفسير وأنه كان فيما قاله ابن عبّاس وغيره يعلم الاسم الأعظم وأن قومه سألوه أن يدعو على موسى وقومه، فامتنع عليهم، ولما ألحّوا عليه ركب حمارة له. ثم سار نحو معسكر بني إسرائيل فلما أشرف عليهم ربضت به حمارته فضربها حتى قامت فسارت غير بعيد وربضت فضربها ضرباً أشدّ من الأول، فقامت ثم ربضت فضربها فقالت له يا بلعام أين تذهب أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم، فلم ينزع عنها فضربها حتى سارت به حتى أشرف عليهم من رأس جبل حسبان. ونظر إلى معسكر موسى وبني إسرائيل فأخذ يدعو عليهم فجعل لسانه لا يطيعه إلاّ أن يدعو لموسى وقومه، ويدعو على قوم نفسه فلاموه على ذلك فاعتذر إليهم بأنه لا يجري على لسانه إلا هذا، واندلع لسانه حتى وقع على صدره، وقال لقومه ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلاّ المكر والحيلة. ثم أمر قومه أن يزيّنوا النساء ويبعثوهن بالأمتعة يبعن عليهم ويتعرّضن لهم حتى لعلّهم يقعون في الزنا، فإنه متى زنى رجل منهم كفيتموهم. ففعلوا وزيّنوا نساءهم ويعثوهن إلى المعسكر، فمرت امرأة منهم اسمها كستى برجل من عظماء بني إسرائيل وهو زمري بن شلوم. يقال إنه كان رأس سبط بني شمعون بن يعقوب، فدخل بها قبّته فلما خلا بها، أرسل الله الطاعون على بني إسرائيل، فجعل يحوس فيهم[1]، فلما بلغ الخبر إلى فنحاص بن أَلِعَزار بن هارون أخذ حربته وكانت من حديد فدخل عليهما القبة فانتظمهما جميعاً فيها، ثم خرج بهما على الناس والحربة في يده وقد اعتمد على خاصرته وأسندها إلى لحيته ورفعهما نحو السماء وجعل يقول اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك، ورفع الطاعون فكان جملة من مات في تلك الساعة سبعين ألفاً. والمُقَلِّلُ يقول عشرين ألفاً. وكان فنحاص بكر أبيه أَلِعَزار بن هارون فلهذا يجعل بنو إسرائيل لولد فنحاص من الذبيحة الليه والذراع واللحى، ولهم البكر من كل أموالهم وأنفسهم. وهذا الذي ذكره ابن إسحاق من قصّة بلعام صحيح، قد ذكره غير واحد من علماء السلف، لكن لعلّه لمّا أراد موسى دخول بيت المقدس أول مقدمه من الديار المصرية ولعله مراد ابن إسحاق، ولكنه ما فهمه بعض الناقلين عنه. وقد قدّمنا عن نصّ التوراة ما يشهد لبعض هذا والله أعلم. ولعل هذه قصّة أخرى كانت في خلال سيرهم في التيه، فإن في هذا السياق ذكر حسبان وهي بعيدة عن أرض بيت المقدس، أو

(١) يحوس فيهم: يتخللهم.

لعلّه كان هذا لجيش موسى الذين عليهم يوشع بن نون حين خرج بهم من التيه قاصداً بيت المقدس، كما صرّح به السَدِّيّ. والله أعلم.

وعلى كل تقدير فالذي عليه الجمهور أن هارون توفي بالتيه قبل موسى أخيه بنحو من سنتين. وبعده موسى في التيه أيضاً كما قدمنا وأنه سأل ربّه أن يقرب إلى بيت المقدس، فأجيب إلى ذلك فكان الذي خرج بهم من التيه وقصد بهم بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام، فذكر أهل الكتاب وغيرهم من أهل التاريخ أنه قطع بني إسرائيل نهر الأردن وانتهى إلى أريحا، وكانت من أحصن المدائن سوراً وأعلاها قصوراً وأكثرها أهلاً، فحاصرها ستة أشهر. ثم إنهم أحاطوا بها يوماً وضربوا بالقرون يعني الأبواق، وكبّروا تكبيرة رجل واحد فتفسّخ سورها وسقط وجبة واحدة، فدخلوها وأخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم، وقتلوا اثني عشر ألفاً من الرجال والنساء، وحاربوا ملوكاً كثيرة. ويقال إن يوشع ظهر على أحد وثلاثين ملكاً من ملوك الشام. وذكروا أنه انتهى محاصرته لها إلى يوم جمعة بعد العصر. فلما غربت الشمس أو كادت تغرب ويدخل عليهم السبت الذي جعل عليهم، وشرع لهم ذلك الزمان قال لها إنك مأمورة وأنا مأمور اللهمّ حبسها عليّ فحبسها الله عليه حتى تمكّن من فتح البلد، وأمر القمر فوقف عند الطلوع، وهذا يقتضي أن هذه الليلة كانت الليلة الرابعة عشرة من الشهر، والأول وهو قصّة الشمس المذكورة في الحديث الذي سأذكره. وأما قصة القمر فمن عند أهل الكتاب ولا ينافي الحديث بل فيه زيادة تستفاد فلا تصدّق ولا تكذّب، ولكن ذكرهم أن هذا في فتح أريحا فيه نظر، والأشبه والله أعلم أن هذا كان في فتح بيت المقدس، الذي هو المقصود الأعظم، وفتح أريحا كان وسيلة إليه والله أعلم.

قال الإمام أحمد: حدثنا أَسْوَدُ بن عَامِرٍ حدثنا، أبو بكر عن هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ لِبَشَرٍ إلاَّ لِيُوشَعَ لَيَالِي سَارَ إِلَى بَيْتِ المُقْدِسِ»[1]. انفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخاري. وفيه دلالة على أن الذي فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام لا موسى، وأن حبس الشمس كان في فتح بيت المقدس لا أريحا كما قلنا. وفيه أن هذا كان من خصائص يوشع عليه السلام فيدلّ على ضعف الحديث الذي رويناه أن الشمس رجعت حتى صلّى علي بن أبي طالب صلاة العصر بعد ما فاتته بسبب نوم النبي ﷺ على ركبته، فسأل رسول الله أن يردّها عليه حتى يصلّي العصر فرجعت. وقد صححه عَليُّ بن صالِح المِصْرِي، ولكنه منكر ليس في شيء من الصحاح ولا الحسان، وهو مما تتوفر الدواعي على نقلّه وتفرّدت بنقله امرأة من أهل البيت مجهولة لا يعرف حالها والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا مَعْمَرُ عن همّام عن أبي هريرة، قال قال رسول الله ﷺ: «غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ لاَ يَتْبَعْنِي رَجُلٌ قَدْ مَلَكَ بِضْعَ[2] امْرَأَةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ. وَلاَ آخَرُ قَدْ بَنَى بُنْيَاناً وَلَمْ يَرْفَعْ سَقْفَهَا، وَلاَ آخَرُ قَدِ اشْتَرَى غَنَماً أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ أَوْلاَدَهَا فَغَزَا فَدَنَا مِنَ القَرْيَةِ حِينَ صُلِّيَ العَصْرُ أَوْ قَرِيباً مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ أَنْتِ

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/٣٢٥.
(٢) البضع: الجماع أو الفرج نفسه.

مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيَّ شَيْئاً فَحُبِسَتْ عَلَيْهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ. فَجَمَعُوا مَا غَنِمُوا فَأَتَتِ النَّارُ لِتَأْكُلَهُ فَأَبَتْ أَنْ تَطْعَمَهُ فَقَالَ فِيكُمْ غُلُولٌ[١] فَلْيُبَايِعنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ فَبَايَعُوهُ، فَلَصِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ فِيكُمُ الغُلُولُ وَلْتُبَايِعْنِي قَبِيلَتُكَ فَبَايَعَتْهُ قَبِيلَتُهُ فَلَصِقَ بِيَدِ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلاثَةٍ فَقَالَ فِيكُمُ الغُلُولُ أَنْتُمْ غَلَلْتُمْ فَأَخْرَجُوا لَهُ مِثْلَ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ فَوَضَعُوهُ بِالمَالِ وَهُوَ بِالصَّعِيدِ، فَأَقْبَلَتِ النَّارُ فَأَكَلَتْهُ، فَلَمْ تَحِلَّ الغَنَائِمُ لأَحَدٍ مِنْ قَبْلِنَا ذَلِكَ بِأَنَّ اللهُ رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا فَطَيَّبَهَا لَنَا»[٢] انفرد به مسلم من هذا الوجه.

وقد روى البزّار من طريق مُبارك بن فُضالة عن عبيد الله عن سعيد المَقْبَرِيّ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه. قال: ورواه محمد بن عَجْلاَن عن سعيد المَقْبَري، قال: ورواه قَتَادَةُ عن سَعِيدِ بن المُسَيَّبِ عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ.

والمقصود أنه لما دخل بهم باب المدينة أمروا أن يدخلوها سجّداً أي ركّعاً متواضعين شاكرين لله عزّ وجلّ على ما منّ به عليهم من الفتح العظيم الذي كان الله وعدهم إياه، وأن يقولوا حال دخولهم حطّة، أي حط عنا خطايانا التي سلفت من نكولنا الذي تقدّم منا. ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ مكة يوم فتحها دخلها وهو راكب ناقته، وهو متواضع حامد شاكر حتى أن عثنونه وهو طرف لحيته ليمس مورك رحله مما يطأطىء رأسه خضعاناً لله عزّ وجلّ، ومعه الجنود والجيوش ممن لا يرى منه إلاّ الحدق[٣] ولا سيما الكتيبة الخضراء التي فيها رسول الله ﷺ. ثم لمّا دخلها اغتسل وصلّى ثماني ركعات، وهي صلاة الشكر على النصر على المنصور من قولي العلماء. وقيل إنها صلاة الضحى وما حمل هذا القائل على قوله هذا إلاّ لأنها وقعت وقت الضحى. وأمّا بنو إسرائيل فإنهم خالفوا ما أمروا به قولاً وفعلاً، دخلوا الباب يزحفون على أستاههم يقولون حبة في شعرة، وفي رواية حنطة في شعرة. وحاصله أنهم بدّلوا ما أمروا به واستهزؤوا به، كما قال تعالى حاكياً عنهم في سورة الأعراف وهي مكية: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٦١-١٦٢].

وقال في سورة البقرة وهي مدنية مخاطباً لهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: الآيتان ٥٨-٥٩]. وقال الثَّوْرِي عن الأَعْمَشِ عن المِنْهَالِ بن عمرو عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس وَادْخُلُوا البَابَ سُجَّداً، قال: ركعا من باب صغير. رواه الحاكم وابن جرير وابن أبي حاتم.

وكذا رَوَى العَوْفِي عن ابن عبّاس، وكذا رَوَى الثَّوْرِي عن ابنِ إسْحَاقَ عن البَرَّاءِ.

---

(١) غلول: حقد وضغن وخيانة.

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٣٢، وأحمد في المسند ٢/٣١٨.

(٣) الحدق: سواد العين.

قال مُجاهدُ والسّدّي والضّحّاكُ والباب هو باب حطّة من بيت إيلياء بيت المقدس. قال ابن مسعود فدخلوا مقنّعي رؤوسهم ضد ما أمروا به، وهذا لا ينافي قول ابن عبّاس أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم. وهكذا في الحديث الذي سنورده بعد فإنهم دخلوا يزحفون وهم مقنعوا رؤوسهم. وقوله وقولوا حطة الواو هنا حالية لا عاطفة أي ادخلوا سجّداً في حال قولكم حِطّة.

قال ابن عبّاس وعطاء والحسن وقَتَادَةُ والرَّبيع أُمِروا أن يستغفروا. قال البخاري: حدّثنا محمد، حدثنا عبد الرحمن بن مَهدي عن ابن المبارك عن مَعْمر عن هَمّام بن مُنَبِّهٍ عن أبي هريرةَ عن النبي ﷺ قال: «قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ادْخُلُوا البَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ فَبَدَّلُوا وَقَالُوا حِطَّةٌ حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ»[1]

وكذا رواه النسائي من حديث ابن المبارك ببعضه ورواه عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم عن ابن مهدي به موقوفاً.

وقد قال عبد الرزاق أنبأنا مَعْمَرُ عن هَمّام بن مُنَبِّهٍ أنه سمع أبا هُرَيْرة يقول قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ادْخُلُوا البَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ فَبَدَّلُوا فَدَخَلُوا البَابَ يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ فَقَالُوا حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ»[2]. ورواه البخاري ومسلم والترمذي من حديث عبد الرزّاق وقال الترمذيّ حسن صحيح.

وقال محمد بن إسحاق: كان تبديلهم كما حدثني صالح بن كَيْسَانُ عن صالح مولى التَّوْأَمَةِ عن أبي هُرَيْرَةَ وعمّن لا أتّهم عن ابن عبّاس أن رسول الله ﷺ قال: دَخَلُوا البَابَ الَّذِي أُمِرُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيهِ سُجَّداً يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ حِنْطَةٌ فِي شَعِيرَةٍ. وقال أسباط عن السّدّيُّ عن مُرَّةَ عن ابن مسعود قال في قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: الآية ٥٩] قال قالوا: (هطي سقاثا أزمة مزبا) فهي في العربية (حبّة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء) وقد ذكر الله تعالى أنه عاقبهم على هذه المخالفة بإرسال الرجز الذي أنزله عليهم وهو الطاعون كما ثبت في الصحيحين من حديث الزُّهري عن عامر بن سعد، ومن حديث مالك عن محمد بن المُنْكَدِرِ وسالم أبي النَّضرِ عن عامر بن سعد عن أسامةَ بن زيدٍ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ هَذَا الوَجَعَ (أو) السُّقْمَ رِجزٌ[3] عَذَّبَ بِهِ بَعْضَ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ»[4]

وروى النسائي وابن أبي حاتم وهذا لفظه من حديث الثَّوْرِي عن حَبِيبِ بن أبي ثابت عن إبراهيم بن سعد بن أبي وَقّاص، عن أبيه وأسامة بن زيد وخُزَيْمَةَ بن ثابت قالوا قال رسول الله ﷺ: «الطَّاعُونُ رِجزٌ عَذَّبَ بِهِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[5] وقال الضحّاك عن ابن عبّاس الرجز

(١) أخرجه البخاري في التفسير باب ٥.
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٢٨، ومسلم في التفسير حديث ١، والترمذي في تفسير القرآن باب ٣، سورة البقرة، وأحمد في المسند ٢/٣١٨.
(٣) الرجز: العذاب.
(٤) أخرجه البخاري في الحيل باب ١٣، ومسلم في السلام حديث ٩٦، ومالك في الجامع حديث ٢٢.
(٥) أخرجه أحمد في المسند ٥/٢١٣.

العذاب. وكذا قال مجاهد وأبو مالك والسُّدّي والحسن وقَتَادَةُ وقال أبو العَالِيَةِ هو الغضب. وقال الشَّعبي الرِّجز إما الطاعون وإما البرد. وقال سعيد بن جُبَيْر هو الطاعون. ولما استقرّت يد بني إسرائيل على بيت المقدس استمرّوا فيه وبين أظهرهم نبي الله يوشع يحكم بينهم بكتاب الله التوراة حتّى قبضه الله إليه، وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة، فكان مدّة حياته بعد موسى سبعاً وعشرين سنة.

[ذكر][1] قصتي الخضر وإلياس عليهما السلام

أما الخضر فقد تقدّم أن موسى عليه السلام رحل إليه في طلب ما عنده من العلم اللّدني، وقصّ الله من خبرهما في كتابه العزيز في سورة الكهف، وذكرنا في تفسير ذلك هنالك، وأوردنا هنا ذكر الحديث المصرّح بذكر الخضر عليه السلام، وأن الذي رحل إليه هو موسى بن عمران نبي بني إسرائيل عليه السلام الذي أنزلت عليه التوراة.

وقد اختلف في الخضر في اسمه ونسبه ونبوته وحياته إلى الآن على أقوال سأذكرها لك ههنا إن شاء الله، وبحوله وقوته. قال الحافظ ابن عساكر يقال إنه الخضر بن آدم عليه السلام لصلبه، ثم روى من طريق الدارقطني حدثنا محمد بن الفتح القلانسي حدثنا العبّاس بن عبد الله الرومي حدثنا رواد بن الجراح حدثنا مقاتل بن سليمان عن الضحّاك عن ابن عبّاس قال: الخضر ابن آدم لصلبه، ونُسيء له في أجله حتى يكذّب الدجّال، وهذا منقطع وغريب. وقال أبو حاتم سَهْلُ بن محمد بن عثمانَ السِّجِسْتَانِي سمعت مشيختنا منهم أبو عُبَيْدَةَ وغيرهُ قالوا: إن أطوَل بني آدم عمراً الخَضِرُ واسمه خضرون بن قابيل بن آدم، قال وذكر ابن إسحاق أن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة أخبر بنيه أن الطوفان سيقع بالناس، وأوصاهم إذا كان ذلك أن يحملوا جسده معهم في السفينة، وأن يدفنوه في مكان عيّنه لهم. فلما كان الطوفان حملوه معهم، فلما هبطوا إلى الأرض أمر نوح بنيه أن يذهبوا ببدنه فيدفنوه حيث أوصى، فقالوا: إن الأرض ليس بها أنيس وعليها وحشة، فحرّضهم وحثّهم على ذلك. وقال إن آدم دعا لمن يلي دفنه بطول العمر، فهابوا المسير إلى ذلك الموضع في ذلك الوقت، فلم يزل جسده عندهم حتى كان الخضر هو الذي تولى دفنه، وأنجز الله ما وعده، فهو يحيى إلى ما شاء الله له أن يحيى.

وذكر ابن قتيبة في المعارف عن وَهْب بن مُنَبِّهٍ أن اسم الخضر بليا. ويقال: إيليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام. وقال إسماعيل بن أبي أويس اسم الخضر فيما بلغنا والله أعلم المعمّر بن مالك بن عبدان بن نصر بن لازد. وقال غيره: هو خضرون بن عماييل بن اليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. ويقال: هو أمريا بن طبقا فالله أعلم. وقيل إنه كان ابن فرعون صاحب موسى ملك مصر وهذا غريب جداً. قال ابن الجوزيّ: رواه محمد بن أيوب عن ابن لَهِيْعة وهما ضعيفان. وقيل: إنه ابن مالك وهو أخو

---

(١) سقط في ط.

إلْيَاسَ قاله السّدّي كما سيأتي. وقيل أنه كان على مقدّمة ذي القرنين. وقيل: كان ابن بعض من آمن بإبراهيم الخليل وهاجر معه، وقيل: كان نبياً في زمن بشتاسب بن لهراسب.

قال ابن جرير: والصحيح أنه كان متقدماً في زمن أفريدون بن اثفيان حتى أدركه موسى عليهما السلام. وروى الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المُسَيَّبِ أنه قال الخضر أمه رومية وأبوه فارسي.

وقد ورد ما يدل على أنه كان من بني إسرائيل في زمان فرعون أيضاً. قال أبو زَرْعَةَ في دلائل النبوّة: حدثنا صَفْوَان بن صالح الدمشقي، حدثنا الوليد، حدثنا سعيد بن بشير عن قَتَادَة عن مجاهد عن ابن عبّاس عن أُبَيِّ بن كَعْبٍ عن رسول الله ﷺ أنه ليلة أسري به وجد رائحة طيبة فقال: يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة، قال: هذه ريح قبر الماشطة وابنتها وزوجها، وقال: وكان بدء ذلك أن الخضر كان من أشراف بني إسرائيل وكان ممره براهب في صومعته، فتطلع عليه الراهب فعلّمه الإسلام، فلمّا بلغ الخضر زوّجه أبوه امرأة فعلّمها الإسلام، وأخذ عليها أن لا تعلّم أحداً، وكان لا يقرب النساء، ثم طلّقها، ثم زوّجه أبوه بأخرى فعلّمها الإسلام وأخذ عليها أن لا تعلّم أحداً، ثم طلقها، فكتمت إحداهما وأفشت عليه الأخرى فانطلق هارباً حتى أتى جزيرة في البحر، فأقبل رجلان يحتطبان فرأياه، فكتم أحدهما، وأفشى عليه الآخر، قال قد رأيت العزقيل[1] ومن رآه معك، قال: فلان، فسئل فكتم، وكان من دينهم أنه من كذب قتل، فقتل، وكان قد تزوّج الكاتم المرأة الكاتمة، قال فبينما هي تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها، فقالت تعس فرعون، فأخبرت أباها، وكان للمرأة ابنان وزوج، فأرسل إليهم فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما فأبيا، فقال إني قاتلكما، فقالا إحسان منك إلينا إن أنت قتلتنا أن تجعلنا في قبر واحد، فجعلهما في قبر واحد، فقال: وما وجدت ريحاً أطيب منهما، وقد دخلت الجنّة، وقد تقدّمت قصّة ماثلة بنت فرعون، وهذا المشط في أمر الخضر قد يكون مدرجاً من كلام أُبيّ بن كعب، أو عبد الله بن عبّاس والله أعلم. وقال بعضهم كنيته أبو العباس، والأشبه والله أعلم أن الخضر لقب غلب عليه.

قال البخاري رحمه الله: حدثنا محمد بن سعيد الأصبهاني، حدثنا ابن المبارك عن مَعْمَر عن هَمّام عن أبي هُرَيْرَةَ عن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا سُمِّيَ الخَضِرُ لأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ مِنْ خَلْفِهِ خَضْرَاءَ»[2] تفرّد به البخاري.

وكذلك رواه عبد الرزاق عن مَعْمَر به. ثم قال عبد الرَزّاقُ الفروة الحشيش الأبيض وما أشبهه يعني الهشيم اليابس. وقال الخَطّابِي وقال أبو عمر الفروة الأرض البيضاء التي لا نبات فيها، وقال غيره هو الهشيم اليابس شبّهه بالفروة، ومنه قيل فروة الرأس، وهي جلدته بما عليها من الشعر كما قال الراعي: [الكامل]

(١) العزقيل: الخضر.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الانبياء باب ١٧، وأحمد في المسند ٢/٢١٢.

وَلَقَدْ تَرَى الحَبَشِّي حولَ بُيُوتِنَا جَذِلاً[1] إذَا مَا نَالَ يوماً مَأْكَلاَ
جَعْداً أَصَكٌ[2] كَأَنَّ فَرْوَةَ رَأْسِهِ بُذِرَتْ فَأَنْبَتَ جَانِبَاهُ فُلْفُلاَ

قال الخَطَّابِي إنما سمّي الخضر خضراً لحسنه وإشراق وجهه. قلت هذا لا ينافي ما ثبت في الصحيح، فإن كان ولا بدّ من التعليل بأحدهما، فما ثبت في الصحيح أولى وأقوى، بل لا يلتفت إلى ما عداه، وقد روى الحافظ ابن عساكر هذا الحديث أيضاً من طريق إسماعيل بن حفص بن عمر الأيلي، حدثنا عثمان وأبو جُزَيْ وهمّام بن يحيى عن قَتَادَةَ عن عبد الله بن الحارث بن نَوْفَلٍ عن ابن عبّاس عن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا سُمِيَّ الخَضِرُ خَضِراً لأَنَّهُ صَلَّى عَلَى فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ فَاهْتَزَّتْ خَضْرَاءَ». وهذا غريب من هذا الوجه. وقال قَبِيصَةُ عن الثَّوْرِي عن منصور عن مجاهد قال إنما سمّي الخضر لأنه كان إذا صلى اخضرّ ما حوله، وتقدم أن موسى ويوشع عليهما السلام لما رجعا يقصّان الأثر، وجداه على طنفسة خضراء على كبد البحر وهو مسجى بثوب قد جعل طرفاه من تحت رأسه وقدميه، فسلّم عليه السلام، فكشف عن وجهه، فردّ وقال أنّى بأرضك السلام، من أنت؟ قال: أنا موسى، قال موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، فكان من أمرهما ما قصّه الله في كتابه عنهما.

وقد دلّ سياق القصّة على نبوّته من وجوه. أحدها قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾ [الكهف: الآية ٦٥] الثاني قول موسى له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ۝٦٩ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠﴾ [الكهف: الآيات ٦٦ـ ٧٠] فلو كان ولياً وليس بنبي لم يخاطبه موسى بهذه المخاطبة، ولم يرد على موسى هذا الردّ، بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي اختصّه الله به دونه، فلو كان غير نَبِيٍّ لم يكن معصوماً ولم تكن لموسى وهو نبي عظيم ورسول كريم واجب العصمة كبير رغبة ولا عظيم طلبة في علم وليّ غير واجب العصمة، ولمّا عزمَ على الذهاب إليه والتفتيش عليه، ولو أنه يمضي حقباً من الزمان قيل ثمانين سنة، ثم لما اجتمع به تواضع له وعظّمه واتبعه في صورة مستفيد منه، دل على أنه نبي مثله يُوحَى إليه كما يُوحَى إليه، وقد خصّ من العلوم اللدنية والأسرار النبوية بما لم يُطْلِع الله عليه موسى الكليم نبي بني إسرائيل الكريم، وقد احتجّ بهذا المسلك بعينه البرقاني[3] على نبوّة الخضر عليه السلام. الثالث أن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام وما ذاك إلاّ للوحي إليه من الملك العلاّم. وهذا دليل مستقل على نبوّته. وبرهان ظاهر على عصمته لأن الوليّ لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى في خلده، لأنّ خاطره ليس بواجب العصمة، إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق. ولمّا أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم عِلماً منه بأنه إذا بلغ

---

(١) جذلاً: فرحاً. (٢) أصك: مضطرب الركبتين.
(٣) في ط: الرماني.

يكفر، ويَحْمِلُ أبويه عن الكفر لشدّة محبتهما له، فيتابعانه عليه، ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته صيانة لأبويه عن الوقوع في الفكر، وعقوبته دلّ ذلك على نُبوّته وأنّه مؤيد من الله بعصمته. وقد رأيت الشيخ أبا الفرج بن الجوزي طرق هذا المسلك بعينه في الاحتجاج على نبوّة الخضر وصحّحه، وحكى الاحتجاج عليه البرقاني[1] أيضاً. الرابع أنه لما فسّر الخضر تأويل تلك الأفاعيل لموسى، ووضّح له عن حقيقة أمره وجلى، قال بعد ذلك كلّه ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾ [الكهف: الآية ٨٢] يعني ما فعلته من تلقاء نفسي، بل أمرت به وأوحى إليّ فيه، فدلّت هذه الوجوه على نبوّته. ولا ينافي ذلك حصول ولايته بل ولا رسالته كما قاله آخرون. وأما كونه مَلَكاً من الملائكة فغريب جداً. وإذا ثبتت نبوّته كما ذكرناه لم يبق لمن قال بولايته، وأن الوليّ قد يطلّع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر، مستند يستندون إليه ولا معتمد يعتمدون عليه.

وأما الخلاف في وجوده إلى زماننا هذا، فالجمهور على أنه باقٍ إلى اليوم. قيل لأنه دفن آدم بعد خروجهم من الطوفان، فنالته دعوة أبيه آدم بطول الحياة. وقيل لأنه شرب من عين الحياة فحيي. وذكروا أخباراً استشهدوا بها على بقائه إلى الآن وسنوردها إن شاء الله تعالى وبه الثقة. وهذه وصيّته لموسى حين ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف: الآية ٧٨].

رُوِيَ في ذلك آثار منقطعة كثيرة. قال البَيْهَقِي أنبأنا أبو سعيد بن أبي عمرو حدثنا أبو عبد الله الصَفَّار، حدثنا أبو بكر بنُ أبِي الدُّنْيَا، حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا جَرِيرُ حدَّثَني أبو عبد الله المَلْطِي قال: لما أراد موسى أن يفارق الخضر قال له موسى: أوصني، قال: كن نفّاعاً ولا تكن ضرّاراً. كن بشّاشاً ولا تكن غضبان. ارجع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة». وفي رواية من طريق أخرى زيادة ولا تضحك إلا من عجب. وقال وَهْبُ بن مُنَبِّهٍ قال الخضر: يا موسى إن الناس معذّبون في الدنيا على قدر همومهم بها وقال بِشْرُ بن الحارث الحافي: قال موسى للخَضِر أوصني فقال: يسّر الله عليك طاعته.

وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه ابن عساكر من طريق زكرياء بن يحيى الوَقَّاد، إلاّ أنه من الكذّابين الكبار. قال قرىء على عبد الله بن وَهْبِ وأنا أسمعُ قال: الثَّوْرِي قال: مجالد قال أبو الوَدَّاكِ: قال أبو سعيد الخدري: قال عمر بن الخطاب: قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ أَخِي مُوسَى يَا رَبِّ ذَكَرَ كَلِمَتَهُ فَأَتَاهُ الخَضِرُ وَهُوَ فَتَى طَيِّبُ الرِّيحِ حَسَنُ بِيَاضِ الثِّيَابِ مُشَمِّرُهَا فَقَالَ السَّلاَمُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ يَا مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ. قَالَ مُوسَى هُوَ السَّلاَمُ وَإِلَيْهِ السَّلاَمُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ الَّذِي لاَ أُحْصِي نِعَمَهُ وَلاَ أَقْدِرُ عَلَى أَدَاءِ شُكْرِهِ إِلاَّ بِمَعُونَتِهِ، ثم قال موسى أريدُ أن توصِيني بوصيةٍ ينفعني الله بها بعدَك. فقال الخَضِر: يا طالبَ العِلم إنَّ القائلَ أقلُّ ملامةً من المستمعِ، فلا تُمِلَّ جُلَسَاءَكَ إِذَا حَدَّثْتَهُمْ واعلمْ أنَّ قلبكَ وعَاءٌ فانظرْ ماذا

(١) في ط الرماني.

تحشو بِهِ وَعَاءَكَ. واغرفْ مِنَ الدُّنْيَا وانْبُذْهَا وراءَكَ فإنّها ليستْ لكَ بِدَارٍ ولا لكَ فيها مَحَلُّ قَرَارٍ. وإنما جُعِلَتْ بُلْغَةً لِلْعِبَادِ والتزوّدِ مِنْهَا لِيَوْمِ المَعَادِ. ورُضْ نفسكَ على الصَّبْرِ تَخْلُصْ مِنَ الإِثْمِ. يا موسَى تفرَّغْ للعِلْمِ إن كنت تريدُهِ فإنَّمَا العِلْمُ لمن تفرّغَ لهُ. ولا تكن مكثاراً لِلْعِلْمِ مِهْذَاراً، فإنَّ كثْرَةَ المنطقِ تَشينُ[1] العلماءَ وَتُبْدِي مساوىءَ السُّخَفَاءِ. ولكن عليك بالاقتصادِ فإنَّ ذلكَ من التوفيقِ والسَّدادِ. واعرضْ عن الجهّالِ وماطِلهم واحلُم عن السُّفهاءِ فإنَّ ذلك فعل الحكماءِ، وزينُ العلماءِ، إذا شتمكَ الجاهلُ فاسكتْ عنه حِلْماً. وجانبه حزماً. فإن ما بقي من جهله عليك وسبّه إياكَ أكثرُ وأعظمُ. يا ابن عمرانَ ولا ترى أنكَ أوتيتَ من العلم إلاّ قليلاً. فإنَّ الاندلاثَ[2] والتعسّفَ من الاقتحام والتكلّفِ. يا ابن عمرانَ لا تفتحنَّ باباً لا تدري ما غلقُه، ولا تغلقنّ باباً لا تدري ما فَتْحُه. يا ابن عمرانَ من لا تنتهي من الدنيا نهمته، ولا تنقضي منها رَغْبَته، ومن يُحقّر حالَه ويتّهِم اللّهَ فيما قضى له، كيف يكون زاهداً؟ هل يكفّ عن الشهواتِ من غَلَبَ عليه هواه. أو ينفعه طلبُ العلم والجهلُ قد حواهُ لأن سعْيه إلى آخرتِه، وهو مقبلٌ على دنياه. يا موسى تعلّم ما تعلّمتَ لتعملَ به، ولا تعلّمْه لتحدّثَ به، فيكون عليك بوارُه ولغيركَ نورُه. يا موسى بن عمران اجعل الزهدَ والتقوَى لباسَك، والعلمَ والذكرَ كلامَك، واستكثر من الحسنات، فإنّكَ مصيبُ السيئاتِ، وزَعْزعْ بالخوفِ قلبَك، فإن ذلك يُرضي ربّكَ واعمل خيراً فإنّك لا بدّ عاملٌ سُوءاً. قد وعظت أن حفظت» قال فتولى الخضر وبقي موسى محزوناً مكروباً يبكي.

لا يصحّ هذا الحديث وأظنه من صنعة زكريا بن يحيى الوقاد المصري، كذّبه غير واحد من الأئمة، والعجب أن الحافظ ابن عساكر سكت عنه. وقال الحافظ أبو نُعَيْم الأَصْبَهَانِي حدثنا سليمان بن أحمد بن أيُّوبَ الطَّبَرَانِي ثنا عمرو بن إسحاق بن إبراهيم بن العَلاَء الحِمْصِي حدّثنا محمد بن الفضل بن عِمران الكِنْدِي حدثنا بَقِيَّةُ بن الوَلِيدِ عن محمد بن زياد عن أبي أُمامةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لأصحابه: «ألا أحدّثكمْ عن الخَضِرِ»؟ قالوا: بلى يا رسولَ الله، قال: «بينما هو ذاتَ يوم يمشِي في سوقِ بني إسرائيلَ، أبصرَهُ رجلٌ مُكاتِبٌ، فقال: تَصَدَّقْ عَلَيّ باركَ اللّهُ فيكَ، فقالَ الخضر: آمنتُ بِاللّهِ مَا شاءَ اللّهُ من أمرٍ يكونُ ما عِندي من شيءٍ أُعْطِيكَهُ، فقال المسكينُ: أسأَلُكَ بوجهِ اللّهَ لَمَا تصدّقْت عَلَيَّ فإنّي نظرتُ إلَى السَّمَاءِ فِي وَجْهِكَ، وَرَجَوْتُ البَرَكَةَ عِنْدَكَ، فقال الخَضِرُ: آمنتُ بِاللّهِ ما عِنْدِي مِنْ شَيْءٍ أُعْطِيكَهُ إلاّ أن تَأْخُذَنِي فَتَبِيعَنِي، فقال المسكينُ: وهل يستقيمُ هَذَا؟ قال: نَعَمْ الحقّ أقولُ لكَ لقد سألْتنِي بأمرٍ عظيم أما أني لا أُخَيِّبُكَ بِوَجْهِ رَبِّي، بِعْني قال فقدمه إلى السوق فباعه بأربعمائةِ درهم، فمكث عنْد المشتري زماناً لا يَسْتَعْمِلُهُ في شيءٍ فقال له: إنك ابتعتني التماسَ خَيْرٍ عِنْدِي فَأَوْصِنِي بِعَمَلٍ، قال أكرهُ أنْ أشقَّ عليكَ إنَّكَ شيخٌ كبيرٌ ضَعِيفٌ. قال لَيْسَ يَشُقُّ عَلَيَّ. قال فانقل هذه الحجارةَ وكان لا ينقلها دون ستةِ نفرٍ في يوم، فخرج الرجل لبعض حاجاته ثم انصرف وقد نقل الحجارة في ساعة. فقال أحسنتَ وأجملْتَ وأطقتَ ما لم أَرَكَ تُطِيقُهُ. ثم عرض للرجل سَفَرٌ، فقال: إني أحسبك أميناً

(١) تشين: تعيب. (٢) الاندلاث: الاقتحام.

فاخلُفني في أهلي خلافةً حَسَنَة، قال: فَأَوْصِنِي بِعَمَلٍ، قال إني أكرهُ أن أشقّ عليك، قال لَيْسَ تَشُقُّ عَلَيَّ، قال: فاضرب منَ اللَّبَنِ لِبَيْتِي حتى أَقْدَمَ عَلَيْكَ، فمضى الرجل لِسَفَرِهِ فرجع وقد شُيِّدَ بناؤه، فقال أسألك بوجه الله ما سبيلُكَ، وما أَمْرُكَ، فقال سألتني بوجهِ الله والسُّؤَالُ بوجهِ اللّهِ أوقعَني في العُبُودِيَّةِ، سأخبركَ من أنا أنا الخَضِرُ الذي سمعتَ به، سألني مسكين صَدَقَةً فلم يكن عندي من شيء أعطيه، فسألني بوجهِ الله فَأَمْكَنْتُه من رَقَبَتِي، فَبَاعَنِي، وأخبركَ أنَّهُ من سُئِلَ بِوَجْهِ اللَّهِ فردّ سائلَه وهو يقدرُ وقفَ يوم القيامةِ جلدُهُ لا لحمَ له ولا عَظْمَ يَتَقَعْقَعُ[1]. فقال الرَّجُلُ آمنتُ بِاللَّهِ شَقَقْتُ عَلَيْكَ يَا نَبِيّ اللَّهِ، ولم أعْلَمْ، فقال: لا بأسَ أحسنتَ وَأَبْقَيْتَ. فقال الرَّجُلُ: بِأبي وأمي يا نبيَّ اللَّهِ أُحكم في أهلِي وَمَالِي بما أراكَ اللّهُ أو أُخَيِّرُكَ، فَأُخَلِّي سَبِيلَكَ، فقال أُحِبُّ أَنْ تُخَلِّي سَبِيلِي فَأَعْبُدَ ربي فخلّى سبيلَه. فقال الخَضِرُ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَوْقَعَنِي فِي العُبُودِيَّةِ ثُمَّ نَجَّانِي مِنْهَا». وهذا حديث رفعه خطأ، والأشبه أن يكون موقوفاً وفي رجاله من لا يعرف فالله أعلم.

وقد رواه ابن الجوزي في كتابه «عُجَالَةُ الْمُنْتَظِرْ فِي شَرْحِ حَالِ الْخَضِرْ» من طريق عبد الوهاب بن الضَحَّاكِ وهو متروك عن بَقِيَّةَ. وقد روى الحافظ ابنُ عساكر بإسناده إلى السّديّ أن الخضر وإلياس كانا أخوين، وكان أبوهما مَلَكاً فقال إلياس لأبيه إن أخي الخضر لا رغبة له في الملك، فلو أنك زوّجته لعلّه يجيء منه ولد يكون الملك له فزوّجه أبوه بامرأة، حسناء بكرٍ، فقال لها الخَضرُ: إنه لا حاجة لي في النساء، فإن شئتِ أطلقتُ سراحك، وإن شئتِ أقمتِ معي تعبدينَ الله عزّ وجلّ وتكتمين عَلَيَّ سِرّي، فقالت: نعم. وأقامت معه سنةً، فلما مضت السنة دعاها الملك فقال: إنك شابة وابني شاب، فأين الولد، فقالت: إنما الولد من عند الله إن شاء كان وإن لم يشأ لم يكن، فأمره أبوه فطلّقها، وزوّجه بأخرى ثيباً[2] قد وُلِدَ لها، فلما زفّت إليه قال لها كما قال للّتي قبلها، فأجابت إلى الإقامة عنده. فلما مضت السنة سألها الملك عن الولد، فقالت إن ابنك لا حاجة له بالنساء فتطلّبه أبوه فهرب، فأرسل وراءه فلم يقدروا عليه. فيقال إنه قتل المرأة الثانية لكونها أفشت سرّه، فهرب من أجل ذلك، وأطلق سراح الأخرى، فأقامت تعبد الله في بعض نواحي تلك المدينة، فمرّ بها رجل يوماً فسمعته يقول بسم الله، فقالت له أنّى لك هذا الاسم، فقال إني من أصحاب الخضر فتزوّجته فولدت له أولاداً. ثم صار من أمرها أن صارت ماشطة بنت فرعون، فبينما هي يوماً تمشطها إذ وقع المشط من يدها فقالت بسم الله، فقالت ابنة فرعون أبي فقالت: لا ربي وربّك وربّ أبيك الله، فأعلمت أباها فأمر بنقرة من نحاس فأحميت، ثم أمر بها فألقيت فيه، فلما عاينت ذلك تقاعست[3] أن تقع فيها، فقال لها ابن معها صغير يا أمه أصبري فإنك على الحقّ فألقت نفسها في النار فماتت رحمها الله. وقد روى ابن عساكر عن أبي داود الأعمى نُفَيْع وهو كذّاب، وضاع عن أنس بن مالك ومن طريق

(١) تقعقع: القعقاع: من إذا مشى سمع لمفاصل رجليه تقعقع.
(٢) الثيب: المرأة المفارقة زوجها.
(٣) تقاعست: تأخرت ورجعت إلى خلف.

كثير بن عبد الله بن عَمْرو بن عَوْفٍ وهو كذّاب أيضاً عن أبيه عن جدّه: أن الخضر جاء ليلة فسمع النبي ﷺ وهو يدعو ويقول: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى مَا يُنَجِّينِي مِمَّا خَوَّفْتَنِي وَارْزُقْنِي شَوْقَ الصَّالِحِينَ إِلَى مَا شَوَّقْتَهُمْ إِلَيْهِ»، فبعث إليه رسول الله أنس بن مالك فسلّم عليه فردّ عليه السلام، وقال: قل له إن الله فضّلك على الأنبياء كما فضّل شهر رمضان على سائر الشهور، وفضّل أمتك على الأمم كما فضّل يوم الجمعة على غيره، الحديث وهو مكذوب لا يصحّ سنداً ولا متناً، كيف لا يتمثل بين يدي رسول الله ﷺ ويجيء بنفسه مسلماً ومتعلّماً وهم يذكرون في حكاياتهم وما يسندونه عن بعض مشايخهم أن الخضر يأتي إليهم ويسلّم عليهم، ويعرف أسماءهم، ومنازلهم ومحالهم، وهو مع هذا لا يعرف موسى بن عمران كليم الله الذي اصطفاه الله في ذلك الزمان على من سواه حتى يتعرّف إليه بأنه موسى بني إسرائيل.

وقد قال الحافظ أبو الحسين بن المُنَادِي بعد إيراده حديث أنس هذا، وأهل الحديث متفقون على أنه حديث منكر الإسناد سقيم المتن يتبيّن فيه أثر الصنعة.

فأمّا الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البَيْهَقِي قائلاً: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو بكر بن بَالَوْيه، حدثنا محمد بن بِشْرُ بن مَطَر، حدثنا كَامِلُ بن طَلْحَة، حدثنا عَبَّادُ بن عبد الصمد، عن أنس بن مَالِكٍ قال: لما قبض رسول الله ﷺ أحدق به أصحابه فبكوا حوله، واجتمعوا فدخل رجل أشهب[1] اللحية جسيم صبيح، فتخطّى رقابهم فبكى، ثم التفت إلى أصحاب رسول الله ﷺ فقال: إن في الله عزاءً من كل مصيبة، وعوضاً من كل فائت، وخلفاً من كل هالك، فإلى الله فأنيبوا وإليه فارغبوا، ونظر إليكم في البلاء فانظروا فإن المصاب من لم يجبر، وانصرف فقال بعضهم لبعض تعرفون الرجل؟ فقال أبو بكر وعليّ نعم هو أخو رسول الله ﷺ الخضر عليه السلام. وقد رواه أبو بكر بن أبي الدُّنْيَا عن كامِلِ بن طَلْحَةَ به؛ وفي متنه مخالفة لسياق البَيْهَقِي، ثم قال البَيْهَقِي: عَبَّادُ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ ضَعِيفٌ، وهذا منكر بمرّة.

قلت: عَبَّادُ بن عَبْدِ الصَمَدِ هذا هُو ابن مَعْمَرِ البَصْرِي. رَوَى عن أنس نسخة قال ابن حِبَّان والعَقِيلِي أكثرها موضوع.

وقال البخاري منكر الحديث. وقال أبو حاتم ضعيف الحديث جداً منكره. وقال ابن عَدِيٍّ عامة ما يرويه في فضائل عليّ وهو ضعيف غالٍ في التشيّع.

وقال الشافعي في مسنده أخبرنا القاسم بن عبد الله بن عمر عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه علي بن الحسين قال لما توفي رسول الله ﷺ وجاءت التعزية سمعوا قائلاً يقول إنّ في الله عزاء من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك ودَرَكاً[2] من كل فائت، فبالله فثقوا وإياه فأرجوا فإن المصاب من حُرِمَ الثواب.

قال علي بن الحسين أتدرون من هذا؟ هذا الخضر. شيخ الشافعي القاسم العُمَرِي متروك.

قال أحمد بن حنبل ويحيى بن مَعِينٍ يكذب. زاد أحمد ويضع الحديث ثم هو مرسل

(١) أشهب: الشهب: بياض يصدعه سواد. (٢) الدرك: أقصى قعر الشيء.

ومثله لا يعتمد عليه ههنا والله أعلم.

وقد رَوَى من وجه آخر ضعيف عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه عن أبيه عن علي. ولا يصحّ. وقد روى عبد الله بن وهب عمّن حدّثه عن محمد بن عَجْلاَنَ عن محمد بن المُنْكَدِرِ أن عمر بن الخطاب بينما هو يصلي على جنازة إذ سمع هاتفاً وهو يقول لا تسبقنا يرحمك الله، فانتظره حتى لحق بالصفّ، فذكر دعاءه للميت إن تُعَذّبه فكثيراً عصاك، وإن تغفر له ففقير إلى رحمتك. ولما دفن قال طوبى لك يا صاحب القبر إن لم تكن عريفاً أوجابياً أو خازناً أو كاتباً أو شرطياً، فقال عمر خذوا الرجل نسأله عن صلاته وكلامه عمن هو. قال فتوارى عنهم فنظروا فإذا أثر قدمه ذراع. فقال عمر هذا والله الخضر الذي حدّثنا عنه رسول الله ﷺ. وهذا الأثر فيه مبهم وفيه انقطاع ولا يصح مثله.

وروى الحافظ ابن عساكر عن الثَوْرّي عن عبد الله بن مُحْرِزٍ عن يزيدَ بن الأَصَمّ عن علي بن أبي طالب قال: دخلت الطواف في بعض الليل فإذا أنا برجل متعلّقٍ بأستارِ الكعبة، وهو يقول يا من لا يمنعه سمع من سمع ويا من لا تغلطه المسائل ويا من لا يبرمه [1] إلحاح الملحّين ولا مسألة السائلين، أرزقني بردَ عفوك وحلاوة رحمتك، قال فقلت: أعد عليّ ما قلت، فقال لي أَوَ سَمِعْتَه؟ قلت: نعم، فقال لي والذي نفس الخضر بيده قال وكان هو الخضر لا يقولها عبد خلف صلاة مكتوبة إلاّ غفر الله له ذنوبه، ولو كانت مثل زبد البحر وورق الشجر وعدد النجوم لغفرها الله له. وهذا ضعيف من جهة عبد الله بن المُحْرِزِ فإنه متروك الحديث، ويزيدُ بن الأَصَمّ لم يدرك علياً، ومثل هذا لا يصحّ والله أعلم.

وقد رواه أبو إسماعيل الترمذي حدثنا مالك بن إسماعيل حدّثنا صالح بن أبي الأَسْوَدِ عن محفوظ بن عبد اللّهِ الحَضْرَمِيّ عن محمد بن يحيى قال بينما علي بن أبي طالب يطوف بالكعبة إذا هو برجل متعلّق بأستار الكعبة، وهو يقول يا من لا يشغله سمع عن سمع ويا من لا يغلطه السائلون ويا من لا يتبرّم بإلحاح الملحين، أرزقني بَردَ عفوك وحلاوة رحمتك قال فقال له عليّ: يا عبد الله أعد دعاءك هذا، قال: وقد سمعته؟ قال: نعم، قال: فادع به في دبر كل صلاة فوالذي نفس الخضر بيده لو كان عليك من الذنوب عدد نجوم السماء ومطرها وحصباء الأرض وترابها لغفر لك أسرع من طرفة عين. وهذا أيضاً منقطع وفي إسناده من لا يُعْرَف والله أعلم.

وقد أورد ابن الجَوزِي من طريق أبي بكر بن أبي الدُّنْيا: حدّثنا يعقوب بن يوسف، حدّثنا مالك بن إسماعيل فذكر نحوه. ثم قال وهذا إسناد مجهول، منقطع وليس فيه ما يدلّ على أن الرجل الخضر.

وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر أنبأنا أبو القاسم بن الحُصَيْنِ أنبأنا أبو طالب محمد بن محمد، أنبأنا أبو إسحاق المزكي، حدثنا محمد بن إسحاق بن خُزَيْمَةَ حدثنا محمد بن أحمد بن يزيد أملاه علينا بعبادان أنبأنا عمرو بن عَاصِمٍ حدثنا الحَسَنُ بن زُرَيْقٍ عن ابن جُرَيْجٍ عن عطاءٍ عن

(١) يبرم: يتذمر.

ابن عبّاس قال ولا أعلمه إلاّ مرفوعاً إلى النبيّ ﷺ قال: «يَلْتَقِي الخَضِرُ وَإِلْيَاسُ كُلَّ عَامٍ فِي المَوْسِمِ، فَيَحْلِقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا رَأْسَ صَاحِبِهِ، وَيَتَفَرَّقَانِ عَنْ هَؤُلاَءِ الكَلِمَاتِ: بِسْمِ اللَّهِ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ يَسُوقُ الخَيْرَ إِلاَّ اللَّهُ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ يَصْرِفُ الشَّرَّ إِلاَّ اللَّهُ مَا شَاءَ اللَّهُ مَا كَانَ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ حَوْلَ ولاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ». قال وقال ابن عباس: من قالهن حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات آمنه الله من الغرق والحرق والسرق، قال وأحسبه قال ومن الشيطان والسلطان والحيّة والعقرب.

قال الدارقطني في الإفراد هذا حديث غريب من حديث ابن جريج، لم يحدّث به غير هذا الشيخ عنه يعني الحسن بن زريق هذا. وقد روى عنه محمد بن كثير العبدي أيضاً ومع هذا قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدي ليس بالمعروف. وقال الحافظ أبو جعفر العقيلي مجهول وحديثه غير محفوظ. وقال أبو الحسن بن المنادى هو حديث واهب الحسن بن زُرَيْقٍ. وقد روى ابن عساكر نحوه من طريق علي بن الحَسَن الجَهْضَمِي وهو كذّاب عن ضُمْرَةَ بن حبيب المَقْدُسِي عن أبيه، عن العَلاَءِ بن زِيَادٍ القُشَيْرِي عن عبد الله بن الحسن عن أبيه عن جدّه عن علي بن أبي طالب مرفوعاً، قال: «يجتمع كل يوم عرفة بعرفات جبريل وميكائيل وإسرافيل. والخضر» وذكر حديثاً طويلاً موضوعاً تركنا إيراده قصداً ولله الحمد.

وروى ابن عساكر من طريق هشام بن خالد عن الحسن بن يحيى الخُشَنِي عن ابن أبي رُوَادٍ قال: إلياس والخضر يصومان شهر رمضان ببيت المقدس ويحجان في كل سنة ويشربان من ماء زمزم شربة واحدة تكفيهما إلى مثلها من قابل. وروى ابن عساكر أن الوليد بن عبد الملك بن مروان بأني جامع دمشق أحبّ أن يتعبّد ليلة في المسجد فأمر القومة أن يخلوه له، ففعلوا فلما كان من الليل جاء من باب الساعات فدخل الجامع، فإذا رجل قائم يصلّي فيما بينه وبين باب الخضراء، فقال للقومة: ألم آمركم أن تخلوه؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين هذا الخضر يجيء كل ليلة يصلي ههنا.

وقال ابن عساكر أيضاً: **أنبأنا** أبو القاسم بن إسماعيل بن أحمد أنبأنا أبو بكر بن الطَّبَرِي أنبأنا أبو الحسين بن الفضل أنبأنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يعقوب هو ابن سُفَيَانَ الفَسَوِيّ حدثني محمد بن عبد العزيز، حدثنا ضمرة عن السَرِي بن يحيى عن رَبَاح بن عُبَيْدَةَ قال: رأيت رجلاً يماشي عمر بن عبد العزيز معتمداً على يديه فقلت في نفسي إن هذا الرجل حافي، قال: فلما انصرف من الصلاة قلت من الرجل الذي كان معتمداً على يدك آنفاً؟ قال: وهل رأيته يا رباح؟ قلت: نعم، قال ما أحسبك إلا رجلاً صالحاً ذاك أخي الخضر بشّرني أني سألي وأعدل.

قال الشيخ أبو الفرج بن الجَوْزِي الرَّمْلِي مجروح عند العلماء. وقد قدح أبو الحسين بن المُنَادِي في ضُمْرَةَ والسَرِيّ ورباح. ثم أورد من طرق أخر عن عمر بن عبد العزيز أنه اجتمع بالخضر وضعفها كلّها.

وروى ابن عساكر أيضاً أنه اجتمع بإبراهيم التَّيْمِي وبسفيان بن عُيَيْنَة وجماعة يطول ذكرهم. وهذه الروايات والحكايات هي عمدة من ذهب إلى حياته إلى اليوم وكل من الأحاديث

المرفوعة ضعيفة جداً، لا يقوم بمثلها حجّة في الدين، والحكايات لا يخلو أكثرها عن ضعف في الإسناد. وقصاراها أنها صحيحة إلى من ليس بمعصوم من صحابي أو غيره، لأنه يجوز عليه الخطأ والله أعلم. وقال عبد الرَزّاقِ أنبأنا مَعْمَرٌ عن الزُّهْرِي أخبرني عبيدُ الله بن عبد الله بن عُتْبَةَ أن أبا سعيد قال: حدثنا رسول ﷺ حديثاً طويلاً عن الدجّال وقال فيما يحدثنا: «يأتي الدَّجَّالُ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيهِ أَنْ يَدْخُلَ نقابَ[1] المدينَةِ، فيخْرُجُ إِلَيهِ يَوْمَئِذٍ رَجُلٌ هُوَ خَيرُ النَّاسِ أَوْ مِنْ خيرهِمْ، فَيَقُولُ أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ الدَّجَّالُ الَّذي حَدَّثَنَا عَنكَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ بحَدِيثِهِ. فَيَقُولُ الدَّجَّالُ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَتَلْتُ هَذا ثُمَّ أَحيَيتُهُ أَتَشُكُّون في الأَمْرِ. فَيَقُولُونَ لاَ فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يُحْيِيه فَيَقُولُ حينَ يَحْيَى وَاللّهِ مَا كُنْتُ أَشَدَّ بَصيرَةً فِيك مني ألآن قَالَ فَيُرِيدُ قَتْلَهُ الثَّانِيَةَ فَلاَ يُسَلَّطُ عَلَيْهِ»[2] قال مَعْمَرٌ بلغني أنه يجعل على حلقه صحيفة من نحاس وبلغني أنه الخضر الذي يقتله الدجّال، ثم يحييه، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزُّهْرِيّ به وقال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه الرَّاوِي عن مسلم الصحيح أن يقال إن هذا الرجل الخضر، وقول مَعْمَرٍ وغيره بلغني ليس فيه حجّة، وقد ورد في بعض ألفاظ الحديث، فيأتي بشاب ممتلىء شباباً فيقتله، وقوله الذي حدّثنا عنه رسول الله ﷺ لا يقتضي المشافهة بل يكفي التواتر.

وقد تصدّى الشيخ أبو الفرج بن الجَوْزِي رحمه الله في كتابه عَجَالَةُ المُنْتَظِرِ فِي شَرْحِ حَالَةِ الْخَضِرْ للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات، فبين أنها موضوعات، ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم فبين ضعف أسانيدها ببيان أحوالها وجهالة رجالها، وقد أجاد في ذلك وأحسن الانتقاد. وأما الذين ذهبوا إلى أنه قد مات، ومنهم البخاري وإبراهيم الحربي وأبو الحسين بن المُنَادِي والشيخ أبو الفرج بن الجوزي، وقد انتصر لذلك وألّف فيه كتاباً سمّاه «عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر»، فيحتجّ لهم بأشياء كثيرة. منها قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٤] فالخضر إن كان بشراً فقد دخل في هذا العموم لا محالة، ولا يجوز تخصيصه منه إلاّ بدليل صحيح انتهى. والأصل عدمه حتى يثبت، ولم يُذكر ما فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله. ومنها أن الله تعالى قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: الآية ٨١] قال ابن عبّاس ما بعث الله نبياً إلاّ أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمّد وهو حي ليؤمنَنّ به ولينصرنّه. وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث محمد، وهم أحياء ليؤمننّ به وينصرنه ذكره البخاري عنه فالخضر إن كان نبياً أو ولياً فقد دخل في هذا الميثاق فلو كان حياً في زمن رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه يؤمن بما أنزل الله عليه، وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه، لأنه إن كان وَلياً فالصدّيق أفضل منه، وإن كان نبياً فموسى أفضل منه،

(١) نقاب: طريق.
(٢) أخرجه البخاري في فضائل المدينة باب ٩، والفتن باب ٢٧، ومسلم في الفتن حديث ١١٢، وأحمد في المسند ٣/ ٣٦.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده حدثنا شُرَيْح بن النُّعْمَانِ حدثنا هُشَيْمٌ أنبأنا مُجَالِدٌ عن الشَّعْبي عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيّاً مَا وَسِعَهُ إِلاَّ أَنْ يَتَّبِعَنِي[١]. وهذا الَّذِي يقطع به ويعلم من الدين علم الضرورة. وقد دلّت عليه هذه الآية الكريمة أن الأنبياء كلهم لو فرض أنهم أحياء مكلفون في زمن رسول الله ﷺ لكانوا كلّهم أتباعاً له وتحت أوامره، وفي عموم شرعه، كما أنه صلوات الله وسلامه عليه لما اجتمع معهم ليلة الإسراء رفع فوقهم كلّهم، ولما هبطوا معه إلى بيت المقدس وحانت الصلاة أمره جبريل عن أمر الله أن يؤمّهم، فصلّى بهم في محل ولايتهم ودار إقامتهم، فدلّ على أنه الإمام الأعظم والرسول الخاتم المبجّل المقدّم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. فإذا علم هذا وهو معلوم عند كل مؤمن علم أنه لو كان الخضر حياً لكان من جملة أمة محمد ﷺ وممن يقتدي بشرعه لا يسعه إلاّ ذلك. هذا عيسى ابن مريم عليه السلام إذا نزل في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهّرة لا يخرج منها ولا يحيد عنها، وهو أحد أُولي العزم الخمسة المرسلين وخاتم أنبياء بني إسرائيل، والمعلوم أن الخضر لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن النفس إليه أنه اجتمع برسول الله ﷺ في يوم واحد، ولم يشهد معه قتالاً في مشهد من المشاهد، وهذا يوم بدر يقول الصادق المصدوق فيما دعا به لربّه عزّ وجلّ واستنصره واستفتحه على من كفره، «اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةُ لاَ تُعْبَدُ بَعْدَهَا فِي الأَرْضِ»[٢] وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذٍ وسادة الملائكة حتى جبريل عليه السلام كما قال حسّان بن ثابت في قصيدة له في بيت يقال إنه أفخر بيت قالته العرب: [الكامل]

وَثَبِيرُ[٣] بَدْرٍ إِذْ يَرُدُّ وُجُوهَهُمْ ... جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوَائِنَا وَمُحَمَّدُ

فلو كان الخضر حياً لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته وأعظم غزواته. قال القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفَرَّاءِ الحَنْبَلِي سئل بعض أصحابنا عن الخضر هل مات فقال: نعم، قال: وبلغني مثل هذا عن أبي طاهر بن الغُبَارِي، قال وكان يحتجّ بأنه لو كان حياً لجاء إلى رسول اله ﷺ. نقله ابن الجوزي في العجالة. فإن قيل فهل يقال إنه كان حاضراً في هذه المواطن كلّها، ولكن لم يكن أحد يراه. فالجواب أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد الذي يلزم منه تخصيص العمومات بمجرّد التوهمات ثم ما الحاصل له على هذا الاختفاء وظهوره أعظم لأجره وأعلى في مرتبته وأظهر لمعجزته. ثم لو كان باقياً بعده لكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديث النبوية والآيات القرآنية وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة والروايات المقلوبة، والآراء البدعية، والأهواء العصبية، وقتاله مع المسلمين في غزواتهم، وشهوده جمعهم وجماعاتهم، ونفعه إياهم ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم، وتسديده العلماء والحكّام وتقريره الأدلة والأحكام، أفضل ما يقال عنه من كنونه[٤] في الأمصار. وجوبه

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٣٨٧.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٣٠، ٣١.
(٣) ثبير: جبل بظاهر مكة.
(٤) كنونة: كنّ الشيء: ستره.

الفيافي[١] والأقطار. واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم. وهذا الذي ذكرناه لا يتوقف أحد فيه بعد التفهيم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عبد الله بن عمر أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ صلى ليلة العشاء ثم قال: «أَرَأَيْتُمْ لَيلَتَكُمْ هَذِهِ فَإِنَّهُ إِلى مائةِ سَنَةٍ لاَ يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ اليَوْمَ أَحَدٌ»[٢]. وفي رواية «عينٌ تطْرَفُ».

قال ابن عمر فَوَهِلَ الناس في مقالة رسول الله ﷺ هذه، وإنما أراد انخرام قرنه. قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا مَعْمَرُ عن الزُهْرِي قال أخبرني سالم بن عبد الله وأبو بكر بن سليمان بن أبي خَيْثَمَةَ أنَّ عبد الله بن عمر قال: صلى رسول الله ﷺ ذات ليلة العشاء في آخر حياته فلما سلّم قام فقال: «أَرَأَيْتُمْ لَيلَتَكُمْ هَذِهِ فَإِنَّ عَلَى رَأْسِ مَائَةِ سَنَةٍ لاَ يَبْقَى مِمَّنْ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَحَدٌ»[٣] وأخرجه البخاري ومسلم من حديث الزُهْرِي.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عَدِيٍّ عن سليمان التَيْمِي عن أبي نَضْرَةَ عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ قبل موته بقليل أو بشهر: «مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ» أو «مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ اليَوْمَ مَنْفُوسَةٍ يَأْتِي عَلَيْهَا مَائَةُ سَنَةٍ وَهِيَ يَوْمَئِذٍ حَيَّةٌ»[٤].

وقال أحمد: حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لَهِيْعَةَ عن أبي الزبير عن جابر عن النبيِّ ﷺ أنه قال قبل أن يموت بشهر «يَسْأَلُونَنِي عَنِ السَّاعَةِ وَإِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ أُقْسِمُ بِاللهِ مَا عَلَى الأَرْضِ نَفْسٌ مَنْفُوسَةٌ اليَوْمَ يَأْتِي عَلَيْهَا مَائَةُ سَنَةٍ»[٥]. وهكذا رواه مسلم من طريق أبي نَضْرَةَ وأبي الزُبَيْرِ كل منهما عن جابر بن عبد الله به نحوه. وقال التِّرْمِذِي حدّثنا عَبَّادُ حدثنا أبو مُعَاوِيَةَ عن الأَعْمَش عن أبي سفيان عن جابر، قال قال رسول الله ﷺ: «مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ يَأْتِي عَلَيْهَا مَائَةُ سَنَةٍ»[٦]. وهذا أيضاً على شرط مسلم. قال ابن الجوزي فهذه الأحاديث الصّحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر. قالوا فالخضر إن لم يكن قد أدرك زمان رسول الله ﷺ كما هو المظنون الذي يترقى في القوّة إلى القطع[٧]، فلا إشكال، وإن كان قد أدرك زمانه فهذا الحديث يقتضي أنه لم يعش بعد مائة سنة، فيكون الآن مفقوداً لا موجوداً لأنه داخل في هذا العموم، والأصل عدم المخصص له حتى يثبت بدليل صحيح يجب قبوله والله أعلم.

وقد حكى الحافظ أبو القاسم السُهَيْلِيّ في كتابه التعريف والإعلام عن البخاري وشيخه

(١) الفيافي: الصحارى.
(٢) أخرجه البخاري في العلم باب ٤١، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٢١٧، وأحمد في المسند ٢/ ٨٨.
(٣) تقدم الحديث مع تخريجه.
(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٣٠٥.
(٥) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث ٢١٨، وأحمد في المسند ٣/ ٣٤٥.
(٦) أخرجه الترمذي في الفتن باب ٦٤، وأحمد في المسند ٣/ ٣١٤.
(٧) القطع: الحزم والبت في الأمر.

أبي بكر بن العَرَبي، أنه أدرك حياة النبي ﷺ ولكن مات بعده لهذا الحديث، وفي كون البخاري رحمه الله يقول بهذا، وأنه بقي إلى زمان النبي ﷺ نظر. ورجّح السُّهَيْلِي بقاءه وحكاه عن الأكثرين. قال وأما اجتماعهما مع النبيِّ ﷺ وتعزيته لأهل البيت بعده فمروي من طرق صحاح، ثم ذكر ما تقدم مما ضعّفناه ولم يورد أسانيدها والله أعلم.

وأما إلياس عليه السلام

فقال الله تعالى بعد قصّة موسى وهارون من سورة الصّافات: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الصافات: ١٢٣ـ ١٣٢]
قال علماء النسب هو إلياس النشبي. ويقال: ابن ياسين بن فنحاص ابن العيزار بن هارون. وقيل: إلياس بن ألِعَازَر بن العيزار بن هارون بن عمران. قالوا وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربي دمشق، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه بَعْلاً. وقيل كانت امرأة اسمها بعل والأول أصح. ولهذا قال لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ فكذّبوه وخالفوه وأرادوا قتله، فيقال إنه هرب منهم واختفى عنهم.

قال أبو يعقوب الأَذْرَعِي عن يزيد بن عبد الصمد عن هشام بن عمّار قال: وسمعت من يذكر عن كعب الأحبارِ أنه قال إن إلياس اختفى من ملك قومه في الغار الَّذي تحت الدمّ عشر سنين حتى أهلك الله الملك وَوَلِي غيره، فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام فأسلم، وأسلم من قومه خلق عظيم غير عشرة آلاف منهم، فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم. وقال ابن أبي الدنيا حدثني أبو محمد القاسم بن هاشم حدثنا عمر بن سعيد الدِّمَشْقِي حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن بعض مشيخة دمشق قال أقام إلياس عليه السلام هارباً من قومه في كهف جبل عشرين ليلة، أو قال أربعين ليلة تأتيه الغربان برزقه.

وقال محمد بن سعد كاتب الواقدي أنبأنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه قال أوّل نبي بعث إدريس، ثم نوح ثم إبراهيم ثم إسماعيل وإسحاق ثم يعقوب ثم يوسف ثم لوط ثم هود ثم صالح ثم شعيب ثم موسى وهارون ابنا عمران، ثم إلياس التشبي بن ألِعَازر بن هارون بن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، هكذا قال وفي هذا الترتيب نظر. وقال مكحول عن كعب أربعة أنبياء أحياء اثنان في الأرض إلياس والخضر، واثنان في السماء إدريس وعيسى. وقد قدّمنا قول من ذكر أن إلياس والخضر يجتمعان في كل عام في شهر رمضان ببيت المقدس، وأنهما يحجّان كل سنة ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من العام المقبل. وأوردنا الحديث الذي فيه أنهما يجتمعان بعرفات كل سنة وبيّنا أنه لم يصح شيء من ذلك، وأن الذي يقوم عليه الدليل أن الخضر مات وكذلك إلياس عليهما السلام. وما

ذكره وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ وغيره أنه لما دعا ربّه عزّ وجلّ أن يقبضه إليه لما كذّبوه وآذوه فجاءته دابة لونها لون النار، فركبها وجعل الله له ريشاً وألبسه النور، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، وصار مَلَكِيّاً بشرياً سماوياً أرضياً وأوحى[1] إلى اليسع بن أخوطب ففي هذا نظر، وهو من الإسرائيليات التي لا تصدّق ولا تكذّب بل الظاهر أن صحتها بعيدة والله أعلم.

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البَيْهَقِي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدثني أبو العباس أحمد بن سعيد المِعْدَاني ببخارى حدّثنا عبد الله بن محمود حدثنا عَبْدَان بن سِنَانٍ حدثني أحمد بن عبد الله البَرْقِي حدثنا يزيد بن يزيد البَلَوِيّ، حدثنا أبو إسحاق الفِزَارِي عن الأَوْزَاعِي عن مَكْحُولٍ عن أنس بن مالك قال كنّا مع رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا منزلاً، فإذا رَجل في الوادي يقول اللهم اجعلني من أمة محمد ﷺ المرحومة المغفورة المتاب لها، قال فأشرفت على الوادي فإذا رجل طوله أكثر من ثلاثمائة ذراع، فقال لي: من أنت؟ فقلت: أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ قال فأين هو؟ قلت: هوذا يسمع كلامك، قال: فأته فأقرئه السلام، وقل له أخوك إلياس يقرئك السلام، قال: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فجاء حتى لقيه فعانقه وسلّم. ثم قعدا يتحادثان فقال له يا رسول الله إني ما آكل في سنة إلاّ يوماً، وهذا يوم فطري فآكل أنا وأنت، قال فنزلت عليهما مائدة من السماء، عليها خبز وحوت وكرفس، فأكلا وأطعماني، وصلّينا العصر ثم ودّعه ورأيت مرّ في السحاب نحو السماء. فقد كفانا البَيْهَقِي أمره، وقال هذا حديث ضعيف بمرّة، والعجب أن الحاكم أبا عبد الله النيسابوري أخرجه في مستدركه على الصحيحين وهذا مما يستدرك به على المستدرك فإنه حديث موضوع مخالف للأحاديث الصّحاح من وجوه. ومعناه لا يصحّ أيضاً فقد تقدم في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعاً فِي السَّمَاءِ»، إلى أن قال: «ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ»[2] وفيه أنه لم يأت إلى رسول الله ﷺ حتى كان هو الذي ذهب إليه. وهذا لا يصحّ لأنّه كان أحق بالسعي إلى بين يدي خاتم الأنبياء. وفيه أنه يأكل في السنة مرّة، وقد تقدّم عن وهب أنه سلبه الله لذة المطعم والمشرب، وفيما تقدّم عن بعضهم أنه يشرب من زمزم كل سنة شربة، تكفيه إلى مثلها من الحول الآخر. وهذه أشياء متعارضة وكلّها باطلة لا يصحّ شيء منها. وقد ساق ابن عساكر هذا الحديث من طريق أخرى واعترف بضعفها وهذا عجيب[3] منه كيف تكلّم عليه، فإنه أورده من طريق حسين بن عرفة عن هَانِىء بن الحسن عن بقية عن الأَوْزَاعِي عن مَكْحُولٍ عن وَاثِلَةَ ابن الأَسْقَع فذكر نحو هذا مطوّلاً وفيه أن ذلك كان في غزوة تبوك وأنه بعث إليه رسولَ الله ﷺ أنس بن مالك وحُذَيْفَة بن اليَمَانِ قالا فإذا هو أعلى جسماً بذراعين، أو ثلاثة، واعتذر بعدم قدرته لئلا تنفر الإبل، وفيه أنه لما اجتمع به رسول الله ﷺ أكلا من طعام الجنّة، وقال إن لي في كل أربعين يوماً أكلة، وفي المائدة خبز ورمّان وعنب وموز ورطب وبقل ما عدا الكراث، وفيه

---

(١) في ط: وأوصى.
(٢) أخرجه البخاري في احاديث الأنبياء باب ١، ومسلم في الجنة حديث ٢، وأحمد في المسند ٢/ ٣١٥.
(٣) في ط: عجب.

أن رسول الله ﷺ سأله عن الخضر، فقال عهدي به عام أول، وقال لي إنك ستلقاه قبلي فأقرئه مني السلام. وهذا يدل على أن الخضر وإلياس بتقدير وجودهما وصحّة هذا الحديث لم يجتمعا به إلى سنة تسع من الهجرة، وهذا لا يسوغ شرعاً وهذا موضوع أيضاً.

وقد أورد ابن عساكر طرقاً فيمن اجتمع بإلياس من العباد وكلّها لا يفرح بها لضعف إسنادها أو لجهالة المسند إليه فيها. ومن أحسنها ما قال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثني بشر بن معاذ حدثنا حمّاد بنَ واقِدٍ عن ثَابتٍ قال كنا مع مصعب بن الزُّبَيْرِ بسوادِ الكوفة، فدخلت حائطاً أصلّي فيه ركعتين فافتتحت ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر: الآيات ١ـ٣]. فإذا رجل من خلفي على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية، فقال لي إذا قلت: غافر الذنب فقل: يا غافر الذنب اغفر لي ذنبي. وإذا قلت: قابل التَّوْبِ فقل: يا قابل التَّوْبِ تقبّل توبتي. وإذا قلت: شديد العقاب فقل: يا شديد العقاب لا تعاقبني. وإذا قلت: ذي الطول فقل: يا ذا الطول تطوّل عليّ برحمة، فالتفت فإذا لا أحد، وخرجت فسألت مرّ بكم رجل على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية؟ فقالوا ما مرّ بنا أحد، فكانوا لا يرون إلا أنه إلياس. وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٢٧﴾ [الصافات: الآية ١٢٧] أي للعذاب إما في الدنيا والآخرة أو في الآخرة، والأول أظهر على ما ذكره المفسّرون والمؤرخون. وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٢٨﴾ [الصافات: الآية ١٢٨] أي إلاّ من آمن منهم وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝١٢٩﴾ [الصافات: الآية ١٢٩] أي أبقينا بعده ذِكْراً حسناً له في العالمين، فلا يذكر إلا بخير ولهذا قال: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ۝١٣٠﴾ [الصافات: الآية ١٣٠] أي سلام على إلياس. العرب تلحق النون في أسماء كثيرة وتبدّلها من غيرها، كما قالوا إسماعيل وإسماعين وإسرائيل وإسرائين وإلياس والياسين. ومن قرأ سلام على آل ياسين أي على آل محمّد، وقرأ ابن مسعود وغيره سلام على إدراسين. ونقل عنه من طريق إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن ابن مسعود أنه قال إلياس هو إدريس، وإليه ذهب الضَّحَّاكُ بن مُزَاحِمٍ وحكاه قَتَادَةُ ومحمد بن إسحاق والصحيح أنه غيره كما تقدّم والله أعلم.

بحمد الله تعالى قد تمّ الجزء الأول من كتاب البداية والنهاية ويليه الجزء الثاني وأوله (باب ذكر جماعة من أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام).

فهرس المحتويات

البداية والنهاية

تأليف

أبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي

المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

وثقه وقابل مخطوطاته

الشيخ علي محمد معوض — الشيخ عادل أحمد عبد الموجود

وضع حواشيه

دكتور أحمد أبو ملحم — دكتور علي نجيب عطوي

الأستاذ فؤاد السيد — الأستاذ مهدي ناصر الدين

الأستاذ علي عبد الساتر

الجزء الثاني

المحتوى:

ما قبل الهجرة النبوية

منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[باب ذكر][1] جماعة من أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام ثم نتبعهم بذكر داود وسليمان عليهما السلام.

قال ابن جرير في تاريخه: لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمّتنا وغيرهم أن القائم بأمور بني إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوفنا، يعني أحد أصحاب موسى عليه السلام وهو زوج أخته مريم، وهو أحد الرجلين اللذين ممن يخافون الله وهما يوشع وكالب، وهما القائلان لبني إسرائيل حين نكلوا عن الجهاد ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣].

قال ابن جرير: ثم من بعده كان القائم بأمور بني إسرائيل حزقيل بن بوذي وهو الذي دعا الله فأحيا ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

قصة حزقيل

قال الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة: ٢٤٣].

قال محمد بن إسحاق، عن وهب بن منبه إن كالب بن يوفنا لما قبضه الله إليه بعد يوشع، خَلَفَ في بني إسرائيل حزقيل بن بوذي وهو ابن العجوز، وهو الذي دعا للقوم الذين ذكرهم الله في كتابه فيما بلغنا ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ قال ابن إسحاق: فرّوا من الوباء، فنزلوا بصعيد من الأرض، فقال لهم الله: موتوا، فماتوا جميعاً. فحظروا عليهم حظيرة دون السباع، فمضت عليهم دهور طويلة، فمرّ بهم حزقيل عليه السلام، فوقف عليهم متفكراً، فقيل له: أتحبّ أن يبعثهم الله وأنت تنظر؟ فقال: نعم، فأمر أن يدعو تلك العظام أن تكتسي لحماً، وأن يتصل العصب بعضه ببعض، فناداهم عن أمر الله له بذلك، فقام القوم أجمعون، وكبّروا تكبيرة رجل واحد.

وقال أسباط، عن السدّي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عبّاس وعن مرّة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ قالوا: كانت قرية يقال لها: داوردان[2] قِبَل

---

(١) سقط في ط.

(٢) داوردان: بفتح الواو، وسكون الراء، وآخره نون: من نواحي شرقي واسط وبينهما فرسخ. وفيها دير يعرف بدير هزقل، نسبة إلى حزقيل. (معجم البلدان).

واسط وقع بها الطاعون، فهرب عامّة أهلها، فنزلوا ناحية منها، فهلك من بقي في القرية، وسلم الآخرون، فلم يمت منهم كثير، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين، فقال الذين بقوا: أصحابنا هؤلاء كانوا أحزم منّا، لو صنعنا كما صنعوا بقينا، ولَئِنْ وقع الطاعون ثانية لنخرجنّ معهم، فوقع في قابل، فهربوا وهم بضعة وثلاثون ألفاً حتى نزلوا ذلك المكان، وهو واد أفيح[1]، فناداهم مَلَكٌ من أسفل الوادي وآخر من أعلاه أن موتوا، فماتوا حتى إذا هلكوا وبقيت أجسادهم، مرّ بهم نبي يقال له: حِزقيل، فلما رآهم وقف عليهم، فجعل يتفكّر فيهم ويلوي شدقيه وأصابعه، فأوحى الله إليه تريد أن أريك كيف أحييهم؟ قال: نعم، وإنما كان تفكّره أنه تعجّب من قدرة الله عليهم، فقيل له: نادِ فنادى: يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تجتمعي، فجعلت العظام يطير بعضها إلى بعض، حتى كانت أجساداً من عظام، ثم أوحى الله إليه أن نادِ: يا أيتها العظام إنَّ الله يأمرك أن تكتسي لحماً، فاكتست لحماً ودماً وثيابها التي ماتت فيها. ثم قيل له: نادِ فنادى أيتها الأجساد إن الله يأمرك أن تقومي فقاموا. قال أسباط: فزعم منصور عن مجاهد أنهم قالوا حين أحيوا «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ» فرجعوا إلى قومهم أحياء يَعْرِفون أنهم كانوا موتى سحنة[2] الموت على وجوههم، لا يلبسون ثوباً إلاّ عاد رسماً[3] حتى ماتوا لآجالهم التي كتبت لهم. وعن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف، وعنه ثمانية آلاف، وعن أبي صالح تسعة آلاف، وعن ابن عباس أيضاً كانوا أربعين ألفاً. وعن سعيد بن عبد العزيز كانوا من أهل أَذْرِعات[4]. وقال ابن جريج عن عَطَاءٍ: هذا مثل، يعني أنه سيق مثلاً مبيناً أنه لن يغني حَذَر من قَدَر، وقول الجمهور أقوى إن هذا وقع. وقد روى الإمامُ أحمدُ وصاحبا الصحيح من طريق الزُّهري عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زَيْدِ بن الخطاب عن عبد الله بن الحَارِث بْنِ نَوْفَلٍ عن عبد الله بن عبّاس، أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ[5] لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجرّاح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء وقع بالشام، فذكر الحديث يعني في مشاورته المهاجرين والأنصار فاختلفوا عليه، فجاءه عبد الرحمن بن عوف وكان متغيّباً ببعض حاجته، فقال: إن عندي من هذا عِلْماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا كَانَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَاراً مِنْهُ وَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تُقْدِمُوا عَلَيْهِ» فحمد الله عمر ثم انصرف[6].

---

(١) أفيح: أفيح أو أفيع موضع بنجد (معجم البلدان).

(٢) سحنة: أي هيئة.

(٣) رسماً: أي رثاً.

(٤) أذرعات: بلد في أطراف الشام، يجاور أرض البلقاء (معجم البلدان).

(٥) سَرْغ: موضع وهو أول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك من منازل حاج الشام (معجم البلدان).

(٦) أخرجه البخاري في: الطب، باب: ٣٠، ومسلم في: السلام، الحديث ٩٨. وأحمد في المسند ١/ ١٩٤.

وقال الإمام: حدثنا حَجّاجٌ ويزيدُ المُفتي[١] قالا: حدثنا ابن أبي ذُؤَيب عن الزُّهري عن سالم عن عبد الله بن عامر بن ربيعة أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو في الشام عن النبي ﷺ: «أَنَّ هَذَا السُّقْمَ عُذِّبَ بِهِ الأُمَمُ قَبْلَكُمْ فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ فِي أَرْضٍ فَلاَ تَدْخُلُوهَا وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَاراً مِنْهُ»[٢].

قال: فرجع عمرُ منَ الشام. وأخرجاه من حديث مالك عن الزُّهري بنحوه.

قال محمد بن إسحاق: ولم يذكر لنا مدّة لبث حِزْقِيلَ في بني إسرائيل. ثم إن الله قبضه إليه. فلما قبض نسي بنو إسرائيل عهدَ الله إليهم، وعَظُمَت فيهم الأحداث وعبدوا الأوثان، وكان في جملة ما يعبدونه من الأصنام صنم يقال له: بَعْلٌ، فبعث الله إليهم اليَاسَ بنَ ياسينَ بن فِنْحَاصَ بن العِيزار بنُ هارون بن عِمران.

قلت: وقد قدّمنا قِصّة إلياسِ تبعاً لقصة الخَضِرِ لأنهما يُقرنان في الذكر غالباً، ولأجل أنها بعد قصة موسى في سورة الصافات، فتعجّلنا قصّته لذلك والله أعلم. قال محمد بن إسحاق فيما ذكر له عن وهب بن مُنَبِّهٍ قال: ثم تنبأ فيهم بعد إلياسِ وصيُّه اليَسَعُ بن أُخْطُوبَ عليه السلام.

قصة اليَسَع عليه السلام

وقد ذكره الله تعالى مع الأنبياء في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٨٦] وقال تعالى في سورة صٓ ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [صٓ: ٤٨] قال إسحاق بن بشرَ أبو حذيفة: أنبأنا سعيد عن قَتادة عن الحسن، قال: كان بعد إلْياسِ اليَسَع عليهما السلام، فمكث ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله مستمسكاً بمنهاج إلياس وشريعته، حتى قبضه الله عزّ وجلّ إليه، ثم خلف فيهم الخلوف وعظمت فيهم الأحداث والخطايا وكثرت الجبابرة، وقتلوا الأنبياء، وكان فيهم ملك [جبار][٣] عنيد طاغ. ويقال إنه الذي تكفّل له ذو الكِفْل إن هو تاب ورجع دخل الجنّة فسُمِيَّ ذا الكِفْل.

قال محمد بن إسحاق: هو اليَسَع بن أخطوب.

وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في حرف الياء من تاريخه اليَسَع وهو الأسباط بن عدي بن شوتلم بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. ويقال هو ابن عمّ إلياس النبي عليهما السلام. ويقال كان مستخفياً معه بجبل قاسيون[٤] من ملك

(١) هو يزيد بن أبي حبيب واسمه: سويد الأزدي أبو رجاء من رجال التهذيب، كان مفتي أهل مصر في أيامه، وكان أول من أظهر العلم بمصر والكلام في الحلال والحرام.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/١٩٣.
(٣) سقط في ط.
(٤) جبل قاسيون: جبل مشرف على مدينة دمشق، فيه عدة مغاور وفيه آثار الأنبياء وكهوف وهو جبل مقدّس وفيه مقبرة أهل الصلاح (معجم البلدان).

بعلبك، ثم ذهب معه إليها، فلمّا رفع إلياس خلفه اليَسَع في قومه ونبّأه الله بعده. ذكر ذلك عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب بن مُنَبِّهٍ. قال وقال غيره وكان ببانياس[١]. ثم ذكر ابن عساكر قراءة من قرأ اليسع بالتخفيف وبالتشديد ومن قرأ والليسع وهو اسم واحد لنبي من الأنبياء. قلت قد قدّمنا قصّة ذا الكِفْل بعد قصّة أيوب عليهما السلام لأنه قد قيل إنه ابن أيوب فالله أعلم.

فصل: قال ابن جرير وغيره: ثم مرج أمر بني إسرائيل وعظمت منهم الخطوب[٢] والخطايا وقتلوا من قتلوا من الأنبياء وسلّط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً جبّارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم، وسلّط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضاً، وكانوا إذا قاتلوا أحداً من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذي كان في قبة الزمان، كما تقدّم ذكره، فكانوا يُنصرون ببركته، وبما جعل الله فيه من السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون، فلما كان في بعض حروبهم مع أهل غزة[٣] وعَسْقَلان[٤] غلبوهم وقهروهم على أَخْذِه فانتزعوه من أيديهم فلما عَلِم بذلك ملك بني إسرائيل في ذلك الزمان مالت عنقه فمات كمداً[٥]، وبقي بنو إسرائيل كالغنم بلا راعٍ حتى بعث الله فيهم نبياً من الأنبياء يقال له شَمْوِيل فطلبوا منه أن يقيم لهم مَلِكاً ليقاتلوا معهُ الأعداء، فكان من أمرهم ما سنذكره مما قصّ الله في كتابه. قال ابن جرير فكان من وفاة يوشع بن نون إلى أن بعث الله عز وجل شمويل بن بالي أربعمائة سنة وستون سنة. ثم ذكر تفصيلها بمدد الملوك الذين ملكوا عليهم وسمّاهم واحداً واحداً تركنا ذكرهم قصداً.

قصة شمويل عليه السلام وفيها بدأ أمر داود عليه السلام

هو شمويل ويقال له: أشمويل بن بالي بن علقمة بن يرخام بن اليهو بن تهو بن صوف بن علقمة بن ماحث بن عموصا بن عزريا. قال مقاتل: وهو من ورثة هارون، وقال مجاهد: هو أشمويل بن هلفاقا، ولم يرفع في نسبه أكثر من هذا فالله أعلم.

حكى السَدِّي بإسناده عن ابن عبّاس وابن مسعود وأناس من الصحابة والثَّعْلبي وغيرهم، أنه لما غلبت العمالقة من أرض غَزّة وعَسْقَلان على بني إسرائيل، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وسبوا من أبنائهم جمعاً كثيراً، وانقطعت النبوّة من سِبْط لاوي، ولم يبق فيهم إلاّ امرأة حبلى فجعلت تدعو الله عزّ وجلّ أن يرزقها ولداً ذكراً فولدت غلاماً فسمته أشمويل ومعناه بالعبرانية إسماعيل أي سمع الله دعائي. فلما ترعرع بعثته إلى المسجد، وأسلمته عند رجل صالح فيه يكون عنده ليتعلّم من خيره وعبادته، فكان عنده فلما بلغ أشدّه بينما هو ذات

(١) بانياس: بلدة صغيرة على مرحلة ونصف من دمشق إلى جهة الغرب.
(٢) الخطوب: الأمور العظيمة.
(٣) غزة: مدينة من أقصى الشام من أرض فلسطين على الساحل (معجم البلدان).
(٤) عسقلان: مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين (معجم البلدان).
(٥) الكمد: الغم والحزن.

ليلة نائم إذا صوت يأتيه من ناحية المسجد فانتبه مذعوراً فظنّ الشيخَ يدعوه، فسأله أدعوتني؟ فكره أن يفزعه فقال: نعم، نم فنام. ثم ناداه الثانية فكذلك ثم الثالثة، فإذا جبريل يدعوه فجاءه، فقال إن ربّك قد بعثك إلى قومك، فكان من أمره معهم ما قصّ الله في كتابه، قال الله تعالى في كتابه العزيز ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)﴾ [البقرة: الآيات ٢٤٦ـ ٢٥١].

قال أكثر المفسرين كان نبي هؤلاء القوم المذكورين في هذه القصّة هو شمويل. وقيل شمعون، وقيل هما واحد، وقيل يوشع، وهذا بعيد لما ذكره الإمام أبو جعفر بن جرير في تاريخه أن بين موت يوشع وبعثة شمويل أربعمائة سنة وستين سنة فالله أعلم.

والمقصود أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحروب وقهرهم الأعداء سألوا نبي الله في ذلك الزمان، وطلبوا منه أن ينصب لهم مَلِكا يكونون تحت طاعته ليقاتلوا من ورائه ومعه وبين يديه الأعداء، فقال لهم ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي وأيُّ شيءٍ يمنعنا من القتال ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ يقولون نحن محروبون موتورون[1]، فحقيق لنا أن نقاتل عن أبنائنا المنهورين المستضعفين فيهم، المأسورين في قبضتهم. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)﴾ كما ذكر في آخر القصّة أنه لم يجاوز النهر مع الملك إلاّ القليل، والباقون رجعوا ونكلوا عن القتال ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾.

---

(١) الوتر: الثأر.

قال الثَّعْلَبي: وهو طالوت بن قيش بن أفيل بن صارو بن تحورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

وقال عكرمة والسدِّي: كان سقَّاءً وقال وَهْبُ بن مُنَبِّه: كان دباغاً. وقيل غير ذلك فالله أعلم ولهذا ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾ وقد ذكروا أن النبوّة كانت في سبط لاوي، وأن الملك كان في سِبْط يهوذا، فلمّا كان هذا من سبط بنيامين، نفروا منه، وطعنوا في إمارته عليهم، وقالوا نحن أحقّ بالملك منه، وذكروا أنه فقير لا سعة من المال معه، فكيف يكون مثلُ هذا مَلِكاً. ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾. قيل: كان الله قد أوحى إلى شمويل أن أيّ بني إسرائيل كان طوله على طول هذه العصا، وإذا حضر عندك يفور هذا القرن الذي فيه من دهن القدس، فهو ملكهم فجعلوا يدخلون ويقيسون أنفسهم بتلك العصا، فلم يكن أحد منهم على طولها سوى طالوت، ولما حضر عند شمويل فار ذلك القرن فدهنه منه، وعيّنه الملك عليهم، وقال لهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ قيل: في أمر الحروب، وقيل: بل مطلقاً ﴿وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ قيل: الطول وقيل: الجمال، والظاهر من السياق أنه كان أجملهم وأعلمهم بعد نبيّهم عليه السلام ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾ فله الحكم وله الخلق والأمر ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ۝٢٤٧ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٤٨﴾ وهذا أيضاً من بركة ولاية هذا الرجل الصالح عليهم، ويُمنه عليهم، أن يردّ الله عليهم التابوت الذي كان سُلِبَ منهم وقهرهم الأعداءُ عليه، وقد كانوا يُنْصَرُون على أعدائهم بسببه ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قيل: طَسْتٌ من ذهب كان يغسل فيه صدور الأنبياء. وقيل السكينة مثل الريح الخجوج[1]. وقيل صورتها مثل الهرّة إذا صرخت في حال الحرب، أيقن بنو إسرائيل بالنّصر ﴿وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ قيل كان فيه رضاض[2] الألواح، وشيء من المنّ الذي كان نزل عليهم بالتيه ﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾ أي تأتيكم به الملائكة يحملونه، وأنتم ترون ذلك عياناً ليكون آية لله عليكم. وحجّة باهرة على صدق ما أقوله لكم، وعلى صحّة ولاية هذا الملك الصالح عليكم، ولهذا قال ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٤٩﴾ وقيل إنه لما غَلَبَ العمالقةُ على هذا التابوت، وكان فيه ما ذكر من السكينة والبقية المباركة. وقيل كان فيه التوراة أيضاً، فلما استقر في أيديهم وضعوه تحت صنم لهم بأرضهم، فلما أصبحوا إذا التابوت على رأس الصنم، فوضعوه تحته، فلما كان اليوم الثاني إذا التابوت فوق الصنم، فلمّا تكرّر هذا علموا أن هذا أمر من الله تعالى، فأخرجوه من بلدهم وجعلوه في قرية من قراهم، فأخذهم داء في رقابهم، فلما طال عليهم هذا جعلوه في عجلة وربطوها في بقرتين

---

(١) الريح الخجوج: الدائمة الهبوب.

(٢) الرضاض: رضاض الشي: فُتاته. والرضّ: الدقّ.

وأرسلوهما، فيقال: إن الملائكة ساقتهما حتى جاؤوا بهما ملأ بني إسرائيل، وهم ينظرون كما أخبرهم نبيّهم بذلك فالله أعلم على أي صِفَة جاءت به الملائكة، والظاهر أن الملائكة كانت تحمله بأنفسهم كما هو المفهوم بالجنود من الآية والله أعلم. وإن كان الأول قد ذكره كثير من المفسّرين أو أكثرهم ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾.

قال ابن عباس وكثير من المفسرين: هذا النهر هو نهر الأردن وهو المسمى بالشريعة، فكان من أمر طالوت بجنوده عند هذا النهر عن أمر نبي الله له عن أمر الله له اختباراً وامتحاناً أنّ مَنْ شَرِبَ من هذا النهر فلا يصحبني في هذه الغزوة، ولا يصحبني إلاّ من لم يَطْعَمه إلاّ غرفة في يده. قال الله تعالى ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

قال السّدّي: كان الجيش ثمانين ألفا فشرب منه ستة وسبعون ألفاً فبقي معه أربعة آلاف كذا قال. وقد روى البخاري في صحيحه من حديث إسرائيل وزُهير والثَّوْري عن أبي إسحاق عن البَرَّاءِ بْنِ عَازِبٍ قال: كنّا أصحاب محمّد ﷺ نتحدث أن عدّة أصحاب بَدْر على عدّة أصحاب طالوت، الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلاّ بضعة عشر وثلاثمائة مؤمن(١). وقول السدّي أن عدة الجيش كانوا ثمانين ألفاً فيه نظر، لأن أرض بيت المقدس لا تحتمل أن يجتمع فيها جيش مقاتلة يبلغون ثمانين ألفاً والله أعلم. قال الله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي استقلوا أنفسَهم واستضعفوها عن مقاومة أعدائهم بالنسبة إلى قلّتهم وكثرة عدد عدوهم ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩] يعني بها الفرسان منهم. والفرسان أهل الإيمان والإيقان الصابرون على الجلاد(٢) والجدال والطعان، ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾[البقرة: ٢٥٠] طلبوا من الله أن يفرغ عليهم الصبر أي يغمرهم به من فوقهم، فتستقرّ قلوبهم ولا تقلق، وأن يثبّت أقدامهم في مجال الحرب ومعترك الأبطال وحومة الوغى، والدعاء إلى النزال فسألوا التثبّت الظاهر والباطن، وأن ينزل عليهم النّصر على أعدائهم وأعدائه من الكافرين الجاحدين بآياته وآلائه، فأجابهم العظيم القدير السميع البصير الحكيم الخبير إلى ما سألوا وأنَالَهُمْ ما إليه فيه رغبوا ولهذا قال ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بحول الله لا بحولهم وبقوّة الله ونصره لا بقوتهم وعددهم مع كثرة أعدائهم وكمال عددهم كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾[آل عمران: ١٢٣] وقوله تعالى ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾[البقرة: ٢٥١] فيه دلالة على شجاعة داود

---

(١) أخرجه البخاري في: المغازي، باب: (٦) وأحمد في المسند ٤/ ٢٩٠.

(٢) الجلاد: الطعان.

عليه السلام وأنه قتله قتلاً أذلّ به جنده وكسره، ولا أعظم من غزوة يقتل فيها ملكُ عدوه فيغنم بسبب ذلك الأموال الجزيلة، ويأسر الأبطال والشجعان والأقران، وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان، ويدال لأولياء الله على أعدائه. ويظهر الدين الحقّ على الباطل وأوليائه. وقد ذكر السدّي فيما يرويه أن داوذ عليه السلام كان أصغر أولاد أبيه، وكانوا ثلاثة عشر ذَكَراً كان سمع طالوت ملك بني إسرائيل وهو يحرّض بني إسرائيل على قتل جالوت وجنوده، وهو يقول: من قتل جالوت زوّجته بابنتي وأشركتُه في مُلْكي، وكان داود عليه السلام يرمي بالقذّافةِ وهو المقلاع رمياً عظيماً، فبينا هو سائر مع بني إسرائيل إذ ناداه حجرٌ: أنْ خُذني فإنّ بي تقتلُ جالوت، فأخذه ثم حجر آخر كذلك، ثم آخر كذلك فأخذ الثلاثة في مخلاته، فلما تواجه الصفّان برز جالوت ودعا إلى نفسه، فتقدّم إليه داود، فقال له: ارجع فإني أكره قتلك، فقال: لكني أحب قتلك، وأخذ تلك الأحجار الثلاثة فوضعها في القذافة ثم أدارها فصارت الثلاثة حجراً واحداً. ثم رمى بها جالوت ففلق رأسه وفرّ جيشه منهزماً، فوفى له طالوت بما وعده، فزوّجه ابنته، وأجرى حكمهُ في ملكه وعظم داود عليه السلام عن بني إسرائيل وأحبّوه ومالوا إليه أكثر من طالوت، فذكروا أن طالوت حَسَدَه وأراد قَتْله واحتال على ذلك، فلم يصل إليه، وجعل العلماء ينهون طالوت عن قتل داود فتسلّط عليهم فقتلهم حتى لم يبق منهم إلاّ القليل. ثم حصل له توبة وندم وإقلاع عما سلف منه، وجعل يكثر من البكاء ويخرج إلى الجبّانة فيبكي حتى يبلّ الثرى بدموعه، فنُودي ذات يوم من الجبّانة: أنْ يا طالوتُ قتلتنا ونحن أحياء، وآذيتنا ونحن أموات، فازداد لذلك بكاؤه وخوفه واشتدّ وَجَلُه، ثم جَعَلَ يسأل عن عالم يسأله عن أمره، وهل له من توبة، فقيل له وهل أبقيت عالماً؟ حتى دُلّ على امرأة من العابدات، فأخذته فذهبت به إلى قبر يوشع عليه السلام، قالوا فدعت الله فقام يوشع من قبره، فقال: أقامت القيامة؟ فقالت: لا ولكن هذا طالوت يسألك هل له من توبة، فقال: نعم، ينخلع من الملك، ويذهب فيقاتل في سبيل الله حتى يقتل. ثم عاد ميتاً، فتركَ المُلْكَ لداود عليه السلام، وذهب ومعه ثلاثة عشر من أولاده فقاتلوا في سبيل الله حتى قتلوا، قالوا فذلك قوله ﴿وَءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ هكذا ذكره ابن جرير في تاريخه من طريق السّدّي بإسناده. وفي بعض هذا نظر ونكارة والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: النبيُّ الذي بُعث فأخبر طالوتَ بتوبتِهِ هو اليَسَع بن أخطوب، حكاه ابن جرير أيضا. وذكر الثَّعْلَبِي أنّها أتت به إلى قبر أشمويل فعاتبه على ما صنع بعده من الأمور وهذا أنسب. ولعله إنّما رآه في النوم لا أنه قام من القبر حيًّا فإن هذا إنّما يكون معجزة لنبي، وتلك المرأة لم تكن نبيّة والله أعلم. وزعم أهل التوراة أن مدّة ملك طالوت إلى أن قتل مع أولاده أربعون سنة فالله أعلم.

قصة داود عليه السلام وما كان في أيامه وذكر فضائله وشمائله ودلائل نبوته وإعلامه

هو داود بن إيشار بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عويناذب بن أرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم الخليل عبد الله ونبيّه وخليفته في أرض بيت المقدس. قال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وَهْبِ بن مُنَبِّهٍ كان داود عليه السلام قصيراً أزرق العينين قليل الشّعر طاهر القلب ونقيّه، تقدّم أنه لما قتلَ جالوت وكان قتله له فيما ذكر ابن عساكر عند قصر أم حكيم بقرب مرج الصُّفّر[١] فأحبته بنو إسرائيل ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم، فكان من أمر طالوت ما كان، وصار المُلكُ إلى داود عليه السلام وجمع الله له بين المُلْك والنبوّة بين خيرِ الدنيا والآخرة، وكان الملك يكون في سبط والنبوة في آخر، فاجتمع في داود هذا، وهذا كما قال تعالى ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١] أي لولا إقامة الملوك حكّاماً على الناس لأكل قويُّ الناس ضعيفَهم. ولهذا جاء في بعض الآثار «السُّلْطَانُ ظِلُّ اللّهِ في أَرْضِهِ». وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان «إنَّ اللّهَ لَيَزَعُ[٢] بالسُّلْطَانِ مَا لاَ يَزَعُ بِالْقُرْآنِ». وقد ذكر ابن جرير في تاريخه: أن جالوت لما بارز طالوت فقال له أخرج إليّ وأخرج اليك، فندب طالوت الناس فانتدب داود فقتل جالوت. قال وَهْبُ بن مُنَبِّهٍ فمال الناس إلى داود حتى لم يكن لطالوت ذِكْر، وخلعوا طالوت وولّوا عليهم داود. وقيل إن ذلك عن أمر شمويل حتى قال بعضهم إنه ولاّه قبل الوقعة. قال ابن جرير والذي عليه الجمهور إنه إنما وُلِيَ ذلك بعد قتل جالوت والله أعلم. وروى ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز أن قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم وأن النهر الذي هناك هو المذكور في الآية فالله أعلم. وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾[سبأ: ١٠ ـ ١١] وقال تعالى ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: ٧٩ ـ ٨٠].

أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليُحَصِّنَ المقاتِلَةَ من الأعداء وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها فقال ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي لا تُدِقَّ المسمار فيفلق ولا تغلظه فيفصم[٣]. قاله مجاهد وقَتادة والحكم وعِكْرِمَة.

قال الحسن البصريّ وقَتادة والأعْمَشُ: كان الله قد ألاَن له الحديد حتى كان يفتله بيده

---

(١) مرج الصفر: شمال شرق دمشق.

(٢) يزع يكُفّ ويزجر

(٣) فصم: كسر.

لا يحتاج إلى نارٍ ولا مطرقة. قال قَتادة فكان أول من عمل الدروع من زَرَد[(١)] وإنما كانت قبل ذلك من صفائح، قال ابن شَوْذَب كان يعمل كل يوم دِرْعاً يبيعها بستة آلاف درهم، وقد ثبت في الحديث أنَّ أطيبَ ما أكلَ الرجلُ من كَسْبه وأنَّ نبي الله داود كان يأكل من كسب يده، وقال تعالى ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: ١٧ ـ ٢٠] قال ابن عبّاس ومجاهد الأيدُ القوّة في الطاعة يعني ذا قوّة في العبادة والعمل الصالح، قال قتادة أعطي قوّة في العبادة وفقهاً في الاسلام، قال وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر. وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أَحَبُّ الصَّلاةِ إِلَى اللهِ صَلاةُ دَاوُدَ وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيامُ دَاوُدَ كان ينام نصفَ الليل ويقوم ثُلُثَهُ، وينام سُدُسَهُ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يَفِرُّ إِذَا لاقَى»[(٢)]. وقوله ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ كما قال ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾[سبا: ١٠] أي سبّحي معه، قاله ابنُ عبّاس ومجاهد وغير واحد في تفسير هذه الآية﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ أي عند آخر النهار وأوله، وذلك أنّه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يُعطه أحداً، بحيث أنّه كان إذا ترنّم بقراءة كتابه، يقف الطير في الهواء يُرجّع[(٣)] بترجيعه ويسبّح بتسبيحه، وكذلك الجبال تجيبه وتسبّح معه كلما سبّح بكرة وَعَشِيّاً صلوات الله وسلامه عليه. وقال الأوزاعي حدثني عبد الله بن عامر قال: أُعْطِيَ داود من حُسْن الصوت ما لم يعطَ أحدٌ قط، حتى أن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشاً وجوعاً وحتى أن الأنهار لتقف. وقال وهبُ بن مُنَبِّهٍ كان لا يسمعه أحدٌ إلاّ حجّل[(٤)] كهيئة الرقص، وكان يقرأ الزّبور بصوتٍ لم تسمع الآذان بمثله، ليعتكف[(٥)] الجنّ والإنس والطّير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعاً: وقال أبو عُوانة الأَسْفَرَايِيني: حدّثنا أبو بكر بن أبي الدنيا، حدّثنا محمد بن منصور الطُوسي سمعت صَبيحاً أنبأنا برادح، قال أبو عوانة: وحدثني أبو العبّاس المدني حدّثنا محمد بن صالح العَدَوِيّ، حدثنا سَيّار هو ابن حاتم عن جعفر عن مالك قال: كان داود عليه السلام اذا أخذ في قراءة الزبور تفتّقت العذارى وهذا غريب.

وقال عبد الرزاق، عن ابن جريج سألت عطاء عن القراءة على الغناء فقال: وما بأس بذلك سمعت عُبَيْدَ بن عُمَرَ يقول: كان داود عليه السلام يأخذ المعزفة[(٦)] فيضرب بها فيقرأ عليها فترد عليه صوته، يريد بذلك أن يبكي وتبكي.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا عبد الرزاق حدّثنا مَعْمر عن الزُهْري عن عُرْوَة عن عائشة

(١) زرد: الدرع المسرودة.
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٣٧، ومسلم في الصيام حديث ١٨٩، وأحمد في المسند ٢/ ١٩٩.
(٣) رجع: ردد.
(٤) حجل: وثب في مشيه.
(٥) في ط: فيعتكف.
(٦) المعزفة: آلة العزف.

قالت: سمعَ رسولُ الله ﷺ صوتَ أبي موسى الأشعريّ، وهو يقرأ، فقال: لَقَدْ أُوتِيَ أَبُو مُوسَى مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ[١] وهذا على شرط الشيخين، ولم يخرجاه من هذا الوجه.

وقال أحمد: حدثنا حسنٌ، حدّثنا حمّاد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبي سَلَمة عن أبي هُرَيْرة أن رسول الله ﷺ قال «لَقَدْ أُعْطِيَ أَبُو مُوسَى مِنْ مَزَامِيرِ دَاوُدَ»[٢] على شرط مسلم، وقد روينا عن أبي عثمان النهري[٣] أنه قال لقد سمعت البربط[٤] والمزمار فما سمعت صوتاً أحسن من صوت أبي موسى الأشعري. وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابة الزّبور. كما قال الامام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا مَعْمَرُ عن هَمّام عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ القِرَاءَةُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَابَّتِهِ فَتُسْرَجُ فَكَانَ يَقرَأُ الْقُرْآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسْرَجَ دَابَّتُهُ، وَكَانَ لاَ يَأْكُلُ إلاَّ مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ»[٥]. وكذلك رواه البخاري منفرداً به عن عبد الله بن محمد عن عبد الرزاق به، ولفظه: «خُفِّفَ على داود القرآن فكان يأمر بِدَوَابّهِ فتسرج، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه، ولا يأكل إلاّ من عمل يديه»[٦]. ثم قال البخاري ورواه موسى بن عُقبةَ عن صَفوان هو ابن سليم عن عطاء بن يسّار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وقد أسنده ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام في تاريخه من طرق عن إبراهيم بن طَهْمَانَ عن موسى بن عقبة ومن طريق أبي عاصم عن أبي بكر السبري عن صفوان بن سليم به.

والمراد بالقرآن ههنا الزبور الذي أنزله [الله] عليه وأوحاه إليه وذكر رواية أشبه أن يكون محفوظاً فإنه كان مَلِكاً له أتباع فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تُسْرَج الدواب، وهذا أمر سريع مع التدبّر والترنّم والتغنّي به على وجه التخشّع صلوات الله وسلامه عليه، وقال قال تعالى ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾[الإسراء: ٥٥] والزبور كتاب مشهور وذكرنا في التفسير الحديث الذي رواه أحمد وغيره أنه أنزل في شهر رمضان، وفيه من المواعظ والحِكَم ما هو معروف لمن نظر فيه. وقوله ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾[ص: ٢٠] أي أعطيناه مُلْكاً عظيماً وحكماً نافذاً. روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس أن رجلين تداعيا إلى دواد عليه السلام في بقرٍ ادّعى أحدهما على الآخر أنه اغتصبها منه، فأنكر المدّعى عليه فأرجأ أمرهما إلى الليل، فلما كان الليل أوحى الله إليه أن يقتل المدّعي، فلما أصبح قال له داود أن الله قد أوحى إليّ أن أقتلك، فأنا قاتلك لا محالة، فما خبرك فيما ادعيته على هذا. قال: والله يا نبي الله اني لمحقّ فيما ادعيت عليه. ولكني كنت اغتلت أباه قبل هذا، فأمر به داود فقتل، فعظم أمر داود في بني إسرائيل جداً وخضعوا له خضوعاً عظيماً. قال ابن عبّاس وهو قوله تعالى ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ وقوله تعالى ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي النبوّة ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ قال شُرَيْحٌ والشَّعْبيّ وقَتادةُ وأبو عبد الرحمن السُّلَمِي وغيرهم. فصلُ الخطاب الشهود والأيمان،

(١) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ١٦٧.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٥٤.
(٣) في ط: الترمذي.
(٤) البربط: العود.
(٥) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣١٤.
(٦) أخرجه البخاري في: الأنبياء، باب: ٣٧.

يعنون بذلك البيّنة على المُدّعي واليمين على من أنكر. وقال مجاهد والسّدّي هو إصابة القضاء وفهمه. وقال مجاهد هو الفصل في الكلام وفي الحكم واختاره ابن جرير وهذا لا ينافي ما روي عن أبي موسى أنه قول(أما بعد). وقال وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ لما كثر الشرّ وشهادات الزور في بني إسرائيل، أعطي داود سلسلة لفصل القضاء، فكانت ممدودة من السماء إلى صخرة بيت المقدس، وكانت من ذهب، فإذا تشاجر الرجلان في حقّ فأيهما كان محقًا نالها والآخر لا يصل إليها، فلم تزل كذلك حتى أودع رجل رجلاً لؤلؤة، فجحدها منه، واتخذ عكازاً وأودعها فيه، فلما حضرا عند الصخرة تناولها المدّعي فلمّا قيل للآخر خذها بيدك عمد إلى العكاز فأعطاه المدعي، وفيه تلك اللؤلؤة وقال اللهم إنك تعلمُ أنّي دفعتُها إليه، ثم تناولَ السلسلة فنالها، فأشكل أمرُها على بني اسرائيل. ثم رفعت سريعاً من بينهم. ذكره بمعناه غيرُ واحد من المفسّرين. وقد رواه إسحاق بن بِشر عن إدريس بن سِنان عن وَهْب به بمعناه ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾[ص: ٢١ ـ ٢٥].

وقد ذكر كثير من المفسّرين من السّلف والخلف ههنا قِصَصاً وأخباراً، أكثرها إسرائيليات، ومنها ما هو مكذوب لا محالة تركنا إيرادها في كتابنا قصداً، اكتفاءً واقتصاراً على مجرد تلاوة القصّة من القرآن العظيم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وقد اختلف الأئمة في سجدةِ «ص» هل هي من عزائم السجود، أو إنّما هي سجدة شكر ليست من عزائم السجود على قولين. قال البخاري حدّثنا محمد بن عبد الله حدثنا محمد بن عُبَيْد الطَّنَافِسِي عن العَوّام قال سألت مجاهداً عن سجدة «ص» فقال: سألتُ ابنَ عبّاس: من أين سجدت؟ قال: أو ما تقرأ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنعام: ٨٤]﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[الأنعام: ٩٠] فكان داود ممن أمر نبيُّكُمْ ﷺ أن يُقتدَى به، فسجدَها داود عليه السلام، فسجَدها رسوُل الله ﷺ[(١)]، وقد قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل هو ابن عُليّةَ عن أيّوب عن عِكْرِمة عن ابن عبّاس أنه قال في السجود في ﴿صٓ﴾: ليست من عزائم السجود. وقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ يسجد فيها[(٢)]. وكذا رواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث أيوب وقال الترمذي حسن صحيح، وقال النسائي: أخبرني إبراهيم بن الحسن المَقْسِمِيّ حدّثنا حجّاج بن محمد عن عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس أن النبيَّ ﷺ سَجَدَ في

(١) أخرجه البخاري في: التفسير، باب ٣٨، سورة صٓ.

(٢) أخرجه البخاري في: أحاديث الأنبياء، باب: ٣٩، وأبو داود في: سجود القرآن باب ٥. والترمذي في: الصلاة، باب ٤٠٥، وأحمد في المسند ١/ ٣٦٠.

«ص»، وقال: «سَجَدَهَا دَاوُدُ تَوْبَةً، وَنَسْجُدُهَا شُكْراً»[١]، تفرّد به أحمد ورجاله ثقات. وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هِلال عن عِيَاض بن عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، عن أبي سعيد الخُدري، قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر «ص» فلما بلغَ السَّجْدَةَ نزل فَسجدَ وسجدَ معه الناس، فلما كان يوم آخر، قرأها فلما بلغ السجدة تشرّف الناسُ للسجود، فقال: «إِنَّمَا هِيَ تَوْبَةُ نَبِيٍّ وَلَكِن رَأَيْتُكُم تَشَرَّفْتُمْ»، فنزل وسجد[٢]. تفرّد به أبو داود وإسناده على شرط الصحيح. وقال الإمام أحمد: حدّثنا عفّان، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا حُمَيْد، حدثنا بَكْرٌ هو ابن عمر وأبو الصِّدِّيق النَّاجِي، أنه أخبره أن أبا سَعِيدٍ الخُدْري رأى رؤيا أنه يكتب «ص» فلما بلغ إلى التي يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شيء بحضرته انقلب ساجداً، قال فقصَّهَا على النبّي ﷺ فلم يَزَلْ يسجد بها بعد[٣]. تفرّد به أحمد وروى الترمذي وابن ماجه من حديث محمد بن يزيد بن خُنَيْس عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد. قال: قال لي ابن جُرَيْج حدثني جدّك عُبَيْدُ الله بن أبي يزيد عن ابن عبّاس قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسُولَ الله إني رأيتُ فيما يرى النائمُ كأني أصلّي خلف شجرة فقرأتُ السجدةَ فسجدت الشجرةُ بسجودي، فسمعتُها تقول وهي ساجدة «اللّهُمَ اكْتُبْ لي بِهَا عِندَكَ أَجراً وَاجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ ذُخراً وَضَعْ عَنِّي بِهَا وِزْراً[٤] وَاقْبَلْهَا مِنِّي كَمَا قَبِلْتَ مِنْ عَبْدِكَ دَاوُدَ».

وقال ابن عباس: فرأيتُ النّبي ﷺ قام فقرأ السجدةَ، ثم سجد فسمعتُه يقولُ وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة[٥]. ثم قال الترمذيّ: غريب لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه.

وقد ذكر بعض المفسّرين أنه عليه السلام مكث ساجداً أربعين يوماً، وقاله مجاهد والحسن وغيرهما. وورد في ذلك حديث مرفوع لكنه من رواية يزيد الرَّقاشي وهو ضعيف متروك الرواية. قال الله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾﴾. أي أنَّ له يوم القيامة لَزُلْفى وهي القربة التي يقرّبه الله بها ويدنيه من حظيرة قدسه بسببها كما ثبت في حديث «المُقسِطُونَ عَلَى مَنَابِرَ مِن نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يُقسِطُونَ فِي أَهْلِيهِمْ وَحُكْمِهِمْ وَمَا وَلُوا»[٦].

وقال الامام أحمد في مسنده: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا فُضَيل عن عَطِيَّةَ عن أبي سعيد الخُدْريّ، قال: قال رسول الله ﷺ «إنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ مَجْلِساً إِمَامٌ عَادِلٌ، وَإِنَّ أَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَشَدَّهُمْ عَذَاباً إِمَامٌ جَائِرٌ»[٧] وهكذا

(١) أخرجه النسائي في: الافتتاح، باب ٤٨.
(٢) أخرجه أبو داود في: سجود القرآن باب ٥.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٧٨.
(٤) الوزر: العبء.
(٥) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب: ٣٣ وابن ماجة في: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ٧٠.
(٦) أخرجه مسلم في: الإمارة، (الحديث ١٨). والنسائي في: آداب القضاة، باب: (١). وأحمد في المسند ٢/ ١٦٠.
(٧) أخرجه الترمذي في: الأحكام، باب ٤، وأحمد في المسند ٣/ ٢٢.

رواه الترمذي من حديث فُضَيْل بن مَرْزُوقٍ الأغر، به. وقال لا نعرفه مرفوعاً إلاّ من هذا الوجه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زَرْعَة، حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا سَيَّارٌ حدثنا جعفر بن سليمان سمعت مالك بن دينار في قوله ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٢٥﴾ قال يقوم داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش، فيقول الله: يا داود مَجّدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجّدني في الدنيا، فيقول: وكيف وقد سلبته؟ فيقول: إني أردّه عليك اليوم، قال: فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ۝٢٦﴾[ص: ٢٦].

هذا خطاب من الله تعالى مع داود، والمراد ولاة الأمور وحكّام الناس، وأمرهم بالعدل واتباع الحق المنزّل من الله لا ما سواه من الآراء والأهواء، وتوعّد من سلك غير ذلك وحَكَم بغير ذلك، وقد كان داود عليه السلام هو المقتدى به في ذلك الوقت في العدل وكثرة العبادة، وأنواع القربات حتى أنه كان لا يُمضي ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلاّ وأهل بيته في عبادة ليلاً ونهاراً كما قال تعالى ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾[سبأ: ١٣].

قال أبو بكر بن أبي الدُّنيَا: حدثنا إسماعيل بن ابراهيم بن بَسّام حدثنا صالح المرّي عن أبي عمران الجُوني عن أبي الجَلْدِ، قال قرأتُ في مسألة داود عليه السلام أنه قال: يا ربّ كيف لي أن أشكرك وأنا لا أصل إلى شكرك إلاّ بنعمتك؟ قال فأتاه الوحي «أَنْ يَا دَاوُدُ أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي بِكَ مِنَ النِّعَمِ مِنِّي قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: فَإِنِّي أَرْضَى بِذَلِكَ مِنْكَ» وقال البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو بكر بن بَالَوَيْهِ حدثنا محمد بن يونس القُرَشِيّ، حدّثنا رَوْحُ بن عُبادة حدثني عبد الله بن لاحق عن ابن شِهاب قال قال داود «الحَمْدُ لِلَّهِ كَمَا يَنْبَغِي لِكَرَمِ وَجْهِهِ وعِزِّ جَلاَلِهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ إِنَّكَ أَتْعَبْتَ الحَفَظَةَ يَا دَاوُدُ». ورواه أبو بكر بن أبي الدُّنْيَا عن عليّ بن الجَعْدِ عن الثَّوْرِيّ مثله، وقال عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد: أنبأنا سفيانُ الثوري عن رجل عن وَهْبِ بن مُنبِّهٍ قال: إنّ في حكمةِ آل داود: حقّ على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات، ساعة يناجي فيها ربّه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصْدُقُونه عن نفسه، وساعة يُخَلّي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحلّ ويجمل، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات وإجمام للقلوب، وحقّ على العاقل أن يعرف زمانه ويحفظ لسانه ويقبل على شأنه. وحقّ على العاقل أن لا يظعن[1] إلا في إحدى ثلاث زاد لمعاده وَمَرَمَّةٌ لمعاشه ولذّة في غير محرم وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن أبي بكر بن أبي خَيْثَمَةَ عن ابن مهدي عن سفيان عن أبي الأغَرّ عن وَهْبِ بن مُنَبِّهٍ فذكره. ورواه أيضا عن عليّ بن الجَعْدِ عن عمر بن الهيثم الرّقَاشِي عن أبي الأغَرّ عن وهب بن منبه، فذكره وأبو الأغرّ هذا هو الذي أَبْهَمَهُ ابن المبارك في روايته. قال ابن عساكر، وقال عبد الرزاق: أنبأنا بِشر بن رافع حدّثنا شيخ من

(١) يظعن: يرحل.

أهل صنعاء يقال له أبو عبد الله، قال سمعت وهبَ بن مُنَبِّه فذكر مثلَه.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام أشياءَ كثيرة مليحة، منها قوله: كن لليتيم كالأب الرحيم. واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد. وروى بسند غريب مرفوعاً قال داود: يا زارعَ السيّئات أنت تحصد شوكها وحسكها، وعن داود عليه السلام أنه قال: مثل الخطيب الأحمق في نادي القوم، كمثل المغنّي عند رأس الميت، وقال أيضاً: ما أقبحَ الفقر بعد الغنى وأقبحَ من ذلك الضلالة بعد الهدى وقال انظرْ ما تكرهُ أن يذكرَ عنكَ في نادي القوم فلا تفعله إذا خَلَوْتَ. وقال لا تَعِدَنَّ أخاك بما لا تُنْجِزه له، فإني ذلك عداوة ما بينك وبينه. وقال محمد بن سعد: أنبأنا محمد بن عمر الواقدي، حدثني هشام بن سعد، عن عمر مولى عَفْرَة، قال: قالت يهود لما رأت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتزوج النساء: انظروا إلى هذا الذي لا يشبع من الطعام، ولا والله ما له همّة إلاّ إلى النساء، حسدوه لكثرة نسائه وعابوه بذلك، فقالوا: لو كان نبيًّا ما رغب في النساء، وكان أشدُّهم في ذلك حُيَيُّ بن أخطب، فأكذبهَم الله وأخبَرهم بفضل الله وسعته على نبيّه صلوات الله عليه وسلامه فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[النساء: ٥٤] يعني بالناس رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء: ٥٤] يعني ما أتى الله سليمان بن داود كانت له ألف امرأة سبعمائة مَهْرِيّة وثلاثمائة سَرِيّة، وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة منهن امرأته أوريا أم سليمان بن داود التي تزوجها بعد الفتنة. هذا أكثر ممّا لمحمد صلى الله عليه وسلّم. وقد ذكر الكلبي نحو هذا، وأنه كان لداود عليه السلام مائة امرأة ولسليمان ألف امرأة منهن ثلاثمائة سرية.

وروى الحافظ في تاريخه في ترجمة صَدَقَة الدمشقي الذي يَرْوِي عن ابن عبّاس من طريق الفَرَج بن فُضَالَة الحِمْصِي عن أبي هريرَة، الحِمْصي عن صَدَقَة الدِّمشقي أن رجلاً سأل ابن عبّاس عن الصيام فقال: لأحدثنَّكَ بحديث كان عندي في البحث[1] مخزوناً إن شئت أنبأتُك بصوم داود فإنه كان صَوّاماً قوّاماً. وكان شجاعاً لا يفرّ إذا لاقى، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وقال رسول الله ﷺ «أفضلُ الصِّيام صيامُ داودَ وكانَ يقرأ الزبور بسبعين صوتاً يكون فيها وكانت له ركعة من الليل يبكي فيها نَفسه ويبكي ببكائه كل شيء ويصرف بصوته الهموم والمحموم». وان شئت أنبأتُك بصوم ابنه سليمان فإنه كان يصوم من أول الشهر ثلاثة أيام، ومن وسطه ثلاثة أيام، ومن آخره ثلاثة أيام يستفتح الشهر بصيام ووسطه بصيام ويختمه بصيام. وإن شئت أنبأتك بصوم ابن العذراء البتول عيسى ابن مريم، فإنه كان يصوم الدهر، ويأكل الشعير، ويلبس الشعر، يأكل ما وجد، ولا يسأل عما فُقِدَ، ليس له ولد يموت، ولا بيت يخرب، وكان أينما أدركه الليل صفن[2] بين قدميه، وقام يصلي حتى يصبح، وكان

---

(١) البحث ج أبحاث وهو طلب الشيء تحت التراب كالمعدن يُبحث فيه عن الذهب ونحوه وهو هنا كناية عن اختزانه وحفظه له للحاجة.

(٢) صفن: صف.

رامياً لا يفوته صيد يريده، وكان يمرّ بمجالس بني إسرائيل فيقضي لهم حوائجهم.

وإن شئت أنبأتك بصوم أمّه مريمُ بنت-عمران فإنها كانت تصوم يوماً وتفطر يومين.

وإن شئت أنبأتك بصوم النبي. العربيّ الأميّ محمد ﷺ فإنه كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ويقول: «إِنَّ ذَلِكَ صَوْمُ الدَّهْرِ». وقد رواه الإمام أحمد عن أبي النصر عن فَرَجِ بن فُضَالةَ عن أبي هَرِمٍ عن صَدَقَةَ عن ابن عبّاس مرفوعاً في صوم داود.

[ذكر][١] كمية حياته وكيفية وفاته عليه السلام

قد تقدم في ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم أن الله لما استخرج ذريته من ظهره، فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام، ورأى فيهم رجلاً يَزْهَرُ[٢]، فقال: أي ربّ من هذا؟ قال: هذا ابنك داود، قال: أي ربِّ كم عُمُره؟ قال: ستون عاماً. قال: أي ربِّ زد في عمره، قال لا إلاّ أن أزيده من عمرك، وكان عمر آدم ألف عام، فزاده أربعين عاماً، فلما انقضى عمر آدم جاءه مَلَكَ الموت، فقال بقي من عُمُري أربعون سنة، ونسي آدم ما كان وهبه لولده داود، فأتمها الله لآدم ألفَ سنةٍ ولداود مائةَ سنة[٣]. رواه أحمد عن ابن عباس والترمذي وصححه عن أبي هريرة وابن خُزَيمة وابن حبان. وقال الحاكم على شرط مسلم. وقد تقدّم ذكر طرقه وألفاظه في قصة آدم. قال ابن جرير وقد زعم بعض أهل الكتاب أن عمر داود كان سبعاً وسبعين سنة. قلت هذا غلط مردود عليهم قالوا وكان مدّة ملكه أربعين سنة، وهذا قد يقبل نقله لأنه ليس عندنا ما ينافيه ولا ما يقتضيه.

وأما وفاته عليه السلام فقال الإمام أحمد في مسنده: حدّثنا قَبِيصَةُ، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن بن محمد بن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كَانَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فيهِ غَيرَةٌ شَدِيدَةٌ فكَان إذا خَرجَ أغلق الأَبْوَابَ، فلمْ يَدْخُلْ عَلَى أَهْلِهِ أَحدٌ حَتّى يَرْجِعَ. قَالَ فَخرجَ ذَاتَ يَوْمٍ وغلقت الدار فأَقْبلَتْ امْرَأَتُهُ تَطّلعُ إِلَى الدَّار، فإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ وَسَطَ الدَّار، فَقالتْ لِمَنْ فِي البَيْتِ مِنْ أَيْنَ دَخلَ هَذَا الرَّجُلُ، والدَّارُ مُغْلَقَةٌ وَاللَّهِ لَتَفْتَضِحَنّ بِدَاوُدَ، فَجَاءَ دَاوُدُ فإِذَا الرَّجُلُ قَائِمٌ فِي وَسَطِ الدَّارِ، فقال لَهُ دَاوُدُ مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أنَا الَّذِي لاَ أَهَابُ المُلُوكَ وَلاَ أُمْنَعُ مِنَ الحِجابِ: فَقَالَ دَاوُدُ: أنت واللَّهِ إذَنْ ملَكُ المَوْتِ مرحباً بأمر الله ثم مكث حتى قُبضَتْ روحُهُ فلما غُسّلَ وكُفّنَ وفُرغ من شأنه طَلَعَتْ عليه الشمسُ فقالَ سُلَيمَانُ لِلطَّير أَظِلّي عَلَى دَاوُدَ، فَأَظَلَّتْهُ الطَّيرُ حَتّى اظْلَمَتْ عَلَيْهِ الأَرْضُ، فَقَالَ سُلَيمَانُ لِلطَّيرِ اقْبضي جَنَاحاً» قال قال أبو هريرةُ: فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِينَا كَيْفَ فَعَلَتِ الطَّيْرُ، وَقَبضَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ المَضْرَحِيَّةُ[٤]. انفرد بإخراجه الإمام

---

(١) سقط في ط.

(٢) يزهر: يتلألأ. والمزهر: المشرق الوجه.

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن، باب ٩٤، وأحمد في المسند ١/ ٢٩٩.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٤١٩.

أحمد وإسناده جيد قوي رجاله ثقات ومعنى قوله وغلبت عليه يومئذ المضرحية أي وغلبت على التظليل عليه الصقور الطوال الأجنحة، واحدها مضرحي.

قال الجوهري وهو الصّقر الطويل الجناح، وقال السّدِيّ عن أبي مالك عن ابن عبّاس قال: مات داود عليه السلام فجأة وكان بسبت، وكانت الطير تظلّه. وقال السّدِيُّ أيضاً عن أبي مالك وعن سعيد بن جُبَيْر قال: مات داود عليه السلام يوم السبت فجأة.

وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن، قال: مات داود عليه السلام وهو ابن مائة سنة، ومات يوم الأربعاء فجأة. وقال أبو السكن الهجري مات إبراهيم الخليل فجأة، وداود فجأة وابنه سليمان فجأة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. رواه ابن عساكر.

وروي عن بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل من محرابه، فقال له دعني أنزل أو أصعد، فقال يا نبي الله قد نفدت السنون والشهور والآثار والأرزاق. قال فخرّ ساجداً على مرقاة[1] من تلك المراقي فقبضه وهو ساجد.

وقال إسحاق بن بشر أنبأنا وافر بن سليمان عن أبي سليمان الفلسطيني عن وهب بن مُنَبِّهٍ قال: إن الناس حضروا جنازةَ داود عليه السلام فجلسوا في الشمس في يوم صائف، قال: وكان قد شيّع جنازته يومئذ أربعون ألف راهب، عليهم البَرانِسُ سوى غيرهم من الناس، ولم يمت في بني إسرائيل بعد موسى وهارون أحد كانت بنو إسرائيل أشدّ جزعاً عليه منهم على داود، قال: فآذاهم الحرُّ فنادوا سليمان عليه السلام أن يعمل لهم وقاية لما أصابهم من الحرّ، فخرج سليمان فنادى الطير فأجابت، فأمرها أن تظلّ الناس، فتراص بعضها إلى بعض من كل وجه حتى استمسكت الريح، فكاد الناس أن يهلكوا غمّاً فصاحوا إلى سليمان عليه السلام من الغمّ فخرج سليمان فنادى الطير أن أظلّي الناس من ناحية الشمس، وتنحى عن ناحية الريح، ففعلت فكان الناس في ظلّ وتهبّ عليهم الريح، فكان ذلك أول ما رأوه من ملك سليمان. وقال الحافظ أبو يعلى حدّثنا أبو همّام حدثنا الوليد بن شجاع حدثني الوليد بن مسلم عن الهيثم بن حميد عن الوَضِينِ بن عَطَاءٍ عن نَصْرِ بن عَلْقَمَةَ عن جُبَيْرِ بن نُفَير عن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ: «لقد قَبَضَ اللَّهُ دَاوُدَ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِهِ مَا فُتِنُوا وَلاَ بَدَّلُوا وَلَقَدْ مَكَثَ أَصْحَابُ المَسِيحِ عَلَى سُنَنِهِ وَهَدْيِهِ مَائَتَي سَنَة» هذا حديث غريب وفي رفعه نظر والوَضِينُ بنُ عَطَاءٍ كان ضعيفاً في الحديث والله أعلم.

[ذكر][2] قصة سليمان بن داود عليهما السلام

قال الحافظ ابن عساكر: هو سليمان بن داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نجشون بن عمينا داب بن أرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن

(١) المرقاة: الإهاب من الجلد.
(٢) سقط في ط.

إسحاق بن إبراهيم أبي الربيع نبي الله ابن نبي الله. جاء في بعض الآثار أنه دخل دمشق. قال ابن مَاكُولاَ فارص بالصاد المهملة وذكر نسبه قريباً مما ذكره ابن عساكر، قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: ١٦] أي ورثه في النبوّة والمُلْك، وليس المراد ورثه في المال لأنه قد كان له بنون غيره فما كان ليخصّ بالمال دونَهم، ولأنه قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «لاَ نُورَثُ مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ»[(١)] وفي لفظ: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لاَ نُورثُ»[(٢)] فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج لا يَخصّون بها أقرباءهم لأنَّ الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك، كما هي عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضّلهم وقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ الآية. يعني أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبّر للناس عن مقاصدها وإرادتها.

وقد قال الحافظ أبو بكر البَيْهقِي، أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أنبأنا علي بن حَمشْاذٍ حدثنا إسماعيل بن قتيبة حدّثنا علي بن قُدامة، حدثنا أبو جعفر الأسواني يعني محمد بن عبد الرحمن عن أبي يعقوب العمي حدثني أبو مالك قال: مرّ سليمان بن داود بعصفور يدور حول عصفورة، فقال لأصحابه أتدرون ما يقول؟ قالوا: وما يقول يا نبيّ الله؟ قال: يخطبها إلى نفسه، ويقول زوجيني أسكنك أي غرف دمشق شئت. قال سليمان عليه السلام لأن غرف دمشق مبنية بالصخر لا يقدر أن يسكنها أحد، ولكن كل خاطب كذّاب. رواه ابن عساكر عن أبي القاسم زاهر بن طاهر عن البيهقي به وكذلك ما عداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات، والدليل على هذا قوله بعد هذا من الآيات ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي من كل ما يحتاج الملك إليه من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجنّ والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات. ثم قال ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ أي من بارىء البريات وخالق الأرض والسموات كما قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٧ ـ ١٩].

يخبر تعالى عن عبده ونبيّه وابن نبيّه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أنه ركب يوماً في جيشه جميعه من الجنّ والإنس والطير، فالجنّ والإنس يسيرون معه، والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحرّ وغيره، وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة أي نقباء يَرِدُون

---

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس باب ١، وفضائل الصحابة باب ١٢، ومسلم في الجهاد والسير حديث ٤٩، والترمذي في السير باب ٤٤، وأحمد في المسند ١/٢٠٨.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/٤٦٣.

أوله على آخره، فلا يتقدّم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ولا يتأخر عنه، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ فأمَرَتْ وحذَّرتْ واعتذرتْ عن سليمانَ وجنوده بعدم الشعور. وقد ذكر وَهْبٌ أنه مرّ وهو على البساط بواد بالطائف، وأن هذه النملة كان اسمها جَرْسا وكانت من قبيلة يقال لهم بنو الشيصبان، وكانت عَرْجاء، وكانت بقدر الذئب. وفي هذا كلّه نظر بل في هذا السياق دليل على أنه كان في موكبه راكباً في خيوله وفرسانه لا كما زعم بعضهم من أنه كان إذ ذاك على البساط، لأنه لو كان كذلك لم ينل النمل منه شيء، ولا وُطِءَ لأن البساط كان عليه جميع ما يحتاجون إليه من الجيوش والخيول والجمال والأثقال والخيام والأنعام والطير من فوق ذلك كلّه كما سنبينه بعد ذلك إن شاء الله تعالى.

والمقصود أن سليمان عليه السلام فَهِمَ ما خاطبت به تلك النملة لأمتها من الرأي السديد والأمر الحميد، وتبسّم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره، وليس كما يقوله بعضُ الجَهَلَة من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان، وتخاطب الناس حتى أخذ عليهم سليمان بن داود العهد، وألجمها فلم تتكلم مع الناس بعد ذلك، فإن هذا لا يقوله إلاّ الذين لا يعلمون. ولو كان هذا هكذا لم يكن لسليمان في فهم لغاتها مزية على غيره، إذ قد كان الناس كلهم يفهمون ذلك، ولو كان قد أخذ عليها العهد أن لا تتكلم مع غيره، وكان هو يفهمها، لم يكن في هذا أيضاً فائدة يعوّل عليها، ولهذا قال ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ أي ألهمني وأرشدني ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ فطلب من الله أن يقيّضه[1] الشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصّه به من المزية على غيره، وأن ييسر عليه العمل الصالح، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين. وقد استجاب الله تعالى له. والمراد بوالديه أبوه داود عليه السلام، وأمه وكانت من العابدات الصالحات، كما قال سُنَيْد بن داود عن يوسف بن محمد بن المنكدر، عن أبيه عن جابر عن النبي ﷺ قال: «قَالَتْ أُمُّ سُلَيمَانَ بنِ دَاوُدَ يَا بُنَيّ لاَ تُكْثِرِ النَّوْمَ بِاللَّيلِ فَإِنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ بِاللَّيلِ تَدَعُ العَبْدَ فَقِيراً يَوْمَ القِيَامَةِ»[2]. رواه ابن ماجه عن أربعة من مشايخه عنه به نحوه.

وقال عبد الرزاق عن مَعْمَرٍ عن الزُّهْرِي أن سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون فرأى نملة قائمة رافعة إحدى قوائمها تستسقي، فقال لأصحابه: ارجعوا فقد سُقِيتُمْ إنَّ هذه النملة استسقت فاستُجيب لها. قال ابن عساكر وقد رُوِيَ مرفوعاً ولم يُذكر فيه سليمان، ثم ساقه من طريق محمد بن عزيز عن سَلاَمَة بن روح بن خالد عن عقيل عن ابن شهاب حدثني أبو سَلَمَةَ عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «خَرَجَ نَبِيٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ

---

(١) يقيضه: يعوضه.

(٢) أخرجه ابن ماجة في: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ١٧٤.

بالنَّاس يَسْتَسْقُونَ اللَّهَ فَإِذَا هُمْ بِنَمْلَةٍ رَافِعَةٍ بَعْضَ قَوَائِمِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ارْجِعُوا فَقَدْ اسْتُجِيبَ لَكُمْ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ النَّمْلَةِ» وقال السدِّيّ أصاب الناس قحطٌ على عهد سليمانَ عليه السلام، فأمرَ الناسَ فخرجُوا فإذا بنملةٍ قائمة على رجليها باسطة يديها وهي تقول: «اللَّهُمَّ إِنَّا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِكَ وَلاَ غِنَاءَ بِنَا عَنْ فَضْلِكَ» قال فصبّ الله عليهم المطر.

قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (٢٦) ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٢٧) ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ (٣٧)﴾ [النمل: ٢٠ ـ ٣٧].

يذكرُ تعالى ما كان من أمرِ سليمان والهدهد وذلك أن الطيور كان على كل صنف منهم مقدّمون، يُقدِمُونَ بما يطلب منهم ويحضرون عنده بالنوبة، كما هي عادة الجنود مع الملوك. وكانت وظيفة الهُدْهد على ما ذكره ابن عبّاس وغيره أنهم كانوا إذا اعوزوا الماء في القفار[1] في حال الأسفار يجيء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء، وفيه من القوّة التي أودعها الله تعالى فيه أن ينظر إلى الماء تحت تخوم[2] الأرض، فإذا دلّهم عليه حفروا عنه، واستنبطوه وأخرجوه واستعملوه لحاجتهم فلمّا تَطَلَّبَهُ سليمان عليه السلام ذات يوم فقده، ولم يجده في موضعه من محل خدمته ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ (٢٠)﴾ أي ما له مفقود من ههنا، أوقد غاب عن بصري فلا أراه بحضرتي ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ توعّده بنوع من العذاب. اختلف المفسرون فيه والمقصودة حاصل على كل تقدير ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٢١)﴾ أي بحجّة تنجيه من هذه الورطة. قال الله تعالى ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾. أي فغاب الهدهد غيبة ليست بطويلة. ثم قدم منها ﴿فَقَالَ﴾ لسليمان ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي اطلعت على ما لم تطلع عليه ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾ أي بخبر صادق ﴿إِنِّي

(١) القفار: الأراضي المقفرة.

(٢) تخوم: حدود.

وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ ﴾ يذكر ما كان عليه ملوك سبأ في بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتَّبابِعَةِ المتوّجين، وكان المُلْكُ قد آل في ذلك الزمان إلى امرأة منهم ابنة ملكهم لم يُخلِّف غيرَها فملّكوها عليهم.

وذكر الثعلبي وغيرُه أن قومها ملّكوا عليهم بعد أبيها رجلاً فعمّ به الفساد، فأرسلت إليه تخطبه فتزوّجها، فلما دخلتْ عليه سقته خمراً ثم حَزَّتْ رأسَه ونَصَبَتْهُ على بابها، فاقبل الناس عليها وملّكوها عليهم. وهي بلقيس بنت السيرح وهو الهدهاد. وقيل شراحيل بن ذي جدن بن السيرح بن الحرث بن قيس بن صيفي بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وكان أبوها من أكابر الملوك وكان يأبى أن يتزوّج من أهل اليمن، فيقال: إنّه تزوجَ بامرأة من الجِنّ اسمها ريحانة بنت السَّكَنِ، فولدت له هذه المرأة واسمها: تلقمة ويقال لها: بلقيس.

وقد روى الثَّعْلَبِي من طريق سَعِيد بن بَشِير عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نُهَيْكِ عن أبي هريرةَ عن النبي ﷺ أنه قال: «كَانَ أَحَدُ أَبَوَيْ بَلْقِيسَ جِنياً». وهذا حديث غريب وفي سنده ضعف.

وقال الثعلبي أخبرني أبو عبد الله بن قَبْخُونَةَ، حدّثنا أبو بكر بن جرجة، حدّثنا ابن أبي الليث، حدثنا أبو كُرَيب حدثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن أبي بَكْرَةَ قال ذكرتُ بلقيس عندَ رسولِ الله ﷺ فقال: «لاَ يُفْلِحُ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً».

إسماعيل بن مسلم هذا هو المكي ضعيف. وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث عَوْفٍ عن الحَسَنِ عن أبي بَكْرَةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ لما بَلَغَهُ أن أهلَ فارس مَلَّكُوا عليهم ابنة كسرى قال: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً»[1]. ورواه الترمذي والنسائي من حديث حَميد عن الحَسن عن أبي بَكْرَةَ عن النبيّ ﷺ وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقوله ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي مما من شأنه أن تُؤتاه الملوك ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾ يعني سرير مملكتها كان مزخرفاً بأنواع الجواهر واللآلىء، والذهب والحلي الباهر. ثم ذكر كفرهم بالله، وعبادتهم الشمس من دون الله، وإضلال الشيطان لهم، وصدّه إياهم عن عبادة الله وحده لا شريك له، الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما يُعلنون أي يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي له العرش العظيم الذي لا أعظم منه في المخلوقات. فعند ذلك بعث معه سليمان عليه السلام كتابه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله، والإنابة والإذعان[2] إلى الدخول في الخضوع لملكه وسلطانه، ولهذا قال لهم ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾ أي لا تستكبروا عن طاعتي وامتثال أوامري ﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي وأقدموا عليّ سامعين مطيعين بلا مُعاودة ولا مُراودة، فلما جاءها الكتاب مع الطير ومن ثمّ اتخذ الناس البَطَائِقَ،

---

(١) أخرجه البخاري في: المغازي، باب ٨٢. والترمذي في: الفتن، باب ٧٥، والنسائي في: آداب القضاة، باب (٨). والإمام أحمد في المسند ٥/ ٤٣.

(٢) الإذعان: الخضوع.

ولكن أين الثريا من الثرى؟ تلك البطاقة كانت مع طائر سامع مطيع فاهم عالم بما يقول ويقال له، فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أنَّ الهُدْهُدَ حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهي في خلوة لها، ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها فجمعت أمراءَها ووزراءها وأكابرَ دولتها إلى مشورتها ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ ثم قرأت عليهم عنوانه أوّلاً ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ ثم قرأته ﴿وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ ثم شاورتهم في أمرها وما قد حلّ بها، وتأدبت معهم وخاطبتهم وهم يسمعون ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ تعني ما كنت لأبتُّ أمراً إلاَّ وأنتم حاضرون ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعنون: لنا قوة وقدرة على الجلاد والقتال ومقاومة الأبطال، فإن أردت منّا ذلك فإنّا عليه من القادرين ﴿وَ﴾ مع هذا ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ فبذلوا لها السمع والطاعة وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة وفوضوا إليها في ذلك الأمر لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم، فكان رأيها أتمّ وأسدّ من رأيهم، وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يُمانع ولا يُخالف ولا يُخادع ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ تقول برأيها السديد إن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلاّ إليّ ولم تكن الحدّة والشدّة والسطوة البليغة إلا عليّ ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أرادت أن تصانعَ عن نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتُحَفٍ تبعثها، ولم تعلم أنّ سليمان عليه السلام لا يقبل منهم والحالة هذه صرفاً ولا عدلاً لأنهم كافرون وهو وجنوده عليهم قادرون ولهذا ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [النمل: ٣٦] هذا وقد كانت تلك الهدايا مشتملة على أمور عظيمة كما ذكره المفسرون. ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذي قَدِمَ عليه، والناس حاضرون يسمعون ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: ٣٧].

يقولُ ارجع بهديّتِكَ التي قدمت بها إلى من قَدْ مَنّ بها فإن عندي مما قد أنعم الله عليّ وأسداه إليّ من الأموال والتحف والرجال ما هو أضعاف هذا وخيرٌ من هذا الذي أنتم تَفْرَحُونَ به، وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي فلأبعثنّ إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعَهم ولا نزالهم ولا ممانعتهم ولا قتالهم، ولأخرجنهم من بلدهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم أذِلّة ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ عليهم الصَّغار والعار والدمار. فلما بلغهم ذلك عن نبي الله لم يكن لهم بدّ من السمع والطاعة فبادروا إلى إجابته في تلك الساعة، وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين. فلما سمع بقدومهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن هو مسخرٌ له من الجان ما قصّه الله عنه في القرآن.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ

لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٤٤].

لما طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس وهو سرير مملكتها التي تجلس عليه وقت حكمها، قبل قدومها عليه ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ يعني قبل أن ينقضي مجلس حكمك، وكان فيما يقال من أول النهار إلى قريب الزوال يتصدى لمهمّات بني إسرائيل، وما لهم من الأشغال ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ أي وإني لذو قدرة على إحضاره إليك وأمانة على ما فيه من الجواهر النفيسة لديك ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المشهور أنه آصف بن برخيا وهو ابن خالة سليمان. وقيل هو رجل من مؤمني الجان كان فيما يقال يحفظ الاسم الأعظم. وقيل رجل من بني إسرائيل من علمائهم، وقيل إنه سليمان وهذا غريب جداً. وضعّفه السُهيلي بأنه لا يصح في سياق الكلام. قال وقد قيل فيه قول رابع وهو جبريل ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قيل معناه: قبل أن تبعث رسولاً إلى أقصى ما ينتهي إليه طرفك من الأرض ثم يعود إليك. وقيل قبل أن يصل إليك أبعد من تراه من الناس، وقيل قبل أن يكِلّ طرفك إذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنك. وقيل: قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك، ثم أغمضته وهذا أقرب ما قيل. ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي فلمّا رأى عرش بلقيس مستقراً عنده في هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين، ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أي هذا من فضل الله عليّ وفضله على عبيده ليختبرهم على الشكر أو خلافه ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي إنما يعود نفع ذلك عليه ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي غني عن شكر الشاكرين، ولا يتضرر بكفر الكافرين، ثم أمر سليمان عليه السلام أن يغير حُلي هذا العرش، وينكر لها ليختبر فهمها وعقلها، ولهذا قال ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ وهذا من فطنتها وغزارة فهمها، لأنها استبعدت أن يكون عرشها لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن، ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب، قال الله تعالى إخباراً عن سليمان وقومه ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أي ومنعها عبادة الشمس التي كانت تسجد لها هي وقومها من دون الله اتباعاً لدين آبائهم وأسلافهم، لا لدليل قادهم إلى ذلك ولا حَدَاهم على ذلك، وكان سليمان قد أمر ببناء صرح[1] من زجاج وعمل في ممره ماء، وجعل عليه سقفاً من زجاج، وجعل فيه من السمك وغيرها من دواب الماء، وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً

---

(١) الصرح: البناء العالي.

وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل: ٤٤] وقد قيل: إن الجن أرادوا أن يُبَشِّعُوا منظرها عند سليمان، وأن تبدي عن ساقيها ليرى ما عليها من الشعر، فينفره ذلك منها، وخشوا أن يتزوّجها لأن أمها من الجان فتسلّطُ عليهم معه. وذكر بعضهم أن حافرها كان كحافر الدابة، وهذا ضعيف وفي الأول أيضاً نظر والله أعلم. إلاَّ أن سليمان قيل إنه لما أراد إزالته حين عزم على تزوّجها سأل الأنس عن زواله فذكروا له الموسى فامتنعت من ذلك، فسأل الجان فصنعوا له النورة ووضعوا له الحمام، فكان أول من دخل الحمام، فلما وجد مسّه قال أوه من عذاب أوه أوه قبل أن لا ينفع أوه. رواه الطبراني مرفوعاً وفيه نظر.

وقد ذكر الثعلبي وغيرُه أن سليمانَ لما تزوّجها أقرّها على مملكة اليمن، وردّها إليه، وكان يزورها في كل شهر مرّة فيقيم عندها ثلاثة أيام، ثم يعود على البساط، وأمر الجان فبنوا له ثلاثة قصور باليمن غمدان وسالحين وبيتون فالله أعلم. وقد روى ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وَهْب بن مُنَبِّه أن سليمان لم يتزوّجها بل زوجها بملِك همدان وأقرّها على مُلْك اليمن، وسخّر زوبعة مَلِك جن اليمن فبنى لها القصور الثلاثة التي ذكرناها باليمن والأول أشهر وأظهر والله أعلم.

وقال تعالى في سورة ص ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص: ٣٠ـ ٤٠].

يذكر تعالى أنه وَهَبَ لداود سليمان عليهما السلام، ثم أثنى الله عليه تعالى فقال ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ أي رجّاعٌ مطيع لله. ثم ذكر تعالى ما كان من أمره في الخيل الصّافنات[1] وهي التي تقف على ثلاث وطرَفِ حافر الرابعة. الجياد وهي المضمَّرةُ السِّراعُ ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾ يعني الشمس. وقيل: الخيل على ما سنذكره من القولين. ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ قيل مسح عراقيبها[2] وأعناقها بالسيوف. وقيل: مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها وبين يديه على القول الآخر. والذي عليه أكثر السلف الأول، فقالوا اشتغل بعَرْضِ تلك الخيول حتى خرج وقت العصر، وغَرُبت الشمس، روي هذا عن علي بن أبي طالب وغيره، والذي يقطع به أنه لم يترك الصلاة عمداً من غير عذر اللهمّ إلاّ أن يقال إنه كان سائغاً في شريعتهم فأخّر

(١) الصافنات: الخيول القوية السريعة.

(٢) العرقوب: عصب غليظ فوق العقب.

الصلاة لأجل أسباب الجهاد وعرض الخيل من ذلك. وقد ادّعى طائفة من العلماء في تأخير النبيّ ﷺ صلاة العصر يوم الخندق أن هذا كان مشروعاً إذ ذاك حتى نسخ بصلاة الخوف، قاله الشافعي وغيره وقال مكحول والأوزاعي بل هو حُكْمٌ مُحْكَمٌ إلى اليوم أنه يجوز تأخيرها بعذر القتال الشديد، كما ذكرنا تقرير ذلك في سورة النساء عند صلاة الخوف. وقال آخرون بل كان تأخير النبيّ ﷺ صلاة العصر يوم الخندق نسياناً، وعلى هذا فيحمل فعل سليمان عليه السلام على هذا والله أعلم.

وأما من قال الضمير في قوله حتّى توارتْ بالحِجاب عائد على الخيل وأنه لم تفته وقت صلاة وإن المراد بقوله ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ يعني مسح العرق عن عراقيبها وأعناقها فهذا القول اختاره ابن جرير ورواه الوالبي عن ابن عباس في مسح العرق. وَوَجَّهَ هذا القول ابنُ جرير بأنه ما كان ليعذّب الحيوان بالعرقبة ويهلك مالاً بلا سبب ولا ذنب لها، وهذا الذي قاله فيه نظر لأنه قد يكون هذا سائغاً في ملّتهم، وقد ذهب بعضُ علمائنا إلى أنه إذا خاف المسلمون أن يظفر الكفّار على شيء من الحيوانات من أغنام ونحوها جاز ذبحها وإهلاكها لئِلاّ يتقوَّوا بها، وعليه حُمِلَ صنيعُ جعفر بن أبي طالب يوم عقر فرسه بموته، وقد قيل إنها كانت خيلاً عظيمة. قيل كانت عشرة آلاف فرس. وقيل عشرين ألف فرس. وقيل كان فيها عشرون فرساً من ذوات الأجنحة وقد روى أبو داود في سننه حدثنا محمد بن عوف حدثنا سعيد بن أبي مريم أنبأنا يحيى بن أيوب حدثني عمارة بن غزية أن محمد بن إبراهيم حدثه عن محمد بن أبي سَلَمَة بن عبد الرحمن عن عائشة قالت قَدِمَ رسولُ اللّهِ ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر وفي سهوتها ستر فهبّت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشةَ تلعب، فقال: «مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟» فقالت: بناتي ورأى بينهنّ فرساً له جناحان من رقاع، فقال: «مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسَطَهنّ؟». قالت: فَرَسٌ. قال: «وَمَا الَّذِي عَلَيْهِ هَذَا؟» قَالتْ: جناحان. قال: «فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ؟» قالتْ: أما سمعتَ أنَّ لسليمانَ خيلاً لها أجنحةٌ، قالتْ فضحكَ حتى رأيتُ نواجِذَهُ[١] ﷺ[٢]. وقال بعض العلماء: لما ترك الخيل لله عوّضه الله عنها بما هو خير له منها، وهو الريح التي كانت غدوّها شهراً ورواحها شهراً كما سيأتي الكلام عليها، كما قال الإمام أحمد: حدّثنا إسماعيل حدّثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال عن أبي قَتَادَةَ وأبي الدَّهْمَاءِ وكانا يُكْثِرَانِ السَّفَرَ نحوَ البيتِ، قالا: أتينا على رجل من أهل البادية فقال البدوي أخذَ بيدي رسولُ الله ﷺ فجعل يعلمني مما علّمه الله عزّ وجل، وقال: «إِنَّكَ لاَ تَدَعُ شَيْئاً اتِّقَاءَ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ إلاّ أعطَاكَ اللّهُ خَيراً مِنْهُ»[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾. ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسّرين ههنا آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف وأكثرها أو كلها

(١) النواجذ: آخر الأضراس.
(٢) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٦٢.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ٥/٧٨.

متلقاة من الإسرائيليات، وفي كثير منها نكارة شديدة وقد نبّهنا على ذلك في كتابنا التفسير واقتصرنا ههنا على مجرد التلاوة ومضمونُ ما ذكره أنَّ سليمانَ عليه السلام غاب عن سريره أربعينَ يوماً، ثم عاد إليه، ولمّا عاد أمر ببناءِ بيت المقدس فبناه بناءً محكماً. وقد قدّمنا أنه جدّده وأن أوّل من جعله مسجداً إسرائيلُ عليه السلام كما ذكرنا ذلك عند قول أبي ذر قلتُ: يا رسول الله أي مسجدٍ وضع أول؟ قال: «المَسْجِدُ الحَرَامُ» قلت: ثم أيٌّ قال: «مَسْجِدُ بَيْتِ المَقْدِسِ» قلت: كم بَينهما؟ قال: «أَرْبَعُونَ سَنَةً»[١] ومعلومٌ أن بين إبراهيم الذي بنى المسجد الحرام وبين سليمان بن داود عليهما السلام أزيد من ألف سنة دع أربعين سنة، وكان سؤاله المُلكَ الذي لا ينبغي لأحد من بعده بعد إكماله بيت المقدس كما قال الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الدَّيلمي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ: «إنَّ سُلَيْمَانَ لَمَّا بَنَى بَيْتَ المَقْدِسِ سَأَلَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خِلالاً ثَلاثاً فَأَعْطَاهُ اثْنَتَيْنِ ونَحْنُ نَرْجُو أَنْ تَكُونَ لَنَا الثَّالِثَةُ سَأَلَهُ حُكْماً يُصَادِفُ حُكْمَهُ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَسَأَلَهُ مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَسَأَلَهُ أَيُّمَا رَجُلٍ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ لاَ يُرِيدُ إِلاَّ الصَّلاَةَ فِي هَذَا المَسْجِدِ خَرَجَ مِنْ خَطِيئَتِهِ مِثْلَ يَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ فَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ أَعْطَانَا إِيَّاهَا»[٢]. فأمّا الحُكم الذي يوافق حكم الله تعالى فقد أثنى الله تعالى عليه وعلى أبيه في قوله ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩] وقد ذكر شُرَيْح القاضي وغير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم كرم فنفشت فيه غنم قوم آخرين، أي رعته بالليل، فأكلت شجرة بالكلية، فتحاكموا إلى داود عليه السلام فحكم لأصحاب الكرم بقيمته، فما خرجوا على سليمانَ قال: بِمَ حكم لكم نبيُّ الله؟ فقالوا بكذا وكذا، فقال: أما لو كنت أنا لما حكمتُ إلاّ بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجاً ودراً حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردّوه إلى ما كان عليه، ثم يتسلّموا غنمهم، فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به.

وقريب من هذا ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي الزناد عن الأعْرَج عن أبي هريرةَ قال قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا إِذْ عَدَا الذِّئْبُ فَأَخَذَ ابْنُ إِحْدَاهُمَا فَتَنَازَعَتَا فِي الآخَرِ فَقَالَتْ الكُبْرَى إِنَّمَا ذَهَبَ بَابْنِكِ وَقَالَتْ الصُّغْرَى بَلْ إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ فَحَكَمَ بِهِ لِلْكُبْرَى فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ فَقَالَ ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ نِصْفَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا نِصْفُهُ فَقَالَتْ الصُّغْرَى لاَ تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللَّهُ هُوَ ابْنُهَا فَقَضَى بِهِ لَهَا»[٣]. ولعل كلاًّ من الحكمين كان سائغاً في

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ١٥٠.

(٢) أخرجه النسائي في المساجد باب ٦، وابن ماجة في إقامة الصلاة والسنة فيها باب ١٩٦، وأحمد في المسند ٢/ ١٧٦.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٤٠، ومسلم في الأقضية حديث ٢٠، والنسائي في آداب القضاة باب ١٥، وأحمد في المسند ٢/ ٣٤٠.

شريعتهم ولكن ما قاله سليمان أرجحُ، ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه ومدح بعد ذلك أباه فقال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: ٧٩ ـ ٨٠] ثم قال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١] أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفة ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنبياء: ٨١، ٨٢].

وقال في سورة ص ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص: ٣٦ ـ ٤٠]. لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله منها الريح التي هي أسرع سيراً وأقوى وأعظم، ولا كلفة عليه لها، تجري بأمره رخاء ﴿حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ أي حيث أراد من أي البلاد. كانَ له بساط مركّب من أخشاب، بحيث إنه يَسَعُ جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجان وغير ذلك من الحيوانات والطيور، فإذا أراد سفراً أو مستنزهاً أو قتال ملك أو أعداء من أي بلاد الله شاء، فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريح فدخلت تحته فرفعته، فإذا استقلّ بين السماء والأرض أمر الرُّخَاءَ فسارت به، فإن أراد أسرعَ من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون، فوضعته في أي مكان شاءَ بحيث إنه كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس فتغدو به الريح فتضعه بإصطخر مسيرة شهر، فيقيم هناك إلى آخر النهار. ثم يروح من آخره فتردّه إلى بيت المقدس كما قال تعالى ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٢ ـ ١٣]. قال الحسن البصري: كان يغدو من دمشق فينزل بإصطخر، فيتغدّى بها ويذهب رائحاً منها فيبيت بكابل، وبين دمشق وبين اصطخر مسيرة شهر، وبين اصطخر وكابل مسيرة شهر، قلتُ: قد ذكر المتكلّمون على العمران والبلدان أن اصطخر بَنَتْها الجانُّ لسليمان، وكان فيها قرار مملكة الترك قديماً، وكذلك غيرها من بلدان شتّى كتَدْمُرْ وبيت المقدس وباب جَبْرُون وباب البريد اللذان بدمشق على أحد الأقوال.

وأما القطر فقال ابن عبّاس ومجاهد وعِكرمة وقتادة وغير واحد: هو النُّحاس. قال قتادة: وكانت باليمن أنبعها الله له، قال السدي: ثلاثة أيام فقط أخذ منها جميع ما يحتاج إليه للبنايات وغيرها، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ أي وسخر الله له من الجنّ عمالاً يعملون له ما يشاءُ لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته، ومن خرج منهم عن الأمر عذّبه ونكّل به ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ وهي الأماكنُ الحسنة وصدورُ المجالس ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ وهي الصورُ في الجُدران،

وكان هذا سائغاً في شريعتهم وملّتهم ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ [سبأ: ١٣]. قال ابن عباس: الجفنة كالجوبة من الأرض وعنه كالحياض، وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضَّحَّاك وغيرهم، وعلى هذه الرواية يكون الجواب جمع جابية وهي الحوض الذي يُجبى فيه الماء كما قال الأعشى. [البحر الطويل]

تَـرُوحُ عـلـى آلِ الـمـحـلَّـقِ جَـفْـنَـةٌ كـجابيةِ[١] الـشـيـخ الـعـراقـي يَـفْـهَـقُ[٢]

وأما القدور الراسيات فقال عكرمة: أثافِيهَا مِنها، يعني أنهُنَّ ثوابتٌ لا يَزُلْنَ عن أماكنهن، وهكذا قال مجاهد وغير واحد، ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق من إنسان وجان، قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ يعني أن منهم من قد سخّره في البناء ومنهم من يأمره بالغوص في الماء لاستخراج ما هنالك من الجواهر واللآلي وغير ذلك مما لا يوجد هناك، وقوله ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ أي قد عصوا فقُيِّدوا مقرّنين اثنين اثنين في الأصفاد وهي القيود. هذا كلّه من جملة ما هيأه الله وسخّر له من الأشياء التي هي من تمام المُلْك الذي لا ينبغي لأحد من بعده، ولم يكن أيضاً لمن كان قبله.

وقد قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنّ عِفريتاً مِنَ الجِنّ تَفَلّتَ عَلَيّ البَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَليّ صَلاتِي، فأمْكَنَنِي اللّهُ مِنْهُ فَأَخَذْتُهُ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوارِي المَسْجِدِ حَتّى تَنْظُرُوا إِلَيهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيمَانَ ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [صٓ: ٣٥] فَرَدَدْتُهُ خَاسِئاً»[٣]. وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث شعبة وقال مسلم: حدّثنا محمد بن سَلَمَة المُرَادِي حدثنا عبد الله بن وَهْب عن معاوية بن صالح حدثني ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخَولاني عن أبي الدَّرْدَاء، قال: قام رسولُ اللّهِ ﷺ فصلّى فسمعناهُ يقولُ: «أعُوذُ باللّهِ مِنْكَ أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللّهِ ثَلاثاً»، وبسطَ يدَه كأنّهُ يتناولُ شيئاً فلما فرغَ من الصلاةِ قلْنا يا رسولَ اللّهِ سمعناكَ تقولُ في الصّلاةِ شيئاً لم نَسْمَعْكَ تقولُه قبلَ ذلِك، ورأيناكَ بسطتَ يَدَكَ. قال: «إنّ عَدُوّ اللّهِ إبْلِيسَ جَاءَ بِشَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي، فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِاللّهِ مِنْكَ ثَلاثَ مَرّاتٍ. ثُمّ قُلْتُ أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللّهِ التَّامّةِ، فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ ثَلاثَ مَرّاتٍ. ثُمّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ وَاللّهِ لَوْلاَ دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لأَصْبَحَ مُوثَقاً يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ أَهْلِ المَدِينَةِ»[٤]. وكذا رواه النسائي عن محمد بن سلَمَةَ به. وقال أحمد: حدثنا أبو أحمد، حدثنا مُرّةُ بن مَعْبَد، ثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال: رأيتُ عطاءَ بن يزيد اللّيثي قائماً يُصلّي، فذهبتُ أمرُّ بين يديه فردّني، ثم قال: حدثني أبو سعيد

(١) الجابية: حوض ضخم.

(٢) يفهق: يمتلىء.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الانبياء باب ٤٠، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة حديث ٣٩، وأحمد في المسند ٢/٢٩٨.

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة حديث ٤٠، والنسائي في السهو باب ١٩.

الخُدْري أنَّ رسولَ الله ﷺ قام فصلى صلاة الصبح وهو خلفَه، فقرأ فالتبَسَتْ عليهِ القِراءة. فلما فرغَ من صلاتِهِ، قال: «لَوْ رَأَيْتُمُونِي وَإِبْلِيسَ فَأَهْوَيْتُ بِيَدِي فَمَا زِلْتُ أَخْنُقُهُ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ لُعَابِهِ بَيْنَ أُصْبَعَيَّ هَاتَيْنِ الإِبْهَامُ وَالَّتِي تَلِيهَا، وَلَوْلاَ دَعْوَةُ أَخِي سُلَيْمَانَ لأَصْبَحَ مَرْبُوطاً بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ يَتَلاَعَبُ بِهِ صِبْيَانُ المَدِينَةِ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ لاَ يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ القِبْلَةِ أَحَدٌ فَلْيَفْعَلْ»(١). روى أبو داود منه فمن استطاع إلى آخره عن أحمد بن سُريج عن أحمد الزبيري به.

وقد ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة، سبعمائة بمهور وثلاثمائة سراري وقيل بالعكس ثلاثمائة حرائر، وسبعمائة من الإماء. وقد كان يطيق من التمتّع بالنساء أمراً عظيماً جداً. قال البخاري حدّثنا خالد بن مَخْلد حدّثنا مغيرة بن عبد الرحمن عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هُرَيْرَة عن النبي ﷺ قال: «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةٍ تحمِلُ كُلُّ امْرأَةٍ فَارِساً يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ فلم تَحْمِلْ شَيْئاً إِلاَّ وَاحِداً سَاقِطاً أَحَدَ شِقَّيْهِ» فقال النبي ﷺ: «لَوْ قَالَهَا لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ»(٢). وقال شعيب وابن أبي الزناد تِسْعِينَ وهو أصحُّ. تفرّدَ به البخاري من هذا الوجه.

وقال أبو يعلى: حدثنا زهير، حدثنا يزيد أنبأنا هشام بن حسان عن محمد عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مَائَةِ امْرَأَةٍ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ، تَلِدُ غُلاَماً يَضْرِبُ بالسَّيْفِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَطَافَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ عَلَى مَائَةِ امْرَأَةٍ فَلَمْ تَلِدْ مِنْهُنَّ امرأَةٌ إِلاَّ إِمْرَأَةٌ وَلَدَتْ نِصْفَ إِنْسَانٍ» فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ الله لَوَلَدَتْ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ غُلاَماً يَضْرِبُ بِالسَّيْفِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»(٣). إسناده على شرط الصحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم ثنا هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال قال سليمان بن داود: «لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مائَةِ امْرَأَةٍ تَلِدُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ غُلاَماً يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَمْ يَسْتَثْنِ فما وَلَدَتْ إِلاَّ وَاحِدةٌ مِنْهُنَّ بِشِقِّ إِنْسَانٍ»، قال قال رسول الله ﷺ: «لَوْ اسْتَثْنَى لَوُلِدَ لَهُ مَائَةُ غُلاَمٍ كُلُّهُمْ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»(٤) تفرّد به أحمد أيضاً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ بِمَائَةِ امْرَأَةٍ تَلِدُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ غُلاَماً يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، قَالَ: «وَنَسِيَ أَنْ يَقُولَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَأَطَافَ بِهِنَّ»، قَالَ: «فَلَمْ تَلِدْ مِنْهُنَّ امْرَأَةٌ إِلاَّ وَاحِدَةٌ نِصْفَ إِنْسَانٍ»، فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمْ

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ١٠٩، وأحمد في المسند ٣/ ٨٢، ٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٤٠.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٥٠٦.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٢٢٩.

يَحْنَثْ وَكَانَ دَرَكاً لِحَاجَتِهِ»[1] وهكذا أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق به مثله. وقال إسحاق بن بشر: أنبأنا مقاتل عن أبي الزناد وابن أبي الزناد عن أبيه عن عبد الرحمن عن أبي هُرَيْرة أنَّ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ كَانَ لَهُ أَرْبَعُمَائَةِ امْرَأَةٍ وَسِتمائَةِ سَرِيَّةٍ، فَقَالَ يَوْماً لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى أَلْفِ امْرَأَةٍ فَتَحْمِلَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَمْ يَسْتَثْنِ فَطَافَ عَلَيْهِنَّ فَلَمْ تَحْمِلْ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ إلاَّ امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ جَاءَتْ بِشِقِّ إِنْسَانٍ» فقال النبي ﷺ: «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ اسْتَثْنَى فَقَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَوُلِدَ لَهُ مَا قَالَ فُرْسَانٌ وَلَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». وهذا إسناد ضعيف لحال إسحاق بن بشر فإنه مُنكرُ الحديث ولا سيّما وقد خالف الروايات الصِّحاح. وقد كان له عليه السلام من أمور المُلْكِ واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها ما لم يكن لأحد قبله، ولا يعطيه الله أحداً بعده، كما قال ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦] ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٣٥﴾ [ص: ٣٥] وقد أعطاه الله ذلك بنصّ الصادق المصدوق. ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه وأسداه من النِّعَم الكاملة العظيمة إليه، قال ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩﴾ [ص: ٣٩] أي أعطِ من شئت واحرمْ من شئت فلا حساب عليك، أي تصرّف في المال كيف شئت، فإن الله قد سوّغ[2] لك كلّما تفعله من ذلك، ولا يحاسبك على ذلك، وهذا شأن النبيّ الملك بخلاف العبد الرسول، فإن من شأنه أن لا يعطي أحداً ولا يمنع أحداً إلاّ بإذن الله له في ذلك، وقد خيّر نبيّنا محمد صلوات الله وسلامه عليه بين هذين المقامين فاختار أن يكون عبداً رسولا وفي بعض الروايات أنه استشار جبريل في ذلك فأشار إليه أن تواضعْ، فاختار أن يكون عبداً رسولاً صلوات الله وسلامه عليه، وقد جعل الله الخلافة والملك من بعده في أمّته إلى يوم القيامة، فلا تزال طائفة من أمّته ظاهرين حتى تقوم الساعة فللّه الحمدُ والمنّة.

ولما ذكر تعالى ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا، نبّه على ما أعدّه له في الآخرة من الثواب الجزيل. والأجر الجميل، والقربة التي تقرّبه إليه، والفوز العظيم، والإكرام بين يديه وذلك يوم المعاد والحساب، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٢٥﴾.

وفاته ومدة ملكه وحياته

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝١٤﴾ [سبأ: ١٤]. روى ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من حديث إبراهيم بن طَهْمَانٍ عن عَطاء بن السَّائِبِ عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس عن النبي ﷺ قال: «كَانَ سُلَيمَانُ نَبِيُّ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ إِذَا صَلَّى رَأَى شَجَرَةً نَابِتَةً بَيْنَ يَدَيْهِ، فَيَقُولُ لَهَا مَا اسْمُكِ؟ فَتَقُولُ كَذَا فَيَقُولُ لأَيِّ

(١) أخرجه البخاري في النكاح باب ١١٩، ومسلم في الأيمان حديث ٢٤، وأحمد في المسند ٢/ ٢٧٥.

(٢) سوّغ: جوّز.

شَيْءٍ أَنْتِ؟ فَإِنْ كَانَتْ لِغَرْسٍ غُرِسَتْ، وَإِنْ كَانَتْ لِدَوَاءٍ أَنبَتَتْ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُصَلِّي ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ رَأَى شَجَرَةً بَيْنَ يَدَيْهِ، فقال لَهَا مَا اسْمُكِ؟ قَالَتِ الخَرُوبُ، قَالَ لأيِّ شَيْءٍ أَنْتِ؟ قَالَتْ لِخَرَابِ هَذَا البَيْتِ، فَقَالَ سُلَيمَانُ: اللَّهُمَّ عَمِّ عَلَى الجِنِّ مَوْتِي حَتَّى تَعْلَمَ الإِنْسُ أَنَّ الجِنَّ لاَ يَعْلَمُونَ الغَيبَ، فَنَحَتَهَا عَصاً فَتَوَكأَ عَلَيهَا، حَوْلاً[1] وَالجِنُّ تَعْمَلُ، فَأَكَلَتْهَا الأَرَضَةُ فَتَبَيَّنَتِ الإِنْسُ أَنَّ الجِنَّ لَو كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيبَ مَا لَبِثُوا حَوْلاً فِي العَذَابِ المُهِينِ؛ قال وكان ابن عبّاس يقرؤها كذلك، قال فشكرت الجنُّ للأَرَضَةِ فكانت تأتيها بالماء لفظ ابن جَرير وعَطاء الخراساني في حديثه نَكارة وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق سَلَمَة بن كُهَيْلٍ عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس موقوفاً وهو أشبه بالصواب والله أعلم.

وقال السّدّيّ في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عبّاس وعن مرّة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة كان سليمان عليه السلام يتجرّد في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر يدخل طعامه وشرابه فأدخله في المرّة التي توفي فيها، فكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلاّ نبتت في بيت المقدس شجرة فيأتيها فيسألها ما اسمك؟ فتقول الشجرة: اسمي كذا وكذا، فإن كانت لغرس غرسها وإن كانت نبت دواء قالت نبت دواء لكذا وكذا، فيجعلها كذلك حتى نبتت شجرة يقال لها الخروبة، فسألها ما اسمك فقالت: أنا الخروبة، فقال: ولأي شي نبت، فقالت نبت لخراب هذا المسجد، فقال سليمان ما كان الله ليخرّبه وأنا حي، أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس، فنزعها وغرسها في حائط له، ثم دخل المحراب فقام يصلّي متّكئاً على عصاه، فمات ولم تعلم به الشياطين، وهم في ذلك يعملون له يخافون أن يخرج فيعاقبهم، وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب، وكان المحراب له كوى بين يديه وخلفه، فكان الشيطان الذي يريد أن يخلع يقول ألست جليداً إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر، فدخل شيطان من أولئك فمرّ ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان عليه السلام وهو في المحراب إلاّ احتراق، ولم يسمع صوت سليمان، ثم رجع فلم يسمع، ثم رجع فوقع في البيت، ولم يحترق، ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميتاً، فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ففتحوا عنه فأخرجوه ووجدوا منسأته وهي العصا بلسان الحبشة قد أكلتها الأرضة، ولم يعلموا منذ كم مات، فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوماً وليلة. ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة. وهي قراءة ابن مسعود، فمكثوا يدأبون[2] له من بعد موته حولاً كاملاً، فأيقن الناس عند ذلك أن الجنّ كانوا يكذّبون ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان، ولم يلبثوا في العذاب سنة يعملون له وذلك قول الله عزّ وجلّ ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ

(١) الحول: العام.

(٢) يدأبون: يجدون ويتعبون.

تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ يقول تبيّن أمرهم للناس أنهم كانوا يكذّبونهم ثم إن الشياطين قالوا للأرضة: لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ولكنّا سننقل إليك الماء والطين قال: فإنهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت قال: ألم تر إلى الطين الذي يكون في جوف الخشب فهو ما يأتيها به الشيطان تشكر لها. وهذا فيه من الاسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب.

وقال أبو داود في كتاب القدر: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا قَبيصة، حدثنا سفيان عن الأعمش عن خَيْثَمَة قال: قال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت إذا أردت أن تقبض روحي فأعلمني، قال ما أنا أعلم بذاك منك، إنّما هي كتب يلقى إليّ فيها تسمية من يموت». وقال أصبغ بن الفرج وعبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسْلَمَ قال: قال سليمان لملك الموت إذا أُمِرتَ بي فاعلمني، فأتاه فقال يا سليمان قد أُمِرْتُ بك، قد بقيت لك سويعة فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير، ليس له باب، فقام يصلي فاتكأ على عصاه قال فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو مُتَوَكيء على عصاه، ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت، قال: والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حي، قال فبعث الله دابة الأرض يعني إلى منسأته فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها. فخرّ فلما رأت الجن ذلك انفضوا وذهبوا قال فذلك قوله: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾. قال أصبغ وبلغني عن غيره أنها مكثت سنة تأكل في منسأته حتى خرّ، وقد رُوِيَ نحو هذا عن جماعة من السلف وغيرهم والله أعلم.

قال إسحاق بن بِشرِ، عن محمد بن إسحاق عن الزُهْرِي وغيره أنّ سليمان عليه السلام عاش ثنتين وخمسين سنة، وكان ملكه أربعين سنة، وقال إسحاق: أنبأنا أبو رَوْقٍ عن عِكْرِمَةَ عن ابن عَبّاسٍ أن مُلْكه كان عشرين سنة، والله أعلم وقال ابن جرير فكان جميع عمر سليمان بن داود عليهما السلام نيفاً وخمسين سنة.

وفي سنة أربع من ملكه ابتدأ ببناء بيت المقدس فيما ذكر، ثم ملك بعده ابنه رحبعام مدّة سبع عشرة سنة فيما ذكره ابن جرير وقال ثم تفرّقت بعده مملكة بني إسرائيل.

[ذكر][(١)] جماعة من أنبياء بني إسرائيل بعد داود وسليمان وقبل زكريا ويحيى عليهم السلام

فمنهم: شعيا بن أمصيا قال محمد بن إسحاق: وكان قبل زكريا ويحيى وهو ممّن بشّر بعيسى ومحمد عليهما السلام، وكان في زمانه ملك اسمه: حزقيا على بني إسرائيل ببلاد

(١) سقط في ط.

بيت المقدس، وكان سامعاً مطيعاً لشعيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح، وكانت الأحداث قد عظمت في بني إسرائيل فمرض الملك وخرجت في رجله قرحة. وقصد بيتَ المقدس ملكُ بابل في ذلك الزمان، وهو سنحاريب، قال ابن إسحاق: في ستمائة ألف راية وفزع الناس فزعاً عظيماً شديداً، وقال الملك للنبي شعيا: ماذا أوحى الله إليك في أمر سنحاريب وجنوده؟ فقال لم يوح إليّ فيهم شيء بعد. ثم نزل عليه الوحي بالأمر للملك حزقيا بأن يوصي ويستخلف على ملكه من يشاء، فإنه قد اقترب أجله، فلما أخبره بذلك أقبل الملك على القبلة فصلى وسبّح ودعا وبكى، فقال وهو يبكي ويتضرّع إلى الله عزّ وجلّ بقلب مخلص وتوكل وصبر «اللهم ربّ الأرباب وإله الآلهة يا رحمن يا رحيم يا من لا تأخذه سنة ولا نوم اذكرني بعلمي وفعلي وحسن قضائي على بني إسرائيل، وذلك كلّه كان منك فأنت أعلم به من نفسي سري وإعلاني لك» قال فاستجاب الله له ورحمه، وأوحى الله إلى شعيا أن يبشره بأنه قد رحم بكاءه وقد أخّر في أجله خمس عشرة سنة، وأنجاه من عدوه سنحاريب، فلمّا قال له ذلك ذهب منه الوجع، وانقطع عنه الشرّ والحزن، وخرّ ساجداً وقال في سجوده «اللّهُمّ أنتَ الذي تُعطي المُلْكَ مَنْ تَشاء وتنزعه مِمّن تشاء وتعزّ من تشاء، وتذلّ من تشاء عالمُ الغيبِ والشهادة، أنتَ الأول والآخِرُ والظاهرُ والباطنُ، وأنت ترحمُ وتستجيبُ دعوةَ المضطرين» فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعيا أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيجعله على قرحته فيشفى ويصبح قد برىء. ففعل ذلك فشفي، وأرسل الله على جيش سنحاريب الموت فأصبحوا وقد هلكوا كلّهم سوى سنحاريب وخمسة من أصحابه منهم بختنصر، فأرسل ملك بني إسرائيل فجاء بهم فجعلهم في الأغلال، وطاف بهم في البلاد على وجه التنكيل بهم والإهانة لهم، سبعين يوماً، ويطعم كلّ واحدٍ منهم كل يوم رغيفين من شعير، ثم أودعهم السجن، وأوحى الله تعالى إلى شعيا أن يأمر الملك بإرسالهم إلى بلادهم لينذروا قومهم ما قد حلّ بهم، فلمّا رجعوا جمع سنحاريب قومه وأخبرهم بما قد كان من أمرهم، فقال له السحرة والكهنة إنّا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلم تطعنا، وهي أمة لا يستطيعها أحد من ربّهم، فكان أمر سنحاريب مما خوّفهم الله به. ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين. قال ابن إسحاق: ثم لما مات حزقيا ملك بني إسرائيل، مرج أمرهم واختلطت أحداثهم، وكثر شرّهم، فأوحى الله تعالى إلى شعيا فقام فيهم فوعظهم وذكرهم وأخبرهم عن الله بما هو أهله، وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذّبوه. فلما فرغ من مقالته عدوا عليه وطلبوه ليقتلوه، فهرب منهم فمرّ بشجرة فانفلقت له، فدخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة ثوبه[1] فأبرزها، فلما رأوا ذلك جاؤوا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها فإنّا لله وإنا إليه راجعون.

(١) هدبة الثوب: طرف الثوب أو ذيله.

ومنهم أرميا بن حلقيا من سبط لاوي بن يعقوب

وقد قيل إنه الخَضِر رواه الضَّحَّاكُ عن ابن عباس وهو غريب وليس بصحيح. قال ابن عَساكر جاء في بعض الآثار أنه وقف على دم يحيى بن زكريا وهو يفور بدمشق، فقال أيها الدم فتنت الناس فاسكن فسكن ورسب حتى غاب. وقال أبو بكر بن أبي الدُّنْيَا حدّثني علي بن أبي مريم عن أحمد بن حَبَّابٍ عن عبد الله بن عبد الرحمن، قال: قال أرميا أي رب أيّ عبادك أحب إليك؟ قال: أكثرهم لي ذِكْراً الذين يشتغلون بِذِكْرِي عن ذكر الخلائق الذين لا تعرض لهم وساوس الفناء ولا يحدّثون أنفسهم بالبقاء. الذين إذا عرض لهم عيش الدنيا قلوه، وإذا زوى عنهم سرّوا بذلك. أولئك أنحلهم[1] محبتي وأعطيهم فوق غاياتهم.

ذكر خراب بيت المقدس

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء: ٢ ـ ٨]

وقال وهب بن منبه: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له: أرميا حين ظهرت فيهم المعاصي، أن قم بين ظهراني قومك فأخبرهم «أن لهم قلوباً ولا يفقهون، وأعينا ولا يبصرون، وآذانا ولا يسمعون، وإني تذكّرت صلاح آبائهم فعطفني ذلك على أبنائهم، فَسَلْهُمْ كيف وجدوا غب[2] طاعتي وهل سعد أحد ممن عصاني بمعصيتي، وهل شقي أحد ممن أطاعني بطاعتي، إن الدواب تذكر أوطانها فتنزع إليها، وإن هؤلاء القوم تركوا الأمر الذي أكرمت عليه آباءهم، والتمسوا الكرامة من غير وجهها أما أحبارهم فأنكروا حقي، وأما قرّاؤهم فعبدوا غيري، [وأما][3] نسّاكهم فلم ينتفعوا بما علموا، وأما ولاتهم فكذبوا عليّ وعلى رُسُلي. خزنوا المَكْرَ في قلوبهم وعوّدوا الكذب ألسنتهم. وإني أقسم بجلالي وعزّتي لأهيجّنّ عليهم جيوشاً لا يفقهون ألسنتهم، ولا يعرفون وجوههم، ولا يرحمون بكاءهم، ولأبعثن فيهم ملكاً جبّاراً قاسياً له عساكر كقطع السحاب، ومواكب كأمثال الفجاج، كأنّ خفقان راياته طيران النسور، وكأن حمل فرسانه كرّ العقبان، يعيدون العمران خراباً، ويتركون

(١) نحل: أعطى.

(٢) غب: عاقبة الشيء ونتيجته.

(٣) سقط في ط.

القرى وحشة، فيا ويل أيليا وسكانها كيف أذلّلهم للقتل، وأسلّط عليهم السبا، وأعيد بعد لجب[1] الأعراس صراخاً، وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب وبعد شرافات القصور مساكن السباع، وبعد ضوء السرج وهج العجاج[2]، وبالعزّ ذلاً، وبالنعمة العبودية، وأُبَدِلَنَّ نساءَهم بعد الطيب التراب. وبالمشي على الزرابي[3] الخبب[4]، ولأجعلن أجسادهم زِبْلاً للأرض، وعظامهن ضاحية للشمس، ولأدوسنهم بألوان العذاب، ثم لآمرن السماء فتكون طبقاً من حديد، والأرض سبيكة من نحاس، فإن أمطرت لم تنبت الأرض، وإن أنبتت شيئاً في خلال ذلك فبرحمتي للبهائم. ثم أحبسه في زمان الزرع، وأرسله في زمان الحصاد، فإن زرعوا في خلال ذلك شيئاً سلطت عليه الآفة، فإن خلص منه شيء نزعت منه البركة، فإن دعوني لم أجبهم، وإن سألوا لم أعطهم، وإن بكوا لم أرحمهم، وإن تضرّعوا صرفت وجهي عنهم» رواه ابن عساكر بهذا اللفظ.

وقال إسحاق بن بشر: أنبأنا إدريس عن وَهْبِ بنُ مُنَبِّهٍ قال: إن الله تعالى لمّا بعث أرميا إلى بني إسرائيل، وذلك حين عظمت الأحداث فيهم، فعملوا بالمعاصي وقتلوا الأنبياء، طمع بختنصر فيهم، وقذف الله في قلبه وحدّث نفسه بالمسير إليهم لِمَا أراد الله أن ينتقم به منهم، فأوحى الله إلى أرميا إني مهلك بني إسرائيل، ومنتقم منهم، فقم على صخرة بيت المقدس يأتيك أمري ووحيي، فقام أرميا فشق ثيابَهُ وجعل الرماد على رأسه، وخرّ ساجداً. وقال: يا ربّ وددت أمي لم تلدني حين جعلتني آخر أنبياء بني إسرائيل، فيكون خراب بيت المقدس وأبوار بني إسرائيل من أجلي، فقيل[5] له ارفع رأسك فرفع رأسه فبكى، ثم قال: يا رب من تسلّط عليهم، فقال عَبَدَةُ النيران لا يخافون عقابي، ولا يرجون ثوابي، قم يا أرميا فاستمع وحيي أخبرك خبرك وخبر بني إسرائيل. من قبل أن أخلقك اخترتك. ومن قبل أن أصوّرك في رحم أمك قدّستك، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهّرتك، ومن قبل أن تبلغ نبأتك ومن قبل أن تبلغ الأشدّ اخترتك، ولأمر عظيم اجتبيتك، فقم مع الملك تسدده وترشده، فكان مع الملك يسدده ويأتيه الوحي من الله حتى عظمت الأحداث، ونسوا ما نجّاهم الله به من عدوهم سنحاريب وجنوده، فأوحى الله إلى أرميا قم فاقصص عليهم ما آمرك به، وذكرهم نعمتي عليهم وعرّفهم أحداثهم. فقال أرميا: «يا ربّ إني ضعيف إن لم تقوّني، عاجز إن لم تبلغني، مخطىءٌ إن لم تسددني، مخذولٌ إن لم تنصرني، ذليل إن لم تعزّني» فقال الله تعالى: أوَ لَمْ تَعْلَمَ أنَّ الأمور كلّها تصدرُ عن مشيئتي، وأن الخلق والأمر كله لي، وأن القلوبَ والألسنَة كلّها بيدي فأُقَلِّبَها كيفَ شئتُ فتطيعني فأنا الله الذي ليس شيء مثلي. قامت السموات والأرض وما فيهن بكلمتي. وإنه لا يخلص التوحيد ولم تتم القدرة إلاّ لي، ولا يعلم ما عندي غيري، وأنا الذي كلّمت البحار ففهمت

(١) اللجب: الجلبة والصياح.
(٢) العجاج: الغبار والدخان.
(٣) الزرابي: النمارق.
(٤) الخبب: ضرب من سير الإبل.
(٥) في ط: فقال.

قولي، وأمرتها ففعلت أمري، وحدّدت عليها حدوداً فلا تَعْدُو حدّي، وتأتي بأمواج كالجبال، فإذا بَلَغَتْ حدّي ألبستُها مَذَلّةً لطاعتي وخوفاً واعترافاً لأمري، وإني مَعَكَ، وَلَنْ يَصِلَ إليك شيء معي، وإني بَعثْتُكَ إلى خلقٍ عظيم من خلقي لتبلغهم رسالاتي فتستوجب لذلك أجرَ مَن اتبعَكَ، ولا يَنْقُصُ ذلك من أجورهم شيئاً، انطلق إلى قومك فَقُمْ فيهمْ، وَقُلْ لَهُمْ إنّ اللّهَ قَدْ ذَكَرَكُمْ بِصَلاحِ آبائِكُم فلذلك استبقاكمُ يا معشرَ أبناءِ الأنبياء، وكيفَ وجَدَ آباؤكم مغبّة طاعتي، وكيفَ وجدتم مغبّة معصيتي، وهل وجدوا أحداً عصاني فسَعُدَ بمعصيتي وهل علموا أحداً أطاعني فشقي بطاعتي، إن الدواب إذا ذكرت أوطانها الصالحة نزعت إليها، وإن هؤلاء القوم رتعوا في مروج الهلكة وتركوا الأمر الذي به أكرمت آباءهم، وابتغوا الكرامة من غير وجهها. أما أحبارهم ورهبانهم فاتخذوا عبادي خَوَلاً، يتعبّدونهم ويحكمون[1] فيهم بغير كتابي، حتى أجهلوهم أمري، وأنسوهم ذكري وسنتي، وعزوهم عني، فدان لهم عبادي بالطاعة التي لا تنبغي إلا لي، فهم يطيعونهم في معصيتي.

وأما ملوكهم وأمراؤهم فبطروا[2] نعمتي وآمنوا مكري، وغرّتهم الدنيا حتى نبذوا كتابي، ونسوا عهدي، فهم يحرّفون كتابي ويفترون على رُسُلي جرأة منهم عليّ وغرّة بي، فسبحان جلالي، وعلو مكاني، وعظمة شأني، هل ينبغي أن يكون لي شريك في ملكي، وهل ينبغي لبشر أن يطاع في معصيتي، وهل ينبغي لي أن أخلق عباداً أجعلهم أرباباً من دوني أو آذن لأحد بالطاعة لأحد وهي لا تنبغي إلاّ لي.

وأما قراؤهم وفقهاؤهم فيدرسون ما يتخيرون، فينقادون للملوك فيتابعونهم على البدع التي يبتدعون في ديني، ويطيعونهم في معصيتي، ويوفون لهم بالعهود الناقضة لعهدي، فهم جَهَلَةٌ بما يعلمون، لا ينتفعون بشيء مما علموا في كتابي.

وأما أولاد النبيّين فمقهورون ومفتونون، يخوضون مع الخائضين يتمنون مثل آباءهم نصري، والكرامة التي أكرمتهم بها، ويزعمون أنه لا أحد أولى بذلك منهم بغير صدق منهم، ولا تفكّر ولا يذكرون كيف كان صبر آبائهم، وكيف كان جهدهم في أمري حين اغترّ المغترون، وكيف بذلوا أنفسهم ودماءهم فصبروا وصدّقوا حتى عزّ أمري وظهر ديني، فتأنيت هؤلاء القوم لعلّهم يستحيون مني ويرجعون، فتطولت عليهم وصفحت عنهم فأكثرت، ومددت لهم في العمر، وأعذرت لهم لعلّهم يتذكرون. وكل ذلك أمطر عليهم السماء وأنبت لهم الأرض، وألبسهم العافية وأظهرهم[3] على العدو ولا يزدادون إلاّ طغياناً وبعداً مني، فحتى متى هذا. أبي يسخرون؟ أم بي يتحرشون؟ أم إياي يخادعون؟ أم عليّ يجترئون؟ فإني أقسم بعزتي لأتيحنّ عليهم فتنة يتحير فيها الحليم[4]، ويضلّ فيها رأيُ ذوي الرأي، وحكمة الحكيم، ثم لأسلطن عليهم جباراً قاسياً عاتياً ألبِسُهُ الهيبةَ، وأنزع من قلبه الرأفة والرحمة

---

(١) في ط: ويعلمون.
(٢) بطر النعمة: كفرها.
(٣) أظهرهم: نصرهم.
(٤) في ط: الحكيم.

وآليت أن يتبعه عدد وسواد مثل الليل المظلم. له فيه عساكر مثل قطع السحاب، ومواكب مثل العجاج، وكأن حفيف راياته، طيران النسور، وحمل فرسانه كسرب العقبان، يعيدون العمران خراباً، والقرى وحشا ويعيثون في الأرض فساداً، ويُتَبِّرون ما علوا تَتْبيراً، قاسيةٌ قلوبهم لا يكترثون ولا يرقبون ولا يرحمون ولا يبصرون ولا يسمعون، يجولون في الأسواق بأصوات مرتفعة مثل زئير الأسد، تقشعر من هيبتها الجلود، وتطيش من سَمْعِها الأحلامُ بألْسِنَةٍ لا يفقهونها، ووجوه ظاهرٌ عليها المُنْكَرُ لا يعرفونها. فوعزتي لأُعَطِّلَنَّ بيوتهم من كتبي وقُدُسي ولأخلين مجالسهم من حديثها ودروسها، ولأوحشن مساجدهم من عمارها، وزوارها الذين كانوا يتزينون بعمارتها لغيري، ويتهجّدون فيها ويتعبدون لكسب الدنيا بالدين، ويتفقهون فيها لغير الدين، ويتعلمون فيها لغير العمل، لأُبَدِّلَنَّ ملوكها بالعز الذلّ، وبالأمن الخوف، وبالغنى الفقر، وبالنعمة الجوع، وبطول العافية والرخاء أنواع البلاء، وبلباس الديباج والحرير مدارع الوبر والعباء، وبالأرواح الطيبة والأدهان جيفَ القتل، وبلباس التيجان أطواق الحديد والسلاسل والأغلال. ثم لأعيدنّ فيهم بعد القصور الواسعة والحصون الحصينة الخراب، وبعد البروج المشيّدة مساكن السباع، وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب، وبعد ضوء السراج دخان الحريق، وبعد الأنس الوحشة والقفار. ثم لأبدلنّ نساءَها بالأسورة الأغلالَ، وبقلائد الدرّ والياقوت سلاسل الحديد، وبألوان الطيب والأدهان النقع[1] والغبار، وبالمشي على الزرابي عبور الأسواق والأنهار، والخبب إلى الليل في بطون الأسواق، وبالخدود والستور الحسور عن الوجوه، والسوق والأسفار والأرواح السموم. ثم لأدوسنّهم بأنواع العذاب حتى لو كان الكائن منهم في حالق[2]، لوصل ذلك إليه إني إنما أكرم من أكرمني، وإنما أهين من هان عليه أمري. ثم لآمرنّ السماء خلال ذلك فلتكونَن عليهم طبقاً من حديد، ولآمرن الأرض فلتكونن سبيكة من نحاس، فلا سماء تمطر ولا أرض تنبت. فإن أمطرت خلال ذلك شيئاً سلّطت عليهم الآفة، فإن خلص منه شيء نزعت منه البركة، وإن دعوني لم أجبهم، وإن سألوني لم أعطهم، وإن بكوا لم أرحمهم، وإن تضرعوا إليّ صرفتُ وجهي عنهم. وإن قالوا اللهم أنت الذي ابتدأتنا وآباءنا من قبلنا برحمتك وكرامتك، وذلك بأنك اخترتنا لنفسك، وجعلت فينا نبوّتك وكتابك ومساجدك، ثم مكّنت لنا في البلاد، واستخلفتنا فيها، وربّيتنا وآباءنا من قبلنا بنعمتك صغاراً، وحفظتنا وإياهم برحمتك كباراً، فأنت أوفى المنعمين وإن غيّرنا ولا تبدّل، وإن بدّلنا، وإن تتمّ فَضْلك ومنّك وطولك وإحسانك، فإن قالوا ذلك قلت لهم إني ابتدىء عبادي برحمتي ونعمتي. فإن قبلوا أتممتُ، وإن استزادوا زدت، وإن شكروا ضاعفت، وإن غيّروا غيّرت، وإذا غيّروا غضبت. وإذا غضبت عذّبت وليس يقوم شيء بغضبي.

قال كعب: فقال أرميا: برحمتك أصبحت أتعلم بين يديك، وهل ينبغي ذلك لي وأنا أذلّ وأضعف من أن ينبغي لي أن أتكلم بين يديك، ولكن برحمتك أبقيتني لهذا اليوم، وليس

---

(١) النقع: غبار المعارك.

(٢) الحالق: المكان المرتفع.

أحد أحق أن يخاف هذا العذاب وهذا الوعيد منّي بما رضيت به مني طولاً، والإقامة في دار الخاطئين وهم يعصونك حولي بغير نكر ولا تغيير مني، فإن تعذبني فبذنبي، وإن ترحمني فذلك ظني بك. ثم قال يا رب سبحانك وبحمدك وتباركت ربّنا وتعاليت، أتهلك هذه القرية وما حولها وهي مساكن أنبيائك ومنزل وحيك يا رب سبحانك وبحمدك وتباركت ربّنا وتعاليت لمخرب هذا المسجد وما حوله من المساجد ومن البيوت التي رفعت لذكرك، يا رب سبحانك وبحمدك وتباركت وتعاليت لمقتل هذه الأمة وعذابك إياهم وهم من ولد إبراهيم خليلك، وأمة موسى نجيّك، وقوم داود صفيّك، يا رب أي القرى تأمن عقوبتك بعد، وأي العباد يأمنون سطوتك بعد، ولد خليلك إبراهيم وأمة نجيك موسى وقوم خليفتك داود تسلّط عليهم عبدة النيران، قال الله تعالى: «يا أرميا مَنْ عصاني فلا يستنكر نقمتي، فإني أنّما أكرمت هؤلاء القوم على طاعتي، ولو أنهم عصوني لأنزلتُهم دار العاصين إلاّ أن أتداركهم برحمتي».

قال أرميا: يا رب اتخذت إبراهيم خليلاً وحفظتنا به. وموسى قرّبته نجيّاً، فنسألك أن تحفظنا ولا تتخطفنا ولا تسلّط علينا عدوّنا فأوحى الله إليه «يا أرميا إني قدّستك في بطن أمك، وأخرّتك إلى هذا اليوم، فلو أن قومك حفظوا اليتامى والأرامل والمساكين وابن السبيل، لكنت الداعم لهم، وكانوا عندي بمنزلة جنة ناعم شجرها، طاهر ماؤها، ولا يغور ماؤها ولا تبور ثمارها، ولا تنقطع ولكن سأشكو إليك بني إسرائيل إني كنت لهم بمنزلة الداعي الشفيق، أجنّبهم كل قحط وكل عسرة، واتّبع بهم الخصب حتى صاروا كباشاً ينطح بعضها بعضاً، فيا ويلهم ثم يا ويلهم إنّما أكرم من أكرمني وأهين من هان عليه أمري، إنّ من كان قبل هؤلاء القوم من القرون يستخِفّون بمعصيتي، وإن هؤلاء القوم يتبرّعون بمعصيتي تبرعاً، فيظهرونها في المساجد والأسواق، وعلى رؤوس الجبال وظلال الأشجار، حتى عجّت السماء إليّ منهم، وعجت الأرض والجبال، ونفرت منها الوحوش بأطراف الأرض وأقاصيها، وفي كل ذلك لا ينتهون ولا ينتفعون بما علموا من الكتاب».

قال: فلما بلغهم أرميا رسالة ربّهم وسمعوا ما فيها من الوعيد والعذاب، عصوه وكذّبوه واتهموه وقالوا كذبت وأعظمت على الله الفرية فتزعم أن الله معطل أرضه ومساجده من كتابه وعبادته وتوحيده، فمن يعبده حين لا يبقى له في الأرض عابد ولا مسجد ولا كتاب، لقد أعظمت الفرية على الله، واعتراك الجنون فأخذوه وقيّدوه وسجنوه، فعند ذلك بعث الله عليهم بختنصر فأقبل يسير بجنوده حتى نزل بساحتهم، ثم حاصرهم فكان كما قال تعالى: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ [الإسراء: ٥] قال: فلما طال بهم الحصر نزلوا على حكمه ففتحوا الأبواب وتخلّلوا الأزقة وذلك قوله ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ وحكم فيهم حكم الجاهلية، وبطش الجبّارين، فقتل منهم الثلث، وسبى الثلث، وترك الزمنى[١] والشيوخ

(١) الزمنى: من أتى عليهم الزمان أو هم أصحاب العاهات.

والعجائز، ثم وطئهم بالخيل وهدم بيت المقدس، وساق الصبيان وأوقف النساء في الأسواق حاسرات، وقتل المقاتلة وخرّب الحصون، وهدم المساجد، وحرق التوراة، وسأل عن دانيال الذي كان قد كتب له الكتاب، فوجدوه قد مات، وأخرج أهل بيته الكتاب إليه، وكان فيهم دانيال بن حزقيل الأصغر، وميكائيل وعزرائيل وميخائيل فأمضى لهم ذلك الكتاب، وكان دانيال بن حزقيل خلفاً من دانيال الأكبر، ودخل بخت نصر بجنوده بيت المقدس ووطىء الشام كلّها وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم فلما فرغ منها انصرف راجعاً وحمل الأموال التي كانت بها، وساق السبايا فبلغ معه عدة صبيانهم من أبناء الأحبار والملوك تسعين ألف غلام، وقذف الكناسات في بيت المقدس، وذبح فيه الخنازير، وكان الغلمان سبعة آلاف غلام من بيت داود وأحد عشر ألفاً من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين، وثمانية آلاف من سبط إيشي بن يعقوب، وأربعة عشر ألفاً من سبط زبالون ونفتالي ابني يعقوب، وأربعة عشر ألفاً من سبط دان بن يعقوب، وثمانية آلاف من سبط يستاخر بن يعقوب وألفين من سبط زبالون بن يعقوب. وأربعة آلاف من سبط روبيل ولاوي، واثني عشر ألفاً من سائر بني إسرائيل. وانطلق حتى قدم أرض بابل.

قال إسحاق بن بشر: قال وَهْبُ بن منبه: فلمّا فعل ما فعل قيل له كان لهم صاحب يحذّرهم ما أصابهم ويصفك وخبرك لهم، ويخبرهم أنك تقتل مقاتلتهم وتسبي ذراريهم وتهدم مساجدهم وتحرق كنائسهم، فكذبوه واتهموه وضربوه وقيّدوه وحبسوه، فأمر بخت نصر فأخرج أرميا من السجن، فقال له أكنت تحذّر هؤلاء القوم ما أصابهم؟ قال: نعم. قال: فإني علمت ذلك، قال أرسلني الله إليهم فكذّبوني. قال كذّبوك وضربوك وسجنوك؟ قال: نعم. قال: بئس القوم قوم كذّبوا نبيّهم وكذّبوا رسالة ربّهم، فهل لك أن تلحق بي فأكرمك وأواسيك، وإن أحببت أن تقيم في بلادك فقد أمّنتك قال له أرميا إني لم أزل في أمان الله منذ كنت، لم أخرج منه ساعة قط. ولو أن بني إسرائيل لم يخرجوا منه لم يخافوك ولا غيرك، ولم يكن لك عليهم سلطان فلمّا سمع بخت نصر هذا القول منه تركه فأقام أرميا مكانه بأرض إيليا. وهذا سياق غريب. وفيه حكم ومواعظ وأشياء مليحة وفيه من جهة التعريب غرابة.

وقال هشام بن محمد بن السّائِبِ الكَلْبِي: كان بخت نصر اصبهبذاً لما بين الأهواز إلى الروم للملك على الفرس، وهو لهراسب، وكان قد بنى مدينة بَلْخ التي تلّقب بالخنساء، وقاتل الترك وألجأهم إلى أضيق الأماكن، وبعث بختنصّر لقتال بني إسرائيل بالشام، فلما قدم الشام صالحه أهل دمشق، وقد قيل إن الذي بعث بختنصر إنّما هو بهمن ملك الفرس بعد بشتاسب بن لهراسب، وذلك لتعدي بني إسرائيل على رسله إليهم. وقد روى ابن جرير عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن سعيد بن المسيب أن بخت تنصر لما قدم دمشق وجد بها دماً يغلي على كبا يعني القمامة، فسألهم ما هذا الدم؟ فقالوا أدركنا آباءنا على هذا، وكلّما ظهر عليه الكبا ظهر، قال

فقتل على ذلك سبعين ألفاً من المسلمين، وغيرهم فسكن. وهذا إسناد صحيح إلى سَعِيدِ بن المُسَيِّبِ وقد تقدم من كلام الحافظ ابن عساكر ما يدلّ على أن هذا دم يحيى بن زكريا وهذا لا يصحّ لأن يحيى بن زكريا بعد بخت نصر بمدّة، والظاهر أن هذا دم نبي متقدّم أو دم لبعض الصالحين، أو لمن شاء الله ممن الله أعلم به.

قال هِشَامُ بن الكلبي: ثم قدم بختنصر بيت المقدس فصالحه ملكها وكان من آل داود، وصانعه عن بني إسرائيل، وأخذ منه بختنصر رهائن ورجع. فلما بلغ طبرية بلغه أن بني إسرائيل ثاروا على ملكهم فقتلوه لأجل أنه صالحه، فضرب رقاب من معه من الرهائن، ورجع إليهم فأخذ المدينة عنوة. وقتل المقاتلة وسبى الذرية. قال وبلغنا أنه وجد في السجن أرميا النبي فأخرجه وقصّ عليه ما كان من أمره إياهم وتحذيره لهم عن ذلك فكذّبوه وسجنوه، فقال بختنصر بئس القوم قوم عصوا رسول الله وخلّى سبيله وأحسن إليه واجتمع إليه من بقي من ضعفاء بني إسرائيلَ فقالوا: إنا قد أسأنا وظلمنا ونحن نتوب إلى الله عزّ وجلّ مما صنعنا، فادع الله أن يقبل توبتنا فدعا ربّه فأوحى الله إليه أنه غير فاعل، فإن كانوا صادقين فليقيموا معك بهذه البلدة، فأخبرهم ما أمره الله تعالى به فقالوا: كيف نقيم بهذه البلدة وقد خربت وغضب الله على أهلها فأبوا أن يقيموا.

قال ابن الكلبي: ومن ذلك الزمان تفرّقت بنو إسرائيل في البلاد، فنزلت طائفة منهم الحجاز، وطائفة يثرب، وطائفة وادي القرى، وذهبت شرذمة منهم إلى مصر، فكتب بخت نصر إلى ملكها يطلب منه من شرّد منهم إليه، فأبى عليه فركب في جيشه فقاتله وقهره وغلبه وسبى ذراريهم. ثم ركب إلى بلاد المغرب حتى بلغ أقصى تلك الناحية. قال ثُم انصرف بسبي كثير من أرض المغرب ومصر وأهل بيت المقدس وأرض فلسطين والأردن، وفي السبي دانيال. قلت والظاهر أنه دانيال بن حزقيل الأصغر لا الأكبر على ما ذكره وهب بن منبه والله أعلم.

[ذكر][١] شيء من خبر دانيال عليه السلام

قال ابن أبي الدنيا: حدثنا أحمد بن عبد الأعلى الشَّيْباني، قال: إن لم أكن سمعته من شُعيب بن صَفْوَان فحدثني بعض أصحابنا عنه عن الأَجْلَحِ الكِنْدِي عن عبد الله بن أبي الهُذَيلِ قال: ضرّى بخت نصر أسدين فألقاهما في جب[٢]، وجاء بدانيال فألقاه عليهما، فلم يهيجاه فمكث ما شاء الله، ثم اشتهى ما يشتهي الآدميون من الطعام والشراب فأوحى الله إلى أرميا وهو بالشام أن أعدد طعاماً وشراباً لدانيال، فقال يا رب، أنا بالأرض المقدّسة، ودانيال بأرض بابل من أرض العراق، فأوحى الله إليه أن أعدد ما أمرناك به فإنّا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت، ففعل وأرسل إليه من حمله وحمل ما أعدّه حتى وقف على رأس الجب، فقال دانيال من هذا؟ قال: أنا أرميا، فقال: ما جاء بك؟ فقال: أرسلني إليك ربّك.

---

(١) سقط في ط.

(٢) جب: بئر.

قال: وقد ذكرني ربي؟ قال: نعم. فقال دانيال: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره. والحمد لله الذي يجيب من رجاه. والحمد لله الذي من وثق به لم يكله إلى غيره. والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً. والحمد لله الذي يجزى بالصبر نجاة. والحمد لله الذي هو يكشف ضرّنا بعد كَرْبِنا. والحمد لله الذي يقينا حين يسوء ظنّنا بأعمالنا والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين ينقطع الحيل عنا.

وقال يُونُسُ بن بَكِير، عن محمد بن إسْحَاقَ عن أبي خَلْدِ بن دِينَار حدثنا أبو العَالِيَةِ قال: لما افتتحنا تُسْتَر[١] وجدنا في مال بيت الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب، فدعا له كَعْباً فنسخه بالعربية. فأنا أول رجل من العرب قرأه قرأته مثل ما أقرأ القرآن، هذا، فقلت لأبي العالية ما كان فيه؟ قال سيركم وأموركم ولحون كلامكم، وما هو كائن بعد، قلت فما صنعتم بالرجل، قال حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرّقة، فلما كان بالليل دفناه وسوّينا القبور كلّها لنعميه على الناس فلا ينبشونه. قلت: فما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم، برزوا بسريره فيمطرون، قلت: من كنتم تظنّون الرجل؟ قال: رجل يقال له دانيال، قلت: منذ كَمْ وجدتموه قد مات؟ قال منذ ثلاثمائة سنة، قلت ما تغيّر منه شيء؟ قال: لا. إلاّ شعرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض، ولا تأكلها السباع. وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية، ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظاً من ثلاثمائة سنة، فليس بنبي بل هو رجل صالح، لأن عيسى ابن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبي بنصّ الحديث الذي في البخاري، والفترة التي كانت بينهما أربعمائة سنة. وقيل ستمائة وقيل ستمائة وعشرون سنة، وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة، وهو قريب من وقت دانيال إن كان كونه دانيال هو المطابق لما في نفس الأمر، فإنه قد يكون رجلاً آخر إما من الأنبياء أو الصالحين، ولكن قربت الظنون أنه دانيال، لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده مسجوناً كما تقدم. وقد رُوِيَ بإسنادٍ صحيح إلى أبي العالية أن طول أنفه شبر. وعن أَنَسِ بن مالك بإسناد جيد أن طول أنفه ذراع [والله أعلم][٢] فيحتمل على هذا أن يكون رجلاً من الأنبياء الأقدمين قبل هذه المدد والله أعلم.

وقد قال أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب أحكام القبور: حدّثنا أبو بلال محمد بن الحَارِثِ بن عبد الله بن أبي بُرْدَةَ بن أبي موسى الأَشْعَرِي، حدثنا أبو محمد القاسم بن عبد الله عن أبي الأَشْعَثِ الأَحْمَرِي قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ دَانِيَالَ دَعَا رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَدْفِنَهُ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ»، فَلَمَّا افْتَتَحَ أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِي تُسْتَرَ وَجَدَهُ في تابوتٍ تَضْرِبُ عُرُوقُهُ وَوَرِيدُهُ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «مَنْ دَلَّ عَلَى دَانِيَالَ فَبَشِّرُوهُ بِالْجَنَّةِ»، فكان الذي دلّ عليه رجل يقال: له حَرْقُوص، فكتب أبو موسى إلى عُمَر بخبره فكتب إليه عمر أن ادفنه

(١) تستر: مدينة في خوزستان. (٢) سقط في ط.

وأبعث إليَّ حَرْقُوص، فإنَّ النبي ﷺ بشّره بالجنّة، وهذا مرسل من هذا الوجه، وفي كونه محفوظاً نظر والله أعلم.

ثم قال ابن أبي الدُّنيا: حدثنا أبو بلال، حدثنا قاسم بن عبد الله عن عَنْبَسَة بن سَعِيدٍ، وكان عالماً قال: وجد أبو موسى مع دانيال مصحفاً وجرّة فيها ودك[1] ودراهم وخاتمه، فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر أما المصحف فابعث به إلينا، وأما الودك فابعث إلينا منه، ومر من قبلك من المسلمين يستشفون به، واقسم الدراهم بينهم، وأما الخاتم فقد نفلناكه. ورُوِيَ عن ابن أبي الدنيا من غير وجه أنّ أبا موسى لما وجده وذكروا له أنّه دانيال التزمه وعانقه وقبّله. وكتب إلى عمر يذكر له أمره وأنه وجد عنده مالاً موضوعاً قريباً من عشرة آلاف درهم، وكان من جاء اقترض منها فإن ردّها وإلا مرض، وإن عنده ربعة فأمر عمر بأن يغسل بماء وسدر[2] ويكفّن ويدفن، ويخفى قبره فلا يعلم به أحد. وأمر بالمال أن يردّ إلى بيت المال، وبالربعة فتحمل إليه ونفله خاتمه. وروي عن أبي موسى أنه أمر أربعة من الأسراء فسكروا نهراً وحفروا في وسطه قبراً فدفنه فيه، ثم قدم الأربعة الأسراء فضرب أعناقهم، فلم يعلم موضع قبره غير أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. وقال ابن أبي الدنيا حدّثني إبراهيم بن عبد الله حدثنا أحمد بن عمرو بن السَّرْحِ، حدثنا ابن وهب عن عبد الرَّحمن بن أبي الزِّنَادِ عن أبيه قال رأيت في يد ابن بردة بن أبي موسى الأشعري خاتماً نَقْشُ فصّه أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل، قال أبو بردة هذا خاتم ذلك الرجل الميت الذي زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال، أخذه أبو موسى يوم دفنه. قال أَبُو بُرْدَةَ فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم، فقالوا إنّ الملك الذي كان دانيال في سلطانه جاءه المنجّمون وأصحاب العِلْم فقالوا له إنه يولد ليلة كذا وكذا غلام يعور[3] ملكك ويفسده، فقال الملك والله لا يبقى تلك الليلة غلام إلاّ قتلته، إلاّ أنهم أخذوا دانيال فألقوه في أجمة الأسد فبات الأسد ولبوته يلحسانه، ولم يضرّاه فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه، فنجّاه الله بذلك حتى بلغ ما بلغ. قال أبو بُرْدَةَ قال أبو موسى قال علماء تلك القرية فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه في فص خاتمه لئلا ينسى نعمة الله عليه في ذلك. إسناد حسن.

[وهذا ذكر][4] عمارة بيت المقدس بعد خرابها واجتماع الملأ من بني إسرائيل بعد تفرقهم في بقاع الأرض

قال الله تعالى في كتابه المبين وهو أصدق القائلين ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ

(١) ودك: دسم اللحم.
(٢) سدر: سجر النبق.
(٣) يعور: يعيب.
(٤) سقط في ط.

لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾ [البقرة: ٢٥٩].

قال هشام بن الكلبي: ثم أوحى الله تعالى إلى أرميا عليه السلام فيما بلغني: إني عامر بيت المقدس، فاخرج إليها فانزلها، فخرج حتى قدمها وهي خراب، فقال في نفسه: سبحان الله أمرني الله أن أنزل هذه البلدة وأخبرني أنه عامرها، فمتى يعمّرها ومتى يحييها الله بعد موتها! ثم وضع رأسه فنام ومعه حماره، وسلّة من طعام، فمكث في نومه سبعين سنة حتى هلك بختنصر والملك الذي فوقه، وهو لهراسب، وكان ملكه مائة وعشرين سنة، وقام بعده ولده بشتاسب بن لهراسب، وكان موت بختنصر في دولته. فبلغه عن بلاد الشام أنها خراب وأن السباع قد كثرت في أرض فلسطين، فلم يبق بها من الأنس أحد، فنادى في أرض بابل في بني إسرائيل أنَّ من شاء أن يرجع إلى الشام، فليرجع، وملّك عليهم رجلاً من آل داود، وأمره أن يعمّر بيت المقدس، ويبني مسجدها، فرجعوا فعمّروها وفتح الله لأرميا عينيه فنظر إلى المدينة كيف تُبْنَى وكيف تعمّر، ومكث في نومه ذلك حتى تمّت له مائة سنة، ثم بعثه الله وهو لا يظنّ أنه نام أكثر من ساعة، وقد عهد المدينة خراباً، فلما نظر إليها عامرة آهلة، ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾. قال فأقام بنو إسرائيل بها، وردّ الله عليهم أمرهم فمكثوا كذلك حتى غلبت عليهم الروم في زمن ملوك الطوائف. ثم لم يكن لهم جماعة ولا سلطان يعني بعد ظهور النصارى عليهم.

هكذا حكاه ابن جرير في تاريخه عنه. وذكر ابن جرير أن لهراسب كان ملكاً عادلاً سائساً لمملكته قد دانت له العباد والبلاد والملوك والقواد وأنه كان ذا رأي جيد في عمارة الأمصار والأنهار والمعاقل. ثم لما ضعف عن تدبير المملكة بعد مائة سنة ونيف نزل عن الملك لولده بشتاسب فكان في زمانه ظهور دين المجوسية وذلك أن رجلاً كان اسمه: زردشت كان قد صحب أرميا عليه السلام فأغضبه فدعا عليه أرميا فبرص زردشت، فذهب فلحق بأرض آذربيجان، وصحب بشتاسب فلقّنه دين المجوسية الذي اخترعه من تلقاء نفسه، فقبله منه بشتاسب وحمل الناس عليه، وقهرهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ممن أباه منهم. ثم كان بعد بشتاسب بهمن بن بشتاسب، وهو من ملوك الفرس المشهورين والأبطال المذكورين، وقد ناب بختنصر لكل واحد من هؤلاء الثلاثة، وعمّر دهراً طويلاً قبّحه الله. والمقصود أنّ هذا الذي ذكره ابن جرير من أن هذا المار على هذه القرية هو أرميا عليه السلام. قال وَهْبُ بن مُنَبّه وعبد الله بن عُبَيْدِ بن عُمَيْرٍ وغيرهما وهو قوي من حيث السياق المتقدم، وقد روى عن علي وعبد الله بن سلام وابن عبّاس والحَسَنِ وقَتَادَةَ والسّدّي وسُلَيْمَانَ بن بُرَيْدَةَ وغيرهم أنه عُزَيْرٌ. وهذا أشهرُ عند كثير من السلف والخلف والله أعلم.

وهذه قصة العزير

قال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر: هو عزير بن جروة ويقال: ابن سوريق بن عديا بن أيوب بن درزنا بن عرى بن تقي بن أسبوع بن فنحاص بن العازر بن هارون بن عمران. ويقال: عزير بن سروخا جاء في بعض الآثار، أنّ قبره بدمشق. ثم ساق من طريق أبي القاسم البَغَوي عن داود بن عمرو عن حِبّان بن علي عن محمد بن كَرِيبٍ عن أبيه عن ابن عبّاس مرفوعاً: «لا أدري ألعين تبع أم لا ولا أدري أكان عزير نبياً أم لا». ثم رواه من حديث مُؤَمّل بن الحسن عن محمد بن إسحاق السِّجْزِي عن عبد الرزاق عن مَعْمَرٍ عن ابن أبي ذئب[1] عن سعيد المَقْبِري عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه[2]. ثم روي من طريق إسحاق بن بِشْرٍ وهو متروك عن جُوَيْبِرٍ ومُقَاتِلٍ عن الضَحَّاكِ عن ابن عبّاس أنّ عزيراً كان ممن سباه بختنصّر وهو غلام حَدَث، فلما بلغ أربعين سنة أعطاه الله الحكمة قال: ولم يكن أحد أحفظ ولا أعلم بالتوراة منه قال، وكان يذكر مع الأنبياء حتى محى الله اسمه من ذلك حين سأل ربه، عن القدر، وهذا ضعيف ومنقطع ومنكر والله أعلم.

وقال إسحاق بن بشر، عن سعيد عن أبي عَرُوبةَ عن قَتَادَة عن الحسن عن عبد الله بن سَلاَم أن عزيراً هو العبد الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه. وقال إسحاق بن بشر: أنبأنا سَعِيدٌ بن بَشِير عن قَتَادَة عن كعب وسعيد بن أبي عَرُوبَةَ عن قَتَادَة عن الحَسَنِ ومُقَاتِلٍ وجُوَيْبِرٍ عن الضَحاكِ عن ابن عبّاس وعبد الله بن إسماعيل السُّدِيّ عن أبيه عن مجاهد عن ابن عبّاس وإدريس عن جدّه وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهِ، قال إسحاق كل هؤلاء حدّثوني عن حديث عزير وزاد بعضهم على بعض، قالوا بإسنادهم أن عزيراً كان عبداً صالحاً حكيماً، خرج ذات يوم إلى ضيعة له يتعاهدها، فلما انصرف أتى إلى خربة حين قامت الظهيرة، وأصابه الحرّ ودخل الخربة وهو على حماره فنزل عن حماره ومعه سلّة فيها تين، وسلّة فيها عنب، فنزل في ظلّ تلك الخربة وأخرج قصعة معه، فاعتصر من العنب الذي كان معه في القصعة، ثم أخرج خبزاً يابساً معه فألقاه في تلك القصعة في العصير ليبتلّ ليأكله، ثم استلقى على قفاه وأسند رجليه إلى الحائط، فنظر سقف تلك البيوت ورأى ما فيها وهي قائمة على عروشها، وقد باد أهلها ورأى عظاماً بالية. فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] فلم يشك أن الله يحييها، ولكن قالها تعجّباً، فبعث الله ملك الموت فقبض روحه فأماته الله مائة عام. فلما أتت عليه مائة عام، وكانت فيما بين ذلك في بني إسرائيل أمور وأحداث، قال فبعث الله إلى عزير ملكاً فخلق قلبه ليعقل قلبه وعينيه لينظر بهما، فيعقل كيف يحيي الله الموتى. ثم ركّب خلقه وهو ينظر، ثم كسى عظامه اللحم والشعر والجلد، ثم نفخ فيه الروح كل ذلك وهو يرى ويعقل، فاستوى جالساً فقال له المَلَكُ كم لبثت، قال لبثت يوماً أو بعض يوم، وذلك أنه كان لبث صدر النهار عند الظهيرة، وبعث في آخر النهار والشمس لم تغب، فقال أو

---

(١) في ط: ذؤيب.

(٢) أخرجه أبو داود في المناسك باب ١٤.

بعض يوم، ولم يتم لي يوم، فقال له الملك بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك يعني الطعام الخبز اليابس وشرابه العصير الذي كان اعتصره في القصعة فإذا هما على حالهما لم يتغيّر العصير والخبز يابس، فذلك قوله ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ يعني لم يتغيّر، وكذلك التين والعنب غضٌ[1] لم يتغيّر، شيءٌ من حالهما، فكأنه أنكر في قلبه، فقال له المَلَكُ أنكرت ما قلتُ لك، انظر إلى حمارك فنظر إلى حماره قد بليت عظامه وصارت نخرة، فنادى المَلَكُ عظام الحمار فأجابت، وأقبلت من كل ناحية، حتى ركبه المَلَك وعزير ينظر إليه، ثم ألبسها العروق والعصب، ثم كساها اللحمَ ثم أنبت عليها الجلد والشعر، ثم نفخ فيه المَلَك فقام الحمارُ رافعاً رأسه وأذنيه إلى السماء ناهقاً يظنّ القيامة قد قامت، فذلك قوله: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة: ٢٥٩] يعني وانظر إلى عظام حمارك كيف يركّب بعضها بعضاً في أوصالها، حتى إذا صارت عظاماً مصوّراً حماراً بلا لحم، ثم انظر ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ من إحياء الموتى وغيره. قال فركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر الناس، وأنكر منزله فانطلق، على وَهْم منه حتى أتى منزله، فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة، كانت أَمَةً لهم، فخرج عنهم عزير وهي بنت عشرين سنة، كانت عرفته وعقلته، فلما أصابها الكِبَر أصابها الزمانة[2]. فقال لها عزير يا هذه أهذا منزل عزير، قالت نعم: هذا منزل عزير، فبكت، وقالت ما رأيت أحداً من كذا وكذا سنة يذكر عزيراً، وقد نسيه الناس، قال فإني أنا عزير كان الله أماتني مائة سنة، ثم بعثني. قالت: سبحان الله فإن عزيراً قد فقدناه منذ مائة سنة فلم نسمع له بذكر، قال: فإني. أنا عزير. قالت: فإن عزيراً رجل مستجاب الدعوة يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء، فادع الله أن يرد عليّ بصري حتى أراك، فإن كنت عزيراً عرفتك. قال فدعا ربّه ومسح بيده على عينيها فصحتا، وأخذ بيدها، وقال قومي بإذن الله فأطلق الله رجليها، فقامت صحيحة كأنما نشطت من عقال[3]، فنظرت فقالت أشهد أنك عزير وانطلقت إلى محلّة بني إسرائيل، وهم في أنديتهم ومجالسهم، وابن لعزير شيخ ابن مائة سنة وثماني عشر سنة، وبني بنيه شيوخ في المجلس فنادتهم فقالت هذا عزير قد جاءكم، فكذّبوها فقالت أنا فلانة مولاتكم دعا لي ربّه فردّ عليّ بصري، وأطلق رجلي، وزعم أن الله أماته مائة سنة، ثم بعثه، قال فنهض الناس فأقبلوا إليه فنظروا إليه، فقال ابنه كان لأبي شامة سوداء بين كتفيه، فكشف عن كتفيه فإذا هو عزير فقالت بنو إسرائيل: فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حدثنا غير عزير، وقد حرق بختنصر التوراة، ولم يبق منها شيء إلاّ ما حفظت الرجال، فاكتبها لنا، وكان أبوه سروخا وقد دفن التوراة أيام بختنصر في موضع لم يعرفه أحد غير عزير، فانطلق بهم إلى ذلك الموضع فحفره فاستخرج التوراة،

---

(١) غض: طري.
(٢) الزمانة: العاهة.
(٣) عقال: قيد.

وكان قد عفن الورق ودرس الكتاب، قال وجلس في ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله فجدّد لهم التوراة، ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه، فتذكّر التوراة فجدّدها لبني إسرائيل. فمن ثم قالت اليهود عزير ابن الله للذي كان من أمر الشهابين، وتجديده التوراة وقيامه بأمر بني إسرائيل، وكان جدّد لهم التوراة بأرض السواد بدير حزقيل. والقرية التي مات فيها يقال لها: سايراباذ. قال ابن عبّاس فكان كما قال الله تعالى ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ يعني لبني إسرائيل. وذلك أنه كان يجلس مع بنيه، وهم شيوخ وهو شاب، لأنه مات وهو ابن أربعين سنة، فبعثه الله شاباً كهيئة يوم مات. قال ابن عباس بعث بعد بخت نصّر، وكذلك قال الحسن وقد أنشد أبو حَاتِمِ السِّجِسْتَانِي في معنى ما قاله ابن عبّاس: [الطويل].

وَأَسْوَدِ رَأْسٍ شَابَ مِن قَبْلِهِ ابْنُهُ ... وَمِنْ قَبْلِهِ ابْنِ ابْنِهِ فَهُوَ أَكْبَرُ
يَرَى ابْنَهُ شَيْخاً يَدُبُّ عَلَى عَصاً ... وَلِحْيَتُهُ سَوْدَاءَ وَالرَّأْسُ أَشْقَرُ
وَمَا لابْنِهِ حَيْلٌ وَلاَ فَضْلُ قُوَّةٍ ... يَقُومُ كَمَا يَمْشِي الصَّبِيُّ فَيَعْثُرُ
يُعَدُّ ابْنُهُ فِي النَّاسِ تِسْعِينَ حُجَّةً ... وَعِشْرِينَ لاَ يَجْرِي وَلاَ يَتَبَخْتَرُ
وَعُمْرُ أَبِيهِ أَرْبَعُونَ أَمَرَّهَا ... وَلابْنِ ابْنِهِ تِسْعُونَ فِي النَّاسِ غُبَّرُ
فَمَا هُوَ فِي المَعْقُولِ إِنْ كُنْتَ دَارِياً ... وَإِنْ كُنْتَ لاَ تَدْرِي فَبِالْجَهْلِ تُعْذَرُ

فصل: المشهور أن عزيراً نبي من أنبياء بني إسرائيل، وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى، وأنه لما لم يبق في بني إسرائيل من يحفظ التوراة، ألهمه الله حفظها، فسردها على بني إسرائيل، كما قال وهب بن منبه: أمر الله ملكاً فنزل بمغرفة من نور، فقذفها في عزير، فنسخ التوراة حرفاً بحرف حتى فرغ منها. وروى ابن عساكر عن ابن عبّاس أنه سأل عبد الله بن سَلاَّمٍ عن قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] لِمَ قالوا ذلك، فذكر له ابنُ سلام ما كان من كتبه لبني إسرائيل التوراة من حفظه وقول بني إسرائيل لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلاّ في كتاب، وأن عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب، فرماه طوائف منهم وقالوا عزير ابن الله. ولهذا يقول كثير من العلماء أن تواتر التوراة انقطع في زمن العزير. وهذا متجه جداً إذا كان العزير غير [نبي] كما قاله عَطَاء بن أبي رباح والحسَن البصري، وفيما رواه إسحاق بن بِشر عن مُقَاتِلِ بن سليمانَ عن عَطَاءٍ وعن عُثْمَانَ بن عَطَاءِ الخُرَاسَانِي عن أبيه، ومقاتل عن عَطَاءِ بن أبي رَبَاح قال: كان في الفترة تسعة أشياء بخت نصر وجنة صنعاء وجنة سبأ وأصحاب الأخدود وأمر حاصورا وأصحاب الكهف وأصحاب الفيل ومدينة أنطاكية وأمر تبع. وقال إسحاق بن بِشر أنبأنا سعيد عن قَتَادَة عن الحَسَنِ قال: كان أمر عزير وبختنصّر في الفترة. وقد ثبت في الصحيح أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ لأَنَا، إِنَّهُ لَيسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ»[1]. وقال

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٤٨، وأبو داود في السنة باب ١٤، وأحمد في المسند ١/ ٥٤١.

وهب بن منبه كان فيما بين سليمان وعيسى عليهما السلام. وقد روى ابن عساكر عن أَنَسِ بن مالك وعطاء بن السَّائِبِ أن عزيراً كان في زمن موسى بن عمران، وأنه استأذن عليه، فلم يأذن له، يعني لما كان من سؤاله عن القدر، وأنه انصرف وهو يقول مائة موتة أهون من ذلّ ساعة، وفي معنى قول عزير مائة موته أهون من ذلّ ساعة قول بعض الشعراء:

قَدْ يَصْبِرُ الحُرُّ عَلَى السَّيْفِ ... وَيأنَفُ الصَّبْرَ عَلَى الحَيْفِ[1]

وَيُؤْثِرُ المَوْتَ عَلَى حَالَةٍ ... يَعْجِزُ فِيهَا عَنْ قِرَى الضَّيْفِ[2]

فأما ما روى ابن عساكر وغيره عن ابن عباس ونَوْفٍ البِكَالي وسُفْيَانَ الثَّوْرِي وغيرهم، من أنه سأل عن القدر فمحى اسمه من ذكر الأنبياء فهو منكر وفي صحته نظر، وكأنه مأخوذ عن الإسرائيليات. وقد روى عبد الرَّزَّاقِ وقُتَيْبَةَ بن سعيد عن جَعْفَرِ بن سليمانَ عن أبي عِمْرانَ الجَوْنِي عن نَوْفٍ البِكَالي قال قال عزير فيما يناجي ربّه يا رب تخلق خلقاً فتضلّ من تشاء وتهدي من تشاء فقيل له أعرض عن هذا، فعاد فقيل له: لتعرض عن هذا أو لأمحونّ اسمك من الأنبياء، إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون، وهذا لا يقتضي وقوع ما توعّد عليه لو عاد فما محي اسمه والله أعلم.

وقد روى الجماعة سوى الترمذي من حديث يُونُسَ بن يَزِيدَ عن الزُّهْرِي عن سعيد وأبي سَلَمَة عن أبي هريرة، وكذلك رواه شعيب عن أبي الزِّناد عن الأعْرَجِ عن أبي هريرة، قال قال رسول الله ﷺ: «نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الأنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ فَأَمَرَ بِجَهَازِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَأُحْرِقَتْ بِالنَّارِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ مَهْلاً نَمْلَةً وَاحِدَةً»[3]. فروى إسحاق بن بشر عن ابن جُرَيْج عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه أنه عزير. وكذا روى عن ابن عباس والحسن البصري أنه عزير فالله أعلم.

[ذكر][4] قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

قال الله تعالى في كتابه العزيز: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى

(١) الحيف: الموت.

(٢) قرى الضيف: أطعمه.

(٣) أخرجه البخاري في: الجهاد، باب: (١٥٣) حدثنا يحيى بن كثير، (الحديث ٣٠١٩)، ومسلم في: السلام، (الحديث ١٤٨)، وأبو داود في: الأدب، باب: (١٧٥)، والنسائي في: الصيد، باب: (٣٨)، وابن ماجة في: الصيد، باب: (١٠)، وأحمد في المسند ٢/ ٤٠٢، ٤٠٣.

(٤) سقط في ط.

غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ١ ـ ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٣٧ ـ ٤١].

وقال تعالى في سورة الأنبياء ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام: ٨٥].

قال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في كتابه التاريخ المشهور الحافل: زكريا بن برخيا ويقال: زكريا بن دان ويقال: زكريا بن لدن بن مسلم بن صدوق بن حشبان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة بن برخيا بن بلعاطة بن ناحور بن شلوم بن بهفاشاط بن إينامن بن رحبعام بن سليمان بن داود أبو يحيى النبي عليه السلام من بني إسرائيل. دخل البَثَنية[١] من أعمال دمشق في طلب ابنه يحيى. وقيل إنه كان بدمشق حين قتل ابنه يحيى والله أعلم. وقد قيل غير ذلك في نسبه ويقال فيه زكريا بالمدّ وبالقصر ويقال زكري أيضاً.

والمقصود أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يقصّ على الناس خبر زكريا عليه السلام وما كان من أمره حين وهبه الله ولداً على الكبر، وكانت امرأته عاقراً في حال شبيبتها وقد أسنّت أيضاً حتى لا ييئس أحدٌ من فضلِ اللّهِ ورحمته، ولا يَقْنطَ من فضله تعالى وتقدّس فقال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم: ٢ ـ ٣]. قال قتادة عند تفسيرها: إنّ الله يعلم القلب النقي ويسمع الصوت الخفي. وقال بعض السلف قام من الليل فنادى ربّه مناداة أسرّها عمن كان حاضراً عنده مخافته فقال يا ربّ يا ربّ يا ربّ فقال الله لبيك لبيك لبيك ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ أي ضعف وخار من الكِبَر ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ استعارة من اشتعال النار في الحطب، أي غلب على سواد

(١) اسم ناحية من نواحي دمشق وهي قرية بين دمشق وأذرعات (معجم البلدان).

الشعر شيبه، كما قال ابن دريْد في مقصورته: [رجز]

أَمَا تَرَى رَأْسِيَ حَاكَى لَوْنُهُ ... طُرَّةَ[١] صُبْحٍ تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّجَا
وَاشْتَعَلَ المُبْيَضُّ فِي مُسْوَدِّهِ ... مِثْلَ اشْتِعَالِ النَّارِ فِي جَمْرِ الغَضَا[٢]
وَآضَ[٣] عُودُ اللَّهْوِ يَبْساً ذَاوِياً ... مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ كَانَ مَجَّاجَ الثَّرَى

يذكر أن الضعف قد استحوذ عليه باطناً وظاهراً، وهكذا قال زكريا عليه السلام ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾ [مريم: ٤] أي ما عوّدتني فيما أسألك إلاّ الإجابة، وكان الباعث له على هذه المسألة أنه لمّا كَفَل مريم بنت عمران بن ماثان، وكان كلّما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة في غير [إبّانها]، ولا في أوانها، وهذه من كرامات الأولياء، فعلم أن الرازق للشيء في غير أوانه قادر على أن يرزقه ولداً، وإنْ كان قد طعن في سنّه ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝٣٨﴾ [آل عمران: ٣٨]. وقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: ٥] قيل المراد بالموالي العصبة، وكأنه خاف من تصرّفهم بعده في بني إسرائيل بما لا يوافق شرع الله وطاعته، فسأل وجود ولد من صُلْبه يكون براً تقيًا مرضياً، ولهذا قال ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ أي من عندك بحولك وقوّتك ﴿وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي﴾ أي في النبوّة والحكم في بني إسرائيل ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: ٦] يعني كما كان آباؤه وأسلافه من ذرّيّة يعقوب أنبياء، فاجعله مثلهم في الكرامة التي أكرمتهم بها من النبوّة والوحي، وليس المراد ههنا وراثة المال كما زعم ذلك من زعمه من الشيعة، ووافقهُم ابن جرير هُهُنا، وحكاه عن أبي صالح من السلف لوجوه.

أحدها: ما قدّمنا عند قوله تعالى ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: ١٦] أي في النبوّة والملك كما ذكرنا في الحديث المتفق عليه بين العلماء المروي في الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق، عن جماعة من الصحابة أنّ رسول الله ﷺ قال: «لاَ نُورَثُ مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ»[٤].

فهذا نصٌ على أن رسول الله ﷺ لا يورّث، ولهذا منع الصديق أن يصرف ما كان يختصّ به في حياته إلى أحد من ورّاثه الذين لولا هذا النص لصرف إليهم، وهم ابنته فاطمة وأزواجه التسع، وعمّه العباس رضي الله عنهم، واحتجّ عليهم الصديق في منعه إياهم بهذا الحديث، وقد وافقه على روايته عن رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والعبّاس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وأبو هريرة وآخرون رضي الله عنهم.

---

(١) طرة: طرف كل شيء.
(٢) الغضا: شجرة.
(٣) آض: تحوّل.
(٤) أخرجه البخاري في: فضائل الصحابة، باب: (١٢)، ومسلم في: الجهاد والسير، (الحديث ٤٩)، وأبو داود في: الخراج، باب: (١٩)، والترمذي في: السير، باب: (٤٤)، وأحمد في المسند ١/٢٠٨.

الثاني: أنّ الترمذي رواه بلفظ يعمّ سائر الأنبياء: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لاَ نُورَثُ»[(١)] وصحّحه.

الثالث: أنّ الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكنزوا لها، أو يلتفتوا إليها أو يهمّهم أمرها، حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم، فإن من لا يصل إلى قريب من منازلهم في الزهادة لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولداً يكون وارثاً له فيها.

الرابع: أن زكريا عليه السلام كان نجاراً يعمل بيده، ويأكل من كسبها، كما كان داود عليه السلام يأكل من كسب يده، والغالب ولا سيما من مثل حال الأنبياء أنه لا يجهد نفسه في العمل إجهاداً يستفضل منه ما لا يكون ذخيرة له يخلفه من بعده، وهذا أمر بيّن واضح لكل من تأمّله وتدبّره وتفهّم إن شاء الله.

قال الإمام أحمد: حدثنا يَزِيدُ يعني ابن هَارُون، أنبأنا حمّاد بن سَلَمَة عن ثَابِتٍ عن أبي رَافِع عن أبي هُرَيْرَة أن رسول الله ﷺ قال: «كَانَ زَكَرِيَّا نَجَاراً»[(٢)]. وهكذا رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه عن حمّاد بن سَلَمَة به. وقوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ [مريم: ٧]. وهذا مفسر بقوله: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩﴾ [آل عمران: ٣٩] فما بُشّرَ بالولد وتحقق البشارة، شرع يستعلم على وجه التعجّب وجود الولد والحالة هذه له ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ [مريم: ٨] أي كيف يوجد ولد من شيخ كبير قيل كان عمره إذ ذاك سبعاً وسبعين سنة، والأشبه والله أعلم أنه كان أسنّ من ذلك ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ يعني وقد كانت امرأتي في حال شبيبتها عاقراً لا تلد والله أعلم. كما قال الخليل ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤﴾ [الحجر: ٥٤] وقالت سارة ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٣﴾ [هود: ٧٢ ـ ٧٣] وهكذا أجيب زكريا عليه السلام. قال له الملك الذي يوحى إليه بأمر ربه ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٩] أي هذا سهل يسير عليه ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [مريم: ٩] أي قدرته أوجدتك بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، أفلا يوجد منك ولداً وإن كُنتَ شيخاً. وقال تعالى ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠] ومعنى إصلاح زوجته أنها كانت لا تحيض فحاضت. وقيل كان في لسانها شيء أي بذاءة ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ [مريم: ١٠] أي علامة على وقت تعلق مني المرأة بهذا الولد المبشر به ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٤٦٤.

(٢) أخرجه مسلم في: الفضائل، حديث ١٦٩ وابن ماجة في: التجارات، باب ١٢، وأحمد في المسند ٢/ ٢٩٦.

لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾ [مريم: ١٠] يقول علامة ذلك أن يعتريك سكت لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزاً وأنتَ في ذلك سويّ الخلق صحيح المزاج معتدل البنية، وأمر بكثرة الذكر في هذه الحال بالقلب، واستحضار ذلك بفؤاده بالعشيّ والإبكار، فلما بُشِّرَ بهذه البشارة خرج مسروراً بها على قومه من محرابه ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾[مريم: ١١]. والوحي ههنا هو الأمر الخفيّ إمّا بكتابه كما قاله مُجاهِدٌ والسّدّي، أو إشارة كما قاله مجاهد أيضاً وَوَهْبٌ وَقَتَادَةُ. قال مجاهدٌ وعِكْرِمَةُ ووهب والسّدّي وقَتَادَةُ اعتقل لسانه من غير مرض. وقال ابن زيد كان يقرأ ويسبّح، ولكن لا يستطيع كلام أحد. وقوله ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم: ١٢]، يخبر تعالى عن وجود الولد وفق البشارة الإلٰهية لأبيه زكريا عليه السلام، وأن الله علّمه الكتاب والحِكْمة وهو صغير في حال صباه. قال عبد الله بن المبارك قال مَعْمَر قال الصبيان ليحيى بن زكريا اذهب بنا نلعب، فقال ما للعب خُلِقْنا. قال وذلك قوله ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ وأما قوله ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [مريم: ١٣] فروى ابن جرير عن عَمْرو بن دِينَارٍ عن عِكْرِمَةَ عن ابن عبّاس أنه قال لا أدري ما الحنان. وعن ابن عبّاس ومجاهد وعِكْرِمَة وقَتَادَةَ والضَّحّاك ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي رحمة من عندنا، رحمنا بها زكريا، فوهبنا له هذا الولد. وعن عِكْرِمَة ﴿وَحَنَانًا﴾ أي محبة عليه، ويحتمل أن يكون ذلك صِفَة لتحنّن يحيى على الناس، ولا سيما على أبويه وهو محبّتهما والشفقة عليهما وبرّه بهما. وأما الزكاة فهو طهارة الخلق وسلامته من النقائص والرذائل. والتقوى طاعة الله بامتثال أوامره وترك زواجره[1]، ثم ذكر برّه بوالديه وطاعته لهما أمراً ونهياً، وترك عقوقهما قولاً وفعلاً فقال ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم: ١٤] ثم قال ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ١٥] هذه الأوقات الثلاثة أشدّ ما تكون على الإنسان، فإنه ينتقل في كلّ منها من عالم إلى عالم آخر، فيفقد الأول بعد ما كان أَلِفَه وعرفه ويصير إلى الآخر، ولا يدري ما بين يديه، ولهذا يستهلّ صارخاً إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمّها، وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمّها، وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار، وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة[2] الأموات سكّان القبور، وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور، فَمِنْ مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور، وما بين جبير وكسير وفريق في الجنّة وفريق في السعير. ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول: [الكامل]

وَلَدَتْكَ أُمُّكَ بَاكِياً مُسْتَصْرِخاً ... وَالنَّاسُ حَوْلَكَ يَضْحَكُونَ سُرورا

فَاحْرِصْ لِنَفْسِكَ أَنْ تَكُونَ إذا بَكُوا ... فِي يَوْمِ مَوْتِكَ ضَاحِكاً مَسْرُورا

ولمّا كانت هذه المواطن الثلاثة اشقّ ما تكون على ابن آدم سلّم الله على يَحْيَى في كل موطن منها فقال ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ وقال سعيد بن أبي

(١) زواجره: ما ينهى عنه.

(٢) العرصة: الفسحة أمام الدار.

عَرُوبَةَ عن قَتَادَةَ أنَّ الحسن قال: إن يحيى وعيسى التقيا، فقال: له عيسى استغفر لي أنت خير مني، فقال له الآخر: استغفر لي أنت خيرٌ مني. فقال له عيسى: أنت خير مني سلمت على نفسي وسلّم الله عليك، فعرف والله فضلهما، وأما قوله في الآية الأخرى ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩﴾ [آل عمران: ٣٩] فقيل المراد بالحصور الذي لا يأتي النساء وقيل: غير ذلك وهو أشبه لقوله ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨] وقد قال الإمام أحمد حدثنا عفّان حدثنا حمّاد أنبأنا علي بن زيْد عن يُوسُفَ بن مِهْرَانَ عن ابن عبّاس أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ وُلْدِ آدَمَ إِلاَّ وَقَدْ أَخْطَأَ أَوْ هَمَّ بِخَطِيئَةٍ لَيْسَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا، وَمَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ يَقُولُ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»[1]. علي بن زيد بن جَدْعَانَ تكلّم فيه غير واحد من الأئمة، وهو منكر الحديث، وقد رواه ابن خُزَيْمَة والدَارَقُطْنِي من طريق أبِي عَاصِمِ العَبَادَانِي عن علي بن زيد بن جَدْعَانَ به مطوّلاً، ثم قال ابن خزيمة وليس على شرطنا. وقال ابن وَهَب حدثني ابن لَهِيْعَةَ عن عَقِيل عن ابن شهاب قال خرج رسول الله ﷺ على أصحابه يوماً وهم يتذاكرون فضلَ الأنبياء، فقال قائل: «موسى كليم الله» وقال قائل: «عيسى روح الله وكلمته» وقال قائل: «إبراهيم خليل الله» فقال: «أَيْنَ الشَّهِيدُ ابن الشَّهِيدُ يَلْبَسُ الوبَرَ وَيأْكُلُ الشَّجَرَ مَخَافَةَ الذَّنْبِ»، قال ابن وَهْبٍ: يريد يحيى بن زكريا. وقد رواه محمد بن إسحاق وهو مدلس[2] عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المُسَيِّبِ، حدّثني ابن العَاصِ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَهُ ذَنْبٌ إلاَّ مَا كَانَ مِنْ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا». فهذا من رواية ابن إسحاق، وهو من المدلّسين، وقد عنعن هَهُنا. ثم قال عبد الرزاق عن مَعْمَرٍ عن قَتَادَةَ عن سَعِيدِ بن المُسَيِّب مرسلاً. ثم رأيت ابن عساكر ساقه من طريق أبي أسامة عن يحيى بن سَعِيدٍ الأنْصَارِي، ثم قد رواه ابن عساكر من طريق إبراهيم بن يعقوب الجَوْزَجَانِي خطيب دمشق، حدّثنا محمد بن الأصبهاني حدثنا أبو خالد الأحْمَر عن يحيى بن سعيد عن سَعِيدِ بن المُسَيِّب عن عبد الله بن عمرو قال: «مَا أَحَدٌ إلاَّ يَلْقَى اللَّهَ بِذَنْبٍ إلاَّ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا» ثم تلا ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ ثم رفع شيئاً من الأرض فقال: «مَا كَانَ مَعَهُ إلاَّ مِثْلُ هَذَا. ثُمَّ ذُبِحَ ذَبْحاً» وهذا موقوف من هذه الطريق، وكونه موقوفاً أصحّ من رفعه والله أعلم. وأورده ابن عساكر من طرق عن مَعْمَرٍ من ذلك ما أورده من حديث إسحاق بن بشر، وهو ضعيف، عن عثمان بن سَبَّاح عن ثور بن يزيد عن خالد بن مِعْدَانَ عن معاذ عن النبي ﷺ بنحوه. وروي من طريق أبي داود الطَيَالِسِي وغيره عن الحَكَم بن عبد الرحمن بن أبي نَعِيم عن أبيه عن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ: «الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ سَيِّدا شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ إلاَّ ابْنَيِ الخَالَةِ يَحْيَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ». وقال أبو نَعِيم الحافظ الأصْبَهَانِي حدّثنا إسحاق بن أحمد حدثنا إبراهيم بن يوسف، حدّثنا أحمد بن أبي الحَوَارِيِّ سمعت أبا سليمانَ يقول خرج عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٥٤.

(٢) المدلس: المنافق.

يتماشيان، فصدم يحيى امرأة، فقال له عيسى: يا ابن خالة لقد أصبت اليوم خطيئة، ما أظنّ أنه يغفر لك أبدا. قال: وما هي يا ابن خالة؟ قال: امرأة صدمتها. قال والله ما شعرت بها. قال سبحان الله بدنك معي فأين روحك؟ قال معلّق بالعرش، ولو أنّ قلبي اطمئن إلى جبريل لظننت أني ما عرفت الله طرفة عين. فيه غرابة وهو من الإسرائيليات. وقال إسرائيل عن أبي حُصَيْنٍ عن خَيْثَمَةَ قال كان عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابني خالة، وكان عيسى يلبس الصوف، وكان يحيى يلبس الوبر، ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم، ولا عبد ولا أمة، ولا مأوى يأويان إليه، أين ما جنّهما الليل أويا، فلمّا أراد أن يتفرّقا قال له يحيى: أوصني، قال: لا تغضب، قال: لا أستطيع إلاّ أن أغضب، قال: لا تقتنِ مالاً، قال: أما هذه فعسى.

وقد اختلفت الرواية عن وَهْبِ بن مُنَبِّهٍ هل مات زكريا عليه السلام موتاً أو قُتِلَ قَتْلاً على روايتين؛ فروى عَبْدُ المُنْعِمِ بن إدْرِيسَ بن سِنَانٍ عن أبيهِ عن وَهْبِ بن مُنَبِّهٍ أنه قال: هرب من قومِهِ فدخل شجرةً فجاؤوا فوضعوا المنشار عليهما، فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أن فأوحى الله إليه لئن لم يسكن أنينك لأقلبن الأرضَ ومن عليها، فسكن أنينه حتى قطع باثنتين. وقد روي هذا في حديث مرفوع سنورده بعد إن شاء الله. وروى إسحاق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب، أنه قال: الذي انصدعت له الشجرة هو شعيا، فأما زكريا فمات موتاً فالله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدّثنا عفان أنبأنا أبو خَلَفٍ موسى بن خلف وكان يعد من البدلاء، حدّثنا يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سَلاَمٍ عن جدّه مَمْطُورٍ عن الحَارِثِ الأَشْعَرِي، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، وَكَادَ أَنْ يُبْطِىءَ، فَقَالَ لَهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ إِنَّكَ قَدْ أُمِرْتَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ. فَإِمَّا أَنْ تُبَلِّغَهُنَّ وَإِمَّا أَنْ أُبَلِّغَهُنَّ، فَقَالَ يَا أَخِي إِنِّي أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذَّبَ أَوْ يُخْسَفَ بِي، قَالَ: فَجَمَعَ يَحْيَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ المَقْدِسِ حَتَّى امْتَلأَ المَسْجِدُ، فَقَعَدَ عَلَى الشُّرَفِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ. وَأَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ لاَ تشركُوا بِهِ شَيْئاً، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ مَنِ اشْتَرَى عَبْداً مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِوَرِقٍ. أَوْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي غَلَّتَهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَسُرُّهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ، وَأَنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَاعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَآمُرُكُمْ بِالصَّلاَةِ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ قِبَلَ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلاَ تَلْتَفِتُوا. وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مِنْ مِسْكٍ فِي عِصَابَةٍ كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ المِسْكِ، وَأَنَّ خُلُوفَ[١] فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ. وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ العَدُوّ فَشَدُّوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ فَقَالَ هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِي نَفْسِي مِنْكُمْ فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ. وَآمُرُكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَثِيراً فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ العَدُوُّ سِرَاعاً فِي أَثَرِهِ فَأَتَى حِصْناً حَصِيناً فَتَحَصَّنَ فِيهِ، وَأَنَّ العَبْدَ أَحْصَنَ مَا

---

(١) الخلوف: تغير رائحة الفم.

يَكُونُ مِنَ الشَّيطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»

قال وقال رسول الله ﷺ: «وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ: اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ بِالجَمَاعَةِ والسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالهِجْرَةِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبَقَ[1] الإِسْلَام مِنْ عُنُقِهِ إِلاَّ أَنْ يَرْجِعَ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ حَثَا جَهَنَّم» قال يا رسول الله وإن صام وصلّى قال: «وإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ ادْعُوا المُسْلِمِينَ بِأَسْمَائِهِم بِمَا سَمَّاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ المُسْلِمِينَ المُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[2].

وهكذا رواه أبو يعلى عن هُدْبَةَ بن خَالِدٍ عن إِبَانَ بن يزيد عن يحيى بن أبي كثير به، وكذلك رواه الترمذيّ من حديث أبي داود الطَيَالِسِي وموسى بن إسماعيل كلاهما عن أَبَانَ بن يَزِيدَ العطّار به. ورواه ابن مَاجَه عن هشام بن عمّار[3] عن محمد بن شُعَيْب بن سَابُورَ، عن مُعَاوِيَة بن سلام عن أخيه زيد بن سلام عن أبي سَلاَّم عن الحارثِ الأَشْعَرِي به. ورواه الحاكم من طريق مروان بن محمد الطَاطِرِي عن معاوية بنَ سلام عن أخيه به. ثم قال تفرّد به مروان الطَاطِرِي عن معاوية بن سلام.

قلت: وليس كما قال، ورواه الطَّبَرَانِي عن محمد بن عَبْدَة عن أبي تَوْبَةَ الرَّبِيعِ بن نَافِعٍ عن معاوية بن سَلاَمَ عن أبي سلاَّم عن الحارث الأَشْعَرِيّ، فذكر نحوه، فسقط ذِكْرُ زيد بنَ سلام عن أبي سَلاَم عن الحارثِ الأَشْعَرِيّ فذكر نحو هذه الرواية.

ثم روى الحافظ ابن عساكر من طريق عبد الله بن أبي جعفر الرازي عن أبيه عن الربيع بن أنس، قال: ذكر لنا عن أصحاب رسول الله ﷺ فيما سمعوا من علماء بني إسرائيل أن يحيى بن زكريا أرسل بخمس كلمات وذكر نحو ما تقدم. وقد ذكروا أنّ يحيى عليه السلام كان كثير الانفراد من الناس، إنّما كان يأنس إلى البراري ويأكل من ورق الأشجار، ويرد ماء الأنهار، ويتغذى بالجراد في بعض الأحيان، ويقول: من أنعم منك يا يحيى. وروى ابن عساكر أن أبويه خرجا في تطلّبه فوجداه عند بحيرة الأردنّ، لما اجتمعا به أبكاهما بكاءً شديداً لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عزّ وجلّ. وقال ابن وهب عن مالك عن حَمِيدِ بن قَيْسٍ عن مجاهد قال: كان طعام يَحْيَى بن زكريا العشب وأنّه كان ليبكي من خشية الله حتى لو كان القار[4] على عينيه لخرقة.

وقال محمد بن يحيى الذُهْلِيُّ: حدّثنا أبو صالح، حدثنا اللَّيْثُ حدثني عَقِيلٌ عن ابن شهَابٍ قال: جلست يوماً إلى أبي إدريس الخَوْلاَنِيّ وهو يقصّ فقال: ألا أخبركم بمن كان أطيب الناس طعاماً؟ فلما رأى الناس قد نظروا إليه قال: إن يحيى بن زكريا كان أطيب الناس

(١) الربق: حبل فيه عدة عرى.

(٢) أخرجه الترمذي في الأمثال باب ٣، وأحمد في المسند ٤/ ١٣٠.

(٣) في ط: عماد.

(٤) القار: القطران.

طعاماً، إنما كان يأكل مع الوحش كراهة أن يخالط الناس في معايشهم. وقال ابن المبارك عن وُهَيْبِ بن الوَرْد قال: فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام، فخرج يلتمسه في البرّيّة فإذا هو قد احتفر قبراً وأقام فيه يبكي على نفسه، فقال: يا بني أنا أطلبك من ثلاثة أيام وأنت في قبر قد احتفرته قائم تبكي فيه؟ فقال: يا أبت ألست أنت أخبرتني أن بين الجنة والنار مفازة (١)لا يقطع إلاّ بدموع البكّائين؟ فقال له: ابكِ يا بني فبكيا جميعاً. وهكذا حكاه وَهْبُ بن مُنَبِّهٍ ومجاهد بنحوه، وروى ابن عساكر عنه أنه قال إن أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه من النعيم، فكذا ينبغي للصدّيقين أن لا يناموا لما في قلوبهم من نعيم المحبّة لله عزّ وجلّ. ثم قال كم بين النعيمين وكم بينهما، وذكروا أنه كان كثير البكاء حتى أثر البكاء في خديه من كثرة دموعه.

بيان سبب قتل يحيى عليه السلام

وذكروا في قتله أسباباً من أشهرها أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحلّ له تزويجها، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك فبقي في نفسها منه. فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى، فوهبه لها، فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه في طشت إلى عندها، فيقال إنّها هلكت من فورها وساعتها؛ وقيل: بل أحبّته امرأة ذلك الملك. وراسلته فأبى عليها، فلما يئست منه تحيّلت في أن استوهبته من الملك فتمنّع عليها الملك، ثم أجابها إلى ذلك، فبعث من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه في طشت. وقد ورد معناه في حديث رواه إسحاق بن بشر في كتابه المبتدأ حيث قال: أنبأنا يعقوب الكوفي عن عمرو بن مَيْمُونٍ عن أبيه عن ابن عبّاس أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به رأى زكريا في السماء فسلّم عليه، وقال له: «يَا أَبَا يَحْيَى خَبِّرْنِي عَنْ قَتْلِكَ كَيفَ كَانَ وَلِمَ قَتَلَكَ بَنُو إِسْرَائِيلَ؟» قَالَ: يا مُحَمَّدُ أُخْبِرُكَ أَنَّ يَحْيَى كَانَ خَيْرَ أَهْلِ زَمَانِهِ وَكَانَ أَجْمَلَهُمْ، وَأَصْبَحَهُمْ وَجْهاً، وَكَانَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ وَكَان لاَ يَحْتَاجُ إِلَى النِّسَاءِ، فَهَوَتْهُ امرأة مَلِكِ بني إسرائيلَ، وكانت بَغِيَّةً، فأرسلَت إليهِ وعصمَه اللّهُ وامتنَعَ يَحيى، وأبى عليها فأجمعَت على قتل يحيَى، ولهم عيدٌ يَجتمعون في كل عام، وكانت سُنَّةُ الملكِ أن يوعِدَ ولا يخلفَ ولا يكذبَ. قال فخرج الملك إلى العيد، فقامت امرأتهُ فشيَّعَتْهُ وكان بها مُعجباً، ولم تكن تفعله فيما مضى، فلما أن شيَّعَتهُ قال الملك: سَليني فما سألتِني شيئاً إلاّ أعطيتُكِ، قالت: أريدُ دَم يَحْيَى بن زَكَرِيّا، قال لها: سَلِيني غَيرَه، قالت: هو ذاكَ، قال: هُوَ لَكِ، قال: فَبَعَثَتْ جَلاَوِزَتَهَا[٢] إِلَى يَحْيَى وهو في محرابِهِ يُصلِّي وأنا إلى جانِبِهِ أُصَلِّي، قال فذُبِحَ في طَسْتٍ، وحُمِلَ رأسُه ودمُه إِلَيْهَا. قال فقال رسولُ اللّهِ ﷺ: «فَمَا بَلَغَ مِن صَبْرِكَ؟» قال: ما انْفَتَلْتُ مِنْ صَلاَتِي، قال: فلمّا حمل رأسَه

---

(١) المفازة: الأرض الصعبة المقفرة.

(٢) الجلاوزة: الجلواز: الشرطي.

إِلَيْها فوُضِعَ بين يَدَيْها، فلمّا أمسوا خَسَفَ الله بِالْمِلِكِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَحَشَمِهِ فَلَمَّا أَصْبَحُوا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيل قَدْ غَضِبَ إِلَهُ زكريا لِزَكَرِيَّا، فتعالُوا حَتَّى نَغْضَبَ لِمَلِكِنَا فَنَقْتُلَ زَكَرِيَّا، قال فخرجوا في طلبي لِيَقْتُلُونِي، وجاءني النَّذِيرُ فهربْتُ مِنْهُمْ وإبليسُ أَمَامَهُمْ يَدُلُّهم علي، فلما تخوّفت أن لا أُعْجِزَهُمْ عَرَضَتْ لي شَجَرَةٌ، فنادَتْنِي وقالتْ: إِلَيَّ إِلَيَّ وانْصَدَعَتْ لِي ودخلتُ فيها. قال وجاء إبليسُ حتى أَخَذ بِطَرَفِ ردائي والْتَأَمَتِ الشَّجَرَةُ، وبقَي طرف ردائي خارجاً من الشجرة وجاءت بنو إسرائيل فقال إبليس أما رأيتموه دخل هذه الشجرة هذا طَرَفُ رِدَائِهِ دخلها بِسِحْرِهِ، فقالوا نُحرقُ هذه الشَّجَرَةَ، فقال إبليسُ شُقُّوهُ بِالْمِنشَارِ شَقاً. قال فَشُقِقْتُ مَعَ الشَّجَرَةِ بِالْمِنْشَارِ، قال له النبي ﷺ: «هَلْ وَجَدْتَ لَهُ مَسًّا أَوْ وَجَعاً» قال: «لاَ إِنَّمَا وَجَدَتْ ذلكَ الشَّجَرَةُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ رُوحِي فِيهَا» هذا سياق غريب جداً وحديث عجيب ورفعه منكر، وفيه ما ينكر على كل حال، ولم ير في شيء من أحاديث الإسراء ذكر زكريا عليه السلام إلاّ في هذا الحديث، وإنما المحفوظ في بعض ألفاظ الصحيح في حديث الإسراء فمررت بابني الخالة يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة على قول الجمهور، كما هو ظاهر الحديث، فإن أم يحيى أشياع بنت عمران أخت مريم بنت عمران. وقيل بل أشياع وهي امرأة زكريا أم يحيى هي أخت حنّة امرأة عمران أم مريم فيكون يحيى ابن خالة مريم فالله أعلم.

ثم اختلف في مقتل يحيى بن زكريا هل كان في المسجد الأقصى، أم بغيره على قولين: فقال الثوري عن الأَعْمَشِ عن شَمْرِ بن عَطِيَّةَ قال: قتل على الصخرة التي ببيت المقدس سبعون نبياً منهم يحيى بن زكريا عليه السلام، وقال أبو عبيدة القاسم بن سَلاّم: حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المُسَيِّبِ، قال قَدِم بخت نصر دمشق فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلي، فسأل عنه فأخبروه، فقتل على دمه سبعين ألفاً فسكن. وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب وهو يقتضي أنه قتل بدمشق وأن قصّة بخت نصر كانت بعد المسيح، كما قاله عطاء والحسن البصري فالله أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد قال: رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق أخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذي يلي المحراب، مما يلي الشرق، فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير، وفي رواية كأنما قتل الساعة.

وذكر في بناء مسجد دمشق أنه جعل تحت العمود المعروف بعمود السكاسكه فالله أعلم.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في «المستقصى في فضائل الأقصى» من طريق العبّاس بن صُبَيحٍ عن مروان عن سعيد بن عبد العزيز عن قاسم مَوْلَى مُعَاوية قال: كان ملك هذه المدينة يعني دمشق هداد بن هدار، وكان قد زوجه ابنه بابنة أخيه أريل ملكة صيدا، وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة، قال: وكان قد حلف بطلاقها ثلاثاً. ثم إنّه أراد مراجعتها، فاستفتى يحيى بن زكريا، فقال لا تحل لك حتى تنكح

زوجاً غيرك، فحقدت عليه، وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا، وذلك بإشارة أمّها فأبى عليها، ثم أجابها إلى ذلك وبعث إليه ـ وهو قائم يصلي بمسجد حيرون ـ مَنْ أتاه برأسه في صينية، فجعل الرأس يقول له: لا تحل له لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره، فأخذت المرأة الطبق فحملته على رأسها وأتت به أمّها، وهو يقول كذلك، فلما تمثلت بين يدي أمّها خسف بها إلى قدميها ثم إلى حقويها[1]، وجعلت أمّها تولول والجواري يصرخن ويلطمن وجوههن، ثم خسف بها إلى منكبيها فأمرت أمّها السياف أن يضرب عنقها لتتسلى برأسها، ففعل، فلفظت الأرض جثتها عند ذلك، ووقعوا في الذلّ والفناء، ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بختنصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفاً. قال سعيد بن عبد العزيز وهي دمّ كل نبيّ، ولم يزل يفور حتى وقف عنده أرميا عليه السلام فقال: أيها الدم أفنيت بني إسرائيل، فاسكن بإذن الله فسكن، فرفع السيف، وهرب من هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس فتبعهم إليها، فقتل خلقاً كثيراً لا يحصون كثرة وسبا منهم ثم رجع عنهم.

قصة عيسى ابن مريم
عليه من الله أفضل الصلاة والسلام

قال الله تعالى في سورة آل عمران التي أنزل صدرها وهو ثلاث وثمانون آية منها في الردّ على النصارى عليهم لعائن الله الذين زعموا أنّ لله ولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وكان قد قَدِمَ وفد نجران منهم على رسول الله ﷺ، فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطل من التثليث في الأقانيم، ويدّعون بزعمهم أن الله ثالث ثلاثة، وهم الذات المقدّسة وعيسى ومريم على اختلاف فرقهم، فأنزل الله عزّ وجلّ صدر هذه السورة بيّن فيها أنّ عيسى عَبْدٌ من عباد الله، خلقه وصوّره في الرحم كما صوّر غيره من المخلوقات، وأنه خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب، ولا أم، وقال له كن فيكون[2] سبحانه وتعالى. وبين أصل ميلاد أمّه مريم وكيف كان من أمرها، وكيف حملت بولدها عيسى، وكذلك بسط ذلك في سورة مريم كما سنتكلم على ذلك كلّه بعون الله وحسن توفيقه وهدايته، فقال تعالى وهو أصدق القائلين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٣ـ ٣٧].

يذكر تعالى أنه اصطفى آدم عليه السلام والخلص من ذريته، المتّبعين شرعه،

---

(١) الحقو: الكشح.

(٢) في ط: فكان.

الملازمين طاعته، ثم خصّص فقال: وآل إبراهيم فدخل فيهم بنو إسماعيل وبنو إسحاق. ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب، وهم آل عمران، والمراد بعمران هذا والد مريم عليها السلام، وقال محمد بن إسحاق: وهو عمران بن باشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحريق بن موثم بن عزازيا بن أمصيا بن ياوش بن أحريهو بن يازم بن يهفاشاط بن ايشا بن أيان بن رحبعام بن سليمان بن داود. وقال أبو القاسم ابن عساكر مريم بنت عمران بن ماثان بن ألعازر بن اليود بن اخنر بن صادوق بن عيازوز بن الياقيم بن أبيود بن زريابيل بن شالتال بن يوحينا بن برشا بن أمون بن ميشا بن حزقا بن أحاز بن موثام بن عزريا بن يورام بن بوشافاط بن ايشا بن ايبا بن رحبعام بن سليمان بن داود عليه السلام وفيه مخالفة كما ذكره محمد بن إسحاق ولا خلاف أنّها من سلالة داود عليه السلام، وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه، وكانت أمّها وهي حنة بنت فاقود بن قبيل من العابدات، وكان زكريا نبي ذلك الزمان زوج أخت مريم أشياع في قول الجمهور، وقيل زوج خالتها أشياع فالله أعلم.

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره أنّ أمّ مريم كانت لا تحبل، فرأت يوماً طائراً يزق فرخاً له، فاشتهت الولد، فنذرت لله إنْ حَمَلَت لتجعلنّ ولدها محرّراً أي حبيساً في خدمة بيت المقدس، قالوا فحاضت من فورها، فلمّا طَهُرَت واقعها بَعْلُها فحملت بمريم عليها السلام. ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ وقرىء بضم التاء ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ أي في خدمة بيت المقدس، وكانوا في ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خدّاماً من أولادهم. وقولها ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ استدلّ به على تسمية المولود يوم يولد، وكما ثبت في الصحيحين عن أنس في ذهابه بأخيه إلى رسول الله ﷺ فحنّك أخاه وسمّاه عبد الله[1]. وجاء في حديث الحسن عن سَمُرَةَ مرفوعاً «كُلُّ غُلَامٍ رَهِينَةٌ بِعَقِيقَتِهِ[2] تُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ سَابِعِهِ وَيُسَمَّى وَيُحلَقُ رَأسُهُ»[3] رواه أحمد وأهل السنن وصحّحه الترمذي وجاء في بعض ألفاظه ويدمّى بدل ويسمّى، وصحّحه بعضهم والله أعلم. وقولها ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾ قد استجيب لها في هذا كما تقبّل منها نذرها، فقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا مَعْمَر عن الزُهْري عن ابن المُسَيَّبِ عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «مَا مِن مَوْلُودٍ إلاَّ وَالشَّيطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ فَيَستَهِلُّ صَارِخاً مِنْ مَسِّ الشَّيطَانِ إِيَّاهُ إِلاَّ مَرْيَمَ وَابْنَهَا»[4] ثم يقول أبو هريرة واقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾ أخرجاه

(١) أخرجه البخاري في: العقيقة، باب: (١)، واللباس، باب: (٢٢)، ومسلم في: اللباس والزينة، (الحديث ١٠٩)، وأحمد في المسند ٣/ ١٠٥.
(٢) العقيقة: الشاة التي تذبح عند حلق شعر المولود.
(٣) أخرجه أبو داود في: الضحايا، باب: (٢١)، والترمذي في: الأضاحي، باب: (٢٣)، والنسائي في: العقيقة، باب: (٥)، وابن ماجة في: الذبائح، باب: (١)، وأحمد في المسند ٥/ ٧، ٨.
أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٢٧٤، ٢٧٥.

من حديث عبد الرَّزَّاقِ ورواه ابن جرير عن أحمد بن الفَرَجِ عن بَقِيَّةَ عن عبد الله بن الزُّبِيدِي عن الزُّهْرِي عن أبي سَلَمَة عن أبي هريرة عن النَّبِيِّ ﷺ بنحوه.

وقال أحمد أيضاً: حدّثنا إسماعيل بن عمر حدثنا ابن أبي ذُؤَيْبٍ عن عَجْلاَنَ مولى المُشْمَعِلِ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كُلُّ مَوْلُودٍ مِنْ بَنِي آدَمَ يَمَسُّهُ الشَّيطَانُ بِإِصْبَعِهِ إِلاَّ مَرْيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ وَابْنَهَا عِيسَى»[1]. تفرّد به من هذا الوجه. ورواه مسلم عن أبي الطاهر عن ابن وَهْبٍ عن عمر بن الحارث عن أبي يونس عن أبي هُرَيْرَة عن النبيّ ﷺ بنحوه. وقال أحمد: حدثنا هُشَيْمٌ حدثنا حَفْصُ بن مَيْسَرَةَ عن العَلاَءِ عن أبيه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «كُلُّ إِنْسَانٍ تَلِدُهُ أُمُّهُ يَلكُزُهُ الشَّيطَانُ فِي حضنيه إِلاَّ مَا كَانَ مِنْ مَرْيَمَ وَابْنِهَا أَلَم تَرَ إِلَى الصَّبِيِّ حِينَ يَسْقُطُ كَيفَ يَصْرُخُ، قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: ذَلِكَ حِينَ يَلْكُزُهُ الشَّيطَانُ بِحُضْنيهِ»[2]، وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه من هذا الوجه ورواه قَيْسٌ عن الأَعْمَشِ عن أبي صالح عن أبي هريرة، قال قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ وَقَدْ عَصَرَهُ الشَّيطَانُ عَصْرَةً أَوْ عَصْرَتَيْنِ إِلاَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَمَرْيَم» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾.

وكذا رواه محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيْطٍ عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ بأصل الحديث. وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الملك حدثنا المُغِيرَةُ هو ابن عبد الله الحَزَامِي عن أبي الزِّنادِ عن الأَعْرَجِ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كُلُّ بَنِي آدَمَ يَطْعَنُ الشَّيطَانُ فِي جَنْبِهِ حِينَ يُولَدُ إِلاَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيم ذَهَبَ يَطْعَنُ فَطَعَنَ فِي الحِجَابِ»[3] وهذا على شرط الصحيحين ولم يخرجوه من هذا الوجه. وقوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ ذكر كثير من المفسرين أن أمها حين وضعتها لفّتها في خروقها، ثم خرجت بها إلى المسجد، فسلّمتها إلى العبّاد الذين هم مقيمون به، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيها. والظاهر أنها إنّما سلّمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها في صغرها. ثم لما دفعتها إليهم تنازعوا في أيّهم يكفلها، وكان زكريا نبيّهم في ذلك الزمان، وقد أراد أن يستبدّ بها دونهم، من أجل أن زوجته أختها أو خالتها على القولين فشاحوه في ذلك وطلبوا أن يقترع معهم، فساعدته المقادير فخرجت قرعتها غالبة لهم، وذلك أن الخالة بمنزلة الأم.

قال الله تعالى ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي بسبب غلبه لهم في القرعة كما قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤]. قالوا: وذلك أن كلاً منهم ألقى قلمه معروفاً به، ثم حملوها ووضعوها في موضع، وأمروا غلاماً لم يبلغ الحنث، فأخرج واحداً منها وظهر قلم زكريا

(١) أخرجه مسلم في الفضائل حديث ١٤٧، وأحمد في المسند ٢/٢٨٨.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/٣٦٨.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/٥٢٣.

عليه السلام، فطلبوا أن يقترعوا مَرّة ثانية، وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم في النهر فأيهم جرى قلمه على خلاف جريه في الماء فهو الغالب، ففعلوا فكان قلم زكريا هو الذي جرى على خلاف جرية الماء، وسارت أقلامهم مع الماء. ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة فأيّهم جرى قلمه مع الماء ويكون بقية الأقلام قد انعكس سيرها صعداً فهو الغالب، ففعلوا فكان زكريا هو الغالب لهم، فكفلها إذا كان أحق بها شرعاً وقدراً لوجوه عديدة. قال الله تعالى ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ قال المفسّرون: اتخذ لها زكريا مكاناً شريفاً من المسجد لا يدخله سواها، فكانت تعبد الله فيه، وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتها، وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها حتى صارت يُضرَبُ بها المثلُ بعبادتها في بني إسرائيل، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة، حتى أنّه كان نبي الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها، يجد عندها رِزقاً غريباً في غير أوانه، فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف فيسألها ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ فَتَقُولُ ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي رزقٌ رزقنيه الله إن الله يرزق من شاء بغير حساب فعند ذلك وهنالك طمع زكريا في وجود ولد من صلبه، وإن كان قد أسنّ وكَبُرَ ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾. قال بعضهم قال يا من يرزق مريم الثمر في غير أوانه هَبْ لي ولداً وإن كان في غير أوانه، فكان من خبره وقضيته ما قدّمنا ذكره في قصّته. ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: ٤٢ـ ٥١].

يذكر تعالى أن الملائكة بشّرت مريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالمي زمانها، بأنِ اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب، وبشّرت بأن يكون نبياً شريفاً ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ أي في صغره يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكذلك في حال كهوليته، فدلّ على أنه يبلغ الكهولة، ويدعو إلى الله فيها، وأُمِرَت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع لتكون أهلاً لهذه الكرامة، ولتقوم بشكر هذه النعمة، فيقال إنها كانت تقوم في

الصلاة حتى تفطّرت قدماها رضي الله عنها ورحمها ورحم أمها وأباها، فقول الملائكة ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾ أي اختارك واجتباك ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أي من الأخلاق الرذيلة وأعطاك الصفات الجميلة ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾. يحتمل أن يكون المراد عالمي زمانها، كقوله لموسى إني اصطفيتك على الناس، وكقوله عن بني إسرائيل ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الدخان: ٣٢].

ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى، وأنّ محمداً ﷺ أفضل منهما، وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها، وأكثر عدداً وأفضل علماً، وأزكى عملاً من بني إسرائيل وغيرهم. ويحتمل أن يكون قوله ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ محفوظ العموم، فتكون أفضل نساء الدنيا ممن كان قبلها ووُجِدَ بعدها، لأنها إن كانت نبيّة على قول من يقول بنبّوتها، ونبوّة سارة أم إسحاق، ونبوّة أم موسى محتجاً بكلام الملائكة والوحي إلى أم موسى كما يزعم ذلك ابن حزم وغيره، فلا يمتنع على هذا أن تكون مريم أفضل من سارة، وأم موسى، لعموم قوله ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ إذا لم يعارضه غيره والله أعلم. وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الأشعريّ وغيره عن أهل السنّة والجماعة من أن النبوّة مختصة بالرجال وليس في النساء نبية، فيكون أعلى مقامات مريم كما قال الله تعالى ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ﴾ [المائدة: ٧٥] فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصدّيقات المشهورات ممن كان قبلها، وممن يكون بعدها والله أعلم. وقد جاء ذكرها مقروناً مع آسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد رضي الله عنهن وأرضاهن.

وقد روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عديدة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن جعفر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ»[1].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر عن قتادة عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ العَالَمِينَ بِأَرْبَعِ مَرْيَم بِنْتِ عِمْرَانَ وَآسِيَةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَخَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ وَفَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ»[2] ورواه الترمذي عن أبي بكر بن زَنْجوَيْه عن عبد الرزّاق به وصححه، ورواه ابن مَرْدَوَيْه من طريق عبد الله بن أبي جعفر الرّازي، وابن عساكر من طريق تَمِيم بن زياد كلاهما عن أبي جعفر الرازي عن ثابت عن أنس، قال قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ نِسَاءِ العَالَمِينَ أَرْبَعٌ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرٍ عن الزُهْرِي عن ابن المُسَيِّبِ قال:

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٤٥، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٦٩، والترمذي في المناقب باب ٦٢، والنسائي في عشرة النساء باب ٣، وأحمد في المسند ١/ ٨٤.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب باب ٦٢، وأحمد في المسند ٣/ ١٣٥.

كان أبو هريرة يحدث أن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الإِبِلَ صَالِحُ نِسَاءِ قُرَيْشٍ أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ، وَأَرْعَاهُ لِزَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ»[١] قال أبو هريرة ولم تركب مريم بعيراً قط. وقد رواه مسلم في صحيحه عن محمد بن رافع وعَبْدِ بن حُمَيْدٍ كلاهما عن عبد الرزاق به. وقال أحمد حدثنا زيد بن الحُبَابِ حدثني موسى بن عليّ سمعت أبي يقول سمعت أبا هُرَيْرَة يقول قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الإِبِلَ نِسَاءُ قُرَيْشٍ أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ، وَأَرْأَفُهُ بِزَوْجٍ عَلَى قِلَّةِ ذَاتِ يَدِهِ»[٢]. قال أبو هريرة وقد علم رسول الله ﷺ أن ابنةَ عِمران لم تركب الإبل، تفرّد به، وهو على شرط الصحيح. ولهذا الحديث طرق أخر عن أبي هريرة.

وقال أبو يَعْلَى المَوْصِلي: حدّثنا زُهَيْرٌ، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا داود بن أبي الفُرَاتِ عن عَلْبَاءَ بن أَحْمَرِ عن عِكْرِمَةَ عن ابن عباس قال خطّ رسول الله ﷺ في الأرض أربع خطوط فقال: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَا»، قالوا: اللّهُ ورسولُهُ أعلمُ، فقال رسول الله ﷺ: «أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ»[٣] ورواه النسائي من طرق عن داود بن أبي هند.

وقد رواه ابن عساكر من طريق أبي بكر عبد الله بن أبي داود سُلَيْمَانَ بن الأَشْعَثِ حدثنا يَحْيَى بن حَاتِمِ العَسْكَرِي نبأنا بِشْرُ بنُ مِهْرَانَ بن حَمْدَانَ حدثنا محمد بن دينار عن داود بن أبي هند عن الشَّعْبِي عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «حَسْبُكَ مِنْهُنَّ أَرْبَعُ سَيِّدَاتِ نِسَاءِ العَالَمِينَ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ».

وقال أبو القاسم البَغَوِي: حدثنا وَهْبُ بن مُنَبِّهٍ حدثنا خالد بن عبد الله الواسطي عن محمد بن عَمْرٍو عن أبي سلمة عن عائشة أنها قالت لفاطمة: أرأيت حين أكببت على رسولِ الله ﷺ فبكيتِ ثم ضحكتِ؟ قالت: أخبرني أنه مَيّتٌ من وَجَعِهِ هٰذا فبكيت، ثم أكببتُ عليهِ فأخبرني أنّي أسرعُ أهله لُحُوقاً به، وأنّي سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ إلاّ مريمَ بنتِ عمرانَ، فضحكتُ[٤] وأصل هذا الحديث في الصحيح. وهذا إسناد على شرط مسلم، وفيه أنهما أفضل الأربع المذكورات. وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن محمد حدثنا جرير عن يزيد هو ابن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي نُعِيم عن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ: «فَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ إلاَّ مَا كَانَ مِنْ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرانَ»[٥] إسناد حسن وصحّحه الترمذي ولم يخرجوه، وقد روى نحوه من حديث علي بن أبي طالب ولكن في إسناده ضعف. والمقصود أن هذا يدل على أنّ مريم وفاطمة أفضل هذه الأربع.

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث ٢٠١، وأحمد في المسند ٢/ ٢٦٩.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣١٩.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢٩٣.

(٤) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث ٩٧، وأحمد في المسند ٦/ ٧٧.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٨٠.

ثم يحتمل الاستثناء أن تكون مريم أفضل من فاطمة ويحتمل أن يكونا على السواء في الفضيلة. لكن ورد حديث إن صحّ عين الاحتمال الأوّل، فقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر: أنبأنا أبو الحسن بن الفرّا وأبو غَالِبٍ وأبو عبد الله ابنا البَنّا قالوا: أنبأنا أبو جعفر بن المَسْلَمَة، أنبأنا أبو طاهر المُخلص، حدثنا أحمد بن سليمان، حدثنا الزُبَيْر هو ابن بَكّارٍ، حدثنا محمد بن الحسن عن عبد العزيز بن محمد عن موسى بن عُقبَةَ عن كَرِيبٍ عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ثُمَّ فَاطِمَةُ ثُمَّ خَدِيجَةُ ثُمَّ آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ». فإن كان هذا اللفظ محفوظاً بـ ثمّ التي للترتيب، فهو مبيّن لأحد الاحتمالين اللذين دلّ عليهما الاستثناء، وتقدّم على ما تقدّم من الألفاظ التي وردت بواو العطف التي لا تقتضي الترتيب ولا تنفيه والله أعلم.

وقد روى هذا الحديث أبو حاتم الرّازي عن داود الجَعْفَري عن عبد العزيز بن محمد وهو الدَرَاوَرْدِي عن إبراهيم بن عُقبَةَ عن كِرَيبٍ عن ابن عبّاس مرفوعاً فذكره بواو العطف لا بثم الترتيبية، فخالفه إسناداً ومتناً فالله أعلم. فأمّا الحديث الذي رواه ابن مَرْدَوَيه من حديث شُعْبَةَ عن مُعَاوِيَةَ بن قُرَّةَ عن أبيه، قال قال رسول الله ﷺ: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ ثَلاثٌ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ». وهكذا الحديث الذي رواه الجماعة إلاّ أبا داود من طرق عن شُعْبَةَ عن عمرو بن مُرَّةَ عن مُرَّةَ الهَمْدَانِي عن أبي موسى الأشْعَرِي، قال قال رسول الله ﷺ: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»(١). فإنه حديث صحيح كما ترى اتفق الشيخان على إخراجه، ولفظه يقتضي حصر الكمال في النساء في مريم وآسية، ولعل المراد بذلك في زمانهما، فإنّ كلاً منهما كفلت نبيّاً في حال صغره، فآسية كفلت موسى الكليم، ومريم كفلت ولدها عبد الله ورسوله، فلا ينفي كمال غيرهما في هذه الأمة كخديجة وفاطمة، فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمسة عشر سنة، وبعدها أزيد من عشر سنين، وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها رضي الله عنها وأرضاها، وأما فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإنّها خُصَّت بمزيد فضيلة على أخواتها لأنها أصيبت برسول الله ﷺ وبقية أخواتها متن في حياة النّبي ﷺ. وأما عائشة فإنّها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه، ولم يتزوج بكراً غيرها، ولا يعرف في سائر النساء في هذه الأمة بل ولا في غيرها أعلم منها ولا أفهم، وقد غار الله لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فأنزل براءتها من فوق سبع سموات، وقد عمرّت بعد رسول الله ﷺ قريباً من خمسين سنة تبلّغ عنه القرآن والسنّة، وتفتي المسلمين وتصلح بين المختلفين، وهي أشرف أمهات المؤمنين

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٣٢، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٧٠، والترمذي في الأطعمة باب ٣١، والنسائي في عشرة النساء باب ٣، وابن ماجة في الأطعمة باب ١٤، وأحمد في المسند ٤٠٩/٤.

حتى خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين في قول طائفة من العلماء السابقين واللاحقين، والأحسن الوقوف فيهما رضي الله عنهما، وما ذاك إلاّ لأن قوله ﷺ: «**وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعامِ**» يحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى المذكورات وغيرهن، ويحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى ما عدى المذكورات والله أعلمْ.

والمقصود ههنا ذكر ما يتعلّق بمريم بنت عمران عليها السلام، فإنّ الله طهّرها واصطفاها على نساء عالمي زمانها، ويجوز أن يكون تفضيلها على النساء مطلقاً كما قدّمنا. وقد ورد في حديث أنّها تكون من أزواج النبي ﷺ في الجنّة هي وآسية بنت مزاحم. وقد ذكرنا في التفسير عن بعض السلف أنه قال ذلك واستأنس بقوله ثيبات وأبكاراً، قال: فالثيب آسية ومن الأبكار مريم بنت عمران. وقد ذكرناه في آخر سورة التحريم فالله أعلم.

قال الطبراني: حدّثنا عبد الله بن ناجية، حدّثنا محمد بن سعد العَوْفِي، حدّثنا أبي أنبأنا عمي الحسين حدّثنا يُونُسُ بن نُفَيْع عن سعد بن جُنَادَة هو العُوْفي قال قال رسول الله ﷺ: «**إنّ اللّهَ زَوَّجَنِي فِي الجَنَّةِ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ وَامْرَأَةَ فِرْعَوْنَ وَأُخْتَ مُوسَى**». وقال الحافظ أبو يعلى حدّثنا إبراهيم بن عَرْعَرَةَ حدّثنا عبد النور بن عبد الله حدثنا يونُسُ بن شُعَيْبٍ عن أبي أُمَامَةَ قال قال رسول الله ﷺ: «**أشعِرتُ أَنَّ اللّهَ زَوَّجَنِي مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ وَآسِيَةَ بِنْتِ مُزَاحِمٍ وَكُلْثُمَ أُخْتِ مُوسَى**» رواه ابن جعفر العَقِيلي من حديث عَبْدِ النُّورِ به وزاد فقلتُ: هنيئاً لكَ يا رسول الله. ثم قال العَقِيْلِي وليس بمحفوظ. وقال الزبير بن بَكارٍ حدثني محمد بن الحسن عن يَعْلَى بن المِغَيْرَةِ عن ابن أبي دَاوُدَ قال دخلَ رسولُ اللّهِ ﷺ على خديجةَ وهي في مرضها الذي توفيت فيه فقال لها: «**بِالكُرْهِ مِنّي مَا أَرَى مِنْكِ يَا خَدِيجَةُ. وَقَدْ يَجْعَلِ اللّهُ فِي الكُرْهِ خيراً كَثِيراً؟ أَمَا عَلِمْتِ أَنَّ اللّهَ قَدْ زَوَّجَنِي مَعَكِ فِي الجَنَّةِ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ وَكُلْثُمَ أُخْتِ مُوسَى وَآسِيَةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ؟ قالت: وقد فعلَ اللّهُ بكَ ذلكَ يا رسولَ اللّهِ؟ قال: نَعَمْ، قالت: بالرِّفَاءِ وَالبَنِينِ**». وروى ابن عساكر من حديث محمد بن زَكَرِيَّا الغِلاَبِي، حدثنا العَبَّاسُ بن بَكَّارٍ حدثنا أبو بَكْرٍ الهزلي عن عِكْرِمَةَ عن ابن عَبَّاسٍ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ دخلَ على خديجةَ وهي في مرضِ الموت فقال: «**يَا خَدِيجَةُ إِذَا لَقِيت ضَرَائِرَكِ فَاقْرِئِيهِنَّ مِنِّي السَّلاَمَ، قالتْ: يا رسولَ اللّهِ وهل تزوّجتَ قَبْلِي؟ قال: لاَ وَلَكِنَّ اللّهَ زَوَّجَنِي مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ وَآسِيَةَ بِنْتِ مُزَاحِمٍ وَكُلْثُمَ أُخْتِ مُوسى**». وروى ابن عساكر من طريق سُوَيْدِ بن سعيد: حدثنا محمد بن صَالِحْ بن عمر عن الضَحَّاكِ ومجاهدٌ عن ابن عمرَ قال نزل جبريل إلى رسول الله ﷺ بما أرسلَ به وجلس يحدّث رسول الله ﷺ إذ مرّتْ خديجةُ فقال جبريلُ: مَنْ هِذِهِ يَا مُحَمَّد؟ قال: «**هَذِهِ صِدِّيقَةُ أُمَّتِي**» قَالَ جِبْرِيلُ: مَعِي إِلَيْهَا رِسَالَةٌ مِنَ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ يُقْرِئُهَا السَّلاَمَ وَيُبَشِّرُهَا بَبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ بَعِيدٍ مِنَ اللَّهَبِ لاَ نَصَبَ[1] فِيهِ وَلاَ صَخَبَ[2]، قَالَتْ: اللّهُ السَّلاَمَ وَمِنْهُ السَّلاَمُ وَالسَّلاَمُ عَلَيْكُمَا وَرَحْمَةُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَى رَسُولِ

(١) نصب: تعب.

(٢) الصخب: شدة الصوت والضجيج.

اللَّهِ، مَا ذَلِكَ الْبَيْتُ الَّذِي مِنْ قَصَبٍ؟ قَالَ: «**لُؤْلُؤَةٌ جَوْفَاءُ بَيْنَ بَيْتِ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ وَبَيْتِ آسِيَةَ بِنْتِ مُزَاحِمٍ وَهُمَا مِنْ أَزْوَاجِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[١]. وأصل السلام على خديجة من الله وبشارتها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا وصب في الصحيح ولكن هذا السياق بهذه الزيادات غريب جداً. وكل من هذه الأحاديث في أسانيدها نظر. وروى ابن عساكر من حديث أبي زُرْعَةَ الدِّمَشْقي: حدّثنا عبد الله بن صالح حدثني معاويةُ عن صَفْوَانُ بن عمرو عن خالد بن مِعْدَانَ عن كَعْبِ الأحبار أن معاوية سأله عن الصخرة، يعني صخرة بيت المقدس، فقال الصخرة على نخلة، والنخلة على نهر من أنهار الجنّة، وتحت النخلة مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم ينظمان سموط[٢] أهل الجنّة حتى تقوم الساعة. ثم رواه من طريق إسماعيل عن عَيَّاشٍ عن ثَعْلَبَةَ بن مسلم عن مسعود عن عبد الرحمن عن خالد بن مِعدان عن عُبادة بن الصَّامِتِ عن النبي ﷺ بمثله، وهذا منكر من هذا الوجه، بل هو موضوع قد رواه أبو زُرْعَةُ عن عبد الله بن صالح عن معاوية عن مسعود بن عبد الرحمن عن ابن عَابِدٍ، أنَّ معاوية سأل كعباً عن صخرة بيت المقدس فذكره، قال الحافظ ابن عساكر وكونه من كلام كعب الأحبار أشبه.

قلت وكلام كعب الأحبار هذا إنّما تلقّاه من الإسرائيليات التي منها ما هو مكذوب مفتعل، وضعه بعض زنادقتهم أو جهّالهم وهذا منه والله أعلم.

[ذكر][٣] ميلاد العبد الرسول عيسى ابن مريم البتول

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ٢٠، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٧١، وأحمد في المسند ١/ ٢٣٠، ٢٣١.

(٢) السمط: العقد.

(٣) سقط في ط.

بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [مريم: ١٦ ـ ٣٧].

ذكر تعالى هذه القصّة بعد قصة زكريا التي هي كالمقدمة لها والتوطئة قبلها، كما ذكر في سورة آل عمران قَرَن بينهما في سياق واحد، وكما قال في سورة الأنبياء ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩ ـ ٩١].

وقد تقدم أن مريم لما جعلتها أمها محرّرة تخدم بيت المقدس، وأنه كفلها زوج أختها أو خالتها نبي ذلك الزمان زكريا عليه السلام، وأنّه اتخذ لها محراباً وهو المكان الشريف من المسجد لا يدخله أحد عليها سواه، وأنّها لما بلغت اجتهدت في العبادة، فلم يكن في ذلك الزمان نظيرها في فنون العبادات، وظهر عليها من الأحوال ما غبطها به زكريا عليه السلام، وأنها خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله لها، وبأنه سيهب لها ولداً زكيًا يكون نبياً كريماً طاهراً مكرّماً مؤيّداً بالمعجزات، فتعجّبت من وجود ولد من غير والد لأنها لا زوج لها، ولا هي ممن تتزوج، فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، فاستكانت لذلك وأنابت وسلّمت لأمر الله، وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها، فإن الناس يتكلّمون فيها بسببه لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر، وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبّر ولا تعقّل، وكانت إنّما تخرج من المسجد في زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لا بدّ منها من استقاء ماء أو تحصيل غذاء، فبينما هي يوماً قد خرجت لبعض شؤونها ﴿ٱنتَبَذَتْ﴾ أي انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصى، إذ بعث الله إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ فلما رأته ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾.

قال أبو العَالِيَةِ: علمت أن التقي ذو نهية، وهذا يردّ قول من زعم أنه كان في بني إسرائيل رجل فاسق مشهور بالفسق اسمه تقي، فإن هذا قول باطل بلا دليل، وهو من أسخف الأقوال، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أي خاطبها الملك قائلاً إنّما أنا رسول ربك، لست ببشر، ولكني ملك بعثني الله إليك ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ أي ولداً زكيا ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ أي كيف يكون لي غلام أو يوجد لي ولد ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ أي ولست ذات زوج، وما أنا ممن يفعل الفاحشة ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي فأجابها الملك عن تعجبّها من وجود ولد منها والحالة هذه قائلاً ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي وعد أنه سيخلق منك غلاماً، ولست بذات بعل، ولا تكونين ممن تبغين ﴿هُوَ عَلَيَّ

هَيِّنٌ﴾ أي وهذا سهل عليه ويسير لديه، فإنه على ما يشاء قدير. وقوله ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلاً على كمال قدرتنا على أنواع الخلق، فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أُنثى، وخلق حوّاء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقيّة الخلق من ذكر وأنثى. وقوله ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّآ﴾ أي نرحم به العباد بأن يدعوهم إلى الله في صغره وكبره، في طفوليته وكهوليته، بأن يفردوا الله بالعبادة وحده لا شريك له وينزّهوه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد والشركاء والنظراء والأضداد والأنداد. وقوله ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾. يحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل معها، يعني أنّ هذا أمر قد قضاه الله وحتّمه وقدّره وقرّره، وهذا معنى قول محمد بن إسحاق واختاره ابن جرير ولم يُحك سواه والله أعلم.

ويحتمل أن يكون قوله ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ كناية عن نفخ جبريل فيها كما قال تعالى ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]. فذكر غير واحد من السلف أنّ جبريل نَفَخ في جيب درعها فنزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها، كما تحمل المرأة عند جماع بعلها. ومن قال أنه نفخ في فمها أو أنّ الذي كان يخاطبها هو الروح الذي ولج فيها من فمها، فقوله خلاف ما يفهم من سياقات هذه القصّة في محالها من القرآن، فإن هذا السياق يدل على أن الذي أرسل إليها ملك من الملائكة، وهو جبريل عليه السلام، وأنّه إنما نفخ فيها، ولم يواجه الملك الفرج بل نفخ في جيبها، فنزلت النفخة إلى فرجها، فانسلكت فيه كما قال تعالى ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ يدل على أن النفخة ولجت فيه لا في فمها، كما روى عن أُبي بن كعب ولا في صدرها كما رواه السّدّي بإسناده عن بعض الصحابة، ولهذا قال تعالى ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ أي حملت ولدها ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ وذلك لأن مريم عليها السلام لما حملت ضاقت به ذرعاً، وعلمت أن كثيراً من الناس سيكون منهم كلام في حقّها، فذكر غير واحد من السلف منهم وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ أنّها لما ظهرت عليها مخايل الحمل، كان أول من فطن لذلك رجل من عباد بني إسرائيل يقال له يوسف بن يعقوب النجّار، وكان ابن خالها فجعل يتعجّب من ذلك عجباً شديداً، وذلك لِمَا يعلمُ من ديانتها ونزاهتها وعبادتها، وهو مع ذلك يراها حبلى وليس لها زوج، فعرض لها ذات يوم في الكلام، فقال: يا مريم هل يكون زرع من غير بذر؟ قالت: نعم، فمن خلق الزرع الأول. ثم قال: فهل يكون شجر من غير ماء ولا مطر؟ قالت: نعم فمن خلق الشجر الأول. ثم قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم إنّ الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى. قال لها: فأخبريني خبرك فقالت: إن الله بشّرني ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥] ويروى مثل هذا عن زكريا عليه السلام أنه سألها فأجابته بمثل هذا والله أعلم.

وذكر السّدّي بإسناده عن الصحابة، أن مريم دخلت يوماً على أختها، فقالت لها

أختها: أشعرت أني حبلى. فقالت مريم: وشعرتُ أيضاً أني حبلى، فاعتنقتها وقالت لها أم يحيى إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك، وذلك قوله ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ومعنى السجود ههنا الخضوع والتعظيم كالسجود عند المواجهة للسلام، كما كان في شرع من قبلنا، وكما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم.

وقال أبو القاسم قال مالك: بلغني أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة، وكان حملهما جميعاً معاً فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم: إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك. قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام لأن الله تعالى جعله يُحْيي الموتى ويبرىء الأكْمَه والأبرص. رواه ابن أبي حاتم ورُوِيَ عن مجاهد قال: قالت مريم: «كنت إذا خلوتُ حدّثني وكلّمني وإذا كنت بين الناس سبّح في بطني».

ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء، ويضعن لميقات حملهن ووضعهن، إذ لو كان خلاف ذلك لذكر. وعن ابن عبّاس وعِكْرِمَة أنها حملت به ثمانية أشهر وعن ابن عباس ما هو إلاّ أن حملت به فوضعته، قال بعضهم حملت به تسع ساعات واستأنسوا لذلك بقوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ والصحيح أن تعقيب كل شيء بحسبه لقوله: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣] وكقوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٤] ومعلوم أن بين كل حالين أربعين يوماً كما ثبت في الحديث المتفق عليه.

قال محمد بن إسحاق: شاع واشتهر في بني إسرائيل أنها حامل، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل بيت زكريا. قال: واتّهمها بعض الزنادقة بيوسف الذي كان يتعبّد معها في المسجد، وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ وقوله: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ أي فألجأها واضطرها الطلق إلى جذع النخلة وهو بنصّ الحديث الذي رواه النسائي بإسناد لا بأس به، عن أَنَسٍ مرفوعاً والبَيْهَقِي بإسناد، وصحّحه عن شَدَّادِ بن أَوْسٍ مرفوعاً أيضاً ببيت لحم الذي بنى عليه بعض ملوك الروم فيما بعد على ما سنذكره، هذا البناء المشاهد الهائل ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتن، وذلك أنها علمت أن الناس يتّهمونها ولا يصدقونها بل يكذّبونها حين تأتيهم بغلام على يدها، مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات في المسجد، المنقطعات إليه المعتكفات فيه، ومن بيت النبوّة والديانة، فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنّت أنْ لو كانت ماتت قبل هذا الحال، أو كانت ﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ أي لم تخلق بالكلية. وقوله ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ وقرىء من تحتها على الخفض وفي المضمر قولان أحدهما أنه جبريل، قاله العَوْفِي عن ابن عبّاس قال: ولم يتكلّم عيسى إلاّ بحضرة القوم، وهكذا قال سعيد بن جُبَيْر وعَمْرو بن مَيْمُونِ والضحّاكُ والسدّي وَقَتَادَةُ. وقال مجاهد والحسن وابن زيد وسَعِيد بن جُبَيْرٍ في رواية هو ابنها عيسى، واختاره ابن جرير. وقوله ﴿أَلَّا

تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ قيل النهر وإليه ذهب الجمهور.

وجاء فيه حديث رواه الطبراني لكنه ضعيف، واختاره ابن جرير وهو الصحيح، وعن الحسن والربيع بن أنس وابن أسلم وغيرهم أنها ابنها والصحيح الأول لقوله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ فذكر الطعام والشراب ولهذا قال ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنًاۖ﴾. ثم قيل كان جذع النخلة يابساً، وقيل كانت نخلة مثمرة فالله أعلم. ويحتمل أنها كانت نخلة، لكنها لم تكن مثمرة إذْ ذاك لأن ميلاده كان في زمن الشتاء، وليس ذاك وقت ثمر، وقد يفهم ذلك من قوله تعالى على سبيل الامتنان ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾. قال عَمْرُو بن مَيْمُونٍ ليس شيء أجود للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية.

وقال ابن أبي حاتم: حدّثنا علي بن الحسين، حدثنا شَيْبان، حدثنا مَسْرُور بن سعيد التَمِيمي، حدّثنا عبد الرحمن بن عمرو الأنصاري عن عروة بن رُوَيْم عن عليّ بن أبي طالب، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَكْرِمُوا عَمَّتَكُمُ النَّخْلَةَ فَإِنَّهَا خُلِقَتْ مِنَ الطِّينِ الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ آدَمُ وَلَيْسَ مِنَ الشَّجَرِ شَيْءٌ يُلَقَّحُ غَيْرُهَا» وقال رسول الله ﷺ: «أَطْعِمُوا نِسَاءَكُمُ الْوُلَّدَ الرُّطَبَ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رُطَبٌ فَتَمْرٌ وَلَيْسَ مِنَ الشَّجَرِ شجرةٌ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْ شَجَرَةٍ نَزَلَتْ تَحْتَهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ». وكذا رواه أبو يعلى في مسنده عن شَيْبان بن فَرُّوخ عن مَسْرُوقٍ بن سعيد وفي رواية مَسْرُورِ بن سَعْدٍ. والصحيح مَسْرُور بن سعيد التَّميمي أورد له ابن عَدِيّ هذا الحديث عن الأَوْزَاعِي به، ثم قال وهو منكر الحديث ولم أسمع بذكره إلاّ في هذا الحديث.

وقال ابن حبان يروى عن الأوزاعي المناكير الكثيرة التي لا يجوز الاحتجاج بمن يرويها. وقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمًا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾. وهذا من تمام كلام الذي ناداها من تحتها قال ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنًاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي فإن رأيت أحداً من الناس ﴿فَقُولِيٓ﴾ له أي بلسان الحال والإشارة ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمًا﴾ أي صمتاً، وكان من صومهم في شريعتهم ترك الكلام والطعام، قاله قَتَادَةُ والسدّي وابن أَسْلَم ويدلّ على ذلك قوله ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ فأما في شريعتنا فيكره للصائم صمت يوم إلى الليل. وقوله تعالى: ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾﴾ ذكر كثير من السلف ممن ينقل عن أهل الكتاب أنهم لما افتقدوها من بين أظهرهم ذهبوا في طلبها، فمرّوا على محلّتها والأنوار حولها، فلمّا واجهوها وجدوا معها ولدها فقالوا لها ﴿يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾﴾ أي أمراً عظيماً منكراً. وفي هذا الذي قالوه نظر مع أنه كلام ينقض أوّله آخره، وذلك لأن ظاهر سياق القرآن العظيم يدلّ على أنها حملت بنفسها، وأَتَتْ به قومها وهي تحمله. قال ابن عبّاس وذلك بعد ما تعلّت من نفاسها بعد أربعين يوماً.

والمقصود أنهم لما رأوها تحمل معها ولدها ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾﴾ والفرية هي الفعلة المنكرة العظيمة من الفعال والمقال. ثم قالوا لها ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ قيل شبّهوها بعابد من عبّاد زمانهم كانت تساميه في العبادة، وكان اسمه هارون، وقيل شبّهوها

برجل فاجر في زمانهم اسمه هارون. قاله سعيد بن جُبَيْر وقيل أرادوا بهارون أخا موسى شبّهوها به في العبّادة. واخطأ محمد بن كَعْبٍ القُرَظِي في زعمه أنها أخت موسى وهارون نسباً، فإن بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفى على أدنى من عنده من العلم ما يردّه عن هذا القول الفظيع، وكأنه غرّه أن في التوراة أن مريم أخت موسى وهارون ضربت بالدفّ يوم نجّا الله موسى وقومه، وأغرق فرعون وملأه، فاعتقد أن هذه هي هذه، وهذا في غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح مع نصّ القرآن كما قرّرناه في التفسير مطوّلاً ولله الحمد والمنة. وقد ورد الحديث الصحيح الدال على أنه قد كان لها أخ اسمه هارون، وليس في ذكر قصّة ولادتها وتحرير أمها لها، ما يدلّ على أنها ليس لها أخ سواها والله أعلم.

قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن إدريس سمعت أبي يذكره عن سَمَّاكٍ عن عَلْقَمَةَ بن وَائِلٍ عن المُغَيِرَةَ بن شُعْبَةَ قال بعثني رسولُ الله ﷺ إلى نجران، فقالوا: أرأيت ما تقرأون ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، قال فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «أَلاَ أَخْبَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِالأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ»[1] وكذا رواه مسلم والنسائي والترمذي من حديث عبد الله بن إدْرِيسَ، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب لا نعرفه إلاّ من حديثه وفي رواية «أَلاَ أَخْبَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَسَمَّوْنَ بِأَسْمَاءِ صَالِحِيهِمْ وَأَنْبِيَائِهِمْ». وذكر قَتَادَةُ وغيره أنهم كانوا يكثرون من التسمية بهارون حتى قيل إنه حضر بعض جنائزهم بشر كثير منهم ممن يسمّى بهارون أربعون ألفاً فالله أعلم.

والمقصود أنهم قالوا ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ ودلّ الحديث على أنها قد كان لها أخ نَسَبي اسمه هارون وكان مشهوراً بالدين والصلاح والخير، ولهذا قالوا ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ۝٢٨﴾ أي لست من بيت هذا شيمتهم ولا سجيتهم، لا أخوك ولا أمّك ولا أبوك، فاتهموها بالفاحشة العظمى، ورموها بالداهية الدهياء. فذكر ابن جرير في تاريخه أنهم اتهموا بها زكريا وأرادوا قتله، ففرّ منهم فلحقوه وقد انشقت له الشجرة فدخلها وأمسك إبليس بطرف ردائه فنشروه فيها كما قدمنا، ومن المنافقين من اتهمها بابن خالها يوسف بن يعقوب النجار، فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال عظم التوكّل على ذي الجلال، ولم يبق إلاّ الإخلاص والاتكال، ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ﴾ أي خاطبوه وكلّموه، فإن جوابكم عليه وما تبغون من الكلام لديه. فعندها قَالَ[2] من كان منهم جبّاراً شقيًا ﴿كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ۝٢٩﴾ أي كيف تحيلينا في الجواب على صبي صغير لا يعقل الخطاب، وهو مع ذلك رضيع في مهده، ولا يميز بين محض وزبده، وما هذا منك إلاّ على سبيل التهكم بنا، والاستهزاء والتنقّص لنا، والازدراء إذ لا تردّين علينا قولاً نطقياً، بل تحيلين في الجواب على من كان في المهد صبياً، فعندها ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي

---

(١) أخرجه مسلم في الآداب حديث ٩، والترمذي في التفسير باب ٢٠، سورة مريم. وأحمد في المسند ٤/ ٢٥٢.

(٢) في ط: قالوا.

مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٠ـ ٣٣] هذا أول كلام تفوّه به عيسى ابن مريم، فكان أوّل ما تكلّم به أن ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ اعترف لربّه تعالى بالعبودية، وأن الله ربّه فنزّه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله، بل هو عبده ورسوله وابن أمته، ثم برّأ أمّه مما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه، بقوله ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ فإن الله لا يعطي النبوّة من هو كما زعموا لعنهم الله وقبّحهم كما قال تعالى ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: ١٥٦].

وذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان قالوا: إنها حملت به من زنا في زمن الحيض لعنهم الله، فبرّأها الله من ذلك وأخبر عنها أنها صدّيقة، واتّخذ ولدها نبيّاً مرسلاً أحد أوْلي العَزْم الخمسة الكبار، ولهذا قال ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونزّه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة تعالى وتقدّس ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ وهذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد، بالصلاة والإحسان إلى الخليقة بالزكاة، وهي تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة، وتطهير الأموال الجزيلة، بالعطية للمحاويج على اختلاف الأصناف، وقِرَى الأضياف والنفقات على الزوجات والأرقّاء، والقرابات وسائر وجوه الطاعات. وأنواع القربات. ثم قال ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ أي وجعلني برّاً بوالدتي، وذلك أنه تأكّد حقّها عليه لتمحض جهتها، إذ لا والد له سواها، فسبحان من خلق الخليقة وبرّأها وأعطى كل نفس هداها. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ أي لست بفظٍ ولا غليظٍ ولا يصدر مني قول ولا فعل ينافي أمر الله وطاعته. ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾. وهذه الأماكن الثلاثة التي تقدّم الكلام عليها في قصّة يحيى بن زكريا عليهما السلام. ثم لمّا ذكر تعالى قصّته على الجلية، وبيّن أمره ووضحه وشرحه قال ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم: ٣٤ـ ٣٥] كما قال تعالى بعد ذكر قصته، وما كان من أمره في آل عمران ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٨ـ ٦٣].

ولهذا لما قدم وفد نجران وكانوا ستين راكباً يرجع أمرهم إلى أربعة عشر منهم، ويؤول أمر الجميع إلى ثلاثة: هم أشرافهم وساداتهم وهم: العاقب والسيد وأبو حارثة بن علقمة، فجعلوا يناظرون في أمر المسيح، فأنزل الله صدر سورة آل عمران في ذلك، وبيّن أمر المسيح وابتداء خلقه وخلق أمه من قبله، وأمر رسوله بأن يباهلهم إن لم يستجيبوا له

ويتّبعوه، فلمّا رأوا عينيها وأذنيها نكصوا[١] وامتنعوا عن المباهلة[٢] وعدلوا إلى المسالمة والموادعة، وقال قائلهم وهو العاقب عبد المسيح: يا معشر النصارى لقد علمتم أن محمداً لنبيٌ مرسلٌ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعَنَ قومٌ نبياً قط، فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم. وإنها للاستئصال منكم إنْ فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلاّ إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فطلبوا ذلك من رسول الله ﷺ وسألوه أن يضرب عليهم جزية، وأن يبعث معهم رجلاً أميناً، فبعث معهم أبا عُبَيْدة بن الجراح. وقد بيّنا ذلك في تفسير آل عمران. وسيأتي بسط هذه القضية في السيرة النبوية إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

والمقصود أن الله تعالى بيّن أمر المسيح. قال لرسوله ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ يعني من أنه عبدٌ مخلوقٌ من امرأة من عباد الله، ولهذا قال ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ أي لا يعجزه شيء ولا يكترثه، ولا يؤوده بل هو القدير الفعّال لما يشاء. ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢] وقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: ٥١] هو من تمام كلام عيسى لهم في المهد أخبرهم أن الله ربّه وربّهم، وإلهه وإلههم، وأنّ هذا هو الصراط المستقيم. قال الله تعالى ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [مريم: ٣٧]. أي فاختلف أهلُ ذلك الزمان، ومن بعدهم فيه، فمن قائل من اليهود إنّه ولد زانية، واستمرّوا على كفرهم وعنادهم، وقابلهم آخرون في الكفر فقالوا هو الله، وقال آخرون هو ابن الله، وقال المؤمنون هو عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه وهؤلاء هم الناجون المثابون المؤيّدون المنصورون، ومن خالفهم في شيء من هذه القيود فهم الكافرون الضالّون الجاهلون، وقد توعّدهم العلي العظيم الحكيم العليم بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

قال البخاري: حدّثنا صَدَقَةُ بن الفَضلِ، أنبأنا الوليد، حدثنا الأَوْزَاعِي، حدثني عُمَيْر بن هانِيء، حدثني جُنَادَةُ بن أبي أُمَيّةَ عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عن النبي ﷺ قال: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيك لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَالجَنَّةَ حَقٌ وَالنَّارَ حَقٌ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ» قال الوليد فحدّثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن عُمَيْر عن جُنَادَةَ وزاد «مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ أَيُّهَا شَاءَ»[٣]. وقد رواه مسلم عن داود بن رشيد عن الوليد عن جابر به، ومن طريق أخرى عن الأَوْزَاعِي به.

---

(١) نكصوا: انقلبوا فارين.

(٢) المباهلة: الملاعنة، والتضرع والدعاء.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٤٧، ومسلم في الإيمان حديث ٤٦، وأحمد في المسند ٥/ ٣١٣، ٣١٤.

باب بيان أن الله تعالى منزّه عن الولد [تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً](١)

قال تعالى في آخر هذه السورة ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ [مريم: ٨٨ـ ٨٩] أي شيئاً عظيماً ومنكراً من القول وزوراً ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٠ـ ٩٥] فبيّن أنه تعالى لا ينبغي له الولد لأنه خالق كلّ شيء ومالكه، وكل شيء فقير إليه، خاضع ذليل لديه، وجميع سكان السموات والأرض عبيده، وهو ربهم لا إله إلاّ هو، ولا ربّ سواه، كما قال تعالى ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠ـ ١٠٣] فبيّن أنه خالق كل شيء، فكيف يكون له ولد، والولد لا يكون إلاّ بين شيئين متناسبين، والله تعالى لا نظير له، ولا شبيه له، ولا عديل له، فلا صاحبة له، فلا يكون له ولد، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ـ ٤].

تقرّر أنه الأحد الذي لا نظير له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ﴿الصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ وهو السيّد الذي كمل في علمه وحكمته ورحمته وجميع صفاته، ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ أي لم يوجد منه ولد ﴿وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾ أي ولم يتولد عن شيء قبله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ أي وليس له عدل ولا مكافىء، ولا مساوٍ، فقطع النظير المداني الأعلى والمساوي، فانتفى أن يكون له ولد إذ لا يكون الولد إلاّ متولداً بين شيئين متعادلين، أو متقاربين تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وقال تبارك وتعالى وتقدس ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ١٧١ـ ١٧٣].

---

(١) سقط في ط.

ينهى تعالى أهل الكتاب ومن شابههم عن الغلوّ والإطراء في الدين، وهو مجاوزة الحد، فالنصارى لعنهم الله غلوا وأطروا المسيح، حتى جاوزوا الحدّ، فكان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبد الله ورسوله، وابن أمته العذراء البتول، التي أحصنت فرجها، فبعث الله الملك جبريل إليها فنفخ فيها عن أمر الله نفخة حملت منها بولدها عيسى عليه السلام، والذي اتصل بها من الملك هي الروح المضافة إلى الله، إضافة تشريف وتكريم، وهي مخلوقة من مخلوقات الله تعالى، كما يقال بيت الله وناقة الله وعبد الله، وكذا روح الله أضيفت إليه تشريفاً لها وتكريماً. وسمّي عيسى بها لأنّه كان بها من غير أب، وهي الكلمة أيضاً التي عنها خلق، وبسببها وجد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝١١٧﴾ [البقرة: ١١٦ـ ١١٧].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة: ٣٠]. فأخبر الله تعالى أنَّ اليهود والنصارى عليهم لعائن الله كلٌّ من الفريقين ادّعوا على الله شَطَطاً[1] وزعموا أن له ولداً، تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً. وأخبر أنّهم ليس لهم مستند فيما زعموه، ولا فيما ائتفكوه[2]، إلاّ مجرد القول ومشابهة من سبقهم إلى هذه المقالة الضالّة، تشابهت قلوبهم، وذلك أن الفلاسفة عليهم لعنة الله زعموا أن العقل الأوّل صدر عن واجب الوجود الذي يعبّرون عنه بعلة العلل والمبدأ الأول، وأنّه صدر عن العقل الأوّل عقل ثان ونفس وفلك، ثم صدر عن الثاني كذلك حتى تناهت العقول إلى عشرة، والنفوس إلى تسعة، والأفلاك إلى تسعة، باعتبارات فاسدة ذكروها، واختيارات باردة أوردوها، ولبسط الكلام معهم وبيان جهلهم وقلّة عقلهم موضع آخر. وهكذا طوائف من مشركي العرب زعموا لجهلهم أن الملائكة بنات الله، وأنّه صاهر سروات الجن، فتولّد منهما الملائكة تعالى الله عما يقولون، وتنزّه عما يشركون، كما قال تعالى ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ۝١٩﴾ [الزخرف: ١٩].

وقال تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ۝١٤٩ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ۝١٥٠ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ۝١٥٣ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ۝١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٥٥ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ۝١٥٦ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٥٧ وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ۝١٥٨ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝١٦٠﴾ [الصافات: ١٤٩ـ ١٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ

(١) الشطط: مجاوزة الحد والابتعاد عن الحق.

(٢) الإفك: الكذب.

بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ـ ٢٩]. وقال تعالى في أول سورة الكهف وهي مكية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الكهف: ١ـ٥].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ٦٨ـ ٧٠].

فهذه الآيات المكيات الكريمات تشمل الرد على سائر فرق الكفرة من الفلاسفة ومشركي العرب واليهود والنصارى، الذين ادعوا وزعموا بلا علم، أنّ لله ولداً سبحانه وتعالى عمّا يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.

ولمّا كانت النصارى عليهم لعنة الله المتتابعة إلى يوم القيامة من أشهر من قال بهذه المقالة، ذكروا في القرآن كثيراً للردّ عليهم، وبيان تناقضهم، وقلّة علمهم، وكثرة جهلهم، وقد تنوّعت أقوالهم في كفرهم، وذلك أن الباطل كثير التشعّب والاختلاف والتناقض وأما الحق فلا يختلف ولا يضطرب. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]. فدلّ على أن الحق يتّحد ويتّفق، والباطل يختلف ويضطرب. فطائفة من ضلاّلهم وجهّالهم زعموا أن المسيح هو الله تعالى، وطائفة قالوا هو ابن الله عزّ الله، وطائفة قالوا هو ثالث ثلاثة جلّ الله. قال الله تعالى في سورة المائدة ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: ١٧].

فأخبر تعالى عن كفرهم وجهلهم وبيّن أنه الخالق القادر على كل شيء، المتصرّف في كل شيء، وأنه ربّ كل شيء ومليكه وإلهه. وقال في أواخرها ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٢ـ ٧٥].

حكم تعالى بكفرهم شرعاً وقدراً فأخبر أن هذا صدر منهم مع أن الرَّسُولَ إليهم هو عيسى ابن مريم قد بيّن لهم أنه عبدٌ مربوب مخلوق مصوّر في الرّحم، داعٍ إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وتوعّدهم على خلاف ذلك بالنار، وعدم الفوز بدار القرار، والخزي في الدار الآخرة والهوان والعار، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ ثم قال ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ﴾ قال ابن جرير وغيره المراد بذلك قولهم بالأقانيم الثلاثة. أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن على اختلافهم في ذلك ما بين الملكية واليعقوبية والنّسطورية عليهم لعائن الله، كما سنبيّن كيفية اختلافهم في ذلك ومجامعهم الثلاثة في زمن قسطنطين بن قسطس، وذلك بعد المسيح بثلاثمائة سنة، وقبل البعثة المحمّدية بثلاثمائة سنة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ﴾ أي وما من إله إلاّ الله وحده لا شريك له ولا نظير له ولا كفوء له ولا صاحبة له ولا ولد. ثم توعّدهم وتهدّدهم فقال ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ ثم دعاهم برحمته ولطفه إلى التوبة والاستغفار من هذه الأمور الكبار، والعظائم التي توجب النار. فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ ثم بيّن حال المسيح وأمه وأنّه عبدٌ رسولٌ، وأمه صدّيقة أي ليست بفاجرة، كما يقوله اليهود لعنهم الله، وفيه دليل على أنّها ليست بنبية، كما زعمه طائفة من علمائنا وقوله ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ كناية عن خروجه منهما كما يخرج من غيرهما، أي ومن كان بهذه المثابة كيف يكون إلهاً تعالى الله عن قولهم وجهلهم علواً كبيراً.

وقال السّدي وغيره: المراد بقوله ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ زعمهم في عيسى وأمه أنهما الإلهان مع الله، يعني كما بيّن تعالى كفرهم في ذلك بقوله في آخر هذه السورة الكريمة ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٨].

يخبر تعالى أنه يسأل عيسى ابن مريم يوم القيامة على سبيل الإكرام له والتقريع[1] والتوبيخ لعابديه، فمن كَذِبَ عليه وافترى وزعم أنه ابن الله أو أنه الله أو أنه شريكه تعالى الله عمّا يقولون، فيسأله وهو يعلم أنه لم يقع منه ما يسأله عنه، ولكن لتوبيخ من كَذِبَ عليه، فيقول له ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ أي تعاليت أن

(١) التقريع: التأنيب.

يكون معك شريك ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ أي ليس هذا يستحقه أحد سواك ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾. وهذا تأدّب عظيم في الخطاب والجواب ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ﴾ حين أرسلتني إليهم وأنزلت عليّ الكتاب الذي كان يتلى عليهم ثم فسر ما قال لهم بقوله ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ أي خالقي وخالقكم ورازقي ورازقكم ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي﴾ أي رفعتني إليك حين أرادوا قتلي وصلبي فرحمتني وخلصتني منهم وألقيت شبهي على أحدهم حتى انتقموا منه، فلما كان ذلك ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾. ثم قال على وجه التفويض إلى الرب عزّ وجلّ والتبرّي من أهل النصرانية ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ أي وهم يستحقون ذلك ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾. وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة بالشرط لا يقتضي وقوع ذلك، ولهذا قال ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ ولم يقل الغفور الرحيم.

وقد ذكرنا في التفسير ما رواه الإمام أحمد عن أبي ذرّ أنّ رسول الله ﷺ قام بهذه الآية الكريمة ليلة حتى أصبح ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ وقال: «إنّي سَأَلْتُ رَبِّي عزَّ وَجَلَّ الشَّفَاعَةَ لأُمّتي فَأَعْطَانِيهَا وَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً»[1] وقال: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٦ـ ٢٠].

وقال تعالى: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾ [الزمر: ٤ـ ٥].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الزخرف: ٨١ـ ٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾﴾.

وثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال يقول الله تعالى: «شَتَمَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ يَزْعَمُ أَنَّ لِي وَلَداً وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُواً أَحَدٌ»[2].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ١٤٩.

(٢) أخرجه البخاري في: التفسير، باب: (١١٢)، وأحمد في المسند ٢/ ٢٥٠، ٢٥١.

وفي الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لاَ أَحَدُ أَصْبَرَ عَلَى أَذَى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَداً وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ»[1].

ولكن ثبت في الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ».

ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[2] [هود: ١٠٢].

وهكذا قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ٦٩ ـ ٧٠] وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾.

[ذكر][3] منشأ عيسى ابن مريم عليهما السلام
ومرباه في صغره وصباه وبيان بدء الوحي إليه من الله تعالى

قد تقدم أنه ولد ببيت لحم قريباً من بيت المقدس، وزعم وَهْبُ بن مُنَبِّهٍ أنه ولد بمصر، وأن مريم سافرت هي ويوسف بن يعقوب النجّار وهي راكبة على حمار ليس بينهما وبين الإكاف[4] شيء وهذا لا يصحّ. والحديث الذي تقدّم ذكره دليل على أن مولده كان ببيت لحم كما ذكرنا، ومهما عارضه فباطل.

وذكر وَهْبُ بن مُنَبه: أنه لمّا وُلِدَ خرّت الأصنام يومئذ في مشارق الأرض ومغاربها، وأنّ الشياطين حارت في سبب ذلك حتى كشف لهم ابليس الكبير أمر عيسى، فوجدوه في حجر أمّه والملائكه محدقة به، وأنه ظهر نجم عظيم في السماء، وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره، فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا: هذا لمولد عظيم في الأرض، فبعث رسله ومعهم ذهب ومر ولبان هدية الى عيسى، فلمّا قدموا الشام سألهم ملكها عما أقدمهم، فذكروا له ذلك، فسأل عن ذلك الوقت فإذا قد ولد فيه عيسى ابن مريم ببيت

---

(١) أخرجه البخاري في: التوحيد، باب: (٣)، ومسلم في: صفات المنافقين وأحكامهم، (الحديث ٤٩). وأحمد في المسند ٤/ ٤٠١.

(٢) أخرجه البخاري في: التفسير، باب (٥) ﴿وكذلك أخذ ربك إذ أخذ القرى وهي ظالمة...﴾، (الحديث ٤٦٨٦). ومسلم في: البر والصلة، حديث ٦١ .

(٣) سقط في ط.

(٤) الإكاف: برذعة الحمار.

المقدس، واشتهر أمره بسبب كلامه في المهد، فأرسلهم إليه بما معهم وأرسل معهم من يعرفه له ليتوصل إلى قتله اذا انصرفوا عنه، فلمّا وصلوا إلى مريم بالهدايا ورجعوا، قيل لها: إن رسل ملك الشام، إنّما جاؤوا ليقتلوا ولدك، فاحتملته فذهبت به إلى مصر، فأقامت به حتى بلغ عمره اثنتي عشرة سنة، وظهرت عليه كرامات ومعجزات في حال صغره. فذكر منها أن الدهقان الذي نزلوا عنده افتقد مالاً من داره، وكانت داره لا يسكنها إلاّ الفقراء والضعفاء والمحاويج فلم يدر من أخذ وعز ذلك على مريم عليها السلام وشق على الناس وعلى رب المنزل وأعياهم أمرها فلمّا رأى عيسى عليه السلام ذلك عمد إلى رجل أعمى وآخر مقعد من جملة من هو منقطع إليه فقال للأعمى احمل هذا المقعد وانهض به، فقال إني لا أستطيع ذلك، فقال: بلى كما فعلت أنت وهو حين أخذتما هذا المال من تلك الكوة من الدار، فلمّا قال ذلك صدّقاه فيما قال، وأتيا بالمال فعظم عيسى في أعين الناس وهو صغير جداً.

ومن ذلك أن ابن الدهقان عمل ضيافة للناس بسبب طهور أولاده فلما اجتمع الناس وأطعمهم ثم أراد أن يسقيهم شراباً يعني خمراً كما كانوا يصنعون في ذلك الزمان، لم يجد في جراره شيئاً، فشقّ ذلك عليه، فلما رأى عيسى ذلك منه قام فجعل يمر على تلك الجرار ويمرّ يده على أفواهها فلا يفعل بجرّة منها ذلك إلاّ امتلأت شراباً من خيار الشراب. فتعجّب الناس من ذلك جداً وعظّموه وعرضوا عليه وعلى أمه مالاً جزيلاً فلم يقبلاه، وارتحلا قاصدين بيت المقدس والله أعلم.

وقال إسحاق بن بشر: أنبأنا عثمان بن سَاج وغيره عن موسى بن وَرْدَانَ عن أبي نُضْرَةَ عن أبي سعيد وعن مَكْحُولٍ عن أبي هريرة قال إن عيسى ابن مريم أول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذي تكلّم به وهو طفل فمجّد الله تمجيداً لم تسمع الآذان بمثله، لم يدع شمساً ولا قمراً ولا جبلاً ولا نهراً ولا عيناً إلا ذكره في تمجيده فقال: «اللهم أنتَ القريبُ في عُلوّكَ المتعَالِ في دنوّكَ الرفيعُ على كلّ شيءٍ من خَلْقِكَ. أنتَ الذي خلقت سبعاً في الهواء بكلماتك مستويات طباقاً أجبن وهن دخان من فرقك، فأتين طائعات لأمرك، فيهن ملائكتك يسبّحون قُدْسَكَ لتَقْدِيسِكَ، وجعلتَ فيهن نوراً على سواد الظلام، وضياء من ضوء الشمس بالنهار، وجعلت فيهن الرّعد المسبّح بالحمد، فبعزّتك يجلو ضوء ظلمتك، وجعلت فيهن مصابيح يهتدى بهنّ في الظلمات الحيران، فتباركت اللهمّ في مفطور سمواتك، وفيما دحوت[1] من أرضك دحوتها على الماء فسمّكتها على تيار الموج الغامر، فأذللتها إذلالَ التظاهر، فذلّ لطاعتك صعبها، واستحيى لأمرك أمرها، وخضعت لعزّتك أمواجها، ففجّرت فيها بعد البحور الأنهار ومن بعد الأنهار الجداول الصغار ومن بعد الجداول ينابيع العيون الغزار. ثم أخرجت منها الأنهار والأشجار والثمار، ثم جعلت على ظهرها الجبال، فوتدتها

(١) دحوت: دحا: بسط.

أوتاداً على ظهر الماء، فأطاعت أطوادها[١]، وجلمودها[٢]، فتباركت اللهمّ فمن يبلغ بنعته نعتك؟ أمن يبلغ بصفته صفتك؟ تنشر السحاب وتفكّ الرقاب وتقضي الحق وأنت خير الفاصلين، لا إله إلاّ أنت سبحانك أمرتَ أن نستغفركَ من كل ذنب لا إله إلا أنت سبحانكَ مترت السموات عن الناس، لا إله إلا أنت سبحانك، إنما يغشاك من عبادك الأكياس، نشهد أنّك لست بإله استحدثناك، ولا ربّ يبيد ذكره، ولا كان معك شركاء، يقضون معك فندعوهم ونذرك لا أعانك على خلقنا أحد فنشكّ فيك، نشهد أنك أحد صَمَد، لم يلد ولم يولد ولم يكن لك كفواً أحد».

وقال اسحاق بن بشر، عن جُوَيْبر ومُقَاتِل، عن الضَّحَّاكِ عن ابن عبّاس: إن عيسى ابن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلّمهم طفلاً، حتى بلغ ما يبلغ الغلمان، ثم انطقه الله بعد ذلك الحكمة والبيان، فأكثر اليهود فيه وفي أمه من القول، وكانوا يسمّونه ابن البغيّة وذلك قوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾[النساء: ١٥٦] قال: فلما بلغ سبع سنين أسلمته أمه في الكتاب، فجعل لا يعلّمه المعلم شيئاً إلاّ بدره إليه فعلّمه أبا جاد فقال عيسى: ما أبو جاد؟ فقال المعلم: لا أدري. فقال عيسى: كيف تعلمني ما لا تدري؟ فقال المعلم: اذاً فعلّمني فقال له عيسى: فقم من مجلسك، فقام فجلس عيسى مجلسه فَقال: سَلْني فقال المعلم: ما أبو جاد فقال عيسى: (الألف آلاء الله والباء بهاء الله، والجيم بهجة الله وجماله) فعجب المعلم من ذلكَ فكان أوّل من فسّر أبا جاد.

ثم ذكر أن عثمان سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فأجابه على كلّ كلمة بحديث طويل موضوع لا يسأل ولا يتمادى وهكذا روى ابن عَدِيٍّ من حديث اسماعيل بن عيَّاشٍ عن اسماعيل بن يحيى عن ابن أبي مُلَيْكَةَ عمّن حدّثه عن ابن مسعود، وعن مسعر بْنِ كَدَام عن عطيّة، عن أبي سعيد، رفع الحديث في دخول عيسى إلى الكتاب وتعليمه المعلّم معنى حروف أبي جاد، وهو مطوّل لا يفرح به. ثم قال ابن عَدِيٍّ وهذا الحديث باطل بهذا الإسناد لا يرويه غير اسماعيل، وروى ابن لَهِيعَةَ عن عبد الله بن هُبَيْرة قال: كان عبد الله بن عمر يقول: «كان عيسى ابن مريم وهو غلام يلعب مع الصبيان فكان يقول لأحدهم تريد أن أخبرك ما خبأت لك أمك؟ فيقول: نعم، فيقول خبّأت لك كذا وكذا، فيذهب الغلام منهم الى أمه فيقول لها أطعميني ما خبّأت لي، فتقول: وأي شيء خبّأت لك؟ فيقول كذا وكذا، فتقول له من أخبرك؟ فيقول عيسى ابن مريم، فقالوا والله لئن تركتم هؤلاء الصبيان مع ابن مريم ليفسدنّهم، فجمعوهم في بيت وأغلقوا عليهم، فخرج عيسى يلتمسهم فلم يجدهم، فسمع ضوضاءهم في بيت، فسأل عنهم، فقالوا إنما هؤلاء قردة وخنازير فقال اللهم كذلك، فكانوا كذلك رواه ابن عَسَاكر.

وقال إسحاق بن بِشْر عن جُوَيْبِرٍ ومُقَاتِلٍ عن الضحّاك عن ابن عبّاس، قال: وكان

---

(١) الأطواد: الجبال. (٢) الجلمود: الصخر.

عيسى يرى العجائب في صباه إلهاماً من الله، ففشا ذلك في اليهود، وترعرع عيسى فهمّت به بنو اسرائيل، فخافت أمه عليه، فأوحى الله إلى أمّه أن تنطلق به إلى أرض مصر، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وقد اختلف السلف والمفسرون في المراد بهذه الربوة التي ذكر الله، من صفتها أنها ذات قَرَار ومَعِين، وهذه صفة غريبة الشكل، وهي أنها ربوة، وهو المكان المرتفع من الأرض الذي أعلاه مستو يقر عليه، وارتفاعه متّسع، ومع علوّه فيه عيون الماء مَعِين، وهو الجاري السارح على وجه الأرض، فقيل المراد المكان الذى ولّدت فيه المسيح وهو نخلة بيت المقدس ولهذا ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ [مريم: ٢٤] وهو النهر الصغير في قول جمهور السلف. وعن ابن عبّاس بإسناد جيد أنها أنهار دمشق، فلعله أراد تشبيه ذلك المكان بأنهار دمشق. وقيل ذلك بمصر كما زعمه من زعمه من أهل الكتاب ومن تلقّاه عنهم والله أعلم. وقيل هي الرّملة. وقال إسحاق بن بشر: قال لنا ادريس عن جده وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ قال: إن عيسى لمّا بلغ ثلاث عشرة سنة، أمر الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت إيليا، قال فقدم عليه يوسف ابن خال أمّه، فحملهما على حمار حتى جاء بهما إلى ايليا، وأقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل، وعلّمه التوراة وأعطاه إحياء الموتى وإبراء الأسقام والعلم بالغيوب، ممّا يدخرون في بيوتهم، وتحدّث الناس بقدومه، وفزعوا لما كان يأتي من العجائب، فجعلوا يعجبون منه فدعاهم إلى الله ففشا فيهم أمره.

بيان نزول الكتب الأربعة ومواقيتها

قال أبو زُرْعَةُ الدِّمَشْقِي: حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني معاوية بن صالح عمن حدثه قال: أنزلت التوراة على موسى في ست ليال خلون من شهر رمضان.

ونزل الزبور على داود في اثنتي عشر ليلة خلت من شهر رمضان. وذلك بعد التوراة بأربعمائة سنة واثنتين وثمانين سنة.

وأنزل الإنجيل على عيسى ابن مريم في ثمانية عشرة ليلة خلت من رمضان بعد الزبور بألف عام وخمسين عاما.

وأنزل الفرقان على محمد ﷺ فى أربع وعشرين من شهر رمضان، وقد ذكرنا في التفسير عند قوله ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[البقرة: ١٨٥] الأحاديث الواردة في ذلك وفيها أن الإنجيل أنزل على عيسى ابن مريم عليه السلام في ثماني عشرة ليلة خلت من شهر رمضان.

وذكر ابن جرير في تاريخه: أنه أنزل عليه وهو ابن ثلاثين سنة ومكث حتى رفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وقال إسحاق بن بشر وأنبأنا سعيد بن أبي عَرُوبَةَ عن قَتَادَةَ ومُقَاتِلٍ عن قَتَادَةَ عن عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة قال: أوحى الله عزّ وجلّ إلى عيسى ابن مريم: يا عيسى جدّ في أمري ولا تهن واسمع

وأطع يا ابن الطاهرة البكر البتول إنك من غير فحل وأنا خلقتك آية للعالمين إياي فأعبد وعليّ فتوكّل، خذ الكتاب بقوّة فَسِرْ لأهل السريانية بلّغ من بين يديك إني انا الحقّ الحّي القائم الذي لا أزول، صدّقوا النبي الأمّي، العربي صاحب الجمل والتاج (وهي العمامة) والمدرعة والنعلين والهراوة (وهي القضيب) الأَنْجَلُ العينين الصلتُ الجبين الواضح الخدين الجعد الرأس، الكثّ اللحية، المقرون الحاجبين، الأقنى الأنف، المفلج(١) الثنايا البادي العنفقة(٢) الذي كأن عنقه ابريق فضّة، وكأن الذهب يجري في تراقيه، له شعرات من لبّته الى سرّته تجري كالقضيب، ليس على بطنه ولا على صدره شعر غيره، .شثن الكف(٣) والقدم، إذا ألتفت ألتفت جميعاً وإذا مشى كأنما يتقلع من صخر وينحدر من صبب عرَقه في وجهه كاللؤلؤ، وريح المسك تنفح منه، ولم يرَ قبله ولا بعده مثله، الحسن القامة، الطيّب الريح، نَكّاحُ النساء ذا النسل القليل، إنما نسله من مباركة لها بيت يعني في الجنة من قصب لا نصب فيه ولا صخب، تكفله يا عيسى في آخر الزمان كما كفل زكريا أمك، له منها فرخان مستشهدان، وله عندي منزلة ليست لأحد من البشر. كلامه القرآن ودينه الإسلام وأنا السلام طوبى لمن أدرك زمانه وشهد أيامه وسمع كلامه.

بيان شجرة طوبى ما هي

قال عيسى: يا رب وما طوبى؟ قال «غرس شجرة أنا غرستها بيدي فهي للجنان كلها أصلها من رضوان وماؤها من تسنيم وبردها برد الكافور وطعمها طعم الزنجبيل وريحها ريح المسك، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً». قال عيسى: يا ربّ اسقني منها. قال: «حرام على النبيّن أن يشربوا منها حتى يشرب ذلك النبّي، وحرام على الأمم أن يشربوا منها حتى تشرب منها أمة ذلك النبي» قال: يا عيسى أرفعك إليّ؟ قال: ربّ ولم ترفعني؟ قال: «أرفعك ثم اهبطك في آخر الزمان لترى من أمة ذلك النبي العجائب، ولتعينهم على قتال اللعين الدجّال، اهبطك في وقت صلاة، ثم لا تصلي بهم لأنها [أمه](٤) مرحومة ولا نبيّ بعد نبيّهم».

وقال هشام بن عمّار، عن الوليد بن مسلم، عن عبد الرحمن بن زيد عن أبيه، أن عيسى قال: يا رب انبئني عن هذه الأمّة المرحومة، قال: «أمّة أحمد، هم علماء حكماء كأنهم أنبياء، يرضون مني بالقليل من العطاء، وأرضى منهم باليسير من العمل، وأدخلهم الجنّة بلا إله إلا الله. يا عيسى هم أكثر سكّان الجنّة لأنه لم تذلّ ألسن قوم قط بلا إله إلا الله كما ذلّت ألسنتهم، ولم تذلّ رقاب قوم قط بالسجود كما ذلّت به رقابهم» رواه ابن عساكر.

(١) أي التباعد بين الأسنان.
(٢) العنفقة: الشعيرات الخفيفة بين الشفة السفلى والذقن.
(٣) شثن الكف: غليظ الكفّ.
(٤) سقط في ط.

وروى ابن عساكر من طريق عبد الله بن بدِيلِ العَقِيلي عن عبد الله بن عَوْسَجَةَ قال أوحى الله إلى عيسى ابن مريم «أنزلني من نفسك كهمّك، واجعلني ذخراً لك في معادك، وتقرّب إليّ بالنوافل أحبّك ولا تولِ غيري فأخذلك، أصبر على البلاء وأرْضَ بالقضاء، وكن لمسرّتي فيك، فإنّ مسرتي أن أُطاع فلا أُعصى، وكن مني قريباً، وأحيي ذكري بلسانِك، ولتكن مودتي في صدرك، تيقّظ من ساعات الغفلة واحكم في لطيف الفطنة، وكن لي راغباً راهباً، وأَمِتْ قلبك في الخشية لي، وراع الليل لحقّ مسرتي، واظم نهارك ليوم الري عندي، نافس في الخيرات جهدك، واعترف بالخير حيث توجهت، وقم في الخلائق بنصيحتي، واحكم في عبادى بعدلي، فقد أنزلت عليك شفاء وسواس الصدور من مرض النسيان، وجلاء الأبصار من غشاء الكلال، ولا تكن حَلْساً[1] كأنك مقبوض وأنت حي تنفس. يا عيسى ابن مريم ما آمَنَتْ بي خليقةٌ إلاّ خشعتْ، ولا خشعت لي إلاّ رجت ثوابي، فأشهدك أنها آمنة من عقابي ما لم تغيّر أو تبدل سنّتي. يا عيسى ابن مريم البكر البتول ابكِ على نفسك أيام الحياة بكاء من ودّع الأهل وقلا الدنيا وترك اللذات لأهلها، وارتفعت رغبته فيما عند إلهه، وكن في ذلك تلين الكلام وتفشي السلام، وكن يقظان إذا نامت عيون الأبرار، حِذَارَ ما هو آتٍ من أمر المعاد وزلازل شدايد الاهوال قبل أن لا ينفع أهل ولا مال واكحل عينك بملول[2] الحزن إذا ضحك البطّالون، وكن في ذلك صابراً محتسباً، وطوبى لك إنْ نالك ما وعدتُ الصابرين، رج من الدنيا بالله يوم بيوم، وذق مذاقة ما قد حرب منك أين طعمه، وما لم يأتك كيف لذّته، فرح من الدنيا بالبلغة، وليكفك منها الخشن الجشيب[3] قد رأيت الى ما يصير، اعمل على حساب فإنّك مسؤول لو رأت عيناك ما أعددت لأوليائي الصالحين ذاب قلبك وزهقت نفسك».

وقال أبو داود في كتاب القدر: حدّثنا محمد بن يحيى بن فارس، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرُ عن الزُّهْرِي، عن ابن طَاوُسَ عن أبيه، قال: لقي عيسى ابن مريم ابليس فقال: أما علمت أنه لن يصيبك إلا ما كتب لك؟ قال إبليس: فَارقَ بذروة هذا الجبل فتردّى منه فانظر هل تعيش أم لا، فقال ابن طاوس عن أبيه. فقال عيسى: أما علمت أن الله قال: «لاَ يُجَرِّبْنِي عَبْدِي فَإِني أفعلُ مَا شِئْتُ» وقال الزُّهريّ: إن العبد لا يبتلي ربّه ولكن الله يبتلي عبدَه. قال أبو داود: حدّثنا أحمد بن عَبْدَةَ، أنبأنا سفيانُ عن عَمْرو، عن طاوس، قال: أتى الشيطان عيسى ابن مريم فقال: أليس تزعم أنك صادق فأت هذه[4] فألق نفسك. قال: ويلك أليس قال [الله][5] «يَا ابْنَ آدمَ لاَ تَسْأَلْني هَلاَكَ نَفْسِكَ، فَإِنيِّ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ». وحدّثنا

(١) الحلس: الذي لا يبرح مكانه.

(٢) ملول: ج ملة: وهي الرماد الحار ينضج فيه الخبز.

(٣) الجشيب: الغليظ.

(٤) في ط: هوة.

(٥) لفظ الجلالة: سقط في ط.

أبو توبة الرَّبِيعُ بن نَافِعٍ، حدثنا حُسَيْنُ بن طَلْحَةَ، سمعت خَالِدَ بن يَزِيدَ قال: تعبّد الشيطان مع عيسى عشر سنين أو سنتين، أقام يوماً على شفير جبل، فقال الشيطان: «أرأيت إنْ القيتُ نفسي هل يصيبني إلاّ ما كتب لي؟ قال: اني لست بالذي أبتلي ربي، ولكن ربي إذا شاء ابتلاني». وعرفه أنه الشيطان ففارقه. وقال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا شُرَيْحُ بن يونس حدّثنا عَلِيّ بن ثابت عن الخَطَّابِ بن القَاسِمِ عن أبي عُثْمَانَ، قال: كان عيسى عليه السلام يصليّ على رأس جبل، فأتاه إبليس فقال: أنت الذي تزعم أن كل شيء بقضاء وقدر، قال: نعم. قال: ألقِ نفسك من هذا الجبل وقل قدر عليّ. فقال: يا لعين الله يختبر العباد وليس العباد يختبرون الله عزّ وجل.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدّثنا الفَضْلُ بن مُوسَى البَصْرِيّ، حدثنا ابرهيم بن بَشَّارٍ، سمعت سُفْيَانَ بن عُيَيْنَةَ يقول: لقي عيسى ابن مريم إبليس فقال له ابليس: يا عيسى ابن مريم الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكلّمت في المهد صبياً. ولم يتكلّم فيه أحد قبلك. قال: بل الربوبية للإله الذي انطقني ثم يميتني ثم يحييني. قال: فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تحيي الموتى، قال بل الربوبية لله الذي يحيي ويميت من أحييت ثم يحييه. قال: والله إنك لإله في السماء وإله في الارض، قال فصكّه جبريل صكّة بجناحيه، فما نباها دون قرون الشمس، ثم صكّه اخرى بجناحيه فما نباها دون العين الحامية، ثم صكّه أخرى فأدخله بحار السابعة فأساخه، وفي رواية فأسلكه فيها حتى وجد طعم الحمأة، فخرج منها وهو يقول ما لقي أحد من أحد ما لقيت منك يا ابن مريم.

وقد روي نحو هذا بأبسط منه من وجه آخر فقال الحافظ أبو بكر الخطيب أخبرني أبو الحسن بن رَزْقَوَيْهِ، انبأنا ابو بكر أحمد بن سَنْدَي، حدّثنا ابو محمد الحسن بن علي القَطَّانِ، حدّثنا اسماعيل بن عيسى العطّار، انبأنا علي بن عاصم حدّثني ابو سلمة سُوَيْدٌ عن بعض أصحابه قال: صلّى عيسى ببيت المقدس، فانصرف، فلما كان ببعض العقبة عرض له ابليس فاحتبسه، فجعل يعرض عليه ويكلّمه ويقول له: إنه لا ينبغي لك أن تكون عبداً، فأكثر عليه وجعل عيسى يحرص على أن يتخلّص منه فجعل لا يتخلص منه فقال له فيما يقول: لا ينبغي لك يا عيسى أنْ تكون عبداً، قال: فاستغاث عيسى بربه، فأقبل جبريل وميكائيل فلما رآهما ابليس كفّ، فلما استقرّ معه على العقبة اكتنفا عيسى وضرب جبريل إبليس بجناحه فقذفه في بطن الوادي، قال: فعاد ابليس معه وعلم أنهما لم يؤمرا بغير ذلك، فقال لعيسى قد اخبرتك أنّه لا ينبغي أن تكون عبداً، إنّ غضبك ليس بغضب عبد، وقد رأيت ما لقيت منك حين غضبت، ولكن أدعوك لأمر هو لك، آمر الشياطين فليطيعوك، فإذا رأى البشر أن الشياطين أطاعوك عبدوك، أما اني لا أقول أنْ تكون إلها ليس معه إله، ولكن الله يكون إلهاً في السماء، وتكون أنت الهاً في الأرض، فلما سمع عيسى ذلك منه استغاث بربّه وصرخ صرخة شديدة، فإذا إسرافيل قد هبط فنظر اليه جبريل وميكائيل فكفّ ابليس فلمّا استقر معهم ضرب إسرافيل إبليس بجناحه فصكّ به عين الشمس، ثم ضربه ضربة أخرى

فأقبل ابليس يهوي، ومر عيسى وهو بمكانه فقال: يا عيسى لقد لقيت فيك اليوم تعباً شديداً، فرمى به في عين الشمس فوجد سبعة أملاك عند العين الحامية قال: فغطوه فجعل كلّما صرخ غطوه في تلك الحمأة قال: والله ما عاد إليه بعد.

قال: وحدّثنا اسماعيل العطّار، حدّثنا أبو حُذَيْفَة قال: واجتمع إليه شياطينه فقالوا: سيّدنا قد لقيتَ تعباً؟ قال: إنّ هذا عبدٌ معصوم ليس لي عليه من سبيل، وسأضلّ به بشراً كثيراً، وأبثّ فيهم أهواء مختلفة، وأجعلهم شِيَعاً ويجعلونه وأمّه إلٰهين من دون الله، قال: وأنزل الله فيما أيّد به عيسى وعصمه من إبليس قرآناً ناطقاً بذكر نعمته على عيسى فقال: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠] يعني اذ قوّيتك بروح القدس يعني جبريل ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠] الآية كلها وإذْ جَعَلْتَ المساكين لك بطانة وصحابة وأعواناً ترضى بهم وصحابة وأعواناً يرضون بك هادياً وقائداً إلى الجنّة، فذلك فاعلم خلقان عظيمان من لقيني بهما فقد لقيني بأزكى الخلائق وارضاها عندي، وسيقول لك بنو اسرائيل صُمْنَا فلم يتقبّل صيامنا، وصلّينا فلم يقبل صلاتنا، وتصدّقنا فلم يقبل صدقاتنا، وبكينا بمثل حنين الجمال فلم يرحم بكاؤنا، فقل لهم ولِمَ ذلك، وما الذي يمنعني إن ذات يدي قلّت أوليس خزائن السموات والأرض بيدي أنفق منها كيف أشاء، وان البخل لا يعتريني أولست أجود من سُئِلَ، وأوسع من أعطى، أو أنّ رحمتي ضاقت! وانما يتراحم المتراحمون بفضل رحمتي، ولولا أن هؤلاء القوم يا عيسى ابن مريم عدّوا أنفسهم بالحكمة التي تورث في قلوبهم، ما استأثروا به الدنيا أثره على الآخرة، لعرفوا من أين أوتوا، واذاً لأيقنوا أنّ أنفسهم هي أعدى الأعداء لهم، وكيف أقبل صيامهم وهم يتقوون عليه بالأطعمة الحرام، وكيف أقبل صلاتهم وقلوبهم تركن إلى الذين يحاربونني ويستحلون محارمي، وكيف أقبل صدقاتهم وهم يغصبون الناس عليها فيأخذونها من غير حلّها. يا عيسى إنّما أجزي عليها أهلها وكيف أرحم بكاءهم وأيديهم تقطر من دماء الأنبياء ازددت عليهم غضباً. يا عيسى وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أنه من عبدني وقال فيكما بقولي أن أجعلهم جيرانك في الدار، ورفقاءك في المنازل، وشركاءك في الكرامة، وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أنه من اتخذك وأمّك إلٰهين من دون الله أن أجعلهم في الدرك الأسفل من النار، وقضيت يوم خلقت السموات والأرض أني مثبّت هذا الأمر على يدي عبدي محمّد، وأختم به الأنبياء والرسل، ومولده بمكّة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام، ليس بفظّ ولا غليظ ولا سخاب(١) في الأسواق ولا يزر(٢) بالفحش ولا قوّال بالخنا أسدده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، واجعل التقوى ضميره والحكم معقوله والوفاء طبيعته والعدل سيرته والحق شريعته والإسلام ملّته، اسمه أحمد أهدي به بعد

(١) السخب: الصخب.

(٢) يزر: أي يأثم.

الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأغني به بعد العائلة، وأرفع به بعد الضيعة، أهدي به وأفتح به بين آذان صم وقلوب غلف، وأهواء مختلفة متفرقة، أجعل أمّته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، إخلاصاً لاسمي وتصديقاً لما جاءت به الرسل، ألهمهم التسبيح والتقديس والتهليل في مساجدهم ومجالسهم وبيوتهم ومنقلبهم ومثواهم، يصلّون لي قياماً وقعوداً وركّعاً وسجوداً، ويقاتلون في سبيلي صفوفاً وزحوفاً، قربانهم دماؤهم، في صدورهم، وقربانهم في بطونهم، رهبان بالليل ليوث في النهار، ذلك فضلي أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم.

وسنذكر ما يصدق كثيراً من هذا السياق مما سنورده من سورتي المائدة والصف إن شاء الله وبه الثقة. وقد روى أبو حذيفة إسحق بن بِشرٍ بأسانيده عن كعب الأحبار ووَهْبِ بن مُنَبِّهٍ وابن عبّاس وسَلْمَان الفارسيّ دخل حديث بعضهم في بعض قالوا: لمّا بُعِثَ عيسى ابن مريم وجاءهم بالبينات جعل المنافقون والكافرون من بني اسرائيل يعجبون منه ويستهزئون به، فيقولون: ما أكل فلان البارحة وما ادخر في منزله فيخبرهم فيزداد المؤمنون إيمانا والكافرون والمنافقون شكا وكفراناً. وكان عيسى مع ذلك ليس له منزل يأوي إليه، إنما يسيح في الأرض ليس له قرار ولا موضع يعرف به، فكان أول ما أحيا من الموتى أنه مرّ ذات يوم على امرأة قاعدة عند قبر وهي تبكي، فقال لها: ما لك أيتها المرأة؟ فقالت: ماتت ابنة لي لم يكن لي ولد غيرها، وأني عاهدت ربّي أن لا أبرح من موضعي هذا حتى أذوق ما ذاقت من الموت أو يحييها الله لي فأنظرَ إليها. فقال لها عيسى: أرأيت إن نظرت اليها أراجعة أنت؟ قالت: نعم، قالوا: فصلّى ركعتين، ثم جاء فجلس عند القبر فنادى يا فلانة قومي بإذن الرحمن فاخرجي، قال: فتحرك القبر، ثم نادى الثانية فانصدع القبر باذن الله، ثم نادى الثالثة فخرجت وهي تنفض رأسها من التراب، فقال لها عيسى: ما أبطأ بك عني؟ فقالت: لما جاءتني الصيحة الأولى بعث الله لي مَلَكاً فركّب خلقي، ثم جاءتني الصيحة الثانية فرجَع إليّ روحي، ثم جاءتني الصيحة الثالثة فخفت أنها صيحة القيامة فشاب رأسي وحاجباي، وأشفار عيني من مخافة القيامة ثم أقبلت على أمّها فقالت يا أماه: ما حملك على أن أذوق كرب الموت مرتين؟ يا أماه اصبري واحتسبي فلا حاجة لي في الدنيا، يا روح الله وكلمته سل ربّي أن يردّني الى الآخرة وأن يهّون عليّ كرب الموت، فدعا ربّه فقبضها إليه، واستوت عليها الأرض، فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه غضباً.

وقدّمنا في عقيب قصّة نوح أن بني اسرائيل سألوه أن يحيي لهم سام بن نوح، فدعا الله عزّ وجلّ وصلّى لله فأحياه الله لهم، فحدّثهم عن السفينة وأمرها ثم دعا فعاد تراباً. وقد روى السُدِي عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس في خبر ذكره، وفيه أن مَلِكاً من ملوك بني اسرائيل مات وحمل على سريره، فجاء عيسى عليه السلام فدعا الله عزّ وجلّ فأحياه الله عزّ وجلّ، فرأى الناس أمراً هائلاً ومنظراً عجيباً. قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى

ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١٠ - ١١١] يذكّره تعالى بنعمته عليه وإحسانه إليه في خلقه إيّاه من غير أب، بل من أم بلا ذكر، وجعله له آية للناس ودلالة على كمال قدرته تعالى، ثم ارساله بعد هذا كله ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ في اصطفائها واختيارها لهذه النعمة العظيمة، وإقامة البرهان على براءتها مما نسبها اليه الجاهلون، ولهذا قال ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ وهو جبريل بالقاء روحه إلى أمّه وقرنه معه في حال رسالته ومدافعته عنه لمن كفر به ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي تدعو الناس إلى الله في حال صغرك في مهدك وفي كهولتك ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي الخط والفهم. نصّ عليه بعض السلف ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ وقوله ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ أي تصوره وتشكله من الطين على هيئته عن أمر الله له بذلك ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ أي بأمري يؤكّد تعالى بذكر الإذن له في ذلك لرفع التوهّم وقوله ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ قال بعض السلف وهو الذي يولد أعمى ولا سبيل لأحد من الحكماء إلى مداواته. ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ هو الذي لا طبّ فيه بلّ قد مرض بالبرص وصار داؤه عضالاً ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي من قبورهم أحياء بإذني، وقد تقدّم ما فيه دلالة على وقوع ذلك مراراً متعدّدة مما فيه كفاية. وقوله ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ وذلك حين أرادوا صلبه فرفعه الله إليه وانقذه من بين أظهرهم صيانة لجنابه الكريم عن الأذى، وسلامة له من الردى. وقوله ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ قيل المراد بهذا الوحي وحي إلهام أي أرشدهم الله اليه ودلّهم عليه. كما قال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٧] وقيل المراد وحي بواسطة الرسول وتوفيق في قلوبهم لقبول الحق، ولهذا استجابوا قائلين ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

وهذا من جملة نِعَم الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم أن جعل له أنصاراً وأعواناً ينصرونه ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى لعبده محمد ﷺ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٢ - ٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم

بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٨ ـ ٥٤].

كانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه، وكانوا سحرة أذكياء، فبعث بآيات بهرت الأبصار وخضعت لها الرقاب. ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهي إليه، وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل، الذي لا يمكن صدوره إلاّ عمّن أيّده الله وأجرى الخارق على يديه تصديقاً له، أسلموا سراعاً ولم يتلعثموا، وهكذا عيسى ابن مريم بعث في زمن الطبائعية الحكماء فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها، وانّى لحكيم إبراء الأكْمَه[1] الذي هو أسوأ حالاً من الأعمى، والأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن، وكيف يتوصّل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره، وهذا مما يعلم كل أحد معجزة دالة على صدق من قامت به وعلى قدرة من أرسله، وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين بعث في زمن الفصحاء البلغاء، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فلفظه معجز تحدّى به الانس والجنّ أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله، أو بسورة. وقطع عليهم بأنّهم لا يقدرون لا في الحال ولا في الاستقبال، فإنْ لم يفعلوا ولن يفعلوا، وما ذاك إلاّ لأنه كلام الخالق عزّ وجلّ والله تعالى لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

والمقصود أنّ عيسى عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين، استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم، فانتدب له من بينهم طائفة صالحة، فكانوا له انصاراً وأعواناً قاموا بمتابعته ونصرته ومناصحته، وذلك حين همّ به بنو إسرائيل ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان، فعزموا على قتله وصلبه، فأنقذه الله منهم ورفعه إليه من بين أظهرهم، وألقى شبهه على أحد أصحابه فأخذوه فقتلوه وصلبوه، وهم يعتقدونه عيسى وهم في ذلك غالطون وللحق مكابرون، وسلّم لهم كثير من النصارى ما ادعوه وكلا الفريقين في ذلك مخطئون قال تعالى ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ وقال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٦ ـ ٨] الى أن قال بعد ذاك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى

---

(١) الأكمه: الأعمى.

ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤] فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد قام فيهم خطيباً فبشّرهم بخاتم الأنبياء الآتي بعده، ونوّه باسمه وذكر لهم صفته ليعرفوه ويتابعوه إذا شاهدوه، إقامة للحجّة عليهم وإحساناً من الله إليهم كما قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قال محمد بن إسحاق: حدّثني ثَوْرُ بن يزيد عن خالد بن مِعْدَانَ، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك قال: «دَعْوَةُ أَبِي ابْرَاهِيمَ وَبُشْرَى عِيسى وَرَأَت أُمّي حِينَ حَمَلَتْ بي كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ». وقد رُوِيَ عن العِرْبَاضِ بن سَارِيَةَ وأبي أُمَامَةَ عن النبي ﷺ نحو هذا، وفيه «دَعْوَةُ أبي إبْرَاهِيمَ وَبُشْرىَ عِيسَى»[1] وذلك أن إبراهيم لما بنى الكعبة قال ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] الآية ولما انتهت النبوّة في بني إسرائيل إلى عيسى، قام فيهم خطيباً فأخبرهم أن النبوّة قد انقطعت عنهم، وأنها بعده في النبيّ العربيّ الأمي، خاتم الأنبياء على الإطلاق أحمد، وهو محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الذي هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم السلام. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦] يحتمل عود الضمير إلى عيسى عليه السلام، ويحتمل عوده إلى محمد ﷺ. ثم حرّض تعالى عباده المؤمنين على نصرة الاسلام وأهله، ونصرة نبيّه ومؤازرته ومعاونته على إقامة الدين، ونشر الدعوة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي من يساعدني في الدعوة الى الله ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ وكان ذلك في قرية يقال لها النَّاصِرَة فَسُمُّوا بذلك النصارى. قال الله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ يعني لما دعا عيسى بني إسرائيل وغيرهم إلى الله تعالى منهم من آمن ومنهم من كفر وكان ممن آمن به أهل أنطاكية بكمالهم فيما ذكره غير واحد من أهل السّير والتواريخ والتفسير، بعث إليهم رسلاً ثلاثة: أحدهم شمعون الصفا فآمنوا واستجابوا، وليس هؤلاء هم المذكورون في سورة يس كما تقدم تقريره في قصة أصحاب القرية. وكفر آخرون من بني إسرائيل، وهم جمهور اليهود فأيّد الله من آمن به على من كَفَر فيما بعد، وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥] الآية.

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/١٢٧، ٥/ ٢٦٢.

فكل من كان إليه أقرب كان عالياً فمن دونه، ولما كان قول المسلمين فيه هو الحقّ الذي لا شك فيه من أنه عبد الله ورسوله، كانوا ظاهرين على النصارى الذين غلوا فيه واطروه، وأنزلوه فوق ما أنزله الله به، ولما كان النصارى أقرب في الجملة مما ذهب إليه اليهود فيه عليهم لعائن الله كان النصارى قاهرين لليهود في أزمان الفترة الى زمن الإسلام وأهله.

ذكر خبر المائدة

قال الله تعالى ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: ١١٢ - ١١٥] قد ذكرنا في التفسير الآثار الواردة في نزول المائدة عن ابن عبّاس وسلمان الفارسي وعمّار بن ياسر وغيرهم من السلف، ومضمون ذلك أن عيسى عليه السلام أمر الحواريين بصيام ثلاثين يوماً، فلمّا أتمّوها سألوا من عيسى إنزال مائدة من السّماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم، أنّ الله قد تقبّل صيامهم وأجابهم إلى طلبتهم، وتكون لهم عيداً يفطرون عليها يوم فطرهم، وتكون كافية لأوّلهم وآخرهم لغنيّهم وفقيرهم، فوعظهم عيسى في ذلك وخاف عليهم أن لا يقوموا بشكرها ولا يؤدّوا حق شروطها فأبوا عليه إلاّ أن يسأل لهم ذلك من ربّه عزّ وجلّ، فلمّا لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مصلاّه ولبس مسحاً من شعر وصف بين قدميه وأطرق رأسه، وأسبل عينيه بالبكاء، وتضرّع إلى الله في الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى ما طلبوا، فأنزل الله تعالى المائدة من السّماء والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين، وجعلت تدنو قليلاً قليلاً، وكلّما دنت سأل عيسى ربّه عزّ وجلّ أن يجعلها رحمةً لا نقمةً، وأن يجعلها بركة وسلامة، فلم تزل تدنو حتى استقرّت بين يدي عيسى عليه السلام وهي مغطّاة بمنديل، فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول: «بِسْمِ اللّهِ خَيْرِ الرَّازِقِينَ» فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة. ويقال: وخلّ. ويقال: ورمّان وثمار، ولها رائحة عظيمة جداً قال الله لها: كوني فكانت، ثم أمرهم بالأكل منها، فقالوا: لا نأكل حتى تأكل، فقال: إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها، فأبوا أن يأكلوا منها ابتداء، فأمر الفقراء والمحاويج والمرضى والزمنى، وكانوا قريبا من ألف وثلثمائة، فأكلوا منها فبرأ كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن، فندم الناس على ترك الأكل منها. لما رأوا من إصلاح حال أولئك. ثم قيل إنها كانت تنزل كل يوم مرّة فيأكل الناس منها، يأكل آخرهم كما يأكل أوّلهم، حتى قيل إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف. ثم كانت تنزل يوماً بعد يوم كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يوماً بعد يوم. ثم أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء أو المحاويج دون الأغنياء، فشق

ذلك على كثير من الناس، وتكلّم منافقوهم في ذلك، فرفعت بالكلّية ومسخ الذين تكلّموا في ذلك خنازير.

وقد روى ابن أبي حاتم وابن جرير جميعا: حدّثنا الحَسَنُ بن قَزْعَةَ البَاهِلِي، حدثنا سفيان بن حَبِيبٍ، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قَتَادَة، عن خَلاَسٍ، عن عمّار بن ياسر عن النبي ﷺ قال: «نَزَلَتِ المَائِدَةُ مِنَ السَّمَاءِ خُبْزٌ وَلَحْمٌ وَأُمِرُوا أَنْ لاَ يَخُونُوا وَلاَ يَدَّخِرُوا وَلاَ يَرْفَعُوا لِغَدٍ فَخَانُوا وَادَّخَرُوا وَرَفَعُوا فَمُسِخُوا قِرَدَةً وَخَنَازِير» ثم رواه ابن جرير عن بِنْدَارٍ عن ابن أبي عَدِيٍّ عن سَعِيدٍ عن قَتَادَةَ عن خَلاَّسٍ عن عمّار موقوفاً، وهذا أصحّ. وكذا رواه من طريق سِمَاكٍ عن رجل من بني عِجْلٍ عن عمّار موقوفاً، وهو الصواب والله أعلم. وَخلاَّسٌ عن عمّار منقطع فلو صحّ هذا الحديث مرفوعاً لكان فيصلاً في هذه القصّة، فإن العلماء اختلفوا في المائدة هل نزلت أم لا، فالجمهور أنها نزلت كما دلّت عليه هذه الآثار كما هو المفهوم من ظاهر سياق القرآن، لا سيّما قوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ كما قرّره ابن جرير والله أعلم. وقد روى ابن جرير بإسناد صحيح إلى مجاهد وإلى الحَسَنِ بن أبي الحسن البَصريّ أنهما قالا: لم تنزل، وأنهم أبوا نزولها حين قال ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾. ولهذا قيل إنّ النصارى لا يعرفون خبر المائدة، وليس مذكوراً في كتابهم مع أن خبرها مما يتوفّر الدواعي على نقله والله أعلم. وقد تقصّينا الكلام على ذلك في التفسير فليكتب من هناك. ومن أراد مراجعته فلينظره من ثمّ ولله الحمد والمنّة.

فصل

قال أبو بكر بن أبي الدُّنْيَا: حدّثنا رجل سقط اسمه، حدّثنا حَجّاجُ بن مُحَمَّدٍ، حدّثنا أبو هلال محمد بن سليمان، عن بكر بن عبد الله المُزَنِي قال: فقد الحواريون نبيّهم عيسى، فقيل لهم توجّه نحو البحر، فانطلقوا يطلبونه فلما انتهوا الى البحر، اذا هو يمشي على الماء يرفعه الموج مرّة ويضعه أخرى، وعليه كساء مرتد بنصفه، ومؤتزر بنصفه حتى انتهى إليهم، فقال له بعضهم قال أبو هلال ـ ظننت أنه من أفاضلهم ـ ألا أجيء اليك يا نبي الله؟ قال: بلى، قال: فوضع إحدى رجليه على الماء ثم ذهب ليضع الأخرى، فقال: أوه غرقت يا نبي الله! فقال: أرني يدك يا قصير الإيمان لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعيرة مشى على الماء. ورواه أبو سعيد بن الاعرابي عن إبراهيم بن أبي الجَحِيم، عن سليمان بن حرب، عن أبي هلال، عن بِكْرٍ بنحوه. ثم قال ابن أبي الدنيا: حدّثنا محمد بن علي بن الحسن بن سفيان، حدّثنا إبراهيم بن الأَشْعَثِ، عن الفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ قال: قيل لعيسى ابن مريم: يا عيسى بأيِّ شيء تمشي على الماء؟ قال: بالإيمان واليقين. قالوا: فإنا آمنا كما آمنت، وأيقنا كما أيقنت، قال: فامشوا إذاً، قال: فمشوا معه في الموج فغرقوا. فقال لهم عيسى: ما لكم؟ فقالوا خفنا الموج، قال: ألا خفتم ربّ الموج؟ قال: فأخرجهم ثم ضرب بيده إلى الارض، فقبض بها ثم بسطها فإذا في إحدى يديه ذهب، وفي الاخرى مدر، أو حصى، فقال: أيهما

أحلى في قلوبكم؟ قالوا: هذا الذهب، قال: فإنهما عندي سواء. وقدّمنا في قصّة يحيى بن زكريا عن بعض السلف: أن عيسى عليه السلام كان يلبس الشعر ويأكل من ورق الشجر، ولا يأوي الى منزل، ولا أهل ولا مال، ولا يدّخر شيئاً لغد. قال بعضهم: كان يأكل من غزل أمّه صلوات الله وسلامه عليه.

وروى ابن عساكر عن الشعبي أنه قال: كان عيسى عليه السلام إذا ذكر عنده الساعة صاح ويقول: لا ينبغي لابن مريم أن تذكر عنده الساعة، ويسكت وعن عبد الملك بن سعيد بن بَحْرٍ أن عيسى كان إذا سمع الموعظة صرخ صراخ الثكلى[1]. وقال عبد الرَّزَّاقِ: أنبأنا مَعْمَرٌ، حدّثنا جعفر بن بُلْقَانَ: أن عيسى كان يقول: «اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره، ولا أملك نفع ما أرجو، وأصبح الأمر بيد غيري، وأصبحتُ مرتهناً بعملي، فلا فقير أفقر مني، اللهمّ لا تشمّت بي عدوّي، ولا تسوء بي صديقي، ولا تجعل مصيبتي في ديني، ولا تسلّطْ عليّ من لا يرحمني».

وقال الفُضَيْلُ بن عِيَاضٍ عن يونس بن عُبَيْدٍ: كان عيسى يقول: «لا نصيب حقيقة الإيمان حتى لا نبالي من أكلَ الدنيا». قال الفضيل: وكان عيسى يقول: «فكّرت في الخلق فوجدت من لم يخلق أغبط عندي ممن خلق». وقال إسحاق بن بِشْرٍ عن هشام بن حسان، عن الحسن، قال: «إن عيسى رأس الزاهدين يوم القيامة». قال وإن الفرّارين بذنوبهم يحشرون يوم القيامة مع عيسى. قال: «وبينما عيسى يوماً نائم على حجر قد توسّده، وقد وجد لذّة النوم، إذ مرّ به إبليس فقال: يا عيسى ألست تزعم أنك لا تريد شيئاً من عرض الدنيا؟ فهذا الحجر من عرض الدنيا! فقال: فقام عيسى فأخذ الحجر ورمى به إليه، وقال هذا لك مع الدنيا». وقال مُعْتَمِرُ بن سليمان: «خرج عيسى على أصحابه وعليه جبّة صوف وكساء وتبان حافياً باكياً شعثاً مصفرّ اللون من الجوع، يابس الشفتين من العطش، فقال: السلام عليكم يا بني إسرائيل، أنا الذي أنزلت الدنيا منزلتها باذن الله، ولا عجب ولا فخر، أتدرون أين بيتي؟ قالوا: أين بيتك يا روح الله؟ قال: بيتي المساجد، وطيبي الماء، وإدامي الجوع، وسراجي القمر بالليل، وصلاتي في الشتاء مشارق الشمس، وريحاني بقول الأرض، ولباسي الصوف[2] وشعاري خوف ربّ العزّة، وجلسائي الزمنى والمساكين، أصبح وليس لي شيء، وأمسي وليس لي شيء، وأنا طيّب النفس غير مكترث، فمن أغنى مني وأربح». رواه ابن عساكر

وروى في ترجمة محمد بن الوليد بن إِبَّانَ بن حبّان أبي الحسن العَقِيلي المصري، حدّثنا هَانِيءُ بن المُتَوَكّلِ الإِسْكَنْدَرَانِي عن حَيْوَةَ بْنَ شُرَيْحٍ، حدّثني الوليد بن أبي الوليد، عن سفي بن مانع عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى عِيسَى أَنْ يَا عِيسَى تَنْقِلْ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ لِئَلا تُعْرَفَ فَتُؤْذَى فَوَعِزَّتِي وَجَلالِي لأُزَوِجَنَّكَ أَلْفَ حَوْرَاءَ، وَلأُولِمَنَّ

---

(١) الثكلى: المرأة فقدت ولدها.

(٢) في ط: الصون.

عَلَيكَ أَرْبَعَمَائَةِ عَام». وهذا حديث غريب رفعه، وقد يكون موقوفاً من رواية سفي بن نَافِع عن كَعْبِ الأَخْبَارَ أو غيره من الإسرائيليين والله أعلم. وقال عبد الله بن المبارك عن سُفْيَان بن عُيَيْنَةَ، عن خَلَفِ بْنِ حَوْشَبٍ قال: قال عيسى للحواريين: «كما ترك لكم الملوك الحِكْمَة فكذلك، فاتركوا لهم الدنيا». وقال قَتَادَةُ: قال عيسى عليه السلام: «سلوني فإني ليّن القلب، وإني صغير عند نفسي» وقال إسماعيل بن عَيَّاشٍ، عن عبد الله بن دِينَارٍ، عن ابن عمر قال: قال عيسى للحواريين: «كلوا خبز الشعير، واشربوا الماء القراح، واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين بحق ما أقول لكم، أن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، وأن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وأن عباد الله ليسوا بالمتنعّمين، بحق ما أقول لكم أن شرّكم عالم يؤثر هواه على علمه، يودّ أن الناس كلّهم مثله».

ورُوِيَ نحوه عن أبي هريرة. وقال أبو مُصْعَبٍ عن مالك أنه بلغه أن عيسى كان يقول: «يا بني إسرائيل عليكم بالماء القراح، والبقل البرّي وخبز الشعير، وإيّاكم وخبز البرّ فإنكم لن تقوموا بشكره» وقال ابن وهب عن سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد، قال: كان عيسى يقول: «اعْبُرُوا الدُّنْيَا وَلاَ تَعْمُرُوهَا» وكان يقول: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَالنَّظَرُ يَزْرَعُ فِي القَلْبِ الشَّهْوَةَ». وحكى وُهَيْبِ بْنِ الوَرْدِ مثله، وزاد «وَرُبَّ شَهْوَةٍ أَوْرَثَتْ أَهْلَهَا حُزْناً طَوِيلاً» وعن عيسى عليه السلام «يَا ابْنَ آدم الضعيف اتقِ الله حيث ما كنت، وكن في الدنيا ضيفاً، واتخذ المساجد بيتاً، وعلّم عينك البكاء، وجسدك الصبر، وقلبك التفكّر، ولا تهتم برزق غد فإنها خطيئة» وعنه عليه السلام أنه قال: «كما أنه لا يستطيع أحدكم أن يتّخذ على موج البحر داراً فلا يتخذ الدنيا قراراً» وفي هذا يقول سابق البربري. [البسيط]

لَكُمْ بُيُوتٌ بِمُسْتَنِ السُّيُوفِ وَهَلْ يُبْنَى عَلَى المَاءِ بَيْتٌ أُسُّهُ مَدَرُ[1]

وقال سُفْيَانُ الثَّوْرِي: قال عيسى ابن مريم: «لا يستقيم حبّ الدنيا وحب الآخرة في قلب مؤمن، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء». وقال إبراهيم الحَرْبي عن داود بن رشيد، عن أبي عبد الله الصوفي قال: قال عيسى: «طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر، كلّما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله» وعن عيسى عليه السلام: «إنّ الشيطان مع الدنيا، وفكره مع المال، وتزيينه مع الهوى، واستمكانه عند الشهوات» وقال الأَعْمَشُ عن خَيْثَمَةَ: كان عيسى يضع الطعام لأصحابه ويقوم عليهم ويقول: «هكَذَا فَاصْنَعُوا بِالقِرَى». وبه، قالت امرأة لعيسى عليه السلام: طوبى لحجر حملك، ولثدي أرضعك. فقال: «طوبى لمن قرأ كتاب الله واتّبعه». وعنه «طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته، وحفظ لسانه، ووسعه بيته». وعنه «طوبى لعين نامت ولم تحدّث نفسها بالمعصية، وانتبهت إلى غير إثم» وعن مَالِك بن دِينَارٍ قال: مرّ عيسى وأصحابه بجيفة فقالوا: ما أنتن ريحها فقال: «ما أبيض أسنانها» لينهاهم عن الغيبة. وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدّثنا الحسين بن عبد الرحمن، عن زَكَرِيَّا بن عَدِيٍّ

(١) المدر: الطين.

قال: قال عيسى ابن مريم: «يا معشر الحواريين ارضوا بدني الدنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدنيا بدني الدين مع سلامة الدنيا». قال زكريا وفي ذلك يقول الشاعر. [البسيط].

أَرَى رِجَالاً بِأَدْنَى الدِّينِ قَدْ قَنِعُوا ... وَلاَ أَرَاهُمْ رَضُوا في العَيْشِ بِالدُّونِ
فَاسْتَغْنِ بِالدِّينِ عَنْ دُنْيَا المُلُوكِ كَمَا ... اسْتَغْنَى المُلُوكُ بِدُنْيَاهُمْ عَنِ الدِّينِ

وقال أبو مصعب عن مالك: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: «لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيد من الله، ولكن لا تعلمون. ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب، وانظروا فيها كأنّكم عبيد، فإنّما الناس رجلان معافي ومبتلى، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية». وقال الثوري: سمعت أبي يقول عن إبراهيم التَّيْمِي، قال: قال عيسى لأصحابه: «بحقّ أقول لكم من طلب الفردوس فخبز الشعير، والنوم في المزابل مع الكلاب كثير». وقال مالك بن دينار: قال عيسى: «إن أكل الشعير مع الرّماد، والنوم على المزابل مع الكلاب، لقليل في طلب الفردوس». وقال عبد الله بن المبارك: أنبأنا سفيان عن منصور، عن سالم بن أبي الجَعْدِ قال: قال عيسى: اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم، انظروا إلى هذه الطير تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد، والله يرزقها فإن قلتم نحن أعظم بطوناً من الطّير، فانظروا إلى هذه الأمة من الوحوش والحمر، فإنها تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها. اتقوا فضول الدنيا فإن فضول الدنيا عند الله رجز» وقال صَفْوَانُ بن عمرو، عن شُرَيْح بن عبد الله، عن يَزِيد بن مَيْسَرَةَ قال: قال الحواريون للمسيح: يا مسيح الله انظر إلى مسجد الله ما أحسنه، قال: «آمين آمين بحق ما أقول لكم لا يترك الله من هذا المسجد حجراً قائماً إلاّ أهلكه بذنوب أهله، إنّ الله لا يصنع بالذهب ولا بالفضة ولا بهذه الأحجار التي تعجبكم شيئاً إن أحب إلى الله منها القلوب الصالحة، وبها يعمّر الله الأرضَ، وبها يخرب الله الأرض إذا كانت على غير ذلك.

وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في تاريخه: أخبرنا أبو منصور أحمد بن محمد الصُّوفي، أخبرتنا عائشة بنت الحسن بن إبراهيم الوَرْكَانِيَّةِ قالت: حدّثنا أبو محمد عبد الله بن عمر بن عبد الله بن الهَيْثِم املاء، حدّثنا الوليد بن أَبَانٍ املاء، حدّثنا أحمد بن جعفر الرازي، حدّثنا سهيل بن إبراهيم الحَنْظَلِي، حدّثنا عبد الوهاب بن عبد العزيز، عن المُعْتَمِر، عن لَيْثٍ، عن مجاهد، عن ابن عبّاس عن النبي ﷺ قال: «مَرَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ عَلَى مَدِينَةٍ خَرِبَةٍ فَأَعْجَبَهُ البُنْيَانُ. فَقَالَ: أَيْ رَبِّ مُرْ هَذِهِ المَدِينَةَ أَنْ تُجِيبَنِي؟ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى المَدِينَةِ أَيَّتُهَا المَدِينَةُ الخَرِبَةُ جَاوِبِي عِيسَى قَالَ: فَنَادَتِ المَدِينَةُ عِيسَى حَبِيبِي وَمَا تُرِيدُ مِنِّي؟ قَالَ: مَا فَعَلَ أَشْجَارُكِ وَمَا فَعَلَ أَنْهَارُكِ وَمَا فَعَلَ قُصُورُكِ وَأَيْنَ سُكَّانُكِ؟ قَالَتْ: حَبِيبِي جَاءَ وَعْدُ رَبِّكَ الحَقُّ فَيَبِسَتْ أَشْجَارِي، وَنَشِفَتْ أَنْهَارِي، وَخَرِبَتْ قُصُورِي، وَمَاتَ سُكَّانِي. قَالَ: فَأَيْنَ أَمْوَالُهُمْ؟ فَقَالَتْ: جَمَعُوهَا مِنَ الحَلاَلِ وَالحَرَامِ مَوْضُوعَةٌ فِي بَطْنِي. لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ

وَالأَرْضِ. قَالَ: فَنَادَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ: فَتَعَجَّبَ مِنْ ثَلاَثِ أُنَاسٍ: طَالِبِ الدُّنْيَا وَالمَوْتُ يَطْلُبُهُ، وَبَانِي القُصُورِ وَالقَبْرُ مَنْزِلُهُ، وَمَنْ يَضْحَكُ مِلْءَ فِيهِ وَالنَّارُ أَمَامَهُ! ابْنَ آدَمَ لاَ بِالْكَثِيرِ تَشْبَعُ وَلاَ بِالْقَلِيلِ تَقْنَعُ، تَجْمَعُ مَالَكَ لِمَنْ لاَ يَحْمَدُكَ، وَتَقْدَمُ عَلَى رَبٍّ لاَ يَعْذُرُكَ، إِنَّما أَنْتَ عَبْدُ بَطْنِكَ وَشَهْوَتِكَ، وَإِنَّمَا تَمْلأُ بَطْنَكَ إِذَا دَخَلْتَ قَبْرَكَ، وَأَنْتَ يَا ابْنَ آدَمَ تَرَى حَشْدَ مَالِكَ فِي مِيزَانِ غَيْرِكَ» هذا حديث غريب جداً وفيه موعظة حسنة فكتبناه لذلك.

وقال سفيان الثوري عن أبيه عن إبراهيم التَّيْمِي قال: قال عيسى عليه السلام: «يا معشر الحواريين اجعلوا كنوزكم في السماء، فإن قلب الرجل حيث كنزه». وقال ثَوْرِ بن يَزيد، عن عبد العزيز بن ظُبْيَانَ قال: قال عيسى ابن مريم: «من تعلّم وعلم وعمل دعي عظيماً في ملكوت السماء». وقال أبو كُرَيْبٍ رُوِيَ أن عيسى عليه السلام قال: «لا خير في علم لا يَعْبُر معك الوادي ويعبر بك النادي».

وروى ابن عساكر باسناد غريب عن ابن عبّاس مرفوعاً، أن عيسى قام في بني إسرائيل فقال: «يا معشر الحواريين لا تحدثوا بالحكم غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، والأمور ثلاثة: أمر تبيّن رشده فاتبعوه، وأمر تبيّن غيّه فاجتنبوه، وأمر اختلف عليكم فيه فردّوا علمه إلى الله عزّ وجلّ». وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرٌ عن رجل، عن عِكْرِمَةَ، قال: قال عيسى: «لا تطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير فإن الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئاً، ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها فإن الحكمة خير من اللؤلؤ، ومن لا يريدها شرّ من الخنزير».

وكذا حكى وهب وغيره عنه، وعنه أنه قال لأصحابه: «أنتم ملح الارض فإذا فسدتم فلا دواء لكم، وأنّ فيكم خصلتين من الجهل الضحك من غير عجب والصبحة من غير سهر». وعنه أنه قيل له من أشد الناس فتنة؟ قال: «زلة العالم فإن العالم إذا زلّ يزلّ بزلّته عالم كثير». وعنه أنه قال: «يا علماء السوء جعلتم الدنيا على رؤوسكم والآخرة تحت أقدامكم، قولكم شفاء، وعملكم دواء، مثلكم مثل شجرة الدفلى تعجب من رآها وتقتل من أكلها». وقال وَهْبٌ: قال عيسى: «يا علماء السوء جلستم على أبواب الجنّة فلا تدخلوها ولا تَدْعون المساكين يدخلونها، إن شرّ الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه». وقال مكحول: «التقى يحيى وعيسى، فصافحه عيسى وهو يضحك، فقال له يحيى: يا ابن خالة ما لي أراك ضاحكاً كأنك قد أمنت؟» فقال له عيسى: «ما لي أراك عابساً كأنك قد يئست» فأوحى الله اليهما (إنّ أحبكما اليّ أبشّكما بصاحبه). وقال وَهْبُ بن مُنَبِّهٍ: وقف عيسى هو وأصحابه على قبر وصاحبه يدلّى فيه، فجعلوا يذكرون القبر وضيقه فقال: «قد كنتم فيما هو أضيق منه من أرحام أمهاتكم، فإذا أحب الله أن يوسّع وسّع» وقال أبو عمر الضَّرِير: بلغني أن عيسى كان إذا ذكر الموت يقطر جلده دماً. والآثار في مثل هذا كثيرة جداً. وقد أورد الحافظ ابن عساكر منها طرفاً صالحاً اقتصرنا منها على هذا القدر والله الموفّق للصواب.

[ذكر][1] رفع عيسى عليه السلام الى السماء في حفظ الربّ وبيان كذب اليهود والنصارى [عليهم لعنة الله][2] في دعوى الصلب

قال الله تعالى ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٤ ـ ٥٥].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٥ ـ ١٥٩] فأخبر تعالى أنه رفعه الى السماء بعد ما توفّاه بالنوم على الصحيح المقطوع به، وخلّصه ممن كان أراد أذيّته من اليهود الذين وشوا به الى بعض الملوك الكفرة في ذلك الزمان.

قال الحسن البصريّ ومحمد بن إسحاق: كان اسمه: داود بن نورا فأمر بقتله وصلبه، فحصروه في دار ببيت المقدس وذلك عشية الجمعة ليلة السبت، فلمّا حان وقت دخولهم ألقى شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده، ورفع عيسى من روزنة[3] ذلك البيت إلى السماء، وأهل البيت ينظرون، ودخل الشرط فوجدوا ذلك الشاب الذي ألقي عليه شبهه فأخذوه ظانين أنه عيسى، فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له، وسلّم لليهود عامة النصارى، الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صلب، وضلّوا بسبب ذلك ضلالاً مبيناً كثيراً فاحشاً بعيداً. وأخبر تعالى بقوله ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي بعد نزوله إلى الارض في آخر الزمان قبل قيام الساعة، فإنه ينزل ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ولا يقبل إلاّ الاسلام كما بيّنا ذلك بما ورد فيه من الأحاديث عند تفسير هذه الآية الكريمة من سورة النساء، وكما سنورد ذلك مستقصى في كتاب الفتن والملاحم عند أخبار المسيح الدجال، فنذكر ما ورد في نزول المسيح المهديّ عليه السلام من ذي الجلال، لقتل المسيح الدجّال الكذّاب الداعي الى الضلال.

وهذا ذكر ما ورد في الآثار في صفة رفعه الى السماء.

قال ابن أبي حاتم: حدّثنا أحمد بن سِنَانٍ، حدثنا أبو مُعَاوِيَةَ، عن الأَعْمَشِ، عن

(١) سقط في ط.

(٢) سقط في ط.

(٣) روزنة: أي كوة.

المِنْهَالِ بن عَمْرو، عن سَعِيدِ بن جُبَيْر، عن ابن عبّاس، قال: لما اراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً منهم من الحواريين يعني فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء فقال: «إنّ منكم من يكفر بي اثني عشرة مرّة بعد أن آمن بي، ثمّ قال: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني فيكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سِناً، فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا. فقال: أنت هو ذاك، فألقى عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء. قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه، ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثني عشرة مرّة بعد أنْ آمن به، وافترقوا ثلاث فِرَق:

فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد الى السماء، وهؤلاء اليعقوبية.

وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه وهؤلاء النسطورية.

وقالت فرقة كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ثم رفعه الله إليه وهؤلاء المسلمون. فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ». قال ابن عباس: وذلك قوله تعالى ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤] وهذا إسناد صحيح الى ابن عبّاس على شرط مسلم، ورواه النسائي عن أبي كُرِيبِ، عن أبي معاوية به نحوه. ورواه ابن جرير عن مسلم بن جُنادَةَ، عن أبي معاوية. وهكذا ذكر غير واحد من السلف وممن ذكر ذلك مطوّلاً محمد بن اسحاق بن بشّار قال: وجعل عيسى عليه السلام يدعو الله عزّ وجلّ أن يؤخّر أجله، يعني ليبلّغ الرسالة ويكمل الدعوة ويكثر الناس الدخول في دين الله، قيل وكان عنده من الحواريين اثني عشر رجلاً بطرس ويعقوب بن زبدا ويحنس اخو يعقوب واندراوس وفليبس وأبرثلما ومتى وتوماس ويعقوب بن حلقيا وتداوس وفتاتيا ويودس كريايوطا وهذا هو الذي دلّ اليهود على عيسى. قال ابن اسحاق وكان فيهم رجل آخر اسمه سرجس كتمته النصارى، وهو الذي أُلقي شبه المسيح عليه فصلب عنه. قال: وبعض النصارى يزعم أنّ الذي صلب عن المسيح وأُلقيَ عليه شبهه هو يودس بن كريا يوطا والله أعلم.

وقال الضحّاك عن ابن عبّاس: استخلف عيسى شمعون، وقتلت اليهود يودس الذي أُلقي عليه الشبه، وقال احمد بن مروان: حدّثنا محمد بن الجَهْم، قال: سمعت الفَرّاء يقول في قوله ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ قال: إن عيسى غاب عن خالته زماناً، فأتاها فقام رأس الجالوت اليهودي فضرب على عيسى حتى اجتمعوا على باب داره، فكسروا الباب ودخل رأس جالوت ليأخذ عيسى، فطمس الله عينيه عن عيسى، ثم خرج إلى أصحابه فقال: لم أره ومعه سيف مسلول، فقالوا: أنت عيسى وألقى الله شبه عيسى عليه، فأخذوه فقتلوه وصلبوه. فقال جلّ ذكره ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْدٍ حدثنا يَعْقُوبُ القُمّي، عن هَرُونَ بن عَنْتَرَةَ، عن وَهْبِ بن مُنَبِّهٍ قال: أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحوارين في بيت، فأحاطوا بهم، فلما دخلوا عليهم صوّرهم

الله كلهم على صورة عيسى، فقالوا لهم: سحرتمونا لتبرزن إلينا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً، فقال عيسى لأصحابه: من يشتري منكم نفسه اليوم بالجنّة؟ فقال رجل: أنا فخرج إليهم فقال: أنا عيسى وقد صوّره الله على صورة عيسى، فأخذوه فقتلوه وصلبوه، فمن ثمّ شبّه لهم وظنّوا أنهم قد قتلوا عيسى، فظنّت النصارى مثل ذلك أنّه عيسى، ورفع الله عيسى من يومه ذلك.

قال ابن جرير: وحدّثنا المُثَنّى، حدّثنا إسحاق[١]، حدّثنا إسماعيل بن عبد الكريم، حدّثني عبد الصمد بن مَعْقِلٍ أنه سمع وهباً يقول: إنّ عيسى ابن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت، وشقّ عليه، فدعا الحواريين وصنع لهم طعاماً، فقال: «احضروني الليلة فإن لي إليكم حاجة، فلمّا اجتمعوا إليه من الليل عشاهم وقام يخدمهم، فلمّا فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده ويمسح أيديهم بثيابه، فتعاظموا ذلك وتكارهوه، فقال: ألا من ردّ عليّ شيئاً الليلة مما أصنع فليس مني ولا أنا منه، فأقرّوه حتى إذا فرغ من ذلك قال: أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي، فليكن لكم بي أسوة، فإنّكم ترون أني خيركم، فلا يتعظم بعضكم على بعض، وليبذل بعضكم لبعض نفسه، كما بذلت نفسي لكم، وأما حاجتي التي استعنتكم عليها، فتدعون الله لي وتجتهدون في الدعاء أن يؤخّر أجلي، فلمّا نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا، أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء، فجعل يوقظهم ويقول: سبحان الله أما تصبرون لي ليلة واحدة تعينوني فيها، فقالوا: والله ما ندري ما لنا والله لقد كنّا نسمر[٢] فنكثر السمر، وما نطيق الليلة سمراً، وما نريد دعاء إلاّ حيل بيننا وبينه، فقال: يذهب بالراعي وتتفرّق الغنم. وجعل يأتي بكلام نحو هذا، ينعي به نفسه. ثم قال: الحق ليكفرنّ بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرّات، وليبيعني أحدكم بدراهم يسيرة، وليأكلن ثمني. فخرجوا وتفرّقوا، وكانت اليهود تطلبه، فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا: هذا من أصحابه فجحد[٣] وقال: ما أنا بصاحبه فتركوه. ثم أخذه آخرون فجحد كذلك، ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه. فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال: ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً، فأخذها ودلّهم عليه، وكان شبّه عليهم قبل ذلك فأخذوه، واستوثقوا منه وربطوه بالحبل، وجعلوا يقودونه ويقولون أنت كنت تحيي الموتى وتنتهر[٤] الشيطان وتبرىء المجنون، أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل؟ ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها، فرفعه الله اليه، وصلبوا ما شبّه لهم فمكث سبعاً. ثم إن أمّه والمرأة التي كان يداويها عيسى فأبرأها الله من

(١) هو إسحاق بن الحجّاج.

(٢) السمر: حديث الليل.

(٣) جحد: أنكر.

(٤) نهر: زجر.

الجنون، جاءتا تبكيان حيث كان المصلوب، فجاءهما عيسى فقال: على ما تبكيان؟ قالتا: عليك، فقال: إني قد رفعني الله اليه ولم يصبني إلاّ خير، وإنّ هذا شيء شبّه لهم، فأمر الحواريين [أن] يلقوني إلى مكان كذا وكذا، فلقوه الى ذلك المكان أحد عشر، وفقد الذي كان باعه ودلّ عليه اليهود، فسأل عنه أصحابه فقالوا: إنه ندم على ما صنع فاختنق وقتل نفسه، فقال: لو تاب لتاب الله عليه. ثم سألهم عن غلام بينهم يقال له: يحيى، فقال: هو معكم فانطلقوا فانه سيصبح كل انسان منكم يحدّث بلغة قوم فلينذرهم وليدعهم.

وهذا إسناد غريب عجيب، وهو أصحّ مما ذكره النصارى من أن المسيح جاء إلى مريم وهي جالسة تبكي عند جذعة، فأراها مكان المسامير من جسده، وأخبرها أن روحه رفعت. وأن جسده صلب، وهذا بهتٌ وكذب واختلاق وتحريف وتبديل، وزيادة باطلة في الانجيل على خلاف الحق ومقتضى النقل.

وحكى الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن حبيب فيما بلغه أن مريم سألت من بيت الملك بعد ما صلب المصلوب بسبعة أيام، وهي تحسب أنه ابنها أن ينزل جسده، فأجابهم الى ذلك ودفن هنالك، فقالت مريم لأم يحيى: ألا تذهبين بنا نزور قبر المسيح؟ فذهبتا فلمّا دنتا من القبر قالت مريم لأم يحيى: ألا تستترين؟ فقالت: وممن استتر؟ فقالت: من هذا الرجل الذي هو عند القبر، فقالت أم يحيى: إني لا أرى أحداً فرجت مريم أن يكون جبريل، وكانت قد بعد عهدها به، فاستوقفت أم يحيى وذهبت نحو القبر، فلمّا دنت من القبر قال لها جبريل وعرفته: يا مريم أين تريدين؟ فقالت: أزور قبر المسيح فأسلّم عليه، وأحدث عهداً به. فقال: يا مريم إنّ هذا ليس المسيح، إن الله قد رفع المسيح وطهّره من الذين كفروا، ولكن هذا الفتى الذي ألقي شبهه عليه وصلب وقتل مكانه. وعلامة ذلك أن أهله قد فقدوه فلا يدرون ما فعل به، فهم يبكون عليه، فإذا كان يوم كذا وكذا فأتِ غيضة كذا وكذا فإنك تلقين المسيح. قال: فرجعت الى أختها وصعد جبريل، فأخبرتها عن جبريل وما قال لها من أمر الغيضة. فلما كان ذلك اليوم ذهبت فوجدت عيسى في الغيضة، فلمّا رآها أسرع إليها وأكب عليها فقبّل رأسها، وجعل يدعو لها كما كان يفعل وقال: يا امه إن القوم لم يقتلوني ولكن الله رفعني اليه، وأذن ليْ في لقائك، والموت يأتيك قريباً فاصبري واذكري الله كثيراً، ثم صعد عيسى فلم تلقه إلاّ تلك المرّة حتى ماتت. قال: وبلغني أن مريم بقيت بعد عيسى خمس سنين وماتت ولها ثلاث وخمسون سنة رضي الله عنها وأرضاها.

وقال الحسن البصري: كان عمر عيسى عليه السلام يوم رفع أربعاً وثلاثين سنة، وفي الحديث «إنّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَدْخُلُونَهَا جُرْداً مُرْداً[٢] مُكَحَّلِينَ أَبْنَاءَ ثَلاثَ وَثَلاثِينَ»[٣]. وفي الحديث الآخر على ميلاد عيسى وحُسْن يوسف. وكذا قال حَمَّادُ بن سَلَمَةَ عن علي بن

(١) الغيضة: المكان الملتف بالشجر.

(٢) الأمرد: الشاب الذي لم تنبت لحيته.

(٣) أخرجه الترمذي في صفة الجنة باب ١٢، وأحمد في المسند ٥/٢٤٣.

زيد، عن سعيد بن المُسَيِّبِ، أنه قال: رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة[1].

فأما الحديث الذي رواه الحاكم في مستدركه ويعقوب بن سفيان الفَسَوِي في تاريخه عن سعيد بن أبي مريم، عن نَافِع بن يَزِيد، عن عمارة بن غُزَيَّةَ، عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان: أن أمّه فاطمة بنت الحسين حدثته: أن عائشة كانت تقول: أخبرتني فاطمة أن رسول الله ﷺ أخبرها «أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ كان بعده نبيّ إِلاَّ عَاشَ الَّذِي بَعْدَهُ نِصْفَ عُمْرِ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ» وَأَنَّهُ أَخْبَرَنِي «أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَاشَ عِشْرِينَ وَمَائَةَ سَنَةٍ، فَلاَ أَرَانِي إِلاَّ ذَاهِبٌ عَلَى رَأْسِ سِتِّينَ». هذا لفظ الفَسَوِي فهو حديث غريب [جداً][2].

قال الحافظ ابن عساكر: والصحيح أن عيسى لم يبلغ هذا العمر، وإنّما أراد به مدّة مقامه في أمّته كما روى سفيان بن عُيَيْنَةَ عن عَمْرِو بن دِينَارٍ، عن يحيى بن جَعْدَةَ قال: قالت فاطمة: قال لي رسول الله ﷺ: «أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مَكَثَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَرْبَعِينَ سَنَةً» وهذا منقطع. وقال جرير والثَّوْري عن الأَعْمَشِ: أن إبراهيم مكث عيسى في قومه أربعين عاماً. ويُرْوَى عن أمير المؤمنين عليّ: أن عيسى عليه السلام رفع ليلة الثاني والعشرين من رمضان، وتلك الليلة في مثلها توفي عليّ بعد طعنه بخمسة أيام. وقد روى الضَّحَّاكِ عن ابن عبّاس أن عيسى لما رفع إلى السماء جاءته سحابة فدنت منه حتى جلس عليها، وجاءته مريم فودّعته وبكت، ثم رفع وهي تنظر، وألقى إليها عيسى برداً له وقال: هذا علامة ما بيني وبينك يوم القيامة. وألقى عمامته على شمعون، وجعلت أمّه تودّعه بإصبعها تشير بها إليه حتى غاب عنها، وكانت تحبّه حبًّا شديداً لأنه توفّر عليها حبّه من جهتي الوالدين، إذ لا أب له. وكانت لا تفارقه سفراً ولا حضراً. قال بعض الشعراء: [الطويل]

وَكُنْتُ أَرَى كَالْمَوْتِ مِنْ بَيْنِ[3] سَاعَةٍ　　فَكَيْفَ بِبَيْنٍ كَانَ مَوْعِدُهُ الحَشْرُ

وذكر إسحاق بن بشر عن مجاهد بن جُبَيْر: أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل الذي شبّه لهم، وهم يحسبونه المسيح، وسلّم لهم أكثر النصارى بجهلهم ذلك، تسلّطوا على أصحابه بالقتل والضرب والحبس، فبلغ أمرهم إلى صاحب الروم، وهو ملك دمشق في ذلك الزمان فقيل له: إن اليهود قد تسلّطوا على أصحاب رجل كان يذكر لهم أنه رسول الله، وكان يحيي الموتى ويبرىء الأكْمَه والأبرص ويفعل العجائب، فعدوا عليه فقتلوه، وأهانوا أصحابه وحبسوهم، فبعث فجيء بهم وفيهم يحيى بن زكريا وشمعون وجماعة، فسألهم عن أمر المسيح فأخبروه عنه، فبايعهم في دينهم وأعلى كلمتهم وظهر الحق على اليهود، وعلت كلمة النصارى عليهم وبعث إلى المصلوب فوضع عن جذعه. وجيء بالجذع الذي صلب عليه ذلك الرجل فعظّمه، فمن ثَمّ عظّمت النصارى الصليب، ومن ها هنا دخل دين النصرانية في الروم، وفي هذا نظر من وجوه. أحدها أنّ يحيى بن زكريا نبي لا يقرّ على أن

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٤٣.
(٢) سقط في ط.
(٣) البين: الفراق.

المصلوب عيسى، فإنه معصوم يعلم ما وقع على جهة الحق. الثاني أن الروم لم يدخلوا في دين المسيح إلاّ بعد ثلثمائة سنة، وذلك في زمان قسطنطين بن قسطن باني المدينة المنسوبة إليه على ما سنذكره. الثالث أن اليهود لمّا صلبوا ذلك الرجل، ثم ألقوه بخشبته جعلوا مكانه مطرحاً للقمامة والنجاسة وجيف الميتات والقاذورات، فلم يزل كذلك حتى كان في زمان قسطنطين المذكور، فعمدت أمه هيلانة الحرّانية الفندقانية فاستخرجته من هنالك معتقدة أنه المسيح، ووجدوا الخشبة التي صلب عليها المصلوب، فذكروا أنه ما مسّها ذو عاهة إلاّ عوفي فالله أعلم أكان هذا أم لا؟ وهل كان هذا لأن ذلك الرجل الذي بذل نفسه كان رجلاً صالحاً، أو كان هذا محنة وفتنة لأمة النصارى في ذلك اليوم، حتى عظّموا تلك الخشبة وغشوها بالذهب واللآلىء، ومن ثمّ اتخذوا الصلبانات وتبرّكوا بشكلها وقبّلوها. وأمرت أم الملك هيلانة فأزيلت تلك القمامة وبني مكانها كنيسة هائلة مزخرفة بأنواع الزينة، فهي هذه المشهورة اليوم ببلد بيت المقدس التي يقال لها القمامة باعتبار ما كان عندها، ويسمّونها القيامة يعنون التي يقوم جسد المسيح منها. ثم أمرت هيلانة بأن توضع قمامة البلد وكناسته وقاذوراته على الصخرة التي هي قبلة اليهود، فلم يزل كذلك حتى فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس، فكنس عنها القمامة بردائه، وطهّرها من الأخباث والأنجاس، ولم يضع المسجد وراءها، ولكن أمامها حيث صلّى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء بالأنبياء وهو الأقصى[(١)].

[ذكر][(٢)] صفة عيسى عليه السلام وشمائله وفضائله

قال الله تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

قيل سمّي المسيح لمسحه الارض، وهو سياحته فيها وفراره بدينه من الفتن في ذلك الزمان، لشدّة تكذيب اليهود له وافترائهم عليه، وعلى أمّه عليهما السلام. وقيل لأنه كان ممسوح القدمين.

وقال تعالى ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾[المائدة: ٤٦] وقال تعالى ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧] والآيات في ذلك كثيرة جداً، وقد تقدّم ما ثبت في الصحيحين «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاّ وَالشَّيْطَانُ يَطْعَنُ فِي خَاصِرَتِهِ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخاً إِلاّ مَرْيَمَ وَابْنَهَا ذَهَبَ يَطْعَنُ فَطَعَنَ فِي الحِجَابِ»[(٣)] وتقدّم حديث عُمَيْر بن هَانِيء عن جُنَادَةَ، عن عُبَادَةَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُه وَأَنَّ عِيسَى

(١) أي المسجد الأقصى.

(٢) سقط في ط.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٤٤، ومسلم في الفضائل حديث ١٤٦، وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٣.

عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ الَّتِي أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَالجَنَّةَ حَقٌّ، والنارُ حقٌّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ»[١] رواه البخاري (وهذا لفظه ومسلم).

وروى البخاري ومسلم من حديث الشّعبي عن أبي بُرْدَةَ بن أبي موسى، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَدَّبَ الرَّجُلُ أَمَتَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا كَانَ لَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا آمَنَ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ثُمَّ آمَنَ بِي فَلَهُ أَجْرَانِ، وَالعَبْدُ إِذَا اتَّقَى رَبَّهُ وَأَطَاعَ مَوَالِيهِ فَلَهُ أَجْرَانِ»[٢] هذا لفظ البخاري. وقال البخاري: حدّثنا إبراهيم بن موسى، أنبأنا هشام عن مَعْمَرٍ (ح) وحدّثني محمود، حدّثنا عبد الرَّزّاق أنبأنا مَعْمَرٌ عن الزُّهْرِي، أخبرني سَعِيدُ بْنُ المُسَيَّبِ عن أبي هريرة، قال: قال النبي ﷺ «لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي لَقِيتُ مُوسَى»، قَالَ: فنعته «فَإِذَا رَجُلٌ» حَسِبْتُهُ «قَالَ مُضْطَرِبٌ رَجِلُ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ» قَالَ: «وَلَقِيتُ عِيسَى» فَنَعَتَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «رَبْعَةٌ أَحْمَرُ كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيماسٍ»، يَعْنِي الحَمَّامَ، «وَرَأَيْتُ ابْرَاهِيمَ وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِهِ بِهِ»[٣] الحديث وقد تقدّم في قصتي إبراهيم وموسى، ثم قال: حدثنا محمد بن كثير، أنبانا إسرائيل عن عُثْمَان بن المُغِيرَةِ، عن مجاهد عن ابن عمر قال: قال النبي ﷺ «رَأَيْتُ عِيسَى وَمُوسَى وَابْرَاهِيم. فَأَمَّا عَيسَى فَأَحْمَرُ جَعْدٌ عَرِيضُ الصَّدْرِ. وَأَمَّا مُوسَى فَآدَمُ جَسِيمٌ سَبِطٌ[٤]، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ الزُّطِّ»[٥] تفرّد به البخاري. وحدّثنا إبراهيم بن المنذر، حدّثنا أبو ضَمْرَةَ، حدّثنا موسى بن عقبة عن نافع، قال: قال عبد الله بن عمر: ذكر النبي ﷺ يوماً بين ظهراني الناس المسيح الدجّال فقال: «إنّ الله ليس بأعورَ إلاّ أنّ المَسِيحَ الدَجَّالَ أَعْوَرُ العَيْنِ اليُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ [عِنَبَةٌ][٦] طَافِيَةٌ، وَأَرَانِي اللَّيْلَةَ عِنْدَ الكَعْبَةِ فِي المَنَامِ، فَإِذَا رَجُلٌ آدَمُ كَأَحْسَنِ مَا يُرَى مِنْ آدَمِ الرِّجَالِ، تَضْرِبُ لِمَّتُهُ بَيْنَ مِنْكَبَيْهِ، رَجِلُ الشَّعْرِ يَقْطُرُ رَأْسُهُ مَاءً، وَاضِعاً يَدَيْهِ عَلَى مَنْكِبَيْ رَجُلَيْنِ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ. ثُمَّ رَأَيْتُ رَجُلاً وَرَاءَهُ جَعْدٌ قَطَطٌ[٧] أَعْوَرُ عَيْنِ اليُمْنَى كَأَشْبَهِ مَنْ رَأَيْتُ بِابْنِ قَطْنٍ، وَاضِعاً يَدَهُ عَلَى مَنْكِبَيْ رَجُلٍ يَطُوفُ بِالْبَيتِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا المَسِيحُ الدَّجَّالُ»[٨]. ورواه مسلم من حديث موسى بن عُقْبة. ثم قال البخاري: تابعه عبد الله بن نافع، ثم ساقه من طريق الزُّهري عن سالم بن عمر قال الزُّهري وابْنُ قُطْنٍ: رجل من خزاعة

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٤٧، ومسلم في الإيمان حديث ٤٦، وأحمد في المسند ٥/ ٣١٣، ٣١٤.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٤٨، ومسلم في الإيمان حديث ٢٤١، وأحمد في المسند ٤/ ٣٩٥.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٤٨، ومسلم في الإيمان حديث ٢٧٢، وأحمد في المسند ٢/ ٢٨٢.

(٤) سبط: طويل.

(٥) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٤٨.

(٦) سقط في ط.

(٧) قطط: القصير الجعد من الشعر.

(٨) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب ٤٨، ومسلم في الإيمان حديث ٢٧٥، والفتن حديث ١٠٠.

هلك في الجاهلية. فبين صلوات الله وسلامه عليه صفة المسيحين مسيح المهدي ومسيح الضلالة ليعرف هذا إذا نزل فيؤمن به المؤمنون، ويُعرف الآخر فيحذره الموحّدون. وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد، حدّثنا عبد الرزاق، أنبأنا مَعْمَرٌ عن هَمّام بن مُنَبِّهٍ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «رَأَى عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَجُلاً يَسْرِقُ فَقَالَ لَهُ: أَسَرَقْتَ؟ قال: كلا والذي لا إله إلاّ هو، فقال عيسى: آمنت بالله وكذّبت عيني»[1]. وكذا رواه مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق، وقال أحمد: حدّثنا عفّان، حدثنا حَمّادُ بْنُ سَلَمَةَ عن حَمِيد الطّويل، عن الحَسَنِ وغيره، عن أبي هريرة قال: ولا أعلمه إلاّ عن النبي ﷺ قال: «رأى عِيسى رَجُلاً يَسْرِقُ فَقَالَ يَا فُلانُ أَسَرَقْتَ؟ فَقَالَ: لاَ وَاللَّهِ مَا سَرَقْتُ، فَقَالَ آمَنْتُ بِاللَّهِ وَكَذَّبْتُ بَصَرِي»[2]. وهذا يدلّ على سجية طاهرة حيث قدم حلف ذلك الرجل، فظنّ أن أحداً لا يحلف بعظمة الله كاذباً على ما شاهده منه عياناً، فقبل عذره ورجع على نفسه، فقال: آمنت بالله أي صدقتك وكذبت بصري لأجل حلفك. وقال البخاري: حدثنا محمد بن يوسف، حدّثنا سفيان عن المُغِيرَةِ بن النُّعْمَانِ، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً»[3]. ثم قرأ ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فَأَوَّلُ الخَلْقِ يُكْسَى ابْرَاهِيمُ، ثُمَّ يُؤْخَذُ بِرِجَالٍ مِنْ أَصْحَابِي ذَاتَ اليَمِينِ وذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: أَصْحَابِي فَيُقَالَ: إِنَّهُمْ لَنْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ، فَأَقُولُ. كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾»[4] [المائدة: ١١٧ ـ ١١٨] تفرّد به دون مسلم من هذا الوجه. وقال أيضاً حدثنا عبد الله بن الزبير الحَمِيدي، حدّثنا سفيان، سمعت الزُّهْري يقول: أخبرني عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس، سمع عمر يقول على المنبر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارىَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»[5].

وقال البخاري: حدّثنا إبراهيم، حدثنا جرير بن حازم عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي المَهْدِ إلاّ ثَلاَثَةٌ عِيسَى، وَكَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالَ لَهُ جُرَيْجٌ يُصَلِّي إذْ جَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ فَقَالَ أُجِيبُهَا أَوْ أُصَلِّي؟ فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لاَ تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيهِ وُجُوهَ المُومِسَاتِ، وكَانَ جُرَيْجٌ فِي صَوْمَعَةٍ فَعَرَضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ وَكَلَّمَتْهُ فَأَبَى فَأَتَتْ رَاعِياً

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٤٨، ومسلم في الفضائل حديث ١٤٩، وأحمد في المسند ٢/ ٣١٤.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٨٣.

(٣) غرلاً: الأغرل: من لم تختن.

(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٤٨، والترمذي في صفة القيامة باب ٣، وأحمد في المسند ١/ ٢٢٩.

(٥) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٤٨، وأحمد في المسند ١/ ٢٤.

فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَلَدَتْ غُلاماً فَقِيلَ لَهَا مِمَّن قَالَتْ مِنْ جُرَيْجٍ، فَأَتَوْهُ وَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ فَأَنْزَلُوهُ وَسَبُّوهُ فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى ثُمَّ أَتَى الغُلاَمَ فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ يَا غُلام؟ قَالَ: فُلاَنٌ الرَّاعِي، قَالوا: أَنَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ؟ قَالَ: لاَ إلاَّ مِنْ طِينٍ. وَكَانَتْ امْرَأَةٌ تُرْضِعُ ابناً لَهَا فِي بَنِي إِسْرَائِيل فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ رَاكِبٌ ذُو شَارَةٍ فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابنِي مِثْلَهُ فَتَرَكَ ثَدْيَهَا وَأَقْبَلَ عَلَى الرَّاكِبِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهَا يَمُصُّهُ». قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمصّ أصبعه «ثُمَّ مَرَّ بِأَمَةٍ فَقَالَت: اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ ابنِي مِثْلَ هَذِهِ فَتَرَكَ ثَدْيَهَا فَقَال: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فَقَالَتْ: لِمَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ الرَّاكِبُ جَبَّارٌ مِنَ الجَبَابِرَةِ، وَهَذِهِ الأَمَةُ يَقُولُونَ سَرَقَتْ وَزَنَتْ وَلَمْ تَفْعَلْ»[1] وقال البخاري حدثنا أبو اليمان، حدثنا شُعَيْبُ عن الزُهْرِي، أخبرني أبو سَلَمَة أنَّ أبا هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ وَالأَنْبِيَاءُ أَوْلاَدُ عِلاَّتٍ لَيسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ»[2] تفرّد به البخاري من هذا الوجه. ورواه ابن حبّان في صحيحه من حديث أبي داود الحَفَري عن الثَّوري، عن أبي الزِّنَادِ، عن أبي سَلَمَة، عن أبي هريرة.

وقال أحمد: حدّثنا وَكِيعٌ، حدثنا سُفيانُ هو الثَّوْرِي، عن أبي الزِّنَادِ، عن الأعْرَجِ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ أَوْلاَدُ عِلاَّتٍ وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ عِيسَى نَبِيٌّ»[3]. وهذا إسناد صحيح على شرطهما، ولم يخرجوه من هذا الوجه وأخرجه أحمد عن عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن هَمَّامٍ عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه، وأخرجه ابن حبّان من حديث عبد الرزاق نحوه.

وقال أحمد: حدّثنا يحيى، عن ابن أبي عَرُوبَةَ، حدّثنا قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعِلاَّتٍ. وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى. وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ وَإِنَّهُ نَازِلٌ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ فَإِنَّهُ رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الحُمْرَةِ وَالبَيَاضِ، سَبِطٌ كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ، بَيْنَ مُخَصَّرَتَيْنِ فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ وَيَضَعُ الجِزْيَةَ، وَيُعَطِّلُ المِلَلَ حَتَّى تَهْلِكَ فِي زَمَانِهِ كُلُّهَا غَيْرَ الإِسْلاَمِ، وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ المَسِيحَ الدَّجَّالَ الكَذَّابَ، وَتَقَعُ الأَمَنَةُ فِي الأَرْضِ حَتَّى تَرْتَعَ الإِبِلُ مَعَ الأُسْدِ جَمِيعاً، والنُّمُورُ مَعَ البَقَرِ، وَالذِّئَابُ مَعَ الغَنَمِ، وَيَلْعَبُ الصِّبْيَانُ وَالغِلْمَانُ بِالحَيَّاتِ لاَ يَضُرُّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، فَيَمْكُثُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ، ثُمَّ يُتَوَفَّى فَيُصَلِّي عَلَيْهِ المُسْلِمُونَ وَيَدْفِنُونَه»[4]. ثم رواه أحمد عن عفان، عن هَمَّام، عن قتادة، عن عبد الرحمن، عن أبي هريرة فذكر نحوه وقال: «فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ سَنَةً. ثُمَّ يُتَوَفَّى وَيُصَلِّي عَلَيْهِ المُسْلِمُون»

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٤٨، وأحمد في المسند ٢/٣٠٨.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٤٨، ومسلم في الفضائل حديث ٤٤، وأحمد في المسند ٢/ ٢٦٣، ٢٦٤.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/٢٦٣.

(٤) أخرجه أبو داود في الملاحم باب ٢٢، وأحمد في المسند ٢/٤٠٦، ٤٣٧.

ورواه أبو داود عن هُدْبَةَ بن خالد عن هَمَّامِ بن يحيى به نحوه.

وروى هِشَامُ بن عُرْوَةَ عن صَالِحٍ مولى أبي هريرة عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً». وسيأتي بَيَانُ نُزُولِهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ في آخر الزَّمَان في «كتاب الملاحم» كما بسطنا ذلك أيضاً في التفسير، عند قوله تعالى في سورة النساء ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩] وقوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١] الآية وأنه ينزل على المنارة البيضاء بدمشق، وقد أقيمت صلاة الصبح فيقول له إمام المسلمين: تقدم يا روح الله فصلّ، فيقول: لا بعضكم على بعض أمراء، مكرمة الله هذه الأمة. وفي رواية، فيقول له عيسى إنما أقيمت الصلاة لك فيصلي خلفه ثم يركب ومعه المسلمون في طلب المسيح الدجّال، فيلحقه عند باب لدّ فيقتله بيده الكريمة. وذكرنا أنه قوي الرجاء حين بنيت هذه المنارة الشرقية بدمشق التي هي من حجارة بيض، وقد بنيت أيضاً من أموال النصارى حين حرقوا التي هدمت وما حولها، فينزل عليها عيسى ابن مريم عليه السلام، فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، وأنه يحج من فج الرَّوْحَاء حاجاً أو معتمراً أو لثنتيهما، ويقيم أربعين سنة ثم يموت فيدفن فيما قيل في الحجرة النبوية عند رسول الله ﷺ وصاحبيه». وقد ورد في ذلك حديث ذكره ابن عساكر في آخر ترجمة المسيح عليه السلام في كتابه عن عائشة مرفوعاً، أنه يدفن مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر في الحجرة النبوية، ولكن لا يصحّ إسناده.

وقال أبو عيسى الترمذي: حدّثنا زيد بن أَخْزَم الطَّائي، حدثنا أبو قتيبة مسلم بن قُتيبة، حدثني أبو مَوْدُود المَدَني، حدثنا عُثمان بن الضَحّاكِ، عن محمد بن يوسف بن عبد الله بن سَلاَّم عن أبيه عن جدّه، قال مكتوب في التوراة صفة محمد، وعيسى ابن مريم عليهم السلاَم يدفن معه. قال أبو مَوْدُودٍ وقد بقي من البيت موضع قبر[1]. ثم قال الترمذي هذا حديث حسن، كذا قال والصواب الضَحّاكُ بن عُثْمانَ المَدَنِي. وقال البخاري هذا الحديث لا يصح عندي، ولا يتابع عليه، وروى البخاري عن يحيى بن حمّاد، عن أبي عُوَانَةَ، عن عاصم الأَحْوَلِ، عن أبي عثمان النَّهدِي، عن سلمان قال: الفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة[2] وعن قتادة خمسمائة وستون سنة. وقيل خمسمائة وأربعون سنة، وعن الضحّاك أربعمائة وبضع وثلاثون سنة. والمشهور ستمائة سنة. ومنهم من يقول ستمائة وعشرون سنة بالقمرية لتكون ستمائة بالشمسية والله أعلم.

وقال ابن حبان في صحيحه: ذكر المدة التي بقيت فيها أمة عيسى على هديه:

حدثنا أبو يَعْلَى، حدثنا أبو هَمَّام، حدثنا الوليد بن مسلم عن الهيثم بن حميد، عن الوَضين بن عطاء، عن نصر بن عَلْقَمَة، عن جُبَيْر بن نُفَير، عن أبي الدَّرْداء قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ قَبَضَ اللَّهُ دَاوُدَ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِهِ فَمَا فُتِنُوا وَلاَ بَدَّلُوا وَلَقَدْ مَكَثَ أَصْحَابُ

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب باب ١.

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ٥٣.

المَسِيح عَلَى سُنَّتِهِ وَهَذِهِ مَائَتَيْ سَنَةٍ». وهذا حديث غريب جداً، وإن صححه ابن حِبّان. وذكر ابن جرير عن محمد بن إسحاق أن عيسى عليه السلام قبل أن يرفع وصى الحواريين بأن يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وعيّن كل واحد منهم إلى طائفة من الناس في إقليم من الأقاليم من الشام والمشرق وبلاد المغرب، فذكروا أنه أصبح كل إنسان منهم يتكلم بلغة الذين أرسله المسيح إليهم. وذكر غير واحد أن الانجيل نقله عنه أربعة: لوقا، ومتى، ومرقس، ويوحنا، وبين هذه الأناجيل الأربعة تفاوت كثير بالنسبة إلى كل نسخة ونسخة، وزيادات كثيرة، ونقص بالنسبة إلى الأخرى، وهؤلاء الأربعة منهم اثنان ممن أدرك المسيح ورآه، وهما: متى ويوحنا، ومنهم اثنين من أصحاب أصحابه وهما مرقس ولوقا فالله اعلم.

وكان ممن آمن بالمسيح وصدّقه من أهل دمشق رجل يقال له: ضينا وكان مختفياً في مغارة داخل الباب الشرقي، قريباً من الكنيسة المصلبة خوفاً من بولص اليهودي، وكان ظالماً غاشماً مبغضاً للمسيح ولما جاء به. وكان قد حلق رأس ابن أخيه حين آمن بالمسيح، وطاف به في البلد. ثم رجمه حتى مات رحمه الله. ولما سمع بولص أن المسيح عليه السلام قد توجه نحو دمشق، جهز بغاله وخرج ليقتله، فتلقاه عند كوكبا، فلمّا واجه أصحاب المسيح، جاء إليه ملك فضرب وجهه بطرف جناحه فأعماه. فلما رأى ذلك وقع في نفسه تصديق المسيح، فجاء إليه واعتذر مما صنع وآمن به فقبل منه وسأله أن يمسح عينيه ليردّ الله عليه بصره، فقال: اذهب إلى ضينا عندك بدمشق في طرف السوق المستطيل من المشرق، فهو يدعو لك، فجاء إليه فدعا فردّ عليه بصره وحسن إيمان بولص بالمسيح عليه السلام أنه عبد الله ورسوله، وبنيت له كنيسة باسمه، فهي كنيسة بولص المشهورة بدمشق من زمن فتحها الصحابة رضي الله عنهم، حتى خرجت في الزمان الذي سنورده إن شاء الله تعالى.

[وقد أنشد الشيخ شهاب الدين القرافي في [كتابه][(١)] «الرد على النصارى» لبعضهم يرد عليهم في قولهم: بصلب المسيح وتسليمهم ذلك لليهود مع دعواهم أنه ابن الله تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. [الخفيف]

عجباً للمسيح بين النصارى ... وإلى أي والد نسبوه
أسلموه إلى اليهود وقالوا ... إنهم بعد قتله صلبوه
فإذا كان ما يقولون حقاً ... وصحيحاً فأين كان أبوه
حين خلّى ابنه رهين الأعادي ... أتراهم أرضوه أم أغضبوه؟
فلئن كان راضياً فاحمدوهم ... لأنهم وافقوه
ولئن كان ساخطاً فاتركوه ... واعبدوهم لأنهم غلبوه

(١) سقط في ط.

فصل

اختلف أصحاب عليه السلام بعد رفعه إلى السماء فيه على أقوال، كما قاله ابن عبّاس وغيره من أئمة السلف، كما أوردناه عنه قوله: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤] قال ابن عبّاس وغيره: قال قائلون منهم: كان فينا عبد الله ورسوله فرفع إلى السماء. وقال آخرون: هو الله. وقال آخرون: هو ابن الله، فالأول هو الحق، والقولان الآخران كفر عظيم. كما قال ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [مريم: ٣٧] وقد اختلفوا في نقل الأناجيل على أربعة أقاويل ما بين زيادة ونقصان، وتحريف وتبديل ثم بعد المسيح بثلثمائة سنة حدثت فيه الطامة[١] العظمى والبلية الكبرى. اختلف البتاركة الأربعة وجميع الأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين في المسيح على أقوال متعددة لا تنحصر ولا تنضبط، واجتمعوا وتحاكموا إلى الملك قسطنطين باني القسطنطينة، وهم المجمع الأول فصار الملك إلى قول أكثر فرقة اتفقت على قول من تلك المقالات، فسموا الملكية ودحض من عداهم وأبعدهم، وتفرّدت الفرقة التابعة لعبد الله بن إديوس الذي ثبت على أن عيسى عبد من عباد الله ورسول من رسله، فسكنوا البراري والبوادي، وبنوا الصوامع والديارات والقلايات، وقنعوا بالعيش الزهيد، ولم يخالطوا أولئك الملل والنحل، وبنت الملكية الكنائس الهائلة، عمدوا إلى ما كان من بناء اليونان فحوّلوا محاريبها إلى الشرق، وقد كانت إلى الشمال إلى الجدي.

بيان بناء بيت لحم والقمامة

وبنى الملك قسطنطين بيت لحم على محل مولد المسيح، وبنت أمه هيلانة القمامة يعني على قبر المصلوب وهم يسلمون لليهود أنه المسيح. وقد كفرت هؤلاء وهؤلاء ووضعوا القوانين والأحكام. ومنها مخالف للعتيقة التي هي التوراة، وأحلّوا أشياء هي حرام بنصّ التوراة، ومن ذلك الخنزير، وصلّوا إلى الشرق، ولم يكن المسيح صلّى إلاّ إلى صخرة بيت المقدس، وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى. ومحمد خاتم النبيين صلى إليها بعد هجرته إلى المدينة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، ثم حول إلى الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل. وصوروا الكنائس، ولم تكن مصورة قبل ذلك، ووضعوا العقيدة التي يحفظها أطفالهم ونساؤهم ورجالهم التي يسمونها بالأمانة، وهي في الحقيقة أكبر الكفر والخيانة، وجميع الملكية والنسطورية أصحاب نسطورس أهل المجمع الثاني، واليعقوبية أصحاب يعقوب البرادعي أصحاب المجمع الثالث يعتقدون هذه العقيدة ويختلفون في تفسيرها، وها أنا أحكيها وحاكي الكفر ليس بكافر، لابث على ما فيها ركة الألفاظ وكثرة الكفر والخبال[٢]

(١) الطامة: المصيبة والحادثة العظيمة.

(٢) الخبل: الفساد والنقصان والهلاك والتعب والعناء.

المفضي بصاحبه إلى النار ذات الشواظ، فيقولون: نؤمن بإله واحد ضابط الكل خالق السموات والأرض كل ما يرى وكل ما لا يرى وبربّ واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل الدهور، نور من نور إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر، الذي كان به كل شيء من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس، ومن مريم العذراء، وتانس وصلب على عهد ملاطس النبطي وتألم وقبر، وقام في اليوم الثالث كما في الكتب، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الأب، وأيضاً فسيأتي بجسده ليدبر الأحياء والأموات، الذي لا فناء لملكه، وروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب مع الأب، والابن مسجود له، وبمجد الناطق في الأنبياء كنسبة واحدة جامعة مقدسة يهولية، واعترف بمعبودية واحدة لمغفرة الخطايا، وأنه حي قيامة الموتى، وحياة الدّهر العتيد كونه آمين.

كتاب أخبار [الأمم][1] الماضين

من بني إسرائيل وغيرهم إلى آخر زمن الفترة سوى أيام العرب وجاهليتهم، فإنا سنورد ذلك بعد فراغنا من هذا الفصل إن شاء الله تعالى قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ [طه: ٩٩]. وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: ٣].

خبر ذي القرنين

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: ٨٣ ـ ٩٨]. ذكر الله تعالى ذا القرنين هذا وأثنى عليه بالعدل وأنه بلغ المشارق والمغارب وملك الأقاليم وقهر أهلها، وسار فيهم بالمعدلة التامة والسلطان المؤيد المظفر المنصور القاهر المقسط. والصحيح أنه كان ملكاً من الملوك العادلين وقيل كان نبياً. وقيل رسولاً. وأغرب من قال ملكاً من الملائكة. وقد حكى هذا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فإنه سمع رجلاً يقول لآخر: يا ذا القرنين، فقال: مه ما كفاكم أن تتسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة. ذكره السهيلي. وقد روى وَكِيعٌ عن إسرائيل، عن جابرَ عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، قال: كان ذو القرنين نبياً. وروى الحافظ ابن عساكر من حديث أبي محمد بن أبي نصر، عن أبي إسحاق بن إبراهيم بن محمد بن أبي ثابت[2] حدّثنا محمد بن حمّاد، أنبأنا عبد الرزاق، عن

---

(١) سقط في ط.　　(٢) في ط ذؤيب.

مَعْمَرٍ عن ابن أبي ذئب[١] عن المَقْبَري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ أَدْرِي أَتُبَّعُ كَانَ لَعِيناً أَمْ لاَ وَلاَ أَدْرِي الحُدُودُ كَفَّارَاتٌ لأَهْلِهَا أَمْ لاَ وَلاَ أَدْرِي ذُو القَرْنَيْنِ كَانَ نَبِيّاً أَمْ لا». وهذا غريب من هذا الوجه.

وقال إسحاق بن بشر عن عثمان بن السَّاجَ، عن خَصِيفٍ، عن عِكْرَمَة، عن ابن عبَّاس، قال: كان ذو القرنين ملكاً صالحاً رضي الله عمله وأثنى عليه في كتابه، وكان منصوراً وكان الخَضِر وزيره. وذكر أن الخضر عليه السلام كان على مقدّمة جيشه، وكان عنده بمنزلة المشاور الذي هو من الملك بمنزلة الوزير في إصلاح الناس اليوم. وقد ذكر الأزْرَقِي وغيره أن ذا القرنين أسلم على يدي إبراهيم الخليل، وطاف معه بالكعبة المكرّمة هو وإسماعيل عليه السلام.

ورويَ عن عبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما أن ذا القرنين حجّ ماشياً، وأن إبراهيم لما سمع بقدومه تلقاه ودعا له ورضاه، وأن الله سخّر لِذِي القرنين السحاب يحمله حيث أراد والله أعلم. واختلفوا في السبب الذي سمي به ذا القرنين فقيل: لأنه كان له في رأسه شبه القرنين.

وقال وَهْبُ بن مُنَبِّهٍ: كان له قرنان من نحاس في رأسه، وهذا ضعيف. وقال بعض أهل الكتاب: لأنه ملك فارس والروم، وقيل: لأنه بلغ قرني الشمس غرباً وشرقاً. وملك ما بينهما من الأرض، وهذا أشبه من غيره وهو قول الزُّهْرِي.

وقال الحسن البصري: كانت له غديرتان[٢] من شعر يطافيهما فسمي ذا القرنين. وقال إسحاق بن بشر عن عبد الله بن زياد بن سَمْعَان، عن عمر بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أنه قال: دعا ملكاً جباراً إلى الله فضربه على قرنه فكسره ورضّه. ثم دعاه فدّق قرنه الثاني فكسره فسُمّي ذا القرنين.

وروى الثَّوْرِي عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي الطفيل عن علي بن أبي طالب أنه سئل عن ذي القرنين فقال: كان عبداً ناصحَ الله فناصحه دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات، فأحياه الله فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه الآخر فمات فسمي ذا القرنين وهكذا رواه شُعْبَة عن القاسم بن أبي بَزَّةَ[٣] عن أبي الطُّفَيْلِ عن علي به. وفي بعض الروايات عن أبي الطُّفيلِ عن علي قال: لم يكن نبياً ولا رسولاً ولا ملكاً ولكن كان عبداً صالحاً.

وقد اختلف في اسمه، فروى الزبير بن بكار عن ابن عبّاس: كان اسمه عبد الله بن

(١) في ط ذؤيب.

(٢) الغديرة: خصلة الشعر.

(٣) في الأصل مرة وهو تصحيف. وبزّة، بفتح الموحدة والزاي المخزومي أبو عبد الله المكي وثقة ابن معين. توفي بمكة سنة ١٢٤ هـ.

الضَحَّاكِ بنُ مُعَدٍّ وقيل: مصعب بن عبد الله بن قنان بن منصور بن عبد الله بن الأزد بن عون بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبا بن قحطان.

وقد جاء في حديث [آخر][1] أنه كان من حِمْيَر وأمه رومية، وأنه كان يقال له: ابن الفيلسوف لعقله. وقد أنشد بعض الحِمْيَرِيِّين في ذلك شعراً يفتخر بكونه أحد أجداده فقال: [الكامل]

قَدْ كَانَ ذُو القَرْنَيْنِ جَدِّي مُسْلِماً ... مَلِكاً تَدِينُ لَهُ المُلُوكُ وتَحْشِدُ
بَلَغَ المَشَارِقَ وَالمَغَارِبَ يَبْتَغِي ... أَسْبَابَ أَمْرٍ مِنْ حَكِيمٍ مُرْشِدِ
فَرَأَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا ... فِي عَيْنِ ذِي خُلُبٍ وَثَاطٍ حَرْمَدِ[2]
مِنْ بَعْدِهِ بَلْقِيسُ كَانَتْ عَمَّتِي ... مَلَكَتْهُمْ حَتَّى أَتَاهَا الهُدْهُدُ

قال السهيلي وقيل كان اسمه: مرزبان بن مرزبة. ذكره ابن هشام وذكر في موضع آخر أن اسمه: الصعب بن ذي مرائد وهو أول التبابعة وهو الذي حكم لابراهيم في بئر السبع. وقيل إنه أفريدون بن أسفيان الذي قتل الضحاك وفي خطبة قس: يا معشر إياد بن الصَّعْبِ ذوالقرنين ملك الخافقين وأذل الثقلين وعمر ألفين. ثم كان ذلك كلحظة عين ثم أنشد ابن هشام للأعشى [الكامل]:

وَالصَّعْبُ ذُو القَرْنَيْنِ أَصْبَحَ ثَاوِياً[3] ... بِالحِنْوِ فِي جَدَثٍ أَشَمَّ مُقِيمَا

وذكر الدارقطني وابن ماكولا أن اسمه: هرمس ويقال: هرويس بن قيطون بن رومي بن لنطي بن كشلوخين بن يونان بن يافث بن نوح فالله أعلم.

وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن بشير، عن قتادة قال: اسكندر هو ذو القرنين، وأبوه أول القياصرة، وكان من ولد سام بن نوح عليه السلام.

فأمّا ذو القرنين الثاني فهو اسكندر بن فيلبس بن مصريم بن هرمس بن ميطون بن رومي بن لنطى بن يونان بن يافث بن يونة بن شرخون بن رومة بن شرفط بن توفيل بن رومي بن الأصفر بن يقز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، كذا نسبه الحافظ ابن عساكر في تاريخه. المقدوني اليوناني المصري باني اسكندرية الذي يؤرخ بأيامه الروم، وكان متأخراً عن الأول بدهر طويل، كان هذا قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة، وكان أرسطوطاليس الفيلسوف وزيره، وهو الذي قتل دارا بن دارا وأذلّ ملوك الفرس وأوطأ أرضهم. وإنما نبهنا عليه لأن كثيراً من الناس يعتقد أنهما واحد، وإن المذكور في القرآن هو الذي كان أرطاطاليس وزيره، فيقع بسبب ذلك خطأ كبير، وفساد عريض طويل كثير، فإن الأول كان عبداً مؤمناً صالحاً، وملكاً عادلاً، وكان وزيره الخضر، وقد كان نبياً على ما قررناه قبل هذا. وأما الثاني فكان مشركاً وكان وزيره فيلسوفاً، وقد كان بين زمانيهما أزيد

(١) سقط في ط. (٢) ثأط حرمد: الطين الأسود.
(٣) ثاوياً: ثوى بالمكان. أقام وثبت هلك ومات.

من ألفي سنة. فأين هذا من هذا لا يستويان ولا يشتبهان إلا على غبي لا يعرف حقائق الأمور. فقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ كان سببه أن قريشاً سألوا اليهود، عن شيء يمتحنون به علم رسول الله ﷺ فقالوا لهم سلوه عن رجل طوّاف في الأرض وعن فتية خرجوا لا يدرى ما فعلوا، فأنزل الله تعالى قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين. ولهذا قال: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ﴾ أي من خبره وشأنه ﴿ذِكْرًا﴾ أي خبراً نافعاً كافياً في تعريف أمره وشرح حاله فقال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ أي وسعنا مملكته في البلاد، وأعطيناه من آلات المملكة ما يستعين به على تحصيل ما يحاوله من المهمات العظيمة، والمقاصد الجسيمة. قال قُتيبة عن أبي عَوَانَة، عن سَمَّاكٍ، عن حَبِيب بن حَمَّادٍ، قال: كنت عند علي بن أبي طالب وسأله رجل عن ذي القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب فقال له: ﴿سخّر له السحاب ومدّت لهُ الأسباب ويسط له في النور﴾ وقال: أزيدك؟ فسكت الرجل وسكت علي رضي الله عنه.

وعن أبي إسحاق السَّبِيعي عن عمرو بن عبد الله الوَادِعي سمعت معاوية يقول: ملك الأرض أربعة: سليمان بن داود النبي عليهما السلام. وذو القرنين ورجل من أهل حلوان. ورجل آخر. فقيل له الخضر قال: لا. وقال الزبير بن بَكَّارٍ: حدثني إبراهيم بن المُنْذِرِ، عن محمد بن الضَحَّاكِ، عن أبيه، عن سُفْيَانَ الثَّوْرِي قال: بلغني أنه ملك الأرض كلها أربعة: مؤمنان وكافران، سليمان النبي وذو القرنين ونمرود وبخت نصر وهكذا قال سعيد بن بشير: سواء.

وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادة، عن الحسن قال: كان ذو القرنين ملك بعد النمرود، وكان من قصّته أنه كان رجلاً مسلماً صالحاً أتى المشرق والمغرب مدّ الله له في الأجل ونصره حتى قهر البلاد، واحتوى على الأموال، وفتح المدائن، وقتل الرجال، وجال في البلاد والقلاع، فسار حتى أتى المشرق والمغرب فذلك قول الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً﴾ أي خبراً ﴿إِنَّا مَكَّنَا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ أي علماً بطلب أسباب المنازل.

قال إسحاق: وزعم مُقاتل أنه كان يفتح المدائن ويجمع الكنوز، فمن اتبعه على دينه وتابعه عليه وإلاّ قتله. وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعِكْرَمَة وعُبَيْد بن يَعْلَى والسَدِّي وقَتادة والضَحاك: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ يعني علماً. وقال قَتادة وَمَطر الورّاق: معالم الأرض ومنازلها وأعلامها وآثارها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أَسْلَمْ: يعني تعليم الألسنة، كان لا يغزو قوماً إلاّ حدّثهم بلغتهم. والصحيح أنه يعمّ كل سبب يتوصل به إلى نيل مقصوده في المملكة وغيرها، فإنه كان يأخذ من كل إقليم من الأمتعة والمطاعم والزاد ما يكفيه ويعينه على أهل الإقليم الآخر.

وذكر بعض أهل الكتاب أنه مكث ألفاً وستمائة سنة يجوب الأرض ويدعو أهلها إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وفي كل هذه المدّة نظر والله أعلم.

وقد روى البيهقي وابن عساكر حديثاً متعلقاً بقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ مطوّلاً جداً وهو منكر جداً. وفي إسناده محمد بن يونس الكُدَيمي وهو متهم، فلهذا لم نكتبه لسقوطه عندنا والله أعلم. وقوله ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ أي طريقاً ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ يعني من الأرض، انتهى إلى حيث لا يمكن أحداً أن يجاوزه، ووقف على حافة البحر المحيط الغربي الذي يقال له أوقيانوس الذي فيه الجزائر المسمّاة بالخالدات التي هي مبدأ الأطوال على أحد قولي أرباب الهيئة، والثاني من ساحل هذا البحر كما قدّمنا. وعنده شاهد مغيب الشمس فيما رآه بالنسبة إلى مشاهدته ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ والمراد بها البحر في نظره فإن من كان في البحر أو على ساحله يرى الشمس كأنها تطلع من البحر وتغرب فيه، ولهذا قال: ﴿وَجَدَهَا﴾ أي في نظره، ولم يقل فإذا هي تغرب في عين حمئة أي ذات حمأة. قال كعب الأحبار: وهو الطين الأسود. وقرأه بعضهم حامية. فقيل: يرجع إلى الأول. وقيل: من الحرارة، وذلك من شدّة المقابلة لوهج ضوء الشمس وشعاعها. وقد روى الإمام أحمد عن يزيد بن هارون، عن العوّام بن حَوْشَبٍ: حدّثني مولى لعبد الله بن عمرو عن عبد الله قال: نظر رسول الله ﷺ إلى الشمس حين غابت فقال: «فِي نَارِ اللَّهِ الحَامِيَةِ لَوْلاَ مَا يَزَعُهَا[١] مِنْ أَمْرِ اللَّهِ لأَحْرَقَتْ ما عَلى الأَرْضِ»[٢] فيه غرابة وفيه رجل مبهم لم يسم، ورفعه فيه نظر، وقد يكون موقوفاً من كلام عبد الله بن عمرو، فإنه أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب المتقدّمين، فكان يحدّث منها والله أعلم.

ومن زعم من القصّاص أن ذا القرنين جاوز مغرب الشمس وصار يمشي بجيوشه في ظلمات مدداً طويلة، فقد أخطأ [وأَبْعَدَ] النجعة. وقال ما يخالف العقل والنقل.

بيان طلب ذي القرنين عين الحياة

وقد ذكر ابن عساكر من طريق وَكِيعٍ عن أبيه، عن مُعْتَمِرِ بن سليمان، عن أبي جعفر البَاقِرِ، عن أبيه زين العابدين خبراً مطوّلاً جداً فيه أن ذا القرنين كان له صاحب من الملائكة يقال له رناقيل فسأله ذو القرنين هل تعلم في الأرض عيناً يقال لها عين الحياة؟ فذكر له صفة مكانها فذهب ذو القرنين في طلبها، وجعل الخضر على مقدّمته، فانتهى الخضر إليها في واد في أرض الظلمات، فشرب منها ولم يهتد ذو القرنين إليها. وذكر اجتماع ذي القرنين ببعض الملائكة في قصر هناك، وأنه أعطاه حجراً، فلما رجع إلى جيشه سأل العلماء عنه فوضعوه في كفة ميزان وجعلوا في مقابلته ألف حجر مثله فوزنها، حتى سأل الخضر فوضع قباله حجراً وجعل عليه حفنة من تراب فرجح به. وقال هذا مثل ابن آدم لا يشبع حتى يوارى بالتراب فسجد له العلماء تكريماً له وإعظاماً والله أعلم. ثم ذكر تعالى أنه حكم في أهل تلك الناحية ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝٨٦ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ

---

(١) يزعها: يزجرها ويمنعها.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/٢٠٧.

إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾ [الكهف: ٨٦ـ ٨٧] أي فيجتمع عليه عذاب الدنيا والآخرة، وبدأ بعذاب الدنيا لأنه أزجر عند الكافر، ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: ٨٨] فبدأ بالأهم وهو ثواب الآخرة، وعطف عليه الإحسان منه إليه. وهذا هو العدل والعلم والإيمان قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ [الكهف: ٨٩] أي سلك طريقاً راجعاً من المغرب إلى المشرق، فيقال إنه رجع في ثنتي عشر سنة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ [الكهف: ٩٠] أي ليس لهم بيوت ولا أكنان[1] يستترون بها من حرّ الشمس. قال كثير من العلماء: ولكن كانوا يأوون إذا اشتدّ عليهم الحرّ إلى أسراب قد اتخذوها في الأرض شبه القبور، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾ [الكهف: ٩١] أي ونحن نعلم ما هو عليه ونحفظه ونكلؤه بحراستنا في مسيره ذلك كلّه من مغارب الأرض إلى مشارقها.

وقد رُوِيَ عن عُبَيْدِ بن عُمَيْر وابنه عبد الله وغيرهما من السلف: أن ذو القرنين حجّ ماشياً. فلما سمع إبراهيم الخليل بقدومه تلقّاه، فلما اجتمعا دعا له الخليل ووصّاه بوصايا، ويقال إنه جيء بفرس ليركبها فقال: لا أركب في بلد فيه الخليل، فسخّر الله له السحاب وبشّره إبراهيم بذلك، فكانت تحمله إذا أراد. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سبباً حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ يعني غشماً. يقال إنهم هم الترك أبناء عم يأجوج ومأجوج، فذكروا له أن هاتين القبيلتين قد تعدّوا عليهم، وأفسدوا في بلادهم، وقطعوا السبل عليهم، وبذلوا له حملاً وهو الخراج على أن يقيم بينهم وبينهم حاجزاً يمنعهم من الوصول إليهم، فامتنع من أخذ الخراج اكتفاء بما أعطاه الله من الأموال الجزيلة ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥] ثم طلب منهم أن يجمعوا له رجالاً وآلات ليبني بينهم وبينهم سدّاً، وهو الردم بين الجبلين، وكانوا لا يستطيعون الخروج إليهم إلاّ من بينهما، وبقية ذلك بحار مغرقة وجبال شاهقة، فبناه كما قال تعالى من الحديد والقطر وهو النحاس المذاب. وقيل الرصاص، والصحيح الأول فجعل بدل اللبن حديداً، وبدل الطين نحاساً. ولهذا قال تعالى ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي يعلوا عليه بسلالم ولا غيرها، ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف: ٩٧] أي بمعاول ولا فؤوس ولا غيرها، فقابل الأسهل بالأسهل، والأشدّ بالأشدّ ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ أي قدر الله وجوده ليكون رحمة منه بعباده أن يمنع بسببه عدوان هؤلاء القوم على من جاورهم في تلك المحلة ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى﴾ أي الوقت الذي قدّر خروجهم على الناس في آخر الزمان ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ أي مساوياً للأرض، ولا بدّ من كون هذا. ولهذا قال: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: ٩٨] كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦ـ ٩٧] الآية. ولذا قال ههنا ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾ يعني يوم فتح السدّ على الصحيح ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ [الكهف: ٩٩] وقد أوردنا الأحاديث المروية

---

(١) أكنان: الكن: وقاء كل شيء وستره، وهو البيت أيضاً.

في خروج يأجوج ومأجوج في التفسير، وسنوردها إن شاء الله في كتاب الفتن والملاحم من كتابنا هذا، إذا انتهينا إليه بحول الله وقوته وحسن توفيقه ومعونته وهدايته.

قال أبو داود الطَيَالِسِي عن الثَّوْرِي: بلغنا أن أول من صافح ذو القرنين. ورُوِيَ عن كعب الأحبار أنه قال لمعاوية: إن ذا القرنين لما حضرته الوفاة أوصى أمه إذا هو مات أن تصنع طعاماً وتجمع نساء أهل المدينة وتضعه بين أيديهن، وتأذن لهن فيه إلاّ من كانت ثكلى، فلا تأكل منه شيئاً. فلما فعلت ذلك لم تضع واحدة منهن يدها فيه، فقالت لهن: سبحان الله كلكن ثكلى؟ فقلن: أي والله ما مِنّا إلاّ من اثكلت. فكان ذلك تسلية لأمه. وذكر إسحاق بن بشر عن عبد الله بن زياد عن بعض أهل الكتاب وصية ذي القرنين وموعظة أمه موعظة بليغة طويلة فيها حكم وأمور نافعة، وأنه مات وعمره ثلاثة آلاف سنة وهذا غريب.

قال ابن عساكر: وبلغني من وجه آخر أنه عاش ستاً وثلاثين سنة. وقيل كان عمره ثنتين وثلاثين سنة. وكان بعد داود بسبعمائة سنة وأربعين سنة. وكان بعد آدم بخمسة آلاف ومائة وإحدى وثمانين سنة. وكان ملكه ست عشرة سنة. وهذا الذي ذكره إنّما ينطبق على اسكندر الثاني لا الأول، وقد خلط في أول الترجمة وآخرها بينهما. والصواب التفرقة كما ذكرنا اقتداء بجماعة من الحفّاظ والله أعلم. وممن جعلهما واحداً الإمام عبد الملك بن هشام راوي السيرة، وقد أنكر ذلك عليه الحافظ أبو القاسم السهيلي رحمه الله إنكاراً بليغاً، وردّ قوله رداً شنيعاً، وفرّق بينهما تفريقاً جيداً كما قدّمنا. قال: ولعل جماعة من الملوك المتقدمين تسمّوا بذي القرنين تشبّهاً بالأول والله أعلم.

ذكر أُمَّتَيْ يأجوج ومأجوج
وصفاتهم وما ورد من أخبارهم وصفة السد

هم من ذرية آدم بلا خلاف نعلمه، ثم الدليل على ذلك ما ثبت في الصحيحين من طريق الأَعْمَشِ عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ يَا آدَمُ قُمْ فَابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ مِنْ ذُرِّيَتِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ فَيَقُولُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمَائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الجَنَّةِ، فَحِينَئِذٍ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّنَا ذَلِكَ الوَاحِدُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْكُمْ وَاحِداً وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفاً»[1]. وفي رواية فقال: «أَبْشِرُوا فَإِنَّ فِيكُمْ أُمَّتَيْنِ مَا كَانَتَا فِي شَيْءٍ إِلاَّ كَثَّرَتَاهُ»[2] أي غلبتاه كثرة. وهذا يدلّ على كثرتهم وأنهم أضعاف الناس مراراً عديدة. ثم هم من ذرية نوح لأن الله تعالى أخبر أنه استجاب لعبده نوح في دعائه على أهل

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٤٦، ومسلم في الإيمان حديث ٣٧٩، وأحمد في المسند ٣/ ٣٢، ٣٣.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن باب ٣٨، من سورة الصافات، والمناقب باب ٧٠.

الأرض بقوله ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] وقال تعالى ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥] وقال ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾ [الصافات: ٧٧] وتقدم في الحديث المروي في المسند والسنن أن نوحاً ولد له ثلاثة وهم: سام وحام ويافث، فسام أبو العرب، وحام أبو السودان ويافث أبو الترك، فيأجوج ومأجوج طائفة من الترك، وهم مغل المغول، وهم أشدّ بأساً وأكثر فساداً من هؤلاء، ونسبتهم إليهم كنسبة هؤلاء إلى غيرهم. وقد قيل إن الترك إنما سموا بذلك حين بنى ذو القرنين السد، وألجأ يأجوج ومأجوج إلى ما وراءه، فبقيت منهم طائفة لم يكن عندهم كفسادهم فتركوا من ورائه. فلهذا قيل لهم الترك.

ومن زعم أن يأجوج ومأجوج خلقوا من نطفة آدم حين احتلم فاختلطت بتراب، فخلقوا من ذلك، وإنهم ليسوا من حواء، فهو قول حكاه الشيخ أبو زكريا النواوي في شرح مسلم، وغيره وضعفوه، وهو جدير بذلك إذ لا دليل عليه، بل هو مخالف لما ذكرناه من أن جميع الناس اليوم من ذرية نوح بنص القرآن. وهكذا من زعم أنهم على أشكال مختلفة وأطوال متباينة جداً. فمنهم من هو كالنخلة السحوق. ومنهم من هو غاية في القصر. ومنهم من يفترض أذناً من أذنيه ويتغطى بالأخرى، فكل هذه أقوال بلا دليل ورجم بالغيب بغير برهان. والصحيح أنهم من بني آدم وعلى أشكالهم وصفاتهم. وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ وَطُولُه سِتُّونَ ذِرَاعاً» ثم «لَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ»[1] وهذا فيصل في هذا الباب وغيره. وما قيل من أن أحدهم لا يموت حتى يرى من ذريته ألفاً، فإن صح، في خبر قلنا به، وإلاَّ فلا نرده إذ يحتمله العقل والنقل أيضاً قد يرشد إليه والله أعلم. بل قد ورد حديث مصرح بذلك إن صح قال الطَبَراني: حدّثنا عبد الله بن محمد بن العباس الأصبهاني، حدثنا أبو مسعود أحمد بن الفُرَات، حدثنا أبو داود الطَيَالِسِي، حدثنا المُغِيرَةُ عن مُسْلِمٍ، عن أبي إسحاق، عن وَهْبِ بن جَابِرٍ، عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ يَأْجُوجَ وَمأجُوجَ مِنْ وُلْدِ آدَمَ وَلَوْ أُرْسِلُوا لأَفْسَدُوا عَلَى النَّاسِ مَعَائِشَهُمْ وَلَنْ يَمُوتَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلاَّ تَرَكَ مِنْ ذُرِّيتِهِ أَلْفاً فَصَاعِداً. وَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِمْ ثَلاثَ أُمَمٍ: تَأْوِيلُ وَتَارِيسُ وَمَنْسَكُ». وهو حديث غريب جداً وإسناده ضعيف. وفيه نكارة شديدة. وأما الحديث الذي ذكر ابن جرير في تاريخه أن رسول الله ﷺ ذهب إليهم ليلة الإسراء، فدعاهم إلى الله فامتنعوا من إجابته ومتابعته، وأنه دعا تلك الأمم التي هناك (تاريس وتأويل ومنسك) فأجابوه، فهو حديث موضوع اختلقه أبو نُعيم عَمرو بن الصُّبْحِ أحد الكذّابين [الكبار][2] الذين اعترفوا بوضع الحديث والله أعلم.

فإن قيل فكيف دل الحديث المتفق عليه أنهم فداء المؤمنين يوم القيامة، وأنهم في النار، ولم يبعث إليهم رسل. وقد قال الله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ١، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها حديث ٢٨، وأحمد في المسند ٢/ ٣١٥.

(٢) سقط في ط.

[الإسراء: ١٥] فالجواب أنهم لا يعذَّبون إلا بعد قيام الحجّة عليهم والإعذار إليهم كما قال تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فإن كانوا في زمن الذي قبل بعث محمد ﷺ قد أتتهم رسل منهم، فقد قامت على أولئك الحجّة، وإن لم يكن قد بعث الله إليهم رسلاً فهم في حكم أهل الفترة. ومن لم تبلغه الدعوة وقد دلّ الحديث المرويّ من طرق عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ: «إنَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ يُمْتَحَنُ فِي عَرَصَاتِ[1] القِيَامَةِ فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِي دَخَلَ الجَنَّةَ وَمَنْ أَبَى دخلَ النَارَ» وقد أوردنا الحديث بطرقه وألفاظه وكلام الأئمة عليه عند قوله ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وقد حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري إجماعاً عن أهل السنة والجماعة، وامتحانهم لا يقتضي نجاتهم، ولا ينافي الأخبار عنهم بأنهم من أهل النار، لأن الله يطلع رسوله ﷺ على ما يشاء من أمر الغيب، وقد اطلعه على أن هؤلاء من أهل الشقاء، وأن سجاياهم تأبى قبول الحق والانقياد له، فهم لا يجيبون الداعي إلى يوم القيامة، فيعلم من هذا أنهم كانوا أشد تكذيباً للحق في الدنيا لو بلغهم فيها لأن في عرصات القيامة ينقاد خلق ممن كان مكذباً في الدنيا، فإيقاع الإيمان هناك لما يشاهد من الأهوال أولى وأحرى منه في الدنيا والله أعلم. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] وقال تعالى ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾[مريم: ٣٨]. وأما الحديث الذي فيه أن رسول الله ﷺ دعاهم ليلة الإسراء فلم يجيبوا، فإنه حديث منكر بل موضوع وضعه عمرو بن الصُّبح.

وأما السدّ فقد تقدم أن ذا القرنين بناه من الحديد والنحاس، وساوى به الجبال الصم الشامخات الطوال، فلا يعرف على وجه الأرض بناء أجلّ منه، ولا أنفع للخلق منه في أمر دنياهم. قال البخاري وقال رجل للنبي ﷺ: رَأَيْتُ السَدَّ، قال: «وَكَيْفَ رَأَيْتَهُ»؟ قال: مِثْلُ البُرْدِ المحَبَّرِ[2] فقال: «رَأَيْتَهُ هَكَذَا؟»[3] ذكره البخاري معلقاً بصيغة الجزم، ولم أره مسنداً من وجه متصل أرتضيه، غير أن ابن جرير رواه في تفسيره مرسلاً، فقال: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قَتَادَة، قال: ذكر لنا أن رجلاً قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ رَأَيْتُ سَدَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، قَالَ: «انْعَتْهُ لِي»، قَالَ: كَالْبَرْدِ المُحَبَّرِ طَرِيقَةٌ سَوْدَاءُ وَطَرِيقَةٌ حَمْرَاءُ قَالَ: «قَدْ رَأَيْتَهُ».

وقد ذكر أن الخليفة الواثق بعث رسلاً من جهته، وكتب لهم كتباً إلى الملوك يوصلونهم من بلاد إلى بلاد [من ملك إلى ملك][4] حتى ينتهوا إلى السدّ فيكشفوا عن خبره، وينظروا كيف بناه ذو القرنين على أي صفة، فلما رجعوا أخبروا عن صفته، وأن فيه باب عظيماً، وعليه أقفال، وأنه بناء محكم شاهق منيف جداً، وأن بقية اللبن الحديد

---

(١) عرصات: جمع عرصة: وهو فسحة الدار.

(٢) البرد المحبر: الثوب المنمق الملون.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٧.

(٤) سقط في ط.

والالآت في برج هناك، وذكروا أنه لا يزال هناك حرس لتلك الملوك المتاخمة لتلك البلاد، ومحلته في شرقي الأرض في جهة الشمال في زاوية الأرض الشرقية الشمالية، ويقال إنّ بلادهم متسعة جداً، وأنهم يقتاتون بأصناف من المعايش من حراثة وزراعة واصطياد من البر ومن البحر، وهم أمم وخلق لا يعلم عددهم إلاّ الذي خلقهم. فإن قيل فما الجمع بين قوله تعالى ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف: ٩٧] وبين الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن زينب بنت جَحْشٍ أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: استيقظَ رسولُ اللّهِ ﷺ من نوم محمراً وجهه وهو يقول: «لاَ إله إلاّ اللّهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فُتِحَ اليَوْمُ مِنْ رَدْمِ يَأجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وَحَلَّقَ تِسْعِينَ قلت: يا رسولَ اللّهِ أَنَهْلَكُ وفينا الصَّالِحُونَ؟ قال: نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ[١]. وأخرجاه في الصحيحين من حديث وُهَيْب عن ابن طَاوُس، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذَا»[٢] وَعَقَدَ تِسْعِينَ. فالجواب أما على قول من ذهب إلى أن هذا إشارة إلى فتح أبواب الشر والفتن. وإن هذا استعارة محضة، وضرب مثل فلا إشكال. وأما على قول من جعل ذلك إخباراً عن أمر محسوس كما هو الظاهر المتبادر، فلا إشكال أيضاً لأن قوله ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ أي في ذلك الزمان لأن هذه صيغة خبر ماض فلا ينفي وقوعه فيما يستقبل بإذن الله لهم في ذلك قدراً، وتسليطهم عليه بالتدريج قليلاً قليلاً حتى يتم الأجل وينقضي الأمر المقدور، فيخرجون كما قال الله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] ولكن الحديث الآخر أشكل من هذا، وهو ما رواه الإمام أحمد في مسنده قائلاً: حدثنا روح، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبَة عن قَتَادة، حدّثنا أبو رَافِع، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إنّ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ لَيَحْفِرُونَ السَدَّ كُلَّ يَوْمٍ حَتّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَداً فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَأَشَدِّ مَا كَانَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ حَفَرُوا حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَ غَداً، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَيَسْتَثْنِي فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ كَهَيْئَةِ يَوْمِ تَرَكُوهُ فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ فَيَسْتَقُونَ المِيَاهَ وَتَتَحصَّنُ النَّاسُ في حُصُونِهِمْ فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ فَتَرْجِعُ وَعَلَيْهَا كَهَيْئَةِ الدَّمِ فَيَقُولُونَ قَهَرْنَا أَهْلَ الأَرْضِ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَغَفاً[٣] في أَقْفَائِهِمْ فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا». قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ دَوَابَّ الأَرْضِ لَتَسْمَنُ وَتَشْكَرُ شُكْراً مِنْ لُحُومِهِمْ وَدِمَائِهِمْ»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٧، ومسلم في الفتن حديث ٢، وأحمد في المسند ٦/٤٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٧، ومسلم في الفتن حديث ٣، وأحمد في المسند ٢/٣٤١.

(٣) النغف: الدود في أنوف الابل الغنم.

(٤) أخرجه الترمذي في: تفسير القرآن، باب ١٩، وابن ماجة في: الفتن، باب ٣٣، وأحمد في المسند ٢/ ٥١٠، ٥١١.

ورواه أحمد أيضاً عن حسن بن موسى، عن سُفيان، عن قتادة به، وهكذا رواه ابن ماجه من حديث سَعيد عن قَتادة إلا أنه قال حديث أبو رافع. ورواه الترمذي من حديث أبي عُوَانة عن قَتَادة به. ثم قال غريب لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه. فقد أخبر في هذا الحديث «أَنَّهُمْ كُلَّ يَوْمٍ يَلْحَسُونَهُ حَتَّى يَكَادُوا يَنْظُرُونَ شُعَاعَ الشَّمْسِ مِنْ وَرَائِهِ» لِرِقَّتِهِ، فإن لم يكن رفع هذا الحديث محفوظاً، وإنما هو مأخوذ عن كعب الأحبار كما قاله بعضهم، فقد استرحنا من المؤنة، وإن كان محفوظاً فيكون محمولاً على أن صنيعهم[1] هذا يكون في آخر الزمان عند اقتراب خروجهم كما هو المروي عن كعب الأحبار، أو يكون المراد بقوله ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ أي نافذاً منه فلا ينفي أن يلحسوه ولا ينفذوه والله أعلم. وعلى هذا فيمكن الجمع بين هذا وبين ما في الصحيحين عن أبي هريرة: «فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ»، وَعَقَدَ تَسْعِينَ أي فتح فتحاً نافذاً فيه والله أعلم.

[ذكر][2] قصة أصحاب الكهف

قال الله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى
ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى
ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم
بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ
ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ
وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾
۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى
فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾
وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ
ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ
قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم
بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ
أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾
وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ
فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

(١) وردت في النسخة المطبوعة «ضيعهم» خطأ. وصححناه.

(٢) سقط في ط.

سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف: ٩ ـ ٢٦].

كان سبب نزول قصة أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة وغيره أن قريشاً بعثوا إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ ويسألونه عنها ليختبروا ما يجيب به فيها، فقالوا: سلوه عن أقوام ذهبوا في الدهر فلا يدري ما صنعوا، وعن رجل طوّاف في الأرض وعنِ الروح، فأنزل الله تعالى ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الاسراء: ٨٥] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣] وقال ههنا ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ أي ليسوا بعجب عظيم بالنسبة إلى ما أطلعناك عليه من الأخبار العظيمة والآيات الباهرة والعجائب الغريبة. والكهف هو الغار في الجبل. قال شُعَيْبُ الجِبَائِي: واسم كهفهم حيزم، وأما الرقيم فعن ابن عباس أنه قال: لا أدري ما المراد به. وقيل هو الكتاب المرقوم فيه أسماؤهم وما جرى لهم، كتب من بعدهم، اختاره ابن جرير وغيره. وقيل: هو اسم الجبل الذي فيه كهفهم. قال ابن عباس وشُعَيْب الجِبَائي: واسمه بناجلوس. وقيل: هو اسم واد عند كهفهم، وقيل: اسم قرية هنالك والله أعلم.

قال شُعَيْبُ الجبائي: واسم كلبهم حمران واعتناء اليهود بأمرهم ومعرفة خبرهم يدل على أن زمانهم متقدّم على ما ذكره بعض المفسّرين أنهم كانوا بعد المسيح، وأنهم كانوا نصارى. والظاهر من السياق أن قومهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام. قال كثير من المفسرين والمؤرخين وغيرهم: كانوا في زمن ملك يقال له: دقيانوس، وكانوا من أبناء الأكابر. وقيل من أبناء الملوك، واتفق اجتماعهم في يوم عيد لقومهم فرأوا ما يتعاطاه قومهم من السجود للأصنام والتعظيم للأوثان، فنظروا بعين البصيرة، وكشف الله عن قلوبهم حجاب الغفلة، وألهمهم رشدهم، فعلموا أن قومهم ليسوا على شيء، فخرجوا عن دينهم وانتموا إلى عبادة الله وحده لا شريك له. ويقال إن كل واحد منهم لما أوقع الله في نفسه ما هداه إليه من التوحيد، انحاز عن الناس، واتفق اجتماع هؤلاء الفتية في مكان واحد كما صح في البخاري «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَما تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**»[1] فكلُّ منهم سأل الآخر عن أمره وعن شأنه فأخبره ما هو عليه. واتفقوا على الانحياز عن قومهم والتبري منهم والخروج من بين أظهرهم والفرار بدينهم منهم، وهو المشروع حال الفتن وظهور

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة حديث ١٥٩، وأحمد في المسند ٢/٥٢٧.

الشرور. قال الله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ [الكهف: ١٣ ـ ١٥] أي بدليل ظاهر على ما ذهبوا إليه وصاروا من الأمر عليه ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [الكهف: ١٥ ـ ١٦] أي وإذ فارقتموهم في دينهم وتبرأتم مما يعبدون من دون الله، وذلك لأنهم كانوا يشركون مع الله كما قال الخليل: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٧] وهكذا هؤلاء الفتية قال بعضهم: إذ قد فارقتم قومكم في دينهم فاعتزلوهم بأبدانكم لتسلموا منهم أن يوصلوا إليكم شراً ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦] أي يسبل عليكم ستره وتكونوا تحت حفظه وكنفه ويجعل عاقبة أمركم إلى خير كما جاء في الحديث «اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الأُمُورِ كُلِّهَا وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَمِنْ عَذَابِ الآخِرَةِ»(١). ثم ذكر تعالى صفة الغار الذي آووا إليه وإن بابه موجه إلى نحو الشمال وأعماقه إلى جهة القبلة، وذلك أنفع الأماكن أن يكون المكان قبليا وبابه نحو الشمال فقال: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ﴾ وقرىء: (تـزوَرّ) ﴿عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ فأخبر أن الشمس يعني في زمن الصيف وأشباهه تشرق أول طلوعها في الغار في جانبه الغربي، ثم تشرع في الخروج منه قليلاً قليلاً. وهو ازورارها ذات اليمين، فترتفع في جو السماء، وتتقلص عن باب الغار، ثم إذا تضيفت للغروب تشرع في الدخول فيه من جهته الشرقية قليلاً قليلاً إلى حين الغروب، كما هو المشاهد بمثل هذا المكان، والحكمة في دخول الشمس إليه في بعض الأحيان أن لا يفسد هواؤه ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بقاؤهم على هذه الصفة دهراً طويلاً من السنين لا يأكلون ولا يشربون ولا تتغذى أجسادهم في هذه المدة الطويلة من آيات الله وبرهان قدرته العظيمة ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ قال بعضهم لأن أعينهم مفتوحة لئلا تفسد بطول الغمض ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ قيل في كل عام يتحولون مرّة من جنب إلى جنب ويحتمل أكثر من ذلك فالله أعلم ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ قال شُعَيْبُ الجِبَائي اسم كلبهم حمران، وقال غيره الوصيد اسكفة الباب. والمراد أن كلبهم الذي كان معهم وصحبهم حال انفرادهم من قومهم، لزمهم ولم يدخل معهم في الكهف، بل ربض على بابه ووضع يديه على الوصيد، وهذا من جملة أدبه ومن جملة ما أكرموا به، فإن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب، ولما كانت التبعية مؤثرة حتى كان في كلب هؤلاء صار باقياً معهم ببقائهم، لأن من أحب قوماً سعد بهم، فإذا كان هذا في حق كلب فما ظنك بمن تبع أهل الخير وهو أهل للاكرام. وقد ذكر كثير من القصّاص والمفسّرين لهذا الكلب نبأ وخبراً طويلاً أكثره متلقى من الاسرائيليات، وكثير منها كذب ومما لا فائدة فيه كاختلافهم في اسمه ولونه.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٨١.

وأما اختلاف العلماء في محلة هذا الكهف، فقال كثيرون: هو بأرض أيلة. وقيل بأرض نينوى. وقيل بالبلقاء، وقيل ببلاد الروم، وهو أشبه والله أعلم. ولما ذكر الله تعالى ما هو الأنفع من خبرهم، والأهم من أمرهم، ووصف حالهم حتى كأن السامع راه، والمخبر مشاهد لصفة كهفهم [وهيئتهم][1]، وكيفيتهم في ذلك الكهف وتقلبهم من جنب إلى جنب، وإن كلبهم باسط ذراعيه بالوصيد. قال ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: ١٨] أي لِما عليهم من المهابة والجلالة في أمرهم الذي صاروا إليه، ولعل الخطاب ههنا لجنس الإنسان المخاطب لا بخصوصية الرسول ﷺ كقوله ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾ [التين: ٧] أي أيها الإنسان وذلك لأن طبيعة البشرية تفرّ من رؤية الأشياء المهيبة غالباً، ولهذا قال ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ ودل على أن الخبر ليس كالمعاينة كما جاء في الحديث، لأن الخبر قد حصل، ولم يحصل الفرار ولا الرعب. ثم ذكر تعالى أنه بعثهم من رقدتهم بعد نومهم بثلاثمائة سنة وتسع سنين، فلما استيقظوا قال بعضهم لبعض: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي بدراهمكم هذه يعني التي معهم إلى المدينة، ويقال كان اسمها دفسوس ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي أطيب مالاً ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي بطعام تأكلونه، وهذا من زهدهم وورعهم ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي في دخوله إليها ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ١٩ ـ ٢٠] أي إن عدتم في ملّتهم بعد إذ أنقذكم الله منها، وهذا كله لظنّهم أنهم رقدوا يوماً أو بعض يوم أو أكثر من ذلك، ولم يحسبوا أنهم قد رقدوا أزيد من ثلثمائة سنة، وقد تبدلت الدول أطواراً عديدة وتغيّرت البلاد ومن عليها، وذهب أولئك القرن الذين كانوا فيهم، وجاء غيرهم وذهبوا، وجاء غيرهم. ولهذا لما خرج أحدهم وهو تيذرسيس فيما قيل وجاء إلى المدينة متنكراً لئلا يعرفه أحد من قومه فيما يحسبه تنكرت له البلاد واستنكره من يراه من أهلها واستغربوا شكله وصفته ودراهمه، فيقال: إنهم حملوه إلى متوليهم، وخافوا من أمره أن يكون جاسوساً، أو تكون له صولة[2] يخشون من مضرتها، فيقال: إنه هرب منهم، ويقال: بل أخبرهم خبره ومن معه، وما كان من أمرهم، فانطلقوا معه ليريهم مكانهم، فلما قربوا من الكهف دخل إلى إخوانه فأخبرهم حقيقة أمرهم، ومقدار ما رقدوا، فعلموا أن هذا أمر قدره الله، فيقال: أنهم استمروا راقدين ويقال: بل ماتوا بعد ذلك.

وأما أهل البلدة فيقال: إنهم لم يهتدوا إلى موضعهم من الغار وعمى الله عليهم أمرهم، ويقال: لم يستطيعوا دخوله حساً[3] ويقال مهابة لهم.

---

(١) سقط في ط.

(٢) صولة: سطوة.

(٣) كذا في الأصل، ولعل المقصود جبناً.

واختلفوا في أمرهم فقائلون يقولون ﴿ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا﴾ أي سدوا عليهم باب الكهف لئلا يخرجوا أو لئلا يصل إليهم ما يؤذيهم، وآخرون وهم الغالبون على أمرهم قالوا ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ أي معبداً يكون مباركاً لمجاورته هؤلاء الصالحين. وهذا كان شائعاً فيمن كان قبلنا، فأما في شرعنا فقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَعَنَ اللَّهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبِيَائِهِمْ مَسَاجِد»[1] يحذر ما فعلوا، وأما قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ [الكهف: ٢١] فمعنى أعثرنا أطلعنا على أمرهم الناس. قال كثير من المفسرين: ليعلم الناس أن المعاد حق وأن الساعة لا ريب فيها إذا علموا أن هؤلاء القوم رقدوا أزيد من ثلثمائة سنة، ثم قاموا كما كانوا من غير تغير منهم، فإن من أبقاهم كما هم قادر على إعادة الأبدان، وأن أكلتها الديدان، وعلى إحياء الأموات وإن صارت أجسامهم وعظامهم رفاتاً، وهذا مما لا يشك فيه المؤمنون ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]. هذا ويحتمل عود الضمير في قوله ليعلموا إلى أصحاب الكهف، إذ علمهم بذلك من أنفسهم أبلغ من علم غيرهم بهم، ويحتمل أن يعود على الجميع والله أعلم. ثم قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢] فذكر اختلاف الناس في كميتهم، فحكى ثلاثة أقوال وضعف الأولين وقرّر الثالث فدل على أنه الحق إذ لو قيل غير ذلك لحكاه، ولو لم يكن هذا الثالث هو الصحيح لوهاه فدل على ما قلناه، ولما كان النزاع في مثل هذا لا طائل تحته ولا جدوى عنده أرشد نبيه ﷺ إلى الأدب في مثل هذا الحال إذا اختلف الناس فيه أن يقول الله أعلم. ولهذا قال ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ [الكهف: ٢٢] وقوله ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف: ٢٢] أي من الناس ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢] أي سهلاً ولا تتكلف أعمال الجدال في مثل هذا الحال، ولا تستفت في أمرهم أحداً من الرجال، ولهذا أبهم تعالى عدتهم في أول القصة فقال ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى﴾ ولو كان في تعين عدتهم كبير فائدة لذكرها عالم الغيب والشهادة، وقوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤].

أدب عظيم أرشده الله تعالى إليه وحث خلقه عليه وهو ما إذا قال أحدهم أني سأفعل في المستقبل كذا فيشرع له أن يقول إن شاء الله، ليكون ذلك تحقيقاً لعزمه لأن العبد لا يعلم ما في غد، ولا يدري أهذا الذي عزم عليه مقدّر أم لا، وليس هذا الاستثناء تعليقاً وإنما هو الحقيقي، ولهذا قال ابن عبّاس: يصح إلى سنة، ولكن قد يكون في بعض المحال لهذا،

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٠، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة حديثه ٢١، وأحمد في المسند ٦/ ٢٧٥.

ولهذا كما تقدّم في قصة سليمان عليه السلام حين قال: لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقيل له قل إن شاء الله، فلم يقل، فطاف فلم تلد منهم إلا امرأة واحدة نصف إنسان، قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمْ يَحْنَثْ وَكَانَ دَرَكاً لِحَاجَتِهِ»(١). وقوله ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] وذلك لأن النسيان قد يكون من الشيطان، فذكر الله يطرده عن القلب، فيذكر ما كان قد نسيه. وقوله ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٤] أي إذا اشتبه أمر واشكل حال والتبس أقوال الناس في شيء، فارغب إلى الله ييسره لك، ويسهّله عليك، ثم قال: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾. لما كان في الإخبار بطول مدّة لبثهم فائدة عظيمة ذكرها تعالى، وهذه التسع المزيدة بالقمرية وهي لتكميل ثلثمائة شمسية، فإن كل مائة قمرية تنقص عن الشمسية ثلاث سنين ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ [الكهف: ٢٦] أي إذا سئلت عن مثل هذا وليس عندك في ذلك نقل فردّ الأمر في ذلك إلى الله عزّ وجلّ ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٢٦] أي هو العالم بالغيب فلا يطلع عليه إلاّ من شاء من خلقه ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف: ٢٦] يعني أنه يضع الأشياء في محالها لعلمه التام بخلقه وبما يستحقونه ثم قال: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦] أي ربك المنفرد بالملك والمتصرف وحده لا شريك له.

قصة الرجلين المؤمن والكافر

قال الله تعالى في سورة الكهف بعد قصة أهل الكهف: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ إلى قوله ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٤٤].

قال بعض الناس هذا مثل مضروب ولا يلزم أن يكون واقعاً، والجمهور أنه أمر قد وقع وقوله ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ يعني لكفار قريش في عدم اجتماعهم بالضعفاء والفقراء، وازدرائهم بهم وافتخارهم عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يس: ١٣] كما قدّمنا الكلام على قصّتهم قبل قصّة موسى عليه السلام، والمشهور أن هذين كانا رجلين مصطحبين، وكان أحدهما مؤمناً والآخر كافراً، ويقال إنه كان لكل منهما مال، فانفق المؤمن ماله في طاعة الله ومرضاته ابتغاء وجهه. وأمّا الكافر فانه اتخذ له بساتين وهما الجنّتان المذكورتان في الآية على الصفة والنعت المذكور. فيهما أعناب ونخيل تحفّ تلك الاعناب والزروع في ذلك، والأنهار سارحة ههنا وههنا للسقي والتنزّه،

(١) أخرجه البخاري في كفارات الأيمان باب ٩، ومسلم في الأيمان حديث ٢٣، وأحمد في المسند ٢/ ٢٧٥.

وقد استوثقت فيهما الثمار، واضطربت فيهما الانهار، وابتهجت الزروع والثمار، وافتخر مالكها على صاحبه المؤمن الفقير، قائلا له: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي أوسع جناناً، ومراده انه خير منه، ومعناه ماذا أغنى عنك إنفاقك ما كنت تملكه في الوجه الذي صرفته فيه، كان الأولى بك أن تفعل كما فعلت لتكون مثلي، فافتخر على صاحبه ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾أي وهو على غير طريقة مرضية قال ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ وذلك لما رأى من اتساع أرضها، وكثرة مائها وحسن نبات أشجارها، ولو قد بادت كل واحدة من هذه الأشجار لاستخلف مكانها أحسن منها وزروعها دارّة لكثرة مياهها. ثم قال ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ فوثق بزهرة الحياة الدنيا الفانية، وكذّب بوجود الآخرة الباقية الدائمة. ثم قال ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي ولئن كان ثم آخرة ومعاد فلأجدنّ هناك خيراً من هذا، وذلك لانه اغترّ بدنياه، واعتقد أن الله لم يعطه ذلك فيها إلاّ لحبّه له، وحظوته عنده، كما قال العاص بن وائل فيما قصّ الله من خبره وخبر خَبّاب بن الأرتّ في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ [مريم: ٧٧ ـ ٧٨] وقال تعالى إخباراً عن الانسان إذا أنعم الله عليه ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

قال الله تعالى ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [مريم: ٧٧ ـ ٧٨] وقال قارون ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨] أي لعلم الله بي أني أستحقه قال الله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

وقد قدّمنا الكلام على قصته في اثناء قصّة موسى. وقال تعالى﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧] وقال تعالى ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦]. ولما اغتر هذا الجاهل بما خول به في الدنيا فجحد الآخرة، وادعى أنها ان وجدت ليجدنّ عند ربّه خيراً مما هو فيه، وسمعه صاحبه يقول ذلك قال له: ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي يجادله ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧] أي أجحدت المعاد وأنت تعلم أن الله خلقك من تراب. ثم من نطفة ثم صوّرك أطواراً حتى صرت رجلاً سوياً سميعاً بصيراً، تعلم وتبطش وتفهم، فكيف أنكرت المعاد، والله قادر على البداءة ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ [الكهف: ٣٨] أي لكن أنا أقول بخلاف ما قلت وأعتقد خلاف معتقدك ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٨] أي لا أعبد سواه واعتقد أنه يبعث الأجساد بعد فنائها، ويعيد الاموات، ويجمع العظام الرفات، وأعلم أن الله لا شريك له في خلقه، ولا في ملكه، ولا إله غيره، ثم أرشده إلى ما كان الأوْلى به أن يسلكه عند دخول جنّته فقال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف:

٣٩] ولهذا يستحبّ لكل من أعجبه شيء من ماله أو أهله أو حاله، أن يقول كذلك، وقد ورد فيه حديث مرفوع في صحته نظر.

قال أبو يَعْلَى الموصلي: حدّثنا جَرّاحُ بن مُخَلَّدٍ، حدثنا عمرو بن يوسف، حدثنا عيسى بن عَوْنٍ، حدثنا عبد الملك بن زُرَارة عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً مِنْ أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ وَلَدٍ فَيَقُولُ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّهِ» فيرى فيه آفة دون الموت، وكان يتأول هذه الآية ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ قال الحافظ أبو الفتح الأَزْدِي عيسى بن عَوْنٍ، عن عبد المَلِكِ بن زُرَارَةَ، عن أَنَس، لا يصحّ. ثم قال: المُؤْمِنُ لِلْكَافِرِ: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الكهف: ٤٠] قال ابن عباس والضحّاك وقَتَادة: أي عذاباً من السماء. والظاهر أنه المطر المزعج الباهر الذي يقتلع زروعها وأشجارها ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾ وهو التراب الأملس الذي لا نبات فيه ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ [الكهف: ٤١] وهو ضد المعين السارح ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ [الكهف: ٤١] يعني فلا تقدر على استرجاعه. قال الله تعالى ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢] أي جاءه أمر أحاط بجميع حواصله، وخرّب جنّته ودمّرها ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف: ٤٢] أي خربت بالكلية، فلا عودة لها، وذلك ضدّ ما كان عليه أملَ حيث قال: ﴿ وَمَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَداً﴾ وندم على ما كان سلف منه من القول الَّذِي كَفَر بِسَبَبِهِ بِاللَّهِ العَظِيم فَهُوَ يَقُولُ: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢]. قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا هُنَالِكَ﴾ أي لم يكن أحد يتدارك ما فرّط من أمره وما كان له قدرة في نفسه على شيء من ذلك كما قال تعالى ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ [الطارق: ١٠] وقوله ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ [الكهف: ٤٤] ومنهم من يبتدىء بقوله ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو حسن أيضاً لقوله ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٦] فالحكم الذي لا يرد ولا يمانع ولا يغالب في تلك الحال، وفي كل حال لله الحق. ومنهم من رفع الحقّ جعله صفة للولاية وهما متلازمتان وقوله ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤] أي معاملته خير لصاحبها ثواباً وهو الجزاء وخير عقبا وهو العاقبة في الدنيا والآخرة. وهذه القصّة تضمنت أنه لا ينبغي لأحد أن يركن إلى الحياة الدنيا ولا يغتر بها ولا يثق بها، بل يجعل طاعة الله والتوكّل عليه في كل حال نصب عينيه. وليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه. وفيها أن من قدّم شيئاً على طاعة الله والانفاق في سبيله، عذّب به، وربّما سلب منه معاملة له بنقيض قصده. وفيها أن الواجب قبول نصيحة الأخ المشفق، وأنّ مخالفته وبال ودمار على من ردّ النصيحة الصحيحة. وفيها أن الندامة لا تنفع إذا حان القدر، ونفذ الأمر الحتم، وبالله المستعان وعليه التكلان.

قصة أصحاب الجنة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [القلم: ١٧ ـ ٣٣]. وهذا مثل ضربه الله لكفّار قريش فيما أنعم به عليهم من إرسال الرسول العظيم الكريم اليهم، فقابلوه بالتكذيب والمخالفة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [ابراهيم: ٢٨ ـ ٢٩]. قال ابن عباس: هم كفّار قريش، فضرب تعالى لهم مثلاً بأصحاب الجّنة المشتملة على أنواع الزروع والثمار التي قد انتهت واستحقت أن تجد وهو الصرام، ولهذا قال: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟﴾ فيما بينهم ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ أي ليجدنها وهو الاستغلال ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي وقت الصبح حيث لا يراهم فقير ولا محتاج فيعطوه شيئاً، فحلفوا على ذلك، ولم يستثنوا في يمينهم، فعجّزهم الله، وسلّط عليها الآفة التي أحرقتها، وهي السفعة التي اجتاحتها، ولم تبق بها شيئاً ينتفع به، ولهذا قال: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ أي كالليل الأسود المنصرم من الضياء، وهذه معاملة بنقيض المقصود ﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ﴾ أي فاستيقظوا من نومهم، فنادى بعضهم بعضاً قائلين: ﴿أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ أي باكروا إلى بستانكم فاصرموه[1] قبل أن يرتفع النهار، ويكثر السؤال ﴿فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ أي يتحدّثون فيما بينهم خفية قائلين: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أي اتفقوا على هذا، واشتوروا عليه ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ أي انطلقوا مجدّين في ذلك قادرين عليه مضمرين على هذه النية الفاسدة. وقال عِكْرِمة والشَّعْبي: ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي غضب على المساكين، وأبعد السّدّي في قوله أن اسم حرثهم حَرْد ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أي وصلوا اليها ونظروا ما حلّ بها، وما قد صارت اليه من الصفة المنكرة بعد تلك النضرة والحسن والبهجة، فانقلبت بسبب النيّة الفاسدة، فعند ذلك ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي قد نهينا عنها وسلكنا غير طريقها، ثم قالوا ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي بل عوقبنا بسبب سوء قصدنا وحرمنا بركة حرثنا ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾. قال ابن عباس: مجاهد وغير واحد هو أعدلهم وخيرهم ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ قيل تستثنون، قاله مجاهد والسّدّي وابن جرير، وقيل تقولون خيراً بدل ما قلتم من الشر ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾﴾. فندموا حيث لا ينفع الندم واعترفوا بالذنب بعد العقوبة، وذلك حيث لا ينجع[2]، وقد قيل إن هؤلاء كانوا إخوة،

---

(١) صرم: قطع وجزّ.

(٢) ينجع: ينفع.

وقد ورثوا هذه الجنّة من أبيهم، وكان يتصدّق منها كثيراً، فلما صار أمرها اليهم استهجنوا أمر أبيهم، وأرادوا استغلالها من غير أن يعطوا الفقراء شيئاً، فعاقبهم الله أشدّ العقوبة، ولهذا أمر الله تعالى بالصدقة من الثمار، وحثّ على ذلك يوم الجداد، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ [الانعام: ١٤١] ثم قيل كانوا من أهل اليمن من قرية يقال لها: ضروان[١]. وقيل من أهل الحبشة، والله أعلم. قال من أهل الحبشة، والله أعلم. قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾ أي هكذا نعذّب من خالف أمرنا ولم يعطف على المحاويج من خلقنا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾ أي أعظم وأحكم من عذاب الدنيا ﴿لَوۡ كَانُوا يَعۡلَمُونَ﴾. وقصة هؤلاء شبيه بقوله تعالى ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُوا يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل: ١١٢ ـ ١١٣] قيل هَذا مثل مضروب لأهل مكة، وقيل هم أهل مكة أنفسهم ضربهم مثلاً لأنفسهم، ولا ينافي ذلك والله أعلم اهـ.

قصة أصحاب أيلة الذين اعتدوا في سبتهم

قال الله تعالى في سورة الأعراف ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُوا مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابِۢ بَـِٔيسِۢ بِمَا كَانُوا يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡا عَن مَّا نُهُوا عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الاعراف: ١٦٣ ـ ١٦٦] وقال تعالى في سورة البقرة ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡا مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة: ٦٥ ـ ٦٦] وقال تعالى في سورة النساء ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾ [النساء: ٤٧]. قال ابن عباس ومُجاهد وعِكرمة وقَتادة والسّدّي وغيرهم: هم أهل أيلة. زاد ابن عباس بين مدين والطور. قالوا: وكانوا متمسكين بدين التوراة في تحريم السبت في ذلك الزمان، فكانت الحيتان قد أَلِفَت منهم السكينة في مثل هذا اليوم، وذلك أنه كان يحرّم عليهم الاصطياد فيه، وكذلك جميع الصنائع والتجارات والمكاسب، فكانت الحيتان في مثل يوم السبت يكثر غشيانها لمحلّتهم من البحر، فتأتي من ههنا وههنا ظاهرة آمنة مسترسلة، فلا يهيجونها ولا يذعرونها ﴿وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ﴾ وذلك لأنهم كانوا يصطادونها فيما عدا السبت قال الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم﴾ أي نختبرهم بكثرة الحيتان في يوم السبت ﴿بِمَا كَانُوا يَفۡسُقُونَ﴾ أي بسبب فسقهم المتقدّم، فلمّا رأوا ذلك احتالوا على اصطيادها في يوم السبت بأن نصبوا الحبال والشباك والشصوص[٢]، وحفروا

---

(١) ضروان: من أرض اليمن على فرسخ من صنعاء.

(٢) الشصوص: الشصص: حديدة عقفاء يصاد بها السمك.

الحفر التي يجري معها الماء الى مصانع قد أعدّوها إذا دخلها السمك لا يستطيع أن يخرج منها، ففعلوا ذلك في يوم الجمعة، فإذا جاءت الحيتان مسترسلة يوم السبت علقت بهذه المصايد، فإذا خرج سبتهم أخذوها، فغضب الله عليهم ولعنهم لما احتالوا على خلاف أمره، وانتهكوا محارمه بالحيل التي هي ظاهرة للناظر، وهي في الباطن مخالفة محضة، فلما فعل ذلك طائفة منهم افترق الذين لم يفعلوا فرقتين. فرقة أنكروا عليهم صنيعهم هذا واحتيالهم على مخالفة الله وشرعه في ذلك الزمان. وفرقة أخرى لم يفعلوا ولم ينهوا بل أنكروا على الذين نهوا وقالوا ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يقولون ما الفائدة في نهيكم هؤلاء، وقد استحقوا العقوبة لا محالة، فأجابتهم الطائفة المنكرة بأن قالوا ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي فيما أمرنا به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فنقوم به خوفاً من عذابه ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي ولعل هؤلاء يتركون ما هم عليه من هذا الصنيع، فيقيهم الله عذابه ويعفو عنهم إذا هم رجعوا واستمعوا. قال الله تعالى ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي لم يلتفتوا الى من نهاهم عن هذا الصنيع الشنيع الفظيع ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ وهم الفرقة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وهم المرتكبون الفاحشة ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ وهو الشديد المؤلم الموجع ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾. ثم فسّر العذاب الذي أصابهم بقوله ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾. وسنذكر ما ورد من الآيات في ذلك.

والمقصود هنا أن الله اخبر أنه أهلك الظالمين ونجّى المؤمنين المنكرين، وسكت عن الساكتين. وقد اختلف فيهم العلماء على قولين فقيل إنهم من الناجين، وقيل إنهم من الهالكين، والصحيح الاول عند المحققّين وهو الذي رجع اليه ابن عباس أمام المفسّرين وذلك عن مناظرة مولاه عِكْرِمَةَ، فكساه من أجل ذلك حلّة سنية تكرمة. قلت وإنما لم يذكروا مع الناجين لأنهم وإن كرهوا ببواطنهم تلك الفاحشة، إلاّ أنهم كان ينبغي لهم أن يحملوا ظواهرهم بالعمل المأمور به من الإنكار القولي الذي هو أوسط المراتب الثلاث التي أعلاها الإنكار باليد ذات البنان، وبعدها الإنكار القولي باللسان، وثالثها الانكار بالجنان، فلما لم يذكروا نجوا مع الناجين إذ لم يفعلوا الفاحشة بل أنكروها. وقد روى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عن ابْنِ جُرَيْجٍ عن رَجُلٍ عن عِكرمة عن ابن عبّاسٍ وحكى مالك عن ابن رَوْمان وشَيْبَان عن قَتادة وعَطاء الخُراسانيّ ما مضمونه أن الذين ارتكبوا هذا الصنع اعتزلهم بقية أهل البلد ونهاهم من نهاهم منهم، فلم يقبلوا فكانوا يبيتون وحدهم ويغلقون بينهم وبينهم أبواباً حاجزاً كانوا يترقّبون من هلاكهم، فأصبحوا ذات يوم وأبواب ناحيتهم مغلقة لم يفتحوها، وارتفع النهار واشتد الضحاء، فأمر بقية أهل البلد رجلاً أن يصعد على سلالم ويشرف عليهم من فوقهم، فلما أشرف عليهم إذا هم قِرَدَةً لها أذناب يتعاوون ويتعادون، ففتحوا عليهم الأبواب فجعلت القردة تعرف قراباتهم، ولا تعرفهم قراباتهم، فجعلوا يلوذون بهم ويقول لهم الناهون: ألم ننهكم عن صنيعكم فتشير القردة برؤوسها أن نعم. ثم بكى عبد الله بن عباس

وقال: إنا لنرى منكرات كثيرة ولا ننكرها ولا نقول فيها شيئاً. وقال العوفي عن ابن عباس، صار شباب القرية قردة وشيوخها خنازير. وروى ابن أبي حاتم من طريق مجاهد عن ابن عبّاس أنهم لم يعيشوا إلاّ فواقاً ثم هلكوا ما كان لهم نسل.

وقال الضحاك عن ابن عبّاس: أنه لم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل هؤلاء ولم يشربوا ولم ينسلوا، وقد استقصينا الآثار في ذلك في تفسير سورة البقرة والأعراف. ولله الحمد والمنة. وقد روى ابن أبي حاتم وابن جرير من طَرِيقِ ابن أبي نُجيْح عن مجاهد أنه قال مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قِرَدَةً وخَنَازِيرَ وانما هو مثل ضربه الله ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥] وهذا صحيح إليه وغريب منه جداً ومخالف لظاهر القرآن ولما نصّ عليه غير واحد من السلف والخلف والله أعلم.

قصّة أصحاب القرية

﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ تقدّم ذكرها قبل قصّة موسى عليه السلام.

قصة سبأ

سيأتي ذكرها في أيام العرب إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

قصة قارون وقصة بلعام

تقدمتا في قصة موسى وهكذا قصة الخضر و قصة فرعون والسحرة، كلها في ضمن قصة موسى و قصّة البقرة تقدمت في قصة موسى وقصة ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ في قصّة حزقيل وقصّة ﴿ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾ في قصّة شمويل وقصّة ﴿كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ في قصة عزير.

[ذكر][1] قصة لقمان

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾

---

(١) سقط في ط.

وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ [لقمان: ١٢ ـ ١٩].

هو لقمان بن عنقاء بن سدون. ويقال: لقمان بن ثاران حكاه السُّهيلي عن ابن جرير والقتيبي. قال السهيلي: وكان نوبياً من أهل أيلة. قلت وكان رجلاً ذا عبادة وعبارة وحكمة عظيمة، ويقال: كان قاضيا في زمن داود عليه السلام فالله أعلم. وقال سفيان الثوري عن الأَشْعَثِ، عن عكرمة عن ابن عَبَّاسٍ قال: كان عَبْداً حَبَشِياً نَجَّاراً، وقال قَتَادة عن عبد الله بن الزبير. قلت لِجابِرِ بن عبد الله: ما انتهى اليكم في شأن لقمان؟ قال: كان قصيراً أفطس من النوبة. وقال يحيى بن سعيد الانصاري عنِ سَعيد بن المسَيَّب قال: كان لقمان من سودان مصر، ذو مشافر أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوّة.

وقال الأَوْزَاعِي: حدّثني عبد الرحمن بن حَرْمَلَةَ قال: جاء أسود إلى سَعِيدِ بن المُسَيَّبِ يسأله، فقال له سعيد: لا تحزن من أجل أنّك أسود فانه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان: بلال ومِهْجَعٌ مولى عمر ولقمان الحكيم كان أسود نوبياً ذا مشافر. وقال الأَعْمَشُ عن مُجَاهِد: كان لقمان عبداً أسود عظيم الشفتين مشقّق القدمين، وفي رواية مصفّح القدمين. وقال عمر بن قيس: كان عبداً أسود غليظ الشفتين، مصفح القدمين، فأتاه رجل وهو في مجلس أناس يحدّثهم فقال له: ألست الذي كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا؟ قال: نعم، قال فما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث. والصمت عمّا لا يعنيني. رواه ابن جرير عن ابن حُمَيْدٍ، عن الحَكَمِ، عنه، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زَرْعَةَ، حدثنا صَفْوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن أبي يزيد بن جابر. قال: إن الله رفع لقمان الحكيم لحكمته، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك، فقال ألست عبد بن فلان الذي كنت ترعى غنمي بالامس؟ قال: بلى، قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال قَدَرُ الله وأداء الأمانة وصدق الحديث وترك ما لا يعنيني، وقال ابن وَهْب: أخبرني عبد الله بن عَيَّاش الْقَتَبَانِي عن عمر مولى عَفْرَةَ قال: وقف رجل على لقمان الحكيم فقال أنت لقمان؟ أنت عبد بني النحّاس؟ قال: نعم، قال: فأنت راعي الغنم الأسود؟ قال أما سوادي فظاهر فما الذي يعجبك من أمري؟ قال: وطء الناس بساطك وغشيهم بابك ورضاهم بقولكَ! قال: يا ابن أخي إن صنعت ما أقول لك كنت كذلك، قال: ما هو؟ قال لقمان: غضي بصري، وكفي لساني، وعفّة مطعمي، وحفظي فرجي، وقيامي بعدّتي، ووفائي بعهدي، وتكرمتي ضيفي، وحفظي جاري، وتركي ما لا يعنيني، فذاك الذي صيّرني كما ترى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن فضيل، حدثنا عمرو بن واقد، عن عَبْدَة بن رَبَاح، عن ربيعة، عن أبي الدَّرْدَاءِ أنه قال يوماً وذكر لقمان الحكيم فقال: ما أوتي عن أهلٍ، ولا مالٍ، ولا حسب، ولا خصال، ولكنّه كان رجلاً ضمضامة[1] سكيتاً طويل التفكّر، عميق النظر، لم ينم نهاراً قط، ولم يره أحد يبزق، ولا يتنحنح، ولا يبول، ولا

(١) الضمضام: الجسيم والجريء.

يتغوّط، ولا يغتسل، ولا يعبث، ولا يضحك، وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلاّ أن يقول حكمة يستعيدها إيّاه أحد، وكان قد تزوج وولد له أولاد فماتوا، فلم يبك عليهم، وكان يغشى السلطان ويأتي الحكّام لينظر ويتفكّر ويعتبر فبذلك أوتي ما أوتي. ومنهم من زعم أنه عرضت عليه النبوّة فخاف أن لا يقوم بأعبائها، فاختار الحِكْمَة لأنها أسهل عليه، وفي هذا نظر والله أعلم. وهذا مروي عن قَتَادة كما سنذكره. وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من طريق وَكِيع عن إسرائيل عَن جابر الجُعفي عن عِكْرِمَة أنه قال كان لقمان نبياً وهذا ضعيف لحالَ الجُعَفِي.

والمشهور عن الجمهور أنه كان حكيماً ولياً ولم يكن نبياً وقد ذكره الله تعالى في القرآن فأثنى عليه وحكى من كلامه فيما وعظ به ولده الذي هو أحبُ الخلق إليه، وهو أشفق الناس عليه، فكان من أول ما وعظ به أن قال ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. فنهاه عنه وحذره منه. وقد قال البخاري حدثنا قتيبة، حدثنا جرير عن الأعْمَش، عن إبراهيم، عن عَلْقَمَةَ، عن عبد الله قال: لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شقّ ذلك أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أَيُّنا لَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ؟ فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِذَاكَ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»[1] رواه مسلم من حديث سُلَيْمَانَ بْنِ مِهْرَانَ الأعْمَشِ به، ثم اعترض تعالى بالوصية بالوالدين وبيان حقّهما على الولد، وتأكّده. وأمر بالإحسان إليهما حتى ولو كانا مشركين، ولكن لا يُطَاعَان على الدخول في دينهما إلى أن قال مخبراً عن لقمان فيما وعظ به ولده ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦] ينهاه عن ظلم الناس ولو بحبّة خردل، فإن الله يسأل عنها ويحضرها حوزة الحساب، ويضعها في الميزان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧] وأخبره أن هذا الظلم لو كان في الحقارة كالخردلة، ولو كان في جوف صخرة صمّاء لا باب لها ولا كُوة، أو لو كانت ساقطة في شيء من ظلمات الأرض، أو السموات في اتساعهما وامتداد أرجائهما، لعلم الله مكانها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي عِلْمه دقيق، فلا يخفى عليه الذرّ مما ترا، أي للنواظر أو توارى كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقال: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ [النمل: ٧٥] وقال ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣] وقد زعم السُدّي في خبره عن الصحابة أن المراد بهذه الصخرة الصخرة التي تحت الأرضين السبع، وهكذا حكى

(١) أخرجه البخاري في التفسير باب ٣١، سورة لقمان، ومسلم في الإيمان حديث ١٩٧، وأحمد في المسند ١/ ٤٢٤.

عن عَطِيَّةَ العَوْفِي وأبي مالِكٍ وَالثّوري والمِنْهَال بن عمرو وغيرهم، وفي صحّة هذا القول من أصله نظر. ثم إنّ في هذا هو المراد نظر آخر، فإن هذه الآية نكرة غير معرفة، فلو كان المراد بها ما قالوه لقال: فتكن في الصخرة، وإنما المراد فتكن في صخرة، أي صخرة كانت، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا حسن بن موسى، حدّثنا ابن لَهِيعَةَ، حدثنا دَرّاجُ عن أبي الهَيْثَم، عن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِي، عن رسول الله ﷺ قال: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَّاءَ لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلاَ كُوَّةٌ لَخَرَجَ عَمَلُهُ لِلنَّاسِ كَائِناً مَا كَانَ» ثم قال ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[1] أي أدّها بجميع واجباتها من حدودها. وأوقاتها وركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها، وما شرع فيها، واجتنب ما ينهى عنه فيها. ثم قال: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ أي بجهدك وطاقتك، أي إن استطعت باليد فباليد، وإلاّ فبلسانك، فإن لم تستطع فبقلبك، ثم أمره بالصبر فقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ وذلك أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر في مظنّة أي يعادى وينال منه، ولكن له العاقبة، ولهذا أمره بالصبر على ذلك، ومعلوم أن عاقبة الصبر الفرج وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ التي لا بدّ منها ولا محيد عنها. وقوله ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعِكْرَمَة وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ والضَّحَّاكُ ويزيد بن الأصَمّ وأبو الجَوْزَاء وغير واحد: معناه لا تتكبر على الناس، وتميل خدّك حال كلامك لهم، وكلامهم لك. على وجه التكبّر عليهم، والازدراء لهم. قال أهل اللغة وأصل الصعر داء يأخذ الإبل في أعناقها فتلتوي رؤوسها، فشبه به الرجل المتكبّر الذي يميل وجهه إذا كلّم الناس أو كلّموه على وجه التعظيم عليهم.

قال أبو طالب في شعره: [الطويل]

وَكُنَّا قَدِيماً لاَ نُقِرّ ظُلاَمَةً ... إذَا مَا ثَنَوا صُعْرَ الخُدود نُقِيمُها

وقال عمرو بن حُيَيّ التَغْلِبي: [الطويل]

وَكُنَّا إذَا الجَبّارُ صَعَّر[2] خَدَّه ... أَقَمْنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَوَّما

وقوله: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ ينهاه عن التبختر في المشية على وجه العظمة والفخر على الناس كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ [الإسراء: ٣٧]. يعني لست بسرعة مشيك تقطع البلاد في مشيتك هذه، ولست بدقك الأرض برجلك تخرق الأرض بوطئك عليها، ولست بتشامخك وتعاظمك وترفعك تبلغ الجبال طولاً، فاتئد على نفسك فلست تعدو قدرك. وقد ثبت في الحديث بينما رجل يمشي في برديه يتبختر فيهما، إذْ خسف الله به الأرض، فهو يتجلّل فيها إلى يوم القيامة[3] وفي الحديث الآخر «إِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الإِزَارِ فَإِنَّهَا مِنَ المَخِيلَةِ لاَ يُحِبُّهَا

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/٢٨. (٢) صعر: أمال خده.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٤، ومسلم في اللباس والزينة حديث ٤، وأحمد في المسند ٢/٣١٥.

اللَّهُ»(١) كما قال في هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ولما نهاه عن الاختيال في المشي، أمره بالقصد فيه، فإنه لا بدّ له أن يمشي فنهاه عن الشرّ، وأمره بالخير، فقال: واقصد في مشيك أي لا تتباطأ مفرطاً، ولا تسرع إسراعاً مفرطاً، ولكن بين ذلك قواماً كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣] ثم قال ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ يعني إذا تكلمت لا تتكلّف رفع صوتك، فإن أرفع الأصوات وأنكرها صوت الحمير. وقد ثبت في الصحيحين الأمر بالاستعاذة عند سماع صوت الحمير بالليل، فإنها رأت شيطاناً(٢)، ولهذا نهى عن رفع الصوت حيث لا حاجة إليه، ولا سيّما عند العطاس، فيستحب خفض الصوت وتخمير الوجه، كما ثبت به الحديث من صنيع رسول الله ﷺ فأما رفع الأصوات بالأذان وعند الدعاء إلى الفئة للقتال، وعند الإهلال ونحو ذلك، فذلك مشروع، فهذا مما قصّه الله تعالى عن لقمان عليه السلام في القرآن من الحِكَم والوصايا النافعة الجامعة للخير المانعة من الشر، وقد وردت آثار كثيرة من أخباره ومواعظه، وقد كان له كتاب يؤثر عنه يسمى بِحِكْمَةِ لُقْمَان ونحن نذكر من ذلك ما تيسّر إن شاء الله تعالى.

قال الإمام أحمد: حدّثنا علي بن إسحاق، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا سفيان، أخبرني نُهَيْك بن يَجْمع الضَّبِّي، عن قَزَعَة، عن ابن عمر، قال أخبرنا رسول الله ﷺ قال: «إنَّ لُقْمَانَ الحَكِيم كَانَ يَقُولُ إنَّ اللَّهَ إِذَا اسْتَوْدِع شَيْئاً حَفِظَهُ»(٣) وقال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعي، عن موسى بن سليمان، عن القاسم بن مُخَيْمَرَةَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَالتَّقَنُّعَ فَإِنَّهُ مَخُونَةٌ بِاللَّيْلِ مَذَمَّةٌ بِالنَّهَارِ» وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثناعمرو بن عَمَارة، حدثنا ضَمْرَة: حدثنا السَّرِيُّ بنُ يحيى قال لقمان لابنه: «يَا بُنَيَّ إنَّ الحِكْمَةَ أَجْلَسْتِ المَسَاكِينَ مَجَالِسَ المُلُوكِ». وحدّثنا أبي، حدثنا عبدة بن سليمان، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا عبد الرحمن المَسْعُودِي عن عَوْنِ بن عبد الله، قال: قال لقمان لابنه: «يَا بُنَيَّ إِذَا أَتَيْتَ نَادِيَ قَوْم فَأَدِمِهِمْ بسهم الاسلام يعني السلام، ثم اجلس بناحيتهم فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك معهم، وأن أفاضوا في غير ذلك فحوّل عنهم إلى غيرهم وحدّثنا أبي، حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا ضَمْرَةَ عن حَفْص بن عُمَرَ، قال: وضع لقمان جراباً من خردل إلى جانبه، وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج خردلة حتى نفذ الخردل فقال: يا بني لقد وعظتك موعظة لو وَعِظها جبل تفطر. قال: فتفطر ابنه. وقال أبو القاسم الطَّبَرَاني حدثنا يحيى بن عبد الباقي المَصِيصي، حدّثنا أحمد بن عبد الرحمن الحَرَّاني، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن

(١) أخرجه أبو داود في اللباس باب ٢٧، وأحمد في المسند ٥/ ٦٣.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ١٥، ومسلم في الذكر حديث ٨٢، وأبو داود في الأدب باب ١١٥، وأحمد في المسند ٢/ ٣٠٦، ٣٠٧.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٨٧.

الطَّرَائِفِي، عن ابن سفيان المَقْدُسِي، عن خليفة بن سلام، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّخِذُوا السُّودَانَ فَإِنَّ ثَلاَثَةً مِنْهُمْ مِنْ [سادات](١) أَهْلِ الجَنَّةِ لُقْمَانُ الحَكِيمَ والنَّجَاشِي وَبِلاَلُ المُؤَذِّنُ». قال الطبراني: يعني الحَبَشي. وهذا حديث غريب [بل](٢) منكر، وقد ذكر له الإمام أحمد [في كتاب الزهد](٣) ترجمة ذكر فيها فوائد مهمة جمة، فقال: حدثنا وَكِيع، حدثنا سفيان عن رجل، عن مجاهد وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ قال الفقه والاصابة في غير نبوّة. وكذا روى عن وَهبِ بن مُنَبِّهٍ.

وحدثنا وَكِيعٌ، حدثنا سُفْيَانُ عن أَشْعَثَ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس، قال: كَانَ لُقْمَانُ عَبْداً حَبَشِيّاً، وحدثنا أسود، حدثنا حماد، عن عليّ بن يزيد، عن سعيد بن المُسَيَّب: أن لقمان كان خياطاً.

وحدثنا سَيَّادُ حدثنا جعفر، حدثنا مالك يعني ابن دينار. قال: قال لقمان لابنه: «يا بني اتخذ طاعة الله تجارة تأتك الأرباح من غير بضاعة». وحدثنا يزيد، حدثنا أبو الأشهب، عن محمد بن واسع، قال: كان لقمان يقول لابنه: «يا بني اتق الله ولا ترى الناس أنك تخشى الله ليكرموك بذلك وقلبك فاجر».

وحدثنا يزيد بن هارون وَوَكِيعٌ قالا: حدثنا أبو الأَشْهَبِ عن خالد الرَّبْعِي، قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً، فقال له سيّده: اذبح لي شاة، فذبح له شاة، فقال: ائتني بأطيب مضغتين فيها، فأتاه باللسان والقلب، فقال: أما كان فيها شيء أطيب من هذين؟ قال: لا، قال: فسكت عنه ما سكت، ثم قال له: اذبح شاة فذبح له شاة، فقال له: وألق أخبثها مضغتين، فرمى باللسان والقلب، فقال: أمرتك أن تأتيني بأطيبها مضغتين فأتيتني باللسان والقلب، وأمرتك أن تلقي أخبثها مضغتين فألقيت اللسان والقلب، فقال له: إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا.

وحدثنا داود بن رشيد، حدثنا ابن المبارك، حدثنا مَعْمَرٌ عن أبي عثمان رجل من أهل البصرة، يقال له الجَعْدُ أبو عثمان قال: قال لقمان لابنه: «لا ترغب في ود الجاهل فيرى أنك ترضى عمله، ولا تهاون بمقت الحكيم فيزهده فيك». وحدثنا داود بن أُسَيْدٍ حدثنا إسماعيل بن عياش عن ضَمْضَمَ بن زَرْعَةَ عن شُرَيْح بن عُبَيْدٍ الحَضْرَمِي عن عبد الله بن زيد قال: قال لقمان: ألا أن يد الله على أفواه الحكماء لا يتكلم أحدهم إلاّ ما هيأ الله له.

وحدثنا عبد الرزّاق سمعت ابن جُرَيْج قال: كنت أقنع رأسي بالليل فقال لي عمر: أما علمت أن لقمان قال القناع بالنهار مَذلّة معذرة أو قال معجزة بالليل، فلِمَ تقنع رأسك بالليل؟ قال: قلت له: إن لقمان لم يكن عليه دين. وحدثني حسن بن الجنيد، حدثنا سفيان: قال لقمان لابنه: يا بني ما ندمت على السكوت قط، وإن كان الكلام

(١) سقط في ط. (٢) سقط في ط. (٣) سقط في ط.

من فضّة فالسكوت من ذهب.

وحدّثنا عبد الصمد ووَكِيع قالا: حدّثنا أبو الأشهَبِ عن قَتَادة: أن لقمان قال لابنه: يا بني اعتزل الشرّ يعتزلك، فإن الشر للشر خلق. وحدثنا أبو معاوية حدثنا هشام بن عروة عن أبيه، قال: مكتوب في الحكمة يا بني إياك والرغب، فإن الرغب كل الرغب يبعد القريب من القريب، ويزيل الحكم كما يزيل الطرب. يا بني إياك وشدّة الغضب، فإن شدّة الغضب ممحقة لفؤاد الحكيم.

قال الإمام أحمد: حدّثنا عبد الرحمن بن مهدي حدّثنا نافع بن عمر عن ابن أبي مُلَيكَة، عن عُبَيْدِ بن عُمَيْرٍ قال: قال لقمان لابنه وهو يعظه: يَا بُنَيَّ اخْتَرْ الْمَجَالِسَ على عينك فإذا رأيت المجلس يذكر فيه الله عزّ وجل، فاجلس معهم فإنك إن تك عالماً ينفعك علمك، وإن تك غبياً يعلموك، وإن يطلع الله عليهم برحمة تصيبك معهم يا بني لا تجلس في المجلس الذي لا يذكر الله فيه فإنك إن تك عالماً لا ينفعك علمك وإن تك غبياً يزيدوك غبياً، وإن يطلع الله إليهم بعد ذلك بسخط يصيبك معهم. يا بني لا تغبطوا امرءًا رحب الذراعين يسفك دماء المؤمنين، فإن له عند الله قاتلاً لا يموت».

وحدثنا أبو معاوية، حدثّنا هشام بن عروة عن أبيه. قال: مكتوب في الحكمة «بني لتكن كلمتك طيبة، وليكن وجهك بسطاً تكن أحبّ إلى الناس ممن يعطيهم العطاء». وقال: مكتوب في الحكمة أو في التوراة «الرفق رأس الحكمة» وقال: مكتوب في التوارة «كما ترحمون تُرحمون» وقال: مكتوب في الحكمة «كما تزرعون تحصدون» وقال مكتوب في الحكمة «أحب خليلك أو خليل أبيك». وحدثنا عبد الرزاق عن مَعْمَرٍ عن أيُوب عن أبي قُلاَبَةَ قال: قيل للقمان: أي الناس أصبر؟ قال: «صبر لا يتبعه أذى». قيل فأي الناس أعلم؟ قال: «من ازداد من علم الناس إلى علمه». قيل فأي الناس خير؟ قال «الغني». قيل الغني من المال؟ قال: «لا ولكن الغني الذي إذا التمس عنده خير وجد وإلاّ أغنى نفسه عن الناس».

وحدّثنا سفيان هو ابن عُيَيْنَةَ قال: قيل للقمان أي الناس شر؟ قال: «الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً». وحدّثنا أبو الصَّمَدِ عن مالك بن دينار قال: وجدت في بعض الحكمة يبدّد الله عظام الذين يتكلمون بأهواء الناس، ووجدت فيها لا خير لك في أن تعلم ما لم تعلم، ولما تعمل بما قد علمت، فإن مثل ذلك مثل رجل احتطب حطباً، فحزم حزمة ثم ذهب يحملها فعجز عنها فضم إليه أخرى. وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا الحَكَمْ بن أبي زهير، وهو الحكم بن موسى، حدثنا الفَرَجُ بن فضَالة عن أبي سعيد، قال: قال: لقمان لابنه «يا بني لا يأكل طعامك إلاّ الأتقياء وشاور في أمرك العلماء». وهذا مجموع ما ذكره الإمام أحمد في هذه المواضع وقد قدمنا من الآثار كثيراً لم يروها كما أنه ذكر أشياء ليست عندنا والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا العباس بن الوليد، حدّثنا زيد بن يحيى بن

عبيد الخزاعي، حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة قال: خيّر الله لقمان الحكيم بين النبوّة والحكمة، فاختار الحكمة على النبوة، قال: فأتاه جبريل وهو نائم فذرّ عليه الحكمة، قال: فأصبح ينطق بها. قال سعد: سمعت قَتَادة يقول: قيل للقمان كيف اخترت الحكمة على النبوّة، وقد خيّرك ربّك؟ فقال: «إنه لو أرسل إليّ بالنبوة عزمة[1] لرجوت فيه الفوز منه، ولكنت أرجو أن أقوم بها، ولكن خيّرني فخفت أن أضعف عن النبوة، فكانت الحكمة أحبّ إلي». وهذا فيه نظر لأن سعيد بن بشير عن قَتَادة قد تكلّموا فيه، والذي رواه سعيد بن أبي عَرُوبَةَ عن قتادة في قوله ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ قال يعني الفقه والاسلام، ولم يكن نبياً ولم يوح إليه. وهكذا نصّ على هذا غير واحد من السلف منهم مُجاهد وسعيد بن المُسَيِّبِ وابن عبّاس والله أعلم.

قصة أصحاب الاخدود

قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج: ١ ـ ١٠]. قد تكلمنا على ذلك مستقصى في تفسير هذه السورة ولله الحمد. وقد زعم محمد بن إسحاق أنهم كانوا بعد مبعث المسيح، وخالفه [غير واحد][2] فزعموا أنهم كانوا قبله. وقد ذكر غير واحد أن هذا الصنيع مكرّر في العالم مراراً في حق المؤمنين من الجبارين الكافرين، ولكن هؤلاء المذكورون في القرآن قد ورد فيهم حديث مرفوع، وأثر أورده ابن إسحاق وهما متعارضان وها نحن نوردهما لتقف عليهما. قال الإمام أحمد: [حدثنا عفان][3] حدثنا حَمّاد بن سَلَمَةَ عن ثَابِتٍ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صُهَيب، أن رسول الله ﷺ قال: «كَانَ مَلِكٌ فيمَنْ كان قبلَكم وكان له ساحرٌ فلما كبَر الساحرُ قال للملِك إنّي قد كَبُرَتْ سِنّي وحَضَرَ أجَلِي فادفع إليّ غلاماً فلأُعَلِّمُه السحرَ فدفع إليه غلاماً فكان يعلِّمهُ السِّحرَ، وكان بين الملك وبين السّاحر راهبٌ، فأتى الغلامُ على الراهِب فسمعَ من كلامِه فأعجَبه نحوهُ وكلامُه، وكان إذا أتى الساحرَ ضرَبه وقال: مَا حَبَسَكَ؟ وإذا أتى أهله ضربوه، وقالوا: مَا حَبَسكَ؟ فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا أراد الساحرُ أن يضربَك فقل: حَبَسَنِي أهلِي، وإذا أراد أهلُك أن يضربوكَ فقل: حبسني الساحر، قال فبينا هو ذات يوم إذ أتى على دابة فَظِيعةٍ عظيمةٍ قد حبستِ النَّاس فلا يستطيعون أن يجوزُوا، فقال اليوم أعلم أمر الساحر أحبُّ إلى الله أم أمر الرّاهب، قال فأخذ حجراً فقال اللهم إن كان أمر الراهب أحبَّ

(١) عزمة وعزائم الله فرائضه التي أوجبها على عباده.

(٢) في ط: غيره.

(٣) سقط في ط.

إليكَ وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس، ورماها فقتلها. ومضى فأخبر الراهب بذلك فقال: أي بني أنت أفضل مني، وأنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدلّ عليّ، فكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص وسائر الأدواء، ويشفيهم الله على يديه، وكان جليسٌ للملك، فعَمِيَ فسمع به، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: اشفني ولك ما ههنا اجمع، فقال: ما أنا أشفِي أحداً إنما يشفي الله عزّ وجلّ، فإن آمنت به ودعوت الله شفاك فآمن فدعا الله فشفاه. ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك: يا فلان من ردّ عليك بصرك؟ فقال: ربي، قال: لا ربي وربّك، الله. قال: ولك ربّ غيري؟ قال: نعم ربي وربّك الله، فلم يزل يعذّبه حتى دلّ على الغلام، فأتى به، فقال: أي بني بلغ من سحرك أن تبرىء الأكمه والأبرص، وهذه الأدواء قال: ما أشفي أنا أحداً، إنما يشفي الله عز وجل. قال: أنا؟ قال: لا. قال: أولكَ ربّ غيري؟ قال: ربي وربّك الله، قال: فأخذه أيضاً بالعذاب، ولم يزل به حتى دلّ على الراهب فأتي الراهب فوضع فقال: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شِقَاه، وقال للأعمى: ارجع عن دينك، فأبى وضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال للغلام ارجع عن دينك فأبى فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال: إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلاّ فَدَهْدِهُوهُ[1]. فذهبوا به فلمّا علوا الجبل. قال: اللهمّ اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله، فبعث به مع نفر في قُرْقُرَةٍ، فقال: إذا لَجَجْتُمْ البحر فإن رجع عن دينه وإلاّ فأغرقوه في البحر، فلججوا به البحر فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت، فغرقوا أجمعون، وجاء الغلام حتى دخل على الملك، فقال ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله. ثم قال للملك أنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلاّ فإنك لا تستطيع قتلي. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تصلبني على جذع، وتأخذ سهماً من كنانتي. ثم قل بسم الله ربّ الغلام فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، ففعل ووضع السهم في كبد القوس ثم رماه وقال بسم الله ربّ الغلام فوقع السهم في صِدْغِهِ، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات. فقال الناس: آمنا بربّ الغلام آمنا بربّ الغلام. فقيل للملك أرأيت ما كنت تحذر، فقد والله نزل بك قد آمن الناس كلهم. فأمر بأفواه السكك فحفر فيها الأخاديد وأضرمت فيها النيران، وقال من رجع عن دينه فدعوه، وإلاّ فأقحموه فيها، وقال: فكانوا يتعادون فيها ويتواقعون، فجاءه امرأة بابن لها ترضعه، فكأنّها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماه فإنك على الحق»[2]، كذا رواه الإمام أحمد ورواه مسلم والنسائي من حديث حماد بن سلمة، زاد النسائي وحماد بن زيد

(١) دهده: دحرج.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد حديث ٧٣، والترمذي في تفسير القرآن باب ٧٦، من سورة البروج، وأحمد في المسند ١٦/٦، ١٧.

كلاهما عن ثابت به، ورواه الترمذي من طريق عبد الرزّاق عن مَعْمَرٍ، عن ثَابِتٍ، بإسناده نحوه، وجرد إيراده كما بسطنا ذلك في التفسير.

وقد أورد محمد بن إسحاق هذه القصّة على وجه آخر، فقال: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب، وحدّثني أيضاً بعض أهل نجران عن أهلها، أن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان، وكان في قرية من قراها قريباً من نجران (ونجران هي القرية العظمى التي إليها جماع أهل تلك البلاد) ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر، فلما نزلها فيمون ولم يسموه لي بالاسم الذي سمّاه ابن مُنَبِّهٍ قالوا: رجل نزلها فابتنى خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي فيها الساحر، وجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلّمهم السحر، فبعث التامر ابنه عبد الله بن التامر مع غلمان أهل نجران، فكان إذا مرّ بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من عبادته وصلاته، فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى أسلم، فوحّد الله وعبده، وجعل يسأله عن شرائع الاسلام حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم، وكان يعلَمُه فكتمه إياه، وقال له: يا بن أخي إنك لن تحمله أخشى ضعفك عنه، والتامر لا يظنّ إلاّ أن ابنه عبد الله يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان، فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضنّ به عنه، وتخوّف ضعفه فيه، عمد إلى قداح[1] فجمعها، ثم لم يبق لله اسماً يعلمه إلاّ كتبه في قدح، لكل اسم قدح، حتى إذا أحصاها أوقد ناراً ثم جعل يقذفها قدحاً قدحاً، حتى إذا مرّ بالاسم الأعظم قذف فيها بقدحه، فوثب القدح حتى خرج منها، لم تضره شيئاً، فأخذه ثم أتى به صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم الذي قد كتمه، فقال: وما هو؟ قال: كذا وكذا، قال: وكيف علمته؟ فأخبره بما صنع، قال: أي ابن أخي قد أصبته، فأمسك على نفسك، وما أظن أن تفعل. فجعل عبد الله بن التامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضر إلاّ قال: يا عبد الله أتوحدّ الله وتدخل في ديني، وأدعو الله لك فيعافيك عما أنت فيه من البلاء فيقول: نعم، ودعا له فعوفي، حتى رفع شأنه إلى ملك نجران، فدعاه فقال له: أفسدت عليّ أهل قريتي، وخالفت ديني ودين آبائي، لأمثلنّ بك. قال: لا تقدر على ذلك. فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل، فيطرح على رأسه فيقع إلى الأرض ما به بأس، وجعل يبعث به إلى مياه بنجران بحور لا يلقى فيها شيء إلاّ هلك، فيلقي به فيها فيخرج ليس به بأس. فلما غلبه قال له عبد الله بن التامر والله لا تقدر على قتلي حتى توحّد الله فتؤمن بما آمنت به، فإنك إن فعلت سلّطت عليّ فقتلتني. قال: فوحدّ الله ذلك الملك وشهد شهادة عبد الله بن التامر، ثم ضربه بعصا في يده فشجّه شجّة غير كبيرة فقتله، وهلك الملك مكانه، واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن التامر. وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم من الإنجيل وحكمه. ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحزاب، فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران.

---

(١) قداح: جمع قدح: وهو السهم قبل أن ينصل ويراش.

قال ابن إسحاق: فهذا حديث محمد بن كعب وبعض أهل نجران عن عبد الله بن التامر فالله أعلم أي ذلك كان. قال فسار إليهم ذو نواس بجنده من حمير فدعاهم إلى اليهودية، وخيّرهم بين ذلك أو القتل، فاختاروا القتل فخدّوا الأخدود، وحرق بالنار وقتل بالسيف، ومثّل بهم، فقتل منهم قريباً من عشرين ألفاً. ففي ذي نواس وجنده أنزل الله على رسوله ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝﴾ [البروج: ٤ ـ ٥] الآيات وهذا يقتضي أن هذه القصة غير ما وقع في سياق مسلم، وقد زعم بعضهم أن الأخدود وقع في العالم كثيراً كما قال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبي، حدثنا أبي اليَمَانِ، أنبأنا صَفْوانُ عن عبد الرحمن بن جبير قال: كان الأُخدود في اليمن زمان تبّع، وفي القسطنطينة زمان قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد، واتخذ أتوناً[١] وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد، وفي العراق في أرض بابل في زمان بختنصر حين صنع الصنم، وأمر الناس فسجدوا له، فامتنع دانيال وصاحباه عزريا ومشايل، فأوقد لهم أتونا وألقى فيها الحطب والنار، ثم ألقاهما فيه، فجعلها الله عليهم برداً وسلاماً وأنقذهم منها، وألقى فيها الذين بغوا عليه وهم تسعة رهط فأكلتهم النار. وقال أَسْبَاطُ عن السّدّي في قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝﴾ قال: كان الأخدود ثلاثة: خد بالشام وخد بالعراق وخد باليمن رواه ابن أبي حاتم. وقد استقصيت ذكر أصحاب الأخدود والكلام على تفسيرها في سورة البروج ولله الحمد والمنة.

[باب][٢] بيان الإذن في الرواية [والتحديث][٣] عن أخبار بني إسرائيل

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا هَمَّامُ، حدثنا زيد بن عطاء بن يَسَارٍ، عن أبي سعيد الخُدَري، عن النبي ﷺ قال: قال: «حدّثوا عَنّي ولا تكْذِبُوا عليَّ ومنْ كَذبَ عَليَّ مُتَعَمِداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِ وَحدّثُوا عَنْ بني إسْرَائِيلَ ولاَ حَرَجَ»[٤]. وقال أيضاً:

حدثنا عفّانُ، حدثنا هَمَّامَ، أنبأنا زيد بن أَسْلَمَ عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال قال: «لاَ تَكْتُبُوا عَنّي شَيئاً غَيرَ القُرْآنِ فَمَنْ كَتَبَ عَنّي شَيئاً غَير القُرآنِ فَلْيَمْحُهُ»[٥] وقال: «حَدّثُوا عَنْ بني إسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ حَدّثُوا عَنّي وَلاَ تَكْذِبُوا عَلَيّ» قال: «وَمَنْ كَذَبَ عَلَيّ» قال همام: أحسبه قال «مُتَعَمّداً فَلْيَتَبَوّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِ»[٦] وهكذا رواه مسلم والنسائي من حديث هَمّام ورواه أبو عُوَانَة الأَسْفَرَايِيني عن أبي داود السِّجِسْتَاني،

(١) الأتون: التنور.
(٢) سقط في ط.
(٣) سقط في ط.
(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٤٦.
(٥) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٥٦.
(٦) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق حديث ٧٢، والترمذي في العلم باب ١١، وأحمد في المسند ٣/ ٥٦.

عن هُدْبَةَ، عن هَمَّام، عن زيد بن أَسْلَمَ به. ثم قال: قال أبو داود أخطأ فيه هَمَّامٌ، وهو من قول أبي سعيد كذا قال، وقد رواه الترمذي عن سفيان، عن وَكِيع، عن سفيان بن عُيَيْنَةَ، عن زيد بن أسلم ببعضه مرفوعاً فالله أعلم.

قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم، أنبأنا الأوْزَاعي، حدثنا حَسَّانُ بن عَطِيَّةَ، حدثني أبو كَبْشَة السَّلُولِي أن عبد الله بن عمرو بن العاص حدّثه أنه سمع رسول الله ﷺ «يعني يقول: بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[١]. ورواه أحمد أيضاً عن عبد الله بن نُمَيْرٍ وعبد الرَّزَّاقِ كلاهما عن الأَوْزَاعِي به[٢]. وهكذا رواه البُخَارِي عن أبي عَاصِم النَّبِيل عن الأَوْزَاعِي به، وكذا رواه الترمذي عن بُنْدَارٍ، عن أبي عَاصِم، ثم رواه عن محمد بن يحيى الذُّهْلِي، عن محمد بن يوسف الفِرْيَابِي، عن عبد الرحمن بن ثَابِتِ بْنِ ثَوْبَانَ، عن حسان بن عَطِيَّةَ. وقال: حسن صحيح.

وقال أبو بكر البَزَّارُ: حدثنا محمد بن المثنى أبو موسى، حدثنا هشام بن معاوية، حدثنا أبي عن قَتَادة، عن أبي حَسَّان، عن عبد الله بن عمر، وقال كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُنَا عَامَّة ليله عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى نُصْبِحَ مَا نَقُومُ فِيهَا إِلاَّ لِمُعْظَمِ صَلاَةٍ، ورواه أبو داود عن محمد بن مُثَنَّى ثم قال البَزَّار. حدثنا محمد بن مُثَنَّى حدثنا عفَّان حدثنا أبو هلال عن قَتَادة عن أبي حَسَّان عن عِمْران بن حُصين قال: كان رسول الله ﷺ يحدّثنا عَامَّةَ ليله عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ يَقُومُ إِلاَّ لِمُعْظَمِ صَلاَةٍ[٣] قال البزار وهشام: احفظ من أبي هلال يعني أن الصواب عن عبد الله بن عمرو، لا عن عمران بن حصين والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى هو القَطَّان، عن محمد بن عَمْرو، وحدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ»[٤] إسناد صحيح ولم يخرجوه. وقال الحافظ أبو يَعْلَى: حدثنا أَبُو خَيْثَمَةَ، حدثنا وكيع، حدثنا ربيع بن سعد الجُعْفِي عن عبد الرحمن بن سَابِطٍ، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيهِمُ الأَعَاجِيبُ».

ثم أنشأ يحدث ﷺ قال: «خَرَجَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى أَتَوا مَقْبَرَةً مِنْ مَقَابِرِهِمْ فَقَالُوا لَوْ صَلَّيْنَا رَكْعَتَيْنِ وَدَعَوْنَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَيُخْرِجَ لَنَا رَجُلاً قَدْ مَاتَ نُسَائِلُهُ يُحَدِّثُنَا عَنِ المَوْتِ، فَفَعَلُوا. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَطْلَعَ رَجُلٌ رَأْسَهُ مِنْ قَبْرٍ مِنْ تِلْكَ القُبُورِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ أَثَرُ السُّجُودِ فَقَالَ: يَا هٰؤُلاَءِ مَا أَرَدْتُمْ إِلَيَّ فَقَدْ مِتُّ مُنْذُ مَائَةِ عَامٍ فَمَا سَكَنَتْ عَنِّي حَرَارَةُ المَوْتِ حَتَّى الآنَ فَادْعُوا اللَّهَ أَنْ يُعِيدَنِي كَمَا كُنْتُ»، وهذا حديث غريب إذا تقرّر جواز الرواية

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ١٥٩.
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٠، والترمذي في العلم باب ١٣، وأحمد في المسند ٢/ ٢٠٢.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٤٤٤.
(٤) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٤٧٤.

عنهم، فهو محمول على ما يمكن أن يكون صحيحاً، فأما ما يعلم أو يظنّ بطلانه لمخالفته الحقّ الذي بأيدينا عن المعصوم، فذاك متروك مردود لا يعرج عليه. ثم مع هذا كلّه لا يلزم من جواز روايته أن تعتقد صحّته لما رواه البخاري قائلاً: حدثنا محمد بن يسار، حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرّونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لاَ تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»[١] تفرّد به البخاري من هذا الوجه.

وروى الإمام أحمد من طريق الزُّهري عن أبي نَمْلَةَ الأنْصَارِي، عن أبيه أنه كان جالساً عند رسول الله ﷺ فقال: «إِذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ هَلْ تَتَكَلَّمُ هَذِهِ الجَنَازَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُ أَعْلَمُ» فَقَالَ اليَهُودِي: أَنَا أَشْهَدُ أَنَّهَا تَتَكَلَّم، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الكِتَابِ فَلاَ تُصَدِّقُوهُمْ وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ فَإِنْ كَانَ حَقًّا لَمْ تُكَذِّبُوهُمْ وَإِنْ كَانَ بَاطِلاً لَمْ تُصَدِّقُوهُمْ»[٢] تفرّد به أحمد.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا شُرَيحُ بن النّعمان، حدثنا هُشَيم أنبأنا مُجَالِدُ عن الشَّعْبِي، عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ قال فَغَضِبَ وقال: «أَمُتَهَوِّكُونَ[٣] فِيهَا يَا ابْنَ الخَطَّابِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهِ بَيْضَاءَ نَقِيَّةً لاَ تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي [بيده][٤] لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلاَّ أَنْ يَتَّبِعَنِي»[٥] تفرد به أحمد وإسناده على شرط مسلم، فهذه الأحاديث دليل على أنهم قد بدّلوا ما بأيديهم من الكتب السماوية وحرّفوها وأوّلوها، ووضعوها على غير مواضعها، ولا سيما ما يبدونه من المعربات التي لم يحيطوا بها علماً، وهي بلغتهم فكيف يعبرّون عنها بغيرها، ولأجل هذا وقع في تعريبهم خطأ كبير، ووهم كثير، مع ما لهم من المقاصد الفاسدة والآراء الباردة، وهذا يتحققه من نظر في كتبهم التي بأيديهم، وتأمل ما فيها من سوء التعبير، وقبيح التبديل والتغيير، وبالله المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير. وهذه التوراة التي يبدونها ويخفون منها كثيراً فيما ذكروه فيها تحريف وتبديل وتغيير وسوء تعبير، يعلم من نظر فيها وتأمل ما قالوه، وما أبدوه وما أخفوه، وكيف يسوغون عبارة فاسدة البناء والتركيب، باطلة من حيث معناها وألفاظها. وهذا كَعْبُ الأحبارِ من أجود من ينقل عنهم، وقد أسلم في زمن عمر، وكان ينقل شيئاً عن أهل الكتاب، فكان عمر رضي الله عنه يستحسن بعض ما ينقله

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام باب ٢٥، والتوحيد باب ٥١.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١٣٦/٤.

(٣) متهوكون: متهورون.

(٤) في ط: به.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٣٨٧/٣.

لما يصدقه من الحق، وتأليفاً لقلبه، فتوسّع كثير من الناس في أخذ ما عنده، وبالغ أيضاً هو في نقل تلك الأشياء التي كثير منها لا[1] يساوي مداده. ومنها ما هو باطل لا محالة. ومنها ما هو صحيح لما يشهد له الحق الذي بأيدينا.

وقد قال البخاري وقال أبو اليَمَانِ: حدثنا شُعَيْبٌ عن الزُّهْرِي، أخبرني حُمَيْدُ بن عبد الرحمن أنه سمع معاويّة يحدث رهطاً من قريش بالمدينة. وذُكر كعب الأحبار فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذبَ[2]، يعني من غير قصد منه.

وروى البخاري من حديث الزُّهْرِي عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس أنه قال: كيف يسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل الله على رسوله أحدث الكتب بالله تقرأونه محضاً لم يُشب[3] وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدّلوا كتاب الله وغيّروه وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً إلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم[4].

وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود أنه قال: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم، وقد ضلوا، إما أن تكذّبوا بحق أو تصدّقوا بباطل والله أعلم.

قصة جريج أحد عباد بني إسرائيل

قال الإمام أحمد: حدثنا وَهَبُ بن جَرِيرٍ، حدثني أبي سمعت محمد بن سيرين يحدّث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمْ يَتَكلَّمْ في المهدِ إلا ثلاثةٌ عيسى ابن مريم» قال: «وكان في بني إسرائيل رجلٌ عابدٌ يقال له جُرَيْجٌ، فابتنى صومعةً وتعبَّدَ فيها». قال: «فذكر بنو إسرائيل عبادةَ جريج فقالت بَغِيٌ منهم: لئن شئتم لأَفْتِنَنَّهُ، فقالوا: قد شئنَ ذاك» قال «فأتته فتعرضت له فلم يلتفت إليها فأمكنت نفسها من راع كان يؤوي غنمه إلى أصل صومعة جريج فحملت فولدت غلاماً فقالوا: ممن؟ قالت: من جريج فاتوه فاستنزلوه فشتموه وضربوه وهدموا صومعته، فقال: ما شأنكم، قالوا: إنك زنيتَ بهذه البَغِيِّ فولدَت غلاماً فقال: وأين هو؟ قالوا: هو هذا»، قال «فقام فصلّى ودعا ثم انصرف إلى الغلام فطعنه بإصبعه، فقال: بالله يا غلام من أبوك؟ فقال: أنا ابن الراعي، فوثبوا إلى جريج فجعلوا يقبلونه وقالوا: نَبني صومعَتك من ذَهَبٍ، قال: لا حاجة لي في ذلك ابنوها من طين كما كانت»، قال «وبينما امرأة في حجرها ابن لها ترضعه إذ مرّ بها راكب ذو شارة فقالت اللهم اجعل ابني مثل هذا قال فترك ثديَها وأقبل على الراكب، فقال: اللهم لا تجعلني مثله، قال:

---

(١) في ط: ما.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام باب ٢٥.

(٣) لم يُشب: لم يخلط ويمزج.

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام باب ٢٥.

ثم دعا إلى ثديها فَمَصَّهُ». قال أبو هريرة: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي صنيعَ الصبي ووضع اصبعه في فيه يمصّها. «ثم مرّت بأَمَةٍ تَضرب فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثلها. قال: فترك ثديها وأقبل على الأمَةِ فقال: اللهم اجعلني مثلها، قال فذاك حين تراجعا الحديث فقالت: خلقي مر الراكب ذو الشارة فقلت: اللهم اجعل ابني مثله، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، ومررت بهذه الأمة فقلت: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقلت: اللهم اجعلني مثلها، فقال يا أمتاه إن الراكب ذو الشارة جبّار من الجبابرة، وإن هذه الأمة يقولون زَنَتْ يقولون زَنَتْ ولم تَزْنِ، وسرقتْ ولم تسرِق. وهي تقول حسبي الله»(١). وهكذا رواه البخاري في أحاديث الأنبياء، وفي المظالم عن مسلم بن إبراهيم، ومسلم في كتاب الأدب عن زهير بن حرب عن يزيد بن هارون كلاهما عن جرير بن حازم به طريق أخرى. وسياق آخر:

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدّثنا سليمان بن المغيرة، حدثنا حُمَيْدُ بن هِلاَلٍ عن أبي رافع، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كان جُرَيْجٌ يَتَعَبَّدُ فِي صَوْمَعَتِهِ قَالَ: فَأَتَتْهُ أُمُّهُ فَقَالَتْ يَا جُرَيْجُ أَنَا أُمُّكَ وَكَلِّمنِي» قَالَ: وَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يَصِفُ كَيْفَ كَانَ رسول الله ﷺ وضع يده على حاجبه الأيمن قال: «وَصَادَفَتْهُ يُصَلِّي قَالَ يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلاَتِي فَاخْتَارَ صَلاَتَهُ، فَرَجَعَتْ ثُمَّ أَتَتْهُ فَصَادَفَتْهُ يُصَلِّي فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ أَنَا أُمُّكَ فَكَلِّمْنِي، فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلاتِي فَاخْتَارَ صَلاَتَهُ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ هَذَا جُرَيْجُ وَإِنَّهُ ابْنِي وَإِنِّي كَلَّمْتُهُ فَأَبَى أَنْ يكَلِّمَنِي، اللَّهُمَّ فَلاَ تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيهِ المومِسَاتِ(٢). وَلَوْ دَعَتْ عَلَيْهِ أَنْ يُفْتَتَنَ لافْتُتِنَ»، قَالَ: «وَكَانَ رَاعٍ يَأْوِي إِلَى دَيْرِهِ فَخَرَجَتْ امْرَأَةٌ فَوَقَعَ عَلَيْهَا الرَّاعِي. فَوَلَدَتْ غُلاَماً، فَقِيلَ مِمَّنْ هَذَا؟ فَقَالَتْ: هُوَ مِنْ صَاحِبِ الدَّيْرِ، فَأَقْبَلُوا بِفُؤُوسِهِمْ وَمَسَاحِيهِمْ وَأَقْبَلُوا إِلَى الدَّيْرِ فَنَادَوه فَلَمْ يُكَلِّمْهم، فَأَقْبَلُوا يهدِمُونَ دَيْرَهُ، فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ فَقَالُوا: سَلْ هَذِهِ المَرْأَةَ» قَالَ: أَرَاهُ تَبَسَّمَ»، قَالَ: «ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَ الصَّبِيِّ فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: رَاعِي الضَّأْنِ، قَالُوا يَا جُرَيْجُ نَبْنِي مَا هَدَمْنَا مِنْ دَيْرِكَ بِالذَّهَبِ وَالفِضَّةِ؟ قَالَ: لاَ وَلَكِنْ أَعِيدُوهُ كَمَا كَانَ» فَفَعَلُوا(٣). ورواه مسلم في الاستيذان عن شَيْبَانَ بن فَرُّوخ عن سليمانَ بن المُغيرَةِ به. سياق آخر:

قال الإمام أحمدُ: حدّثنا عفّان، حدّثنا حَمّادُ، أنبأنا ثابت عن أبي رافع، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «كان في بني إسرائيل رجل يقال له جُرَيْجٌ كان يتعبّد في صومعته فأتته أمُهُ ذَاتَ يوم فنادتهُ فقالتْ أي جريج أيْ بُنَيَّ أشرِفْ عَليَّ أكلمك، أنا أمك أشرف عليّ فقال: أي ربي صلاتي وأمي فأقبل على صلاته، ثم عادت فنادته مراراً فقالت: أي جريج أي بني أشرف عليّ فقال: أي ربّ صلاتي وأمي فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٤٨، ومسلم في البر حديث ٨، وأحمد في المسند ٢/٣٠٧، ٣٠٨.

(٢) المومسات: العاهرات.

(٣) أخرجه مسلم في البر حديث ٧، وأحمد في المسند ٢/ ٤٣٣، ٤٣٤.

لا تمته حتى تريه المومِسَةَ، وكانت راعية ترعى غنماً لأهلها، ثم تأوي إلى ظل صومعته، فأصابت فاحشة فحملت فأخذت. وكان من زنى منهم قتل، فقالوا: ممن؟ قالت: من جريج صاحب الصومعة. فجاؤوا بالفؤوس والمرور فقالوا أي جريج أي مُرَائِي انزل، فأبى وأقبل على صلاته يصلّي، فأخذوا في هدم صومعته فلما رأى ذلك نزل، فجعلوا في عنقه وعنقها حبلاً، فجعلوا يطوفون بهما في الناس، فوضع أصبعه على بطنها فقال: أي غلام من أبوك؟ فقال: أبي فلان راعي الضأن، فقبلوه وقالوا إن شئت بنينا لك صومعتك من ذهب وفضة، قال: أعيدوها كما كانت»[1]. وهذا سياق غريب وإسناده على شرط مسلم، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه.

فهؤلاء ثلاثة تكلّموا في المهد عيسى ابن مريم عليه السلام، وقد تقدم الكلام على قصته، وصاحب جريج ابن البغي من الراعي كما سمعت واسمه يابوس، كما ورد مصرحاً به في صحيح البخاري، والثالث ابن المرأة التي كانت ترضعه، فتمنت له أن يكون كصاحب الشارة الحسنة، فتمنى أن يكون كتلك الأمة المتهومة بما هي بريئة منه، وهي تقول حسبي الله ونعم الوكيل كما تقدم في رواية محمد بن سيرين عن أبي هريرة مرفوعاً. وقد رواه الإمام أحمد[2] عن هُوذَةَ، عن عَوْفٍ الأعرابي، عن خَلاَّسٍ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بقصّة هذا الغلام الرضيع وهو إسناد حسن.

وقال البخاري: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، حدثنا أبو الزِّناد عن عبد الرحمن الأعْرَجِ، حدّثه أنه سمع أبا هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «بَيْنَمَا امْرَأَةٌ تُرْضِعُ ابْنَهَا إِذْ مَرَّ بها رَاكِبٌ وَهِيَ تُرْضِعُهُ فَقَالَتْ اللَّهُمَّ لاَ تُمِتْ ابْنِي حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ هَذَا، فَقَالَ اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ. ثُمَّ رَجَعَ فِي الثَّدْيِ وَمرَّ بِامْرَأَةٍ تُجَرُّ ويُلْعَبُ بِهَا، فقَالَتْ: اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلَ ابْنِي مِثْلَ هَذِهِ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فَقَال: أَمَّا الرَّاكِبُ فَإِنَّهُ كَافِرٌ. وَأَمَّا المَرْأَةُ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّهَا تَزْنِي وَتَقُولُ: حَسْبِيَ اللَّهُ، وَيَقُولُونَ: تَسْرِقُ وَتَقُولُ: حَسْبِيَ اللَّهُ»[3]. وقد ورد في من تكلّم في المهد أيضاً شاهد يوسف، كما تقدم، وابن ماشطة آل فرعون والله أعلم.

قصة برصيصا

وهي عكس قضية جريج، فإن جريجاً عُصم وذلك فتن. قال ابن جريج: حدثني يحيى بن إبراهيم المسعودي، أبنأنا أبي، عن أبيه، عن جده، عن الأعْمَش عن عمارَة، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحشر: ١٦ ـ ١٧] قال ابن مسعود: وكانت امرأة

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٨٥.

(٢) المسند ٢/ ٣٩٥.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٤.

ترعى الغنم، وكان لها إخوة أربعة، وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب، قال فنزل الراهب ففجر بها، فحملت فأتاه الشيطان، فقال له اقتلها ثم ادفنها، فإنك رجل تصدق ويسمع قولك فقتلها، ثم دفنها، قال فأتى الشيطان إخوتها في المنام فقال لهم: إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم، فلما أحبلها قتلها، ثم دفنها في مكان كذا وكذا. فلما أصبحوا قال رجل منهم: والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقصّها عليكم أم أترك، قالوا: لا بل قصّها علينا، قال: فقصها فقال والآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك، فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك. قالوا: فوالله ما هذا إلا لشيء، فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب فأتوه فأنزلوه. ثم انطلقوا به، فأتاه الشيطان فقال إني أنا أوقعتك في هذا ولن ينجيك منه غيري، فاسجد لي سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه، قال: فسجد له، فلما أتوا به ملكهم تبرّأ منه، وأخذ فقتل. وهكذا روي عن ابن عباس وطاوس ومقاتل بن حيان نحو ذلك.

وقد روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بسياق آخر فقال ابن جرير: حدثنا خَلاَّدُ بن أَسْلَمَ، حدثنا النَّضرُ بن شُمَيْلٍ، أنبأنا شُعْبَةُ عن أبي إسحاق، سمعت عبد الله بن نُهَيْكٍ، سمعت علياً يقول: إن راهباً تعبَّد ستين سنة، وإن الشيطان أراده فأعياه فعمد إلى امرأة فأجنها ولها إخوة فقال لاخوتها عليكم بهذا القسّ فيداويها. قال: فجاؤوا بها إليه فداواها، وكانت عنده، فبينما هو يوماً عندها إذا أعجبته، فأتاها فحملت، فعمد إليها فقتلها، فجاء إخوتها فقال الشيطان للراهب أنا صاحبك إنك أعييتني، أنا صنعت هذا بك فأطعني أنجك مما صنعت بك، اسجد لي سجدة، فسجد له قال: إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين، فذلك قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

قصة الثلاثة الذين أووا إلى الغار فانطبق عليهم فتوسّلوا إلى الله تعالى بصالح أعمالهم ففرج عنهم

قال الإمام البخاري: حدثنا إسماعيل بن خليل أخبرنا علي بن مِسْهَرٍ، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «بَيْنَمَا ثَلاثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَمْشُونَ إِذْ أَصَابَهُمْ مَطَرٌ فَآوَوا إِلَى غَارٍ فَانْطَبَقَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّهُ وَاللَّهِ يَا هَؤُلاَءِ لاَ يُنْجِيكُمْ إلاَّ الصِّدْقُ. فَلْيَدعُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ صَدَقَ فِيهِ فَقَالَ وَاحِد مِنْهُمْ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَجِيرٌ عَمِلَ لِي عَلَى فَرَقٍ[1] أرز فَذَهَبَ وَتَرَكَهُ وَإِنِّي عَمَدْتُ إِلَى ذَلِكَ الفَرَقِ فَزَرَعْتُهُ فَصَارَ مِنْ أَمْرِهِ أَنِّي اشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَقَراً، وَأَنَّهُ أَتَانِي يَطْلُبُ أَجْرَهُ فَقُلْتُ اعْمَدْ إِلَى تِلْكَ البَقَرِ فَسُقْهَا فَقَالَ لِي إِنَّمَا لِي عِنْدَكَ فَرَقٌ مِنْ أَرُزٍّ، فَقُلْتُ لَهُ اعْمَدْ إِلَى تِلْكَ البَقَرِ فَإِنَّهَا مِنْ ذَلِكَ الفَرَقِ، فَسَاقَهَا فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا فَانْسَاخَتْ عَنْهُمْ

(١) فرق: بفتح الراء وإسكانها والفتح أشهر: هو إناء يسع ثلاث آصع.

الصَّخْرَةُ. فَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إنْ كُنْتَ تَعْلَمُ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَان كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ آتِيهِمَا كُلَّ لَيْلَةٍ بِلَبَنِ غَنَم لي فَأَبْطَأْتُ عَنْهُمَا لَيْلَةً فَجِئْتُ وَقَدْ رَقَدَا، وَأَهْلِي وَعِيَالِي يَتَضَاغَوْنَ[١] مِنَ الجُوعِ، وَكُنْتُ لاَ أَسْقِيهِمْ حَتَّى يَشْرَبَ أَبَوَايَ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهما، وَكَرِهْتُ أَنْ أَدَعَهُمَا فَيَسْتَكِنَّا لِشَرْبَتِهما، فَلَمْ أَزَلْ أَنْتَظِرُ حَتَّى طَلَعَ الفَجْرُ، فَإِنْ طَلَعَ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا، فَانْسَاخَتْ عَنْهُمُ الصَّخْرَةُ حَتَّى نَظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ. فَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةُ عَمٍّ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وإِنِّي رَاوَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَأَبَتْ إِلاَّ أَنْ آتِيهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَطَلَبْتُهَا حَتَّى قَدَرْتُ فأَتَيْتُهَا بِهَا فَدَفَعْتُها إِلَيْهَا فَأَمْكَنَتْنِي مِنْ نَفْسِهَا، فَلَمَّا قَعَدَت بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تَفُضَّ الخَاتِمَ إلاَّ بِحَقِّهِ فَقُمْتُ وتَرَكْتُ المَائَةَ دِينَار، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْت ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا، فَفَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَخَرَجُوا»[٢]، رواه مسلم عن سُوَيْدِ بن سعيد، عن علي بن مِسْهَرٍ به. وقد رواه الإمام أحمد منفرداً به عن مروان بن معاوية، عن عمرو بن حمزة بن عبد الله بن عمر، عن سالم، عن أبيه، عن النبي ﷺ بنحوه. ورواه الإمام أحمد[٣] من حديث وَهبِ بن مُنَبِّهٍ، عن النُّعْمانِ بن بَشِيرٍ، عن النبي ﷺ بنحو من هذا السياق، وفيه زيادات، ورواه البَزَّارُ من طريق أبي إسحاق عن رجل من بُجَيْلَة عن النُّعْمَان بن بَشِيرٍ مرفوعاً مثله، ورواه البَزَّار في مسنده من حديث أبي حَنَشٍ، عن علي بن أبي طالب، عن النبي ﷺ بنحوه.

خبر الثلاثة الأعمى والأبرص والأقرع

روى البخاري ومسلم من غير وجه عن هَمَّام بن يحيى، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، حدّثني عبد الرحمن بن أبي عمرة أن أبا هريرة حدّثه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أن ثلاثةً في بني إسرائيل أبرص وأعمى وأقرع بدا لله أن يبتليهم فبعث الله إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال له: أي شيء أحب إليك؟ فقال: لون حسن وجلد حسن قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه فأُعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً. فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو قال البقر» هو شك في ذلك أن الأبرص والأقرع قال أحدهما الإبل وقال الآخر البقر «فأُعطيَ ناقة عشراء[٤] فقال: يبارك لك فيها. قال وأتى الأقرع فقال له: أي المال أحب إليك؟ قال: شَعر حسن ويذهب عني هذا، قد قذرني الناس فمسحه فذهب وأُعطِي شَعراً حسناً. قال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر، فأعطاه بقرة حاملاً وقال: يبارك لك فيها. قال وأتى الأعمى فقال أي شيء أحب إليك؟ قال: يردّ الله إليّ بصري

(١) يتضاغون: يصيحون ويستغيثون من الجوع.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٣، ومسلم في الذكر والدعاء حديث ١٠٠، وأحمد في المسند ١١٦/٢.

(٣) المسند ٤/ ٢٧٤.

(٤) الناقة العشراء: أي القريبة من الولادة.

فأبصر به الناس، قال فمسحه فردّ الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطاه شاة والداً[1] فانتج هٰذان وولد هذا فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم. ثم أنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين تقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلاّ الله، ثم بك أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلغ[2] عليه في سفري، فقال له: إن الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله عزّ وجل؟ فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال: إن كنتَ كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنت. وأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا فردّ عليه مثل ما ردّ عليه هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنت. وأتى الأعمى في صورته فقال رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلاّ بالله ثم بك، أسألك بالذي ردّ عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري. قد كنت أعمى فردّ الله إليّ بصري، وفقيراً [فقد أغناني]، فخذ ما شئت فوالله لا أحمدك اليوم بشيء أخذته لله عزّ وجلّ، فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك[3]» هذا لفظ البخاري في أحاديث بني إسرائيل.

حديث الذي استلف من صاحبه ألف دينار فأداها

قال الإمام أحمد: حدّثنا يونس بن محمد، حدّثنا لَيْثٌ عن جَعْفَرَ بن رَبِيعَة، عن عبد الرحمن بن هُرْمُزَ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه ذكر «أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بشهداء أشهدهم، قال كفى بالله شهيداً، قال: ائتني بكفيل، قال: كفى بالله كفيلا، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجَلٍ مسمّى. فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجّله، فلم يجد مركباً فأخذ خشبة فنقرها وأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها، ثم زجّج[4] موضعها، ثم أتى بها البحر. ثم قال: اللهم إنك قد علمت أني استسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً فقلت كفى بالله كفيلاً، فرضي بذلك، وسألني شهيداً فقلت كفى بالله شهيداً فرضي بذلك، وأني قد جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه بالذي أعطاني فلم أجد مركباً، وإني استودعتكها فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً يجيئه بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطباً فلما كسرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الرجل الذي كان تسلّف منه، فأتاهُ بألف دينار، وقال والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت

---

(١) أي وضعت ولدها وهو معها.

(٢) أتبلّغ: أجهد.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥١، ومسلم في الزهد حديث ١٠.

(٤) زجّج: أي سوى موضع النقر وأصلحه.

مركبا، قبل الذي أتيت فيه، قال: هل كنت بعثت إلي بشيء؟ قال: ألم أخبرك أني لم أجد مركباً قبل هذا الذي جئت فيه، قال: فإن الله أدّى عنك الذي بعثت به في الخشبة فانصرف بألفك راشداً»[١]. هكذا رواه الإمام أحمد مسنداً، وقد علقه البخاري في غير موضع من صحيحه بصيغة الجزم عن اللَّيْثِ بن سَعْدٍ، وأسنده في بعضها عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عنه، والعجب من الحافظ أبي بَكْرِ البَزَّارِ كيف رواه في مسنده عن الحسن بن مُدْرِكٍ عن يحيى بن حماد، عن أبي عُوَانَةَ، عن عمر بن سلمة، عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه. ثم قال: لا يروى إلاّ من هذا الوجه بهذا الإسناد.

قصة أخرى شبيهة بهذه القصة في الصدق والأمانة

قال البخاري: حدّثنا إسحاق بن نصر أخبرنا عبد الرزاق عن معمر، عن هَمَّام بن مُنَبِّهٍ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عِقَاراً لَهُ فَوَجَدَ الرَّجُلُ الَّذِي اشْتَرَى العِقَارَ فِي عُقَارِهِ جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ، فَقَالَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَى العِقَارَ: خُذْ ذَهَبَكَ مِنّي إنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الأَرْضَ وَلَمْ أَبْتَعْ مِنْكَ الذَّهَبَ، وَقَالَ الَّذِي لَهُ الأَرْضُ إنَّمَا بِعْتُكَ الأَرْضَ وَمَا فِيهَا، فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ فَقَالَ. الَّذِي تَحَاكَمَا إِلَيهِ: أَلَكُمَا وَلَدٌ؟ قال أَحَدُهُمَا لِي غُلامٌ، وَقَالَ الآخَرِ لِي جَارِيَةٌ. قَالَ: انْكِحُوا الغُلاَمَ الجَارِيَةَ وَأَنْفِقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمَا مِنْهُ، وَتَصَدَّقَا»[٢]. هكذا روى البخاري هذا الحديث في أخبار بني إسرائيل وأخرجه مسلم عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق به. وقد روي أن هذه القصة وقعت في زمن ذي القرنين. وقد كان قبل بني إسرائيل بدهور متطاولة والله أعلم.

قال إسحاق بن بشر في كتابه المبتدأ عن سعيد بن أبي عَرُوبَةَ عن قتادة، عن الحسن: أن ذا القرنين كان يتفقد أمور ملكه وعماله بنفسه، وكان لا يطلع على أحد منهم خيانة إلاّ أنكر ذلك عليه، وكان لا يقبل ذلك حتى يطلع هو بنفسه. قال فبينما هو يسير متنكراً في بعض المدائن، فجلس إلى قاضٍ من قضاتهم أياماً لا يختلف إليه أحد في خصومة، فلما أن طال ذلك بذي القرنين ولم يطلّع على شيء من أمر ذلك القاضي، وهمّ بالانصراف إذا هو برجلين قد اختصما إليه، فادعى أحدهما فقال: أيها القاضي إني اشتريت من هذا داراً عمّرتها ووجدت فيها كنزاً، وإني دعوته إلى أخذه فأبى عليّ، فقال له القاضي: ما تقول؟ قال: ما دفنت وما علمت به، فليس هو لي ولا أقبضه منه، قال المدعي: أيها القاضي مر من يقبضه فتضعه حيث أجبت، فقال القاضي: تفر من الشر وتدخلني فيه ما أنصفتني وما أظن هذا في قضاء الملك. فقال القاضي: هل لكما أمراً نصفاً مما دعوتماني إليه، قالا: نعم. قال: للمدعي ألك ابن؟ قال: نعم، وقال للآخر ألك ابنة؟ قال: نعم. قال: اذهبا فزوج

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٦٥، والكفالة باب ١، وأحمد في المسند ٢/٣٤٨، ٣٤٩.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٤، ومسلم في الأقضية حديث ٢١، وأحمد في المسند ٢/ ٣١٦.

ابنتك من ابن هذا وجهِّزهما من هذا المال، وادفعا فضل ما بقي إليهما يعيشان به فتكونا مليا بخيره وشره. فعجب ذو القرنين حين سمع ذلك، ثم قال للقاضي: ما ظننت أن في الأرض أحداً يفعل مثل هذا، أو قاضٍ يقضي بمثل هذا. فقال القاضي وهو لا يعرفه: وهل أحد يفعل غير هذا؟ قال ذو القرنين: نعم، قال القاضي: فهل يمطرون في بلادهم فعجب ذو القرنين من ذلك، وقال: بمثل هذا قامت السموات والأرض.

قصة أخرى

قال البخاري: حدّثنا محمد بن بشّار، حدّثنا محمد بن أبي عَدِيّ عن شُعْبَةَ، عن قَتَادَةَ، عن أبي الصديق النَّاجِي، عن أبي سَعيدِ الخُدْرِي عن النَّبِيّ ﷺ: «قَالَ كَانَ في بَنِي إسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعةً وَتِسْعِينَ انساناً ثُمّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَأَتَى رَاهِباً فَسَأَلَهُ فَقَالَ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لاَ فَقَتَلَهُ فَجَعَلَ يَسْأَلُ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: إئْتِ قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا فَأَدْرَكَهُ المَوْتُ فَنَاءَ بِصَدْرِهِ[1] نَحْوَهَا، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ العَذَابِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقرَّبِي، وَأَوْحَى إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعدِي، وَقَالَ: قِيسوا مَا بَيْنَهُمَا فَوُجِدَ إِلىَ هذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ، فَغَفَرَ لَهُ هَكذا»[2]. رواه ههنا مختصراً. وقد رواه مسلم عن بِنْدَارٍ به، ومن حديث شُعْبَةَ ومن وجه آخر عن قتادة به مطولا.

حديث آخر

قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، حدثنا أبو الزّناد عن الأعْرَجِ، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح، ثم اقبل على الناس [بوجهه][3] فقال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا، إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ. فَقَالَ النَّاسُ سُبْحَانَ اللهِ بَقَرَةٌ تَكَلَّم فَقَالَ: فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَمَا هُمَا»[4]، ثم (قال) «وَبَيْنَما رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذِئْبُ فَذَهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ فَطَلَبَ حَتَّى كَأَنَّهُ اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ فَقَالَ لَهُ الذِّئْبُ: هَذَا اسْتَنْقَذْتَهَا مِنِّي فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ يَوْمَ لاَ رَاعِي لَها غَيْرِي فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللهِ ذِئْبٌ يَتَكَلَّمَ قَالَ: فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَمَا هُمَا»[5] ثم قال: وحدثنا علي قال: حدّثنا سفيان عن مِسْعَرٍ، عن سعد بن

(١) ناء بصدره: أي نهض وتوجه.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٤، ومسلم في التوبة حديث ٧٤، ٤٨.

(٣) سقط في ط.

(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٤، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٣، وأحمد في المسند ٢/٢٤٥، ٢٤٦.

(٥) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب ٥، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ١٣، والترمذي في المناقب باب ١٨.

عَلِي بن المَدِيني، ومسلم عن محمد بن عَبَّادٍ كلاهما عن سفيان بن عُيَيْنَةَ، وأخرجاه من طريق شُعْبة كلاهما عن مِسْعَرٍ به. وقال الترمذي حسن صحيح، وأخرج مسلم الطريق الأول من حديث سفيان بن عُيَيْنَة، وسفيان الثَّوري كلاهما عن أبي الزِّنَادِ.

حديث آخر

قال البخاري: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدّثنا ابراهيم عن سعد، عن أبيه، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّهُ كَانَ فِيمَا مَضَى قَبْلَكُم مِنَ الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ وَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أُمتي هذه مِنهُمْ فَإِنَّهُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ»(١) لم يخرجه مسلم من هذا الوجه، وقد روي عن ابراهيم بن سعد، عن أبي سَلَمَةَ، عن عائشة رضى الله عنها.

حديث آخر

قال البخاري: حدّثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك، عن ابن شهاب، عن حُمَيْدِ بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية بن أبي سفيان عام حج على المنبر، فتناول قُصة من شعر كانت في يدي حرَّ سيء فقال: يا أهل المدينة أين علماؤكم؟ سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذه، ويقول: «إِنَّمَا هَلَكَتْ بَنُو اسْرَائِيلَ حِينَ اتَّخَذَهَا نِسَاؤُهُمْ»(٢). وهكذا رواه مسلم وأبو داود من حديث مالك، وكذا رواه مَعْمَرُ ويونس وسفيان بن عُيَيْنَة عن الزُّهري بنحوه. وقال الترمذي: حديث صحيح. وقال البخاري: حدّثنا آدم، حدثنا شُعبة، حدثنا عمرو بن مُرَّةَ قال: سمعت سعيد بن المُسَيَّب قال: قدم معاوية بن أبي سفيان المدينة آخر قدمة قدمها، فخطبنا فأخرج من كمه كبة شعر وقال: ما كنت أرى أحداً يفعل هذا غير اليهود، إن النبيّ ﷺ سمّاه الزّوْرَ يعني الوصال في الشعر(٣) تابعه غُنْدُر عن شُعْبَة، والعجب أن مسلماً رواه من غير وجه عن غُنْدرُ، عن شُعْبَة، ومن حديث قَتَادة عن سَعِيدِ بن المُسَيِّبِ به.

حديث آخر

قال البخاري: حدثنا سعيد بن تَلِيدٍ، حدثنا ابن وهب قال: أخبرني جرير بن حَازِم عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ(٤)

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٤، وفضائل الصحابة باب ٦، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب ٥٤، واللباس، باب ٧٣، ومسلم في: اللباس والزينة، (الحديث: ١٢٢)، وأبو داود في: الترجل، باب ٥، والترمذي في: الأدب، باب ٣٣، وأخرجه أحمد في المسند ٤/٩٧، ٩٨.

(٣) أخرجه البخاري في: اللباس، باب ٨٣، ومسلم في: اللباس والزينة، (الحديث: ١٢٣). وأحمد في المسند ٤/٩١.

(٤) الركية: البئر.

كَادَ يَقْتُلُهُ العَطَشُ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي اسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا[١] فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ»[٢] ورواه مسلم عن أبي الطاهر بن السَّرْحِ عن ابن وهب به.

حديث آخر

قال البخاري: حدثنا عبد الله بن أسماء، حدثنا جُوَيْرِيَةُ عن نافع، عن عبد الله بن عمر. أن رسول الله ﷺ قال: «عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّار، فَلاَ هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلاَ سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلاَ هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ»[٣]. وكذا رواه مسلم عن عبد الله بن محمد بن أسماء به.

حديث آخر

قال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا المُسْتَمِرُ بن الرَّيَّانِ، حدثنا أبو نَضْرَةُ عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ امْرَأَةٌ قَصِيرَةٌ، فَصَنَعَتْ رِجْلَيْنِ مِنْ خَشَبٍ، فَكَانَتْ تَمْشِي بَيْنَ امْرَأَتَيْنِ قَصِيرَتَيْنِ، وَاتَّخَذَتْ خَاتِماً مِنْ ذَهَبٍ، وَحَشَتْ تَحْتَ فَصِّهِ أَطْيَبَ الطِيبِ وَالمِسْكِ، فَكَانَتْ إِذَا مَرَّتْ بِالْمَجْلِسِ حَرَّكَتْهُ فَنَفَحَ رِيحُهُ»[٤] رواه مسلم من حديث المُسْتَمِرِّ وخُلَيْدِ بن جَعْفَرٍ كلاهما عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سعيد مرفوعاً قريباً منه. وقال الترمذي حديث صحيح.

حديث آخر

قال البخاري: حدثنا آدم، حدّثنا شعبة عن منصور، سمعت رَبْعِي بن حَرَّاشٍ يحدث عن ابن مسعود قال قال النبي ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ الأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»[٥] تفرّد به البخاري دون مسلم، وقد رواه بعضهم عن رَبْعِي بن حَرَّاشٍ، عن حُذَيْفَةَ مرفوعاً وموقوفاً أيضاً. والله أعلم.

حديث آخر

قال الامام أحمد: حدّثنا هاشم بن القاسم، حدّثنا عبد الحَمِيدِ يعني ابن بَهْرَامَ، حدّثنا شَهْرُ بنْ حَوْشَبٍ قال: قال أبو هريرة قال: قال رسول الله «بَيْنَمَا رَجُلٌ وَامْرَأَةٌ لَهُ فِي السَّلَفِ

---

(١) موقها: خف غليظ يلبس فوق الخف.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٤، ومسلم في السلام حديث ١٥٥.

(٣) أخرجه البخاري في المساقاة باب ٥٤، ومسلم في السلام حديث ١٥١، والبر والصلة حديث ١٣٣.

(٤) أخرجه مسلم في الألفاظ ١٨، ١٩، وأحمد في المسند ٣/٤٠.

(٥) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٤، وأبو داود في الأدب باب ٧، وابن ماجة في الزهد باب ١٧، وأحمد في المسند ٥/٣٨٣.

الخَالِي لاَ يَقدِرَانِ عَلَى شَيءٍ فَجاءَ الرَّجُلُ مِنْ سَفَرِهِ فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ جَائِعاً قَدْ أَصَابَتْهُ سغبة[1] شَدِيدَةٌ فَقَالَ لامْرَأَتِهِ: عِنْدَكِ شَيءٌ؟ قَالَتْ نَعَم، أَبْشِرْ أَتَاكَ رِزْقُ اللهِ فَاسْتَحَثَّهَا فَقَالَ: وَيْحَكِ ابْتَغِي إِنْ كَانَ عِنْدَكِ شَيءٌ؟ قَالَتْ: نَعَمْ هَنِيئَةً نَرْجُو رَحْمَةَ الله، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيْهِ المَطَالُ، قَالَ: وَيْحَكِ قُومِي فَابْتَغِي إِنْ كَانَ عِنْدَكِ شَيءٌ فَأْتِينِي بِهِ فَإِنِّي قَدْ بَلَغْتُ الجُهْدَ وَجَهِدْتُ. فَقَالَتْ: نَعَمْ الآنَ يَنْضجُ التَّنُورُ فَلاَ تَعْجَلْ. فَلَمَّا أَنْ سَكَتَ عَنْهَا سَاعَةً وَتَحَيَّنَتْ أَيضاً أَنْ يَقُولَ لَهَ قَالَتْ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهَا: لَوْ قُمْتُ فَنَظَرْتُ إِلَى تَنُّورِي، فَقَامَتْ فَوَجَدَتْ تَنُّورَهَا مَلآنَ مِنْ جُنُوبِ الغَنَم، وَرَحَاهَا تَطْحَنُ، فَقَامَتْ إِلَى الرَّحَى فَنَفَضَتْهَا وَاسْتَخْرَجَتْ مَا فِي تَنُّورِهَا مِنْ جُنُوبِ الغَنَم، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَوَ الَّذِي نَفْسُ أَبِي القَاسِمِ بِيَدِهِ عَنْ قَوْلِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَوْ أَخَذَتْ مَا فِي رَحَيَيْهَا وَلَم تَنْفُضْهَا لَطَحَنَتْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[2]. وقال أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا أبو بكر عن هشام، عن محمد، عن أبي هريرة قال: دخل رجل على أهله فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية، فلما رأت امرأته ما لقي قامت إلى الرحى فوضعتها، وإلى التنور فسجرته[3]، ثم قالت: اللهم ارزقنا، فنظرت فإذا الجفنة قد امتلأت، قال: وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً. قال فرجع الزوج قال: اصبتم بعد شيئاً؟ قالت: امرأته نعم من ربّنا، فرفعتها إلى الرحى، ثم قامت فذكر ذلك للنبي ﷺ قال «أَمَا أَنَّهُ لَوْ لَمْ تَرْفَعْهَا لَمْ تَزَلْ تَدُورُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةَ» قال شهدت النبي ﷺ وهو يقول: «وَاللهِ لأَنْ يَأْتِيَ أَحَدُكُمْ بِحِزْمَةِ حَطَبٍ ثُمَّ يَحْمِلُهُ فَيَبِيعُهُ فَيَسْتَعْفِفَ مِنْهُ خَيرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رجُلاً فَيَسْأَلَهُ»[4].

قصة الملكين التائبين

قال الامام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا المسعودي عن سَمَّاكِ بن حرب، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، قال: بينما رجل فيمن كان قبلكم كان في مملكته ففكر فعلم أن ذلك منقطع عنه، وأن ما هو فيه قد شغله عن عبادة ربّه، فانساب ذات ليلة من قصره وأصبح في مملكة غيره، وأتى ساحل البحر، فكان به يضرب اللبن بالآجر فيأكل ويتصدق بالفضل، ولم يزل كذلك حتى رقي أمره إلى ملكهم، فأرسل اليه فأبى أن يأتيه، فركب إليه الملك، فلما رآه ولّى هارباً، فركض في أثره فلم يدركه، فناداه يا عبد الله إنه ليس عليك مني بأس، فقام حتى أدركه، فقال له: من أنت رحمك الله؟ فقال: أنا فلان بن فلان صاحب مملكة كذا وكذا، ففكرت في أمري فعلمت إنما أنا فيه منقطع، وأنه قد شغلني عن عبادة ربي عزّ وجلّ، فتركته وجئت ههنا أعبد ربي، فقال له: ما أنت بأحوج لما صنعت مني، قال: فنزل عن دابته فسيّبها وتبعه فكانا جميعاً يعبدان الله عزّ وجلّ، فدعوا

(١) السغبة: الجوع والتعب.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٤٢١.

(٣) سجرته: أضرمته وأججته.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٥١٣.

الله أن يميتهما جميعاً فماتا. قال عبد الله: فلو كنت برملية مصر لأريتكم قبورهما بالنعت الذي نعت لنا رسول الله ﷺ(١).

حديث آخر

قال البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا أبو عَوانَةَ عن قَتَادة، عن عقبة بن عبد الغَافِر، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ: «إنَّ رَجُلاً كَانَ قَبْلَكُمْ رَغَسَهُ(٢) اللَّهُ مَالاً فَقَالَ لِبَنِيهِ لَمَّا حَضَرَ: أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيرَ أَبٍ، قَالَ: فَإِنِّي لَمْ أَعْمَلْ خَيراً قَطُّ، فَإِذَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ اذْرُونِي فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ. فَفَعَلُوا فَجَمَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ؟ فَقَالَ: مَخَافَتُكَ، فَتَلَقَّاهُ بِرَحْمَتِهِ»(٣) ورواه في مواضع أخر، ومسلم من طرق عن قتادة به. ثم رواه البخاري ومسلم من حديث رِبْعِي بن حِرَاش عن حُذيفة، عن النبي ﷺ بنحوه، ومن حديث الزُّهْري عن حُمَيْد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه.

حديث آخر

قال البخاري: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا ابراهيم بن سعد عن ابن شِهَاب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال «كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ فَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ إِذَا أَتَيتَ مُعْسِراً فَتَجَاوَزْ عَنْهُ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، قَالَ: فَلَقِيَ اللَّهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ»(٤) وقد رواه في مواضع أخر، ومُسْلِم من طريق الزُّهْري به.

حديث آخر

قال البخاري: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثني مالك عن محمد بن المُنْكَدِر، عن أبي النَّضْرِ مولى عمر بن عبيد الله، عن عامر بن سعد بن أبي وَقَّاص، عن أبيه أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد ماذا سمعت من رسول الله ﷺ في الطاعون؟ قال أسامة: قال رسول الله ﷺ «الطَّاعُونُ رِجْسٌ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي اسْرَائِيلَ وَعَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقدمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ فِيهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَاراً مِنْهُ»(٥). قال أبو النَّضْرِ: لا يخرجكم إلاّ فراراً منه. ورواه مسلم من حديث مالك، ومن طرق أخر عن عامر بن سعد به: حدّثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا دَاود بن أبي الفُراتِ، حدثنا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/٤٥١.

(٢) الرغس: النعمة وأرغسه الله مالاً: أكثر له وبارك فيه.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٤، والرقاق باب ٢٥، والتوحيد باب ٣٥، ومسلم في التوبة حديث ٢٧، والمساقاة حديث ٢٦، وأحمد في المسند ٢/٢٦٩، ٣/١٣، ٥/٤٠٧، ٤٠٨.

(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٤، ومسلم في المساقاة حديث ٣١، وأحمد في المسند ٢/٢٦٣.

أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٤، ومسلم في السلام حديث ٩٢، ومالك في الجامع حديث ٢٣.

عبد الله بن بَرِيدَةَ عن يحيى بن يعمر، عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون: «أَخْبَرَنِي أَنَّهُ عَذَابٌ يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَأَنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ يَقَعُ الطَّاعُون فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابِراً مُحْتَسِباً يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ شَهِيدٍ»[1] تفرّد به البخاري عن مسلم من هذا الوجه.

حديث آخر

قال البخاري: حدثنا قتيبة، حدثنا ليث عن ابن شِهاب، عن عُروة، عن عائشة: أن قريشاً أهمهم شأن المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلّم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترىء عليه إلاّ أسامة بن زيد حِب رسول الله ﷺ، فكلّمه أسامة فقال: «أَتَشْفَعُ فِي حَدّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ»، ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ، ثم قال: «إِنَّمَا هَلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم. أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدّ. وَأيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[2] وأخرجه بقية الجماعة من طرق عن الليث بن سعد به.

حديث آخر

وقال البخاري: حدثنا آدم حدثنا شُعبة، حدثنا عبد الملك بن مَيْسَرَةَ سمعت النَزَّالَ بن سَبْرَةَ الهِلالي عن ابن مسعود قال: سمعت رجلا قرأ، وسمعت رسول الله ﷺ يقرأ خلافها، فجئت به إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فعرفت في وجهه الكراهية وقال: «كِلاَكُمَا مُحْسِنٌ وَلاَ تَخْتَلِفُوا فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا»[3] تفرّد به البخاري دون مسلم.

حديث آخر

قال البخاري: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم عن صالح، عن ابن شِهَاب قال: قال أبو سَلَمَة بن عبد الرحمن إن أبا هريرة قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى لاَ يَصْبِغُونَ فَخَالِفُوهُمْ»[4] تفرد به دون مسلم، وفي سنن أبي داود «صَلُّوا فِي نِعَالِكُمْ، خَالِفُوا اليَهُودَ»[5]

حديث آخر

قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سُفيان عن عمرو، عن طاوس، عن ابن

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٤.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٤، والحدود باب ١٢، ومسلم في الحدود حديث ٨، وأبو داود في الحدود باب ٤، والترمذي في الحدود باب ٦، والنسائي في قطع السارق باب ٦، وابن ماجة في الحدود باب ٦، والدرامي في الحدود باب ٥.

(٣) أخرجه البخاري في الخصومات باب ١، وأحاديث الأنبياء باب ٥٤، وأحمد في المسند ١/ ٤١٢، ٤٥٧.

(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٠، والنسائي في الزينة باب ١٤.

(٥) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ٩٠.

عباس سمعت عمر يقول: قاتل الله فلاناً ألم يعلم أن رسول ﷺ قال: «لَعَنَ اللّهُ اليَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيهِمُ الشُحُومُ فَجَمَلُوهَا فَبَاعُوهَا»[١] رواه مسلم من حديث ابن عُيَيْنَةَ. ومن حديث عَمْرو بن دينار به ثم قال البخاري تابعه جابر وأبو هريرة عن النبي ﷺ ولهذا الحديث طرق كثيرة وسيأتي في باب الحيل من كتاب الأحكام إن شاء الله وبه الثقة.

حديث آخر

قال البخاري: حدثنا عِمران بن مَيْسَرَة، حدثنا عبد الوارث، حدثنا خالد عن أبي قُلاَبَة، عن أنس بن مالك قال: ذكروا النار والناقوس فذكروا اليهود والنصارى «فأمر بلالٌ أنْ يَشفعَ الأذَانَ وَأنْ يُوتِرَ الإِقَامَةَ»[٢] وأخرجه بقية الجماعة من حديث أبي قُلاَبَة عبد الله بن زيد الجُرَمِي به. والمقصود من هذا مخالفة أهل الكتاب في جميع شعارهم، فإن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة كان المسلمون يتحينون وقت الصلاة بغير دعوة اليها. ثم أمر من ينادي فيهم وقت الصلاة (الصلاة الجامعة). ثم أرادوا أن يدعوا اليها بشيء يعرفه الناس، فقال قائلون: نضرب بالناقوس، وقال آخر: نوري ناراً، ثم أرادوا أن يدعوا اليها بشيء يعرفه الناس، فقال قائلون: نضرب بالناقوس، وقال آخر: نوري ناراً، فكرهوا ذلك لمشابهة أهل الكتاب، فأري عبد الله بن زيد بن عبد ربّه الأنصاري في منامه الاذان، فقصّها على رسول الله ﷺ فأمر بلالاً فنادى كما هو مبسوط في موضعه من باب الاذان في كتاب الاحكام.

حديث آخر

قال البخاري: حدثنا بشر بن محمد، أنبأنا عبد الله، أنبأنا مَعْمر ويونس عن الزُهْرِي، أخبرني عبيد الله بن عبد الله أن عائشة وابن عباس قالا: لما نُزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة[٣] على وجهه فإذا اغتنم كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: «لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَىَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[٤] يحذّر ما صنعوا، وهكذا رواه في غير موضع، ومسلم من طرق عن الزهري به.

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٠، والبيوع باب ١٠٣، ومسلم في المساقاة حديث ٧٢، والنسائي في الفرع والعتيرة باب ٩، وأحمد في المسند ٢٥/١.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب ٥٠، والأذان باب ١، ومسلم في الصلاة، حديث:٢، وأبو داود في الصلاة، باب ٢٩، والترمذي في الصلاة، باب ١٤١، والنسائي في الأذان، باب ٢، وابن ماجة في الأذان والسنة فيها، باب ٦، وأحمد في المسند ١٠٣/٣.

(٣) الخميصة: كساء أسود مربع.

(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٠، والمغازي باب ٨٣، واللباس باب ١٩، ومسلم في المساجد حديث ٢٢، والنسائي في المساجد باب ١٣، والدرامي في الصلاة باب (النهي عن اتخاذ القبور مساجد)، وأحمد في المسند ٢١٨/١، ٣٤/٦.

حديث آخر

قال البخاري: حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا أبو غسّان قال: حدثني زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ من قَبْلَكُمْ شِبْراً بِشِبْرٍ وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ»، فقلنا: يا رسولَ اللهِ اليهودَ والنصارى؟ قال النبي ﷺ: «فَمَنْ؟»[1] وهكذا رواه مسلم من حديث زيد بن أسلم به.

والمقصود من هذا الإخبار عما يقع من الأقوال والأفعال المنهي عنها شرعاً، مما يشابه أهل الكتاب قبلنا، أن الله ورسوله ينهيان عن مشابهتهم في أقوالهم وأفعالهم حتى ولو كان قصد المؤمن خيراً، لكنه تشبّه ففعله في الظاهر فعلهم، وكما نهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، لئلا تشابه المشركين الذين يسجدون للشمس حينئذ، وإن كان المؤمن لا يخطر بباله شيء من ذلك بالكلية، وهكذا قوله تعالى. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة: ١٠٤]. فكان الكفّار يقولون للنبي ﷺ في كلامهم معه: راعنا أي انظر الينا ببصرك، واسمع كلامنا. ويقصدون بقولهم راعنا من الرعونة، فنهى المؤمنون أن يقولوا ذلك، وإن كان لا يخطر ببال أحد منهم هذا أبداً.

فقد روى الامام أحمد والترمذي من حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «بُعِثْتُ بالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ، فَلَيْسَ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَتَشَبَّهَ بِهِمْ لاَ فِي أَعْيَادِهِمْ، وَلاَ مَوَاسِمِهِمْ، وَلاَ فِي عِبَادَاتِهِمْ»[2]، لأن الله تعالى شرّف هذه الأمة بخاتم الأنبياء الذي شرع له الدين العظيم القويم الشامل الكامل الذي لو كان موسى بن عمران الذي أنزلت عليه التوراة وعيسى ابن مريم الذي أنزل عليه الانجيل حين لم يكن لهما شرع متّبع، بل لو كانا موجودين، بل وكل الأنبياء لما ساغ لواحد منهم أن يكون على غير هذه الشريعة المطهّرة المشرّفة المكرّمة المعظّمة، فإذا كان الله تعالى قد منّ علينا بأن جعلنا من أتباع محمد ﷺ فكيف يليق بنا أن نتشبّه بقوم قد ضلّوا من قبل، وأضلوا كثيراً، وضلّوا عن سواء السبيل، قد بدّلوا دينهم وحرّفوه وأوّلوه، حتى صار كأنه غير ما شرّع لهم أو لا. ثم هو بعد ذلك كله منسوخ والتمسك بالمنسوخ حرام، لا يقبل الله منه قليلاً ولا كثيراً، ولا فرق بينه وبين الذي لم يشرع بالكلية، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

حديث آخر

قال البخاري: حدثنا قُتيبة، حدّثنا اللّيث عن نافع، عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٠، والاعتصام باب ١٤، ومسلم في العلم حديث ٦، وأحمد في المسند ٣/ ٩٤.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٥٠.

قال: «إِنَمَا أَجَلُكُمْ فِي أَجَلِ مَنْ خَلاَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلاةِ العَصْرِ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ وَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى كَرَجُلٍ اسْتَعْمَلَ عُمَّالاً فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ، فَعَمِلَتِ اليَهُودُ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَىَ صَلاة العَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ قيراط، فَعَمِلَتِ النصارى نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط، ثم قال من يعمل لي من صلاة العصر إلىَ مَغْرِبِ الشَّمْسِ عَلَى قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ ألاَ فَأَنْتُمُ الَّذِينَ تَعْمَلُونَ مِنْ صَلاةِ العَصْرِ إِلىَ المَغْرِبِ عَلَى قِيرَاطَيْنِ، أَلاَ لَكُمُ الأَجْرُ مَرَّتَيْنِ فَغَضِبَ اليَهُودُ وَالنَّصارَى فَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلاً وَأَقَلُّ عَطَاءً» قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ شَيْئاً فَقَالُوا لاَ قَالَ فَإِنَّهُ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»[1]

وهذا الحديث فيه دليل على أن مدة هذه الأمة قصيرة بالنسبة إلى ما مضى من مدد الأمم قبلها، لقوله ﷺ: «إِنَّمَا أَجَلُكُمْ فِي أَجَلِ مَنْ خَلاَ مِنَ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ كَمَا بَيْنَ صَلاةِ العَصْرِ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ فالماضي لا يعلمه إلاّ الله كما أن الآتي لا يعلمه إلا هو، ولكنه قصير بالنسبة إلى ما سبق ولا اطلاع لأحد على تحديد ما بقي إلاّ الله عزّ وجلّ»، كما قال الله تعالى ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الاعراف: ١٨٧] وقال ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣﴾ [النازعات: ٤٢ ـ ٤٣]. وما تذكره بعض الناس من الحديث المشهور عند العامة من أنه: «عليه السلام لا يؤلف تحت الأرض» فليس له أصل في كتب الحديث.، وورد فيه حديث أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة وفي صحته نظر. والمراد من هذا التشبيه بالعمال تفاوت أجورهم، وأن ذلك ليس منوطا بكثرة العمل وقلته بل بأُمور أخر معتبرة عند الله تعالى، وكم من عمل قليل أجدى ما لا يجديه العمل الكثير، هذه ليلة القدر العمل فيها أفضل من عبادة ألف شهر، سواها، وهؤلاء أصحاب محمد ﷺ أنفقوا في أوقات لو أنفق غيرهم من الذهب مثل أحد ما بلغ [مدّ] أحدهم ولا نصيفه من تَمْرٍ، وهذا رسول الله ﷺ بعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، وقبضه وهو ابن ثلاث وستين على المشهور، وقد برز في هذه المدّة التي هي ثلاث وعشرون سنة في العلوم النافعة، والأعمال الصالحة على سائر الانبياء قبله، حتى على نوح الذي لبث في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويعمل بطاعة الله ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساء، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الانبياء أجمعين، فهذه الامة إنما شرفت وتضاعف ثوابها ببركة سيادة نبيّها وشرفه وعظمته، كما قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٨ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٩﴾ [الحديد: ٢٨ ـ ٢٩].

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٠، وأحمد في المسند ٢/٦.

فصل

وأخبار بني اسرائيل كثيرة جداً في الكتاب والسنة النبوية، ولو ذهبنا نتقصى ذلك لطال الكتاب ولكن ذكرنا ما ذكر الإمام أبو عبد الله البخاري في هذا الكتاب، ففيه مقنع وكفاية وهو تذكرة وانموذج لهذا الباب والله أعلم.

وأما الأخبار الاسرائيلية فيما يذكره كثير من المفسّرين والمؤرّخين فكثيرة جداً، ومنها ما هو صحيح موافق لما وقع، وكثير منها بل أكثرها مما يذكره القصّاص مكذوب مفترى، وضعه زنادقتهم وضلالهم، وهي ثلاثة أقسام: منها ما هو صحيح لموافقته ما قصّه الله في كتابه أو أخبر به رسول الله ﷺ، ومنها ما هو معلوم البطلان لمخالفته كتاب الله وسنة رسوله، ومنها ما يحتمل الصدق والكذب. فهذا الذي أمرنا بالتوقف فيه فلا نصدقه ولا نكذبه، كما ثبت في الصحيح: «إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الكِتَابِ فَلاَ تُصَدِّقُوهُمْ وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ»[(١)]. وتجوز روايته مع هذا الحديث المتقدم «وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ»[(٢)]

[ذكر][(٣)] تحريف أهل الكتاب وتبديلهم أديانهم

أما اليهود فقد أنزل الله عليهم التوراة على يدي موسى بن عمران عليه السلام، وكانت كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الانعام: ١٥٤] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الانعام: ٩١] وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الانبياء: ٤٨] وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ [الصافات: ١١٧ ـ ١١٨] وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤] فكانوا يحكمون بها وهم متمسكون بها برهة من الزمان، ثم شرعوا في تحريفها وتبديلها وتغييرها وتأويلها وابداء ما ليس منها. كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: ٧٨] فأخبر تعالى أنهم يفسّرونها ويتأوّلونها ويضعونها على غير مواضعها، وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء، وهو أنّهم يتصرفون في معانيها ويحملونها على غير المراد، كما

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام باب ٢٥، وأبو داود في العلم باب ٢، وأحمد في المسند ٤/١٣٦.
(٢) أخرجه مسلم في الزهد حديث ٧٢، والترمذي في العلم باب ١١، وأحمد في المسند ٢/١٥٩.
(٣) سقط في ط.

بدّلوا حكم الرجم بالجلد والتحميم مع بقاء لفظ الرجم فيها، وكما أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، مع أنهم مأمورون بإقامة الحد والقطع على الشريف والوضيع. فأما تبديل ألفاظها فقال قائلون بأنها جميعها بدّلت، وقال آخرون لم تبدل واحتجّوا بقوله تعالى ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣] وقوله ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [الاعراف: ١٥٧] الآية وبقوله ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣] وبقصّة الرجم فانهم كما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر وفي صحيح مسلم عن البَرَاءِ بن عَازِب. وجابر بن عبد الله، وفي السنن عن أبي هريرة وغيره، لما تحاكموا إلى رسول الله ﷺ في قصة اليهودي واليهودية الذين زنيا فقال لهم: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم»؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون، فأمرهم رسول الله ﷺ باحضار التوراة، فلما جاؤوا بها وجعلوا يقرؤونها ويكتمون آية الرجم التي فيها، ووضع عبد الله بن صوريا يده على آية الرجم. وقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له رسول الله ﷺ: «ارْفَعْ يَدَكَ يَا أَعْوَرُ» فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فأمر رسول الله ﷺ برجمهما. وقال: «اللَّهُمَّ إنِّي أَوَّلُ مَنْ أحيا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ»[1]. وعند أبي داود أنهم لما جاؤوا بها نزع الوسادة من تحته فوضعها تحتها، وقال: آمنت بك وبمن أنزلك، وذكر بعضهم أنه قام لها، ولم أقف على اسناده والله اعلم. وهذا كله يشكل على ما يقوله كثير من المتكلمين وغيرهم أن التوراة انقطع تواترها في زمن بختنصر، ولم يبق من يحفظها إلاّ العزير، ثم العزير إن كان نبياً فهو معصوم والتواتر إلى المعصوم يكفي، اللهمّ إلاّ أن يقال إنها لم تتواتر إليه، لكن بعده زكريا ويحيى وعيسى وكلّهم كانوا متمسكين بالتوراة، فلو لم تكن صحيحة معمولاً بها لما اعتمدوا عليها، وهم أنبياء معصومون. ثم قد قال الله تعالى فيما أنزل على رسوله محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء منكراً على اليهود في قصدهم الفاسد إذ عدلوا عما يعتقدون صحته عندهم، وأنهم مأمورون به حتماً إلى التحاكم إلى رسول الله ﷺ، وهم يعاندون ما جاء به، لكن لمّا كان في زعمهم ما قد يوافقهم على ما ابتدعوه من الجلد والتحميم المصادم لما أمر الله به حتماً، وقالوا إن حكم لكم بالجلد والتحميم، فاقبلوه وتكونون قد اعتذرتم بحكم نبي لكم عند الله يوم القيٰمة، وإن لم يحكم لكم بهذا بل بالرجم، فاحذروا أن تقبلوا منه، فأنكر الله تعالى عليهم في هذا القصد الفاسد الذي إنّما حملهم عليه الغرض الفاسد، وموافقة الهوى، لا الدين الحق فقال: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٣ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن

(١) أخرجه البخاري في المناقب باب ٢٦، والأحكام باب ٣٧، ومسلم في الحدود حديث ٢٨، وأبو داود في الحدود باب ٢٦، والترمذي في الحدود باب ١٠، ومالك في الحدود حديث ١، وأحمد في المسند ٢/ ٦٣.

كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ الآية ولهذا حكم بالرجم، قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ» وسألهم ما حملهم على هذا ولِمَ تركوا أمر الله الذي بأيديهم؟ فقالوا: إن الزنا قد كثر في أشرافنا، ولم يمكنا أن نقيمه عليهم، وكنا نرجم من زنى من ضعفائنا، فقلنا: تعالوا إلى أمر نَصِف نفعله مع الشريف والوضيع، فاصطلحنا على الجلد والتحميم، فهذا من جملة تحريفهم وتبديلهم وتغييرهم وتأويلهم الباطل، وهذا إنّما فعلوه في المعاني مع بقاء لفظ الرجم في كتابهم، كما دلّ عليه الحديث المتفق عليه. فلهذا قال من قال هذا من الناس إنه لم يقع تبديلهم إلاّ في المعاني، وأنّ الألفاظ باقية وهي حجّة عليهم إذْ لو أقاموا ما في كتابهم جميعه لقادهم ذلك إلى اتباع الحق، ومتابعة الرسول محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الاعراف: ١٥٧] الآية وقال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ [المائدة: ٦٦] الآية وقال تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨] الآية وهذا المذهب وهو القول بأن التبديل إنما وقع في معانيها لا في ألفاظها، حكاه البخاري عن ابن عباس في آخر كتابه الصحيح، وقرّر عليه ولم يرده وحكاه العلامة فخر الدين الرازي في تفسيره عن أكثر المتكلّمين.

ليس للجنب لمس التوراة

وذهب فقهاء الحنفية إلى أنه لا يجوز للجنب مس التوراة وهو محدث، وحكاه الحناطي في فتاويه عن بعض أصحاب الشافعي وهو غريب جداً. وذهب آخرون من العلماء إلى التوسّط في هذين القولين منهم شيخنا الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية رحمه الله، فقال: أما من ذهب إلى أنها كلّها مبدلة من أولها إلى آخرها ولم يبق منها حرف إلاّ بدلوه، فهذا بعيد، وكذا من قال لم يبدل شيء منها بالكلّية بعيد أيضاً، والحق أنه دخلها تبديل وتغيير، وتصرّفوا في بعض ألفاظها بالزيادة والنقص، كما تصرّفوا في معانيها وهذا معلوم عند التأمل، ولبسطه موضع آخر والله أعلم كما في قوله في قصّة الذبيح، اذبح ابنك وحيدك، وفي نسخة بكرك إسحاق، فلفظة إسحاق مقحمة مزيدة بلا مرية لأن الوحيد وهو البكر إسماعيل، لأنه ولد قبل إسحاق بأربع عشرة سنة فكيف يكون الوحيد البكر إسحاق. وإنما حملهم على ذلك حَسَدُ العرب أن يكون إسماعيل غير الذبيح، فأرادوا أن يذهبوا بهذه الفضيلة لهم، فزادوا ذلك في كتاب الله افتراء على الله وعلى رسوله ﷺ، وقد اغترّ بهذه الزيادة خلق كثير من السلف والخلف، ووافقوهم على أن الذبيح إسحاق، والصحيح الذبيح إسماعيل كما قدّمنا والله أعلم. وهكذا في توراة السّامرة في العشر الكلمات زيادة، الأمر بالتوجّه إلى الطور في الصلاة، وليس ذلك في سائر نسخ اليهود والنصارى.

وهكذا يوجد في الزبور المأثور عن داود عليه السلام مختلفاً كثيراً، وفيه أشياء مزيدة ملحقة فيه وليست منه والله أعلم.

قلت وأما ما بأيديهم من التوراة المعرّبة، فلا يشك عاقل في تبديلها وتحريف كثير من ألفاظها، وتغيير القصص والألفاظ والزيادات والنقص البيّن الواضح، وفيها من الكذب البيّن والخطأ الفاحش شيء كثير جداً، فأما ما يتلونه بلسانهم ويكتبونه بأقلامهم فلا اطلاع لنا عليه، والمظنون بهم أنهم كَذَبَة خَوَنَة يكثرون الفرية على الله ورسله وكتبه.

وأما النصارى فأناجيلهم الأربعة من طريق مرقس ولوقا ومتى ويوحنا أشد اختلافاً وأكثر زيادة ونقصاً، وأفحش تفاوتاً من التوراة، وقد خالفوا أحكام التوراة والإنجيل في غير ما شيء قد شرّعوه لأنفسهم، فمن ذلك صلاتهم إلى الشرق وليست منصوصاً عليها ولا مأموراً بها في شيء من الأناجيل الأربعة، وهكذا تصويرهم كنائسهم وتركهم الختان، ونقلهم صيامهم إلى زمن الربيع وزيادته إلى خمسين يوماً، وأكلهم الخنزير ووضعهم الأمانة الكبيرة، وإنما هي الخيانة الحقيرة والرهبانية، وهي ترك التزويج لمن أراد التعبّد وتحريمه عليه كتبهم القوانين التي وضعتها لهم الأساقفة الثلاثمائة والثمانية عشر[1] فكل هذه الأشياء ابتدعوها ووضعوها في أيام قسطنطين بن قسطن باني القسطنطينية، وكان زمنه بعد المسيح بثلاثمائة سنة، وكان أبوه أحد ملوك الروم وتزوج أمه هيلانة في بعض أسفاره للصيد من بلاد حران، وكانت نصرانية على دين الرهابين المتقدّمين، فلما ولد لها منه قسطنطين المذكور تعلّم الفلسفة وبهر فيها، وصار فيه ميل بعض الشيء إلى النصرانية التي أمّه عليها، فعظّم القائمين بها بعض الشيء، وهو على اعتقاد الفلاسفة، فلما مات أبوه واستقل هو في المملكة سار في رعيته سيرة عادلة، فأحبّه الناس وساد فيهم وغلب على ملك الشام بأسره مع الجزيرة، وعظم شأنه وكان أول القياصرة. ثم اتفق اختلاف في زمانه بين النصارى ومنازعة بين بترك الاسكندرية أكصندروس وبين رجل من علمائهم يقال له عبد الله بن أريوس، فذهب اكصندروس إلى أن عيسى ابن الله، تعالى الله عن قوله، وذهب ابن أريوس إلى أن عيسى عبد الله ورسوله، واتبعه على هذا طائفة من النصارى، واتفق الأكثرون الأخسرون على قول بتركهم، ومنع ابن أريوس من دخول الكنيسة هو وأصحابه، فذهب يستعدي على اكصندروس وأصحابه إلى ملك قسطنطين، فسأله الملك عن مقالته فعرض عليه عبد الله بن أريوس ما يقول في المسيح من أنه عبد الله ورسوله، واحتج على ذلك، فمال إليه وجنح إلى قوله، فقال له قائلون فينبغي أن تبعث إلى خصمه فتسمع كلامه، فأمر الملك بإحضاره وطلب من سائر الأقاليم كل أسقف، وكل من عنده في دين النصرانية، وجمع البتاركة الأربعة من القدس وانطاكية وورمية والاسكندرية، فيقال إنهم اجتمعوا في مدة سنة وشهرين ما يزيد على ألفي أسقف، فجمعهم في مجلس واحد وهو المجمع الأول من مجامعهم

(١) إشارة إلى المجمع المسكوني الأول.

الثلاثة المشهورة، وهم مختلفون اختلافاً متبايناً منتشراً جداً. فمنهم الشرذمة على المقالة التي لا يوافقهم أحد من الباقين عليها، فهؤلاء خمسون على مقالة. وهؤلاء ثمانون على مقالة أخرى. وهؤلاء عشرة على مقالة، وأربعون على أخرى، ومائة على مقالة، ومائتان على مقالة، وطائفة على مقالة ابن أريوس، وجماعة على مقالة أخرى، فلما تفاقم أمرهم وانتشر اختلافهم حار فيهم الملك قسطنطين مع أنه سيء الظن بما عدا دين الصابئين من أسلافه اليونانيين، فعمد إلى أكثر جماعة منهم على مقالة من مقالاتهم فوجدهم ثلثمائة وثمانية عشر أسقفاً قد اجتمعوا على مقالة اكصندروس، ولم يجد طائفة بلغت عدّتهم، فقال: هؤلاء أولى بنصر قولهم لأنهم أكثر الفرق، فاجتمع بهم خصوصاً ووضع سيفه وخاتمه إليهم، وقال: إني رأيتكم أكثر الفرق قد اجتمعتم على مقالتكم هذه، فأنا انصرها واذهب إليها فسجدوا له وطلب منهم أن يضعوا له كتاباً في الأحكام، وأن تكون الصلاة إلى الشرق لأنها مطلع الكواكب النيّرة، وأن يصوّروا في كنائسهم صوراً لها جثث، فصالحوه على أن تكون في الحيطان. فلما توافقوا إلى ذلك أخذ في نصرهم وإظهار كلمتهم وإقامة مقالتهم وإبعاد من خالفهم وتضعيف رأيه وقوله فظهر أصحابه بجاهه على مخالفيهم وانتصروا عليهم وأمر ببناء الكنائس على دينهم، وهم الملكية نسبة إلى دين الملك، فبنى في أيام قسطنطين بالشام وغيرها في المدائن والقرى أزيد من اثنتي عشر ألف كنيسة، واعتنى الملك ببناء بيت لحم. يعني على مكان مولد المسيح، وَبَنَتْ أمه هيلانة قمامة بيت المقدس على مكان المصلوب الذي زعمت اليهود والنصارى بجهلهم وقلّة علمهم أنه المسيح عليه الصلاة والسلام، ويقال إنه قتل من أعداء أولئك وخدّ لهم الأخاديد[1] في الأرض، وأجج فيها النار وأحرقهم بها كما ذكرناه في سورة البروج، وعظّم دين النصرانية، وظهر أمره جداً بسبب الملك قسطنطين، وقد أفسده عليهم فساداً لا إصلاح له، ولا نجاح معه ولا فلاح عنده، وكثرت أعيادهم بسبب عظمائهم، وكثرت كنائسهم على أسماء عبادهم، وتفاقم كفرهم وعظمت مصيبتهم، وتخلد ضلالهم، وعظم وبالهم، ولم يهد الله قلوبهم، ولا أصلح بالهم، بل صرف قلوبهم عن الحق وأمال عن الاستقامة حالهم، ثم اجتمعوا بعد ذلك مجمعين في قضية النسطورية واليعقوبية، وكل فرقة من هؤلاء تكفّر الأخرى، وتعتقد تخليدهم في نار جهنم، ولا يرى مجامعتهم في المعابد والكنائس، وكلهم يقول بالأقانيم[2] الثلاثة: أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الكلمة، ولكن بينهم اختلاف في الحلول والاتحاد فيما بين اللاهوت والناسوت، هل تدرّعه[3] أو حل فيه أو اتحد به، واختلافهم في ذلك شديد وكفرهم بسببه غليظ، وكلّهم على الباطل إلاّ من قال من الأريوسية أصحاب عبد الله بن أريوس: إن المسيح عبد الله ورسوله وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، كما

---

(١) الأخاديد: الحفر المستطيلة في الأرض.

(٢) الأقنوم: الأصل.

(٣) تدرّعه: جعله درعاً. والمقصود: اتحد به.

يقول المسلمون فيه سواء، ولكن لما استقرّ أمر الأريوسية على هذه المقالة تسلّط عليهم الفرق الثلاثة بالابعاد والطرد حتى قلّوا، فلا يعرف اليوم منهم أحد فيما يعلم والله أعلم.

كتاب الجامع لأخبار الأنبياء المتقدمين

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣] الآية.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٣ـ ١٦٥]. وقد روى ابن حِبان في صحيحه وابن مَرْدَوَيه في تفسيره وغيرهما من طريق إبراهيم بن هشام عن يحيى بن محمد الغَسّاني الشّامي، وقد تكلموا فيه؛ حدّثني أبي عن جَدّي، عن أبي إدريس، عن أبي ذر قال: قُلتُ: يا رسولَ اللّهِ كم الأَنْبِيَاءُ؟ قال: «مِائَةُ أَلْفِ وَأَرْبَعَةٍ وَعِشْرُونَ أَلْفاً»، قلتُ: يا رسولَ اللّهِ كم الرسلُ مِنْهُمْ؟ قال: «ثَلاثُمَائَةٍ وَثَلاثَةُ عَشَرَ، جَمٌّ غَفِيرٌ». قلتُ: يا رسولَ اللّهِ من كان أَوَّلُهُمْ؟ قال: «آدمُ» قلتُ: يا رسولَ اللّهِ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ؟ قال: «نَعمْ، خَلَقَهُ اللّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، ثُمَّ سَوَّاهُ قَبلاً»، ثم قال: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَرْبَعَةٌ سِرْيَانِيُّونَ آدَمُ وَشِيثُ وَنُوحٌ وَخَنُوخُ وَهُوَ إِدْرِيسُ: وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِالْقَلَمِ، وَأَرْبَعَةٌ مِنَ العَرَبِ هُودٌ وَصَالِحٌ وَشُعَيْبٌ وَنَبِيُّكَ يَا أَبَا ذَرٍّ. وَأَوَّلُ نَبِيٍّ من بني إِسْرَائِيلَ مُوسَى وَآخِرُهُمْ عِيسَى، وَأَوَّلُ النَّبِيِّينَ آدَمُ وَآخِرُهُمْ نَبِيُّكَ». وقد أورد هذا الحديث أبو الفرج بن الجوزي في الموضوعات، وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر، فقال: حدّثنا محمد بن عوف، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا مُعَان بن رفاعة عن علي بن زيد، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: قلت: يا رسول الله كَم الأَنْبِيَاءُ؟: «قَالَ مَائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفاً، الرُّسُلُ مِنْ ذٰلِكَ ثَلْثُمَائَةٌ وَخَمْسَةُ عَشَرَ جَمّاً غَفِيراً»[1] وهذا أيضاً من هذا الوجه ضعيف، فيه ثلاثة من الضعفاء: مُعَان وشيخه وشيخ شيخه، وقد قال الحافظ أبو يَعلى الموصلي: حدّثنا أحمد بن إسحاق أبو عبد الله الجَوهري البصري، حدّثنا مكي بن إبراهيم، حدثنا موسى بن عُبَيدةُ اليزيدي عن يزيد الرَّقَاشِي، عن أنسِ بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «بَعَثَ اللَّهُ ثَمَانِيَةَ آلافِ نَبِيٍّ أَرْبَعَةَ آلافِ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْبَعَةَ آلافِ إِلَى سَائِرِ النَّاسِ» موسى وشيخه ضعيفان أيضاً. وقال أبو يعلى أيضاً: حدّثنا أبو الربيع، حدثنا محمد بن ثابت العَبْدِي، حدثنا مَعْبد بن خالد الأنصاري عن يَزيد الرَّقَاشِي، عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «كَانَ فِيمَنْ خَلاَ مِنْ إِخْوَانِي مِنَ الأَنْبِيَاءِ ثَمَانِيَةُ آلافِ نَبِيٍّ ثُمَّ كَانَ عِيسَى، ثُمَّ كُنْتُ أَنَا» يزيد الرقاشي ضعيف. وقد رواه الحافظ أبو بكر الاسماعيلي عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة: حدثنا أحمد بن

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٦٥، ٢٦٦.

طارق، حدثنا مسلم بن خالد، حدثنا زياد بن سعد عن محمد بن المُنْكَدِرِ، عن صَفْوان بن سليم، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ عَلَى أَثَرِ ثَمَانِيَةِ آلاَفِ نَبِيٍّ، مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ آلاَفٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ» وهذا إسناد لا بأس به، لكنني لا أعرف حال أحمد بن طارق هذا والله أعلم.

حديث آخر

قال عبد الله ابن الإمام أحمد: وجدت في كتاب أبي بخطّه: حدثني عبد المُتَعَالِي بن عبد الوهاب، حدّثنا يحيى بن سعيد الأموي، حدثنا مجالد عن أبي الوداك قال: قال أبو سعيد: هل تقر الخوارج بالدجّال؟ قال: قلت: لا، فقال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي خَاتِمُ أَلْفِ نَبِيٍّ أَوْ أَكْثَرَ، وَمَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِياً يُتَّبَعُ إِلاَّ وَحَذَّرَ أُمَّتَهُ مِنْهُ، وَإِنِّي قَدْ بَيَّنَ لِي فِيهِ مَا لَمْ يُبَيِّنْ لأَحَدٍ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُ أَعْوَرُ وَأَنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَعَيْنُهُ الْيُمْنَى عَوْرَاءُ جَاحِظَةٌ لاَ تَخْفَى كَأَنَّهَا نُخَامَةٌ فِي حَائِطٍ مُجَصَّصٍ، وَعَيْنُهُ الْيُسْرَى كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّي، مَعَهُ مِنْ كُلِّ لِسَانٍ، وَمَعَهُ صُورَةُ الْجَنَّةِ خَضْرَاءَ، يَجْرِي فِيهَا الْمَاءُ وَصُورَةُ النَّارِ سَوْدَاءُ تُدْخِنُ»[1] وهذا حديث غريب وقد روي عن جابر بن عبد الله فقال الحافظ أبو بكر البزّار: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا مُجَالِدٍ عن الشَّعْبِي، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَخَاتَمُ أَلْفِ نَبِيٍّ أَوْ أَكْثَرَ وَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْهُمْ نَبِيٌّ إِلاَّ وَقَدْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ الدَّجَّالَ وَإِنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ لِي فِيهِ مَا لَمْ يَتَبَيَّنْ لأَحَدٍ مِنْهُمْ وَإِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ» وهذا إسناد حسن، وهو محمول على ذكر عدد من أنذر قومه الدجّال من الأنبياء، لكن في الحديث الآخر، «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ وَقَدْ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الدَّجَّالَ» فالله أعلم.

وقال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعْبَةَ عن فُرَاتٍ. قال: سمعتُ أبا حازم قال: قاعدت أبا هريرة خمس سنين فسمعته يحدّث عن النبي ﷺ قال: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نبيٌّ، وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي وَسَيَكُونُ خُلَفَاءَ فَيَكْثُرُونَ». قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «فُوا بِبَيْعَةِ الأَوَّلِ فَالأَوَّلِ أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ، فَإِنَّ الله سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ»[2] وكذا رواه مسلم عن بِنْدَارٍ، ومن وجه آخر عن فرات به نحوه.

وقال البخاري: حدثنا عمرو بن حَفْصٍ، حدثنا أبي، حدثني الأَعْمَشُ، حدثني شُقَيْقُ قال: قال عبد الله هو ابن مسعود: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه، فأدموه. وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقولُ «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ»[3]

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٠، ومسلم في الإمارة حديث ٤٤، وأحمد في المسند ٢/ ٢٩٧.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٤، والاستتابة باب ٥، وأحمد في المسند ١/ ٤٤١.

رواه مسلم من حديث الأعْمَش به نحوه. وقال الإمام أحمد حدّثنا عبد الرزاق، أنبأنا مَعْمَر عن زيد بن أسلم، عن رجل عن أبي سعيد الخدري. قال: وضع رجل يده اليمنى على النبيّ ﷺ فقال: والله ما أطيقُ أن أضعَ يدي عليكَ من شدّةِ حُمّاك، فقال النبي ﷺ: «إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ يُضَاعَفُ لَنَا البَلاَءُ كَمَا يُضَاعَفُ لَنَا الأَجرُ إِنْ كَانَ النَّبِيُّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ لِيُبْتَلَى بِالقُمَّلِ حَتَى يَقْتُلَهُ وَإِنْ كَانَ النَّبِيُّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ حَتّى يَأْخُذَ العَبَاءَ فَيَجُوبُهَا وَإِنْ كَانُوا لَيَفْرَحُونَ بِالْبَلاَءِ كَمَا يَفْرَحُونَ بِالرَّخَاءِ»(١) هكذا رواه الإمام أحمد من طريق زيد بن أسلم عن رجل، عن أبي سعيد، وقد رواه ابن ماجه عن دُحَيْم، عن ابن أبي فُدَيْك، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عَطَاء بن يَسَارٍ، عن أبي سعيد فذكره. وقال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيع، حدثنا سُفيان بن عاصم بن أبي النُّجودِ، عن مُصْعَب بن سَعْدٍ، عن أبيه قال: قلت: يا رَسولَ اللّهِ أيُّ الناسِ أَشدُّ بلاءً؟ قال: «الأَنْبِيَاءُ. ثُمَّ الصَّالِحُونَ. ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ مِنَ النَّاسِ يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلاَبَةٌ زِيدَ فِي بَلاَئِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَلَيهِ، وَلاَ يَزَالُ البَلاَءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»(٢) ورواه الترمذي والنسائي: وابن ماجه من حديث عَاصِم بن أبي النُّجودِ. وقال الترمذي: حسن صحيح، وتقدم في الحديث «نَحْنُ مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ أَوْلاَدُ عِلاَّتٍ دِينُنَا وَاحِدٌ وَأُمَّهَاتُنَا شَتَّى» والمعنى أن شرائعهم وإن اختلفت في الفروع ونسخ بعضها بعضاً، حتى انتهى الجميع إلى ما شرّع الله لمحمد ﷺ، وعليهم أجمعين، إلاّ أن كل نبي بعثه الله فإنّما دينه الإسلام، وهو التوحيد، أن يعبد الله وحده لا شريك له، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦] الآية فأولاد العلات أن يكون الأب واحداً، والأمهات متفرقات، فالأب بمنزلة الدين، وهو التوحيد، والأمهات بمنزلة الشرائع في اختلاف أحكامها. كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] وقال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج: ٦٧] وقال ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] على أحد القولين في تفسيرها.

والمقصود أن الشرائع وإن تنوّعت في أوقاتها إلاّ أن الجميع آمرة بعبادة الله وحده لا شريك له، وهو دين الإسلام الذي شرّعه الله لجميع الأنبياء، وهو الدين الذي لا يقبل الله غيره يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ

---

(١) أخرجه ابن ماجة في الفتن باب ٢٣، وأحمد في المسند ٣/ ٩٤.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد باب ٥٦، وابن ماجة في الفتن باب ٢٣، وأحمد في المسند ١/ ١٧٢.

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤] الآية. فدين الإسلام هو عبادة الله وحده لا شريك له، وهو الإخلاص له وحده دون ما سواه، والإحسان أن يكون على الوجه المشروع في ذلك، الوقت المأمور به، ولهذا لا يقبل الله من أحد عملاً بعد أن بعث محمداً ﷺ على ما شرّعه له، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]. وقال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ»[1]. قيل أراد العرب والعجم. وقيل الإنس والجن، وقال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ»[2] والأحاديث في هذا كثيرة جداً. والمقصود أن إخوة العلات أن يكونوا من أب واحد وأمهاتهم شتى، مأخوذ من شرب العلل بعد النهل. وأما إخوة الأخياف فعكس هذا أن تكون أمهم واحدة من آباء شتى. وإخوة الأعيان فهم الاشقاء من أب واحد وأم واحدة، والله سبحانه وتعالى أعلم. وفي الحديث الآخر: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لاَ نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ»[3]. وهذا من خصائص الأنبياء أنهم لا يورثون، وما ذاك إلاّ لأن الدنيا أحقر عندهم من أن تكون مخلفة عنهم، ولأن توكّلهم على الله عزّ وجلّ في ذراريهم أعظم وأشد، وآكد من أن يحتاجوا معه إلى أن يتركوا لورثتهم من بعدهم مالاً يستأثرون به عن الناس، بل يكون جميع ما تركوه صدقة لفقراء الناس. ومحاويجهم وذو خلّتهم. وسنذكر جميع ما يختص بالأنبياء عليهم السلام مع خصائص نبيّنا ﷺ وعليهم أجمعين في أول كتاب النكاح من كتاب الأحكام الكبير حيث ذكره الأئمة من المصنّفين اقتداء بالإمام أبي عبد الله الشافعي رحمة الله عليه وعليهم أجمعين. وقال الإمام أحمد: حدّثنا أبو معاوية عن الأَعْمَش، عن زيد بن وهب، عن عبد الرحمن بن عبدْ رب الكعبة قال: انتهيت إلى عبد الله بن عمرو وهو جالس في ظل الكعبة فسمعته يقول: بينا نحن مع رسول الله ﷺ في سَفَر إذ نزل منزلاً فمنا من يضرب خباءه، ومنا من هو في جشره[4]، ومنا من ينتضل[5] إذ نادى مناديه: الصلاة جامعه، قال: فاجتمعنا، قال: فقام رسول الله ﷺ فخطبنا فقال: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ دَلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يُعلّمُهُ لَهُمْ. وَحَذَّرَهُمْ مَا يَعْلَمُهُ شَرّاً لَهُمْ، وَإِنَّ أُمّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَتْ عَافِيَتُهَا فِي أَوّلِهَا،

(١) أخرجه مسلم في المساجد حديث ٣، وأحمد في المسند ١/ ٢٥٠، ٥/ ١٦١، ١٦٢.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٢٦٥، ٢٦٦.

(٣) أخرجه البخاري في الخمس باب ١، والمغازي باب ١٤، والنفقات باب ٣، ومسلم في الجهاد حديث ٤٩، وأبو داود في الخراج باب ١٩، والنسائي في الفيء باب ١، وأحمد في المسند ١/ ٤٧.

(٤) جشره: أي إخراج الدواب للرعي.

(٥) النضل: الهذل والإعياء والتعب.

وَإِنَّ آخِرَهَا سَيُصِيبُهَا بَلاَءٌ شَدِيدٌ وَأُمُور يُنْكِرُونَهَا، تَجِيءُ فِتَنٌ يُرِيقُ بَعْضُهَا بَعْضاً، تَجِيءُ الفِتْنَةُ فَيَقُولُ المُؤْمِنُ هَذِهِ مُهْلِكَتِي. ثُمَّ تَنْكَشِفُ. ثُمَّ تَجِيءُ الفِتْنَةُ فَيَقُول المُؤْمِنُ هَذِهِ. ثُمَّ تَنْكَشِفُ فَمَنْ سَرَّهُ مِنكُمْ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَأَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ فَلْتُدْرِكْهُ مَوْتَتُهُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ. وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَاماً فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمْرَةَ قَلْبِهِ، فَلْيُطِعْهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ». قال: فأدخلتُ رأسي من بينَ النَّاسِ فقلتُ: أنشدكَ باللَّهِ أنتَ سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: فأشارَ بيدهِ إلى أذنيهِ وقال: «سمعَتْهُ أذناي ووعاهُ قَلْبي» قال: فقلت: هذا ابن عمّك يعني معاوية يأمرنا أن نأكلَ أموالنَا بيننَا بالباطِل، وأن نقتلَ أنفسنَا وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] قال: فَجَمَعَ يَدَيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَلَى جَبْهَتِهِ، ثُمَّ نَكَسَ هُنَيْهَةً. ثم رفعَ رَأسَه فقال أَطِعْهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَاعْصِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ. ورواه أحمد أيضاً عن وَكِيع، عن الأَعْمَش به، وقال: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَمْ يكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إلاَّ كَانَ حَقاً عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى مَا يَعْلَمُهُ خَيراً لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُ مَا يَعْلَمُهُ شَرّاً لَهُمْ»(١) وذكر تمامه بنحوه. وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة من طرق عن الأعمش به. ورواه مسلم أيضاً من حديث الشَّعْبِي عن عبد الرحمن بن عبد ربِّ الكعبة، عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ بنحوه.

ذكر أخبار العرب

قيل: إن جميع العرب ينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام والتحية والإكرام. والصحيح المشهور أن العرب العاربة قبل إسماعيل، وقد قدمنا أن العرب العاربة منهم عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وجرهم والعماليق، وأمم آخرون لا يعلمهم إلاّ الله، كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام، وفي زمانه أيضاً. فأما العرب المستعربة وهم عرب الحجاز فمن ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وأما عرب اليمن وهم حِمْيَر فالمشهور أنهم، من قحطان واسمه مهزم، قاله ابن ماكولا، وذكروا أنهم كانوا أربعة إخوة: قحطان وقاحط، ومقحط، وفالغ، وقحطان بن هود، وقيل: هو هود، وقيل: هود أخوه، وقيل: من ذريته وقيل: إن قحطان من سلالة إسماعيل، حكاه ابن إسحاق وغيره، فقال بعضهم هو قحطان أهميسع بن تيمن بن قيذر بن نبت إسماعيل. وقيل غير ذلك في نسبه إلى إسماعيل والله أعلم.

وقد ترجم البخاري في صحيحه على ذلك فقال: (باب نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام):

حدّثنا مُسَدّد، حدثنا يحيى عن يزيد بن أبي عبيد، حدثنا سَلَمَة رضي الله عنه قال:

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة حديث ٤٦، وأبو داود في الفتن باب ١، والنسائي في البيعة باب ٢٥، وابن ماجة في الفتن باب ٩، وأحمد في المسند ٢/١٦١، ١٩١.

خرج رسول الله ﷺ على قوم من أسلم يتناضلون بالسيوف، فقال: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلاَنٍ لِأَحَدِ الفَرِيقَيْنِ»، فأمسكوا بأيديهم فقال: «مَا لَكُم؟» قالوا وَكَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَ بَنِي فُلاَنٍ؟ فقال: «ارْمُوا وَأَنَا مَعَكُمْ كُلِّكُمْ»[1]. انفرد به البخاري وفي بعض ألفاظه: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِياً، ارْمُوا وَأَنَا مَعَ ابْنِ الأَدْرَعِ»، فأمسك القوم، فقال: «ارْمُوا وَأَنَا مَعَكُمْ كُلِّكُمْ»[2]

قال البخاري: وأسلم بن أَفْصَى بن حَارِثة بن عمرو بن عامر من خُزَاعَة، يعني وخزاعة فرقة ممن كان تمزق من قبائل سبأ حين أرسل الله عليهم سيل العرم، كما سيأتي بيانه، وكانت الأوس والخزرج منهم، وقد قال لهم عليه الصلاة والسلام: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ»، فدلّ على أنهم من سلالته، وتأوّله آخرون على أن المراد بذلك جنس العرب، لكنه تأويل بعيد، إذ هو خلاف الظاهر بلا دليل، لكن الجمهور على أن العرب القحطانية من عرب اليمن وغيرهم ليسوا من سلالة إسماعيل، وعندهم أن جميع العرب ينقسمون إلى قسمين: قحطانية وعدنانية، فالقحطانية: شعبان: سبأ وحضرموت، والعدنانية شعبان أيضاً: ربيعة ومضر ابنا نزار بن معد بن عدنان، والشعب الخامس وهم قضاعة مختلف فيهم، فقيل إنهم عدنانيون، قال ابنُ عبدِ البَرّ: وعليه الأكثرون.

ويُروى هذا عن ابن عبّاس، وابن عمر، وجُبَيْر بن مطعم، وهو اختيار الزُّبَيْر بن بَكَّارٍ وعمه مصعب الزُّبَيْرِي وابن هشام، وقد ورد في حديث قُضَاعَةَ بن معد ولكنه لا يصح قاله ابن عبد البَرّ وغيره، ويقال: إنهم لن يزالوا في جاهليتهم وصدر من الإسلام ينتسبون إلى عدنان، فلما كان في زمن خالد بن يزيد بن معاوية، وكانوا أخواله انتسبوا إلى قحطان، فقال في ذلك أعشى بني ثعلبة في قصيدة له: [البسيط]

أَبْلِغْ قُضَاعَةَ فِي القِرْطَاسِ[3] إِنَّهُمُ ... لَوْلاَ خَلاَئِفُ آلِ اللَّهِ مَا عَتِقُوا
قَالَتْ قُضَاعَةُ إِنَّا مِنْ ذَوِي يَمَنٍ ... وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا بَرُّوا وَمَا صَدَقُوا
قَدِ ادَّعَوْا وَالِداً مَا نَالَ أُمَّهُمُ ... قَدْ يَعْلَمُونَ وَلَكِنْ ذَلِكَ الفَرَقُ

وقد ذكر أبو عمرو السُّهَيْلِي أيضاً من شعر العرب ما فيه إبداع في تفسير قضاعة في انتسابهم إلى اليمن والله أعلم. والقول الثاني أنهم من قحطان وهو قول ابن إسحاق والكلبي وطائفة من أهل النسب.

قال ابن إسحاق: وهو قُضَاعةُ بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وقد قال بعض شعرائهم وهو عَمْرُو بن مُرّة صحابي له حديثان: [الرجز]

يَا أَيُّهَا الدَّاعِي ادْعُنَا وَأَبْشِرْ ... وَكُنْ قُضَاعِيًّا وَلاَ تُنَزَّرْ

(١) أخرجه البخاري في المناقب باب ٤.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٨٧، وأحاديث الأنبياء باب ١٢، وأحمد في المسند ٤/ ٥٠.

(٣) القرطاس: الصحيفة.

نَحْنُ بَنُو الشَّيْخِ الهِجَانِ[1] الأَزْهَرْ قُضَاعَةِ بْنِ مَالِكِ بْنِ حِمْيَرْ
النَّسَبُ المَعْرُوفُ غَيْرُ المُنْكَرِ فِي الحَجَرِ المَنْقُوشِ تَحْتَ المِنْبَرِ

وقال بعض أهل النسب: هو قضاعة بن مالك بن عمر بن مرّة بن زيد بن حمير، وقال ابن لهيعة عن معروف بن سويد، عن أبي عشانة حي بن يومن، عن عقبة بن عامر قال: قلت يا رسول الله: أما نحن من معد، قال: لاَ. قلت: فَمِمَّنْ نَحْنُ؟ قال: أَنْتُمْ قُضَاعَةُ بْنُ مالِكِ بْنِ حِمْيَرَ. قال أبو عمر بن عبد البَرّ ولا يختلفون أن جُهينَةَ بن زيد بن أسود بن أسلم بن عمران بن إلحاف بن قضاعة قبيلة عقبة بن عامر الجهني، فعلى هذا قضاعة في اليمن في حمير بن سبأ. وقد جمع بعضهم بين هذين القولين بما ذكره الزبير بن بكار وغيره من أن قضاعة امرأة من جُرْهُم تزوّجها مالك بن حِمْير فولدت له قضاعة، ثم خلف عليها مِعَدُّ بن عدنان وابنها صغير، وزعم بعضهم أنه كان حملاً فنسب إلى زوج أمّه كما كانت عادة كثير منهم ينسبون الرجل إلى زوج أمه، والله أعلم.

وقال محمد بن سلام البصري النسابة: العرب ثلاثة جراثيم العدنانية والقحطانية وقضاعة. قيل له: فأيهما أكثر العدنانية أو القحطانية؟ فقال: شاءت قضاعة أن تيامنت فالقحطانية أكثر، وإن تعدّدت فالعدنانية أكثر، وهذا يدل على أنهم يتلومون في نسبهم، فإن صحّ حديث ابن لَهِيعَة المقدّم فهو دليل على أنهم من القحطانية والله أعلم. وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

قال علماء النسب يقال شعوب. ثم قبائل ثم عمائر. ثم بطون. ثم أفخاذ. ثم فصائل. ثم عشائر. والعشيرة أقرب الناس إلى الرجل وليس بعدها شيء.

ولنبدأ أولاً بذكر القحطانية، ثم نذكر بعدهم عرب الحجاز، وهم العدنانية وما كان من أمر الجاهلية ليكون ذلك متصلاً بسيرة رسول الله ﷺ إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

وقد قال البخاري: **باب ذكر قحطان.**

حدّثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا سليمان بن بلال. عن ثور بن زيد، عن أبي المغيث، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ رَجُلٌ مِنْ قَحْطَانَ يَسُوقُ النَّاسَ بِعَصَاهُ»[2] وكذا رواه مسلم عن قُتَيْبة، عن الدَّرَاوَرْدِي، عن ثَوْرِ بن زَيْدٍ به. قال السُّهَيلي: وقحطانُ أول من قيل له: أبيت اللعن، وأول من قيل له أنعم صباحاً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة عن جرير، حدثني رَاشد بن سعد المِقْرَاي. عن أبي حيٍّ عن ذي فجر أن رسول الله ﷺ قال: «كَانَ هَذَا الأَمْرُ فِي حِمْيَرَ فَنَزَعَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ

(١) الهجان: الكريم العالي النسب. والأزهر: المشهور.

(٢) أخرجه البخاري في الفتن باب ٢٣، والمناقب باب ٧، ومسلم في الفتن حديث ٦٠، وأحمد في المسند ٢/٤١٧.

فَجَعَلَهُ فِي قُرَيْشٍ» (و س ى ع ودال ى هـ م) قال عبد الله: هكذا كان في كتاب أبي وحيث حدّثنا به تكلّم به على الاستواء يعني: وسيعود إليهم[١].

قصة سبأ

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ: ١٥ ـ ١٩].

قال علماء النسب منهم محمد بن إسحاق: اسم سبأ عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان قالوا: وكان أول من سَبَأ من العرب فسُمّي سبأ[٢] لذلك. وكان يقال له: الرائش لأنه كان يعطي الناس الأموال من متاعه. قال السُّهَيْلي: ويقال إنه أول من تتوج وذكر بعضهم أنه كان مسلماً، وكان له شعر بشّر فيه بوجود رسول الله ﷺ فمن ذلك قوله: [الوافر].

سَيَمْلِكُ بَعْدَنَا مُلْكاً عَظِيماً ... نَبِيٌّ لاَ يُرَخِّصُ فِي الحَرَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُ مِنْهُمْ مُلُوكٌ ... يَدِينُونَ العِبَادَ بِغَيْرِ ذَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُم مِنَّا مُلُوكٌ ... يَصِيرُ المُلْكُ فِينَا بِاقْتِسَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَ قَحْطَانٍ نَبِيٌّ ... تَقِيٌّ جَبِينُهُ خَيْرُ الأَنَامِ
يُسَمَّى أَحْمَداً يَا لَيْتَ أَنِّي ... أُعَمَّرُ بَعْدَ مَبْعَثِهِ بِعَامِ
فَأَعْضُدُهُ[٣] وَأَحْبُوهُ بِنَصْرِي ... بِكُلِّ مُدَجَّجٍ وَبِكُلِّ رَامِ
مَتَى يَظْهَر فَكُونُوا نَاصِرِيهِ ... وَمَنْ يَلْقَاهُ يُبْلِغْهُ سَلاَمِي

حكاه ابن دِحية في كتابه التنوير في مولد البشير النذير.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدّثنا ابن لَهيعة عن عبد الله بن وعلة سمعت عبد الله بن العباس يقول: إن رجلاً سأل النبي ﷺ عن سبأ ما هو أرجل أم امرأة أم أرض؟ قال: «بَلْ هُوَ رَجُلٌ وَلِدَ عشرَةً، فَسَكَنَ اليَمَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وبِالشام مِنْهم أَرْبَعةٌ. فَأَمَّا اليَمَانِيُّونَ فَمِذْحِجٌ وَكِنْدَةُ وَالأَزْدُ وَالأَشْعرِيُّونَ وَأَنْمَارُ وَحِمْيَرُ. وَأَمَّا الشَّامِيَّةُ فَلَخْمٌ وَجُذَامُ وَعَامِلَةُ وَغَسَّانُ»[٤] وقد ذكرنا في التفسير أن فروة بن مَسِيكٍ الغُطَيفي هو السائل عن ذلك كما

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/٩١.
(٢) في اللسان: سَبَأ الخمر يسبؤها سَبأ: شراها وفي الصحاح: اشتراها ليشربها. وقيل: سبأ اسم رجل وَلَدَ عشرة بنين فسميت القرية باسم أبيهم. (اللسان) مادة سبأ.
(٣) عضد: ساند.
(٤) أخرجه أحمد في المسند ١/٣١٦.

استقصينا طرق هذا الحديث، وألفاظه هناك ولله الحمد.

والمقصود أن سبأ يجمع هذه القبائل كلّها، وقد كان فيهم التبابعة بأرض اليمن، واحدهم تبّع، وكان لملوكهم تيجان يلبسونها وقت الحكم، كما كانت الأكاسرة ملوك الفرس يفعلون ذلك. وكان العرب تسمي كل من ملك اليمن مع الشّحر وحضرموت تبّعاً، كما يسمون من ملك الشام مع الجزيرة قيصر، ومن ملك الفرس كسرى، ومن ملك مصر فرعون، ومن ملك الحبشة النجاشي، ومن ملك الهند بطليموس. وقد كان من جملة ملوك حِمْيَرَ بأرض اليمن بلقيس ـ وقد قدّمنا قصتها مع سليمان عليه السلام ـ وقد كانوا في غبطة عظيمة وأرزاق دارّة، وثمار وزروع كثيرة، وكانوا مع ذلك على الاستقامة والسداد وطريق الرشاد، فلما بدّلوا نعمة الله كُفْراً أحلّوا قومهم دار البوار.

قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه: أرسل الله إليهم ثلاثة عشر نبياً، وزعم السدّي أنه أرسل إليهم اثني عشر ألف نبي فالله أعلم. والمقصود أنهم لما عدلّوا عن الهدى إلى الضلال، وسجدوا للشمس من دون الله، وكان ذلك في زمان بلقيس وقبلها أيضاً، واستمرّ ذلك فيهم حتى أرسل الله عليهم سيل العَرِم كما قال تعالى ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبا: ١٦، ١٧].

ذكر غير واحد من علماء السلف والخلف من المفسّرين وغيرهم: أن سدّ مأرب كان صنعته أن المياه تجري من بين جبلين، فعمدوا في قديم الزمان فسدّوا ما بينهما ببناء محكم جداً، حتى ارتفع الماء فحكم على أعالي الجبلين، وغرسوا فيها البساتين والأشجار المثمرة الأنيقة، وزرعوا الزروع الكثيرة، ويقال كان أول من بناه سبأ بن يعرب، وسلّط إليه سبعين وادياً يفد إليه، وجعل له ثلاثين فرضة يخرج منها الماء، ومات ولم يكمل بناؤه، فكملته حِمْيَر بعده، وكان اتساعه فرسخاً في فرسخ، وكانوا في غبطة عظيمة وعيش رغيد وأيام طيبة، حتى ذكر قَتَادة وغيره أن المرأة كانت تمر بالمكتل[1] على رأسها فتمتلىء من الثمار ما يتساقط فيه من نضجه وكثرته، وذكروا أنه لم يكن في بلادهم شيء من البراغيث ولا الدواب المؤذية لصحّة هوائهم وطيب فنائهم كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧] فلما عبدوا غير الله وبطروا نعمته، وسألوا بعد تقارب ما بين قراهم، وطيب ما بينهم من البساتين، وأمن الطرقات، سألوا أن يباعد بين أسفارهم، وأن يكون سفرهم في مشاق وتعب، وطلبوا أن يبدلوا بالخير شراً، كما سأل بنو إسرائيل بدل المن والسلوى البقول والقثاء والفوم والعدس والبصل، فسلبوا تلك النعمة العظيمة، والحسنة العميمة، بتخريب

(١) المكتل: زنبيل يسع خمسة عشر صاعاً.

البلاد والشتات على وجوه العباد كما قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾. قال غير واحد أرسل الله على أصل السد الفار وهو الجرذ، ويقال الخلد: فلما فطنوا لذلك أرصدوا عندها السنانير، فلم تغنِ شيئاً إذ قد حم القدر. ولم ينفع الحذر كلا لا وزر. فلما نحكم في أصله الفساد سقط وانهار، فسلك الماء القرار، فقطعت تلك الجداول والأنهار، وانقطعت تلك الثمار، ومادت تلك الزروع والاشجار، وتبدلوا بعدها برديء الأشجار والأثمار، كما قال العزيز الجبار: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ﴾ قال ابن عباس ومُجاهد وغير واحد: هو الأراك وثمره البرير، وأثل وهو الطرفاء. وقيل يشبهه وهو حطب لا ثمر له ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وذلك لأنه لما كان يثمر النبق كان قليلاً. مع أنه ذو شوك كثير. وثمره بالنسبة إليه. كما يقال في المثل لحم جمل غث[١] على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ أي إنما نعاقب هذه العقوبة الشديدة من كَفَر بنا وكذّب رسلنا، وخالف أمرنا وانتهك محارمنا، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ وذلك أنهم لما هلكت أموالهم وخربت بلادهم، احتاجوا أن يرتحلوا منها، وينتقلوا عنها، فتفرقوا في غور البلاد، ونجدها أيدي سبأ شذر مذر[٢] فنزلت طوائف منهم الحجاز، وهم[٣] خزاعة نزلوا ظاهر مكة، وكان من أمرهم ما سنذكره. ومنهم المدينة النبوية[٤] اليوم، فكانوا أول من سكنها، ثم نزلت عندهم ثلاث قبائل من اليهود: بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير، فحالفوا الأوس والخزرج، وأقاموا عندهم، وكان من أمرهم ما سنذكره. ونزلت طائفة أخرى منهم الشام، وهم الذين تنصروا فيما بعد وهم غسان وعاملة وبهراء ولخم وجذام وتنوخ وتغلب وغيرهم وسنذكرهم عند ذكر فتوح الشام في زمن الشيخين رضي الله عنهما.

قال محمد بن إسحاق: حدثني أبو عبيدة قال: قال الأعشى بن قيس بن ثعلبة وهو ميمون بن قيس: [المتقارب]

وَفِـي ذَاكَ لِـلْـمُـؤْتَـسِـي أُسْـوَةٌ ... ومـأرب عَـفَّـى[٥] عَـلَـيْـهـا الـعَـرِمْ[٦]

رُخَـامٌ بَـنَـتْـهُ لَـهُـمْ حِـمْـيَـرٌ ... إِذَا جَـاءَ مَـوَّارُه[٧] لَـمْ يَـرِمْ

فَـأَرْوَى الـزُّرُوعَ وَأَعْـنَـابَـهـا ... عَـلَـى سَـعَـةٍ مَـاؤُهُـمْ إِذْ قُـسِـمْ

فَـصَـارُوا أَيَـادِيَ[٨] مَـا يَـقْـدِرو ... نَ عَـلَـى شُـرْبِ[٩] طِـفْـلٍ إذا مـا فُـطِـمْ

وقد ذكر محمد بن إسحاق في كتاب السيرة أن أول من خرج من اليمن قبل سيل

---

(١) غُث: فسد.

(٢) مثل كانت تضربه العرب وتقول: تفرقوا أيدي سبأ.

(٣) في ط: ومنهم.

(٤) في ط: المنورة.

(٥) عفّى: محا.

(٦) العرم: السيل الذي قوّض سد مأرب.

(٧) موّاره: الماء المتدفق.

(٨) ايادي: متفرقين

(٩) شُرب: (بالضم): المصدر. و(بالكسر): الحظ والنصيب من الماء.

العَرِم عمرو بن عامر اللخمي، ولخم هو ابن عدي بن الحارث بن مرة بن ازد بن زيد بن مهع بن عمرو بن عريب بن يشجب بن زيد بن كهلان بن سبأ. ويقال لخم بن عدي بن عمرو بن سبأ؛ قال ابن هشام. قال ابن إسحاق: وكان سبب خروجه من اليمن فيما حدّثني أبو زيد الأنصاري أنه رأى جرذاً يحفر في سد مأرب الذي كان يحبس عليهم الماء فيصرفونه حيث شاؤوا من أرضهم، فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك، فاعتزم على النّقلة عن اليمن، فكاد قومه، فأمر أصغرَ ولده إذا أغلظ عليه ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه، ففعل ابنهُ ما أمره به؛ فقال عمرو: لا أقيم ببلد لَطَم وجهي فيه أصغرُ ولدي، وعرض أمواله. فقال أشراف من أشراف اليمن: اغتنموا غضبةَ عمرو فاشتروا منه أمواله. وانتقل في ولده وولد ولده. وقالت الأزد: لا نتخلّف عن عمرو بن عامر، فباعوا أموالهم، وخرجوا معه، فساروا حتى نزلوا بلاد عُكّ مجتازين يرتادون البلدان، فحاربتهم عكّ، فكانت حربهم سِجالاً. ففي ذلك قال عبّاس بن مرداس: [الطويل]

وَعُكُّ بْنِ عَدْنَانَ الَّذِينَ تَلَقَّبُوا بِغَسَّانَ حَتَّى طُرِّدُوا كُلَّ مَطْرَدِ

قال: فارتحلوا عنهم فتفرّقوا في البلاد، فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام، ونزل الأوس والخزرج يثربَ، ونزلت خُزاعة مَرّاً[1] ونزلت أزدُ السَّراةِ السراةَ ونزلت أزدُ عمان عُمانَ؛ ثم أرسل الله تعالى على السدّ السيل فهدمه، وفي ذلك أنزل الله هذه الآيات وقد روى عن السَدّي قريب من هذا، وعن محمد بن إسحاق في روايته أن عمرو بن عامر كان كاهناً. وقال غيره كانت امرأته طريفة بنت الخير الحميرية، كاهنة فأخبرت بقرب هلاك بلادهم، وكأنهم رأوا شاهد ذلك في الفأر الذي سلّط على سدهم، ففعلوا ما فعلوا والله أعلم. وقد ذكرت قصّته مطولة عن عكرمة فيما رواه ابن أبي حاتم في التفسير.

فصل: وليس جميع سبأ خرجوا من اليمن لما أصيبوا بسيل العَرِم، بل أقام أكثرهم بها، وذهب أهل مأرب الذين كان لهم السدّ فتفرقوا في البلاد وهو مقتضى الحديث المتقدّم عن ابن عباس أن جميع قبائل سبأ لم يخرجوا من اليمن، بل إنّما تشاءم منهم أربعة، وبقي باليمن ستة: وهم مذحج وكندة وأنمار والأشعريون وأنمار هو أبو خثعم، وبَجِيلة وحِمْيَرَ فهؤلاء ست قبائل من سبأ، أقاموا باليمن واستمرّ فيهم الملك والتبابعة حتى سلبهم ذلك ملك الحبشة بالجيش الذي بعثه صحبة أميريه أَبْرَهَة وأرياط نحواً من سبعين سنة. ثم استرجعه سيف بن ذي يزن الحِمْيَرِيّ، وكان ذلك قبل مولد رسول الله ﷺ بقليل كما سنذكره مفصّلاً قريباً إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان. ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن عَلِياً وخالد بن الوليد، ثم أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل، وكانوا يدعون إلى الله تعالى ويبينون لهم الحُجَج. ثم تغلّب على اليمن الأسْوَدُ العَنْسِي، وأخرج نواب رسول الله ﷺ منها؛ فلما قتل الأسود استقرت اليد الإسلامية عليها في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كما سنبين ذلك بعد البعثة إن شاء الله تعالى.

(١) مرّ: هو الذي يقال له مرّ الظهران، وهو موضع على مرحلة من مكة.

قصة ربيعة بن نصر بن أبي حارثة بن عمرو بن عامر

المتقدم ذكره اللخمي، كذا ذكره ابن إسحاق. وقال السهيلي ونسّاب اليمن تقول: نصر بن ربيعة بن نصر بن الحارث بن نمارة بن لخم. وقال الزُبَير بن بَكّار: ربيعة بن نصر بن مالك بن شعوذ بن مالك بن عجم بن عمرو بن نمارة بن لخم، ولخم أخو جذام وسمي لخماً لأنه لخم أخاه [على خده][(١)] أي لطمه فعضّه الآخر في يده فجذمها[(٢)]، فسُمّي جذاماً. وكان ربيعة أحد ملوك حِمْيَر التبابعة وخبره من شِقّ وسَطِيح الكاهنين وإنذارهما بوجود رسول الله ﷺ. أما سطيح فاسمة ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدي بن مازن غسان. وأما شق فهو ابن صعب بن يشكر بن رُهْم بن أَفْرَك بن [قسر][(٣)] بن عبقر بن أنمار بن نزار ومنهم من يقول أنمار بن أراش بن لِحْيان بن عمرو بن الغَوْث بن نابت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ، ويقال إن سَطِيحاً كان لا أعضاء له، وإنما كان مثل السطيحة، ووجهه في صدره، وكان إذا غضب انتفخ وجلس، وكان شِق نصف انسان، ويقال: إنّ خالد بن عبد الله بن القسري كان [من][(٤)] سلالته وذكر السُهَيْلي أنهما ولدا في يوم واحد، وكان ذلك يوم ماتت طريفة بنت الخير الحميرية، ويقال أنها تفلت في فم كل منهما، فورث الكهانة عنها، وهي امرأة عمرو بن عامر المتقدم ذكره والله أعلم. قال محمد بن إسحاق: وكان ربيعة بن نصر ملك اليمن بين اضعاف ملوك التبابعة، فرأى رؤيا هائلة هالته وفَظِعَ[(٥)] بها، فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ولا عائفاً[(٦)] ولا منجماً من أهل مملكته إلا جمعه إليه، فقال لهم: إني قد رأيت رؤيا هالتني، وَفَظِعْتُ بها، فأخبروني بها وبتأويلها، فقالوا: اقصصها علينا نخبرك بتأويلها، فقال: إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم بتأويلها، لأنه لا يعرف تأويلها إلاّ من عرفها قبل أن أخبره بها، فقال له رجل منهم: فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى شِق وسَطِيح فإنه ليس أحدٌ أعلم منهما، فهما يخبرانه بما سأل عنه. فبعث إليهما فقدم إليه سَطِيح قبل شِقّ فقال له: إني قد رأيت رؤيا هالتني وفَظِعتُ بها، فأخبرني بها، فإنك إن أصبتها أصبتَ تأويلَها. فقال: أفعلُ. رأيتَ حُمَمَةً[(٧)] خرجت من ظُلُمةٍ[(٨)]. فوقعت بأرض تَهَمةٍ[(٩)]. فأكلتْ منها كلَّ ذات جُمْجُمة، فقال له الملك: ما أخطأتَ منها شيئاً يا سطيح، فما عندك في تأويلها؟ قال: أحلف بما بين الحَرّتَين من حَنَش

---

(١) سقط في ط.
(٢) جذم: قطع.
(٣) سقط في ط.
(٤) سقط في ط.
(٥) فظع بالأمر (كعلم): اذا اشتدّ عليه.
(٦) العائف: الذي يزجر الطير.
(٧) الحممة: واحدة الحُمَم وهو الرماد والفحم وكل ما احترق من النار. ويريد كتلة نار مشتعلة خرجت من الظلمة وتدحرجت.
(٨) من ظلمة: أي من ظلام، يعني من جهة البحر؛ يريد خروج عسكر الحبشة من أرض السودان.
(٩) التهمة: الأرض المتصوّبة نحو البحر.

لتهبطنّ أرضكم الحبش[١]. فليَملُكُنّ ما بين أبْينَ[٢] إلى جرش[٣] فقال له الملك يا سطيح إن هذا لنا لغائظٌ مُوجع، فمتى هو كائن؟ أفي زماني أم بعده؟ فقال: لا وأبيك بل بعده بحين، أكثر من ستين أو سبعين، يمضين من السنين. قال: أفيدوم ذلك من سلطانهم أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين، ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين؛ قال: ومن يلي ذلك من قتلهم وإخراجهم؟ قال: يليهم أرم بن ذي يزن. يخرج عليهم من عدن، فلا يترك منهم أحداً باليمن. قال أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع، قال: ومن يقطعه؟ قال نبيّ زكي يأتيه الوحي من قبل العليّ؛ قال: وممن هذا النبي؟ قال: رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر، يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر. قال: وهل للدهر من آخر؟ قال: نعم يوم يجمع فيه الأوّلون والآخرون، يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون. قال: أحق ما تخبرني؟ قال: نعم. والشفق والغَسَق والفَلَق إذا اتّسق إن ما أنبأتك به لحق. قال: ثم قدم عليه شِقّ فقال له كقوله لسطيح، وكتمه ما قال سطيح، لينظر أيتفقان أم يختلفان؛ قال: نعم رأيتَ حُمَمَةً خرجت من ظُلُمة. فوقعت بين روضة وأكمة. فأكلت منها كلّ ذات نسمة. فلما قال له ذلك عرف أنهما قد اتفقا وأن قولهما واحد. إلاّ أن سطيحاً قال وقعت بأرض تَهَمة فأكلت منها كل ذات جُمْجُمة. وقال شِق وقعت بين روضة وأكمة فأكلت منها كل ذات نسمة. فقال له الملك: ما أخطأت يا شِق منها شيئاً. فما عندك في تأويلها؟ فقال: أحلف بما بين الحَرّتين من إنسان، لينزلَن أرضَكم السودان، فيلغلبُنّ على كل طَفْلة[٤] البنان. وليملكنّ ما بين أَبْيَنَ إلى نَجْرَان. فقال له الملك: وأبيك يا شِق، إن هذا لنا لغائظ مُوجِع، فمتى هو كائن؟ أفي زماني أم بعده؟ قال: لا بل بعده بزمان. ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شان، ويذيقهم أشدّ الهوان. قال: ومن هذا العظيم الشان؟ قال غلام ليس بِدَنيّ ولا مُدَنّ. يخرج عليهم من بيت ذي يَزَن. قال أفيدوم سلطانة أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع برسول مُرْسَل، يأتي بالحقّ والعدل من أهل الدين والفضل، يكون المُلْك في قومه إلى يوم الفصل. قال: وما يوم الفصل؟ قال يوم يجزى فيه الولاة يدعى فيه من السماء بدعوات تسمع منها الأحياء والأموات. ويُجمع الناس فيه للميقات، يكون فيم لمن اتقى الفوز والخيرات. قال أحق ما تقول؟ قال: أي وربّ السماء والأرض. وما بينهما من رفع وخفض، إنّ ما أنبأتك به لحق ما فيه أَمْض[٥]. قال ابن إسحاق فوقع في نفس ربيعة بن نصر ما قالا. فجهّز بنيه وأهل بيته إلى العراق، وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور بن خُرّزاذ، فأسكنهم الحيرة.

(١) يقال إنهم بنو حبش بن كوش بن حام بن نوح، وبه سميت الحبشة.

(٢) بفتح اوله وكسره: مخلاف باليمن، منه عدن، (معجم البلدان ١/ ٨٦).

(٣) جرش: (بالضم ثم الفتح وشين معجمة): من مخاليف اليمن من جهة مكة.

(٤) الطفلة: الناعمة الرخصة.

(٥) اي ليس فيه شك. بلغة حمير، ويقال امض: أي باطل.

قال ابن إسحاق: فمن بقية ولد ربيعة بن نصر النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن عديّ بن ربيعة بن نصر، يعني الذي كان نائباً على الحيرة لملوك الأكاسرة، وكانت العرب تفد إليه وتمتدحه. وهذا الذي قاله محمد بن إسحاق من أن النعمان بن المنذر من سلالة ربيعة بن نصر، قاله أكثر الناس. وقد روى ابن إسحاق أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لما جيء بسيف النعمان بن المنذر، سأل جُبَير بن مُطْعِم عنه ممن كان؟ قال من أشلاء قَنَص بن مَعَدّ بن عَدْنان. قال ابن إسحاق فالله أعلم أي ذلك كان.

قصة تبع أبي كرب مع أهل المدينة وكيف أراد غزو البيت الحرام ثم شرفه وعظمه وكساه الحلل فكان أول من كساه.

قال ابن إسحاق: فلمّا هلك ربيعة بن نصر رجع مُلْك اليمن كلّه إلى حسّان بن تُبان أسعد[١] أبي كرب، وتبان أسعد تبّع الآخر، ابن كلكيكرب بن زيد، وزيد تبّع الأول بن عمرو ذي الأذعار بن أبرهة ذي المنار بن الرائش بن عدي بن صيفي بن سبأ الأصغر بن كعب. كهف الظلم[٢] بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شَمْس بن وائل بن الغَوْث بن قَطَن بن غَريب بن زُهَير بن أنس بن الهميسع بن العربحج والعربحج: هو حِمْير بن سبأ الأكبر بن يَعْرُب بن يَشْجُب بن قَحْطان. قال عبد الملك بن هشام: سبأ بن يشحب بن يعرب بن قحطان.

قال ابن إسحاق: وتبان أسعد أبو كَرِب هو الذي قدم المدينة، وساق الحبْرين من اليهود إلى اليمن، وعمّر البيت الحرام وكساه، وكان ملكه قبل مُلْك ربيعة بن نَصْر. وكان قد جعل طريقه حين رجع من غزوة بلاد المشرق على المدينة، وكان قد مرّ بها في بَدْأته فلم يَهِج أهلَها، وخلّف بين أظهرهم ابناً له، فقتِل غِيلةً، فقدمها وهو مُجْمِع لإخرابها، واستئصال أهلها، وقطع نخلها فجمع له هذا الحي من الأنصار ورئيسهم عَمْرو بن طلحة أخو بني النجار، ثم أحد بني عمرو بن مَبْذول: واسم مَبْذُول: عامر بن مالك بن النجّار، واسم النجّار: تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة عمرو بن عامر.

وقال ابن هشام: عمرو بن طلحة هو عمرو بن معاوية بن عمرو بن عامر بن مالك بن النجار. وطلحة أمه وهي بنت عامر بن زريق الخزرجية.

قال ابن إسحاق: وقد كان رجل من بني عدي بن النجّار، يقال له أحمر، عدا على رجل من أصحاب تبّع وجده يجدّ عَذْقاً[٣] له فضربه بمنجله فقتله. وقال: إنما التمر لمن أبّرَه[٤]. فزاد تبّعاً حَنقاً عليهم، فاقتتلوا. فتزعم الأنصار أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار،

(١) تبان اسعد: اسمان جعلا واحداً، كما هي الحال في معدي كرب، وتبان من التبانة وهي الذكاء والفطنة.

(٢) اي أن المظلوم كان يلجأ اليه، ويعتمد عليه فينصره.

(٣) العذق: النخلة. ومعناه يقطع نخلة له.

(٤) أبّره: أي لقحه أصلحه.

وَيَقْرونه[١] بالليل، فيعجبه ذلك منهم ويقول: والله إنّ قومنا لكرام.

وحكى ابن إسحاق عن الأنصار أن تبّعا إنّما كان حنقه على اليهود أنهم منعوهم منه.

قال السُّهيلي: ويقال إنه إنّما جاء لنصرة الأنصار أبناء عمّه على اليهود الذين نزلوا عندهم في المدينة على شروط فلم يوفوا[٢] بها واستطالوا عليهم والله أعلم.

قال ابن إسحاق: فبينا تبّع على ذلك من حربهم إذ جاءه حَبْران من أحبار اليهود، من بني قُرَيظة، قال: عالمان راسخان في العلم حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهله، فقالوا له: أيها الملك، لا تفعل، إنك إن أبيتَ إلا ما تريد حِيل بينك وبينها، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة، فقال لهما: ولِمَ ذلك؟ قالا: هي مهاجَرُ نبيّ يخرج من هذا الحَرم من قريش في آخر الزمان. تكون دارَه وقراره، فتناهى، وروى أنّ لهما علماً، وأعجبه ما سمع منهما، فانصرف عن المدينة، وأتّبعهما على دينهما. قال ابن إسحاق: وكان تبّع وقومه أصحابَ أوثان يعبدونها، فتوجّه إلى مكة، وهي طريقه إلى اليمن، حتى إذا كان بين عُسْفَان وأَمَج[٣] أتاه نفر من هُذَيل بن مُدْركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، فقالوا له: أيها الملك، ألا ندلك على بيت مال داثر[٤] أغفلته الملوك قبلك، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة؟ قال: بلى، قالوا: بيت بمكة يعبده أهله، ويصلّون عنده. وإنّما أراد الهذليون هلاكه بذلك لما عرفوا مِن هلاك مَنْ أراده من الملوك وبَغَى عنده. فلما أجْمَع لِمَا قالوا أرسل إلى الحَبْرين، فسألهما عن ذلك، فقالا له: ما أراد القوم إلاّ هلاكَك وهلاكَ جندك، ما نعلم بيتاً لله عز وجل اتخذه في الأرض لنفسه غيره، ولئن فعلت ما دَعَوْك إليه لتهلكنّ وليهلكنّ من معك جميعاً؛ قال: فما تأمراني أن أصنع إذا أنا قدمت عليه؟ قالا: تصنع عنده ما يصنع أهله، تطوف به، وتعظمه وتكرمه، وتحلِقُ رأسك عنده، وتذلل له حتى من عنده، قال: فما يمنعكما أنتما من ذلك؟ قالا: أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم عليه السلام، وإنه لكما أخبرناك، ولكن أهلَه حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله، وبالدماء التي يهريقون عنده، وهم نَجَس أهل شرك أو كما قالا له فعرف نصحَهما وصِدْقَ حديثهما، وقرّب النفرَ من هُذيل، فقطع أيديهم وأرجلهم، ثم مضى حتى قدم مكة، فطاف بالبيت، ونحر عنده، وحلق رأسه، وأقام بمكة ستة أيام فيما يذكرون، ينحر بها للناس، ويطعم أهلها ويسقيهم العسل، وأري في المنام أن يكسوا البيت، فكساه الخصف[٥] ثم أُري في المنام أن يكسوه أحسن من ذلك، فكساه المعافري[٦] ثم أُري أن يكسوه أحسن من ذلك

---

(١) يضيفونه لأنه كان نازلاً بهم.

(٢) في ط: يفوا.

(٣) عسفان: منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة، أما أمج: بلد من اعراض المدينة وقيل واد.

(٤) الدثور: الدروس والاندثار.

(٥) الخصف حصر تنسج من خوص النخل ومن الليف.

(٦) في ط: المعافر.

فكساه المُلاء والوصائل[١]. وكان تبّع فيما يزعمون أولَ من كسا البيت وأوصى به وُلاته من جُرْهم، وأمرهم بتطهيره وأن لا يقرّبوه دماً ولا ميتة ولا مِثلاة[٢] وهي المحايض[٣] وجعل له باباً ومفتاحاً ففي ذلك قالت سُبَيْعة بنت الأحَبّ تذكر ابنها خالد بن عبد مناف بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مُرّة بن كعبُ بن لؤي بن غالب، وتنهاه عن البغي بمكة، وتذكر له ما كان من أمر تبّع فيها. [مجزوء الكامل]

أَبُـنَـيَّ لاَ تَـظْـلِـمْ بِـمَـكّـةَ لاَ الـصَّـغِـيـرَ وَلاَ الـكَـبِـيـرْ
وَاحْـفَـظْ مَـحَـارِمَـهَـا بُـنَـيَّ وَلاَ يَـغُـرَّنْـكَ الـغَـرُورْ
أَبُـنَـيَّ مَـنْ يَـظْـلِـم بِـمَـكَّـةَ يَـلْـقَ أَطْـرَافَ الـشُّـرُورْ
أَبُـنَـيَّ يُـضْـرَبْ وَجْـهُـهُ وَيَـلُـحْ بِـخَـدَّيْـهِ الـسَّـعِـيـرْ
أَبُـنَـيَّ قَـدْ جَـرَّبْـتُـهَـا فَـوَجَـدْتُ ظَـالِـمَـهَـا يَـبُـورْ[٤]
الـلَّـهُ آمَـنَـهَـا وَمَـا بُـنِـيَـتْ بِـعَـرْصَـتِـهَـا[٥] قُـصُـورْ
وَالـلَّـهُ آمَـنَ طَـيْـرَهَـا وَالـعُـصْـمُ[٦] تَـأمَـنَ فِـي ثَـبِـيـرْ
وَلَـقَـدْ غَـزَاهَـا تُـبَّـعٌ فَـكَـسَـا بِـنِـيَّـتَـهَـا الـحَـبِـيـرْ[٧]
وَأَذَلَّ رَبِّـي مُـلْـكَـهُ فِـيـهَـا فَـأَوْفَـى بِـالـنُّـذُورْ
يَـمْـشِـي إِلَـيْـهَـا حَـافِـيـاً بِـفَـنَـائِـهَـا أَلْـفَـا بَـعِـيـرْ
وَيَـظِـلُّ يُـطْـعِـمُ أَهْـلَـهَـا لَـحْـمَ الـمَـهَـارَى[٨] والـجَـزُورْ
يَـسْـقِـيـهِـمُ الـعَـسَـلَ الـمُـصَـفَّـى وَالـرَّحِـيـضَ مِـنَ الـشَّـعِـيـرْ
وَالـفِـيـلَ أَهْـلَـكَ جَـيْـشَـهُ يُـرْمَـونَ فِـيـهَـا بِـالـصُّـخُـورْ
وَالـمُـلْـكَ فِـي أَقْـصَـى الـبِـلاَ دِ وَفِـي الأَعَـاجِـمِ وَالـخُـزُورْ
فَـاسْـمَـعْ إِذَا حُـدِّثْـتَ وَافْـهَـمْ كَـيْـفَ عَـاقِـبَـةُ الأُمُـورْ

قال ابن إسحاق: ثم خرج تبّع متوجهاً إلى اليمن بمن معه من الجنود، وبالحَبْرين حتى إذا دخل اليمن دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه، فأبَوْا عليه، حتى يحاكموه إلى النار

(١) الملاء: ج ملاءة وهي الملحفة، والوصائل ثياب مخططة يمنية.
(٢) المثلاة: خرقة الحيض.
(٣) جمع المحيض.
(٤) يبور: يهلك.
(٥) العرصة: الساحة وفناء الدار.
(٦) العصم: الوعول وثبير: جبل بمكة
(٧) الحبير: نوع من ثياب اليمن موشى
(٨) المهارى: الإبل العراب النجيبة.

التي كانت باليمن. قال ابن إسحاق: حدثني أبو مالك بن ثعلبة بن أبي مالك القُرظيّ قال: سمعت إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله يحدّث: أن تبعاً لما دنا من اليمن ليدخلها حالت حِمْير بينه وبين ذلك، وقالوا: لا تدخلها علينا، وقد خالفت[1] ديننا، فدعاهم إلى دينه وقال: أنه خير من دينكم؛ قالوا: فحاكمنا إلى النار؛ قال: نعم. قال: وكانت باليمن فيما يزعم أهل اليمن، نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه، تأخذ الظالم ولا تضرّ المظلوم، فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به في دينهم، وخرج الحَبْران بمصاحفهما في أعناقهما متقلّدَيْها، حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه، فخرجت النار إليهم، فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها، فزجرهم مَنْ حضرهم، مِنَ الناس، وأمروهم بالصبر لها، فصبروا حتى غَشِيَتْهم فأكلت الأوثان وما قرّبوا معها، ومَنْ حمل ذلك من رجال حِمْير، وخرج الحَبْران بمصاحفهما في أعناقهما تَعْرَق جباههما ولم تضرّهما، فأصفقت[2] عند ذلك حمير على دينها، فمن هناك كان أصل اليهودية باليمن.

وقال ابن إسحاق: وقد حدّثني محدّث أن الحَبْرين، ومن خرج من حِمْير، إنما اتبعوا النار ليردّوها، وقالوا من ردّها فهو أولى بالحق، فدنا منها رجال حِمْير بأوثانهم ليردّوها، فدنت منهم لتأكلهم، فحادوا عنها ولم يستطيعوا ردّها فدنا منها الحَبْران بعد ذلك وجعلا يتلوان التوراة وهي تنكص عنهما، حتى ردّاها إلى مخرجها منه، فأصفقت عند ذلك حِمْير على دينهما، والله أعلم أي كان.

قال ابن إسحاق: وكان رئام[3] بيتاً لهم يعظّمونه، وينحرون عنده، ويكلّمون منه إذ كانوا على شركهم فقال الحبران لتبّع: إنما هو شيطان يفتنهم بذلك، فخلّ بيننا وبينه؛ قال: فشأنكما به، فاستخرجا منه فيما يزعم أهل اليمن كلباً أسود فذبحاه، ثم هدما ذلك البيت، فبقاياه اليوم كما ذكر لي بها آثار الدماء التي كانت تُهراق عليه.

وقد ذكرنا في التفسير الحديث الذي ورد عن النبي ﷺ «لاَ تَسُبُّوا تُبَعاً فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ أَسْلَمَ»[4] قال السُّهَيلي: وروى مُعْمَر عن هَمّام بنُ منَبِّهٍ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لاَ تَسُبُّوا أَسْعَدَ الحِمْيَرِي فَإِنَّهُ أَوَّلَ مَنْ كَسَىٰ الكَعْبَةَ».

قال السُّهَيلي: وقد قال تُبّع حين أخبره الحَبْران عن رسول الله ﷺ شعراً: [المتقارب]

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدٍ إِنَّهُ ... رَسُولٌ مِنَ اللهِ بَارِيء النَّسَم
فَلَوْ مُدَّ عُمْرِي إِلَى عُمْرِهِ ... لَكُنْتُ وَزِيراً لَهُ وَابْنَ عَمْ
وَجَاهَدْتُ بِالسَّيْفِ أَعْدَاءَهُ ... وَفَرَّجْتُ عَنْ صَدْرِهِ كُلَّ هَمْ

(١) في ط: فارقت.
(٢) فاصفقت: اي اجتمعت.
(٣) بيت رئام: اسم لموضع الرحمة التي كانوا يلتمسونها منه. مأخوذ من رأم الأنثى ولدها.
(٤) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٣٤٠.

قال ولم يزل هذا الشعر تتوارثه الأنصار ويحفظونه بينهم، وكان عند أبي أيوبَ الأنصاري رضي الله عنه وأرضاه. قال السُّهيلي: وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب القبور، أن قبراً حفر بصنعاء فوجد فيه امرأتان معهما لوح من فضّة، مكتوب بالذهب، وفيه هذا قبر لميس وحبي ابنتي تبّع ماتتا وهما تشهدان لا إله إلاّ الله، وحده لا شريك له، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما.

ثم صار الملك فيما بعد إلى حسّان بن تِبّان أَسْعَدَ، وهو أخو اليمامة الزرقاء التي صلبت على باب مدينة جو، فسمّيت من يومئذ اليمامة. قال ابن إسحاق: فلما ملك ابنه حسان بن أبي كرب تِبّان أسْعَدْ سار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب وأرض الأعاجم، حتى إذا كانوا ببعض أرض العراق كَرِهَت حِمْيَر وقبائل اليمن السير معه، وأرادوا الرجعة إلى بلادهم وأهليهم. فكلموا أخاً له يقال له عمرو وكان معه في جيشه، فقالوا له أقتل أخاك حسان ونملّكك علينا، وترجع بنا إلى بلادنا، فأجابهم فاجتمعوا على ذلك، إلا ذا رُعين الحِمْيَري، فإنه نهى عمراً عن ذلك، فلم يقبل منه فكتب ذو رعين رقعة فيها هذان البيتان: [الوافر].

أَلاَ مَنْ يَشْتَرِي سَهَراً بِنَوْمٍ ... سَعِيدٌ مَنْ يَبِيتُ قَرِيرَ عَيْنِ
فَإِمَّا حِمْيَرٌ غَدَرَتْ وَخَانَتْ ... فَمَعْذِرَةُ الإِلَهِ لِذِي رُعَيْنِ

ثم استودعها عمراً. فلما قتل عمرو أخاه حسّان، ورجع إلى اليمن، مُنِع منه النوم، وسُلِّط عليه السهر، فسأل الأطباء والحزاة[1] من الكهّان والعرّافين عما به، فقيل له إنه والله ما قَتَلَ رجلٌ أخاه قط، أو ذا رحم بغياً، إلاّ ذهب نومه وسُلِّط عليه السهر، فعند ذلك جعل يقتل كل من أمره بقتل أخيه، فلما خلص إلى ذي رُعَيْن قال له: إن لي عندك براءةً، قال وما هي؟ قال: الكتاب الذي دفعته إليك؛ فأخرجه فإذا فيه البيتان فتركه، ورأى أنه قد نصحه، وهلك عمر فمرج[2] أمر حِمْيَر عند ذلك وتفرّقوا.

وثوب لخنيعة ذي شناتر على ملك اليمن وقد ملكها سبعاً وعشرين سنة

قال ابن إسحاق: فوثب عليهم رجلٌ من حمير لم يكن من بيوت الملك، يقال له لخنيعة ينوف ذو شناتر فقتل خيارهم وعبِثَ ببيوت أهل المملكة منهم، وكان مع ذلك أمرءاً فاسقاً يعمل عملَ قوم لوط، فكان يُرسل إلى الغلام من أبناء الملوك فيقع عليه في مَشْرَبَة[3] له قد صنعها لذلك، لئلا يَمْلِك بعد ذلك[4]. ثم يطلعُ من مشربته تلك إلى حَرَسه ومَنْ حضر من جنده، قد أخذ مِسْواكاً فجعله في فيه، لِيَعْلمهم أنه قد فرغ منه. حتى بعث إلى

(١) الحزاة: هم الذين ينظرون في النجوم ويقضون فيها.

(٢) مرج: اختلط والتبس.

(٣) المشربة: الغرفة المرتفعة

(٤) لأنه المألوف عندهم أن لا يملك من أبناء الملوك من نكح به

زُرْعَة ذي نواس بن تِبَان أَسْعَد أخي حسان، وكان صبيًا صغيراً حين قُتل أخوه حسان، ثم شبّ غلاماً جميلاً وسيماً، ذا هيئة وعقل، فلمّا أتاه رسول عرف ما يريد منه، فأخذ سكيناً جديداً لطيفاً فخبّأه بين قدميه ونعله، ثم أتاه، فلما خلا معه وثب إليه، فواثبه ذو نواس، فوجأه[١] حتى قتله، ثم حزّ رأسه فوضعه في الكوّة التي كان يُشرف منها، ووضع مِسْوَاكَه في فيه، ثم خرج على الناس، فقالوا له: ذا نواس أَرَطْبٌ أَمْ يابس[٢]؟ فقال: سل نخماس.

فنظروا إلى الكوّة فإذا رأس لخنيعة مقطوع، فخرجوا في أثر ذي نواس حتى أدركوه، فقالوا: ما ينبغي أن يملكنا غيرك، إذْ أرحتنا من هذا الخبيث. فملّكوه عليهم، واجتمعت عليه حِمْير وقبائل اليمن، فكان آخرَ ملوك حِمْير، وتسمّى يوسف فأقام في ملكه زماناً، وبنجران بقايا من أهل دين عيسى ابن مريم عليه السلام على الإنجيل، أهل فضل واستقامة من أهل دينهم، لهم رأس يقال له: عبد الله بن التامر. ثم ذكر ابن إسحاق سبب دخول أهل نجران في دين النصارى، وأن ذلك كان على يديّ رجل يقال له: فَيْمِيُون كان من عبّاد النصارى بأطراف الشام، وكان مجاب الدعوة وصحبه رجل يقال له: صالح، فكانا يتعبّدان يوم الأحد، ويعمل فيميون بقية الجمعة في البناء، وكان يدعو للمرضى والزمنى[٣] وأهل العاهات فيشفون، ثم استأسره وصاحبه بعض الأعراب، فباعوهما بنَجْران، فكان الذي اشترى فيميون يراه إذا قام في مصلاّه بالبيت الذي هو فيه في الليل، يمتلىء عليه البيت نوراً، فأعجبه ذلك من أمره، وكان أهل نجران يعبدون نخلة طويلة يعلقون عليها حلى نسائهم، ويعكفون عندها، فقال فيميون لسيده: أرأيت إنْ دعوت الله على هذه الشجرة فهلكت؟ أتعلمون أن الذي أنتم عليه باطل؟ قال: نعم! فجمع له أهل نجران وقام فيميون إلى مصّلاه[٤]، فدعا الله عليها، فأرسل الله عليها قاصفاً فجعفها[٥] من أصلها ورماها إلى الأرض، فاتّبعه أهل نَجْران على دين النصرانية، وحملهم على شريعة الإنجيل حتى حدثت فيهم الأحداث التي دخلت على أهل دينهم بكل أرض، فمن هنالك كانت النصرانية بنَجْران من أرض العرب. ثم ذكر ابن إسحاق قصّة عبد الله بن التامر حين تنصّر على يدي فيميون، وكيف قتله وأصحابه ذو نواس وخدّ لهم الأخدود. وقال ابن هشام: وهو الحفر المستطيل في الأرض مثل الخندق وأججّ فيه النار وحرّقهم بها، وقتل آخرين حتى قتل نحواً[٦] من عشرين ألفاً كما قدّمنا ذلك مبسوطاً في أخبار بني إسرائيل، وكما هو مستقصى في تفسير سورة ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ من كتابنا التفسير ولله الحمد.

---

(١) وجأه: طعن.

(٢) في ط: يباس.

(٣) الزمنى: أصحاب العاهات.

(٤) في ط: الصلاة.

(٥) جعفها: أي قطعها. قطعها وأسقطها.

(٦) في ط: قريباً.

[ذكر][1] خروج الملك باليمن من حمير إلى الحبشة السودان

كما أخبر بذلك شِقّ وسطيح الكاهنان، وذلك أنه لم ينج من أهل نَجْران إلاّ رجل واحد. يقال له: دوس ذو ثُعْلبان على فرس له، فسلك الرملَ فأعجزهم، فمضى على وجهه ذلك، حتى أتى قيصر ملك الروم، فاستنصره على ذي نواس وجنوده، وأخبره بما بلغ منهم، وذلك لأنه نصراني على دينهم. فقال له: بَعُدَتْ بلادُك منّا، ولكن سأكتب لك إلى ملك الحَبَشة فإنه على هذا الدين، وهو أقرب إلى بلادك. فكتب إليه يأمره بنصره والطلب بثأره. فقدم دَوْس على النجاشيّ بكتاب قيصر، فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة، وأمّر عليهم رجلاً منهم يقال له: أرياط، ومعه في جنده أبْرَهة الأشرم، فركب أرياط البحر حتى نزل بساحل اليمن، ومعه دوس، وسار إليه ذو نواس في حِمْيَر ومن أطاعه من قبائل اليمن. فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه، فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجّه فرسه في البحر، ثم ضربه فدخل فيه فخاض به ضحضاح[2] البحر حتى أفضى به إلى غمرة فأدخله فيها، فكان آخر العهد به، ودخل أرياط اليمن وملكها.

وقد ذكر ابن إسحاق ها هنا أشعاراً للعرب فيما وقع من هذه الكائنة الغريبة، وفيها فصاحة وحلاوة وبلاغة وطلاوة، ولكن تركنا إيرادها خشية الإطالة وخوف الملالة وبالله المستعان.

[ذكر][3] خروج أبرهة الأشرم على أرياط واختلافهما [واقتتالهما وصيرورة ملك اليمن إلى أبرهة بعد قتله أرياط][4]

قال ابن إسحاق: فأقام أرياط بأرض اليمن سنين في سلطانه ذلك، ثم نازعه أبرهة حتى تفرقت الحبشة عليهما. فانحاز إلى كل منهما طائفة، ثم سار [كل واحد منهما][5] إلى الآخر. فلما تقارب الناس أرسل أبرهة إلى أرياط أنك لن تصنع بأن تلقى الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئاً شيئاً، فأبرز لي وأبرز لك، فأيّنا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده، فأرسل إليه أرياط انصفت، فخرج إليه أبرهة وكان رجلاً قصيراً لحيماً، وكان ذا دين في النصرانية، وخرج إليه أرياط وكان رجلاً جميلاً عظيماً طويلاً، وفي يده حربة له. وخلف أبرهة غلام يقال له: عَتَوْدة يمنع ظهره[6]. فرفع أرياط الحربة فضرب أبرهة يريد يافوخه. فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وعيْنه وأنفه وشفته، فبذلك سمي: أبرهة الأشرم وحمل عَتَوْدة على أرياط من خلف أبرهة فقتله، وانصرف جند أرياط إلى أبرهة.

(١) سقط في ط.
(٢) الضحضاح من الماء: الذي يظهر منه القعر.
(٣) سقط في ط.
(٤) سقط في ط.
(٥) في ط: أحدهما.
(٦) يمنع ظهره: يحميه من الخلف.

فاجتمعت عليه الحبشة باليمن وَوَدَى[1] أبرهة أرياط. فلما بلغ ذلك النجاشي ملك الحبشة الذي بعثهم إلى اليمن غضب غضباً شديداً على أبرهة، وقال عدا على أميري فقتله بغير أمري ثم حلف لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويجزّ ناصيته، فحلق أبرهة رأسه وملأ جراباً من تراب اليمن، ثم بعث به إلى النجاشي، ثم كتب إليه: أيها الملك إنما كان أرياط عبدك، وأنا عبدك، فاختلفنا في أمرك وكل طاعته لك، إلا أني كنت أقوى على أمر الحبشة، وأضبط لها وأسوس منه. وقد حلقت رأسي كله حين بلغني قَسَم الملك، وبعثت جراب من تراب من أرضي ليضعه تحت قدمه، فيبرّ قسمه فيّ. فلما انتهى ذلك إلى النجاشي رضي عنه، وكتب إليه أن أثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمري فأقام أبرهة باليمن.

ذكر سبب قصد أبرهة بالفيل مكة ليخرب الكعبة [فأهلكه الله عاجلاً غير آجل][2]

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾ [الفيل: ١-٥].

قيل أول من ذلّل الفيلة إفريدون بن أثفيان الذي قتل الضحّاك، قاله الطبري، وهو أول من اتخذ للخيل السرج. وأما أول من سخر الخيل وركبها فطهمورث، وهو الملك الثالث من ملوك الدنيا، ويقال: إن أول من ركبها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. ويحتمل أنه أول من ركبها من العرب والله تعالى أعلم.

ويقال إن الفيل مع عظمة خلقه يفرق[3] من الهر. وقد احتال بعض أمراء الحروب في قتال الهنود باحضار سنانير إلى حومة الوغى فنفرت الفيلة.

قال ابن إسحاق: ثم إن أبرهة بنى القُلَّيْس[4] بصنعاء، كنيسة لم يُرَ مثلها في زمانها بشيء من الأرض، وكتب إلى النجاشي إني قد بنيت لك كنيسة، لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب.

فذكر السُهَيلي أن أبرهة استذل أهل اليمن في بناء هذه الكنيسة الخسيسة وسخّرهم فيها أنواعاً من السخر. وكان من تأخّر عن العمل حتى تطلع الشمس يقطع يده لا محالة. وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رخاماً واحجاراً وأمتعة عظيمة، وركّب فيها صلباناً من ذهب وفضة. وجعل فيها منابر من عاج وابنوس، وجعل ارتفاعها عظيماً جداً، واتساعها باهراً. فلمّا هلك بعد ذلك أبرهة وتفرّقت الحبشة، كان من يتعرّض لأخذ شيء من بنائها وامتعتها

(١) ودى: أي دفع الدية.

(٢) سقط من ط.

(٣) فرق: فزع.

(٤) القلّيس: سميت بذلك لارتفاع بنائها وعلوها، ومنه القلانس، لأنها في أعلى الرؤوس.

أصابته الجن بسوء. وذلك لأنها كانت مبنية على اسم صنمين ـ كعيب وامرأته ـ وكان طول كل منهما ستون ذراعاً. فتركها أهل اليمن على حالها. فلم تزل كذلك إلى زمن السفّاح أول خلفاء بني العبّاس، فبعث إليها جماعة من أهل العزم والحزم والعلم فنقضوها حجراً حجراً، ودرست آثارها إلى يومنا هذا.

قال ابن إسحاق: فلما تحدّثت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشيّ، غضب رجل من النسأة من كنانة الذين كانوا ينسؤون شهر الحرام إلى الحلّ بمكة أيام الموسم، كما قرّرنا ذلك عند قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ [التوبة: ٣٧] الآية. قال ابن إسحاق: فخرج الكِنَاني حتى أتى القلّيس فقعد إليه، أي أحدث حيث لا يراه أحد، ثم خرج فلحق بأرضه، فأخبر أبرهة بذلك. فقال: من صنع هذا. فقيل له: صنعه رجل من أهل هذا البيت الذي تحجّه العرب بمكّة لمّا سمع بقولك أنك تريد أن تصرف حجّ العرب إلى بيتك هذا، فغضب فجاء فقعد فيها، أي أنه ليس لذلك بأهل. فغضب أبرهة عند ذلك وحلف ليسيرنّ إلى البيت حتى يهدمه. ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزّت. ثم سار وخرج معه بالفيل، وسمعت بذلك العربُ فأعظموه وفَظِعُوا به، ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام. فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نَفْر. فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله ويردوه من هدمه وإحرابه فأجابه من أجابه إلى ذلك. ثم عرض له فقاتله. فهزم ذو نَفْر وأصحابه، وأخذ له ذو نفر، فأُتي به أسيراً. فلما أراد قتله قال له ذو نَفْر: يا أيها الملك لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من القتل. فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق، وكان أبرهة رجلاً حليماً. ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له، حتى إذا كان بأرض خَثْعم عرض له نُفَيْل بن حبيب الخَثْعَمِي في قَبيلي خثعم وهما شهران وناهس، ومن تبعه من قبائل العرب، فقاتله فهزمه أبرهة، وأخذ له [نُفَيْل] أسيراً فأتى به، فلما همّ بقتله قال له نفيل: أيها الملك لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم ـ شهران وناهس ـ بالسمع والطاعة. . فخلّى سبيله وخرج به معه يدلّه. حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن مُعَتّب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سَعْد بن عَوْف بن ثَقِيف في رجال ثقيف فقالوا له: أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف. وليس بيتُنا هذا البيت الذي تريد ـ يعنون اللات ـ إنما تريد البيت الذي بمكّة، ونحن نبعث معك من يدلّك عليه، فتجاوز عنهم.

قال ابن إسحاق: واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظّمونه نحو تعظيم الكعبة. قال: فبعثوا معه أبا رِغَال يدلّه على الطريق إلى مكة. فخرج أبرهة ومعه أبو رِغَال حتى أنزله بالمُغَمّس[1]. فلما أنزله به مات أبو رِغَال هنالك، فرجمت قبرَه العربُ، فهو القبر الذي

(١) المغمس: موضع بطريق الطائف.

يَرْجُمُ الناس بالمغمّس، وقد تقدّم في قصة ثمود أن أبا رغال كان رجلاً منهم، وكان يمنع بالحرم، فلما خرج منه أصابه حجر فقتله، وإن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ دُفِنَ مَعَهُ غُصْنَانِ مِنْ ذَهَبٍ» فحفروا فوجدوهما قال: هو أبو ثقيف.

قلت: والجمع بين هذا وبين ما ذكر ابن إسحاق أن أبا رغال هذا المتأخر وافق اسمه اسم جدّه الأعلى، ورجمه الناس كما رجموا قبر الأول أيضاً والله أعلم. وقد قال جرير: [الوافر]

إِذَا مَاتَ الفَرَزْدَقُ فَارْجُمُوهُ ... كَرَجْمِكُمْ لِقَبْرِ أَبِي رِغَالِ

الظاهر أنه الثاني.

قال ابن إسحاق: فلما نزل أبرهة بالمغمّس، بعث رجلاً من الحبشة يقال له: الأسود بن مقصود على خيل له حتى انتهى إلى مكة، فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم. وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلّب بن هاشم ـ وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ـ فهمّت قريش وكنانة وهُذَيل، ومَنْ كان بذلك الحرم من سائر الناس بقتاله. ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك. وبعث أبرهة حُنَاطة الحِمْيَري إلى مكّة، وقال له سل عن سيّد أهل هذا البلد وشريفهم، ثم قال له إن الملك يقول لك إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب، فلا حاجة لي بدمائكم، فإنْ هو لم يُرِدْ حربي فائتني به، فلما دخل حُنَاطَة مكّة، سأل عن سيد قريش وشريفها، فقيل له عبد المطلب بن هاشم فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة؛ فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ـ أو كما قال ـ فإن يَمْنَعْه منه فهو حرمُه وبيتُه، وإن يُخَلِّ بينه وبينه، فوالله ما عندنا دَفْع عنه؛ فقال له حُنَاطة: فانطلق معي إليه، فإنه قد أمرني أن آتيه بك. فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر، فسأل عن ذي نَفْر وكان له صديقاً ـ حتى دخل عليه وهو في محبسه، فقال له: يا ذا نَفْر هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نَفْر وما غناء رجل أسير بيديْ مَلِك ينتظر أن يقتله غُدوّاً أو عشيّاً؟ ما عندي غناء في شيء مما نزل بك إلاّ أن أُنيساً سائس الفيل صديق لي؛ فسأرسل إليه وأوصيه بك، وأعظم عليك حقك، واسأله أن يستأذن لك على الملك، فتكلّمه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك. فقال: حسبي. فبعث ذو نَفْر إلى أُنَيس فقال له: إن عبد المطلب سيّد قريش وصاحب عين مكّة يطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير، فاستأذن له عليه وأنفعه عنده بما استطعت. قال: أفعل. فكلم أُنَيس أبرهة فقال له: أيها الملك هذا سيّد قريش ببابك يستأذن عليك، وهو صاحب عين مكّة وهو الذي يطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال، فائذن له عليك فليكلمك في حاجته، فأذن له أبرهة. قال: وكان عبدُ المطلب أوسَم الناس وأعظمهم وأجملهم، فلمّا رآه أبرهة أجلّه وأكرمه عن أن يُجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه. فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه، وأجلسه معه عليه إلى جانب، ثم قال لترجمانه: قل له

حاجتك؟ فقال له ذلك الترجمان فقال: حاجتي أن يردّ عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي، فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه: قل له لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لأهدمه، لا تكلّمني فيه؟ فقال له عبد المطلب: إني أنا ربّ الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه. فقال: ما كان ليمتنع مني. قال أنت وذاك. فردّ على عبد المطلب إبله.

قال ابن إسحاق: ويقال: إنه كان قد دخل مع عبد المطلب على أبرهة بمعمر بن نُفاثة بن عدّي بن الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة سيد بني بكر، وخويلد بن واثلة سيّد هُذَيْل، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة، على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت، فأبى عليهم ذلك فالله أعلم أكان ذلك أم لا؟

فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكّة والتحرّز[1] في رؤوس الجبال. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعو الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده. وقال عبد المطلب ـ وهو آخذ بحلقة باب الكعبة ـ: [الكامل]

لاَهُمَّ[2] إنَّ العَبْدَ يَمْـ نَعُ رَحْلَهُ فَامْنَعْ رِحَالَكْ
لاَ يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُم وَمِحَالُهُم غَدْواً مِحَالَكْ
إنْ كُنْتَ تَارِكُهُم وقِبْـ لَتَنَا فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكْ

قال ابن هشام: هذا ما صحّ عندي[3] منها. وقال ابن إسحاق: ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شَعَف الجبال يتحرّزون فيها، ينتظرون ما أبرهة فاعل. فلما أصبح أبرهة تهيّأ لدخول مكّة وهيّأ فيله وعبأ جيشه، وكان اسم الفيل محموداً. فلمّا وجهوا الفيل إلى مكّة أقبل نُفَيْل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأذنه فقال ابرُكْ محمود، أو ارجع راشداً من حيث جئت[4]. فإنك في بلد الله الحرام وأرسل أذنه. فبرك الفيل.

قال السُهَيْلي: أي سقط إلى الأرض، وليس من شأن الفيلة أن تبرك، وقد قيل إن منها ما يبرك كالبعير فالله أعلم.

وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد[5] في الجبل، وضربوا الفيلَ ليقوم فأبى، فضربوا رأسه بالطبرزين[6] ليقوم فأبى، فأدخلوا مَحاجن[7] لهم في مَراقه[8] فبزغوه[9] بها

(١) التحرز: التحصن في موضع حصين.
(٢) اي اللهمّ
(٣) في ط: له.
(٤) في ط: أتيت.
(٥) اصعد: أي علا.
(٦) الطبرزين: آله معقوفة من حديد.
(٧) محاجن: ج محجن: عصا معوجة وقد يجعل في طرفها حديد.
(٨) المراق: اسفل البطن.
(٩) بزغ: أي أدمى.

ليقوم فأبى، فوجّهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يُهَرْوِل. ووجّهوه إلى الشام ففعل مثلَ ذلك، ووجّهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك. ووجّهوه إلى مكة فبرك. وأرسل الله عليهم طَيْراً من الحبر أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها، حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمّص والعدس، لا تُصيب منهم أحداً إلاّ هلك، وليس كلّهم أصابت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي منها جاؤوا. ويسألون عن نُفَيْل بن حبيب ليدلّهم على الطريق إلى اليمن، فقال نُفَيْل في ذلك: [الوافر]

أَلاَ حُـيِّـيـتِ عَـنَّـا يَـا رُدَيْـنـا ... نَـعِـمْـنَـاكُـم مـع الإِصْـبَـاحِ عَـيْـنـا

رُدَيْـنَـةُ لَـوْ تـريـن ولا تَـرِيـه ... لَـدَى جَـنْـبِ الـمُـحَـصَّـبِ مَـا رَأَيْـنَـا

إذاً لَـعَـذَرْتِـنِـي وَحَـمِـدْتِ أَمْـرِي ... وَلَـمْ تَـأْسَـيْ عَـلَـى مَـا فَـاتَ بَـيْـنَـا

حَـمِـدْتُ الـلَّـهَ إِذْ أَبْـصَـرْتُ طَـيْـراً ... وَخِـفْـتُ حِـجَـارَةً تُـلْـقَـى عَـلَـيْـنـا

وَكُـلُّ الـقَـوْمِ يَـسْـأَلُ عَـنْ نُـفَـيْـلٍ ... كَـأَنَّ عَـلَـيَّ لِـلْـحُـبْـشَـانِ دَيْـنـا

قال ابن إسحاق: فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مَهْلك على كلّ مَنْهَل. وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم [تسقط أنامله][1] أنملة، كلما سقطت أنملة اتبعتها منه مدة ثمت قيحاً ودماً حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر. فما مات حتى انصدع صدرُه عن قلبه فيما يزعمون.

قال ابن إسحاق: حدثني يعقوب بن عتبة أنه حدّث أن أول ما رئيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام، وأنه أوّل ما رُئيت بها مرائر[2] الشجر الحرمل[3]، والحنظل والعشر[4] ذلك العام.

قال ابن إسحاق: فلما بعث الله محمداً ﷺ كان مما يعدّد الله على قريش من نعمته عليهم وفضله، ما ردّ عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدّتهم، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل: ١ ـ ٥].

ثم شرع ابن إسحاق وابن هشام يتكلّمان على تفسير هذه السورة والتي بعدها وقد بسطنا القول في ذلك في كتابنا التفسير، بما فيه كفاية إن شاء الله تعالى وله الحمد والمنة.

قال ابن هشام: الأبابيل الجماعات ولم يتكلم العرب بواحدة [علمناه]. قال وأما السجّيل فأخبرني يونُس النَحوي وأبو عبيدة: أنه عند العرب الشديد الصلب. قال وزعم

---

(١) في ط: يسقط أنملة أنملة.

(٢) مرائر: ج مرّة. على وزن حرائر ج حرّة.

(٣) الحرمل: نوعان، نوع ورقة كورق الخلاف، ونوره كنور الياسمين. ونوع سفنته طوال مدورة، والحرمل لا يأكله إلاّ المعزى، وقد تطبخ أوراقه ويسقى منه المحموم اذا طالت عنده الحمي.

(٤) العشر: (كصرد): شجر مرّ له صمغ ولبن، وتعالج بلبنه الجلود قبل الدباغة.

بعض المفسّرين أنهما كلمتان بالفارسية، جعلتهما العرب كلمة واحدة، وأنهما[١] سنج وجل سنج الحجر والجل الطين. يقول الحجارة من هذين السنجين الحجر والطين. قال: والعصف ورق الزرع الذي لم يقصب، وقال الكسائي: سمعت بعض النحويين يقول: واحد الأبابيل، أبيل، وقال كثيرون من السلف: الأبابيل الفِرَق من الطير التي يتبع بعضها بعضاً من هنا وههنا. وعن ابن عبّاس: كان لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكفّ كأكف الكلاب، وعن عِكرمة كانت رؤوسها كرؤوس السباع، خرجت عليهم من البحر، وكانت خضراً. وقال عبيد بن عمير: كانت سوداء بحرية في مناقيرها واكفّها الحجارة. وعن ابن عباس كانت أشكالها كعنقاء مغرب. وعن ابن عبّاس كان أصغر حجر منها كرأس الإنسان، ومنها ما هو كالإبل. وهكذا ذكر يونس بن بَكِير عن ابن إسحاق. وقيل كانت صغاراً والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زَرْعَةَ، حدثنا محمد بن عبد الله بن أبي شيبة، حدثنا أبو معاوية عن الأعْمَشَ، عن أبي سفيان، عن عُبيد بن عمير قال: لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر، أمثال الخطاطيف، كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار مجزعة، حجرين في رجليه، وحجراً في منقاره. قال فجاءت حتى صفت على رؤوسهم. ثم صاحت وألقت ما في رجليها ومناقيرها. فما يقع حُجر منها على رأس رجل إلا خرج من دبره ولا يقع على رأس شيء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدّة فأهلكوا جميعاً.

وقد تقدم أن ابن إسحاق قال وليس كلهم أصابته الحجارة، يعني بل رجع منهم راجعون إلى اليمن حتى أخبروا أهلهم بما حلّ بقومهم من النكال، وذكروا أن أبرهة رجع وهو يتساقط أنملة أنملة، فلمّا وصل إلى اليمن انصدع صدره فمات لعنه الله. وروى ابن إسحاق [قال]: حدّثني عبد الله بن أبي بكر عن سمرة عن عائشة قالت: لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكّة أعميين مقعدين يستطعمان. وتقدم أن سائس الفيل كان اسمه أنَيْسان فأما قائده فلم يسمّ والله أعلم.

وذكر النقاش في تفسيره أن السيل احتمل جثثهم [حتى ألقاها][٢] في البحر. قال السُهيلي وكانت قصّة الفيل[٣] في المحرم سنة ست وثمانين وثمانمائة من تاريخ ذي القرنين.

قلت: وفي عامها ولد رسول الله ﷺ على المشهور وقيل كان قبل مولده بسنين كما سنذكر إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

ثم ذكر إسحاق ما قالته العرب من الأشعار في هذه الكائنة العظيمة التي نصر الله فيها بيته الحرام الذي يريد أن يشرّفه ويعظّمه ويطهرّه ويوقرّه ببعثة محمد ﷺ وما يشرع له من الدين القويم الذي أحد أركانه الصلاة، بل عماد دينه، وسيجعل قبلته إلى هذه الكعبة المطهّرة، ولم يكن ما فعله بأصحاب الفيل نصرة لقريش إذ ذاك على النصارى الذين هم

(١) في ط: وأنها.   (٢) في ط: فألقاها.   (٣) في ط: أول.

الحبشة: فإن الحبشة إذ ذاك كانوا أقرب حالاً من مشركي قريش، وإنما كان النصر للبيت الحرام وإرهاصاً[١] وتوطئة لبعثه محمد عليه أفضل الصلاة والسلام. فمن ذلك ما قاله عبد الله بن الزِّبَعْرى السَّهْمي: [الكامل]

تَنَكَّلُوا[٢] عَنْ بَطْنِ مَكَّةَ إِنَّهَا ... كَانَتْ قَدِيماً لاَ يُرَامُ حَرِيمُهَا
لَمْ تُخْلَقِ الشِّعْرَى[٣] لَيَالِيَ حُرِّمَتْ ... إذْ لا عَزِيزَ مِنَ الأَنَامِ يَرُومُهَا
سَائِلْ أَمِيرَ الحَبْشِ عنها مَا رَأَى ... فَلَسَوْفَ يُنْبِي الجَاهِلِينَ عَلِيمُهَا
سِتُّونَ أَلْفاً لَمْ يَؤُوبُوا[٤] أَرْضَهُمْ ... بَلْ لَمْ يَعِشْ بَعْدَ الإِيَابِ سَقِيمُهَا
كَانَتْ بِهَا عَادٌ وَجُرْهُمٌ قَبْلَهُمْ ... وَاللَّهُ مِنْ فَوْقِ العِبَادِ يُقِيمُهَا

ومن ذلك قول أبي قيس بن الأسلَتِ الأنصاري المدني: [المتقارب]

وَمِنْ صُنْعِهِ يَوْمَ فِيلِ الحُبُو ... شِ إذْ كُلَّمَا بَعَثُوهُ رَزَمْ[٥]
مَحَاجِنُهُم تَحْتَ أَقْرَابِهِ ... وَقَدْ شَرَّمُوا أَنْفَهُ فانخرم[٦]
وَقَدْ جَعَلُوا سَوْطَهِ مِغْوَلاً ... إذَا يَمَّمُوهُ قَفَاهُ كُلِمْ[٧]
فَوَلَّى وَأَدْبَرَ أَدْرَاجَهُ ... وَقَدْ بَاءَ بِالظُّلْمِ مَنْ كَانَ ثَمّ
فَأَرْسَلَ مِنْ فَوْقِهِمْ حَاصِباً ... فَلَفَّهُمُ مِثْلَ لَفِّ القُزم[٨]
تَحُضّ عَلَى الصَّبْرِ أَحْبَارُهُم ... وَقَدْ ثَأَجُوا[٩] كَثُؤَاجِ الغَنَمْ

ومن ذلك قول أبي الصَّلْتِ ربيعة بن أبي ربيعة وهب بن عِلاج الثَّقفي، قال ابن هشام: ويروى لأمَيَّة بن أبي الصَّلْتِ: [الخفيف]

إنَّ آيَاتِ رَبِّنَا بَاقِيَاتٌ ... مَا يُمَارَى فِيهِنَّ إلاَّ الكَفُورُ
خُلِقَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ فَكُلٌّ ... مُسْتَبِينٌ حِسَابُهُ مَقْدُورُ
ثُمَّ يَجْلُو النَّهَارَ رَبٌّ رَحِيمٌ ... بِمَهَاةٍ شُعَاعُهَا مَنْشُورُ
حُبِسَ الفِيلُ بِالمُغَمَّسِ حَتَّى ... صَارَ يَحْبُو كَأَنَّهُ مَعْقُور

---

(١) الرهص: الاستعجال.
(٢) وقيل أيضاً: تنكبوا: أي رجعوا خوفاً.
(٣) الشعرى: هما شعريان ـ اسم نجم ـ الغميصاء والأخرى تتبع الجوزاء.
(٤) لم يؤوبوا: لم يرجعوا.
(٥) رزم: ثبت بمكانه فلم يبرحه، واكثر ما يكون ذلك من الإعياء.
(٦) المحاجن: ج محجن، وهي عصا معوجة، والأقراب: ج قرب وهو الخصر، وشرّموا: شقوا.
(٧) المغول: سكين كبيرة تشبه السيف الصغير. ويروى: معول وهو الفأس، وكلم: جرح.
(٨) القزم: الصغير الجثة.
(٩) ثأجوا: صاحوا والخبر ساقه ابن هشام في السيرة (١/ ٥٠، ٥١).

لأَزِمـاً حَـلْـقَـةَ الـجِـرَانِ[1] كَـمَـا قُـــدَّ[2] مِـنْ صَـخْـرِ كَـبْـكَـبٍ[3] مَـحْـدُور
حَـوْلَـهُ مِـنْ مُـلُـوكِ كِـنْـدَةَ أَبْـطَـالٌ مَـلاَوِيـثُ[4] فِـي الـحُـرُوبِ صُـقُـورُ
خَـلَّـفُـوهُ ثُـمَّ ابْـذَعَـرُّوا[5] جَـمِـيـعـاً كُـلُّـهُـمْ عَـظْـمُ سَـاقِـهِ مَـكْـسُـورُ
كُـلُّ دِيـنٍ يَـوْمَ الـقِـيَـامَـةِ عِـنْـدَ الـلّـهِ إلاَّ دِيـنَ الـحَـنِـيـفَـةِ زُبُـورُ

ومن ذلك قول أبي قيس بن الأسْلَتِ أيضاً: [الطويل]

فَـقُـومُـوا فَـصَـلُّـوا رَبَّـكُـمْ وَتَـمَـسَّـحُـوا بِـأَرْكَـانِ هَـذَا الـبَـيْـتِ بَـيْـنَ الأَخَـاشِـبِ[6]
فَـعِـنْـدَكُـمْ مِـنْـهُ بَـلاَءٌ مُـصَـدَّقٌ غَـدَاةَ أَبِـي يَـكْـسُـومَ هَـادِي الـكَـتَـائِـبِ
كَـتِـيـبَـتُـهُ بِـالـسَّـهْـلِ تَـمْـشِـي وَرَجْـلُـهُ عَلَى القَاذِفَاتِ[7] في رؤوس المَنَاقِبِ[8]
فَـلَـمَّـا أَتَـاكُـمْ نَـصْـرُ ذِي الـعَـرْشِ رَدَّهُـمْ جُنُودُ المَلِيكِ بَيْنَ سَافٍ وَحَاصِبٍ[9]
فَـوَلَّـوْا سِـرَاعـاً هَـارِبِـيـنَ وَلَـمْ يَـؤُبْ إِلَـى أَهْـلِـهِ مِـلْـحَـبْـشِ غَـيْـرُ عَـصَـائِـبِ

ومن ذلك قول عبيد الله بن قيس الرُّقَيَّاتِ في عظمة [هذا][10] البيت وحمايته بهلاك من أراده بسوء: [الخفيف]

كَـادَهُ الأَشْـرَمُ الَّـذِي جَـاءَ بِـالـفِـيـلِ فَـوَلَّـى وَجَـيْـشُـهُ مَـهْـزُومُ
وَاسْـتَـهَـلَّـتْ عَـلَـيْـهِـمُ الـطَّـيْـرُ بِـالـجَـنْـدَلِ حَـتَّـى كَـأَنَّـهُ مَـرْجُـومُ
ذَاكَ مَـنْ يَـغْـزُهُ مِـنَ الـنَّـاسِ يَـرْجِـعْ وَهْـوَ فَـلٌّ مِـنَ الـجُـيُـوشِ ذَمِـيـمُ

قال ابن إسحاق وغيره: فلما هلك أبرهة مَلَكَ الحبشة بعده ابنه يكسوم. ثم من بعده أخوه مسروق بن أبرهة، وهو آخر ملوكهم. وهو الذي انتزع سيف بن ذي يزن الحميري الملك من يده بالجيش الذين قدم بهم من عند كسرى أنو شروان كما سيأتي بيانه.

وكانت قصّة الفيل في المحرم سنة ست وثمانين وثمانمائة من تاريخ ذي القرنين، وهو الثاني اسكندر بن فلبس المقدوني الذي يؤرخ له الروم. ولما هلك أبرهة وابناه وزال ملك الحبشة عن اليمن، هجر القليس الذي كان بناه أبرهة، وأراد صرف حجّ العرب إليه لجهله وقلّة عقله. وأصبح يباباً لا أنيس به. وكان قد بناه على صنمين وهما كعيب وامرأته، وكانا من خشب طول كل منهما ستون ذراعاً في السماء، وكانا مصحوبين من الجان، ولهذا كان لا يتعرّض أحد إلى أخذ شيء من بناء القلّيس وأمتعته إلاّ أصابوه بسوء. فلم يزل كذلك إلى

---

(1) الجران: الصدر (2) قدّ: قطع.
(3) كبكب: اسم جبل. (4) ملاويث: اشداء.
(5) ابذعروا: تفرقوا (6) الأخاشب: جبال مكة.
(7) القاذفات: اعالي الجبال البعيدة. (8) المناقب: ج منقبة: وهي الطريق في رأس جبل.
(9) السافي: الذي غطاه التراب، والحاصب: الذي اصابته الحجارة.
(10) سقط في ط.

أيام السفّاح أول خلفاء بني العبّاس، فذكر له أمره وما فيه من الأمتعة والرخام الذي كان أبرهة نقله إليه من صرح بلقيس الذي كان باليمن، فبعث إليه من خرّبه حجراً حجراً، وأخذ جميع ما فيه من الأمتعة والحواصل، هكذا ذكره السهيلي والله أعلم.

[ذكر][١] خروج الملك من[٢] الحبشة ورجوعه إلى سيف بن ذي يزن [الحميري كما أخبر بذلك الكاهنان لربيعة بن نصر اللخمي][٣]

قال محمد بن إسحاق رحمه الله: فلمّا هلك أبرهة مَلَكَ الحبشة يكسوم بن أبرهة، وبه كان يكنّى، فلما هلك يكسوم مَلَكَ اليمن من الحبشة أخوه مسروق بن أبرهة. قال: فلما طال البلاء على أهل اليمن خرج سيف بن ذي يَزَنَ الحميري، وهو سيف بن ذي يَزَن بن ذي أصبح بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن العرنجج، وهو حمير بن سبأ ـ وكان سيف يكنى أبا مُرّة ـ حتى قدم على قيصر ملك الروم فشكى إليه ما هو فيه، وسأله أن يخرجهم عنه، ويليهم هو، ويخرج إليهم من شاء من الروم، فيكون له مُلْك اليمن فلم يُشْكِهِ[٤].

فخرج حتى أتى النعمان بن المنذر، وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق، فشكا إليه أمرَ الحبشة، فقال له النعمان: إن لي على كسرى وِفَادة في كل عام، فأقِمْ عندي حتى يكون ذلك، ففعل ثم خرج معه فأدخَله على كسرى، وكان كسرى يجلس في إيوان مجلسه الذي فيه تاجه، وكان تاجه مثل القنقل[٥] العظيم فيما يزعمون يُضرب فيه الياقوت والزبرجد واللؤلؤ بالذهب والفضة، معلقاً بسلسلة من ذهب في رأس طاقة في مجلسه ذلك، وكانت عنقه لا تحمل تاجه إنما يستر عليه بالثياب حتى يجلس في مجلسه ذلك، ثم يدخل رأسه في تاجه، فإذا استوى في مجلسه كُشِفَ عنه الثياب، فلا يراه أحد لم يره قبلَ ذلك إلاّ برك هيبةً له. فلمّا دخل عليه طأطأ رأسه فقال الملك: إن هذا الأحمق يدخل عليّ من هذا الباب الطويل، ثم يطأطىء رأسه. فقيل ذلك لسيف، فقال: إنما فعلت هذا لهمّي لأنه يضيق عنه كلُّ شيء. ثم قال: أيها الملك غَلَبَتْنا على بلادنا الأغْرِبة. قال كسرى: أي الأغربة الحبشة أم السند؟ قال: بل الحبشة، فجئتك لتنصرني ويكون مُلْك بلادي لك؛ فقال له كسرى: بعدت بلادك مع قلّة خَيْرها، فلم أكن لأورّط جيشاً من فارس

(١) سقط في ط.

(٢) في ط: عن.

(٣) سقط في ط.

(٤) لم يشكه: أي لم يجبه إلى ما أراد.

(٥) القنقل: مكيال يسع ثلاثة وثلاثين منا. والمن يزن رطلين.

بأرض العرب لا حاجة لي بذلك، ثم أجازه بعشرة آلاف درهم وافٍ، وكساه كُسْوةً حسنة. فلما قبض ذلك منه سيف خرج فجعل ينثر تلك الورق للناس؛ فبلغ ذلك الملك فقال إن لهذا لشأناً، ثم بعث إليه فقال: عمدت إلى حِباء الملك تَنْثُره للناس، قال: وما أصنع بحباك؟ ما جبال أرضي التي جئت منها إلاّ ذهب وفضّة، يرغّبه فيها، فجمع كسرى مرازبته[1] فقال لهم: ما ترون في أمر هذا الرجل وما جاء له؟ فقال قائل: أيها الملك إن في سجونك رجالاً قد حبستهم للقَتْل، فلو أنك بعثتهم معه فإن يهلكوا كان ذلك الذي أردت بهم، وإن ظفروا كان مُلْكاً ازددته، فبعث معه كسرى من كان في سجونه، وكانوا ثمانمائة رجل، واستعمل عليهم وَهْرِز، وكان ذا سنّ فيهم وأفضلهم حسباً وبيتاً، فخرجوا في ثمان سفائن، فغَرِقَت سفينتان، ووصل إلى ساحل عدن ست سفائن، فجمع سيف إلى وهرز من استطاع من قومه، وقال له رِجلي ورِجلك حتى نموت جميعاً أو نظفر جميعاً، فقال له وهرز: أنصفت، وخرج إليه مسروق بن أبرهة ملك اليمن، وجمع إليه جنده، فأرسل إليهم وهرز ابناً له ليقاتلهم فيختبر قتالهم، فقتل ابن وهرز، فزاده ذلك حنقاً عليهم، فلما تواقف الناس على مصافهم. قال: وهرز أروني مَلِكَهم، فقالوا له: أترى رجلاً على الفيل عاقداً تاجه على رأسه بين عينيه ياقوتة حمراء. قال: نعم. قالوا ذلك ملكهم، فقال: اتركوه، قال فوقفوا طويلاً، ثم قال: عَلامَ هو؟ قالوا: قد تحوّل على الفَرَس. قال: اتركوه فتركوه طويلاً، ثم قال: عَلامَ هو؟ قالوا على البَغْلة، قال وهرز: بنت الحمار ذلّ وذلّ مُلْكه، إني سأرميه، فإن رأيتم أصحابَه لم يتحرّكوا فأثبتوا حتى أُوذنكم، فإني قد أخطأتُ الرجلَ، وإن رأيتم القوم قد استداروا به ولاؤوا[2]، فقد أصبت الرجل فاحملوا عليهم. ثم وَتَرَ قوسَه، وكانت فيما يزعمون لا يوترها غيره من شدّتها، وأمر بحاجبيه فعُصّبا له، ثم رماه فصَكّ الياقوتة التي بين عينيه، وتغلغلت النشّابة في رأسه حتى خرجت من قفاه، ونُكِس عن دابته، واستدارت الحَبَشة ولاثت به، وحملت عليهم الفُرْس، فانهزموا فقتلوا وهربوا في كل وجه، وأقبل وهرز ليدخل صنعاء حتى إذا أتى بابها قال: لا تدخل رايتي منكّسة أبداً، اهدموا هذا الباب فهُدِم، ثم دخلها ناصباً رايتَه. فقال سيف بن ذي يَزَن الحِمْيَري: [مجزوء الرمل]

يَظُنُّ النّاسُ بِالمَلِكَيـ ـنِ أنَّهُمَا قَدِ التَأَمَا
وَمَنْ يَسْمَعْ بِلأْمِهِمَا فَإِنَّ الخَطْبَ قَدْ فَقُمَا[3]
قَتَلْنَا القَيْلَ[4] مَسْرُوقاً وَرَوَّيْنَا الكَثِيبَ دَمَا
وَإِنَّ القَيْلَ قَيْلَ النّا سِ وَهْرِزُ مُقْسِمٌ قَسَمَا

---

(١) المرازبة: ج مرزبان: وزراء الفرس.

(٢) لاؤوا: اجتمعوا حوله.

(٣) فقما: عظما.

(٤) القيل: الملك.

يَذُوقُ مُشَعْشَعاً حَتَّى نَفِيءُ[1] السَّبْيَ وَالنَّعَمَا

ووفدت العرب من الحجاز وغيرها على سيف يهنّئونه بعود الملك إليه وامتدحوه. فكان من جملة من وفد قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم، فبشّره سيف برسول الله ﷺ، وأخبره بما يعلم من أمره، وسيأتي ذلك مفصّلا في باب البشارات به. عليه الصلاة والسلام.

قال ابن إسحاق: وقال أبو الصَّلْتِ بن أبي ربيعة الثَّقَفِي: قال ابن هشام ويروى لأُمَيَّةَ بن أبي الصَّلْتِ: [البسيط]

لِيَطْلُبِ الوِتْرَ[2] أَمْثَالُ ابْنُ ذِي يَزَنٍ رَيَّمَ[3] فِي البَحْرِ لِلأَعْدَاءِ أَحْوَالاَ
يَمَّمَ قَيْصَراً لَمَّا حَانَ رِحْلَتُهُ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ بَعْضَ الَّذِي سَالاَ
ثُمَّ انْثَنَى نَحْوَ كِسْرَى بَعْدَ عَاشِرَةٍ مِنَ السِّنِينِ يُهِينُ النَّفْسَ وَالمَالاَ
حَتَّى أَتَى بِبَنِي الأَحْرَارِ يَحْمِلُهُمْ إِنَّكَ عَمْرِي لَقَدْ أَسْرَعْتَ قَلْقَالا[4]
لِلَّهِ دَرُّهُمْ مِنْ عُصْبَةٍ خَرَجُوا مَا إِنْ أَرَى لَهُمْ فِي النَّاسِ أَمْثَالاَ
غُلْباً[5] مَرَازِبَةً بِيضاً أَسَاوِرَةً[6] أُسْداً تُرَبِّبُ[7] فِي الغَيْضَاتِ[8] أَشْبَالاَ
يُرْمَوْنَ عَنْ سُدَفٍ[9] كَأَنَّهَا غُبُطٌ[10] بِزَمْخَرٍ يُعْجِلَ المَرْمِي إِعْجَالاَ
أَرْسَلْتَ أُسْداً عَلَى سُودِ الكِلاَبِ فَقَدْ أَضْحَى شَرِيدُهُمُ فِي الأَرْضِ فُلاَّلا
فَاشْرَبْ هَنِيئاً عَلَيْكَ التَّاجُ مُرْتَفِقاً فِي رَأْسِ غُمْدَانَ دَاراً مِنْكَ مِحْلاَلاَ
وَاشْرَبْ هَنِيئاً فَقَدْ شَالَتْ نَعَامَتُهُمْ وَأَسْبِلَ اليَوْمَ فِي بُرْدَيكَ إِسْبَالا
تِلْكَ المَكَارِمُ لاَ قَعْبَانُ مِنْ لَبَنٍ شِيبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالاَ

يقال ـ إن غمدان ـ قصر باليمن بناه يعرب بن قحطان وملكه بعده واحتله واثلة بن حمير بن سبأ ويقال كان ارتفاعه عشرين طبقة فالله أعلم.

قال ابن إسحاق: وقال عَدِيُّ بن زيد الحِمْيَرِي وكان أحد بني تميم: [المنسرح].

مَا بَعْدَ صَنْعَاءَ كَانَ يَعْمُرُهَا وُلاَةُ مُلْكٍ جَزْلٍ مَوَاهِبُهَا

---

(١) المشعشع: الشراب الممزوج بالماء. والنفيء: المغنم.
(٢) الوتر: الثأر.
(٣) ريّم: أقام.
(٤) بني الأحرار: يريد الفرس. القلقال: شدّة الحركة.
(٥) الغلب: الشداد.
(٦) الأساورة: رماة الفرس.
(٧) تربّب: أي تربّي.
(٨) الغيضات جمع غيضة، وهي الشجر الكثير الملتف.
(٩) السدف: اختلاط الضوء والظلمة.
(١٠) الغبط: جمع غبيط وهي عيدان الهودج.

رَفَّعَهَا مِنْ بَنِي لِذِي قَزَعِ الـ ... ـمُزْنِ[١] وَتَنْدَى مِسْكاً مَحَارِبُهَا[٢]
مَحْفُوفَةٌ بِالْجِبَالِ دُونَ عُرَى الـ ... ـكَائِدِ مَا يُرْتَقَى غَوَارِبُهَا[٣]
يَأْنَسُ فِيهَا صَوْتُ النُّهَامِ[٤] إِذَا ... جَاوَبَهَا بِالْعَشِيِّ قَاصِبُهَا[٥]
سَاقَتْ إِلَيْهَا الأَسْبَابُ جُنْدَ بَنِي الـ ... أَحْرَارِ فُرْسَانُهَا مَوَاكِبُهَا
وفُوِّزَتْ بِالبِغَالِ تُوسَقُ بِالحَتْـ ... ـفِ وَتَسْعَى بِهَا تَوَالِبُهَا[٦]
حَتَّى يَرَاهَا الأَقْوَالُ مِنْ طَرَفِ المَنْـ ... ـقَلِ مُخْضَرَّةً كَتَائِبُهَا
يَوْمَ يُنَادُونَ آلَ بَرْبَرَ وَالْيَكْـ ... ـسُومَ لاَ يُفْلِحَنَّ هَارِبُهَا
فَكَانَ يَوْماً بَاقِي الحَدِيثِ وَزَا ... لَتْ أُمَّةٌ ثَابِتٌ مَرَاتِبُهَا
وَبُدِّلَ الفَيْجُ بِالزَّرَافَةِ وَالأَ ... يَّامِ خُونٌ جَمٌّ عَجَائِبُهَا
بَعْدَ بَنِي تُبَّعٍ نَخَاوِرَةٌ[٧] ... قَدِ اطْمَأَنَّتْ بِهَا مَرَازِبُهَا

قال ابن هشام: وهذا الذي عنى سطيحٌ بقوله: «يليه إرم ذي يزن، يخرج عليهم من عدن، فلا يترك منهم أحداً باليمن». والذي عني شقّ بقوله: «غلام ليس بَدَنِيٍّ ولا مدنٍ، يخرج من بيت ذي يزن».

قال ابن إسحاق: وأقام وهرز والفرس باليمن فمن بقية ذلك الجيش من الفرس الأبناء الذين باليمن اليوم. وكان ملك الحبشة باليمن فيما بين أن دخلها أرياط إلى أن قتلت الفرس مسروق بن أبرهة، وأخرجت الحبشة اثنتين وسبعين سنة توارث ذلك منهم أربعة: ارياط ثم أبرهة ثم يكسوم بن أبرهة ثم مسروق بن أبرهة.

[ذكر][٨] ما آل إليه أمر الفرس باليمن

قال ابن هشام: ثم مات وَهْرِز فأمّر كسرى ابنه المرزبان بن وهرز على اليمن، ثم مات المرزبان فأمر كسرى ابنه التَّيْنَجان، ثم مات فأمَّرَ ابن التينجان، ثم عزله عن اليمن وأمرّ عليها باذان، وفي زمنه بُعِث رسول الله ﷺ. قال ابن هشام: فبلغني عن الزّهريّ أنه قال: كتب كسرى إلى باذان إنه بلغني أن رجلاً من قريش خرج بمكّة يزعم أنه نبي، فسر إليه فاستتبه فإن تاب وإلاّ فابعث إليّ برأسه، فبعث باذان بكتاب كسرى إلى رسول الله ﷺ، فكتب إليه رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَنِي أَنْ يُقْتَلَ كِسْرى فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا»، فلمّا أتى باذان الكتاب وقف لينتظر، وقال إنْ كان نبياً فسيكون ما قال، فقتل الله كسرى في اليوم

(١) قزع المزن: قطع من السحاب.
(٢) المحارب: الغرف المرتفعة.
(٣) الغارب: الكاهل أو ما بين السنام والعنق.
(٤) النهام: الذكر في البوم.
(٥) القاصب: الرعد المصوت.
(٦) التوالب: التولب: الجحش.
(٧) النخاورة: الكرام.
(٨) سقط في ط.

الذي قال رسول الله ﷺ.[1] قال ابن هشام: على يدي ابنه شِيرَوَيْه. [قلت]: وقال بعضهم بنوه تمالؤوا على قتله، وكسرى هذا هو ابرويز بن هرمز بن أنوشروان بن قباز، وهو الذي غلب الروم في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم: ١ ـ ٣] كما سيأتي بيانه. قال: السهيلي: وكان قتله ليلة الثلاثاء لعشر خلون من جمادى الأولى سنة تسع من الهجرة. وكان والله أعلم لما كتب إليه رسول الله ﷺ يدعوه إلى الاسلام، فغضب ومزّق كتابه، كتب إلى نائبه باليمن يقول له ما قال. وفي بعض الروايات أن رسول الله ﷺ قال لرسول باذان: «إِنَّ رَبِّي قَدْ قَتَلَ اللَّيلَةَ رَبَّكَ»[2]، فكان كما قال رسول الله ﷺ «قُتِلَ تِلْكَ اللَّيلَةَ بَعَيْنِهَا، قَتَلَهُ بَنُوهُ لِظُلْمِهِ بَعْدَ عَدْلِهِ»، بعد ما خلعوه وولّوا ابنه شيرويه، فلم يعش بعد قتله أباه إلاّ ستة أشهر أو دونها. وفي هذا يقول خالد بن حَقّ الشَّيْبَاني: [الوافر]

وَكِسْرَى إِذْ تَقَسَّمَهُ بَنُوهُ ... بِأَسْيَافٍ كَمَا اقْتُسِمَ اللِّحَامُ
تَمَخَّضَتِ المَنُونُ لَهُ بِيَوْمٍ ... أَلاَ وَلِكُلِّ حَامِلَةٍ تَمَامُ

قال الزُّهري: فلما بلغ ذلك باذانَ بعث بإسلامه وإسلام من معه من الفرس إلى رسول الله ﷺ، فقالت الرسل: إلى من نحن يا رسول الله. قال: «أَنْتُمْ مِنَّا وَإِلَيْنَا أَهْلَ البَيْتِ». قال: الزُّهري ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلِ البَيْتِ».

قلت: والظاهر أن هذا كان بعد ما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ولهذا بعث الامراء إلى اليمن لتعليم الناس الخير ودعوتهم إلى الله عزّ وجلّ، فبعث أولاً خالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب، ثم أتبعهما أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل. ودانت اليمن وأهلها للإسلام ومات باذان فقام بعده ولده شهر بن باذان، وهو الذي قتله الأَسْوَد العَنْسِي حين تنبأ، وأخذ زوجته كما سيأتي بيانه وأجلى عن اليمن نوّاب رسول الله ﷺ. فلما قتل الأسود عادت اليد الإسلامية عليها. وقال ابن هشام: وهذا هو الذي عني به سطيح بقول. «نبيّ زكي يأتيه الوحي من قبل العلي». والذي عني شِقّ بقوله: «بل ينقطع برسول مرسل، يأتي بالحق والعدل، بين أهل الدين والفضل، يكون الملك في قومه إلى يوم الفَصْل».

قال ابن إسحاق: وكان في حَجَر باليمن فيما يزعمون كتاب بالزّبور كُتب بالزمان الأول: عن[3] مُلْك ذمار؟ لِحِمِيرَ الأخيار؟ لمن مُلْك ذمار؟ للحبشة الأشرار. لِمَن مُلْك ذمار؟ لفارس الأحرار، لِمَن مُلْك ذمار؟ لقريش التجّار. وقد نظّم بعض الشعراء هذا المعنى فيما ذكره المسعودي: [الخفيف]

حِينَ شِيدَتْ ذِمَارُ قِيلَ لِمَنْ أَنْـ ... ـتِ فَقَالَتْ لِحِمْيَرِ الأَخْيَارِ
ثُمَّ سِيلَتْ مِنْ بَعْدِ ذَاكَ فَقَالَـ ... ـتْ أَنَا لِلْحُبْشِ أَخْبَثِ الأَشْرَارِ

(١) أخرجه البخاري في المغازي باب ٨٢.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٤٣.

(٣) في ط لمن.

ثُمَّ قَالُوا مِنْ بَعْدِ ذَاكَ لِمَنْ أَنْـ ـتِ فَقَالَتْ لِفَارِسِ الأَحْرَارِ
ثُمَّ قَالُوا مِنْ بَعْدِ ذَاكَ لِمَنْ أَنْـ ـتِ فَقَالَتْ إِلَى قُرَيْشٍ التِّجَارِ

ويقال: إن هذا الكلام الذي ذكره محمد بن إسحاق، وجد مكتوباً عند قبر هود عليه السلام حين كشفت الريح عن قبره بأرض اليمن، وذلك قبل زمن بلقيس بيسير في أيام مالك بن ذي المنار، أخي عمرو ذي الأذعار بن ذي المنار. ويقال كان مكتوباً على قبر هود أيضاً. وهو من كلامه عليه السلام، حكاه السهيلي والله أعلم.

قصة الساطرون صاحب الحضر

وقد ذكر قصّته ها هنا عبد الملك بن هشام لأجل ما قاله بعض علماء النسب: أن النعمان بن المنذر الذي تقدم ذكره في ورود سيف بن ذي يَزَن عليه وسؤاله في مساعدته في ردّ ملك اليمن إليه إنه من سلالة الساطرون صاحب الحَضْر، وقد قدّمنا عن ابن إسحاق أن النعمان بن المنذر من ذرية ربيعة بن نصر: وأنه روى عن جبير بن مطعم انه من أشلاء قيصر بن معد بن عدنان، فهذه ثلاثة أقوال في نسبه، فاستطرد ابن هشام في ذكر صاحب الحضر. والحَضْر حصن عظيم بناه هذا الملك، وهو الساطرون على حافة الفرات، وهو منيف مرتفع البناء، واسع الرحبة والفناء، دوره بقدر مدينة عظيمة، وهو في غاية الاحكام والبهاء والحسن والسناء، واليه يجبى ما حوله من الأقطار والأرجاء. واسم الساطرون الضيزن بن معاوية بن عبيد بن أجرم. من بني سليح بن حلوان بن الحاف بن قضاعة، كذا نسبه ابن الكلبّي. وقال: غيره كان من الجرامقة وكان أحد ملوك الطوائف وكان يقدمهم إذا اجتمعوا لحرب عدو من غيرهم وكان حصنه بين دجلة والفرات.

قال ابن هشام: وكان كسرى سابور ذو الأكتاف غزا الساطرون ملك الحَضْر. وقال غير ابن هشام: إنما الذي غزا صاحب الحَضْر سابور بن أردشير بن بابك أول ملوك بني ساسان أذلّ ملوك الطوائف، وردّ الملك إلى الأكاسرة. وأما سابور ذو الأكتاف بن هرمز فبعد ذلك بدهر طويل والله أعلم. ذكره السُّهَيْلي.

قال ابن هشام: فحصره سنتين، وقال غيره أربع سنين، وذلك لأنه كان أغار على بلاد سابور في غيبته بأرض العراق، فأشرفت بنتَ الساطرون وكان اسمها النضيرة، فنظرت إلى سابور وعليه ثياب ديباج، وعلى رأسه تاج من ذهب مكلّل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ. وكان جميلاً، فدسّت إليه: أتتزوجني إن فتحت لك باب الحَضْر؟ فقال: نعم! فلما أمسى ساطرون شرب حتى سكر، وكان لا يبيت إلاّ سكران، فأخذت مفاتيح باب الحَضْر من تحت رأسه، وبعثت بها مع مولىً لها، ففتح الباب. ويقال بل دلّتهم على نهر يدخل منه الماء متسع فولجوا منه إلى الحضر، ويقال بل دلّتهم على طلسم كان في الحضر، وكان في علمهم أنه لا يفتح حتى تؤخذ حمامة ورقاء، وتخضب رجلاها بحيض جارية بكر زرقاء، ثم ترسل فإذا وقعت على سور الحضر سقط ذلك الطلسم، فيفتح الباب. ففعل ذلك فانفتح الباب، فدخل

سابور فقتل ساطرون واستباح الحَضْر وخرّبه، وسار بها معه فتزوجها. فبينا هي نائمة على فراشها ليلاً إذ جعلت تململ لا تنام، فدعا لها بالشمع ففتش فراشها فوجد عليه ورقة آس[1]. فقال لها سابور: أهذا الذي أسهرك؟ قالت: نعم! قال: فما كان أبوك يصنع بك؟ قالت: كان يفرش لي الديباج، ويلبسني الحرير، ويطعمني المخّ، ويسقيني الخمر. قال: أفكان جزاء أبيك ما صنعتِ به؟ أنت اليّ بذلك أسرع؛ فربطت قرون[2] رأسها بذنب فرس، ثم ركض الفرس حتى قتلها. ففيه يقول أعشى بن قيس بن ثَعْلَبَة: [المتقارب]

أَلَمْ تَرَ لِلْحَضْرِ إِذْ أَهْلُهُ ... بِنُعْمَى وَهَلْ خَالِدٌ مَنْ نَعِمْ
أَقَامَ بِهِ شَاهَبُورَ الجُنُو ... دَ حَوْلَيْنِ تَضْرِبُ فِيهِ القُدُمْ
فَلَمَّا دَعَا رَبَّهُ دَعْوَةً ... أَنَابَ إِلَيْهِ فَلَمْ يَنْتَقِمْ
فَهَلْ زَادَهُ رَبُّهُ قُوَّةً ... وَمِثْلُ مُجَاوِرِهِ لَمْ يُقِمْ
وَكَانَ دَعَا قَوْمَهُ دَعْوَةً ... هَلُمُّوا إِلَى أَمْرِكُمْ قَدْ صُرِمْ
فَمُوتُوا كِرَاماً بِأَسْيَافِكُمْ ... أَرَى المَوْتَ يُجَشِّمُهُ مَنْ جُشِمْ

وقال عَدِيُّ بن زيد في ذلك: [المنسرح]

وَالحَضْرُ صَابَتْ عَلَيْهِ دَاهِيَةٌ ... مِنْ فَوْقِهِ أَيِّدٌ مَنَاكِبُهَا[3]
رِبِّيَّةٌ لَمْ تُوَقِّ وَالِدَهَا ... لِحَيْنِهَا إِذْ أَضَاعَ رَاقِبُهَا
إِذْ غَبَقَتْهُ صَهْبَاءَ صَافِيَةً ... وَالخَمْرَ وَهَلْ يَهِيمُ شَارِبُهَا[4]
فَأَسْلَمَتْ أَهْلَهَا بِلَيْلَتِهَا ... تَظُنُّ أَنَّ الرَّئِيسَ خَاطِبُهَا
فَكَانَ حَظُّ العَرُوسِ إِذْ جَشَرَ[5] الـ ... صُّبْحُ دَمَاءٌ تَجْرِي سَبَائِبُهَا
وَخُرِّبَ الحَضْرُ وَاسْتُبِيحَ وَقَدْ ... أُحْرِقَ فِي خِدْرِهَا مَشَاجِبُهَا

وقال عَدِيُّ بن زَيْدٍ أيضاً: [الخفيف].

أَيُّهَا الشَّامِتُ المُعَيِّرُ بِالدَّهْـ ... ـرِ أَأَنْتَ المُبَرَّءُ المَوْفُورُ
أَمْ لَدَيْكَ العَهْدُ الوَثِيقُ مِنَ الأَ ... يَّامِ بَلْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَغْرُورُ
مَنْ رَأَيْتَ المَنُونَ خَلَّدْنَ أَمْ ... مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ
أَيْنَ كِسْرَى كِسْرَى المُلُوكِ أَنُو ... شِرْوَانَ أَمْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ

---

(١) الآس: الريحان.
(٢) أي ذوائب شعرها.
(٣) صابت: سقطت ونزلت. وأيد: شديدة.
(٤) غبقته: سقته بالعشي. وهَلَ: يقال وهل الرجل إذا أراد شيئاً فذهب وهمه إلى غيره.
(٥) جشر: أضاء وتبين.

وَبَنُو الأصْفَرِ الكِرَامِ مُلُوكُ الـ ـرُّومِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمُ مَذْكُورُ
وَأَخُو الحَضْرِ إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دِجْلَـ ـةُ تُجْبَى إِلَيْهِ وَالخَابُورُ
شَادَهُ مَرْمَراً وَجَلَّلَهُ كِلْـ ـساً فَلِلطَّيْرِ فِي ذُرَاهُ وُكُورُ
لَمْ يَهَبْهُ رَيْبُ المَنُونِ فَبَادَ الـ ـمُلْكُ عَنْهُ فَبَابُهُ مَهْجُورُ
وَتَذَكَّرْ رَبَّ الخَوَرْنَقِ[1] إِذْ أَشْـ ـرَفَ يَوْماً وَلِلْهُدَى تَفْكِيرُ
سَرَّهُ مَالُهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمْـ ـلِكُ وَالبَحْرُ مُعْرِضاً وَالسَّدِيرُ[2]
فَارْعَوَى[3] قَلْبُهُ وَقَالَ وَمَا غِبْـ ـطَةُ حَيٍّ إِلَى المَمَاتِ يَصِيرُ
ثُمَّ أَضْحَوْا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ جَـ ـفَّ فَأَلْوَتْ بِهِ الصَّبَا وَالدَّبُورُ

قلت: وربّ الخورنق الذي ذكره في شعره رجل من الملوك المتقدمين، وعظه بعض علماء زمانه في أمره الذي كان قد أسرف فيه وعتا وتمرّد فيه، واتبع نفسه هواها، ولم يراقب فيها مولاها، فوعظه بمن سلف قبله من الملوك والدول، وكيف بادوا ولم يبقَ منهم أحد، وأنه ما صار إليه عن غيره إلاّ وهو منتقل عنه إلى من بعده، فأخذته موعظته، وبلغت منه كل مبلغ فارعوى لنفسه، وفكّر في يومه وأمسه، وخاف من ضيق رمسه. فتاب وأناب ونزع عما كان فيه وترك الملك ولبس ذي الفقراء وساح في الفلوات وحظي بالخلوات، وخرج عمّا كان الناس فيه من اتباع الشهوات، وعصيان رب السموات. وقد ذكر قصّته مبسوطة الشيخ الامام مُوَفَّق بن قُدامة المَقْدسي رحمه الله في كتاب التوّابين، وكذلك أوردها بإسناد متين الحافظ أبو القاسم السهيلي في كتاب الروض الأنف المرتّب أحسن ترتيب وأوضح تبيين.

خبر ملوك الطوائف

وأما صاحب الحَضْر وهو ساطرون، فقد تقدّم أنه كان مقدّما على سائر ملوك الطوائف، وكان من زمن اسكندر بن فليبس المقدوني اليوناني، وذلك لانه لمّا غلب على ملك الفرس دارا بن دارا، وأذلّ مملكته وخرّب بلاده، واستباح بيضة قومه ونهب حواصله ومزّق شمل الفرس شَذَر مَذَر، عزم أن لا يجتمع لهم بعد ذلك شمل، ولا يلتئم لهم أمر، فجعل يقرّ كل ملك على طائفة من الناس في أقليم من أقاليم الأرض ما بين عربها وأعاجمها، فاستمرّ كل ملك منهم يحمي حوزته، ويحفظ صفقته[4]، ويستغل محلته، فإذا هلك قام ولده من بعده أو أحد قومه، فاستمرّ الأمر كذلك قريباً من خمسمائة سنة، حتى كان أردشير بن بابك من بني ساسان بن بهمن بن أسفنديار بن يشتاسب بن لهراسب، فأعاد

(١) الخورنق: قصر للنعمان الأول. من ملوك المناذرة.
(٢) السدير: قصر آخر للنعمان.
(٣) ارعوى: اهتدى بعد ضلال.
(٤) في ط: حصته.

ملكهم إلى ما كان عليه ورجعت الممالك برمّتها إليه، وأزال ملوك ممالك الطوائف، ولم يبق منهم تالد[١] ولا طارف[٢]، وكان تأخر عليه حصار صاحب الحَضْر الذي كان أكبرهم وأشدّهم وأعظمهم، إذ كان رئيسهم ومقدّمهم. فلما مات أردشير تصدّى له ولده سابور، فحاصره حتى أخذه كما تقدّم والله سبحانه وتعالى أعلم.

[باب][٣] ذكر بني إسماعيل وهم عرب الحجاز وما كان من أمور الجاهلية إلى زمان البعثة

تقدّم ذكر إسماعيل نفسه عليه السلام، مع ذكر الأنبياء، وكيف كان من أمره حين احتمله أبوه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مع أمه هاجر، فأسكنها بوادي مكة بين جبال فاران[٤] حيث لا أنيس به ولا حسيس، وكان إسماعيل رضيعاً، ثم ذهب وتركهما هنالك عن أمر الله له بذلك، ليس عند أمّه سوى جراب فيه تمر، ووكاء فيه ماء. فلمّا نفذ ذلك أنبع الله لهاجر زمزم التي هي طعام طعم، وشفاء سقم كما تقدم بيانه في حديث ابن عباس الطويل الذي رواه البخاري[٥] رحمه الله. ثم نزلت جرهم وهم طائفة من العرب العاربة من أمم العرب الأقدمين عند هاجر بمكة، على أن ليس لهم في الماء شيء، إلاّ ما يشربون منه وينتفعون به، فاستأنست هاجر بهم، وجعل الخليل عليه السلام يطالع أمرهم في كل حين يقال: إنه كان يركب البراق من بلاد بيت المقدس في ذهابه وإيابه. ثم لما ترعرع الغلام وشبّ، وبلغ مع أبيه السعي، كانت قصّة الذبح كما تقدم بيان أن الذبيح هو إسماعيل على الصحيح، ثم لما كبر تزوج من جرهم امرأة ثم فارقها، وتزوج غيرها، وتزوج بالسيّدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي، وجاءته بالبنين الاثني عشر كما تقدم ذكرهم، وهم: نابت، وقيذر، وادبل، وميشا، ومسمع، وماش، وتوما وآزر ويطور ونبشره وطيما وقيذما هكذا ذكره محمد بن إسحاق وغيره عن كتب أهل الكتاب، وله ابنة واحدة اسمها نسمة، وهي التي زوّجها من ابن أخيه العيصو بن إسحاق بن إبراهيم فولد له منها الروم وفارس والأشبان أيضاً في أحد القولين.

ثمّ جميع عرب الحجاز على اختلاف قبائلهم يرجعون في أنسابهم إلى ولديه نابت وقيذر، وكان الرئيس بعده والقائم بالأمور الحاكم في مكّة، والناظر في أمر البيت وزمزم نابت بن إسماعيل وهو ابن أخت الجرهميين، ثم تغلّبت جرهم على البيت طمعاً في بني

---

(١) التالد: ما ولد عندك من مالك أو نتج.

(٢) الطارف: الحديث من المال.

(٣) سقط في ط.

(٤) فاران: كلمة عبرانية معرّبة، وهي من أسماء مكة ذكرها في التوراة، وقيل: هي اسم لجبال مكة (معجم البلدان ٤/ ٢٢٤).

(٥) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب ٩.

أختهم، فحكموا بمكّة وما والاها عوضاً عن بني إسماعيل مدّة طويلة، فكان أول من صار إليه أمر البيت بعد نابت، مضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هبير بن نبت بن جرهم، وجرهم بن قحطان، ويقال: جرهم بن يقطن بن هبير بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح الجرهمي. وكان نازلاً بأعلى مكّة بقعيقعان وكان السمّيدع سيّد قطوراء نازلاً بقومه في أسفل مكة، وكل منهما يعشر من مرّ به مجتازاً إلى مكة. ثم وقع بين جرهم وقطوراء، فاقتتلوا فقتل السميدع، واستوثق الأمر لمضاض وهو الحاكم بمكّة، والبيت لا ينازعه في ذلك ولد إسماعيل مع كثرتهم وشرفهم وانتشارهم بمكة وبغيرها، وذلك لخؤولتهم له، ولعظمة البيت الحرام. ثم صار الملك بعده إلى ابنه الحارث، ثم إلى عمرو بن الحارث، ثم بغت جرهم بمكّة، وأكثرت فيها الفساد وألحدوا بالمسجد الحرام حتى ذكر أن رجلاً منهم يقال له: أساف بن بَغي، وامرأة يقال لها: نائلة بنت وائل اجتمعا في الكعبة، فكان منه إليها الفاحشة فمسخهما الله حجرين، فنصبهما الناس قريباً من البيت ليعتبروا بهما، فلما طال المطال بعد ذلك بمدد عُبِدَا من دون الله في زمن خزاعة. كما سيأتي بيانه في موضعه. فكانا صنمين منصوبين يقال لهما: إساف ونائلة. فلما كثرت جرهم البغي بالبلد الحرام تمالأت عليهم خزاعة الذين كانوا نزلوا حول الحرم وكانوا من ذرية عمرو أبو عامر الذي خرج من اليمن لأجل ما توقّع من سيل العرم كما تقدم وقيل إن خُزَاعة من بني إسماعيل فالله أعلم.

والمقصود أنهم اجتمعوا لحربهم وآذنوهم بالحرب، واقتتلوا واعتزل بنو إسماعيل كلا الفريقين، فغلبت خزاعة وهم بنو بكر بن عبد مناة وغبشان، وأجلوهم عن البيت، فعمد عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي وهو سيّدهم إلى غزالي الكعبة وهما من ذهب وحجر الركن، وهو الحجر الأسود وإلى سيوف محلاة وأشياء أخر، فدفنها في زمزم وعلّم زمزم، وارتحل بقومه فرجعوا إلى اليمن. وفي ذلك يقول عمرو بن الحارث بن مُضاض: [الطويل]

وَقَائِلَةٍ وَالدَّمْعُ سَكْبٌ مُبَادِرٌ ... وَقَدْ شَرِقَتْ بِالدَّمْعِ مِنْهَا المَحَاجِرُ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ الحجُونِ[1] إِلَى الصَّفَا ... أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ
فَقُلْتُ لَهَا وَالقَلْبُ مِنِّي كَأَنَّمَا ... يُلَجْلِجُهُ[2] بَيْنَ الجَنَاحَيْنِ طَائِرُ
بَلَى نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَزَالَنَا ... صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالجُدُودُ العَوَاثِرُ[3]
وَكُنَّا وَلاَةَ البَيْتِ مِنْ بَعْدِ نَابِتٍ ... نَطُوفُ بِذَاكَ البَيْتِ وَالخَيْرُ ظَاهِرُ
وَنَحْنُ وَلِّيْنَا البَيْتَ مِنْ بَعْدِ نَابِتٍ ... بِعَزٍ فَمَا يَحْظَى لَدَيْنَا المُكَاثِرُ

(١) الحجون: الجبل المشرف بأعلى مكة، والصفا: مكان عال من جبل أبي قبيس جنوبي المسجد الحرام.
(٢) يتلجلج: يضطرب في حركةٍ.
(٣) الجدود العواثر: الحظوظ السيئة.

مَـلَـكْـنَـا فَـعَـزَّزْنَـا فَـأَعْـظَـمَ بِـمُـلْـكِـنَـا ... فَـلَـيْـسَ لِـحَـيٍّ غَـيْـرِنَـا ثَـمَّ فَـاخِـرُ
أَلَمْ تُنْكِحُوا مِنْ خَيْرِ شَخْصٍ عَلِمْتُهُ ... فَـأَبْـنَـاؤُهُ مِـنَّـا وَنَـحْـنُ الأَصَـاهِـرُ
فَـإِنْ تَـنْـثَـنِي الـدُّنْـيَـا عَـلَـيْـنَـا بِـحَـالِـهَـا ... فَـإِنَّ لَـهَـا حَـالاً وَفِـيـهَـا الـتَّـشَـاجُـرُ
فَـأَخْـرَجَـنَـا مِـنْـهَـا الـمَـلِـيـكُ بِـقُـدْرَةٍ ... كَـذَلِـكَ يَـا لِـلـنَّـاسِ تَـجْـرِي الـمَـقَـادِرُ
أَقُـولُ إِذَا نَـامَ الـخَـلِـيُّ وَلَـمْ أَنَـمْ ... أَذَا الـعَـرْشِ لاَ يَـبْـعُـدْ سُـهَـيْـلٌ وَعَـامِـرُ[١]
وَبُـدِّلْـتُ مِـنْـهَـا أَوْجُـهـاً لاَ أُحِـبُّـهَـا ... قَـبَـائِـلَ مِـنْـهَـا حِـمْـيَـرٌ وَيَـحَـابِـرُ
وَصِـرْنَـا أَحَـادِيـثـاً وَكُـنَّـا بِـغِـبْـطَـةٍ ... بِـذَلِـكَ عَـضَّـتْـنَـا الـسُّـنُـونُ الـغَـوَابِـرُ
فَـسَـحَّـتْ دُمُـوعُ الـعَـيْـنِ تَـبْـكِـي لِـبَـلْـدَةٍ ... بِـهَـا حَـرَمٌ أَمْـنٌ وَفِـيـهَـا الـمَـشَـاعِـرُ
وتَـبْـكِـي لـبَـيْـتٍ لَـيْـسَ يُـؤْذَى حَـمَـامُـهُ ... يَـظَـلُّ بِـهِ أَمْـنـاً وَفِـيـهِ الـعَـصَـافِـرُ
وَفِـيـهِ وُحُـوشٌ لا تُـرَامُ أَنِـيـسَـةً ... إِذَا خَـرَجَـتْ مِـنْـهُ فَـلَـيْـسَـتْ تُـغَـادِرُ

قال ابن إسحاق: وقال عمرو بن الحارث بن مضاض أيضاً يذكر بني بكر، وغبشان الذين خلّفوا بعدهم بمكّة: [البسيط]

يَـا أَيُّـهَـا الـنَّـاسُ سِـيـرُوا إِنَّ قـصـاركـم ... أَنْ تُـصْـبِـحُـوا ذَاتَ يَـوْمٍ لاَ تَـسِـيـرُونَـا
حُـثُّـوا الـمَـطِـيَّ وَأَرْخُـوا مِـنْ أَزِمَّـتِـهَـا ... قَـبْـلَ الـمَـمَـاتِ وَقَـضُّـوا مـا تُـقَـضُّـونَـا
كُـنَّـا أُنَـاسـاً كَـمَـا كُـنْـتُـمْ فَـغَـيَّـرَنَـا ... دَهْـرٌ فـأنـتـم كـمـا صـرنـا تـصـيـرونـا

قال ابن هشام: هذا ما صح له منها. وحدّثني بعض أهل العلم بالشعر أن هذه الأبيات أول شعر قيل في العرب، وأنها وجدت مكتوبة في حجر باليمن، ولم يسم قائلها. وذكر السُّهيلي لهذه الأبيات إخوة وحكى عندها حكاية معجبة وإنشادات معربة. قال: وزاد أبو الوليد الأَزْرَقي في كتابه فضائل مكة على هذه الأبيات المذكورة المنسوبة إلى عَمْرو بن الحَارِثِ بن مُضَاضٍ: [البسيط]

قَـدْ مـال دَهْـرٌ عَـلَـيْـنَـا ثُـمَّ أَهْـلَـكَـنَـا ... بَـالـبَـغْـيِ فِـيـنَـا وَبَـزَّ الـنَّـاسَ نَـاسُـونَـا
وَاسْتَخْبِرُوا فِي صَنِيعِ النَّاسِ قَبْلَكُمُ ... كَـمَـا اسْـتَـبَـانَ طَـرِيـقٌ عِـنْـدَهُ الـهُـونَـا
كُـنَّـا زَمَـانـاً مُـلُـوكَ الـنَّـاسِ قَـبْـلَـكُـمُ ... بِـمَـسْـكَـنٍ فِـي حَـرَامِ الـلَّـهِ مَـسْـكُـونَـا

قصة خزاعة وخبر عمرو بن لحي وعبادة الأصنام بأرض العرب

قال ابن إسحاق: ثم أن غبشان من خزاعة وليت البيت دون بني بكر بن عبد مناة، وكان الذي يليه منهم عمرو بن الحارث الغَبْشَاني، وقريش إذ ذاك حلول وصرم[٢] وبيوتات

(١) سهيل وعامر: جبل من جبال مكة.

(٢) صرم: جماعات متفرقة.

متفرّقون في قومهم من بني كنانة. قالوا: وإنما سمّيت خُزَاعة خُزَاعة لأنهم تخزّعوا[١] من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام، فنزلوا بمرّ الظهران فأقاموا به. قال عون بن أيوب الأنصاري ثم الخَزْرَجي في ذلك: [الطويل]

فَلَمَّا هَبَطْنَا بَطْنَ مَرٍّ تَخَزَّعَتْ   خُزَاعَةُ مِنَّا فِي حُلُولٍ كَرَاكِرِ[٢]
حَمَتْ كُلَّ وَادٍ مِنْ تِهَامَةَ وَاحْتَمَتْ   بِصُمِّ الْقَنَا وَالْمُرْهَفَاتِ الْبَوَاتِرِ

وقال أبو المطّهر إسماعيل بن رافع الأنصاريّ الأوْسيّ: [الطويل]

فَلَمَّا هَبَطْنَا بَطْنَ مَكَّةَ أَحْمَدَتْ   خُزَاعَةُ دَارَ الآكِلِ الْمُتَحَامِلِ
فَحَلَّتْ أَكَارِيساً[٣] وشَتَّتْ[٤] قَنَابِلاً[٥]   عَلَى كُلِّ حَيٍّ بَيْنَ نَجْدٍ وَسَاحِلِ
نَفَوْا جُرْهُماً عَنْ بَطْنِ مَكَّةَ واحتَبَوْا   بِعِزِّ خُزاعيٍّ شَدِيدِ الْكَوَاهِلِ

فوليت خزاعة البيت يتوارثون ذلك كابراً عن كابر حتى كان آخرهم حُلَيل بن حَبَشِيَّة بن سَلُول بن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعي، الذي تزوّج قُصَي بن كلاب ابنته حُبَّى، فولدت له بنيه الأربعة عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبدا، ثم صار أمر البيت إليه كما سيأتي بيانه وتفصيله في موضعه إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

واستمرّت خُزَاعة على ولاية البيت نحواً من ثلاثمائة سنة، وقيل خمسمائة سنة والله أعلم وكانوا سوس[٦] في ولايتهم، وذلك لأن في زمانهم كان أول عبادة الأوثان بالحجاز، وذلك بسبب رئيسهم عمرو بن لحيّ لعنه الله، فإنه أوّل من دعاهم إلى ذلك، وكان ذا مال جزيل جداً. يقال: أنه فقأ أعين عشرين بعيراً، وذلك عبارة عن أنه ملك عشرين ألف بعير، وكان من عادة العرب أن من ملك ألف بعير فقأ عين واحد منها، لأنه يدفع بذلك العين عنها. وممن ذكر ذلك الأزرقي، وذكر السهيلي: أنه ربما ذبح أيام الحجيج عشرة آلاف بدنة، وكسى عشرة آلاف حلّة في كل سنة، يطعم العرب ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل، ويلت لهم السويق. قالوا: وكان قوله وفعله فيهم كالشرع المتبع لشرفه فيهم، ومحلّته عندهم وكرمه عليهم.

قال ابن هشام: حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لُحيّ خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره فلما قدم مآبَ من أرضِ البَلْقَاءَ وبها يومئذ العَماليق، وهم ولد عِمْلاق ويقال ولد عِمْليق بن لاوذ بن سام بن نوح، رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم: ما هذه الأصنام التي

---

(١) تخزّع: تأخر وانقطع.
(٢) حلول: البيوت الكثيرة. كراكر: جماعات، وقيل خاص بجماعات الخيل.
(٣) الأكاريس: الجماعات من الناس.
(٤) شتت: فرّقت.
(٥) القنابل: ج قنبلة: وهي القطعة من الخيل.
(٦) هكذا في الأصل، ولعلها قوم سوء في ولايتهم.

أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها فَنَستَمْطِرُهَا فتمْطِرنا، ونَسْتَنْصِرُها فَتَنْصُرنا؛ فقال لهم: أفلا[١] تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدنه؟ فأعطَوْه صنماً يقال له هُبَل، فقدم به مكة فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

قال ابن إسحاق: ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل عليه السلام، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم، حين ضاقت عليهم، والتمسوا الفَسَحَ في البلاد، إلاّ حَمَل معه حجراً من حجارة الحَرَم تعظيماً للحرم، فحيث ما نزلوا وضعوه فطافوا به كَطَوافهم بالكعبة، حتى سَلَخ[٢] ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة، وأعجبهم حتى خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه.

وفي الصحيح عن أبي رجاء العطاردي. قال: كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجراً، جمعنا حثية من التراب، وجئنا بالشاة فحلبناها عليه، ثم طفنا بها.

قال ابن إسحاق: واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات،، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم عليه السلام، يتمسّكون بها من تعظيم البيت والطواف به. والحج والعمرة، والوقوف على عرفات والمزدلفة وهدي البدن والاهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه. فكانت كنانة وقريش إذا هلّوا قالوا: «لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك». فيوحّدونه بالتلبية، ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون مِلْكَها بيده. يقول الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦] أي ما يوحّدونني لمعرفة حقّي إلاّ جعلوا معي شريكاً من خَلْقي.

وقد ذكر السُّهَيلي وغيره: أن أول من لبّى هذه التلبية عمرو بن لحيّ، وأن إبليس تبدّى له في صورة شيخ، فجعل يلقنه ذلك فيسمع منه، ويقول كما يقول، واتبعه العرب في ذلك.

وثبت في الصحيح أنّ رسولَ اللّهِ ﷺ كان إذا سمعهم يقولون لبيك لا شريك لك يقول: «قَدِ قَدِ»[٣] أي حسب حسب. وقد قال البخاري حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا إسرائيل عن أبي حفص، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ وَعَبَدَ الأَصْنَامَ، أَبُو خُزَاعَة عَمْرُو بْنُ عَامِرٍ وَإِنِّي رَأَيْتُهُ يَجُرُّ أَمْعَاءَهُ فِي النَّارِ»[٤]. تفرد به أحمد من هذا الوجه. وهذا يقتضي أن عمرو بن لحي هو أبو خزاعة الذي تنسب إليه القبيلة بكمالها، كما زعمه بعضهم من أهل النسب، فيما حكاه ابن إسحاق

(١) في ط: ألا.

(٢) سلخ: خرج.

(٣) أخرجه مسلم في الحج حديث ٢٢.

(٤) أخرجه البخاري في المناقب باب ٩، والتفسير باب ١٣، ومسلم في الجنة حديث ٥١، وأحمد في المسند ٢/ ٢٧٥.

وغيره، ولو تركنا مجرّد هذا، لكان ظاهراً في ذلك، بل كالنصّ، ولكن قد جاء ما يخالفه من بعض الوجوه فقال البخاري حدثنا[١] أبو اليَمَانِ: أخبرنا شُعَيْبٌ عن الزُّهْرِي. قال: سمعت سعيدَ بن المسيّب قال: البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس ـ والسائبة ـ التي كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء. قال وقال أبو هريرة. قال النبي ﷺ: «رأَيْتُ عَمْرو بنَ عَامِرِ الخُزَاعِي يَجُرُّ قُصْبه[٢] في النَّارِ. كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ» .

وهكذا رواه البخاري أيضاً ومسلم من حديث صالح بن كَيْسَان عن الزُّهرِيَ عن سعيد، عن أبي هريرة به. ثم قال البخاري: ورواه ابن الهَادِ عن الزُّهري، قال الحاكم: أراد البخاري رواه ابن الهاد عن عبد الوهاب بن بُخْتٍ، عن الزُّهرِي كذا قال.

وقد رواه أحمد عن عمرو بن سَلَمة الخُزَاعِي عن اللَّيث بن سعد، عن يزيد بن الهَاد، عن الزُّهْرِي، عن سعيد، عن أبي هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رَأَيْتُ عَمْرو بْنَ عَامِرٍ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ وَبَحَرَ البَحِيرَةَ»[٣] . ولم يذكر بينهما عبد الوهاب بن بُخْتٍ كما قال الحاكم فالله أعلم.

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن الزهري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ عَمْرو بْنَ عَامِر الخُزَاعِي يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ» . وهذا منقطع من هذا الوجه. والصحيح الزُّهرِي عن سعيد عنه كما تقدم، وقوله في هذا الحديث والذي قبله الخزاعي، يدلّ على أنه ليس والد القبيلة، بل منتسب إليها [فلعل][٤] مع ما وقع في الرواية، من قوله أبو خزاعة تصحيف من الراوي من أخو خزاعة، أو أنه كان يكنّى بأبي خزاعة، ولا يكون ذلك من باب الإخبار بأنه أبو خزاعة كلّهم والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التَيْمِي، أن أبا صالح السَمَّانِ حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجَوْنِ الخُزاعِي: «يَا أَكْثَمُ رَأَيْتُ عَمْرو بْنَ لُحيّ بْنَ قَمِعَةَ بْنَ خِنْدَفٍ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، فَمَا رَأَيْتُ رَجُلاً أَشْبَهَ بِرَجُلٍ مِنْكَ بِهِ وَلاَ بِكَ مِنْهُ» . فقال أكْثَمُ: عسى أن يضرّني شبهه يا رسول الله قال: «لاَ إِنَّكَ مُؤْمِنٌ وَهُوَ كَافِرٌ، إِنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِسْمَاعِيلَ فَنَصَبَ الأَوْثَانَ وَبَحَرَ البَحِيرَةَ وَسَيَّبَ السَّائِبَةَ وَوَصَلَ الوَصِيلَةَ وَحَمَى الحَامِي» . ليس في الكتب من هذا الوجه. وقد رواه ابن جرير عن هناد بن عَبْدة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ بنحوه أو مثله، وليس في الكتاب[٥] أيضاً. وقال البخاري: حدثني محمد بن أبي يعقوب أبو عبد الله الكَرْمَاني، حدثنا حسان بن إبراهيم، حدثنا يونس عن الزُّهري، عن

(١) في ط: وقال.
(٢) قصبه: أمعاؤه.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/٣٦٦.
(٤) سقط في ط.
(٥) في ط: الكتب.

عُروة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضاً وَرَأَيْتُ عَمْراً يَجُرُّ قُصْبَهُ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ»[١] . تفرد به البخاري، وروى الطبراني من طريق صالح عن ابن عباس مرفوعاً في ذلك. والمقصود أن عمرو بن لحي لعنه الله، كان قد ابتدع لهم أشياء في الدين، غيّر بها دين الخليل، فاتبعه العرب في ذلك، فضلّوا بذلك ضلالاً بعيداً بيناً فظيعاً شنيعاً، وقد أنكر الله تعالى عليهم في كتابه العزيز في غير ما آية منه فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦] الآية. وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة: ١٠٣] وقد تكلمنا على هذا كله مبسوطاً، وبيّنا اختلاف السلف في تفسير ذلك، فمن أراده فليأخذه من ثمّ ولله الحمد والمنة.
وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النحل: ٥٦]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦ ـ ١٤٠].

وقال البخاري في صحيحه: باب جهل العرب

حدثنا أبو النعمان، حدثنا أبو عَوَانة عن أبي بِشر، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فأقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[٢] [الانعام: ٤٠] وقد ذكرنا تفسير هذه الآية وما كانوا ابتدعوه من الشرائع الباطلة الفاسدة التي ظنّها كبيرهم عمرو بن لحي قبّحه الله مصلحة ورحمة بالدواب والبهائم، وهو كاذب مفتر في ذلك، ومع هذا الجهل والضلال اتبعه هؤلاء الجهلة الطغام[٣] فيه، بل قد تابعوه فيما هو اطمّ من ذلك وأعظم بكثير، وهو عبادة الأوثان مع الله عزّ وجلّ، وبدّلوا ما كان الله بعث به إبراهيم خليله من الدين القويم والصراط المستقيم، من توحيد عبادة الله

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب ٥ سورة المائدة.
(٢) أخرجه البخاري في المناقب، باب ١٢.
(٣) الطغام: الأوغاد من الناس.

وحده لا شريك له، وتحريم الشرك، وغيّروا شعائر الحج ومعالم الدين بغير علم ولا برهان ولا دليل، صحيح ولا ضعيف، واتبعوا في ذلك من كان قبلهم من الأمم المشركين، وشابهوا قوم نوح، وكانوا أول من أشرك بالله وعبد الأصنام، ولهذا بعث الله اليهم نوحاً، وكان أول رسول بعث ينهى عن عبادة الأصنام، كما تقدم بيانه في قصة نوح، ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾[نوح: ٢٣ ـ ٢٤] الآية. قال ابن عباس: كان هؤلاء قوماً صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، فلما طال عليهم الأمد عبدوهم، وقد بيّنا كيفية ما كان من أمرهم في عبادتهم بما أغنى عن إعادته ههنا.

قال ابن اسحاق وغيره: ثم صارت هذه الأصنام في العرب بعد تبديلهم دين إسماعيل، فكان وَدّ لبني كلب بنُ مرّة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة. وكان منصوباً بدومة الجندل وكان سُواع لبني هُذَيْل بن الياس بن مدركة بن مضر. وكان منصوباً بمكان يقال له رُهَاط. وكان يغوث لبني أنعم من طيء ولأهل جُرَش من مَذْحج، وكان منصوباً بجُرَش. وكان يَعوق منصوباً بأرض همدان من اليمن لبني خَيْوان بطن من همدان. وكان نَسْر منصوباً بأرض حِمْيَرَ لقبيلة يقال لهم ذو الكُلاعِ.

قال ابن إسحاق: وكان لخولان بأرضهم صنم يقال له: عم أنس يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسماً بينه وبين الله فيما يزعمون، فما دخل في حق عم أَنَس من حقّ الله الذي قسّموه له، تركوه له، وما دخل في حق الله من حق عم أنس ردّوه عليه، وفيهم أنزل الله ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] الآية قال: وكان لبني مِلْكان بن كنانة بن خُزَيمة بن مُدْركة صنم يقال له: سَعْد، صخرة بفلاة من أرضهم طويلة. فأقبل رجل منهم بإبل له مُؤبّلة[١] ليقفها عليه، التماسَ بركته فيما يزعم، فلما رأته الإبل، وكانت مَرْعِيّة لا تُركَب، وكان الصنم يُهراق عليه الدماء، نفرت منه، فذهبت في كل وجه، وغَضِب ربُّها وأخذ حجراً فرماه به، ثم قال لا بارك الله فيك، نفّرت عليّ إبلي، ثم خرج في طلبها، فلما اجتمعت له قال: [الطويل]

أَتَيْنَا إِلَى سَعْدٍ لِيَجْمَعَ شَمْلَنَا ... فَشَتَّتَنَا سَعْدٌ فَلاَ نَحْنُ مِنْ سَعْدِ
وَهَلْ سَعْدُ إِلاَّ صَخْرَةٌ بِتَنُوفَةٍ[٢] ... مِنَ الأَرْضِ لاَ يَدْعُو لِغَيٍّ وَلاَ رُشْدِ

قال ابن اسحاق: وكان في دَوْس صنم لعمرو بن حممة الدوسي. قال: وكانت قريش قد اتخذت صنماً على بئر في جوف الكعبة يقال له هُبَل، وقد تقدّم فيما ذكره ابن هشام أنه أول صنم نصبه عمرو بن لحي لعنه الله.

قال ابن اسحاق: واتخذوا إسَافاً ونائلة على موضع زمزم ينحرون عندهما، ثم ذكر

(١) إبل مؤبلة: أي تتخذ للقنية.

(٢) تنوفة: الأرض الواسعة الأطراف لا ماء بها ولا أنيس.

أنهما كانا رجلاً وامرأة فوقع عليها في الكعبة فمسخهما الله حجرين. ثم قال: حدّثني عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عَمْرَة أنها قالت: سمعت عائشة تقول: ما زلنا نسمع أن إسافاً ونائلة كانا رجلاً وامرأة من جُرْهم أحدثا في الكعبة فمسخهما الله عزّ وجلّ حجرين والله أعلم. وقد قيل إن الله لم يمهلهما حتى فجرا فيها، بل مسخهما قبل ذلك، فعند ذلك نصبا عند الصفا والمروة. فلما كان عمرو بن لحي نقلهما فوضعهما على زمزم، وطاف الناس بهما، وفي ذلك يقول أبو طالب: [الطويل]

وَحَيْثُ يُنِيخُ الأَشْعَرُونَ رِكَابَهُمْ ... بِمُفْضَيِّ السُّيُولِ مِنْ إِسَافٍ وَنَائِلِ

وقد ذكر الواقدي: أنّ رسول اللّهِ ﷺ لما أمر بكسر نائلة يوم الفتح، خرجت منها سوداء شمطاء تخمش وجهها، وتدعو بالويل والثبور. وقد ذكر السُّهيلي: أن أجا وسلمى وهما جبلان بأرض الحجاز إنما سمّيا باسم رجل اسمه أجا بن عبد الحي فجر بسلمى بنت حام، فصلبا في هذين الجبلين، فعرفا بهما. قال: وكان بين أجا وسلمى صنم لطي يقال له قلس.

قال ابن اسحاق: واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه، فإذا أراد الرجل منهم سَفَراً تمسّح به حين يركب، فكان ذلك آخرَ ما يصنع حين يتوجه إلى سفره. وإذا قدم من سفره تمسّح به، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله. قال: فلما بعث الله محمداً ﷺ بالتوحيد قالت قريش: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥].

وقال ابن اسحاق: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظّمها كتعظيم الكعبة لها سدنة[1] وحجاب، وتهدى لها كما تهدى للكعبة وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها. وهي مع ذلك تعرف فضلَ الكعبة عليها، لأنها بناء إبراهيم الخليل عليه السلام ومسجده. وكانت لقريش وبني كنانة العُزّى بنخلة، وكانت سَدَنَتُها وحجّابُها بني شيبان من سُلَيْم، حلفاء بني هاشم. وقد خرّبها خالد بن الوليد زمن الفتح كما سيأتي. قال: وكانت اللات لثقيف بالطائف وكانت سَدَنتها وحجّابها بني معتب من ثقيف وخرّبها أبو سفيان والمُغيرة بن شُعْبة بعد مجيء أهل الطائف كما سيأتي. قال: وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل المدينة على ساحل البحر من ناحية المشلل بقُدَيد. وقد خرّبها أبو سفيان أيضاً، وقيل: علي بن أبي طالب كما سيأتي. قال: وكان ذو الخَلَصة لدَوْس وخَثْعَم وبجَيلة، ومن كان ببلادهم من العرب بِتَبالة وكان يقال له: الكعبة اليمانية، ولبيت مكة الكعبة الشامية وقد خرّبه جرير بن عبد الله البجلي كما سيأتي قال: وكان قَلس لطيّيء ومَنْ يليها بَجَبلَيّ طيىء بين أجأ وسلمى، وهما جبلان مشهوران كما تقدم. قال: وكان رآم بيتاً لحمير وأهل اليمن كما تقدم ذكره في قصّة تبّع أحد ملوك حمير، وقصة الحَبْرَين حين خرّباه وقتلا منه كلباً أسود. قال: وكانت رُضاء بيتاً لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن

(١) السدنة: خدم الكعبة.

تميم، ولها يقول المُسْتَوْغِر واسمه كعب بن ربيعة بن كعب: [الكامل]

وَلَقَدْ شَددْتُ عَلَى رُضَاءِ شَدَّةً ... فَتَرَكْتُهَا قَفْراً بِقَاعٍ أَسْحَمَا[1]

وَأَعَانَ عَبْدُ اللَّهِ فِي مَكْرُوهِهَا ... وَبِمِثْلِ عَبْدِ اللَّهِ أَغْشَى المَحْرَمَا

ويقال إن المستوغر هذا عاش ثلاثمائة سنة وثلاثين سنة، وكان أطول مضر كلّها عمراً، وهو الذي يقول: [الكامل]

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الحَيَاةِ وَطُولِهَا ... وَعَمَرْتُ مِنْ عَدَدِ السِّنِينِ مِئِينَا

مَائَةٌ حَدَتْهَا بَعْدَهَا مَائَتَانِ لِي ... وَازْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ الشُّهُورِ سِنِينَا

هَلْ مَا بَقِي إلاّ كَمَا قَدْ فَاتَنَا ... يَوْمٌ يَمُرُّ وَلَيْلَةٌ تَحْدُونَا

قال ابن هشام: ويروي هذه الأبيات لزُهَيْر بن جَنَاب بن هُبَل. قال السُهيلي: ومن المعمّرين الذين جازوا المائتين والثلاثمائة زهير هذا، وعُبيد بن شريّة، ودغفل بن حنظلة النسّابة، والربيع بن ضبع الفزاري، وذو الأصبع العدواني، ونصر بن دهمان بن أشجع بن ريث بن غطفان، وكان قد اسودّ شعره بعد ابيضاضه، وتقوّم ظهره بعد اعوجاجه. قال: وكان ذو الكَعَبات لبكر وتغلب بن وائل وأياد بسنداد، وله يقول أعشى بني قيس بن ثعلبة: [الكامل]

بَيْنَ الخَوَرْنَقِ وَالسَّدِيرِ وَبَارِقٍ ... وَالبَيْتِ ذُو الشُّرُفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ

وأول هذه القصيدة: [الكامل]

وَلَقَدْ عَلِمْتُ وَإِنْ تَطَاوَلَ بِي المَدَى ... أَنَّ السَّبِيلَ سَبِيلُ ذي الأَعْوَادِ

مَاذَا أُؤَمِّلُ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقٍ ... تَرَكُوا مَنَازِلَهُم وَبَعْدَ إِيَادِ

نَزَلُوا بِأَنْقَرَةٍ يَسِيلُ عَلَيْهِمُ ... مَاءُ الفُرَاتِ يجِيءُ مِنْ أَطْوَادِ[2]

أَرْضُ الخَوَرْنَقِ وَالسَّدِيرِ وَبَارِقٍ ... وَالبَيْتِ ذو الكَعَبَاتِ مِنْ سِنْدَادِ

جَرَتِ الرِّيَاحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ ... فَكَأَنَّمَا كَانُوا عَلَى مِيعَادِ

وَأَرَى النَّعِيمَ وكلَ ما يُلْهَى بِهِ ... يَوْماً يَصِيرُ إِلَى بِلىً وَنَفَادِ

قال السُهيلي: الخورنق قصر بناه النعمان الأكبر لسابور، ليكون ولده فيه عنده، وبناه رجل يقال له: سنمار في عشرين سنة، ولم يُر بناء أعجب منه، فخشي النعمان أن يبني لغيره مثله فألقاه من أعلاه فقتله، ففي ذلك يقول الشاعر: [الطويل]

جَزَانِي جَزَاهُ اللَّهُ شَرَّ جَزَائِهِ ... جَزَاءَ سِنِمَّارٍ وَمَا كَانَ ذَا ذَنْبِ

سِوَى رَصْفِهِ البُنْيَانَ عِشْرِينَ حِجَّةً ... يَعُدُّ عَلَيْهِ بِالقَرَامِدِ وَالسَّكْبِ

---

(١) الأسحم: الأسود.

(٢) الطواد: المكان المرتفع.

فَلَمَّا انْتَهَى الْبُنْيَانُ يَوْماً تَمَامُهُ وَآضَ كَمِثْلِ الطَّوْدِ وَالبَاذِخِ الصَّعْبِ
رَمَى بِسِنِمَّارٍ عَلَى حَقِّ رَأْسِهِ وَذَاكَ لَعَمْرُ اللَّهِ مِنْ أَقْبَحِ الخَطْبِ

قال السُّهيلي: أنشده الجاحظ في كتاب الحيوان، والسِّنمار من أسماء القمر، والمقصود أن هذه البيوت كلّها هدمت. لما جاء الإسلام جهّز رسول الله ﷺ إلى كل بيت من هذه سرايا تخرّبه، وإلى تلك الأصنام من كسرها، حتى لم يبق للكعبة ما يضاهيها، وعُبد الله وحده لا شريك له، كما سيأتي بيانه وتفصيله في مواضعه إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

خبر عدنان جد عرب الحجاز [وهو الذي ينتهي إليه نسب النبي صلى الله عليه وسلم][1]

لا خلاف أن عدنان من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام واختلفوا في عدّة الآباء بينه وبين إسماعيل على أقوال كثيرة، فاكثر ما قيل أربعون أباً، وهو الموجود عند أهل الكتاب، أخذوه من كتاب رخيا كاتب أرميا بن حلقيا على ما سنذكره. وقيل بينهما ثلاثون، وقيل عشرون، وقيل خمسة عشر، وقيل عشرة، وقيل تسعة، وقيل سبعة، وقيل إن أقل ما قيل في ذلك أربعة لما رواه موسى بن يعقوب عن عبد الله بن وهب بن زمعة الزمعي، عن عمّته، عن أم سلمة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَعدُ بْنُ عَدْنَانٍ بْنُ أَدَدٍ بْنِ زَنَدِ بْنِ اليَرِي بْنِ اعْرَاقِ الثَّرىَ». قالت: أم سلمة فزند هو الهميسع واليري هو نابت واعراق الثرى هو إسماعيل لأنه ابن إبراهيم، وإبراهيم لم تأكله النار، كما أن النار لا تأكل الثرى. قال الدارقطني: لا نعرف زنداً الا في هذا الحديث، وزَنْدُ بن الجَوْنِ وهو أبو دلامة الشاعر.

قال الحافظ أبو القاسم السُّهيلي وغيره من الأئمة: مدّة ما بين عدنان إلى زمن إسماعيل أكثر من أن يكون بينهما أربعة آباء أو عشرة أو عشرون، وذلك أن معد بن عدنان كان عمره زمن بختنصر ثنتي عشرة سنة. وقد ذكر أبو جعفر الطَّبري وغيره أن الله تعالى أوحى في ذلك الزمان إلى أرمياء بن حلقيا أن اذهب إلى بختنصر فأعلمه أني قد سلّطته على العرب. وأمر الله أرميا أن يحمل معه معد بن عدنان على البراق كي لا تصيبه النقمة فيهم، فإني مستخرج من صلبه نبياً كريماً أختم به الرسل. ففعل أرميا ذلك، واحتمل معداً على البراق إلى أرض الشام، فنشأ مع بني إسرائيل ممن بقي منهم بعد خراب بيت المقدس، وتزوج هناك امرأة اسمها معانة بنت جوشن من بني دب بن جرهم قبل أن يرجع إلى بلاده، ثم عاد بعد أن هدأت الفتن وتمحضت جزيرة العرب، وكان رخيا كاتب أرمياء قد كتب نسبه في كتاب عنده ليكون في خزانة أرميا فيحفظ نسب معد كذلك والله أعلم. ولهذا كره مالك رحمه الله رفع النسب إلى ما بعد عدنان.

---

(١) سقط في ط.

قال السهيلي: وإنما تكلمنا في رفع هذه الأنساب على مذهب من يرى ذلك، ولم يكرهه كابن إسحاق والبخاري والزبير بن بَكّارٍ والطَّبَرِي وغيرهم من العلماء، وأما مالك رحمه الله فقد سئل عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم فكره ذلك، وقال له من أين له علم ذلك، فقيل له فإلى إسماعيل، فأنكر ذلك أيضاً، وقال ومن يخبره به، وكره أيضا أن يرفع في نسب الأنبياء مثل أن يقال: إبراهيم بن فلان بن فلان، هكذا ذكره المعيطي في كتابه.

قال: وقول مالك [في][1] هذا نحو مما روي عن عُرْوَةَ بن الزبير، أنه قال ما وجدنا أحداً يعرف ما بين عدنان وإسماعيل، وعن ابن عبّاس أنه قال بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون ورُوِي عن ابن عباس أيضا أنه كان إذا بلغ عدنان يقول: كذب النسابون مرّتين أو ثلاثا، والأصحّ عن ابن مسعود مثله. وقال عمر بن الخطاب: إنما تنسب إلى عدنان، وقال أبو عمر بن عبد البر في كتابه (الإنباه في معرفة قبائل الرواة) روى ابن لَهِيعَة عن أبي الأسود، أنه سمع عُروة بن الزُّبَيْر يقول: ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء عدنان، ولا ما وراء قحطان إلاّ تخرصاً[2]، وقال أبو الأسود: سمعت أبا بكر بن سليمان بن أبي خَيْثَمَة، وكان من أعلم قريش بأشعارهم وأنسابهم يقول: ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء معد بن عدنان في شعر شاعر، ولا علم عالم.

قال أبو عمر: وكان قوم من السلف منهم عبد الله بن مسعود وعمرو بن ميمون الأزدي ومحمد بن كعب القرظي إذا تلوا ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩] قال كذب النسّابون.

قال أبو عمر رحمه الله: والمعنى عندنا في هذا غير ما ذهبوا، والمراد أن من ادعى احصاء بني آدم فإنهم لا يعلمهم إلاّ الله الذي خلقهم وأما أنساب العرب فإن أهل العلم بأيامها وأنسابها قد وعوا وحفظوا جماهيرها، وأمهات قبائلها: واختلفوا في بعض فروع ذلك.

قال أبو عمر: والذي عليه أئمة هذا الشأن في نسب عدنان قالوا: عدنان بن أدد بن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وهكذا ذكره محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة.

قال ابن هشام: ويقال: عدنان بن أد يعني عدنان بن أد بن أدد، ثم ساق أبو عمر بقية النسب إلى آدم كما قدمناه في قصّة الخليل عليه السلام. وأما الأنساب إلى عدنان من سائر قبائل العرب فمحفوظة شهيرة جداً، لا يتمارى فيها اثنان، والنسب النبوي إليه أظهر وأوضح من فلق الصبح. وقد ورد حديث مرفوع بالنصّ عليه كما سنورده في موضعه بعد الكلام على قبائل العرب، وذكر أنسابها وانتظامها في سلك النسب الشريف، والأصل المنيف إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة الا بالله العزيز الحكيم. وما أحسن ما نظم

(١) سقط في ط.

(٢) التخرص: التخمين والتقدير بغير علم.

النسب النبوي الإمام أبو العبّاس عبد الله بن محمد الناشىء في قصيدته المشهورة المنسوبة إليه وهي قوله: [الطويل]

مَدَحْتُ رَسُولَ اللَّهِ أَبْغِي بِمَدْحِهِ وُفُورَ حُظُوظِي مِنْ كَرِيمِ المَآرِبِ
مَدَحْتُ امْرَءاً فَاقَ المَدِيحَ مُوَحَّداً بِأَوْصَافِهِ عَنْ مُبْعِدٍ وَمُقَارِبِ
نَبِيّاً تَسَامَى فِي المَشَارِقِ نُورُهُ فَلاَحَتْ هَوَادِيهِ لأَهْلِ المَغَارِبِ
أَتَتْنَا بِهِ الأَنْبَاءُ قَبْلَ مَجِيئِهِ وَشَاعَتْ بِهِ الأَخْبَارُ فِي كُلِّ جَانِبِ
وَأَصْبَحَتِ الكُهَّانُ تَهْتِفُ بِاسْمِهِ وَتَنْفِي بِهِ رَجْمَ الظُّنُونِ الكَوَاذِبِ
وَأُنْطِقَتِ الأَصْنَامُ نُطْقاً تَبَرَّأَتْ إِلَى اللَّهِ فِيهِ مِنْ مَقَالِ الأَكَاذِبِ
وَقَالَتْ لأَهْلِ الكُفْرِ قَوْلاً مُبَيَّناً أَتَاكُمْ نَبِيٌّ مِنْ لُؤَيِّ بِنْ غَالِبِ
وَرَامَ اسْتِرَاقَ السَّمْعِ جِنٌّ فَزُيِّلَتْ مَقَاعِدُهُمْ مِنْهَا رُجُومُ الكَوَاكِبِ
هَدَانَا إِلَى مَا لَمْ نَكُنْ نَهْتَدِي لَهُ لِطُولِ العِمَى مِنْ وَاضِحَاتِ المَذَاهِبِ
وَجَاءَ بِآيَاتٍ تُبَيِّنُ أَنَّهَا دَلاَئِلُ جَبَّارٍ مُثِيبٍ مُعَاقِبِ
فَمِنْهَا انْشِقَاقُ البَدْرِ حِينَ تَعَمَّمَتْ شُعُوبُ الضِّيَا مِنْهُ رُؤُوسَ الأَخَاشِبِ
وَمِنْهَا نُبُوعُ المَاءِ بَيْنَ بَنَانِهِ وَقَدْ عَدِمَ الوُرَّادُ قُرْبَ المَشَارِبِ
فَرَوَّى بِهِ جَمّاً غَفِيراً وَأَسْهَلَتْ بِأَعْنَاقِهِ طَوْعاً أَكُفُّ المَذَانِبِ
وَبِئْرٍ طَغَتْ بِالْمَاءِ مِنْ مَسِّ سَهْمِهِ وَمِنْ قَبْلُ لَمْ تَسْمَحْ بِمَذْقَةِ شَارِبِ
وَضَرْعٍ مَرَاهُ فَاسْتَدَرَّ وَلَمْ يَكُنْ بِهِ دِرَّةٌ تَصْغَى إِلَى كَفِّ حَالِبِ
وَنُطْقٍ فَصِيحٍ مِنْ ذِرَاعٍ مُبِينَةٍ لِكَيْدِ عَدُوٍّ لِلْعَدَاوَةِ نَاصِبِ
وَإِخْبَارِهِ بِالأَمْرِ مِنْ قَبْلِ كَوْنِهِ وَعِنْدَ بَوَادِيهِ فِي العَوَاقِبِ
وَمِنْ تِلْكُمِ الآيَاتِ وَحْيٌ أَتَى بِهِ قَرِيبُ المَآتِي مُسْتَجِمُّ العَجَائِبِ
تَقَاصَرَتِ الأَفْكَارُ عَنْهُ فَلَمْ يُطِعْ بَلِيغاً وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ خَاطِبِ
حَوَى كُلَّ عِلْمٍ وَاحْتَوَى كُلَّ حِكْمَةٍ وَفَاتَ مُرَامَ المُسْتَمِرِّ المُوَارِبِ
أَتَانَا بِهِ لاَ عَنْ رَوِيَّةِ مُرْتَءٍ وَلاَ صُحْفِ مُسْتَمْلٍ وَلاَ وَصْفِ كَاتِبِ
يُوَاتِيهِ طَوْراً فِي إِجَابَةِ سَائِلٍ وَإِفْتَاءِ مُسْتَفْتٍ وَوَعْظِ مُخَاطِبِ
وَإِتْيَانِ بُرْهَانٍ وَفَرْضِ شَرَائِعٍ وَقَصِّ أَحَادِيثٍ وَنَصِّ مَآرِبِ
وَتَصْرِيفِ أَمْثَالٍ وَتَثْبِيتِ حُجَّةٍ وَتَعْرِيفِ ذِي جَحْدٍ وَتَوْقِيفِ كَاذِبِ
وَفِي مَجْمَعِ النَّادِي وَفِي حَوْمَةِ الْوَغَى وَعِنْدَ حُدُوثِ المُعْضِلاَتِ الغَرَائِبِ
فَيَأْتِي عَلَى مَا شِئْتَ مِنْ طُرُقَاتِهِ قَوِيمَ المَعَانِي مُسْتَدِرَّ الضَّرَائِبِ

يُصَدِّقُ مِنْهُ البَعْضُ بَعْضاً كَأَنَّمَا   يُلاَحِظُ مَعْنَاهُ بِعَيْنِ المُرَاقِبِ
وَعَجْزُ الوَرَى عَنْ أَنْ يَجِيئُوا بِمِثْلِ مَا   وَصَفْنَاهُ مَعْلُومٌ بِطُولِ التَّجَارِبِ
تَأَبَّى بِعَبْدِ اللَّهِ أَكْرَمُ وَالِدٍ   تَبَلَّجَ (١) مِنْهُ عَنْ كَرِيمِ المَنَاسِبِ
وَشَيْبَةِ ذِي الحَمْدِ الَّذِي فَخَرَتْ بِهِ   قُرَيْشُ عَلَى أَهْلِ العُلَى وَالمَنَاصِبِ
وَمَنْ كَانَ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ   وَيُصْدَرُ عَنْ آرَائِهِ فِي النَّوَائِبِ
وَهَاشِمِ البَانِي مُشَيِّدَ افْتِخَارِهِ   بِغُرِّ المَسَاعِي وَامْتِنَانِ المَوَاهِبِ
وَعَبْدِ مَنَافٍ وَهْوَ عَلَّمَ قَوْمَهُ اشْ   تِطَاطَ (٢) الأَمَانِي وَاحْتِكَامَ الرَّغَائِبِ
وَإِنَّ قُصَيّاً مِنْ كَرِيمِ غِرَاسِهِ   لَفِي مَنْهَلٍ لَمْ يَدْنُ مِنْ كَفِّ قَاضِبِ
بِهِ جَمَعَ اللَّهُ القَبَائِلَ بَعْدَمَا   تَقَسَّمَهَا نَهْبُ الأَكُفِّ السَّوَالِبِ
وَحَلَّ كِلاَبٌ مِنْ ذُرَى المَجْدِ مَعْقِلاً   تَقَاصَرَ عَنْهُ كُلُّ دَانٍ وَغَائِبِ
وَمُرَّةُ لَمْ يَحْلُلْ مَرِيرَةَ عَزْمِهِ   سِفَاهُ سَفِيهٍ أَوْ مَحُوبَةُ حَائِبِ
وَكَعْبٌ عَلاَ عَنْ طَالِبِ المَجْدِ كَعْبُهُ   فَنَالَ بِأَدْنَى السَّعْيِ أَعْلاَ المَرَاتِبِ
وَأَلْوَى لُؤَيٌّ بِالعَدَاةِ فَطُوِّعَتْ   لَهُ هِمَمُ الشُّمِّ الأُنُوفِ الأَغَالِبِ
وَفِي غَالِبٍ بَأْسُ أَبِي البَأْسِ دُونَهُمْ   يُدَافِعُ عَنْهُمْ كُلَّ قِرْنٍ (٣) مُغَالِبِ
وَكَانَتْ لِفِهْرٍ فِي قُرَيْشٍ خِطَابَةٌ   يَعُوذُ بِهَا عِنْدَ اشْتِجَارِ المُخَاطِبِ
وَمَا زَالَ مِنْهُمْ مَالِكٌ خَيْرَ مَالِكٍ   وَأَكْرَمَ مَصْحُوبٍ وَأَكْرَمَ صَاحِبِ
وَلِلنَّضْرِ طَوْلٌ يَقْصُرُ الطَّرْفُ دُونَهُ   بِحَيْثُ التَقَى ضَوْءُ النُّجُومِ الثَّوَاقِبِ
لَعَمْرِي لَقَدْ أَبْدَى كِنَانَةُ قَبْلَهُ   مَحَاسِنَ تَأْبَى أَنْ تَطُوعَ لِغَالِبِ
وَمِنْ قَبْلِهِ أَبْقَى خُزَيْمَةُ حَمْدَهُ   تَلِيدَ (٤) تُرَاثٍ عَنْ حَمِيدِ الأَقَارِبِ
وَمُدْرِكَةٌ لَمْ يُدْرِكِ النَّاسُ مِثْلَهُ   أَعَفُّ وَأَعْلَى عَنْ دَنِيِّ المَكَاسِبِ
وَإِلْيَاسُ كَانَ اليَأْسُ مِنْهُ مُقَارِناً   لأَعْدَائِهِ قَبْلَ اعْتِدَادِ الكَتَائِبِ
وَفِي مُضَرٍ يَسْتَجْمِعُ الفَخْرُ كُلُّهُ   إِذَا اعْتَرَكَتْ يَوْماً زُحُوفُ المَقَانِبِ (٥)
وَحَلَّ نِزَارٌ مِنْ رِيَاسَةِ أَهْلِهِ   مَحَلاًّ تَسَامَى عَنْ عُيُونِ الرَّوَاقِبِ
وَكَانَ مَعَدٌّ عُدَّةً لِوَلِيِّهِ   إِذَا خَافَ مِنْ كَيْدِ العَدُوِّ المُحَارِبِ

---

(١) بلج: أضاء وأشرق.
(٢) اشتطاط: من الشطط: الابتعاد.
(٣) القرن: السيد.
(٤) التليد: المال الموروث.
(٥) المقانب: الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين.

وَمَا زَالَ عَدْنَانٌ إِذَا عُدَّ فَضْلُهُ ... تَوَحَّدَ فِيهِ عَنْ قَرِينٍ وَصَاحِبِ
وَأَدَّ تَأَدَّى الْفَضْلُ مِنْهُ بِغَايَةٍ ... وَإِرْثٍ حَوَاهُ عَنْ قُرُومٍ(1) أَشَايِبِ
وَفِي أُدَدٍ حِلْمٌ تَزَيَّنَ بِالْحِجَا ... إِذَا الْحِلْمُ أَزْهَاهُ قُطُوبُ الْحَوَاجِبِ
وَمَا زَالَ يَسْتَعْلِي هُمَيْسِعُ بِالْعُلَى ... وَيَتْبَعُ آمَالَ الْبَعِيدِ الْمُرَاغِبِ
وَنَبْتٌ بَنَتْهُ دَوْحَةُ الْعِزِّ وَابْتَنَى ... مَعَاقِلَهُ فِي مُشْمَخِرِّ الْأَهَاضِبِ
وَحِيزَتْ لِقِيذَارٍ سَمَاحَةُ حَاتِمٍ ... وَحِكْمَةُ لُقْمَانٍ وَهِمَّةُ حَاجِبِ
هُمُوا نَسْلُ إِسْمَاعِيلَ صَادِقِ وَعْدِهِ ... فَمَا بَعْدَهُ فِي الْفَخْرِ مَسْعًى لِذَاهِبِ
وَكَانَ خَلِيلُ اللَّهِ أَكْرَمَ مَنْ عَنَتْ(2) ... لَهُ الْأَرْضُ مِنْ مَاشٍ عَلَيْهَا وَرَاكِبِ
وَتَارِحُ مَا زَالَتْ لَهُ أَرْيَحِيَّةٌ ... تُبَيِّنُ مِنْهُ عَنْ حَمِيدِ الْمَضَارِبِ
وَنَاحُورُ نَحَّارُ الْعِدَى حُفِظَتْ لَهُ ... مَآثِرُ لَمَّا يُحْصِهَا عَدُّ حَاسِبِ
وَأَشْرَعُ فِي الْهَيْجَاءِ ضَيْغَمُ(3) غَابَةٍ ... يَقُدُّ الطُّلَى(4) بِالْمُرْهَفَاتِ الْقَوَاضِبِ(5)
وَأَرْغُوَ نَابٌ فِي الْحُرُوبِ مُحَكَّمٌ ... ضَنِينٌ عَلَى نَفْسِ الْمُشِحِّ الْمُغَالِبِ
وَمَا فَالِغٌ فِي فَضْلِهِ تِلْوَ قَوْمِهِ ... وَلَا عَابِرٌ مِنْ دُونِهِمْ فِي الْمَرَاتِبِ
وَشَالِغٌ وَارْفَخْشَذٌ وَسَامٌ سَمَتْ بِهِمْ ... سَجَايَا حَمَتْهُمْ كُلَّ زَارٍ وَعَائِبِ
وَمَا زَالَ نُوحٌ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ فَاضِلاً ... يُعَدِّدُهُ فِي الْمُصْطَفَيْنَ الْأَطَايِبِ
وَلُمْكٌ أَبُوهُ كَانَ فِي الرَّوْعِ رَائِعاً ... جَرِيئاً عَلَى نَفْسِ الْكَمِيِّ الْمُضَارِبِ
وَمِنْ قَبْلِ لُمْكٍ لَمْ يَزَلْ مُتَوَشْلِخٌ ... يَذُودُ الْعِدَى بِالذَّائِدَاتِ الشَّوَازِبِ
وَكَانَتْ لِإِدْرِيسَ النَّبِيِّ مَنَازِلٌ ... مِنَ اللَّهِ لَمْ تُقْرَنْ بِهِمَّةِ رَاغِبِ
وَيَارِدُ بَحْرٌ عِنْدَ آلِ سَرَاتِهِ ... أَبِيُّ الْخَزَايَا مُسْتَدِقُّ الْمَآرِبِ
وَكَانَتْ لِمَهْلَايِيلَ فَهْمٌ فَضَائِلٌ ... مُهَذَّبَةٍ مِنْ فَاحِشَاتِ الْمَثَالِبِ(6)
وَقَيْنَانُ مِنْ قَبْلُ اقْتَنَى مَجْدَ قَوْمِهِ ... وَفَادَ بِشَأْوِ(7) الْفَضْلِ وَخْدَ الرَّكَائِبِ
وَكَانَ أَنُوشُ نَاشَ لِلْمَجْدِ نَفْسَهُ ... وَنَزَّهَهَا عَنْ مُزْرِيَاتِ الْمَطَالِبِ

---

(١) القروم: الأسياد.

(٢) عنت: خضعت.

(٣) الضيغم: من أسماء الأسد.

(٤) الطلى: الأعناق.

(٥) المرهفات القواضب: السيوف القاطعة.

(٦) المثالب: العيوب.

(٧) الشأو: السبق.

وَمَا زَالَ شِيثٌ بِالفَضَائِلِ فَاضِلاً ... شَرِيفاً بَرِيئاً مِنْ ذَمِيمِ المَعَائِبِ
وَكُلُّهُمُ مِنْ نُورِ آدَمَ أَقْبَسُوا ... وَعَنْ عُودِهِ أَجْنَوْا ثِمَارَ المَنَاقِبِ
وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ أَكْرَمَ مُنْجَبٍ ... جَرَى فِي ظُهُورِ الطَّيِّبِينَ المَنَاجِبِ
مُقَابَلَةً آبَاؤُهُ، أمَّهَاتِهِ ... مُبَرَّأَةً مِنْ فَاضِحَاتِ المَثَالِبِ
عَلَيْهِ سَلامُ اللَّهِ فِي كُلِّ شَارِقٍ ... أَلاَحَ لَنَا ضَوْءاً وَفِي كُلِّ غَارِبِ

هكذا أورد القصيدة الشيخ أبو عمر بن عبد البرّ، وشيخنا الحافظ أبو الحجّاج المَزّي في تهذيبه تهذيب الكمال من شعر الاستاذ أبي العباس عبد الله بن محمد النَّاشِيء المعروف بابن شَرْشِير، أصله من الأنبار ورد بغداد ثم ارتحل إلى مصر، فأقام بها حتى مات سنة ثلاث وتسعين ومائتين. وكان متكلّماً معتزلياً، يحكي عنه الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتابه المقالات، فيما يحكي عن المعتزلة، وكان شاعراً مطبقاً حتى أن من جملة اقتداره على الشعر، كأن يعاكس الشعراء في المعاني، فينظّم في مخالفتهم، ويبتكر ما لا يطيقونه من المعاني البديعة، والألفاظ البليغة، حتى نسبه بعضهم إلى التهوّس والاختلاط؛ وذكر الخطيب البغدادي أن له قصيدة على قافية واحدة قريباً من أربعة آلاف بيت ذكرها الناجم وأرّخ وفاته كما ذكرنا.

قلت: وهذه القصيدة تدلّ على فضيلته وبراعته وفصاحته وبلاغته وعلمه وفهمه وحفظه، وحسن لفظه واطلاعه واضطلاعه، واقتداره على نظم هذا النسب الشريف في سلك شعره، وغوصه على هذه المعاني التي هي جواهر نفيسة من قاموس بحره، فرحمه الله وأثابه وأحسن مصيره وإيابه.

[ذكر][(١)] أصول أنساب قبائل عرب الحجاز إلى عدنان

وذلك لأن عدنان ولد له ولدان معدّ وعك. قال السهيلي: ولعدنان أيضاً ابن اسمه: الحارث، وآخر يقال: له المذهب. قال: وقد ذكر أيضاً في بنيه الضحّاك. وقيل إن الضحّاك ابن لمعدّ لا ابن عدنان. قال وقيل إن عدن الذي تعرف به مدينة عدن وكذلك أبين كانا ابنين لعدنان، حكاه الطبري. فتزوج عك في الأشعريين وسكن في بلادهم من اليمن، فصارت لغتهم واحدة، فزعم بعض أهل اليمن أنهم منهم، فيقولون عكّ بن عدنان بن عبد الله بن الأزد بن يغوث، ويقال عك بن عدنان بن الذيب بن عبد الله بن الاسد، ويقال الريث بدل الذيب والصحيح ما ذكرنا من أنهم من عدنان. قال عباس بن مِرْدَاس [الطويل]

وَعَكُّ بْنُ عَدْنَانَ الَّذِينَ تَلَعَّبُوا ... بِغَسَّانَ حَتَّى طُرِدُوا كُلَّ مَطْرَدِ

وأما معد فولد له أربعة: نزار وقضاعة وقُنُص وإياد. وكان قُضاعة بكره وبه [كان][(٢)] يكنّى، وقد قدمنا الخلاف في قضاعة، ولكن هذا هو الصحيح عند ابن إسحاق وغيره والله أعلم.

(١) سقط في ط.
(٢) سقط في ط.

وأما قُنُص فيقال: أنهم هلكوا، ولم يبق لهم بقيّة، إلاّ أن النُّعْمَانُ بن المُنْذِرِ الذي كان نائباً لكسرى على الحيرة كان من سلالته، على قول طائفة من السلف وقيل: بل كان من حِمْيَر كما تقدم والله أعلم.

وأما نزار فولد له رَبيعة ومُضَر وأَنْمار، قال ابن هشام: وإياد بن نزار كما قال الشاعر: [الرمل]

وَفُتُو حَسَنٌ أَوْجُهُهُمْ مِنْ إِيَادِ بْنِ نِزَارِ بِنْ مَعَدّ

قال: وإياد ومُضَر شقيقان أمهما سَوْدةُ بنت عكّ بن عدنان وأم ربيعة وأنمار شقَيْقة بنت عك بن عدنان. ويقال: جُمْعة بنت عك بن عَدْنان: قال ابن إسحاق: فأما أنمار فهو والد خَثْعم وبَجيلة قبيلة جرير بن عبد الله البجلي، قال: وقد تيامنت فلحقت باليمن.

قال ابن هشام: وأهل اليمن يقولون أنمار بن أراش بن لِحْيان بن عمرو بن الغَوْث بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كَهْلان بن سبأ.

قلت: والحديث المتقدّم في ذكر سبأ يدلّ على هذا والله أعلم.

قالوا: وكان مضر أول من حدا وذلك لأنه كان حسن الصوت فسقط يوماً عن بعيره فوثئت يده، فجعل يقول وأيدياه وأيدياه، فأعنقت الابل لذلك قال ابن إسحاق: فولد مضر بن نزار رجلين: إلياس وَعَيْلان، وولد لإلياس مُدْركة وطابخة وقَمَعة، وأمّهم خِنْدف[1] بنت عمران بن الحاف بن قضاعة. قال ابن إسحاق: وكان اسم مُدْركة عامراً واسم طابخة عمراً، ولكن اصطاد صيداً فبينا هما يطبخانه إذ نفرت الابل، فذهب عامر في طلبها حتى أدركها، وجلس الآخر يطبخ، فلما راحا على أبيهما، ذكرا له ذلك فقال لعامر: أنت مُدْرِكة، وقال لعمرو أنت طابخة. قال: وأما قَمَعة فيزعم نسّاب مُضَر أن خزاعة من ولد عمرو بن لحيّ بن قَمعَة بن الياس، قلت: والأظهر أنه منهم لا والدهم، وأنهم من حِمْيَر كما تقدّم والله أعلم.

قال ابن إسحاق: فولد مُدْركة رجلين خُزَيْمة وهُذَيل وأمهما امرأة من قَضاعة، وولد خُزَيمة كِنانة وأَسَداً وأَسَدَة والهُون. وزاد أبو جعفر الطبري في ابناء كنانة على هؤلاء الأربعة عامراً والحارث والنضير وغنماً وسعداً وعوفاً وجرولاً والجدال وغزوان قال: وولد كنانة النضر ومالكاً وعبد مناة وملكان.

[الكلام على][2] قريش نسباً واشتقاقاً وفضلاً وهم بنو النضر بن كنانة

قال ابن إسحاق: وأم النضر بَرّة بنت مُرّ بن أدّ بن طابخة، وسائر بنيه لامرأة أخرى وخالفه ابن هشام فجعل بَرّة بنت مُرّ أم النَّضر، ومالك، ومِلْكان. وأم عبد مناة هالة بنت

---

(١) اسمها ليلى وأمها ضرية بنت ربيعة بن نزار التي ينسب إليها حمى ضرية، وخندف التي ضرب الأمثال بحزنها على الياس، وذلك أنها تركت أولادها وساحت في الأرض تبكيه حتى ماتت.

(٢) سقط في ط.

سُوَيد بن الغِطْريف من أَزْدِ شنوءة. قال ابن هشام: النضر هو قريش، فمن كان من ولده فهو قُرَشِيّ، ومن لم يكن من ولده فليس بقُرَشِيّ. وقال: ويقال فهر بن مالك، هو قرشي، فمن كان من ولده فهو قرشي، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي. وهذان القولان. قد حكاهما غير واحد من علماء[1] النسب؛ كالشيخ أبي عمر بن عبد البر، والزُبَيْر بن بكّار، ومصعب وغير واحد. قال أبو عُبَيْد وابن عبد البرّ: والذي عليه الأكثرون أنه النَّضْر بن كنانة، لحديث الأسعد بن قيس، قلت: وهو الذي نصّ عليه هِشام بن محمد بن السّائب الكَلْبِي، وأبو عبيدة معمر بن المثنّى، وهو جادة مذهب الشافعي رضي الله عنه. ثم اختار أبو عمر أنه فهر بن مالكَ واحتجّ بأنه ليس أحد اليوم ممن ينتسب إلى قريش إلاّ وهو يرجع في نسبه إلى فهر بن مالك. ثم حكى اختيار هذا القول عن الزُبَيْر بن بكّار، ومصعب الزبيري، وعلي بن كيسان. قال: وإليهم المرجع في هذا الشأن، وقد قال الزبير بن بكّار: وقد أجمع نسّاب قريش وغيرهم: أن قريشاً إنّما تفرّقت من فِهْر بن مالك، والذي عليه من أدركت من نسّاب قريش، أن ولد فهر بن مالك قرشي، وإن من جاوز فهر بن مالك بنسبه فليس من قريش، ثم نصر هذا القول نصراً عزيزاً، وتحامى له بأنه ونحوه أعلم بأنساب قومهم، وأحفظ لما آثرهم، وقد روى البخاري من حديث كليب بن وائل قال: قلت لربيبة النبي ﷺ يعني زينب في حديث ذكره: أخبريني عن النبيّ ﷺ أكان من مضر؟ قالت: فممن كان إلاّ من مضر، من بني النضر بن كنانة[2]. وقال الطبراني:

حدثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهاني، حدّثنا إسماعيل بن عمرو البجلي، ثنا الحسن بن صالح عن أبيه، عن الجشيش الكندي قال: جاء قوم من كندة إلى رسول الله ﷺ فقالوا: أنت منّا وادّعوه، فقال: «لاَ، نَحْنُ بَنُو النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ لاَ نَقْفُ أُمَّنَا وَلاَ نَنْتَفِي مِنْ أَبِينَا»

وقال الإمام أبو عثمان سعيد بن يحيي بن سعيد، حدثنا أبي، ثنا الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: جاء رجل من كندة يقال له الجَشِيش إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنا نزعم أن عبد مناف منّا، فأعرض عنه، ثم عاد فقال: مثل ذلك، ثم أعرض عنه، ثم عاد فقال: مثل ذلك فقال النبي ﷺ «نَحْنُ بَنُو النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ لاَ نَقْفُ أُمَّنَا وَلاَ نَنْتَفِي مِنْ أَبِينَا.» فقال الأشعث: ألا كنت سكت من المرة الأولى، فأبطل ذلك قوم على لسان نبيه ﷺ، وهذا غريب أيضاً من هذا الوجه، والكلبي ضعيف والله أعلم.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا بُهَز وعفان قالا: حدثنا حمّاد بن سَلمة. قال: ثني عقيل بن أبي طلحة، وقال عَفّان عُقَيل بن طَلْحَة السّلمي عن مسلم بن الهَيْصَم بن الأَشْعَثِ بن قيس أنه قال: أتيت رسول الله ﷺ في وفد كندة. قال عَفَّانُ ـ لا يروني أفضلهم قال فقلت: يا رسول الله إنا نزعم أنكم مِنا، قال فقال رسول الله ﷺ: «نَحْنُ بَنُو

---

(١) في ط أئمة.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب باب ١.

النَّضرِ بِنْ كِنَانَةَ لاَ نَقْفُ أُمَّنَا وَلاَ نَنْتَفِي مِنْ أَبِينَا»[١]. قال فقال الأشعث بن قيس فوالله لا أسمع أحداً نفى قريشاً من النَّضر بن كِنَانة إلاّ جلدته الحد.

وهكذا رواه ابن ماجه من طرق عن حمّاد بن سَلَمَة به وهذا إسناد جيد قوي، وهو فيصل في هذه المسألة، فلا التفات إلى قول من خالفة والله أعلم، ولله الحمد والمنة. وقد قال جرير بن عطية التميمي يمدح هشام بن عبد الملك بن مروان: [الوافر]

فَمَا الأُمُّ الَّتِي وَلَدَتْ قُرَيشاً بِمُقْرِفَةِ[٢] النِّجَارِ[٣] وَلاَ عَقِيمِ[٤]
وَمَا قِرمٌ[٥] بِأَنْجَبَ مِنْ أَبِيكُمْ وَلاَ خَالٌ بِأَكْرَمَ مِنْ تَمِيمِ

قال ابن هشام: يعني أم النَّضر بن كِنَانة، وهي بَرّة بنت مُرّ أخت تميم بن مر.

وأما اشتقاق قريش فقيل من التقرُّش وهو التجمّع بعد التفرق، وذلك في زمن قُصَيّ بن كلاب فإنهم كانوا متفرّقين فجمعهم بالحرم كما سيأتي بيانه، وقد قال حذافة بن غانم العدوي: [الطويل]

أَبُوكُمْ قُصَيٌّ كَانَ يُدْعى مُجَمِّعاً بِهِ جَمَّعَ اللَّهُ القَبَائِلَ مِنْ فِهْرِ

وقال بعضهم: كان قُصي يقال له: قُرَيْش، قيل من التجّمع والتقرّش التجمع، كما قال أبو خَلْدة اليَشكري: [الخفيف]

إِخْوَةٌ قَرَّشُوا الذُّنُوبَ عَلَيْنَا فِي حَدِيثٍ مِنْ دَهْرِنَا وَقَدِيمِ

وقيل: سمّيت قريش من التقرّش، وهو التكسّب والتجارة، حكاه ابن هشام رحمه الله. وقال الجوهري القرش الكسب والجمع، وقد قرّش يقرّش، قال الفراء: وبه سمّيت قريش، وهي قبيلة، وأبوهم النّضر بن كنانة، فكل من كان من ولده فهو قرشي دون ولد كنانة فما فوقه. وقيل من التفتيش، قال هِشَامُ بن الكَلْبِي: كان النضر بن كنانة تَسَمّى قريشاً لأنه كان يقرّش عن خلّة الناس وحاجتهم، فيسدّها بماله. والتقريش هو التفتيش، وكان بنوه يقرّشون أهل الموسم عن الحاجة فيرفدونهم بما يبلغهم بلادهم، فسمّوا بذلك من فعلهم، وقرّشهم قريشاً، وقد قال الحَارِثُ بن حِلّزَةَ في بيان أن التقرّش التفتيش: [الخفيف]

أَيُّهَا النَّاطِقُ المُقَرِّشُ عَنَّا عِنْدَ عَمْرٍو فَهَلْ لَهُ إِبْقَاءُ

حكى ذلك الزُبير بن بَكّار، وقيل قريش تصغير قرش، وهو دابة في البحر، قال بعض الشعراء: [الخفيف]

وَقُرَيْشٌ هِيَ الَّتِي تَسْكُنُ البَحْـ ـرَ بِهَا سُمِّيتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشَا

(١) أخرجه ابن ماجة في الحدود، باب ٣٧ وأحمد في المسند ٥/٢١٢.
(٢) المقرفة: اللئيمة.
(٣) النجار: الأصل.
(٤) العقيم: التي لا تحمل.
(٥) القرم: السيد.

قال البيهقي: أخبرنا أبو نصر بن قتادة، أنا أبو الحسن علي بن عيسى الماليني، حدّثنا محمد بن الحسن بن الخليل النسوي أن أبا كُرَيْب حدّثهم حدثنا وَكيع بن الجَرّاح عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن أبي رُكانة العامري أن معاوية قال لابن عباس: فلمَ سميت قريش قريشاً؟ فقال لدابة تكون في البحر تكون أعظم دوابه، فيقال لها: القِرْش لا تمر بشيء من الغث والسمين إلا أكلته. قال فأنشدني في ذلك شيئاً، فأنشده شعر الجُمحي إذ يقول: [الخفيف]

وَقُرَيْشٌ هِيَ الَّتي تَسْكُنُ البَحْـ ... ـرَ بِهَا سُمِّيَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشَا

تَأْكُلُ الغَثَّ وَالسَّمِينَ وَلاَ ... تَتْرُكَنَّ لِذِي الجَنَاحَيْنِ رِيشَا

هَكَذَا فِي البِلاَدِ حَيُّ قُرَيْشٍ ... يَأْكُلُونَ البِلاَدَ أَكْلاً كَمِيشَا

وَلَهُمْ آخِرَ الزَّمَانِ نَبِيٌّ ... يُكْثِرُ القَتْلَ فِيهِمُ وَالخُمُوشَا

وقيل سمّوا بقريش بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة، وكان دليل بني النضر وصاحب ميرتهم، فكانت العرب تقول قد جاءت عير قريش، قالوا وابن بدر بن قريش هو الذي حفر البئر المنسوبة إليه التي كانت عندها الوقعة العظمى يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان والله أعلم.

ويقال في النسبة إلى قُرَيْش قُرَشِيّ وَقُرَيْشِيٌّ قال الجوهري: وهو القياس. قال الشاعر: [الطويل]

لِكُلِّ قُرَيْشِيٍّ عَلَيْهِ مَهَابَةٌ ... سَرِيعٌ إلى دَاعِي النَّدَاء وَالتَّكَرُّمِ

قال: فإذا أردت بقريش الحي صرفته، وإن أردت القبيلة منعته. قال الشاعر في ترك الصرف: [الكامل]

وَكَفَى قُرَيْشَ المُعْضِلاَتِ وَسَادَهَا[١]

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي عمر والأوزاعي قال: حدثني شداد أبو عمّار، حدثني واثِلة بن الأَسْقَعَ قال قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وُلْدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشاً مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى هَاشِماً مِنْ قُرَيْشٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِم»[٢]. قال أبو عمر بن عبد البر: يقال بنو عبد المطلب فصيلة رسول الله ﷺ، وبنو هاشم فخذه، وبنو عبد مناف بطنه، وقريش عمارته، وبنو كنانة قبيلته، ومضر شعبه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

ثم قال ابن إسحاق: فولد النضر بن كنانة مالكاً ومخلداً، قال ابن هشام: والصلت،

---

(١) البيت لعدّي بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك على ما في اللسان وصدره:

غلب المساميح الوليد سماحة

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل حديث ١، وأحمد في المسند ٤/١٠٧.

وأمهم جميعاً بنت سعد بن الظَرِب العدواني. قال كُثَيِّر بن عبد الرحمن: وهو كُثَيِّر عزَّة أحد بني مُلَيح بن عمرو من خزاعة: [الطويل]

أَلَيْسَ أَبِي بِالصَّلْتِ أَمْ لَيْسَ إِخْوَتِي ... لِكُلِّ هِجَانٍ[1] مِنْ بَنِي النَّضْرِ أَزْهَرَا[2]

رَأَيْتُ ثِيَابَ العُصْبِ[3] مُخْتَلِطَ السَّدَى ... بِنَا وَبِهِمْ وَالحَضْرَمِيَّ[4] المُخَصَّرَا

فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا مِنْ بَنِي النَّضْرِ فَاتْرُكُوا ... أَرَاكاً بِأَذْنَابِ الفَوَائِجِ[5] أَخْضَرَا

قال ابن هشام: وبنو مليح بن عمرو يعزون إلى الصّلت بن النّضر.

قال ابن إسحاق: فولد مالك بن النضر فِهْر بن مالك، وأمه جَنْدلة بنت الحارث بن مضاض الأصغر، وولد فهر غالباً ومُحارباً والحارث وأَسَداً، وأمهم ليلى بنت سعد بن هُذَيْل بن مُدْركة.

قال ابن هشام: وأختهم لأبيهم جندلة بنت فِهْر. قال ابن إسحاق: فولد غالب بن فِهْر لؤي بن غالب، وتيم بن غالب، وهم الذين يقال لهم: بنو الأَدْرَم، وأمهما سلمى بنت عمرو الخزاعي. قال ابن هشام: وقيس بن غالب، وأمه سلمى بنت كَعْب بن عمرو الخزاعي، وهي أم لؤي، قال ابن إسحاق: فولد لؤي بن غالب أربعة نفر: كعباً وعامراً وسامة وعوفاً. قال ابن هشام: ويقال: والحارث وهم جُشَم بن الحارث في هِزّان من ربيعة وسعد بن لؤي، وهما بُنانة في شَيْبان بن ثعلبة، وبنانة حاضنة لهم، وخزيمة بن لؤي، وهم عائذة في شيبان بن ثعلبة.

ثم ذكر ابن إسحاق خبر سامة بن لؤيّ. وأنه خرج إلى عُمان فكان بها، وذلك لشنآن كان بينه وبين أخيه عامر، فأخافه عامرُ فخرج عنه هارباً إلى عمان، وأنه مات بها غريباً، وذلك أنه كان يرعى ناقته فعلقت حية بمشفرها فوقعت لشِقّها، ثم نهشت الحيةُ سامةَ حتى قتلته، فيقال إنه كتب بأصبعه على الارض: [الخفيف]

عَيْنِ فَابْكِي لِسَامَةَ بْنِ لُؤَيٍّ ... عَلِقَتْ مَا بِسَامَةَ العَلاَّقَه

لاَ أَرَى مِثْلَ سَامَةَ بْنِ لُؤَيٍّ ... يَوْمَ حَلُّوا بِهِ قَتِيلاً لِنَاقَهْ

بَلِّغَا عَامِراً وَكَعْباً رَسُولاً ... أَنَّ نَفْسِي إِلَيْهِمَا مُشْتَاقَهْ

إِنْ تَكُنْ فِي عُمَانَ دَارِي فَإِنِّي ... غَالِبِيٌّ خَرَجْتُ مِنْ غَيْرِ فَاقَهْ

رُبَّ كَأْسٍ هَرَقْتَ يَا بنَ لُؤَيٍّ ... حَذَرَ المَوْتِ لَمْ تَكُنْ مُهْرَاقَهْ

(١) الهجان: الكريم ويقال: ابن الأمة.
(٢) الأزهر: المشهور.
(٣) ثياب العصب: ثياب يمانية.
(٤) الحضرمي: من النعال.
(٥) الفوائج: رؤوس الأودية.

رُمْتَ دَفْعَ الحُتُوفِ يابنَ لُؤَيٍّ ... ما لِمَنْ رامَ ذَاكَ بِالحَتْفِ طَاقَهْ
وَخَرُوسِ السُّرَى تَرَكْتَ رَزِيًّا ... بَعْدَ جِدٍ وَجِدَّةٍ وَرَشَاقَهْ

قال ابن هشام: وبلغني أن بعض ولده أتى رسول الله ﷺ فانتسب إلى سامة بن لؤي، فقال له رسول الله ﷺ: «الشَّاعِرُ»؟ فقال له بعض أصحابه، كأنك يا رسول الله أردت قوله. [الخفيف]

رُبَّ كَأْسٍ هَرَقْتَ يَابْنَ لُؤَيّ ... حَذَرَ المَوْتِ لَمْ تَكُنْ مُهْرَاقَهْ

فقال أجل.

وذكر السهيلي عن بعضهم أنه لم يعقب. وقال الزبير ولد أسامة بن لؤي: غالباً والنبيت والحارث قالوا: وكانت له ذرية بالعراق يبغضون علياً، ومنهم علي بن الجعد، كان يشتم أباه لكونه سمّاه علياً، ومن بني سامة بن لؤي [محمد][1] بن عرعرة بن اليزيد شيخ البخاري.

وقال ابن إسحاق: وأما عوف بن لؤي فإنه خرج فيما يزعمون في رَكْب من قريش حتى إذا كان بأرض غَطفان بن سَعْد بن قَيْس بن عَيْلان، أُبْطِيءَ به، فانطلق مَنْ كان معه من قومه، فأتاه ثعلبة بن سعد، وهو أخوه في نسب بني ذُبيان، فحبسه وزوّجه والتاطه[2] وآخاه، فشاع نسبه في ذُبيان وثعلبة، فيما يزعمون.

قال ابن إسحاق: وحدّثني محمد جعفر بن الزبير أو محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين أن عمر بن الخطّاب قال: لو كنت مُدّعيا حيًّا من العرب أو مُلحقهم بنا لادعيت بني مرّة بن عوف، إنا لنعرف منهم الأشباه مع ما نعرف من موقع ذلك الرجل، حيث وقع، يعني عوفَ بن لؤي.

قال ابن إسحاق: وحدّثني من لا أتهم أن عمر بن الخطّاب، قال لرجال منهم من بني مُرّة: إن شئتم أن ترجعوا إلى نسبكم فارجعوا إليه. قال ابن إسحاق: وكان القوم أشرافاً في غطفان هم سادتهم وقادتهم قولهم لهم صيت في غطفان وقيس كلّها، فأقاموا على نسبهم، قالوا: وكانوا يقولون اذا ذكر لهم نسبهم ما ننكره وما نجحده وإنه لأحب النسب إلينا. ثم ذكر أشعارهم في انتمائهم إلى لؤي، قال ابن إسحاق: وفيهم كان البسل[3]. وهو تحريم ثمانية أشهر لهم من كل سنة من بين العرب، وكانت العرب تعرف لهم ذلك، ويأمنونهم فيها ويؤمّنونهم أيضا. قلت: وكانت ربيعة ومضر إنما يحرمون أربعة أشهر من السنة، وهي ذو القعدة وذو الحجّة والمحرم، واختلفت ربيعة ومضر في الرابع، وهو رجب، فقالت مضر:

---

(١) سقط في ط.

(٢) التاطه: ألصقه به وضمّ إليه وألحقه بنسبه.

(٣) البسل: الحلال والحرام، فهو من الأضداد ويستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، يقال: هذا بَسْل عليك أي حرام.

هو الذي بين جمادى وشعبان، وقالت ربيعة: هو الذي بين شعبان وشوّال وقد ثبت في الصحيحين عن أبي بَكْرَةَ أن رسول الله ﷺ قال في خطبة حجّة الوداع: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهراً، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلاثٌ مُتَوالِيَاتٌ: ذُو القِعْدَةُ وَذُو الحِجَّةُ وَالمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ»(١) فنصّ على ترجيح قول مضر لا ربيعة، وقد قال الله عزّ وجل ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦] فهذا ردّ على بني عوف بن لؤي في جعلهم الأشهر الحرم ثمانية، فزادوا على حكم الله، وأدخلوا فيه ما ليس منه وقوله في الحديث ثلاث متواليات رَدّ على أهل النسيء الذين كانوا يؤخّرون تحريم المحرّم إلى صفر. وقوله فيه ورجب مضر ردّ على ربيعة. قال ابن إسحاق: فولد كعب بن لؤي ثلاثة، مُرّة، وعَدِياً، وهُصَيْصاً وولد مرة، ثلاثة أيضا كِلاب بن مرة، وتَيْم بن مرة، وَيَقَظَة بن مرة من أمهات ثلاث. قال وولد كلاب رجلين قُصَي بن كلاب، وزهرة بن كَلاب وأمهما فاطمة بنت سَعْد بن سَيَل أحد الجُدَرَة من جُعْثُمَة الأسد من اليمن، حلفاء بني الدّيل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة وفي أبيها يقول الشاعر: [الرمل]

مَا نَرَى فِي النَّاسِ شَخصاً وَاحِداً ... مَنْ عَلِمْنَاهُ كَسَعْدِ بنِ سَيَلْ
فَارِساً أَضْبَطَ فِيهِ عُسْرَةٌ ... وَإِذَا مَا وَاقَفَ القِرْنَ نَزَلْ
فَارِساً يَسْتَدْرِجُ الخَيْلَ كَمَا اسْـ ... ـتَدْرَجَ الحُرُّ القَطَامِيّ(٢) الحَجَلْ

قال السُّهيلي: سيل: اسمه خير بن جمالة وهو أول من طليت له السيوف بالذهب والفضة.

قال ابن إسحاق: وإنما سُمّوا الجَدَرَة لأن عامر بن عمرو بن خزيمة بن جعثمة تزوج بنت الحارث بن مضاض الجُرْهُمي، وكانت جُرْهم إذ ذاك ولاة البيت، فبني للكعبة جداراً، فسمي عامر بذلك الجَادِر، فقيل لولده: الجَدَرَة لذلك.

خبر قصي بن كلاب وما كان من أمره في ارتجاعه ولاية البيت إلى قريش وانتزاع ذلك من خزاعة

وذلك أنه لما مات أبوه كلاب تزوّج أمه ربيعة بن حرام من عذرة وخرج بها وبه إلى بلاده ثم قدم قُصَي مكة وهو شاب فتزوج حبي ابنة رئيس خزاعة حليل بن حبشية. فأما خزاعة فزعم أن حليلاً أوصى إلى قصي بولاية البيت لما رأى من كثرة نسله من ابنته، وقال: أنت أحق بذلك مني. قال ابن إسحاق: ولم نسمع ذلك إلا منهم، وأما غيرهم فإنهم يزعمون: أنه استغاث بإخوته من أمه، وكان رئيسهم رزاح بن ربيعة، وإخوته وبني كنانة

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٢٤، ومسلم في القسامة حديث ٢٩، وأحمد في المسند ٥/ ٣٧.

(٢) القطامي: أي الصقر.

وقضاعة ومن حول مكة من قريش وغيرهم، فأجلاهم عن البيت واستقلّ هو بولاية البيت، لأن إجازة الحجيج كانت إلى صوفة وهم بنو الغوث بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر، فكان الناس لا يرمون الجمار[1] حتى يرموا، ولا ينفرون من مِنى حتى ينفروا، فلم يزل كذلك فيهم حتى انقرضوا، فورثهم ذلك بالقُعْدَد بنو سعد بن زيد مناة بن تميم، فكان أوّلهم صفوان بن الحارث بن شجنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، وكان ذلك في بيته حتى قام على آخرهم الإسلام، وهو كَرِب بن صَفْوان. وكانت الاجازة من المزدلفة في عدوان حتى قام الإسلام على آخرهم، وهو أبو سيارة عميلة بن الأعزل، وقيل: اسمه العاص [بن خالد][2]، واسم الأعزل خالد، وكان يجيز بالناس على أتان له عوراء مكث يدفع عليها في الموقف أربعين سنة، وهو أول من جعل الديّة مائة، وأول من كان يقول أشرق ثبير كيما نغير. حكاه السهيلي.

وكان عامر بن الظرب العدواني لا يكون بين العرب نائرة[3] إلاّ تحاكموا إليه، فيرضون بما يقضي به، فتحاكموا إليه مَرّة في ميراث خنثى، فبات ليلته ساهراً يتروّى ماذا يحكم به، فرأته جارية له كانت ترعى عليه غنمه اسمها سخيلة، فقالت له: ما لك لا أبا لك الليلة ساهراً؟ فذكر لها ما هو مفكّر فيه، وقال: لعلها يكون عندها في ذلك شيء فقالت: اتبع القضاء المبال، فقال: فرجتها والله يا سخيلة وحكم بذلك.

قال السهيلي: وهذا الحكم من باب الاستدلال بالأمارات والعلامات، وله أصل في الشرع، قال الله تعالى ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ﴾ [يوسف: ١٨] حيث لا أثر لأنياب الذئب فيه، وقال تعالى: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف: ٢٦ - ٢٧] وفي الحديث: «أَنْظِرُوهَا فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَوْرَقَ جَعْداً جَمَالياً فَهُوَ لِلَّذِي رُمِيَتْ بِهِ»[4]. قال ابن إسحاق: وكان النسيء في بني فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مُدْركة بن إلياس بن مضر. قال ابن إسحاق: وكان أول من نسأ الشهور على العرب القَلَمَّسُ وهو: حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدي، ثم قام بعده ابنه عباد، ثم قلع بن عباد، ثم أمية بن قلع، ثم عوف بن أمية، ثم كان آخرهم أبو ثُمامة جُنادة بن عوف بن قلع بن عباد بن حذيفة، وهو القلمّس، فعلى أبي ثمامة قام الإسلام. وكانت العرب إذا فَرَغَت من حجّها اجتمعت إليه فخطبهم، فحرّم الأشهر الحرم، فإذا أراد أن يُحِلّ منها شيئاً أحلّ المحرّم، وجعل مكانه صفراً ﴿ ليواطئوا عدّة ما حرّم الله﴾ فيقول: (اللّهُمّ إني أَحلَلْتُ أَحَدَ الصَّفَرَيْنِ الصفَرَ الأَوّلَ وَأَنسأْتُ الآخِرَ لِلْعَامِ المُقْبِلِ) فتتبعه العرب في ذلك، ففي ذلك يقول [شعراً][5] عُمَيرُ بن

(١) الجمار: الحصا.
(٢) سقط في ط.
(٣) النائرة: العداوة.
(٤) أخرجه أبو داود في الطلاق باب ٢٧، وأحمد في المسند ١/ ٢٣٩.
(٥) سقط في ط.

قَيسْ أحد بني فِراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة، ويعرف عُمَيْر بن قَيْس هذا بجدل الطعان: [الوافر]

لَقَدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ أَنَّ قَوْمِي ... كِرَامُ النَّاسِ أَنَّ لَهُمْ كِرَامَا
فَأَيُّ النَّاسِ فَاتُونَا بِوِتْرٍ ... وَأَيُّ النَّاسِ لَمْ نُعْلِكْ لِجَامَا
أَلَسْنَا النَّاسِئِينَ عَلَى مَعَدٍّ ... شُهُورَ الحِلِّ نَجْعَلُهَا حَرَامَا

وكان قصي في قومه سيداً رئيساً مطاعاً معظماً، والمقصود أنه جمع قريشاً من متفرقات مواضعهم من جزيرة العرب، واستعان بمن أطاعه من أحياء العرب على حرب خزاعة، وإجلائهم عن البيت [الحرام][1]، وتسليمه إلى قصي، فكان بينهم قتال كثيرة ودماء غزيرة، ثم تداعوا إلى التحكيم، فتحاكموا إلى يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، فحكم بأن قصياً أولى بالبيت من خزاعة، وأن كل دم أصابه قصي من خزاعة وبني بكر موضوع بشدخه تحت قدميه، وأن ما أصابته خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة وقضاعة ففيه الدية مؤداة، وأن يخلى بين قصي وبين مكة والكعبة، فسمي يعمر يومئذ الشدّاخ.

قال ابن إسحاق: فوليَ قصي البيت وأمر مكة، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة، وتملّك على قومه وأهل مكة، فملكوه، إلاّ أنه أقرّ العرب على ما كانوا عليه، لأنه يرى ذلك ديناً في نفسه لا ينبغي تغييره، فأقرّ آل صفوان وعدوان والنسأة ومرّة بن عوف على ما كانوا عليه، حتى جاء الإسلام فهدم الله به ذلك كلّه، قال: فكان قصي أول بني كعب أصاب ملكاً أطاع له به قومه، وكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء، فحاز شرف مكّة كله، وقطع مكة رباعاً بين قومه، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة.

قلت: فرجع الحق إلى نصابه، وردّ شارد العدل بعد إيابه، واستقرت بقريش الدار، وقضت من خزاعة المراد والأوطار[2]، وتسلّمت بيتهم العتيق القديم. لكن بما أحدثت خزاعة من عبادة الأوثان ونصبها إياها حول الكعبة، ونحرهم لها، وتضرّعهم عندها، واستنصارهم بها، وطلبهم الرزق منها وأنزل قصي قبائل قريش أباطح مكة، وأنزل طائفة منهم ظواهرها، فكان يقال قريش البطاح، وقريش الظواهر، فكانت لقصي بن كلاب جميع الرئاسة من حجابة البيت وسدانته واللواء، وبنى داراً لإزاحة الظلمات وفصل الخصوماتَ سمّاها دار الندوة إذا أعضلت قضية اجتمع الرؤساء من كل قبيلة فاشتوروا فيها وفصلوها، ولا يعقد عقد لواء ولا عقد نكاح إلاّ بها، ولا تبلّغ حارثة[3] أن تدرع فتدرع إلا بها. وكان باب هذه الدار إلى المسجد الحرام، ثم صارت هذه الدار فيما بعد إلى حكيم بن حزام بعد

(١) سقط في ط.
(٢) الأوطار: الحاجات.
(٣) في ط: جارية.

بني عبد الدار، فباعها في زمن معاوية بمائة ألف درهم، فلامه على بيعها معاوية، وقال: بعت شرف قومك بمائة ألف؟ فقال: إنما الشرف اليوم بالتقوى والله، لقد ابتعتها في الجاهلية بزق خمر، وها أنا قد بعتها بمائة ألف، وأشهدكم أن ثمنها صدقة في سبيل الله، فأيّنا المغبون؟ ذكره الدارقطني في أسماء رجال الموطأ، وكانت إليه سقاية الحجيج، فلا يشربون إلا من ماء حياضه، وكانت زمزم إذ ذاك مطموسة من زمن جُرْهُم، قد تناسوا أمرها من تقادم عهدها، ولا يهتدون إلى موضعها. قال الواقدي: وكان قصي أول من أحدث وقيد النار بالمزدلفة ليهتدي إليها من يأتي من عرفات والرفادة، وهي إطعام الحجيج أيام الموسم إلى أن يخرجوا راجعين إلى بلادهم.

قال ابن إسحاق: وذلك أن قصّياً فرضه عليهم، فقال لهم: يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل مكة وأهل الحرم، وأن الحجّاج ضيف الله وزوّار بيته، وهم أحق بالضيافة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحجّ، حتى يصدروا عنكم، ففعلوا فكانوا يخرجون لذلك في كل عام من أموالهم خرجاً، فيدفعونه إليه، فيصنعه طعاماً للناس أيام مِنى، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية، حتى قام الإسلام. ثم جرى في الإسلام إلى يومك هذا، فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام بمنى للناس حتى ينقضي الحج.

قلت: ثم انقطع هذا بعد ابن إسحاق، ثم أمر بإخراج طائفة من بيت المال، فيصرف في حمل زاد وماء لأبناء السبيل القاصدين إلى الحج، وهذا صنيع حَسَن من وجوه يطول ذكرها، ولكن الواجب أن يكون ذلك من خالص بيت المال، من أحل ما فيه، والأولى أن يكون من جوالي الذّمة لأنهم لا يحجّون البيت العتيق وقد جاء في الحديث «مَنِ اسْتَطَاعَ الحَجَّ فَلَمْ يَحُجَّ فَلْيَمُتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيّاً أَوْ نَصْرَانِيّاً».

وقال قائلهم في مدح قصي وشرفه في قومه: [الطويل]

قُصَيٌّ لَعَمْرِي كَانَ يُدْعَى مُجَمِّعاً بِهِ جَمَّعَ اللَّهُ القَبَائِلَ مِنْ فِهْرِ
هُمُوا مَلَؤُوا البَطْحَاء مَجْداً وَسُؤْدَداً وَهُمْ طَرَدُوا عَنَّا غُوَاةَ بَنِي بَكْرِ

قال ابن إسحاق: ولما فرغ قصي من حربه، انصرف أخوه رزاح بن ربيعة إلى بلاده بمن معه وإخوته من أبيه الثلاثة وهم: حن ومحمود وجلهمة. قال رزاح في إجابته قصياً: [المتقارب]

وَلَمَّا أَتَى مِنْ قُصَيٍّ رَسُولٌ فَقَالَ الرَّسُولُ أَجِيبُوا الخَلِيلا
نَهَضْنَا إِلَيْهِ نَقُودُ الجِيَا دَ وَنَطْرَحُ عَنَّا المَلُولَ الثَّقِيلا
نَسِيرُ بِهَا اللَّيْلَ حَتَّى الصَّبَا حَ وَنُكْمِي[1] النَّهَارَ لَئِلا نَزُولا
فَهُنَّ سِرَاعٌ كَوِرْدِ القَطَا يُجِبْنَ بِنَا مِنْ قُصَيٍّ رَسُولا

(١) نكمي: نكمن ونستتر.

جَمَعْنَا مِنَ السِّرِّ مِنْ أَشْمِذَيْنَ[1] وَمِنْ كُلِّ حَيٍّ جَمَعْنَا قَبِيلا
فَيَا لَكِ حَلْبَةَ مَا لَيْلَةٍ تَزِيدُ عَلَى الأَلْفِ سَيْباً رَسِيلا[2]
فَلَمَّا مَرَرْنَ عَلَى عَسْجَرٍ وَأَسْهَلْنَ مِنْ مُسْتَنَاخٍ سَبِيلا
وَجَاوَزْنَ بِالرُّكْنِ مِنْ وَرِقَا نَ[3] وَجَاوَزْنَ بِالعَرْجِ[4] حَيّاً حُلُولا
مَرَرْنَ عَلَى الحِلِّي مَا ذُقْنَهُ وَعَالَجْنَ مِنْ مَرِّ لَيْلاً طَوِيلا
نُدْنِي مِنَ العُوذِ أَفْلاءَهَا إِرَادَةَ أَنْ يَسْتَرِقْنَ الصَّهِيلا
فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَى مَكَّة أَبَحْنَا الرِّجَالَ قَبِيلاً قَبِيلا
نُعَاوِرُهُمْ ثَمَّ حَدَّ السُّيُو فِ وَفِي كُلِّ أَوْبٍ خَلَسْنَا العُقُولا[5]
نُخَبِّزُهُمْ بِصِلابِ النُّسُو رِ خَبْزَ القَوِيِّ العَزِيزِ الذَّلِيلا[6]
قَتَلْنَا خُزَاعَةَ فِي دَارِهَا وَبَكْراً قَتَلْنَا وَجِيلاً فَجِيلا
نَفَيْنَاهُمُ مِنْ بِلادِ المَلِيـ ـكِ كَمَا لا يُحِلُّونَ أَرْضاً سُهُولا
فَأَصْبَحَ سَبْيُهُم فِي الحَدِيـ ـدِ وَمِنْ كُلِّ حَيٍّ شَفَيْنَا الغَلِيلا

قال ابن إسحاق: فلما رجع رزاح إلى بلاده نشره الله ونشر حنا، فهما قبيلا عذرة إلى اليوم.

قال ابن إسحاق: وقال قُصَيُّ بن كلاب في ذلك: [الوافر]

أَنَا ابْنُ العَاصِمِينَ بَنِي لُؤَيٍّ بِمَكَّةَ مَنْزِلِي وَبِهَا رَبِيتُ
إِلَى البَطْحَاءِ قَدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ وَمَرْوَتُهَا رَضِيتُ بِهَا رَضِيتُ
فَلَسْتُ لِغَالِبٍ إِنْ لَمْ تَأَثَّلْ بِهَا أَوْلادُ قَيْذَرَ وَالنَّبِيتُ[7]
رِزَاحٌ نَاصِرِي وَبِهِ أُسَامِي فَلَسْتُ أَخَافُ ضَيْماً مَا حَيِيتُ

وقد ذكر الأموي عن الأشرم عن أبي عبيدة عن محمد بن حفص: أن رِزاحاً إنما قدم بعدما نفى قُصَيّ خزاعة والله أعلم.

---

(١) الأشمذان جبلان بين المدينة. ويقال اسم قبيلتين.
(٢) الحلبة: جماعة الخيل والسيب: المشي السريع في رفق كانتساب الحية. والرسيل: الذي فيه تمّهل.
(٣) ورقان: جبل أسود بين العرج والرويثة، على يمين المصعد من المدينة إلى مكة. (معجم البلدان).
(٤) العرج: واد من نواحي الطائف، وإليه ينسب العرجي الشاعر (معجم البلدان).
(٥) نعاورهم: نداولهم مرة بعد مرة. والأوبُ: الرجوع.
(٦) نخبزهم: أي نسوقهم سوقاً شديداً. صلاب النسور: الخيل. والنسور: اللحم اليابس.
(٧) تأثل: أي إذا أقام في مكان واستقر به ولم يبرحه ـ أما قيذر والنبيت: يعني أولاد إسماعيل عليه السلام.

فصل

ثم لما كبر قُصَي فوّض أمر هذه الوظائف التي كانت إليه من رئاسات قريش وشرفها، من الرفادة والسقاية والحجابة واللواء والندوة، إلى ابنه عبد الدار، وكان أكبر ولده. وإنّما خصّصه بها كلّها لأن بقية إخوته عبد مناف وعبد الشمس وعبداً كانوا قد شرفوا في زمن أبيهم وبلغوا في قوّتهم شرفاً كبيراً، فأحب قصي أن يلحق بهم عبد الدار في السؤدد، فخصّصه بذلك، فكان إخوته لا ينازعونه في ذلك. فلما انقرضوا تشاجر أبناؤهم في ذلك، وقالوا: إنّما خصّص قُصي عبد الدار بذلك ليلحقه بإخوته، فنحن نستحق ما كان آباؤنا يستحقونه، وقال بنو عبد الدار: هذا أمر جعله لنا قُصي فنحن أحق به، واختلفوا اختلافاً كثيراً وانقسمت بطون قريش فرقتين، ففرقة بايعت عبد الدار وحالفتهم وفرقة بايعت بني عبد مناف وحالفوهم على ذلك، ووضعوا أيديهم عند الحلف في جفنة فيها طيب، ثم لما قاموا مسحوا أيديهم بأركان الكعبة فسموا حلف المطيبين. وكان منهم من قبائل بنو أسد بن عبد العزى بن قصي، وبنو زهرة، وبنو تيم، وبنو الحارث بن فهر، وكان مع بني عبد الدار بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمح وبنو عدي، واعتزلت بنو عامر بن لؤي ومحارب بن فهر الجميع، فلم يكونوا مع واحد منهما، ثم اصطلحوا واتفقوا على أن تكون الرفادة والسقاية لبني عبد مناف، وأن تستقر الحجابة واللواء والندوة في بني عبد الدار، فانبرم الأمر على ذلك واستمر.

وحكى الأموي عن الأشرم عن أبي عبيدة قال: وزعم قوم من خزاعة أن قصياً لما تزوّج حبي بنت حليل ونقل حليل عن ولاية البيت جعلها إلى ابنته حبي، واستناب عنها أبا غبشان سليم بن عمرو بن لؤي بن ملكان بن قصي بن حارثة بن عمرو بن عامر، فاشترى قصي ولاية البيت منه بزق خمر وقعود، فكان يقال: (أخسر من صفقة أبي غبشان) ولما رأت خزاعة ذلك اشتدوا على قصي فاستنصر أخاه، فقدم بمن معه، وكان ما كان؛ ثم فوّض قصي هذه الجهات التي كانت إليه من السدانة والحجابة واللواء والندوة والرفادة والسقاية، إلى ابنه عبد الدار كما سيأتي تفصيله وإيضاحه، وأقر الإجازة من مزدلفة في بني عدوان وأقرّ النسيء في فقيم، وأقر الإجازة وهو النفر في صوفة، كما تقدّم بيان ذلك كله، مما كان بأيديهم قبل ذلك.

قال ابن إسحاق: فولد قصي أربعة نفر وامرأتين عبد مناف، وعبد الدار، وعبد العزى، وعبداً وتخمر وبرّة، وأمّهم كلّهم حبى بنت حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي، وهو آخر من ولي البيت من خزاعة، ومن يده أخذ البيت قصي بن كلاب. قال ابن اسحاق[1]: فولد عبد مناف بن قصي أربعة نفر هاشماً وعبد شمس والمطلب، وأمهم عاتكة بنت مرّة بن هلال، ونوفل بن عبد مناف وأمه واقدة بنت عمرو المازنية. قال ابن

(١) في ط: هشام.

هشام: وولد لعبد مناف أيضاً أبو عمرو وتماضر وقلابة وحية وريطة وأم الأخثم وأم سفيان. قال ابن هاشم: وولد هاشم بن عبد مناف أربعة نفر وخمس نسوة عبد المطلب وأسداً وأبا صيفي ونضلة والشفا وخالدة وضعيفة ورقية وحية، فأم عبد المطلب ورقية: سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجّار من المدينة، وذكر أمهات الباقين. قال: وولد عبد المطلب عشرة نفر وست نسوة، وهم: العباس وحمزة وعبد الله وأبو طالبَ واسمه عبد مناف لا عمرانَ، والزبير والحارث، وكان بكر أبيه وبه كانِ يكنى، وجحل ومنهم من يقول حجل وكان يلقب بالغيداق لكثرة خيره، والمقوم وضرار وأبو لهبَ واسمه عبد العزىَ، وصفية وأم حكيم البيضاء، وعاتكة وأميمة وأروى وبرّة، وذكر أمهاتهم إلى أن قال وأم عبد الله وأبي طالب والزبير وجميع النساء إلا صفية فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غلب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، قال: فولد عبد الله محمداً رسول الله ﷺ سيّد ولد آدم، وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي. ثم ذكر أمهاتها فأغرق إلى أن قال فهو أشرف ولد آدم حسباً، وأفضلهم نسباً من قبل أبيه وأمه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين. وقد تقدّم حديث الأوزاعي عن شدّاد أبي عمار عن واثلة بن الأسْقَع قال قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وُلْدِ اسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشاً مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى هَاشِماً مِنْ قُرَيْشٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»[1]. رواه مسلم. وسيأتي بيان مولده الكريم، وما ورد فيه من الاخبار والآثار، وسنورد عندَ سرد النسب الشريف فوائد أخر ليست ها هنا إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان.

ذكر جمل من الأحداث في الجاهلية

قد تقدّم ما كان من أخذ جرهم ولاية البيت من بني إسماعيل طمعوا فيهم لأنهم أبناء بناتهم، وما كان من توثّب خزاعة على جرهم، وانتزاعهم ولاية البيت منهم، ثم ما كان من رجوع ذلك إلى قصي وبنيه واستمرار ذلك في أيديهم إلى أن بعث الله ورسوله ﷺ فأقر تلك الوظائف على ما كانت عليه.

[باب][2] ذكر جماعة [كانوا][3] مشهورين في الجاهلية

خبر خالد بن سِنان العَبْسي الذي كان في زمن الفترة، وقد زعم بعضهم أنه كان نبياً والله أعلم.

(١) أخرجه مسلم في الفضائل حديث ١، وأحمد في المسند ٤/١٠٧.

(٢) سقط في ط.

(٣) سقط في ط.

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدّثنا أحمد بن زُهير التُّسْتُرِي حدثنا يحيى بن المُعَلّى بن منصور الرازي حدّثنا محمد بن الصَّلْتِ، حدثنا قيس بن الربيع عن سَالم الأفطَسِ، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. قال: جاءت بنت خالد بن سِنان إلى النبي ﷺ فبسط لها ثوبه وقال: «بِنْتُ نَبِيٍّ ضَيَّعَهُ قَوْمُهُ». وقد رواه الحافظ أبو بكر البزّار عن يحيى بن المعلى بن منصور، عن محمد بن الصلت، عن قيس، عن سالم، عن سعيد، عن ابن عبّاس. قال: ذكر خالد بن سنان عند رسول الله ﷺ فقال: «ذَاكَ نَبِيٌّ ضَيَّعَهُ قَوْمُهُ». ثم قال ولا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وكان قيس بن الربيع ثقة في نفسه، إلاّ أنه كان رديء الحفظ، وكان له ابن يدخل في أحاديثه ما ليس منها والله أعلم.

قال البزّار: وقد رواه الثوري عن سالم الأفطس عن سعيد بن جُبَيْر مرسلاً. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا المعلى بن مهدي المُوصلّي قال: حدثنا أبو عوانة عن أبي يونس، عن عِكرمة، عن ابن عبّاس أن رجلاً من عبس يقال له خالد بن سنان قال لقومه: إني أطفىء عنكم نار الحرّتين، فقال له رجل من قومه: والله يا خالد ما قلت لنا قط إلاّ حقاً فما شأنك وشأن نار الحرتين تزعم أنك تطفئها؟ فخرج خالد ومعه أناس من قومه فيهم عمارة بن زياد فأتوها فإذا هي تخرج من شق جبل، فخط لهم خالد خطّة فأجلسهم فيها، فقال إن أبطأت عليكم فلا تدعوني باسمي، فخرجت كأنها خيل شقر يتبع بعضها بعضاً، فاستقبلها خالد فجعل يضربها بعصاه وهو يقول: بدا بدا بدا كل هدى زعم ابن راعية المعزى أني لا أخرج منها وثيابي بيدي حتى دخل معها الشق، فأبطأ عليهم فقال لهم عمارة بن زياد: والله إن صاحبكم لو كان حياً لقد خرج إليكم بعد قالوا: فادعوه باسمه. قال: فقالوا إنه قد نهانا أن ندعوه باسمه فدعوه باسمه فخرج، وهو آخذ برأسه فقال ألم أنهاكم أن تدعوني باسمي فقد والله قتلتموني فادفنوني فاذا مرّت بكم الحمر فيها حمار أبتر فأنبشوني، فإنكم تجدوني حياً، فدفنوه فمرّت بهم الحمر، فيها حمار أبتر فقلنا أنبشوه فإنه أمرنا أن ننبشه، فقال لهم عمارة: لا تنبشوه لا والله لا تحدث مضر أنا ننبش موتانا، وقد كان قال لهم خالد إن في عكن[1] امرأته لوحين فإن أشكل عليكم أمر فانظروا فيهما، فإنكم ستجدون ما تسألون عنه، قال: ولا يمسهما حائض، فلما رجعوا إلى امرأته سألوها عنهما فأخرجتهما إليهم، وهي حائض فذهب ما كان فيهما من علم.

قال أبو يونس: قال سمّاك بن حرب سئل عنه النبي ﷺ فقال: «ذَاكَ نَبِيٌّ أَضَاعَهُ قَوْمُهُ» قال: أبو يونس: قال سمّاك بن حرب إن ابن خالد بن سنان أتى النبي ﷺ فقال: مَرْحَباً بِابْنِ أَخِيَ فهذا السياق موقوف على ابن عبّاس وليس فيه أنه كان نبياً والمرسلات التي فيها أنه نبي لا يحتجّ بها ها هنا، والأشبه أنه كان رجلاً صالحاً له أحوال وكرامات، فإنه إن كان في زمن الفترة فقد ثبت في صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ

(١) عكن: ما انطوى وتثنى من لحم البطن.

مَرْيَمَ أَنَا لأَنَّهُ لَيسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ»[١]. وان كان قبلها فلا يمكن أن يكون نبياً، لأن الله تعالى قال ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [السجدة: ٣] وقد قال غير واحد من العلماء: إن الله تعالى لم يبعث بعد إسماعيل نبياً في العرب إلا محمداً ﷺ خاتم الأنبياء، الذي دعا به إبراهيم الخليل باني الكعبة المكرّمة التي جعلها الله قِبْلة لأهل الأرض شرعاً، وبشّرت به الأنبياء لقومهم، حتى كان آخر من بشّر به عيسى ابن مريم عليه السلام. وبهذا المسلك بعينه يردّ ما ذكره السهيلي وغيره من إرسال نبي من العرب يقال له شعيب بن ذي مهذم بن شعيب بن صفوان، صاحب مدين، وبعث إلى العرب أيضاً حنظلة بن صفوان، فكذّبوهما فسلّط الله على العرب بختنصر، فنال منهم من القتل والسبي نحو ما نال من بني إسرائيل، وذلك في زمن معد بن عدنان. والظاهر أن هؤلاء كانوا قوماً صالحين، يدعون إلى الخير والله أعلم. وقد تقدّم ذكر عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف، في أخبار خزاعة بعد جرهم.

[ذكر][٢] حاتم الطائي أحد أجواد الجاهلية

وهو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرىء القيس بن عدي بن أحزم بن أبي أحزم واسمه هرومة بن ربيعة بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيىء أبو سفّانة الطائي والد عدي بن حاتم الصحابي كان جواداً ممدحاً في الجاهلية، وكذلك كان ابنه في الإسلام وكانت لحاتم مآثر وأمور عجيبة، وأخبار مستغربة في كرمه، يطول ذكرها، ولكن لم يكن يقصد بها وجه الله والدار الآخرة، وإنما كان قصده السمعة والذكر. قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا عبيد بن واقد القيسي، حدثنا أبو نصر هو الناجي عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: ذكر حاتم عند النّبي ﷺ فقال: «ذَاكَ أَرَادَ أَمراً فَأَدْرَكَهُ» حديث غريب: قال الدارقطني: تفرّد به عبيد بن واقد عن أبي نصر الناجي، ويقال إن اسمه حمّاد.

قال ابن عساكر: وقد فرّق أبو أحمد الحاكم بين أبي نصر الناجي، وبين أبي نصر حمّاد، ولم يسم الناجي. ووقع في بعض روايات الحافظ ابن عساكر عن أبي نصر شيبة الناجي والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن إسماعيل، حدّثنا سفيان عن سمّاك بن حرب، عن مري بن قطري، عن عدي بن حاتم قال: قلت لرسول الله ﷺ: إنّ أَبي كان يَصِلُ الرحم، ويفعل ويفعل، فهل له في ذلك؟ يعني من أجرَ قال: «إنَّ أَبَاكَ طَلَبَ شَيْئاً فَأَصَابَهُ»[٣]. وهكذا رواه أبو يعلى عن القواريري عن غُنْدر عن شُعْبَة عن سَمَّاك به. وقال: إن أباك أراد أمراً فأدركه، يعني الذكر. وهكذا رواه أبو القاسم البَغَوي عن علي بن الجعد عن شعبة به سواء.

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٤٨، وأحمد في المسند ٢/٣١٩.

(٢) سقط في ط.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٤/٢٥٨.

وقد ثبت في الصحيح في الثلاثة الذين تسعر بهم جهنم: منهم الرجل الذي ينفق ليقال إنه كريم، فيكون جزاؤه أن يقال ذلك في الدنيا، وكذا في العالم والمجاهد. وفي الحديث الآخر في الصحيح أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة فقالوا: له: كان يقري الضيف، ويعتق ويتصدّق فهل ينفعه ذلك؟ فقال: «إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْماً مِنَ الدَّهْرِ رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»[١] هذا وقد كان من الأجواد المشهورين أيضاً المطعمين في السنين الممحلة، والأوقات المرملة[٢]. وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، حدثني أبو بكر محمد بن عبد الله بن يوسف العماني، حدثنا أبو سعيد عبيد بن كثير بن عبد الواحد الكوفي، حدثنا ضرار بن صرد، حدثنا عاصم بن حميد عن أبي حمزة الثمالي، عن عبد الرحمن بن جندب، عن كميل بن زياد النخعي قال قال علي بن أبي طالب: يَا سُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَزْهَدَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فِي خَيْرٍ، عَجَباً لِرَجُلٍ يَجِيئُهُ أَخُوهُ الْمُسْلِمُ فِي حَاجَةٍ فَلاَ يَرَى نَفْسَهُ لِلْخَيْرِ أَهْلاً، فَلَوْ كَانَ لاَ يَرْجُو ثَوَاباً وَلاَ يَخْشَى عِقَاباً لَكَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُسَارِعَ فِي مَكَارِمِ الأَخْلاقِ، فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى سَبِيلِ النَّجَاحِ. فقام إليه رجل وقال: فداك أبي وأمي يا أمير المؤمنين، أسمعته من رسول الله ﷺ. قال: نعم! وما هو خير منه لما أتى بسبايا طيء وقعت جارية حمراء لعساء زلفاء عيطاء[٣] شماء الأنف معتدلة القامة والهامة، درماء الكعبين[٤]، خدلجة الساقين[٥]، لفاء الفخذين، خميصة[٦] الخصرين، ضامرة الكشحين[٧]، مصقولة المتنين. قال فلمّا رأيتها أعجبت بها، وقلت لأطلبن إلى رسول الله ﷺ فيجعلها في فيئي، فلمّا تكلّمت أنسيت جمالها لما رأيت من فصاحتها، فقالت يا محمد إن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب، فإني ابنة سيد قومي، وإن أبي كان يحمي الذمار[٨] ويفك العاني[٩] ويشبع الجائع ويكسو العاري ويقري الضيف ويطعم الطعام ويفشي السلام، وَلم يرد طالب حاجة قط، وأنا ابنة حاتم طيىء. فقال النبي ﷺ: «يَا جَارِيَةُ هٰذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِينَ حَقاً، لَوْ كَانَ أَبُوكِ مُؤْمِناً لَتَرَحَّمْنَا عَلَيْهِ، خَلُّوا عَنْهَا، فَإِنَّ أَبَاهَا كَانَ يُحِبُّ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ». فقام أبو بُرْدَة بن ينار. فقال: يا رسول الله، والله يحب مكارم الأخلاق؟ فقال

(١) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ١٢٠.

(٢) الأوقات المرملة: حيث تهب الرياح وتسف الرمل.

(٣) عيطاء: طويلة العنق.

(٤) درماء الكعبين: لا تستبين كعوبها.

(٥) خدلجة الساقين: ممتلئة.

(٦) خميصة: ضامرة.

(٧) الكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع من الخلف.

(٨) الزمار: ما يلزم حفظه وحمايته.

(٩) العاني: الأسير.

رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَحَدٌ إِلاَّ بِحُسْنِ الخُلُقِ»

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثني عمر بن بكر عن أبي عبد الرحمن الطائي - هو القاسم بن عدي - عن عثمان عن عركي بن حليس الطائي عن أبيه، عن جده، وكان أخا عدي بن حاتم لأمه قال: قيل لنوار امرأة حاتم حدثينا عن حاتم قالت: كل أمره كان عجباً، أصابتنا سنة حصت[1] كل شيء، فاقشعرت لها الأرض واغبرت لها السماء، وضنت المراضع على أولادها، وراحت الإبل حدباً حدابير ما تبض بقطرة، وحلقت المال، وأنا لفي ليلة صنّبر[2] بعيدة ما بين الطرفين، إذ تضاغى[3] الأصبية من الجوع، عبد الله وعدي وسفانة، فوالله إن وجدنا شيئاً نعلّلهم به، فقام إلى أحد الصبيان فحمله، وقمت إلى الصبية فعللتها، فوالله إن سكتا إلا بعد هدأة من الليل، ثم عدنا إلى الصبيّ الآخر فعلّلناه حتى سكت وما كاد، ثم افترشنا قطيفة لنا شامية ذات خمل، فاضجعنا الصبيان عليها ونمت أنا وهو في حجرة، والصبيان بيننا. ثم أقبل عليّ يعلّلني لأنام، وعرفت ما يريد، فتناومت، فقال: ما لك أنمت؟ فسكت فقال: ما أراها إلاّ قد نامت، وما بي نوم، فلما أدلهم الليل وتهورت النجوم[4] وهدأت الأصوات وسكنت الرجل، إذ جانب البيت قد رفع، فقال: من هذا؟ فولى حتى قلت إذاً قد أسحرنا أو كدنا، عاد فقال من هذا؟ قالت: جارتك فلانة يا أبا عدي، ما وجدت على أحد معولاً غيرك، أتيتك من عند أصبية يتعاوون عواء الذئاب من الجوع، قال: أعجليهم عليّ قالت: النوار فوثبت فقلت: ماذا صنعت أضطجع والله لقد تضاغى أصبيتك فما وجدت ما تعلّلهم، فكيف بهذه وبولدها؟ فقال: اسكتي فوالله لأشبعنك إن شاء الله، قالت: فأقبلت تحمل اثنين وتمشي جنبتيها أربعة كأنها نعامة حولها رئالها[5] فقام إلى فرسه فوجأ بحربته في لبّته ثم قدح زنده، وأورى ناره، ثم جاء بمدية فكشط عن جلده ثم دفع المدية إلى المرأة، ثم قال: دونك، ثم قال ابعثي صبيانك فبعثتهم، ثم قال: سوءة أتأكلون شيئاً دون أهل الصرم، فجعل يطوف فيهم حتى هبوا وأقبلوا عليه، والتفع في ثوبه، ثم اضطجع ناحية ينظر إلينا، والله ما ذاق مزعة، وإنه لأحوجهم إليه، فأصبحنا وما على الأرض منه إلاّ عظم وحافر.

وقال الدّارَقُطْني: حدثني القاضي أبو عبد الله المحاملي، حدثنا عبد الله بن أبي سعد، وحدثنا عُثَيم بن ثُوَابَة بن حاتم الطائي عن أبيه، عن جده، قال: قالت امرأة حاتم لحاتم: يا أبا سفانة أشتهي أن آكل أنا وأنت طعاماً وحدنا ليس عليه أحد، فأمرها فحوّلت خيمتها من الجماعة على فرسخ، وأمر بالطعام فهيّء وهي مرخاة ستورها عليه وعليها، فلما قارب نضج الطعام كشف عن رأسه ثم قال: [الطويل]

فَلاَ تَطْبُخِي قِدْرِي وَسِتْرُكِ دُونَهَا ... عَلَيَّ إِذَنْ مَا تَطْبُخِينَ حَرَامُ

---

(١) حصت: أخذت وجرفت.
(٢) صنبر: باردة.
(٣) تضاغى: تصايح.
(٤) تهورت النجوم: غابت.
(٥) الرئال: ولد النعامة.

وَلَـكِـنْ بِـهَـذَا الـيَـفَـاعِ فَـأَوْقِـدِي ... بِـجَـزْلٍ إذَا أَوْقَـدْتَ لاَ بِـضِـرَامِ(١)

قال: ثم كشف الستور وقدّم الطعام، ودعى الناس، فأكل وأكلوا فقالت: ما أتممت لي ما قلت، فأجابها فإني لا تطاوعني نفسي ونفسي أكرم عليّ من أن يثني عليّ هذا، وقد سبق لي السخاء ثم أنشأ يقول: [الطويل]

أُمَارِسُ نَفْسِي البُخْلَ حَتَّى أُعِزُّهَا ... وَأَتْرُكُ نَفْسَ الجُودِ مَا أَسْتَثِيرُهَا

وَلاَ تَشْتَكِينِي جَارَتِي غَيْرَ أَنَّهَا ... إذَا غَابَ عَنْهَا بَعْلُهَا لاَ أَزُورهَا

سَيَبْلُغُهَا خَيْرِي وَيَرْجِعُ بَعْلُهَا ... إلَيْهَا وَلَمْ تُقْصَرْ عَلَيْهَا سُتُورُهَا

ومن شعر حاتم: [الوافر]

إذَا مَا بِتُّ أَشْرَبُ فَوْقَ رِيٍّ ... لِسُكْرٍ فِي الشَّرَابِ فَلاَ رَوِيتُ

إذَا مَا بِتُّ أَخْتِلُ(٢) عُرْسَ(٣) جَارِي ... لِيُخْفِيَنِي الظَّلاَمُ فَلاَ خَفِيتُ

أَأَفْضَحُ جَارَتِي وَأَخُونُ جَارِي ... فَلاَ وَاللَّهِ أَفْعَلُ مَا حَيِيتُ

ومن شعره أيضاً: [الكامل]

مَا ضَرَّ جَاراً لِي أُجَاوِرُهُ ... أَنْ لاَ يَكُونَ لِبَابِهِ سِتْرُ

أُغْضِي إذَا مَا جَارَتِي بَرَزَتْ ... حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي الخِدْرُ

ومن شعر حاتم أيضاً: [الوافر]

وَمَا مِنْ شِيمَتِي شَتْمُ ابنِ عَمِّي ... وَمَا أَنَا مُخْلِفٌ مَنْ يَرْتَجِينِي

وَكِلْمَةُ حَاسِدٍ مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ ... سَمِعْتُ وَقُلْتُ مُرِي فَانْفِذِينِي

وَعَابُوهَا عَلَيَّ فَلَمْ تَعِبْنِي ... وَلَمْ يَعْرَقْ لَهَا يَوْماً جَبِينِي

وَذِي وَجْهَيْنِ يَلْقَانِي طَلِيقاً ... وَلَيْسَ إذَا تَغَيَّبَ يَأْتَسِينِي

ظَفِرْتُ بِعَيْبِهِ فَكَفَفْتُ عَنْهُ ... مُحَافَظَةً عَلَى حَسَبِي وَدِينِي

ومن شعره: [الطويل]

سَلِي البَائِسَ المَقْرُورَ يَا أُمَّ مَالِكٍ ... إذَا مَا أَتَانِي بَيْنَ نَارِي وَمَجْزَرِي

أَأَبْسُطُ وَجْهِي إنَّهُ أَوَّلُ القِرَى ... وَأَبْذُلُ مَعْرُوفِي لَهُ دُونَ مُنْكَرِي

وقال أيضاً: [الطويل]

وَإنَّكَ إنْ أَعْطَيْتَ بَطْنَكَ سُؤْلَهُ ... وَفَرْجَكَ نَالاَ مُنْتَهَى الذمّ أَجْمَعَا

وقال القاضي أبو الفرج المعافى بن زكرياء الجريري: حدّثنا الحسين بن القاسم الكَوْكَبِي، حدثنا أبو العباس المبرد، أخبرني الثوري عن أبي عبيدة. قال: لما بلغ حاتم طيىء قول المتلمس: [الوافر]

---

(١) في البيت إقواء. (٢) اختل: أخدع. (٣) عرس: زوجة.

قَلِيلُ المَالِ تُصْلِحُهُ فَيَبْقَى ... وَلاَ يَبْقَى الكَثِيرُ عَلَى الفَسَادِ
وَحِفْظُ المَالِ خَيْرٌ مِنْ فَنَاهُ ... وَعَسْفٍ[1] فِي البِلاَدِ بِغَيْرِ زَادِ

قال ما له قطع الله لسانه حمل الناس على البخل فهلا قال: [الطويل]

فَلاَ الجُودُ يُفْنِي المَالَ قَبْلَ فَنَائِهِ ... وَلاَ البُخْلُ فِي مَالِ الشَّحِيحِ يَزِيدُ
فَلاَ تَلْتَمِسْ مَالاً بِعَيْشٍ مُقَتَّرٍ ... لِكُلِّ غَدٍ رِزْقٌ يَعُودُ جَدِيدُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَالَ غَادٍ وَرَائِحٌ ... وَأَنَّ الَّذِي يُعْطِيكَ غَيْرُ بَعِيدِ[2]

قال القاضي أبو الفرج: ولقد أحسن في قوله: وإن الذي يعطيك غير بعيد. ولو كان مسلماً لرجى له الخير في معاده، وقد قال الله في كتابه: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وعن الوَضَّاح بن معبد الطائي قال: وفد حاتم الطائي على النعمان بن المنذر فأكرمه وأدناه، ثم زوّده عند انصرافه جملين ذهباً وورقاً غير ما أعطاه من طرائف بلده فرحل، فلمّا أشرف على أهله تلقته أعاريب طيىء. فقالت: يا حاتم أتيت من عند الملك وأتينا من عند أهالينا بالفقر فقال: حاتم هلمّ فخذوا ما بين يدي فتوزّعوه، فوثبوا إلى ما بين يديه من حباء النعمان فاقتسموه فخرجت إلى حاتم طريفة جاريته فقالت له: اتق الله وأبقِ على نفسك، فما يدع هؤلاء ديناراً ولا درهماً، ولا شاة ولا بعيراً. فأنشأ يقول: [البسيط]

قَالَتْ طَرِيفَةُ مَا تَبْقَى دَرَاهِمُنَا ... وَمَا بِنَا سَرَفٌ فِيهَا وَلاَ خَرَقُ[3]
إنْ يَفْنَ مَا عِنْدَنَا فَاللَّهُ يَرْزُقُنَا ... مِمَّنْ سِوَانَا وَلَسْنَا نَحنُ نَرْتَزِقُ
مَا يَأْلَفُ الدِّرْهَمُ الكَارِيُ خِرْقَتَنَا ... إلاَّ يَمُرُّ عَلَيْهَا ثُمَّ يَنْطَلِقُ
إنَّا إذَا اجْتَمَعَتْ يَوْماً دَرَاهِمُنَا ... ظَلَّتْ إلَى سُبُلِ المَعْرُوفِ تَسْتَبِقُ

وقال أبو بكر بن عياش: قيل لحاتم هل في العرب أجود منك. فقال: كل العرب أجود مني. ثم أنشأ يحدث. قال: نزلت على غلام من العرب يتيم ذات ليلة، وكانت له مائة من الغنم، فذبح لي شاة منها، وأتاني بها، فلما قرب إلى دماغها قلت: ما أطيب هذا الدماغ! قال فذهب فلم يزل يأتيني منه حتى قلت قد اكتفيت، فلما أصبحت إذا هو قد ذبح المائة شاة، وبقي لا شيء له؟ فقيل فما صنعت به فقال: ومتى أبلغ شكره ولو صنعت به كل شيء. قال: على كل حال فقال أعطيته مائة ناقة من خيار إبلي.

وقال محمد بن جعفر الخرائطي في كتاب مكارم الأخلاق: حدثنا العباس بن الفضل الربعي، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثني حمّاد الراوية ومشيخة من مشيخة طيىء. قالوا:

---

(١) عسف: خبط على غير هداية.

(٢) في البيت إقواء.

(٣) خرق: توسع في السخاء.

كانت عنترة بنت عفيف بن عمرو بن امرىء القيس أم حاتم طيىء لا تمسك شيئاً سخاء وجوداً، وكان إخوتها يمنعونها فتأبى، وكانت امرأة موسرة فحبسوها في بيت سنة يطعمونها قوتها لعلها تكف عما تصنع. ثم أخرجوها بعد سنة وقد ظنوا أنها قد تركت ذلك الخلق، فدفعوا إليها صرمة[1] من مالها. وقالوا: استمتعي بها، فأتتها امرأة من هوازن وكانت تغشاها فسألتها فقالت: دونك هذه الصرمة فقد والله مسّني من الجوع ما آليت أن لا أمنع سائلاً ثم أنشأت تقول: [الطويل].

لَعَمْرِي لَقِدْماً عَضَّنِي الجُوعُ عَضَّةً فَآلَيْتُ أَنْ لاَ أَمْنَعَ الدَّهْرَ جَائِعا
فَقُولاَ لِهَذَا اللاَّئِمِي اليَوْمَ أَعْفِنِي وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَعُضَّ الأَصَابِعَا
فَمَاذَا عَسَاكُمْ أَنْ تَقُولُوا لأُخْتِكُمْ سِوَى عَذْلِكُمْ أَوْ عَذْلِ مَنْ كَانَ مَانِعا
وَمَاذَا تَرَوْنَ اليَوْمَ إلاَّ طَبِيعَةً فَكَيْفَ بِتَرْكِي يَا ابْنَ أُمِّي الطَّبَائِعَا

وقال الهيثم بن عدي عن ملحان بن عركي بن عدي بن حاتم، عن أبيه، عن جده. قال: شهدت حاتماً يكيد بنفسه فقال لي: أي بني إني أعهد من نفسي ثلاث خصال: والله ما خاتلت جارة لريبة قط، ولا أؤتمنت على أمانة إلاّ أديتها، ولا أوتي أحد من قبلي بسوء. وقال أبو بكر الخرائطي: حدّثنا علي بن حرب حدّثنا عبد الرحمن بن يحيى العدوي، حدّثنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي مسكين - يعني جعفر بن المحرر بن الوليد - عن المحرر مولى أبي هريرة قال: مرّ نفرٌ من عبد القيس بقبر حاتم طيىء فنزلوا قريباً منه، فقام إليه بعضهم يقال له أبو الخيبري فجعل يركض قبره برجله. ويقول: يا أبا جعد أقرنا. فقال له بعض أصحابه: ما تخاطب من رمة[2]، وقد بليت؟ واجنهمّ الليل فناموا فقام صاحب القول فزعاً يقول: يا قوم عليكم بمطيّكم فإن حاتماً أتاني في النوم وأنشدني شعراً وقد حفظته يقول: [المتقارب]

أَبَا الخَيْبَرِيِّ وَأَنْتَ امْرُؤٌ ظَلُومُ العَشِيرَةِ شَتَّامُهَا
أَتَيْتَ بِصَحْبِكَ تَبْغِي القِرَى لَدَى حُفْرَةٍ قَدْ صَدَتْ هَامُهَا
أَتَبْغِي لِيَ الذَّنْبَ عِنْدَ المَبِيـ ـتِ وَحَوْلَكَ طَيِّءٌ وَأَنْعَامُهَا
وَإِنَّا لَنُشْبِعُ أَضْيَافَنَا وَنَأْتِي المَطِيَّ فَنَعْتَامُهَا[3]

قال وإذا ناقة صاحب القول تكوس[4] عقيراً فنحروها، وقاموا يشتوون ويأكلون. وقالوا والله لقد أضافنا حاتم حيّاً وميتاً. قال: وأصبح القوم وأردفوا صاحبهم وساروا، فإذا رجل ينوه بهم راكباً جملاً ويقود آخر. فقال: أيكم أبو الخيبري؟ قال: أنا، قال إن حاتماً أتاني

(١) الصرمة: القطعة من الإبل ما بين العشرة إلى الثلاثين.
(٢) الرمة: العظم البالي.
(٣) نعتام المطي: نحلب الإبل بعد العشاء.
(٤) كاس البعير: مشى على ثلاث قوائم وهو معرقب.

في النوم، فأخبرني أنه قرى أصحابك ناقتك، وأمرني أن أحملك، وهذا بعير فخذه ودفعه إليه.

[ذكر][١] شيء من أخبار عبد الله بن جدعان

هو عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة، سيّد بني تيم، وهو ابن عم والد أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وكان من الكرماء الأجواد في الجاهلية المطعمين للمسنتين، وكان في بدء أمره فقيراً مملقاً، وكان شريراً يكثر من الجنايات حتى أبغضه قومه وعشيرته وأهله وقبيلته، وأبغضوه حتى أبوه، فخرج ذات يوم في شعاب مكّة حائراً بائراً، فرأى شقّاً في جبل، فظن أن يكون به شيئاً يؤذي، فقصده لعلّه يموت فيستريح مما هو فيه، فلّما اقترب منه إذا ثعبان يخرج إليه ويثب عليه، فجعل يحيد عنه ويثب فلا يغني شيئاً، فلمّا دنا منه إذا هو من ذهب وله عينان هما ياقوتتان، فكسره وأخذه ودخل الغار فإذا فيه قبور لرجال من ملوك جرهم، ومنهم الحارث بن مضاض الذي طالت غيبته، فلا يدرى أين ذهب ووجد عند رؤوسهم لوحاً من ذهب فيه تاريخ وفاتهم، ومدد ولايتهم، وإذا عندهم من الجواهر واللآلىء والذهب والفضة شيء كثير، فأخذ منه حاجته، ثم خرج وعلم باب الغار ثم انصرف إلى قومه فأعطاهم حتى أحبوه، وسادهم وجعل يطعم الناس، وكلما قلّ ما في يده ذهب إلى ذلك الغار فأخذ حاجته ثم رجع، فمن ذكر هذا عبد الملك بن هشام في كتاب التيجان، وذكره أحمد بن عمّار في كتاب ري العاطش وأنس الواحش، وكانت له جفنة[٢] يأكل منها الراكب على بعيره، ووقع فيها صغير فغرق. وذكر ابن قتيبة وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «لَقد كُنتُ أَستَظِلُّ بظِلِّ جفْنَة عَبدِ الله بن جَدْعان، صَكة عُمَيٍّ أي وَقْتَ الظهِيرَةِ» وفي حديث مقتل أبي جهل أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «تَطَلَّبُوهُ بينَ القَتْلَى وَتَعرِفُوهُ بِشَجَّةٍ في رُكْبَتِهِ، فإنِّي تزاحمْتُ أَنَا وهُوَ على مَأْدُبةٍ لابْنِ جَدْعَانَ، فدفَعْتُهُ فَسَقَطَ عَلَى رُكْبَتِهِ فَانهَشَمَتْ، فأَثَرُها بَاقٍ فِي رُكْبَتِهِ، فوَجَدُوهُ كَذَلِكَ». وذكروا أنه كان يطعم التمر والسويق، ويسقي اللبن حتى سمع قول أميّة بن أبي الصلت: [الكامل]

وَلَقَدْ رَأَيْتُ الفَاعِلِينَ وَفِعْلَهُمْ ... فَرَأَيْتُ أَكْرَمَهُمْ بَنِي الدَّيَّانِ
البِرُّ يَلْبَكُ بِالشِّهَادِ طَعَامُهُمْ ... لاَ مَا يُعَلِّلُنَا بَنُو جَدْعَانِ

فأرسل ابن جدعان إلى الشام ألفي بعير تحمل البرّ والشهد والسمن، وجعل منادياً ينادي كل ليلة على ظهر الكعبة أن هلمّوا إلى جفنة ابن جدعان. فقال أمية في ذلك: [الوافر]

لَهُ دَاعٍ بِمَكَّةَ مُشْمَعِلٌّ[٣] ... وَآخَرُ فَوْقَ كَعْبَتِهَا يُنَادِي

(١) سقط في ط.

(٢) جفنة: قصعة كبيرة.

(٣) مشمعل: المبادر والمجتهد، اشمعل القوم في الطلب إذا بادروا فيه وتفرقوا.

إلَـى رَدَحٍ مِـنَ الـشِّـيـزَى مِـلاَءٍ　　لُـبَـابُ الـبُـرِّ يُـلْـبَـكُ بِـالـشِّـهَـادِ[١]

ومع هذا كلّه فقد ثبت في الصحيح لمسلم، أن عائشة قالت: يا رسول الله إن ابن جدعان كان يطعم الطعام ويقري الضيف فهل ينفعه ذلك يوم القيامة؟ فقال: «لاَ، إنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْماً رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»[٢].

ذكر امرىء القيس بن حجر الكندي صاحب إحدى المعلقات

وهي أفخرهن وأشهرهن التي أولها: [الطويل]

قِـفَـا نَـبْـكِ مِـنْ ذِكْـرَى حَـبِـيـبٍ وَمَـنْـزِلِ

قال الإمام أحمد: حدثنا هشام حدثنا أبو الجهم عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «امْرُؤُ القَيْسِ صَاحِبُ لِوَاءِ الشُّعَرَاءِ إلَى النَّارِ»[٣]، وقد روى هذا الحديث عن هشام جماعة كثيرون منهم: بشر بن الحكم، والحسن بن عرفة، وعبد الله بن هارون أمير المؤمنين المأمون أخو الأمين، ويحيى بن معين، وأخرجه ابن عدي من طريق عبد الرزاق عن الزهري به، وهذا منقطع ورديء. من وجه آخر عن أبي هريرة، ولا يصحّ من غير هذا الوجه.

وقال الحافظ ابن عساكر: هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار بن عمر بن معاوية بن الحارث بن يعرب بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندة. أبو يزيد ويقال أبو وهب ويقال أبو الحارث الكندي. كان بأعمال دمشق، وقد ذكر مواضع منها في شعره فمن ذلك قوله: [الطويل]

قِـفَـا نَـبْـكِ مِـنْ ذِكْـرَى حَـبِـيـبٍ وَمَـنْـزِلِ　　بِـسِـقْـطِ الـلِّـوَى بَـيْـنَ الـدَّخُـولِ فَـحَـوْمَـلِ
فَـتُـوضِـحَ فَـالـمِـقْـرَاةِ لَـمْ يَـعْـفُ رَسْـمُـهَـا　　لِـمَـا نَـسَـجَـتْـهَـا مِـنْ جَـنُـوبٍ وَشَـمْـأَلِ

قال وهذه مواضع معروفة بحوران. ثم روى من طريق هشام بن محمد بن السائب الكلبي حدثني فروة بن سعد بن عفيف بن معدي كرب عن أبيه، عن جدّه. قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل وفد من اليمن فقالوا: يا رسول الله لقد أحيانا الله ببيتين من شعر امرىء القيس قال: وكيف ذاك؟ قالوا أقبلنا نريدك حتى إذا كنا ببعض الطريق أخطأنا الطريق، فمكثنا ثلاثاً لا نقدر على الماء، فتفرّقنا إلى أصول طلح وسمر ليموت كل رجل منا في ظل شجرة، فبينا نحن بآخر رمق إذا راكب يوضع على بعير، فلما رآه بعضنا قال والراكب يسمع: [الطويل]

وَلَـمَّـا رَأَتْ أَنَّ الـشَّـرِيـعَـةَ[٤] هَـمُّـهَـا　　وَأَنَّ الـبَـيَـاضَ مِـنْ فَـرَائِـصِـهَـا دَامِـي

---

(١) ردح: ج رداح وهي الجفنة العظيمة والشيزى: خشب أسود تتخذ منه القصاع.
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٣٦٥، وأحمد في المسند ٦/٩٣ .
(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/٢٢٨.
(٤) الشريعة: مشرعة الماء.

تَيَمَّمَتِ العينَ الَّتِي عِنْدَ ضَارِجٍ[١] يُفِيءُ عَلَيْهَا الظِلُّ عَرْمَضُها طَامِي

فقال الراكب: ومن يقول هذا الشعر وقد رأى ما بنا من الجهد؟ قال قلنا امرؤ القيس بن حُجر، قال: والله ما كذب، هذا ضارج عندكم، فنظرنا فإذا بيننا وبين الماء نحو من خمسين ذراعاً، فحبونا إليه على الركب، فإذا هو كما قال امرؤ القيس عليه العرمض، يفيء عليه الظل. فقال رسول الله ﷺ: «ذَاكَ رَجُلٌ مَذْكُورٌ فِي الدُّنْيَا مَنْسِيٌّ فِي الآخِرَةِ، شَرِيفٌ فِي الدُّنْيَا خَامِلٌ فِي الآخِرَةِ، بِيَدِهِ لِوَاءُ الشُّعَرَاءِ يَقُودُهُمْ إِلَى النَّارِ».

وذكر الكلبي: أن امرأ القيس أقبل براياته يريد قتال بني أسد حين قتلوا أباه، فمرّ بتبالة، وبها ذو الخلُصة، وهو صنم، وكانت العرب تستقسم عنده، فاستقسم فخرج القدح الناهي، ثم الثانية، ثم الثالثة كذلك، فكسر القداح وضرب بها وجه ذي الخلصة، وقال: عضضت بأير أبيك لو كان أبوك المقتول لما عوقتني. ثم أغار على بني أسد فقتلهم قتلاً ذريعاً، قال ابن الكلبي: فلم يستقسم عند ذي الخلصة حتى جاء الإسلام. وذكر بعضهم أنه امتدح قيصر ملك الروم يستنجده في بعض الحروب ويسترفده، فلم يجد ما يؤمّله عنده فهجاه بعد ذلك، فيقال إنه سقاه سماً فقتله، فألجأه الموت إلى جنب قبر امرأة عند جبل يقال له عسيب، فكتب هنالك: [الطويل]

أَجَارَتَنَا إِنَّ المَزَارَ قَرِيبُ وَإِنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبُ[٢]

أَجَارَتَنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَهُنَا وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ

وذكروا أن المعلقات السبع كانت معلقة بالكعبة، وذلك أن العرب كانوا إذا عمل أحدهم قصيدة عرضها على قريش فإن أجازوها علقوها على الكعبة تعظيماً لشأنها، فاجتمع من ذلك هذه المعلقات السبع فالأولى لامرىء القيس بن حجر الكندي كما تقدم وأولها: [الطويل]

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

والثانية للنابغة الذبياني: واسمه زياد بن معاوية، ويقال زياد بن عمرو بن معاوية بن ضَباب بن جابر بن يربوع بن غيظ بن مرّة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض وأولها: [البسيط]

يَا دَارَ مَيَّةَ بِالعَلْيَاءِ فَالسَّنَدِ أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الأَبَدِ

والثالثة لزهير بن أبي سُلمى ربيعة بن رياح المزني وأولها: [الطويل]

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالمُتَثَلَّمِ[٣]

---

(١) ضارج: موضع ببلاد عبس.

(٢) عسيب: جبل بعالية نجد.

(٣) المتثلم: جبل في بلاد بني مرّة.

والرابعة لطَرَفَةَ بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضُبَيعة بن قيس بن ثعلبة بن عُكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل وأولها: [الطويل]

لِخَوْلَةَ أَطْلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ تَلُوحُ كَبَاقِي الوَشْمِ فِي ظَاهِرِ اليَدِ

والخامسة لعنترة بن شداد بن معاوية بن قُراد بن مخزوم بن ربيعة بن مالك بن غالب بن قُطَيعةَ بن عبس العبسي وأولها: [الكامل]

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

والسادسة لعَلْقَمَة بن عبدة بن النعمان بن قيس أحد بني تميم وأولها: [البحر الطويل]

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الحِسَانِ طَرُوبُ بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ

والسابعة ـ ومنهم من لا يثبتها في المعلقات، وهو قول الأصمعي وغيره ـ وهي للبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصفة بن قيس بن عيلان بن مضر وأولها: [الكامل].

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا بِمِنًى تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فَرِجَامُهَا

فأمّا القصيدة التي لا يعرف قائلها فيما ذكره أبو عبيدة والأصمعي والمبرد وغيرهم فهي قوله: [البحر الكامل]

هَلْ بِالطُّلُولِ لِسَائِلٍ رَدُّ أَمْ لَهَا بِتَكَلُّمٍ عَهْدُ

وهي مطولة وفيها معاني حسنة كثيرة.

[ذكر](1) أخبار أمية بن أبي الصلت الثقفي

قال الحافظ ابن عساكر: هو أميّة بن أبي الصلت عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف بن عقدة بن عزّة بن عوف بن ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن أبو عثمان، ويقال أبو الحكم الثقفي شاعر جاهلي قدم دمشق قبل الإسلام، وقيل إنه كان مستقيماً وأنه كان في أول أمره على الإيمان، ثم زاغ عنه، وأنه هو الذي أراده الله تعالى بقوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝١٧٥﴾ [الأعراف: ١٧٥].

قال الزبير بن بكّار: فولدت رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف أمية الشاعر ابن أبي الصلت واسم أبي الصلت ربيعة بن وهب بن علاج بن أبي سلمة بن ثقيف وقال غيره كان أبوه من الشعراء المشهورين بالطائف وكان أمية أشعرهم.

وقال عبد الرزاق قال الثوري: أخبرني حبيب بن أبي ثابت أن عبد الله بن عمرو قال في قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ

(١) سقط في ط.

ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥] هو أمية بن أبي الصلت. وكذا رواه أبو بكر بن مردويه عن أبي بكر الشافعي عن معاذ بن المثنى، عن مسدد، عن أبي عوانة، عن عبد الملك بن عمير، عن نافع بن عاصم بن مسعود. قال: إني لفي حلقة فيها عبد الله بن عمرو، فقرأ رجل من القوم الآية التي في الأعراف ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] فقال: هل تدرون من هو؟ فقال بعضهم: هو صيفي بن الراهب. وقال آخر: بل هو بلعم رجل من بني إسرائيل، فقال: لا قال: فمن؟ قال: هو أمية بن أبي الصلت، وهكذا قال أبو صالح والكلبي، وحكاه قتادة عن بعضهم. وقال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا عبد الله بن شبيب الربعي، حدثنا محمد بن مسلمة بن هشام المخزومي، حدثنا إسماعيل بن الطريح بن إسماعيل الثقفي، حدثني أبي عن أبيه عن مروان بن الحكم عن معاوية بن أبي سفيان عن أبيه.

قال: خرجت أنا وأمية بن أبي الصلت الثقفي تجاراً إلى الشام، فكلّما نزلنا منزلاً أخذ أمية سفراً[1] له يقرؤها علينا، فكنا كذلك حتى نزلنا قرية من قرى النصارى، فجاؤوه وأكرموه وأهدوا له، وذهب معهم إلى بيوتهم. ثم رجع في وسط النهار فطرح ثوبيه وأخذ ثوبين له أسودين، فلبسهما وقال لي هل لك يا أبا سفيان في عالم من علماء النصارى إليه يتناهى علم الكتاب تسأله؟ قلت: لا إرب لي فيه، والله لئن حدّثني بما أحب لا أثق به، ولئن حدثني بما أكره لأجدن منه. قال فذهب وخالفه شيخ من النصارى فدخل عليّ فقال ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ؟ قلت: لست على دينه، قال: وإن فإنك تسمع منه عجباً وتراه. ثم قال لي أثقفي أنت؟ قلت: لا ولكن قرشي؟ قال: فما يمنعك من الشيخ فوالله إنه ليحبكم ويوصي بكم. قال: فخرج من عندنا ومكث أمية عندهم حتى جاءنا بعد هدأة من الليل، فطرح ثوبيه، ثم انجدل على فراشه فوالله ما نام ولا قام حتى أصبح كئيباً حزيناً ساقطاً غبوقه على صبوحه ما يكلمنا ولا نكلمه. ثم قال: ألا ترحَلُ؟ قلت: وهل بك من رحيل؟ قال نعم! فرحلنا فسرنا بذلك ليلتين، ثم قال في الليلة الثالثة: ألا تحدث يا أبا سفيان، قلت: وهل بك من حديث والله ما رأيت مثل الذي رجعت به من عند صاحبك، قال: أما إن ذلك لشيء لست فيه إنّما ذلك لشيء وجلت منه من منقلبي، قلت وهل لك من منقلب؟ قال: أي والله لأموتن ثم لأحيين، قال: قلت: هل أنت قابل أمانتي؟ قال: على ماذا قلت على أنك لا تبعث ولا تحاسب، قال: فضحك ثم قال: بلى! والله يا أبا سفيان لنبعثنّ ثم لنحاسبنّ وليدخلن فريق الجنة وفريق النار. قلت: ففي أيهما أنت، أخبرك صاحبك؟ قال: لا علم لصاحبي بذلك، لا فيّ ولا في نفسه، قال فكنا في ذلك ليلتين، يعجب مني وأضحك منه حتى قدمنا غوطة دمشق، فبعنا متاعنا وأقمنا بها شهرين، فارتحلنا حتى نزلنا قرية من قرى النصارى، فلما رأوه جاؤوه وأهدوا له، وذهب معهم إلى بيعتهم فما جاء إلاّ بعد منتصف النهار، فلبس ثوبيه وذهب إليهم حتى جاء بعد هدأةٍ من الليل، فطرح

(١) السفر: الكتاب.

ثوبيه ورمى بنفسه على فراشه، فوالله ما نام ولا قام، وأصبح حزيناً كئيباً. لا يكلمنا ولا نكلمه. ثم قال: ألا ترحل؟ قلت: بلى إن شئتَ فرحلنا كذلك من بثّه وحزنه ليالي. ثم قال لي: يا أبا سفيان هل لك في المسير لنتقدم أصحابنا؟ قلت: هل لك فيه قال: نعم! فسرنا حتى برزنا من أصحابنا ساعة ثم قال: هيا صخر. فقلت: ما تشاء؟ قال حدّثني عن عتبة بن ربيعة أيجتنب المظالم والمحارم؟ قلت: إي والله قال: ويَصِلُ الرحم ويأمر بصلتها؟ قلت: إي والله! قال: وكريم الطرفين وسط في العشيرة، قلت نعم! قال: فهل تعلم قرشياً أشرف منه؟ قلت: لا والله لا أعلم. قال: أمحوج هو؟ قلت: لا بل هو ذو مال كثير. قال: وكم أتى عليه من السن؟ فقلت قد زاد على المائة. قال: فالشرف والسن والمال أزرين به. قلت: ولِمَ ذاك يزري به لا والله بل يزيده خيراً، قال هو ذاك. هل لك في المبيت؟ قلت: لي فيه قال: فاضطجعنا حتى مرّ الثقل[1]، قال: فسرنا حتى نزلنا في المنزل وبتنا به. ثم ارتحلنا منه، فلما كان الليل قال لي: يا أبا سفيان قلت ما تشاء، قال: هل لك في مثل البارحة؟ قلت: هل لك فيه؟ قال: نعم، فسرنا على ناقتين بختيتين حتى إذا برزنا قال: هيّا صخر، هيه عن عتبة بن ربيعة، قال: قلت: هيها فيه، قال: أيجتنب المحارم والمظالم ويصل الرحم ويأمر بصلتها؟ قلت: إي والله إنه ليفعل. قال: وذو مال؟ قلت: وذو مال قال: أتعلم قرشياً أسود منه؟ قلت: لا والله ما أعلم؟ قال: كم أتى له من السن؟ قلت: قد زاد على المائة، قال: فإن السن والشرف والمال أَزْرَيْنَ به، قلت: كلا والله ما أزرى به ذلك، وأنت قائل شيئاً فقله. قال: لا تذكر حديثي حتى يأتي منه ما هو آت، ثم قال: فإن الذي رأيت أصابني أني جئت هذا العالم فسألته عن أشياء، ثم قلت: أخبرني عن هذا النبيّ الذي ينتظر، قال: هو رجل من العرب، قلت: قد علمت أنه من العرب فمن أي العرب، هو، قال: من أهل بيت يحجُّه العرب. قلت: وفينا بيت تحجّه العرب! قال: هو من إخوانكم من قريش. فأصابني والله شيء ما أصابني مثله قطّ، وخرج من يدي فوز الدنيا والآخرة، وكنت أرجو أن أكون إياه، قلت: فإذا كان ما كان فصفه لي قال: رجل شاب حين دخل في الكهولة. بُدُوُّ أمره يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم، ويأمر بصلتها، وهو مُحْوَج كريم الطرفين متوسط في العشيرة، أكثر جنده من الملائكة، قلت: وما آية ذلك؟ قال: قد رجفت الشام منذ هلك عيسى ابن مريم عليه السلام ثمانين رجفة كلها فيها مصيبة، وبقيت رجفة عامة فيها مصائب. قال أبو سفيان: فقلت: هذا والله الباطل لئن بعث الله رسولاً لا يأخذه إلاّ مسناً شريفاً. قال أمية: والذي حلفت به إن هذا لهكذا يا أبا سفيان، تقول إن قول النصراني حق. هل لك في المبيت؟ قلت: نعم لي فيه. قال: فبتنا حتى جاءنا الثقل. ثم خرجنا حتى إذا كان بيننا وبين مكة مرحلتان ليلتان أدركنا راكب من خلفنا فسألناه فإذا هو يقول: أصابت أهل الشام بعدكم رجفة دمرّت أهلها، وأصابتهم فيها مصائب عظيمة. قال أبو سفيان. فأقبل عليّ أمية فقال: كيف ترى قول النصراني يا أبا سفيان؟ قلت: أرى وأظن والله ما حدّثك به

(١) الثَّقَل: بالتحريك المتاع والحشم.

صاحبك حق، قال أبو سفيان: فقدمنا مكّة فقضيت ما كان معي، ثم انطلقت حتى جئت اليمن تاجراً، فكنت بها خمسة أشهر، ثم قدمت مكة فبينا أنا في منزلي جاءني الناس يسلّمون عليّ ويسألون عن بضائعهم، حتى جاءني محمد بن عبد الله، وهند عندي تلاعب صبيانها، فسلّم عليّ ورحّب بي، وسألني عن سفري ومقامي، ولم يسألني عن بضاعته، ثم قام. فقلت: لهند والله إن هذا ليعجبني، ما من أحد من قريش له معي بضاعة إلاّ وقد سألني عنها وما سألني هذا عن بضاعته. فقالت لي هند: أوما علمت شأنه؟ فقلت وأنا فزع: ما شأنه؟ قالت: يزعم أنه رسول الله. فوقذتني وتذكّرت قول النصراني فوجمت حتى قالت لي هند: ما لك؟ فانتبهت فقلت إن هذا لهو الباطل، لهو أعقل من أن يقول هذا. قالت: بلى والله إنه ليقولنّ ذلك، ويُواتى عليه، وإنّ له لصحابة على دينه، قلت: هذا هو الباطل. قال: وخرجت فبينا أنا أطوف بالبيت إذ بي قد لقيته، فقلت له: إنّ بضاعتك قد بلغت كذا وكذا، وكان فيها خير فأرسل من يأخذها، ولست آخذ منك فيها ما آخذ من قومي، فأبى علي وقال: إذن لا آخذها، قلت: فأرسل فخذها وأنا آخذ منك مثل ما آخذ من قومي، فأرسل إلي ببضاعته فأخذها، وأخذت منه ما كنت آخذ من غيره. قال أبو سفيان: فلم أنشب أن خرجت إلى اليمن، ثم قدمت الطائف، فنزلت على أمية بن أبي الصلت، فقال لي: يا أبا سفيان ما تشاء هل تذكر قول النصراني؟ فقلت: أذكره وقد كان. فقال: ومن؟ قلت محمد بن عبد الله قال: ابن عبد المطلب؟ قلت: ابن عبد المطلب، ثم قصصت عليه خبر هند، قال: فالله يعلم؟ وأخذ يتصبّب عرقاً. ثم قال: والله يا أبا سفيان لعلّه أن صفته لهي، ولئن ظهر وأنا حي لأطلبنّ من الله عزّ وجلّ في نصره عذراً قال: ومضيت إلى اليمن، فلم أنشب أن جاءني هنالك استهلاله، وأقبلت حتى نزلت على أمية بن أبي الصلت بالطائف، فقلت: يا أبا عثمان قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعته، فقال: قد كان لعمري، قلت: فأين أنت منه يا أبا عثمان؟ فقال: والله ما كنت لأؤمن برسول من غير ثقيف أبداً، قال أبو سفيان: وأقبلت إلى مكّة فوالله ما أنا ببعيد حتى جئت مكة فوجدت أصحابه يُضربون ويُحقّرون، قال أبو سفيان: فجعلت أقول فأين جنده من الملائكة، قال: فدخلني ما يدخل الناس من النفاسة[1]، وقد رواه الحافظ البيهقي في كتاب الدلائل من حديث إسماعيل بن طريح به، ولكن سياق الطبراني الذي أوردناه أتمّ وأطول والله أعلم.

وقال الطبراني: حدّثنا بكر بن أحمد بن نفيل، حدّثنا عبد الله بن شبيب حدثنا يعقوب بن محمد الزهري، حدثنا مجاشع بن عمرو الأسدي، حدثنا ليث بن سعد عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن، عن عروة بن الزبير، عن معاوية بن أبي سفيان، عن أبي سفيان بن حرب أن أمية بن أبي الصلت كان بغزّة أو بإيلياء، فلما قفلنا قال لي أمية يا أبا سفيان هل لك أن تتقدم على الرفقة فنتحدث؟ قلت: نعم! قال: ففعلنا فقال لي: يا أبا سفيان إيه عن عتبة بن ربيعة، قلت: كريم الطرفين ويجتنب المحارم والمظالم؟ قلت: نعم.

---

(١) النفاسة: التفاخر.

قال وشريف مسن؟ قلت وشريف مسن، قال: السن والشرف ازريا به، فقلت له: كذبت ما ازداد سناً إلاّ ازداد شرفاً، قال: يا أبا سفيان إنها كلمة ما سمعت أحداً يقولها لي منذ تبصرت فلا تعجّل عليّ حتى أخبرك قال: قلت هات، قال: إني كنت أجد في كتبي نبياً يبعث من حرتنا هذه، فكنت أظن بل كنت لا أشك إني أنا هو، فلما دارست أهل العلم إذ هو من بني عبد مناف، فنظرت في بني عبد مناف فلم أجد أحداً يصلح لهذا الأمر غير عتبة بن ربيعة، فلما أخبرتني بسنّه عرفت أنه ليس به حين جاوز الأربعين، ولم يوحَ إليه، قال أبو سفيان: فضرب الدهر ضربة فأوحى إلى رسول الله ﷺ، وخرجت في ركب من قريش أريد اليمن في تجارة، فمررت بأميّة فقلت له كالمستهزىء به: يا أمية قد خرج النبي الذي كنت تنعته، قال: أما إنه حقّ فاتبعه، قلت ما يمنعك من اتباعه قال ما يمنعني إلاّ الاستحياء من نساء ثقيف، إني كنت أحدثهن أني هو، ثم يرينني تابعاً لغلام من بني عبد مناف، ثم قال أمية كأني بك يا أبا سفيان قد خالفته، ثم قد ربطت كما يربط الجدي حتى يؤتى بك إليه فيحكم فيك بما يريد.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن الكلبي قال: بينا أمية راقد ومعه ابنتان له إذ فزعت إحداهما فصاحت عليه فقال لها: ما شأنك؟ قالت: رأيت نسرين كشطا سقف البيت فنزل أحدهما إليك فشق بطنك، والآخر واقف على ظهر البيت، فناداه فقال: أوعي؟ قال: نعم، قال: أزكي؟ قال: لا، فقال ذاك خيرٌ أريد بأبيكما فلم يفعله، وقد روي من وجه آخر بسياق آخر، فقال إسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق عن الزهري، عن سعيد بن المسيب وعثمان بن عبد الرحمن عن الزهري، عن سعيد بن المسيب قال: قدمت الفارعة أخت أمية بن أبي الصلت على رسول الله ﷺ بعد فتح مكة وكانت ذات لب وعقل وجمال وكان رسول الله ﷺ بها معجباً فقال لها ذات يوم «يَا فَارِعَةُ هَلْ تَحْفَظِينَ مِنْ شِعْرِ أَخِيكَ شَيْئاً؟» فقالت: نعم وأعجب من ذلك ما قد رأيت، قالت: كان أخي في سفر، فلمّا انصرف بدأني، فدخل علي فرقد على سريري وأنا أحلق أديماً في يدي، إذ أقبل طائران أبيضان أو كالطيرين أبيضين، فوقع على الكوّة أحدهما ودخل الآخر، فوقع عليه فشق الواقع عليه ما بين قصه إلى عانته، ثم أدخل يده في جوفه فأخرج قلبه فوضعه في كفّه، ثم شمّه فقال له الطائر الآخر: أوعى، قال: وعى قال: أزكى، قال: أبى ثم رد القلب إلى مكانه فالتأم الجرح أسرع من طرفة عين، ثم ذهبا. فلمّا رأيت ذلك دنوت منه فحرّكته فقلت هل تجد شيئاً؟ قال: لا إلا توهينا في جسدي ـ وقد كنت ارتعبت مما رأيت ـ فقال: ما لي أراكِ مرتاعة؟. قالت: فأخبرته الخبر. فقال: خير أريد بي ثم صرف عني، ثم أنشأ يقول: [المنسرح]

بَاتَتْ هُمُومِي تَسْرِي طَوَارِقُهَا[1] أُكُفُّ عَيْنِي وَالدَّمْعُ سَابِقُهَا

مِمَّا أَتَانِي مِنَ الْيَقِينِ وَلَمْ أُوتَ بَرَاةً يَقُصُّ نَاطِقُهَا

(١) الطوارق: المصائب وصروف الدهر.

أَمْ مَنْ تَلَظَّى عَلَيْهِ وَاقِدَةُ النَّـ ـارِ مُحِيطٌ بِهِمْ سَرَادِقُهَا
أَمْ أَسْكُنَ الْجَنَّةَ الَّتِي وُعِدَ الأَ بْرَارُ مَصْفُوفَةٌ نَمَارِقُهَا[1]
لاَ يَسْتَوِي الْمَنْزِلاَنِ ثُمَّ وَلاَ الأَ عْمَالُ لاَ تَسْتَوِي طَرَائِقُهَا
هُمَا فَرِيقَانِ فِرْقَةٌ تَدْخُلُ الْجَـ ـنَّةَ حَفَّتْ بِهِمْ حَدَائِقُهَا
وَفِرْقَةٌ مِنْهُمُ قَدْ أُدْخِلَتِ النَّـ ـارَ فَسَاءَتْهُمْ مَرَافِقُهَا
تَعَاهَدَتْ هَذِهِ الْقُلُوبُ إِذَا هَمَّتْ بِخَيْرٍ عَاقَتْ عَوَائِقُهَا
وَصَدُّهَا لِلشَّقَاءِ عَنْ طَلَبِ الْـ ـجَنَّةِ دُنْيَا اللهُ مَاحِقُهَا
عَبْدٌ دَعَا نَفْسَهُ فَعَاتَبَهَا يَعْلَمُ أَنَّ الْبَصِيرَ رَامِقُهَا
مَا رَغَّبَ النَّفْسَ فِي الْحَيَاةِ وَإِنْ تَحْيَى قَلِيلاً فَالْمَوْتُ لاَحِقُهَا
يُوشِكُ مَنْ فَرَّ مِنْ مَنِيَّتِهِ يَوْماً عَلَى غِرَّةٍ يُوَافِقُهَا
إِنْ لَمْ تَمُتْ غَبْطَةً تَمُتْ هَرِماً لِلْمَوْتِ كَأْسٌ وَالْمَرْءُ ذَائِقُهَا

قال ثم انصرف إلى رحله، فلم يلبث إلاّ يسيراً حتى طعن في حيارته[2] فأتاني الخبر فانصرفت إليه، فوجدته منعوشاً قد سجي عليه، فدنوت منه فشهق شهقة وشق بصره، ونظر نحو السقف ورفع صوته. وقال: لبيكما لبيكما ها أنا ذا لديكما، لا ذو مال فيفديني ولا ذو أهل فتحميني. ثم أغمي عليه إذ شهق شهقة فقلت قد هلك الرجل. فشقّ بصره نحو السقف فرفع صوته. فقال: لبيكما لبيكما ها أنا ذا لديكما، لا ذو براءة فأعتذر، ولا ذو عشيرة فأنتصر. ثم أغمي عليه إذ شهق شهقة، وشقّ بصره ونظر نحو السقف. فقال: لبيكما لبيكما ها أنا ذا لديكما، بالنعم محفود وبالذنب محصود، ثم أغمي عليه إذ شهق شهقة. فقال: لبيكما لبيكما ها أنا ذا لديكما [الرجز]

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمّاً وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لاَ أَلَمَّا

ثم أغمي عليه إذ شهق شهقة فقال: [الخفيف]

كُلُّ عَيْشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ دَهْراً صَائِرٌ مَرَّةً إِلَى أَنْ يَزُولاَ
لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَا لِي فِي قِلاَلِ الْجِبَالِ أَرْعَى الْوُعُولاَ

قالت: ثم مات. فقال رسول الله ﷺ: «يَا فَارِعَةُ إِنَّ مَثَلَ أَخِيكِ كَمَثَلِ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ آيَاتِهِ فَانْسَلَخَ مِنْهَا» الآية وقد تكلم الخطابي على غريب هذا الحديث. وروى الحافظ ابن عساكر عن الزُّهري أنه قال: قال أمية بن أبي الصلت: [البسيط]

أَلاَ رَسُولٌ لَنَا مِنَّا يُخَبِّرُنَا مَا بُعْدُ غَايَتِنَا مِنْ رَأْسِ مَجْرَانَا

قال ثم خرج أمية بن أبي الصلت إلى البحرين وتنبأ رسول الله ﷺ، وأقام أمية

(١) النمارق: البرد من الصوف.
(٢) كذا في الأصل.

بالبحرين ثماني سنين ثم قدم الطائف فقال لهم: ما يقول محمد بن عبد الله؟ قالوا: يزعم أنه نبي هو الذي كنت تتمنى. قال: فخرج حتى قدم عليه مكّة فلقيه. فقال: يا ابن عبد المطلب ما هذا الذي تقول؟ قال: أقول: إني رسول الله وإن لا إله إلا هو. قال: إني أريد أن أكلمك فعدني غداً. قال: فموعدك غداً قال: فتحب أن آتيك وحدي أو في جماعة من أصحابي، وتأتيني وحدك أو في جماعة من أصحابك، فقال رسول الله ﷺ: أيّ ذلك شئت قال: فإني آتيك في جماعة، فأت في جماعة قال: فلما كان الغد غدا أمية في جماعة من قريش، قال وغدا رسول الله ﷺ معه نفر من أصحابه حتى جلسوا في ظل الكعبة. قال: فبدأ أمية فخطب ثم سجع، ثم أنشد الشعر حتى إذا فرغ الشعر، قال: أجبني يا ابن عبد المطلب. فقال رسول الله ﷺ: ﴿يسٓ ۝﴾ [يس: ١] حتى إذا فرغ منها وثب أمية يجرّ رجليه، قال: فتبعته قريش يقولون ما تقول يا أمية؟ قال: أشهد أنه على الحق. فقالوا: هل تتبعه؟ قال حتى أنظر في أمره، قال: ثم خرج أمية إلى الشام وقدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما قتل أهل بدر قدم أمية من الشام حتى نزل بدراً، ثم ترحل يريد رسول الله ﷺ فقال قائل: يا أبا الصلت ما تريد؟ قال: أريد محمداً قال: وما تصنع؟ قال: أؤمن به وألقي إليه مقاليد هذا الأمر، قال: أتدري من في القليب؟ قال لا قال: فيه عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وهما ابنا خالك ـ وأمه ربيعة بنت عبد شمس ـ قال فجدع أذني ناقته. وقطع ذنبها، ثم وقف على القليب يقول: [مجزوء الكامل]

مَا ذَا بِبَدْرٍ فَالْعَقَنْقَلِ[1] مَرَازِبَةٍ جَحَاجِحِ[2]

القصيدة إلى آخرها كما سيأتي ذكرها بتمامها في قصة بدر إن شاء الله. ثم رجع إلى مكة والطائف وترك الإسلام. ثم ذكر قصة الطيرين وقصة وفاته كما تقدم وأنشد شعره عند الوفاة: [الخفيف]

كُلُّ عَيْشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ دَهْراً ... صَائِرٌ مَرَّةً إِلَى أَنْ يَزُولا
لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَا لِي ... فِي قِلَالِ الْجِبَالِ أَرْعَى الْوُعُولا
فَاجْعَلِ الْمَوْتَ نَصْبَ عَيْنَيْكَ وَاحْذَرْ ... غَوْلَةَ الدَّهْرِ إِنَّ لِلدَّهْرِ غُولا
نَائِلاً ظُفْرُهَا الْقَسَاوِرَ والصُّدْ ... عَانَ وَالطِّفْلَ فِي الْمَنَارِ الشَّكِيلا
وَبُغَاثَ النِّيَافِ وَالْيَعْفَرَ النَّا ... فِرَ والعَوْهَجَ الْبُرَامَ الضَّئِيلا

فقوله: القساور جمع قسورة وهو الأسد. والصدعان ثيران الوحش واحدها صدع. والطفل الشكل من حمرة العين، والبغاث الرخم، والنياف الجبال، واليعفر الظبي، والعوهج ولد النعامة. يعني أن الموت لا ينجو منه الوحوش في البراري ولا الرخم الساكنة في رؤوس الجبال،

(١) العقنقل: الوادي العظيم المتسع والكثيب المتراكم.

(٢) جحاجح: أسياد.

ولا يترك صغيراً لصغره ولا كبيراً لكبره. وقد تكلّم الخطابي وغيره على غريب هذه الأحاديث.

وقد ذكر السهيلي في كتابه التعريف والأعلام: أن أمية بن أبي الصلت أول من قال باسمك اللهم، وذكر عند ذلك قصّة غريبة وهو أنهم خرجوا في جماعة من قريش في سفر فيهم حرب بن أمية والد أبي سفيان، قال فمروا في مسيرهم بحية فقتلوها، فلما أمسوا جاءتهم امرأة من الجان فعاتبتهم في قتل تلك الحية، ومعها قضيب فضربت به الأرض ضربة نفرت الإبل عن آخرها، فذهبت وشردت كل مذهب، وقاموا فلم يزالوا في طلبها حتى ردّوها، فلما اجتمعوا جاءتهم أيضاً فضربت الأرض بقضيبها فنفرت الإبل، فذهبوا في طلبها فلما أعياهم ذلك قالوا والله هل عندك لما نحن فيه من مخرج؟ فقال: لا والله، ولكن سأنظر في ذلك. قال: فساروا في تلك المحلة لعلهم يجدون أحداً يسألونه عما قد حل بهم من العناء إذا نار تلوح على بعد فجاؤوها فإذا شيخ على باب خيمة يوقد ناراً، وإذا هو من الجان في غاية الضآلة والدمامة. فسلّموا عليه فسألهم عما هم فيه فقال: إذا جاءتكم فقل بسمك اللهمّ فإنها تهرب، فلما اجتمعوا وجاءتهم الثالثة أو الرابعة قال في وجهها أمية بسمك اللهم فشردت ولم يقر لها قرار، لكن عدت الجن على حرب بن أمية فقتلوه بتلك الحية، فقبره أصحابه هنالك حيث لا جار ولا دار ففي ذلك يقول الجان: [الرجز]

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

وذكر بعضهم: أنه كان يتفرس في بعض الأحيان في لغات الحيوانات، فكان يمر في السفر على الطير فيقول لأصحابه: إن هذا يقول كذا وكذا، فيقولون لا نعلم صدق ما يقول حتى مروا على قطيع غنم قد انقطعت منه شاة ومعها ولدها، فالتفتت إليه فثغت كأنها تستحثه. فقال: أتدرون ما تقول له قالوا: لا، قال: إنها تقول أسرع بنا لا يجيء الذئب فيأكلك كما أكل الذئب أخاك عام أول، فأسرعوا حتى سألوا الراعي هل أكل له الذئب عام أول حملاً بتلك البقعة فقال: نعم. قال: ومرّ يوماً على بعير عليه امرأة راكبة وهو يرفع رأسه إليها ويرغو. فقال: إنه يقول لها إنك رحلتيني وفي الحداجة مخيط فأنزلوا تلك المرأة وحلوا ذلك الرحل فإذا فيه مخيط كما قال.

وذكر ابن السكيت: أن أمية بن أبي الصلت بينما هو يشرب يوماً إذ نعب غراب. فقال له بفيك التراب مرتين. فقيل له ما يقول؟ فقال: إنه يقول إنك تشرب هذا الكأس الذي في يدك ثم تموت. ثم نعب الغراب فقال إنه يقول وآية ذلك أني أنزل على هذه المزبلة فآكل منها فيعلق عظم في حلقي فأموت. ثم نزل الغراب على تلك المزبلة فأكل شيئاً فعلق في حلقه عظم فمات. فقال: أمية أما هذا فقد صدق في نفسه، ولكن سأنظر هل صدق في أم لا، ثم شرب ذلك الكأس الذى في يده ثم اتكأ فمات. وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن مهدي عن الثوري عن عبد الملك بن عمير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَصْدَقَ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ:

أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللَّهَ بَاطِلُ

وَكَادَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ أَنْ يُسْلِمَ»[1].

فقال الإمام أحمد: حدثنا رَوْحَ، حدثنا زكرياء بن إسحاق، حدثنا إبراهيم بن ميسرة أنه سمع عمرو بن الشريد يقول قال الشريد كنت: ردفاً لرسول الله ﷺ فقال لي: «أَمَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ شَيْءٌ؟» قلت نعم! قال: «فَأَنْشِدْنِي» فأنشدته بيتاً فلم يزل يقول لي كلما أنشدته بيتاً إيهِ حتى أنشدته مائة بيت، قال ثم سكت النبي ﷺ وسكت[2]، وهكذا رواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة عن أبي تميم بن ميسرة به. ومن غير وجه عن عمرو بن الشريد عن أبيه الشريد بن سويد الثقفي عن النبي ﷺ وفي بعض الروايات فقال رسول الله: «إِنْ كَادَ يُسْلِمُ».

وقال يحيى بن محمد بن صاعد: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري: حدثنا أبو أسامة، حدثنا حاتم بن أبي صُغْرة عن سِمَاك بن حرب، عن عمرو بن نافع، عن الشَّرِيدِ الهَمْدَانِي وأخواله ثقيف، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في حجّة الوداع، فبينا أنا أمشي ذات يوم إذا وقع ناقة خلفي فإذا رسول الله ﷺ فقال: «الشَّرِيدُ؟» فقلت نعم قال: أَلاَ أَحْمِلُكَ؟ قلت: بلى وما من إعياء، ولكني أردت البركة في ركوبي مع رسول الله ﷺ فأناخ فحملني فقال: «أَمَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ؟» قلت: نعم! قال: «هَاتِ» فأنشدته قال أظنه قال مائة بيت فقال: «عِنْدَ اللَّهِ عِلْمُ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ» ثم قال ابن صاعد هذا حديث غريب، فأما الذي يروى أن رسول الله ﷺ قال في أمية: «آمَنَ شِعْرُهُ وَكَفَرَ قَلْبُهُ» فلا أعرفه والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن محمد ـ هو أبو بكر بن أبي شيبة ـ حدثنا عَبدة بن سليمان عن محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ صدق أمية في شيء من شعره قال: [البحر الكامل]

زُحَلٌ وَثَوْرٌ تَحْتَ رِجْلِ يَمِينِهِ ... وَالنَّسْرُ لِلأُخْرَى وَلَيْثٌ مُرْصِدُ
وَالشَّمْسُ تَبْدُو كُلَّ آخِرِ لَيْلَةٍ ... حَمْرَاءَ يُصْبِحُ لَوْنُهَا يَتَوَرَّدُ
تَأْبَى فَمَا تَطْلَعُ لَنَا فِي رِسْلِهَا ... إِلاَّ مُعَذَّبَةً وَإِلاَّ تُجْلَدُ

فقال رسول الله ﷺ صَدَقَ[3]. وفي رواية أبي بكر الهُذَلي عن عِكْرِمَة عن ابن عبّاس أنه قال: إن الشمس لا تطلع حتى ينخسها سبعون ألف ملك، يقول لها: اطلعي اطلعي، فتقول: لا أطلع على قوم يعبدونني من دون الله، فإذا همّت بالطلوع أتاها شيطان يريد أن يثبطها، فتطلع بين قرنيه وتحرقه فإذا تضيفت للغروب عزمت لله عزّ وجلّ، فيأتيها شيطان يريد أن يثبطها عن السجود فتغرب من قرنيه وتحرقه. أورده ابن عساكر مطولاً. ومن شعره في حملة العرش: [الطويل]

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ٩٠، ومسلم في الشعر حديث ٣، وأحمد في المسند ٢/ ٤٧٠.
(٢) أخرجه مسلم في الشعر حديث ١، وأحمد في المسند ٤/ ٣٨٩.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٥٦.

فَمِنْ حَامِلٍ إِحْدَى قَوَائِمِ عَرْشِهِ وَلَوْلاَ إِلَهُ الخَلْقِ كَلُّوا وَأَبْلَدُوا
قِيَامٌ عَلَى الأَقْدَامِ عَانُونَ تَحْتَهُ فَرَائِصُهُمْ مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ تُرْعَدُ

رواه ابن عساكر وروي عن الأَصْمَعي أنه كان ينشد من شعر أمية: [الخفيف]

مَجِّدُوا اللَّهَ فَهْوَ لِلْمَجْدِ أَهْلٌ رَبُّنَا فِي السَّمَاءِ أَمْسَى كَبِيرا
بِالبِنَاءِ الأَعْلَى الَّذِي سَبَقَ النَّـ ـاسَ وَسَوَّى فَوْقَ السَّمَاءِ سَرِيرًا
شَرْجَعاً[1] لا يَنَالُهُ بَصَرُ العَيْـ ـنِ تَرَى دُونَهُ المَلاَئِكُ صُورا

ثم يقول الأصمعي: الملائك جمع ملك، والصور جمع أصور وهو المائل العنق وهؤلاء حملة العرش. ومن شعر أمية بن أبي الصلت يمدح عبد الله بن جدعان التيمي: [الوافر]:

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الحَيَاءُ
وَعِلْمُكَ بِالحُقُوقِ وَأَنْتَ فَرْعٌ لَكَ الحَسَبُ المُهَذَّبُ وَالسَّنَاءُ
كَرِيمٌ لاَ يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ عَنِ الخُلُقِ الجَمِيلِ وَلاَ مَسَاءُ
يُبَارِي الرِّيحَ مَكْرُمَةً وَجُوداً إِذَا مَا الكَلْبُ أَحْجَرَهُ الشِّتَاءُ
وَأَرْضُكَ أَرْضُ مَكْرُمَةٍ بَنَتْهَا بَنُو تَيْمٍ وَأَنْتَ لَهَا سَمَاءُ
إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ المَرْءُ يَوْماً كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

وله فيه مدائح أخر. وقد كان عبد الله بن جدعان هذا من الكرماء الأجواد الممدحين المشهورين، وكان له جفنة يأكل الراكب منها وهو على بعيره من عرض حافتها وكثرة طعامها، وكان يملأها لباب البر يلبك بالشهد والسمن، وكان يعتق الرقاب ويعين على النوائب، وقد سألت عائشة النبي ﷺ أينفعه ذلك؟ فقال: «إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْماً مِنَ الدَّهْرِ (رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)» ومن شعر أمية البديع: [الكامل]

لاَ يَنْكُثُونَ الأَرْضَ عِنْدَ سُؤَالِهِمْ كَتَطَلُّبِ العِلاَّتِ بِالعِيدَانِ
بَلْ يُسْفِرُونَ وُجُوهَهُمْ فَتَرَى لَهَا عِنْدَ السُّؤَالِ كَأَحْسَنِ الأَلْوَانِ
وَإِذَا المُقِلُّ أَقَامَ وَسْطَ رِحَالِهِمْ رَدُّوهُ رَبَّ صَوَاهِلٍ وَقِيَانِ
وَإِذَا دَعَوْتَهُمُ لِكُلِّ مُلِمَّةٍ سَدُّوا شُعَاعَ الشَّمْسِ بِالفُرْسَانِ

آخر ترجمة أمية بن أبي الصلت.

بحيرا الراهب

الذي توسم في رسول الله ﷺ النبوّة وهو مع عمه أبي طالب حين قدم الشام في تجار

(١) الشرجع: العالي المنيف.

من أهل مكة، وعمره إذا ذاك اثني عشرة سنة فرأى الغمامة تظلّه من بينهم. فصنع لهم طعاماً ضيافة، واستدعاهم كما سيأتي بيان ذلك في السيرة وقد روى الترمذي في ذلك حديثاً بسطنا الكلام عليه هنالك، وقد أورد له الحافظ ابن عساكر شواهد وسائغات في ترجمة بحيرا، ولم يورد ما رواه الترمذي، وهذا عجب. وذكر ابن عساكر أن بحيرا كان يسكن قرية يقال لها اللغز[1] بينها وبين بصرى ستة أميال، وهي التي يقال لها (دير بحيرا) قال: ويقال: إنه كان يسكن قرية يقال لها منفعة بالبلقاء وراء زيرا والله أعلم[2].

ذكر قس بن ساعدة الإِيادي

قال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتاب هواتف الجان: حدثنا داود القنطري، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني أبو عبد الله المشرقي عن أبي الحارث الوراق، عن ثور بن يزيد، عن مورق العجلي، عن عبادة بن الصامت. قال: لمّا قدم وفد إياد على النبي ﷺ قال: «يَا مَعْشَرَ وَفْدِ إِيَادٍ مَا فَعَلَ قِسُّ بْنُ سَاعِدَةَ الإِيَادِي». قالوا: هلك يا رسول الله. قال: «لَقَدْ شَهِدْتُهُ يَوْماً بِسُوقِ عُكَاظَ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ يَتَكَلَّمُ بِكَلاَمٍ مُعْجِبٍ مُونِقٍ لاَ أَجِدُنِي أَحْفَظُه». فقام إليه أعرابي من أقاصي القوم فقال: أنا أحفظه يا رسول الله. قال: فسرّ النبي ﷺ بذلك قال: فكان بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول: يا معشر الناس اجتمعوا فكل من فات فات، وكل شيء آت آت، ليل داج، وسماء ذات أبراج، وبحر عجاج، نجوم تزهر، وجبال مرسية، وأنهار مجرية، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالإقامة فأقاموا، أم تركوا فناموا. أقسم قس بالله قسماً لا ريب فيه. إن لله ديناً هو أرضى من دينكم هذا ثم أنشأ يقول: [مجزوء الكامل]

فِـي الـذَّاهِـبِـيـنَ الأَوَّلِـيـ ... ـنَ مِـنَ الـقُـرُونِ لَـنَـا بَـصَـائِـرْ
لَـمَّـا رَأَيْـتُ مَـوَارِداً ... لِـلْـمَـوْتِ لَـيْـسَ لَـهَـا مَـصَـادِرْ
وَرَأَيْـتُ قَـوْمِـي نَـحْـوَهَـا ... يَـمْـضِـي الأَصَـاغِـرُ وَالأَكَـابِـرْ
لاَ مَـنْ مَـضَـى يَـأْتِـي إِلَـيْـ ... ـكَ وَلاَ مِـنَ الـبَـاقِـيـنَ غَـابِـرْ
أَيْـقَـنْـتُ أَنِّـي لاَ مَـحَـا ... لَـةَ حَـيْـثُ صَـارَ الـقَـوْمُ صَـائِـرْ

وهذا إسناد غريب من هذا الوجه، وقد رواه الطبراني من وجه آخر، فقال في كتابه المعجم الكبير: حدّثنا محمد بن السّري بن مِهران بن الناقد البغدادي، حدّثنا محمد بن حسان السهمي، حدثنا محمد بن الحجّاج عن مجالد، عن الشعبي، عن ابن عباس. قال: قدم وفد عبد القيس على النبّي ﷺ فقال: «أَيُّكُمْ يَعْرِفُ القِسَّ بْنَ سَاعِدَةَ الإِيَادِي؟» قالوا: كلنا يعرفه يا رسول الله. قال: «فَمَا فَعَلَ؟» قالوا هلك. قال: «فَمَا أَنْسَاهُ بِعُكَاظَ فِي الشَّهْرِ

(١) في ط: الكفر.
(٢) أخرجه الترمذي في المناقب باب ٣.

الحَرَام وَهُوَ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اجْتَمِعُوا وَاسْتَمِعُوا وَعُوا، مَنْ عَاشَ مَاتَ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ، وَكُلُّ مَا هُو آتٍ آتٍ. إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَخَبَراً، وَإِنَّ فِي الأَرْضِ لَعِبَراً، مِهَادٌ مَوْضُوعٌ، وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ، وَنُجُومٌ تَمُورُ، وَبِحَارٌ لاَ تَغُورُ. وَأَقْسَمَ قِسٌّ قَسَماً حَقاً لَئِنْ كَانَ فِي الأَمْرِ رِضى لَيَكُونُنَّ بَعْدَهُ سَخَطٌ. إِنَّ لِلَّهِ لَدِيناً هُوَ أَحَبُّ إِلَيهِ مِن دِينِكُمْ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ. مَا لِي أَرَى النَّاسَ يَذْهَبُونَ وَلاَ يَرْجِعُونَ. أَرَضُوا بِالْمَقَامِ فَأَقَامُوا، أَمْ تُرِكُوا فَنَامُوا». ثم قال رسول الله ﷺ: «أَفِيكُمْ مَنْ يَرْوِي شِعْرَهُ؟» فأنشده بعضهم: [مجزوء الكامل]

فِي الذَّاهِبِينَ الأَوَّلِيـ ... ـنَ مِنَ القُرُونِ لَنَا بَصَائِرْ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِداً ... لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرْ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا ... يَسْعَى الأَصَاغِرُ وَالأَكَابِرْ
لاَ يَرْجِعُ المَاضِي إِلَيَّ ... وَلاَ مِنَ البَاقِينَ غَابِرْ
أَيْقَنْتُ أَنِّي لاَ مَحَا ... لَةَ حَيْثُ صَارَ القَوْمُ صَائِرْ

وهكذا أورده الحافظ البيهقي في كتابه دلائل النبوّة من طريق محمد بن حسّان السُّلَمي به. وهكذا رويناه في الجزء الذي جمعه الأستاذ أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه في أخبار قس، قال: حدثنا عبد الكريم بن الهيثم الديرعا قولي عن سعيد بن شبيب، عن محمد بن الحجّاج، عن إبراهيم الواسطي نزيل بغداد، ويعرف بصاحب الفريسة. وقد كذّبه يحيى بن معين وأبو حاتم الرازي والدارقطني، واتهمه غير واحد منهم ابن عدي بوضع الحديث، وقد رواه البزّار وأبو نعيم من حديث محمد بن الحجّاج، هذا ورواه ابن درستويه وأبو نعيم من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عبّاس، وهذه الطريق أمثل من التي قبلها، وفيه إن أبا بكر هو الذي أورد القصّة بكمالها، نظمها ونثرها بين يدي رسول الله ﷺ: ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث أحمد بن موسى بن إسحاق الحطمي، حدثنا علي بن الحسين بن محمد المخزومي، حدثنا أبو حاتم السجستاني، حدثنا وهب بن جرير عن محمد بن إسحاق عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن ابن عباس. قال: قدم وفد بكر بن وائل على رسول الله ﷺ فقال لهم: «مَا فَعَلَ حَلِيفٌ لَكُمْ يُقَالُ لَهُ قِسُّ بْنُ سَاعِدَةَ الإِيَادِي»، وذكر القصّة مطولة.

وأخبرنا الشيخ المسند الرحلة أحمد بن أبي طالب الحجّار إجازة إن لم يكن سماعاً، قال أجاز لنا جعفر بن علي الهمداني، قال أخبرنا الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السلفي سماعاً، وقرأت على شيخنا الحافظ أبي عبد الله الذهبي، أخبرنا أبو علي الحسن بن علي بن أبي بكر الخلال سماعاً، قال: أنا جعفر بن علي سماعاً قال أنا السلفي سماعاً، أنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي، أنا أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى السعدي، أنا أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن علي المقرىء، حدثنا أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي. قال: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن أحمد

السعدي ـ قاضي فارس حدثنا أبو داود سليمان بن سيف بن يحيى بن درهم الطائي من أهل حرّان، حدثنا أبو عمرو سعيد بن يربع عن محمد بن إسحاق، حدثني بعض أصحابنا من أهل العلم عن الحسن بن أبي الحسن البصري أنه قال: كان الجارود بن المعلى بن حنش بن معلى العبدي نصرانياً حسن المعرفة بتفسير الكتب وتأويلها، عالماً بسير الفرس وأقاويلها، بصيراً بالفلسفة والطب، ظاهر الدهاء والأدب، كامل الجمال، ذا ثروة ومال، وأنه قدم على النبي ﷺ وافداً في رجال من عبد القيس ذوي آراء وأسنان وفصاحة وبيان، وحجج وبرهان، فلما قدم على النبي ﷺ وقف بين يديه وأشار إليه وأنشأ يقول: [الخفيف]

يَا نَبِيَّ الهُدَى أَتَتْكَ رِجَالٌ ... قَطَعَتْ فَدْفَداً[1] وَآلاً فَآلا
وَطَوَتْ نَحْوَكَ الصَّحَاصِحَ[2] تَهْوِي ... لاَ تَعُدُّ الكَلاَلَ فِيكَ كَلاَلا
كُلُّ بَهْمَاءَ قَصَّرَ الطَّرْفُ عَنْهَا ... أَرْقَلَتْهَا قِلاَصُنَا إرْقَالا[3]
وَطَوَتْهَا العِتَاقُ[4] يَجْمَحُ فِيهَا ... بِكُمَاةٍ[5] كَأَنْجُمٍ تَتَلاَلا
تَبْتَغِي دَفْعَ بَأْسِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ... هَائِلٍ أَوْجَعَ القُلُوبَ وَهَالا
وَمَزَاداً لِمَحْشَرِ الخَلْقِ طُرّاً ... وَفِرَاقاً لِمَنْ تَمَادَى ضَلاَلا
نَحْوَ نُورٍ مِنَ الإِلَهِ وَبُرْهَا ... نٍ وَبِرٍّ وَنِعْمَةٍ أَنْ تُنَالا
خَصَّكَ اللَّهُ يَا ابْنَ آمِنَةَ الخَيْـ ... ـرِ بِهَا إِذْ أَتَتْ سِجَالاً سِجَالا[6]
فَاجْعَلِ الحَظَّ مِنْكَ يَا حُجَّةَ اللَّـ ... ـهِ جَزِيلاً لاَ حَظَّ خُلْفٍ أَحَالا

قال فأدناه النبي ﷺ وقرّب مجلسه وقال له: «يَا جَارُودُ لَقَدْ تَأَخَّرَ المَوْعُودُ بِكَ وَبِقَوْمِكَ». فقال الجارود: فداك أبي وأمي، أما من تأخر عنك فقد فاته حظّه. وتلك أعظم حوبة وأغلظ عقوبة، وما كنت فيمن رآك أو سمع بك فعداك واتبع سواك، وإني الآن على دين قد علمت به قد جئتك وها أنا تاركه لدينك، أفذلك مما يمحص الذنوب والمآثم والحوب؟ ويرضى الربّ عن المربوب، فقال له رسول الله ﷺ: «أَنَا ضَامِنٌ لَكَ ذَلِكَ وَأَخْلِصِ الآنَ لِلَّهِ الوحْدَانِيَّةَ وَدَعْ عَنْكَ دِينَ النَّصْرَانِيَّةِ». فقال الجارود: فداك أبي وأمي مدّ يدك فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أنك محمد عبده ورسوله. قال: فأسلم وأسلم معه أناس من قومه، فسر النبي ﷺ بإسلامهم، وأظهر من إكرامهم ما سروا به وابتهجوا به. ثم أقبل عليهم رسول الله ﷺ فقال: «أَفِيكُمْ مَنْ يَعْرِفُ قِسَّ بْنَ سَاعِدَةَ

(١) الفدفد: الفلاة.
(٢) الصحاصح: ما استوى من الأرض.
(٣) أرقلت القلاص المفازة: قطعتها والقلاص النوق.
(٤) العتاق: الخيول الضامرة القوية.
(٥) الكماة: الفرسان.
(٦) سجالاً: متتابعة ومتتالية.

الإِيَادِي»، فقال الجارود: فداك أبي وأمي كلّنا نعرفه وإني من بينهم لعالم بخبره واقف على أمره. كان قس يا رسول الله سبطاً من أسباط العرب عمّر ستمائة سنة تقفز منها خمسة أعمار في البراري والقفار، يضج بالتسبيح على مثال المسيح لا يقرّه قرار، ولا تكنه دار، ولا يستمتع به جار. كان يلبس الأمساح[(١)] ويفوق السياح[(٢)]، ولا يفتر من رهبانيته يتحسى في سياحته بيض النعام ويأنس بالهوام[(٣)]، ويستمتع بالظلام، يبصر فيعتبر، ويفكر فيختبر، فصار لذلك واحداً تضرب بحكمته الأمثال، وتكشف به الأهوال. أدرك رأس الحواريين سمعان، وهو أول رجل تأله من العرب ووحّد، وأقرّ وتعبّد، وأيقن بالبعث والحساب، وحذّر سوء المآب، وأمر بالعمل قبل الفوت، ووعظ بالموت، وسلم بالقضاء، على السخط والرضا، وزار القبور، وذكر النشور[(٤)]، وندب بالأشعار، وفكر في الأقدار، وأنبأ عن السماء والنماء، وذكر النجوم وكشف الماء، ووصف البحار، وعرف الآثار، وخطب راكباً، ووعظ دائباً، وحذّر من الكرب، ومن شدّة الغضب، ورسّل الرسائل، وذكر كل هائل، وأرغم في خطبه، وبين في كتبه، وخوف الدهر، وحذّر الأزر، وعظّم الأمر، وجنّب الكفر، وشوق إلى الحنيفية، ودعا إلى اللاهوتية. وهو القائل في يوم عكاظ: شرق وغرب، ويتم وحزب، وسلم وحرب، ويابس ورطب، وأجاج[(٥)] وعذب، وشموس وأقمار، ورياح وأمطار، وليل ونهار، وأناث وذكور، وبرار وبحور، وحب ونبات، وآباء وأمهات، وجمع وأشتات، وآيات في إثرها آيات، ونور وظلام، ويسر وإعدام، ورب وأصنام، لقد ضل الأنام، نشوّ مولود، ووأد مفقود، وتربية محصود، وفقير وغني، ومحسن ومسيء، تباً لأرباب الغفلة، ليصلحن العامل عمله، وليفقدن الآمل أمله، كلا بل هو إله واحد، ليس بمولود ولا والد، أعاد وأبدى، وأمات وأحيا، وخلق الذكر والأنثى، رب الآخرة والأولى. أما بعد: فيا معشر إياد، أين ثمود وعاد؟ وأين الآباء والأجداد؟ وأين العليل والعوّاد[(٦)]؟ كل له معاد يقسم قس برب العباد، وساطح المهاد، لتحشرن على الانفراد، في يوم التناد، إذا نفخ في الصور، ونقر في الناقور، وأشرقت الأرض، ووعظ الواعظ، فانتبذ القانط وأبصر اللاحظ، فويل لمن صدف عن الحق الأشهر، والنور الأزهر، والعرض الأكبر، في يوم الفصل، وميزان العدل، إذا حكم القدير، وشهد النذير، وبعد النصير، وظهر التقصير، ففريق في الجنة وفريق في السعير. وهو القائل: [الخفيف]

ذَكَّــرَ الــقَــلْــبَ مِــنْ جَــوَاهُ ادِّكَــارُ وَلَــيَــالٍ خِــلالَــهُــنَّ نَــهَــارُ

وَسِــجَــالٌ[(٧)] هَــوَاطِــلٌ مِــنْ غَــمَــامٍ ثُــرْنَ مَــاءً وَفِــي جَــوَاهُــنَّ نَــارُ

---

(١) الأمساح: الأثواب الداثرة.
(٢) السياح: من السوح في الفيافي.
(٣) الهوام: الوحوش.
(٤) النشور: البعث.
(٥) أجاج: مالح.
(٦) العوّاد: زوار المريض.
(٧) سجال: يقال سجل المطر: انصب بغزارة.

ضَـوْؤهَـا يَـطْـمِـسُ الـعُـيُـونَ وَأَرعَـا دُ شِـدَادُ فِـي الـخَـافِـقَـيْـنِ تُـطَـارُ
وَقُـصُـورٌ مُـشَـيَّـدَةٌ حَـوَتِ الـخَـيْـرَ وَأُخْـرَى خَـلَـتْ بِـهِـنَّ قِـفَـارُ
وَجِـبَـالٌ شَـوَامِـخٌ رَاسِـيَـاتٌ وَبِـحَـارٌ مِـيَـاهُـهُـنَّ غِـزَارُ
وَنُـجُـومٌ تَـلُـوحُ فِـي ظُـلَـمِ الـلَّـيْـلِ نَـرَاهَـا فِـي كُـلِّ يَـوْمٍ تُـدَارُ
ثُـمَّ شَـمْـسٌ يَـحُـثُّـهَـا قَـمَـرُ الـلَّـيْـلِ وَكُـلٌّ مُـتَـابِـعٌ مَـوَّارُ
وَصَـغِـيـرٌ وَأَشْـمَـطٌ وَكَـبِـيـرٌ كُـلُّـهُـمْ فِـي الـصَّـعِـيـدِ يَـوْمـاً مُـزَارُ
وَكَـبِـيـرٌ مِـمَّـا يُـقَـصِّـرُ عَـنْـهُ حَـدْسَـهُ الـخَـاطِـرُ الَّـذِي لاَ يَـحَـارُ
فَـالَّـذِي قَـدْ ذَكَـرْتُ دَلَّ عَـلَـى الـلَّـهِ نُـفُـوسـاً لَـهَـا هُـدىً وَاعْـتِـبَـارُ

قال فقال رسول الله ﷺ: «مَهمَا نَسِيتُ فَلَسْتُ أَنْسَاهُ بِسُوقِ عُكَاظَ، وَاقِفاً عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ يَخْطُبُ النَّاسَ: اجْتَمِعُوا فَاسْمَعُوا، وَإِذَا سَمِعْتُمْ فَعُوا، وَإِذَا وَعَيْتُمْ فَانْتَفِعُوا، وَقُولُوا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاصْدُقُوا، مَنْ عَاشَ مَاتَ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٌ، مَطَرٌ وَنَبَاتٌ، وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ، لَيلٌ دَاجٌ، وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَنُجُومٌ تُزْهِرُ، وَبِحَارٌ تَزْخَرُ، وَضَوْءٌ وَظَلاَمٌ، وَلَيلٌ وَأَيَّامٌ، وَبِرٌّ وَآثَامٌ، إِنَّ فِي السَّمَاءِ خَبَرَاً، وَإِنَّ فِي الأَرْضِ عِبَراً، يَحَارُ فِيهِنَّ البَصَرَا، مِهَادٌ مَوْضوعٌ، وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ، وَنُجُوم تَغُورُ، وَبِحَارٌ لاَ تَفُورُ، وَمَنَايَا دَوَانٍ، وَدَهْرٌ خَوَّانٌ، كَحَدِّ النِسْطَاسِ، وَوَزْنِ القِسْطَاسِ. أَقْسَمَ قِسٌّ قَسَماً، لاَ كَاذِبَا فِيهِ ولاَ آثِمَا، لَئِنْ كَانَ هَذَا الأَمْرِ رِضَى، لَيَكُونَنَّ سَخَطٌ. ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِلَّهِ دِيناً هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِكُمْ هَذَا الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَهَذَا زَمَانُهُ وَأَوَانُهُ. ثُمَّ قَالَ مَا لِي أَرَى النَّاسَ يَذْهَبُونَ فَلاَ يَرْجِعُونَ، أَرَضُوا بِالمُقَامِ فَأَقَامُوا؟ أَمْ تُرِكُوا فَنَامُوا». والتفت رسول الله ﷺ: إلى بعض أصحابه فقال: «أَيُّكُمْ يَرْوِي شِعْرَهُ لَنَا»؟ فقال أبو بكر الصديق: فداك أبي وأمي، أنا شاهد له في ذلك اليوم حيث يقول:

[مجزوء الكامل]

فِـي الـذَّاهِـبِـيـنَ الأَوَّلِـيـنَ مِـنَ الـقُـرُونِ لَـنَـا بَـصَـائِـرْ
لَـمَّـا رَأَيْـتُ مَـوَارِداً لِـلْـمَـوْتِ لَـيْـسَ لَـهَـا مَـصَـادِرْ
وَرَأَيْـتُ قَـوْمِـي نَـحْـوَهَـا يَـمْـضِـي الأَصَـاغِـرُ وَالأَكَـابِـرْ
لاَ يَـرْجِـعُ الـمَـاضِـي إِلَـيَّ وَلاَ مِـنَ الـبَـاقِـيـنَ غَـابِـرْ
أَيْـقَـنْـتُ أَنِّـي لاَ مَـحَـالَـةَ حَـيْـثُ صَـارَ الـقَـوْمُ صَـائِـرْ

قال: فقام إلى رسول الله ﷺ شيخ من عبد القيس عظيم الهامة، طويل القامة، بعيد ما بين المنكبين فقال: فداك أبي وأمي، وأنا رأيت من قس عجباً. فقال له رسول الله ﷺ: «مَا الَّذِي رَأَيْتَ يَا أَخَا بَنِي عَبْدِ القَيسِ؟» فقال: خرجت في شبيبتي أربع بعيراً لي ندّ عني أقفو أثره في تنائف[1] قفاف ذات ضغابيس[2] وعرصات جثجاث[3] بين صدور جذعان، وغمير

(١) تنائف: التنوفه: المفازة. (٢) ضغابيس: أشواك. (٣) جثجاث: نبات.

حوذان، ومهمه ظلمان، ورصيع ايهقان، فبينا أنا في تلك الفلوات أجول بسببها وأرنق فدفدها إذا أنا بهضبة في نشزاتها أراك كباث مخضوضلة، وأغصانها متهدلة، كأن بريرها حب الفلفل وبواسق أقحوان، وإذا بعين خرارة وروضة مدهامة ، وشجرة عارمة، وإذا أنا بقس بن ساعدة في أصل تلك الشجرة وبيده قضيب. فدنوت منه وقلت له: أنعم صباحاً! فقال: وأنت فنعم صباحك! وقد وردت العين سباع كثيرة فكان كلما ذهب سبع منها يشرب من العين قبل صاحبه ضربه قس بالقضيب الذي بيده. وقال: اصبر حتى يشرب الذي قبلك فذعرت من ذلك ذعراً شديداً، ونظر إليّ فقال لا تخف. وإذا بقبرين بينهما مسجد فقلت ما هذان القبران؟ قال: قبرا أخوين كانا يعبدان الله عزّ وجل بهذا الموضع، فأنا مقيم بين قبريهما أعبد الله حتى ألحق بهما. فقلت له: أفلا تلحق بقومك فتكون معهم في خيرهم وتباينهم على شرهم؟ فقال لي: ثكلتك أمك! أو ما علمت أن ولد إسماعيل تركوا دين أبيهم واتبعوا الأضداد وعظموا الأنداد ثم أقبل على القبرين وأنشأ يقول: [البحر الطويل]

خَلِيلَيَّ هُبَّا طَالَمَا قَدْ رَقَدْتُمَا ... أَجِدَّكُمَا لاَ تَقْضِيَانِ كَرَاكُمَا[١]

أَرَى النَّوْمَ بَيْنَ الجِلْدِ وَالعَظْمِ مِنْكُمَا ... كَأَنَّ الَّذِي يَسْقِي العِقَارَ[٢] سَقَاكُمَا

أَمِنْ طُولِ نَوْمٍ لاَ تُجِيبَانِ دَاعِياً ... كَأَنَّ الَّذِي يَسْقِي العِقَارُ سَقَاكُمَا

أَلَمْ تَعْلَمَا أَنِّي بِنَجْرَانَ مُفْرَداً ... وَمَا لِيَ فِيهِ مِنْ حَبِيبٍ سِوَاكُمَا

مُقِيمٌ عَلَى قَبْرَيْكُمَا لَسْتُ بَارِحاً ... إِيَابَ اللَّيَالِي أَوْ يُجِيبُ صَدَاكُمَا

أَأَبكيكما طُولَ الحَيَاةِ وَمَا الَّذِي ... يَرُدُّ عَلَى ذِي لَوْعَةٍ أَنْ بَكَاكُمَا

فَلَوْ جُعِلَتْ نَفْسٌ لِنَفْسِ امْرِىءٍ فِدَى ... لَجُدْتُ بِنَفْسِي أَنْ تَكُونَ فِدَاكُمَا

كَأَنَّكُمَا وَالمَوْتَ أَقْرَبُ غَايَةٍ ... بِرُوحِيَ فِي قَبْرَيْكُمَا قَدْ أَتَاكُمَا

قال فقال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ قِسّاً. أَمَا إِنَّهُ سَيُبْعَثُ يَوْمَ القِيَامَةِ أُمَّةً وحده». وهذا الحديث غريب جداً من هذا الوجه، وهو مرسل إلاّ أن يكون الحسن سمعه من الجارود والله أعلم.

وقد رواه البيهقي: والحافظ أبو القاسم ابن عساكر من وجه آخر من حديث محمد بن عيسى بن محمد بن سعيد القرشي الأخباري. ثنا: أبي ثنا علي بن سليمان بن علي عن علي بن عبد الله، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. قال: قدم الجارود بن عبد الله فذكر مثله أو نحوه مطوّلاً بزيادات كثيرة في نظمه ونثره، وفيه ما ذكره عن الذي ضلّ بعيره، فذهب في طلبه قال: فبت في واد لا آمن فيه حتفي، ولا أركن إلى غير سيفي، أرقب الكوكب، وأرمق الغيهب[٣]، حتى إذا الليل عسعس[٤]، وكاد الصبح أن يتنفس، هتف بي هاتف يقول: [الرجز]

---

(١) كراكما: من الكرى: النعاس.

(٢) العقار: الخمر.

(٣) الغيهب: الظلمة.

(٤) عسعس الليل: اشتد سواده.

يَا أَيُّهَا الرَّاقِدُ فِي اللَّيْلِ الأَجَمّ ... قَدْ بَعَثَ اللَّهُ نَبِيّاً فِي الحَرَمْ
مِنْ هَاشِم أَهْلِ الوَفَاءِ وَالكَرَمْ ... يَجْلُو دُجَيَّاتِ الدَّيَاجِي وَالبُهَمْ

قال فأدرتُ طرفي فما رأيت له شخصاً. ولا سمعت له فحصاً، قال فأنشأت أقول:

[الرجز]

يَا أَيُّهَا الهَاتِفُ فِي دَاجِي الظُّلَمْ ... أَهْلاً وَسَهْلاً بِكَ مِنْ طَيْفٍ أَلَمْ
بَيِّنْ هَدَاكَ اللَّهُ فِي لَحْنِ الكَلِمْ ... مَاذَا الَّذِي تَدْعُو إِلَيْهِ يُغْتَنَمْ

قال فإذا أنا بنحنحة وقائلاً يقول: ظهر النور، وبطل الزور، وبعث الله محمداً بالحبور، صاحب النجيب الأحمر، والتاج والمغفر، والوجه الأزهر، والحاجب الأقمر، والطرف الأحور، صاحب قول شهادة أن لا اله إلا الله وذلك محمد المبعوث إلى الأسود والأبيض أهل المدر والوبر ثم أنشأ يقول: [مجزوء الرجز]

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ... لَمْ يَخْلُقِ الخَلْقَ عَبَثْ
لَمْ يُخْلِنَا يَوْماً سُدَىً ... مِنْ بَعْدِ عِيسَى وَاكْتَرِث
أَرْسَلَ فِينَا أَحْمَداً ... خَيْرَ نَبِيٍّ قَدْ بُعِثْ
صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ مَا ... حَجَّ لَهُ رَكْبٌ وَحَثْ

وفيه من إنشاء قس بن ساعدة: [البسيط]

يَا نَاعِيَ المَوْتِ وَالمَلْحُودُ فِي جَدَثٍ ... عَلَيْهِمُ مِنْ بَقَايَا قَوْلِهِمْ خِرَقُ
دَعْهُمْ فَإِنَّ لَهُمْ يَوْماً يُصَاحُ بِهِمْ ... فَهُمْ إِذَا انْتَبَهُوا مِنْ نَوْمِهِمْ أَرِقُوا
حَتَّى يَعُودُوا بِحَالٍ غَيْرِ حَالِهِمُ ... خَلْقاً جَدِيداً كَمَا مِنْ قَبْلِهِ خُلِقُوا
مِنْهُمْ عُرَاةٌ وَمِنْهُمْ فِي ثِيَابِهِمُ ... مِنْهَا الجَدِيدُ وَمِنْهَا المَنْهَجُ الخَلِقُ

ثم رواه البيهقي عن محمد بن عبد الله بن يوسف بن أحمد الأصبهاني. حدثنا أبو بكر أحمد بن سعيد بن فرضخ الأخميمي بمكة، ثنا القاسم بن عبد الله بن مهدي، ثنا أبو عبيد الله سعيد بن عبد الرحمن المخزومي، ثنا سفيان بن عيينة عن أبي حمزة الثمالي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. فذكر القصّة وذكر الإنشاد، قال فوجدوا عند رأسه صحيفة فيها: [البسيط]

يَا نَاعِيَ المَوْتِ وَالأَمْوَاتُ فِي جَدَثٍ ... عَلَيْهِمُ مِنْ بَقَايَا نَوْمِهِمْ خِرَقُ
دَعْهُمْ فَإِنَّ لَهُمْ يَوْماً يُصَاحُ بِهِمْ ... كَمَا تَنَبَّهَ مِنْ نَوْمَاتِهِ الصَّعِقُ
مِنْهُمْ عُرَاةٌ وَمَوْتَى فِي ثِيَابِهِمُ ... مِنْهَا الجَدِيدُ وَمِنْهَا الأَزْرَقُ الخَلِقُ

فقال رسول الله ﷺ: «والذي بعثني بالحق لقد آمن قسّ بالبعث». وأصله مشهور وهذه الطرق على ضعفها كالمتعاضدة على إثبات أصل القصّة، وقد تكلّم أبو محمد بن درستويه على غريب ما وقع في هذا الحديث، وأكثره ظاهر إن شاء الله تعالى، وما كان فيه

غرابة شديدة نبهنا عليه في الحواشي.

وقال البيهقي: أخبرنا أبو سعيد بن محمد بن أحمد الشعيثي، ثنا أبو عمرو بن أبي طاهر المحمد آباذي لفظاً، ثنا أبو لبابة محمد بن المهدي الأبيوردي، ثنا أبي، ثنا سعيد بن هبيرة، ثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه، عن أنس بن مالك قال: قدم وفد إياد على النبيّ ﷺ فقال: «مَا فَعَلَ قِسُّ بْنُ سَاعِدَةَ؟» قالوا هلك. قال: «أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ مِنْهُ كَلاَماً أَرَى أَنِّي لا أَحْفَظُهُ»، فقال بعض القوم نحن نحفظه يا رسول الله، قال: «هَاتُوا»: فقال قائلهم إني واقف بسوق عكاظ فقال: يا أيها الناس استمعوا واسمعوا وعوا، كل من عاش مات، وكل من مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرسية وأنهار مجرية إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، أرى الناس يموتون ولا يرجعون أرضوا بالإقامة فأقاموا، أم تركوا فناموا، أقسم قس قسماً بالله لا آثم فيه، إني لله ديناً هو أرضى مما أنتم عليه ثم أنشأ يقول: [مجزوء الكامل]

فِي الذَّاهِبِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ القُرُونِ لَنَا بَصَائِرْ
لَمَّا رَأَيْتُ مَصَارِعاً لِلْقَوْمِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرْ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا يَمْضِي الأَكَابِرُ وَالأَصَاغِرْ
أَيْقَنْتُ أَنِّي لاَ مَحَا لَةَ حَيْثُ صَارَ القَوْمُ صَائِرْ

ثم ساقه البيهقي من طرق أخرى قد نبّهنا عليها فيما تقدم، ثم قال بعد ذلك كله، وقد روي هذا الحديث عن الكلبيّ عن أبي صالح عن ابن عبّاس بزيادة ونقصان. وروي من وجه آخر عن الحسن البصري منقطعاً، وروي مختصراً من حديث سعد بن أبي وقّاص وأبي هريرة. قلت: وعبادة بن الصامت كما تقدم، وعبد الله بن مسعود، كما رواه أبو نعيم كتاب الدلائل عن عبد الله بن محمد بن عثمان الواسطي، عن أبي الوليد طريف بن عبيد الله مولى علي بن أبي طالب بالموصل، عن يحيى بن عبد الحميد الحماني، عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن أبي الضحى عن مسروق، عن ابن مسعود فذكره. وروى أبو نعيم أيضاً حديث عبادة المتقدّم، وسعد بن أبي وقاص. ثم قال البيهقي: وإذا روي الحديث من أوجه أخر وإن كان بعضها ضعيفاً دلّ على أن للحديث أصلاً والله أعلم.

[ذكر][1] زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه

هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرظ بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي القرشي العدوي. وكان الخطاب، والد عمر بن الخطاب عمّه وأخاه لأمه. وذلك لأن عمرو بن نفيل كان قد خلف على امرأة أبيه بعد أبيه، وكان لها من نفيل أخوه الخطاب، قاله الزبير بن بكار ومحمد بن إسحاق. وكان زيد بن عمرو قد ترك عبادة

(١) سقط في ط.

الأوثان وفارق دينهم، وكان لا يأكل إلاّ ما ذبح على اسم الله وحده، قال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحدٌ منكم على دين إبراهيم غيري. ثم يقول: اللهم إني لو أعلم أحبّ الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلم، ثم يسجد على راحلته. وكذا رواه أبو أسامة عن هشام به، وزاد وكان يصلي إلى الكعبة ويقول إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم. وكان يحيي الموءودة ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته لا تقتلها، ادفعها إلي أكفلها، فإذا ترعرعت فإن شئت فخذها، وإن شئت فادفعها[1]. أخرجه النسائي من طريق أبي أسامة وعلقه البخاري فقال: وقال الليث كتب إلى هشام بن عروة عن أبيه به. وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق: وقد كان نفر من قريش زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى، وعبد الله بن جحش بن رياب بن يعمر بن صبرة بن برة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسعد بن أسد بن خزيمة. وأمه أميمة بنت عبد المطلب. وأخته زينب بنت جحش التي تزوّجها رسول الله ﷺ بعد مولاه زيد بن حارثة كما سيأتي بيانه. حضروا قريشاً عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لعيدٍ من أعيادهم، فلما اجتمعوا خلا بعض أولئك النفر إلى بعض وقالوا: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض. فقال قائلهم تعلمن والله ما قومكم على شيء لقد أخطؤوا دين إبراهيم وخالفوه ما وثن يعبد لا يضر ولا ينفع، فابتغوا لأنفسكم، فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض يلتمسون أهل كتاب من اليهود والنصارى والملل كلها. الحنيفية دين إبراهيم، فأما ورقة بن نوفل فتنصر واستحكم في النصرانية وابتغى الكتب من أهلها حتى علم علماً كثيراً من أهل الكتاب، ولم يكن فيهم أعدل أمراً وأعدل ثباتاً من زيد بن عمرو بن نفيل، اعتزل الأوثان وفارق الأديان من اليهود والنصارى والملل كلها إلا دين الحنيفية دين إبراهيم يوحد الله، ويخلع من دونه، ولا يأكل ذبائح قومه، فإذا هم بالفراق لما هم فيه. قال: وكان الخطاب قد آذاه أذى كثيراً حتى خرج منه إلى أعلى مكة، ووكّل به الخطاب شباباً من قريش، وسفهاء من سفهائهم، فقال لا تتركوه يدخل فكان لا يدخلها إلاّ سرّاً منهم، فإذا علموا به أخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم، أو يتابعه أحد إلى ما هو عليه. وقال موسى بن عقبة سمعت من أرضى يحدث عن زيد بن عمرو بن نفيل كان يعيب على قريش ذبائحهم، ويقول الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض، لِمَ تذبحوها على غير اسم الله. إنكاراً لذلك وإعظاماً له وقال يونس عن ابن إسحاق، وقد كان زيد بن عمرو بن نفيل قد عزم على الخروج من مكّة فضرب في الأرض يطلب الحنيفية دين إبراهيم، وكانت امرأته صفيّة بنت الحضرمي كلّما أبصرته قد نهض للخروج، وأراده آذنت الخطاب بن نفيل فخرج زيد إلى الشام يلتمس ويطلب في أهل الكتاب الأول دين إبراهيم، ويسأل عنه، ولم يزل في ذلك

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ٢٤.

فيما يزعمون حتى أتى الموصل والجزيرة كلها، ثم أقبل حتى أتى الشام، فجال فيها حتى أتى راهباً ببيعة من أرض البلقاء كان ينتهي إليه علم النصرانية فيما يزعمون، فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم فقال له الراهب: إنك لتسأل عن دين ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، لقد درس من علمه وذهب من كان يعرفه، ولكنه قد أظل خروج نبي وهذا زمانه. وقد كان شام اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئاً منها فخرج سريعاً حين قال له الراهب ما قال يريد مكة حتى إذا كان بأرض لخم عدوا عليه فقتلوه فقال ورقة يرثيه: [الطويل]

رَشَدْتَ وَأَنْعَمْتَ ابْنَ عَمْرٍو وَإِنَّمَا ... تَجَنَّبْتَ تَنُوراً مِنَ النَّارِ حَامِيَا
بِدِينِكَ رَبّاً لَيْسَ رَبٌّ كَمِثْلِهِ ... وَتَرْكِكَ أَوْثَانَ الطَّوَاغِي كَمَا هِيَا
وَقَدْ تُدْرِكُ الإِنْسَانَ رَحْمَةُ رَبِّهِ ... وَلَوْ كَانَ تَحْتَ الأَرْضِ سَبْعِينَ وَادِيَا

وقال محمد بن عثمان بن أبي شيبة: حدثنا أحمد بن طارق الوابشي، ثنا عمرو بن عطية، عن أبيه، عن ابن عمر، عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه كان يتأله في الجاهلية، فانطلق حتى أتى رجلاً من اليهود فقال له: أحب أن تدخلني معك في دينك. فقال له اليهودي: لا أدخلك في ديني حتى تبوء بنصيبك من غضب الله. فقال من غضب الله أفرّ. فانطلق حتى أتى نصرانياً فقال له: أحب أن تدخلني معك في دينك، فقالت لست أدخلك في ديني حتى تبوء بنصيبك من الضلالة. فقال من الضلالة أفرّ. قال له النصراني فإني أدلك على دين إن تبعته اهتديت. قال: أي دين؟ قال: دين إبراهيم قال: فقال اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم عليه أحيى وعليه أموت. قال فذكر شأنه للنبي ﷺ فقال: «هُوَ أُمَّةٌ وَحْدَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[1]. وقد روى موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر نحو هذا، وقال محمد بن سعد: حدثنا علي بن محمد بن عبد الله بن سيف القرشي عن إسماعيل عن مجالد، عن الشعبي، عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال قال زيد بن عمرو بن نفيل: شاممت اليهودية والنصرانية فكرهتهما، فكنت بالشام وما والاها حتى أتيت راهباً في صومعة، فذكرت له اغترابي عن قومي وكراهتي عبادة الأوثان واليهودية والنصرانية. فقال له: أراك تريد دين إبراهيم يا أخا أهل مكة، أنك لتطلب ديناً ما يوجد اليوم أحد يدين به، وهو دين أبيك إبراهيم، كان حنيفاً لم يكن يهودياً ولا نصرانياً كان يصلي ويسجد إلى هذا البيت الذي ببلادك، فالحق ببلدك فإن الله يبعث من قومك في بلدك من يأتي بدين إبراهيم الحنيفية، وهو أكرم الخلق على الله. وقال يونس عن ابن إسحاق: حدثني بعض آل زيد بن عمرو بن نفيل: إن زيداً كان إذا دخل الكعبة قال لبيك حقاً حقاً، تعبداً ورقاً، عذت بما عاذ به إبراهيم وهو قائم، إذ قال إلهي أنفي لك عان راغم، مهما تجشمني فإني جاشم، البر أبغي لا انحال، ليس مهجر كمن قال. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا المسعودي عن نفيل بن هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي عن أبيه عن جده أن زيد بن

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ٢٤.

عمرو وورقة بن نوفل خرجا يلتمسان الدين حتى انتهيا إلى راهب بالموصل، فقال لزيد بن عمرو من أين أقبلت يا صاحب البعير؟ فقال من بنية إبراهيم، فقال: وما تلتمس؟ قال ألتمس الدين قال: ارجع فإنه يوشك أن يظهر في أرضك. قال:

فأما ورقة فتنصّر، وأما أنا فعزمت على النصرانية فلم يوافقني فرجع وهو يقول: [مجزوء الرجز]

لَبَّيْكَ حَقّاً حَقَّا تَعَبُّداً وَرِقَّا
البِرَّ أَبْغِي لا الخَالْ فَهَلْ مُهَجِّرٌ كَمَنْ قَالْ

آمنت بما آمن به إبراهيم وهو يقول: أنفي لك عان راغم، مهما تجشمني فإني جاشم، ثم يخر فيسجد، قال وجاء ابنه يعني سعيد بن زيد أحد العشرة رضي الله عنه فقال: يا رسول الله إن أبي كما رأيت وكما بلغك فاستغفر له، قال: «نَعَمْ فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ القِيَامَةِ أُمَّةً وَاحِدَةً». قال وأتى زيد بن عمرو بن زيد على رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة، وهما يأكلان من سفرة لهما، فدعواه لطعامهما فقال زيد بن عمرو: يا ابن أخي أنا لا آكل مما ذبح على النصب. وقال محمد بن سعد: حدثنا محمد بن عمرو حدثني أبو بكر بن أبي سبرة عن موسى بن ميسرة عن ابن أبي مليكة عن حجر بن أبي أهاب. قال: رأيت زيد بن عمرو وأنا عند صنم بوانة بعدما رجع من الشام، وهو يراقب الشمس، فإذا زالت استقبل الكعبة فصلى ركعة سجدتين ثم يقول: هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل، لا أعبد حجراً ولا أصلي له، ولا آكل ما ذبح له، ولا أستقسم الأزلام، وإنما أصلي لهذا البيت حتى أموت. وكان يحجّ فيقف بعرفة، وكان يلبي فيقول: لبيك لا شريك لك ولا ند لك ثم يدفع من عرفة ماشياً وهو يقول لبيك متعبّداً مرقوقاً.

وقال الواقدي: حدّثني علي بن عيسى الحكمي عن أبيه عن عامر بن ربيعة قال: سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول: أنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل، ثم من بني عبد المطلب، ولا أراني أدركه وأنا أؤمن به وأصدقه وأشهد أنه نبيّ، فإن طالت بك مدّة فرأيته فاقرئه مني السلام، وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك قلت: هلم! قال: هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير ولا بكثير الشعر. ولا بقليله وليست تفارق عينه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه، واسمه أحمد، وهذا البلد مولده ومبعثه، ثم يخرجه قومه منها ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره، فإياك أن تخدع عنه فإني طفت البلاد كلّها أطلب دين إبراهيم، فكان من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون هذا الدين وراءك، وينعتونه مثل ما نعته لك، ويقولون لم يبق نبيّ غيره. قال عامر بن ربيعة: فلما أسلمت أخبرت رسول الله ﷺ قول زيد بن عمرو، وإقرائه منه السلام، فردّ عليه السلام، وترحّم عليه، وقال: «قَدْ رَأَيْتُهُ فِي الجَنَّةِ يَسْحَبُ ذُيُولاً».

وقال البخاري في صحيحه: ذِكْر زيد بن عمرو بن نفيل.

حدّثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا فضيل بن سليمان، حدثنا موسى بن عقبة، حدثني

سالم بن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي، فقُدِّمت إلى النبي ﷺ سفرة فأبى أن يأكل منها. ثم قال زيد: إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلاّ ما ذكرُ اسم الله عليه، وإن زيد بن عمرو يعيب على قريش ذبائحهم ويقول الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء، وأنبت لها من الأرض، ثم يذبحونها على غير اسم الله إنكاراً لذلك وإعظاماً له.

قال موسى بن عقبة: وحدثني سالم بن عبد الله ولا أعلمه إلاّ يحدث به عن ابن عمر، أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقي عالماً من اليهود فسأله عن دينهم فقال: إني لعلي أن أدين دينكم فأخبرني، فقال إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله، قال زيد: وما أفرّ إلاّ من غضب الله تعالى، ولا أحمل من غضب الله شيئاً، ولا أستطيعه، فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلاّ أن تكون حنيفاً، قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم عليه السلام لم يكن يهُودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله. فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى، فذكر مثله. فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله. فقال زيد: وما أفر إلا من لعنة الله فهل تدلني على غيره، قال: ما أعلمه إلاّ أن تكون حنيفاً قال وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلاّ الله، فلمّا رأى زيد قولهم في إبراهيم خرج فلما برز رفع يديه فقال: اللهم إني أشهدك إني على دين إبراهيم. قال: وقال الليث: كتب إليّ هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري، وكان يحيي الموؤدة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها، فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤنتها[1]. انتهى ما ذكره البخاري.

وهذا الحديث الأخير قد أسنده الحافظ ابن عساكر من طريق أبي بكر بن أبي داود عن عيسى بن حمّاد، عن الليث، عن هشام، عن أبيه، عن أسماء فذكر نحوه. وقال عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن أسماء قالت: سمعت زيد بن عمرو بن نفيل وهو مسند ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش إياكم والزنى فإنه يورث الفقر. وقد ساق ابن عساكر ها هنا أحاديث غريبة جداً، وفي بعضها نكارة شديدة. ثم أورد من طرق متعددة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُبْعَثُ يَوْمَ القِيَامَةِ أُمّةً واحدةً». فمن ذلك ما رواه محمد بن عثمان بن أبي شيبة: حدثنا يوسف بن يعقوب الصفّار، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: سئل رسول الله ﷺ عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه كان يستقبل القبلة في الجاهلية، ويقول إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم ويسجد. فقال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ ذَاكَ أُمَّةً وَحْدَهُ بَيْنِي وَبَيْنَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ». إسناده جيد حسن.

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ٢٤.

وقال الواقدي: حدثني موسى بن شيبة عن خارجة بن عبد الله بن كعب بن مالك قال: سمعت سعيد بن المسيب يذكر زيد بن عمرو بن نفيل، فقال: توفي وقريش تبني الكعبة قبل أن ينزل الوحي على رسول الله ﷺ بخمس سنين، ولقد نزل به وأنه ليقول أنا على دين إبراهيم، فأسلم ابنه سعيد بن زيد واتبع رسول الله ﷺ، وأتى عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد رسول الله ﷺ فسألاه عن زيد بن عمرو بن نفيل فقال: «غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَرَحِمَهُ فَإِنَّهُ مَاتَ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ»، قال فكان المسلمون بعد ذلك اليوم لا يذكره ذاكر منهم إلاّ ترحّم عليه واستغفر له، ثم يقول سعيد بن المسيب رحمه الله وغفر له. وقال محمد بن سعد عن الواقدي حدثني زكريا بن يحيى السعدي عن أبيه قال: مات زيد بن عمرو بن نفيل بمكّة ودفن بأصل حراء، وقد تقدم أنه مات بأرض البلقاء من الشام لما عدا عليه قوم من بني لخم فقتلوه بمكان يقال له ميفعة والله أعلم.

وقال الباغندي عن أبي سعيد الأشج، عن أبي معاوية، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَرَأَيْتُ لِزَيْدِ بْن عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ دَوْحَتَيْنِ»، وهذا إسناد جيد، وليس هو في شيء من الكتب. ومن شعر زيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله ما قدمناه في بدء الخلق من تلك القصيدة [الطويل]

إلَى اللَّهِ أُهْدِي مِدْحَتِي وَثَنَائِيَا ... وَقَوْلاً رَضِيّاً لاَ يَنِي الدَّهْرَ بَاقِيَا
إلَى المَلِكِ الأَعْلَى الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ ... إلَـهٌ وَلاَ رَبٌّ يَكُونُ مُدَانِيَا

وقد قيل إنها لأمية بن أبي الصلت والله أعلم. ومن شعره في التوحيد ما حكاه محمد بن إسحاق والزُّبَيْرِ بن بَكّارٍ وغيرهما: [المتقارب]

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ الأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْراً ثِقَالا
دَحَاهَا[1] فَلَمَّا اسْتَوَتْ شَدَّهَا ... سَوَاءً وَأَرْسَى عَلَيْهَا الجِبَالا
وأسلمت وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ المُزْنُ[2] تَحْمِلُ عَذْباً زُلاَلا
إذَا هِيَ سِيقَتْ إلَى بَلْدَةٍ ... أَطَاعَتْ فَصَبَّتْ عَلَيْهَا سِجَالا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ الرِّيحُ تُصْرَفُ حَالاً فَحَالا

وقال محمد بن إسحاق حدثني هشام بن عروة قال: روى أبي أن زيد بن عمرو قال: [الوافر]

أَرَبٌّ وَاحِدٌ أَمْ أَلْفُ رَبٍّ ... أَدِينُ إذَا تَقَسَّمَتِ الأُمُورُ
عَزَلْتُ اللاَّتَ وَالعُزَّى جَمِيعاً ... كَذَلِكَ يَفْعَلُ الجَلْدُ الصَّبُورُ
فَلاَ العُزَّى أَدِينُ وَلاَ ابْنَتَيْهَا ... وَلاَ صَنَمَيْ بَنِي عَمْرٍو أَزُورُ
وَلاَ غُنْماً أَدِينُ وَكَانَ رَبّاً ... لَنَا فِي الدَّهْرِ إذْ حِلْمِي يَسِيرُ

---

(١) دحاها: بسطها.

(٢) المزن: السحابة الممطرة.

عَجِبْتُ وَفي اللَّيَالِي مُعْجِبَاتٌ ... وَفي الأَيَّامِ يَعْرِفُهَا البَصِيرُ
بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْنَى رِجَالاً ... كَثِيراً كَانَ شَأْنَهُمُ الفُجُورُ
وَأَبْقَى آخَرِينَ بِبِرِّ قَوْمٍ ... فَيَرْبُلُ[1] مِنْهُمُ الطِّفْلُ الصَّغِيرُ
وَبَيْنَا المَرْءُ يَعْثُرُ ثَابَ يَوْماً ... كَمَا يَتَرَوَّحُ الغُصْنُ النَّضِيرُ
وَلَكِنْ أَعْبُدُ الرَّحْمٰنَ رَبِّي ... لِيَغْفِرَ ذَنْبِيَ الرَّبُّ الغَفُورُ
فَتَقْوَى اللَّهِ رَبِّكُمُ احْفَظُوهَا ... مَتَى مَا تَحْفَظُوهَا لاَ تَبُورُوا
تَرَى الأَبْرَارَ دَارُهُمُ جِنَانٌ ... وَلِلْكُفَّارِ حَامِيَةٌ سَعِيرُ
وَخِزْيٌ فِي الحَيَاةِ وَإِنْ يَمُوتُوا ... يُلاقُوا مَا تَضِيقُ بِهِ الصُّدُورُ

وهذا تمام ما ذكره محمد بن إسحاق من هذه القصيدة. وقد رواه أبو القاسم البَغَوي عن مصعب بن عبد الله عن الضحاك بن عثمان، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد قال قال هشام بن عروة عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر قالت قال زيد بن عمرو بن نفيل: [الوافر]

عَزَلْتُ الجِنَّ وَالجِنَّانَ عَنِّي ... كَذَلِكَ يَفْعَلُ الجَلْدُ الصَّبُورُ
فَلاَ العُزَّى أَدِينُ وَلاَ ابْنَتَيْهَا ... وَلاَ صَنَمِي بَنِي طَسْمٍ أَدِيرُ
وَلاَ غُنْماً أَدِينُ وَكَانَ رَبّاً ... لَنَا فِي الدَّهْرِ إِذْ حِلْمِي صَغِيرُ
أَرَبّاً وَاحِداً أَمْ أَلْفَ رَبٍّ ... أَدِينُ إِذَا تَقَسَّمَتِ الأُمُورُ
أَلَمْ تَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ أَفْنَى ... رِجَالاً شَأْنُهُمُ الفُجُورُ
وَأَبْقَى آخَرِينَ بِبِرِّ قَوْمٍ ... فَيَرْبُو مِنْهُمُ الطِّفْلُ الصَّغِيرُ
وَبَيْنَا المَرْءُ يَعْثُرُ ثَابَ يوماً ... كَمَا يَتَرَوَّحُ الغُصْنُ النَّضِيرُ

قالت فقال ورقة بن نوفل: [الطويل]

رَشَدْتَ وَأَنْعَمْتَ ابْنَ عَمْرٍو وَإِنَّمَا ... تَجَنَّبْتَ تَنُّوراً مِنَ النَّارِ حَامِيَا
لِدِينِكَ رَبّاً لَيْسَ كَمِثْلِهِ ... وَتَرْكِكَ جِنَّانَ الجِبَالِ كَمَا هِيَا
أَقُولُ إِذَا أَهْبَطْتُ أَرْضاً مَخُوفَةً ... حَنَانَيْكَ لاَ تُظْهِرْ عَلَيَّ الأَعَادِيَا
حَنَانَيْكَ إِنَّ الجِنَّ كَانَتْ رَجَاءَهُمْ ... وَأَنْتَ إِلٰهِي رَبُّنَا وَرَجَائِيَا
لَتُدْرِكَنَّ المَرْءَ رَحْمَةُ رَبِّهِ ... وَإِنْ كَانَ تَحْتَ الأَرْضِ سَبْعِينَ وَادِيَا
أَدِينُ لِرَبٍّ يَسْتَجِيبُ وَلاَ أَرَى ... أَدِينُ لِمَنْ لاَ يَسْمَعُ الدَّهْرَ وَاعِيَا
أَقُولُ إِذَا صَلَّيْتُ فِي كُلِّ بَيْعَةٍ ... تَبَارَكْتَ قَدْ أَكْثَرْتُ بِاسْمِكَ دَاعِيَا

تقدم أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام هو وورقة بن نوفل وعثمان بن

(١) يربل: ينمو.

الحويرث وعبيد الله بن جحش فتنصروا إلا زيداً فإنه لم يدخل في شيء من الأديان بل بقي على فطرته من عبادة الله وحده لا شريك له متبعاً ما أمكنه من دين إبراهيم على ما ذكرناه. وأما ورقة بن نوفل فسيأتي خبره في أول المبعث. وأما عثمان بن الحويرث فأقام بالشام حتى مات فيها عند قيصر. وله خبر عجيب ذكره الأموي ومختصره أنه لما قدم على قيصر فشكى إليه ما لقي من قومه كتب له إلى ابن جفنة ملك عرب الشام ليجهز معه جيشاً لحرب قريش فعزم على ذلك فكتبت إليه الأعراب تنهاه عن ذلك لما رأوا من عظمة مكة وكيف فعل الله بأصحاب الفيل، فكساه ابن جفنة قميصاً مصبوغاً مسموماً فمات من سمه فرثاه زيد بن عمرو بن نفيل بشعر ذكره الأموي تركناه اختصاراً وكانت وفاته قبل المبعث بثلاث سنين أو نحوها والله سبحانه وتعالى أعلم.

[ذكر][1] شيء مما [وقع][2] من الحوادث في زمن الفترة
فمن ذلك بنيان الكعبة

وقد قيل: إن أول من بناه آدم وجاء في ذلك حديث مرفوع عن عبد الله بن عمرو، وفي سنده ابن لهيعة وهو ضعيف، وأقوى الأقوال أن أول من بناه الخليل عليه السلام، كما تقدّم. وكذلك رواه سمّاك بن حرب عن خالد بن عرعرة، عن علي بن أبي طالب قال: ثم تهدّم فبنته العمالقة، ثم تهدم فبنته جرهم، ثم تهدم فبنته قريش.

قلت: سيأتي بناء قريش له، وذلك قبل المبعث بخمس سنين، وقيل بخمس عشرة سنة.

وقال الزهريّ كان رسول الله ﷺ قد بلغ الحلم. وسيأتي ذلك كلّه في موضعه إن شاء الله وبه الثقة.

[ذكر][3] كعب بن لؤيّ

روى أبو نعيم من طريق محمد بن الحسن بن زبالة عن محمد بن طلحة التيمي، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبي سلمة. قال: كان كعب بن لؤي يجمع قومه يوم الجمعة، وكانت قريش تسمّيه العروبة فيخطبهم فيقول: أما بعد فاسمعوا وتعلموا، وافهموا واعلموا، ليل ساج، ونهار ضاح، والأرض مهاد، والسماء بناء والجبال أوتاد، والنجوم أعلام، والأوّلون كالآخرين، والأنثى والذكر والروح وما يهيج إلى بلى فَصِلوا أرحامكم، واحفظوا أصهاركم، وثمّروا أموالكم. فهل رأيتم من هالك رجع؟ أو ميت نشر؟ الدار أمامكم، والظن غير ما تقولون، حرمكم زيّنوه وعظّموه، وتمسكوا به فسيأتي له نبأ عظيم؛ وسيخرج منه نبي كريم، ثم يقول: [الطويل]

(١) سقط في ط. (٢) سقط في ط. (٣) سقط في ط.

نَـهَـارٌ وَلَـيْـلٌ كُـلُّ يَـوْمٍ بِـحَـادِثٍ سَـوَاءٌ عَـلَـيْـنَـا لَـيْـلُـهَـا وَنَـهَـارُهَـا
يَـؤُوبَـانِ بِـالأَحْـدَاثِ حَـتَّـى تَـأَوَّبَـا وَبِـالـنِّـعَـمِ الـضَّـافِـي علينا سُتُورُهَا
عَـلَـى غَـفْـلَـةٍ يَـأْتِـي الـنَّـبِـيُّ مُـحَـمَّـدٌ فَـيُـخْـبِـرَ أَخْـبَـاراً صَـدُوقٌ خَـبِـيـرُهَـا

ثم يقول: والله لو كنت فيها ذا سمع وبصر، ويد ورجل، لتنصبت فيها تنصب الجمل، ولأرقلت بها إرقال العجل. ثم يقول: [البسيط]

يَـا لَـيْـتَـنِـي شَـاهِـداً نَـجْـوَاءَ دَعْـوَتِـهِ حِـيـنَ الـعَـشِـيـرَةُ تَـبْـغِـي الـحَـقَّ خِـذْلاَنَـا

قال وكان بين موت كعب بن لؤي ومبعث رسول الله ﷺ خمسمائة عام وستون سنة.

[ذكر][١] تجديد حفر زمزم

على يدي عبد المطلب بن هاشم التي كان قد درس رسمها بعد طم جرهم لها إلى زمانه. قال محمد بن إسحاق: ثم إن عبد المطلب بينما هو نائم في الحجر، وكان أول ما ابتدى به عبد المطلب من حفرها كما حدثني يزيد بن أبي حبيب المصري عن مرثد بن عبد الله المزني، عن عبد الله بن رزين الغافقي أنه سمع علي بن أبي طالب يحدّث حديث زمزم حين أمر عبد المطلب بحفرها. قال قال عبد المطلب: إني لنائم في الحجر إذ أتاني آت، فقال لي احفر طيبة. قال قلت وما طيبة؟ قال ثم ذهب عني. قال فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فجاءني فقال احفر برة. قال قلت وما برّة؟ قال ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فجاءني فقال: احفر المضنونة، قال قلت: وما المضنونة؟ قال ثم ذهب عني. فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني فقال: احفر زمزم. قال قلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف أبداً ولا تزم، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل. قال: فلما بيّن لي شأنها ودلّ على موضعها، وعرف أنه قد صدق، غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب، وليس له يومئذ ولد غيره، فحفر فلما بدا لعبد المطلب الطمي[٢] كبر، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته. فقاموا إليه فقالوا: يا عبد المطلب أنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقاً فأشركنا معك فيها. قال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خُصِصْت به دونكم، وأعطيته من بينكم. قالوا له: فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها. قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنة بني سعد بن هذيم قال: نعم، وكانت بأشراف الشام، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أمية وركب من كل قبيلة من قريش نفر، فخرجوا والأرض إذ ذاك مفاوز، حتى إذا كانوا ببعضها، نفد ماء عبد المطلب وأصحابه، فعطشوا حتى استيقنوا بالهلكة، فاستسقوا من معهم فأبوا عليهم، وقالوا: إنا بمفازة وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم، فقال عبد المطلب: إني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما لكم

(١) سقط في ط.
(٢) الطمي: التراب المخلوط بالماء.

الآن من القوّة، فكلّما مات رجل دفعه في حفرته، ثم واروه حتى يكون آخرهم رجلاً واحداً، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعه. فقالوا: نعماً أمرت به، فحفر كل رجل لنفسه حفرة. ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشى، ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه ألقينا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض لا نبتغي لأنفسنا لعجز، فعسى أن يرزقنا ماء ببعض البلاد، فارتحلوا حتى إذا بعث عبد المطلب راحلته انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب، فكبّر عبد المطلب وكبّر أصحابه، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه واستسقوا حتى ملؤوا أسقيتهم، ثم دعا قبائل قريش وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال، فقال هلمّوا إلى الماء، فقد سقانا الله، فجاؤوا فشربوا واستقوا كلهم، ثم قالوا قد والله قضى لك علينا، والله ما نخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة وخلّوا بينه وبين زمزم.

قال ابن إسحاق فهذا ما بلغني عن علي بن أبي طالب في زمزم، قال ابن إسحاق: وقد سمعت من يحدّث عن عبد المطلب أنه قيل له حين أمر بحفر زمزم: [الرجز]

ثُمَّ ادْعُ بِالْمَاءِ الرَّوِيِّ غَيْرَ الكَدِرِ   يَسْقِي حَجِيجَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَبَر
لَيْسَ يَخَافُ مِنْهُ شَيْءٌ مَا عَمَرْ

قال فخرج عبد المطلب حين قيل له ذلك إلى قريش فقال: تعلموا أني قد أمرت أن أحفر زمزم، قالوا: فهل بُيِّن لك أين هي؟ قال: لا! قالوا فارجع إلى مضجعك الذي رأيت فيه ما رأيت، فإن يك حقاً من الله يبين لك، وإن يك من الشيطان فلن يعود إليك، فرجع ونام فأتى فقيل له: احفر زمزم. إنك إن حفرتها لن تندم. وهي تراث من أبيك الأعظم. لا تنزف أبداً ولا تزم. تسقي الحجيج الأعظم. مثل نعام جافل لم يقسم. ينذر فيها ناذر بمنعم. تكون ميراثاً وعقداً محكم. ليست لبعض ما قد تعلم. وهي بين الفرث والدم.

قال ابن إسحاق: فزعموا أن عبد المطلب حين قيل له ذلك قال: وأين هي؟ قيل له عند قرية النمل حيث ينقر الغراب غداً. فالله أعلم أي ذلك كان. قال فغدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث وليس له يومئذ ولد غيره. زاد الأموي ومولاه أصرم، فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عندها بين الوثنين أساف ونائلة اللذين كانت قريش تنحر عندهما، فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أمر، فقامت إليه قريش وقالت: والله لا نتركنك تحفر بين وثنينا اللذين ننحر عندهما. فقال عبد المطلب لابنه الحارث: ذُدْ[1] عني حتى أحفر، فوالله لأمضين لما أمرت به، فلما عرفوا أنه غير نازع خلوا بينه وبين الحفر، وكفّوا عنه، فلم يحفر إلاّ يسيراً حتى بدا له الطمي، فكبّر وعرف أنه قد صدق، فلما تمادى به الحفر وجد فيها غزالتين من ذهب اللتين كانت جرهم قد دفنتهما ووجد فيها أسيافاً قلعية وأدرعاً. فقالت له

(١) زد: أي دافع.

قريش: يا عبد المطلب لنا معك في هذا شرك، وحق، قال: لا ولكن هلم إلى أمر نصف بيني وبينكم نضرب عليها بالقداح، قالوا: وكيف نصنع؟ قال: اجعل للكعبة قدحين ولي قدحين. ولكم قدحين. فمن خرج قدحاه على شيء كان له، ومن تخلّف قدحاه فلا شيء له. قالوا: أنصفت فجعل للكعبة قدحين أصفرين وله أسودين ولهم أبيضين، ثم أعطوا القداح للذي يضرب عند هبل، وهبل أكبر أصنامهم، ولهذا قال أبو سفيان يوم أحد: أعل هبل! يعني هذا الصنم. وقام عبد المطلب يدعو الله. وذكر يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق أن عبد المطلب جعل يقول: [الرجز]

اللَّهُمَّ أَنْتَ المَلِكُ المَحْمُودْ ... رَبِّي أَنْتَ المُبْدِيءُ المُعِيدْ
وَمُمْسِكُ الرَّاسِيَةِ الجُلْمُود ... مِنْ عِنْدَكَ الطَّارِفُ وَالتَّلِيدْ
إنْ شِئْتَ أَلْهَمْتَ كَمَا تُرِيدْ ... لِمَوْضِعِ الحِلْيَةِ وَالحَدِيدْ
فَبَيِّنِ اليَوْمَ لِمَا تُرِيدْ ... إِنِّي نَذَرْتُ العَاهِدَ المَعْهُودْ
اجْعَلْهُ رَبِّ لِي فَلاَ أَعُودْ

قال وضرب صاحب القداح فخرج الأصفران على الغزالين للكعبة، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع لعبد المطلب، وتخلف قدحا قريش. فضرب عبد المطلب الأسياف باباً للكعبة، وضرب في الباب الغزالين من ذهب، فكان أول ذهب حلية للكعبة فيما يزعمون. ثم إن عبد المطلب أقام سقاية زمزم للحاج. وذكر ابن إسحاق وغيره أن مكّة كان فيها أبيار كثيرة قبل ظهور زمزم في زمن عبد المطلب، ثم عددها ابن إسحاق وسماها، وذكر أماكنها من مكة وحافريها إلى أن قال: فعفت زمزم على البئار كلها وانصرف الناس كلهم إليها لمكانها من المسجد الحرام، ولفضلها على ما سواها من المياه، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم، وافتخرت بها بنو عبد مناف على قريش كلها وعلى سائر العرب. وقد ثبت في صحيح مسلم في حديث إسلام أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال في زمزم: «إِنَّهَا لَطَعَامُ طَعِمٍ. وَشِفَاءُ سَقِمٍ»[1]. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن الوليد عن عبد الله بن المؤمل عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ مِنْهُ»[2]. وقد رواه ابن ماجة من حديث عبد الله بن المؤمل وقد تكلموا فيه ولفظه «ماء زمزم لما شرب له». ورواه سويد بن سعيد عن عبد الله بن المبارك عن عبد الرحمن بن أبي الموالي، عن محمد بن المنكدر، عن جابر عن النبي ﷺ قال: «مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ». ولكن سويد بن سعيد ضعيف، والمحفوظ عن ابن المبارك عن عبد الله بن المؤمل كما تقدم. وقد رواه الحاكم عن ابن عباس مرفوعاً ماء «زمزم لما شرب له» وفيه نظر والله أعلم. وهكذا روى ابن ماجه أيضاً والحاكم عن ابن عبّاس أنه قال لرجل: إذَا شَرِبْتَ مِنْ زَمْزَمَ فَاسْتَقْبِلِ

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث ١٣٢، وأحمد في المسند ٤/ ١٧٤، ١٧٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه في المناسك باب ٧٨، وأحمد في المسند ٣/ ٣٧٢.

الكَعْبَةَ، وَاذْكُرْ اسْمَ اللّهِ وَتَنَفَّسْ ثَلاثاً، وتَضَلَّعْ مِنْهَا، فَإِذَا فَرَغْتَ فَاحْمَدِ اللّهَ فإنّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قال: «إنَّ آيَةَ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ المُنَافِقِينَ لاَ يَتَضَلَّعُونَ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ»[١]. وقد ذكر عن عبد المطلب أنه قال: اللهم إني لا أحلها لمغتسل، وهي لشارب حلّ وبل. وقد ذكره بعض الفقهاء عن العبّاس بن عبد المطلب، والصحيح أنه عن عبد المطلب نفسه، فإنه هو الذي جدّد حفر زمزم كما قدّمنا والله أعلم.

وقد قال الأموي في مغازيه: حدثنا أبو عبيد، أخبرني يحيى بن سعيد، عن عبد الرحمن بن حرملة سمعت سعيد بن المسيب يحدث أن عبد المطلب بن هاشم حين احتفر زمزم. قال: لا أحلّها لمغتسل وهي لشارب حل وبل. وذلك أنه جعل لها حوضين حوضاً للشرب، وحوضاً للوضوء. فعند ذلك قال: لا أحلها لمغتسل، لينزه المسجد عن أن يغتسل فيه. قال أبو عبيد قال الأصمعي: قوله وبل اتباع قال أبو عبيدة والاتباع لا يكون بواو العطف وإنما هو كما قال معتمر بن سليمان أن بل بلغة حمير مباح، ثم قال أبو عبيد حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبي النجود أنه سمع زراً أنه سمع العبّاس يقول: لا أحلها لمغتسل، وهي لشارب حلّ وبلّ. وحدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا سفيان عن عبد الرحمن بن علقمة أنه سمع ابن عبّاس يقول ذلك، وهذا صحيح إليهما، وكأنهما يقولان ذلك في أيامهما على سبيل التبليغ والإعلام بما اشترطه عبد المطلب عند حفره لها فلا ينافي ما تقدّم والله أعلم. وقد كانت السقاية إلى عبد المطلب أيام حياته، ثم صارت إلى ابنه أبي طالب مدّة، ثم اتفق أنه أملق[٢] في بعض السنين فاستدان من أخيه العباس عشرة آلاف إلى الموسم الآخر، وصرفها أبو طالب في الحجيج في عامه فيما يتعلّق بالسقاية، فلما كان العام المقبل لم يكن مع أبي طالب شيء، فقال لأخيه العباس أسلفني أربعة عشر ألفاً أيضاً إلى العام المقبل أعطيك جميع مالك، فقال له العباس: بشرط إن لم تعطني تترك السقاية لي اكفكها فقال: نعم فلما جاء العام الآخر لم يكن مع أبي طالب ما يعطي العبّاس فترك له السقاية، فصارت إليه. ثم من بعده صارت إلى عبد الله ولده ثم إلى علي بن عبد الله بن عباس، ثم إلى داود بن علي، ثم إلى سليمان بن علي، ثم إلى عيسى بن علي، ثم أخذها المنصور، واستناب عليها مولاه أبا رزين ذكره الأموي.

[ذكر][٣] نذر عبد المطلب ذبح أ[حد][٤] ولده

قال ابن إسحاق: وكان عبد المطلب فيما يزعمون نذر حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم، لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه، ليذبحن أحدهم لله عند الكعبة. فلما تكامل بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه وهم: الحارث، والزبير، وحجل، وضرار، والمقوم، وأبو لهب، والعباس، وحمزة، وأبو طالب، وعبد الله، جمعهم ثم أخبرهم بنذره

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المناسك باب ٧٨.
(٢) أملق: فقر واحتاج.
(٣) سقط في ط.
(٤) سقط في ط.

ودعاهم إلى الوفاء لله عزّ وجلّ بذلك فأطاعوه، وقالوا: كيف نصنع؟ قال: ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه، ثم ائتوني، ففعلوا. ثم أتوه، فدخل بهم على هبل في جوف الكعبة وكانت تلك البئر هي التي يجمع فيها ما يهدى للكعبة، وكان عند هبل قداح سبع وهي الأزلام التي يتحاكمون إليها إذا أعضل عليهم أمر من عقل أو نسب أو أمر من الأمور جاؤوه فاستقسموا بها فما أمرتهم به أو نهتهم عنه امتثلوه. والمقصود أن عبد المطلب لما جاء يستقسم بالقداح عند هبل خرج القدح على ابنه عبد الله، وكان أصغر ولده وأحبّهم إليه، فأخذ عبد المطلب بيد ابنه عبد الله، وأخذ الشفرة ثم أقبل به إلى أساف ونائلة ليذبحه، فقامت إليه قريش من أنديتها فقالوا: ما تريد يا عبد المطلب؟ قال اذبحه، فقالت له قريش وبنوه إخوة عبد الله: والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يجيء بابنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا. وذكر يونس بن بكير عن ابن إسحاق أن العبّاس هو الذي اجتذب عبد الله من تحت رجل أبيه حين وضعها عليه ليذبحه فيقال إنّه شج وجهه شجاً، لم يزل في وجهه إلى أن مات. ثم أشارت قريش على عبد المطلب أن يذهب إلى الحجاز فإن بها عرافة لها تابع فيسألها عن ذلك، ثم أنت على رأس أمرك أن أمرتك بذبحه فاذبحه، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه مخرج قبلته، فانطلقوا حتى أتوا المدينة، فوجدوا العرّافة وهي سجاح فيما ذكره يونس بن بكير عن ابن إسحاق بخيبر، فركبوا حتى جاؤوها، فسألوها وقصّ عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه، فقالت لهم: ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله، فرجعوا من عندها، فلمّا خرجوا قام عبد المطلب يدعو الله، ثم غدوا عليها فقالت لهم: قد جاءني الخبر، كما الديّة فيكم؟ قالوا عشر من الإبل، وكانت كذلك، قالت: فارجعوا إلى بلادكم ثم قرّبوا صاحبكم وقربوا عشراً من الإبل ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربّكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه، فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم، فخرجوا حتى قدموا مكّة فلما أجمعوا على ذلك الأمر قام عبد المطلب يدعو الله، ثم قرّبوا عبد الله وعشراً من الإبل، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشراً، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشراً فلم يزالون يزيدون عشراً عشراً ويخرج القدح على عبد الله حتى بلغت الإبل مائة. ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل فقالت عند ذلك قريش لعبد المطلب، وهو قائم عند هبل يدعو الله، قد انتهى رضي ربك يا عبد المطلب. فعندها زعموا أنه قال لا حتى أضرب عليها بالقداح ثلاث مرات فضربوا ثلاثاً ويقع القدح فيها على الإبل، فنحرت، ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا يمنع. قال ابن هشام ويقال ولا سبع. وقد رُوِيَ أنه لما بلغت الإبل مائة خرج على عبد الله أيضاً فزادوا مائة أخرى حتى بلغت مائتين فخرج القدح على عبد الله فزادوا مائة أخرى فصارت الإبل ثلاثمائة. ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل فنحرها عند ذلك عبد المطلب، والصحيح الأول والله أعلم. وقد روى ابن جرير عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب، عن يونس بن يزيد عن الزهري، عن قبيصة بن ذؤيب

أن ابن عباس سألته امرأة أنها نذرت ذبح ولدها عند الكعبة فأمرها بذبح مائة من الإبل، وذكر لها هذه القصة عن عبد المطلب. وسألت عبد الله بن عمر فلم يفتها بشيء بل توقف. فبلغ ذلك مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة فقال إنهما لا يصيبا الفتيا ثم أمر المرأة أن تعمل ما استطاعت من خير ونهاها عن ذبح ولدها، ولم يأمرها بذبح الإبل، وأخذ الناس بقول مروان بذلك والله أعلم.

[ذكر][1] تزويج عبد المطلب ابنه عبد الله من آمنة بنت وهب الزهرية

قال ابن إسحاق: ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد ابنه عبد الله فمرّ به - فيما يزعمون - على امرأة من بني أسد بن عبد العزى بن قصي وهي أم قتال أخت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي وهي عند الكعبة، فنظرت إلى وجهه فقالت أين تذهب يا عبد الله؟ قال: مع أبي، قالت: لك مثل الإبل التي نحرت عنك وقع عليّ الآن. قال أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه ولا فراقه. فخرج به عبد المطلب حتى أتى وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، وهو يومئذ سيد بني زهرة سناً وشرفاً، فزوّجه ابنته آمنة بنت وهب وهي يومئذ سيّدة نساء قومها. فزعموا أنه دخل عليها حين أملكها مكانه، فوقع عليها فحملت منه برسول الله ﷺ، ثم خرج من عندها فأتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت، فقال لها ما لك لا تعرضين عليّ اليوم ما كنت عرضت بالأمس؟ قالت له فارقك النور الذي كان معك بالأمس فليس لي بك حاجة. وكانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل - وكان قد تنصّر واتبع الكتب - أنه كائن في هذه الأمة نبيّ فطمعت أن يكون منها، فجعله الله تعالى في أشرف عنصر وأكرم محتد وأطيب أصل كما قال تعالى ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وسنذكر المولد مفصّلاً. ومما قالت أم قتال بنت نوفل من الشعر تتأسّف على ما فاتها من الأمر الذي رامته، وذلك فيما رواه البيهقي من طريق يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق رحمه الله: [الوافر]

عَلَيْكَ بِآلِ زُهْرَةَ حَيْثُ كَانُوا ... وَآمِنَةَ الَّتِي حَمَلَتْ غُلَامَا
تَرَى الْمَهْدِيَّ حِينَ نَزَا[2] عَلَيْهَا ... وَنُوراً قَدْ تَقَدَّمَهُ إِمَامَا
[إلى أن قالت]:
فَكُلُّ الْخَلْقِ يَرْجُوهُ جَمِيعاً ... يَسُودُ النَّاسَ مُهْتَدِياً إِمَامَا
يَرَاهُ اللَّهُ مِنْ نُورٍ صَفَاهُ ... فَأَذْهَبَ نُورُهُ عَنَّا الظَّلَامَا
وَذَلِكَ صُنْعُ رَبِّكَ إِذْ حَبَاهُ ... إِذَا مَا سَارَ يَوْماً أَوْ أَقَامَا

(١) سقط في ط. (٢) نزا: وثب.

فَيَهْدِي أَهْلَ مَكَّةَ بَعْدَ كُفْرٍ ... وَيَفْرِضُ بَعْدَ ذَلِكُم الصِّيَامَا

وقال أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي: حدّثنا علي بن حرب، حدثنا محمد بن عمارة القرشي، حدثنا مسلم بن خالد الزنجي، حدثنا ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: لما انطلق عبد المطلب بابنه عبد الله ليزوجه، مرّ به على كاهنة من أهل تبالة متهوّدة، قد قرأت الكتب، يقال لها: فاطمة بنت مر الخثعمية، فرأت نور النبوّة في وجه عبد الله، فقالت يا فتى هل لك أن تقع عليّ الآن وأعطيك مائة من الإبل؟ فقال عبد الله: [الرجز]

أَمَّا الحَرَامُ فَالمَمَاتُ دُونَه ... وَالحِلُّ لاَ حِلَّ فَأَسْتَبِينَه
فَكَيْفَ بِالأَمْرِ الَّذِي تَبْغِينَه ... يَحْمِي الكَرِيمُ عِرْضَهُ ودِينَه

ثم مضى مع أبيه فزوّجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، فأقام عندها ثلاثاً. ثم إن نفسه دعته إلى ما دعته إليه الكاهنة، فأتاها فقالت: ما صنعت بعدي؟ فأخبرها. فقالت والله ما أنا بصاحبة ريبة، ولكني رأيت في وجهك نوراً فأردت أن يكون فيّ. وأبى الله إلاّ أن يجعله حيث أراد. ثم أنشأت فاطمة تقول: [الكامل]

إِنِّي رَأَيْتُ مَخِيلَةً لَمَعَتْ ... فَتَلأْلأَتْ بِحَنَاتِمِ[1] القَطْرِ
فَلَمَأْتُهَا[2] نُوراً يُضِيءُ لَهُ ... مَا حَوْلَهُ كَإِضَاءَةِ البَدْرِ
وَرَجَوْتُهَا فَخْراً أَبُوءُ بِهِ ... مَا كُلُّ قَادِحِ زَنْدِهِ يُورِي
لِلَّهِ مَا زُهْرِيَّةٌ سَلَبَتْ ... ثَوْبَيْكَ مَا اسْتَلَبَتْ وَمَا تَدْرِي

وقالت فاطمة أيضاً: [الطويل]

بَنِي هَاشِمٍ قَدْ غَادَرَتْ مِنْ أَخِيكُمُ ... أَمِينَةُ إِذْ لِلْبَاهِ يَعْتَرِكَانِ
كَمَا غَادَرَ المِصْبَاحُ عِنْدَ خُمُودِهِ ... فَتَائِلَ قَدْ مِيثَتْ[3] لَهُ بِدِهَانِ
وَمَا كُلُّ مَا يَحْوِي الفَتَى مِنْ تِلاَدِهِ ... بِحَزْمٍ وَلاَ مَا فَاتَهُ لِتَوَانِي
فَأَجْمِلْ إِذَا طَالَبْتَ أَمْراً فَإِنَّهُ ... سَيَكْفِيكَهُ جَدَّانِ يَعْتَلِجَانِ
سَيَكْفِيكَهُ إِمَّا يَدٌ مقفللةٌ[4] ... وَإِمَّا يَدٌ مَبْسُوطَةٌ بِبَنَانِ
وَلَمَّا حَوَتْ مِنْهُ أُمَيْنَةُ مَا حَوَتْ ... حَوَتْ مِنْهُ فَخْراً مَا لِذَلِكَ ثَانِ

وروى الإمام أبو نعيم الحافظ في كتاب دلائل النبوّة من طريق يعقوب بن محمد الزهري، عن عبد العزيز بن عمران، عن عبد الله بن جعفر، عن ابن عون، عن المسور بن مخرمة، عن ابن عباس، قال: إن عبد المطلب قدم اليمن في رحلة الشتاء، فنزل على حَبْر من اليهود، قال فقال لي رجل من أهل الديور ـ يعني أهل الكتاب: يا عبد المطلب أتأذن لي

(١) الحناتم: السحائب السود.
(٢) لمأ: اشتمل.
(٣) ميثت: ليّنت.
(٤) كذا في الحلبية.

أن أنظر إلى بعضك؟ قال نعم إذا لم يكن عورة. قال ففتح إحدى منخري فنظر فيه، ثم نظر في الآخر فقال أشهد أن في إحدى يديك ملكاً، وفي الأخرى نبّوة، وإنا نجد ذلك في بني زهرة فكيف ذلك؟ قلت: لا أدري، قال: هل لك من شاغة؟ قلت وما الشاغة؟ قال زوجة. قلت أما اليوم فلا قال فإذا رجعت فتزوّج فيهم. فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة فولدت حمزة وصفية، ثم تزوج عبد الله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب فولدت رسول الله ﷺ، فقالت قريش حين تزوّج عبد الله بآمنة فلج أي فاز، وغلب عبد الله على أبيه عبد المطلب.

كتاب سيرة رسول الله ﷺ
[وذكر أيامه وغزواته وسراياه والوفود اليه وشمائله وفضائله ودلائله الدالة عليه][1]

باب ذكر نسبه الشريف

قال الله تعالى: ﴿أَللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ولما سأل هرقل ملك الروم لأبي سفيان تلك الأسئلة عن صفاته عليه الصلاة والسلام قال: كيف نسبه فيكم؟ قال هو فينا ذو نسب، قال: كذلك الرسل تبعث في أنساب قومها يعني في أكرمها أحساباً وأكثرها قبيلة صلوات الله عليهم أجمعين.

فهو سيّد ولد آدم، وفخرهم في الدنيا والآخرة: **أبو القاسم**، **وأبو إبراهيم**، **محمد**، **وأحمد**، **والماحي** الذي يُمْحَى به الكفر، **والعاقب** الذي ما بعده نبي، **والحاشر** الذي يحشر الناس على قدميه، **والمقفي**، **ونبي الرحمة**، **ونبي التوبة**، **ونبي الملحمة**، **وخاتم النبيين**، **والفاتح**، **وطه**، **ويس**، **وعبد الله**.

قال البيهقي: وزاد بعض العلماء فقال: سمّاه الله في القرآن رسولاً، نبياً، **أميناً**، **شاهداً**، **مبشراً**، **نذيراً**، وداعياً إلى الله بإذنه **وسراجاً** منيراً. **ورؤوفاً** رحيماً. ومذكِّراً. وجعله رحمة ونعمة وهادياً.

وسنورد الأحاديث المروية في أسمائه عليه الصلاة والسلام في باب نعقده بعد فراغ السيرة. فإنه قد وردت أحاديث كثيرة في ذلك اغتنى بجمعها الحافظان الكبيران أبو بكر البيهقي وأبو القاسم بن عساكر وأفرد الناس في ذلك مؤلفات حتى رام بعضهم أن يجمع عليه الصلاة والسلام ألف اسم. وأما الفقيه الكبير أبو بكر بن العربي المالكي شارح الترمذي بكتابه الذي سمّاه: [عارضة] الأحوذي فإنه ذكر من ذلك أربعة وستين اسماً والله أعلم.

وهو ابن عبد الله وكان أصغر ولد أبيه عبد المطلب وهو الذبيح الثاني المفدّى بمائة من الإبل كما تقدم.

قال الزهري: وكان أجمل رجال قريش وهو أخو الحارث والزبير وحمزة وضرار وأبي طالب ـ واسمه عبد مناف ـ وأبي لهب ـ واسمه عبد العزى ـ والمقوم ـ واسمه عبد الكعبة ـ وقيل هما اثنان وحجل واسمه المغيرة والغيداق وهو كبير الجود ـ واسمه نوفل ـ ويقال إنه

---

(١) ما بين المعقوفين سقط في ط.

حجل. فهؤلاء أعمامه عليه الصلاة والسلام. وعمّاته ست وهن: أروى، وبرة، وأميمة، وصفية، وعاتكة، وأم حكيم، وهي البيضاء. وسنتكلم على كل منهم فيما بعد إن شاء الله تعالى. كلهم أولاد عبد المطلب ـ واسمه شيبة ـ يقال لشيبة كانت في رأسه، ويقال له شيبة الحمد لجوده. وإنما قيل له عبد المطلب لأن أباه هاشماً لما مر بالمدينة في تجارته إلى الشام نزل على عمرو بن زيد بن لبيد بن حرام بن خداش بن خندف بن عدي بن النجّار الخزرجي النجاري، وكان سيد قومه فأعجبته ابنته سلمى فخطبها إلى أبيها فزوّجها منه، واشترط عليه مقامها عنده، وقيل بل اشترط عليه أن لا تلد إلاّ عنده بالمدينة، فلما رجع من الشام بنى بها وأخذها معه إلى مكة، فلما خرج في تجارة أخذها معه وهي حبلى فتركها بالمدينة، ودخل الشام فمات بغزّة ووضعت سلمى ولدها فسمته شيبة، فأقام عند أخواله بني عدي بن النّجار سبع سنين ثم جاء عمّه المطلب بن عبد مناف فأخذه خفية من أمّه فذهب به إلى مكّة. فلما رآه الناس ورأوه على الراحلة قالوا: من هذا معك؟ فقال: عبدي ثم جاؤوا فهنؤوه به، وجعلوا يقولون له عبد المطلب، لذلك فغلب عليه وساد في قريش سيادة عظيمة وذهب بشرفهم ورئاستهم. فكان جماع أمرهم عليه وكانت إليه السقاية والرفادة بعد المطلب. وهو الذي جدّد حفر زمزم بعد ما كانت مطمومة من عهد جُرْهم، وهو أول من طلى الكعبة بذهب في أبوابها من تينك الغزالتين اللتين من ذهب وجدهما في زمزم مع تلك الأسياف القلعية. قال ابن هشام: وعبد المطلب أخو أسد وفضلة وأبي صيفي وحية وخالدة ورقية والشفاء وضعيفة. كلّهم أولاد هاشم واسمه عمرو، وإنما سمي هاشماً لهشمه الثريد مع اللحم لقومه في سني المحل[1]، كما قال مطرود بن كعب الخزاعي في قصيدته وقيل للزِبَعْرَى والد عبد الله: [الكامل]

عَـمْـرُو الَّـذِي هَـشَـمَ الـثَّـرِيـدَ لِـقَـوْمِـهِ ... وَرِجَـالُ مَـكَّـةَ مُـسْـنِـتُـونَ عِـجَـافُ[2]

سُـنَّـتْ إِلَـيْـهِ الـرِّحْـلَـتَـانِ كِـلاَهُـمَـا ... سَـفَـرُ الـشِّـتَـاءِ وَرِحْـلَـةُ الأَصْـيَـافِ

وذلك لأنه أول من سنّ رحلتي الشتاء والصيف، وكان أكبر ولد أبيه. وحكى ابن جرير أنه كان توأم أخيه عبد شمس وأن هاشماً خرج ورجله ملتصقة برأس عبد شمس. فما تخلّصت حتى سال بينهما دم، فقال الناس بذلك يكون بين أولادهما حروب، فكانت وقعة بني العبّاس مع بني أمية بن عبد شمس سنة ثلاث وثلاثين ومائة من الهجرة. وشقيقهم الثالث المطلب وكان المطلب أصغر ولد أبيه، وأمهم عاتكة بنت مرّة بن هلال. ورابعهم نوفل من أم أخرى وهي واقدة بنت عمرو المازنية، وكانوا قد سادوا قومهم بعد أبيهم وصارت إليهم الرياسة، وكان يقال لهم المجيرون وذلك لأنهم أخذوا لقومهم قريش الأمان من ملوك الأقاليم ليدخلوا في التجارات إلى بلادهم، فكان هاشم قد أخذ أماناً من ملوك الشام والروم وغسان، وأخذ لهم عبد شمس من النجاشي الأكبر ملك الحبشة، وأخذ لهم

(١) سني المحل: سني الجدب والقحط.

(٢) عجاف: هزال.

نوفل من الأكاسرة، وأخذ لهم المطلب أماناً من ملوك حمير. ولهم يقول الشاعر: [الكامل]

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ المُحَوِّلُ رَحْلَهُ ... أَلاَّ نَزَلْتَ بِآلِ عَبْدِ مَنَافِ

وكان إلى هاشم السقاية والرفادة بعد أبيه، وإليه وإلى أخيه المطلب نسب ذوي القربى، وقد كانوا شيئاً واحداً في حالتي الجاهلية والإسلام لم يفترقوا، ودخلوا معهم في الشعب، وانتخذل عنهم بنو عبد شمس ونوفل. ولهذا يقول أبو طالب في قصيدته: [الطويل]

جَزَى اللهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلاً ... عُقُوبَةَ شَرٍّ عَاجِلاً غَيْرَ آجِلِ

ولا يعرف بنو أب تباينوا في الوفاة مثلهم، فإن هاشماً مات بغزة من أرض الشام، وعبد شمس مات بمكة، ونوفل مات بسلامان من أرض العراق، ومات المطلب ـ وكان يقال له القمر لحسنه ـ بريمان من طريق اليمن. فهؤلاء الإخوة الأربعة المشاهير وهم هاشم، وعبد شمس، ونوفل، والمطلب. ولهم أخ خامس ليس بمشهور وهو أبو عمرو واسمه عبد، وأصل اسمه عبد قصي. فقال الناس عبد بن قصي درج ولا عقب له. قاله الزبير بن بكّار وغيره. وأخوات ست وهن، تماضر، وحية، وريطة، وقلابة، وأم الأخثم، وأم سفيان. كل هؤلاء أولاد عبد مناف، ومناف اسم صنم، وأصل اسم عبد مناف المغيرة. وكان قد رأس في زمن والده، وذهب به الشرف كل مذهب. وهو أخو عبد الدار الذي كان أكبر ولد أبيه وإليه أوصى بالمناصب كما تقدم. وعبد العزى وعبد وبرة وتخمر وأمهم كلّهم حبى بنت حليل بن حبشي بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي وأبوها آخر ملوك خزاعة وولاة البيت منهم، وكلهم أولاد قصي واسمه زيد. وإنما سمي بذلك لأن أمه تزوجت بعد أبيه بربيعة بن حزام بن عذرة، فسافر بها إلى بلاده وابنها صغير فسمّي قصياً لذلك. ثم عاد إلى مكة وهو كبير، ولم شعث قريش وجمعها من متفرقات البلاد، وأزاح يد خزاعة عن البيت، وأجلاهم عن مكة، ورجع الحق إلى نصابه وصار رئيس قريش على الإطلاق وكانت إليه الرفادة [وهو سنّها] والسقاية ـ وهو سنّها ـ والسدانة والحجابة واللواء وداره دار الندوة كما تقدم بسط ذلك كلّه ـ ولهذا قال الشاعر: [الطويل]

قُصَيٌّ، لَعَمْرِي كَانَ يُدْعَى مُجَمِّعاً ... بِهِ جَمَّعَ اللهُ القَبَائِلَ مِنْ فِهْرِ

وهو أخو زهرة كلاهما ابنا كلاب أخي تيم، ويقظة أبي مخزوم ثلاثتهم أبناء مرّة أخي عدي وهصيص وهم أبناء كعب وهو الذي كان يخطب قومه كل جمعة ويبشّرهم بمبعث رسول الله ﷺ وينشد في ذلك أشعاراً كما قدمنا، وهو أخو عامر وسامة وخزيمة وسعد والحارث وعوف سبعتهم أبناء لؤي أخي تيم الأدرم، وهما أبناء غالب أخي الحارث ومحارب، ثلاثتهم أبناء فهر، وهو أخو الحارث وكلاهما ابن مالك. وهو أخو الصلت ويخلد، وهم بنو النضر الذي إليه جماع قريش على الصحيح كما قدمنا الدليل عليه، وهو أخو مالك وملكان وعبد مناة وغيرهم كلّهم أولاد كنانة أخي أسد، وأسدة والهون أولاد خزيمة، وهو أخو هذيل وهما ابنا مدركة ـ واسمه عمرو أخو طابخة واسمه عامر وقمعة ثلاثتهم أبناء إلياس وأخي إلياس هو غيلان والد قيس كلّها، وهما ولدا مضر أخي ربيعة.

ويقال لهما الصريحان من ولد إسماعيل. واخواهما أنمار وإياد تياماً، أربعتهم أبناء نزار أخي قضاعة ـ في قول طائفة ممن ذهب إلى أن قضاعة حجازية عدنانية ـ وقد تقدّم بيانه كلاهما أبناء معد بن عدنان.

وهذا النسب بهذه الصفة لا خلاف فيه بين العلماء، فجميع قبائل عرب الحجاز ينتهون إلى هذا النسب، ولهذا قال ابن عباس وغيره في قوله تعالى. ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] لم يكن بطن من بطون قريش إلاّ ولرسول الله ﷺ نسب يتصل بهم. وصدق ابن عباس رضي الله عنه فيما قال وأزيد مما قال، وذلك أن جميع قبائل العرب العدنانية تنتهي إليه بالآباء وكثير منهم بالأمهات أيضاً. كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره في أمهاته وأمهات آبائه وأمهاتهم ما يطول ذكره. وقد حرّره ابن إسحاق رحمه الله، والحافظ ابن عساكر. وقد ذكرنا في ترجمة عدنان نسبه وما قيل فيه وإنه من ولد إسماعيل لا محالة وإن اختلف في كم بينهما أباً؟ على أقوال قد بسطناها فيما تقدم والله أعلم.

وقد ذكرنا بقية النسب من عدنان إلى آدم وأوردنا قصيدة أبي العباس الناشىء المتضمنة ذلك، كل ذلك في أخبار عرب الحجاز ولله الحمد.

وقد تكلم الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله في أول تاريخه على ذلك كلاماً مبسوطاً جيدا محرراً نافعاً. وقد ورد حديث في انتسابه عليه السلام إلى عدنان وهو على المنبر. ولكن الله أعلم بصحته، كما قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عمر بن حفص المقرىء ـ ببغداد ـ حدثنا أبو عيسى بكار بن أحمد بن بكار، حدثنا أبو جعفر أحمد بن موسى بن سعد ـ إملاء سنة ست وتسعين ومائتين ـ حدثنا أبو جعفر محمد بن أبان القلانسي، حدّثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن ربيعة القدامي، حدثنا مالك بن أنس عن الزهري عن أنس وعن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام. قال: بلغ النبي ﷺ أن رجالاً من كندة يزعمون أنهم منه، وأنه منهم، فقال: «إِنَّمَا كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ العَبَّاسُ وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ إِذَا قَدِمَا المَدِينَة لِتَأْمَنَا فَيَأْمَنَا بِذَلِكَ. وَإِنَّا لَنْ نَنْتَفِي مِنْ آبَائِنَا، نَحْنُ بَنُو النَّضْرِ بنِ كِنَانَة»: قال وخطب النبي ﷺ فقال «أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ بْنُ هَاشِم بْنُ عَبْدِ مَنَافِ بْنُ قُصَيِّ بْنُ كِلاَبِ بْنُ مُرَّةَ بْنُ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنُ غَالِبِ بْنُ فِهْرِ بْنُ مَالِكِ بْنُ النَّضْرِ بْنُ كِنَانَةَ بْنُ خُزَيْمَةَ بْنُ مُدْرِكَةَ بنُ اليَاسَ بْنُ مُضَرَ بْنُ نِزَار وَمَا افْتَرَقَ النَّاسُ فِرْقَتَيْنِ إِلاَّ جَعَلَنِي اللَّهُ فِي خَيْرِهَا، فَأُخْرِجْتُ مِنْ بَيْنِ أَبَوَيَّ، فَلَمْ يُصِبْنِي شَيْءٌ مِنْ عُهْرِ الجَاهِلِيَّةِ وَخَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ، وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ مِنْ لَدُنْ آدَمَ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى أَبِي وأُمِّي، فَأَنَا خَيْرُكُمْ نَفْساً، وَخَيْرُكُمْ أَباً» وهذا حديث غريب جداً من حديث مالك. تفرّد به القدامي وهو ضعيف. ولكن سنذكر له شواهد من وجوه أخر. فمن ذلك قوله «خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ لاَ مِنْ سِفَاحٍ» قال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة عن جعفر بن محمد، عن أبيه أبي جعفر الباقر في قوله تعالى ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ قال لم يصبه شيء من ولاة الجاهلية. قال وقال رسول الله ﷺ «إِنِّي خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ

سِفَاحٍ» وهذا مرسل جيد. وهكذا رواه البيهقي عن الحاكم عن الأصمّ عن محمد بن إسحاق الصنعاني، عن يحيى بن أبي بكير، عن عبد الغفار بن القاسم، عن جعفر بن محمد عن أبيه. قال قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَخْرَجَنِي مِنَ النِّكَاحِ وَلَمْ يُخْرِجْنِي مِنَ السِّفَاحِ» وقد رواه ابن عدي موصولاً، فقال: حدثنا أحمد بن حفص، حدثنا محمد بن أبي عمرو العدني المكي، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين قال: أشهد على أبي حدثني عن أبيه عن جده، عن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ قال: «خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ مِنْ لَدُنِ آدَمَ إِلَى أَنْ وَلَدَنِي أَبِي وَأُمِّي، وَلَمْ يُصِبْنِي مِن سِفَاحِ الجَاهِلِيَّةِ شَيْءٌ» هذا غريب من هذا الوجه ولا يكاد يصح. وقال هشيم حدثنا المديني عن أبي الحويرث، عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «مَا وَلَدَنِي مِنْ نِكَاحِ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ شَيْءٌ، مَا وَلَدَنِي إِلاَّ نِكَاحٌ كَنِكَاحِ الإِسْلاَمِ» وهذا أيضاً غريب أورده الحافظ ابن عساكر. ثم أسنده من حديث أبي هريرة، وفي إسناده ضعف والله أعلم. وقال محمد بن سعد أخبرنا محمد بن عمر حدثني محمد بن عبد الله بن مسلم عن عمّه الزُّهري، عن عروة، عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «وُلِدْتُ مِنْ نِكَاحٍ غَيْرِ سِفَاحٍ» ثم أورد ابن عساكر من حديث أبي عاصم عن شبيب، عن عكرمة، عن ابن عبّاس في قوله تعالى ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ قال من نبي إلى نبي حتى أخرجت نبياً. ورواه عن عطاء. وقال محمد بن سعد أخبرنا هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قال: كتبت للنبي ﷺ خمسمائة أم فما وجدت فيهن سفاحاً ولا شيئاً مما كان من أمر الجاهلية. وثبت في صحيح البخاري من حديث عمرو بن أبي عمرو عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْناً فَقَرْناً حَتَّى بُعِثْتُ مِنَ القَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ»[١].

وفي صحيح مسلم من حديث الأوزاعي عن شداد أبي عمار، عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وُلْدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشاً وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمَ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»[٢] وقال الإمام أحمد حدثنا أبو نعيم عن سفيان عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن المطلب بن أبي وداعة قال قال العباس: بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس «فَصَعَدَ المِنْبَرَ فَقَالَ: مَنْ أَنَا؟» قالوا: أنت رسول الله قال: «أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ، وَخَلَقَ القَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ، وَجَعَلَهُمْ بُيُوتاً فَجَعَلَنِي فِي خيرِهِمْ بيتاً فَأَنَا خَيرُكُمْ بيتاً ونَفْساً»[٣] صلوات الله وسلامه عليه دائماً أبداً الى يوم الدين.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسماعيل بن أبي خالد، عن

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب باب ٢٣، وأحمد في المسند ٢/ ٣٧٣.

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل حديث ١، وأحمد في المسند ٤/ ١٠٧.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢١٠.

يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن العباس بن عبد المطلب قال قلت: يا رسول الله إن قريشاً إذا التقوا لقي بعضهم بعضاً بالبشاشة، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها. فغضب رسول الله ﷺ عند ذلك غضباً شديداً ثم قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَدْخُلُ قَلْبَ رَجُلٍ الإِيمَانُ حَتَّى يُحِبَّكُمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ»[(١)] فقلت: يا رسول الله إن قريشاً جلسوا فتذاكروا أحسابهم فجعلوا مثلك كمثل نخلة في كبوة من الأرض. فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَوْمَ خَلَقَ الخَلْقَ جَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ، ثُمَّ لَمَّا فَرَّقَهُمْ [قَبَائِلَ] جَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ قَبِيلَةً. ثُمَّ حِينَ جَعَلَ البُيُوتَ جَعَلَنِي فِي خَيْرِ بُيُوتِهِمْ فَأَنَا خَيْرُهُمْ نَفْساً وَخَيْرُهُمْ بَيْتاً»[(٢)] ورواه أبو بكر بن أبي شيبة عن ابن فضيل، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن ربيعة بن الحارث قال: بلغ النبي ﷺ فذكره بنحو ما تقدم، ولم يذكر العباس. وقال يعقوب بن سفيان: حدثني يحيى بن عبد الحميد حدثني قيس بن عبد الله عن الأعمش، عن عليلة بن ربعي عن ابن عبّاس قال قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ الخَلْقَ قِسْمَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمَا قِسْماً، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٣٧]﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١]، فَأَنَا مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ وَأَنَا خَيْرُ أَصْحَابِ اليَمِينِ، ثُمَّ جَعَلَ القِسْمَيْنِ أَثْلاَثاً فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهَا ثُلُثاً، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة: ٨] ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الواقعة: ١٠] فَأَنَا مِنَ السَّابِقِينَ، وَأَنَا خَيْرُ السَّابِقِينَ، ثُمَّ جَعَلَ الأَثْلاَثَ قَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهَا قَبِيلَةً فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] وَأَنَا أَتْقَى ولد آدَمَ وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ وَلاَ فَخْرَ، ثُمَّ جَعَلَ القَبَائِلَ بُيُوتاً فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهَا بَيْتاً وَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فَأَنَا وَأَهْلُ بَيْتِي مُطَهَّرُونَ مِنَ الذُّنُوبِ». وهذا الحديث فيه غرابة ونكارة. وروى الحاكم والبيهقي من حديث محمد بن ذكوان خال ولد حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن ابن عمر قال: إنا لقعود بفناء النبي ﷺ إذ مرت به امرأة، فقال بعض القوم هذه ابنة رسول الله ﷺ قال أبو سفيان: مثل محمد في بني هاشم مثل الريحانة في وسط النتن. فانطلقت المرأة فأخبرت النبي ﷺ: فجاء رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب. فقال: «مَا بَالُ أَقْوَالٍ تَبْلُغُنِي عَنْ أَقْوَامٍ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ سَبْعاً فَاخْتَارَ العَلْيَاءَ مِنْهَا فَأَسْكَنَهَا مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، ثُمَّ خَلَقَ الخَلْقَ فَاخْتَارَ مِنَ الخَلْقِ بَنِي آدَمَ، وَاخْتَارَ مِنْ بَنِي آدَمَ العَرَبَ، وَاخْتَارَ مِنَ العَرَبِ مُضَرَ، وَاخْتَارَ مِنْ مُضَرَ قُرَيْشاً، وَاخْتَارَ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمَ، وَاخْتَارَنِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَأَنَا خِيَارٌ مِنْ خِيَارٍ، فَمَنْ أَحَبَّ العَرَبَ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَ العَرَبَ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ» هذا أيضاً حديث غريب. وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «أَنَا سَيِّدُ وُلْدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ»[(٣)] وروى الحاكم والبيهقي أيضاً من حديث

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/٢٠٧.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/٢١٠.
(٣) أخرجه مسلم في الفضائل حديث ١.

موسى بن عبيدة: **حدثنا** عمرو بن عبد الله بن نوفل عن الزُّهري، عن أبي أسامة أو أبي سلمة، عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ: «قَالَ لِي جِبْرِيلُ قَلَبْتُ الأَرْضَ مِنْ مَشَارِقِهَا وَمَغَارِبِهَا فَلَمْ أَجِدْ رَجُلاً أَفْضَلَ مِنْ مُحَمَّدٍ، وَقَلَبْتُ الأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا فَلَمْ أَجِدْ بَنِي أَبٍ أَفْضَلَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ» قال الحافظ البيهقي وهذه الأحاديث وإن كان في رواتها من لا يحتج به فبعضها يؤكد بعضاً ومعنى جميعها يرجع إلى حديث واثلة بن الأسقع والله أعلم.

قلت وفي هذا المعنى يقول أبو طالب يمتدح النبي ﷺ: [الطويل]

إِذَا اجْتَمَعَتْ يَوْماً قُرَيْشٌ لِمَفْخَرٍ ... فَعَبْدُ مَنَافٍ سِرُّهَا وَصَمِيمُهَا
فَإِنْ حَصَلَتْ أَشْرَافُ عَبْدِ مَنَافِهَا ... فَفِي هَاشِمٍ أَشْرَافُهَا وَقَدِيمُهَا
وَإِنْ فَخَرتْ يَوْماً فَإِنَّ مُحَمَّداً ... هُوَ الْمُصْطَفَى مِنْ سِرِّهَا وَكَرِيمِهَا
تَدَاعَتْ قُرَيْشٌ غَثُّهَا وَسَمِينُهَا ... عَلَيْنَا فَلَمْ تَظْفَرْ وَطَاشَتْ حُلُومُهَا
وَكُنَّا قَدِيماً لاَ نُقِرُّ ظُلاَمَةً ... إِذَا مَا ثَنَوْا صُعْرَ[1] الْخُدُودِ نُقِيمُهَا
وَنَحْمِي حِمَاهَا كُلَّ يَوْمِ كَرِيهَةٍ ... وَنَضْرِبُ عَنْ أَجْحَارِهَا مَنْ يَرُومُهَا
بِنَا انْتَعَشَ الْعُودُ الذَّوَاءُ وَإِنَّمَا ... بِأَكْنَافِنَا تَنْدَى وَتُنْمَى أُرُومُهَا[2]

وقال أبو السكن زكريا بن يحيى الطائي في الجزء المنسوب إليه المشهور: **حدثني** عمر بن أبي زحر بن حصين عن جده، حميد بن منهب قال: قال جدي خريم بن أوس: هاجرت إلى رسول الله ﷺ فقدمت عليه منصرفه من تبوك، فأسلمت، فسمعت العبّاس بن عبد المطلب يقول: يا رسول الله إني أريد أن أمتدحك، فقال رسول الله ﷺ: «قُلْ لاَ يَفْضُضِ اللَّهُ فَاكَ» فأنشأ يقول: [المنسرح]

مِنْ قَبْلِهَا طِبْتَ فِي الظِّلاَلِ وَفِي ... مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الْوَرَقُ
ثُمَّ هَبَطْتَ الْبِلاَدَ لاَ بَشَرٌ أَنْـ ... ـتَ وَلاَ مُضْغَةٌ وَلاَ عَلَقُ
بَلْ نُطْفَةٌ تَرْكَبُ السَّفِينَ وَقَدْ ... أَلْجَمَ نَسْراً وَأَهْلَهُ الْغَرَقُ
تُنْقَلُ مِنْ صُلْبٍ إِلَى رَحِمٍ ... إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَا طَبَقُ
حتَّى احْتَوَى بَيْتَكَ الْمُهَيْمِنُ مِنْ ... خِنْدِفٍ[3] عَلْيَاءَ تَحْتَهَا النُّطُقُ
وَأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقَتِ الأَ ... رْضُ وَضَاءَتْ بِنُورِكَ الأُفُقُ
فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضِّيَاءِ وَفِي الـ ... ـنُّورِ وَسُبْلِ الرَّشَادِ نَخْتَرِقُ

---

(١) الصعر: إمالة الخد إمالة المتكبر قال تعالى: ﴿ولا تصعر خدك للناس﴾. قال الله تعالى: ﴿ولا تصعر خدك للناس﴾.

(٢) الأروم: الأصول ج أرومة.

(٣) الخندف: الكبر والبطر.

وقد روى هذا الشعر لحسان بن ثابت، فروى الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من طريق أبي الحسن بن أبي الحديد، أخبرنا محمد بن أبي نصر، أنا عبد السلام بن محمد بن أحمد القرشي، حدثنا أبو حصين محمد بن إسماعيل بن محمد التميمي، حدثنا محمد بن عبد الله الزاهد الخراساني، حدثني إسحاق بن إبراهيم بن سنان، حدثنا سلام بن سليمان أبو العباس المكفوف المدائني، حدثنا ورقاء بن عمر عن ابن أبي نجيح، عن عطاء ومجاهد، عن ابن عبّاس قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: فداك أبي وأمي أين كنت وآدم في الجنة؟ قال فتبسم حتى بدت نواجذه ثم قال: «كُنتُ فِي صُلْبِهِ وَرُكِبَ بِي السَّفِينَةَ فِي صُلْبِ أَبِي نُوحٍ وَقُذِفَ بِي فِي صُلْبِ أَبِي ابْرَاهِيمَ لَمْ يَلْتَقِ أَبَوايَ عَلَى سِفَاحٍ قَطُّ. لَمْ يَزَلِ اللَّهُ يَنْقُلُنِي مِنَ الأَصْلابِ الحَسِيبَةِ إِلَى الأَرْحَامِ الطَّاهِرَةِ صِفَتِي مَهْدِي لاَ تَتَشَعَّبُ شُعْبَتَانِ إِلاَّ كُنْتُ فِي خَيْرِهِمَا، وَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ بِالنُّبُوَّةِ مِيثَاقِي وَبِالإِسْلاَمِ عَهْدِي وَنَشَرَ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ ذِكْرِي، وَبَيَّنَ كُلُّ نَبِيٍّ صِفَتِي، تُشْرِقُ الأَرْضُ بِنُورِي، وَالغَمَامُ بِوَجْهِي، وَعَلَّمَنِي كِتَابَهُ وَزَادَنِي شَرَفاً فِي سَمَائِهِ وَشَقَّ لِي اسْماً مِنْ أَسْمَائِهِ فَذُو العَرْشِ مَحْمُودٌ وَأَنَا مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ وَوَعَدَنِي أَنْ يَحْبُوَنِي بِالْحَوْضِ وَالكَوْثَرِ، وَأَنْ يَجْعَلَنِي أَوَّلَ شَافِعٍ وَأَوَّلَ مُشَفَّعٍ، ثُمَّ أَخْرَجَنِي مِنْ خَيْرِ قَرْنٍ لأُمَّتِي، وَهُمُ الحَمَّادُونَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ».

قال ابن عباس فقال حسان بن ثابت في النبي ﷺ: [المنسرح]

قَبْلَهَا طِبْتَ فِي الظِّلاَلِ وَفِي ... مُسْتَوْدَعٍ يَوْمَ يُخْصَفُ الوَرَقُ
ثُمَّ سَكَنْتَ البِلاَدَ لاَ بَشَرٌ ... أَنْتَ وَلاَ نُطْفَةٌ وَلاَ عَلَقُ
مُطَهَّرٌ تَرْكَبُ السَّفِينَ وَقَدْ ... أَلْجَمَ نَسْراً وَأَهْلَهُ الغَرَقُ
تُنْقَلُ مِنْ صُلْبٍ إِلَى رَحِمٍ ... إِذَا مَضَى طَبَقٌ بَدَا طَبَقُ

فقال النبي ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ حَسَّاناً» فقال علي بن أبي طالب وجبت الجنة لحسّان ورب الكعبة ثم قال الحافظ ابنَ عساكر هذا حديث غريب جداً.

قلت: بل منكر جداً، والمحفوظ أن هذه الأبيات للعباس رضي الله عنه، ثم أوردها من حديث أبي السكن زكريا بن يحيى الطائي كما تقدم.

قلت: ومن الناس من يزعم أنها للعبّاس بن مرداس السلمي فالله أعلم.

تنبيه: قال القاضي عياض ـ في كتابه الشفاء ـ وأما أحمد الذي أتى في الكتب وبشّرت به الأنبياء فمنع الله بحكمته أن يسمّى به أحد غيره، ولا يدعى به مدعو قبله، حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب أو شكّ. وكذلك محمد لم يسّم به أحد من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبل وجوده وميلاده أن نبياً يبعث اسمه محمد. فسمّى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالاَتِهِ﴾ وهم: محمد بن أحيحة ابن الجلاّح الأوسي. ومحمد بن سلمة الأنصاري. ومحمد بن البراء الكندي. ومحمد بن سفيان بن مجاشع. ومحمد بن حمران الجعفي. ومحمد بن خزاعي السلمي لا سابع لهم.

ويقال: إن أول من سمّي محمداً محمد بن سفيان بن مجاشع. واليمن تقول بل محمد بن ليحمد من الأزد. ثم إن الله حمى كل من تسمّى به أن يدعي النبوة أو يدعيها له أحد، أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً في أمره حتى تحققت الشيمتان له ﷺ لم ينازع فيهما. هذا لفظه.

باب مولد رسول الله ﷺ

ولد صلوات الله عليه وسلامه يوم الاثنين لما رواه مسلم في صحيحه من حديث غيلان بن جرير بن عبد الله بن معبد الزماني عن أبي قتادة أن أعرابياً قال: يا رسول الله، ما تقول في صوم يوم الاثنين؟ فقال: «ذَاكَ يَوْمَ وُلِدْتُ فِيهِ وَأُنْزِلَ عَلَيَّ فيهِ»[1]. وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران، عن حنش الصنعاني، عن ابن عباس قال: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين، واستنبىء يوم الاثنين، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين، وقدم المدينة يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين[2]. تفرّد به أحمد ورواه عمرو بن بكير عن ابن لهيعة وزاد نزلت سورة المائدة يوم الاثنين ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. وهكذا رواه بعضهم عن موسى بن داود به وزاد أيضاً وكانت وقعة بدر يوم الاثنين. وممن قال هذا يزيد بن حبيب، وهذا منكر جداً. قال ابن عساكر والمحفوظ أن بدراً ونزول ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ يوم الجمعة وصدق ابن عساكر. وروى عبد الله بن عمر عن كريب عن ابن عباس ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين وتوفي يوم الاثنين. وهكذا رُوِيَ من غير هذا الوجه عن ابن عباس أنه ولد يوم الاثنين. وهذا ما لا خلاف فيه أنه ولد ﷺ يوم الاثنين. وأبعد بل أخطأ من قال ولد يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من ربيع الأول نقله الحافظ ابن دحية فيما قرأه في كتاب أعلام الروي بأعلام الهدى لبعض الشيعة. ثم شرع ابن دحية في تضعيفه وهو جدير بالتضعيف إذ هو خلاف النص. ثم الجمهور على أن ذلك كان في شهر ربيع الأول فقيل لليلتين خلتا منه، قاله ابن عبد البر في الاستيعاب، ورواه الواقدي عن أبي معشر نجيح بن عبد الرحمن المدني. وقيل لثمان خلون منه، حكاه الحميدي عن ابن حزم. ورواه مالك وعقيل ويونس بن يزيد وغيرهم عن الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، ونقل ابن عبد البر عن أصحاب التاريخ أنهم صححوه وقطع به الحافظ الكبير محمد بن موسى الخوارزمي، ورجّحه الحافظ أبو الخطاب بن دحية في كتابه التنوير في مولد البشير النذير، وقيل لعشر خلون منه نقله ابن دحية في كتابه ورواه ابن عساكر عن أبي جعفر الباقر، ورواه مجالد عن الشعبيّ كما مر. وقيل لثنتي عشرة خلت منه. نص عليه ابن إسحاق ورواه ابن أبي شيبة في مصنّفه عن عفان عن سعيد بن مينا، عن جابر وابن عباس أنهما قالا: ولد رسول الله ﷺ

(١) أخرجه مسلم في الصيام حديث ١٩٧، وأحمد في المسند ٥/٢٩٧.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/٢٧٧.

عام الفيل يوم الاثنين الثامن عشر من شهر ربيع الأول وفيه بعث وفيه عرج به إلى السماء وفيه هاجر وفيه مات. وهذا هو المشهور عند الجمهور والله أعلم. وقيل: لسبع عشر خلت منه، كما نقله ابن دحية عن بعض الشيعة. وقيل لثمان بقين منه نقله ابن دحية من خط الوزير أبي رافع ابن الحافظ أبي محمد بن حزم عن أبيه، والصحيح عن ابن حزم الأول أنه لثمان مضين منه، كما نقله عنه الحميدي وهو أثبت. والقول الثاني أنه ولد في رمضان نقله ابن عبد البر عن الزبير بن بكار، وهو قول غريب جداً، وكان مستنده أنه عليه الصلاة والسلام أوحي إليه في رمضان بلا خلاف، وذلك على رأس أربعين سنة من عمره، فيكون مولده في رمضان وهذا فيه نظر والله أعلم. وقد روى خيثمة بن سليمان الحافظ عن خلف بن محمد كردوس الواسطي، عن المعلى بن عبد الرحمن، عن عبد الحميد بن جعفر، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين في ربيع الأول، وأنزلت عليه النبوّة يوم الاثنين في أول شهر ربيع الأول، وأنزلت عليه البقرة يوم الاثنين في ربيع الأول. وهذا غريب جداً رواه ابن عساكر. قال الزبير بن بكار حملت به أمه في أيام التشريق في شعب أبي طالب عند الجمرة الوسطى. وولد بمكة بالدار المعروفة بمحمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف لثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان. ورواه الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن عثمان بن عقبة بن مكرم عن المسيب بن شريك عن شعيب بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: حمل برسول الله ﷺ في يوم عاشوراء في المحرم، وولد يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين من غزوة أصحاب الفيل. وذكر غيره أن الخيزران وهي أم هارون الرشيد لما حجّت أمرت ببناء هذه الدار مسجداً. فهو يعرف بها اليوم. وذكر السهيلي أن مولده عليه الصلاة والسلام كان في العشرين من نيسان. وهذا أعدل الزمان والفصول وذلك لسنة اثنتين وثمانين وثمانمائة لذي القرنين، فيما ذكر أصحاب الزيج. وزعموا أن الطالع كان لعشرين درجة من الجدي وكان المشتري وزحل مقترنين في ثلاث درج من العقرب وهي درجة وسط السماء. وكان موافقاً من البروج الحمل، وكان ذلك عند طلوع القمر أول الليل نقله كله ابن دحية والله أعلم.

قال ابن إسحاق: وكان مولده عليه الصلاة والسلام عام الفيل، وهذا هو المشهور عند[1] الجمهور. قال إبراهيم بن المنذر الحزامي: وهو الذي لا يشكّ فيه أحد من علمائنا، أنه عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل، وبعث على رأس أربعين سنة من الفيل. وقد رواه البيهقي من حديث أبي إسحاق السبيعي، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، وقال محمد بن إسحاق حدثني المطلب بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن أبيه، عن جدّه قيس بن مخرمة قال: ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل، كنا لِدَين. قال وسأل عثمان رضي الله عنه قباث بن أشيم أخا بني يعمر بن ليث أنت أكبر أم

(١) في ط: عن.

رسول الله ﷺ؟ فقال: رسول الله ﷺ أكبر مني، وأنا أقدم منه في الميلاد. ورأيت خَزْق الفيل أخضر محيلاً[(١)]. ورواه الترمذي والحاكم من حديث محمد بن إسحاق به.

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ عام عكاظ ابن عشرين سنة.

وقال ابن إسحاق: كان الفجار بعد الفيل بعشرين سنة. وكان بناء الكعبة بعد الفجّار بخمس عشرة سنة، والمبعث بعد بنائها بخمس سنين. وقال محمد بن جبير بن مطعم: كانت عكاظ بعد الفيل بخمس عشرة سنة، وبناء الكعبة بعد عكاظ بعشر سنين، والمبعث بعد بنائها بخمس عشرة سنة. وروى الحافظ البيهقي من حديث عبد العزيز بن أبي ثابت المديني: حدثنا الزبير بن موسى عن أبي الحويرث قال: سمعت عبد الملك بن مروان يقول لقباث بن أشيم الكناني ثم الليثي: يا قباث أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ قال: رسول الله ﷺ أكبر مني، وأن أسنّ. ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، ووقفت بي أمي على روث الفيل محيلاً أعقله. وتنبأ رسول الله ﷺ على رأس أربعين سنة. وقال يعقوب بن سفيان حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثنا نعيم يعني ابن ميسرة ـ عن بعضهم عن سويد بن غفلة أنه قال: أنا لِدة رسول الله ﷺ ولدت عام الفيل. قال البيهقي وقد روى عن سويد بن غفلة أنه قال أنا أصغر من رسول الله ﷺ بسنتين. قال يعقوب: وحدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا عبد العزيز بن أبي ثابت، حدثني عبد الله بن عثمان بن أبي سليمان النوفلي عن أبيه، عن محمد بن جبير بن مطعم. قال ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، وكانت بعده عكاظ بخمس عشرة سنة، وبني البيت على رأس خمس وعشرين سنة من الفيل، وتنبأ رسول الله ﷺ على رأس أربعين سنة من الفيل.

والمقصود أن رسول الله ﷺ ولد عام الفيل على قول الجمهور فقيل بعده بشهر، وقيل بأربعين يوماً، وقيل بخمسين يوماً ـ وهو أشهر ـ وعن أبي جعفر الباقر كان قدوم الفيل للنصف من المحرم، ومولد رسول الله ﷺ بعده بخمس وخمسين ليلة، وقال آخرون بل كان عام الفيل قبل مولد رسول الله ﷺ بعشر سنين. قاله ابن أبزى. وقيل بثلاث وعشرين سنة، رواه شعيب بن شعيب عن أبيه، عن جده كما تقدم، وقيل بعد الفيل بثلاثين سنة. قاله موسى بن عقبة عن الزهري رحمه الله. واختاره موسى بن عقبة أيضاً رحمه الله. وقال أبو زكريا العجلاني: بعد الفيل بأربعين عاماً، رواه ابن عساكر وهذا غريب جداً، وأغرب منه ما قال خليفة بن خياط حدثني شعيب بن حبان عن عبد الواحد بن أبي عمرو، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: ولد رسول الله ﷺ قبل الفيل بخمس عشرة سنة، وهذا حديث غريب ومنكر وضعيف أيضاً، قال خليفة بن خياط: والمجتمع عليه أنه عليه السلام ولد عام الفيل.

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب باب ٢، وأحمد في المسند ٤/ ٢١٥.

صفة مولده الشريف عليه الصلاة والسلام

قد تقدم أن عبد المطلب لما ذبح تلك الإبل المائة عن ولده عبد الله حين كان نذر ذبحه فسلمه الله تعالى لما كان قدر في الأزل من ظهور النبي الأمي ﷺ، خاتم الرسل وسيّد ولد آدم من صلبه، فذهب كما تقدم فزوّجه أشرف عقيلة في قريش آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة الزهرية، فحين دخل بها وأفضى إليها حملت برسول الله ﷺ، وقد كانت أم قتال رقيقة بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل توسّمت ما كان بين عيني عبد الله قبل أن يجامع آمنة من النور، فودّت أن يكون ذلك متصلاً بها لما كانت تسمع من أخيها من البشارات بوجود محمد ﷺ، وأنه قد أزف زمانه فعرضت نفسها عليه. قال بعضهم ليتزوّجها وهو أظهر والله أعلم، فامتنع عليها، فلما انتقل ذلك النور الباهر إلى آمنة بمواقعته إياها كأنه تندّم على ما كانت عرضت عليه. فتعرّض لها لتعاوده. فقالت لا حاجة لي فيك وتأسّفت على ما فاتها من ذلك، وأنشدت في ذلك ما قدمناه من الشعر الفصيح البليغ. وهذه الصيانة لعبد الله ليست له وإنما هي لرسول الله ﷺ، فإنه كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾ وقد تقدّم الحديث المروي من طريق جيد أنه قال عليه الصلاة والسلام: «وُلِدْتُ مِنْ نِكَاحٍ لا مِنْ سِفَاحٍ».

والمقصود أن أمّه حين حملت به توفي أبوه عبد الله وهو حمل في بطن أمه على المشهور. قال محمد بن سعد: حدّثنا محمد بن عمر ـ هو الواقدي ـ حدثنا موسى بن عبيدة اليزيدي. [عن محمد بن كعب ح][1] وحدثنا سعيد بن أبي زيد عن أيوب بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة. قال: خرج عبد الله بن عبد المطلب إلى الشام إلى غزّة في عير من عيران قريش يحملونه تجارات، ففرغوا من تجاراتهم ثم انصرفوا، فمروا بالمدينة وعبد الله بن عبد المطلب يومئذ مريض، فقال أتخلف عند أخوالي بني عدي بن النجّار، فأقام عندهم مريضاً شهراً، ومضى أصحابه فقدموا مكّة فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله، فقالوا: خلفناه عند أخواله بني عدي بن النجّار وهو مريض. فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث. فوجده قد توفي ودفن في دار النابغة، فرجع إلى أبيه فأخبره، فوجد[2] عليه عبد المطلب وإخوته وأخواته وجداً شديداً، ورسول الله ﷺ يومئذ حمل. ولعبد الله بن عبد المطلب يوم توفي خمس وعشرون سنة.

قال الواقدي: هذا هو أثبت الأقاويل في وفاة عبد الله وسنه عندنا. قال الواقدي: وحدثني معمر عن الزهري أن عبد المطلب بعث عبد الله إلى المدينة يمتار لهم تمراً فمات.

قال محمد بن سعد: وقد أنبأنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه، وعن عوانة بن الحكم، قالا: توفي عبد الله بن عبد المطلب بعد ما أتى على رسول الله ﷺ

(١) سقط في ط.
(٢) وجد: حزن واغتم.

ثمانية وعشرين شهراً، وقيل سبعة أشهر. وقال محمد بن سعد: والأول أثبت أنه توفي ورسول الله ﷺ حمل.

وقال الزبير بن بكّار: حدثني محمد بن حسن عن عبد السلام عن ابن خربوذ. قال: توفي عبد الله بالمدينة ورسول الله ﷺ ابن شهرين، وماتت أمه وهو ابن أربع سنين، ومات جدّه وهو ابن ثمان سنين فأوصى به إلى عمّه أبي طالب. والذي رجّحه الواقدي وكاتبه الحافظ محمد بن سعد، أنه عليه الصلاة والسلام توفي أبوه وهو جنين في بطن أمه وهذا أبلغ اليتم وأعلى مراتبه. وقد تقدّم في الحديث «وَرُؤْيَا أُمّي الَّذِي رَأَتْ حِينَ حُمِلَ بِي كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ».

وقال محمد بن إسحاق: فكانت آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ تحدّث أنها أُتيت حين حملت برسول الله ﷺ فقيل لها إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد، من كل برّ عاهد وكل عبد رائد، يذود عني ذائد، فإنه عند الحميد الماجد، حتى أراه قد أتى المشاهد. وآية ذلك أنه يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام، فإذا وقع فسمّيه محمداً. فإن اسمه في التوراة أحمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض، واسمه في الإنجيل أحمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض، واسمه في القرآن محمد. وهذا وذاك يقتضي أنها رأت حين حملت به عليه السلام كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام. ثم لما وضعته رأت عياناً تأويل ذلك كما رأته قبل ذلك ها هنا والله أعلم.

وقال محمد بن سعد: أنبأنا محمد بن عمر ـ هو الواقدي ـ حدثنا محمد بن عبد الله بن مسلم عن الزهري: وقال الواقدي: حدثنا موسى بن عبدة عن أخيه ومحمد بن كعب القرظي، وحدثني عبد الله بن جعفر الزهري عن عمته أم بكر بنت المسود. عن أبيها، وحدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم المزني وزياد بن حشرج عن أبي وجزة. وحدثنا معمر عن أبي نجيح عن مجاهد. وحدثنا طلحة بن عمرو عن عطاء عن ابن عبّاس: دخل حديث بعضهم في حديث بعض. أن آمنة بنت وهب قالت لقد علقت به ـ تعني رسول الله ﷺ ـ فما وجدت له مشقة حتى وضعته، فلما فصل مني خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب، ثم وقع إلى الأرض معتمداً على يديه، ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء. وقال بعضهم وقع جاثياً على ركبتيه، وخرج معه نور أضاءت له قصور الشام وأسواقها حتى رئيت أعناق الإبل ببصرى، رافعاً رأسه إلى السماء. وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا محمد بن عبد الله الحافظ، أنبأنا محمد بن إسماعيل، أنبأنا محمد بن إسحاق، حدثنا يونس بن مبشر بن الحسن، حدثنا يعقوب بن محمد الزهري، حدثنا عبد العزيز بن عمران، حدثنا عبد الله بن عثمان بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم عن أبيه، عن ابن أبي سويد الثقفي، عن عثمان بن أبي العاص، حدثتني أمي أنها شهدت ولادة آمنة بنت وهب رسول الله ﷺ ليلة ولدته، قالت فما شيء أنظره في البيت إلاّ نور، وإني أنظر إلى

النجوم تدنو حتى إني لأقول ليقعن عليّ.

وذكر القاضي عياض في الشفاء: أم عبد الرحمن بن عوف أنها كانت قابلته، وأنها أخبرت به حين سقط على يديها، و استهلّ سمعت قائلاً يقول: يرحمك الله، وإنه سطع منه نور رُئيت منه قصور الروم.

قال محمد بن إسحاق: فلما وضعته بعثت إلى عبد المطلب جاريتها ـ وقد هلك أبوه وهي حبلى، ويقال إن عبد الله هلك والنبي ﷺ ابن ثمانية وعشرين شهراً فالله أعلم أي ذلك كان ـ فقالت قد ولد لك غلام فانظر إليه، فلما جاءها أخبرته وحدثته بما كانت رأت حين حملت به، وما قيل لها فيه، وما أمرت أن تسمّيه فأخذه عبد المطلب فأدخله على هبل في جوف الكعبة، فقام عبد المطلب يدعو ويشكر الله عزّ وجلّ ويقول: [الرجز]

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْطَانِي ... هَذَا الغُلَامَ الطَّيِّبَ الأَرْدَانِ
قَدْ سَادَ فِي المَهْدِ عَلَى الغِلْمَانِ ... أُعِيذُهُ بِالبَيْتِ ذِي الأَرْكَانِ
حَتَّى يَكُونَ بُلْغَةَ الفِتْيَانِ ... حَتَّى أَرَاهُ بَالِغَ البُنْيَانِ
أُعِيذُهُ مِنْ كُلِّ ذِي شَنَآنِ ... مِنْ حَاسِدٍ مُضْطَرِبِ العِنَانِ
ذِي هِمَّةٍ لَيْسَ لَهُ عَيْنَانِ ... حَتَّى أَرَاهُ رَافِعَ اللِّسَانِ
أَنْتَ الَّذِي سُمِّيتَ فِي القُرْآنِ ... فِي كُتُبٍ ثَابِتَةِ المَثَانِي
أَحْمَدَ مَكْتُوبٌ عَلَى اللِّسَانِ

وقال البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنا أبو بكر محمد بن حاتم الدرابودي ـ بمرو ـ حدثنا أبو عبد الله البوشنجي، حدثنا أبو أيوب سليمان بن سلمة الخبائري، حدثنا يونس بن عطاء بن عثمان بن ربيعة بن زياد بن الحارث الصدائي ـ بمصر ـ حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن أبيه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه. قال: ولد رسول الله ﷺ مختوناً مسروراً، قال: فأعجب جدّه عبد المطلب وحظي عنده. وقال: ليكونن لابني هذا شأن، فكان له شأن. وهذا الحديث في صحته نظر وقد رواه الحافظ ابن عساكر من حديث سفيان بن محمد المصيصي عن هشيم، عن يونس بن عبيد، عن الحسن عن أنس، قال قال رسول الله ﷺ: «مِنْ كَرَامَتِي عَلَى اللَّهِ أَنِّي وُلِدْتُ مَخْتُوناً، وَلَمْ يَرَ سَوْأَتِي أَحَدٌ». ثم أورده من طريق الحسن بن عرفة عن هشيم به. ثم أورده من طريق محمد بن محمد بن سليمان ـ هو الباغندي ـ حدثنا عبد الرحمن بن أيوب الحمصي، حدثنا موسى بن أبي موسى المقدسي، حدثني خالد بن سلمة عن نافع عن ابن عمر: قال: ولد رسول الله ﷺ مسروراً مختوناً.

وقال أبو نعيم: حدثنا أبو أحمد محمد بن أحمد الغطريفي، حدّثنا الحسين بن أحمد بن عبد الله المالكي، حدثنا سليمان بن سلمة الخبائري، حدثنا يونس بن عطاء، حدثنا الحكم بن أبان، حدثنا عكرمة عن ابن عباس، عن أبيه العباس. قال: ولد

رسول الله ﷺ مختوناً مسروراً، فأعجب ذلك جدّه عبد المطلب وحظي عنده، وقال ليكونن لابني هذا شأن، فكان له شأن. وقد ادّعى بعضهم صحّته لما ورد له من الطرق حتى زعم بعضهم أنه متواتر وفي هذا كلّه نظر، ومعنى مختوناً أي مقطوع الختان، ومسروراً أي مقطوع السرّة من بطن أمه.

وقد روى الحافظ ابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن عيينة البصري: حدثنا علي بن محمد المدائني السلمي، حدثنا سلمة بن محارب بن مسلم بن زياد عن أبيه، عن أبي بكرة أن جبريل ختن النبي ﷺ حين طهّر قلبه وهذا غريب جداً. وقد روى أن جدّه عبد المطلب ختنه وعمل له دعوة جمع قريشاً عليها والله أعلم.

وقال البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأني محمد بن كامل القاضي ـ شفاها ـ أن محمد بن إسماعيل حدّثه ـ يعني السلمي ـ حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح، حدثني معاوية بن صالح عن أبي الحكم التنوخي. قال: كان المولود إذا ولد في قريش دفعوه إلى نسوة من قريش إلى الصبح يكفأن عليه برمة(١)، فلما ولد رسول الله ﷺ دفعه عبد المطلب إلى نسوة فكفأن عليه برمة، فلما أصبحن أتين فوجدن البرمة قد انفلقت عنه باثنتين، ووجدنه مفتوح العينين شاخصاً ببصره إلى السماء. فأتاهن عبد المطلب فقلن له ما رأينا مولوداً مثله، وجدناه قد انفلقت عنه البرمة، ووجدناه مفتوحاً عينيه شاخصاً ببصره إلى السماء. فقال احفظنه فإني أرجو أن يكون له شأن، أو أن يصيب خيراً، فلما كان اليوم السابع ذبح عنه ودعا له قريشاً فلما أكلوا قالوا: يا عبد المطلب أرأيت ابنك هذا الذي أكرمتنا على وجهه ما سميته؟ قال سميته محمداً، قالوا فما رغبت به عن أسماء أهل بيته؟ قال أردت أن يحمده الله في السماء وخلقه في الأرض. قال أهل اللغة: كل جامع لصفات الخير يسمى محمداً كما قال بعضهم: [الطويل]

إِلَيْكَ ـ أَبَيْتَ اللَّعْنَ ـ أَعْمَلْتُ نَاقَتِي إِلَى المَاجِدِ القِرْمِ الكَرِيمِ المُحَمَّدِ

وقال بعض العلماء: ألهمهم الله عزّ وجلّ أن سمّوه محمداً لما فيه من الصفات الحميدة ليلتقي الاسم والفعل، ويتطابق الاسم والمسمّى في الصورة والمعنى، كما قال عمّه أبو طالب ويروى لحسان: [الطويل]

وَشَقَّ لَهُ مِنِ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ فَذُو العَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ

وسنذكر أسماءه عليه الصلاة والسلام وشمائله، وهي صفاته الظاهرة وأخلاقه الطاهرة ودلائل نبوته وفضائل منزلته في آخر السيرة إن شاء الله.

قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدّثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن شيبان الرملي، حدثنا أحمد بن إبراهيم الحبلي، حدثنا الهيثم بن جميل، حدثنا زهير عن محارب بن دثار، عن عمرو بن يثربي، عن العبّاس بن عبد المطلب

(١) برمة: قدر من حجارة.

قال قلت: يا رسول الله! دعاني إلى الدخول في دينك أمارة لنبوتك، رأيتك في المهد تناغي القمر وتشير إليه بإصبعك، فحيث أشرت إليه مال قال: «إِنِّي كُنْتُ أُحَدِّثُهُ وَيُحَدِّثُنِي وَيُلْهِينِي عَنِ البُكَاءِ، وَأَسْمعُ وَجْبَتَهُ[1] حِينَ يَسْجُدُ تَحْتَ العَرْشِ». ثم قال تفرّد به الليثي وهو مجهول.

فيما وقع من الآيات ليلة مولده عليه الصلاة والسلام

وقد ذكرنا في باب هواتف الجان ما تقدّم من خرور كثير من الأصنام ليلتئذ لوجوهها وسقوطها عن أماكنها، وما رآه النجاشي ملك الحبشة، وظهور النور معه حتى أضاءت له قصور الشام حين ولد، وما كان من سقوطه جاثياً رافعاً رأسه إلى السماء، وانفلاق تلك البرمة عن وجهه الكريم، وما شوهد من النور في المنزل الذي ولد فيه ودنو النجوم منهم وغير ذلك.

حكى السهيلي عن تفسير بقي بن مخلد الحافظ أن إبليس رن أربع رنات: حين لعن، وحين أهبط، وحين ولد رسول الله ﷺ، وحين أنزلت الفاتحة. قال محمد بن إسحاق: وكان هشام بن عروة يحدث عن أبيه عن عائشة قالت: كان يهودي قد سكن مكّة يتجر بها فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ قال في مجلس من قريش: يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود؟ فقال القوم والله ما نعلمه فقال الله أكبر، أما إذا أخطأكم فلا بأس، انظروا واحفظوا ما أقول لكم: ولد هذه الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة، بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس. لا يرضع ليلتين وذلك أن عفريتاً من الجن أدخل أصبعه في فمه فمنعه الرضاع، فتصدّع القوم من مجلسهم، وهم يتعجّبون من قوله وحديثه، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله فقالوا: قد والله ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام سمّوه محمداً، فالتقى القوم فقالوا: هل سمعتم حديث اليهودي وهل بلغكم مولد هذا الغلام؟ فانطلقوا حتى جاؤوا اليهودي فأخبروه الخبر. قال: فاذهبوا معي حتى أنظر إليه. فخرجوا به حتى أدخلوه على آمنة فقالوا اخرجي إلينا ابنك فأخرجته وكشفوا له عن ظهره. فرأى تلك الشامة. فوقع اليهودي مغشياً عليه. فلما أفاق قالوا له: ما لك ويلك؟ قال: قد ذهبت والله النبوّة من بني إسرائيل، فرحتم بها يا معشر قريش. والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني صالح بن إبراهيم عن يحيى بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة قال: حدثني من شئت من رجال قومي ممن لا أتهم عن حسّان بن ثابت قال: إني لغلام يفعة ابن سبع سنين ـ أو ثمان سنين ـ أعقل ما رأيت وسمعت إذا بيهودي في يثرب يصرخ ذات غداة يا معشر يهود فاجتمعوا إليه ـ وأنا أسمع ـ فقالوا ويلك ما لك؟ قال قد طلع نجم أحمد الذي يولد به في هذه الليلة.

---

(١) الوجبة: صوت السقوط.

وروى الحافظ أبو نعيم في كتاب دلائل النبوة من حديث أبي بكر بن عبد الله العامري عن سليمان بن سحيم وذريح بن عبد الرحمن كلاهما عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه، قال: سمعت أبي مالك بن سنان يقول: جئت بني عبد الأشهل يوماً لأتحدّث فيهم ونحن يومئذ في هدنة من الحرب، فسمعت يوشع اليهودي يقول: أظل خروج نبي يقال له أحمد يخرج من الحرم. فقال له خليفة بن ثعلبة الأشهلي ـ كالمستهزىء به ما صفته؟ فقال رجل ليس بالقصير ولا بالطويل في عينيه حمرة يلبس الشملة ويركب الحمار. سيفه على عاتقه وهذا البلد مهاجره. قال فرجعت إلى قومي بني خدرة وأنا يومئذ أتعجّب مما يقول يوشع، فأسمع رجلاً منا يقول ويوشع يقول هذا وحده؟! كل يهود يثرب يقولون هذا. قال أبو مالك بن سنان فخرجت حتى جئت بني قريظة فأجد جمعاً فتذاكروا النبي ﷺ. فقال الزبير بن باطا: قد طلع الكوكب الأحمر الذي لم يطلع إلا لخروج نبي أو ظهوره، ولم يبق أحد إلا أحمد وهذا مهاجره. قال أبو سعيد فلما قدم النبي ﷺ أخبره أبي هذا الخبر فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَسْلَمَ الزُّبَيْرُ لأَسْلَمَ ذَوُوُه مِنْ رُؤَساءِ اليَهُودِ إِنَّمَا هُمْ لَهُ تَبعٌ».

وقال أبو نعيم: حدثنا عمر بن محمد حدثنا إبراهيم بن السندي حدّثنا النضر بن سلمة، حدثنا إسماعيل بن قيس بن سليمان بن زيد بن ثابت عن أم سعد بنت سعد بن الربيع سمعت زيد بن ثابت يقول: كان أحبار يهود بني قريظة والنضير يذكرون صفة النبي ﷺ، فلما طلع الكوكب الأحمر أخبروا أنه نبي وأنه لا نبي بعده. واسمه أحمد ومهاجره إلى يثرب، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنكروا وحسدوا وكفروا. وقد أورد هذه القصة الحافظ أبو نعيم في كتابه من طرق أخرى ولله الحمد.

وقال أبو نعيم ومحمد بن حبان: حدثنا أبو بكر بن أبي عاصم، حدّثنا وهب بن بقية، حدثنا خالد عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، عن أسامة بن زيد، قال قال زيد بن عمرو بن نفيل: قل لي حبر من أحبار الشام: قد خرج في بلدك نبي ـ أو هو خارج ـ قد خرج نجمه فارجع فصدّقه واتبعه.

ذكر ارتجاس[١] الإيوان وسقوط الشرفات وخمود النيران ورؤيا الموبذان وغير ذلك من الدلالات

قال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتاب هواتف الجان: حدثنا علي بن حرب، حدثنا أبو أيوب يعلى بن عمران ـ من آل جرير بن عبد الله البجلي ـ حدثني مخزوم بن هاني المخزومي عن أبيه ـ وأتت عليه خمسون ومائة سنة ـ قال: لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ ارتجس إيوان كسرى، وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة ساوة، ورأى الموبذان

(١) ارتجاس: ارتجاف.

إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادهم، فلما أصبح كسرى أفزعه ذلك فتصبّر عليه تشجعاً، ثم رأى أنه لا يدخر ذلك عن مرازبته فجمعهم ولبس تاجه وجلس على سريره. ثم بعث إليهم فلما اجتمعوا عنده. قال: أتدرون فيم بعثت إليكم؟ قالوا: لا إلاّ أن يخبرنا الملك، فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب خمود النيران، فازداد غماً إلى غمه، ثم أخبرهم بما رأى وما هاله، فقال الموبذان وأنا ـ أصلح الله الملك ـ قد رأيت في هذه الليلة رؤيا، ثم قصّ عليه رؤياه في الإبل، فقال أي شيء يكون هذا يا موبذان؟ قال: حدث يكون في ناحية العرب ـ وكان أعلمهم من أنفسهم ـ فكتب عند ذلك: من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر؛ أما بعد فوجه إليّ برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه، فوجه إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حيان بن نفيلة الغساني، فلما ورد عليه قال له: ألك علم بما أريد أن أسألك عنه؟ فقال لتخبرني أو ليسألني الملك عما أحب، فإن كان عندي منه علم وإلاّ أخبرته بمن يعلم. فأخبره بالذي وجّه به إليه فيه. قال علم ذلك عند خال لي يسكن مشارف الشام يقال له: سطيح، قال فائته فاسأله عما سألتك عنه، ثم ائتني بتفسيره. فخرج عبد المسيح حتى انتهى إلى سطيح وقد أشفى على الضريح. فسلّم عليه وكلّمه فلم يردّ إليه سطيح جواباً فأنشأ يقول: [الرجز]

أَصَمُّ أَمْ يَسْمَعُ غِطْرِيفُ اليَمَنْ ... أَمْ فَادَ فَازْلَمَّ بِهِ شَأْوُ العَنَنْ[1]
يَا فَاصِلَ الخِطَّةِ أَعْيَتْ مَنْ وَمَنْ ... أَتَاكَ شَيْخُ الحَيِّ مِنْ آلِ سَنَنْ
وَأُمُّهُ مِنْ آلِ ذِئْبِ بْنِ حَجَنْ ... أَزْرَقُ نَهْمُ النَّابِ صَرَّارُ الأُذُنْ[2]
أَبْيَضُ فَضْفَاضُ الرِّدَاءِ وَالبَدَنْ ... رَسُولُ قَيْلِ العُجْمِ يَسْرِي لِلْوَسَنْ[3]
تَجُوبُ بِي الأَرْضَ عِلِنْدَاةٌ شَجِنْ[4] ... لاَ يَرْهَبُ الرَّعْدَ وَلاَ رَيْبَ الزَّمَنْ
تَرْفَعُنِي وَجْناً وَتَهْوِي بِي وَجَنْ ... حَتَّى أَتَى عَارِي الجَآجِي[5] وَالقَطَنْ[6]
إِنَّه فِي الرِّيحِ بَوْغَاءُ الدِّمَنْ ... كَأَنَّمَا حَثْحَثَ مِنْ حِضْنَيْ ثَكَنْ[7]

قال: فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه يقول: عبد المسيح، على جمل مشيح، أتى سطيح، وقد أوفى على الضريح، بعثك ملك بني ساسان، لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان، رأى إبلاً صعاباً، تقود خيلاً عراباً، قد قطعت دجلة، وانتشرت في

(١) العنن: الجهد والمشقة.
(٢) صرار الأذن: الأذن لها طنين.
(٣) الوسن: شدة النوم، أو النعاس.
(٤) علنداة شزن: الأرض الصعبة الغليظة.
(٥) الجآجي والقطن: الصدر ما بين الوركين.
(٦) القطن: ما بين الوركين.
(٧) ثكن: جبل.

بلادها، يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادي السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شاماً. يملك منهم ملوك وملكات، على عدد الشرفات وكلما هو آت آت. ثم قضى سطيح مكانه فنهض عبد المسيح إلى راحلته وهو يقول: [البسيط]

شَمِّرْ فَإِنَّكَ مَاضِي العَزْمِ شِمِّيرُ ... لاَ يُفْزِعَنَّكَ تَفْرِيقٌ وَتَغْيِيرُ
إنْ يُمْسِ مُلْكُ بَنِي سَاسَانَ أَفْرَطَهُمْ ... فَإنَّ ذا الدَّهْرَ أَطْوَارٌ دَهَارِيرُ[1]
فَرُبَّمَا رُبَّمَا أَضْحُوا بِمَنْزِلَةٍ ... يَخَافُ صَوْلَهُمُ الأُسْدُ المَهَاصِيرُ
مِنْهُمْ أَخُو الصَّرْحِ بَهْرَامٌ وَإِخْوَتُهُ ... وَالهُرْمُزَانُ وَشَابُورٌ وَسَابُورُ
وَالنَّاسُ أَوْلاَدُ عِلاَّتٍ فَمَنْ عَلِمُوا ... أَنْ قَدْ أَقَلَّ فَمَحْقُورٌ وَمَهْجُورُ
وَرُبَّ قَوْمٍ لَهُمْ صُحْبَانُ ذِي أُذُنٍ ... بَدَتْ تُلَهِّيهِمُ فِيهِ المَزَامِيرُ
وَهُمْ بَنُو الأُمِّ إمَّا إنْ رَأَوْا نَشَباً[2] ... فَذَاكَ بِالغَيْبِ مَحْفُوظٌ وَمَنْصُورُ
وَالخَيْرُ والشَّرُّ مَقْرُونَانِ فِي قَرَنٍ ... فَالخَيْرُ مُتَّبَعٌ والشَّرُّ مَحْذُورُ

قال: فلما قدم عبد المسيح على كسرى أخبره بما قاله له سطيح، فقال كسرى إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكاً كانت أمور وأمور، فملك منهم عشرة في أربع سنين، وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضي الله عنه. ورواه البيهقي من حديث عبد الرحمن بن محمد بن إدريس عن علي بن حرب الموصلي بنحوه.

قلت: كان آخر ملوكهم ـ الذي سلب منه الملك يزدجرد بن شهريار بن أبرويز بن هرمز بن أنوشروان وهو الذي انشق الإيوان في زمانه. وكان لأسلافه في الملك ثلاثة آلاف سنة ومائة وأربعة وستون سنة. وكان أول ملوكهم خيومرت بن أميم بن لاوذ بن سام بن نوح. [وقد تقدم ترجمته][3].

[ذكر][4] سطيح

أما سطيح هذا فقال الحافظ ابن عساكر في تاريخه: هو الربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدي بن مازن بن الأزد. ويقال: الربيع بن مسعود وأمه ردعا بنت سعد ابن الحارث الحجوري وذكر غير ذلك في نسبه. قال وكان يسكن الجابية، ثم روى عن أبي حاتم السجستاني قال: سمعت المشيخة منهم أبو عبيدة وغيره قالوا: وكان من بعد لقمان ابن عاد. ولد في زمن سيل العرم وعاش إلى ملك ذي نواس وذلك نحو من ثلاثين قرناً، وكان مسكنه البحرين، وزعمت عبد القيس أنه منهم، وتزعم الأزد أنه منهم، وأكثر المحدّثين

(١) دهارير: تغيرات الدهور واختلافها.
(٢) النشب: المال.
(٣) سقط في ط.
(٤) سقط في ط.

يقولون هو من الأزد، ولا ندري ممن هو غير أن ولده يقولون إنه من الأزد. وروي عن ابن عباس أنه قال: لم يكن شيء من بني آدم يشبه سطيحاً إنما كان لحماً على وضم[1] ليس فيه عظم ولا عصب إلا في رأسه وعينيه وكفيه، وكان يطوى كما يطوى الثوب من رجليه إلى عنقه. ولم يكن فيه شيء يتحرّك إلاّ لسانه. وقال غيره: إنه كان إذا غضب انتفخ وجلس. ثم ذكر ابن عباس أنه قدم مكة فتلقاه جماعة من رؤسائهم منهم عبد شمس وعبد مناف أبناء قصي، فامتحنوه في أشياء فأجابهم فيها بالصدق، فسألوه عما يكون في آخر الزمان. فقال خذوا مني ومن إلهام الله إياي: أنتم الآن يا معشر العرب في زمان الهرم سواء بصائركم وبصائر العجم، لا علم عندكم ولا فهم، وينشو من عقبكم ذوو فهم، يطلبون أنواع العلم فيكسرون الصنم، ويتبعون الردم ويقتلون العجم، يطلبون الغنم. ثم قال: والباقي الأبد، والبالغ الأمد ليخرجن من ذا البلد، نبي مهتد، يهدي إلى الرشد، يرفض يغوث والفند، يبرأ عن عبادة الضدد، يعبد رباً انفرد، ثم يتوفاه الله بخير دار محموداً، من الأرض مفقوداً، وفي السماء مشهوداً، ثم يلي أمره الصديق إذا قضى صدق، وفي رد الحقوق لا خرق ولا نزق[2]، ثم يلي أمره الحنيف، مجرب غطريف[3]، قد أضاف المضيف، وأحكم التحنيف. ثم ذكر عثمان ومقتله وما يكون بعد ذلك من أيام بني أمية، ثم بني العباس. وما بعد ذلك من الفتن والملاحم، ساقه ابن عساكر بسنده عن ابن عباس بطوله. وقد قدمنا قوله لربيعة بن نصر ملك اليمن حين أخبره برؤياه قبل أن يخبره بها، ثم ما يكون في بلاد اليمن من الفتن وتغيير الدول، حتى يعود إلى سيف بن ذي يزن فقال له: أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع؟ قال بل ينقطع. قال ومن يقطعه؟ قال نبي زكي يأتيه الوحي من قبل العلي قال: وممن هذا النبي؟ قال: من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر، قال: وهل للدهر من آخر؟ قال: نعم، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون، يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيؤون. قال: أحق ما تخبرني؟ قال: نعم والشفق والغسق والقمر إذا اتسق إن ما أنبأتك عليه لحق. ووافقه على ذلك شق سواءً بسواء بعبارة أخرى كما تقدم. ومن شعر سطيح قوله: [الطويل].

عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللهِ فِي السِرِّ وَالجَهْرِ ... وَلاَ تَلْبِسُوا صِدْقَ الأَمَانَةِ بِالْغَدْرِ

وَكُونُوا لِجَارِ الجَنْبِ حِصْناً وَجُنَّةً ... إِذَا مَا عَرَتْهُ النَّائِبَاتُ مِنَ الدَّهْرِ

وروى ذلك الحافظ ابن عساكر. ثم أورد ذلك المعافى بن زكريا الجريري فقال: وأخبار سطيح كثيرة وقد جمعها غير واحد من أهل العلم. والمشهور أنه كان كاهناً، وقد أخبر عن النبي ﷺ وعن نعته ومبعثه. وروي لنا بإسناد الله به أعلم أن النبي ﷺ سئل عن سطيح فقال: «نَبِيٌّ ضَيَّعَهُ قَوْمُهُ».

(١) الوضم: كل ما يقطع عليه اللحم.
(٢) نزق: سفه.
(٣) غطريف: السيد الشريف.

قلت: أما هذا الحديث فلا أصل له في شيء من كتب الإسلام المعهودة ولم أره بإسناد أصلاً. ويروى مثله في خبر خالد بن سنان العبسي، ولا يصح أيضاً، وظاهر هذه العبارات تدل على علم جيد لسطيح، وفيها روائح التصديق، لكنه لم يدرك الإسلام كما قال الجريري. فإنه قد ذكرنا في هذا الأثر أنه قال لابن أخته: يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادي السماوة وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شاماً، يملك منهم ملوك وملكات، على عدد الشرفات، وكل ما هو آت آت، ثم قضى سطيح مكانه. وكان ذلك بعد مولد رسول الله ﷺ بشهر ـ أو شية ـ أي أقل منه ـ وكانت وفاته بأطراف الشام مما يلي أرض العراق ـ فالله أعلم بأمره وما صار إليه. وذكر ابن طرار الحريري أنه عاش سبعمائة سنة. وقال غيره خمسمائة سنة، وقيل ثلاثمائة سنة فالله أعلم. وقد روى ابن عساكر أن ملكاً سأل سطيحاً عن نسب غلام اختلف فيه، فأخبره على الجلية في كلام طويل مليح فصيح. فقال له الملك يا سطيح ألا تخبرني عن علمك هذا؟ فقال إن علمي هذا ليس مني ولا بجزم ولا بظن، ولكن أخذته عن أخ لي قد سمع الوحي بطور سيناء. قال له أرأيت أخاك هذا الجني أهو معك لا يفارقك، فقال إنه ليزول حيث أزول، ولا أنطق إلاّ بما يقول. وتقدّم أنه ولد هو وشق بن مصعب بن يشكر ابن رهم بن بسر بن عقبة الكاهن الآخر ولدا في يوم واحد، فحملا إلى الكاهنة طريفة بنت الحسين الحميدية فتفلت في أفواههما، فورثا منها الكهانة وماتت من يومها. وكان نصف إنسان ويقال إن خالد بن عبد الله القسري من سلالته، وقد مات شق قبل سطيح بدهر.

وأما عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيان بن نفيلة الغساني النصراني، فكان من المعمّرين وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر في تاريخه، وقال هو الذي صالح خالد بن الوليد على . .(١) وذكر له معه قصّة طويلة، وأنه أكل من يده سم ساعة فلم يصبه سوء لأنه لما أخذه قال: بسم الله وبالله ربّ الأرض والسماء الذي لا يضر مع اسمه أذى. ثم أكله فعلته غشية فضرب بيديه على صدره، ثم عرق وأفاق رضي الله عنه وذكر لعبد المسيح أشعاراً غير ما تقدم.

وقال أبو نعيم: حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن، حدّثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا المسيب بن شريك، حدثنا محمد بن شريك عن شعيب بن شعيب، عن أبيه، عن جده. قال: كان بمر الظهران راهب من الرهبان يدعى عيصاً من أهل الشام، وكان متخفراً بالعاص بن وائل، وكان الله قد آتاه علماً كثيراً وجعل فيه منافع كثيرة لأهل مكة من طيب ورفق وعلم. وكان يلزم صومعة له ويدخل مكة في كل سنة فيلقى الناس ويقول إنه يوشك أن يولد فيكم مولود يا أهل مكة يدين له العرب ويملك العجم، هذا زمانه، ومن أدركه واتبعه أصاب حاجته، ومن أدركه فخالفه أخطأ حاجته، وبالله

(١) بياض في الأصل.

ما تركت أرض الخمر والخمير والأمن، ولا حللت بأرض الجوع والبؤس والخوف إلاّ في طلبه، وكان لا يولد بمكة مولود إلا يسأل عنه فيقول ما جاء بعد. فيقال له فصفه فيقول لا. ويكتم ذلك للذي قد علم أنه لاق من قومه مخافة على نفسه أن يكون ذلك داعية إلى أدنى ما يكون إليه من الأذى يوماً ولما كان صبيحة اليوم الذي ولد فيه رسول الله ﷺ خرج عبد الله بن عبد المطلب حتى أتى عيصاً فوقف في أصل صومعته ثم نادى: يا عيصاه. فناداه من هذا؟ فقال: أنا عبد الله فأشرف عليه فقال كن أباه فقد ولد المولود الذي كنت أحدّثكم عنه يوم الاثنين، ويبعث يوم الاثنين، ويموت يوم الاثنين، قال فإنه قد ولد لي مع الصبح مولود. قال فما سمّيته؟ قال محمداً قال والله لقد كنت أشتهي أن يكون هذا المولود فيكم أهل البيت لثلاث خصال نعرفه بها، منها أن نجمه طلع البارحة وأنه ولد اليوم وأن اسمه محمد. انطلق إليه فإن الذي كنت أخبركم عنه ابنك. قال فما يدريك أنه ابني ولعلّه أن يولد في هذا اليوم مولود غيره؟ قال قد وافق ابنك الاسم ولم يكن الله ليشبه علمه على العلماء فإنه حجّة. وآية ذلك أنه الآن وجع فيشتكي أياماً ثلاثة، فيظهر به الجوع ثلاثاً ثم يعافى. فاحفظ لسانك فإنك لم يحسد أحد حسده قطّ ولم يبغ على أحد كما يبغي عليه.. أن تعش حتى يبدو مقاله ثم يدعو لظهر لك من قومك ما لا تحتمله إلاّ على صبر وعلى ذل، فاحفظ لسانك ودار عنه قال فما عمره؟ قال إن طال عمره وإن قصر لم يبلغ السبعين، يموت في وتر دونها من الستين في إحدى وستين أو ثلاث وستين في أعمار جل أمته. قال وحمل برسول الله ﷺ في عاشر المحرم. وولد يوم الاثنين لثنتي عشرة خلت من رمضان سنة ثلاث وعشرين من غزوة أصحاب الفيل هكذا رواه أبو نعيم وفيه غرابة.

[ذكر][(١)] حواضنه ومراضعه عليه الصلاة والسلام

كانت أم أيمن واسمها بركة تحضنه، وكان قد ورثها عليه الصلاة والسلام من أبيه، فلما كبر أعتقها وزوجها مولاه زيد بن حارثة، فولدت له غلاماً أسامة بن زيد رضي الله عنهم. وأرضعته مع أمه عليه الصلاة والسلام مولاة عمّه أبي لهب ثويبة قبل حليمة السعدية.

أخرج البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث الزهري عن عروة بن الزبير، عن زينب بنت أم سلمة عن أم حبيبة بنت أبي سفيان. قالت: يا رسول الله أنكح أختي بنت أبي سفيان ـ ولمسلم عزة بنت أبي سفيان ـ. فقال رسول الله ﷺ «أَوَ تُحِبِّينَ ذَلِكَ؟» قلت نعم! لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي. فقال النبي ﷺ «فَإِنَّ ذَلِكَ لاَ يَحِلُّ لِي» قالت: فإنا نحدّث إنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة ـ وفي رواية درة بنت أبي سلمة قال: «بِنْتُ أُمِّ سَلَمَةَ»؟ قلت: نعم قال: «إِنَّهَا لَوْ لَمْ تَكُنْ رَبِيبَتِي فِي حِجْرِي مَا حَلَّتْ لِي. إِنَّهَا لابْنَةُ

(١) سقط في ط.

أَخِي مِنَ الرَّضَاعةِ، أَرْضَعَتْنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثُوَيْبَةُ، فَلاَ تَعْرِضْنَ عَلَيَّ بَنَاتِكُنَّ وَلاَ أَخَوَاتِكُنَّ»[1] زاد البخاري قال عروة: وثويبة مولاة لأبي لهب أعتقها فأرضعت رسول الله ﷺ. فلما مات أبو لهب أريه بعض أهله بشر خيبة. فقال له ماذا لقيت؟ فقال أبو لهب: لم ألق بعدكم خيراً غير أني سقيت في هذه بعتاقتي ثويبة ـ وأشار إلى النقرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع.

وذكر السهيلي وغيره: أن الرائي له هو أخوه العباس. وكان ذلك بعد سنة من وفاة أبي لهب بعد وقعة بدر. وفيه أن أبا لهب قال للعبّاس أنه ليخفف عليّ في مثل يوم الاثنين. قالوا لأنه لمّا بشرته ثويبة بميلاد ابن أخيه محمد بن عبد الله أعتقها من ساعته فجوزي بذلك لذلك.

ذكر رضاعته[2] عليه الصلاة والسلام من حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية وما ظهر عليه من البركة وآيات النبوة

قال محمد بن إسحاق: فاسترضع له عليه الصلاة والسلام من حليمة بنت أبي ذؤيب، واسمه: عبد الله بن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناصرة بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان بن مضر قال واسم أبي رسول الله ﷺ الذي أرضعه ـ يعني زوج حليمة الحارث بن عبد العُزّى بن رفاعة بن ملان بن ناصرة بن سَعْد بن بكر بنّ هوازن. وإخوته عليه الصلاة والسلام ـ يعني من الرضاعة ـ عبد الله بن الحارث وأنيسة بنت الحارث وحذافة بنت الحارث وهي الشيماء وذكروا أنها كانت تحضن رسول الله ﷺ مع أمه إذ كان عندهم.

وقال ابن إسحاق: حدثني جهم بن أبي جهم مولى لامرأة من بني تميم كانت عند الحارث بن حاطب، ويقال له مولى الحارث بن حاطب. قال: حدثني من سمع عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال: حدثت عن حليمة بنت الحارث أنها قالت: قدمت مكة في نسوة وذكر الواقدي بإسناده أنهن كن عشر نسوة من بني سعد بن بكر يلتمس بها الرضعاء من بني سعد نلتمس بها الرضعاء في سنة شهباء[3] فقدمت على أتان لي قمراء كانت أذمّت بالركب[4] ومعي صبي لنا وشارف لنا والله ما تبض بقطرة، وما ننام ليلتنا ذلك أجمع مع صبينا ذاك ما يجد في ثديّ ما يُغْنيه ولا في شارفنا ما يغذيه. ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج فخرجت على أتاني تلك، فلقد أذمت بالركب حتى ذلك شق عليهم ضعفاً وعجفاً. فقدمنا مكّة فوالله ما علمت منا امرأة إلاّ وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل إنه يتيم تركناه. قلنا:

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح باب ٢٠، ومسلم في الرضاع حديث ١٦، وأحمد في المسند ٦/٣٠٩.

(٢) في ط: رضاعة.

(٣) سنة شهباء: لا خضرة فيها ولا مطر.

(٤) أذمت: أي جاءت بما تذم عليه، أو يكون من قولهم: بئر ذمة أي قليلة الماء.

ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه؟ إنما نرجو المعروف من أبي الولد، فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا، فوالله ما بقي من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري. فلما لم نجد غيره وأجمعنا الانطلاق قلت لزوجي الحارث بن عبد العُزّى. والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه. فقال لا عليك أن تفعلي فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة. فذهبت فأخذته فوالله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره، فما هو إلا أن أخذته فجئت به رَحْلي فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن. فشرب حتى روي وشرب أخوه حتى روي. وقام صاحبي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل، فحلب ما شرب وشربت حتى روينا. فبتنا بخير ليلة، فقال صاحبي حين أصبحنا يا حليمة والله إني لأراك قد أخذت نسمة مباركة، ألم تري ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه؟ فلم يزل الله عزّ وجل يزيدنا خيراً. ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا فوالله لقطعت أتاني بالركب حتى ما يتعلق بها حمار حتى أن صواحبي ليقلن ويلك يا بنت أبي ذؤيب هذه أتانك التي خرجت عليها معنا؟ فأقول نعم والله إنها لهي، فقلن: والله إن لها لشأناً. حتى قدمنا أرض بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعاً لبناً فتحلب ما شئنا وما حوالينا أو حولنا أحد تبض له شاة بقطرة لبن، وإن أغنامهم لتروح جياعاً حتى إنهم ليقولون لرعاتهم ـ أو لرعيانهم ـ ويحكم انظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب فاسرحوا معهم. فيسرحون مع غنمي حيث تسرح فتروح أغنامهم جياعاً ما فيها قطرة لبن. وتروح أغنامي شباعاً لبناً نحلب ما شئنا. فلم يزل الله يرينا البركة نتعرفها حتى بلغ سنتين فكان يشب شباباً لا تشبّه الغلمان. فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً جفراً[١] فقدمنا به على أمه ونحن أضنّ شيء به مما رأينا فيه من البركة، فلما رأته أمه قلت لها دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى، فإنا نخشى عليه وباء مكة. فوالله ما زلنا بها حتى قالت نعم. فسرّحته معنا فأقمنا به شهرين أو ثلاثة فبينما هو خلف بيوتنا مع أخ له من الرضاعة في بَهم[٢] لنا جاء أخوه ذلك يشتد[٣] فقال: ذاك أخي القرشي جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه. فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائماً منتقعاً لونه. فاعتنقه أبوه وقال: يا بني ما شأنك؟ قال: «جَاءَنِي رَجُلاَنِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ أَضْجَعَانِي وَشَقَّا بَطْنِي ثُمَّ اسْتَخْرَجَا مِنْهُ شَيْئاً فَطَرَحَاهُ، ثُمَّ رَدَّاهُ كَمَا كَانَ فَرَجَعْنَا بِهِ مَعَنَا». فقال أبوه يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب فانطلقي بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف. قالت حليمة فاحتملناه فلم ترع أمه إلا به. فقدمنا به عليها فقالت: ما ردكما به يا ظئر فقد كنتما عليه حريصين؟ فقالا: لا والله إلاّ أن الله قد أدى عنا، وقضينا الذي علينا، وقلنا نخشى الإتلاف والإحداث نردّه إلى أهله. فقالت: ما ذاك بكما فأصدقاني شأنكما؟ فلم

---

(١) غلاماً جفراً: أي قوياً على الأكل.

(٢) البهم: جمع بهمة، الصغير من الغنم.

(٣) اشتد: أسرع.

تدعنا حتى أخبرناها خبره، فقالت: أخشيتما عليه الشيطان؟ كلاّ والله ما للشيطان عليه من سبيل. والله إنه لكائن لابني هذا شأن ألا أخبركما خبره؟ قلنا بلى! قالت: حملت به فما حملت حملاً قط أخف منه فأريت في النوم حين حملت به كأنه خرج مني نور أضاءت له قصور الشام، ثم وقع حين ولدته وقوعاً ما يقعه المولود، معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء، فدعاه عنكما. وهذا الحديث قد روي من طرق أخر وهو من الأحاديث المشهور المتداولة بين أهل السير والمغازي.

وقال الواقدي: حدثني معاذ بن محمد عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عبّاس قال: خرجت حليمة تطلب النبي ﷺ وقد وجدت البهم تقيل فوجدته مع أخته فقالت: في هذا الحر؟ فقالت أخته يا أمه ما وجد أخي حراً رأيت غمامة تظلل عليه إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت حتى انتهى إلى هذا الموضع.

وقال ابن إسحاق: حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا له: أخبرنا عن نفسك. قال: «نَعَمْ أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبُشْرَى عِيسَى عَلَيهِمَا السَّلامُ، وَرَأَتْ أُمِّي حِينَ حَمَلَتْ بِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّام، وَاسْتَرْضَعَتْ فِي بَنِي سَعْدِ بن بَكْرٍ، فَبَيْنَا أَنَا فِي بَهْم لَنَا أَتَانِي رَجُلانِ عَلَيهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ مَعَهُمَا طَسْتٌ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٌ ثَلْجاً فَأَضْجَعَانِي فَشَقَّا بَطْنِي، ثُمَّ اسْتَخْرَجَا قَلْبِي فَشَقَّاهُ فَأَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَةً سَوْدَاءَ فَأَلْقَيَاهَا. ثُمَّ غَسَلا قَلْبِي وَبَطْنِي بِذَلِكَ الثَّلْجِ، حَتَّى إِذَا ألقياه رَدَّاهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ زِنْهُ بِعَشَرَةٍ مِنْ أُمَّتِهِ فَوَزَنَنِي بِعَشَرَةٍ فَوَزَنْتُهُمْ، ثُمَّ قَالَ زِنْهُ بِمِائَةٍ مِنْ أُمَّتِهِ فَوَزَنَنِي بِمِائَةٍ فَوَزَنْتُهُمْ. ثُمَّ قَالَ زِنْهُ بِأَلْفٍ مِنْ أُمَّتِهِ فَوَزَنَنِي بِأَلْفٍ فَوَزَنْتُهُمْ، فَقَالَ دَعْهُ عَنْكَ فَلَوْ وَزَنْتَهُ بِأُمَّتِهِ لَوَزَنَهُمْ» وهذا إسناد جيد قوي.

وقد روى أبو نعيم الحافظ في الدلائل من طريق عمر بن الصبح وهو أبو نعيم عن ثور بن يزيد عن مكحول، عن شداد بن اوس هذه القصة مطولة جداً، ولكن عمر بن صبح هذا متروك كذّاب متهم بالوضع. فلهذا لم نذكر لفظ الحديث اذ لا يفرح به ثم قال: وحدثنا أبو عمرو بن حمدان، حدثنا الحسن بن نفير، حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا بقية بن الوليد عن بحير بن سعيد عن خالد بن معدان عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي عن عتبة بن عبد الله أنه حدثه أن رجلا سأل النبي ﷺ فقال: كيف كان أول شأنك يا رسول الله؟ قال: «كَانَتْ حَاضِنَتِي مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، فَانطَلَقْتُ أَنَا وَابْنٌ لَهَا فِي بَهْم لَنَا وَلَمْ نَأْخُذْ مَعَنَا زَاداً فَقُلْتُ يَا أَخِي اذْهَبْ فَأْتِنَا بِزَادٍ مِنْ عِنْدِ أُمِّنَا فَانطَلَقَ أَخِي، وَمَكَثْتُ عِنْدَ البَهم، فَأَقْبَلَ طَائِرَانِ أَبْيَضَانِ كَأَنَّهُمَا نِسْرَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ أَهُوَ هُوَ؟ فَقَالَ نَعَمْ! فَأَقْبَلا يَبْتَدِرَانِي فَأَخَذَانِي فَبَطَحَانِي لِلْقَفَا فَشَقَّا بَطْنِي ثُمَّ اسْتَخْرَجَا قَلْبِي فَشَقَّاهُ. فَأَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَتَيْنِ سَوْدَاوَيْنِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ ائْتِنِي بِمَاء ثَلْج فَغَسَلا بِهِ جَوْفِي، ثُمَّ قَالَ ائْتِنِي بِمَاءِ بَرَدٍ فَغَسَلا بِهِ قَلْبِي، ثُمَّ قَالَ ائْتِنِي بِالسَّكِينَةِ فَذَرَّهَا فِي قَلْبِي، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: خُطْهُ فَخَاطَهُ، وَخَتَمَ عَلَى قَلْبِي بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ اجْعَلْهُ فِي كَفَّةٍ واجْعَلْ أَلْفاً مِنْ أُمَّتِهِ فِي كَفَّةٍ، فَإِذَا أَنَا أَنْظُرُ

إِلَى الأَلْفِ فَوْقِي أُشْفِقُ أَنْ يَخِرَّ عَلَيَّ بَعْضُهُمْ. فَقَالَ لَوْ أَنَّ أُمَّتَهُ وُزِنَتْ بِهِ لَمَالَ بِهِمْ، ثُمَّ انْطَلَقَا فَتَرَكَانِي وَفَرِقْتُ فَرَقاً شَدِيداً ، ثُمَّ انْطَلَقْتُ إِلَى أُمِّي فَأَخْبَرْتُهَا بِالَّذِي لَقِيتُ، فَأَشْفَقَتْ أَنْ يَكُونَ قَدْ لُبِسَ بِي فَقَالَتْ أُعِيذُكَ بِاللَّهِ. فَرَحلَتْ بَعِيراً لَهَا وَحَمَلَتْنِي عَلَى الرَّحْلِ، وَرَكِبَتْ خَلْفِي حَتَّى بَلَغْنَا إِلَى أُمِّي، فَقَالَتْ أَدَّيْتُ أَمَانَتِي وَذِمَّتِي وَحَدَّثَتْهَا بِالَّذِي لَقِيتُ فَلَمْ يَرُعْهَا. وَقَالَتْ: إِنِّي رَأَيْتُ خَرَجَ مِنِّي نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ»[١] **ورواه أحمد من حديث بقية بن الوليد به.**

وهكذا رواه عبد الله بن المبارك وغيره عن بقية بن الوليد به. وقد رواه ابن عساكر من طريق أبي داود الطيالسي حدثنا جعفر بن عبد الله بن عثمان القرشي، أخبرني عمير بن عمر بن عروة بن الزبير. قال: سمعت عروة بن الزبير يحدث عن أبي ذر الغفاري قال: قلت يا رسول الله كيف علمت أنك نبي حين علمت ذلك، واستيقنت أنك نبي؟ قال: «يَا أَبَا ذَرّ أَتَانِي مَلَكَان وَأَنَا بِبَعْض بطْحَاءِ مَكَّةَ، فَوَقَعَ أَحَدُهُمَا عَلَى الأَرْضِ، وَكَانَ الآخَرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ. فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ أَهُو هُوَ؟ قَالَ: هُوَ هُوَ قَالَ: زِنْهُ بِرَجُلٍ. فَوَزَنَنِي بِرَجُلٍ فَرَجَحْتُهُ» وذكر تمامه، وذكر شق صدره وخياطته، وجعل الخاتم بين كتفيه قال: «فَمَا هُوَ إِلاَّ أَنْ وَلّيَا عَنِّي فَكَأَنَّمَا أُعَايِنُ الأَمْرَ مُعَايَنَةً» ثم أورد ابن عساكر عن أبي بن كعب بنحو ذلك. ومن حديث شداد بن أوس بأبسط من ذلك.

وثبت في صحيح مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فاخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب واستخرج منه علقة سوداء، فقال هذا حظ الشيطان، ثم غسله في طشت من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه وجاء الغلمان يسعون الى أمه - يعني ظئره - فقالوا إن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره[٢]. وقد رواه ابن عساكر من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن عبد ربه بن سعيد عن ثابت البناني، عن أنس أن الصلاة فرضت بالمدينة، وأن ملكين أتيا رسول الله ﷺ فذهبا به الى زمزم فشقا بطنه، فاخرجا حشوته في طشت من ذهب، فغسلاه بماء زمزم ثم لبسا جوفه حكمة وعلماً. ومن طريق ابن وهب أيضاً عن يعقوب بن عبد الرحمن الزهري عن أبيه، عن عبد الرحم بن عامر بن عتبة بن أبي وقاص، عن أنس قال: أتي رسول الله ﷺ ثلاث ليال قال خذوا خيرهم وسيدهم، فأخذوا رسول الله ﷺ فعمد به إلى زمزم فشق جوفه، ثم أتي بتور من ذهب فغسل جوفه ثم ملىء حكمة وإيماناً. وثبت من رواية سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس. وفي الصحيحين من طريق شريك بن أبي نمر عن أنس، وعن الزهري، عن أنس، عن أبي ذر وقتادة، عن أنس، وعن مالك بن صعصعة، عن النبي ﷺ في حديث الإسراء كما سيأتي قصّة شرح الصدر ليلتئذ وإنه غسل بماء زمزم، ولا منافاة لاحتمال وقوع ذلك مرّتين مرّة وهو صغير ومرّة ليلة الإسراء ليتأهّب

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٨٤، ١٨٥.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٦١، وأحمد في المسند ٣/ ١٢١.

للوفود إلى الملإ الأعلى ولمناجاة الربّ عزّ وجلّ، والمثول بين يديه تبارك وتعالى[١].

وقال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ يقول لأصحابه: «أَنَا أَعْرَبُكُمْ، أَنَا قُرَشِيٌّ وَاسْتُرْضِعْتُ فِي بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ» وذكر ابن إسحاق: أن حليمة لما أرجعته إلى أمه بعد فطامه مرّت به على ركب من النصارى فقاموا اليه عليه الصلاة والسلام فقلبوه وقالوا إنا سنذهب بهذا الغلام إلى ملكنا فإنه كائن له شأن فلم تكد تنفلت منهم إلا بعد جهد. وذكر أنها لما ردته حين تخوّفت عليه أن يكون أصابه عارض، فلما قربت من مكة افتقدته فلم تجده، فجاءت جدّه عبد المطلب فخرج هو وجماعة في طلبه، فوجده ورقة بن نوفل ورجل آخر من قريش فأتيا به جده، فأخذه على عاتقه وذهب فطاف به يعوذه ويدعو له، ثم ردّه إلى أمه آمنة.

وذكر الأموي من طريق عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي ـ وهو ضعيف ـ عن الزهري، عن سعيد بن المسيب قصّة مولده عليه الصلاة والسلام ورضاعه من حليمة على غير سياق محمد بن إسحاق. وذكر أن عبد المطلب أمر ابنه عبد الله أن يأخذه فيطوف به في أحياء العرب، ليتخذ له مرضعة، فطاف حتى استأجر حليمة على رضاعة، وذكر أنه أقام عندها ست سنين تزيره جدّه في كل عام، فلما كان من شق صدره عندهم ما كان، ردّته إليهم فأقام عند أمه حتى كان عمره ثماني سنين ماتت فكفله جده عبد المطلب فمات وله عليه الصلاة والسلام عشر سنين، فكفله عمّاه شقيقا أبيه الزبير وأبو طالب، فلما كان له بضع عشرة سنة خرج مع عمه الزبير الى اليمن. فذكر أنهم رأوا منه آيات في تلك السفرة منها أن فحلاً من الإبل كان قد قطع بعض الطريق في واد ممرهم عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ برك حتى حكّ بكلكله[٢] الأرض، فركبه عليه الصلاة والسلام. ومنها أنه خاض بهم سيلاً عرماً فأيبسه الله تعالى حتى جاوزوه، ثم مات عمه الزبير وله أربع عشرة سنة فانفرد به أبو طالب.

والمقصود أن بركته عليه الصلاة والسلام حلت على حليمة السعدية وأهلها وهو صغير، ثم عادت على هوازن بكمالهم فواضله حين أسرهم بعد وقعتهم، وذلك بعد فتح مكة بشهر. فمتوا اليه برضاعه فأعتقهم وتحنن عليهم وأحسن اليهم كما سيأتي مفصلاً في موضعه إن شاء الله تعالى.

قال محمد بن إسحاق: في موقعة[٣] هوازن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. قال: كنا مع رسول الله ﷺ بحنين فلما أصاب من أموالهم وسباياهم أدركه وفد هوازن بالجعرانة وقد أسلموا، فقالوا يا رسول الله إنا أهل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا منّ الله عليك. وقام خطيبهم زهير بن صرد فقال: يا رسول الله إن ما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، فلو أنا ملحنا[٤] ابن أبي

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٦٠.
(٢) الكلكل: الصدر.
(٣) في ط: وقعة.
(٤) ملحنا: أرضعنا.

شمّر، أو النعمان بن المنذر، ثم أصابنا منهما مثل الذي أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما، وأنت خير المكفولين. ثم أنشد: [البسيط]

امْنُنْ عَلَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ فِي كَرَمٍ فَإِنَّكَ المَرْءُ نَرْجُوهُ وَنَدَّخِرُ
امْنُنْ عَلَى بَيْضَةٍ[1] قَدْ عَاقَهَا قَدَرٌ مُمَزَّقٌ شَمْلُهَا فِي دَهْرِهَا غِيَرُ
أَبْقَتْ لَنَا الدَّهْرَ هَتَّافاً عَلَى حَزَنٍ عَلَى قُلُوبِهِمُ الغَمَّاءُ وَالغَمَرُ
إِنْ لَمْ تَدَارَكْهَا نَعْمَاءُ تَنْشُرُهَا يَا أَرْجَحَ النَّاسِ حِلْماً حِينَ يُخْتَبَرُ
امْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا إِذْ فُوكَ يَمْلَؤُهُ مِنْ مَحْضِهَا دَرَرُ
امْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا وَإِذْ يَزِينُكَ مَا تَأْتِي وَمَا تَذَرُ
لاَ تَجْعَلَنَا كَمَنْ شَالَتْ نَعَامَتُهُ[2] وَاسْتَبْقِ مِنَّا فَإِنَّا مَعْشَرٌ زُهُرُ
إِنَّا لَنَشْكُرُ لِلنَّعْمَى وَإِنْ كُفِرَتْ وَعِنْدَنَا بَعْدَ هَذَا اليَوْمِ مُدَّخَرُ

وقد رويت هذه القصة من طريق عبيد الله بن رماحس الكلبي الرملي، عن زياد بن طارق الجشمي، عن أبي صرد زهير بن جرول ـ وكان رئيس قومه ـ قال لما أسَرَنا رسول الله ﷺ يوم حنين فبينا هو يميز بين الرجال والنساء وثبتُ حتى قعدت بين يديه وأسمعته شعراً، أذكره حين شب ونشأ في هوازن حيث أرضعوه: [البسيط]

امْنُنْ عَلَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ فِي دَعَةٍ فَإِنَّكَ المَرْءُ نَرْجُوهُ وَنَنْتَظِرُ
امْنُنْ عَلَى بَيْضَةٍ قَد عَاقَهَا قَدَرٌ مُمَزَّقٌ شَمْلُهَا فِي دَهْرِهَا غِيَرُ
أَبْقَتْ لَنَا الحَرْبَ هَتَّافاً عَلَى حَزَنٍ عَلَى قُلُوبِهِمُ الغَمَّاءُ وَالغَمَرُ
إِنْ لَمْ تَدَارَكْهَا نَعْمَاءُ تَنْشُرُهَا يَا أَرْجَحَ النَّاسِ حِلْماً حِينَ يُخْتَبَرُ
امْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضِعُهَا إِذْ فُوكَ تَمْلَؤُهُ مِنْ مَحْضِهَا الدُّرَرُ
إِذْ أَنْتَ طِفْلٌ صَغِيرٌ كُنْتَ تَرْضَعُهَا وَإِذْ يَزِينُكَ مَا تَأْتِي وَمَا تَذَرُ
لاَ تَجْعَلَنَّا كَمَنْ شَالَتْ نَعَامَتُهُ وَاسْتَبْقِ مِنَّا فَإِنَّا مَعْشَرٌ زُهُرُ
إِنَّا لَنَشْكُرُ لِلنُّعْمَى وَإِنْ كَفَرَتْ وَعِنْدَنَا بَعْدَ هَذَا اليَوْمِ مُدَّخَرُ
فَأَلْبِسِ العَفْوَ مَنْ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهُ مِنْ أُمَّهَاتِكَ إِنَّ العَفْوَ مُشْتَهَرُ
إِنَّا نُؤَمِّلُ عَفْواً مِنْكَ تُلْبِسُهُ هَذِي البَرِيَّةَ إِذْ تَعْفُو وَتَنْتَصِرُ
فَاغْفِرْ عَفَا اللَّهُ عَمَّا أَنْتَ رَاهِبُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِذْ يُهْدَى لَكَ الظَّفَرُ

قال: فقال رسول الله ﷺ: «أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ فَهُوَ لِلَّهِ وَلَكُمْ» فقالت الانصار: وما كان لنا فهو لله ولرسوله ﷺ. وسيأتي أنه عليه الصلاة والسلام أطلق لهم

(١) بيضة: جارية.
(٢) شالت نعامته: أي تفرقت كلمتهم وذهب عزمهم.

الذرية وكانت ستة آلاف ما بين صبي وامرأة، وأعطاهم أنعاماً وأناسي كثيراً. حتى قال أبو الحسن بن فارس فكان قيمة ما أطلق لهم يومئذ خمسمائة ألف ألف درهم. فهذا كلّه من بركته العاجلة في الدنيا، فكيف ببركته على من اتبعه في الدار الآخرة(١).

فصل

قال ابن إسحاق: بعد ذكر رجوعه عليه الصلاة والسلام إلى أمه آمنة بعد رضاعة حليمة له. فكان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب، وجدّه عبد المطلب في كلاءة الله وحفظه، ينبته الله نباتاً حسناً لما يريد به من كرامته، فلما بلغ ست سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب.

قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن أم رسول الله ﷺ آمنة توفيت وهو ابن ست سنين بالأبواء بين مكّة والمدينة، كانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجّار تزيره إياهم. فماتت وهي راجعة به إلى مكة. وذكر الواقدي بأسانيده أن النبي ﷺ خرجت به أمه إلى المدينة ومعها أم أيمن وله ست سنين، فزارت أخواله. قالت أم أيمن فجاءني ذات يوم رجلان من يهود المدينة فقالا لي: أخرجي الينا أحمد ننظر إليه، فنظرا اليه وقلباه فقال أحدهما لصاحبه: هذا نبي هذه الأمة، وهذه دار هجرته، وسيكون بها من القتل والسبي أمر عظيم. فلما سمعت أمه خافت وانصرفت به، فماتت بالأبواء وهي راجعة.

وقد قال الامام أحمد: حدّثنا حسين بن محمد، حدّثنا أيوب بن جابر عن سمّاك عن القاسم بن عبد الرحمن، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بِوَدّان قال «مَكَانَكُمْ حَتَّى آتِيكُمْ» فانطلق ثم جاءنا وهو ثقيل، فقال: «إِنِّي أَتَيْتُ قَبْرَ أُمِّ مُحمّدٍ فَسَأَلْتُ رَبِّي الشَّفَاعَة ـ يعْنِي لها ـ فَمنَعَنِيها، وإِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فزُورُوهَا، وَكُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ لُحُومِ الأَضاحي بعْد ثلاثَةِ أيّام فَكُلُوا وَأَمْسِكُوا ما بَدَا لكُم، وَنَهَيْتُكُمْ عَنِ الأَشْرِبَةِ فِي هذِهِ الأَوْعِيَة فاشْرَبُوا مَا بَدَا لَكُمْ»(٢) وقد رواه البيهقي من طريق سفيان الثوري عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: انتهى النبي ﷺ إلى رسم قبر، فجلس وجلس الناس حوله، فجعل يحرك رأسه كالمخاطب، ثم بكى فاستقبله عمر فقال: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: «هذَا قَبْرُ آمنَةَ بِنْتِ وهْبٍ اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فأَذِنَ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي الاسْتِغْفَارِ لهَا فَأَبَى عَلَيَّ، وَأَدْرَكَتْنِي رِقَّتُهَا فَبَكَيْتُ». قال فما رئيت ساعة أكثر باكياً من تلك الساعة. تابعه محارب بن دثار عن بريدة عن أبيه. ثم روى البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن بحر بن نصر عن عبد الله بن وهب حدّثنا ابن جريج عن أيوب بن هانىء، عن مسروق بن الأجدع عن عبد الله بن مسعود. قال: خرج رسول الله ﷺ ينظر في المقابر، وخرجنا معه، فأمرنا فجلسنا، ثم تخطى القبور حتى انتهى

(١) أخرجه النسائي في الهبة باب ١، وأحمد في المسند ٢/ ١٨٤.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٣٥٦، ٣٥٧.

الى قبر منها ـ فناجاه طويلاً، ثم ارتفع نحيب رسول الله ﷺ باكياً، فبكينا لبكاء رسول الله ﷺ، ثم إن رسول الله ﷺ أقبل علينا فتلقاه عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله ما الذي أبكاك؟ لقد أبكانا وأفزعنا. فجاء فجلس الينا فقال: «أَفْزَعَكُمْ بُكَائِي»؟ قلنا: نعم! قال: «إِنَّ القَبْرَ الَّذِي رَأَيْتُمُونِي أُنَاجِي قَبْرُ آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ، وَإِنِّي اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي زِيَارَتِهَا فَأَذِنَ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي الاسْتِغْفَارِ لَهَا فَلَمْ يَأْذَنْ لِي فِيهِ، وَنَزَلَ عَلَيَّ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾[التوبة. ١١٣ ـ ١١٤] فَأَخَذَنِي مَا يَأْخُذُ الوَلَدُ لِلْوَالِدَةِ مِنَ الرِّقَّةِ فَذَلِكَ الَّذِي أَبْكَانِي» غريب ولم يخرجوه. وروى مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن محمد بن عبيد، عن يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ثم قال: «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّي فَأَذِنَ لِي وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي الاسْتِغْفَارِ لَهَا فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، فَزُورُوا القُبُور تُذَكِّرْكُمُ المَوْتَ»[١] وروى مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عفّان، عن حمّاد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله أين أبي؟ قال: «فِي النَّارِ» فلما قفا دعاه فقال: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ»[٢]. وقد روى البيهقي من حديث أبي نعيم الفضل بن دُكَيْن عن إبراهيم بن سعد، عن الزهري، عن عامر بن سعد، عن أبيه. قال: جاء أعرابي الى النبي ﷺ فقال: إن أبي كان يصل الرحم، وكان، وكان، فأين هو؟ قال: «فِي النَّارِ» قال فكأن الأعرابي وجد من ذلك، فقال: يا رسول الله أين أبوك؟ قال: «حَيْثُمَا مَرَرْتَ بِقَبْرِ كَافِرٍ فَبَشِّرْهُ بِالنَّارِ» قال فأسلم الأعرابي بعد ذلك. فقال: لقد كلفني رسول الله ﷺ تعباً، ما مررت بقبر كافر إلاّ بشرته بالنار. غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا سعيد ـ هو ابن أبي أيوب ـ حدثنا ربيعة بن سيف المعافري عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو. قال: بينما نحن نمشي مع رسول الله ﷺ إذ بصر بامرأة لا يظن أنه عرفها، فلما توسّط الطريق وقف حتى انتهت إليه، فإذا فاطمة بنت رسول الله ﷺ فقال: «مَا أَخْرَجَكِ مِنْ بَيْتِكِ يَا فَاطِمَةُ؟» فقالت: أتيتُ أهل هذا البيت، فترحّمتُ إليهم ميتهم وعزيتهم. قال: «لَعَلَّكِ بَلَغْتِ مَعَهُمُ الكُدَى»[٣] قالت معاذ الله أن أكون بلغتها معهم، وقد سمعتك تذكر في ذلك ما تذكر. قال: «لَوْ بَلَغْتِيهَا مَعَهُمْ مَا رَأَيْتِ الجَنَّةَ حَتَّى يَرَاهَا جَدُّ أَبِيكِ»[٤] ثم رواه أحمد وأبو داود والنسائي والبيهقي من حديث ربيعة بن سيف بن مانع المعافري الصنمي الإسكندري، وقد قال

(١) أخرجه مسلم في الجنائز حديث ١٠٥م، وأحمد في المسند ٢/٤٤١.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٣٤٧، وأحمد في المسند ٣/٢٦٨.

(٣) الكدية: القطعة الغليظة من الأرض والمقصود هنا المقابر.

(٤) أخرجه أبو داود في الجنائز باب ٢٦، والنسائي في الجنائز باب ٢٧، وأحمد في المسند ١٦٨، ١٦٩.

البخاري: عنده مناكير. وقال النسائي: ليس به بأس وقال مرة صدوق، وفي نسخة ضعيف. وذكره ابن حبان في الثقات وقال كان يخطىء كثيراً، وقال الدارقطني صالح. وقال ابن يونس في تاريخ مصر في حديثه مناكير توفي قريباً من سنة عشرين ومائة، والمراد بالكدى القبور ـ وقيل النوح.

والمقصود أن عبد المطلب مات على ما كان عليه من دين الجاهلية خلافاً لفرقة الشيعة فيه، وفي ابنه أبي طالب على ما سيأتي في وفاة أبي طالب، وقد قال البيهقي ـ بعد روايته هذه الأحاديث في كتابه دلائل النبوة: وكيف لا يكون أبواه وجده عليه الصلاة والسلام بهذه الصفة في الآخرة، وقد كانوا يعبدون الوثن، حتى ماتوا ولم يدينوا دين عيسى ابن مريم عليه السلام، وكفرهم لا يقدح في نسبه عليه الصلاة والسلام لأن أنكحة الكفّار صحيحة. ألا تراهم يسلمون مع زوجاتهم فلا يلزمهم تجديد العقد ولا مفارقتهن إذا كان مثله يجوز في الإسلام وبالله التوفيق. انتهى كلامه.

قلت: وإخباره ﷺ عن أبويه وجدّه عبد المطلب بأنهم من أهل النار لا ينافي الحديث الوارد عنه من طرق متعددة أن أهل الفترة والأطفال والمجانين والصم يمتحنون في العرصات يوم القيامة، كما بسطناه سنداً ومتناً [في تفسيرنا] عند قوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] فيكون منهم من يجيب ومنهم من لا يجيب. فيكون هؤلاء من جملة من لا يجيب فلا منافاة ولله الحمد والمنة.

وأما الحديث الذي ذكره السهيلي وذكر أن في إسناده مجهولين إلى ابن أبي الزناد عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها، أنّ رسول الله ﷺ سأل ربّه أن يحيي أبويه، فأحياهما وآمنا به، فإنه حديث منكر جداً. وإن كان ممكناً بالنظر إلى قدرة الله تعالى. لكن الذي ثبت في الصحيح يعارضه والله أعلم.

فصل

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ مع جدّه عبد المطلب بن هاشم ـ يعني بعد موت أمه آمنة بنت وهب ـ فكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له. قال: فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفْر حتى يجلس عليه. فيأخذه أعمامه ليؤخّروه عنه. فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني فوالله إن له لشأناً، ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع. وقال الواقدي: حدثني محمد بن عبد الله، عن الزهري، وحدثنا عبد الله بن جعفر، عن عبد الواحد بن حمزة بن عبد الله. وحدثنا هاشم بن عاصم الأسلمي عن المنذر بن جهم. وحدّثنا معمر عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد. وحدثنا عبد الرحمن بن عبد العزيز عن أبي الحويرث. وحدثنا ابن أبي سبرة عن سليمان بن سحيم، عن نافع، عن ابن جبير ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ قالوا: كان

رسول الله ﷺ يكون مع أمه آمنة بنت وهب، فلما توفيت قبضه إليه جدّه عبد المطلب، وضمّه ورقّ عليه رقة لم يرقها على ولده، وكان يقرّبه منه ويدنيه ويدخل عليه إذا نام. وكان يجلس على فراشه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك دعوا ابني إنه يؤسس ملكاً.

وقال قوم من بني مدلج لعبد المطلب: احتفظ به فإنا لم نر قدماً أشبه بالقدم الذي في المقام منه. فقال عبد المطلب لأبي طالب: اسمع ما يقول هؤلاء! فكان أبو طالب يحتفظ به. وقال عبد المطلب لأم أيمن ـ وكانت تحضنه ـ يا بركة لا تغفلي عن ابني، فإني وجدته مع غلمان قريب من السدرة، وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابني نبي هذه الأمة. وكان عبد المطلب لا يأكل طعاماً إلا يقول عليّ بابني فيؤتى به إليه.

فلما حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله ﷺ وحياطته، ثم مات عبد المطلب ودفن بالحجون.

وقال ابن إسحاق: فلما بلغ رسول الله ﷺ ثمان سنين هلك جده عبد المطلب بن هاشم. ثم ذكر جمعه بناته وأمره إياهن أن يرثينه. وهن، أروى وأميمة، وبرة، وصفية، وعاتكة، وأم حكيم البيضاء وذكر أشعارهن وما قلن في رثاء أبيهن، وهو يسمع قبل موته، وهذا أبلغ النوح. وبسط القول في ذلك وقد قال ابن هشام ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر.

قال ابن إسحاق: فلما هلك عبد المطلب بن هاشم ولي السقاية وزمزم بعده ابنه العبّاس، وهو من أحدث إخوته سناً، فلم تزل إليه حتى قام الإسلام وأقرها في يده رسول الله ﷺ. وكان رسول الله ﷺ بعد جده عبد المطلب مع عمّه أبي طالب لوصية عبد المطلب له به، ولأنه كان شقيق أبيه عبد الله أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم. قال: فكان أبو طالب هو الذي يلي أمر رسول الله ﷺ وكان إليه ومعه. وقال الواقدي: أخبرنا معمر عن ابن نجيح، عن مجاهد. وحدثنا معاذ بن محمد الأنصاري عن عطاء، عن ابن عباس. وحدثنا محمد بن صالح وعبد الله بن جعفر وإبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة ـ دخل حديث بعضهم في حديث بعض ـ قالوا: لما توفي عبد المطلب قبض أبو طالب رسول الله ﷺ فكان يكون معه، وكان أبو طالب لا مال له، وكان يحبه حباً شديداً لا يحبه ولده، وكان لا ينام إلاّ إلى جنبه، ويخرج فيخرج معه. وصب به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشيء قط. وكان يخصّه بالطعام، وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا. فكان إذا أراد أن يغديهم قال: كما أنتم حتى يأتي ولدي. فيأتي رسول الله فيأكل معهم فكانوا يفضلون من طعامهم، وإن لم يكن منهم لم يشبعوا، فيقول أبو طالب إنك لمبارك. وكان الصبيان يصبحون رمصاً شعثاً، ويصبح رسول الله ﷺ دهيناً كحيلاً.

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا علي بن ثابت عن طلحة بن عمرو سمعت عطاء بن أبي رباح سمعت ابن عباس يقول: كان بنو أبي طالب يصبحون رمصاً عمصاً ويصبح

رسول الله ﷺ صقيلاً دهيناً، وكان أبو طالب يقرب الى الصبيان صفحتهم أول البكرة، فيجلسون وينتهبون ويكف رسول الله ﷺ يده فلا ينتهب معهم. فلما رأى ذلك عمّه عزل له طعامه على حدة.

وقال ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير أن أباه حدّثه أن رجلاً من لهب كان عائفاً[1] فكان إذا قدم مكة أتاه رجال من قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم فيهم. قال فأتى أبو طالب برسول الله ﷺ وهو غلام مع من يأتيه قال: فنظر إلى رسول الله ﷺ ثم شغله عنه شيء. فلما فرغ قال: الغلام عليّ به. فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيّبه عنه، فجعل يقول ويلكم ردوا عليّ الغلام الذي رأيته آنفاً، فوالله ليكونن له شأن. قال وانطلق به أبو طالب.

فصل في خروجه عليه الصلاة والسلام مع عمّه أبي طالب إلى الشام وقصّته مع بحيرا الراهب

قال ابن إسحاق: ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجراً إلى الشام، فلما تهيأ للرحيل وأجمع السير صب به[2] رسول الله ﷺ ـ فيما يزعمون ـ فرّق له أبو طالب وقال: والله لأخرجن به معي ولا أفارقه ولا يفارقني أبداً ـ أو كما قال ـ فخرج به. فلما نزل الركب بُصرى من أرض الشام وبها راهب يقال له بحيرى في صومعة له. وكان إليه علم أهل النصرانية، ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط[3] راهب فيها إليه يصير علمهم عن كتاب فيما يزعمون، يتوارثونه كابراً عن كابر، فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى ـ وكانوا كثيراً ما يمرّون به [قبل ذلك][4] فلا يكلمهم ولا يَعرِض لهم ـ حتى كان ذلك العام. فلمات نزلوا قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً، وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته، يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ في الركب حتى أقبل وغمامة تظلله من بين القوم ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً منه. فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة وتهصرت[5] أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها. فلما رأى ذلك بحيرا نزل من صومعته وقد أمر بطعام فصنع. ثم أرسل إليهم. فقال إني صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش، فأنا أحب أن تحضروا كلّكم، كبيركم وصغيركم، وعبدكم وحرّكم. فقال له رجل منهم والله يا بحيرى إن لك لشأناً اليوم. ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمرّ بك كثيراً فما شأنك اليوم! قال له بحيرى: صدقت قد كان ما تقول ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلون منه كلّكم فاجتمعوا إليه، وتخلّف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم تحت الشجرة فلما رآهم بحيرى لم ير الصفة التي يعرف ويجده عنده فقال يا معشر قريش

---

(١) العائف: المتكهن.

(٢) أي تعلق به.

(٣) قط هنا بمعنى الدهر.

(٤) سقط في ط.

(٥) تهصرت: أي مالت وتدلت.

لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي قالوا: يا بحيرى ما تخلّف أحد ينبغي له أن يأتيك إلاّ غلام، وهو أحدثنا سناً: فتخلّف في رحالنا. قال لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم. قال: فقال رجل من قريش مع القوم: واللاتِ والعزّى إن كان للؤم بنا أن يتخلّف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا. ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم، فلما رأى بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده، قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرى، وقال له يا غلام: أسألك بحق اللات والعزى ألا أخبرتني عما أسألك عنه. وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما. فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له: «لاَ تَسْأَلْنِي بِاللاَّتِ وَالعُزَّى شَيْئاً، فَوَاللَّهِ مَا أَبْغَضْتُ شَيْئاً قَطُّ بُغْضَهُمَا». فقال له بحيرى: فبالله إلاّ ما أخبرتني عما أسألك عنه؟ فقال له: سَلْنِي عَمَّا بَدَا لَكَ. فجعل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره. فجعل رسول الله ﷺ يخبره. فوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته. ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه موضعه من صفته التي عنده، فلما فرغ أقبل على عمّه أبي طالب فقال ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني قال بحيرى: ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً، قال: فإنه ابن أخي. قال فما فعل أبوه؟ قال مات وأمه حبلى به، قال: صدقت. ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنّه شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده، فخرج به عمّه أبو طالب سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام.

قال ابن إسحاق: فزعموا فيما روى الناس أن زريراً، وثماماً، ودريسماً ـ وهم نفر من أهل الكتاب ـ قد كانوا رأوا رسول الله ﷺ مثلما رأى بحيرى في ذلك السفر الذي كان فيه مع عمّه أبي طالب، فأرادوه فردّهم عنه بَحِيرَى. فذكرهم الله وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته وأنهم أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه حتى عرفوا ما قال لهم وصدّقوه بما قال فتركوه وانصرفوا عنه. وقد ذكر يونس بن بكير عن ابن إسحاق أن أبا طالب قال في ذلك ثلاث قصائد. هكذا ذكر ابن إسحاق هذا السياق من غير إسناد منه. وقد ورد نحوه من طريق مسند مرفوع.

فقال الحافظ أبو بكر الخرائطي: حدثنا عباس بن محمد الدوري، حدثنا قراد أبو نوح، حدثنا يونس عن أبي إسحاق، عن أبي بكر بن أبي موسى، عن أبيه قال: خرج أبو طالب إلى الشام ومعه رسول الله ﷺ في أشياخ من قريش. فلمات أشرفوا على الراهب ـ يعني بحيرى ـ هبطوا فحلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج ولا يلتفت إليهم، قال: فنزل وهم يحلّون رحالهم. فجعل يتخلّلهم حتى جاء فأخذ بيد النبي ﷺ فقال هذا سيّد العالمين. وفي رواية البيهقي زيادة هذا رسول ربّ العالمين، بعثه الله رحمة للعالمين. فقال له أشياخ من قريش: وما علمك؟ فقال إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجرة ولا حجر إلاّ خر ساجداً، ولا يسجدون إلاّ لنبي، وإني أعرفه بخاتم

النبوة أسفل من غضروف كتفه. ثم رجع فصنع لهم طعاماً فلما أتاهم به ـ وكان هو في رعية الإبل ـ فقال: أرسلوا إليه فأقبل وغمامة تظلّه. فلما دنا من القوم قال: انظروا إليه عليه غمامة تظله فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، لما جلس مال فيء الشجرة عليه قال انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه، قال: فبينما هو قائم عليهم وهو ينشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه، فالتفت فإذا هو بسبعة نفر من الروم قد أقبلوا. قال فاستقبلهم، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا أن هذا النبي خارج في هذا الشهر فلم يبق طريق إلاّ بعث إليه ناس، وإنا أخبرنا خبره إلى طريقك هذه. قال فهل خلفكم أحد هو خير منكم؟ قالوا لا إنما أخبرنا خبره إلى طريقك هذه. قال أفأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه، هل يستطيع أحد من الناس ردّه؟ فقالوا لا. قال فبايعوه وأقاموا معه عنده. قال: فقال الراهب أنشدكم الله أيكم وليه؟ قالوا: أبو طالب. فلم يزل يناشده حتى ردّه وبعث معه أبو بكر وبلالاً وزوّده الراهب من الكعك والزيت. هكذا رواه الترمذي[1] عن أبي العباس الفضل بن سهل الأعرج عن قراد أبي نوح به. والحاكم والبيهقي. وابن عساكر من طريق أبي العباس محمد بن يعقوب الأصم، عن عبّاس بن محمد الدوري به. وهكذا رواه غير واحد من الحفّاظ من حديث أبي نوح عبد الرحمن بن غزوان الخزاعي مولاهم، ويقال له الضبّي ويعرف بقراد. سكن بغداد وهو من الثقات الذين أخرج لهم البخاري، ووثقه جماعة من الأئمة والحفاظ ولم أر أحداً جرحه ومع هذا في حديثه هذا غرابة، قال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقال عباس الدوري: ليس في الدنيا أحد يحدث به غير قراد أبي نوح، وقد سمعه منه أحمد بن حنبل رحمه الله ويحيى بن معين لغرابته وانفراده. حكاه البيهقي وابن عساكر.

قلت: فيه من الغرائب أنه من مرسلات الصحابة، فإن أبا موسى الأشعري إنما قدم في سنة خيبر سنة سبع من الهجرة. ولا يلتفت إلى قول ابن إسحاق في جعله له من المهاجرة إلى أرض الحبشة من مكة، وعلى كل تقدير فهو مرسل. فإن هذه القصة كانت ولرسول الله ﷺ من العمر فيما ذكره بعضهم ثنتا عشرة سنة، ولعل أبا موسى تلقاه من النبي ﷺ فيكون أبلغ، أو من بعض كبار الصحابة رضي الله عنهم، أو كان هذا مشهوراً مذكوراً أخذه من طريق الاستفاضة.

الثاني: أن الغمامة لم تذكر في حديث أصحّ من هذا.

الثالث: أن قوله وبعث معه أبو بكر وبلالاً إن كان عمره عليه الصلاة والسلام إذ ذاك ثنتي عشرة سنة، فقد كان عمر أبي بكر إذ ذاك تسع سنين أو عشرة، وعمر بلال أقل من ذلك، فأين كان أبو بكر إذ ذاك؟ ثم أين بلال؟ كلاهما غريب اللهمّ إلاّ أن يقال إن هذا كان ورسول الله ﷺ كبيراً. إما بأن يكون سفره بعد هذا، أو إن كان القول بأن عمره كان إذ ذاك

---

(١) كتاب المناقب باب ٣.

ثنتي عشرة سنة غير محفوظ، فإنه إنما ذكره مقيداً بهذا الواقدي. وحكى السهيلي عن بعضهم أنه كان عمره عليه الصلاة والسلام إذ ذاك تسع سنين والله أعلم. قال الواقدي: حدثني محمد بن صالح وعبد الله بن جعفر وإبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة عن داود بن الحصين. قالوا: لما بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشرة سنة خرج به عمه أبو طالب إلى الشام في العير التي خرج فيها للتجارة، ونزلوا بالراهب بَحِيرَى. فقال لأبي طالب بالسرّ ما قال. وأمره أن يحتفظ به فردّه معه أبو طالب إلى مكة.

وشبّ رسول الله ﷺ مع أبي طالب يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعائبها لما يريد من كرامته، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً وأمانة، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم من الفحش والأذى. ما رؤي ملاحياً[1] ولا ممارياً أحداً، حتى سمّاه قومه الأمين. لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة فكان أبو طالب يحفظه ويحوطه وينصره ويعضده حتى مات.

وقال محمد بن سعد: أخبرنا خالد بن معدان حدثنا معتمر بن سليمان سمعت أبي يحدث عن أبي مجلز أن عبد المطلب ـ أو أبا طالب شك خالد ـ قال لما مات عبد الله عطف على محمد فكان لا يسافر سفراً إلا كان معه فيه، وإنه توجه نحو الشام فنزل منزلاً فأتاه فيه راهب. فقال إن فيكم رجلاً صالحاً: ثم قال أين أبو هذا الغلام؟ قال فقال: ها أنا ذا وليه ـ أو قيل هذا وليه ـ قال احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به إلى الشام إن اليهود حسّد وإني أخشاهم عليه. قال ما أنت تقول ذلك، ولكن الله يقوله. فردّه وقال: اللهم إني أستودعك محمداً، ثم إنه مات.

[ذكر][2] قصة بحيرى

حكى السهيلي عن سير الزهري أن بَحِيرَى كان حبراً من أحبار اليهود.

قلت: والذي يظهر من سياق القصّة أنه كان راهباً نصرانياً والله أعلم. وعن المسعودي أنه كان من عبد القيس وكان اسمه جرجيس. وفي كتاب المعارف لابن قتيبة سمع هاتف في الجاهلية قبل الإسلام بقليل يهتف ويقول: ألا إن خير أهل الأرض ثلاثة، بَحِيرَى، ورئاب بن البراء الشني، والثالث المنتظر. وكان الثالث المنتظر هو الرسول ﷺ. قال ابن قتيبة وكان قبر رئاب الشني وقبر ولده من بعده لا يزال يرى عندهما طش، وهو المطر الخفيف.

فصل في منشئه عليه الصلاة والسلام ومرباه وكفاية الله له، وحياطته وكيف كان يتيماً فآواه وعائلاً فأغناه

قال محمد بن إسحاق: فشب رسول الله ﷺ يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أقذار

(١) ملاحياً: لائماً ومعاتباً.

(٢) سقط في ط.

الجاهلية، لما يريد من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنّس الرجال تنزهاً وتكرماً، حتى ما اسمه في قومه إلاّ الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة وكان رسول الله ﷺ فيما ذكر لي يحدّث عما كان الله يحفظه به في صغره وأمر جاهليته أنه قال: «لَقَدْ رَأَيْتَنِي فِي غِلْمَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ نَنْقُلُ الحِجَارَةَ لِبَعْضِ مَا يَلْعَبُ الغِلْمَانُ، كُلُّنَا قَدْ تَعَرَّى وَأَخَذَ إِزَارَهُ وَجَعَلَهُ عَلَى رَقَبَتِهِ يَحْمِلُ عَلَيْهِ الحِجَارَةَ، فَإِنِّي لأُقْبِلُ مَعَهُمْ كَذٰلِكَ وَأُدْبِرُ إِذْ لَكَمَنِي لاكِمٌ مَا أَرَاهُ لَكْمَةً وَجِيعَةً، ثُمَّ قَالَ شُدَّ عَلَيْكَ إِزَارَكَ. قَالَ فَأَخَذْتُهُ فَشَدَدْتُهُ عَلَيَّ، ثُمَّ جَعَلْتُ أَحْمِلُ الحِجَارَةَ عَلَى رَقَبَتِي وَإِزَارِي عَلَيَّ مِنْ بَيْنَ أَصْحَابِي». وهذه القصّة شبيهة بما في الصحيح عند بناء الكعبة حين كان ينقل هو وعمه العباس فإن لم تكنها فهي متقدمة عليها كالتوطئة لها والله أعلم.

قال عبد الرزّاق: أخبرنا ابن جريج أخبرني عمرو بن دينار أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله ﷺ ينقل الحجارة. فقال العباس لرسول الله ﷺ: اجعل إزارك على عاتقك من الحجارة ففعل، فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء، ثم قام فقال: «إزاري» فشدّ عليه إزاره[1] أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق. وأخرجاه أيضاً من حديث روح بن عبادة عن زكرياء بن إسحاق عن عمرو بن دينار عن جابر بنحوه.

وقال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد بن أبي عمرو قالا: أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا محمد بن إسحاق الصاغاني، حدثنا محمد بن بكير الحضرمي، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله الدشتكي، حدثنا عمرو بن أبي قيس عن سماك، عن عكرمة، حدثني ابن عباس عن أبيه أنه كان ينقل الحجارة إلى البيت حين بنت قريش البيت، قال وأفردت قريش رجلين رجلين الرجال ينقلون الحجارة، وكانت النساء تنقل الشيد. قال فكنت أنا وابن أخي وكنا نحمل على رقابنا وأزرنا تحت الحجارة، فإذا غشينا الناس اتزرنا. فبينما أنا أمشي ومحمد أمامي قال: فخرّ وانبطح على وجهه، فجئت أسعى وألقيت حجري وهو ينظر إلى السماء، فقلت: ما شأنك؟ فقام وأخذ إزاره قال: «إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَمْشِي عُرْيَاناً». قال: وكنت أكتمها من الناس مخافة أن يقولوا مجنون.

وروى البيهقي من حديث يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق، حدثني محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب، عن أبيه، عن جده علي بن أبي طالب. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا هَمَمْتُ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ يَهُمُّونَ بِهِ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ لَيْلَتَيْنِ كِلْتَاهُمَا عَصَمَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمَا. قُلْتُ لَيْلَةً

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ٢٥، ومسلم في الحيض حديث ٧٦، وأحمد في المسند ٣/ ٢٩٥.

لِبَعْض فِتْيَان مَكَّةَ ـ وَنَحْنُ فِي رِعَاءِ غَنَم أَهْلِهَا ـ فَقُلْتُ لِصَاحِبِي أَبْصِرْ لِي غَنَمِي حَتَّى أَدْخُل مَكَّةَ أَسْمِرُ فِيهَا كَمَا يَسْمِرُ الفِتْيَانُ فَقَالَ: بَلَى. قَالَ فَدَخَلْتُ حَتَّى جِئْتُ أَوَّل دَارٍ مِنْ دُورِ مَكَّةَ سَمِعْتُ عَزْفاً بِالْغَرَابِيلِ وَالمزَامِير فقُلْتُ مَا هَذَا؟ قَالُوا: تَزَوَّجَ فُلانٌ فُلانَةَ. فَجَلَسْتُ أَنْظُرُ وَضَرَبَ اللَّهُ عَلَى أُذُنِي فَوَاللَّه ما أَيقَظَنِي إلاَّ مَسُّ الشَّمْسِ، فَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي، فَقَال ما فعلتَ؟ فَقُلْتُ ما فعلتُ شيئاً، ثُمَّ أَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي رَأَيْتُ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ لَيْلَةً أُخْرَى أَبْصِرْ لِي غَنَمِي حَتَّى أَسْمَر فَفَعَلَ فَدَخَلْتُ فَلَمَّا جِئْتُ مَكَّةَ سَمِعْتُ مِثْل الَّذِي سَمِعْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ. فَسَأَلْتُ فَقِيلَ نَكَحَ فلانٌ فُلانَةَ، فَجَلَسْتُ أَنْظُرُ، وَضرب اللَّهُ عَلَى أُذُنِي فَوَاللَّهِ مَا أَيقَظَنِي إلاَّ مَسُّ الشَّمْسِ، فَرَجَعْتُ إِلَى صَاحبي فَقَال مَا فَعلتَ؟ فَقُلْتُ لاَ شَيْءَ، ثُمَّ أَخْبَرْتُهُ الخَبَرَ، فَوَاللَّهِ مَا هَمَمْتُ وَلاَ عُدْتُ بَعْدَهُمَا لِشَيْءٍ مِنْ ذلِك حَتَّى أَكْرَمَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِنُبُوَّتِهِ» وهذا حديث غريب جداً، وقد يكون عن عليٍّ نفسه ويكون قوله في آخره «حَتَّى أَكْرَمَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِنُبُوَّتِهِ» مقحماً والله أعلم.

وشيخ ابن إسحاق هذا ذكره ابن حبان في الثقات. وزعم بعضهم أنه من رجال الصحيح. قال شيخنا في تهذيبه ولم أقف على ذلك والله أعلم.

وقال الحافظ البيهقي: حدثني أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا الحسن بن علي بن عفان العامري، حدثنا أبو أسامة، حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة، ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أسامة بن زيد، عن زيد بن حارثة. قال: كان صنم من نحاس يقال له أساف ونائلة يتمسّح به المشركون إذا طافوا فطاف رسول الله ﷺ وطفت معه، فلما مررت مسحت به فقال رسول الله ﷺ: «لاَ تَمَسَّهُ». قال زيد فطفنا فقلت في نفسي لأمسنه حتى أنظر ما يكون، فمسحته فقال رسول الله ﷺ: «أَلَمْ تُنْهَ» قال البيهقي: زاد غيره عن محمد بن عمرو بإسناده، قال زيد: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنماً قط حتى أكرمه الله تعالى بالذي أكرمه وأنزل عليه.

وتقدم قوله عليه الصلاة والسلام لبَحِيرَى حين سأله باللات والعزّى «لاَ تَسْأَلْنِي بِهِمَا فَوَاللَّهِ مَا أَبْغَضْتُ شَيْئاً بُغْضَهُمَا».

فأما الحديث الذي قاله الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو سعد الماليني. أنبأنا أبو أحمد بن عديّ الحافظ، حدثنا إبراهيم بن أسباط، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير عن سفيان الثوري عن محمد بن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يشهد مع المشركين مشاهدهم، قال: فسمع ملكين خلفه وأحدهما يقول لصاحبه: اذهب بنا حتى نقوم خلف رسول الله ﷺ. قال كيف نقوم خلفه، وإنما عهده باستلام الأصنام؟. قال: فلم يعد بعد ذلك أن يشهد مع المشركين مشاهدهم. فهو حديث أنكره غير واحد من الأئمة على عثمان بن أبي شيبة حتى قال الإمام أحمد فيه: لم يكن أخوه يتلفظ بشيء من هذا. وقد حكى البيهقي عن بعضهم أن معناه أنه شهد مع من يستلم الأصنام، وذلك قبل أن يوحى إليه والله أعلم. وقد تقدم في حديث زيد بن حارثة أنه

اعتزل شهود مشاهد المشركين حتى أكرمه الله برسالته. وثبت في الحديث أنه كان لا يقف بالمزدلفة ليلة عرفة بل كان يقف مع الناس بعرفات، كما قال يونس بن بكر عن محمد بن إسحاق. حدثني عبد الله بن أبي بكر عن عثمان بن أبي سليمان عن نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه جبير. قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ وهو على دين قومه، وهو يقف على بعير له بعرفات من بين قومه حتى يدفع معهم، توفيقاً من الله عز وجل له.

قال البيهقي: معنى قوله على دين قومه، ما كان بقي من إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ولم يشرك بالله قط صلوات الله وسلامه عليه دائماً.

قلت: ويفهم من قوله هذا أيضاً أنه كان يقف بعرفات قبل أن يوحى إليه. وهذا توفيق من الله له. ورواه الإمام أحمد عن يعقوب عن محمد بن إسحاق به. ولفظه رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه وإنه لواقف على بعير له مع الناس بعرفات حتى يدفع معهم توفيقاً من الله[١]. وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان عن عمرو، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: أضللت بعيراً لي بعرفة فذهبت أطلبه فإذا النبي ﷺ واقف فقلت إن هذا من الحُمس[٢] ما شأنه ههنا؟[٣] وأخرجاه من حديث سفيان بن عيينة به.

[ذكر][٤] شهوده عليه الصلاة والسلام حرب الفجار

قال ابن إسحاق: هاجت حرب الفِجّار ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة، وإنّما سمي يوم الفِجار، بما استحلّ فيه هذان الحيّان ـ كنانة وقيس عيلان ـ من المحارم بينهم. وكان قائد قريش وكنانة حرب بن أمية بن عبد شمس، وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة حتى إذا كان وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس.

وقال ابن هشام: فلما بلغ رسول الله ﷺ أربع عشرة سنة ـ أو خمس عشرة سنة ـ فيما حدثني به أبو عبيدة النحوي عن أبي عمرو بن العلاء، هاجت حرب الفجار بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان. وكان الذي هاجها أن عُروة الرَّحالِ بن عُتْبَة بن جَعْفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صَعْصَعة بن معاوية بن بَكْر بن هوازن أجار لطيمة[٥] ـ أي تجارة ـ للنعمان بن المنذر. فقال البرّاض بن قيس ـ أحد بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ـ: أتجيرها على كنانة؟ قال: نعم وعلى الخلق. فخرج فيها عروة الرحال وخرج البرّاض يطلب غفلته. حتى إذا كان بتَيْمَن ذي طلال بالعالية، غفل عروة فوثب عليه البرّاض فقتله في الشهر الحرام، فلذلك سمي الفِجار، وقال البرّاض في ذلك: [الوافر]

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٨٢.

(٢) الحمس: وهم قريش ومن ولدت. سمّوا حمساً لأنهم تحمّسوا في دينهم وتشددوا فيه.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٨٠.

(٤) سقط في ط.

(٥) اللطيمة: الجمال التي تحمل التجارة.

وَدَاهِيَةٍ تُهِمُّ النَّاسَ قَبْلِي ... شَدَدْتُ لَهَا بَنِي بَكْرٍ ضُلُوعِي
هَدَمْتُ بِهَا بُيُوتَ بَنِي كِلاَبٍ ... وَأَرْضَعْتُ المَوَالِيَ بِالضُّرُوعِ
رَفَعْتُ لَهُ بِذِي طَلاَلَ كَفِّي ... فَخَرَّ يَمِيدُ كَالجِذْعِ الصَّرِيعِ

وقال لَبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب: [الوافر]

وَأَبْلِغْ إِنْ عَرَضْتَ ـ بَنِي كِلاَبٍ ... وَعَامِرَ وَالخُطُوبُ لَهَا مَوَالِي
وَأَبْلِغْ ـ إِنْ عَرَضْتَ ـ بَنِي نُمَيرٍ ... وَأَخْوَالَ القَتِيلِ بَنِي هِلاَلِ
بِأَنَّ الوَافِدَ الرَّحَّالَ أَمْسَى ... مُقِيماً عِنْدَ تَيْمَنَ ذِي طِلاَلِ

قال ابن هشام: فأتى آتٍ قريشاً فقال: إن البَراضَ قد قتل عُرْوة، وهو في الشهر الحَرام بعكاظ. فارتحلوا وهوازن لا تَشْعر بهم. ثم بلغهم الخبر فأتبعوهم فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم. فاقتتلوا حتى جاء الليل، فدخلوا الحرم فأمسكت هوازن عنهم، ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً والقوم متساندون[1] على كل قبيل من قريش، وكنانة رئيس منهم وعلى كل قبيل من قيس رئيس منهم. قال وشهد رسول الله ﷺ بعض أيامهم. أخرجه أعمامه معهم، وقال رسول الله ﷺ: «كُنتُ أُنَبِّلُ عَلَى أَعْمَامِي» أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

قال ابن هشام: وحديث الفِجّار طويل هو أطول مما ذكرت وإنما منعني من استقصائه قطعه حديث سيرة رسول الله ﷺ.

وقال السهيلي: والفِجار بكسر الفاء على وزن قتال. وكانت الفجارات في العرب أربعة ذكرهن المسعودي. وآخرهن، فجار البراض هذا. وكان القتال فيه في أربعة أيام، يوم شمطة، ويوم العبلاء، وهما عند عكاظ ويوم الشرب ـ وهو أعظمها يوماً ـ وهو الذي حضره رسول الله ﷺ وفيه قيدا رئيس قريش وبني كنانة، وهما حرب بن أمية وأخوه سفيان أنفسهما لئلا يفروا. وانهزمت يومئذ قيس إلا بني نضر فإنهم ثبتوا. ويوم الحريرة عند نخلة ثم تواعدوا من العام المقبل إلى عكاظ. فلما توافوا الموعد ركب عتبة بن ربيعة جمله ونادى يا معشر مضر علام تقاتلون؟ فقالت له هوازن: ما تدعوا إليه؟ قال الصلح، قالوا وكيف؟ قال ندي قتلاكم[2] ونرهنكم رهائن عليها، ونعفو عن دياتنا. قالوا ومن لنا بذلك قال أنا، قالوا ومن أنت؟ قال عتبة بن ربيعة، فوقع الصلح على ذلك، وبعثوا إليهم أربعين رجلاً فيهم حكيم بن حزام، فلما رأت بنو عامر بن صعصعة الرهن في أيديهم عفوا عن دياتهم، وانقضت حرب الفجار. وقد ذكر الأموي حروب الفجار وأيامها واستقصاها مطولاً فيما رواه عن الأثرم. وهو المغيرة بن علي عن أبي عبيدة معمر بن المثنى فذكر ذلك.

فصل

قال الحافظ البيهقي: أخبرنا أبو سعد الماليني، أنبأنا أبو أحمد بن عدي الحافظ،

(١) متساندون: أي ليس لهم أمير واحد يجمعهم. (٢) ندي قتلاكم: أي ندفع دياتهم.

حدثنا يحيى بن علي بن هاشم الخفاف، حدثنا أبو عبد الرحمن الأزدي، حدثنا إسماعيل بن علية، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه. قال: قال رسول الله ﷺ: «شَهِدْتُ مَعَ عُمُومَتي حِلْفَ المُطَيِّبِينَ فَمَا أُحِبُّ أَنْ أَنْكُثَهُ ـ أو كلمة نحوها ـ وَإِنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ». قال: وكذلك رواه بشر بن المفضل عن عبد الرحمن. قال: وأخبرنا أبو نصر بن قتادة حدثنا أبو عمرو بن مطر، حدثنا أبو بكر بن أحمد بن داود السمناني، حدثنا معلى بن مهدي، حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه، عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا شَهِدْتُ حِلْفاً لِقُرَيْشٍ إلاَّ حِلْفَ المُطَيِّبِينَ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ وَأَنِّي كُنْتُ نَقَضْتُهُ» قال: والمطيبون هاشم، وأمية، وزهرة، ومخزوم قال البيهقي: كذا رُوِي هذا التفسير مدرجاً في الحديث ولا أدري قائله، وزعم بعض أهل السير أنه أراد حلف الفضول فإن النبي ﷺ لم يدرك حلف المطيبين.

قلت: هذا لا شك فيه، وذلك أن قريشاً تحالفوا بعد موت قصي، وتنازعوا في الذي كان جعله قصي لابنه عبد الدار من السقاية، والرفادة، واللواء، والندوة، والحجابة، ونازعهم فيه بنو عبد مناف وقامت مع كل طائفة قبائل من قريش، وتحالفوا على النصرة لحزبهم، فأحضر أصحاب بني عبد مناف جفنة فيها طيب، فوضعوا أيديهم فيها وتحالفوا. فلما قاموا مسحوا أيديهم بأركان البيت. فسموا المطيبين كما تقدم. وكان هذا قديماً، ولكن المراد بهذا الحلف حلف الفضول، وكان في دار عبد الله بن جدعان، كما رواه الحميدي عن سفيان بن عيينة عن عبد الله، عن محمد وعبد الرحمن ابني أبي بكر، قالا: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَدْعَانَ حِلْفاً لَوْ دُعِيتُ بِهِ فِي الإِسْلاَمِ لأَجَبْتُ، تَحَالَفُوا أَنْ يَرُدُّوا الفُضُولَ عَلَى أَهْلِهَا وَأَلاَّ يُعِدَّ ظَالِمٌ مَظْلُوماً» قالوا: وكان حلف الفضول قبل المبعث بعشرين سنة في شهر ذي القعدة، وكان بعد حرب الفِجَار بأربعة أشهر. وذلك لأن الفِجَار كان في شعبان من هذه السنة، وكان حلف الفضول أكرم حلف سمع به وأشرفه في العرب، وكان أول من تكلّم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب وكان سببه أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف عبد الدار ومخزوماً وجمحاً وسهماً وعدي بن كعب فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل وزبروه ـ أي انتهروه ـ فلما رأى الزبيدي الشر أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشمس ـ وقريش في أنديتهم حول الكعبة ـ فنادى بأعلى صوته: [البسيط]

يَا آلَ فِهْرٍ لِمَظْلُومٍ بِضَاعَتُهُ ... بِبَطْنِ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفَرِ
وَمُحْرِمٍ أَشْعَثٍ لَمْ يَقْضِ عُمْرَتَهُ ... يَا لَلرِّجَالِ وَبَيْنَ الحِجْرِ والحَجَرِ
إِنَّ الحَرَامَ لِمَنْ تَمَّتْ كَرَامَتُهُ ... وَلاَ حَرَامَ لِثَوْبِ الفَاجِرِ الغَدِرِ

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال: ما لهذا مترك فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان، فصنع لهم طعاماً، وتحالفوا في ذي القعدة في شهر حرام، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكوننّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي

إليه حقه ما بلّ بحر صوفة. وما رسا ثبير وحراء مكانهما. وعلى التأسي في المعاش. فسمّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، وقالوا لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر. ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه. وقال الزبير بن عبد المطلب في ذلك: [الوافر]

حَلَفْتُ لَنَعْقِدَنْ حِلْفاً عَلَيْهِمْ ... وَإِنْ كُنَّا جَمِيعاً أَهْلَ دَارِ
نُسَمِّيهِ الفُضُولَ إِذَا عَقَدْنَا ... يُعَزُّ بِهِ الغَرِيبُ لِذِي الجِوَارِ
وَيَعْلَمُ مِنْ حَوَالِي البَيْتِ أَنَّا ... أُبَاةُ الضَّيْمِ نَمْنَعُ كُلَّ عَارِ

وقال الزبير أيضاً: [الكامل]

إِنَّ الفُضُولَ تَعَاقَدُوا وَتَحَالَفُوا ... أَلاَّ يُقِيمَ بِبَطْنِ مَكَّةَ ظَالِمُ
أَمْرٌ عَلَيْهِ تَعَاقَدُوا وَتَوَاثَقُوا ... فَالْجَارُ وَالْمُعْتَرُ فِيهِمْ سَالِمُ

وذكر قاسم بن ثابت ـ في غريب الحديث ـ: أن رجلاً من خثعم قدم مكة حاجاً ـ أو معتمراً ـ ومعه ابنة له يقال لها القتول من أوضأ نساء العالمين، فاغتصبها منه نبيه بن الحجّاج وغيبها عنه. فقال الخثعمي: من يعديني على هذا الرجل؟ فقيل له عليك بحلف الفضول. فوقف عند الكعبة ونادى يا آل حلف الفضول: فإذا هم يعنقون إليه من كل جانب، وقد انتضوا أسيافهم يقولون: جاءك الغوث فما لك؟ فقال إن نبيهاً ظلمني في بنتي وانتزعها مني قسراً، فساروا معه حتى وقفوا على باب داره، فخرج إليهم فقالوا له أخرج الجارية ويحك فقد علمت من نحن وما تعاقدنا عليه، فقال أفعل، ولكن متّعوني بها الليلة، فقالوا لا والله ولا شخب لقحة فأخرجها إليهم وهو يقول: [الخفيف]

رَاحَ صَحْبِي وَلَمْ أُحَيِّ القَتُولاَ ... لَمْ أُوَدِّعْهُمُ وَدَاعاً جَمِيلا
إِذْ أَجَدَّ الفُضُولُ أَنْ يَمْنَعُوهَا ... قَدْ أَرَانِي لاَ أَخَافُ الفُضُولاَ
لاَ تَخَالِي أَنِّي عَشِيَّةَ رَاحَ الرَّكْـ ... ـبُ هُنْتُمْ عَلَيَّ أَنْ لاَ تَزُولاَ

وذكر أبياتاً أخر غير هذه. وقد قيل: إنما سمي هذا حلف الفضول لأنه أشبه حلفاً تحالفته جرهم على مثل هذا من نصر المظلوم على ظالمه. وكان الداعي إليه ثلاثة من أشرافهم اسم كل واحد منهم فضل: وهم الفضل بن فضالة، والفضل بن وداعة، والفضل بن الحارث. هذا قول ابن قتيبة، وقال غيره هم: الفضل بن شراعة، والفضل بن قضاعة، والفضل بن وداعة وقد أورد السهيلي هذا رحمه الله.

قال محمد بن إسحاق بن يسار: وتداعت قبائل من قريش إلى حلف فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنّه. وكان حلفهم عنده بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو أسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة. فتعاهدوا وتعاقدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلاّ كانوا معه، وكانوا على من ظلمه حتى يردّ عليه مظلمته، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول.

قال محمد بن إسحاق: فحدّثني محمد بن زيد بن المهاجر قنفذ التيمي أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري يقول قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَدْعَانَ حِلْفاً مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ وَلَوْ دُعِيَ بِهِ فِي الإِسْلامِ لأَجَبْتُ».

قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد الليثي أن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي حدثه أنه كان بين الحسين بن علي بن أبي طالب وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ـ والوليد يومئذ أمير المدينة، أمّره عليها عمه معاوية أبي بن سفيان ـ منازعة في مال كان بينهما بذي المروة فكان الوليد تحامل على الحسين في حقّه لسلطانه، فقال له الحسين: أحلف بالله لتنصفني من حقي أو لآخذن سيفي، ثم لأقومن في مسجد رسول الله ﷺ، ثم لأدعون بحلف الفضول قال فقال عبد الله بن الزبير ـ وهو عند الوليد حين قال له الحسين ما قال ـ وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقّه أو نموت جميعاً. قال: وبلغت المسوّر بن مخرمة بن نوفل الزهري فقال مثل ذلك. وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال: مثل ذلك. فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقّه حتى رضي.

تزويجه عليه الصلاة والسلام خديجة بنت خويلد

قال ابن إسحاق: وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال على مالها مضاربة[1]. فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج لها في مال تاجراً إلى الشام، وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التجّار. مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله رسولُ الله ﷺ منها وخرج في مالها ذاك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى نزل الشام، فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان، فاطلع الراهب إلى ميسرة. فقال: من هذا الرجل الذي نزل تحت الشجرة؟ فقال ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلاّ نبي ثم باع رسول الله ﷺ سلعته ـ يعني تجارته ـ التي خرج بها واشترى ما أراد أن يشتري. ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة، فكان ميسرة ـ فيما يزعمون ـ إذا كانت الهاجرة واشتد الحر، يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره، فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعف أو قريباً، وحدثها ميسرة عن قول الراهب وعما كان يرى من إظلال الملائكة إياه، وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة مع ما أراد الله بها من كرامتها. فلما أخبرها ميسرة ما أخبرها بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له ـ فيما يزعمون ـ يا ابن عم أني قد رغبت فيك لقرابتك وَسِطَتِكَ في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك، ثم عرضت نفسها عليه، وكانت أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالاً. كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر

---

(١) المضاربة: المقارضة حيث كانت خديجة تقارضهم مالها في تجارتهم بشيء تجعل لهم منه.

عليه، فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه عمّه حمزة حتى دخل على خويلد بن أسد، فخطبها إليه فتزوجها عليه الصلاة والسلام.

قال ابن هشام: فأصدقها عشرين بَكْرة، وكانت أول امرأة تزوجها، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت.

قال ابن إسحاق: فولدت لرسول الله ﷺ ولده كلّهم إلاّ إبراهيم: القاسم وكان به يكنى، والطيب والطاهر، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة.

قال ابن هشام: أكبرهم القاسم، ثم الطيب، ثم الطاهر. وأكبر بناته رقية، ثم زينب ـ ثم أم كلثوم، ثم فاطمة.

قال البيهقي عن الحاكم: قرأت بخط أبي بكر بن أبي خيثمة، حدّثنا مصعب بن عبد الله الزبيري قال أكبر ولده عليه الصلاة والسلام القاسم، ثم زينب، ثم عبد الله، ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية. وكان أول من مات من ولده القاسم، ثم عبد الله. وبلغت خديجة خمساً وستين سنة، ويقال خمسين وهو أصح. وقال غيره. بلغ القاسم أن يركب الدابة والنجيبة ثم مات بعد النبوة، وقيل مات وهو رضيع فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ لَهُ مُرْضَعاً في الجَنَّةِ يَسْتَكْمِلُ رَضَاعَهُ» والمعروف أن هذا في حق إبراهيم.

وقال يونس بن بكير: حدثنا إبراهيم بن عثمان عن القاسم، عن ابن عباس قال: ولدت خديجة لرسول الله ﷺ غلامين وأربع نسوة: القاسم، وعبد الله، وفاطمة، وأم كلثوم، وزينب، ورقية. وقال الزبير بن بكار: عبد الله هو الطيب وهو الطاهر، سمي بذلك لأنه ولد بعد النبوة فماتوا قبل البعثة. وأما بناته فأدركن البعثة، ودخلن في الإسلام، وهاجرن معه ﷺ قال ابن هشام: وأما إبراهيم فمن مارية القبطية التي أهداها له المقوقس صاحب إسكندرية من كورة أنصنا وسنتكلم على أزواجه وأولاده عليه الصلاة والسلام في باب مفرد لذلك في آخر السيرة إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

قال ابن هشام: وكان عمر رسول الله ﷺ حين تزوج خديجة خمساً وعشرين سنة فيما حدثني غير واحد من أهل العلم، منهم أبو عمرو المدني. وقال يعقوب بن سفيان كتبت عن إبراهيم بن المنذر حدثني عمر بن أبي بكر المؤملي حدثني غير واحد أن عمرو بن أسد زوّج خديجة من رسول الله ﷺ وعمره خمساً وعشرين سنة، وقريش تبني الكعبة وهكذا نقل البيهقي عن الحاكم أنه كان عمر رسول الله ﷺ حين تزوج خديجة خمساً وعشرين سنة، وكان عمرها إذ ذاك خمساً وثلاثين ـ وقيل خمساً وعشرين سنة. وقال البيهقي:

باب ما كان يشتغل به رسول الله ﷺ قبل أن يتزوج خديجة

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو بكر بن عبد الله، أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا عمرو بن أبي يحيى بن سعيد القرشي، عن جده سعيد، عن أبي هريرة. قال قال رسول الله ﷺ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيّاً إلاّ رَاعِيَ غَنَمٍ» فقال له أصحابه وأنت

يا رسول الله؟ قال: «وَأَنَا رَعَيْتُهَا لأَهْلِ مَكَّةَ بِالْقَرَارِيطِ»[1] رواه البخاري عن أحمد بن محمد المكي، عن عمرو بن يحيى به. ثم روى البيهقي من طريق الربيع بن بدر ـ وهو ضعيف ـ عن أبي الزبير عن جابر. قال قال رسول الله ﷺ: «آجَرْتُ نَفْسِي مِنْ خَدِيجَةَ سَفْرَتَيْنِ بِقَلُوصٍ»[2] وروى البيهقي من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد، عن عمار بن أبي عمار، عن ابن عباس، أن أبا خديجة زوّج رسول الله ﷺ وهو ـ أظنه ـ قال سكران. ثم قال البيهقي: أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان، أنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يعقوب بن سفيان، قال: حدثني إبراهيم بن المنذر، حدثني عمر بن أبي بكر المؤملي حدثني عبد الله بن أبي عبيد بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه عن مقسم بن أبي القاسم مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل، أن عبد الله بن الحارث حدّثه أن عمار بن ياسر كان إذا سمع ما يتحدث به الناس عن تزويج رسول الله ﷺ خديجة وما يكثرون فيه يقول: أنا أعلم الناس بتزويجه إياها، إني كنت له تِرباً[3]، وكنت له إلفاً وخدناً[4]. وإني خرجت مع رسول الله ﷺ ذات يوم حتى إذا كنا بالحزورة أجزنا على أخت خديجة وهي جالسة على أدم تبيعها، فنادتني فانصرفت إليها ووقف لي رسول الله ﷺ. فقالت: أما بصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة؟ قال عمار: فرجعت إليه فأخبرته فقال: «بَلَى لَعَمْرِي» فذكرت لها قول رسول الله ﷺ: فقالت: اغدوا علينا إذا أصبحنا، فغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا أبا خديجة حلّة، وصفّرت لحيته، وكلّمت أخاها فكلّم أباه، وقد سقي خمراً فذكر له رسول الله ﷺ ومكانه وسألته أن يزوّجه فزوجه خديجة، وصنعوا من البقرة طعاماً فأكلنا منه، ونام أبوها ثم استيقظ صاحياً. فقال: ما هذه الحلّة وما هذه الصفرة وهذا الطعام، فقالت له ابنته التي كانت قد كلّمت عماراً: هذه حلّة كساكها محمد بن عبد الله ختنك، وبقرة أهداها لك، فذبحناها حين زوّجته خديجة، فأنكر أن يكون زوّجه، وخرج يصيح حتى جاء الحجر، وخرج بنو هاشم برسول الله ﷺ فجاؤوه فكلّموه. فقال أين صاحبكم الذي تزعمون أني زوّجته خديجة؟ فبرز له رسول الله ﷺ فلما نظر إليه قال: إن كنت زوّجته فسبيل ذاك، وإن لم أكن فعلت فقد زوّجته.

وقد ذكر الزهري في سيره أن أباها زوّجها منه وهو سكران، وذكر نحو ما تقدم حكاه السهيلي. قال المؤملي: المجتمع عليه أن عمها عمرو بن أسد هو الذي زوجها منه، وهذا هو الذي رجّحه السهيلي. وحكاه عن ابن عباس وعائشة قالت: وكان خويلد مات قبل الفجار، وهو الذي نازع تبعاً حين أراد أخذ الحجر الأسود إلى اليمن، فقام في ذلك خويلد وقام معه جماعة من قريش ثم رأى تبع في منامه ما روّعه، فنزع عن ذلك وترك الحجر الأسود مكانه.

(١) أخرجه البخاري في الإجارة باب ٢. (٢) القلوص: النوق.

(٣) الترب: من ولد معك وهو الصديق من نفس العمر.

(٤) الخدن: الصاحب.

وذكر ابن إسحاق: في آخر السيرة أن أخاها عمرو بن خويلد هو الذي زوّجها رسول الله ﷺ فالله أعلم.

فصل

قال ابن إسحاق: وقد كانت خديجة بنت خويلد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ـ وكان ابن عمّها وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس ما ذكر لها غلامها من قول الراهب، وما كان يرى منه إذ كان المَلَكَان يظلاّنه ـ فقال ورقة: لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً لنبي هذه الأمة، قد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبيّ ينتظر هذا زمانه ـ أو كما قال ـ فجعل ورقة يستبطىء الأمر، ويقول حتى متى؟ وقال في ذلك: [الوافر]

لَجِجْتُ وكُنْتُ فِي الذِّكْرَى لَجُوجاً ... لِهَمّ طَالَمَا بَعَثَ النَّشِيجَا[1]
وَوَصْفٍ مِنْ خَدِيجَةَ بَعْدَ وَصْفٍ ... فَقَدْ طَالَ انْتِظَارِي يَا خَدِيجَا
بِبَطْنِ المَكَّتَيْنِ[2] عَلَى رَجَائِي ... حَدِيثَكِ أَنْ أَرَى مِنْهُ خُرُوجَا
بِمَا خَبَّرْتِنَا مِنْ قَوْلِ قَسّ ... مِنَ الرُّهْبَانِ أَكْرَهُ أَنْ يَعُوجَا
بِأَنَّ مُحَمَّداً سَيَسُودُ قَوْماً ... وَيَخْصِمُ مَنْ يَكُونُ لَهُ حَجِيجَا
وَيَظْهَرُ فِي البِلاَدِ ضِيَاءُ نُورٍ ... يَقُومُ بِهِ البَرِيَّةَ أَنْ تَمُوجَا
فَيَلْقَى مَنْ يُحَارِبُهُ خَسَاراً ... وَيَلْقَى مَنْ يُسَالِمُهُ فُلُوجَا[3]
فَيَا لَيْتِي إِذَا مَا كَانَ ذَاكُمْ ... شُهِدْتُ وَكُنْتُ أَوَّلَهُم وُلُوجَا
وُلُوجاً فِي الَّذِي كَرِهَتْ قُرَيْشٌ ... وَلَوْ عَجَّتْ بِمَكَّتِهَا عَجِيجَا
أُرَجِّي بِالَّذِي كَرِهُوا جَمِيعاً ... إِلَى ذِي العَرْشِ إِنْ سَفَلُوا عُرُوجَا[4]
وَهَلْ أَمْرُ السَّفَالَةِ غَيْرُ كُفْرٍ ... بِمَنْ يَخْتَارُ مَنْ سَمَكَ البُرُوجَا
فَإِنْ يَبْقَوْا وَأَبْقَ يَكُنْ أُمُورٌ ... يَضِجُّ الكَافِرُونَ لَهَا ضَجِيجَا
وَإِنْ أَهْلِكْ فَكُلُّ فَتًى سَيَلْقَى ... مِنَ الأَقْدَارِ مُتْلِفَةً[5] خُرُوجَا

وقال ورقة أيضا فيما رواه يونس بن بكير عن ابن إسحاق عنه: [الطويل]

أَتُبْكِرُ أَمْ أَنْتَ العَشِيَّةَ رَائِحُ ... وَفِي الصَّدْرِ مِنْ إِضْمَارِكَ الحُزْنَ قَادِحُ؟

(١) النشيج: البكاء مع صوت.
(٢) المكتان: ثنى مكة وهي واحد لأن لها بطاحاً وظواهر. وهكذا كثير عند العرب في أشعارهم.
(٣) الفلوج: الظفر والفوز.
(٤) العروج: الصعود والعلو.
(٥) المتلفة: المهلكة.

لِـفُـرْقَـةِ قَـوْمٍ لاَ أُحِـبُّ فِـرَاقَـهُـمْ كَـأَنَّـكَ عَـنْـهُـمْ بَـعْـدَ يَـوْمَـيْـنِ نَـازِحُ
وَأَخْـبَـارِ صِـدْقٍ خَـبَّـرَتْ عَـنْ مُـحَـمَّـدٍ يُـخَـبِّـرُهَـا عَـنْـهُ إِذَا غَـابَ نَـاصِـحُ
أَتَـاكِ الَّـذِي وَجَّـهْـتِ يَـا خَـيْـرَ حُـرَّةٍ بِغَوْرٍ بِالنَّجْدَيْنِ حَيْثُ الصَّحَاصِحُ[1]
إِلَى سُوقِ بُصْرَى فِي الرِّكَابِ الَّتِي غَدَتْ وَهُـنَّ مِـنَ الأَحْـمَـالِ قُـعْـصٌ دَوَالِـحُ[2]
فَـيُـخْـبِـرُنَـا عَـنْ كُـلِّ خَـيْـرٍ بِـعِـلْـمِـهِ وَلِـلْـحَـقِّ أَبْـوَابٌ لَـهُـنَّ مَـفَـاتِـحُ
بِـأَنَّ ابْـنَ عَـبْـدِ الـلَّـهِ أَحْـمَـدَ مُـرْسَـلٌ إِلَـى كُـلِّ مَـنْ ضَـمَّـتْ عَـلَـيْـهِ الأَبَـاطِـحُ
وَظَـنِّـي بِـهِ أَنْ سَـوْفَ يُـبْـعَـثُ صَـادِقـاً كَـمَـا أُرْسِـلَ الـعَـبْـدَانِ هُـودٌ وَصَـالِـحُ
وَمُـوسَـى وإِبْـرَاهِـيـمُ حَـتَّـى يُـرَى لَـهُ بَـهَـاءٌ وَمَـنْـشُـورٌ مِـنَ الـذِّكْـرِ وَاضِـحُ
وَيَـتْـبَـعُـهُ حَـيَّـا لُـؤَيٍّ وَغَـالِـبِ شَـبَـابُـهُـمُ وَالأَشْـيَـبُـونَ الـجَـحَـاجِـحُ[3]
فَـإِنْ أَبْـقَ حَـتَّـى يُـدْرِكَ الـنَّـاسُ دَهْـرَهُ فَـإِنِّـي بِـهِ مُـسْـتَـبْـشِـرُ الـوُدِّ فَـارِحُ
وَإِلاَّ فَـإِنِّـي يَـا خَـدِيـجَـةُ فَـاعْـلَـمِـي عَنْ أَرْضِكِ فِي الأَرْضِ العَرِيضَةِ سَائِحُ

وزاد الأَمَوي: [الطويل]

فَـمُـتَّـبِـعٌ دِيـنَ الَّـذِي أَسَّـسَ الـبِـنَـا وَكَـانَ لَـهُ فَـضْـلٌ عَـلَـى الـنَّـاسِ رَاجِـحُ
وَأَسَّـسَ بُـنْـيَـانـاً بِـمَـكَّـةَ ثَـابِـتـاً تَـلأْلأُ فِـيـهِ بِـالـظَّـلاَمِ الـمَـصَـابِـحُ
مَـثَـابـاً لأَفْـنَـاءِ الـقَـبَـائِـلِ كُـلِّـهَـا تَـخُـبُّ إِلَـيْـهِ الـيَـعْـمُـلاَتُ الـطَّـلاَئِـحُ
حَرَاجِيجُ[4] أَمْثَالُ القِدَاحِ مِنَ السُّرَى يُـعَـلَّـقُ فِـي أَرْسَـاغِـهِـنَّ الـسَّـرَايِـحُ

ومن شعره فيما أورده أبو القاسم السُّهيلي في روضه: [البسيط]

لَـقَـدْ نَـصَـحْـتُ لأَقْـوَامٍ وَقُـلْـتُ لَـهُـمْ أَنَـا الـنَّـذِيـرُ فَـلاَ يَـغْـرُرْكُـمُ أَحَـدُ
لاَ تَـعْـبُـدُنَّ إِلـهـاً غَـيْـرَ خَـالِـقِـكُـمْ فَإِنْ دَعَوْكُمْ فَقُولُوا بَيْنَنَا حَدَدُ[5]
سُبْحَانَ ذِي العَرْشِ سُبْحَاناً يَدُوم لَهُ وَقَـبْـلَـنَـا سَـبَّـحَ الـجُـودِيُّ وَالـجَـمَـدُ
مُـسَـخَّـرٌ كُـلُّ مَـا تَـحْـتَ الـسَّـمَـاءِ لَـهُ لاَ يَـنْـبَـغِـي أَنْ يُـنَـاوِي مُـلْـكَـهُ أَحَـدُ
لاَ شَـيْءَ مِـمَّـا نَـرَى تَـبْـقَـى بَـشَـاشَـتُـهُ يَـبْـقَـى الإِلَـهُ وَيُـودِي الـمَـالُ وَالـوَلَـدُ
لَـمْ تُـغْـنِ عَـنْ هُـرْمُـزٍ يَـوْمـاً خَـزَائِـنُـهُ وَالـخُـلْـدَ قَـدْ حَـاوَلَـتْ عَـادٌ فَـمَـا خَـلَـدُوا
وَلاَ سُـلَـيْـمَـانَ إِذْ تَـجْـرِي الـرِّيَـاحُ بِـهِ وَالـجِـنُّ وَالإِنْـسُ فِـيـمَـا بَـيْـنَـهَـا مَـرَدُ

---

(١) الصحاصح: ج صحصح وهو ما استوى من الأرض وجرد أي لا شجر فيها ولا ماء.
(٢) الدلح: أن يمشي البعير بالحمل وقد أثقله.
(٣) الجحاجح: السيد السمح الكريم.
(٤) الحراجيج: جمع حرجيج، وهي الناقة الطويلة.
(٥) حدد: المنع.

أَيْـنَ الـمُـلُـوكُ الَّـتِـي كَـانَـتْ لِـعِـزَّتِـهَـا ... مِـنْ كُـلِّ أَوْبٍ إِلَـيْـهَـا وَافِـدٌ يَـفِـدُ

حَـوْضٌ هُـنَـالِـكَ مَـوْرُودٌ بِـلاَ كَـذِبٍ ... لاَ بُـدَّ مِـنْ وِرْدِهِ يَـوْمـاً كَـمَـا وَرَدُوا

ثم قال هكذا نسبه أبو الفرج إلى ورقة، قال وفيه أبيات تنسب إلى أمية بن أبي الصلت.

قلت: وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يستشهد في بعض الأحيان بشيء من هذه الأبيات والله أعلم.

في تجديد قريش بناء الكعبة قبل المبعث بخمس سنين

ذكر البيهقي بناء الكعبة قبل تزويجه عليه الصلاة والسلام خديجة. والمشهور أن بناء قريش الكعبة بعد تزويج خديجة كما ذكرناه بعشر سنين. ثم شرع البيهقي في ذكر بناء الكعبة في زمن إبراهيم كما قدمناه في قصّته، وأورد حديث ابن عبّاس المتقدم في صحيح البُخاري وذكر ما ورد من الإسرائيليات في بنائه في زمن آدم ولا يصح ذلك، فإن ظاهر القرآن يقتضي أن إبراهيم أول من بناه مبتدئاً، وأول من أسسه، وكانت بقعته معظّمة قبل ذلك، معتنى بها مشرّفة في سائر الأعصار والأوقات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَاتٌۢ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧] وثبت في الصحيحين عن أبي ذر قال قلت يا رسول الله: أي مسجد وضع أول؟ قال: «المَسْجِدُ الحَرَامُ» قلت ثم أي؟ قال: «المَسْجِدُ الأَقْصَى» قلت: كم بينهما؟ قال: «أَرْبَعُونَ سَنَةً»[1] وقد تكلّمنا على هذا فيما تقدم، وإن المسجد الأقصى أسسه إسرائيل، وهو يعقوب عليه السلام. وفي الصحيحين «أَنَّ هَذَا البَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[2].

وقال البيهقي أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو عبد الله الصفّار، حدثنا احمد بن مهران، حدثنا عبيد الله، حدثنا إسرائيل عن أبي يحيى، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو. قال: كان البيت قبل الأرض بألفي سنة، ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾ [الانشقاق: ٣] قال من تحته مدّت. قال وقد تابعه منصور عن مجاهد.

قلت: وهذا غريب جداً وكأنه من الزاملتين اللتين أصابهما عبد الله بن عمرو ويوم اليرموك، وكان فيهما إسرائيليات يحدّث منها، وفيهما منكرات وغرائب.

ثم قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو جعفر محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله البغدادي، حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح، حدّثنا أبو صالح الجهني، حدثني ابن لهيعة عن يزيد بن أبي الخير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص. قال:

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ١٠، ومسلم في المساجد حديث ١، وأحمد في المسند ٥/ ١٥٠.

(٢) أخرجه البخاري في جزاء الصيد باب ١٠، ومسلم في الحج حديث ٤٤٥.

قال رسول الله ﷺ: «بَعَثَ اللَّهُ جِبْرِيلَ إِلَى آدَمَ وَحَوَّاءَ فَقَالَ لَهُمَا ابْنِيَا لِي بَيْتاً، فَخَطَّ لَهُمَا جِبْرِيلُ فَجَعَلَ آدَمُ يَحْفِرُ وَحَوَّاءُ تَنْقُلُ، حَتَّى أَجَابَهُ المَاءُ نُودِيَ مِنْ تَحْتِهِ حَسْبُكَ يَا آدَمُ، فَلَمَّا بَنَيَا أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِ وَقِيلَ لَهُ أَنْتَ أَوَّلُ النَّاسِ، وَهَذَا أَوَّلُ بَيْتٍ، ثُمَّ تَنَاسَخَتِ القُرُونُ حَتَّى حَجَّهُ نُوحٌ، ثُمَّ تَنَاسَخَتِ القُرُونُ حَتَّى رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنْهُ»

قال البيهقي: تفرد به ابن لهيعة هكذا مرفوعاً.

قلت: وهو ضعيف، ووقفه على عبد الله بن عمرو أقوى وأثبت والله أعلم.

وقال الربيع: أنبأنا الشافعي، أنبأنا سفيان عن ابن أبي لبيد، عن محمد بن كعب القرظي ـ أو غيره ـ قال: حجّ آدم فلقيته الملائكة فقالوا بر نسكك يا آدم، لقد حججنا قبلك بألفي عام. وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق حدثني بقية ـ أو قال ثقة ـ من أهل المدينة عن عروة بن الزبير أنه قال: ما من نبي إلا وقد حجّ البيت إلا ما كان من هود وصالح.

قلت: وقد قدمنا حجّهما اليه. والمقصود الحج إلى محلّه وبقعته، وإن لم يكن ثمّ بناء والله أعلم. ثم أورد البيهقي حديث ابن عباس المتقدم في قصة إبراهيم عليه السلام بطوله وتمامه، وهو في صحيح البخاري. ثم روى البيهقي من حديث سمّاك بن حرب عن خالد بن عرعرة قال: سأل رجل علياً عن قوله تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ أهو أول بيت بني في الأرض؟ قال لا ولكنه أول بيت وضع فيه البركة للناس والهدى، ومقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً. وإن شئت نبأتك كيف بناؤه. إن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم أن ابنِ لي بيتاً في الأرض، فضاق به ذرعاً، فارسل إليه السكينة وهي ريح خجوج لها رأس فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت، ثم تطوقت في موضع البيت تطوق الحيّة، فبنى ابراهيم حتى بلغ مكان الحجر، قال لابنه أبغني حجراً فالتمس حجراً حتى أتاه به، فوجد الحجر الأسود قد ركب فقال لأبيه من أين لك هذا؟ قال جاء به من لا يتكّل على بنائك، جاء به جبريل من السماء فأتمه. قال فمر عليه الدهر فانهدم فبنته العمالقة، ثم انهدم فبنته جرهم، ثم انهدم فبنته قريش ورسول الله ﷺ يومئذ رجل شاب. فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود اختصموا فيه، فقالوا: نحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة، فكان رسول الله ﷺ أول من خرج عليهم، فقضى بينهم أن يجعلوه في مرط[1] ثم ترفعه جميع القبائل كلّهم.

وقال أبو داود الطيالسي: حدّثنا حمّاد بن سلمة وقيس وسلام كلّهم عن سماك بن حرب، عن خالد بن عرعرة، عن علي بن أبي طالب. قال: لما انهدم البيت بعد جرهم بنته قريش، فلما أرادوا وضع الحجر تشاجروا من يضعه فاتفقوا أن يضعه أول من يدخل من هذا الباب، فدخل رسول الله ﷺ من باب بني شيبة، فأمر بثوب فوضع الحجر في وسطه وأمر كل فخذ أن يأخذوا بطائفة من الثوب، فرفعوه وأخذه رسول الله ﷺ فوضعه، قال

(١) المرط: الثوب.

يعقوب بن سفيان: أخبرني أصبغ بن فرج، أخبرني ابن وهب عن يونس، عن ابن شهاب قال: لما بلغ رسول الله ﷺ الحلم جمّرت امرأة الكعبة، فطارت شرارة من مجمرها في ثياب الكعبة، فاحترقت فهدموها حتى إذا بنوها فبلغوا موضع الركن اختصمت قريش في الركن أي القبائل تلي رفعه. فقالوا: تعالوا نحكّم أول من يطلع علينا، فطلع عليهم رسول الله ﷺ وهو غلام عليه وشاح نمرة، فحكّموه فأمر بالركن فوضع في ثوب، ثم أخرج سيّد كل قبيلة فأعطاه ناحية من الثوب، ثم ارتقى هو، فرفعوا إليه الركن فكان هو يضعه فكان لا يزداد على السن الأرضي حتى دعوه الأمين قبل أن ينزل عليه الوحي، فطفقوا لا ينحرون جزوراً إلاّ التمسوه، فيدعو لهم فيها وهذا سياق حسن، وهو من سير الزهري، وفيه من الغرابة قوله: فلما بلغ الحلم. والمشهور أن هذا كان ورسول الله ﷺ عمره خمس وثلاثون سنة، وهو الذي نصّ عليه محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله.

وقال موسى بن عقبة: كان بناء الكعبة قبل المبعث بخمس عشرة سنة. وهكذا قال مجاهد، وعروة، ومحمد بن جبير بن مطعم، وغيرهم. فالله أعلم.

وقال موسى بن عقبة: كان بين الفِجَار وبين بناء الكعبة خمس عشرة سنة.

قلت: وكان الفِجّار وحلف الفضول في سنة واحدةً اذا كان عمر رسول الله ﷺ عشرون سنة. وهذا يؤيد ما قال محمد بن إسحاق والله أعلم.

قال موسى بن عقبة: وإنما حمل قريشاً على بنائها أنّ السيول كانت تأتي من فوقها، من فوق الردم الذي صفوه فخرّبه، فخافوا أن يدخلها الماء. وكان رجل يقال له مليح سرق طيب الكعبة. فأرادوا أن يشيدوا بنيانها، وأن يرفعوا بابها حتى لا يدخلها إلاّ من شاؤوا، فأعدوا لذلك نفقة وعمّالا. ثم غدوا إليها ليهدموها على شفق وحذر أن يمنعهم الذي أرادوا. فكان أوّل رجل طلعها وهدم منها شيئاً الوليد بن المغيرة، فلما رأوا الذي فعل الوليد تتابعوا فوضعوها فأعجبهم ذلك. فلما ارادوا أن يأخذوا في بنيانها أحضروا عمالهم فلم يقدر رجل منهم أن يمضي أمامه موضع قدم، فزعموا أنّهم رأوا حية قد أحاطت بالبيت رأسها عند ذنبها. فأشفقوا منها شفقة شديدة، وخشوا أن يكونوا قد وقعوا مما عملوا في هلكة. وكانت الكعبة حرزهم ومنعتهم من الناس وشرفاً لهم. فلما سقط في أيديهم والتبس عليهم أمرهم، قام فيهم المغيرة بن عبد الله بن مخزوم فذكر ما كان من نصحه لهم وأمره إياهم أن لا يتشاجروا ولا يتحاسدوا في بنائها. وأن يقتسموها أرباعاً. وأن لا يدخلوا في بنائها مالاً حراماً. وذكر أنهم لما عزموا على ذلك ذهبت الحية في السماء وتغيّبت عنهم، ورأوا أن ذلك من الله عزّ وجلّ. قال: ويقول بعض الناس إنه اختطفها طائر وألقاها نحو أجياد.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار: فلما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبناء الكعبة وكانوا يهمّون بذلك ليسقفوها ويهابون هدمها. وإنما كانت رضماً[1] فوق

(١) الرضم: أن تنضد الحجارة بعضها فوق بعض من غير ملاط.

القامة. فأرادوا رفعها وتسقيفها، وذلك أن نفراً سرقوا كنز الكعبة، وإنما كان في بئر في جوف الكعبة. وكان الذي وجد عنده الكنز دويك مولى لبني مليح بن عمرو بن خزاعة. فقطعت قريش يده وتزعم قريش أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك. وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدّة لرجل من تجّار الروم. فتحطّمت. فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها. قال الأموي: كانت هذه السفينة لقيصر ملك الروم تحمل آلات البناء من الرخام والخشب والحديد، سرّحها قيصر مع باقوم الرومي إلى الكنيسة التي أحرقها الفرس للحبشة، فلما بلغت مرساها من جدّة بعث الله عليها ريحاً فحطمتها.

قال ابن إسحاق: وكان بمكة رجل قبطي نجّار فتهيأ لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها. وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كانت تطرح فيها ما يهدى إليها كل يوم. فتشرف على جدار الكعبة وكانت مما يهابون، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزألت[1] وكشت وفتحت فاها، فكانوا يهابونها، فبينما هي يوماً تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع، بعث الله عليها طائراً فاختطفها فذهب بها. فقالت قريش: إنا لنرجو أن يكون الله تعالى قد رضي ما أردنا، عندنا عامل رفيق وعندنا خشب وقد كفانا الله الحية.

وحكى السهيلي: عن رزين أن سارقاً دخل الكعبة في أيام جرهم ليسرق كنزها. فانهار البئر عليه حتى جاؤوا فأخرجوه وأخذوا منه ما كان أخذه، ثم سكنت هذا البئر حية رأسها كرأس الجدي وبطنها أبيض وظهرها أسود فأقامت فيها خمسمائة عام وهي التي ذكرها محمد بن إسحاق.

قال محمد بن إسحاق: فلما أجمعوا أمرهم لهدمها وبنيانها قام أبو وهب عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم ـ وقال ابن هشام عائذ بن عمران بن مخزوم ـ فتناول من الكعبة حجراً، فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه. فقال: يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلاّ طيباً. لا يدخل فيها مهر بغي ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس ـ والناس ينحلون هذا الكلام الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم. ثم رجح ابن إسحاق أن قائل ذلك أبو وهب بن عمرو ـ قال وكان خال أبي النبي ﷺ وكان شريفاً ممدحاً.

وقال ابن إسحاق: ثم إن قريشاً تجزّأت الكعبة. فكان شق[2] الباب لبني عبد مناف وزهرة، وما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم، وقبائل من قريش انضموا إليهم. وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسَهْم. وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي، ولبني أسد بن عبد العزى، ولبني عدي بن كعب، وهو الحطيم. ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه. فقال الوليد بن المغيرة أنا أبدؤكم في هدمها فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول:

---

(١) احزألت: أي اجتمعت تريد الوثوب.

(٢) الشق: الناحية والجانب.

اللهم لم تُرَع[1] اللهم إنا لا نريد إلاّ الخير. ثم هدم من ناحية الركنين فتربّص الناس تلك الليلة، وقالوا: ننظر فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا من هدمها. فأصبح الوليد غادياً على عمله، فهدم وهدم الناس معه - حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس - أساس ابراهيم عليه السلام - أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة أخذ بعضها بعضاً. ووقع في صحيح البخاري عن يزيد بن رومان كأسنمة الإبل[2]. قال السهيلي: وأرى رواية السيرة كالألسنة وهماً والله أعلم.

قال ابن إسحاق: فحدثني بعض من يروي الحديث أن رجلاً من قريش ممن كان يهدمها أدخل عتلة[3] بين حجرين منها ليقلع بها أحدهما، فلما تحرّك الحجر انتفضت مكة بأسرها. فانتهوا عن ذلك الأساس.

وقال موسى بن عقبة: وزعم عبد الله بن عبّاس أن أولية قريش كانوا يحدّثون أن رجلاً من قريش لما اجتمعوا لينزعوا الحجارة إلى تأسيس إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، عمد رجل منهم إلى حجر من الأساس الأول فرفعه وهو لا يدري أنه من الأساس الأول، فأبصر القوم برقة تحت الحجر كادت تلتمع بصر الرجل، ونزا الحجر من يده فوقع في موضعه، وفزع الرجل والبناة. فلما ستر الحجر عنهم ما تحته إلى مكانه عادوا إلى بنيانهم وقالوا لا تحرّكوا هذا الحجر، ولا شيئاً بحذائه.

قال ابن إسحاق: وحُدِّثت أن قريشاً وجدوا في الركن كتاباً بالسريانية فلم يعرفوا ما هو، حتى قرأه لهم رجل من يهود، فإذا هو أنا الله ذو بكة، خلقتها يوم خلقت السماوات والأرض، وصوّرت الشمس والقمر، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها[4] - قال ابن هشام يعني جبلاها - مبارك لأهلها في الماء واللبن.

قال ابن إسحاق: وحدثت أنهم وجدوا في المقام كتاباً فيه: مكّة الله الحرام، يأتيها رزقها من ثلاثة سُبُل، لا يحلها أول من أهلها. قال وزعم ليث بن أبي سليم أنهم وجدوا في الكعبة قبل مبعث النبي ﷺ بأربعين سنة - إن كان ما ذكر حقاً - مكتوباً فيه: من يزرع خيراً يحصد غبطة، ومن يزرع شراً يحصد ندامة. يعملون السيئات ويجزون الحسنات؟ أجل كما يجتني من الشوك العنب.

وقال سعيد بن يحيى الأموي: حدثنا المعتمر بن سليمان الرقي عن عبد الله بن بشر الزهري - يرفع الحديث إلى النبي ﷺ - قال: «وُجِدَ فِي المَقَامِ ثَلاثَةُ أَصْفُحٍ، فِي الصَّفْحِ الأَوَّلِ: إِنِّي أَنَا اللهُ ذُو بَكَّةَ، صَنَعْتُهَا يَوْمَ صَنَعْتُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَحَفَفْتُهَا بِسَبْعَةِ أَمْلاكٍ حُنَفَاءَ،

---

(١) لم ترع: لم تفزع.

(٢) الأسمنة: ج سنام وهو أعلى الظهر واراد أن الحجارة وصل بعضها ببعض كما تدخل عظام السنام بعضها في بعض فشبهها بها.

(٣) عتلة: رافعة.

(٤) الأخشبان: جبلان بمكة.

وَبَارَكْتُ لأَهْلِهَا فِي اللَّحْمِ وَاللَّبَنِ وَفِي الصَّفْحِ الثَّانِي: إِنِّي أَنَا اللَّهُ ذو بَكَّةَ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا مِنَ اسْمِي. فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ، وَفِي الصَّفْحِ الثَّالِثِ: إِنِّي أَنَا اللَّهُ ذُو بَكَّةَ، خَلَقْتُ الخَيْرَ وَالشَّرَّ وَقَدَّرْتُهُ. فَطُوبَى لِمَنْ أَجْرَيْتُ الخَيْرَ عَلَى يَدَيْهِ وَوَيْلٌ لِمَنْ أَجْرَيْتُ الشَّرَّ عَلَى يَدَيْهِ.»

قال ابن إسحاق: ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة. ثم بنوها حتى بلغ البناء موضع الركن، فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى. حتى تحاوروا أو تحالفوا، وأعدوا للقتال فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً. ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة. فسموا لعقة الدم. فمكثت قريش على ذلك أربع ليالي أو خمساً، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا. فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ـ وكان عامئذ أسن قريش كلها قال: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه، ففعلوا فكان أول داخل دخل رسول الله ﷺ. فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد. فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال رسول الله ﷺ: «هَلُمُّوا إِلَيَّ ثَوْباً» فأتي به وأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال «لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ. ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعاً» ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ﷺ. ثم بنى عليه. وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ الأمين.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد حدثنا ثابت ـ يعني أبا يزيد ـ حدثنا هلال يعني ابن حبان عن مجاهد عن مولاه ـ وهو السائب بن عبد الله ـ أنه حدثه كان فيمن بنى الكعبة في الجاهلية قال: وكان لي حجر ـ أنا نحته أعبده من دون الله ـ قال: وكنت أجيء باللبن الخاثر الذي آنفه على نفسي فأصبه عليه فيجيء الكلب فيلحسه، ثم يشغر فيبول عليه، قال: فبنينا حتى بلغنا موضع الحجر ولا يرى الحجر أحد. فإذا هو وسط أحجارنا مثل رأس الرجل يكاد يترايا منه وجه الرجل. فقال بطن من قريش: نحن نضعه وقال آخرون نحن نضعه. فقالوا اجعلوا بينكم حكماً. فقالوا أول رجل يطلع من الفج. فجاء رسول الله ﷺ فقالوا أتاكم الأمين. فقالوا له فوضعه في ثوب. ثم دعا بطونهم فرفعوا نواحيه فوضعه هو ﷺ[1].

قال ابن إسحاق: وكانت الكعبة على عهد النبي ﷺ ثماني عشرة ذراعاً وكانت تكسى القباطي[2]. ثم كسيت بعد البرود[3]. وأول من كساها الديباج[4] الحجّاج بن يوسف.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٤٢٥.

(٢) القباطي: أكسية من قماش تنسب إلى الأقباط أهل مصر.

(٣) البرود: من الثياب اليمنية.

(٤) الديباج: قماش منقوش.

قلت: وقد كانوا أخرجوا منها الحِجر ـ وهو ستة أذرع أو سبعة أذرع من ناحية الشام ـ قصرت بهم النفقة أي لم يتمكنوا أن يبنوه على قواعد إبراهيم. وجعلوا للكعبة باباً واحداً من ناحية الشرق، وجعلوه مرتفعاً لئلا يدخل إليها كل أحد فيدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا، وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها: «أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ قَوْمَكِ قَصُرَتْ بِهِمُ النَّفَقَةُ وَلَوْلاَ حَدَثَانُ قَوْمِكِ بِكُفْرٍ لَنَقَضْتُ الكَعْبَةَ وَجَعَلْتُ لَهَا بَاباً شَرْقِياً وَبَاباً غَرْبِياً، وَأَدْخَلْتُ فِيهَا الحَجَرَ»[1] ولهذا لما تمكن ابن الزبير بناها على ما أشار إليه رسول الله ﷺ وجاءت في غاية البهاء والحسن والسناء كاملة على قواعد الخليل. لها بابان ملتصقان بالأرض شرقياً وغربياً. يدخل الناس من هذا ويخرجون من الآخر. فلما قتل الحجّاج ابن الزبير كتب إلى عبد الملك بن مروان ـ وهو الخليفة يومئذ ـ فيما صنعه ابن الزبير، واعتقدوا أنه فعل ذلك من تلقاء نفسه. فأمر بإعادتها إلى ما كانت عليه، فعمدوا إلى الحائط الشامي فحصروه وأخرجوا منه الحجر ورصوا حجارته في أرض الكعبة. فارتفع بابها وسدوا الغربي واستمر الشرقي على ما كان عليه. فلما كان في زمن المهدي ـ أو ابنه المنصور ـ استشار مالكاً في إعادتها على ما كان صنعه ابن الزبير. فقال مالك رحمه الله: إني أكره أن يتخذها الملوك ملعبة. فتركها على ما هي عليه. فهي إلى الآن كذلك.

وأما المسجد الحرام: فأول من أخر البيوت من حول الكعبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، اشتراها من أهلها وهدمها فلما كان عثمان اشترى دوراً وزادها فيه. فلما ولي ابن الزبير أحكم بنيانه، وحسن جدرانه وأكثر أبوابه. ولم يوسعه شيئاً آخر. فلما استبد بالأمر عبد الملك بن مروان زاد في ارتفاع جدرانه وأمر بالكعبة فكسيت الديباج. وكان الذي تولى ذلك بأمره الحجّاج بن يوسف. وقد ذكرنا قصة بناء البيت والأحاديث الواردة في ذلك في تفسير سورة البقرة عند قوله ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧] وذكرنا ذلك مطولاً مستقصى فمن شاء كتبه ها هنا ولله الحمد والمنة.

قال ابن إسحاق: فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا قال الزبير بن عبد المطلب، فيما كان من أمر الحية التي كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها: [الوافر]

عَجِبْتُ لِمَا تَصَوَّبَتِ العِقَابُ ... إِلَى الثُّعْبَانِ وَهْيَ لَهَا اضْطِرَابُ
وَقَدْ كَانَتْ تَكُونُ لَهَا كَشِيشٌ ... وَأَحْيَاناً يَكُونُ لَهَا وِثَابُ
إِذَا قُمْنَا إِلَى التَّأْسِيسِ شَدَّتْ ... تُهَيِّبُنَا البِنَاءَ وَقَدْ نُهَابُ
فَلَمَّا أَنْ خَشِينَا الزَّجْرَ جَاءَتْ ... عُقَابٌ تَتْلَئِبُّ[2] لَهَا انْصِبَابُ
فَضَمَّتْهَا إِلَيْهَا ثُمَّ خَلَّتْ ... لَنَا البُنْيَانَ لَيْسَ لَهَا حِجَابُ
فَقُمْنَا حَاشِدِينَ إِلَى بِنَاءٍ ... لَنَا مِنْهُ القَوَاعِدُ وَالتُّرَابُ

(١) أخرجه البخاري في الحج باب ٤٢، ومسلم في الحج حديث ٤٠١، وأحمد في المسند ٦/ ٢٣٩.

(٢) تتلئب: تسرع.

غَـدَاةَ يَـرْفَـعِ الـتَّـأْسِيـسُ مِـنْـهُ وَلَـيْـسَ عَـلَـى مَـسَـاوِيـنَـا ثِـيَـابُ
أَعَـزَّ بِـهِ الـمَـلِـيـكُ بَـنِـي لُـؤَيٍّ فَـلَـيْـسَ لأَصْـلِـهِ مِـنْـهُـمْ ذَهَـابُ
وَقَـدْ حَـشَـدَتْ هُـنَـاكَ بَـنُـو عَـدِيٍّ وَمُـرَّةُ قَـدْ تَـقَـدَّمَـهَـا كِـلاَبُ
فَـبَـوَّأَنَـا(١) الـمَـلِـيـكُ بِـذَاكَ عِـزاً وَعِـنْـدَ الـلَّـهِ يُـلْـتَـمَـسُ الـثَّـوَابُ

وقد قدمنا في فصل ما كان الله يحوط به رسول ﷺ من أقذار الجاهلية، أنه كان هو والعباس عمه ينقلان الحجارة، وأنه عليه الصلاة والسلام لما وضع إزاره تحت الحجارة على كتفه نهي عن خلع إزاره فأعاده إلى سيرته الأولى.

فصل

وذكر ابن إسحاق ما كانت قريش ابتدعوه في تسميتهم الحمس، وهو الشدّة في الدين والصلابة. وذلك لأنهم عظموا الحرم تعظيماً زائداً بحيث التزموا بسببه أن لا يخرجوا منه ليلة عرفة. وكانوا يقولون نحن أبناء الحرم وقطان بيت الله. فكانوا لا يقفون بعرفات مع علمهم أنها من مشاعر إبراهيم عليه السلام، حتى لا يخرجوا عن نظام ما كانوا قرّروه من البدعة الفاسدة. وكانوا لا يدخرون من اللبن أقِطاً ولا سمناً ولا يسلون شحماً وهم حرم. ولا يدخلون بيتاً من شعر ولا يستظلون إن استظلوا إلاّ بيت من أدَمٍ. وكانوا يمنعون الحجيج والعمار ـ ما داموا محرمين ـ أن يأكلوا إلاّ من طعامَ قريش، ولا يطوفوا إلاّ في ثياب قريش، فإن لم يجد أحد منهم ثوب أحد من الحمس وهم قريش، وما ولدوا ومن دخل معهم من كنانة وخزاعة طاف عرياناً ولو كانت امرأة ولهذا كانت المرأة إذا اتفق طوافها لذلك وضعت يدها على فرجها وتقول: [زجر]

الـيَـوْمَ يَـبْـدُو بَـعْـضُـهُ أَوْ كُـلُّـهُ وبـعـد هـذا الـيـوم لا أُحِـلُّـهُ

فإن تكرّم أحد ممن يجد ثوب أحمسي فطاف في ثياب نفسه فعليه إذا فرغ من الطواف أن يلقيها فلا ينتفع بها بعد ذلك. وليس له ولا لغيره أن يمسُّها. وكانت العرب تسمي تلك الثياب اللقي قال بعض الشعراء: [البحر الطويل]

كَـفَـى حَـزَنـاً كَـرِي عَـلَـيْـهِ كَـأَنَّـهُ لَـقًـى بَـيْـنَ أَيْـدِي الـطَّـائِـفِـيـنَ حَـرِيـمُ

قال ابن إسحاق: فكانوا كذلك حتى بعث الله محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن رداً عليهم فيما ابتدعوه فقال ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩] أي جمهور العرب من عرفات ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩] وقد قدّمنا أن رسول الله ﷺ كان يقف بعرفات قبل أن ينزل عليه توفيقاً من الله له، وأنزل الله عليه رداً عليهم فيما كانوا حرّموا من اللباس والطعام على الناس ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾

(١) بوأنا: أحلنا.

[الأعراف: ٣١ـ ٣٢] الآية. وقال زياد البكائي عن ابن إسحاق: ولا أدري أكان ابتداعهم لذلك قبل الفيل أو بعده.

مبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تسليماً كثيراً وذكر شيء من البشارات بذلك

قال محمد بن إسحاق رحمه الله: وكانت الأحبار من اليهود والكهّان من النصارى ومن العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لما تقارب زمانه، أما الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى فعما وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه. قال الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] الآية وقال الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. وقال الله تعالى ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ [الفتح: ٢٩] الآية.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١] وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: «ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه وليتبعنه». يعلم من هذا أن جميع الأنبياء بشروا وأمروا باتباعه.

وقد قال إبراهيم عليه السلام فيما دعا به لأهل مكة: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ [البقرة: ١٢٩] الآية.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا أبو النضر، حدثنا الفرج بن فضالة، حدثنا لقمان بن عامر سمعت أبا أمامة قال قلت يا رسول الله، ما كان بدء أمرك؟ قال: «دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى عِيسَى، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ» وقد روى محمد بن إسحاق عن ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ عنه مثله. ومعنى هذا أنه أراد بدء أمره بين الناس واشتهار ذكره وانتشاره فذكر دعوة إبراهيم الذي تنسب إليه العرب، ثم بشر عيسى الذي هو خاتم أنبياء بني إسرائيل كما تقدم. يدلّ هذا على أن من بينهما من الأنبياء بشّروا به أيضاً.

أما في الملأ الأعلى فقد كان أمره مشهوراً مذكوراً معلوماً من قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام، كما قال الإمام أحمد حدّثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبي عن عبد الأعلى بن هلال السلمي عن العرباض بن سارية.

قال قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي عَبْدُ الله خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ، دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى بِي وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ، وَكَذَلِكَ أُمَّهَاتُ المؤمنين».[1] وقد رواه الليث عن معاوية بن صالح وقال: إن أمه رأت حين وضعته نوراً أضاءت منه قصور الشام. وقال الأمام أحمد أيضاً حدثنا عبد الرحمن، حدثنا منصور بن سعد عن بديل بن ميسرة، عن عبد الله بن شقيق، عن ميسرة الفجر قال: قلت يا رسول الله، متى كنت نبياً؟ قال: «وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ»[2] تفرّد بهن أحمد.

وقد رواه عمر بن أحمد بن شاهين في كتاب دلائل النبوة من حديث أبي هريرة فقال: حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز ـ يعني أبا القاسم البغوي ـ حدثنا أبو همام الوليد بن مسلم عن الأوزاعي، حدثني يحيى عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ متى وجبت لك النبوة؟ قال: «بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ وَنَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ» ورواه من وجه آخر عن الأوزاعي به. وقال: «وَآدَمُ مُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ». وروي عن البغوي أيضاً عن أحمد بن المقدام، عن بقية بن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبي هريرة ـ مرفوعاً ـ في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: «كُنْتُ أَوَّلَ النَّبِيِّينَ فِي الخَلْقِ وَآخِرَهُمْ فِي البَعْثِ» ومن حديث أبي مزاحم عن قيس بن الربيع، عن جابر، عن الشعبي، عن ابن عباس قيل يا رسول الله متى كنت نبياً؟ قال: «وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ».

وأما الكهّانُ من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن مما تسترق من السمع، إذ كانت وهي لا تحجب عن ذلك بالقذف بالنجوم، وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما بعض ذكر أموره ولا يلقى العرب لذلك فيه بالاً. حتى بعثه الله تعالى، ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرون فعرفوها، فلما تقارب أمر رسول الله ﷺ وحضر زمان مبعثه حجبت الشياطين عن السمع، وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تعقد لاستراق السمع فيها، فرموا بالنجوم فعرفت الشياطين أن ذلك لأمر حدث من أمر الله عزّ وجلّ. قال وفي ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن: ١ ـ ٢] إلى آخر السورة. وقد ذكرنا تفسير ذلك كله في كتابنا التفسير، وكذا قوله تعالى ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠﴾ [الأحقاف. ٢٩، ٣٠]، الآيات ذكرنا تفسير ذلك كله هناك.

قال محمد بن إسحاق: حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدّث أن أول العرب فزع للرمي بالنجوم حين رمى بها ـ هذا الحي من ثقيف ـ وإنهم جاؤوا إلى رجل

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٢٧/٤.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٦٦/٤، ٥٩/٥، ٣٧٩.

منهم يقال له عمرو بن أمية أحد بني علاج وكان أدهى العرب وأمكرها، فقالوا له يا عمرو ألم تر ما حدث في السماء من القذف بهذه النجوم؟ قال بلى، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر ويعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء، لما يصلح الناس في معايشهم هي التي يرمى بها، فهو والله طي الدنيا، وهلاك هذا الخلق، وإن كانت نجوماً غيرها وهي ثابتة على حالها فهذا لأمر أراد الله به هذا الخلق فما هو؟

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم أن امرأة من بني سهم ـ يقال لها الغيطلة ـ كانت كاهنة في الجاهلية جاءها صاحبها ليلة من الليالي فانقض تحتها، ثم قال: أدرِ ما أدْرِ، يوم عَقْر ونَحْر، فقالت قريش حين بلغها: ذلك ما يريد؟ ثم جاءها ليلة أخرى فانقض تحتها ثم قال: شعوب ما شعوب؟ تصرع فيه كعب بجنوب. فلما بلغ ذلك قريشاً قالوا ماذا يريد؟ إن هذا لأمر هو كائن فانظروا ما هو، فما عرفوه حتى كانت وقعة بدر وأحد بالشعب، فعرفوا أنه كان الذي جاء به إلى صاحبته.

قال ابن إسحاق: وحدثني علي بن نافع الجرشيّ أن جنباً بطناً من اليمن كان لهم كاهن في الجاهلية، فلما ذكر أمر رسول الله ﷺ وانتشر في العرب، قالت له جنب انظر لنا في أمر هذا الرجل واجتمعوا له في أسفل جبله. فنزل إليهم حين طلعت الشمس فوقف لهم قائماً متكئاً على قوس له، فرفع رأسه إلى السماء طويلاً، ثم جعل ينزو[1]، ثم قال: أيها الناس إن الله أكرم محمداً واصطفاه، وطهّر قلبه وحشاه، ومُكْثه فيكم أيها الناس قليل. ثم اشتد في جبله راجعاً من حيث جاء، ثم ذكر ابن إسحاق قصة سواد بن قارب وقد أخرناها إلى هواتف الجان.

فصل

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا: إن مما دعانا إلى الإسلام ـ مع رحمة الله تعالى وهداه لنا ـ أن كنا نسمع من رجل من يهود ـ وكنا أهل شِرْك أصحاب أوثان، وكانوا أهلَ كتاب عندهم علم ليس لنا، وكان لا يزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرَم، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم. فلما بعث الله رسول الله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتوعدّوننا به. فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به. ففينا وفيهم نزلت هذه الآية. ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

وقال ورقاء عن ابن أبي نجيح عن علي الأَزْدِي: كانت اليهود تقول اللهم ابعث لنا هذا النبي يحكم بيننا وبين الناس يستفتحون به ـ أي يستنصرون به ـ رواه البيهقي. ثم روى من

(١) ينزو: يثب.

طريق عبد الملك بن هارون بن عنبرة عن أبيه عن جده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال: كانت اليهود بخيبر تقاتل غطفان فكلما التقوا هزمت يهود خيبر، فعاذت اليهود بهذا الدعاء فقالوا: اللهم نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه في آخر الزمان إلاّ نصرتنا عليهم، قال فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان، فلما بعث النبي ﷺ كفروا به. فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية. وروى عطية عن ابن عباس نحوه. وروي عن عكرمة من قوله نحو ذلك أيضاً.

وقال ابن إسحاق: وحدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن محمود بن لبيد عن سلمة بن سلامه بن وقش ـ وكان من أهل بدر ـ قال كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل، قال: فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل. قال سلمة وأنا يومئذ أحدث من فيه سناً على فروة لي مضطجع فيها بفناء أهلي، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار. قال: فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت، فقالوا له ويحك يا فلان أو ترى هذا كائناً؟ إن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم؟ قال: نعم، والذي يحلف به ولود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدنيا، يحمُونه ثم يدخلونه إياه فيطينّون عليه، بأن ينجو من تلك النار غداً، قالوا له: ويحك يا فلان فما آية ذلك؟ قال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد. وأشار بيده إلى نحو مكة واليمن. قالوا ومتى نراه؟ قال ـ فنظر إليّ وأنا من أحدثهم سناً ـ فقال إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه. قال سَلَمة فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وهو حيّ بين أظهرنا، فآمنّا به وكفر به بغياً وحسداً. قال فقلنا له: ويحك يا فلان ألست بالذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال بلى ولكن ليس به.

رواه أحمد عن يعقوب عن أبيه عن ابن عباس ورواه البيهقي عن الحاكم بإسناده من طريق يونس بن بكير.

وروى أبو نعيم في الدلائل عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن محمد بن سلمة قال: لم يكن في بني عبد الأشهل إلاّ يهودي واحد يقال له يوشع، فسمعته يقول ـ وإني لغلام في إزار ـ قد أظلّكم خروج نبي يبعث من نحو هذا البيت. ثم أشار بيده إلى بيت الله، فمن أدركه فليصدّقه. فبعث رسول الله ﷺ فأسلمنا وهو بين أظهرنا لم يسلم حسداً وبغياً. وقد قدمنا حديث أبي سعيد عن أبيه في أخبار يوشع هذا عن خروج رسول الله ﷺ وصفته ونعته وأخبار الزبير بن باطا عن ظهور كوكب مولد رسول الله ﷺ. ورواه الحاكم عن البيهقي بإسناده من طريق يونس بن بكير عنه.

قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بني قريظة قال: قال لي: هل تدري عمّ كان إسلام ثعلبة بن سعيد وأسيد بن سعيد، وأسد بن عبيد ـ نفر من بني هَدْل، إخوة بني قريظة كانوا معهم في جاهليتهم، ثم كانوا سادتهم في الإسلام ـ قال: قلت: لا، قال: فإن رجلاً من اليهود من أرض الشام يقال له ابن الهيّبان قدم علينا قبل

الإسلام بسنين فحل بين أظهرنا لا والله ما رأينا رجلاً قط لا يصلي الخمس أفضل منه، فأقام عندنا، فكنا إذا قحط عنا المطر قلنا له اخرج يا ابن الهيّبان فاستسق لنا، فيقول لا والله حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة، فنقول له كم؟ فيقول صاعاً من تمر، أو مدين من شعير. قال فنخرجها، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا فيستسقي لنا، فوالله ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ويسقي. قد فعل ذلك غير مرّة ولا مرّتين ولا ثلاثاً. قال ثم حضرته الوفاة عندنا، فلما عرف أنه ميت قال: يا معشر يهود ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قال قلنا: أنت أعلم قال: فإني إنما قدمت هذه البلدة أتوكّف[1] خروج نبي قد أظل[2] زمانه، هذه البلدة مُهاجَره فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه فلا تُسْبَقُنّ إليه يا معشر يهود، فإنه يُبعث بسَفْك الدماء وسبي الذراري فيمن خالفه فلا يمنعكم ذلك منه: فلما بعث رسول الله ﷺ وحاصر بني قريظة قال هؤلاء الفتية ـ وكانوا شباباً أحداثاً ـ: يا بني قريظة، والله إنه للنبي الذي عهد إليكم فيه ابن الهيبان. قالوا ليس به قالوا بلى والله إنه لهو بصفته. فنزلوا فأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم.

قال ابن إسحاق فهذا ما بلغنا عن أحبار يهود.

قلت: وقد قدمنا في قدوم تبع اليماني وهو أبو كرب تبان أسعد إلى المدينة ومحاصرته إياها، وإنه خرج إليه ذانك الحبران من اليهود، فقالا له: إنه لا سبيل لك عليها، أنها مُهَاجَر نبي يكون في آخر الزمان فثناه ذلك عنها. وقد روى أبو نعيم في الدلائل من طريق الوليد بن مسلم حدّثنا محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه، عن جدّه. قال: قال عبد الله بن سلام: إن الله لما أراد هدي زيد بن سعية قال زيد: لم يبق شيء من علامات النبوّة إلاّ وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ، حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدّة الجهل عليه إلاّ حلماً قال فكنت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله، فذكر قصّة إسلافه للنبي ﷺ مالاً في ثمرة، قال: فلما حلّ الأجل أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه ـ وهو في جنازة مع أصحابه ـ ونظرت إليه بوجه غليظ، وقلت: يا محمد ألا تقضيني حقي؟ فوالله ما علمتكم بني عبد عبد المطلب لمطل، قال: فنظر إلى عمر وعيناه يدوران في وجهه كالفلك المستدير. ثم قال: يا عدو الله أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع، وتفعل ما أرى؟ فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر لومه لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم. ثم قال: «أَنَا وَهُوَ كُنَّا أَحْوَجَ إِلَى غَيْرِ هَذَا مِنكَ يَا عُمَرُ، أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الأداء، وَتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التِّبَاعَةِ، اذْهَبْ بِهِ يَا عُمَرُ فَاقْضِهِ حَقَّهُ. وَزِدْ عِشْرِينَ صَاعاً مِنْ تَمْرٍ» فأسلم زيد بن سعية رضي الله عنه. وشهد بقية المشاهد مع رسول الله ﷺ، وتوفي عام تبوك رحمه الله.

ثم ذكر ابن إسحاق رحمه الله: إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه وأرضاه فقال

(١) اتوكف: انتظر الخبر. (٢) أظل: أشرف وقرب.

حدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن محمود بن لبيد عن عبد الله بن عبّاس. قال حدثني سلمان الفارسي ـ من فيه ـ قال كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان من أهل قرية يقال لها جي وكان أبي دهقان قريته وكنت أحبّ خلق الله إليه، فلم يزل حبّه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية، حتى كنت قطن النار[1] التي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة. قال: وكانت لأبي ضيعة عظيمة، قال فشغل في بنيان له يوماً، فقال لي: يا بني إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب إليها فاطّلعها، وأمرني فيها ببعض ما يُريد. ثم قال لي: ولا تحتبس عنّي فإنك إن احتسبت عني كنت أهمّ إليّ من ضيعتي، وَشَغَلْتَنِي عن كل شيء من أمري. قال فخرجت أريد ضيعته التي بعثني إليها، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلّون. وكنت لا أدري ما أمرُ الناس لحبس أبي إياي في بيته، فلما سمعتُ أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فلمّا رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم. وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فوالله ما بَرِحْتُهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبي فلم آتها. ثم قلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام، فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن أمره كلّه. فلما جئت قال: أي بني أين كنت ألم أكن أعهد إليك ما عهدته؟ قال: قلت: يا أبة مررت بأناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس. قال: أي بني، ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه. قال: قلت: كلا والله إنه لخير من ديننا. قال: فخافني فجعل في رِجْلِي قيداً. ثم حبسني في بيته.

قال وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم. قال: فقدم عليهم ركب من الشام فجاؤوني النصارى فأخبروني بهم. فقلت إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني قال فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها قلت من أفضل أهل هذا الدين علماً؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة. قال: فجئته فقلت له: إني قد رغبت في هذا الدين وأحببت أن أكون معك وأخدمك في كنيستك وأتعلّم منك فأصلّي معك. قال: ادخل، فدخلت معه فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا له شيئاً كنّزه لنفسه ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق، قال وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع. ثم مات واجتمعت له النصارى ليدفنوه. فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبّكم فيها، فإذا جئتموه بها كنّزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً. قال: فقالوا: لي وما علمك بذلك؟ قال فقلت لهم: أنا أدلّكم على كنزه، قالوا: فدلّنا. قال فأريتهم موضعه فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً، فلما رأوها قالوا لا ندفنه أبداً قال فصلبوه ورجموه بالحجارة. وجاؤوا برجل آخر فوضعوه

---

(١) قطن النار: خادمها الذي يخدمها من أن تخبو، لتعظيمهم اياها.

مكانه. قال سلمان فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلاً ونهاراً. قال فأحببته حباً لم أحب شيئاً قبله مثله. قال: فأقمت معه زماناً ثم حضرته الوفاة فقلت له: إني قد كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى فإلى من توصي بي؟ وبمَ تأمرني به؟ قال أي بني والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه. لقد هلك الناس وبدّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلاّ رجلاً بالموصل وهو فلان، وهو على ما كنت عليه فالحق به. قال فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل فقلت يا فلان إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك وأخبرني أنك على أمره، فقال لي: أقم عندي.

فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات فلما حضرته الوفاة قلت له يا فلان إن فلاناً أوصى بي إليك وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصي بي وبم تأمرني؟ قال يا بني والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنّا عليه إلاّ رجلاً بنصيبين وهو فلان فالحق به، فلما مات وغُيب لحقت بصاحب نصيبين فأخبرته خبري وما أمرني به صاحباي. فقال: أقم عندي فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حضر قلت له يا فلان إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي وبم تأمرني؟ قال: يا بني والله ما أعلمه بقي أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلاّ رجل بعمّورية من أرض الروم فإنه على مثل ما نحن عليه. فإن أحببت فائته فإنه على أمرنا. فلما مات وغُيّب لحقت بصاحب عمّورية فأخبرته خبري، فقال: أقم عندي فأقمت عند خير رجل على هدى أصحابه وأمرهم. قال: واكتسبت حتى كانت لي بقراتٌ وغنيمة، قال: ثُم نزل به أمر الله فلما حضر قلت له: يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إلى فلان ثم أوصى بي فلان إلى فلان. ثم أوصى بي فلان إليك فإلى من توصي بي وبم تأمرني؟ قال أي بني، والله ما أعلم أصبح أحد على مثل ما كنّا عليه من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلّ زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجِرِه إلى أرض[1] بين حرّتين[2] بينهما نخل به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوّة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. قال ثم مات وغُيّب ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث. ثم مر بي نفر من كَلْب تجّار، فقلت لهم: احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه. قالوا: نعم فأعطيتهموها وحملوني معهم حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل يهودي عبداً، فكنت عنده ورأيت النخل، فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحق في نفسي. فبينا أنا عنده إذا قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة، فابتاعني منه فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي لها، فأقمت بها.

---

(١) في ط: الأرض.

(٢) الحرة: الأرض ذات الحجارة السود.

وبعث رسول الله ﷺ فأقام بمكة ما أقام ولا أسمع له بذكر مما أنا فيه من شغل الرقّ ثم هاجر إلى المدينة فوالله إني لفي رأس عذق[1] لسيّدي أعمل فيه بعض العمل. وسيدي جالس تحتي إذا أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال: يا فلان قاتل الله بني قَيْلة. والله إنهم لمجتمعون الآن بقباء على رجل قدم [عليهم][2] من مكة اليوم يزعمون أنه نبي. قال سلمان فلما سمعتها أخذتني الرعدة حتى ظننت أني ساقط على سيدي فنزلت عن النخلة، فجعلت أقول لابن عمّه: ماذا تقول؟ قال: فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة. ثم قال: ما لك ولهذا؟ أقبل على عملك، قال: فقلت: لا شيء إنما أردت أن أستثبته عما قال. قال: وقد كان عندي شيء قد جمعته فلما أمسيت أخذته. ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ ـ وهو بقباء ـ فدخلت عليه فقلت له إنه قد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحقُّ به من غيركم. قال: فقرّبته إليه فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «كُلُوا» وأمسك يده فلم يأكل، فقلت في نفسي هذه واحدة، ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة. ثم جئته فقلت له: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها. قال فأكل رسول الله ﷺ منها، وأمر أصحابه فأكلوا معه، قال فقلت في نفسي هاتان ثنتان قال: ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغَرْقد قد تبع جنازة رجل من أصحابه وعليه شملتان وهو جالس في أصحابه فسلّمت عليه. ثم استدبرته أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي؟ فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي. فألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله ﷺ: «تَحَوَّلْ» فتحولت بين يديه، فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عبّاس. فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذاك أصحابه. ثم شغل سلمان الرقّ حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدر وأحد.

قال سلمان: ثم قال لي رسول الله «كَاتِبْ يَا سَلْمَانُ» فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفَقير[3] وأربعين أوقية. فقال رسول الله ﷺ، لأصحابه «أَعِينُوا أَخَاكُمْ» فأعانوني في النخل: الرجل بثلاثين وَدِيّة[4]، والرجل بعشرين وَدِيّة، والرجل بخمس عشرة وَدِيّة والرجل بعشرة. يعين الرجل بقدر ما عنده حتى اجتمعت لي ثلاثمائة وَدِيّة. فقال لي رسول الله ﷺ «اذْهَبْ يَا سَلْمَانُ فَفَقِّرْ لَهَا، فَإِذَا فَرَغْتَ فَائْتِنِي أَكُنْ أَنَا أَضَعُهَا بِيَدِي». قال: ففقرت، وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت جئته فأخبرته فخرج رسول الله ﷺ معي إليها. فجعلنا نقرب إليه الوديّ، ويضعه رسول الله ﷺ بيده حتى إذا فرغنا فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة. فأديت النخل وبقي عليّ المال. فأتى رسول الله ﷺ بمثل

---

(١) العذق: (بالفتح): النخلة بحملها، والعذق (بالكسر): الكباسة وهي العذق من التمر كالعنقود من العنب.

(٢) سقط في ط.

(٣) فقير النخلة: حفرة تحفر للفسيلة إذا حولت لتغرس فيها.

(٤) الودية: واحدة الودى، وهو فراخ النخل الصغار.

بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعادن. فقال «مَا فَعَلَ الفَارِسِيُّ المُكَاتِبُ؟» قال فدعيت له قال «خُذْ هَذِهِ فَأَدِّهَا مِمَّا عَلَيْكَ يَا سَلْمَانُ» قال قلت: وأين تقع هذه مما عليّ يا رسول الله؟ قال: «خُذْهَا فَإِنَّ الله سَيُؤَدِّي بِهَا عَنْكَ» قال فأخذتها فوزنت له منها - والذي نفس سلمان بيده - أربعين أوقية، فأوفيتهم حقّهم وعتق سلمان. فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق حرّاً، ثم لم يفتني معه مشهد.

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن أبي حبيب عن رجل من عبد القيس، عن سلمان أنه قال: لما قلت وأين تقع هذه من الذي عليّ يا رسول الله؟ أخذها رسول الله ﷺ فقلبها على لسانه، ثم قال: «خُذْهَا فَأَوْفِهِمْ مِنْهَا» فأخذتها فأوفيتهم منها حقّهم كلّه أربعين أوقية.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، حدثني من لا أتّهم عن عمر بن عبد العزيز بن مروان قال: حدثت عن سلمان أنه قال لرسول الله ﷺ حين أخبره أن صاحب عمورية قال له: ائت كذا وكذا من أرض الشام، فإن بها رجلاً بين غيضتين[1] يخرج كل سنة من هذه الغيضة مستجيزاً يعترضه ذَوُو الأسقام فلا يدعو لأحد منهم إلاّ شفي، فاسأله عن هذا الدين الذي تبتغي فهو يخبرك عنه. قال سلمان فخرجت حتى جئت حيث وصف لي، فوجدت الناس قد اجتمعوا بمرضاهم هناك حتى يخرج لهم تلك الليلة مستجيزاً من إحدى الغيضتين إلى الأخرى. فغشيه الناس بمرضاهم لا يدعو لمريض إلا شُفِي وغلبوني عليه فلم أخلص إليه حتى دخل الغيضة التي يريد أن يدخل إلاّ منكبه. قال فتناولته فقال من هذا؟ والتفت إليّ. قال: قلت: يرحمك الله أخبرني عن الحنيفية دين إبراهيم، قال إنك لتسأل عن شي ما يسأل عنه الناس اليوم، قد أظلّك زمان نبي يبعث بهذا الدين من أهل الحرم، فأته فهو يحملك عليه. ثم دخل. فقال رسول الله ﷺ لسلمان: «لَئِنْ كُنْتَ صَدَقْتَنِي يَا سَلْمَانُ لَقَدْ لَقِيتَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ» هكذا وقع في هذه الرواية. وفيها رجل مبهم وهو شيخ عاصم بن عمر بن قتادة. وقد قيل إنه الحسن بن عمارة ثم هو منقطع بل معضل بين عمر بن عبد العزيز وسلمان رضي الله عنه. قوله لئن كنت صدقتني يا سلمان لقد لقيت عيسى ابن مريم غريب جداً بل منكر. فإن الفترة أقل فيها أنها أربعمائة سنة، وقيل ستمائة سنة بالشمسية، وسلمان أكثر ما قيل أنه عاش ثلاثمائة سنة وخمسين سنة. وحكى العباس بن يزيد البحراني إجماع مشايخه على أنه عاش مائتين وخمسين سنة. واختلفوا فيما زاد إلى ثلاثمائة وخمسين سنة والله أعلم. والظاهر أنه قال لقد لقيت وصّي عيسى ابن مريم فهذا ممكن بالصواب.

وقال السهيلي: الرجل المبهم هو الحسن بن عمارة، وهو ضعيف، وإن صحّ لم يكن فيه نكارة. لأن ابن جرير ذكر أن المسيح نزل من السماء بعد ما رفع، فوجد أمه وامرأة أخرى يبكيان عند جذع المصلوب، فأخبرهما أنه لم يقتل، وبعث الحواريين بعد ذلك. قال

(١) الغيضة: الشجر الملتف.

وإذا جاز نزوله مرّة جاز نزوله مراراً، ثم يكون نزوله الظاهر حين يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويتزوّج حينئذ امرأة من بني جذام، وإذا مات دفن في حجرة روضة رسول الله ﷺ.

وقد روى البيهقي في كتاب دلائل النبوة قصّة سلمان هذه من طريق يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق كما تقدم، ورواها أيضاً عن الحاكم، عن الأصم، عن يحيى بن أبي طالب. حدثنا علي بن عاصم، حدثنا حاتم بن أبي صفرة[1]، عن سماك بن حرب، عن يزيد بن صوحان أنه سمع سلمان يحدّث كيف كان أول إسلامه. فذكر قصّة طويلة وذكر أنه كان من رامهرمز، وكان له أخ أكبر منه غني وكان سلمان فقيراً في كنف أخيه، وأن ابن دهقانها كان صاحباً له، وكان يختلف معه إلى معلّم لهم، وأنه كان يختلف ذلك الغلام إلى عبّاد من النصارى في كهف لهم، فسأله سلمان أن يذهب به معه إليهم فقال له: إنك غلام، وأخشى أن تنم، عليهم فيقتلهم أبي، فالتزم له أن لا يكون منه شيء يكرهه، فذهب به معه فإذا هم ستة ـ أو سبعة ـ كأن الروح قد خرجت منهم من العبادة، يصومون النهار ويقومون الليل، يأكلون الشجر، وما وجدوا فذكر عنهم أنهم يؤمنون بالرسل المتقدّمين، وأن عيسى عبد الله ورسوله وابن أمته أيّده بالمعجزات. وقالوا له يا غلام إن لك ربّاً، وإن لك معاداً، وإن بين يديك جنّة وناراً، وإن هؤلاء القوم الذين يعبدون النيران أهل كفر وضلالة، لا يرضى الله بما يصنعون، وليسوا على دينه. ثم جعل يتردّد مع ذلك الغلام إليهم. ثم لزمهم سلمان بالكلية. ثم أجلاهم ملك تلك البلاد، وهو أبو ذلك الغلام الذي صحبه سلمان إليهم عن أرضه، واحتبس الملك ابنه عنده، وعرض سلمان دينهم على أخيه الذي هو أكبر منه، فقال: إني مشتغل بنفسي في طلب المعيشة فارتحل معهم سلمان حتى دخلوا كنيسة الموصل، فسلّم عليهم أهلها، ثم أرادوا أن ينزلوا[2] عندهم فأبيت إلاّ صحبتهم، فخرجوا حتى أتوا وادياً بين جبال فتحدّر إليهم رهبان تلك الناحية يسلمون عليهم، واجتمعوا إليهم، وجعلوا يسألونهم عن غيبتهم عنهم، ويسألونهم عنّي فيثنون عليّ خيراً، وجاء رجل معظّم فيهم فخطبهم، ، فأثنى على الله بما هو أهله وذكر الرسل، وما أيّدوا به وذكر عيسى ابن مريم، وأنه كان عبد الله ورسوله، وأمرهم بالخير ونهاهم عن الشر، ثم لما أرادوا الانصراف تبعه سلمان ولزمه، قال فكان يصوم النهار ويقوم الليل من الأحد إلى الأحد، فيخرج إليهم ويعظهم ويأمرهم وينهاهم، فمكث على ذلك مدّة طويلة، ثم أراد أن يزور بيت المقدس فصحبه سلمان إليه، قال فكان فيما يمشي يلتفت إليّ ويقبل عليّ فيعظني ويخبرني أن لي ربّاً، وأن بين يديّ جنّة وناراً، وحساباً، ويعلّمني ويذكّرني نحو ما كان يُذَكّر القوم يوم الأحد، قال فيما يقول لي: يا سلمان إن الله سوف يبعث رسولاً اسمه أحمد يخرج من تهامة يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوّة وهذا زمانه الذي يخرج فيه وقد تقارب، فأمّا أنا فإني شيخ كبير ولا أحسبني أدركه، فإن أدركته أنت فصدّقه واتبعه، قلت له وإن

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤.

(٢) في ط: يتركوني.

أمرني بترك دينك وما أنت عليه، قال وإن أمرك فإن الحق فيما يجيء به، ورضى الرحمن فيما قال. ثم ذكر قدومهما إلى بيت المقدس، وأن صاحبه صلّى فيه ها هنا وها هنا ثم نام وقد أوصاه أنه إذا بلغ الظلّ مكان كذا أن يوقظه فتركه سلمان حيناً آخر أزيد مما قال ليستريح، فلما استيقظ ذكر الله ولام سلمان على ترك ما أمره من ذلك، ثم خرجا من بيت المقدس فسأله مقعد فقال يا عبد الله سألتك حين وصلت فلم تعطني شيئاً، وها أنا أسألك فنظر فلم يجد أحداً فأخذ بيده وقال قم بسم الله فقام، وليس به بأس ولا قلبة[1] كأنما نشط من عقال. فقال لي يا عبد الله احمل عليّ متاعي حتى أذهب إلى أهلي فأبشرهم، فاشتغلت به ثم أدركت الرجل فلم ألحقه ولم أدر أين ذهب، وكلما سألت عنه قوماً قالوا أمامك حتى لقيني ركب من العرب من بني كلب، فسألتهم فلما سمعوا لغتي أناخ رجل منهم بعيره فحملني خلفه حتى أتوا بي بلادهم. فباعوني فاشترتني امرأة من الأنصار، فجعلتني في حائط لها، وقدم رسول الله ﷺ. ثم ذكر ذهابه إليه بالصَدَقة والهدية ليستعلم ما قال صاحبه، ثم تطلب النظر إلى خاتم النبوّة، فلما رآه آمن من ساعته. وأخبر رسول الله ﷺ خبره الذي جرى له قال: فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق فاشتراه من سيّدته فأعتقه، قال ثم سألته يوماً عن دين النصارى فقال: لا خير فيهم. قال فوقع في نفسي من أولئك الذي صحبتهم ومن ذلك الرجل الصالح الذي كان معي ببيت المقدس، فدخلني من ذلك أمر عظيم حتى أنزل الله على رسول الله ﷺ ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: ٨٢] فدعاني رسول الله ﷺ فجئت وأنا خائف فجلست بين يديه فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ الآيات. ثم قال «يَا سَلْمَانُ أُولَئِكَ الَّذِينَ كُنْتَ مَعَهُمْ وَصَاحِبَكَ لَمْ يَكُونُوا نَصَارَى [وإنما][2] كَانُوا مُسْلِمِينَ» فقلت يا رسول الله والذي بعثك بالحق لهو أمرني باتباعك. فقلت له فإن أمرني بترك دينك وما أنت عليه؟ قال «نَعَمْ فَاتْرُكْهُ فَإِنَّ الحَقَّ وَمَا يُرْضِي اللَّهَ فِيمَا يَأْمُرُكَ». وفي هذا السياق غرابة كثيرة، وفيه بعض المخالفة لسياق محمد بن إسحاق، وطريق محمد بن إسحاق أقوى إسناداً وأحسن اقتصاصاً وأقرب إلى ما رواه البخاري في صحيحه من حديث معتمر بن سليمان بن طرخان التيمي عن أبيه، عن أبي عثمان النهدي، عن سلمان الفارسي أنه تداوله بضعة عشر، من ربّ إلى ربّ، أي من معلم إلى معلّم ومرّبٍ إلى مثله[3] والله أعلم.

قال السهيلي: تداوله ثلاثون سيّداً من سيّد إلى سيّد، فالله أعلم. وكذلك استقصى قصّة إسلامه الحافظ أبو نعيم في الدلائل، وأورد لها أسانيد وألفاظاً كثيرة، وفي بعضها أن اسم سيّدته التي كاتبته حلبسة فالله أعلم.

---

(١) قَلَبة: محركة: داء وألم من علة. (٢) سقط في ط.

(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ٥٣.

ذكر أخبار غريبة في ذلك

قال أبو نعيم في الدلائل: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن زكرياء الغلابي حدثنا العلاء بن الفضل بن عبد الملك بن أبي السوية المنقري، حدّثنا عبّاد بن كسيب عن أبيه، عن أبي عتوارة الخزاعي، عن سعير بن سوادة العامري قال كنت عشيقاً لعقيلة من عقائل الحي، أركب لها الصعب والذلول[١] لا أبقي من البلاد مسرحاً أرجو ربحاً في متجر إلا أتيته، فانصرفت من الشام بحرث وأثاث أريد به كبة الموسم ودهماء العرب، فدخلت مكّة بليل مسدف، فأقمت حتى تعرّى عني قميص الليل، فرفعت رأسي فإذا قباب مسامتة شعف الجبال، مضروبة بأنطاع الطائف، وإذا جزر تُنحر وأخرى تساق، وإذا أكلة وحثثة على الطهاة يقولون: ألا عجلوا ألا عجلوا، وإذا رجل يجهر على نشز[٢] من الأرض، ينادي يا وفد الله ميلوا إلى الغداء. وأنيسان على مدرجة يقول: يا وفد الله من طعم فليرح إلى العشاء، فجهرني[٣] ما رأيت فأقبلت أريد عميد القوم، فعرف رجل الذي بي، فقال أمامك، وإذا شيخ كأن في خديه الأساريع[٤]، وكأن الشمرى توقد من جبينه، قد لاث على رأسه عمامة سوداء قد أبرز من ملائها جمّة فينانة كأنها سماسم. قال في بعض الروايات تحته كرسي سماسم[٥] ومن دونها نمرقة بيده قضيب متخصّر به، حوله مشايخ جلة[٦] نواكس الأذقان ما منهم أحد يفيض بكلمة. وقد كان نمي إليّ خبر من أخبار الشام أن النبيّ الأميّ هذا أوان نجومه، فلما رأيته ظننته ذلك. فقلت السلام عليك يا رسول الله. فقال: مه مه، كلا وكأن قد وليتني إياه، فقلت من هذا الشيخ؟ فقالوا هذا أبو نضلة، هذا هاشم بن عبد مناف، فولّيت، وأنا أقول هذا والله لأمجد آل جفنة ـ يعني ملوك عرب الشام من غسّان، كان يقال لهم آل جفنة ـ. وهذه الوظيفة التي حكاها عن هاشم هي الرفادة يعني إطعام الحجيج زمن الموسم.

وقال أبو نعيم: حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر، حدثنا محمد بن أحمد بن أبي يحيى، حدثنا سعيد بن عثمان، حدثنا علي بن قتيبة الخراساني، حدثنا خالد بن إلياس عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي الجهم، عن أبيه عن جدّه. قال سمعت أبا طالب يحدّث عن عبد المطلب قال: بينا أنا نائم في الحجر إذ رأيت رؤيا هالتني ففزعت منها فزعاً شديداً، فأتيت كاهنة قريش، [وهي][٧] عليّ مطرف خزّ وجمتي تضرب منكبي، فلما نظرت إليّ

(١) الصعب والذلول: الناقة التي يصعب ركوبها أو يسهل.
(٢) نشز: مرتفع.
(٣) جهرني: راعني.
(٤) أساريع: خطوط وطرائف.
(٥) سماسم الأولى: عيدان السمسم والثانية: خشب أسود كالأبنوس.
(٦) في ط: جلس.
(٧) في ط: وعليّ.

عرفت في وجهي التغيير، وأنا يومئذ سيّد قومي فقالت: ما بال سيّدنا قد أتانا متغير اللون؟ هل رأبه من حدثان الدهر شيء؟ فقلت لها: بلى! وكان لا يكلّمها أحد من الناس حتى يقبل يدها اليمنى، ثم يضع يده على أم رأسها ثم يذكر حاجته ولم أفعل لأني كبير قومي. فجلست فقلت إني رأيت الليلة وأنا نائم في الحجر كأن شجرة تنبت، قد نال رأسها السماء، وضربت بأغصانها المشرق والمغرب، وما رأيت نوراً أزهر منها أعظم من نور الشمس سبعين ضعفاً. ورأيت العرب والعجم ساجدين لها، وهي تزداد كل ساعة عظماً ونوراً وارتفاعاً، ساعة تخفي وساعة تزهر، ورأيت رهطاً من قريش قد تعلّقوا بأغصانها، ورأيت قوماً من قريش يريدون قطعها. فإذا دنو منها أخرهم شاب لم أر قط أحسن منه وجهاً ولا أطيب منه ريحاً فيكسر أظهرهم ويقلع أعينهم. فرفعت يدي لأتناول منها نصيباً، فمنعني الشاب فقلت: لمن النصيب؟ فقال: النصيب لهؤلاء الذين تعلّقوا بها وسبقوك إليها. فانتبهت مذعوراً فزعاً، فرأيت وجه الكاهنة قد تغيّر، ثم قالت لئن صدق رؤياك ليخرجنّ من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب ويدين له الناس.

ثم قال ـ يعني عبد المطلب ـ لأبي طالب، لعلّك تكون هذا المولود، فكان أبو طالب يحدّث بهذا الحديث بعد ما ولد رسول الله ﷺ وبعد ما بعث. ثم قال كانت الشجرة والله أعلم أبا القاسم الأمين، فيقال لأبي طالب ألا تؤمن؟ فيقول السبة والعار.

وقال أبو نعيم: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن زكرياء الغلابي، حدثنا العباس بن بكّار الضبي، حدثنا أبو بكر الهذلي عن عكرمة، عن ابن عبّاس قال: قال العباس: خرجت في تجارة إلى اليمن في ركب ـ منهم أبو سفيان بن حرب، فقدمت اليمن فكنت أصنع يوماً طعاماً وانصرف بأبي سفيان وبالنفر ويصنع أبو سفيان يوماً، ويفعل مثل ذلك، فقال لي في يومي الذي كنت أصنع فيه، هل لك يا أبا الفضل أن تنصرف إلى بيتي وترسل إليّ غداءك؟ فقلت: نعم. فانصرفت أنا والنفر إلى بيته، وأرسلت إلى الغداء فلما تغدّى القوم، قاموا واحتبسني. فقال: هل علمت يا أبا الفضل أن ابن أخيك يزعم أنه رسول الله؟ فقلت أيّ بني أخي؟ فقال أبو سفيان إياي تكتم؟ وأي بني أخيك ينبغي أن يقول هذا إلاّ رجل واحد؟ قلت وأيهم على ذلك؟ قال: هو محمد بن عبد الله، فقلت قد فعل؟ قال: بلى قد فعل. وأخرج كتاباً باسمه من ابنه حنظلة بن أبي سفيان فيه: أخبرك أن محمداً قام بالأبطح فقال: «أَنَا رَسُولُ أَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» فقال العبّاس قلت أجده يا أبا حنظلة صادق. فقال: مهلاً يا أبا الفضل، فوالله ما أحب أن يقول مثل هذا، إني لا أخشى أن يكون على ضير من هذا الحديث يا بني عبد المطلب، إنه والله ما برحت قريش تزعم إن لكم هنة وهنة[1]، كل واحدة منهما غاية. لنشدتك يا أبا الفضل هل سمعت ذلك؟ قلت: نعم قد سمعت. قال فهذه والله شؤمتكم. قلت فلعلها يمنتنا، قال: فما كان بعد ذلك إلاّ

(١) هنة وهنة: أشياء وأشياء.

ليال حتى قدم عبد الله بن حذافة بالخبر وهو مؤمن، ففشا ذلك في مجالس اليمن، وكان أبو سفيان يجلس مجلساً باليمن يتحدّث فيه حَبْر من أحبار اليهود، فقال له اليهودي ما هذا الخبر؟ بلغني أن فيكم عمّ هذا الرجل الذي قال ما قال؟ قال أبو سفيان صدقوا وأنا عمّه، فقال اليهودي أخو أبيه؟ قال نعم! قال: فحدّثني عنه، قال: لا تسألني ما أحب أن يدعي هذا الأمر أبداً. وما أحب أن أعيبه وغيره خير منه، فرأى اليهودي أنه لا يغمس عليه، ولا يحب أن يعيبه. فقال اليهودي ليس به بأس على اليهود، وتوراة موسى. قال العبّاس فناداني الحَبْرَ، فجئت فخرجت حتى جلست ذلك المجلس من الغد، وفيه أبو سفيان بن حرب والحَبْر، فقلت للحَبْر بلغني أنك سألت ابن عمي عن رجل منّا زعم أنه رسول الله ﷺ، وأخبرك أنه عمّه، وليس بعمّه. ولكن ابن عمه وأنا عمّه وأخو أبيه. قال أخو أبيه؟ قلت أخو أبيه، فأقبل على أبي سفيان فقال: صدق؟ قال: نعم صدق، فقلت: سلني فإن كذبت فليردّ عليّ، فأقبل عليّ فقال نشدتك هل كان لابن أخيك صبوة[1] أو سفهة؟ قلت لا وإله عبد المطلب ولا كذب ولا خان، وأنه كان اسمه عند قريش الأمين. قال فهل كتب بيده؟ قال العبّاس فظننت أنّه خير له أن يكتب بيده، فأردت أن أقولها، ثم ذكرت مكان أبي سفيان يكذّبني ويردّ عليّ، فقلت لا يكتب، فوثب الحَبْر ونزل رداؤه، وقال: ذبحت يهود وقتلت يهود. قال العباس فلما رجعنا إلى منزلنا، قال أبو سفيان: يا أبا الفضل إن اليهود تفزع من ابن أخيك، قلت قد رأيت ما رأيت، فهل لك يا أبا سفيان أن تؤمن به، فإن كان حقاً كنت قد سبقت، وإن كان باطلاً فمعك غيرك من أكفائك؟ قال: لا أؤمن به حتى أرى الخيل في كداء، قلت ما تقول؟ قال كلمة جاءت على فمي إلاّ أني أعلم أن الله لا يترك خيلاً تطلع من كداء. قال العباس: فلما استفتح رسول الله ﷺ مكّة ونظرنا إلى الخيل وقد طلعت من كداء، قلت يا أبا سفيان تذكر الكلمة؟ قال: إي والله إني لذاكرها، فالحمد لله الذي هداني للإسلام. وهذا سياق حسن عليه البهاء والنور وضياء الصدق، وإن كان في رجاله من هو متكلم فيه، والله أعلم.

وقد تقدّم ما ذكرناه في قصة أبي سفيان مع أمية بن أبي الصلت، وهو شبيه بهذا الباب، وهو من أغرب الأخبار وأحسن السياقات وعليه النور. وسيأتي أيضاً قصة أبي سفيان مع هرقل ملك الروم حين سأله عن صفات رسول الله ﷺ وأحواله، واستدلاله بذلك على صدقه ونبوّته ورسالته. وقال له: كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أكن أظن أنه فيكم، ولو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقيه. ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه. ولئن كان ما تقول حقاً ليملكنّ موضع قدمي هاتين. وكذلك وقع ولله الحمد والمنّة.

وقد أكثر الحافظ أبو نعيم من إيراد الآثار والأخبار عن الرهبان والأحبار والعرب. فأكثر وأطنب وأحسن وأطيب رحمه الله ورضي عنه.

---

(١) صبوة: عشق.

قصة عمرو بن مرة الجهني

قال الطبراني: حدثنا علي بن إبراهيم الخزاعي الأهوازي، حدثنا عبد الله بن داود بن دلهاث بن إسماعيل بن عبد الله بن شريح بن ياسر بن سويد صاحب رسول الله ﷺ، حدّثنا أبي عن أبيه دلهاث، عن أبيه إسماعيل: أن أباه عبد الله حدّثه عن أبيه أن أباه ياسر بن سويد حدثه عن عمرو بن مرّة الجهني قال: خرجت حاجاً في جماعة من قومي في الجاهلية، فرأيت في نومي وأنا بمكّة، نوراً ساطعاً من الكعبة حتى وصل إلى جبل يثرب. وأشعر جهينة. فسمعت صوتاً بين النور وهو يقول: انقشعت الظلماء، وسطع الضياء، وبعث خاتم الأنبياء. ثم أضاء إضاءة أخرى، حتى نظرت إلى قصور الحيرة وأبيض المدائن، وسمعت صوتاً من النور وهو يقول: ظهر الإسلام، وكسرت الأصنام، ووصلت الأرحام، فانتبهت فزعاً فقلت لقومي: والله ليحدثن، لهذا الحي من قريش حدث ـ وأخبرتهم بما رأيت، فلما انتهينا إلى بلادنا جاءني رجل يقال له أحمد قد بعث، فأتيته فأخبرته بما رأيت. فقال: «يَا عَمْرُو بْنُ مَرَّةَ أَنَا النَّبِيُّ الْمُرْسَلُ إِلَى الْعِبَادِ كَافَّةً. أَدْعُوهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، وَآمُرُهُمْ بِحَقْنِ الدِّمَاءِ وَصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَعِبَادَةِ اللهِ وَرَفْضِ الأَصْنَامِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ وَصِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ مِنَ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْراً، فَمَنْ أَجَابَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ عَصَى فَلَهُ النَّارُ. فَآمِنْ يَا عَمْرُو يُؤْمِنْكَ اللهُ مِنْ هَوْلِ جَهَنَّمَ» فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله آمنت بما جئت من حلال وحرام، وإن رغم ذلك كثيراً من الأقوام. ثم أنشدته أبياتاً قلتها حين سمعت به. وكان لنا صنم. وكان أبي سادناً له، فقمت إليه فكسرته. ثم لحقت بالنبي ﷺ وأنا أقول: [الطويل].

شَهِدْتُ بِأَنَّ اللهَ حَقٌّ وَأَنَّنِي ... لآلِهَةِ الأَحْجَارِ أَوَّلُ تَارِكِ
وَشَمَّرْتُ عَنْ سَاقِ الإِزَارِ مُهَاجِراً ... إِلَيْكَ أَجُوبُ الْقَفْرَ بَعْدَ الدَّكَادِكِ[1]
لأَصْحَبَ خَيْرَ النَّاسِ نَفْساً وَوَالِداً ... رَسُولَ مَلِيكِ النَّاسِ فَوْقَ الْحَبَائِكَ

فقال النبي ﷺ: «مَرْحَباً بِكَ يَا عَمْرُو بْنَ مُرَّةَ» فقلت: يا رسول الله ابعثني إلى قومي. لعلّ الله يمنّ عليهم بي كما منّ علي بك. فبعثني إليهم. وقال: «عَلَيْكَ بِالرِّفْقِ وَالْقَوْلِ السَّدِيدِ. وَلاَ تَكُنْ فَظّاً. وَلاَ مُتَكَبِّراً وَلاَ حَسُوداً» فذكر أنه أتى قومه، فدعاهم إلى ما دعاه إليه رسول الله ﷺ فأسلموا كلّهم. إلاّ رجلاً واحداً منهم، وإنه وفد بهم إلى رسول الله ﷺ. فرحّب بهم وحيّاهم. وكتب لهم كتاباً هذه نسخته: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، بِكِتَابٍ صَادِقٍ، وَحَقٍّ نَاطِقٍ مَعَ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ الْجُهَنِي لِجُهَيْنَةَ ابْنِ زَيْدٍ: أَنَّ لَكُمْ بُطُونَ الأَرْضِ وَسُهُولَهَا، وَتِلاَعَ الأَوْدِيَةِ وَظُهُورَهَا، تَزْرَعُونَ نَبَاتَهُ وَتَشْرَبُونَ صَافِيَهُ، عَلَى أَنْ تُقِرُّوا بِالْخُمُسِ، وَتُصَلُّوا صَلاَةَ الْخَمْسِ وَفِي التَّبِيعَةِ وَالصَّرِيمَةِ إِنِ اجْتَمَعَتَا وَإِنْ

(١) الدكادك: الأرض الغليظة.

تَفَرَّقَتا شَاةٌ شَاةٌ، لَيسَ عَلَى أَهْلِ المَيرَةِ صَدَقَةٌ، لَيسَ الوَرْدَةُ اللِّبقَةُ[1] وَشَهِد عَلَى نَبِيِّنَا ﷺ مَنْ حَضَرَ مِنَ المُسْلِمينَ بِكتَابِ قَيسِ بْنِ شَمَّاسٍ». وذكر شعراً قاله عمرو بن مرّة في ذلك كما هو مبسوط في المسند الكبير، وبالله الثقة وعليه التكلان.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ [الاحزاب: ٧] قال كثيرون من المفسرين[2]: لما أخذ الله ميثاق بني آدم يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أخذ من النبيّين ميثاقاً خاصاً، وأكد مع هؤلاء الخمسة أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار الذين أولهم نوح وآخرهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقد روى الحافظ أبو نعيم في كتاب دلائل النبوة من طرق عن الوليد بن مسلم حدّثنا الأوزاعي، حدثنا يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: سئل النبي ﷺ متى وجبت لك النبوة؟ قال «بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ وَنَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ»[3] وهكذا رواه الترمذي من طريق الوليد بن مسلم. وقال حسن غريب من حديث أبي هريرة، لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه.

وقال أبو نعيم: حدّثنا سليمان بن أحمد، حدثنا يعقوب بن إسحاق بن الزبير الحلبي، حدثنا أبو جعفر النفيلي حدثنا عمرو بن واقد، عن عروة بن رويم، عن الصنابحي. قال: قال عمر: يا رسول الله، متى جعلت نبياً؟ قال: «وَآدَمُ مُنْجَدِلٌ فِي الطِّينِ» ثم رواه من حديث نصر بن مزاحم عن قيس بن الربيع، عن جابر الجعفي، عن الشعبي، عن ابن عبّاس قال: قيل يا رسول الله متى كنت نبياً؟ قال: «وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ» وفي الحديث الذي أوردناه في قصة آدم حين استخرج الله من صلبه ذريته خصّ الانبياء بنور بين أعينهم. والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه على كان قدر منازلهم ورتبهم عند الله. وإذا كان الأمر كذلك فنور محمد ﷺ كان أظهر وأكبر وأعظم منهم كلّهم. وهذا تنويه عظيم وتنبيه ظاهر على شرفه وعلّو قدره. وفي هذا المعنى الحديث الذي قال الإمام أحمد: حدّثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبي، عن عبد الأعلى بن هلال السلمي، عن العرباض بن سارية. قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي عِنْدَ اللهِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ: دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبِشَارَةُ عِيسَى بِي، وَرُؤيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ. وَكَذَلِكَ أُمَّهَاتُ النَّبِيينَ يَرَيْنَ» ورواه الليث وابن وهب عن عبد الرحمن بن مهدي، وعبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح وزاد «إِنَّ أُمَّهُ رَأَتْ حِينَ وَضَعَتْهُ نُوراً أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ»[4] وقال الإمام أحمد: حدّثنا عبد الرحمن، حدثنا منصور بن سعيد، عن بديل، عن عبد الله بن شقيق، عن ميسرة الفجر قال: قلت: يا رسول الله متى كنت نبياً؟

---

(١) لعله يريد أنه لا يؤخذ في الصدقة كرائم الأموال.

(٢) في ط: السلف.

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب باب ١.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٤/١٢٧.

قال: «وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ»[1] إسناده جيّد أيضاً، وهكذا رواه إبراهيم بن طهمان وحمّاد بن زيد وخالد الحذاء عن بديل بن ميسرة به. ورواه أبو نعيم عن محمد بن عمر بن أسلم عن محمد بن بكر بن عمرو الباهلي، عن شيبان عن الحسن بن دينار، عن عبد الله بن سفيان، عن ميسرة الفجر قال: قلت يا رسول الله متى كنت نبياً؟ قال: «وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ».

وقال الحافظ أبو نعيم في كتابه دلائل النبوة: حدثنا أبو عمرو بن حمدان، حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا الوليد بن مسلم عن خليد بن دعلج وسعيد عن قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾ قال «كُنْتُ أَوَّلَ النَّبِيينِ فِي الخَلْقِ وَآخِرَهُمْ فِي البَعْثِ» ثم رواه من طريق هشام بن عمار عن بقية، عن سعيد بن نسير، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة مرفوعاً مثله. وقد رواه من طريق سعيد بن أبي عروبة وشيبان عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال مثله. وهذا أثبت وأصح والله أعلم.

وهذا إخبار عن التنويه بذكره في الملإ الأعلى، وأنه معروف بذلك بينهم بأنه خاتم النبيّين وآدم لم ينفخ فيه الروح، لأن علم الله تعالى بذلك سابق قبل خلق السموات والارض لا محالة، فلم يبق إلاّ هذا الذي ذكرناه من الأعلام به في الملإ الأعلى والله أعلم.

وقد أورد أبو نعيم من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همّام عن أبي هريرة الحديث المتفق عليه «نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، المَقْضِي لَهُمْ قَبْلَ الخَلاَئِقِ بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ»[2] وزاد أبو نعيم في آخره: فكان ﷺ آخرهم في البعث وبه ختمت النبوّة. وهو السابق يوم القيامة. لأنه أول مكتوب في النبوّة والعهد. ثم قال: ففي هذا الحديث الفضيلة لرسول الله ﷺ لما أوجب الله له النبوّة قبل تمام خلق آدم. ويحتمل أن يكون هذا الإيجاب هو ما أعلم الله ملائكته ما سبق في علمه وقضائه من بعثته له في آخر الزمان وهذا الكلام يوافق ما ذكرناه ولله الحمد.

وروى الحاكم في مستدركه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ـ وفيه كلام ـ عن أبيه عن جدّه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا اقْتَرَفَ آدَمُ الخَطِيئَةَ قَالَ: يَا رَبِّ أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ إِلاَّ غَفَرْتَ لِي، فَقَالَ اللَّهُ: يَا آدَمُ كَيْفَ عَرَفْتَ مُحَمَّداً وَلَمْ أَخْلُقْهُ بَعْدُ؟ فَقَالَ يَا رَبِّ لأَنَّكَ لَمَّا خَلَقْتَنِي بِيَدِكَ وَنَفَخْتَ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ رَفَعْتُ رَأْسِي، فَرَأَيْتُ عَلَى قَوَائِمِ العَرْشِ مَكْتُوباً لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ. فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لَمْ تُضِفْ إِلَى اسْمِكَ إِلاَّ أَحَبَّ الخَلْقِ إِلَيْكَ. فَقَالَ اللَّهُ صَدَقْتَ يَا آدَمُ إِنَّهُ لأَحَبُّ إِلَيَّ وَإِذْ قَدْ سَأَلْتَنِي بِحَقِّهِ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ وَلَوْلاَ مُحَمَّدٌ مَا خَلَقْتُكَ» قال البيهقي: تفرّد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف والله أعلم.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/٥٩.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/٢٧٤.

وقد قال الله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران: ٨١ ـ ٨٢].

قال علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلاّ أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد ﷺ وهو حي ليؤمننّ به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه وهذا تنويه وتنبيه على شرفه وعظمته في سائر الملل وعلى ألسنة الأنبياء وإعلام لهم ومنهم برسالته في آخر الزمان. وإنه أكرم المرسلين وخاتم النبيّين. وقد أوضح أمره وكشف خبره وبيّن سره، وجلا مجده ومولده وبلده ابراهيم الخليل في قوله عليه السلام حين فرغ من بناء البيت ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩] فكان أول بيان أمره على الجلية والوضوح بين أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل أكرم الأنبياء على الله بعد محمد صلوات الله عليه وسلامه عليهما وعلى سائر الأنبياء. ولهذا قال الإمام احمد: حدّثنا أبو النضر، حدّثنا الفرج ـ يعني ابن فضالة ـ حدّثنا لقمان بن عامر سمعت أبا أمامة قال: قلت: يا نبي الله ما كان بدء أمرك؟ قال: «دَعْوَةُ أَبِي إِبراهيم، وَبُشْرَى عيسى، وَرَأَتْ أُمّي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضاءَتْ مِنهُ قُصُورُ الشَّام»[١] تفرّد به الإمام أحمد، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة. وروى الحافظ أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب المولد من طريق بقية عن صفوان بن عمرو، عن حجر بن حجر، عن أبي مريق أن اعرابياً قال: يا رسول الله أيّ شيء كان أوّل أمر نبوّتك؟ فقال: «أَخَذَ الله مِنّي المِيثاقَ كَما أَخَذَ مِنَ النَّبِيّينَ مِيثَاقَهُمْ» ورأت أم رسول الله ﷺ في منامها أنه خرج من بين رجليها سراج أضاءت له قصور الشام. وقال الإمام محمد بن إسحاق بن يسار: حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك. قال «دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى عِيسَى. وَرَأَتْ أُمّي حِينَ حَبِلَتْ كأَنَّهُ خَرَجَ مِنها نُورٌ أَضاءَتْ لَهُ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشّام» إسناده جيد أيضاً. وفيه بشارة لأهل محلتنا أرض بُصرى وإنها أول بقعة من أرض الشام خَلص إليها نور النبوة، ولله الحمد والمنة ولهذا كانت أول مدينة فتحت من أرض الشام، وكان فتحها صلحاً في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، كما سيأتي بيانه. وقد قدمها رسول الله ﷺ مرتين في صحبة عمّه أبي طالب، وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وكانت عندها قصّة بَحِيرى الراهب كما بيناه. والثانية ومعه ميسرة مولى خديجة في تجارة لها. وبها مبرك الناقة التي يقال لها ناقة رسول الله ﷺ بركت عليه فأثر ذلك فيها فيما يذكر. ثم نقل وبني عليه مسجد مشهور اليوم. وهي المدينة التي أضاءت أعناق الإبل عندها من نور النار التي خرجت من أرض الحجاز سنة أربع وخمسين وستمائة وفق ما أخبر به

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٦٢.

رسول الله ﷺ في قوله«تَخرُجُ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الحِجَازِ تُضِيءُ لَهَا أَعْنَاقُ الإِبِلِ بِبُصْرَى» وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان. وقال الله تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الاعراف: ١٥٧] الآية.

قال الإمام أحمد: حدّثنا إسماعيل عن الجريري، عن أبي صخر العقيلي، حدّثني رجل من الأعراب قال: جلبت جلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ. فلما فرغت من بيعي قلت لألقين هذا الرجل فلأسمعنّ منه. قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجملهم. فقال رسول الله ﷺ «أَنْشدُكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ، هَلْ تَجِدُنِي فِي كِتَابِكَ ذَا صِفَتِي وَمَخْرَجِي؟» فقال برأسه هكذا ـ أي لا ـ فقال ابنه: إيْ والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. فقال: «أَقِيمُوا اليَهُودِيَّ عَنْ أَخِيكُمْ» ثم ولّى كفنه والصلاة عليه[1] هذا إسناد جيد وله شواهد في الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه. وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا عبد الواحد بن غياث ـ أبو بحر ـ حدّثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا عاصم بن كليب عن أبيه، عن الصلتان بن عاصم وذكر أن خاله قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ شخص بصره إلى رجل فإذا يهودي عليه قميص وسراويل ونعلان. قال فجعل النبي ﷺ يكلّمه وهو يقول: يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ «أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟» قال: لا. قال: رسول الله ﷺ «أَتقرَأُ التَّوْرَاةَ؟» قال: نعم، قال: «أَتَقرَأُ الإِنْجِيلَ؟» قال: نعم. قال: «وَالقُرْآنَ» قال لا. ولو تشاء قرأته. فقال النبي ﷺ «فِيمَ تَقرَأُ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ، أَتَجِدُنِي نَبِياً؟» قال إنا نجد نعتك ومخرجك. فلما خرجت رجونا أن تكون فينا. فلما رأيناك عرفناك أنك لست به. قال رسول الله ﷺ «وَلِمَ يَا يَهُودِي؟» قال: إنا نجده مكتوباً، يدخل من أمّته الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، ولا نرى معك إلاّ نفراً يسيراً، فقال رسول الله ﷺ «إِنَّ أُمَّتِي لأَكْثَرُ مِنْ سَبْعِينَ أَلفاً وَسَبْعِينَ أَلفاً». هذا حديث غريب من هذا الوجه، ولم يخرجوه.

وقال محمد بن إسحاق عن سالم مولى عبد الله بن مطيع عن أبي هريرة قال: أتى رسول الله ﷺ [يهود] فقال «أَخرِجُوا أَعْلَمَكُمْ» فقالوا عبد الله بن صوريا، فخلا به رسول الله ﷺ، فناشده بدينه، وما أنعم الله به عليهم، وأطعمهم من المنّ والسلوى، وظلّلهم به من الغمام «أَتَعْلَمُنِي رَسُولَ اللَّهِ؟» قال: اللهم نعم. وإن القوم ليعرفون ما أعرف، وأن صفتك ونعتك لمبين في التوراة. ولكنهم حسدوك. قال «فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْتَ؟»قال أكره

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٤١١.

خلاف قومي. وعسى أن يتبعوك ويسلموا فأسلم. وقال سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه كان يقول: كتب رسول الله ﷺ إلى يهود خيبر «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَاحِبِ مُوسَى، وَأَخِيهِ، وَالْمُصَدِّقِ بِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى، أَلاَ إِنَّ اللَّهَ قَالَ لَكُمْ يَا مَعْشَرَ يَهُودَ وَأَهْلِ التَّوْرَاةِ، إِنَّكُمْ تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ: إِنَّ مُحَمَّداً ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩] وَإِنِّي أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ وَبِالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ، وَأَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَطْعَمَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ أَسْلاَفِكُمْ وَأَسْبَاطِكُمُ المَنَّ وَالسَّلْوَى، وَأَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَيْبَسَ البَحْرَ لآبَائِكُمْ حَتَّى أَنْجَاكُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ، إِلاَّ أَخْبَرْتُمُونَا هَلْ تَجِدُونَ فِيمَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ؟ فَإِنْ كُنْتُمْ لاَ تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ فَلاَ كُرْهَ عَلَيْكُمْ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ. وَأَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى نَبِيِّهِ ﷺ».

وقد ذكره محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب المبتدإ عن سعيد بن بشير عن قتادة عن كعب الأحبار، وروى غيره عن وهب بن منبه أن بختنصر بعد أن خرب بيت المقدس واستذلّ بني إسرائيل بسبع سنين، رأى في المنام رؤيا عظيمة هالته فجمع الكهنة والحزّار، وسألهم عن رؤياه تلك. فقالوا ليقصها الملك حتى نخبره بتأويلها. فقال: إني نسيتها، وإن لم تخبروني بها إلى ثلاثة أيام قتلتكم عن آخركم. فذهبوا خائفين وجلين من وعيده. فسمع بذلك دانيال عليه السلام وهو في سجنه. فقال للسجّان: اذهب إليه فقل له إن ها هنا رجلاً عنده علم رؤياك وتأويلها. فذهب اليه فأعلمه فطلبه، فلما دخل عليه لم يسجد له. فقال له ما منعك من السجود لي؟ فقال: إن الله آتاني علماً وعلمني وأمرني أن لا أسجد لغيره. فقال له بختنصر: إني أحب الذين يوفون لأربابهم بالعهود. فأخبرني عن رؤياي. قال له دانيال: رأيت صنماً عظيماً رجلاه في الأرض ورأسه في السماء، أعلاه من ذهب ووسطه من فضّه، وأسلفه من نحاس، وساقاه من حديد، ورجلاه من فخّار، فبينا أنت تنظر إليه قد أعجبك حسنه وإحكام صنعته قذفه الله بحجر من السماء. فوقع على قمة رأسه حتى طحنه واختلط ذهبه وفضته ونحاسه وحديده وفخاره حتى تخيل لك أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يميّزوا بعضه من بعض لم يقدروا على ذلك. ونظرت إلى الحجر الذي قذف به يربو ويعظم وينتشر حتى ملأ الأرض كلّها فصرت لا ترى إلاّ الحجر والسماء. فقال له بختنصر: صدقت هذه الرؤيا التي رأيتها فما تأويلها؟ فقال دانيال أما الصنم فأمم مختلفة في أول الزمان وفي وسطه وفي آخره؛ وأما الحجر الذي قذف به الصنم فدين يقذف الله به هذه الأمم في آخر الزمان، فيظهره عليها فيبعث الله نبياً أمياً من العرب فيدوّخ به الأمم والأديان، كما رأيت

الحجر دوّخ أصناف الصنم، ويظهر على الأديان والأمم كما رأيت الحجر ظهر على الأرض كلها، فيمحص الله به الحق ويزهق به الباطل ويهدي به أهل الضلالة ويعلم به الأميين ويقوي به الضعفة، ويعزّ به الأذِلّة، وينصر به المستضعفين. وذكر تمام القصة في إطلاق بختنصر بني إسرائيل على يدي دانيال عليه السلام.

وذكر الواقدي بأسانيده عن المغيرة بن شعبة في قصة وفوده على المقوقس ملك الإسكندرية وسؤاله له عن صفات رسول الله ﷺ قريباً من سؤال هرقل لابي سفيان صخر بن حرب، وذكر أنه سأل أساقفة النصارى في الكنائس عن صفة رسول الله ﷺ وأخبروه عن ذلك وهي قصة طويلة ذكرها الحافظ أبو نعيم في الدلائل. وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ مرّ بمدارس اليهود فقال لهم: «يَا مَعْشَرَ اليَهُود أَسْلِمُوا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَتَجِدُونَ صِفَتِي فِي كُتُبِكُمْ» الحديث. وقال الإمام أحمد: حدّثنا موسى بن داود، حدثنا فليح بن سليمان عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفات رسول الله ﷺ في التوراة فقال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن، يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي سمّيتك المتوكّل لا فظّ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيموا الملّة العوجاء بأن يقولوا لا إله الا الله، يفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صمّاً وقلوباً غلفاً[1]. ورواه البخاري عن محمد بن سنان العوفي عن فليح به. ورواه أيضاً عن عبد الله ـ قيل ابن رجاء، وقيل ابن صالح ـ عن عبد العزيز بن أبي سلمة عن هلال بن علوية ولفظه قريب من هذا وفيه زيادة. ورواه ابن جرير من حديث فليح عن هلال عن عطاء وزاد قال عطاء: فلقيت كعباً فسألته عن ذلك فما اختلف حرفاً، وقال في البيوع. وقال سعيد عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن سلام، قال الحافظ أبو بكر البيهقي أخبرناه أبو الحسين بن المفضل القطان حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا يعقوب بن سفيان حدثنا أبو صالح حدثنا الليث، حدثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال بن أسامة، عن عطاء بن يسار، عن ابن سلام أنه كان يقول: إنا لنجد صفة رسول الله ﷺ إنا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمّيته المتوكّل ليس بفظّ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزيء السيئة بمثلها، ولكن يعفو ويتجاوز، ولن يقبضه حتى يقيم به الملّة العوجاء، بأن يشهدوا أن لا إله إلا الله، يفتح به أعيناً عمياً واذاناً صمّاً وقلوباً غلفاً. وقال عطاء بن يسار: وأخبرني الليثي أنه سمع كعب الأحبار يقول مثل ما قال ابن سلام.

قلت: وهذا عن عبد الله بن سلام أشبه ولكن الرواية عن عبد الله بن عمرو أكثر، مع أنه كان قد وجد يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب، وكان يحدّث عنهما كثيراً،

(١) أخرجه البخاري في البيوع باب ٥٠، والتفسير باب ٣، أحمد في المسند ٢/ ١٧٤.

وليعلم أن كثيراً من السلف كانوا يطلقون التوراة على كتب أهل الكتاب، فهي عندهم أعمّ من التي أنزلها الله على موسى، وقد ثبت شاهد ذلك من الحديث. وقال يونس عن محمد بن إسحاق: حدّثني محمد بن ثابت بن شرحبيل عن ابن أبي أوفى، عن أم الدرداء قالت: قلت لكعب الأحبار كيف تجدون صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: نجده محمد رسول الله اسمه المتوكّل ليس بفظّ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، وأعطي المفاتيح فيبصر الله به أعيناً عوراً ويسمع آذاناً وقراً ويقيم به ألسناً معوجة حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله واحد لا شريك له يعين به المظلوم ويمنعه. وقد روي عن كعب من غير هذا الوجه. وروى البيهقي عن الحاكم عن أبي الوليد الفقيه، عن الحسن بن سفيان، حدّثنا عتبة بن مكرم، حدثنا أبو قطن عمرو بن الهيثم، حدثنا حمزة بن الزيات عن سليمان الأعمش، عن علي بن مدرك، عن أبي زرعة عن أبي هريرة ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦] قال نودوا يا أمة محمد استجبت لكم قبل أن تدعوني، وأعطيتكم قبل أن تسألوني. وذكر وهب بن منبه أن الله تعالى أوحى إلى داود في الزبور يا داود إنه سيأتي من بعدك نبي اسمه أحمد ومحمد صادقاً سيداً لا أغضب عليه أبداً، ولا يغضبني أبداً وقد غفرت له قبل أن يعصيني ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وأمته مرحومة أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الانبياء، وفرضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل حتى يأتوني يوم القيامة ونورهم مثل نور الأنبياء. إلى أن قال: يا داود إني فضلت محمداً وأمته على الأمم كلها.

والعلم بأنه موجود في كتب أهل الكتاب، معلوم من الدين ضرورة، وقد دلّ على ذلك آيات كثيرة في الكتاب العزيز تكلّمنا عليها في مواضعها و لله الحمد فمن ذلك قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٣] وقال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦] وقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الاسراء: ١٠٧ ـ ١٠٨] أي أن كان وعدنا ربنا بوجود محمد وإرساله لكائن لا محالة فسبحان القدير على ما يشاء لا يعجزه شيء. وقال تعالى إخباراً عن القسيسين والرهبان ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٣] وفي قصّة النجاشي وسلمان وعبد الله بن سلام وغيرهم كما سيأتي شواهد كثيرة لهذا المعنى ولله الحمد والمنة.

وذكرنا في تضاعيف قصص الأنبياء ما تقدّم الإشارة إليه من وصفهم لبعثة رسول الله ﷺ ونعته وبلد مولده ودار مُهاجره ونعت أمته في قصة موسى وشعيا وأرمياء ودانيال وغيرهم، وقد أخبر الله تعالى عن آخر أنبياء بني إسرائيل وخاتمهم عيسى ابن مريم أنه قام في بني إسرائيل خطيباً قائلا لهم ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. وفي الإنجيل البشارة بالفارقليط والمراد محمد ﷺ.

وروى البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار، عن يونس بن بكير، عن يونس بن عمرو، عن العيزار بن حرب عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال «مَكْتُوبٌ فِي الإِنْجِيلِ لاَ فَظٌّ وَلاَ غَلِيظٌ وَلاَ صَخَّابٌ فِي الأَسْوَاقِ وَلاَ يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ مِثْلَهَا بَلْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ».

وقال يعقوب بن سفيان حدّثنا فيض البجلي، حدثنا سلام بن مسكين، عن مقاتل بن حيان قال: أوحى الله عزّ وجلّ الى عيسى ابن مريم جد في أمري، واسمع وأطع يا ابن الطاهرة البكر البتول ـ أنا خلقتك من غير فحل، فجعلتك آية للعالمين، فإياي فاعبد فبيّن لأهل سوران بالسريانية، بلغ من بين يديك إني أنا الحق القائم الذي لا أزول، صدّقوا بالنبي الأمّي العربي صاحب الجمل والمدرعة والعمامة ـ وهى التاج ـ والنعلين والهراوة ـ وهي القضيب ـ الجعد الرأس الصلت الجبين[١]، المقرون الحاجبين الأنجل العينين، الأهدب الأشفار، الأدعج العينين[٢]، الأقنى[٣] الأنف، الواضح الخدّين، الكث اللحية، عرقه في وجهه كاللؤلؤ، ريح المسك ينضح منه كأن عنقه إبريق فضة، وكأنّ الذهب يجري في تراقيه، له شعرات من لبته إلى سرته، تجري كالقضيب ليس في بطنه شعر غيره شثن[٤] الكف والقدم، إذا جاء مع الناس غمرهم، وإذا مشى كأنما يتقلع[٥] من الصخر، وينحدر من صبب[٦]، ذو النسل القليل ـ وكأنه أراد الذكور من صلبه ـ هكذا رواه البيهقي في دلائل النبوة من طريق يعقوب بن سفيان. وروى البيهقي عن عثمان بن الحكم بن رافع بن سنان، حدثني بعض عمومتي وآبائي أنهم كانت عندهم ورقة يتوارثونها في الجاهلية، حتى جاء الله بالإسلام وبقيت عندهم، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ذكروها له وأتوه بها مكتوب فيها بسم الله وقوله الحق وقول الظالمين في تباب. هذا الذكر لأمة تأتي في آخر الزمان ليبلون أطرافهم ويوترون على أوساطهم، ويخوضون البحور إلى أعدائهم، فيهم صلاة لو كانت في قوم نوح ما أهلكوا بالطوفان، وفي عاد ما أهلكوا بالريح، وفي ثمود ما أهلكوا بالصيحة: بسم الله وقوله الحق وقول الظالمين في تباب ثم ذكر قصة أخرى، قال: فعجب رسول الله ﷺ لما قرأت عليه فيها.

وذكرنا عند قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ قصة هشام بن العاص الأموي حين بعثه الصديق في سرية إلى هرقل يدعوه الى الله عزّ وجلّ. فذكر أنه أخرج لهم صور الانبياء في رُقعة من آدم الى محمد صلوات الله عليه

(١) الصلت الجبين: الواضح.
(٢) الأدعج: الدعج: أسود العين مع سعتها.
(٣) الأقنى: البارز.
(٤) الشثن: الغليظ الأصابع من الكفين والقدمين.
(٥) يتقلع: كناية عن المشي بقوة.
(٦) الصبب: الحدور، تقول انحدرنا في صبوب وصبب.

وسلامه عليهم أجمعين. على النعت والشكل الذي كانوا عليه. ثم ذكر أنه لما أخرج صورة رسول الله ﷺ قام قائماً إكراماً له. ثم جلس وجعل ينظر إليها ويتأمّلها. قال فقلنا له من أين لك هذه الصورة؟ فقال: إن آدم سأل ربه أن يريه جميع الأنبياء من ذلك، فأنزل عليه صورهم، فكان في خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس فاستخرجها ذو القرنين، فدفعها إلى دانيال. ثم قال: أما والله إن نفسي قد طابت بالخروج من ملكي، وأني كنت عبداً لأشرككم ملكه حتى أموت. ثم أجازنا فأحسن جائزتنا وسرّحنا. فلما أتينا أبا بكر الصديق فحدّثناه بما رأينا وما أجازنا وما قال لنا، قال: فبكى [أبو بكر][1] وقال: مسكين لو أراد الله به خيراً لفعل، ثم قال: أخبرنا رسول الله ﷺ «أَنَّهُمْ وَاليَهُودَ يَجِدُونَ نَعْتَ مُحَمَّدٍ عِنْدَهُمْ». رواه الحاكم بطوله فليكتب ها هنا من التفسير. ورواه البيهقي في دلائل النبوة.

وقال الأموي: حدّثنا عبد الله بن زياد عن ابن إسحاق. قال: وحدثني يعقوب بن عبد الله بن جعفر بن عمرو بن أمية عن أبيه، عن جده عمرو بن أمية قال: قدمت برقيق من عند النجاشي أعطانيهم فقالوا لي: يا عمرو لو رأينا رسول الله لعرفناه من غير أن تخبرنا، فمرّ أبو بكر فقلت أهو هذا؟ قالوا: لا، فمر عمر فقلت: أهو هذا؟ قالوا: لا فدخلنا الدار فمرّ رسول الله ﷺ فنادوني يا عمرو هذا رسول الله ﷺ فنظرت فإذا هو هو من غير أن يخبرهم به أحد، عرفوه بما كانوا يجدونه مكتوباً عندهم وقد تقدّم إنذار سبأ لقومه وبشارته لهم بوجود رسول الله ﷺ في شعر أسلفناه في ترجمته فأغنى عن إعادته، وتقدّم قول الحبرين من اليهود لتبّع اليماني حين حاصر أهل المدينة إنها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان فرجع عنها ونظم شعراً يتضمن السلام على النبي ﷺ.

قصة سيف بن ذي يزن الحميري وبشارته بالنبي

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتابه هواتف الجان: حدثنا علي بن حرب حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم، حدثنا عمرو بن بكر ـ هو ابن بكّار القعنبي ـ عن أحمد بن القاسم عن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن عبد الله بن عبّاس. قال: لما ظهر سيف بن ذي يزن قال ابن المنذر ـ واسمه النعمان بن قيس ـ على الحبشة وذلك بعد مولد رسول الله ﷺ بسنتين أتته وفود العرب وشعراؤها تهنئه وتمدحه، وتذكر ما كان من حسن بلائه، وأتاه فيمن أتاه وفود قريش فيهم عبد المطلب بن هاشم، وأمية بن عبد شمس أبي عبد الله وعبد الله بن جدعان، وخويلد بن أسد في أناس من وجوه قريش، فقدموا عليه صنعاء، فإذا هو في رأس غمدان الذي ذكره أمية أبي الصلت: [البسيط]

وَاشْرَبْ هَنِيئاً عَلَيْكَ التَّاجُ مُرْتَفِعاً ... فِي رَأْسِ غَمْدَانَ دَاراً مِنْكَ مِحْلالاً

(١) سقط في ب.

فدخل عليه الآذن، فأخبره بمكانهم فأذن لهم، فدنا عبد المطلب فاستأذنه في الكلام فقال له: إن كنت ممن يتكلم بين يدي فقد أذنا لك، فقال له عبد المطلب إن الله قد أحلّك أيها الملك محلاً رفيعاً صعباً منيعاً، شامخاً باذخاً، وانبتك منبتاً طابت أرومته، وعذيت جرثومته[٢]، وثبت أصله، وبسق فرعه في اكرم موطن، وأطيب معدن فأنت ـ أبيت اللعن ـ ملك العرب وربيعها الذي تخصب به البلاد، ورأس العرب الذي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي يلجأ إليه العباد. وسلفك خير سلف، وأنت لنا منهم خير خلف. فلن يخمد من هم سلفه ولن يهلك من أنت خلفه، ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجك من كشف الكرب الذي قد فدحنا، وفد التهنئة لا وفد المرزئة. قال: وأيهم أنت أيها المتكلّم؟ قال أنا عبد المطلب بن هاشم. قال ابن أختنا؟ قال نعم، قال ادن فأدناه، ثم أقبل عليه وعلى القوم فقال مرحباً وأهلاً وناقة ورحلاً، ومستناخاً سهلاً، وملكاً ربحلاً[٣] يعطي عطاء جزلاً. قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم، وقبل وسيلتكم، فأنتم أهل الليل والنهار، ولكم الكرامة ما اقمتم والحباء[٤] إذا ظعنتم، ثم نهضوا إلى دار الكرامة والوفود، فأقاموا شهراً لا يصلون اليه ولا يأذن لهم بالانصراف، ثم انتبه لهم انتباهة فأرسل إلى عبد المطلب فأدنى مجلسه وأخلاه ثم قال: يا عبد المطلب إني مفض إليك من سرّ علمي ما لو يكون غيرك لم أبح به. ولكني رأيتك معدنه فأطلعتك طليعه فليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله فيه، فإن الله بالغ أمره، إني أجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون الذي اخترناه لأنفسنا، واحتجناه دون غيرنا خبراً عظيماً، وخطراً جسيماً فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة للناس عامة، ولرهطك كافة ولك خاصة. فقال عبد المطلب: أيها الملك مثلك سرّ وبرّ، فما هو فداؤك أهل الوبر زمراً بعد زمر؟ قال إذا ولد بتهامة، غلام به علامة، بين كتفيه شامة كانت له الإمامة، ولكم به الزعامة الى يوم القيامة. قال عبد المطلب ـ أبيت اللعن ـ لقد أبت بخير ما آب به وافد، ولولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من بشارته إياي ما ازداد به سروراً. قال ابن ذي يزن هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد واسمه محمد. يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمّه. ولدناه مراراً والله باعثه جهاراً، وجاعل له منّا أنصاراً يعزّ بهم أولياءه ويذلّ بهم أعداءه، ويضرب بهم الناس عن عرض، ويستبيح بهم كرائم الأرض، يكسر الأوثان ويخمد النيران، يعبد الرحمن ويدحر الشيطان، قوله فصل، وحكمه عدل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله. فقال عبد المطلب، أيها الملك ـ عزّ جدّك وعلا كعبك، ودام ملكك، وطال عمرك. فهذا نجاري فهل الملك سار لي بإفصاح فقد أوضح لي بعض الإيضاح. فقال ابن ذي يزن: والبيت ذي الحجب والعلامات على النقب إنك يا عبد المطلب لجده غير كذب، فخرّ عبد المطلب ساجداً، فقال: ارفع رأسك ثلج صدرك وعلا أمرك فهل أحسست شيئاً مما ذكرت لك. فقال: أيها

(١) عذيت: طابت وكرمت. (٢) الجرثومة: الأصل.
(٣) الربحل: الكثير العطاء. (٤) الحباء: العطاء.

الملك كان لي ابن وكنت به معجباً، وعليه رفيقاً، فزوّجته كريمة من كرائم قومه آمنة بنت وهب، فجاءت بغلام سمّيته محمداً فمات أبوه وأمه وكفلته انا وعمه. قال ابن ذي يزن إن الذي قلت لك كما قلت فاحتفظ بابنك واحذر عليه اليهود فإنهم له أعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً، واطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك فإني لست آمن إن تدخل لهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة فيطلبون له الغوائل[١] وينصبون له الحبائل، فهم فاعلون أو ابناؤهم ولولا أني اعلم أن الموت مجتاحي قبل مبعثه، لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير بيثرب دار مملكته، فإني أجد في الكتاب الناطق والعلم السابق أن بيثرب استحكام أمره وأهل نصرته، وموضع قبره، ولولا أني أقيه، الآفات وأحذر عليه العاهات، لأعلنت على حداثة سنه أمره ولأوطأت أسنان العرب عقبه، ولكني صارف ذلك إليك عن غير تقصير بمن معك. قال ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد وعشرة إماء وبمائة من الإبل، وحلتين من البرود، وبخمسة أرطال من الذهب، وعشرة أرطال فضة، وكرش مملوء عنبراً، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال له: إذا حال الحول فأتني. فمات ابن ذي يزن قبل أن يحول الحول، فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك، فإنه إلى نفاد ولكن ليغبطني بما يبقى لي ولعقبي من بعدي، ذكره وفخره وشرفه، فإذا قيل له: متى ذلك قال: سيعلم ولو بعد حين، قال: وفي ذلك يقول أمية بن عبد شمس: [الوافر]

جَلَبْنَا النُّصْحَ تَحْقُبُهُ المَطَايَا ... عَلَى أَكْوَارِ أَجْمَالٍ وَنُوقِ
مُقَلْقَةٍ[٢] مَرَاتِعُهَا تَعَالَى ... إِلَى صَنْعَاءَ مِنْ فَجٍّ عَمِيقِ
تَؤُمُّ بِنَا ابْنَ ذِي يَزَنٍ وَتُفْرِي ... بِذَاتِ بُطُونِهَا ذَمَّ الطَّرِيقِ
وَتَرْعَى مِنْ مَخَائِلِهِ[٣] بُرُوقاً ... مُوَاصِلَةَ الوَمِيضِ إِلَى بُرُوقِ
فَلَمَّا واصلت صَنْعَاءَ حَلَّتْ ... بِدَارِ المُلْكِ وَالحَسَبِ العريق

وهكذا رواه الحافظ أبو نعيم في الدلائل من طريق عمرو بن بكير بن بكّار القعنبي، ثم قال أبو نعيم أخبرت عن أبي الحسن علي بن إبراهيم بن عبد ربه بن محمد بن عبد العزيز بن عفير بن عبد العزيز بن السفر بن عفير بن زرعة بن سيف بن ذي يزن، حدّثني أبي أبو يزن إبراهيم، حدثنا عمّي أحمد بن محمد أبو رجاء به، حدّثنا عمي محمد بن عبد العزيز، حدثني عبد العزيز بن عفير عن أبيه، عن زرعة بن سيف بن ذي يزن الحميري قال: لما ظهر جدي سيف بن ذي يزن على الحبشة. وذكره بطوله. وقال أبو بكر الخرائطي حدّثنا أبو يوسف يعقوب بن إسحاق القلوسي، حدّثنا العلاء بن الفضل بن أبي سوية، أخبرني أبي عن أبيه عبد الملك بن أبي سوية، عن جدّه أبي سوية، عن أبيه خليفة قال: سألت

(١) الغوائل: الدواهي.

(٢) مقلقة: القلفة: نبات أخضر.

(٣) مخائله: كرمه ونجادته.

محمد بن عثمان بن ربيعة بن سواة بن خثعم بن سعد فقلت: كيف سمّاك أبوك محمداً؟ فقال سألت أبي عما سألتني عنه، فقال خرجت رابع أربعة من بني تميم أنا منهم، وسفيان بن مجاشع بن دارم، وأسامة بن مالك بن جندب بن العقيد، ويزيد بن ربيعة بن كنانة بن حربوص بن مازن، ونحن نريد ابن جفنة ملك غسان، فلما شارفنا الشام نزلنا على غدير عليه شجرات، فتحدثنا فسمع كلامنا راهب، فأشرف علينا فقال: إن هذه لغة ما هي بلغة هذه البلاد، فقلنا: نعم نحن قوم من مضر، قال: من أي المضرين؟ قلنا: من خندف، قال: أما إنه سيبعث وشيكاً نبيّ خاتم النبيين، فسارعوا إليه وخذوا بحظكم منه ترشدوا. فقلنا له: ما اسمه؟ قال: اسمه محمد. قال فرجعنا من عند ابن جفنة فولد لكل واحد منا ابن فسمّاه محمداً. يعني أن كل واحد منهم طمع في أن يكون هذا النبي المبشّر به ولده.

وقال الحافظ أبو بكر الخرائطي: حدّثنا عبد الله بن أبي سعد، حدثنا حازم بن عقال بن الزهر بن حبيب بن المنذر بن أبي الحصين بن السموأل بن عاديا، حدثني جابر بن جدان بن جميع بن عثمان بن سماك بن الحصين بن السموأل بن عاديا. قال: لما حضرت الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر الوفاة اجتمع إليه قومه من غسّان فقالوا إنه قد حضرك من أمر الله ما ترى، وكنا نأمرك بالتزوج في شبابك فتأبى، وهذا أخوك الخزرج له خمسة بنين، وليس لك ولد غير مالك فقال: لن يهلك هالك ترك مثل مالك، إن الذي يخرج النار من الوثيمة[1] قادر أن يجعل لمالك نسلاً ورجالاً بسلاً، وكل إلى الموت. ثم أقبل على مالك وقال: أي بني المنيّة ولا الدنيّة، العقاب ولا العتاب، التجلّد ولا التلدد القبر خير من الفقر، إنه من قل ذلّ، ومن كرّ فرّ، من كرم الكريم الدفع عن الحريم. والدهر يومان فيوم لك ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصطبر، وكلاهما سينحسر، ليس يثبت منهما الملك المتوّج، ولا اللئيم المعلهج[3]، سلم ليومك حيّاك ربك، ثم أنشأ يقول: [الطويل]

شَهِدْتُ السَّبَايَا يَوْمَ آلِ مُحَرِّقٍ ... وَأَدْرَكَ أَمْرِي صَيْحَةَ اللَّهِ فِي الحِجْرِ
فَلَمْ أَرَ ذَا مُلْكٍ مِنَ النَّاسِ وَاحِداً ... وَلاَ سُوقَةً إِلاَّ إِلَى المَوْتِ وَالقَبْرِ
فَعَلَّ الَّذِي أَرْدَى ثَمُوداً وَجُرْهُماً ... سَيُعْقِبُ لِي نَسْلاً عَلَى آخِرِ الدَّهْرِ
تُقَرِّبُهُمْ مِنْ آلِ عَمْرِو بْنِ عَامِرٍ ... عُيُونٌ لَدَى الدَّاعِي إِلَى طَلَبِ الوِتْرِ
فَإِنْ لَمْ تَكُ الأَيَّامُ أَبْلَيْنَ جِدَّتِي ... وَشَيَّبْنَ رَأْسِي وَالمَشِيبُ مَعَ العُمْرِ
فَإِنَّ لَنَا رَبّاً عَلاَ فَوْقَ عَرْشِهِ ... عَلِيماً بِمَا يَأْتِي مِنَ الخَيْرِ وَالشَّرِّ

(١) الوثيمة الحجارة، يريد ما يكون من شرر إذا قدحت الحجارة بالزند.

(٢) التلدد: الحيرة.

(٣) المعلهج: الرجل الأحمق واللئيم.

(٤) الوتر: الثأر.

أَلَـمْ يَـأْتِ قَـوْمِـي أَنَّ لِـلّـهِ دَعْـوَةً يَـفُـوزُ بِـهَـا أَهْـلُ الـسَّـعَـادَةِ وَالـبِـرِّ
إِذَا بُـعِـثَ الـمَـبْـعُـوثُ مِـنْ آلِ غَـالِـبٍ بِـمَـكَّـةَ فِـيـمَـا بَـيْـنَ مَـكَّـةَ والـحِـجْـرِ
هُـنَـالِـكَ فَـابْـغُـوا نَـصْـرَهُ بِـبِـلاَدِكُـمْ بَـنِـي عَـامِـرٍ إِنَّ الـسَّـعَـادَةَ فِـي الـنَّـصْـرِ

قال ثم قضى من ساعته.

باب في هواتف الجان

وقد تقدّم كلام شقّ وسطيح لربيعة بن نصر ملك اليمن في البشارة بوجود رسول الله ﷺ، رسول ذكي يأتي إليه الوحي من قبل العلي. وسيأتي في المولد قول سطيح لعبد المسيح: إذا كثرت التلاوة وغاضت بحيرة ساوة وجاء صاحب الهراوة يعني بذلك رسول الله ﷺ كما سيأتي بيانه مفصلا.

وقال البخاري حدثنا يحيى بن سليمان الجعفي، حدثني ابن وهب، حدثني عمرو ـ هو محمد بن زيد ـ أن سالماً حدثه عن عبد الله بن عمر قال: ما سمعت عمر يقول لشيء قط إني أظنه إلاّ كان كما يظن. بينما عمر بن الخطاب جالس إذ مرّ به رجل جميل، فقال لقد أخطأ ظني، أو إن هذا على دينه في الجاهلية، أو لقد كان كاهنهم، عليّ بالرجل، فدعي به، فقال له ذلك فقال: ما رأيت كاليوم استُقْبِلَ به رجلٌ مُسلمٌ. قال فإني أعزم عليك إلاّ ما أخبرتني، قال: كنت كاهنهم في الجاهلية، قال فما أعجب ما جاءتك به جنّيتك؟ قال بينما أنا في السوق يوماً جاءتني أعرف فيها الفزع. فقالت: [الرجز]

أَلَـمْ تَـرَ الـجِـنَّ وَإِبْـلاَسَـهَـا وَيَـأْسَـهَـا مِـنْ بَـعْـدِ أَنْـكَـاسِـهَـا؟
وَلُـحُـوقِـهَـا بِـالْـقِـلاَصِ وَأَحْـلاَسِـهَـا[1]

قال عمر: صدق. بينا أنا نائم عند آلهتهم جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه يقول: يا جليح أمر نجيح، رجل فصيح، يقول لا إله إلا الله فوثب القوم، فقلت لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا. ثم نادى يا جليح أمر نجيح، رجل فصيح يقول لا إله إلا الله، فقمت فما نشبنا أن قيل هذا نبي»[2]. تفرّد به البخاري.

وهذا الرجل هو سواد بن قارب الأزدي. ويقال: السدوسي من أهل السراة من جبال البلقاء له صحبة ووفادة. قال أبو حاتم وابن منده: روى عنه سعيد بن جبير، وأبو جعفر محمد بن علي، وقال البخاري له صحبة. وهكذا ذكره في أسماء الصحابة أحمد بن روح البرذعي الحافظ، والدارقطني، وغيرهما وقال الحافظ عبد الغني بن سعيد المصري سواد بن قارب بالتخفيف. وقال عثمان الوقاصي عن محمد بن كعب القرظي كان من أشراف أهل اليمن، ذكره أبو نعيم في الدلائل. وقد روي حديثه من وجوه أخر مطولة بالبسط من رواية البخاري.

---

(١) الحلس: كساء على ظهر البعير تحت الرذعة.

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ٣٥.

وقال محمد بن إسحاق: حدّثني من لا أتهم عن عبد الله بن كعب مولى عثمان بن عفّان أنه حدّث أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بينما هو جالس في الناس في مسجد رسول الله ﷺ اذا أقبل رجل من العرب داخل المسجد يريد عمر بن الخطاب. فلما نظر إليه عمر قال الرجل لعلى شركه ما فارقه بعد، أو لقد كان كاهناً في الجاهلية. فسلّم عليه الرجل ثم جلس، فقال له عمر: هل أسلمت؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: فهل كنت كاهناً في الجاهلية؟ فقال الرجل: سبحان الله يا أمير المؤمنين، لقد خلت فيّ واستقبلتني بأمر ما أراك قلته لأحد من رعيتك منذ وليت ما وليت. فقال عمر: اللهم غفراً قد كنا في الجاهلية على شرّ من هذا، نعبد الأصنام ونعتنق الأوثان، حتى أكرمنا الله برسوله وبالاسلام. قال: نعم والله يا أمير المؤمنين لقد كنت كاهناً في الجاهلية، قال: فأخبرني ما جاء به صاحبك. قال جاءني قبل الإسلام بشهر أو شيعه[1] فقال: ألم تر إلى الجن وإبلاسها، وإياسها من دينها، ولحوقها بالقلاص وإحلاسها.

قال ابن إسحاق: هذا الكلام سجع ليس بشعر. [قال عبد الله بن كعب].

فقال عمر عند ذلك يحدّث الناس: والله إني لعند وثن من أوثان الجاهلية في نفر من قريش قد ذبح له رجل من العرب عجلاً، فنحن ننتظر قسمه ان يقسم لنا منه، إذ سمعت من جوف العجل صوتاً ما سمعت صوتاً قط أشدّ منه، وذلك قبل الإسلام بشهر أو شيعه يقول: يا ذريح أمر نجيح رجل يصيح يقول لا إله إلا الله. قال ابن هشام: ويقال رجل يصيح بلسان فصيح يقول لا إله إلا الله، قال: وأنشدني بعض أهل العلم بالشعر: [الرجز]

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَإِبْلاَسِهَا ... وَشَدِّهَا العِيسَ بِأَحْلاَسِهَا

تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الهُدَى ... مَا مُؤْمِنُو الجِنِّ كَأَنْجَاسِهَا

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدّثنا يحيى بن حجر بن النعمان الشامي حدثنا علي بن منصور الأنباري عن محمد بن عبد الرحمن الوقاصي، عن محمد بن كعب القرظي. قال بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات يوم جالس إذ مر به رجل. فقيل يا أمير المؤمنين: أتعرف هذا المار؟ قال: ومن هذا؟ قالوا: هذا سواد بن قارب الذي أتاه رئيه بظهور رسول الله ﷺ، قال فأرسل إليه عمر. فقال له: أنت سواد بن قارب؟ قال: نعم. قال: فأنت على ما كنت عليه من كهانتك؟ قال: فغضب. وقال ما استقبلني بهذا أحد منذ أسلمت يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا سبحان الله ما كنّا عليه من الشرك أعظم مما كنت عليه من كهانتك، فأخبرني ما أنبأك رئيك بظهور رسول الله ﷺ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، بينما أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان إذ أتاني رئيي فضربني برجله، وقال: قم يا سواد بن قارب، واسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل، إنه قد بعث رسول من لؤي بن غالب، يدعو إلى الله وإلى عبادته ثم أنشأ يقول: [الرجز]

---

(١) شيعة: دونه بقليل، وشيع كل شيء ما هو له تبعٌ.

عَجِبْتُ لِلْجِنّ وَتَطْلاَبِهَا وَشَدِّهَا العِيسَ بِأَقْتَابِهَا
تهوِي إلَى مَكَّةَ تبغي الهُدَى مَا صَادِقُ الجنّ كَكَذَّابِهَا
فَارْحَلْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ لَيْسَ قُدَامَاهَا كَأَذْنَابِهَا

قال قلت دعني أنام فإني أمسيت ناعساً. قال فلما كانت الليلة الثانية أتاني فضربني برجله وقال: قم يا سواد بن قارب واسمع مقالتي، واعقل إن كنت تعقل، إنه بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته، ثم أنشأ يقول: [الرجز]

عَجِبْتُ لِلْجِنّ وَتَخْيَارِهَا وَشَدِّهَا العِيسَ بِأَكْوَارِهَا
تَهْوِي إلَى مَكَّةَ تَبْغِي الهُدَى مَا مُؤْمِنُو الجِنّ كَكُفَّارِهَا
فَارْحَلْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ بَيْنَ رَوَابِيهَا وَأَحْجَارِهَا

قال قلت: دعني أنام، فإني أمسيتُ ناعساً، فلما كانت الليلة الثالثة أتاني فضربني برجله. وقال: قم يا سواد بن قارب، فاسمع مقالتي، واعقل إن كنت تعقل، إنه قد بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو الى الله والى عبادته ثم أنشأ يقول: [الرجز]

عَجِبْتُ لِلْجِنّ وَتَحْسَاسِهَا وَشَدِّهَا العِيسَ بِأَحْلاَسِهَا
تَهْوِي إلَى مَكَّةَ تَبْغِي الهُدَى مَا خَيِّرُ الجِنّ كَأَنْجَاسِهَا
فَارْحَلْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ وَاسْمُ بِعَيْنَيْكَ إِلَى رَاسِهَا

قال: فقمت وقلت: قد امتحن الله قلبي، فرحّلت ناقتي ثم أتيت المدينة ـ يعني مكة ـ فإذا رسول الله ﷺ في أصحابه فدنوت فقلت: اسمع مقالتي يا رسول الله. قال هَاتِ فأنشأت أقول: [الطويل]

أَتَانِي نَجِيِّي بَعْدَ هَدْءٍ وَرَقْدَةٍ وَلَمْ يَكُ فِيمَا قَدْ تَلَوْت بِكَاذِبِ
ثَلاَثَ لَيَالٍ قَوْلُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ أَتَاكَ رَسُولٌ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ
فَشَمَّرْتُ عَنْ ذَيْلِي الإِزَارَ وَوَسَّطَتْ بِيَ الدِّعْلِبُ الوَجْنَاءُ[١] غُبْرَ السَّبَاسِبِ[٢]
فَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ لاَ شَيْءَ غَيْرُهُ وَأَنَّكَ مَأْمُونٌ عَلَى كُلِّ غَالِبِ
وَأَنَّكَ أَدْنَى المُرْسَلِينَ وَسِيلَةً إِلَى اللَّهِ يَا ابْنَ الأَكْرَمِينَ الأَطَايِبِ
فَمُرْنَا بِمَا يَأْتِيكَ يَا خَيْرَ مَنْ مَشَى وَإِنْ كَانَ فِيمَا جَاءَ شَيْبُ الذَّوَائِبِ
وَكُنْ لِي شَفِيعاً يَوْمَ لاَ ذُو شَفَاعَةٍ سِوَاكَ بِمُغْنٍ عَنْ سَوَادِ بْنِ قَارِبِ

قال: ففرح رسول الله ﷺ وأصحابه بمقالتي فرحاً شديداً، حتى رئي الفرح في وجوههم. قال فوثب إليه عمر بن الخطاب فالتزمه، وقال قد كنت أشتهي أن أسمع الحديث

(١) الدعلب الوجناء: الناقة القوية.

(٢) السباسب: السبسب: المفازة.

منك، فهل يأتيك رئيك اليوم؟ قال أما منذ قرأت القرآن فلا، ونعم العوض كتاب الله من الجنّ. ثم قال عمر: كنا يوماً في حي من قريش يقال لهم آل ذريح، وقد ذبحوا عجلاً لهم والجزّار يعالجه، إذ سمعنا صوتاً من جوف العجل ـ ولا نرى شيئاً ـ قال يا آل ذريح، أمر نجيح صائح يصيح بلسان فصيح يشهد أن لا إله إلا الله، وهذا منقطع من هذا الوجه، ويشهد له رواية البخاري. وقد تساعدوا على أن السامع الصوت من العجل هو عمر بن الخطاب والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتابه الذي جمعه في هواتف الجان: حدثنا أبو موسى عمران بن موسى المؤدّب، حدثنا محمد بن عمران بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، حدثنا سعيد بن عبيد الله الوصابي عن أبيه، عن أبي جعفر محمد بن علي. قال: دخل سواد بن قارب السدوسي على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: نشدتك بالله يا سواد بن قارب، هل تحسن اليوم من كهانتك شيئاً؟ فقال: سبحان الله يا أمير المؤمنين، ما استقبلت أحداً من جلسائك بمثل ما استقبلتني به! قال: سبحان الله يا سواد ما كنّا عليه من شركنا أعظم مما كنت عليه من كهانتك، والله يا سواد لقد بلغني عنك حديث إنه لعجيب من العجب، قال: إي والله يا أمير المؤمنين، إنه لعجب من العجب. قال: فحدثنيه، قال: كنت كاهناً في الجاهلية، فبينا أنا ذات ليلة نائم إذ أتاني نجيي فضربني برجله. ثم قال يا سواد اسمع أقل لك، قلت هات قال: [الرجز]

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وأنجاسِها وَرَحْلِهَا العِيسَ بِأَحْلاَسِهَا
تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الهُدَى مَا مُؤْمِنُوهَا مِثْلُ أَرْجَاسِهَا
فَارْحَلْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ وَاسْمُ بِعَيْنَيْكَ إِلَى رَاسِهَا

قال فنمت ولم أحفل بقوله شيئاً، فلمّا كانت الليلة الثانية أتاني فضربني برجله، ثم قال لي: قم يا سواد بن قارب اسمع أقل لك، قلت هات. قال: [الرجز]

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَتَطْلاَبِهَا وَشَدِّهَا العِيسَ بِأَقْتَابِهَا
تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الهُدَى مَا صَادِقُ الجِنِّ كَكَذَّابِهَا
فَارْحَلْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ لَيْسَ المَقَادِيمُ كَأَذْنَابِهَا

قال فحرّك قوله مني شيئاً، ونمت فلما كانت الليلة الثالثة أتاني فضربني برجله، ثم قال: يا سواد بن قارب أتعقل أم لا تعقل؟ قلت وما ذاك؟ قال ظهر بمكة نبي يدعو إلى عبادة ربّه فالحق به، اسمع أقل لك. قلت هات قال: [الرجز]

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَتَنْفَارِهَا وَرَحْلِهَا العِيسَ بِأَكْوَارِهَا
تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الهُدَى مَا مُؤْمِنُو الجِنِّ كَكُفَّارِهَا
فَارْحَلْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ بَيْنَ رَوَابِيهَا وَأَحْجَارِهَا

قال فعلمت أن الله قد أراد بي خيراً. فقمت إلى بردة لي ففتقتها ولبستها ووضعت

رجلي في غرز ركاب الناقة. وأقبلت حتى انتهيت إلى النبي ﷺ فعرض عليّ الإسلام فأسلمت، وأخبرته الخبر فقال: «إِذَا اجْتَمَعَ المُسْلِمُونَ فَأَخْبِرْهُمْ» فلما اجتمع المسلمون قمت فقلت: [الطويل]

أَتَانِي نَجِيِّي بَعْدَ هَدْءٍ وَرَقْدَةٍ ... وَلَمْ يَكُ فِيمَا قَدْ بَلَوْتُ بِكَاذِبِ
ثَلاَثَ لَيَالٍ قَوْلُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ ... أَتَاكَ رَسُولٌ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ
فَشَمَّرْتُ عَنْ ذَيْلِي الإِزَارَ وَوَسَّطَتْ ... بِيَ الدِّعْلِبُ الوَجْنَاءُ غُبْرَ السَّبَاسِبِ
وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لاَ رَبَّ غَيْرُهُ ... وَأَنَّكَ مَأْمُونٌ عَلَى كُلِّ غَائِبِ
وَأَنَّكَ أَدْنَى المُرْسَلِينَ وَسِيلَةً ... إِلَى اللَّهِ يَا ابْنَ الأَكْرَمِينَ الأَطَايِبِ
فَمُرْنَا بِمَا يَأْتِيكَ يَا خَيْرَ مُرْسَلٍ ... وَإِنْ كَانَ فِيمَا جَاءَ شَيْبُ الذَّوَائِبِ

قال فسرّ المسلمون بذلك، فقال عمر: هل تحسن اليوم منها بشيء؟ قال أما إذ علمني الله القرآن فلا. وقد رواه محمد بن السائب الكلبي عن أبيه عن عمر بن حفص. قال لمّا ورد سواد بن قارب على عمر قال: يا سواد بن قارب ما بقي من كهانتك؟ فغضب وقال: ما أظنك يا أمير المؤمنين استقبلت أحداً من العرب بمثل هذا، فلما رأى ما في وجهه من الغضب، قال: انظر سواد للذي كنا عليه قبل اليوم من الشرك أعظم. ثم قال: يا سواد حدّثني حديثاً كنت أشتهي أسمعه منك، قال: نعم، بين أنا في إبل ليس بالسراة ليلاً وأنا نائم، وكان لي نجيّ من الجنّ أتاني فضربني برجله فقال لي: قم يا سواد بن قارب فقد ظهر بتهامة نبي يدعو إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم، فذكر القصة كما تقدم وزاد في آخر الشعر: [البحر الطويل]

وَكُنْ لِي شَفِيعاً يَوْمَ لاَ ذُو قَرَابَةٍ ... سِوَاكَ بِمُغْنٍ عَنْ سَوَادِ بْنِ قَارِبِ

فقال رسول الله ﷺ: «سِرْ فِي قَوْمِكَ وَقُلْ هَذَا الشِّعْرَ فِيهِمْ».

ورواه الحافظ ابن عساكر من طريق سليمان بن عبد الرحمن عن الحكم بن يعلى بن عطاء المحاربي عن عبّاد بن عبد الصمد عن سعيد بن جُبَيْر قال: أخبرني سواد بن قارب الأزدي. قال: كنت نائماً على جبل من جبال السراة فأتاني آتٍ فضربني برجله ـ وذكر القصّة أيضاً.

ورواه أيضاً من طريق محمد بن البراء عن أبي بكر بن عياش عن أبي إسحاق عن البراء. قال: قال سواد بن قارب: كنت نازلاً بالهند فجاءني رئيي ذات ليلة فذكر القصة. وقال بعد إنشاد الشعر الأخير فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه وقال: «أَفْلَحْتَ يَا سَوَادُ».

وقال أبو نعيم في كتاب دلائل النبوة: حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر، حدثنا عبد الرحمن بن الحسن، حدثنا علي بن حرب، حدثنا أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب، عن أبيه، عن عبد الله العماني. قال: كان منا رجل يقال له مازن بن العضوب

يسدن صنماً بقرية يقال لها سمايا، من عمان، وكانت تعظّمه بنو الصامت وبنو حطامة ومهرة وهم أخوال مازن. أمه زينب بنت عبد الله بن ربيعة بن خويص أحد بني نمران قال مازن: فعترنا يوماً عند الصنم عتيرة ـ وهي الذبيحة ـ فسمعت صوتاً من الصنم يقول: يا مازن اسمع تسر، ظهر خير وبطن شر، بعث نبي من مضر، بدين الله الاكبر، فدع نحيتاً من حجر. تسلم من حرّ سقر. قال: ففزعت لذلك فزعاً شديداً. ثم عترنا بعد أيام عتيرة أخرى، فسمعت صوتاً من الصنم يقول: أقبل إليّ أقبل، تسمع ما لا تجهل، هذا نبي مرسل، جاء بحق منزل، فآمن به كي تعدل عن حر نار تشعل وقودها الجندل. قال مازن: فقلت إن هذا لعجب وإن هذا لخير يراد بي وقدّم علينا رجل من الحجاز، فقلت: ما الخبر وراءك؟ فقال: ظهر رجل يقال له أحمد، يقول لمن أتاه أجيبوا داعي الله، فقلت هذا نبأ ما سمعت، فثرت الى الصنم فكسرته جذاذاً وركبت راحلتي حتى قدمت على رسول الله ﷺ فشرح الله صدري للإسلام، فأسلمت، وقلت: [البسيط]

كَسَّرْتُ بَاجِرِ أَجْذَاذاً وَكَانَ لَنَا ... رَبّاً نُطِيفُ بِهِ ضَلاً بِتِضْلاَلِ
فَالْهَاشِمِيُّ هَدَانَا مِنْ ضَلاَلَتِنَا ... وَلَمْ يَكُنْ دِينُهُ مِنِّي عَلَى بَالِ
يَا رَاكِباً عَمْراً وَإِخْوَتَهَا ... إِنِّي لِمَنْ قَالَ رَبِّي بَاجِرٌ قَالِي

يعني بعمرو الصامت وإخوتها حطامة. فقلت يا رسول الله إني امرؤ مولع بالطرب وبالهلوك من النساء وشرب الخمر. وألحت علينا السنون فأذهبن الأموال وأهزلن السراري: وليس لي ولد، فادعو الله أن يذهب عني ما أجد ويأتينا بالحيا، ويهب لي ولداً، فقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ أَبْدِلْهُ بِالطَّرَبِ قِرَاءَةَ القُرْآنِ، وَبِالْحَرَامِ الحَلاَلَ وَبِالإِثْمِ وَبِالْعُهْرِ عِفَّةً وَآتِهِ بِالْحَيَا وَهَبْ لَهُ وَلَداً» قال فأذهب الله عني ما أجد وأخصبت عمان وتزوّجت أربع حرائر، وحفظت شطر القرآن، ووهب لي حيان بن مازن وأنشأ يقول: [الطويل]

إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ خَبَّتْ مَطِيَّتِي ... تَجُوبُ الفَيَافِي مِنْ عُمَانَ إِلَى العَرْجِ
لِتَشْفَعَ لِي يَا خَيْرَ مَنْ وَطِيءَ الحَصَى ... فَيَغْفِرَ لِي رَبِّي فَأَرْجِعَ بِالْفَلْجِ
إِلَى مَعْشَرٍ خَالَفْتُ فِي اللَّهِ دِينَهُمْ ... فَلاَ رَأْيُهُمْ رَأْيِي وَلاَ شَرْجُهُم شَرْجِي
وَكُنْتُ امْرأً بِالْخَمْرِ وَالعُهْرِ مُولَعاً ... شَبَابِيَ حَتَّى آذَنَ الجِسْمُ بِالنَّهْجِ
فَبَدَّلَنِي بِالْخَمْرِ خَوْفاً وَخِشْيَةً ... وَبِالْعُهْرِ إِحْصَاناً فَحَصَّنَ لِيَ فَرجِي
فَأَصْبَحْتُ هَمِّي فِي الجِهَادِ وَنِيَّتِي ... فَلِلَّهِ مَا صَوْمِي وَلِلَّهِ مَا حَجِّي

قال فلما أتيت قومي أنّبوني وشتموني، وأمروا شاعراً لهم فهجاني، فقلت إن رددت عليه فإنما أهجوا نفسي. فرحلت عنهم فأتتني منهم زلفة عظيمة، وكنت القيّم بأمورهم، فقالوا يا ابن عم: عبنا عليك أمراً وكرهنا ذلك فإن أبيت ذلك فارجع وقم بأمورنا، وشأنك وما تدين به. فرجعت معهم وقلت: [البسيط]

لَبُغْضُكُمْ عِنْدَنَا مُرٌّ مَذَاقَتُهُ ... وَبُغْضُنَا عِنْدَكُمْ يَا قَوْمَنَا لَبَنُ

لاَ يَفْطِنُ الدَّهْرُ إِنْ بُثَّتْ مَعَايِبُكُمْ وَكُلُّكُمْ حِينَ يَثْنِي عَيْبَنَا فَطِنُ
شَاعِرُنَا مُفْحِمٌ عَنْكُمْ وَشَاعِرُكُمْ فِي حَدْبِنَا مُبْلِغٌ فِي شَتْمِنَا لَسِنُ
مَا فِي القُلُوبِ عَلَيْكُمْ فَاعْلَمُوا وَغِرٌ وَفِي قُلُوبِكُمُ البَغْضَاءُ وَالإِحَنُ

قال مازن: فهداهم الله بعد إلى الإسلام جميعاً.

وروى الحافظ أبو نعيم من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله قال: إن أول خبر كان بالمدينة بمبعث رسول الله ﷺ إن امرأة بالمدينة كان لها تابع من الجنّ، فجاء في صورة طائر أبيض فوقع على حائط لهم، فقالت له: لم لا تنزل إلينا فتحدّثنا ونحدّثك، وتخبرنا ونخبرك؟ فقال لها إنه قد بعث نبي بمكّة حرّم الزنا ومنع منا الفرار[1].

وقال الواقدي: حدّثني عبد الرحمن بن عبد العزيز عن الزهري، عن علي بن الحسين. قال: إن أول خبر قدم المدينة عن رسول الله ﷺ أن امرأة تدعى فاطمة كان لها تابع، فجاءها ذات يوم، فقام على الجدار فقالت: ألا تنزل؟ فقال لا إنه قد بعث الرسول الذي حرّم الزّنا.

وأرسله بعض التابعين أيضاً وسماه بابن لوذان، وذكر أنه كان قد غاب عنها مدة، ثم لما قدم عاتبته فقال إني جئت الرسول فسمعته يحرّم الزنا فعليك السلام.

وقال الواقدي: حدّثني محمد بن صالح عن عاصم بن عمر بن قتادة. . قال قال عثمان بن عفان: خرجنا في عير إلى الشام ـ قبل أن يبعث رسول الله ﷺ ـ فلما كنا بأفواه الشام ـ وبها كاهنة ـ فتعرّضتنا، فقالت أتاني صاحبي فوقف على بابي، فقلت: ألا تدخل؟ فقال: لا سبيل إلى ذلك، خرج أحمد وجاء أمر لا يطاق، ثم انصرفت فرجعت إلى مكة فوجدت رسول الله ﷺ قد خرج بمكة يدعو إلى الله عزّ وجل.

وقال الواقدي: حدّثني محمد بن عبد الله الزهري. قال: كان الوحي يسمع فلما كان الإسلام منعوا، وكانت امرأة من بني أسد يقال لها سعيرة لها تابع من الجن، فلما رأى الوحي لا يستطاع، أتاها فدخل في صدرها فضجّ في صدرها، فذهب عقلها، فجعل يقول من صدرها: وضع العناق ومنع الرفاق وجاء أمر لا يطاق وأحمد حرّم الزنا.

وقال الحافظ أبو بكر الخرائطي: حدّثنا عبد الله بن محمد البلوي ـ بمصر ـ حدثنا عمارة بن زيد، حدثنا عيسى بن يزيد عن صالح بن كيسان، عمن حدّثه عن مرداس بن قيس السدوسي قال: حضرت النبي ﷺ ـ وقد ذكرت عنده الكهانة، وما كان من تغييرها عند مخرجه ـ فقلت: يا رسول الله قد كان عندنا في ذلك شيء أخبرك أن جارية منا يقال لها الخلصة لم يعلم عليها إلاّ خيراً، إذ جاءتنا فقالت: يا معشر دوس العجب العجب لما أصابني، هل علمتم إلاّ خيراً؟ قلنا وما ذاك؟ قالت إني لفي غنمي إذ غشيتني ظلمة ووجدت كحس الرجل مع المرأة فقد خشيت أن أكون قد حبلت. حتى إذا دنت ولادتها وضعت

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٣٥٦.

غلاماً أغضف[1] له أذنان كأذني الكلب، فمكث فينا حتى أنه ليلعب مع الغلمان، إذ وثب وألقى إزاره وصاح بأعلى صوته وجعل يقول: يا ويلة يا ويلة، يا عولة يا عولة، يا ويل غنم، يا ويل فهم، من قابس النار. الخيل والله وراء العقبة، فيهن فتيان حسان نجبة. قال: فركبنا وأخذنا للأداة وقلنا يا ويلك ما ترى فقال: [هل][2] من جارية طامث، فقلنا: ومن لنا بها؟ فقال شيخ منا هي والله عندي عفيفة الأم، فقلنا، فعجلها فأتى بالجارية. وطلع الجبل وقال للجارية: اطرحي ثوبك واخرجي في وجوههم، وقال للقوم اتبعوا أثرها، وقال لرجل منا يقال له أحمر بن حابس: يا أحمر بن حابس عليك أول فارس. فحمل أحمر[3] فطعن أول فارس فصرعه، وانهزموا فغنمناهم. قال فابتنينا عليهم بيتاً، وسمّيناه ذا الخلصة، وكان لا يقول لنا شيئاً إلاّ كان كما يقول، حتى إذا كان مبعثك يا رسول الله قال لنا يوماً: يا معشر دوس نزلت بنو الحارث بن كعب فركبنا فقال لنا: أكدسوا الخيل كدساً، أحشوا القوم رمساً، أنفوهم غدية واشربوا الخمر عشية. قال فلقيناهم فهزمونا وغلبونا فرجعنا إليه فقلنا: ما حالك وما الذي صنعت بنا؟ فنظرنا إليه وقد احمّرت عيناه وانتصبت أذناه، وانبرم غضباناً حتى كاد أن ينفطر، وقام فركبنا واغتفرنا هذه له، ومكثنا بعد ذلك حيناً ثم دعانا فقال: هل لكم في غزوة تهب لكم عزاً وتجعل لكم حرزاً ويكون في أيديكم كنزاً؟ فقلنا ما أحوجنا إلى ذلك، فقال: اركبوا فركبنا، فقلنا: ما تقول؟ فقال: بنو الحارث بن مسلمة، ثم قال: قفوا فوقنا ثم قال: عليكم بفهم، ثم قال: ليس لكم فيهم دم، عليكم بمضر هم أرباب خيل ونعم، ثم قال: لا، رهط دريد بن الصمة قليل العدد وفي الذمة ثم قال: لا، ولكن عليكم بكعب بن ربيعة وأسكنوها ضيعة عامر بن صعصعة فليكن بهم الوقيعة، قال: فلقيناهم فهزمونا وفضحونا فرجعنا وقلنا: ويلك ماذا تصنع بنا؟ قال ما أدري كذّبني الذي كان يصدقني. أسجنوني في بيتي ثلاثاً، ثم ائتوني، ففعلنا به ذلك، ثم أتيناه بعد ثالثة ففتحنا عنه فإذا هو كأنه حجرة نار، فقال: يا معشر دوس حرست السماء وخرج خير الأنبياء، قلنا: أين؟ قال: بمكة وأنا ميت فادفنوني في رأس جبل، فإني سوف أضطرم ناراً، وإن تركتموني كنت عليكم عاراً، فإذا رأيتم اضطرامي وتلّهبي فاقذفوني بثلاثة أحجار، ثم قولوا مع كل حجر بسمك اللهم فإني أهدى وأطفى. قال وإنه مات فاشتعل ناراً ففعلنا به ما أمر، وقد قذفناه بثلاثة أحجار نقول مع كل حجر بسمك اللهم، فخمد وطفى وأقمنا حتى قدم علينا الحاج، فأخبرونا بمبعثك يا رسول الله. غريب جداً .

وروى الواقدي عن أبيه عن ابن أبي ذئب، عن مسلم بن جندب، عن النضر بن سفيان الهذلي عن أبيه. قال: خرجنا في عير لنا إلى الشام فلما كان بين الزرقاء ومعان قد عرسنا من الليل فإذا بفارس يقول وهو بين السماء والأرض: أيها النيام هبوا فليس هذا بحين رقاد

---

(١) اغضف: المتثني والمسترخي الأذنين.

(٢) سقط في ط.

(٣) في ط: أحمد.

قد خرج أحمد فطردت الجن كل مطرد، ففزعنا ونحن رفقة حزورة[١] كلهم قد سمع بهذا، فرجعنا إلى أهلنا، فإذا هم يذكرون اختلافاً بمكّة بين قريش في نبي قد خرج فيهم من بني عبد المطلب اسمه أحمد. ذكره أبو نعيم. وقال الخرائطي: حدّثنا عبد الله بن محمد البلوي ـ بمصر ـ حدّثنا عمارة بن زيد، حدثني عبد الله بن العلاء، حدثني يحيى بن عروة عن أبيه أن نفراً من قريش منهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وزيد بن عمرو بن نفيل وعبد الله بن جحش بن رئاب، وعثمان بن الحويرث، كانوا عند صنم لهم يجتمعون إليه قد اتخذوا ذلك اليوم من كل سنة عيداً كانوا يعظّمونه وينحرون له الجزور، ثم يأكلون ويشربون الخمر، ويعكفون عليه، فدخلوا عليه في الليل فرأوه مكبوباً على وجهه، فأنكروا ذلك فأخذوه فردّوه إلى حاله، فلم يلبث أن انقلب انقلاباً عنيفاً، فأخذوه فردّوه إلى حاله فانقلب الثالثة، فلما رأوا ذلك اغتمّوا له وأعظموا ذلك. فقال عثمان بن الحويرث: ما له قد أكثر التنكّس، إن هذا لأمر قد حدث، وذلك في الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ فجعل عثمان يقول: [الطويل]

أَيَا صَنَمَ العِيدِ الَّذِي صُفَّ حَوْلَهُ ... صَنَادِيدُ وَفْدٍ مِنْ بَعِيدٍ ومِنْ قُرْبِ
تَنَكَّسْتَ مَغْلُوباً فَمَا ذَاكَ قُلْ لَنَا ... أَذَاكَ سَفِيهٌ أَمْ تَنَكَّسْتَ لِلْعَتْبِ
فَإِنْ كَانَ مِنْ ذَنْبٍ أَتَيْنَا فَإِنَّنَا ... نَبُوءُ بِأَقْرَارٍ وَنَلْوِي عَنِ الذَّنْبِ
وَإِنْ كُنْتَ مَغْلُوباً وَنُكِّسْتَ صَاغِراً ... فَمَا أَنْتَ فِي الأَوْثَانِ بِالسَّيِّدِ الرَّبِّ

قال: فأخذوا الصنم فردّوه إلى حاله، فلما استوى هتف بهم هاتف من الصنم بصوت جهير وهو يقول: [الطويل]

تَرَدَّى لِمَوْلُودٍ أَنَارَتْ بِنُورِهِ ... جَمِيعُ فِجَاجِ الأَرْضِ فِي الشَّرْقِ وَالغَرْبِ
وَخَرَّتْ لَهُ الأَوْثَانُ طُرّاً وَأُرْعِدَتْ ... قُلُوبُ مُلُوكِ الأَرْضِ طُرّاً مِنَ الرُّعْبِ
وَنَارُ جَمِيعِ الفُرْسِ بَاخَتْ وَأَظْلَمَتْ ... وَقَدْ بَاتَ شَاهُ الفُرْسِ فِي أَعْظَمِ الكَرْبِ
وَصُدَّتْ عَنِ الكُهَّانِ بِالغَيْبِ جِنُّهَا ... فَلاَ مُخْبِرٌ عَنْهُمْ بِحَقٍّ وَلاَ كِذْبِ
فَيَا لَقُصَيٍّ ارْجِعُوا عَنْ ضَلاَلِكُمْ ... وَهُبُّوا إِلَى الإِسْلاَمِ وَالمَنْزِلِ الرَّحْبِ

قال فلما سمعوا ذلك خلصوا نجياً، فقال بعضهم لبعض تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، فقالوا: أجل، فقال لهم ورقة بن نوفل: تعلمون والله ما قومكم على دين، ولقد أخطؤوا الحجّة وتركوا دين إبراهيم ما حجر تطيفون به لا يسمع ولا يبصر، ولا ينفع ولا يضر، يا قوم التمسوا لأنفسكم الدين. قال فخرجوا عند ذلك يضربون في الأرض، ويسألون عن الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام، فأما ورقة بن نوفل فتنصر وقرأ الكتب حتى علم علماً، وأما عثمان بن الحويرث فسار إلى قَيْصر فتنصر، وحسنت منزلته عنده، وأما زيد بن

(١) حزورة: الحزور: الفتى القوي.

عمرو بن نفيل فأراد الخروج فحبس، ثم إنه خرج بعد ذلك فضرب في الأرض حتى بلغ الرّقة من أرض الجزيرة، فلقي بها راهباً عالماً، فأخبره بالذي يطلب، فقال له الراهب إنك لتطلب ديناً ما تجد من يحملك عليه، ولكن قد أظلّك زمان نبي يخرج من بلدك، يبعث بدين الحنيفية، فلما قال له ذلك رجع يريد مكّة فغارت عليه لخم فقتلوه، وأما عبد الله بن جحش، فأقام بمكة حتى بعث النبي ﷺ، ثم خرج مع من خرج إلى أرض الحبشة، فلما صار به تنصّر، وفارق الإسلام فكان بها حتى هلك هنالك نصرانياً. تقدم في ترجمة زيد بن عمر بن نفيل له شاهد.

وقد قال الخرائطي: حدّثنا أحمد بن إسحاق بن صالح أبو بكر الوراق، حدّثنا عمرو بن عثمان، حدثني أبي، حدثنا عبد الله بن عبد العزيز، حدثني محمد بن عبد العزيز عن الزهري، عن عبد الرحمن بن أنس السلمي، عن العبّاس بن مرداس أنه كان يعر في لقاح له نصف النهار إذ طلعت عليه نعامة بيضاء عليها راكب عليه ثياب بياض مثل اللبن فقال: يا عبّاس بن مرداس ألم تر أن السماء قد كفّت أحراسها، وإن الحرب تجرّعت أنفاسها، وإن الخيل وضعت أحلاسها، وإن الذي نزل بالبرّ والتقوى، يوم الاثنين ليلة الثلاثاء صاحب الناقة القصوى. قال: فرجعت مرعوباً قد راعني ما رأيت وسمعت حتى جئت وثناً لنا يدعى الضماد وكنا نعبده ونكلّم من جوفه، فكنست ما حوله، ثم تمسّحت به وقبّلته فإذا صائح من جوفه يقول: [الكامل]

قُلْ لِلْقَبَائِلِ مِنْ سَلِيمٍ كُلِّهَا ... هَلَكَ الضِّمَادُ وَفَازَ أَهْلُ المَسْجِدِ
هَلَكَ الضِّمَادُ وَكَانَ يُعْبَدُ مَرَّةً ... قَبْلَ الصَّلَاةِ مَعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ
إنَّ الَّذِي وَرِثَ النُّبُوَّةَ وَالهُدَى ... بَعْدَ ابْنِ مَرْيَمَ مِنْ قُرَيْشٍ مُهْتَدِ

قال: فخرجت مرعوباً حتى أتيت قومي، فقصصت عليهم القصّة وأخبرتهم الخبر وخرجت في ثلاثمائة من قومي بني حارثة إلى رسول الله ﷺ وهو بالمدينة، فدخلنا المسجد فلما رآني رسول الله ﷺ قال لي: «يَا عَبَّاسُ كَيفَ كَانَ إِسْلَامُكَ»؟ فقصصت عليه القصّة. قال فسرّ بذلك وأسلمت أنا وقومي. ورواه الحافظ أبو نعيم في الدلائل من حديث أبي بكر بن أبي عاصم، عن عمرو بن عثمان به. ثم رواه أيضاً من طريق الأصمعي حدثني الوصافي عن منصور بن المعتمر، عن قبيصة بن عمرو بن إسحاق الخزاعي، عن العباس بن مرداس السلمي، قال: أول إسلامي أن مرداساً أبي لما حضرته الوفاة أوصاني بصنم له يقال ضماد، فجعلته في بيت، وجعلت آتيه كل يوم مرّة، فلمّا ظهر النبي ﷺ سمعت صوتاً مرسلاً في جوف الليل راعني، فوثبت إلى ضماد مستغيثاً، وإذا بالصوت من جوفه وهو يقول: [الكامل]

قُلْ لِلْقَبِيلَةِ مِنْ سُلَيْمٍ كُلِّهَا ... هَلَكَ الأَنِيسُ وَعَاشَ أَهْلُ المَسْجِدِ
أَوْدَى ضِمَادُ وَكَانَ يُعْبَدُ مَرَّةً ... قَبْلَ الكِتَابِ إِلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

إنَّ الَّـذِي وَرِثَ الـنُّـبُـوَّةَ وَالـهُـدَى بَـعْـدَ ابـنِ مَـرْيَـمَ مِـنْ قُـرَيْـشٍ مُـهْـتَـدِ

قال: فكتمته الناس، فلما رجع الناس من الأحزاب بينا أنا في إبلي بطرف العقيق من ذات عرق راقداً، سمعت صوتاً وإذا برجل على جناح نعامة وهو يقول: النور الذي وقع ليلة الثلاثاء مع صاحب الناقة العضباء في ديار إخوان بني العنقاء، فأجابه هاتف من شماله وهو يقول:

بَـشِّـرِ الـجِـنَّ وَإِبْـلاَسَـهَـا إِنْ وَضَـعَـتْ الـمَـطِـيُّ أَحْـلاَسَـهَـا
وَكَـلأَتِ الـسَّـمَـاءُ أَحْـرَاسَـهَـا

قال فوثبت مذعوراً، وعلمت أن محمداً مرسل، فركبت فرسي واحتثثت السير حتى انتهيت إليه فبايعته، ثم انصرفت إلى ضماد فأحرقته بالنار، ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ فأنشدته شعراً أقول فيه: [الطويل]

لَـعَـمْـرُكَ إِنِّـي يَـوْمَ أَجْـعَـلُ جَـاهِـلاً ضِـمَـاداً لِـرَبِّ الـعَـالَـمِـيـنَ مُـشَـارَكَـا
وَتَـرْكِـي رَسُـولَ الـلَّـهِ وَالأَوْسُ حَـوْلَـهُ أُولَـئِـكَ أَنْـصَـارٌ لَـهُ مَـا أُولَـئِـكَـا
كَتَارِكِ سَهْلِ الأَرْضِ وَالحُزْنِ[1] يَبْتَغِي لِيَسْلُكَ فِي وَعْثِ الأُمُورِ المَسَالِكَا
فَـآمَـنْـتُ بِـالـلَّـهِ الَّـذِي أَنَـا عَـبْـدُهُ وَخَـالَـفْـتُ مِـنْ أَمْسَى يُرِيدُ المَهَالِكَا
وَوَجَّـهْـتُ وَجْـهِـي نَـحْـوَ مَـكَّـةَ قَـاصِـداً أُبَـايِـعُ نَـبِـيَّ الأَكْـرَمِـيـنَ الـمُـبَـارَكَـا
نَـبِـيٌّ أَتَـانَـا بَـعْـدَ عِـيـسَـى بِـنَـاطِـقٍ مِـنَ الـحَـقِّ فِـيـهِ الـفَـضْـلُ فِـيـهِ كَـذَلِـكَـا
أَمِـيـنٌ عَـلَـى الـقُـرْآنِ أَوَّلُ شَـافِـعٍ وَأَوَّلُ مَـبْـعُـوثٍ يُـجِـيـبُ الـمَـلاَئِـكَـا
تَـلاَفَـى عُـرَى الإِسْلاَمِ بَعْدَ انْتِقَاضِهَا فَـأَحْـكَـمَـهَـا حَـتَّـى أَقَـامَ الـمَـنَـاسِـكَـا
عَـنَـيْـتُـكَ يَـا خَـيْـرَ الـبَـرِيَّـةِ كُـلِّـهَـا تَوَسَّطْتَ فِي القَرْعَيْنِ وَالمَجْدِ مَالِكَا
وَأَنْـتَ الـمُـصَـفَّـى مِـنْ قُـرَيْـشٍ إِذَا سَـمَـتْ عَلَى ضُمْرِهَا تَبْقَى القُرُونَ المَبَارِكَا
إِذَا انْـتَـسَـبَ الـحَـيَّـانِ كَـعْـبٌ وَمَـالِـكٌ وَجَـدْنَـاكَ مَـحْـضـاً وَالـنِّـسَـاءَ الـعَـوَارِكَـا

قال الخرائطي: وحدثنا عبد الله بن محمد البلوي بمصر، حدثنا عمارة بن زيد، حدثنا إسحاق بن بشر وسلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق، حدثني، شيخ من الأنصار يقال له عبد الله بن محمود من آل محمد بن مسلمة قال: بلغني أن رجالاً من خثعم كانوا يقولون إن مما دعانا إلى الإسلام إنا كنا قوماً نعبد الأوثان فبينا نحن ذات يوم عند وثن لنا، إذ أقبل نفر يتقاضون إليه يرجون الفرج من عنده، لشيء شجر بينهم، إذ هتف بهم هاتف يقول: [الرجز]

يَـا أَيُّـهَـا الـنَّـاسُ ذَوُو الأَجْـسَـامِ مِـنْ بَـيْـنِ أَشْـيَـاخٍ إِلَـى غُـلاَمِ
مَـا أَنْـتُـمْ وَطَـائِـشُ الأَحْـلاَمِ وَمُـسْـنِـدُ الـحُـكْـمِ إِلَـى الأَصْـنَـامِ

(١) الحزن: الأرض الصعبة.

أَكُلُّكُمْ فِي حِيرَةٍ نِيَامِ أَمْ لاَ تَرَوْنَ مَا الَّذِي أَمَامِي
مِنْ سَاطِعٍ يَجْلُو دُجَى الظَّلاَمِ قَدْ لاَحَ لِلنَّاظِرِ مِنْ تِهَامِ
ذَاكَ نَبِيٌّ سَيِّدُ الأَنَامِ قَدْ جَاءَ بَعْدَ الكُفْرِ بِالإِسْلاَمِ
أَكْرَمَهُ الرَّحْمٰنُ مِنْ إِمَامِ وَمِنْ رَسُولٍ صَادِقِ الكَلاَمِ
أَعْدَلُ ذِي حُكْمٍ مِنَ الأَحْكَامِ يَأْمُرُ بِالصَّلاَةِ وَالصِّيَامِ
وَالبِرِّ وَالصِّلاَتِ لِلأَرْحَامِ وَيَزْجُرُ النَّاسَ عَنِ الآثَامِ
وَالرِّجْسِ وَالأَوْثَانِ وَالحَرَامِ مِنْ هَاشِمٍ فِي ذُرْوَةِ السَّنَامِ
مُسْتَعْلِناً فِي البَلَدِ الحَرَامِ

قال فلما سمعنا ذلك تفرّقنا عنه وأتينا النبي ﷺ فأسلمنا.

وقال الخرائطي: حدّثنا عبد الله البلوي، حدّثنا عمارة، حدثني عبيد الله بن العلاء، حدثنا محمد بن عكبر عن سعيد بن جبير: أن رجلاً من بني تميم يقال له رافع بن عمير - وكان أهدى الناس للطريق وأسراهم بليل، وأهجمهم على هول، وكانت العرب تسمّيه لذلك دعموص العرب لهدايته وجراءته على السير - فذكر عن بدء إسلامه قال إني لأسير برمل عالج ذات ليلة إذ غلبني النوم، فنزلت عن راحلتي ونختها وتوسّدت ذراعها، ونمت. وقد تعوّذت قبل نومي فقلت أعوذ بعظيم هذا الوادي من الجنّ من أن أوذى أو أهاج، فرأيت في منامي رجلاً شاباً يرصد ناقتي وبيده حربة يريد أن يضعها في نحرها، فانتبهت لذلك فزعاً فنظرت يميناً وشمالاً فلم أرَ شيئاً، فقلت هذا حلم ثم عدت فغفوت، فرأيت في منامي مثل رؤياي الأولى، فانتبهت فدرت حول ناقتي فلم أر شيئاً، وإذا ناقتي ترعد، ثم غفوت فرأيت مثل ذلك فانتبهت فرأيت ناقتي تضطرب والتفت فإذا أنا برجل شاب كالذي رأيت في المنام بيده حربة، ورجل شيخ ممسك بيده يرده عنها وهو يقول: [الكامل]

يَا مَالِكُ بْنَ مُهَلْهِلِ بْنِ دِثَارِ مَهْلاً فِدًى لَكَ مِئْزَرِي وَإِزَارِي
عَنْ نَاقَةِ الإِنْسِيِّ لاَ تَعْرِضْ لَهَا وَاخْتَرْ بِهَا مَا شِئْتَ مِنْ أَثْوَارِي
وَلَقَدْ بَدَا لِي مِنْكَ مَا لَمْ أَحْتَسِبْ أَلاَّ رَعَيْتَ قَرَابَتِي وَذِمَارِي
تَسْمُو إِلَيْهِ بِحَرْبَةٍ مَسْمُومَةٍ تَبّاً لِفِعْلِكَ يَا أَبَا الغُفَّارِ
لَوْلاَ الحَيَاءُ وَأَنَّ أَهْلَكَ جِيرَةٌ لَعَلِمْتَ مَا كَشَفْتَ مِنْ أَخْبَارِي

قال فأجابه الشاب وهو يقول: [الكامل]

أَأَرَدْتَ أَنْ تَعْلُو وَتَخْفِضَ ذِكْرَنَا فِي غَيْرِ مُزْرِيَةٍ أَبَا العَيْزَارِ
مَا كَانَ فِيهِمْ سَيِّدٌ فِيمَا مَضَى إِنَّ الخِيَارَ هُمُو بَنُو الأَخْيَارِ

(١) الذمار: ما يلزم حفظه ورعايته.

فَاقْصِدْ لِقَصْدِكَ يَا مُعَكْبِرُ إِنَّمَا كَانَ الْمُجِيرُ مُهَلْهِلَ بْنَ دِثَارِ

قال فبينما هما يتنازعان إذ طلعت ثلاثة أثوار من الوحش، فقال الشيخ للفتى قم يا ابن أخت فخذ أيها شئت فداء لناقة جاري الأنسي، فقام الفتى فأخذ منها ثوراً وانصرف. ثم التفت إلى الشيخ فقال يا هذا إذا نزلت وادياً من الأودية فخفت هوله، فقل: أعوذ بالله ربّ محمّد من هول هذا الوادي، ولا تعذ بأحد من الجنّ فقد بطل أمرها، قال فقلت له: ومن محمد هذا؟ قال نبيّ عربي لا شرقي ولا غربي، بعث يوم الاثنين. قلت: وأين مسكنه؟ قال: يثرب ذات النخل. قال فركبت راحلتي حين برق لي الصبح، وجددت السير حتى تقحمت المدينة، فرآني رسول الله ﷺ فحدّثني بحديثي قبل أن أذكر له منه شيئاً، ودعاني إلى الإسلام فأسلمت. قال سعيد بن جُبَيْر وكنا نرى أنه هو الذي أنزل الله فيه ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦].

وروى الخرائطي من طريق إبراهيم بن إسماعيل بن حمّاد بن أبي حنيفة عن داود بن الحسين، عن عكرمة عن ابن عبّاس، عن علي، قال: إذا كنت بواد تخاف السبع فقل: أعوذ بدانيال والجب، من شر الأسد. وروى البلوي عن عمارة بن زيد، عن إبراهيم بن سعد، عن محمد بن إسحاق حدثني يحيى بن عبد الله بن الحارث عن أبيه، عن ابن عبّاس قصّة قتال عليّ الجن بالبئر ذات العلم التي بالجحفةُ حين بعثه رسول الله ﷺ يستقي لهم الماء، فأرادوا منعه، وقطعوا الدلو فنزل إليهم، وهي قصة مطولة منكرة جداً والله أعلم.

وقال الخرائطي: حدثني أبو الحارث محمد بن مصعب الدمشقي وغيره، حدّثنا سليمان ابن بنت شرحبيل الدمشقي، حدثنا عبد القدوس بن الحجاج، حدثنا خالد بن سعيد عن الشعبي، عن رجل قال: كنت في مجلس عمر بن الخطاب وعنده جماعة من أصحاب النبي ﷺ يتذاكرون فضائل القرآن، فقال بعضهم خواتيم سورة النحل، وقال بعضهم سورة يس، وقال علي: فأين أنتم عن فضيلة آية الكرسي أما إنها سبعون كلمة في كل كلمة [سبعون][1] بركة. قال: وفي القوم عمرو بن معدي كرب لا يحير جواباً فقال: أين أنتم عن بسم الله الرحمن الرحيم؟ فقال عمر: حدّثنا يا أبا ثور. قال بينا أنا في الجاهلية إذ جهدني الجوع فأقحمت فرسي في البرية فما أصبت إلا بيض النعام، فبينا أنا أسير إذا أنا بشيخ عربي في خيمة، وإلى جانبه جارية كأنها شمس طالعة ومعه غنيمات له، فقلت له استأسر ثكلتك أمك. فرفع رأسه إليّ وقال: يا فتى إن أردت قرى فأنزل، وإن أردت معونة أعنّاك. فقلت له استأسر فقال: [الطويل]

عَرَضْنَا عَلَيْكَ النَّزْلَ مِنَّا تَكَرُّماً فَلَمْ تَرْعَوِي[2] جَهْلاً كَفِعْلِ الأَشَائِمِ
وَجِئْتَ بِبُهْتَانٍ وَزُورٍ وَدُونَ مَا تَمَنَّيْتَهُ بِالبِيضِ حَزُّ الغَلاَصِمِ[3]

(١) سقط في ط. (٢) ترعوي: تهتدي بعد الضلال.
(٣) الغلاصم: اللحم بين الرأس والعنق، والمراد هنا ابنته وحريمه.

قال ووثب إليّ وثبة وهو يقول: بسم الله الرحمن الرحيم. فكأني مثلت تحته. ثم قال: أقتلك أم أخلّي عنك؟ قلت: بل خلِّ عني، قال: فخلّى عني. ثم إن نفسي جاذبتني بالمعاودة. فقلت: استأسر ثكلتك أمك فقال: [الوافر]

بِـبِـسْـمِ الـلَّـهِ وَالـرَّحْـمٰـنِ فُـزْنَـا ... هُـنَـالِـكَ وَالـرَّحِـيـمُ بِـهِ قَـهَـرْنَـا

وَمَـا تُـغْـنِـي جَـلاَدَةُ ذِي حِـفَـاظٍ ... إِذَا يَـوْمـاً لِـمَـعْـرَكَـةٍ بَـرَزْنَـا

ثم وثب لي وثبة كأني مثلت تحته. فقال: أقتلك أم أخلّي عنك؟ قال قلت: بل خلِّ عني. فخلّى عني فانطلقت غير بعيد. ثم قلت في نفسي يا عمرو أيقهرك هذا الشيخ. والله للموت خير لك من الحياة، فرجعت إليه فقلت له استأسر ثكلتك أمك. فوثب إليّ وثبة وهو يقول بسم الله الرحمن الرحيم فكأني مثلت تحته، فقال أقتلك أم أخلّي عنك؟ قلت: بل خلِّ عني فقال: هيهات، يا جارية ائتني بالمدية فأتته بالمدية فجز ناصيتي وكانت العرب إذا ظفرت برجل فجزّت ناصيته استعبدته، فكنت معه أخدمه مدّة. ثم إنه قال: يا عمرو أريد أن تركب معي البرية وليس بي منك وجل، فإني ببسم الله الرحمن الرحيم لواثق، قال: فسرنا حتى أتينا وادياً أشباً مهولاً مغولاً فنادى بأعلى صوته بسم الله الرحمن الرحيم. فلم يبق طير في وكره إلا طار. ثم أعاد القول فلم يبق سبع في مربضه إلاّ هرب، ثم أعاد الصوت فإذا نحن بحبشي قد خرج علينا من الوادي كالنخلة السحوق، فقال لي: يا عمرو إذا رأيتنا قد اتحدنا فقل غلبه صاحبي ببسم الله الرحمن الرحيم. قال: فلما رأيتهما قد اتحدا قلت غلبه صاحبي باللاّت والعزّى. فلم يصنع الشيخ شيئاً، فرجع إليّ وقال: قد علمت أنك قد خالفت قولي. قلت: أجل ولست بعائد، فقال: إذا رأيتنا وقد اتحدنا فقل غلبه صاحبي ببسم الله الرحمن الرحيم، فقلت: أجل، فلما رأيتهما قد اتحدا قلت غلبه صاحبي ببسم الله الرحمن الرحيم، فاتكأ عليه الشيخ فبعجه بسيفه، فاشتقّ بطنه فاستخرج منه شيئاً كهيئة القنديل الأسود، ثم قال: يا عمرو هذا غشّه وغلّه[1]. ثم قال أتدري مَنْ تلك الجارية؟ قلت: لا، قال: تلك الفارعة بنت السليل الجرهمي من خيار الجنّ. وهؤلاء أهلها بنو عمّها يغزونني منهم كل عام رجل ينصرني الله عليه ببسم الله الرحمن الرحيم. ثم قال: قد رأيت ما كان منّي إلى الحبشي. وقد غلب عليّ الجوع فائتني بشيء آكله، فأقحمت بفرسي البرية فما أصبت إلا بيض النعام، فأتيته به فوجدته نائماً، وإذا تحت رأسه شيء كهيئة الخشبة، فاستللته فإذا هو سيف عرضه شبر في سبعة أشبار، فضربت ساقيه ضربة أبنت الساقين مع القدمين، فاستوى على قفا ظهره وهو يقول قاتلك الله ما أغدرك يا غدّار. قال عمر: ثم ماذا صنعت؟ قلت فلم أزل أضربه بسيفي حتى قطعته إرباً أربا. قال: فوجم لذلك ثم أنشأ يقول: [البسيط]

بِـالـغَـدْرِ نِـلْـتَ أَخَـا الإِسْـلاَمِ عَـنْ كَـثَـبِ ... مَـا إِنْ سَـمِـعْـتُ كَـذَا فِـي سَـالِـفِ الـعَـرَبِ

---

(١) الغل: الحقد.

وَالعُجمُ تأنَفُ مِمَّا جِئتَهُ كَرَماً تَبّاً لِمَا جِئتَهُ فِي السَّيِّدِ الأَرِبِ[1]
إِنِّي لأعجَبُ أنِّي نِلْتُ قِتلَتَهُ أم كَيفَ جَازَاكَ عِندَ الذَّنبِ لَم تُنِبِ؟
قِرْمٌ عَفَا عَنكَ مَرَّاتٍ وَقَدْ عَلِقَتْ بِالجِسْمِ مِنكَ يَدَاهُ مَوضِعَ العَطَبِ
لَوْ كُنتَ آخِذُ فِي الإِسْلامِ مَا فَعَلُوا فِي الجَاهِلِيَّةِ أَهْلَ الشِّرْكِ وَالصُّلُبِ
إِذاً لَنَالَتكَ مِن عَدلِي مُشَطَّبَةٌ[2] تَدعُو لِذَائِقِهَا بِالوَيْلِ وَالحَرَبِ

قال: ثم ما كان من حال الجارية؟ قلت: ثم إني أتيت الجارية. فلما رأتني قالت: ما فعل الشيخ؟ قلت: قتله الحبشي، فقالت: كذبت بل قتلته أنت بغدرك، ثم انشأت تقول: [الخفيف]

يَا عَينُ جُودِي لِلفَارِسِ المِغْوَارِ ثُمَّ جُودِي بِوَاكِفَاتٍ[3] غِزَارِ
لا تَمَلِّي البُكَاءَ إِذْ خَانَكِ الدَّ هْرُ بِوَافٍ حَقِيقَةٍ صَبَّارِ
وَتَقِيٍّ وَذِي وَقَارٍ وَحِلْمٍ وَعَدِيلِ الفَخَارِ يَوْمَ الفَخَارِ
لَهفَ نَفسِي عَلَى بَقَائِكَ عَمْرُو أَسْلَمَتكَ الأَعْمَارُ لِلأَقْدَارِ
وَلَعَمْرِي لَوْ لَمْ تَرُمْهُ بِغَدْرٍ رُمْتَ لَيْثاً كَصَارِمٍ بَتَّارِ

قال: فأحفظني قولها فاستللت سيفي ودخلت الخيمة لأقتلها فلم أر في الخيمة أحداً، فاستقت الماشية وجئت الى أهلي. وهذا أثر عجيب. والظاهر أن الشيخ كان من الجان، وكان ممن أسلم وتعلّم القرآن، وفيما تعلّمه بسم الله الرحمن الرحيم. وكان يتعوّذ بها.

وقال الخرائطي: حدّثنا عبد الله بن محمد البلوي، حدثنا عمارة بن زيد قال: حدثني عبد الله بن العلاء عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن جدته أسماء بنت أبي بكر قالت: كان زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل يذكران أنهما أتيا النجاشي بعد رجوع أبرهة من مكّة، قالا: فلما دخلنا عليه قال لنا: أصدقاني أيها القرشيان هل ولد فيكم مولود أراد أبوه ذبحه فضرب عليه بالقداح فسلم ونحرت عنه إبل كثيرة؟ قلنا: نعم. قال فهل لكما علم به ما فعل؟ قلنا تزوّج امرأة يقال لها آمنة بنت وهب تركها حاملاً وخرج قال فهل تعلمان ولد أم لا؟ قال ورقة بن نوفل: أخبرك أيها الملك أني ليلة قد بتّ عند وثن لنا كنا نطيف به، ونعبده إذ سمعت من جوفه هاتفاً يقول: [الكامل]

وُلِدَ النَّبِيُّ فَذَلَّتِ الأَمْلاكُ وَنَأَى الضَّلالُ وَأَدبَرَ الإِشْرَاكُ

ثم انتكس الصنم على وجهه. فقال زيد بن عمرو بن نفيل: عندي كخبره أيها الملك. قال: هات، قال: أنا في مثل هذه الليلة التي ذكر فيها حديثه، خرجت من عند أهلي وهم يذكرون حمل آمنة، حتى أتيت جبل أبي قبيس أريد الخلو فيه لأمر رابني، إذ رأيت رجلاً نزل من السماء له جناحان أخضران، فوقف على أبي قبيس، ثم أشرف على مكّة فقال: ذُلَّ

(١) الأرب: العاقل. (٢) مشطبة: أي مهلكة. (٣) واكفات: الدموع المنسكبة.

الشيطان وبطلت الأوثان ولد الأمين. ثم نشر ثوباً معه وأهوى به نحو المشرق والمغرب، فرأيته قد جلّل ما تحت السماء، وسطع نور كاد أن يختطف بصري وهالني ما رأيت. وخفق الهاتف بجناحيه حتى سقط على الكعبة. فسطع له نور أشرقت له تهامة. وقال: ذكت الأرض وأدت ربيعها. وأومأ إلى الأصنام التي كانت على الكعبة فسقطت كلّها. قال النجاشي: ويحكما أخبركما عمّا أصابني، إني لنائم في الليلة التي ذكرتما في قبة وقت خلوتي، إذ خرج عليّ من الأرض عنق ورأس، وهو يقول حلّ الويل بأصحاب الفيل، رمتهم طير أبابيل، بحجارة من سجيل هلك الأشرم المعتدي المجرم، وولد النبيّ الأميّ، المكّي الحرمي، من أجابه سعد، ومن أباه عتد. ثم دخل الارض فغاب، فذهبت أصيح فلم أطق الكلام، ورمت القيام فلم أطق القيام، فصرعت القبة بيدي؟ فسمع بذلك أهلي فجاؤوني فقلت: احجبوا عني الحبشة، فحجبوهم عني، ثم أطلق عن لساني ورجلي.

وسيأتي إن شاء الله تعالى في قصّة المولد رؤيا كسرى في سقوط أربع عشرة شرافة من إيوانه، وخمود نيرانه ورؤيا موبذانه، وتفسير سطيح لذلك على يدي عبد المسيح.

وروى الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخه في ترجمة الحارث بن هانىء بن المدلج بن المقداد بن زمل بن عمرو العذري عن أبيه، عن جده، عن أبيه عن زمل بن عمرو العذري قال: كان لبني عذرة صنم يقال له حمام وكانوا يعظّمونه وكان في بني هند بن حرام بن ضبة بن عبد بن كثير بن عذرة وكان سادنه رجلاً يقال له طارق، وكانوا يعترون عنده. فلما ظهر رسول الله ﷺ سمعنا صوتاً يقول يا بني هند بن حرام، ظهر الحق وأودى صمام ودفع الشرك الإسلام. قال: ففزعنا لذلك وهالنا فمكثنا أياماً. ثم سمعنا صوتاً وهو يقول: يا طارق يا طارق. بعث النبيّ الصادق، بوحي ناطق، صدع صادع بأرض تهامة، لناصريه السلامة، ولخاذليه الندامة، هذا الوداع مني إلى يوم القيامة. قال زمل: فوقع الصنم لوجهه. قال: فابتعت راحلة ورحلت حتى أتيت النبي ﷺ مع نفر من قومي وأنشدته شعراً قلته: [الطويل]

إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ أَعْمَلْتُ نَصَّهَا ... وَكَلَّفْتُهَا حَزْناً وَغَوْراً مِنَ الرَّمْلِ
لأَنْصُرَ خَيْرَ النَّاسِ نَصْراً مُؤَزَّراً ... وَأَعْقُدَ حَبْلاً مِنْ حِبَالِكَ فِي حَبْلِي
وَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ لاَ شَيْءَ غَيْرَهُ ... أَدِينُ بِهِ مَا أَثْقَلَتْ قَدَمِي نَعْلِي

قال: فأسلمت وبايعته. وأخبرناه بما سمعنا فقال: «ذَاكَ مِنْ كَلاَمِ الجِنِّ». ثم قال: «يَا مَعْشَرَ العَرَبِ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ وَإِلَى الأَنَامِ كَافَّةً، أَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَإِنِّي رَسُولُهُ وَعَبْدُهُ، وَأَنْ تَحُجُّوا البَيْتَ وَتَصُومُوا شَهْراً مِنَ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْراً، وَهُوَ شَهْرُ رَمَضَانَ، فَمَنْ أَجَابَنِي فَلَهُ الجَنَّةُ نُزُلاً، وَمَنْ عَصَانِي كَانَتِ النَّارُ لَهُ مُنْقَلَبَاً». قال: فأسلمنا وعقد لنا لواء. وكتب لنا كتاباً نسخته: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ لِزَمَلَ بْنِ عَمْرٍو وَمَنْ أَسْلَمَ مَعَهُ خَاصَّةً، إِنِّي بَعَثْتُهُ إِلَى قَوْمِهِ عَامة فَمَنْ أَسْلَمَ فَفِي حِزْبِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَمَنْ أَبَى فَلَهُ أَمَانُ شَهْرَيْنِ. شَهِدَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ الأَنْصَارِي» ثم قال ابن عساكر: غريب جداً.

وقال سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي في مغازيه: حدّثني محمد بن سعيد ـ يعني

عمه ـ. قال: قال محمد بن المنكدر: إنه ذكر لي عن ابن عبّاس قال: هتف هاتف من الجنّ على أبي قبيس فقال: [الخفيف]

قَبَّحَ اللَّهُ رَأْيَكُمْ آلَ فِهْرٍ ... مَا أَدَقَّ العُقُولَ وَالأَفْهَامِ
حِينَ تُغْضَى لِمَنْ يَعِيبُ عَلَيْهَا ... دِينَ آبَائِهَا الحُمَاةِ الكِرَامِ
حَالَفَ الجِنُّ جِنُّ بُصْرَى عَلَيْكُم ... وَرِجَالُ النَّخِيلِ وَالآطَامِ
يُوشِكُ الخَيْلُ إِنْ تَرِدْهَا تَهَادَى ... تَقْتُلُ القَوْمَ فِي حَرَامٍ بَهَامِ
هَلْ كَرِيمٌ مِنْكُمْ لَهُ نَفْسُ حُرٍّ ... مَاجِدِ الوَالِدَيْنِ وَالأَعْمَامِ
ضَارِبٌ ضَرْبَةً تَكُونُ نَكَالاً ... وَرَوَاحاً مِنْ كُرْبَةٍ وَاغْتِمَامِ

قال ابن عباس: فأصبح هذا الشعر حديثاً لأهل مكة يتناشدونه بينهم. فقال رسول الله ﷺ: «هَذَا شَيْطَانٌ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الأَوْثَانِ يُقَالُ لَهُ مِسْعَرٌ، وَاللَّهُ مُخْزِيهِ» فمكثوا ثلاثة أيام فإذا هاتف يهتف على الجبل يقول: [الرجز]

نَحْنُ قَتَلْنَا فِي ثَلاَثٍ مِسْعَرَا ... إِذْ سَفَّهَ الجِنَّ وَسَنَّ المُنْكَرَا
قَنَّعْتُهُ سَيْفاً حُسَاماً مُشْهَرَا ... بِشَتْمِهِ نَبِيَّنَا المُطَهَّرَا

فقال رسول الله ﷺ: «هَذَا عِفْرِيتٌ مِنَ الجِنِّ اسْمُهُ سَمِجٌ آمَنَ بِي سَمَّيْتُهُ عَبْدَ اللَّهِ، أَخْبَرَنِي أَنَّهُ فِي طَلَبِهِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ» فقال عليّ: جزاه الله خيراً يا رسول الله.

وقد روى الحافظ أبو نعيم في الدلائل قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر، حدثنا أبو الفضل محمد بن عبد الرحمن بن موسى بن أبي حرب الصفّار، حدثنا عباس بن الفرج الرياشي، حدثنا سليمان بن عبد العزيز بن أبي ثابت، عن أبيه، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن ابن عبّاس، عن سعد بن عبادة قال: بعثني رسول الله ﷺ الى حضرموت في حاجة قبل الهجرة، حتى إذا كنت في بعض الطريق ساعة من الليل فسمعت هاتفاً يقول: [الوافر]

أَبَا عَمْرٍو تَأَوَّبَنِي السُّهُودُ ... وَرَاحَ النَّوْمُ وَامْتَنَعَ الهُجُودُ
لِذِكْرِ عِصَابَةٍ سَلَفُوا وَبَادُوا ... وَكُلُّ الخَلْقِ قَصْرُهُمُ يَبِيدُ
تَوَلَّوْا وَارِدِينَ إِلَى المَنَايَا ... حِيَاضاً لَيْسَ مَنْهَلُهَا الوُرُودُ
مَضَوْا لِسَبِيلِهِمْ وَبَقِيتُ خَلْفاً ... وَحِيداً لَيْسَ يُسْعِفُنِي وَحِيدُ
سُدًى لاَ أَسْتَطِيعُ عِلاَجَ أَمْرٍ ... إِذَا مَا عَالَجَ الطِّفْلُ الوَلِيدُ
فَلأْياً مَا بَقِيتُ إِلَى أُنَاسٍ ... وَقَدْ بَانَتْ بِمَهْلِكِهَا ثَمُودُ
وَعَادٌ وَالقُرُونُ بِذِي شُعُوبٍ[1] ... سَوَاءٌ كُلُّهُمْ إِرَمٌ[2] حَصِيدُ

(١) شعوب: جمع شعبة، وهي الطريق في الجبل. (٢) إرم: قبيلة بائدة.

قال: ثم صاح به آخر: يا خرعب ذهب بك العجب. إن العجب كل العجب بين زهرة ويثرب. قال وما ذاك يا شاحب؟ قال نبي السلام، بعث بخير الكلام إلى جميع الأنام، فأخرج من البلد الحرام إلى نخيل وآطام. قال: ما هذا النبيّ المرسل والكتاب المنزل، والأميّ المفضّل؟ قال رجل من ولد لؤي بن غالب بن فهر بن النضر بن كنانة. قال: هيهات فات عن هذا سني، وذهب عنه زمني لقد رأيتني والنضر بن كنانة نرمي غرضاً واحداً، ونشرب حلباً بارداً، ولقد خرجت به من دوحة في غداة شبمة[1] وطلع مع الشمس وغرب معها، يروي ما يسمع ويثبت ما يبصر. ولئن كان هذا من ولده لقد سلّ السيف وذهب الخوف، ودحض الزّنى، وهلك الربا. قال: فأخبرني ما يكون؟ قال: ذهبت الضراء والبؤس والمجاعة، والشدّة والشجاعة، إلاّ بقية في خزاعة. وذهبت الضرّاء والبؤس، والخلق المنفوس إلاّ بقية من الخزرج والأوس. وذهبت الخيلاء والفخر، والنميمة والغدر، إلا بقية في بني بكر. يعني ابن هوازن. وذهب الفعل المندم والعمل المؤثم، إلاّ بقية في خثعم. قال: أخبرني ما يكون؟ قال إذا غلبت البرة، وكظمت الحرة، فاخرج من بلاد الهجرة، وإذا كف السلام، وقطعت الأرحام فاخرج من البلد الحرام. قال: أخبرني ما يكون؟ قال لولا أذن تسمع، وعين تلمع لأخبرتك بما تفزع. ثم قال: [الخفيف]

لاَ مَنَامٌ هَدَأْتُهُ بِنَعِيمِ ... يَا ابْنَ غَوْطٍ وَلاَ صَبَاحٌ أَتَانَا

قال: ثم صرصر صرصرة كأنها صرصرة حبلى، فذهب الفجر فذهبت لأنظر فإذا عظاية[2] وثعبان ميتان. قال: فما علمت أن رسول الله ﷺ هاجر إلى المدينة إلا بهذا الحديث. ثم رواه عن محمد بن جعفر عن إبراهيم بن علي عن النضر بن سلمة، عن حسّان بن عبادة بن موسى، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر، عن ابن عباس، عن سعد بن عبادة. قال: لما بايعنا رسول الله ﷺ ليلة العقبة خرجت الى حضرموت لبعض الحاج، قال: فقضيت حاجتي ثم أقبلت حتى إذا كنت ببعض الطريق نمت، ففزعت من الليل بصائح يقول: [الوافر]

أَبَا عَمْرٍو تَأَوَّبَنِي السُّهُودُ ... وَرَاحَ النَّوْمُ وَانْقَطَعَ الهُجُودُ

وذكر مثله بطوله.

وقال أبو نعيم: حدثنا محمد بن جعفر، حدّثنا إبراهيم بن علي، حدثنا النضر بن سلمة، حدثنا أبو غزية محمد بن موسى عن العطاف بن خالد الوصابي، عن خالد بن سعيد، عن أبيه قال: سمعت تميماً الداري يقول: كنت بالشام حين بعث النبيّ ﷺ، فخرجت لبعض حاجتي فأدركني الليل. فقلت أنا في جوار عظيم هذا الوادي الليلة. قال فلما أخذت مضجعي إذا أنا بمناد ينادي ـ لا أراه ـ عذ بالله فإن الجنّ لا تجير أحداً على الله، فقلت: أيم الله تقول؟ فقال: قد خرج رسول الأميين رسول الله وصلينا خلفة بالحجون.

---

(١) شبمة: باردة.

(٢) عظاية: دويبة ملساء تمشي مشياً سريعاً ثم تقف.

فأسلمنا واتبعناه وذهب كيد الجنّ ورميت بالشهب. فانطلق إلى محمّد رسول ربّ العالمين فأسلم. قال تميم: فلما أصبحت ذهبت الى دير أيوب فسألت راهباً وأخبرته الخبر. فقال الراهب قد صدقوك يخرج من الحرم ومهاجَره الحرم وهو خير الأنبياء فلا تسبق إليه. قال تميم: فتكلّفت الشخوص حتى جئت رسول الله ﷺ فأسلمت.

وقال حاتم بن إسماعيل عن عبد الله بن يزيد الهذلي، عن عبد الله بن ساعدة الهذلي، عن أبيه، قال: كنّا عند صنمنا سواع، وقد جلبنا إليه غنماً لنا مائتي شاة قد أصابها جَرَب، فأدنيناها منه لنطلب بركته فسمعت منادياً من جوف الصنم ينادي: قد ذهب كيد الجن ورمينا بالشهب لنبي اسمه أحمد. قال فقلت: غويت والله. فصدفت وجه غنمي منجداً الى أهلي فرأيت رجلاً. فخبّرني بظهور النبي ﷺ. ذكره أبو نعيم هكذا معلقاً ثم قال: حدّثنا عمر بن محمد بن جعفر، حدثنا إبراهيم بن السندي، حدثنا النضر بن سلمة، حدثنا محمد بن مسلمة المخزومي، حدثنا يحيى بن سليمان عن حكيم بن عطاء الظفري ـ من بني سليم من ولد راشد بن عبد ربه ـ عن أبيه، عن جدّه، عن راشد بن عبد ربّه قال: كان الصنم الذي يقال له سواع بالمعلاة من رهط تدين له هذيل وبنو ظفر بن سليم، فأرسلت بنو ظفر راشد بن عبد ربّه بهدية من سليم الى سواع قال راشد: فألفيت مع الفجر إلى صنم قبل صنم سواع، فإذا صارخ يصرخ من جوفه: العجب كل العجب من خروج نبي من بني عبد المطلب، يحرّم الزّنى والربا والذبح للأصنام. وحُرِسَت السماء ورُمينا بالشهب العجب كل العجب. ثم هتف صنم آخر من جوفه ترك الضمار وكان يعبد، خرج النبي أحمد، يصلي الصلاة ويأمر بالزكاة والصيام، والبرّ والصلات للأرحام. ثم هتف من جوف صنم آخر هاتف يقول: [الكامل]

إنَّ الَّـذِي وَرِثَ الـنُّـبُـوَّةَ وَالـهُـدَى ... بَـعْـدَ ابْـنِ مَـرْيَـمَ مِـنْ قُـرَيْـشٍ مُـهْـتَـدِ
نَـبِـيٌّ أَتَـى يُـخْـبِـرُ بِـمَـا سَـبَـقَ ... وَبِـمَـا يَـكُـونُ الـيَـوْمَ حَـقّـاً أَوْ غَـدِ

قال راشد: فألفيت سواعاً مع الفجر وثعلبان يلحسان ما حوله، ويأكلان ما يُهدى له، ثم يعوجان عليه ببولهما، فعند ذلك يقول راشد بن عبد ربه: [الطويل]

أَرَبٌّ يَـبُـولُ الـثُّـعْـلُـبَـانُ بِـرَأْسِـهِ ... لَـقَـدْ ذَلَّ مَـنْ بَـالَـتْ عَـلَـيْـهِ الـثَّـعَـالِـبُ

وذلك عند مخرج النبي ﷺ ومهاجرَه إلى المدينة، وتسامع الناس به فخرج راشد حتى أتى النبي ﷺ المدينة ومعه كلب له، واسم راشد يومئذ ظالم، واسم كلبه راشد، فقال النبي ﷺ: «مَا اسْمُكَ؟» قال ظالم. قال: «فَمَا اسمُ كَلْبِكَ؟» قال راشد، قال «اسْمُكَ رَاشِدٌ، وَاسْمُ كَلْبِكَ ظَالِمٌ» وضحك النبي ﷺ. وبايع النبي ﷺ، وأقام بمكّة معه، ثم طلب من رسول الله ﷺ. قطيعة بوهاط ـ ووصفها له ـ فأقطعه رسول الله ﷺ بالمعلاة من وهاط شأو الفرس[1]، ورميته ثلاث مرّات بحجر، وأعطاه إداوة مملوءة من ماء، وتفل فيها وقال له

(١) شأو الفرس: مداها.

«فَرِّغْهَا فِي أَعْلا القَطِيعَةِ، وَلاَ تَمْنَعِ النَّاسَ فَضْلَهَا» ففعل فجعل الماء معيناً يجري إلى اليوم فغرس عليها النخل. ويقال إن وهاط كلّها تشرب منه فسمّاها الناس ماء الرسول ﷺ. وأهل وهاط يغتسلون بها، وبلغت رمية راشد الركب الذي يقال له ركب الحجر، وغدا راشد على سواع فكسره.

وقال أبو نعيم: حدّثنا سليمان بن أحمد، حدّثنا علي بن إبراهيم الخزاعي الأهوازي، حدثنا أبو محمد عبد الله بن داود بن دلهاث بن إسماعيل بن مسرع بن ياسر بن سويد صاحب رسول الله ﷺ، حدّثنا أبي عن أبيه دلهاث، عن أبيه إسماعيل أن أباه عبد الله حدثه عن أبيه مسرع بن ياسر أن أباه ياسر حدّثه عن عمرو بن مرّة الجهني أنه كان يحدث قال: خرجت حاجاً في جماعة من قومي في الجاهلية. فرأيت في المنام وأنا بمكّة نوراً ساطعاً من الكعبة حتى أضاء في جبل يثرب وأشعر جهينة. فسمعت صوتاً في النور وهو يقول: انقشعت الظلماء، وسطع الضياء، وبعث خاتم الأنبياء، ثم أضاء إضاءة أخرى حتى نظرت إلى قصور الحيرة وأبيض المدائن. فسمعت صوتاً في النور وهو يقول: ظهر الإسلام، وكسرت الأصنام، ووصلت الأرحام، فانتبهت فزعاً، فقلت لقومي: والله ليحدثنّ في هذا الحي من قريش حدث، وأخبرتهم بما رأيت. فلما انتهينا إلى بلادنا جاءنا رجل فأخبرنا أن رجلاً يقال له أحمد قد بعث فأتيته فأخبرته بما رأيت فقال «يَا عَمْرَو بْنَ مُرَّةَ إِنِّي الْمُرْسَلُ إِلَى العِبَادِ كَافَّةً أَدْعُوهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، وَآمُرُهُمْ بِحَقْنِ الدِّمَاءِ وَصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَعِبَادَةِ اللَّهِ وَرَفْضِ الأَصْنَامِ، وَحَجِّ البَيْتِ. وَصِيَامِ شَهْرٍ مِنَ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْراً، وَهُوَ شَهْرُ رَمَضَانَ، فَمَنْ أَجَابَ فَلَهُ الجَنَّةُ. وَمَنْ عَصَى فَلَهُ النَّارُ، فَآمِنْ يَا عَمْرُو بْنِ مُرَّةَ يُؤْمِنْكَ اللَّهُ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ» فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. آمنت بكل ما جئت به من حلال وحرام، وإن أرغم ذلك كثيراً من الأقوام، ثم أنشدته أبياتاً قلتها حين سمعت به وكان لنا صنم وكان أبي سادناً له، فقمت إليه فكسرته ثم لحقت النبي ﷺ وأنا أقول: [الطويل]

شَهِدْتُ بِأَنَّ اللَّهَ حَقٌّ وَأَنَّنِي ... لآلِهَةِ الأَحْجَارِ أَوَّلُ تَارِكِ
فَشَمَّرْتُ عَنْ سَاقِي إِزَارَ مُهَاجِرٍ ... إِلَيْكَ أَدبُّ الغَوْرَ بَعْدَ الدَّكَادِكِ
لأَصْحَبَ خَيْرَ النَّاسِ نَفْساً وَوَالِداً ... رَسُولَ مَلِيكِ النَّاسِ فَوْقَ الحَبَائِكِ[1]

فقال النبي ﷺ: «مَرْحَباً بِكَ يَا عَمْرُو بْنَ مُرَّةَ». فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي: ابعث بي إلى قومي، لعلّ الله أن يمنّ بي عليهم كما منّ بك عليّ، فبعثني إليهم وقال: «عَلَيْكَ بِالقَوْلِ السَّدِيدِ وَلاَ تَكُنْ فَظاً وَلاَ مُتَكَبِّراً وَلاَ حَسُوداً» فأتيت قومي فقلت لهم: يا بني رفاعة ثم يا بني جهينة إني رسول من رسول الله إليكم أدعوكم إلى الجنّة، وأحذّركم النار، وآمركم بحقن الدماء، وصلة الأرحام، وعبادة الله، ورفض الأصنام، وحج البيت، وصيام شهر رمضان، شهر من اثني عشر شهراً فمن أجاب فله الجنة. ومن عصى فله النار.

(١) الحبائك: ج حبيكة، وهي الطريقة بين النجوم، والمراد: السموات.

يا معشر جهينة إن الله ـ وله الحمد ـ جعلكم خيار من أنتم منه وبغض إليكم في جاهليتكم ما حبّب إلى غيركم من الرفث، لأنهم كانوا يجمعون بين الأختين، ويخلف الرجل على امرأة أبيه، والتراث[1] في الشهر الحرام. فأجيبوا هذا النبي المرسل ﷺ من بني لؤي بن غالب. تنالوا شرف الدنيا وكرامة الآخرة، سارعوا سارعوا في ذلك يكون لكم فضيلة عند الله. فأجابوا إلاّ رجلاً منهم قام فقال: يا عمرو بن مرّة أمر الله عليك عيشك، أتأمرنا أن نرفض آلهتنا ونفرق جماعتنا بمخالفة دين آبائنا إلى ما يدعو [إليه][2] هذا القرشيّ من أهل تهامة؟ لا ولا مرحباً ولا كرامة، ثم أنشأ يقول: [الكامل]

إِنَّ ابْنَ مُرَّةَ قَدْ أَتَى بِمَقَالَةٍ ... لَيْسَتْ مَقَالَةَ مَنْ يُرِيدُ صَلاَحَا
إِنِّي لأَحْسَبُ قَوْلَهُ وَفِعَالَهُ ... يَوْماً وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ رِيَاحَا
أَتُسَفِّهُ الأَشْيَاخَ مِمَّنْ قَدْ مَضَى ... مَنْ رَامَ ذَلِكَ لاَ أَصَابَ فَلاَحَا

فقال عمرو بن مرة: الكاذب مني ومنك أمرّ الله عيشه، وأبكم لسانه، وأكمه بصره. قال عمرو بن مرّة والله ما مات حتى سقط فوه، وكان لا يجد طعم الطعام، وعمي وخرس. وخرج عمرو بن مرّة ومن أسلم من قومه حتى أتوا النبي ﷺ، فرحّب بهم وحباهم، وكتب لهم كتاباً هذه نسخته: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ الله بِكِتَابٍ صَادِقٍ، وَحَقٍّ نَاطِقٍ، مَعَ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ الْجُهَنِي لِجُهَيْنَةَ بْنَ زَيْدٍ إِنَّ لَكُمْ بُطُونَ الأَرْضِ وَسُهُولَهَا، وَتِلاَعَ الأَوْدِيَةِ وَظُهُورَهَا، تَرْعَوْنَ نَبَاتَهُ وَتَشْرَبُونَ صَافِيَهُ. عَلَى أَنْ تُقِرُّوا بِالخُمُسِ، وَتُصَلُّوا الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، وَفِي التَّبِعَةِ وَالصَّرِيمَةِ شَاتَانِ إِنْ اجْتَمَعَتَا، وَإِنْ تَفَرَّقَتَا فَشَاةٌ شَاةٌ. لَيْسَ عَلَى أَهْلِ المَيْرَةِ صَدَقَةٌ، لَيْسَ الوَرْدَةَ اللَّبِقَةَ». وشهد من حضرنا من المسلمين بكتاب قيس بن شماس رضي الله عنهم. وذلك حين يقول عمرو بن مرّة: [الطويل]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَظْهَرَ دِينَهُ ... وَبَيَّنَ بُرْهَانَ القُرْآنِ لِعَامِرِ
كِتَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ نُورٌ لِجَمْعِنَا ... وَأَحْلاَفِنَا فِي كُلِّ بَادٍ وَحَاضِرِ
إِلَى خَيْرِ مَنْ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ كُلِّهَا ... وَأَفْضَلِهَا عِنْدَ اعْتِكَارِ الضَّرَائِرِ[3]
أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ لَمَّا تَقَطَّعَتْ ... بُطُونُ الأَعَادِي بِالظُّبَى وَالخَوَاطِرِ
فَنَحْنُ قَبِيلٌ قَدْ بَنَى المَجْدَ حَوْلَنَا ... إِذَا اجْتُلِيَتْ فِي الحَرْبِ هَامُ الأَكَابِرِ
بَنُو الحَرْبِ نَفْرِيهَا بِأَيْدٍ طَوِيلَةٍ ... وَبِيضٍ تَلاَلاَ فِي أَكُفِّ المَغَاوِرِ
تَرَى حَوْلَهُ الأَنْصَارَ تَحْمِي أَمِيرَهُمْ ... بِسُمْرِ العَوَالِي وَالصِّفَاحِ البَوَاتِرَ

(١) التراث: العيوب.

(٢) سقط في ط.

(٣) اعتكار الضرائر: تمازج الأصول: يعني أنه أصفى الناس أصلاً.

إِذَا الحَرْبُ دَارَتْ عِنْدَ كُلِّ عَظِيمَةٍ   وَدَارَتْ رَحَاهَا بِاللُّيُوثِ الهَوَاصِرِ
تَبَلَّجَ مِنْهُ اللَّوْنُ وَازْدَادَ وَجْهُهُ   كَمِثْلِ ضِيَاءِ البَدْرِ بَيْنَ الزَّوَاهِرِ

وقال أبو عثمان سعيد بن يحيى الأموي في مغازيه: حدثنا عبد الله، حدثنا أبو عبد الله، حدثنا المجالد بن سعيد والأجلح عن الشعبي، حدّثني شيخ من جهينة قال: مرض منا رجل مرضاً شديداً فثقل حتى حفرنا له قبره وهيأنا أمره فأغمي عليه، ثم فتح عينيه وأفاق فقال: أحفرتم لي؟ قالوا: نعم، قال: فما فعل الفَصَل - وهو ابن عم له - قلنا صالح مرّ آنفاً يسأل عنك، قال أما إنه يوشك أن يجعل في حفرتي أنه أتاني آت حين أغمي علي فقال أبكِ هبل؟ أما ترى حفرتك تنتثل[1]، وأمك قد كادت تثكل؟ أرأيتك أن حولناها عنك بالمحول، ثم ملأناها بالجندل، وقذفنا فيها الفصل، الذي مضى فأجزاك، وظنّ أن لن يفعل، أتشكر لربّك، وتصلّ وتدع دين من أشرك وضلّ قال قلت: نعم. قال: قم قد برئت. قال فبرىء الرجل. ومات الفصل فجعل في حفرته. قال الجهيني: فرأيت الجهيني بعد ذلك يصلّي ويسب الأوثان ويقع فيها.

وقال الأموي: حدثنا عبد الله قال بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مجلس يتحدثون عن الجنّ، فقال خريم بن فاتك الأسدي: ألا أحدّثك كيف كان إسلامي؟ قال: بلى، قال: إني يوماً في طلب ذود لي أنا منها على أثر تنصب وتصعد، حتى إذا كنت بأبرق العراق أنخت راحلتي وقلت أعوذ بعظيم هذه البلدة، أعوذ برئيس هذا الوادي، فإذا بهاتف يهتف بي: [الرجز]

وَيْحَكَ، عُذْ بِاللَّهِ ذِي الجَلاَلِ   وَالمَجْدِ وَالعَلْيَاءِ وَالإِفْضَالِ
ثُمَّ اتْلُ آيَاتٍ مِنَ الأَنْفَالِ   وَوَحِّدِ اللَّهَ وَلاَ تُبَالِي

قال فذعرت ذعراً شديداً، ثم رجعت إلى نفسي فقلت: [الرجز]

يَا أَيُّهَا الهَاتِفُ مَا تَقُولُ   أَرَشَدٌ عِنْدَكَ أَمْ تَضْلِيلُ؟
بَيِّنْ هَدَاكَ اللَّهُ مَا الحَوِيلُ[2]

قال فقال: [الرجز]

هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ذُو الخَيْرَاتِ   بِيَثْرِبٍ يَدْعُو إِلَى النَّجَاةِ
يَأْمُرُ بِالبِرِّ وَبِالصَّلاَةِ   وَيَزَعُ النَّاسَ عَنِ الهَنَاتِ[3]

قال قلت له: والله لا أبرح حتى آتيه وأومن به، فنصبت رجلي في غرز راحلتي وقلت: [الرجز]

(١) تنتثل: يقال نثل الحفرة: استخرج ترابها.
(٢) الحويل: الرشد والصواب.
(٣) الهنات: الدواهي.

أَرْشِدْنِي أَرْشِدْنِي هُدِيتَا   لاَ جُعْتَ مَا عِشْتَ وَلاَ عَرِيتَا
وَلاَ بَرِحْتَ سَيِّداً مَقِيتَا   لاَ تُؤْثِرُ الخَيْرَ الَّذِي أُتِيتَا
عَلَى جَمِيعِ الجِنِّ مَا بَقِيتَا

فقال: [الرجز]

صَاحَبَكَ اللَّهُ وَأَدَّى رَحْلَكَا   وَعَظَّمَ الأَجْرَ وَعَافَى نَفْسَكَا
آمِنْ بِهِ أَفْلَجَ رَبِّي حَقَّكَا   وَانْصُرْهُ نَصْراً عَزِيزاً نَصْرَكَا

قال قلت: من أنت عافاك الله، حتى أخبره إذا قدمت عليه؟ فقال: أنا ملك بن ملك، وأنا نقيبه على جنّ نصيبين وكفيت إبلك حتى أضمّها إلى أهلك إن شاء الله. قال فخرجت حتى أتيت المدينة يوم الجمعة والناس إرسال إلى المسجد والنبي ﷺ على المنبر كأنه البدر يخطب الناس، فقلت أنيخ على باب المسجد حتى يصلي وأدخل عليه، فأسلّم وأخبره عن إسلامي، فلما أنخت خرج إليّ أبو ذر فقال: مرحباً وأهلاً وسهلاً قد بلغنا إسلامك، فادخل فصلّ، ففعلت، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرني بإسلامي. فقلت الحمد لله. قال **«أَمَا إِنَّ صَاحِبَكَ قَدْ وَفَى لَكَ وَهُوَ أَهْلُ ذَلِكَ، وَأَدَّى إِبِلَكَ إِلَى أَهْلِكَ»**.

وقد رواه الطبراني في ترجمة خريم بن فاتك من معجمه الكبير قائلاً: حدثنا الحسين بن إسحاق اليسيري، حدثنا محمد بن إبراهيم الشامي، حدثنا عبد الله بن موسى الإسكندري، حدثنا محمد بن إسحاق عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال قال: خريم بن فاتك لعمر بن الخطاب يا أمير المؤمنين ألا أخبرك كيف كان بدء إسلامي، قال: بلى! فذكره غير أنه قال فخرج إلي أبو بكر الصديق فقال أدخل، فقد بلغنا إسلامك، فقلت لا أحسن الطهور، فعلّمني فدخلت المسجد فرأيت رسول الله ﷺ كأنه البدر وهو يقول **«مَا مِنْ مُسْلِمٍ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ثُمَّ صَلَّى صَلاَةً يَحْفَظُهَا وَيَعْقِلُهَا إلاَّ دَخَلَ الجَنَّةَ»** فقال لي عمر لتأتينّي على هذا بيّنة أو لأنكلن بك، فشهد لي شيخ قريش عثمان بن عفان فأجاز شهادته، ثم رواه عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن محمد بن تيم عن محمد بن خليفة عن محمد بن الحسن، عن أبيه قال قال عمر بن الخطاب لخريم بن فاتك: حدثني بحديث يعجبني فذكر مثل السياق الأول سواء.

وقال أبو نعيم: حدّثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أبو عبد الملك أحمد بن إبراهيم القرشي الدمشقي، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن ابن بنت شرحبيل، حدثنا إسماعيل بن عياش عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني، عن عبد الله بن الديلمي قال: أتى رجل ابن عبّاس فقال: بلغنا أنك تذكر سطحياً تزعم أن الله خلقه، لم يخلق من بني آدم شيئاً يشبهه؟ قال قال: نعم إن الله خلق سطحياً الغسّاني لحماً على وضم[1] ولم يكن فيه عظم ولا عصب إلاّ الجمجمة، والكفان. وكان يطوي من رجليه إلى ترقوته كما يطوي الثوب، ولم يكن فيه

(١) الوضم شرائح من جريد النخل.

شيء يتحرّك إلاّ لسانه. فلما أراد الخروج إلى مكّة حمل على وضمة فأتي به مكّة، فخرج إليه أربعة من قريش عبد شمس، وهاشم ابنا عبد مناف بن قصي، والأحوص بن فهر، وعقيل بن أبي وقاص فانتموا إلى غير نسبهم وقالوا: نحن أناس من جمع أتيناك بلغنا قدومك، فرأينا أن إتياننا إياك حقّ لك واجب علينا وأهدى إليه عقيل صفيحة هندية، وصعدة ردينية، فوضعت على باب البيت الحرام لينظروا، أهل يراها سطيح أم لا. فقال: يا عقيل ناولني يدك فناوله يده فقال: يا عقيل والعالم الخفية، والغافر الخطية، والذمة الوفية، والكعبة المبنية، إنك للجائي بالهدية، الصفيحة الهندية، والصعدة الردينية. قالوا صدقت يا سطيح، فقال: والآتي بالفرح، وقوس قزح، وسائر الفرح، واللطيم المنبطح، والنخل والرطب والبلح، إن الغراب حيث مرّ سنح، فأخبر أن القوم ليسوا من جُمَح، وإن نسبهم من قريش ذي البطح، قالوا صدقت يا سطيح نحن أهل البيت الحرام، أتيناك لنزورك لما بلغنا من علمك. فأخبرنا عما يكون في زماننا هذا، وما يكون بعده فلعلّ أن يكون عندك في ذلك علم، قال: الآن صدقتم، خذوا مني ومن إلهام الله إياي، أنتم يا معشر العرب في زمان الهرم، سواء بصائركم وبصائر العجم، لا علم عندكم ولا فهم، وينشو من عقبكم ذوو فهم، يطلبون أنواع العلم، فيكسرون الصنم، ويبلغون الردم، ويقتلون العجم، يطلبون الغنم، قالوا يا سطيح فمن يكون أولئك؟ فقال لهم: والبيت ذي الأركان، والأمن والسكان لينشؤون من عقبكم ولدان يكسرون الاصنام[1]، وينكرون عبادة الشيطان، ويوحدّون الرحمن، وينشرون دين الديان، ويشرفون البنيان، ويستفتون الفتيان، قالوا: يا سطيح من نسل من يكون أولئك؟ قال: وأشرف الأشراف، والمفضي للأشراف، والمزعزع الأحقاف[2]، والمضعف الأضعاف، لينشؤون الآلآف من عبد شمس وعبد مناف، نشوءاً يكون فيه اختلاف. قالوا يا سوءتاه يا سطيح مما تخبرنا من العلم بأمرهم ومن أي بلد يخرج أولئك؟ فقال والباقي الأبد، والبالغ الأمد، ليخرجن من ذا البلد، فتى يهدي إلى الرشد يرفض يغوث والفند، يبرأ من عبادة الضدد، يعبد رباً انفرد، ثم يتوفاه الله محموداً، من الأرض مفقوداً، وفي السماء مشهوداً، ثم يلي أمره الصديق إذا قضى صدق، في رد الحقوق لا خرق ولا نزق ثم يلي أمره الحنيف، مجرّب غطريف، ويترك قول العنيف. قد ضاف المضيف. وأحكم التحنيف. ثم يلي أمره داعياً لأمره مجرباً، فتجتمع له جموعاً وعصباً، فيقتلونه نقمة عليه وغضباً، فيؤخذ الشيخ فيذبح أرباً فيقوم به رجال خطباً. ثم يلي أمره الناصر يخلط الرأي برأي المناكر يظهر في الأرض العساكر ثم يلي بعده ابنه يأخذه جمعه ويقل حمده. ويأخذ المال ويأكل وحده، ويكثر المال بعقبه من بعده، ثم يلي من بعده عدّة ملوك لا شكّ الدم فيهم مسفوك، ثم بعدهم الصعلوك يطويهم كطي الدرنوك[3]. ثم يلي من بعده عظهور[4] يقصي الحق

(١) في ط الأوثان.
(٢) الأحقاف: المعوج من الرمل.
(٣) الدرنوك: نوع من البسط أو الثياب له خمل.
(٤) عظهور: الفاجر السيء الخلق.

ويدني مصر يفتتح الأرض افتتاحاً منكراً، ثم يلي قصير القامة، بظهره علامة يموت موتاً وسلامة. ثم يلي قليلاً باكر، يترك الملك بائر يلي أخوه بسنته سابر[1]، يختصّ بالأموال والمنابر ثم يلي من بعده أهوج، صاحب دنيا ونعيم مخلج، يتشاوره معاشر وذووه، ينهضون إليه يخلعونه بأخذ الملك ويقتلونه، ثم يلي أمره من بعد السابع، يترك الملك محلاً ضائع، بنوه في ملكه كالمشوه جامع، عند ذلك يطمع في الملك كل عريان، ويلي أمره اللهفان. يرضى نزاراً جمع قحطان، إذا التقيا بدمشق جمعان بين بنيان ولبنان، يصنف اليمن يومئذ صنفان. صنف المشورة، وصنف المخذول. لا ترى إلا حباء محلول. وأسيراً مغلول. بين القراب والخيول. عند ذلك تخرب المنازل وتسلب الأرامل، وتسقط الحوامل وتظهر الزلازل، وتطلب الخلافة وائل، فتغضب نزار فتدني العبيد والأشرار، وتقصي الأمثال والأخيار. وتغلو الأسعار في صفر الأصفار يقتل كل حياً منه، ثم يسيرون إلى خنادق وإنها ذات أشعار وأشجار تصد له الأنهار ويهزمهم أول النهار، تظهر الأخيار فلا ينفعهم نوم ولا قرار. حتى يدخل مصراً من الأمصار، فيدركه القضاء والأقدار. ثم يجيء الرماة تلف مشاة، لقتل الكماة، وأسر الحماة. وتهلك الغواة هنالك يدرك في أعلى المياه. ثم يبور الدين، وتقلب الأمور، وتكفر الزبور، وتقطع الجسور، فلا يفلت إلاّ من كان في جزائر البحور، ثم تبور الحبوب، وتظهر الأعاريب ليس فيهم معيب على أهل الفسوق والريب في زمان عصيب، لو كان للقوم حياً، وما تغني المنى. قالوا: ثم ماذا يا سطيح؟ قال ثم يظهر رجل من أهل اليمن كالشطن[2]، يذهب الله على رأسه الفتن.

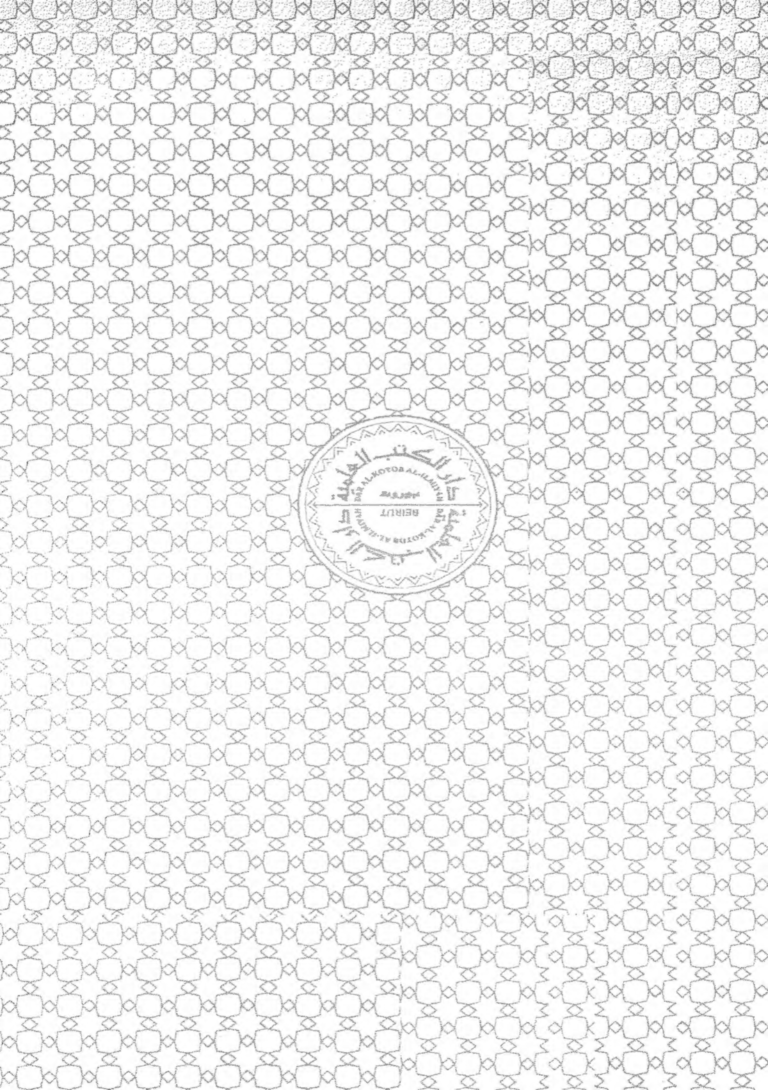
وهذا أثر غريب كتبناه لغرابته وما تضمن من الفتن والملاحم. وقد تقدّم قصة شق وسطيح مع ربيعة بن نصر ملك اليمن، وكيف بشّر بوجود رسول الله ﷺ وكذلك تقدم قصّة سطيح مع ابن أخته عبد المسيح حين أرسله ملك بني ساسان، لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان. وذلك ليلة مولد الذي نسخ بشريعته سائر الأديان.

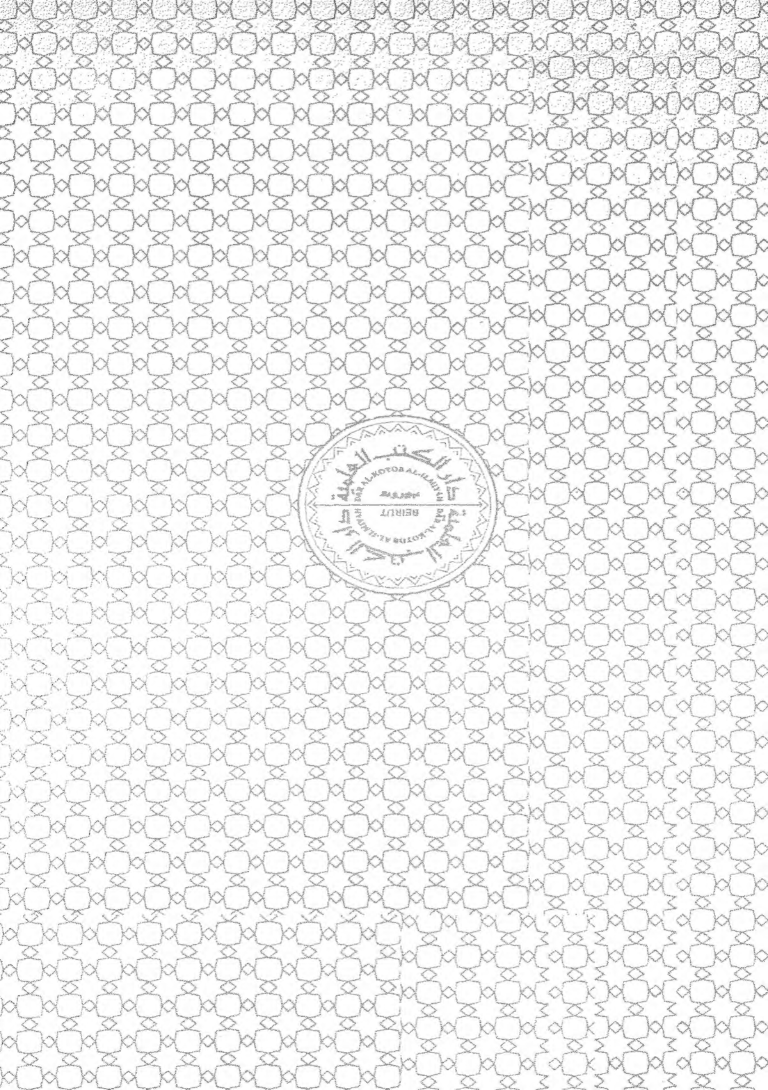
---

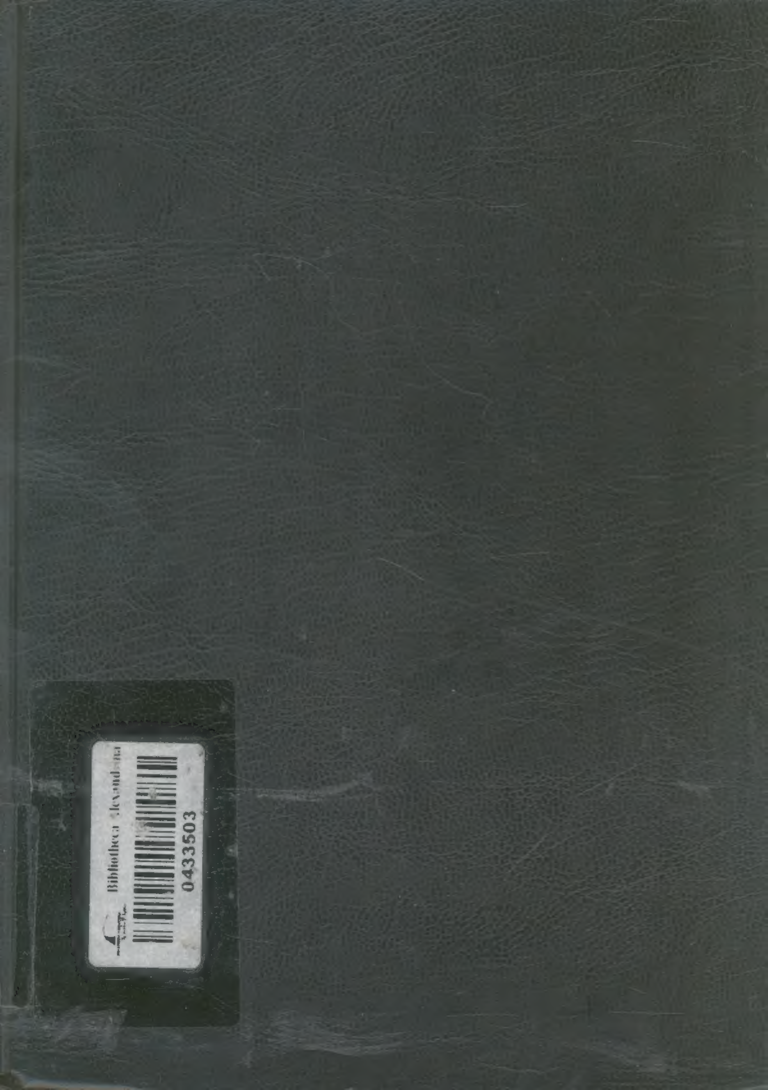
(١) سابر: واضح.

(٢) الشطن: الحبل الطويل.

فهرس المحتويات


دار الكتب العلمية
DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH


دار الكتب العلمية
DĀR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
بيروت
BEIRUT


Bibliotheca Alexandrina
0433503